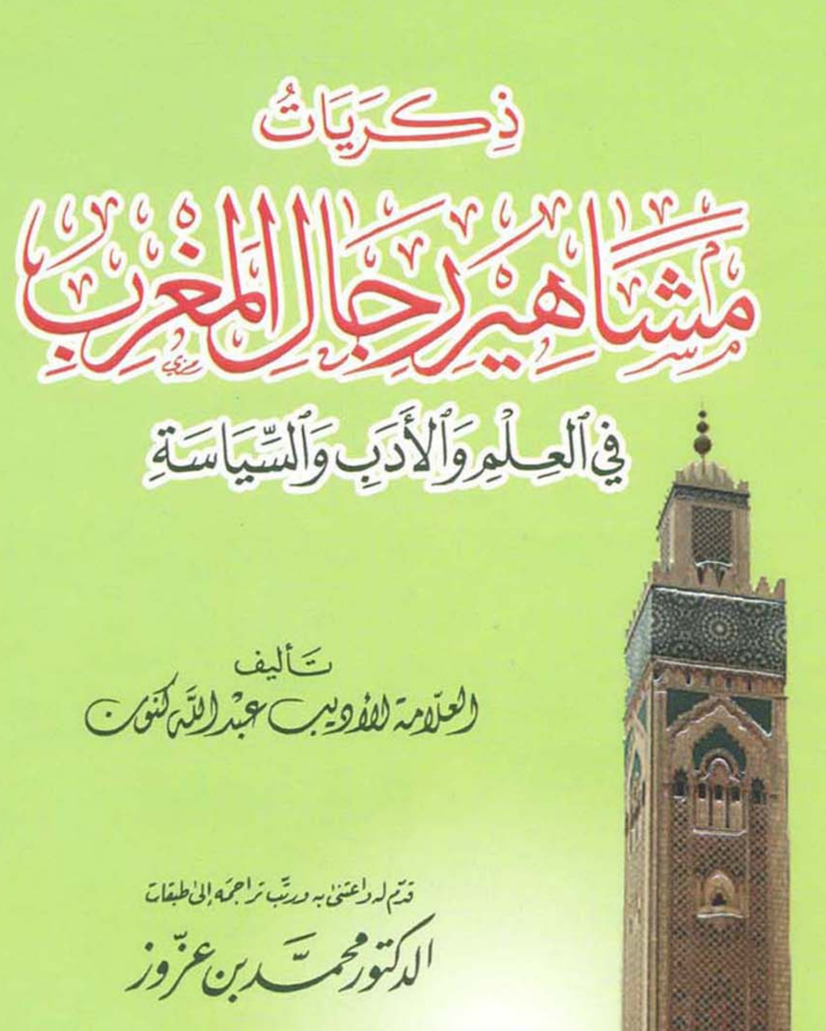


ذكريات مشاهير رجال المغرب

في العلم والأدب والسياسة

تأليف

العلامة الأديب عبد الله كنون

قدم له واعتنى به ورتب تراجمه إلى طبقات

الدكتور محمد بن عزوز

الجزء الأول

في العلم

دار ابن حزم

مركز التراث الثقافي المغربي



تأليف

العلامة الأديب عبد الله كنون

قدم له واعتنى به ورتب تراجمه إلى طبقات

الدكتور محمد بن عزوز

الجزء الأول
في العلم

مركز التراث الثقافي المغربي		دار ابن حزم

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ - ٢٠١٠م



ISBN 978-9953-81-857-3

مركز التراث الثقافي المغربي
الدار البيضاء - 52 شارع القسطلاني - الأحباس
هاتف: 442931 - 022/ فاكس: 442935 - 022
المملكة المغربية

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - ص.ب: 14/6366
هاتف وفاكس: 701974 - 300227 (009611)
بريد إلكتروني: ibnhazim@cyberia.net.lb

كلمة التقديم

رب يسّر وأعن

الحمد لله ولي المتقين الصالحين، والصلاة والسلام التامان الدائمان على رسول الهدى وإمام التُّقى المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن مما امتازت به الأمة الإسلامية تخليد مآثر السلف، بجمع أخبارهم، وتدوين سيرهم، ونشر مناقبهم، وبيان مواضع الأسوة والقدوة فيهم، وذلك وفاء لهم بما قدموه للأمة من جلائل الأعمال. كما أن تدوين سير هؤلاء الأئمة السادة يعتبر ضرورة حضارية لاستمرار وجودنا، وربط أبنائنا بماضي سلفنا الصالح للانتفاع بهديهم، والسير على نهجهم، ومتابعة التأصيل على ما شيّدوه، والبناء على أركانه الأصيلة، وقاعدته الراسخة.

ومن الظواهر الطيبة في هذا العصر أن نجد جمهرة من الكتاب والباحثين قد تسابقت أقلامهم في الكتابة عن أعلام الأمة وقادتها وهداتها في العلم والأدب والسياسة. . .

ومن هؤلاء العلامة الأديب عبدالله كنون الذي يُعد من عِلية علماء المغرب وأدبائه البارزين في القرن العشرين، فقد دفعه نبوغه وبروره للحنين إلى أدب وطنه المغربي الغابر، والكشف عن شخصياته البارزة فيه لهذا الجيل الحاضر، لا سيما والمغرب كما عُلِم حتى في أوقات نضوجه لم يُعن قادته وكتابه بتدوين حياة رجالاته العلمية والأدبية كما ينبغي، وإيرادها بصفة تحليلية مجلوة كالمرآة الصافية تظهر للأجيال بعدهم ما انطوت عليه حياة أولئك الماضيين لتكون لهم عظة وأسوة حسنة وعبرة.

ولقد أدرك العلامة عبدالله كنون منذ البداية ما كان يعانيه تاريخ المغرب وأدبه وحضارته من تهميش وإهمال، فانصرف إلى تأليف (النبوغ المغربي في الأدب العربي) و(ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة) ليدافع عن تاريخ المغرب وأدبه، وليجلو الصدأ الذي علا سطح كل دراسة هدفت إلى الإساءة إلى المغرب عن قصد أو عن غير قصد.

وإليك نماذج من جهل بعض المشارقة لتاريخ المغرب وأدبه ورجاله:

ـ يقول العلامة المحقق محمد بن تاويت الطنجي[1] عند تعليقه على الطبعة الثانية لكتاب (النبوغ المغربي): «لما توجهت إلى مصر في طلب العلم سنة ثمان وثلاثين، ما

---

(١) مجلة البحث العلمي ـ السنة ١٢ ـ عدد: ٢٤ ربيع الثاني ١٣٩٥هـ/ أبريل ١٩٧٥م ـ ص: ١٧٧ ـ ١٧٨.

تزودت بكتاب من المغرب، عدا كتاب (النبوغ المغربي) لأني وأنا ناو الالتحاق بكلية الآداب، توقعت أن أنال في أدب قومي، وأنا حديث العهد، وفعلاً، فقد وقع ما توقعت، إذ سمعت من أستاذنا مصطفى السقا رحمه الله، وهو يلقي علينا درساً في الأدب، أن الأدب العربي الحق إنما نبض بالحياة في الشرق أما المغرب فلا..

لقد استأت لهذه الكلمة، ولما توجهت إلى المنزل، كان أول عمل لي، أني كتبت إلى مؤلف النبوغ رسالة أخبره بما حصل من أستاذنا، ثم تناولت الكتاب، فحملته إلى أستاذنا رحمه الله، بعدما حملت الرسالة إلى مكتب البريد مباشرة.

ولم تمض بضعة أيام، حتى قال لي الأستاذ: إني قرأت الكتاب - الذي أهدانيه صاحبك - فوجدته - فالصو - أو كما قال ليرحمه الله. وهكذا ضعت في زادي الوحيد، وكنت به ضنيناً فاحتسبته غير مشكور، وسمعت ما زاد في غمي، ولم أكن قد قصدته..

ثم وردت علي رسالة من المؤلف السيد عبدالله كنون، فكانت بلسماً لنفسي، بعدما أصيبت بجراحها البليغة، وهو ما جعلني من غير وعي مني أحتفظ بها حتى الآن، لطرافتها ولطفها وجوها.. وهذه صورة الرسالة:

الحمد لله وحده،   وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

طنجة ٣٠ ربيع الثاني ١٣٥٨

الأخ الفاضل الأديب الكامل الأستاذ الشريف سيدي محمد ابن تاويت

سلام عليكم ورحمة الله

وبعد، فقد حظيت بخطابكم، وشكرت لكم حسن ظنكم بي، وخجلت من فرط ثنائكم علي بورك فيكم، وشكر الله فضلكم، وإني أيها العزيز لمستعد لمساعدة ذلك الأستاذ بما في جهدي، وما تصل إليه يدي من معلومات وكتب وغير ذلك مما يفيده في هذا الباب وإني أعرف ذلك الأستاذ من كتبه، فما بي حاجة إلى التعريف به، غير أني لست بصدد الكتابة الآن إلى أحد، لأنه من كثرة ما ساومنا خلاف هذا الأستاذ على المودة والإخلاص ثم قاطعونا بلا موجب بعد أن قضوا لبناتهم فلم يعودوا يتفضلوا حتى بالجواب عن رسائلنا إليهم من كثرة ما وقعنا في أغلاط مثل هذه عزمت على أن لا أعود لمفاتحة أحد بخطاب، ولا أكتب له إلا جواباً عن كتاب، وهذا لا يعني أني لا أقوم بالواجب الذي يقتضيه خدمة العلم، والتعاون على نفض الغبار عن آثارنا الضائعة مع أي شخص كان، وأنت ربما تتعجب من هذا أو تلوم لكن إذا قدر لك أن تجرب مثل تجاربي في هذا الشأن، فلا بد أنك ستعذرني، فكم من أوقات وأتعاب ونفائس ضاعت لنا في هذا السبيل عند من لم يرع لنا فيها يداً، ولا عرف فضلاً، لكن لا يذهب العرف بين الله والناس. أكرر لكم مرة أخرى أني مستعد لمجاوبة الأستاذ عما يريد مما يتعلق بالقطر المغربي أو الأندلس إذا كان في الإمكان وتصل إليه اليد مع السلام عليه وعلى جميع الإخوان من الرفقاء ومن حضر والسلام.

المخلص: عبدالله كنون

ومن نماذج جهل المشارقة لتاريخ المغرب وآدابه ما نقله لنا الأستاذ أحمد الشايب في لقائه مع عبدالله گنون، نشرته مجلة (دراسات)[1] بعنوان: «آخر لقاء مع عبدالله گنون» فقال رحمه الله تعالى عن تهميش المشارقة لتاريخ المغرب ورجاله وحضارته:

«لما كنت أطالع الكتب التي ألفها المشارقة في تاريخ الأدب العربي، وأنا طالب في الثانوي ككتاب زيدان، وكتاب الرافعي وغيرهما، وكنت أستشكل ألا يكون للمغرب ذكر في هذه المصنفات، وكنت أشعر بنوع من الغبن نحو هذا القطر العربي الذي ساهم منذ القدم في بناء صرح الحضارة العربية الإسلامية. فقد يذكر هؤلاء المؤرخون تونس والقيروان والأندلس، ولا يذكرون فاس ومراكش بقليل أو كثير، وهذا الإهمال جعلني أهتم بالموضوع أكثر، ودفعني إلى التفكير في رد الاعتبار لأدب وتاريخ هذا القطر، فبدأت البحث والتنقيب، وجمعت المادة من المصادر وأغلبها مخطوط، فوجدت نفسي وأنا في المراحل الأولى من البحث أمام أدب جيد لا يقصُر في مادته عن الأدب العربي في المشرق، ولما جمعت تلك المادة وراجعتها مراراً، وتخيرت منها الجيد، صح

---

(١) تصدرها كلية الآداب بأكادير ـ عدد ٥ سنة ١٩٩١م ـ وكان هذا اللقاء بطنجة بمنزل عبدالله گنون يوم الأربعاء في دجنبر ١٩٨٨م. ودام حوالي نصف ساعة.

عندي أن تكون خميرة لوضع دراسة على الشكل الذي وضعت عليه الدراسات الأدبية في المشرق، وتصبح ذيلاً وإلحاقاً بتلك الكتب، فكان لا بد أن تأخذ شيئاً من منهجيتها».

ولعل أهم الدوافع التي جعلت عبدالله گنون يعمل على إبراز مكانة الأدب المغربي والتعريف برجاله هو ما كان يقوم به الاستعمار الفرنسي من طمس للهوية المغربية وإبعاد المسلمين عن دينهم وشريعتهم، فتصدى لهم عبدالله گنون وقاومهم بكتابيه (النبوغ المغربي) و(ذكريات مشاهير رجال المغرب)، يقول عبدالله گنون:

«كان المغرب في الوقت الذي صدر فيه كتاب «النبوغ» يعاني من تسلط سياسة الاستعمار، وكان دور هذه السياسة أن تطمس جميع جهود التقدم والتفتح والتطور الأدبي. خصوصاً لما تربط هذه الجهود بخدمة اللغة العربية التي سعى الاستعمار إلى محاربتها فقد كان الاستعمار ينظر إلى المغرب على أنه بلاد بربرية من القمة إلى القدم وكنت أحرص على أن أظهر أن هذه البربرية لا تأثير لها في الإنتاج الأدبي لأبناء هذا القطر ولا تُشكل أية عرقلة أمام نبوغهم لا سيما وأن الأندلس بلاد ليست بالعربية ولا بالبربرية ومع ذلك نبغ فيها علماء وأدباء كبار، بل إن نبوغ البربر وتفتق ألسنتهم بلغة الضاد كان مبكراً وهذا برهان على خطإ ادعاءات الاستعمار، ومن أمثلة ذلك طارق بن زياد وسابق البربري. . . إلخ.

بالإضافة إلى الدفاع عن العربية التي أدخلتها في اعتباري وأنا أكتب «النبوغ» هناك محاربة الفرنسية والفكر الإلحادي أو العلمانية كما يسمونها. فقد كان التلاميذ في فترة الاستعمار يجلسون في المدارس التي أنشأها، أمام أساتذة ملحدين يبثون الفكر الإلحادي، أولهم موقف من الإسلام. لهذا كنت أحرص على أن أحارب هذه التيارات كلها، أحارب الفرنسية في الوقت الذي لم يشعر فيه الناس بخطرها، بل كانوا يتهافتون على أغلب هذه المدارس ويظنون أن إدخال الولد إلى الكتاب القرآني وتلقيه العلوم الدينية لا يكفي لحمايته. وكان الفرنسيون أذكى منا، كانوا لا يتشددون في قضية السن ويقبلون تلاميذ تصل أعمارهم إلى ١٥ أو ١٨ سنة، وكانت نتيجة هذا التعليم أن أبعدوا بعض التلاميذ عن الناحية الدينية وتركوهم متذبذبين وهذه وصية المبشرين الذين يقولون: إن نقل المسلم من الإِسلام إلى المسيحية مباشرة من الصعوبة بمكان، بل ثم وساطة وهي أن ننقله من الإِسلام إلى الإِلحاد. وفي الإِلحاد لما يشعر بالخواء الروحي وبالعطش الروحي نبث فيه المسيحية، والحمد لله فالمسيحية لم تنتشر إلا نادراً جداً، لكن بقي بعض التلاميذ مذبذبين في هذه الناحية، وللأسف فهذه النزعة الفرنسية ما تزال قائمة.

فأنا هذه التيارات كلها كنت أقاومها ويمكن أن يلاحظ القارئ ذلك في كل طبعات الكتاب.

ففي الطبعة الأولى للنبوغ كنت أقاوم النزعة البربرية، وفي الطبعة الثانية كنت أقاوم مسألة تجزئة المغرب، فقد

كانت قضية موريتانيا مطروحة، وأنا كنت أحضر للفكرة بطريقة غير مباشرة، فأرخت لشعراء موريتانيين، أنا لا أسميهم موريتانيين وإنما أسميهم شنقيطيين...».

- منهجية العلامة عبدالله گنون في كتابه (ذكريات مشاهير رجال المغرب):

يتحدث العلامة عبدالله گنون عن منهجيته في كتاب (ذكريات مشاهير رجال المغرب) من خلال مقدمة الحلقة الأولى الخاصة بعبدالعزيز الفشتالي، ص: ٨ ـ ٩. فقال:

«تحيَّة الأحياء للأموات أو قل تحيَّة الخَلَف للسلَف هي أن يذكروهم ويُمجِّدوا ذكراهم، وردُّ هؤلاء للتحيَّة هو ما ينشأ عن ذكرهم من إحساس بالكرامة وشعور بالمجد وما توحيه الذكرى الجميلة من معاني الائتساء والاقتداء...

ولذلك فإن الشعوبَ ذاتَ التاريخ والمجد لا تضمحل ولا تبيد، وإن امتداد حياتها في المستقبل هو على قدر امتدادها في الماضي، فإذا ما طرأ عليها ضعف أو فتور فإنه سُرعانَ ما يزول بالذكرى والاعتبار ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

والمغرب هو أحد الشعوب العربيّة الإسلاميّة، التي أَثَّلَتْ مجداً وحضارةً وضربت بسهم فائز في ميدان العلم والسياسة. ثم قعدت به الجدودُ العوائر عن مجاراة الأحياء وسنن الكون فوجب تنبيهه إلى ما كان له من عزٍّ وكمال، ونفخُ روح الحفاظ والحَمِيَّة فيه.

وقد أثرنا من ذلك كامناً وحركنا ساكناً بكتاب «النبوغ» الذي أبرزنا فيه نواحي العظمة في تاريخ المغرب الفكري والسياسي، وكان له أثر عظيم في تنبيه مواطنينا الأعزاء ـ قبل غيرهم ـ إلى هذا المجهود الكبير الذي بذله المغرب في سبيل إثبات شخصيته والمحافظة على كيانه أمام المؤثِّرات القوية التي حاولت مراراً أن تمحوَه من صحيفة الوجود.

والآن أردنا أن نتوسَّع في عرض الشخصيات التي كان لها أثر محسوس في هذا الصراع الحيويّ والتي فازت بإكْليل الغار؛ فبقي ذكرها محفوظاً في صدور الدفاتر وإن مُحِيَ من صدور الناس، إلا قليلاً من قليل.

وذلك أن «النبوغ» كان كتاباً جامعاً ودراسةً محيطةً بالشاذَّة والفاذَّة، وكان لكل فصل فيه مقدّمات يُراد منها الوصول إلى نتائج فلم يتأتَّ التوسُّعُ في باب منه دون باب. وقد بقيت في النفس حاجات متعلِّقة بتراجم الأشخاص المذكورين فيه، خصوصاً المشهورين منهم والذين يُوحِي تتبع تراجمهم بمعانيَ من السموِّ النفسيّ والفخر الأدبي، هي غاية المراد ومنتهى القصد؛ فأردنا استيفاء تلك الحاجات على حسب الوسع وقدر الإمكان.

على أننا لا نَعِدُ بكتابة تراجم علميّة لهؤلاء الأشخاص، قائمة على التحليل ومستوفية للأغراض الواجبة في هذا الصدد، لأن المصادر تُعْوِزُنا كثيراً. وما جمعناه من الأخبار والآثار على كونه أكثر مما جَمعه أيُّ ديوان عن هؤلاء الأفراد ـ ومنهم من لم يكن أحدٌ يَعرِفُ أنه مغربي

أصلاً - فإنه لا يكفي لكتابة حياة Biografia لواحد منهم ولهذا السبب دعونا هذا الكتاب ذكريات مشهوري رجال المغرب، ولم ندعه تراجم.

وقد نهجنا في كتابته منهاجاً أدَبيّاً بديعاً، فأنت تقرأ الترجمة وكأنك تقرأ قصة متسلسلة الفصول؛ فلا تشعر بسأم ولا ملل من سياق النقول ولا من تحقيق الأقوال ومناقشة الآراء ودفْع الشُّبَه. وحرَصْنا فيه ما أمكن على سلاسة العبارة وطلاوة الأسلوب وإبراز حرارة النكتة واستثارة روح الإعجاب، مع الأمانة والصدق وعدم الغلو في مدح أو تقدير شيء من الأشياء. وذلك لأن الكتاب إذا خلا من هذه الأمور وكان الأسلوب العلمي الجاسي غالباً عليه فإنه قلما يُقرأ وإذا قرئ فإنما يُتَناول من أطرافه.

ولعل القارئ قد فهم أننا إنما ذكرنا في هذا الكتاب المشهوري من رجال المغرب ولم نذكر كل من يستحق الذكر منهم. وحقّاً فإنّنا قد اقتصرنا على أشهر المشهورين، وأما باقي الأشخاص المهمين فقد خصصنا بهم كتاب الشخصيات الذي لم نشترط فيه ما اشترطنا في هذا، من التوسع في الترجمة واستيفاء المعلومات التي عندنا عن الشخص وجمع الآثار كلِّها إلا ما كان معروفاً جداً، فإنا قد نترك منه، وأقصرُ ترجمة فيه لا تقل عن بضع صفحات، بينما في الشخصيات لا نأخذ أنفسنا بشيء من ذلك.

وواضح أن الشهرة التي نريد هي شهرة المرء، في عصره بالصفة التي ميزته عن غيره، لا شهرته عندنا. فقد

يكون الشخص غير معروف عندنا بالمرة ونذكره، وبالعكس قد يكون مشهوراً لدينا ولا يستحق الذكر هنا لتخلف الموازين في عصرنا عنها في العصور السابقة بسبب ضعف ملكة النقد ومرض الذوق الأدبي وقصور النفوس عن التحصيل فيُحسَبُ المُصلّي مُجَلّياً والظالعُ ضَلِيعاً.

ولما كانت هذه التراجم طبقاتٍ مختلفة؛ فمنها أهل الأدب ومنها رجال العلم ومنها الساسة، فقد جعلنا الكتاب على ثلاثة أجزاء واختصصنا كل طبقة بجزء، ورتبنا الأسماء فيه على العصور ثم على القُدْمِيَّة ليسهل تناوله، وليتدرج القارئ في تصوُّر الحياة الفكرية أو السياسية في كل عصر من المبدإ إلى الغاية.

وقد كان في النية نشره على هذا المنوال أجزاءَ ثلاثةً، محتوية على الطبقات الثلاث ولكنّ الصعوبة التي اصطدمنا بها مراراً كلّما حاولنا هذا الأمر، جعلتنا نقبل فكرة نشره في حلقات متسلسلة كما اقترح علينا كثيرون..».

وتقول الدكتورة نجاة المريني في مقال: (عبدالله گنون من خلال سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب) موضحة منهجية عبدالله گنون في كتابة التراجم:

«اعتمد الأستاذ عبدالله گنون في كتابة هذه التراجم على المنهج التاريخي، فقد استقى مادة جمعه ودونه من أخبار ومعلومات من مؤلفات بعينها للمترجم له، أو من مؤلفات غيره عند الحديث أو الثناء عليه وعلى مؤلفاته، ومن حين آخر يقدم المؤلف نماذج شعرية أو نثرية تتفاوت

طولاً وقصراً، ويظهر أنه كان يتخير تلك الشواهد، فيثبت ما يراه مناسباً ويشير إلى غيره في مواضع بعينها.

- لقد اهتم المؤلف في هذه التراجم بجمع المعلومات من المظان القديمة، ومن المخطوطات التي توفرت لديه، مما طبع كتابته بطابع الشمولية، فهو لا يخص أياً من مترجميه بتوثيق الأخبار أو النقولات الواردة عنده من أي مصدر كان، وإنما يرويها كما قرأها في تلك المصادر أو كما وعتها ذاكرته، ومن ثم يصعب على القارئ في توثيق أي خبر أو العودة إلى أي قول أن يتحرى المصدر المنقول عنه وصاحبه.

والأستاذ گنون عالم ثقة، في كتاباته ورواياته وأخباره، لذلك وبالرغم من علامات الاستفهام التي يمكن أن يطرحها القارئ حول نقولاته وأخباره، فإن تحري الأسباب التي جعلت الأستاذ گنون يقبل على هذا النوع من التأليف بعناية وشغف كفيل بطرح كل استفهام أو تشكك في أي قول.

إن المشكل الذي كان يعاني منه الأدب المغربي هو التشتت والضياع، فالانكباب على جمع هذا الأدب ولَمّ شتاته أكبر هدف توجهت إليه عناية الأستاذ گنون أملاً في تحقيق مشروعه العلمي الضخم».

ولقد جعل العلامة عبدالله گنون حلقة الذكريات بتراجمها طبقات مختلفة فمنها كما يقول في مقدمة أول حلقة عبدالعزيز الفشتالي: (منها أهل الأدب، ومنها رجال العلم، ومنها رجال السياسة). وكلهم أسهم بنصيب قلَّ أو

عظم في الأدب ـ نثراً أو شعراً ـ أو في العقيدة، أو الفقه أو الحديث أو النحو أو التاريخ... لكنه لم يتمكن من إصدار هذه الحلقات مرتبة في طبقات لصعوبات اعترضته وقد بيّن ذلك بقوله:

«لم تُكتب تراجِمُ هذه السلسلة لتُنشَر منفردةً هكذا كلُّ ترجمة في حلقة مستقلة، وإنما كُتِبت لتكون ضِمْنَ مُؤلف واحد ذي ثلاثة أجزاء حَسْبَ طبَقةِ أصحابها من أدباء وعلماء وسَاسَة، مُرتبة في كل جزء على حسَب الحُروف وحسَب القُدْمِيَّة الزّمنِيَّة في كل حرف، كما أشِير إلى ذلك في مقدمة الحلقة الأولى، وعليه فمَن يقرُنها إلى سلسلة أخرى إنما يظلِمُها وينظرُ إليها نظرة تقْليديَّة لم نقصِد إليها البتَّة.

وأول الفوارق بينها وبين غيرها من السلسلات المعروفة أن تلك السلسلات تتناول تراجِمَ رجال مَدْرُوسين كتبتْ عنهم عشراتُ الأبحاث بمُختلف اللغات في العالم العربي وغيره، ولهم آثار منشورة مُتداولة بخلاف هذه السلسلة فإن غالب رجالها من المجهولين أو المنسِيِّين على أقل تقدير، ومِمَّن ضاعت آثارهم فلا نقف على القليل منها إلا بعد الجهد الجهيد من البحث والتنقيب.

وهذا لا يُنافي وصْفنا لهم بالمشاهير فإنا كما في المقدمة المذكورة قد اعتبرنا شُهرتهم في عصرهم وإن كانوا عندنا ليسوا كذلك.

على أن تسمية هذه التراجم ذِكريات هي مِمَّا يُحدِّد خُطتها ويرسم طريقتها، فالرجاء ألا تحمل على غير هذا

المحمِل تذرّعاً للتحامُل عليها، ومَيْدانُ التجربة فسيح أمام ذوي الاقتراحات والأفكار، وكل يعمل على شاكِلتِهِ والله من وراء القصد».

وبناء على هذه الرؤية في تقسيم التراجم إلى طبقات، وبالرغم من صعوبة التقسيم فقد حاولت ـ قدر الإمكان ـ من خلال الخمسين حلقة أن أرتبها كالآتي:

الطبقة الأولى: رجال العلم، بلغ عددهم (٢٠) حلقة، وتتنوع الميادين العلمية التي برز فيها أصحاب التراجم بين العقيدة والتفسير والفقه والحديث والحساب والرحلة والتاريخ.

الطبقة الثانية: أهل الأدب، بلغ عددهم (٢٢) حلقة موزعة بين شعراء وكتّاب وقد جعلت تراجم بعض رجال السياسة تتدرج في أهل الأدب بالرغم من غلبة العمل السياسي على أصحابها. ومن أبرزهم: أبو جعفر بن عطية وعبدالعزيز الفشتالي والوزير الشاعر ابن إدريس العمراوي.

لقد اشتغل كثير من الأدباء والشعراء والمؤرخين في قصور السلاطين وزراء وكتّاباً، ومارسوا بذلك أعمالاً سياسية خطيرة، وكان الأقرب إلى التقسيم اندراجهم في سلسلة رجال السياسة، ولكن عدلت عن ذلك، فشهرتهم الأدبية والتاريخية هي التي أسعفتنا في التعرف إليهم، وآثارهم هي المحك الذي أثار الاهتمام بهم، وخلد ذكرهم على السنين.

الطبقة الثالثة: رجال السياسة، وعددهم (٨) وهم: الإمام إدريس، وعبدالله بن ياسين، ويوسف بن تاشفين،

والأمير سليمان الموحدي، وعبدالملك المعتصم، والسلطان محمد بن عبدالله، والسلطان محمد الخامس، ومحمد بن عبدالكريم الخطابي.

هذا، وقد أغفل المؤلف رحمه الله، الحديث عن الكثير من الشخصيات السياسية المغربية التي ملأ ذكرها الآفاق، وعمت شهرتها الأقطار، كمؤسس الدولة الموحدية المهدي بن تومرت، والسلطان أحمد المنصور السعدي وغيرهما.

وقد تولى معهد مولاي الحسن بتطوان نشر هذه السلسلة لأول مرة منفردة، كل ترجمة في حلقة مستقلة، وأصدر منها خمسة وعشرين جزءاً في ظرف خمس سنوات تقريباً، ثم توقف العمل نظراً للأزمة السياسية التي مرت بها البلاد قبل الاستقلال، ثم للمشاغل الكثيرة التي عرضت للمؤلف بعد ذلك، ثم قامت دار الكتاب اللبناني بإعادة نشر الحلقات السابقة، ومتابعة نشر ما بقي من الحلقات التي بلغت الخمسين حلقة.

وهذه هي الطبعة الثالثة للكتاب يصدرها مركز التراث الثقافي المغربي بالاشتراك مع دار ابن حزم في بيروت، وتمتاز هذه الطبعة بكونها مصححة ورتبت طبقات تراجمها كما كانت نية المؤلف رحمه الله في نشرها لولا الصعوبات التي اعترضته وسبق الإشارة إليها.

وهكذا جعلنا كل طبقة في جزء ورتبنا الأسماء على العصور ثم على القُدمية ليسهل تناوله، وليتدرج القارئ في

تصور الحياة الفكرية أو السياسية في كل عصر من المبدأ إلى الغاية.

وألحقنا في مقدمة الكتاب ترجمة نفيسة للعلامة عبدالله گنون كتبها المؤلف بقلمه سماها: (مذكرات غير شخصية) كتبها في أخريات حياته لكن الموت لم يمهله لتقف هذه المذكرات في مرحلة الثلاثينات، وقد اعتنى بها الدكتور محمد عبدالحفيظ گنون بإخراجها من مسودتها وتنقيحها، وعلق عليها الأستاذ عبدالصمد العشاب، ثم خصصنا فصلاً لتقاريظ كبار العلماء بالمغرب والمشرق لهذا الكتاب.

هذا مجمل عملي في هذه الطبعة الجديدة لكتاب (ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة) وهو كتاب جدير بالاقتناء، وحقيق بكل مدح وثناء، وأعطى للناشئة المغربية بياناً عن نبوغ أسلافها يدفعها للطموح، ويهيب بها للعمل، وتلك خدمة جليلة للوطن في الوقت الذي أصبح فيه خصومه وبعض أبنائه ينكرون عليه أدبه وما أنجبه من نبغاء لا يقلون عن غيرهم من نبغاء العالم العربي.

ولعل بعملي هذا أكون قد حققت أمنية المؤلف رحمه الله في نشر كتابه الذكريات كما كان يريده ويتمناه.

وأرجو أن أشاركه في أجر الانتفاع بما فيها، فأكسب أجراً أجده في صحيفتي يوم الحساب.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً.

وكتبه

محمد بن عزوز

- سلا - المحروسة

٢٩ رمضان المعظم ١٤٢٩هـ

* * *

العلاَّمة عبداللَّه گنون
يتحدث عن نفسه
من خلال كتابه
«مذكرات غير شخصية»

بسم الله الرحمن الرحيم

مذكرات غير شخصية

الورقة الأولى

من كتاب (مذكرات غير شخصية)

بخط العلامة عبدالله گنون

العلامة عبدالله گنون يتحدّث عن نفسه

بسم الله الرحمن الرحيم

لم أفكر يوماً في كتابة مذكرات شخصية عن حياتي لسبب بسيط، وهو أنني لم أعتبر قط أن حياتي تستحق التدوين بالتفصيل الذي تستدعيه كتابة المذكرات، إلا إذا كنت سأُثقل حواشيها بالتوافه التي لا قيمة لها، أو الادعاءات العريضة التي لا نصيب لها من الحقيقة، كما يفعل بعضهم، وهو الأمر الذي جعلني لا أرغب في قراءة بعضها، مما يقع في وهلي أنها ربما تكون ذات جدوى مثل المذكرات السياسية أو العسكرية التي كتبت عن الحربين العالميتين (١٩١٤ و١٩٣٩)، فأجدني أنصرف عنها لما ألمسه فيها من التزيُّد ومخالفة الواقع.

وأمر آخر، هو ما جدّ في كتابة التراجم مما يسمونه بالتحليل النفسي وما يتضمنه من التلفيقات والافتراضات التي تصبح أحكاماً هدفها الوحيد تحطيم الشخصية الإنسانية للمترجم لمجرد أنه مرض في صغره مثلاً بمرض معين أو

أحبّ في شبابه شيئاً ما ثم نُزع منه، وما شابه ذلك مما يجيء في كلامه عرضاً أو يتحدث به عنه زميل له أو فرد من أفراد أسرته ربما كان هو لا علم له به ولا صلة بينه وبين ما نسباه إليه، بل لعله من انعكاسات التصورات الذاتية التي يثيرها فضول المحللين النفسيين فيؤدي الأمر إلى ما يعبر عنه المثل العربي القائل: «رمتني بدائها وانسلت»، وعلله المتنبي في هذا البيت الشعري:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه
وصدق ما يعتاده من توهم

هذا إذا لم يكن المحلل من مريدي فرويد ونظرياته الجنسية وإلا فاقرأ على مترجمه آية: ﴿قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾، وذلك لأدنى إشارة أو لفظة ترد في كلامه، ولكأنما عناه الشاعر بقوله:

وليس صديقاً من إذا قلت لفظة
توهم في أثناء موقعها أمرا

والمفروض أن الذي يترجم لشخص ما يعتبر كصديق له، ولا يقال: إن في كلامي هذا مبالغة، ففي واقع الأمر بلغ الاستهتار بأصحاب هذا المذهب إلى حد اتهام المسيح عليه السلام بأنه كان له صديقات وأن بعضهن حملن منه، وكان في خطة شركة بريطانية إخراج شريط سينمائي عن حياة المسيح الشخصية يتضمن هذا البهتان، مما دفع أسقف لندن إلى الاستنجاد بشيخ الأزهر وطلب تدخله واحتجاجه باسم المسلمين لإيقاف العمل في هذا الشريط... ولهذا

كان إفتاؤنا بمنع تمثيل النبيّ ﷺ وظهوره في شريط الرسالة؛ لأنه إذا فعل النصارى هذا بالمسيح فما ظنك بما يفعلونه بمحمد عليه السلام.

إن علماءنا وكتّاب التراجم عندنا لم يكونوا يتجسسون على مترجميهم ويطلقون الفرضيات التي لا أساس لها إلا سوء الظن لينالوا من عرضهم وسلوكهم بدعوى تحليل شخصياتهم وتعبير ما اشتبه من حياتهم، إنهم كانوا ينقدون ولكن نقدهم إنما ينصب على الأقوال والأعمال التي صدرت منهم فعلاً لا على ذواتهم وأشخاصهم بالتكهنات والتخرصات، ومن الغريب أن أصحابنا لا يشتغلون بذوي الدعاوى الباطلة الذين ينتحلون ما ليس لهم، وينسبون لأنفسهم كل فضل، ويجردون غيرهم من كل مزية كأن تطاولهم هذا عندهم حقيقة يعجزون عن التشكيك فيها وكأن تفتح هؤلاء المدعين يمت بنسب إلى تحليلاتهم فهم يرعون على هذه الرحم التي بينهم أن يمسوها بسوء لأن الهدف واحد وهو الهدم والتحطيم. ألا يؤيد هذا ما يقوله بعض الباحثين عن مؤسسي تلك المذاهب من أنهم يعملون على خراب العالم وتدمير الإنسانية؟ ونقف عند هذا الحد وإن كان في الكلام بقية لأننا إنما نريد أن نعلل ما قلناه من عدم الميل إلى المذكرات الشخصية، بطبيعتنا، وهو ما لم يقبله منا الذين يلحُون علينا بكتابة مذكرات عما شهدناه أو شاركنا فيه من أعمال وتحركات على عهد الحماية البائدة لا سيما ما يتعلق منها بالكفاح الوطني وإعداد الشعب مادياً وروحياً لمواجهة خصوم البلاد، ولو للحقيقة

والتاريخ، وهذا لا يستلزم التعرض للأحوال الشخصية كما يقولون، ولو صحّ ذلك لخلت كل المذكرات من المداخلات الشخصية، وكيف نفصل بين المذكرات وصاحبها وهو الذي يحكي عن ملابسته للأحداث ويخبرنا بالوقائع كما شهدها. إن التجريد هاهنا غير ممكن فهو بمثابة التفصي من المسؤولية وما أحراه أن يكون نكولاً لا شهادة.

نعم حين تتعين الشهادة، يجب إقامتها لله، وهي وما أحاط بها من ظروف لا بد أن تؤدى على وجهها لتبرأ الذمة ويخلص المرء من التبعية، ومن كانت هذه غايته فهو أبعد ما يكون عن التزيُّد والتشبُّع بما لم يعط، وعلى هذا المنوال قبلت أن أخط هذه الحروف في مذكرات غير شخصية، نبعد عنها كل ما لا يهم القارىء وما يجعل الفضوليين يدسُّون أنفهم في حياة الناس بلا حق، زعماً بأنهم أصحاب أقلام موحية ونظرات فاحصة يزكيها العلم والتحليل النفسي.

إن حقائق التاريخ ليست أوهاماً وأباطيل تفترض وتقدر، ولكنها وقائع تحدث فعلاً فتنقل وتروى بصدق وأمانة، وقد يعتريها تحريف وتزوير ولكن الحقيقة خالدة، والذي يضمن خلودها هو أنه لا يكون هناك مؤرخ واحد، وحتى لو اتفق أن جازت مؤامرة التزييف على المؤرخين كلهم، فإن الحقيقة لا تعدم (ابن خلدون) جديداً يخلصها من الزيف، ويبرزها ناصعة للعيان.

ومن ثم كان المؤرخون على خطر عظيم، حتى قال التاج السبكي في كتابه: «معيد النعم ومبيد النقم» في حقهم: «إنهم على شفا جرف هار، لأنهم يتسلطون على أعراض الناس، وربما نقلوا مجرد ما يبلغهم من كاذب أو صادق».

ونقول هذا؛ لأن للمذكرات صلة بالتاريخ، فقد تفسر ما غمض من أحداثه، وقد تتمم بعض النقص في مروياته، ولا سيما إن كانت بنت وقتها كاليوميات والحوليات التي حرص كاتبها على تسجيلها في حينها، وإن كان ذلك قد يعتمد رواية واحدة من عدة روايات للخبر أو نشره لا تحقيق معها، فليس ضربة لازب، أن تكون مزامنة الحادث دليلاً على صدقه بإطلاق، وعلى ذلك، فإننا نكتب هذه المذكرات وقد مرّ على حوادثها سنوات وسنوات، وبعضها مما علق بالذاكرة قبل أن نعرف الأبجدية، فلا ينتظر منا أن نؤرخها ولا أن نحدد وقوعها باليوم والساعة إلا ما كان منها يحمل تاريخه أو يعين وقته على سبيل التقريب، خاصة وأنا ما انتحلت يوماً صفة مؤرخ ولا كتبت في التاريخ بمعناه المتعارف إلا تلخيصاً أو تأسيساً لعمل فكري وحركة أدبية كما يعلم المتتبع لإنتاجي وكتاباتي.

والخلاصة، أن هذه المذكرات هي تسجيل لأحاديثي وعروضي عن مشاهداتي ومعلوماتي التي أفضي بها لإخواني وأصدقائي في كثير من الاجتماعات واللقاءات عند الخوض في الكلام على الحركة الوطنية ونشأتها ومحاربة الجهل والأمية الفكرية والبدع والضلالات التي كانت منتشرة في

المجتمع المغربي، وإعداد الشعب وتوعيته بما يجعله في مستوى الوثبة الكبرى التي تخلصه من براثن الاستعمار والسيطرة الأجنبية، وهي الأحاديث التي كانت تحمل المستمعين لها على الالتماس مني بإلحاح أن أكتبها وأسجلها لعموم المواطنين.



أصداء فاس

ليس لديّ ما أقوله عن فاس وقد خرجت منها وأنا صبي من ست سنوات، وأقصد ليس لديّ ما أذكره وإن غفلت كثيراً من الأشياء لكنها لا تهم القارىء، وهي على الإطلاق من الأمور الشخصية التي أستبعدها ما أمكن عن هذه المذكرات. نعم هناك بعض الانطباعات التي أحتفظ بها عن مسقط الرأس مما له صفة غير شخصية في الجملة أحب أن ألم بها وإن لم أدرك مغزاها إلا بعد الكبر، على أن منها ما حدّثت به ولم أشهده لاستحالة مشاهدتي له إذ ذاك.

وهذا هو ما حصل عند ولادتي عشية يوم الثلاثين من شعبان[1]، والناس يحتفلون بحلول شهر رمضان الاحتفال العظيم المعهود الذي أدركنا الكثير من مظاهره ومجرياته، فمن إطلاق النار في الهواء ومن النفخ في الأبواق والمزامير وقرع الطبول والدفوف، إلى زغاريد النساء المرتفعة من سطوح المنازل وتجاوبهن بنقر الدفوف، إلى طواف بعض

(١) ولد الأستاذ عبدالله كنون بفاس في ٣٠ شعبان ١٣٢٦هـ، موافق ١٩٠٨م.

أهل الطرق الصوفية في الأزقة بأعلامهم الخاصة رافعين أصواتهم بالذكر والدعاء، وكل ذلك لإعلان الفرح والسرور بإهلال هذا الشهر المبارك واستقباله كما يستقبل العظماء من الناس، وفي بعض المدن الكبرى والعواصم يعتلي دوي المدافع مساهمة من الحكومة في الاحتفاء بهذه المناسبة السعيدة، وقد دام هذا إلى أيام الاستقلال الأولى ثم خفّ وانعدم.

والذي أريد قوله بعد هذه المقدمة الصغيرة، هو أن الكاتب عند استهلاله[1] وهو بكر أمه، وسادس أولاد أبيه الذين توفيت أمهم من قبل، أشعر جده الشيخ التهامي بازدياده في تلك الساعة المشهودة، فقال: هذا الولد جاء (يشعبن)... وكلمة يشعبن هذه مأخوذة من شعبان فهي مشتقة من الجامد، وهو أمر لا تجيزه القواعد إلا أن الناس حتى العلماء منهم كما رأينا بما بقي عندهم من السليقة العربية، يرتكبونه أحياناً، وقد أجازه مجمع اللغة العربية بالقاهرة أخيراً، ولم يقتصروا على هذا الفعل بل قالوا: (شعبانة) وهم يريدون الأيام الأخيرة من شعبان كما قال أبو نواس:

إذا العشرون من شعبان ولّت
فواصل شرب ليلك بالنهار
ولا تشرب بأقداح صغار
فقد ضاق الزمان عن الصغار

---

(١) استهلاله، أي: خروجه إلى الدنيا.

وكذلك كانت شعبانة أيام نزهة وأفراح ومآدب وخروج إلى البساتين والضيعات زرافات وأُسراً وجماعات من كل الطبقات كالطلاب والتجار والموظفين والأبناء والبنات والسيدات، كل حسب استعداده وطاقته، وبذلك يظهر أن حفلات شعبان مشتركة بين توديع أيام الإفطار وشهوره واستقبال شهر رمضان وأيام الصيام الواجب، ولا أدري ما أراد الجد رحمه الله بقوله عن حفيده الجديد: إنه جاء «يشعبن» هل المعنى الأول أم الثاني أم هما معاً؟ وعلى كلٍّ فإذا كان النواسي وهو من نعرف قد جعل حداً لفتكه العشر الأواخر من شعبان، وجاء شوقي من بعده فعيّن مبدأ استئناف الحياة الشاعرية بقوله:

رمضان ولّى هاتها يا ساق
مشتاقة تسعى إلى مشتاق

فإنهما معاً كما يدل عليه قولهما، كانا يحترمان شهر رمضان ويصومانه كسائر المؤمنين، فرحمة الله على أولئك القوم كانوا كما قال أحدهم:

ولله مني جانب لا أضيعه
وللهو مني والبطالة جانب

والانطباع الذي يذكره الوليد الصغير ولا ينساه أبداً، هو انطباع تربوي لتعلقه بحياة الكتّاب القرآني، وقد أدخل الوليد الكتّاب مبكراً جداً في سن الخامسة تقريباً، وكان يذهب إليه من خراجة سيدي العواد إلى الباب الصغيرة

للبيت لوقوعها بهذا الحي، ويصعد إليه بدرج لأنه مبني على جنبتي الطريق، وكان المشرف عليه تلمسانياً ابناً للمعلم الذي قرأ عليه الوالد والعم، وهذا كل ما أذكره عن الكتاب الفاسي، حتى أني لا أذكر شيئاً مما قرأته فيه، والذي حدث لي به هو أني التقطت يوماً ما من بين أعشاب الحصير قرشاً فضياً يساوي نصف درهم شرعي، ولما انصرفنا لحالنا أريته لأخي عبدالحفيظ وطلبت منه أن نمر على دكان بقّال شاهدت عنده أقلام رصاص ذات ألوان متعددة زاهية مغرية، لشراء واحد منها، ففعل، واشتريت بالفعل القلم الذي أعجبني، وكانت الفكة التي ردها عليّ من القطع النحاسية السوداء المسماة كل واحدة منها بالموزونة، كثيرة بحيث ملأت كفّتَي الصغيرتين، وعدنا إلى البيت وأنا جد مسرور ببضاعتي الجميلة، ورأت أمي القلم وأفرغت في يدها الفكة، فقالت: ومن أين لك ما اشتريته به؟ فأخبرتها بالواقع، فأعلمتِ الوالد فأحضرني أنا وأخي وسألني: لمن كان القرش؟ فقلت: لا أدري، فقال: هل أطلعت المعلم عليه؟ فقلت: لا؛ لم أطلعه، فقال: كيف تصرفت فيه وهو ليس لك؟ فقلت: إني وجدته بين ثنايا الحصير، فقال: هل الحصير هو صاحبه؟ فسكت، فوبّخني كثيراً وقال لي: كان عليك أن تسلمه للمعلم وهو يبحث عن صاحبه، وأمر أخي فحملني وشدّ على رجلي ووجه أخمصيهما إلى الوالد الذي جعل يهددني بضربات متقطعة على رجلي، بقلم الرصاص الذي اشتريته وأنا لا أدري أنه سيكون آلة عقاب لا آلة كتاب،

وكنت أرتجف من شدة الخوف وأبكي، والوالدة تقول: كفى، كفى، فهو إنما اشترى قلماً أعجبه ولم يشترِ لعبة ولا حلوى، والوالد يقول: لماذا لم يطلب مني شراءه له؟ وماذا ينفعه القلم المقتنى بمال حرام؟ وأشار إلى الأخ فأرسلني، وقال له: كان عليك أن تنهاه، فقم معه الآن إلى البقّال وأعيدا القلم إليه، وقل له يأخذ فلوسه ويعطيكما القرش لتسلماه إلى المعلم وهو يعاملكما بما يجب، ولكن المعلم لم يقل لنا شيئاً وإنما سأل عمن فقد هذا القرش المشؤوم؟ فقال ولد أكبر منا معنا يسمى الخضر، وكان ضخم الجثة إنه له فأعطاه المعلم إياه، وانتهت المشكلة وكانت هذه (العلقة) هي الوحيدة في حياتي بالبيت والكتّاب القرآني.

ومما أحفظه من أصداء الطفولة بفاس، أني بحثت عن الوالد في البيت فلم أجده، وعلمت أنه في الدار الصغيرة فأردت الذهاب إليه فمنعتني الوالدة، ولكني تسللت خفية فرأيته جالساً على سجادة وبيده سبحة وهو مستقبل يذكر، وقد خيّم السكون على المكان فلا حركة ولا مَن يهمس ببنت شفة، وتوقفت قليلاً ثم هجمت عليه، فردّني بلطف ولكنه لم يكلمني ولا عاملني بالعطف الذي عهدته منه.

وبعد أيام خرج عشية واصطحبني معه وكان أن وقف أمام ضريح سيدي علي بوغالب، ونظر إلى سقايته المحطمة وهو حزين، وكذلك مرّ بمسجد باب الكيسة ورجع بصره في مئذنته المتصدعة وهو يحوقل ويتأسف ولا يخفي

امتعاضه، وإن كنت لا أفهم سر ما يبدو منه من انفعالات ولا حتى غاية هذا الخروج واصطحابه لي فيه، وانعدام كل معالم السرور والابتهاج والملاطفة التي عهدتها منه في خرجاتي بصحبته.

وكان ما كان من مغادرة فاس بقصد الهجرة والاستقرار بطنجة، وقد نسيت كل هذه الانطباعات حتى كبرت ودرست وسمعت منه ومن غيره عن ضرب فاس بالمدفعية الثقيلة من طرف جيش الاحتلال الفرنسي نفسه وأصيب المسجد الأموي هو الآخر بتصدُّع وارتجاج، فعلمت سر تلك الخرجة التاريخية التي رافقت فيها الوالد، وما كان عليه من حزن وتأثر وانفعال وعدم انبساطه معي كما كان يفعل من قبل حين يخرج بي إلى أماكن النزهة والفسحة، وأن ذلك اليوم الذي كان معتكفاً فيه بالدار الصغيرة هو يوم قصف المدفعية الفرنسية لفاس، وأنه في خلوته تلك كان يقرأ اسم اللطيف ويدعو الله عزَّ وجلّ بهلاك الظالم وكف شوكته عن المسلمين.

ومعلوم ما جرى بعد ذلك اليوم، من احتلال أفراد الجيش للمدينة، وتمركزهم في نقط معينة من أحيائها وطواف من كان يعرف بعمر الريفي على دابته بالطرق الرئيسية وأمره لمن كان معه من الأتباع بإلقاء القبض على من لقيه من الشبان والعمال حتى يستكمل عدد العشرة والخمسة عشر ويساقون إلى مقبرة (القبب) بباب الفتوح حيث يؤمرون بحفر قبورهم ثم يعدمون بالرصاص، ففعل

ذلك أياماً لحد أنه لم يبقَ في الشارع أحد، وانتشر الرعب في المدينة، وخاصة حينما يمر زبانية الريفي بالطرقات عائدين بالنعوش تقطر دماً، زيادة في الإرهاب والقمع، حتى ضجّ الناس وبلغت قلوبهم الحناجر، فقام جماعة من الأعيان ووجوه السكان بمقابلة سلطات الاحتلال والتفاوض معها في سبب هذا الانتقام وجعل حد لهذه التصرفات اللامسؤولة التي يقوم بها الضابط عمر ضداً على المدنيين البرآء، وكان أن أعلنت الهدنة بين السكان والقوات العسكرية بشروط منها أداء غرامة مالية قدرها مائتا ألف ريال (٢٠٠,٠٠٠) حسني، وتسليم جميع أنواع الأسلحة التي بيد الناس حتى الخناجر والسكاكين، ورفع رايات بيض على الجدران وسطوح المنازل، فتكدست الأسلحة في الشوارع ورفعت آلاف الأعلام البيض في فضاء المدينة أياماً عديدة، نتيجة لما أصاب الناس من خوف وذعر وكانت هذه هي مذبحة فاس الحقيقية لا مذبحة الضباط الفرنسيين التي قام بها الجند ثورة على تعسف أولئك الضباط وتحكمهم الذي كان يؤدي إلى إهانة الجنود وتسخيرهم وإذلالهم بما لم يعهدوه من قبل، وقد كان لهم ضباط مواطنون وأجانب غير فرنسيين، ولكن معاملتهم لهم كانت في حدود القانون والأنظمة العسكرية المتعارفة.

ونشير أخيراً إلى أن السلاح الذي تراكم في الطرقات نقل بعد اختباره وأخذ ما كان مهماً منه إلى ما يسمى بدار السلاح في البطحاء، ليبقى شاهداً على الخضوع والاستسلام، وإن هذه المذبحة كانت سبباً في هروب كثير

من أهل فاس ولا سيما الشبان إلى البوادي والمدن النائية، وأعرف منهم بطنجة اثنين من صميم الأُسر الفاسية أحدهما يسمى: العربي الحلو، والثاني: شريف طاهري، وكانا يعملان في الميناء البحري، وحدثاني أنهما فرّا إلى طنجة في تلك الأيام السود، وكان الحلو كلما لقيني يحييني ويترحّم على سيدي التهامي ـ أعني: جدي ـ مما يدل على أنه حين خروجه من فاس كان واعياً بما يجري وأنه كان يحضر دروس الجد رحم الله الجميع.



وداعاً يا فاس

سكر الفرنسيون بخمرة الانتصار وسقوط عاصمة إسلامية كبيرة من طراز فاس في أيديهم، ولعلهم ما كانوا يحلمون بذلك، وحقيق أنه لو كان هناك تدبير محكم ورأي حصيف وسياسة وطنية منبعثة من تضامن القمة والقاعدة والتصميم على المقاومة إلى النهاية لما كان الفرنسيون حصلوا على هذه النتيجة، ولا أبرمت معاهدة الحماية، ولأخذت قضية المغرب اتجاهاً آخر أقل ما يسفر عنه تطبيق مقررات مؤتمر الجزيرة الخضراء الدولي. وهذا ما كان العقلاء من رجالات المغرب يفكرون فيه ويتوقعونه، ومنهم الجد السيد التهامي الذي فكر في الهجرة إلى الشام أو المدينة المنورة منذ نزول الفرنسيين في الدار البيضاء سنة ١٩٠٧، ولكنه كان يأمل أن يجلوا عنها بالمقاومة وإعلان الجهاد، وقد ألّف في الترغيب والحض على الجهاد أربعين حديثاً شريفاً وطبعها، وكان يوزع منها على العموم ورجالات القبائل الثائرة عدة نسخ.

ثم بعد إمضاء عقد الحماية، يئس من تحقيق هذا الأمل وكان قد بلغ من العمر عتياً وضعفت صحته، فقال

لولديه، العم سيدي محمد والوالد: إن الشمس على أطراف النخيل ولم يبقَ لي طمع في الهجرة، فإذا قضيت نحبي فأنتما مأذونان في الهجرة وعدم الإقامة في دار يحكمها كافر، وكان وقع هذا الكلام في نفوسهما مؤلماً جداً، وما لبث أن توفي رحمه الله، ولم يكن بالسهل ولا باليسير على أسرة تتكون من أكثر من عشرين نسمة رجالاً ونساءً وأطفالاً، أن تتحرك للخروج من مسقط رؤوسها وتخلي مساكنها وتفوت أثاثها وفرشها وماعونها كيفما تأتى وفي أقرب وقت، والأهم من ذلك مكتبتها القيِّمة، وفي ظروف إرهابية تخضع كل الخضوع للرقابة الفردية والجماعية، خاصة إذا كانت أسرة علمية لها شعبيتها ومكانتها في المجتمع، ولكن لا بد مما ليس منه بد.

وكانت القطرة التي أفاضت الكأس هي الحادثة التي دلت أعظم الدلالة على فقد الفرنسيين لحس التمييز وطيش عقولهم، وهي ما سمعت الوالد رحمه الله يحكيها أكثر من مرة، ويقول: إن السلطة الفرنسية دعت علماء فاس إلى الاجتماع بالبطحاء في الدار التي جعلوها مقر ممثلية الإقامة العامة، فحضروا جميعاً بمصاحبة الولاة المحليين، قال: «وجلسنا في ممر طويل وفينا من هو بمرتبة أشياخنا، والمساوون لنا ومن دوننا، يعني العلماء من جميع الطبقات، وانتظرنا في هذا الممر طويلاً، وكان بعض الموظفين العسكريين والمدنيين يمشي ويجيء بيننا وهو يدخن ويلقي بأعقاب الدخينة في الأرض، وهو أمر كان في ذلك الوقت يكاد يكون مستحيلاً، إذ لم يكن أحد يجرؤ على التدخين

بحضرة العلماء، بل إن من العلماء من لم يكن قابل ولا رأى أجنبياً غير مسلم من قبل.

وبعد ذلك دعوا إلى قاعة الاجتماع، وعقدت جلسة برئاسة شيخ الجماعة إذ ذاك السيد أحمد بن الخياط، وتولى الكتابة السيد محمد الحجوي الذي صار بعد ذلك وزيراً للعدل وحضر إلى جنبهما فرنسي كان يتكلم العربية بطلاقة، لم يسمه الوالد، وأظن أنه لويس مارتن المستشرق المعروف، وصار يسألهم عن الدراسة في جامعة القرويين كيف تسير، وما هي العلوم التي تدرس فيها، ومن هم المدرسون الملازمون، وما لكل واحد منهم من الحصص في اليوم، وحال الطلبة الوافدين على الجامعة من خارج فاس، والمدارس التي يقيمون فيها، والطلبة المقيمين من أبناء فاس، وعدد الجميع إلى آخره. وهو يكتب ويدوّن، ويستعين ببعض التراجمة الجزائريين، ويظهر من البشاشة والمجاملة ما لم يُغرِ أحداً، وما اعتبره الوالد سمًّا في دسم، وقد مرّ ذلك في أكثر من ثلاث ساعات.

وقال الوالد: وحين خرجنا مررنا، يعني هو وأخوه، بجامع الشربليين فدخلناه وكان الناس قد صلّوا الظهر من مدة، فتوضأنا وصلّينا وتعاهدنا أنا وأخي على الخروج من غير تأخير وكيفما كان الحال، قبل أن يستفحل الأمر ونرى ما لا طاقة لنا به ولا نجد صبراً عليه.

وخرجا فعلاً ومعهما بعض الأصحاب والأخ الأكبر سيدي محمد مورين بالفسحة والزيارة ولقاء بعض طلابهما وتلاميذهما في المنطقة الشمالية، وكان للسفر حينئذ وسيلة

واحدة هي الدواب، فاشتريا ما يلزمهما لذلك، ووكلا بعض الأصهار والأحباب على بيع ما يباع من أمتعة المنزل وبعث ما لا غنى عنه، وأهمه الكتب إلى مدينة طنجة التي هي نهاية الرحلة الداخلية للإبحار منها إلى المشرق بقصد الهجرة، وكان خروجهما في رجب عام ١٣٣٢ وتجولا ما شاءا في مدن الشمال وقبائله واستقرا بطنجة، وكانا قد هيآ تذاكر السفر في باخرة لا أدري جنسيتها ودفعا ثمنها وجعلا يترقبان وصول الأسرة على أحر من الجمر، وتأخر وصولها إلى أن دخل شهر رمضان، ولم تتم تصفية ما كان يجب تصفيته من أمتعة البيت، فبقيت بعض ساعات الحائط في مكانها والأسرة المعروفة بالناموسيات[١] مشدودة في غرف النوم، وأما الكتب فكانت مشكلتها أعظم، إذ السفر إنما كان بواسطة الدواب المكتراة وهي كثيرة لجميع أفراد الأسرة من نسوة وأطفال وبعض الأصحاب، وأذكر منهم واحداً يسمى عبدالسلام البقالي والرجل الوحيد الذي كان معنا من الأسرة هو خالي السيد محمد القادري، وكان لا يزال شاباً ليس له خبرة بشؤون السفر، ولم يغادر فاس قط، وكذلك الأخ سيدي محمد الذي أرجعه الوالد من مدينة طنجة ليصحب القافلة وكان مثل خالي بل أصغر منه، إلا أن خالي كان متزوجاً بأختي حفصة وهو قد خرج معنا لأنه لا يمكن

---

(١) الناموسية: فراش نوم يكون على شكل خاص، أعمدته من حديد، وعلى كل عمود كرة صفار أو نحاس، وتكسوه من أعلاه قطعة ثوب في شكل قبة، يعلو الفراش عن مستوى الأرض بنحو متر ونصف.

أن يفارق أمه كما أن أمي لا تقدر على مفارقتها وهي بدورها لا تقدر أن تفارق ولدها وابنتها وقد قال لها الوالد قبل الخروج: إن ولدك مثل ولدي وهو زوج ابنتي، وأنت حماتي فلا فراق بيني وبينكم جميعاً وهذه السيدة هي جدتي للأم للا كترة المرية بكسر الراء من غير تشديد، وأولاد المري من أشراف فاس القليلي العدد، وكان معنا أخي عبدالحفيظ وهو يافع ابن إحدى عشرة سنة أو يزيد قليلاً، وأختي الشقيقة عائشة من ثلاث سنوات تقريباً، وزوجات عمي وابنة إحداهما وابنها سيدي محمد وابن خالي سيدي محمد وأختي خديجة وهي بنت مراهقة، فكان خالي في خدمة أمه وزوجه وأخته، وأخي في خدمة إخوته وزوجات العم. الخلاصة، أننا كنا قافلة بمعنى الكلمة نسير في خفارة المكارين أصحاب الدواب التي منها البغال وخيول وأحمرة، وكان لنا سرادق كبير، ننصبه ليلاً للنوم وفي بعض ساعات النهار للاستراحة والأكل والصلاة، وكان موكبنا يلفت نظر بعض سكان القرى التي نمر بها، فيأتوننا ببعض المواد الغذائية كالبيض والزبدة واللبن والدواجن من الطير والخبز والفاكهة فنشتري منهم ما نكون في حاجة إليه، وبقينا في هذه الرحلة مدة أسبوع كامل، من فاس إلى مدينة العرائش، حيث نزلنا عند قاضيها السيد أحمد بن يوسف الفاسي، وهو قرين الوالد، فرحّب بنا وأكرمنا، ومن ثم ركبنا باخرة إسبانية نقلتنا إلى طنجة فوصلناها من يومنا.





صورة العلاَّمة الشيخ عبدالصمد بن التهامي گنون
عميد الأسرة الكنونية بطنجة



الأستاذ عبدالله كنون في سن السادسة عشرة



العلاَّمة الأديب الشاعر محمد بن عبدالصمد كنون
صورة أُخذت له سنة ١٩٢٧



التقطت الصورة سنة ١٩٢٧، وتضم ـ من اليمين إلى اليسار ـ الشاعر التونسي سعيد أبو بكر ـ الصحفي أبو بكر عبدالوهاب (رئيس تحرير جريدة أظهار التي صدر عددها الأول سنة ١٩٢٥ بطنجة) ـ الأستاذ عبدالله گنون في العقد الثاني من عمره

وإني الآن أتصور السيدات الفضليات اللاتي لم يغادرن قط مدينة فاس، وهن في عنبر الباخرة متوجسات من البحر، ومنهم من أصابها الدوار قبل تحرك الباخرة، فأجركنَّ أيتها المؤمنات المهاجرات على الله، وإثمكن على من أخرجكن من مدينة جدكن كما أخرج أسلافكن منها قبل عميل المروانية وعدو الأشراف موسى بن العافية، فهل كتب على آل البيت التشرُّد في الأرض أم إن مطلقة علي كرّم الله وجهه ما زالت تنتقم من بنيه وإن قدم العهد وبعدت الشقة؟

لم أنسَ الالتزام بإهدار الناحية الشخصية من هذه المذكرات، وإنما أردت بوصف بعض الصعوبات التي لقيها أهلونا في رحلة الهجرة والمشقات التي لحقتهم وهم يغادرون فاساً ويقولون لها: وداعاً يا أرض الآباء والأجداد، فراراً بدينهم من الفتنة وعزوفاً عن الخضوع لحكم الأجنبي المعتدي بالمكر والقوة على الوطن العزيز.

لم أكن أدري مغزى ما يجري، وإن كنت أشعر أن الرحلة لم تكن هينة على الراحلين، وأن الحزن يغلف نفوسهم لما يعانونه من فراق الأقارب والأحباب، وما يجدونه من التعب والإرهاق وللمستقبل المجهول الذي يواجهونه، ولذلك كنت إذا تطلعت في وجوه الجميع سواء منهم الوالدة أو الجدة أو الخال أو غيرهم لا أرى علامة ارتياح، ولا أفتأ أصعد إلى ظهر الباخرة ثم أنزل إلى العنبر متأكداً من وجودهم، ويجذبني منظر البحر فأصعد لأنظر إليه، لكن الوالدة تفتقدني فتبعث إليّ وهكذا دواليك، وكان على سطح الباخرة رجل من المسافرين يحتمل أن يكون من أهل العرائش أو من أهل طنجة لتشابه حلتهم وخصوصاً طربوش الطاسة الأحمر فكان يداعبني كولد صغير بكلام لا أجيبه عنه،

ومما قاله لي: احذر من الدوار عندما تتحرك الباخرة، وعندما تحركت أردت أن أصعد إلى فوق لأرى كيف تسير هذه الباخرة في البحر، وما أن تمكنت من ذلك حتى وجدته قد قاء وأفرغ كل ما في بطنه الواسع بباب العنبر بحيث قطع الطريق بيني وبين المرور إلى السطح، وتعجبت من أمره وهو الذي كان يوصيني بعدم الاقتراب من حاجز الباخرة الذي يطل على الماء ويحذرني من الدوار، وإذا هو مرتمٍ على مقعد في حالة سيئة.

وصلت الباخرة التي أرست في عرض البحر ونقلنا إلى البر زورق خاص، إذ لم يكن هناك ميناء ترسو البواخر بجانبه، وإنما هو رصيف خشبي متين طويل ضارب في البحر بنحو مئتي أو ثلاثمائة متر، فوجدنا في استقبالنا العم والوالد والسيد الحاج عبدالرحمٰن گنون عم الوالد الذي كان موجوداً حينذاك بطنجة، وبعض الأصدقاء والمعارف وأمناء المرسى من أهل طنجة وفاس، فكانت فرحتنا عظيمة وارتمينا على أحضان الأب والعم وتمسكنا بهما لئلا يبعدا عنا، وانتقلنا إلى الدار التي أعدت لنزولنا وبعد الاستراحة ومرور بضعة أيام والتساؤل عن وقت المغادرة ورحلة الهجرة علم الجميع من الوالد وأخيه أن هذه الرحلة تعطلت إلى حين بعيد بسبب نشوب الحرب العالمية العظمى وأن أوراق السفر قد أعيدت إلى الشركة التي كنا سنسافر معها، وقد غادرت قبل وصولنا إلى طنجة بما يقرب من شهر، وأنها قد أصيبت وكان من ركابها بعض التجار من أسرة ابن جلون كانوا يريدون الحج ويرغبون أن يتم حجهم بصحبة العلماء، وكان من ركابها أيضاً إدريس الصقلي المعروف بالكنك بكافين معقودين، ولولا لطف الله المتمثل في تأخر وصولنا إلى طنجة لكان مصير العائلة كلها في خبر كان.

لم تخرج باخرة أخرى بعد ذلك إلى المشرق وتمّ قرارنا بطنجة، وكان من قدر الله أن توفي العم رحمه الله بعد عام واحد في رمضان التالي للذي قدمنا فيه، وثقل الحمل على الوالد، ولم يفكر قط في العودة إلى فاس، وسكنا بالكراء وفقدنا الكثير من وسائل الراحة وقلّ الأعوان والآخذون باليد، وانقطعت الصلة أو كادت بالأقارب والمعارف، وأصبح مستقبل الذرية والمحارم محفوفاً بالغموض، ولكن الوالد مع كل ذلك كان مرتاحاً لمهاجره وللوضعية التي كانت عليها طنجة من الاستقلال وعدم شمول الحماية لها لا الفرنسية ولا الإسبانية لما كان يدبر لها من قيام نظام حماية دولي بها، وقد تأخرت إقامة هذا النظام لما يزيد عن العشر سنوات، فكان يقول: لقد صدقنا الله هجرتنا، فليس في البلد إلا نائب الملك وعامله وقاضيه ومحتسبه وناظر على الأوقاف، حتى لما قام النظام لم يكن لأي من دول الحماية نفوذ فعلي على المواطنين، وقد تأقلم الوالد مع البيئة الجديدة، واستحدث صلات طيبة مع أعيان طنجة، فضلاً عما كان يحظى به من احترام الولاة ومحبة عموم الناس، ولم يكن يعترض على عمله العلمي وتدريسه لمختلف العلوم معترض في عموم المساجد، ولا يتدخل في شؤونه متدخل، وكان يعتقد اعتقاداً جازماً أن هجرته التي لم تتم بسبب الموانع السياسية وانعدام الوسائل المادية إليها هي هجرة قائمة وثابتة، فهو إذا مرّ في درسه الحديثي بما وقع لبعض الصحابة في حجة الوداع من مرض بمكة وخوف من الموت قبل العودة إلى المدينة، وقوله ﷺ: «اللّهمّ أمضِ

لأصحابي هجرتهم» يستحضر حالته هو ويتأثر عظيم التأثر ويقول مقتدياً بالرسول عليه السلام: **«اللّهمَّ أمضِ لي هجرتي»** حتى أنه لما اضطر ذات مرة للاستشفاء بحمة مولاي يعقوب ذهب إلى مكناس ولما لم يجد سيارة من مكناس إلى الحمة ذهب إلى فاس واستراح في مسجد أبي الجلود خارج فاس ريثما هيأ له أصحابه السيارة وخرج إليها ولم يدخل إلى فاس، وكنت بصحبته، فلما قضى حاجته رجع من غير أن يحدث نفسه بدخول فاس، بل إنه ركب عربة وذهب بها إلى مقبرة القباب خارج باب الفتوح وأنا معه لزيارة قبر والده، وكان ذهابه إليها من وراء أسوار المدينة، وهو على اعتقاد راسخ بأنه ما يزال في الهجرة.

ولما ركب القطار للرجوع إلى طنجة استأذنته في البقاء بفاس لبضعة أيام فأذن لي وذهب معه بعض الأصحاب، ودخلت لفاس صحبة السيد أحمد المهندس المعروف بالفاسي، الذي جاء معنا من طنجة، وكان خبر مروره بفاس وعدم دخوله إليها قد شاع بين الناس، وقد كنت جالساً مع ابن عمه السيد أحمد بن الحاج محمد گنون في سماط العدول بباب القرويين فجاء أحد الفقهاء وسلّم فرحّب به السيد أحمد وقال له: هذا هو ابنه، فقال لي ذلك الفقيه: أحقاً جاء الوالد إلى فاس عابراً ولم يدخلها؟ فقلت له: نعم وأنا جئت معه، فسألني عن السبب فبيّنت له الغرض من مجيئه وما حمله على عدم دخوله، فقال: إن للّه رجالاً، وسألت السيد أحمد عنه، فقال: إنه السيد الغالي بن عمرو.

* * *

طنجة: النشأة والمقام

قضى الله ولا مرد لقضائه أن تتعذر حركة الهجرة، فاعتمد الوالد الحكمة التي تقول: إذا لم يكن ما تريد فأرِد ما يكون، أما العم رحمه الله فبعد عام واحد من الخروج من فاس، وافاه الأجل المحتوم، فكان ممن تشمله الآية الكريمة: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾. وأما الوالد فقد عزم على المقام بطنجة وعدم الرجوع إلى فاس، مصمماً على نية الهجرة متى تأتّت، وهكذا قرر الانصراف إلى استئناف أعماله التي كان يقوم بها في فاس، من تدريس للعلم ومهمة التوجيه الديني بالخطابة الجمعية، وتعاطي الإفتاء في النوازل الفقهية، وما إلى ذلك، وإن كان هو والعم لم يفترا عن ذلك حتى في العام الأول لحلولهما بطنجة، فالعم انقطع للتدريس بمسجد القصبة طوال اليوم وتولى الخطبة بالزاوية الناصرية، وكان سكان قرية مرشان يأتون إليه يوم الخميس من كل أسبوع بدابة ينتقل بها إليهم، فيظل يومه ضيفاً عليهم يلقي دروساً علمية على طلبتها وبالمساء يلقي درساً وعظياً لعموم سكانها، وذلك بمسجدها القروي الصغير الذي كان

بها قبل أن يبني الوزراء ورجال الحكومة العزيزية[1] الذين لجأوا إلى طنجة المسجد الكبير بمرشان مجاوراً لمسجد القرية الصغير، ولما توفي كما قلت بعد عام في رمضان التالي لرمضان الذي وصلنا فيه إلى طنجة، جاؤوا للوالد وطلبوا منه أن يدفنوه عندهم في مسجدهم فوافق الوالد، وكان أول من دفن في ذلك المسجد الذي امتلأ الآن بالقبور، وممن دفن فيه بعد ذلك، الشيخ عبدالله السنوسي السلفي المعروف، ومنهم ناظر الأوقاف السيد محمد (فتحا) الركينة، ودفن بساحته بعد امتلائه القاضي محمد بن رحمون والقاضي عبدالعزيز الغساسي والواعظ محمد بن إدريس بناني رحمهم الله جميعاً.

وأما الوالد فكانت دروسه اليومية في الفقه والعربية وغيرهما من العلوم بالمسجد الأعظم، والدينية بالزاوية التيجانية ليلاً بين العشاءين، وتولى الخطابة بالجامع الجديد، كما كان يلقي فيه أحياناً بعض الدروس العلمية وخاصة في الفنون الآلية كالمنطق والبلاغة مما يختار له الطلبة يومَيْ الأربعاء والخميس وأيام العطل، وكذلك كان يخص المسجد الأعظم بدروس الحديث في رجب وشعبان ورمضان قبل أذان العصر، وكان السلطان الأسبق مولاي عبدالعزيز يحضر في بعض هذه الدروس.

نعم، انصرف الوالد بعد وفاة أخيه إلى استئناف عمله

---

(١) العزيزية: نسبة إلى السلطان مولاي عبدالعزيز الذي استوطن طنجة بعد تنازله عن العرش لأخيه مولاي عبدالحفيظ، وبقي مستقراً بها إلى حين وفاته سنة ١٩٤٣، فنقل جثمانه لفاس ودفن بها.

العلمي الذي كان يقوم به في فاس، وهو قد كان مشتهراً بنشاطه ومواظبته في القرويين وغيرها، وقد واصل هذا النشاط في طنجة بعزيمة لا تكل، بعد أن تبين أن انتظار نهاية الحرب قد يطول جداً، وتولى الاهتمام بأسرة أخيه، وتدبر أمر الاستقرار والسكن الذي تغير في عام واحد ثلاث مرات أو أكثر بسبب أن الدور التي كان يستقر فيها لا تتوفر على وسائل الراحة، إما لضيقها وإما لبُعدها، علماً بأنه يؤوي معه صهره القادري وأحياناً صهره الطالبي كذلك، وأهم مشكلة كانت تواجه الأسرة هي الماء، فمن المعلوم أن طنجة آنذاك لم تكن بيوتها تتوفر على الماء الصالح للشرب أو التنظيف، وهو إنما يقتنى من القرابة الذين يطوفون بقرابهم في الأحياء، أو أصحاب البراميل الذين يبيعون ماء الشرب الذي يستقى من بئر واحدة بالمدينة في شاطىء البحر يسمى بئر الفرنسيس... وإذا قارنا هذه الحالة بما كانت عليه الأسرة بفاس، والماء يتدفق بين أيديها من صهريجين اثنين أحدهما بالدار الكبيرة والآخر بالدار الصغيرة، زيادة على نافورة بوسط الدار الكبير ينهمر ماؤها ليل نهار، أقول: إذا قارنا بين الحالين علمنا ما كانت الأسرة تعانيه في حياتها اليومية من متاعب وصعاب.

وقد فرجت هذه الأزمة في العام الثاني لقدومنا إلى طنجة على يد الأمين القباج الذي قال للوالد: إني سأنتقل إلى مراكش، والدار التي أسكنها هي الدار الوحيدة في طنجة التي تصلح لك، وفعلاً كانت هذه الدار فسيحة الأرجاء كثيرة الحجر والغرف ما بين فوقي وسفلي ذات مطبخ بمثابة دويرية صغيرة بها مقعد للخدم وصحن وحلقة، أي: منور

للهواء والشمس، وحمام بلدي، وامتيازها الأكبر هو اشتمالها على بئر غزيرة الماء لا تغيض ولا تغور، عليها آلة متح (مضخة)، تجعل استخراج مائها يتم بسهولة، وهي واقعة وسط المدينة في الحي المسمى بوادي أحرضان، بينها وبين كل من المسجد الأعظم والجامع الجديد والزاوية التيجانية نحو مائتي متر أو ثلاثة، وهذه الدار هي المعروفة بدار الطريس، يعني النائب السلطاني المعروف، وكانت إذ ذاك مُلكاً للوزير الجباص، وكان كراؤها عشرين ريالاً حسنية، وهو كراء قياسي في ذلك الوقت، فانتقلنا إليها ووجدنا فيها أعظم الراحة، وانتظمت بذلك حياتنا وتمّ استقرارنا، وكأني بالوالد العزيز يتلو عندئذ قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ وسيدات البيت يقلن متمتمات: «الحمد لله الذي أبدل درهمنا بدينار».

كان من نتائج هذا الاستقرار مضاعفة جهود الوالد في انتقاله بين أماكن وجوده من المسجد والزاوية لقرب المسافة حتى أنه كان يخرج لصلاة الصبح في الزاوية[1] إلى أن كثرت المشاغبات بين الأجانب في أثناء تأسيس النظام الدولي والحرص على تعميم المشاركة فيه من دول لم تكن مشاركتها فيه واردة، فكان بعض رعاياها المتسكعين ليلاً في المقاهي والمقاصف يشتبكون بالسلاح في مطاردة بعضهم لبعض، وخاصة في السوق الداخلي الذي كان هو وسط المدينة، وحي وادي أحرضان الذي هو محل سكنانا يقع

---

(١) في الزاوية، يعني: الزاوية التيجانية، لأن الشيخ عبدالصمد كان تيجانياً.

بمقربة منه وكأنه مكمل له، فحدث ذات ليلة أن أطلق أحد الإيطاليين النار على خصم فرنسي له، في حين مرور الوالد بينهما وصارت فتنة اختلط فيها الحابل بالنابل فرجع الوالد إلى البيت، وانقطع عن الخروج ليلاً من ذلك اليوم.

وبالنسبة إلينا أنا والأخ عبدالحفيظ استقر أمرنا على القراءة في كتاب قريب من البيت ومعلم حضري من أهالي طنجة هو الحاج محمد بن العربي أشرقي المعروف بابن فضيلة، وقبله كنا قد التحقنا بكتابين مختلفين نظراً لاختلاف الأحياء السكنية التي تنقلنا بينها، وهي ثلاثة بقينا في واحد منها برغم اختلاف السكنى، ولما ابتعدت سكنانا عنه التحقنا بالثاني، وكانا معاً لمعلمين بدويين قلّ أن انتفعنا بشيء منهما، فأنا لا أذكر شيئاً مما قرأته عليهما ولا ما ابتدأت به ولا ما انتهيت إليه، تماماً ككتاب فاس الذي لم يسبق في ذهني عنه إلا حادث القرش الذي حكيته قبل، نعم أذكر أننا لما ابتعدنا عن الكتاب الأول، لم نكن نخرج وقت الفطور كما يخرج الأطفال الآخرون لبُعد السكن، فكنا نحضر معنا طعام الفطور، ويهيئ لنا المعلم الشاي الذي نتناوله مع الطعام، ولا شك أن ذلك كان بتوصية من الوالد، فكان هذا المعلم بالنسبة إلينا معلماً وقهوجياً، وأما الكتاب الثاني فأذكر أن معلمه كان ينام مولياً وجهه شطر الجدار، وحين يحس بفتور القراءة وخفوت صوت الأطفال يجلس ويقول مهدداً لنا: «طاب طريق تعرطوا»، وهذه الطريقة معروفة في اللهجة الجبلية، معناها أنكم ستعرضون ألواحكم عليّ قريباً، ثم يعود إلى إدارة وجهه للحائط وينام. لكن الكتّاب الجديد

كان أولاً في زاوية متسعة في الجملة نصعد إليه ببعض الدرج، وبها بعض النوافذ ورف لوضع النعال وهو في صرة البلد في حي وادي أحرضان الذي ذكرته آنفاً، ثم انتقلنا بعده إلى كتّاب قريب من الجامع الجديد، وهو ذو طبقتين: عليا لها نافذة على طريق الجامع المذكور، وأخرى على الطريق المقابل له، وكان قبل كتاباً للفقيه المدور من عائلة المدور الأندلسية، وكان رجلاً فاضلاً تخرّج به جلّ طلبة طنجة، ويستقر في الطبقة العليا المعلم والتلاميذ جميعاً ما عدا الطلبة الذين حفظوا القرآن فإنهم يستقرون في الطبقة السفلى، وهي كذلك لها نافذتان على الشارع وبها حوض لمحو الألواح، وبالجملة فهو كتاب مثالي بني لغرض التكتيب ولم يكن ينقصه إلا مستراح، والمعلم رجل حضري نقي الثياب ظاهر الشباب، في نحو الثلاثين من عمره، وهو بارع في مهنته، ومتمكن من زمام تسيير أمور التلاميذ الذين كانوا يختلفون سنًّا، ما بين أطفال في طور التهجي، وأولاد يشرف على تكتيبهم بنفسه إملاءً للحصة القرآنية التي تخص كل واحد منهم مع ما تقتضيه كتابتها من تشديد حرف، وكيفية ضبط كل كلمة، وربط تاء أو إطلاقها، وألف أو ياء ألف في آخر الكلمة، وألف قطع أو وصل، وصلة تتبع ما قبلها ونقطة على ألف من حيث يقرأ، وغير ذلك، وبعض أولاد كبار جاوزوا مرحلة التكتيب وإنما يتلقون الآية من فمه لكتابتها مع التحذير من الخطأ المتوقع في الرسم، كانت الهيبة مسيطرة على الكتاب، ولكن مع ذلك هناك تخفيفات غريبة لم تكن في أي كتاب آخر من أمهات الكتاتيب

المعروفة في المدينة، كان التعليم فيه يبتدىء بعد طلوع الشمس وينتهي قبل الغروب، وبطبيعة الحال يتخلل هذه المداومة حصة للفطور ننصرف فيها إلى بيوتنا بعد محو الألواح وكتابتها من جديد، وحصة طويلة تمتد من بعد الفطور إلى الزوال، ثم ما بعد الظهر إلى ما قبل الغروب، في حين أن الكتاتيب الأخرى يبتدئ الحضور فيها أو في أكثرها بعيد الصبح بقليل، ويستمر بعد الغروب إلى قريب من أذان العشاء فهم يحتاجون إلى الإنارة، وكانت عندنا استراحة أخرى للكبار وهي الخروج لصلاة العصر في وقتها، وكنا مقسمين إلى عدة مساجد، فطائفة إلى المسجد الأعظم وأخرى إلى مسجد الجامع الجديد، وآخرون إلى بعض الزوايا، وذلك لئلا نذهب في مظاهرة، أو لعل الأمر لاتقاء العين على نحو ما قال يعقوب عليه السلام لولده: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾[1]. أما سائر العطل فهي من صبيحة يوم الخميس إلى ظهر يوم الجمعة من كل أسبوع، وأيام المواسم كعاشوراء والمعراج وما يسمى بالنسخة وهو يوم النصف من شعبان، والعواشر وهي عشرة أيام في كل عيد كالفطر والأضحى والمولد ولم يكن بيننا وبين الكتاتيب الأخرى فرق في هذه العطل.

وأكثر من ذلك إن القراءة كانت عرضاً ومحواً وكتابة، عرضاً في الصباح لما كتب بالأمس، ومحو اللوح، ثم كتابة حصة أخرى، ولا استظهار بعد ذلك ولا (أسوار)[2] إلا لمن

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٦٧.

(٢) الأسوار: بمعنى القدر المحفوظ من القرآن كأنه جمع سورة.

أتمّ الختمة كلها إلى سورة البقرة. ومعلوم أن التعليم كان في كل الكتاتيب يبدأ من السور الصغار ويستمر بما يشبه العد العكسي من الأحزاب والأجزاء السفلى إلى الأعلى... فإذا بلغ المتعلم سورة البقرة وأقيمت له الحفلة الاعتيادية، بدأ القراءة منها إلى ما يليها على ترتيب المصحف، وفي هذه الحالة يصير مطالباً بالاستظهار، وبعبارة الكتاب بحفظ (الأسوار) إلى الأحزاب الخمسة الأولى، فإذا جاوزها ألغي الحفظ بالنسبة إليها وبدىء من الخمسة الثانية فقط وتنوسيت الخمسة الأولى، ثم إذا بلغ الخمسة الثالثة ألغيت الثانية ولم يعد المتعلم مطالباً إلا بحفظ الثالثة، وهكذا العمل في باقي القرآن لا يطالبه المعلم بحفظ ما عدا آخر خمسة يقرأها، حتى إذا أنهى الختمة كلها وبدأ الختمة الثالثة حينئذ لزمه بالحفظ المتواصل من البداية إلى النهاية.

وكنا نجتمع في صلاة المغرب بالمسجد الأعظم ونلتقي بغيرنا من متعلمي الكتاتيب الأخرى فنجدهم يستظهرون من القرآن ما لا نستظهره نحن، بعضهم يتابع قراءة الحزب اليومي في المسجد ونحن لا نقدر، فنشعر بغيرة منهم، وبعد مرور الزمن، وترك معلمنا لمهنة التكتيب وانتقاله إلى مدينة سلا كاتباً للمستعرب المشهور ميشو بلير، كان يأتي في رخصته السنوية إلى طنجة وكنت أستضيفه وأعتني بإكرامه فسألته ذات يوم عن هذه الطريقة التي كان يتبعها في التعليم مخالفاً بها غيره من المعلمين، فقال لي: هذه طريقة أستاذي السيد العابد، كان يقول لي: لا تبغض أبناء المسلمين في القرآن ولا تكره لهم الكتاب، علمهم

الكتابة والقراءة وما تيسَّر من حفظ كلام الله، فمن كانت فيه قابلية وداوم على الحضور والقراءة فسيحفظ ويتعلم، ومن كان بخلاف ذلك فلا يخرج من الكتاب خاوي الوفاض بادي الأنفاض ثم يقرأ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾.

وكان أستاذه هذا المسمى بالعابد يحضر إليه في بعض الأحيان، وبحسب ما أذكره كان رجلاً طويلاً شديد البياض منوّر الشيبة عليه سكينة ووقار، فيُجلسه بجنبه ويتحدث إليه قليلاً، ثم يأخذ مما يكون توفر لديه من النقود في ذلك اليوم قدراً ويسلمه إليه فينصرف وهو يدعو له ولنا معشر المتعلمين.

وللعلم كانت العادة أن يقدم المتعلمون إلى (الفقيه) وهو لقب المعلم في ذلك الوقت، كأجرة كل يوم أربعاء قدراً من النقود، يتراوح من قرش إلى نصف درهم، ودرهم وربع ريال إلى درهمين ونصف، وعند بلوغ سورة من السور المشهورة كسورة الأعلى أو سورة النبأ أو الرحمٰن أو يٓس وما شابهها مبلغاً قد يكون ريالاً كاملاً أو بضع ريالات على قدر أسرة المتعلم المادية ومثل ذلك في مطلع كل شهر، على أن هناك متعلمين يتامى وفقراء كان المعلم لا يقبل أن يتكلفوا بشيء.

وعلى ذكر خروجنا لصلاة العصر أذكر حادثة غريبة وقعت لي في هذا المقام، وهي أني كنت من فوج المصلين في المسجد الأعظم، ففي بعض الأيام توجهنا للصلاة وبعد رجوعنا لاحظ الرفقاء شخصاً يتبعنا، فصاروا يتهامسون بما يكون منه، وما إن دخلنا إلى الكتاب حتى مثل أمام الفقيه،

وسلّم عليه، وقال له: يا فقيه هؤلاء الأولاد أتبعثهم إلى الصلاة في المسجد أم للعب؟ فقال له: كيف؟ قال: إنهم لا يصلُّون وإنما يلعبون ويشوشون على المصلين، قال الفقيه: أنت رأيتهم؟ قال: نعم، فنادى الفقيه محاضرة[1] الجامع الكبير، فاصطفننا أمام الفقيه، فقال الشخص المذكور: نعم هم هؤلاء، فأمر الفقيه أحد كبار الطلبة بحملهم واحداً واحداً وتهييئهم للعلقة، وأخذ كل نصيبه من العصا على باطن رجليه، وأخرني عمداً وأنا في حالة من الذعر الله أعلم بها، وما أن اقترب مني المكلف بحملي حتى قام أحد الرفاق وكان يلقب بولد عمتي واسمه عبدالقادر شابو، وكانت أمه عمة أولاد الخروبي، وهم عدة وكانوا كلهم من متعلمي كتّابنا، فمن كثرة ما ينادون هذا الولد بولد عمتي غلب عليه هذا اللقب، فقام وقال: نعم سيدي، الحق إن فلاناً يعنيني، كان يصلي ولم يكن معنا، ففرج عني وسر الفقيه وقال لذلك الشخص: ها أنا كنت سأضرب ولد الناس من غير حق، فقال الشخص: نعم إن هذا لم يكن معهم، والشخص المذكور كان شريفاً يقال له: سيدي عبدالسلام، وكان بديناً وطويلاً وغليظ الصوت، ولم أره بعد ذلك سنين طويلة، حتى رأيته في تطوان في عداد الأعوان بمشور الخليفة، أما السيد عبدالقادر شابو فما زال حياً يرزق، وهو يحترف بيع الجير، وكلما رآني يسلّم عليّ ويقول لي: قد أنجيتك من علقة فأعترف له وأشكره.

---

(١) محاضرة: جمع محضري، وهو بمعنى التلميذ، منسوب إلى المحضر بمعنى الكتّاب كما يسمى عند بعضهم.

وحادثة أخرى شبيهة بهذه، كان معلمنا على تساهله ورفقه يجري علينا امتحاناً في بعض الأيام، خاصة يوم السبت أو يوم الثلاثاء، فيطالبنا بعرض محفوظ اليوم عشية، والعادة أن العرض يكون صباح الغد، وذلك لحملنا على الاجتهاد أو لرؤية بعض التهاون منا في الحفظ، فيوقف أحد كبار التلاميذ بجنبه وينادي على الأولاد، بدأ بصفوف الصغار المجتهدين، ليعرضوا الآية أو الآيتين من حفظهم، فإذا تلعثم أحدهم وظهر عليه عدم الحفظ حمله القائم بجنبه وضربه المعلم شوطين أو ثلاثة على أخمصه، ثم ينتقل إلى الصفوف التي تلي هؤلاء، وهم صف (الخروبة) فيفعل معهم ما فعل مع سابقيهم، وكنت في ذلك الوقت مع هؤلاء لصغر سني، ولكن حصتي كانت ثمن الحزب، أي: ضعف الخروبة، فكان أن عوقب كل من في هذه الصفوف لعدم حفظهم وتخطاني الفقيه عمداً وانتقل إلى الصفوف التي وراءنا، فانطلقت عاصفة من الاحتجاج بوضع السبابة على الفم صوب الأنف تنادي بصوت واحد، أس، أس، فقال الفقيه: ماذا؟ قالوا: إنك لم تنادِ فلاناً، فأجابهم وهو بحالة غضب: هل أنا أعمى؟ هل أنتم مثله؟ هو منذ دخلتم وهو منكب على لوحه، وأنتم تكادون تزلقونني بأبصاركم، إذا نفحت، (أي: أخذت النشوق)، أو شربت، أو عطست، اسكتوا وإلا ضربتكم مرة أخرى.. أدرك رحمه الله أني لم أكن حفظت لوحي في ذلك الوقت، وكنت لا أكاد أرفع بصري عن اللوح، وأنا بحالة اضطراب واختناق فأعفاني من العرض، وذلك من زكانته وفراسته ومعرفته بأصول التربية

وطرق التعليم غريزة لا دراسة. . . وقد بقي من رفاق هذا الطور بقيد الحياة بعض أفراد وأكثرهم صاروا إلى رحمة الله.

وكان معلمنا في رمضان يسهر الليل كله إلى الفجر ولا ينام إلا بعد صلاة الصبح وقراءة الحزب كما هي عادة الكثير من أهل طنجة، فلا يتأتى له الحضور إلى الكتَّاب في الصباح كالعادة، وفي كل سنة يكلف الطالب الذي جمع القرآن بحيث يمكنه أن يستعرض التلاميذ الصغار والذين يلونهم فيأذن لهم بمحو ألواحهم وتكتيبهم من جديد، فيقوم مقامه، إلى أن يحضر قبيل الزوال بقليل، وفي إحدى السنوات كنت أنا هو ذلك الطالب على صغر سني بحيث كنت لا أصوم، وفي طنجة يصوم الكبير والصغير، وهي عادة حسنة ومزية ينفردون بها، فواجهتني مشكلة، كيف أكون معلم الكتاب وأنا غير صائم، وعوّلت على الصوم فمنعتني والدتي وأردت الاستعانة عليها بالوالد فلم يأذن لي في السحور إذا كنت سأصوم، وقال لي: حيث تبلغ حد الصيام أنا آمرك، وأكثرت الوالدة من وصفي بالضعف والهزال وإني قليل الأكل وما يلحقه الصوم بي من ضرر، واستعان الوالد عليّ مثلها بالمعلم وكان يطيع الوالد طاعة متبصرة ولا أقول عمياء، يمنعني كل المنع بسلطة الفقيه، فسلّمت أمري إلى الله، وكانوا يعطوني طعام الفطور لأخذه معي إلى الكتاب، إذ لا استراحة في رمضان للفطور، فكنت آخذ معي الطعام وأضعه على الرف الذي في مقعد المعلم فيراه الأولاد، ويظنون أني صائم ولكن الفقيه حين يحضر ويراه يلزمني بالأكل فلا يكون عليّ لوم، وحدث في بعض الأيام أن ولداً من لداتي، وكان من أولئك الذين احتجوا

على عدم مناداتي للعرض الذي ذكرته فيما سبق، لم يكن حافظاً فأخرته إلى أن يجيد الحفظ ولم آذن له بمحو اللوح، فقام أحد المتعلمين الكبار في السن ولم يكن طالباً وكان من أسرة ثرية، فقال لي: هل هؤلاء الذين محوا ألواحهم كلهم كانوا حافظين؟ قلت: نعم، فقال: إن هذا أيضاً حافظ، وقال له: قم فامحُ لوحك، ففعل، وبعد أن هيأ لوحه للكتابة جاء يستمليني، فقلت له: إذهب إلى الذين أذن لك بالمحو فاستمليه، فسقط في يده وخاف إن جاء الفقيه أن يجده غير كاتب فيعاقبه، وقام الذي أذن له فطلب مني أن أملي عليه ليكتب، فامتنعت فقال: لم نكن ندري أن يكتبنا في هذا العام إسباني، يعني نصراني غير صائم، فما كان مني إلا أن قمت وأخذت نعلي وذهبت إلى دار الفقيه وطرقت عليه الباب، فخرج وعليه أثر النوم، فقال لي: ما أتى بك، فقلت له: إن فلاناً قد أحدث فوضى في الكتّاب وجرحني بكلام ناب، ورجعت إلى الكتاب وتابعت مهمتي في تكتيب التلاميذ، وأنا في هدوء تام، وحضر الفقيه حالاً وسأل عما جرى فأخبره التلاميذ كلهم بالأمر، فأمر بذلك المتأمر فطرح أرضاً وضربه علقة من أشد ما يكون، وحمدت الله على ما رزقني من التبصر والثبات بحيث لما أخبرت الوالد بما جرى سُرَّ بموقفي الذي كان في الحقيقة أكبر من واقع الحال، وهذان الزميلان ما يزالان بقيد الحياة وهما من أعز الأصدقاء.

والفقيه أشرقي إلى جانب ثقافته القرآنية، كان له إلمام بالعربية والمسائل الفقهية، فإني بعدما حفظت القرآن وصرت أكتب لوحي من حفظي في الختمة الثالثة، كان لا يحتاج

لمراجعته أو على الأصح لا يفرغ لذلك إلا بعد الظهر، فيذاكرني ببعض مسائل الرسم والضبط والتجويد، ويكتب لي بعض النصوص المتعلقة بالموضوع، وكان اللوح يحتوي نصف حزب، ربعاً في كل وجه منه، ثم لما صرت أحفظ المتون العلمية يشقق لي ألفاظ الآجرومية وأبيات ابن عاشر ويبين لي ما تتضمنه من أحكام، وفي كتاب الحج توسع معي كثيراً بحكم أنه سبق له أن حج، فوضح لي كثيراً من أحكام الفريضة الخامسة، وبيّن لي بتفصيل كيف كان حجه، وتطول جلسة مراجعته للوحي حتى يزاحمها أذان العصر أحياناً، ويكون التلاميذ مسرورين بذلك لغفلته عنهم في الجملة.

ومما أذكره في هذا الصدد أنني كنت أقرأ الحزب بالجامع الكبير بعد صلاة المغرب على المعتاد، وكان الوالد يأمرني بذلك لتصحيح الحفظ وإتقان التلاوة، فجلس بجنبي في أحد الأيام رجل ذو هيئة محترمة كبير السن له لحية كثيفة مخضوبة، وعيناه مكحولتان، ولما انتهينا من الحزب التفت إليّ وقال لي: طالب أنت؟ فقلت: نعم، فقال لي: اقرأ الفاتحة، فتعجبت منه، أحفظ القرآن ويسألني عن الفاتحة، ولكني قرأتها له في نفس، فقال لي: الرحمٰن ثابت أو محذوف؟ فأجبته: محذوف، فقال لي: والدليل؟ فقلت له: محذوف والسلام، فلها عني، ولم أراجعه لأنه عظيم في عيني إذ كان كالجبل وأنا بجنبه كالكدية الصغيرة، ورجعت إلى البيت فأخبرت الوالد بأمره، فقال لي: نعم لا بد من الدليل إما بنص خاص أو عام من متون القراءات،

وأمر الفقيه بأن يكتب لي الخراز، أي: النظم المعروف المنسوب لهذا الإمام والذي يحمل اسمه، ففعل الفقيه، وكان أول أبواب هذا النظم نصاً في المسألة، وصار يكتب لي كل يوم حصة منه ويشققها لي، وبعد ذلك صرت أترصد ذلك الشخص فلم يكن يحضر وأنا أتلهف لرؤيته حتى مرت مدة كدت أيأس من لقائه بعدها، ثم جاء فتدافعت إليه، وقلت له: سألتني عن الدليل على الحذف في الرحمٰن فها هو، وأنشدته قول الخراز:

وللجميع الحذف في الرحمان

حيث أتى في جملة القرآن

فقال لي: ابن مَن أنت؟ فقلت له: ابن فلان، فقال لي: سلّم على والدك، ودعا لي، فقلت له: وأنت مَن؟ قال: المأمون بن عجيبة، فأخبرت الوالد فقال لي: هذا حفيد الشيخ أحمد بن عجيبة.

وقد أطلت الكلام عن معلمي أشرقي قصداً لأني رأيت الكثير ممن يتكلمون عن معلميهم يصفونهم بأوصاف غير محمودة كالقسوة وغلظ الطبع وسوء المعاملة للتلاميذ، فأردت أن أعطي هذا النموذج الذي يختلف عنهم تماماً ويرتفع إلى مقام المربي الفاضل الذي لم تكن هذه المهمة الشريفة تصلح إلا له ولم يكن يصلح إلا لها. وللأسف فإنه تخلى عن مهنته الشريفة بعد قليل من تخرجي، وكنت أنا من الفوج ما قبل الأخير الذي تخرج به، حين قلّ الإقبال على الكتاتيب القرآنية وضايقتها المدارس النظامية، فتوسط له

الوالد مع قاضي المدينة في ذلك الوقت وهو الفقيه السيد علال الهرابي فعيّنه عدلاً، وكان القضاة حين ذاك هم الذين يسمون العدول، ثم إن صهرته السيدة عائشة بنت سيدي خليل اليعقوبي، وهي امرأة كانت ذات شعبية في المجتمع النسوي الطنجي، لما كانت تمارسه من قبالة وعلاج بعض الأمراض، وهي أم زوجة معلمنا، وأخيها السيد أحمد الذي كان من رجال البحرية وهو والد الشاب الفنان العربي اليعقوبي؛ توسطت له عند امرأة المستعرب ميشو بيلير، وكانت مسلمة من القصر الكبير تزوجها حين كان قنصلاً لفرنسا هناك، وكان الناس يعتقدون أنه مسلم لأنه يتزيّا بزي المسلمين. وقد رأيته أنا في مكتبته بعمامة على رأسه وجلابة وسلهام. فألحقه بمكتبته كمحافظ لها وكاتب له، وهو يومئذ مقيم بطنجة، فاتسعت حاله نسبياً، ولما انتقل إلى سلا انتقل معه، وأقام بها بقية عمره وازداد عنده أولاد، منهم الأستاذ عبدالصمد سماه على اسم الوالد، ومن الجدير بالذكر أنه كان ملازماً لدرس الوالد الليلي في الحديث والفقه والسيرة النبوية، ومن مرافقيه في غالب الاجتماعات ومن أصحابه وخاصة أصحابه رحمة الله عليهم أجمعين.



طنجة النشأة والمقام

بدأت بقراءة العلم أو (قراءة الأوراق) كما يقول طلبة البادية، وأنا ما أزال أتردد إلى الكتَّاب، ولا أعني حفظ المتون العلمية، فهذا كان مصاحباً لحفظ القرآن في مرحلته الأخيرة، بل المقصود حضور دروس العلم ودراسة مصنفاته على المشايخ العالمين بها، ولذلك ذكرت مصطلح الطلبة في البادية الذي يعبر بقراءة الأوراق.

وكان أول درس بدأت به هو درس الآجرومية وكان في الصباح على الساعة العاشرة وهو وقت دوام في الكتَّاب، فلذاك احتجت لتدخل من الوالد إلى استصدار إذن يومي من المعلم في الخروج من الكتَّاب لحضور ذلك الدرس في مسجد القصبة، وكنا يومئذ ما تزال سكنانا بوسط المدينة، فكان صعودي إلى القصبة بحد ذاته مشكلة لصغر سني، ولكن لا بد مما ليس منه بد.

وكان الأستاذ المدرس هو الفقيه السيد عبدالسلام بن الأشهب، أصله من قبيلة وادراس، طلب العلم بالبادية ثم بفاس، واستوطن طنجة، وكان في ذلك الوقت إماماً للخمس بمسجد القصبة وخطابته، ويتطوع بدرس في النهار

وآخر بالليل في هذا المسجد، وعادة يكون درس النهار في النحو إما بالآجرومية وإما بالألفية، على حسب رغبة الطلبة، ودرس الليل بين العشاءَين هو في الفقه وبمتن ابن عاشر، وكان الطلبة المبتدئون يحرصون عليه لجده وفصاحته وحسن تفهيمه وتقريره، وهم مختلفون في السن والإدراك، فينزل معهم إلى المستوى الذي يليق بكل منهم، وكان يجعل عرض الدرس أو ما يسمى عند الطلبة بالسرادة مناوبة بينهم ليتمرن السارد على القراءة بين يدَيْ الأستاذ وبمتابعة الطلبة الآخرين، حتى ينطلق لسانه ويتعود على الإلقاء الصحيح وتزول عنه الدهشة.

وكانت قراءة الآجرومية في المغرب وجامعة القرويين في فاس بشرح الشيخ خالد الأزهري. وكنت أنا أطالع لتحصيل الدروس نحواً من عشرة شروح عليها، كلها توجد في خزانة البيت، فبالإضافة إلى الأزهري، حاشية ابن الحاج عليه، وحاشية المهدي الوزاني، وشرح المكودي، وشرح السوداني والعشماوي، وجبريل وابن عجيبة، والشريف، وهو أول شرح وضع عليها، وغيرها ولما جاءت نوبتي في السرادة كانت هي (النصاب) أو ما يعبر عنه في الاصطلاح الأزهري بالشرق (بالدولة) الذي كتبه الأزهري على قول المتن في باب الإعراب (لفظاً أو تقديراً) وهو مادة طويلة بالنسبة إلى الطلبة المبتدئين، نوّع الشارح فيها الأمثلة بحسب ما يظهر إعرابه وما يقدر، فحين أذن لي الأستاذ بالسرادة انطلقت لا ألوي على شيء كأني في حلبة رهان لم ينقطع نفسي حتى أتيت على آخر المادة بدون تلعثم ولا توقف ولا

لحن مطلقاً، والأستاذ ينظر إليّ والطلبة ينظر بعضهم إلى بعض، وأكثرهم تكون مادة السرادة له بمقدار الربع أو أقل من مادتي وهم مع ذلك يقرأونها كأنهم يتهجونها فضلاً عن اللحن الفاحش الذي يدل على أنهم لم يحصلوا ما قرأوه. وقمنا لنسلّم على الأستاذ فسألني: مَن أنت؟ فقلت له: فلان بن فلان، فقال لي: هل يطالع أبوك معك، بمعنى يذاكر حسب التعبير المدرسي الجديد، فقلت: لا، وهو الواقع، فدعا لي، وصار إذا كانت النوبة في طالب لم يحضر يكلفني بالسرادة نيابة عنه، وكان يطرز الدروس ببعض القواعد الشكلية يلقنها لنا تلقيناً ويكررها كثيراً لنحفظها كما يفعل في تقريره لألفاظ المتن وشروحها، ويستشهد ببعض النصوص المنطوقة كلما دعت الحاجة حتى حفظناها من لفظه كقول القائل:

تـعـذراً فـي الألـف اسـتـثـقـالاً
فـي الـواو والـيـاء فـخـذ مـثـالا

إلخ، وقول الآخر:

والـمـفـرد اجـعـل فـي الـنـدا وبـاب لا
مـا لـيـس بـالـمـضـاف والـمـمـاثـلا

إلخ...

وهذه النصوص أكثرها مذكور في حاشية الشرح ولكن الطلبة يغفلون عنها ومنهم من لا يفهمها، ويستشهد كذلك بألفاظ الألفية، مثل قولها: (ونصبه ظهر) ولا سيما عندما

يخالف الطالب عند السرادة القاعدة فلا يظهر الفتحة في المنقوص، وهكذا كان يشوقنا إلى الألفية ويمرننا على فهم بعض أبياتها، ولما ختمنا الآجرومية في بضعة أشهر أراد بعض الطلبة أن يطلبوا من الأستاذ قراءة ختمة أخرى، وبعضهم أن يطلب منه قراءة الألفية، وكنت أنا من هؤلاء وقلت لهم: إنه يجب علينا أن نكرم الأستاذ بمناسبة ختم الآجرومية فجمعنا بعض الدراهم وأقمنا مأدبة غداء في بيت لبعض الفلاحين من أصحاب الوالد، وحضر الأستاذ وبعد تناول الطعام والجلوس للمذاكرة لم يكن يتجاوب معه إلا عبد ربه والسيد محمد الطويل وهو طالب من قبيلة بني مصور كبير وهو سارده في درس ابن عاشر بالليل، أما الباقي فكانوا عنه لاهين وربما تصرفوا تصرفات صبيانية فاستعجل القيام بعذر صلاة العصر، وذهب هو والسيد الطويل الذي كان يخدمه ويلازمه وانتفع به كثيراً، وأولاد الطويل في بني مصور أشراف عباسيون.

وأجمعت أمري على دراسة العلم، أولاً لأنه قدري الذي لا أحيد عنه ولا رغبة لي في غيره، وثانياً للتخلص من ضياع الوقت في الكتّاب إذ لم يبقَ لي فيه أرب، والمعلم يتمسك بي لأني أعينه في تكتيب الأولاد الصغار، وللإلف الذي يحصل للمعلم على طلبته الذين يتخرجون به، فلا يسهل عليه فراقهم، وخصوصاً بالنسبة إليّ فقد كان يعدني كأبنائه بل كان يفضلني عليهم في العناية والحرص على تحصيلي، ولكني كنت أحرص على منفعتي فحين فتح أستاذي ابن الأشهب درس الألفية كنت من أوائل الحاضرين

له، وبحثت عن دروس أخرى فوجدت درساً آخر للألفية وهو درس الفقيه العلامة السيد أحمد أبي العيش المعروف بمصباح، لقباً شائعاً في فريق من أشراف أولاد أبي العيش القاطنين بقبيلة أنجرة، وكان درساً رفيع المستوى، فلزمته، وهو ممن درس بالبادية أيضاً وبفاس، وأطال المكث بها وأخذ عن جلّة علمائها كالشيخ سيدي أحمد بن الخياط وسيدي محمد بن محمد بن عبدالسلام گنون، وكان كثير اللهج به، ويحكي من تحقيقه واطلاعه الشيء الكثير، ثم ظهر له مع الطلبة الملازمين لدرسه هذا أن يقسمه فيجعله درسين؛ أحدهما: من أول الألفية إلى الإضافة، والثاني: من الإضافة إلى الختم ليتمها بسرعة، فحضرتهما معاً، واستغنيت عن ألفية ابن الأشهب لمشقة الطلوع إلى القصبة، وعدم تمكني من حضور دروس أخرى بالمسجد الأعظم.

ودائماً مع الألفية، فقد طلب جماعة من الطلبة قراءة الألفية من العالم الجليل سيدي أحمد بن عبدالسلام السميحي، فلبّى طلبهم وكان يقرأها بعد صلاة العصر بالزاوية الوزانية بحي بني يدر لقربها من داره، فحضرت عنده من أولها إلى أبواب النداء، وكذلك طلب آخرون من أخيه العلاّمة الصالح سيدي محمد أن يقرأ معهم الألفية وعقيدة السنوسي بحاشية الباجوري فحضرتهما لمناسبة الوقت وعدم تعارضه مع غيره، وكانت قراءته رحمه الله متأنية متمهلة كثيرة الاستطراد والتوسع في المادة باستحضار الشروح المختلفة وسردها وتتبع فوائدها وما تثيره من أبحاث حتى لقد مرت سنة كاملة ولم نتجاوز باب الابتداء، فتخلف

غالب الطلبة، وكان بعضهم من العدول والموظفين، ولم يبقَ من الملازمين غيري وغير الطالب الأنجب السيد أحمد صالح رحمه الله.

وافتتح الوالد من أجلي ومن أجل الأخ عبدالحفيظ ختمة من الألفية بشرح المكودي وتوضيح ابن هشام، وكانت ختمة حافلة قضينا فيها أكثر من سنة، واجتمع لها الطلبة من مختلف الطبقات، وكانت ألفيته رحمه الله ممتازة بكثير من المزايا كتحقيق الشواهد وشرحها، وإضافة أحكام تعادل تارةً ما عند ابن مالك في كل باب وتكمل تارةً أخرى بعض ما بقي عليه، وهي منظومة مما ذيل به العلماء الألفية أو ذيلها بها هو.

وهذا إلى دروس الفقه بالشيخ خليل عليه وعلى الفقيه مصباح وغيرهما، وتحفة ابن عاصم، ورسالة أبي زيد القيرواني، وابن عاشر، والسنوسية بشرح صاحبها، ولامية الأفعال، وجمل ابن المجراد، والمنطق ونظم الاستعارة، والتلخيص للقزويني بشرح السعد، والورقات لإمام الحرمين، وابن السبكي بشرح المحلي، وتفسير القرآن بالجلالين، والسيرة النبوية بالبردة والهمزية، والشفا للقاضي عياض، والشمائل للترمذي، وغير ذلك. ولا أنسى أن بعض هذه العلوم مما أخذته عن العلاَّمة المحقق السيد عبدالسلام غازي كالسعد والهمزية والخزرجية في العروض، وكان من جهابذة علماء فاس الذين أوفدهم السلطان لتصفُّح الرسوم العدلية ومراجعة أحكام القاضي الشرعي مراجعة تقوم مقام الاستئناف قبل تأسيسه، تلبية منه لطلب الأجانب الذين كانوا

يلاحظون على جعل أحكام المحكمة الشرعية نهائية في حين أنها لا تعدو أن تكون محكمة ابتدائية، وكان ملحقاً بدار النيابة السلطانية كمستشار شرعي، وذلك قبل إنشاء النظام الدولي بطنجة، أما بعده فكانت الأحكام تستأنف بالرباط حيث توجد محكمة الاستئناف التي عين شيخنا عضواً بها لمدة، ثم عاد إلى طنجة بصفة قاض شرعي حتى توفي رحمة الله عليه.

وتتبع هذه المرحلة من دراستي يطول، ولكني أزيد على ما ذكرت دراسة الحديث، فكان الوالد بها قيّماً وعليها مواظباً، بحيث ختم البخاري وصحيح مسلم وموطأ الإمام مالك، وكانت دراسته لهذه الكتب دراسة بحث ونظر واستنباط ودامت مدة إقامته بطنجة منذ هجرته التي انتهت إليها، وكانت دراسته لها ليلاً في سائر العام ونهاراً بخصوص الأشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان، وكنت أحضرها وأنا ما أزال بالكتّاب وقبل حفظي للقرآن بإلزامه لي بذلك لأنها كانت بين العشاءين، ولم يكن وقت مداومة في الكتاب كما سبق القول، وانتفعت بهذه الدروس نفعاً كبيراً، وأعانتني على تفهم أعمق لسائر العلوم التي قرأتها من فقه وعربية وتاريخ وأدب، ووسعت مداركي وآفاق معرفتي بالدعوة الإسلامية والإصلاح الاجتماعي الكبير الذي أتى به الدين الحنيف، وحلّت لي عدة مشاكل في العقيدة والتشريع والسلوك والأخلاق، لم يحلها لا فقه ولا تصوف ولا فلسفة، وجعلتني أعتقد أن النهضة العلمية والتفتح على الحضارات واصطناع المعارف الكونية الذي تسابق إليه

المسلمون بترجمة كتب اليونان والأمم السابقة إنما انبثق من تعاليم السنة المحمدية التي كانت أعظم حافز للعرب على اقتحام حصون الفنون والثقافات المتنوعة والبحث في أسرار الطبيعة والظواهر الجوية وطبقات الأرض وبدء الخلق وحياة الحيوان وغير ذلك مما ألمع له القرآن الكريم وفسرته السنّة وألمت به استقلالاً، وكنت أستمع إلى إملاءات الوالد وتقريراته على الأحاديث باهتمام كبير وتسبح بي الفكرة في أجواء بعيدة، وتوحي إليّ بشروح وتعليلات لم يتطرق إليها الشرّاح فأسجلها تارة وأهملها أخرى، ولهذا لم أترك الحضور في درس الحديث للوالد حتى بعد أن انقطعت إلى الدراسة الفقهية وغيرها.

وباستثناء الوالد رحمه الله لم يرشدني أحد إلى أي فقيه أجلس عليه أو آخذ عنه، وبقيت الخيرة لي دائماً فيمن أقرأ عليه ومَن لا، وكان أحدهم يلتقي بالوالد وأنا لا أزال بالكتّاب، وكان الوالد يحتفل به حيث يسلّم عليه، ويقول لي: سلّم على الفقيه، وأنا حين أنظر أرى رجلاً ما زال في الثلاثين أو الأربعين متأنقاً في ملبسه وبيده عصا بمقبض فضي، وفي فمه سن ذهبية وهي من تمام الزينة في ذلك الوقت فلا أتصور أن هذا يكون فقيهاً، وكان حديثه رحمه الله عن أحدهم وهو شيخ عليه كل مظاهر أهل العلم بما يشكك في علمه وفي سيرته أيضاً، فكان ذلك كافياً لي في عدم الجلوس بين يدَيْ هذين إطلاقاً، وكشف الحال بعد ذلك أن الأول: لا بأس بعلمه واطلاعه، وأن الثاني: زائف في هذا الباب كما هو زائف في الناحية الخلقية برغم تظاهره بالتقوى

والصلاح، وكان الطلبة الرفقاء يأتون ليقولوا: بدأنا في قراءة الفن كذا على فلان، أعني الشيخ الثاني، فلا يستفزني ذلك طبيعة، ولكنهم ما يقضون يومين أو ثلاثة حتى ينفضوا من حوله.

ثم بعد ذلك كانت دراستنا الأولى منصبّة على العناصر الضرورية للتثقيف واللغة وما يتعلق بها، ثم ما كانت الدراسة تدور حوله أي الإسلام والتشريع الإسلامي وعلومهما، ولا أذكر لفظة الثقافة لأنها لم تكن مستعملة آن ذاك فيما بين الطلبة وأهل العلم، وكان مدلولها لغوياً محضاً، التثقيف الذي يأتي من أصل ثقف الشيء علمه أو ثقف السنان أو الرمح... ما كان يستعمل هو التحصيل، والإنسان يحصل جانباً من المعرفة في الاتجاه الذي يفضله. كانت جماعة من الطلبة تفضل دائماً الفقه وما إليه، لأنهم ينظرون إلى مستقبلهم ولا يضمنون هذا المستقبل إلا في هذه الدائرة الخاصة فيكونون إما عدولاً أو قضاة، فهم يحضرون لهذا المستقبل في الدروس الثقافية المتعلقة بالتشريع الإسلامي والفقه. وهؤلاء أغلبهم من البادية، ونظرتهم هذه صحيحة، لأنهم سيرجعون إلى قراهم، فيتعلق الناس بهم، ويسألونهم عن مسائل الدين والرسوم والعقود والدعاوى، فيجب أن يجدوا لديهم جواباً. وكل واحد منهم يتعلق أول ما يتعلق بالعدالة ثم ينظر إلى القضاء. فهذه طبقة من الطلبة كانت غايتها هي أن تثقف أو أن تحصل، وهذه هي اللفظة الملائمة، وكثيرون كانوا لا يحضرون معنا في الدروس الأخرى. وإن كان هذا لا ينفي أن من بينهم بعض

الأفذاذ القلائل الذين كانوا يهتمون أيضاً بقضايا الفكر والعلم والتحصيل العام. الطلبة الذين كانوا نبهاء، كانوا يتخذون الأسوة من أساتذتهم، يقارنون بين هذا والآخر، فيجدون بعض المميزات التي لا توجد في باقي الأساتذة، بل لدى واحد منهم أو اثنين أو ثلاثة، فيلازمون هؤلاء، وكما يقال: «لا تعرف خطأ شيخك إلا إذا جالست غيره»، دائماً كان هناك علماء يخوضون في مختلف العلوم التقليدية، ويعطون المثل، ويقدمون النصيحة للطالب. حينئذ تتفتح أفكاره على ما ليس يقبل عليه الجميع.

لكن بالنسبة للأدب فالواقع أنه لم تكن هناك ثقافة أدبية رسمية، أو مطروحة في الساحة، بل كان الذين يتشوقون لهذه الثقافة يلاحقون ويتابعون الشخص الذي يعتقدون أنه كفء، وأنه قادر على مدهم بعطاء أدبي. يعرف أنه يكتب رسالة ممتازة، ويخطب خطبته من صنعه، لا من الكتب المطبوعة للخطب، أو هو في بعض الأحيان يكون من شغفه بالأدب يقترح دروساً على الطلبة، يقول: تأتونني في الوقت الفلاني، خارج الأوقات التي نعمل فيها، لنقرأ كتاباً أدبياً، فكثير من الطلبة كانوا متفتحين، يحضرون لهذه الدروس فيتكونون. ومع ذلك فإن مثل هذا التكوين لم يكن يكفي، لأن أغلب هؤلاء كانت ثقافتهم أو حصيلتهم العلمية قديمة، ـ وليس هذا بنقيصة ـ لكن بالنسبة لمن يطمح للجديد عليه أن يبحث في مجالات أخرى، وأنا من الجيل الذي لما فتح عينيه ـ لحسن الحظ ـ كانت في العالم العربي حركة ونهضة وتجديد، ولم يمر المغرب بهذه التجربة،

تونس هي الأخرى لم تمر بها. كان ذلك في مصر والشام (ونقصد بالشام سوريا الكبرى والعراق)، فكانت الكتب والمجلات والصحف تفد علينا من الشرق نطلع فيها على ما لا نعثر عليه عندنا، والصحافة التي كانت عندنا في المغرب كنا نجد فيها كلاماً فارغاً لا حصيلة له، كانت صحيفة السعادة مثلاً، وكذلك صحف تأتي من الجزائر وتونس، وكلها كلام عادي لا حاجة تجذبنا إليه.

هذه الصحف والمجلات كنا نحصل عليها بصعوبة، لا لأنها كانت ممنوعة، ولكنها قليلة فالتوزيع غير منظم، ونحن الذين كنا دائماً نقترح على الكتبي أن يأتينا بهذا الكتاب أو ذاك من الكتب التي كنا نجدها في قوائم الإعلانات. وتمر مدة طويلة حتى يصل الكتاب. يمكن أن تطول المدة سنة أو سنتين. وكذلك تأتي الصحيفة أو المجلة من غير انتظام، وكانت أعظم مجلة في نظري هي المقتطف، التي أدت مهمة للغة العربية والمثقف العربي. كانت مجلة تكتب في الأبحاث العلمية، إذ نشرت ترجمة لنسبية إنشتاين، وكنت أتتبعها وأتعمق فيها، وتكتب المقتطف بلغة عربية رائعة. كانت (الهلال) أيضاً، لكن الهلال ذات صبغة أدبية واجتماعية، تنشر دراسات أدبية غير معمّقة، وتراجم بعض الأشخاص، وأخباراً منوعة. هذا كان في الثلاثينات، وقبلها في باقي العشرينات ونحن كنا صغاراً، ومن أكبر منا يقرأون (المؤيد) و(اللواء) وهذه الصحف كانت تصل منها أعداد متفرقة، فتحت عيني فوجدت بعضها، لأن أخي محمداً كان يشتريها، وكذلك أبي، حتى الاستقلال. وكنت جمعت

عشرات الآلاف من الصحف من العالم العربي، وأهديتها للخزانة العامة بالرباط، لأنني لم أعد أجد لها مكاناً في بيتي، جمعتها وأرسلتها في أربع عشرة قطعة كقطعة التجار، أتيت بالخيش وناديت على من جمعها وأرسلتها في رحلتين. هناك (الأهرام) (الجامعة العربية) وكانت تصدر بالقدس عن الهيئة العربية العليا لفلسطين، وهناك أيضاً صحف تونس مثل (نشيد الأمة) و(الزهراء) ومن الجزائر (النجاح). فهذه كلها كانت تأتينا بمادة نطور بها معلوماتنا ومعارفنا. والكتب تميز هذه الفترة، ولها ميزة يمكن أن أقول: إنها غير موجودة الآن، وكانت تختص بالعالم العربي، ولا أظن أنها كانت في جهات أخرى، حتى في العالم الغربي، إذ كان المثقفون العرب بالإنجليزية والفرنسية، بالإيطالية وبالروسية، يترجمون أدب مرحلتهم، فنحن قرأنا تولستوي ودوستويفسكي في ذلك الوقت. كانت الترجمة مزدهرة على يد أدباء فلسطين، ولبنان، وسوريا، ومصر، وهي ظاهرة مدهشة في الثقافة العربية، من خلالها تعرفنا على العالم، فيكتور هيجو، راسين، غوتة، أسماء كثيرة وأعمال عالمية.

طنجة ليست كفاس، الطلبة الذين كانوا يقرأون معنا هم من حافظي القرآن والمتون، فلم أكن أستفيد منهم شيئاً على الإطلاق، كنت أصغرهم، وكلهم باللحى، كلهم فقهاء، عكس ذلك كنت أخالط طلبة المدارس العصرية، فهم يميلون إليّ ليأخذوا العربية، وينظرون إليّ نظرة تعجب وأنا صغير.

كان لدينا في طنجة طبيب يسمى هيمنا لجي، وهو

مدير معهد باستور للأبحاث، كان منقطعاً للعلم، ترك زوجته وأولاده بفرنسا وجاء للمغرب، كان يلتقي بنا، أصدقائي يتكلمون معه بالفرنسية فيقول لهم: هذا (savant) عالم.

ولقد مررت في حياتي الدراسية بمرحلتين أساسيتين: المرحلة التي كنت فيها أحب الذهاب إلى فاس لأختبر معرفتي. أذهب إلى فاس، وأحضر دروس العلماء الكبار الذين أعرفهم، ويدوم ذلك مدة أسبوع أو أسبوعين. مرة ذهبت فوجدت الدروس غير منظمة، هذا العالم لا يحضر اليوم، ذاك لم يأتِ البارحة. تنظيم ضعيف، صعدنا أنا وابن عمي في عقبة الطالعة فوجدنا مولاي عبدالله الفضيلي، وهو من العلماء المعروفين، ذهبنا، سلّمنا عليه، فسأل عني، مَن هذا؟ قال ابن عمي: هذا ابن عمي من طنجة، قال لي: أتيت لتدرس هنا؟ قلت: أية دراسة عندكم هنا بفاس؟ قال لي: تدرسون الشيخ خليل؟ قلت: ثلاثة أساتذة، الأصول؟ قلت: أستاذان، وأضفت: أنتم تدرسون الحديث؟ فذكر لي أن الحديث لا يدرس بفاس. وكان هذا عكس مدينة طنجة، البخاري، مسلم، الموطأ، ونزعت من بالي فكرة العودة إلى فاس.

والمرحلة الثانية هي التي سافر فيها عبدالخالق الطريس، الفقيه الطنجي، المكي الناصري، عزيمان، كلهم سافروا إلى مصر بقصد الدراسة، كدت أُصاب بالجنون، كنت أنا الآخر أريد السفر لأتفتح أكثر، أبكي ليل نهار، أمي قبلت بفكرة سفري، أما أبي فلم يقبل، وأقسم ألا أفارقه.

ولا أقول بأن هذه الدروس وهذه العلوم، هي ما شكلت حصيلتي، أو ما حدد تكويني، ذكرت سابقاً

المطالعة، مطالعة الصحف والمجلات، والكتب الوافدة علينا من المشرق، ألتهم الكتب، كتابين في اليوم من الحجم المتوسط، من هنا كان التكوين الثقافي العام، كذلك الفرنسية التي أخذت في دراستها، أما الإسبانية فقد تعلمتها من الشارع وأصبحت أتقنها فيما بعد.

أصدقائي الذين كانوا يعلمونني الفرنسية وأعلمهم العربية، وهم من تلاميذ المدارس العصرية، كانوا يتوفرون على كتب فرنسية، وكان يكفيني أن أرى عنوان الكتاب لأحفظه، السينما أيضاً كنت شغوفاً بها، عنوان الفيلم بالفرنسية يظل ثابتاً في ذاكرتي، وهذا هو الأساس، ولا أنكر أن المعرفة لا تتم إلا بالتفاعل، فكل معرفة تفيد في إضاءة المعرفة الأخرى، لذلك فأنا كنت أجد ما ينفعني فيما أقرأه، دائماً هكذا كانت الدراسة، والمراحل الأولى من التثقيف، فمنها ما هو تقليدي، ومنها ما هو عصري، وابتدأت الكتابة، وهذه المرحلة سأتحدث عنها فيما بعد.

ولما بلغت التاسعة عشرة غامرت بإلقاء الدروس لا سيما في الزاوية التيجانية، أما ما قبلها فكانت دروس أخرى بناءً على رغبة مجموعة من الطلبة، وقد طلب مني جماعة من الشيوخ أن أدرس بالزاوية فاستحييت من أولئك الرجال، واضطربت الزاوية نتيجة خلافات شخصية بين القائمين عليها فقررت أن أعتزل دروس الزاوية ولكني استحييت، وكان الوالد قد استحسن ما فعلته لما عدت إليه، ولم تستقم حالة الزاوية في الإمامة بعد ذلك، وصاروا يقدمون ويؤخرون مدة طويلة إماماً بعد إمام.

استحييت من أولئك الرجال وقد كان أكثرهم في سن الوالد وفتحت عيني عليهم وأنا طفل صغير، وكم فرحوا بي وأكرموني، فلم أملك إلا أن قبلت عرضهم ووافقت على إلقاء دروس بين العشاءين في الزاوية كل يوم، وكنت أصلي المغرب بالمسجد الأعظم وأقرأ ما شاء الله من الحزب ثم أذهب إليهم فأجدهم يقرأون الوظيفة، وربما وجدتهم قد فرغوا منها وهم والناس معهم من غير التيجانيين ينتظرونني.

وقرأت في جملة ما كتب لي أن أقرأه نظم ابن عاشر ومختصر ابن أبي جمرة، وطرفاً من السيرة النبوية في أواخر صفر وأوائل ربيع الأول، بقصيدة الهمزية للبوصيري، وكنت أقرؤها بسبعة علوم زيادة على السيرة، فأبدأ أولاً باللغة ثم بالتصريف، ثم الإعراب، ثم العلوم الثلاثة: المعاني والبيان والبديع، ثم العروض، وأخيراً السيرة وهي العلم الثامن، وطار لي بذا الصيت في الأوساط الطلابية بالمدينة، فصار كثير من المنتسبين للعلم والطلب يأتون ليسمعوا ويروا، وبعض أهل العلم يسألونني عن الشرح الذي اعتمدته في المطالعة، وهل عندي شرح غير ما يوجد بأيديهم، وهو شرح بنيس أو ابن حجر؟ فأقول لهم: لا... والأمر إنما كان تحضيراً وترتيباً لما يتطلبه الموضوع، فبدل أن أتكلم على لفظة لغوية مثلاً عبر الشرح أقول ما في البيت من اللغة وكذا التصريف والإعراب وهلم جراً، ثم ما يذكره الشرّاح من بعض المعاني البلاغية، ولكني أرتبها فأقول المعاني، وقد لا يكون الشارح تعرض لشيء من ذلك، ولكني أتأمل البيت فأطبق عليه قاعدة من قواعد الصرف، وأما العروض

فلم يكن الشرّاح يتعرضون له بحال، فأشير إلى ما في البيت من زحافات أو علل جائزة وأستشهد على ذلك بالخزرجية، وفي النهاية أقول العلم الثامن وقد تضمن هذا البيت كذا وكذا.

وكان القاضي في ذلك الوقت يقرأها في المسجد الأعظم ويقرأها على العادة، فيقارن الناس بين القراءتين، ثم إني استأنفت قراءة الصحيح من المكان الذي تركه فيه الوالد، ودأبت على ذلك أيام السنة إلا في رمضان فكنت أقرأه بالمسجد الأعظم بعد العصر وقراءة الحزب. واستمرت قراءتي بالزاوية التيجانية نحو خمس سنوات، وكانت تحصل مني وقفات عند بعض الأحاديث أتطرق فيها للحوادث الوقتية والأحوال الراهنة، مما يعتبره الناس في ذلك الوقت تدخلاً في سياسة الدولة، وبلغ ذلك إلى الجهات المسؤولة، فصار بعض المشبوهين يحضرون دروسي ويتناقلون ما يصدر مني في هذا الصدد ويرفعونه إلى أسيادهم مزيداً ومبالغاً فيه، فحدث أن مراقب الولاة وهو فرنسي يسمى طروشي، وكان قبل طنجة في فاس، وشارك في القمع الذي وقع أيام المظاهرات والاحتجاجات على الظهير البربري، فقام ولم يقعد واستدعى بعض أعيان الفقراء التيجانيين، وقال لهم: إن الطعن في الدولة والتشهير بها يجري يومياً في زاويتكم وأنتم راضون ومتقبلون له، فقالوا: وممن يكون ذلك؟ قال: من المدرس عندكم الذي هو عدو للدولة، قالوا: المدرس عندنا هو فلان، وهو ابن شيخنا ورجل فاضل لا يصدر منه شيء من هذا القبيل، قال: إنكم لا تعرفونه، والآن لا بد

أن تنهوا مهمته عندكم. . . ولا أحتاج إلى القول إن القوم خافوا وجلهم له مصالح وعلاقات بالمتولي، فاجتمعوا في الزاوية خفية وكلفوا بعض خدام الزاوية بأن يبلغني الأمر وأن أحذر العاقبة، والأحسن أن أغيب بعض الأيام حتى يعالجوا المشكل، ولما بلغني الخبر علمت أنهم استحيوا مني، وكنت أنا قد مللت من الدراسة في الزاوية لما تكتنفها من ظروف وملابسات فانقطعت عنها بتاتاً.

والغريب في الأمر أني كنت أرى الوالد في النوم، وهو يستدرجني في الطريق إلى أن نبلغ الزاوية فيغيب عني، وأراه ونحن في الزاوية والحلقة معقودة ولكنه يأمرني أن أقوم أنا وأتصدرها للتدريس دونه، في أمثال لهذه الرؤيا أو تلك، وذلك لمدة طويلة بعد انقطاعي عنها ولكني لم أتأثر ولم أرجع.

ومما ينبغي أن يسجل في هذا الصدد أن هذه الأعمال برغم أنها دروس علمية دينية الصبغة كانت تعتبر عملاً وطنياً تراقب من طرف الجهات المعنية، نظراً لصفة القائم بها وشهرته عند الإدارة بالوطنية، فهي لا تأمن أن تكون وسيلة لإذكاء الشعور الوطني في عموم الناس وحضهم على التمرد والثورة، ومن ثم جاء ما قاله المراقب الفرنسي طروشي لجماعة التيجانيين ووصفه لي بعدو الحكومة ورجال الدولة، ومن الطريف في هذا الباب ما قاله لي بعد سنين من تركي للتدريس في الزاوية أحد الفقراء من عامة الشعب، وكان يعمل بصفة إسكافي، وكان متحمساً للطريقة ويحضر دروسي دائماً، وكان في عنفوان شبابه وقوته إذ ذاك، وفيما بعد

انخرط في حزب الاستقلال ولعب دوراً في فرع طنجة، وتطور واشتغل في عدة ميادين من السمسرة والفلاحة وغيرها، وما قاله لي هو: «إننا أردنا أن نصطادك للزاوية والطريقة فاصطدتنا، وفتحت أعيننا وعلمتنا أشياء كثيرة كنا نجهلها وأصبحنا مدينين بها لك».

وحديث الوطنية طويل، ويدخل في كل مجالات القول والعمل، وكان ينتقل من جهة إلى جهة، ويتداول في كل بلد ممن هدي إلى طريقه وقام بواجبه، وكانت موجباته متشابهة في كل مكان، وهي عجرفة المستعمر والحكم الاستبدادي الذي تنهج الحماية الأجنبية منهجه، وقد كان المحميون حتى قبل الاحتلال مكروهين من الناس ذوي المروءة والدين، لجنوحهم إلى الأجنبي، وخروجهم على الحكم الوطني، فهم في الاعتبار الذين فتحوا طريق هذه البلية، وهيأوا للحماية الجماعية للبلاد، ولذا فإن أياً كان لم يمل الوطنية على غيره ولا جهة من الجهات ولا جنوب ولا شمال... وإنما كان هناك وطنيون مخلصون يعملون لمصلحة بلادهم ويتحرقون لاستقلالها وإقالة عثراتها، كل بحسب ما يستطيع وعلى قدر ما تتيحه له ناحيته، تعارفوا من بعيد واتصلوا ونظموا علاقاتهم وصمموا على العمل الجدي المتواصل، وهو ما تجسم قبل في الجمعية السرية ثم في كتلة العمل الوطني ثم في الحزب الوطني عام ١٩٣٦.

وكان أول تواصل بيننا في طنجة وخارجها مع تطوان، وجاءنا الأخ الحاج محمد بنونة، ثم بعده أخوه الحاج عبدالسلام، وكأنما اكتشف بعضنا بعضاً، وقد أخذت لنا

صورة في هذه المرحلة، ويظهر فيها الكاتب والحاج محمد بنونة والسيد محمد الحداد والسيد المختار أحرضان والسيد محمد أقلعي، وأخبرنا بنونة أنه سافر إلى الرباط وفاس ولقي هناك جماعة منهم الحاج محمد بن اليمني الناصري، والسيد محمد غازي، والسيد محمد المكي الناصري وسواهم، وسافرت أنا بعد ذلك مع الوالد إلى الرباط ولقيتهم واجتمعنا كثيراً، ودبرنا الأمور على ما يجب من التواصل والتنظيم.

وزارني الأستاذ محمد داود وكان يتفجر نشاطاً وغيرة ووطنية، وتذاكرنا كثيراً، وسألني عن مقال نشر بإمضاء مستعار، فأخبرته أنه إمضائي، فقال لي: لقد كان مقالاً يفيض حيوية، فحرصت على معرفة صاحبه، وتوطدت بيني وبينه صداقة متينة.



لقاءات على الصعيد الوطني

بعد التعرف على مراكز العمل الوطني المهمة وتبادل الرسائل فيما بيني وبين بعض العاملين بها، عزمت على زيارتها والاتصال الشخصي بهم، فكانت تطوان أول مركز زرته لهذا الغرض، والسفر إلى تطوان في ذلك الوقت، كان سفراً بمعنى الكلمة، إذ كنا نقضي في الطريق وبالحافلة العمومية ثلاث ساعات وأربعاً وأكثر، لأن الطريق كان محفوفاً بالأخطار، معرضاً لاصطدام بين المجاهدين وقوات الاحتلال الإسبانية، فكنا نتوقف في محطات لمجرد الخروج من المنطقة الدولية، منطقة طنجة، ويسأل سائق الحافلة بعض موظفي الأمن هل يمكن مواصلة السير بدون تعرض لأي خطر، وتقع مخاطبة هاتفية عسكرية بين المسؤولين، في أولى المحطات والتي تليها، فإذا كان الجواب بسلامة الطريق أعطي الإذن بمواصلة السير، وهكذا في بقية المحطات، ويطول الانتظار لأن الخطوط الهاتفية كانت في الغالب غير صالحة، وفي بعض المحطات وهي المتوغلة في التخوم الجبلية كان التوقف يطول كثيراً؛ لأنه يقتضي خروج فرقة من الجند الخيالة تتحسس الطريق، فلا بد من انتظار

عودتها وإخبارها بحالة الطريق من سلامة وخوف، فتمر الساعة والساعتان على هذه العملية، والحق أن إخوتنا المجاهدين كانوا يحترمون أمن الطريق والمواصلات الأهلية، إذ لم نسمع قط أنهم هجموا على سيارة مدنية أو تعرضوا لرحلة غير عسكرية. كانت زيارتي هذه فرصة لعقد اجتماعات مع جميع الأشخاص المشتغلين بالقضايا الوطنية، وهي في الواقع قضية واحدة ولكنها تحتاج إلى تدبيرات وأعمال في شتى الميادين، من اجتماعية واقتصادية وسياسية وغيرها، كما أنها تقتضي عملاً في الخارج كالعمل في الداخل، وإن كان من طبيعة أخرى، وكان الحاج عبدالسلام بنونة يهتم كثيراً بالميدان الاقتصادي، ومن ثم تحدث إلينا ببعض المنشآت الضرورية ومنها تطوير صناعة النسيج بجلب بعض الآلات الحديثة لإنشاء معمل عصري للنسيج، وتأسيس شركة وطنية لتوليد الكهرباء، وإيجاد مطبعة أهلية عربية وغير ذلك، وقد تم إنجاز هذه المشروعات كلها فيما بعد، وكنت أنا من المتحمسين لفكرة معمل النسيج، وكنت من أول المقتنين لبعض إنتاجه، إذ لم يكن النسيج التقليدي يعجبني لخشونته، وقد كان بعض الأصدقاء أهدى إليّ رقعة صوفية[١] بنية اللون، لأتخذ منها جلابة في فصل الشتاء، ورأيت الجماعة في تطوان حتى المتأنقين منهم كالحاج محمد بنونة يستعملون نظيرتها، فلم توافقني الوالدة وقالت لي: إن أهل تطوان غالبهم من أصل جبلي، فهم يتمسكون

---

(١) أي: قطعة نسيج صوفي من صنع يدوي.

ببعض عادات أهل الجبل، ولهذا أسرعت باقتناء النسيج الجديد وفصلت منه جلابية وطنية جميلة، وتحدثت إلى الإخوان التطوانيين بما قالته الوالدة على سبيل المفاكهة، فقالوا لي: نعم، نحن جبليون، والانتساب إلى الجبل حينذاك مشرف، لما كان الجبليون يقومون به من جهاد وطني ضد المستعمرين الدخلاء.

وتذاكرت مع الحاج محمد بنونة في قضية التبشير والمبشرين المسيحيين، وجاء في عرض الكلام ما يقتضي ذلك، وكانت هذه القضية تهمني كثيراً لانتشارها في طنجة على يد البعثات الإنجليزية، وكانت هناك دار خاصة بالنساء والمبشرات فيها من النشاط بمكان، يتكلمن العربية بطلاقة، ويتخذن التطبيب وتوزيع بعض الأدوية على النساء الفقيرات بالمجان، ويتخذن علاقات شخصية مع بعض الأسر، فيزرن البيوت المغربية ويبثن سمومهن بين أفرادها من العنصر النسوي، وكانت هناك دار أخرى للمبشرين الذكور، وهم أكثر خبثاً ودهاء، ويستخدمون بعض الشبان المغفلين في الأشغال المختلفة من حراسة وتسويق للضروريات التي يحتاجون إليها من دكاكين البقالة وغيرها، ومنهم من يغررون بها ويحولونهم عن عقيدة الإسلام، حتى أنهم يتولون عنهم القيام بمهمة التبشير لزوار المركز أحياناً.

على أنهم لا يقتصرون على المدينة فيخرجون في بعض الأوقات إلى البادية مصحوبين بالمبشرات الإناث ليختلطن بنساء البادية ويتبرعن عليهن ببعض الأدوية

والحلويات للأطفال، ويكون الخدام المغاربة في رفقة من ذكر لحمايتهم والتوسط بينهم وبين الأهالي.

وقد استغرب الحاج عبدالسلام هذا الأمر، وسألته: هل عندكم في تطوان بعثة من هذا القبيل؟ فقال: لا أظن، وإذا كانت فإنها لا أثر لها في المجتمع، وسألني ماذا نفعل نحن بهذا الخصوص؟ فذكرت له بعض الحركات التي نقوم بها كرد فعل لهذه الحرب الصليبية الجديدة، وقلت له: لا بد من إنشاء جمعية للمقاومة الجادة لهذا الخطر الكبير، فقال لي: اترك هذا الأمر بيني وبينك ولنتداول فيه بطريق المراسلة حتى نتفق على رأي قار وحاسم للقضاء عليه.

وكان من النشاط الوطني الذي قمت به في هذه الرحلة لتطوان زيارة المدرسة الأهلية، وكانت قريبة العهد بالإنشاء، وكانت في دار عادية من الدور المتوسطة، ومع ذلك فقد كان لها في نفوس التطوانيين مكانة عظيمة، لأن إنشاء مدرسة وطنية في ذلك الوقت يعد خطوة عملية في طريق البناء والتطور المنشود، وكان يشرف على شؤونها المادية الرجل العامل المخلص السيد علال الخطيب، وأما التدريس فكان موكولاً إلى الأستاذ محمد داود، يساعده الحاج محمد بنونة وأفراد آخرون من طلبة العلم وحفظة القرآن.

وقد كانت الزيارة ـ سنة ١٩٣٠ ـ بمثابة حفل كبير، ألقى فيه الأستاذ داود كلمة تقديم لي وتوجيه للتلاميذ، وألقيت عليهم قصيدة شعرية كانت حينذاك مفاجأة لهم، إذ الشعر على العموم يعتبر من الكفاءات النادرة، والوطني على

الخصوص فتحاً جديداً في عالم الأدب. ومما أذكره من أبياتها المختارة:

إيه بني وطني فلتنبذوا الكسلا
لعل أن تبلغوا من سعيكم أملا
لا تحسبوا أن تنالوا من رغائبكم
ما لم تسيروا إليها الوخد والرملا
إن المعالي تأبى قرب ذي دعة
حاش المعالي عمن نام أو كسلا
فلتنهضوا نهضة تسموا بموطنكم
إلى الثريا بابتغاء نيل كل علا
ولتجعلوا أسها علماً تقوم به
فالعلم يجنيكم ثماره ذللا
ما ساد من ساد إلا بالعلوم وما
نرى تأخر في الدنيا سوى الجهلا
سر في البلاد وسائل ساكنيها معاً
هل ساس شعباً وقاد الجيش من جهلا
سر في البلاد وقابل من ترى لترى
أن التقدم علم قارن العملا
لا كنت يا جهل كم أبدت من أمم
قد طبقت بسناها السهل والجبلا
لما أنخت بنا صيرتنا فرقا
شتى وأورثتنا الجمود والخطلا

بالأمس كنا كأنا الأسد في أجم
نحمي العرين ممن ظنها نزلا
يهاب سطوتنا من كان شاهدنا
في الحرب ما إن نخاف الموت والثكلا
فكم بسطنا لإفريقية يدنا
وللجزيرة لما أصبحت هملا
ونحن قد طلب العدا معونتنا
واستنجدونا فوافيناهم عجلا
حلم كبير وأخلاق مطهرة
إنا بنو العرب وشينا بها الحللا

وكان في تلاميذ المدرسة حينذاك الأستاذ محمد عزيمان والأستاذ محمد بن محمد الخطيب، وأبناء الحاج محمد بنونة منهم السيد الطيب وغيرهم من التلاميذ الذين نبغوا فيما بعد وصاروا شخصيات يشار إليهم بالبنان.

والحق أن المدرسة الأهلية، وهي في تلك الدار القديمة المتواضعة أعطت من النتائج التربوية والتعليمية ما لم تعطه وهي في بنايتها الجميلة التي وهبتها إياها الحكومة، والسر في الساكن كما يقولون لا في السكن. ومما تذاكرنا فيه مع الحاج عبدالسلام بنونة موضوع الكتابة في جريدة الإصلاح الحكومية، وهي في تطوان كالسعادة في الرباط، واستغلالها لنشر أفكارنا، وكان محررها الشيخ نعمة الله الدحداح وهو لبناني سأله لِمَ لا يكتب المواطنون المغاربة في الإصلاح وهي الجريدة العربية الوحيدة الموجودة في

المنطقة، فقال له بنونة: إنها جريدة حكومية لا تسمح لها الجهات الرسمية بنشر أفكار الوطنيين، فقال الدحداح: أنا أتعهد بنشر كل ما يصلني محرراً بأقلام الكتاب المغاربة، وقررنا أن نجرب، وقدمنا للكتابة السيد محمد الحداد من طنجة، والسيد محمد الزواق التطواني من الشباب المتعلم، فكتبا ونشرت الجريدة كتابتهما ولكنها أشعرت بوجوب التوقف عن هذه المغامرة.

وكانت رحلتي بعد ذلك إلى الرباط، وهناك تعرفت بالشخصيات الوطنية البارزة كالحاج محمد بن اليمني الناصري وأخيه السيد محمد المكي، وهو مؤلف كتاب إظهار الحقيقة وعلاج الخليقة الذي كانت له ردة فعل إيجابية في الحركة الإصلاحية ووقع شديد في أوساط الطرقيين الذين قاموا ولم يقعدوا في استنكاره وانتقاده، فناصره أخوه الحاج محمد بكتاب ضرب نطاق الحصار، وكان الأخوان من أبرز العناصر المثقفة ثقافة أصيلة، ينظمان الشعر ويكتبان ويخطبان في موضوع الإصلاح الديني، وكان الأستاذ محمد غازي المكناسي الأصل ينهج نفس النهج ويأخذ الكتاب بقوة في هذا المنحى، وهو أيضاً ممن تعرفت به هناك فقد كان مقيماً في الرباط، وذكرته هو والناصري الكبير في أبيات شعرية قلتها إذ ذاك منها:

هذا هو الناصري في جماعته
يحارب الطرق أصحاب الضلالات
وهذه فتية الإصلاح يرأسها
غازي العداة حليف الانتصارات

وتعرفت بالسيد أحمد بلا فريج وكان شاباً متوقداً متحمساً للعمل الوطني، ويتابع دراسته هو والسيد محمد بن الحسن الوزاني في ليسي كورو بالرباط وبينهما صداقة متينة، وكذلك السيد محمد الزيزي، والسيد عبدالكبير بن حفيظ الفاسي، والسيد محمد القباج الكتبي، والسيد المختار السوسي، والسيد أبا بكر بناني وغيرهم، وجميعهم كما رأينا ما بين مزدوجي الثقافة، ومثقفين متمكنين من العربية وآدابها وأصحاب أقلام وقرائح منتجة. وقد أنشدتهم من كلامي بعض القصائد والمقطعات كانت محل استحسان لديهم، منها قصيدة: هل أنا أديب؟ التي كانت تمثل ثورة على الشعر الاحترافي الذي كان سائداً إذ ذاك.

وأنشدتهم مرة أخرى بطلب بعضهم قصيدة وصفية صورت بها الحريق الذي أصاب قبة فندق سيسيل، وهي قبة كبيرة من الخشب كانت قائمة على سطح هذا الفندق، وكان بعض الشخصيات من الأهالي والأجانب يرتادونها خاصة في الصيف عشية، ويجلسون بها مقابل البحر يتمتعون بمنظره الجميل ونسيمه العليل، وقد جلسنا بها مع الوالد في بعض العشايا، وقد التهمها الحريق، وكان لهيب النار يضيء ظلام الليل ويرى من بعيد، ومما جاء في هذه القصيدة:

صاح في بوقه نذير الحفاظ
فزعاً يا لهول هذا الشواظ
البدار البدار كي تردعوه
يا لأهل المطافىء في الإيقاظ

قـبـل أن يـنـهـب الـديـار الـتـي مـن
خـلـفـه والأمـام نـهـب شـظـاظ

فقالوا لي: ما معنى شظاظ؟ قلت: هو اسم لص معروف عند العرب كانت تضرب به الأمثال، فكأنهم لم يقتنعوا، ودعوا بالمنجد فلم يجدوه فبقوا بين مصدق ومشكك، وساءني ترددهم وعجبت من اعتمادهم على المنجد، ولم نكن نحن طلبة القرويين نعول عليه، وقلت لهم: إنه مذكور في أوضح المسالك لابن هشام، فلم يكن عندهم، وقال بعضهم: إن هذا كتاب نحو لا لغة، وأمسكت عن الإنشاد، واستحضرت قصة سيبويه مع الكسائي، وقلت: قبّح الله اللجاج كما قالت زبيدة.

وأيام إقامتي بالرباط حضرت بعض دروس الشيخ أبي شعيب الدكالي الحديثية، ودرساً له في النحو بألفية ابن مالك وشرح الأشمولي عليها في الزاوية الناصرية، وبعض دروس الفقيه الحجوي وغيرهما. وكان شيخنا السيد عبدالسلام غازي آنذاك مقيماً بالرباط وهو ممن شمله النقل من طنجة بعد قيام النظام الدولي بها، فولي عضواً بالاستئناف الشرعي، وكان يخالط العلامة السيد محمد السايح فرأيته عنده أكثر من مرة واستمعت إلى مذاكرتهما وكانت تتناول عدة مواضيع، ومن جملتها ابن عربي الحاتمي وبعض أقواله ومؤاخذات العلماء عليه.

وذهبت من الرباط إلى الدار البيضاء ذات يوم، فلقيت بها السيد محمد بن يحيى الصقلي وكانت له مكتبة تجارية

كبيرة، وهو أديب فاضل له قصيدة في مدح مدينة الدار البيضاء، طويلة النفس طبعها على حدة في كراسة، وبقيت بها يوماً وليلة ثم عدت إلى الرباط، ومنها سافرت إلى فاس وتوقفت في مكناس، ولم أكن أريد الإقامة بها ولكني حضرت بها درس العلاّمة السيد محمد السوسي في صحيح البخاري مع رفيق لي فأعجبني سمته وطريقة إملائه، مع حفظه وتحصيله، وبقيت هناك ثلاثة أيام من أجله، ولما وصلت لفاس كانت قائمة هائجة بالاحتجاج على الظهير البربري، وقراءة اللطيف عقب الصلوات ولا سيما في القرويين، والحكومة تعتبر ذلك تحدياً لها ويتحدث الناس عن حملة إرهاب تدبرها السلطة المحلية ضداً على المهيجين كما تسميهم، وفي كل صباح ومساء خبر وفي كل اجتماع عادي أو منظم تتقرر خطة عمل ويروج لفكرة تقلق رجال الأمن فتقع السلطة المحلية في حيرة لا تعرف ما تقدم ولا ما تؤخر. وبرغم التهديدات المتكررة باستعمال العنف فإن الرباط لم تأذن في ذلك، حتى انفجر الوضع ووقع القبض على كثير من المسيِّرين والموجِّهين الوطنيين واستخدمت معهم القوة مما أدى إلى كهربة الجو السياسي في البلد ووصل التأثير إلى الأوساط الموصوفة بالرزانة والتروي، وبدأت التحركات لعمل أي شيء يوقف الخطر ويكف يد العدوان على الأشخاص الذين يضمر لهم أعوان السوء العداوة والبغضاء، والذين يستفزون العامة لينتقموا منهم لتأييدهم للحركة الوطنية واستنكارهم لتصرفات الموظفين غير المسؤولين، وقيل: إن مسؤولاً كبيراً في الحكومة سيقدم إلى

فاس لدراسة القضية مع العلماء والأعيان، وشكّ الناس في قدوم هذا المسؤول لأنه بقدر عظم مسؤوليته لا يملك من الأمر شيئاً، ولأنه من أخوف الخلق وأحرصهم على الحياة، وأخيراً اتخذ العلاج في نظر المسؤولين الطريقة القديمة التي أكل الدهر عليها وشرب، وهي توجيه خطاب من رئيس الدولة إلى جمهور السكان يقرأ في مسجد القرويين ومن أعلى منبر تعوَّد الملوك أن يدلوا منه برأيهم إلى الشعب في أحرج المواقف وأحلك المشكلات، وكذلك كان.

وخلقت لي القضية مشكلاً خاصاً، فقد تلقيت مكالمة هاتفية من طنجة بحلول الأمير شكيب أرسلان بها قادماً من إسبانيا، وتوقف الإخوان بها علي وضرورة وجودي بينهم، وكان الأمير في ذلك الوقت رجل الساعة في العالم العربي والإسلامي، وأكثر الكتاب اهتماماً بالقضايا التحررية في آسيا وإفريقيا، وكانت صلته بنا في المغرب متينة جداً ومستمرة، ونحن بالأشواق إلى لقائه والاجتماع به. أما تاريخ اتصالي بالأمير فيرجع إلى أواخر الثلاثينات حين أبلغني السائح العراقي يونس بحري تحياته، وكان ينشر مقالاته في السياسة الأسبوعية، ومنها مقالة بعنوان ابن بطوطة القرن العشرين (ويعني نفسه) على قبر ابن بطوطة الرحالة الشهير وذلك حين زيارته لطنجة في التاريخ المشار إليه، وقد أجبت على تحية الأمير بقصيدة أقول في مطلعها:

دم حـــامـــلاً عـــلـــم الـــعـــروبـــة

حـــتـــى تـــقـــود بـــه شـــعـــوبـــه

ونشأت الصلة من ذلك الوقت... ولما جاء إلى

طنجة كنت أنا في فاس فلم أعرف كيف أتصرف، أأترك فاس تموج بها الأفكار وجميع سكانها على أحر من الجمر انتظاراً للقادم أو الوارد من الرباط في قضيتنا الوطنية الأولى وما تنتهي إليه، أو أذهب إلى طنجة وأغتنم الاتصال بالأمير شكيب وأتعرف به شخصياً وأحاوره وأستمع إليه، وهي فرصة تتاح للإخوان بطنجة ولا أحب أن أحرم منها، وقلت كما قال جريد العابد: يا رب أمي وصلاتي، على ما جاء في الصحيح؟

ثم رأيت أن ما يجري في فاس هو من وقائع التاريخ التي إذا مرت فلن تعود، بخلاف لقاء الأمير شكيب أرسلان فإنه يمكن أن يتحقق في فرصة أخرى، وحث علي الإخوان في البقاء معهم وقالوا: إنهم أرسلوا من يتصل به وينظر هل يمكن أن يزور أمهات مدن المغرب ولا سيما فاس، على أن الأمير لم يلبث في طنجة إلا يوماً وليلة وأخرج منها بالقوة. ثم أنذرت أنا بالقبض عليّ فغادرت فاساً بعد ثلاثة أيام ولم أكد أفلت مما أنذرت به ووجدت صدى زيارة الأمير يتردد في طنجة وتطوان.

نعود لما كنا فيه من الحديث عن الظهير البربري فبعد انتظار طويل أعلن عن قراءة منشور سلطاني جاء من الرباط بمسجد القرويين، فاحتشد الناس على اختلاف طبقاتهم واجتمعوا في جو مكهرب لا تباشير خير فيه، وقرىء الكتاب فإذا هو تهديد ووعيد، واستخفاف بالقائمين بهذه الحركة وأنهم (صبيان لم يبلغوا الحلم) وعلى العقلاء والأعيان من أهل فاس أن لا ينساقوا في حبال الإشاعات

والأراجيف التي تدور حول الموضوع والدولة معنية بالأمر وهي واقفة بالمرصاد للذين يعكرون صفو الأمن، في عبارات من هذا القبيل جعلت بعض الناس ينصرفون قبل إتمام قراءة الخطاب، وتفرقت تلك الجموع الحاشدة وهي تنطوي على حنق شديد، وتعتقد أن الكتاب مفتعل، وأن السلطان لا يمكن أن يخاطب رعيته بهذه اللهجة في قضية دينية مثل هذه، وكما كان الكثير من الناس يقولون: إن الظهير البربري نفسه صدر بدون إطلاع جلالته عليه ولا موافقته، فقد اجتمعت كلمة الشعب على أن خطاب القرويين مما دبر بين الصدارة والإقامة العامة، ولهذا لم يتراجع متصدرو الحركة والمشرفون على تسييرها، فاجتمعوا في حلقات ضيقة ضمت بعض أعيان فاس وشرفائها وعلمائها ونخبة من الشباب الوطني، وتداولوا في الأمر وقرروا أن يقدموا عريضة إلى جلالة السلطان يستنكرون فيها هذا الظهير والسياسة البربرية من أصلها، وعلى العموم سياسة غلاة المستعمرين وضباط الاستعلامات وكذلك كان، حيث أن وفداً مكوناً من ذوي الحيثيات المذكورة ذهب إلى الرباط برئاسة العلأمة السيد عبدالرحمٰن القرشي وقدّم العريضة إلى السلطان.

وفي أثناء قيام المظاهرة وقراءة اللطيف الذي كان على الوجه الآتي: (اللّهمّ يا لطيف نسألك اللطف فيما جرت به المقادير، ولا تفرق بيننا وبين إخواننا البرابر)، كانت تقع من السلطة المحلية وأعوانها تجاوزات بإلقاء القبض على بعض العناصر الوطنية والمشاركين في هذه الحركة من الأعيان

والتحقيق معهم وسجن بعضهم وجلد بعضهم الآخر، وممن جلد السيد محمد بن الحسن الوزاني والسيد الهاشمي الفيلالي . . .

واختلت الصفوف في الظاهر فلم نعد نلتقي إلا بالقليل من الإخوان، وكانت أماكن الاجتماع تتغير من يوم لآخر، وزاد الأمر ارتباكاً بعد قراءة الكتاب السلطاني، ولم يقع بعض الانفراج إلا بعد عودة الوفد الفاسي من الرباط.

وفي أحد الليالي من هذه الفترة فاتحني مقام العم السيد عبدالسلام گنون، وكان رب مثواي، بأن عليّ أن أعود إلى طنجة صباح الغد، ولما سألته عن السبب قال لي: لا أحب أن يحملني والدك ابن عمي السيد عبدالصمد مسؤولية القبض عليك وسجنك، فقلت: كيف؟ فأعلمني بعد تكتم شديد أنه علم أن البحث جار عني، ولم يكونوا يعرفونني، ولما علموا أني كنوني صاروا يتحرون عن أبناء گنون من أكون منهم، وأن بعض الموظفين الكبار من أصدقائه الذين يسهرون معه أخبره بذلك، وفعلاً نهض في الصباح الباكر وأيقظني وبعث معي ولده الفقيه سيدي محمد بن عبدالسلام إلى محطة القطار الرابط بين طنجة وفاس، ولم يفارقني حتى أقلع القطار. كنت وأنا أقطع المسافة الطويلة بين طنجة وفاس لا أفكر إلا في الحوادث التي شاهدتها وشاركت فيها أيام إقامتي بفاس، وكانت أطول مدة قضيتها بهذه المدينة في جميع زياراتي لها، والحقيقة أني لم أحقق بها ما كنت أصبو إليه من التعرف بجميع الزملاء أو قل الأقران العاملين في الحقل العلمي والوطني، فباستثناء الإخوان الذين عرفتهم من

قبل كعلال الفاسي ومحمد بن الحسن الوزاني والهاشمي الفيلالي وعبدالعزيز بن إدريس ومحمد بن إبراهيم الكتاني ومحمد بن عبدالله وبوشتى الجامعي، لم يكن لقائي بغيرهم إلا في ساحة العمل، مما لم يمكني من ربط أي صلة خاصة بهم، واجتماعي بجل المذكورين أكثر ما يكون في الإكرامات التي تقام لنا غالباً في وقت الغذاء، وتنتهي سريعاً وينحصر الكلام فيها على ما كان وما سيكون في بقية اليوم ونهار الغد، على أن بعضهم صار يختفي بعد الممارسات التعسفية التي قامت بها السلطة، ولا يظهر إلا حول موائد الدعوات الخاصة التي تقام في بيوت بعض الوجهاء والأعيان، والعذر واضح، وهو تنظيم العمل وتسيير التظاهرات من وزاء وراء، على أن بعض اللقاءات العفوية كانت تتم مساء فيما يسمى بجنان السبيل، ويتجاذب فيها أطراف الحديث فريق من المسيرين والمنظمين للحركة، وكثيراً ما كان بعضهم يتهم البعض الآخر من الحاضرين أو الغائبين بالهروب من الساحة وتعمد التخلف تقية وحذراً.

ومن جهة أخرى فقد كانت ملاحظاتي العامة هي أن الحركة الوطنية في فاس مغرية وجدية، تعلم ما تريد وتعرف كيف تشتغل، ولا يمكن أن تقارن بها حركة أخرى في بلد آخر، وبالأحرى عندنا في الشمال، ومن ثم أدركت أن منافستنا لها غير ممكنة مادياً ومعنوياً، لاتساع المجال وكثرة الرجال من المثقفين والغيارى ذوي العلاقات والمتبرعين بالنفقات وسواهم، وعلى توالي الأيام لم أزدد إلا اقتناعاً بهذه النتيجة مع رؤيتي لثمارها. لكن هذا لا يعني عدم

التحرك في مجالنا الضيق وتعاوننا على كل ما فيه مصلحة البلاد خصوصاً وأننا نقع في الوسط ما بين الشمال والجنوب، ويمكن أن نؤدي خدمة للجانبين من موقعنا في منطقة دولية متفتحة على الخارج أكثر من غيرها.

هذه هي الأفكار التي كانت تروج في ذهني وأنا في طريق العودة إلى طنجة، حتى وصلنا إلى نقطة عرباوة حيث سلم شرطة الحماية الفرنسيون جوازات السفر إلى أصحابها من ركاب القطار وكانوا أخذوها لختمها بعد المراقبة، لكني بالخصوص لم يعيدوا إليّ جوازي وقالوا: إنهم سلموه لشرطة الحماية الإسبان وسيردوه هؤلاء إليّ... وشككت في الأمر فقد أخذ الإسبان جوازات الركاب وعند اقترابنا من منطقة طنجة سلموها فعلاً إلى أصحابها ولم يسلموني أنا جوازي، وسألتهم عنه فقالوا: إنهم لم يتسلموه من شرطة المنطقة السلطانية، ولعله يوجد لدى الشرطة الدولية في طنجة، وهي تسلمه إليّ عند الوصول، ولم يكن عند هذه الأخيرة علماً بجوازي ودخلت إلى المدينة بغير جواز لأني من أهلها وحسب.

وللذكرى والاعتبار أقول: إنني في هذه الرحلة نظمت قصيدة «آلام وأحلام» التي تحكي عن الإجراءات التعسفية التي مارستها السلطات بفاس ضد الوطنيين ومظاهرة الخنوع والمعاملة الدنيئة للأجنبي المتحكم في البلاد.



المدرسة الإسلامية الحرة
ومنشآت أخرى

عدت إلى طنجة وأصداء زيارة الأمير شكيب أرسلان لها لا تزال تتردد على الألسنة، وكانت زيارة خاطفة لا تتعدى يوماً واحداً، نزل بفندق فيلا دوفرانس، وما إن ألقى العصا واستقرت به النوى وأخذ يستقبل الزوار حتى جاءه إنذار من إدارة الأمن الدولي بوجوب مغادرته البلاد لصدور أمر بنفيه من مدير الإدارة الدولية للمدينة، ووقعت بينه وبين ممثل الأمن الدولي مشادات في الموضوع، وأنقذ الموقف حضور بعض الإخوان الذين صحبوه إلى دار الوزير الأسبق الحاج المهدي المنبهي الذي دعاه للغذاء عنده، وبعد ذلك توجه إلى تطوان عاصمة المنطقة الخليفية الخاضعة للحماية الإسبانية، حيث استقبل استقبالاً كبيراً وأقيم له حفل خطابي ممتاز، حضره أعيان البلاد وشبابها الوطني، ومن جملة من حضر من المنطقة السلطانية الحاج أحمد بلا فريج وهو الشخص الذي قيل لي في فاس أنهم سيرسلون من يتصل به ويدعوه لزيارة عواصم المغرب، ولكن السلطة الفرنسية لم تكن لتسمح بذلك، ونعتقد أن قرار نفيه من طنجة كان

بتدبير الفرنسيين وموظفيهم في الإدارة الدولية، فهم في مثل هذا الأمر ليسوا كالإسبانيين متشددين.

وعلى كلٍّ فقد كان تمديد إقامتي بفاس وعدم إسراعي بالرجوع إلى طنجة في محله، إذ لو كنت رجعت لما وجدت الأمير بها ولفاتني تتبع أحداث فاس إلى الأخير.

وعدت من فاس مثقلاً بالتكاليف والمهمات الخاصة والعامة التي كان الإخوان يحملونني إياها قبل المغادرة، وقد قضيت ما يجب قضاؤه منها وأديت ما يجب أداؤه، ومنه مراسلات خارجية بواسطة البريد الإنجليزي الذي كان لا يخضع لرقابة فرنسية، ولا سيما المبعوث منه عن طريق جبل طارق، ومنه إلى القاهرة كثير من الرسائل عن القضية البربرية وتطورها، وأخبار التظاهرة التي طالت أطول مدة متمثلة في قراءة اللطيف بالقرويين وغيرها من المساجد وما كان يحدث خلالها من تصرفات تعسفية إزاء المواطنين عامة والشباب المؤطر لهذه الحركة خاصة، وكانت مجلة الفتح الأسبوعية لمحيي الدين الخطيب[١] هي حاملة الراية في نشر تلك الأخبار والرسائل بكامل العناية، وكانت الجماهير تتلقفها بغاية التلهف، والسلطة تمنع رواجها فيزيد البحث عنها والرغبة في الحصول عليها بأية وسيلة. وكنا هنا في

---

(١) مجلة الفتح مؤسسها العلاّمة السلفي محيي الدين الخطيب سنة ١٩٢٥ بمصر، وكانت حاملة لواء الدفاع عن قضايا المسلمين في سائر أنحاء العالم. ولها يرجع الفضل في إذكاء روح الوعي بمسألة الظهير البربري في المغرب سنة ١٩٣٠ إذ كانت صفحاتها تحمل مقالات ضد السياسة الاستعمارية.

طنجة نتقبل أكبر عدد منها ونرسلها إلى الإخوان في الداخل حيث تتعرض الأعداد المرسلة إليهم للمصادرة، ولعل أكبر عدد وزع منها هو الذي نشرت به العريضة التي قدمها الوفد الفاسي إلى الملك بالرباط، فأرسلنا ما وصلنا منه بطنجة وما وصل لتطوان، وطلبنا مزيداً منه من القاهرة فأرسلناه كذلك بواسطة البريد الإنجليزي ومع المسافرين إلى فاس والرباط مباشرة بدون واسطة، وكان من التكاليف شراء العملة الأجنبية، وأكثرها كان الجنيه الإنجليزي والفرنك الفرنسي إذ كان سوق العملة بطنجة حراً، ومن هذه العملة ما كان يرسل إلى عناوين بالخارج وما يحتفظ به حتى يحضر من يتسلمه.

والواقع أن تعدد إدارات البريد بطنجة قد أفاد الحركة الوطنية إفادة كبيرة، ولا سيما البريد والتلغراف الإنجليزيين، وكان ثم البريد الإسباني وكنا نستخدمه في بعض الأحيان، وكان أخفض تعريفة، وكان قبل الحرب بريد ألماني، ولكن الحرب ألغته لما قطعت العلاقة مع ألمانيا وانسحب سفيرها من طنجة وألغيت السفارة الألمانية. وهذا طبعاً بالإضافة إلى البريد المغربي وكنا لا نأمنه لسيطرة الفرنسيين عليه، ولذلك كان يسمى البريد الفرنسي كما يسمى البريدان الآخران بالإسباني والإنجليزي، وبالجملة فالتكاليف والمهمات من هذا القبيل كانت كثيرة ودائمة، وهي من الأشغال التي تأخذ منا وقتاً كبيراً ولا بد من مباشرتها بالنفس دون واسطة للاطمئنان وضمان الثقة.

ونذكر بعد هذا قصة إنشاء المدرسة الإسلامية الحرة، والأمر قد يبدو الآن بسيطاً وقليل الأهمية، ولكنه في ذلك

الوقت كان من أكبر المغامرات لما يكتنفه من الصعوبات وما تحيطه به الإدارة حتى الدولية من العراقيل، كانت فكرة إنشاء مدرسة إسلامية حرة لمقاومة طغيان التعليم الأجنبي في طنجة من الأماني الوطنية البعيدة المنال، وفعلاً فإن الإدارة قد شددت كثيراً في أمر افتتاح هذه المدرسة ولولا ظروف استثنائية وتحمل المدير لمسؤوليته في افتتاحها دون سابق إنذار لما سمحت بها الإدارة في ذلك الوقت أصلاً، لقد شعرنا من مدة طويلة بوجوب قيام تعليم عربي إسلامي مقابل التعليم الأجنبي المتعدد الجنسيات الذي يقوم به في طنجة مسؤولو الجاليات الأوروبية من فرنسيين وإسبان وإيطاليين وأخيراً الأمريكان بلغاتهم المختلفة، وتشرف عليه البعثات الدبلوماسية الممثلة لبلادها في هذه المنطقة الدولية، وليس للعربية فيه حظ ولا نصيب، فأحرى ما عدا اللغة من تاريخ وجغرافية وإنسية مغربية وتربية روحية وخلقية، والمدرسة الوحيدة الخاصة بالأهالي، كانت هي المدرسة العربية الفرنسية التابعة لمديرية التعليم بالرباط، والتي لا تتجاوز مرحلة التعليم الابتدائي مع عدم التقيد بسن معينة، فقد يلتحق بها تلميذ في العاشرة والثانية عشرة والخامسة عشرة، وقد يبقى فيها التلميذ هذه المدة حتى لو التحق بها في سن مبكرة من أجل تكرير السنة الواحدة مرتين وأكثر، وليس لها من العربية إلا اسمها (فرانكو عرب) فدروس العربية فيها هي من تحفيظ بعض السور من القرآن الكريم من حزب «سبح» و«عم» فقط لا غير، وباقي التعليم كله بالفرنسية والأنسية الفرنسية، وغاية المتخرج منها بعد سنوات

عدة أن يكون موزعاً للبريد أو مأموراً في إدارة ما، وهذا إذا كان له حظ ونصيب ولوحظ بعين الاعتبار، وعلى أي حال فهو لا يستطيع أن يقرأ رسالة مكتوبة بالعربية وبالأحرى لا يستطيع تحريرها، ويقرأ قراءة ضعيفة بالفرنسية وقلّ أن يفهم ما يقرأ، نعم يتلقى الأوامر الشفهية، ولذلك فهو لا يستحق أكثر مما يناط به من عمل.

وفي إنشاء هذه المدرسة واجهتنا صعوبات كثيرة مادية وأدبية، مثل إيجاد المحل وتجهيزه بما يلزم من وسائل وأدوات، وقد استطعنا أن نتغلب على الصعوبات المادية بتعاون الإخوة: محمد أقلعي، عبدالسلام القصري، عبدالسلام الوزاني، محيي الدين الريسوني، عبدالسلام الزكاري، عبدالسلام ابن الطاهر، إذ تبرع كل واحد منا بمبلغ من المال، واستعنت ببعض المخلصين كالحاج عبدالواحد بناني على تهيئة اللوازم المشار إليها، فجعلته هو الذي يتكلف بكراء المحل ويتعامل مع النجار الذي صنع لنا الكراسي والسبورة، ويقتني ما تشتد إليه الحاجة في البدء من الأمور الضرورية، وذلك لئلا أظهر أنا ولا أحد من الإخوة المذكورين الذين يثيرون الانتباه في مباشرة أي عمل من هذا القبيل، وأعلمنا بالضرورة آباء التلاميذ الذين سيلتحق أبناؤهم بالمدرسة في اليوم المعين لافتتاحها، وهم ما بين متعلم في أحد الكتاتيب القرآنية أو في مدرسة من المدارس الأجنبية المشار إليها.

وهكذا خاطبت بعض الأصدقاء من طلبة العلم الذين توسمت فيهم الأهلية للقيام بمهمة التعليم، ومنهم مَن كان

خارج طنجة في عمل أو طلب للعلم، ولم يحل يوم الافتتاح ـ وكان يوم السبت ـ إلا والمدرسة قد برزت للوجود بالتلاميذ الذين قصدوها منذ الصباح الباكر، والمعلمون في الأقسام يؤدون واجبهم، والإدارة تسجل وتستقبل وتنتقل بين الأقسام متأكدة من سيرها على ما يرام، ومطلعة الزائرين الذين فاجأتهم المبادرة على المشروع الذي نفّذ قبل أن يعلم به أحد.

وعلى كل حال فقد فتحت هذه المدرسة في الثاني من ذي القعدة عام ١٣٥٥هـ ـ ١٩٣٦م وكانت مؤلفة من فصلين لا غير، ولم يكن رأس المال الذي جهزت به يجاوز ٥٠٠٠ فرنكاً تبرع بها عشرة من المواطنين الأعزاء، ثم ما زال المشروع يكبر والعمل يتسع حتى استتمت المدرسة فصولها الابتدائية الستة، ووجد بها في بعض الأوقات فصول ثانوية أخرى، ومنها فصول الدراسة الليلية المتنوعة.

ومنهاج الدراسة بالمدرسة عربي خالص ومواده هي مواد الشهادة الابتدائية المعروفة، يضاف إليها القرآن الكريم الذي تحرص المدرسة كل الحرص على تحفيظه بأجمعه، أو تحفيظ أعظم جزء منه للتلاميذ، ثم هي تعطي دروساً في اللغة الإسبانية واللغة الفرنسية لتلاميذ السنوات الابتدائية الأربع، وبهذه الدروس تمكن لتلاميذها فيما بعد الدخول إلى المعهد الرسمي الثانوي بتطوان الذي تعتبر اللغة العربية في سنواته الثلاث الأولى اللغة المفضلة، فيمكن للتلاميذ مواصلة الدراسة فيه ولو بقليل من معرفة الإسبانية، فقد راعت المدرسة جميع الإمكانيات التي تجعل تلميذها مستعداً

لمواصلة تعليمه في المدارس العصرية أو المعاهد الدينية إذا لم ينقطع للاشتغال بأي عمل آخر فيكون قد تنوّر فكره وتهذّبت مشاعره ولم يبقَ راعياً مع الهمل.

وساعد على نجاح المدرسة في اليوم الأول وقوعها في مركز متميز بوسط المدينة بين حي القصبة وحي مرشان وأحياء المدينة الأخرى، ثم كون البناية التي اخترناها لها تقرب كثيراً من تخطيط مدرسة، إذ اشتملت على قاعات فسيحة أرضية بينهما فراغ منه ما هو مغروس بأنواع الرياحين والأشجار الخضراء التي تزيد منظرها بهجة وجمالاً، وهي بناية كان صاحبها يريد أن يجعلها استراحة سياحية، ولكنه لم يستطع أن يُكسبها هذه الصفة فعلاً، وفتح فيها مقهى ومطعماً لم يلاقيا قبولاً فاكتريناها منه، وهو لا يدري ما نريده منها، وكانت عزيمته قد فترت، فصار يريد التخلص منها بأية وسيلة.

وفي غمرة الفرح بافتتاحها قضينا يومَيْ السبت والأحد في سرور ونشاط متواصل، ويوم الإثنين الموالي جاءتني دعوة للحضور بالمندوبية السلطانية، وكنت أتوقع هذه الدعوة ولا سيما ومنذ يوم الافتتاح والجواسيس والمخبرون السريون لم يفتأوا يمرون أمام المدرسة متوقفين متأملين متفرسين في وجوه العاملين بها والزائرين لها، وقد لبيت الدعوة فقابلني المندوب وهو السيد الحاج محمد فتحا التازي، وسألني ما هذا العمل الذي أقدمت عليه بدون سابق إعلام ولا إنذار للجهات الرسمية؟ قلت: إنه كتاب قرآني منظم ولا زائد، قال لي: إنهم يقولون: إنها مدرسة كاملة التجهيزات، قلت:

وهب أنها مدرسة كما يقولون، فماذا في فتح مدرسة من ضرر على أحد إن غضضنا النظر عن منفعتها؟ قال: إنهم يقولون: كان عليك قبل كل شيء أن تطلب الإذن بفتحها، قلت: ما خطر ببالي أن مدرسة تعليمية تحتاج إلى إذن بفتحها... وكان يخاطبني وهو على ما يظهر غير مقتنع بما طلب منه أن يبلغني إياه، ولذلك ختم الحديث بأنهم لا ينظرون إلى الأمر بهذه البساطة، وانصرفت من عنده وأنا أعتقد أن القضية لم تنتهِ.

وبعد غد نودي عليّ أيضاً للحضور عند المندوب، فوجدت أن الجو ما يزال متلبداً، وأخبرني أن لا معارضة في إنشاء المدرسة، ولكن لا بد من احترام القانون ونفوذ الحكومة وذلك بطلب إذن سيكون الجواب عنه بالموافقة ولا بأس في ذلك. فأجبت: ليس هناك قانون يجبرني على طلب هذا الإذن، وأنا أحترم القانون ونفوذ الحكومة ولم أخالف قط هذا المبدأ في عمل من الأعمال، ولكن إذا لم يكن هناك تشريع بهذا الصدد فإنا لا نُلزم أنفسنا بما لا يلزم.

وانتهت المقابلة على هذا الشكل، وبعد يومين آخرين استدعيت للمرة الثالثة إلى المندوبية، فقال لي المندوب: إن هناك قانوناً خاصاً بفتح المدارس وبعض المؤسسات الاجتماعية، وقد أتوا بهذا المجلد المحتوي على ذلك القانون وهو بالفرنسية، وقد ترجموا المادة المتعلقة بالموضوع إلى العربية، وناولني المجلد فإذا هو جزء من مجموعة TRATADOS CODIGOS والمادة التي ترجموها

تفيد الأمر الذي يريدون، وترجموا أيضاً المادة التي تنص على عقوبة المخالفة بذلك، فطلبت منه أن آخذ المجلد وأطلع على القانون كله وأجيب بعد ذلك بما يجب، فقال لي: إنهم شرطوا أن لا أسلمه لك، فقلت: لا يهم، أنا سأبحث الأمر وأعود إليك.

وبحثت عن الكتاب فوجدته في مكتبة المركز الثقافي الفرنسي فاستعرته منه وراجعت القانون المشار إليه، فإذا هو متعلق بالأجانب لا بالمواطنين، ويشترط في المعني بالأمر شروطاً لا تتوفر في المغاربة، فترجمت له القانون بنصه الكامل ورجعت إليه، وأطلعته على فصوله التي لا تشمل مسألتنا بحال، وقد سُرَّ بذلك، وقال لي: أتيتني بما أبطل به دعواهم ولا تبالِ بهم.

ثم استدعيت للمرة الرابعة، وفي هذه المرة استقبلني الخليفة الأول للمندوب السيد عبدالقادر بوحساين ـ وأنا داخل للجناح الذي يوجد فيه مكتب المندوب، فقال لي: أنا الذي سأستقبلك اليوم نيابة عن سعادة المندوب، فذهبت معه إلى مكتبه، فقال لي: لمَ تمتنع عن كتابة طلب بالإذن أو على الأقل بإعلام السلطة أنك تفتح مدرسة من نعتها وصفتها كذا وكذا. . . وأنا أعلم أن المدرسة مأذون بها، وإنما هي شكليات لا تقدم ولا تؤخر شيئاً في الأمر؟ فقلت له: إنك من أهل العلم وسأبين لك سبب امتناعي، وهو قوله عليه السلام: «**مَن سنَّ سنَّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة**»، فمن المحتمل جداً أن يقوم أحد المواطنين غداً أو بعد غد بتأسيس مدرسة فيقال له: قبل كل

شيء يجب عليك أن تستأذن السلطة في ذلك، فإذا قال: لا قانون يلزمني بذلك، فيجاب بأن فلاناً هكذا فعل وهذا طلبه أمامك، فلم يجد جواباً وخرجت من عنده كما دخلت.

وبعد ذلك طلبت للمرة الخامسة للمندوبية، فوجدت مع المندوب المراقب الفرنسي طروشي والخليفة الأول والخليفة الثاني وهو ابنه، والترجمان وهو جزائري، وهذان كانا واقفين من ورائي في مقابلة المندوب، فقال لي المراقب: إنك فتحت مدرسة بدون أن تُشعر السلطة، فقلت: وهل وهذا ذنب؟ هل هناك قانون يوجب عليّ ذلك؟ وقد أكثرتم عليّ عسى أن أمل وأطلب الإذن أو أترك هذه المدرسة، فإن كنتم تريدون هذه النتيجة فأنا ذاهب الآن وأسرّح التلاميذ وأوصيهم بإعلام أوليائهم أن السلطة منعت هذه المدرسة، وآخذ المقاعد وسائر الأدوات وأبيعها في الجوطية[1] بالبخس وأنتهي من هذا الصداع. فقال المراقب: لا نحن إنما نريد المحافظة على النظام، فقلت: هل النظام هو أن تبقى المدارس القرآنية محل شبيه بالبهموت[2] مفروشة بحصر بالية يمر بها السيّاح فيصورونها ويذهبون إلى بلادهم فيطلعون عليها أهليهم وأصدقائهم ويقولون: هذه هي المدارس في بلاد الحماية الفرنسية؟ فاغتاظ وصار يهرج، فقلت: لا ترفع صوتك هكذا فيظن الأعوان والمخازنية خارج هذا المكتب أنك تخاصمني، وكان يجلس بجنب المندوب مواجهاً لي، فجعل المندوب يحرضني عليه

---

(١) مكان عمومي لبيع الأشياء المستعملة.

(٢) البهموت: كل مكان مظلم.

بالإشارة من عينيه من تحت النظارة، وأجاب هو بأن هذا صوتي الطبيعي، فقلت له: أنا أيضاً صوتي الطبيعي رفيع ولكننا في مكتب نائب صاحب الجلالة فلا بد من الكلام بأدب وهدوء، فقال: إنك تشيع في المدينة أن المندوب معك وأنا الذي أعارض في وجود هذه المدرسة، فقلت له: وفعلاً مَن الذي يناقشني فيها الآن؟ فأنكر وقال: لا مانع من وجود مدرسة قرآنية حرة كما سميتها، وإنما نريد أن نتعاون معك ونمدك بما تحتاج إليه في تسييرها وتجهيزها، فقلت له: أشكرك على هذه العناية واستأذنت من المندوب وخرجت، وكانت هذه آخر مقابلة في هذا الموضوع.

كان لهذا الموقف صدى بعيد في أوساط السكان على اختلاف الطبقات، أعطى للمدرسة قيمة كبيرة وأحاطها باهتمام المواطنين، وكان الانتصار الذي انتهت به هذه المضايقة مما خلف ارتياحاً عميقاً في نفوس الشباب ورجال الوطنية الذين جاؤوا لتهنئتي بالثبات الذي أفشل الخطة المدبرة للقضاء على المشروع التعليمي الوطني وأفسح المجال لأعمال أخرى كانت الحركة الوطنية تفكر في القيام بها وإخراجها من حيز النظر إلى حيز الفعل.

ولكن صعوبات أخرى أدبية كانت تعترضنا، وهي من نتائج التخلف الفكري والوقوف مع التقاليد، منها أنني كنت جعلت قراءة القرآن وحصة حفظه ساعة في الصباح وساعة في المساء، وجعلت الحصة المقروءة في كل فصل واحدة سواء كانت بضع آيات أو أثماناً أو أرباعاً ليتمكن المعلم من ضبط الفصل ويحصر عمله في مجال واحد، وليكون تلقين

التلاميذ لمادة مشتركة بينهم باعثاً على استظهارها وسرعة حفظها، وجعلت القراءة في الخمسات المطبوعة فما دونها بالنسبة إلى الصغار وذلك اغتناماً للوقت الذي كان يذهب في كتابة اللوح ومحوه بعد الحفظ، علماً بأن كتابة القرآن وخطه يخضعان لضوابط وقواعد خاصة، فحتى لو أتقنوها لا يستعملونها في الكتابة العادية، ومن ثم يقال: إن خط القرآن لا يقاس عليه، وباختصار فإن المعلم حين يفتتح القراءة والتلقين يفتتحها مع جميع تلاميذ الفصل فيقرأون جماعياً بلسان واحد مع المعلم ما يلقنهم إياه من سور وآيات ثم يجعلهم يحفظونها منفردين، ثم يأمرهم بقراءتها مجتمعين من غير أن يتدخل المعلم إلا إن أخطأوا في لفظ وهكذا ترسخ الحصة الملقنة لهم في ذهنهم بالتلقين والنظر في الخمسة واستماع بعضهم لبعض، وهذا خلاف ما تعوّده معلمو القرآن من إقراء كل واحد على حدة وتفرده بحصة غير حصة الآخر، فضلاً عن اختزال الوقت الذي يذهب في الكتابة والمحو وما إلى ذلك، وقد أعطت هذه الطريقة نتيجة باهرة في التحفيظ وعلى الأقل في المرور بالقرآن الكريم وحفظه كله أو بعضه إذ كانت موزعة على الفصول ترقياً من ربع إلى ربع حتى تستوعب أرباع القرآن كلها في السنوات الأربع الابتدائية إضافة إلى ما لقن في القسم الإعدادي، وعلى الأقل إن لم يحفظ التلميذ القرآن حفظاً جيداً فإنه يتمرس بالكتاب العزيز ويقرأ آياته الكريمة على الوجه الصواب ولا يلحن فيها كما يقع من كثير من القارئين.

نعم إن هذه الطريقة أثارت اعتراض كثير من رجال

الغيرة على الطريقة القديمة، واستنكروا إلغاء الألواح وحفظ القرآن من الخمسات، وخاطبني في ذلك عدد من الناس وبعض الطلبة تطوعوا بأن يقابلوا التلاميذ وتحفيظهم ومباشرة العمل في تكتيب التلاميذ بالألواح وما يتبع ذلك، ولم يفهموا أو لم يهضموا ما في ذلك من ضياع الوقت والتضييق على حصص العلوم التي يجب أن يتلقاها التلاميذ في ساعات النهار الباقية.

ولكن هذه التعليقات كانت بمثابة سحابة صيف سرعان ما انقشعت وسارت الأمور على ما ينبغي واكتسبت المدرسة شهرة وسمعة بحيث بدأ التلاميذ يفدون عليها من نواحي المدينة ومن المنطقة الخليفية ولا سيما من أبناء بعض الأعيان الذين يؤمّن أولياؤهم لهم أمكنة الإقامة والنفقة.

ظلت الدراسة بالمدرسة من يوم تأسيسها قائمة في روض صغير تحتله بالكراء، ولما كان البناء الذي فيه غير كاف لجميع أقسام الدراسة فإن المدرسة كانت غير متمكنة من تطبيق برنامجها كما يجب، ولذلك لما سنحت الفرصة لفتح اكتتاب عمومي قصد إقامة بناية صالحة للمدرسة اغتنمناها وتألفت لجنة لهذا الغرض مكونة من أنصار المدرسة: عبدالسلام الزكاري، عبدالقادر برادة، مولاي عبدالسلام الوزاني، الفقيه عبدالقادر المؤذن، واشتغلت هذه اللجنة بنشاط مدة عام حتى تجمع لديها ما أمكن به شراء قطعة من الأرض بقعة ممتازة بين مرشان والقصبة قرب الروض الذي كانت به المدرسة.

وكان بعض الآباء يرغبون في إلحاق البنات بإخوتهم

الذكور بالمدرسة، ولكني كنت أسوفهم إلى وقت لاحق، ولم أستطع إلا أن أخصص فصلاً لهؤلاء التلميذات، وذلك كله خوفاً من رد الفعل في المجتمع المحافظ جداً والذي لم يقبل تعليم القرآن بغير الألواح والطريقة المصطلح عليها من قديم، وأخيراً بدأ الإلحاح على بناء مدرسة مستوفية للشروط الكاملة، ومنها جناح للبنات، ففتحنا اكتتاباً - كما سبق - لشراء قطعة أرض تبنى عليها المدرسة، ونجح الاكتتاب واشترينا الأرض المطلوبة وانتقلنا إلى فتح اكتتاب آخر للبناء ونجح نجاحاً باهراً، واشترك فيه سمو الخليفة السلطاني كما أمدنا فيه جلالة الملك المرحوم سيدي محمد بن يوسف قدّس الله روحه بمبلغ مهم، وسارت عملية البناء على ما يرام، وانتهينا من البناء الذي دشّنّاه عند زيارة صاحب الجلالة لطنجة عام ١٩٤٧ وبحضور سمو ولي العهد ورجال الحكومة من وزراء وغيرهم، واحتفظت بطرف من القطعة الأرضية بنيت عليها فيما بعد مدرسة خاصة بالبنات مستقلة وقع عليها إقبال كبير.

وكانت المدارس الحرة بالمنطقة قد انتشرت في مختلف المدن وحصلت على اعتراف الحكومة بها، وخصصت مندوبية التعليم بالرباط لها إعانات مالية لا بأس بها.

ولا ينتهي الكلام على المدرسة والمشاكل التي كنت أعانيها في إدارتها وتسييرها من أدبية ومادية، ومنها على سبيل المثال اختطاف المعلمين، إذ لا ينجح معلم من الطلبة الذين أعمل على تكوينهم وتظهر نجابته حتى يتصلوا به

ويغروه بالأجرة المجزية لينتقل إلى المدرسة الحكومية ويأتيني يستشيرني فأشجعه ولا أمانع أبداً في ذهابه، وإن كان بعضهم يُظهر لي أنه يفضل البقاء معي على المرتب المغري، فأقول له: إني لا أجد صعوبة في وجود طالب آخر، ولكنك لا تجد فرصة لتقاضي مرتب محترم مثل هذا، والمهمة التي تقوم بها هناك هي أخت التي تقوم بها هنا، وهكذا اختطفوا مني عدداً من المعلمين المكونين جيداً، ومن المشاكل التي اعترضتني كثيراً وهي تزاحم أبناء الفقراء على الالتحاق بالمدرسة من غير قدرة على أداء الأجرة وشراء الأدوات، وأحكي على الظن لا الحصر أن قراباً كان له ولدان فهو قد طلب أن لا يؤدي أجرتهما كاملة بل ٧٥ في المائة فقط، أي: ١٥ فرنكاً شهرياً، وذات يوم جاءني بزميل له معه ثلاثة أبناء ذكران وبنت، وطلب أن أخفض له الأجرة الشهرية إلى ٢٠ فرنكاً عن الأبناء الثلاثة، فقلت له: إن هذا إجحاف كبير في حق المعلمين، وفي الكتاتيب القرآنية البدائية تؤدى أكثر من هذا، وأنا عندي مصاريف ومعلمون ومقرؤون وخلاف ذلك، فقال لي القراب القديم[1]: والله يا سيدي إننا نتحدث بذلك، ونقول: لا شك أن هناك (جني) يصب فيه وإلا فكيف يقدر على تدبير أمور هذه المدرسة.

فسعيت في استخلاص معونة مماثلة من الرباط ولكني لم أنجح، ونصحتني مندوبية التعليم بطلبها من حكومة

---

(١) القرّاب: الذي يحمل الماء في القرابة ليوزعه على الدور السكنية بمقابل مادي.

طنجة، ففهمت أن الفرنسيين لم يوافقوا على صرف الإعانة إليّ لكراهتهم لي ولطنجة، وفكرت في حكومة طنجة ما هي؟ إن كانت هي المندوبية السلطانية، فأنا أعلم أنها لا ميزانية لها وهي تستخلص أجورها من الرباط، والرباط على رفضه لمبدأ الإعانة لمدرسة حرة في طنجة، وإن كانت هي الإدارة الدولية فأنا لا أقبل أن أطلب إعانة من أجانب لو كانوا يمنحونها، والظن القوي أنهم لن يفعلوا. فوقع في وهلي أن ألجأ إلى المجلس التشريعي الذي كان في النظام الدولي بمثابة برلمان لطنجة، وفعلاً كتبت لهذا المجلس وبيّنت له أن هذه الإعانة موجودة في المنطقة السلطانية وأن مندوبية التعليم هناك تصرفها للمدارس الحرة منذ سنين، وخاطبت بعض أعضاء المجلس في مساندة الطلب، ولما عرض الطلب على المجلس أيّده كثير من الأعضاء وطنيون وأجانب، لكن العضو الفرنسي (أرماند) عارضه بشدة وقال: ما هي هذه المدرسة، وما هي أطرها وما يتخرج منها إلا شباب مشحونون بكراهية الأجانب ومعارضة الحكومة، وكان أرماند هذا مشرفاً على التعليم الفرنسي بطنجة من قبل إدارة التعليم بالرباط، وتقع تحت نظره المدرسة العربية الفرنسية التي سبق الكلام عليها ونظيرتها في تطوان والعرائش، وأعلمني أعضاؤنا في المجلس بالأمر فأرسلت برقية احتجاج للمجلس ونسخة منها للقنصلية الفرنسية العامة بطنجة وأخرى للمندوب السلطاني، ومما قلته في هذه البرقية أن التعليم الذي لا نتيجة له بالمرة هو التعلمي الذي يشرف عليه مسيو أرماند، فلقد حضرت تدشين مدرسة للبنات من هذا القبيل

سنة ١٩٢٨، ونحن الآن في منتصف الأربعينات لم تتخرج من هذه المدرسة بنت واحدة، وأما الأولاد الذكور فإن أكثرهم يعيدون السنة التي يكونون فيها سنتين وأكثر وليس ذلك من قلة تحصيلهم، ولكنه من المعوقات التي توضع في طريقهم لمنع التحاقهم بالليسي رينيو، فإن الشهادة الابتدائية لا يحصل عليها إلا بعد بلوغهم السن التي تمنع هذا الالتحاق.

وكان من وقع هذه البرقية على أرماند أن أمر مديرية مدرسة البنات أن تعمل على تهييء بعضهن لنيل الشهادة الابتدائية في تلك السنة، وكانت السنة قد أشرفت على الانتهاء، وكان من وقعها أيضاً أن عاد المجلس لدراسة مسألة الإعانة وقد قرر مبدأ التعليم الحر بطنجة وقدّر هذه الإعانة بعشرين مليون فرنك، وصرف جلها لمدارس البعثة الكاثوليكية الإسبانية ولمدارس الاتحاد الإسرائيلي، ولمدارس أخرى أجنبية، وأبقى للمدرسة المغربية مليونين اثنين فقط لا غير، والحقيقة أنه لولا مساندة أعضاء المجلس المختلفي الجنسيات للطلب لما أقرت الإعانة، ومساندتهم هذه كانت لفائدة مدارسهم. واللعبة لم تتم، فقد كتب لي المسؤول عن الشؤون الاجتماعية وهو فرنسي في الإدارة الدولية يخبرني بإقرار الإعانة التي طلبتها، وللحصول على القدر المخصص للمدرسة يجب الإدلاء بمعلومات تتعلق بالمدرسة وتاريخها ونظامها وهوية مديرها وأطرها والشهادة التي يحملونها ومن أي معهد أو كلية تخرجوا... إلخ، فأجبته بما أقامه ولم يُقعده من مثل أن هذا فضول منه وأن

المجلس لما قرر إصدار الإعانة لم يربطها بتاريخ ولا برامج ولا بهوية العاملين بها، وقلت: إن هذه الأطر متخرجة من المعاهد والكليات ومدارس المعلمين التي أسستها الحكومة الفرنسية والإدارة الدولية بالمغرب وطنجة وما إلى ذلك من عبارات التهكم والاستهزاء، وكان هذا الجواب بمثابة قطع الطريق على الإعانة أن تصل إليّ، لأن غيظ الموظف الدولي تفاعل مع حقد أرماند فكوّنا ستاراً من حديد بين المدرسة والإعانة، وكان أن تدخلت الإدارة الدولية والقنصلية الفرنسية مع موظفي المندوبية السلطانية وأنشأوا مدرسة أسندوها لبعض من يحظى برضاهم، وأنفقوا عليه أولاً من نظارة الأوقاف، ثم أعطوا المليونين لصاحبها ومضى الأمر على ذلك إلى حين الاستقلال. وهكذا كنت سبباً في إنشاء مدرسة عربية بدون طلب إذن ولا مناقشة دامت نحو أسبوعين، وزكت طنجة مدرسة عربية ثانية على كل حال.

ولم تنتهِ الملاحقة الفرنسية لهذه المدرسة الصغيرة، بل إن إدارة التعليم في الرباط أرادت أن تستخدم معي أسلوباً آخر في التخلص من المدرسة التي أقضّت مضجعها، وخلاصة القصة أن مراقب الولاة المخزنيين الجديد، وهو مسيو كرابيني اتصل بي وطلب مقابلتي فحددت له وقتاً يزورني فيه بمنزلي، وكان شخصاً لبقاً مستعرباً تولى منصب مستشار في أول عهده بالمغرب بالاستئناف الشرعي وكان قبل ذلك مستشاراً في تمثيلية بلاده بسوريا، ولما قابلته قال لي: إنه كلف بالتفاوض معي في أمر أكد لي أنه لا يد له فيه، وإنما هي مهمة انتُدب لها من الجهات الرسمية، وقبل

أن يفضي بها إليّ عاد إلى تأكيد هذا الأمر ويهمه أن أظن به الظنون، فقلت له بدون أي تأكيد: أنا أحمل كلامك على الجدية وأن ظاهره كباطنه، فقال: إنهم يعرضون عليك أن تكري لهم مدرستك وبأي ثمن تطلبه، فقلت متعجباً: أكري لهم مدرستي؟ قال: نعم، قلت: وماذا يجعل مدرستي بهذه القيمة في أعينهم؟ قال: إن قيمتها كبيرة، فهي في موقع ممتاز، وبناؤها متوفر على صفات المدرسة الراقية. قلت: والتلاميذ والمعلمون إلى أين؟ قال: إنهم سيبقون في المدرسة ويعامَلون معاملة حسنة. قلت: وأنا إلى أين أذهب؟ قال: إنك ستأخذ إيجارك الكافي وتستريح من التعب، قلت: ومَن هم الذين ستكون معهم المعاملة في هذه القضية؟ قال: إدارة المعارف بالرباط. قلت: هم أصحاب الفكرة؟ قال: نعم، قلت: وإذا لم يفوا لي بالشرط وامتنعوا من دفع الإيجار؟ قال: لا، هذا لا يكون، فالعقد الذي تمضيه معهم سيكون قانونياً ملزماً لهم بكل وجه.

وفكرت قليلاً ثم قلت له: ولِمَ لا يشترونها مني ويدفعون لي الثمن قبل تسليمها لهم؟ وآمن من كل إشكال؟ قال: هذا أحسن، وأظن أنهم لم يخطر على بالهم إبرام صفقة مثل هذه، وإلا فهي أفضل بكثير من فكرة الكراء.

وهنا قلت له: مسيو كرابيني، إن المدرسة هي أولاً ليست لي وإنما هي ملك للشعب الذي تبرع بما اشتريت به الأرض وما بنيتها به، ثم إني وثلة من إخواني في المنطقة السلطانية شعرنا بما في التعليم الرسمي الذي تشرف عليه إدارة المعارف من خطر على مستقبل أبنائنا من حيث بناؤه على هدم

شخصيتنا المغربية العربية الإسلامية وعمله على إدماجنا في الكيان الفرنسي فلا وجود للعربية فيه ولا للقيم الأخلاقية والروحية التي تشخص ذاتنا، ولا ذكر لتاريخنا وماضينا المجيد وحضارتنا المتميزة، ولذلك قمنا بإنشاء تعليم حر يتدارك ما فات ويعوض ما ضاع ويبعث ما أُقبر، ونحن نتحمل في ذلك المشاق العظمى التي لا ننتظر عليها جزاءً ولا شكوراً، وحرصي على هذه المدرسة كحرصي على استمرار حياتي، وهذا واجب من واجباتي الدينية والوطنية. . . وسألته: هل يهضم هو أن تكون ألمانيا أقامت في بلاده وحوّلت التعليم فيها إلى الألمانية مادة وروحاً إلى ما يتبع ذلك من مسخ للشخصية الفرنسية واضمحلال للغة الوطنية وإدماج للشعب الفرنسي في الشعب الألماني؟ فقال: لا. قلت: هل تقول لا؟ قال: نعم أؤكدها. قلت: وكذلك نحن، فوطنيتنا لا تقل عن وطنيتكم ونزيد بالروح الدينية المتغلغلة في أعماقنا.

ولهذا يا مسيو كرابيني، فعملنا من أجل بلادنا لا يكرى ولا يباع، وأزيد إنك وقد فهمت خطتنا وقدّرتها حق قدرها، إذا أصبحت مديراً للمعارف وحوّلت هذا الاتجاه الخاطىء في سياسة التعليم إلى الاتجاه الصائب، فإني سآتيك بمفاتيح المدرسة مجاناً من غير كراء ولا بيع وأستريح حقاً من التعب. قال لي: أنا لا أتولى إدارة المعارف ولا غيرها، ووظيفتي في وزارة الخارجية محفوظة وتحت طلبي متى أردت. ولقد تقبل ملاحظاتي باقتناع، وقال لي: هل اطمأننت إلى أن الفكرة ليست فكرتي، فقلت: كل الاطمئنان.

هل كفّ الملاحقون؟ لا. إنهم اشتروا منزلاً كبيراً كان في ملك أرملة يهودية، وهي تعيش وحدها متضايقة من العزلة، وعرضت عليّ شراءه منها أكثر من مرة، وهو ملاصق للمدرسة ومطل عليها، وقالت لي: إنك تستطيع أن تراقب المدرسة منه، نعم! اشتروا وأنشأوا فيه مدرسة من طراز مدارس فرانكو عرب لأبناء الأعيان.

ولعل أغرب ما يذكر في مقاومة الاستعمار لهذه المدرسة هو ما لقيته على يد مَن كان من حقهم أن يدافعوا عنها ويعطفوا عليها من أبناء الملة والمواطنين. ونعني نموذجاً من العدول المتحككين برجال السلطة الأجانب والمتملقين لهم، فهذا شاهد متين الصلة بالمفوضية الفرنسية، وهو الذي يختارونه لتحرير شهاداتهم وشهادات المنتمين إليهم، كان رسم القطعة الأرضية تحت يده والأرض في أصلها ملك لأحد متمولي اليهود بالشركة مع موظف كبير من موظفي المخزن، وهو الذي تلقى شهادة البيع من مالكها والشراء من اللجنة التي كلفتها بعملية الشراء، لما علم بعد ذلك أنها ستتخذ أرضية لمدرسة حرة، تباطأ بكتابة الرسم متذرعاً بأنه لا يعلم المشتري ولا كيف تحرر هذه الشهادة، ولا بد من شهادة بإنابة هذه اللجنة في الشراء عن فلان وغير ذلك من التمحلات التي ظن أنه يعرقل بها المشروع ويتقرب إلى أوليائه، وهو كان من العلم والفطنة بحيث لا يخفى عليه شيء من أمر الشهادة، وتحت ضغط اللجنة حررت له الوثيقة المطلوبة فزاد تمنعاً ومكراً، وقال: هل أنا محتاج لمن يلقنني كيف أحرر شهادة ما، وكان زميله أعني العدل الذي هو الشاهد الثاني، بخلافه في

هذا الأمر ولكن المعول عند البائعين على الأول والرسم كان عنده، وبعد اليأس منه أشرت على اللجنة بالكف عن مطالبته بتحرير الشهادة، وشرعنا في البناء بعد وضع التصميم الذي عرضنا مخططه في واجهات بعض المحلات التجارية للدعاية والإعلان، وتمّ البناء ولم نتمكن من حيازة الرسم الذي بقي الفقيه العدل يراوغ في كتابته، فكتبت في قبة مدخل المدرسة هذه الأبيات:

مـــدرســـة الإســـلام والـــعـــروبـــة
والـنـهـضـة الـعـلـمـيـة الـمـرغـوبـة

أنـــشـــأهـــا گـــنـــون عـــبـــد الله
عـــلـــى الـــتـــعـــاون وتـــقـــوى الله

وهـي عـلـى الـتـعـلـيـم وقـف خـالـد
والله فـــي ذلـــك نـــعـــم الـــشـــاهـــد

وقد صار هذا العدل بعد ذلك يراودني على كتابة الشهادة وتسجيل الرسم وإنهاء الإجراءات اللازمة فأعده بذلك، وأخيراً، أخبرته بأنها قد كتبت، فقال لي: كيف ومتى؟ قلت له: إنك لم تحضر حفل التدشين الرسمي للمدرسة الذي كان برئاسة سمو ولي العهد مولاي الحسن، ولم تزر المدرسة لتقرأ رسم التملك والوقف المكتوب بمدخلها في دائرة القبة اللطيفة المقامة فوق هذا المدخل.



لائحة المؤلفات والكتب المحققة والمنشورة للأستاذ المرحوم سيدي عبداللّه گنون[1]

كان المرحوم العلأمة سيدي عبدالله گنون موسوعة علمية متعددة المناحي والاهتمامات. وهو بهذا المعنى كان مشاركاً. ولفظ مشاركة بالنسبة إليه لا يفيد أخذ نتَف من هذا العلم أو ذاك، بل كان تام الاطلاع، واسع المعرفة فيما يتحدث فيه أو يهتم به، وكان مغرماً بالجديد المبتكَر فهو الذي يقول في مقدمة كتابه: **«أمراؤنا الشعراء»**.

«يعجبني الموضوع ولو كان تافهاً إذا كان طريفاً لم يُعرض بعد في السوق، ولا أكره إليّ من الموضوع المبتذَل أقرأه، فأحرى أنشئه. ولهذا فإني أفضل الكتابة القليلة مع الطرافة على الكتابة الكثيرة والابتذال».

من ثمة، فإن الإنتاج الذي صدر عن الأستاذ گنون كان يتسم بهذه الطرافة والجدة التي ألمح إليها في الفقرة السابقة من كلامه.

(١) نقلاً عن ندوة عبدالله گنون ص١٤٥، وجمع عناوين هذه المؤلفات الأستاذ عبدالصمد العشاب.

على أن إنتاج الأستاذ گنون يمكن حصره في المحاور التالية:

أ ـ الدراسات الأدبية والتاريخية المغربية والأندلسية.

ب ـ الدراسات اللغوية.

ج ـ الدراسات الإسلامية.

د ـ الإبداع في المقالة الأدبية والشعر.

هـ ـ المقالة السياسية في قضايا وطنية وعربية وإسلامية بوجه عام.

و ـ تحقيق النصوص والكتب المتصلة بالمحاور السابقة.

إنني بحكم ارتباطي بالأستاذ الفقيد منذ مرحلة الطفولة إلى حين وفاته كنت قد ألممت بدقائق ما يتصل به اجتماعياً وثقافياً. وقد وضعت للجانب الثقافي ببيبلوغرافيا موسعة تناولت بالتعريف والشرح كل إنتاجه المنشور بالكتب والمجلات والصحف والقصاصات... إلخ. وكذا لإنتاجه الذي خلفه من بعده ولم يُنشر لحد الآن، وهو شيء كثير وممتع.

وهذا الجرد الذي أتشرف بتقديمه مأخوذ من تلك البيبلوغرافيا المفصلة، أؤدي به خدمة متواضعة للدكتورة السيدة فاطمة الجامعي الحبابي حرم أستاذنا الكبير محمد عزيز الحبابي فعساها تحظى بالقبول.

أ ـ في الدعوة الإسلامية:

ـ **فضيحة المبشرين في احتجاجهم بالقرآن المبين (في الرد على دعاة التنصير في أوساط المسلمين)**: طبعة أولى بالمطبعة المهدية بتطوان ١٩٤٦/١٣٦٥، طبعة ثانية بمطبعة رابطة العالم الإسلامي بمكة ١٩٨٢/١٤٠٢.

ـ **الرد القرآني على كتيب: هل يمكن الاعتقاد بالقرآن؟** (كتيب ألّفه سفير الاتحاد السوفياتي بموريطانيا): دار الكتاب اللبناني بيروت، ١٩٨٢.

ـ **إسلام رائد** (مقالات في الدعوة): الطبعة الأولى بمطبعة كريماديس بتطوان ١٩٧١، الطبعة الثانية بالمطبعة الملكية، بالرباط، ١٩٧٨.

ـ **مفاهيم إسلامية** (مقالات): الطبعة الأولى بدار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٦٤، الطبعة الثانية مطبعة النجاح الجديدة ـ الدار البيضاء ١٩٨٥/١٤٠٥.

ـ **على درب الإسلام** (مقالات في الدعوة): مطبعة كريماديس بتطوان ١٩٧٢.

ـ **منطلقات إسلامية** (مقالات): مطبعة سوريا بطنجة ١٩٧٦.

ـ **شؤون إسلامية** (دراسات): دار الطباعة الحديثة بالدار البيضاء ١٩٧٩.

ـ **الإسلام أهدى** (دراسات): الطبعة الأولى طنجة، الطبعة الثانية بمطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء

١٤٠٥/١٩٨٤. ترجم إلى الإسبانية سنة ١٩٨٨ بإشراف مكتبة المنارة بمكة.

- **جولات في الفكر الإسلامي** (دراسات): مطبعة ديسبريس بتطوان ١٤٠٠/١٩٨٠.

- **تحركات إسلامية** (رحلات ومؤتمرات): دار الطباعة الحديثة بالدار البيضاء ١٩٧٧.

- **معسكر الإيمان يتحدى (مقالات)**: مطابع البوغاز بطنجة ١٩٨٩. صدر بعد وفاته.

- **تفسير سور المفصل من القرآن الكريم**: مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء ١٤٠١/١٩٨١.

- **تفسير سورة يّس**: الشركة الجديدة، مطبعة لويس ش.م. بالدار البيضاء ١٩٨٩.

- **القدوة السامية للناشئة الإسلامية** (دروس في تلقين البطولات الإسلامية): الطبعة الأولى بمطبعة الوحدة المغربية بتطوان ١٩٤٥، الطبعة الثانية بدار النشر للجامعيين - بيروت.

- **تقوّل سخيف على الجناب المحمدي الشريف** (مناقشة لجانب من سيرة الرسول): شركة الطبع والنشر، بالدار البيضاء ١٩٨٩.

- **حب الرسول للنساء** (مناقشة لجانب من سيرة الرسول): مطبوعات الجمعية المغربية للتضامن الإسلامي - مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء ١٩٨٨.

- أربعون حديثاً في فضل القرآن وتعلُّمه وتعليمه وتلاوته: منشورات رابطة علماء المغرب، ضمن سلسلة سبيل المؤمنين. الحلقة رقم ١، مطبعة الميثاق بطنجة.

- محاذي الزقاقية (دروس متوسطة في التشريع الإسلامي المغربي): الطبعة الأولى بمطبعة الوحدة المغربية بتطوان، الطبعة الثانية بمطبعة أكدال بالرباط ١٩٥٥/١٣٧٥. الطبعة المترجمة إلى الفرنسية للأستاذ بوريس دي برفتياف باريس ١٩٥٨.

***

ب ـ في الأدب والدراسات الأدبية والتاريخية المتصلة بهما:

- النبوغ المغربي في الأدب العربي: الطبعة الأولى جزءان بالمطبعة المهدية بتطوان ١٩٣٧، الطبعة الثانية ٣ أجزاء، دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٦١، الطبعة الثالثة ٣ أجزاء دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٧٥، ترجم إلى اللغة الإسبانية ونال عليه لقب دكتوراه فخرية من جامعة مدريد على إثر طبعته الأولى.

- شرح مقصورة المكودي (قصيدة طويلة على غرار مقصورة حازم): مطبعة مصطفى محمد ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ بمصر ١٩٣٦/١٣٥٦.

- شرح الشمقمقية لابن الونان (شاعر مغربي على عهد المولى محمد بن عبدالله العلوي): الطبعة الأولى مطبعة مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية الكبرى بمصر

١٩٣٤/١٣٥٤، الطبعة الثانية بدار الطباعة المغربية بتطوان ١٩٥٤، الطبعة الثالثة بدار الجيل للطباعة بمصر ١٩٦٤، الطبعة الخامسة دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٧٩.

- **ذكريات مشاهير رجال المغرب (سلسلة تراجم من ٤٠ حلقة)**: الطبعة الأولى منشورات معهد مولاي الحسن للأبحاث بتطوان، الطبعة الثانية دار الكتاب اللبناني بيروت، تحت الطبع عشر حلقات أخرى من ٤١ إلى ٥٠.

- **أمراؤنا الشعراء (منتخبات من عهد الأدارسة إلى العلويين)**: المطبعة المهدية بتطوان ١٩٤١/١٣٦١.

- **واحة الفكر (إبداع ونقد)**: منشورات معهد مولاي الحسن للأبحاث - الطبعة المهدية بتطوان ١٩٤٨.

- **لقمان الحكيم (ترجمة للحكيم المشهور)**: الطبعة الأولى بالمطبعة المهدية بتطوان، الطبعة الثانية بدار المعارف بمصر ١٩٦٩.

- **التعاشيب (إبداع ونقد)**: الطبعة الأولى بالمطبعة المهدية بتطوان، الطبعة الثانية بدار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٧٥.

- **العصف والريحان (مقالات في الأدب والنقد)**: مطبعة كريماديس بتطوان ١٩٦٩.

- **أزهار برية (مقالات في الأدب والنقد)**: مطبعة ديسبريس بتطوان ١٩٧٦.

- **أحاديث عن الأدب المغربي الحديث (محاضرات**

ألقاها على طلبة قسم الدراسات الأدبية واللغوية بمعهد الدراسات العربية العالية، التابع لجامعة الدول العربية): الطبعة الأولى دار الرائد للطباعة بالقاهرة ١٩٦٤، الطبعة الثانية مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء ١٩٧٨/١٣٩٨.

- **أشذاء وأنداء** (مقالات في الأدب والنقد): مطابع البوغاز بطنجة ١٩٨٦.

- **خل وبقل** (دراسات أدبية ونقدية): المطبعة المهدية بتطوان.

- **أدب الفقهاء** (دراسات نقدية وتحليلية): الطبعة الأولى دار الكتاب اللبناني بيروت، الطبعة الثانية، مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء ١٩٨٨.

- **لوحات شعرية** (ديوان): دار كريماديس للطباعة بتطوان ١٩٦٦.

- **إيقاعات الهموم** (ديوان): مطبعة سوريا بطنجة ١٩٨١/١٤٠١.

- **القاضي عياض بين العلم والأدب** (دراسة): منشورات دار الرفاعي - سلسلة المكتبة الصغيرة، عدد ٤٢، الرياض ١٩٨٣/١٤٠٣.

- **أنجم السياسة وقصائد أخرى** (دراسات أدبية عن نماذج من الشعر المغربي النادر): مطبعة النجاح الجديدة بالبيضاء ١٩٨٩/١٤٠١.



ج - كتب مختلفة:

- مدخل إلى تاريخ المغرب (مدرسي): الطبعة الأولى، مطبعة الوحدة المغربية بتطوان ١٣٦٣/١٩٤٤، الطبعة الثالثة مطبعة كريماديس بتطوان ١٣٧٨/١٩٥٨.

- الجيش المجلب على المدهش المطرب (مناقشة لكتاب العلامة عبدالحفيظ الفاسي في شأن نسبة آل گنون إلى العترة النبوية): مطبوع على آلة النسخ سنة ١٩٨٥.

- معارك (مجموعة مقالات في الدفاع عن القضية المغربية إبان الحماية والقضية الفلسطينية وقضية التعليم الأصيل بالقرويين): مطبعة ديسبريس بتطوان.

- نظرة في منجد الآداب والعلوم (دراسة نقدية لغوية): منشورات معهد البحوث والدراسات العربية، مطبعة الجبلاوي بالقاهرة ١٩٧٣.

- أربع خزائن لأربعة علماء من القرن الثالث عشر: منشورات معهد المخطوطات العربية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٤.

- الشيخ أحمد زروق دفين مصراته (دراسة).



د - كتب محققة:

- المنتخب من شعر ابن زاكور (منتخبات من ديوانه المخطوط): الطبعة الأولى منشورات مؤسسة الجنرال فرانكو

للأبحاث العربية الإسبانية، مطبعة الفنون المصورة بالعرائش ١٩٤٢، الطبعة الثانية دار المعارف بمصر، سلسلة ذخائر العرب عدد ٣٩ سنة ١٩٦٦.

- **مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفاء - للكاتب عبدالعزيز الفشتالي**: منشورات كلية الآداب بجامعة محمد الخامس بالرباط، المطبعة المهدية بتطوان ١٣٨٤/١٩٦٤.

- **ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث**: منشورات معهد مولاي الحسن للأبحاث بتطوان ١٩٥٨، الطبعة الثانية منشورات مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٦٥.

- **عجالة المبتدي وفضالة المنتهي في النسب لأبي بكر الحازمي**: الطبعة الأولى منشورات اللغة العربية بمصر - طبع بمطابع الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ١٣٨٤/١٩٦٥، الطبعة الثانية لنفس الناشرين ١٣٩٣/١٩٧٣.

- **الأربعين الطبية المستخرجة من سنن ابن ماجه وشرحها للعلامة عبداللطيف البغدادي**: الطبعة الأولى من مخطوطات أصلية بالخزانة الكنونية بطنجة، المطبعة المهدية بتطوان ١٣٧٠/١٩٥١، الطبعة الثانية معهد المخطوطات العربية، فصلة من مجلة المعهد ماي ١٩٧٢، الطبعة الثالثة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة المحمدية.

- **رسائل سعدية**: منشورات معهد مولاي الحسن للأبحاث بتطوان - دار الطباعة المغربية بتطوان ١٣٧٣/١٩٥٤.

- **التيسير في صناعة التسفير لأبي بكر الإشبيلي**: منشورات معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ١٩٦٠.

- **أخبار الصغار للحافظ محمد بن مخلد الدوري العراقي**: منشورات أكاديمية المملكة المغربية ١٩٨٦.

* * *

هـ - كتب منشورة بدون تحقيق:

- **قواعد الإسلام للقاضي عياض**: نشر على مخطوط أصلي بالخزانة الكنونية بطنجة، المطبعة المهدية بتطوان ١٩٥٣/١٣٧٣.

- **تلقين الوليد الصغير لعبدالحق الإشبيلي**: نشر على مخطوط أصلي بالخزانة الكنونية بطنجة - المطبعة المهدية ١٩٥٢/١٣٧٣.

- **شرح الشيخ ميارة على لامية أبي المجراد**: دار الطباعة المغربية بتطوان ١٩٥٤/١٣٧٤.

- **رسالة نصرة القبض في الصلاة للعلامة محمد المسناوي**: نشر على مخطوطة أصلية بالخزانة الكنونية بطنجة.

- **الأنوار السنية في الألفاظ السنية لابن جزي**: نشر على مخطوطة أصلية بالخزانة الكنونية، المطبعة المهدية بتطوان ١٩٤٩/١٣٦٨.

- **ترتيب أحاديث الشهاب للعلامة الخزرجي**: نشر على مخطوطة أصلية بالخزانة الكنونية بطنجة، المطبعة المهدية بتطوان ١٩٥٠/١٣٦٩.

ـ كشف الشبهات للعلاَّمة محمد بن سليمان الورعي: المطبعة المهدية بتطوان ١٣٦٣/١٩٤٤.

ـ شرح العلاَّمة البوري على منظومة ابن كيران في الاستعارة.

* * *

و ـ كتب أخرى للمؤلف لم تُطبع بعد:

ـ شخصيات مغربية (تضم حوالى ١٥٠ شخصية للتعريف بها في مختلف فنون المعرفة).

ـ صنوان وغير صنوان (ديوان يضم مساجلات شعرية بين المؤلف وشخصيات أدبية من المغرب والمشرق).

ـ نوادر ومِلَح أدبية (كتبه سنة ١٣٥٩/١٩٤٠).

ـ مذكرات غير شخصية (عرض تاريخي واجتماعي وسياسي لما مر بالمؤلف أو شارك فيه من أحداث ومواقف).



ما قاله علماء العصر
عن كتاب «ذكريات مشاهير
رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة»

الأمير جعفر الحسني
ـ أمين المجمع العلمي العربي بدمشق ـ
يكتب عن الذكريات

نشرت مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق في جزئها الرابع من المجلد (٢٨) بقلم أمين المجمع الأمير جعفر الحسني ما يلي:

ذكريات مشاهير رجال المغرب،

بقلم السيد عبدالله گنون،

من مطبوعات معهد مولاي الحسن بتطوان.

نشرها واضعها في ست[١] رسائل ترجم فيها لسبعة علماء من أهل المغرب العربي. خصّ الأولى منها بسيرة الإمام المتكلم عثمان بن عبدالله السّلالجي من أهل فاس

(١) صدر من هذه الرسائل لحد الآن ثلاثون رسالة، والكاتب تناول سبعاً منها بالكلام كما يعرف من تمام هذا التعريف. فكأنك إن قوله: ست هو سبق قلم.

المتوفى سنة (٥٧٤)، وهو صاحب المقدمة العَقَدية المعروفة بـ(البرهانية)، وترجم في الثانية لمحمد بن أحمد بن غازي العُثماني المكناسي المتوفى سنة (٩١٩)، وهو أحد علماء المغرب وأساتذته وله رسائل عديدة في الفقه والحديث والعربية والتاريخ والحساب.

وضمّن الثالثة ترجمة أبي العباس أحمد بن محمد بن الونّان المتوفى سنة (١١٨٧)، وهو صاحب الأرجوزة المعروفة بـ(الشّمَقْمَقِيّة).

وجاء في الرابعة بسيرة الشاعر المجيد محمد بن عَبْدُون المكناسي المتوفى سنة (٦٥٨) أو التي بعدها. وسيرة أحمد بن شعيب الجَزَنّائي المتوفى سنة (٧٤٩)، وقد برع في الأدب واللسان والعلوم العقلية من الفلسفة والتعاليم والطب وغيرها.

وذكر في الخامسة سيرة القاضي المؤرخ الأديب البارع محمد بن أحمد بن شَبرين (بالباء الموحدة) المتوفى سنة (٧٤٧)، وقد أجمع مترجموه على أنه كان «أديباً نابغاً، نافس فحول النظم والنثر في عصره» كما اشتهر ببراعة الخط. خلّف ديوان شعر كبير وهو الآن في حكم المفقود ولم يعرف من نثره إلا اليسير.

وتناول في السادسة سيرة الخطيب محمد بن عمر بن رُشَيْد الفِهْري المتوفى سنة (٧٢١)، وكان من أهل المعرفة بعلم القراءات والعربية وعلم البيان والأدب والعروض والقافية. رحل إلى المشرق وأدرك فيه جلّة من مشائخ مصر

والشام والحجاز، أخذ منهم وروى عنهم. وله تآليف مهمة في علم الرواية والإسناد والعربية وأهم كتبه وصف رحلته إلى المشرق في ستة أجزاء.

وحوت السابعة سيرة عيسى بن عبدالعزيز الجزولي البربري المتوفى سنة (٦٠٧)، رحل إلى المشرق وأخذ العربية عن ابن بَرّي بمصر، وقد انتهت إليه الرياسة في علم النحو، وهو صاحب المقدمة المشهورة التي سماها (القانون)، وفيها قال ابن خلكان: «ولقد أتى فيها بالعجب العجاب وهي في غاية الإيجاز مع الاشتمال على شيء كثير من النحو ولم يُسبَق إليها». وللجزولي فضل في تجديد سنَد العربية بأقطار المغرب في القرن السادس، وإنشاء المدرسة النحوية التي تهتم بالتقنين والتعليل وهو أول من أدخل صَحاحَ الجوهري إلى المغرب.

وقد جمع مؤلف هذه الرسائل سِيَر هؤلاء العلماء من مراجع عديدة وزاد عليها دراسات عصرية عن آثارهم العلمية ومكانتهم الاجتماعية، وقد أجاد في التحليل وحسن التعريف. ومن وفاء المرء لقومه ووطنه إحياء أمجاد السلف وبعث آثارهم ومن هو أولى بنشر مآثر ماضي المغرب من أبنائه البررة؟

فبارك الله في همة الأستاذ گنون ووفقه للإكثار من هذه التراجم التي فيها جذوة مثيرة وقدوة حميدة لكل عربي.

* * *

عرض وتعليق
الدكتور نقولا زيادة

كتب الأستاذ الدكتور نقولا زيادة أستاذ التاريخ الحديث بالجامعة الأمريكية ببيروت في مجلة العالم البيروتية (العدد الثالث، السنة العاشرة) في باب الكتب الحديثة، عن هذه السلسلة ما يلي:

يعتبر الأستاذ عبدالله گنون كبير مؤرخي الأدب المغربي ومن أنشط العاملين في سبيله، والذين اهتموا بالنتاج الفكري المغربي يشعرون بفضل الأستاذ گنون وجهوده الكثيرة في هذه الأمور.

وقد أراد الأديب الكبير أن يحيي ذكريات مشاهير رجال المغرب من أهل العلم والأدب والسياسة، فبدأ قبل سنوات بنشر رسائل مقتضبة عنهم، ظهر له منها خمس وعشرون، ولكنه اضطر إلى التوقف سنة ١٣٦٩ بسبب مرض اعتراه، وقد استأنف العمل الآن، فصدرت من الذكريات ثلاث، هي عبدالمهيمن الحضرمي وأبو العباس العزفي وعبدالواحد المراكشي (أرقام ٢٦، ٢٧، ٢٨)...

وقد قال الأستاذ كنون في تقديمه للرسالة الأولى:
«على أننا لا نعد بكتابة تراجم علمية لهؤلاء الأشخاص قائمة على التحليل ومستوفية للأغراض الواجبة في هذا الصدد؛ لأن المصادر تعوزنا كثيراً. وما جمعناه من الأخبار والآثار على كونه أكثر مما جمعه، أي ديوان عن هؤلاء الأفراد، ومنهم من لم يكن أحد يعرف أنه مغربي أصلاً فإنه لا يكفي لكتابة حياةٍ لواحد منهم، ولهذا السبب دعونا هذا الكتاب ذكريات مشاهير رجال المغرب، ولم ندعه تراجم».

ومع ذلك فإن المؤلف وفّى كلاً من هؤلاء الرجال حقه في حدود ما رسم لنفسه من خطة. والمخطط العام لهذه الرسائل هو أنها تتناول حياة الرجل واختباره وتجاربه وأعماله، بأسلوب طلي وعبارة سلسلة واعتدال في الحكم، ثم تعرض لمؤلفاته إن كان من أهل القلم، وتقدم إلى القارىء مختارات من نثره أو شعره إن كان من أهلهما.

والرجال الثلاثة الذين نعرض لهم هنا منهم عبدالمهيمن الحضرمي من أهل القرنين السابع والثامن (الثالث عشر والرابع عشر، م)، وقد ولد في سبتة وكتب لمحمد الثالث من بني الأحمر في غرناطة وبني مرين بعد ذلك، ثم استقر في تونس وكان من تلاميذه فيها ابن خلدون المؤرخ المشهور. أما أبو العباس العزفي فهو معاصر للحضرمي ومن أهل سبتة أيضاً، إلا أن العزفي كان من بيت رياسة للمدينة، فقد كان أخوه وأبوه وجده رؤساء سبتة حتى انتزعها منهم محمد الثالث من بني الأحمر، ونقل العزفيين إلى غرناطة. وثالث هؤلاء هو عبدالواحد المراكشي وقد

سبقهم في الزمن، ولعله أخلدهم أثراً إذ أن كتابه: «المعجب في تاريخ المغرب» من أثمن ما وصل إلينا. وقد قال الأستاذ گنون عنه ما يلي: «هذا رجل من رجالات المغرب، كان له شأن وبال مدة حياته، ثم طواه الإهمال والنسيان حتى بُعِث في عالم الاستشراق حديثاً، فإذا هو أكثر أهمية بالنسبة إلى تاريخنا السياسي والأدبي مما كان عليه قيد الحياة، لم يؤرخ له أحد في مغرب ولا مشرق، وإن كان هو قد كتب تاريخ المغرب للمشرق. وكأنه كان يعرف ما سيؤول إليه أمره من جحود ونكران، فكتب هذه السطور القليلة التي يتحدث فيها عن نفسه في تاريخه المعجب، ولولاها لما علمنا من حاله شيئاً».

عن مثل هؤلاء الرجال يكتب عبدالله گنون في ذكريات مشاهير رجال المغرب فجازاه الله عنهم خيراً، وأحسن إليه بقدر ما أحسن إلينا إذ عرفنا بهم في تراجم مقتضبة، ومختارات من الشعر والنثر جميلة، وتحليل، وإن أنكره هو، فإننا واجدوه فيما يكتب.



محمد الشاذلي خزندار
تحية من تونس

أهدى المؤلف بعض الحلقات من هذه السلسلة في طبعتها الأولى إلى صديقه الأستاذ محمد الشاذلي خزندار أمير شعراء تونس رحمه الله، فكتب إليه عنها في إحدى مراسلاته هذه التحية الكريمة:

حمداً وصلاة...

١٥ رمضان المعظم سنة ١٣٧٢.

ورد عليّ كتابكم الكريم رداً على رسالتي إليكم فأحللته المحل اللائق به حفاوة وتكريماً، وتلوته تلاوة المعجب بناسج برْده ذاكراً صاحبنا البغدادي[1] واسطة التعارف بيننا بما يقابل جميله من ثناء وشكران. ولقد نقلت لِحَسَنِنا هذه الفقرة التي تخص نجله (العزيز) الواردة في جوابكم، وشكرت له حسْنَ أياديكم معنا بما تتحفوننا به من

---

(١) يعني: الأستاذ حسن البغدادي التلمساني.

مؤلفات ونَشْريات هي خير ما نجمل به خزائننا المضمخ باطنها بعبيركم الفوّاح.

السيد الأستاذ: كم أنا متشوف لإحرازي على صورة منكم تكون عندي نِعْمت الذكرى، ولربما ساعَفَني الحظ فكانت من محتويات ديواني الذي لن أزال أترقب الفرصة السانحة لاستخراجه من مسوّداته وإبرازه لعالم المطبوعات، إذ طال العهد عن ظهور الجزأين السابقين من شعري. والأمل وطيد في استجابة رَغِيبتي، ولا إخالك إلا مرتاحاً لهذا الالتماس، ومثلك لا يجْحِف، ولا أنا ممن يلْحِف.

هذا ولي الشرف بإنهاء تحيتي على طريقكم لمن هو حولكم من السراة النبلاء، ذوي الأيادي البيضاء، في نهضتنا الاجتماعية، باسطاً أكفّي للنفحات القدسية لتأييدنا واستطالة حياتنا حتى نشاهد بأعيننا ونلمس بأيدينا استعادة عزتنا واسترجاع ما حققناه من نخوة وسلطان وما ذلك على الله بعزيز. وفي الختام تقبّلوا عَبَاهِر العواطف ونفائس الأحاسيس من وَدودكم المخلص.

محمد الشاذلي خزندار

ثم أتبع الرسالة بهذه الأبيات:

لابن بَطوطةَ ذكْر في ابْن خَلدون

أحيته أسفارُ عبدالله كنّونِ

فيها الأحاديثُ عن أبطال مغربنا

بين الأشاوِس منا والأساطينِ

كــمْ فــي الأفــارقــة الأولــى أوائِــلـنــا
مــن أهــل مــعــرفــة أو مــن ســلاطــيــنِ
سادوا وشـادوا وذادوا عـن حـظـائـرهـم
مِن مثل طارقَ أوْ مثل ابـن طـولـونِ
وفـي الـخـوالـد مـن آثـار نـهـضـتـهـم
مـا لـيـس مـثـلـه فـي هـنْـدِ ولا صـيـنِ

* * *

هذه السلسلة في الميزان
بقلم الأستاذ الدكتور تقي الدين الهلالي

سلسلة محكمة الحلقات من تاريخ الأدب المغربي يؤلفها وينشرها الأديب النابغة الأستاذ عبدالله گنون. وقبل أن أبتدىء في نقد هذه المؤلفات وتقريظها ينبغي أن أذكر شيئاً من التعريف بالمؤلف ليستفيد مَن لا يعرفه حق المعرفة من أهل الشرق وغيرهم من أهل الآفاق البعيدة عن المغرب.

كنت في البلاد الجرمانية في مدينة ـ بُنْ ـ أولاً، ثم في برلين ثانياً، فكانت الأخبار تترى عليّ عن عبدالله گنون. وكان الحاملون لها أناساً مختلفي المشارب والطباع والأذواق من جميع الطبقات، ولكنهم جميعاً اتفقوا على فضله ونبله. فاشتقت إلى الاتصال به لأخبره وأعرفه عن كثب، فقدر لي أن أتوجه إلى المغرب سنة ١٣٦١، ولقيت هذا الرجل في بلده طنجة وفي تطوان، وعرفت حاله حق المعرفة فوجدته أحسن وأجلّ مما وصفه الواصفون.

كانت منافثَةُ الرّكْبان تخبرني
عن جعفرِ بْنِ فَلاحٍ أطيبَ الخبر
ثم التقينا فلا والله ما سمعت
أُذْني بأحسن مما قد رأى بصري

فلا تكاد تلتمس خلة من خلال النبل ولا خصلة من خصال الفضل إلا وجدته متصفاً بها. فقد جمع بين خصال الشيوخ من سعة العلم والأدب وكمال العقل والمروءة وبُعد النظر وسداد الرأي والرزانة والحلم والوقار إلى خلال الشباب من النشاط والحزم وفكاهة الحديث وحسن المحاضرة وطرافة النكتة مع صحة العقيدة والكرم والشهامة والوطنية الموزونة بميزان الشرع المحمدي المكتسبة من القرآن وسيرة الرسول، لا من العصبية الجاهلية الأولى ولا الآخرة؛ متوسط القامة إلى الطول أمْيَل أبيض صبيح الوجه نحيف الجسم لا يلتزم زياً بعينه فصيح اللسان له شعر يصل فيه أحياناً إلى حد الإبداع، وله نثر منسجم مرصع بجواهر النكت ولطائف المُلَح، إلا أنه قد يشوبه بالعبارات العصرية التي ينفر منها الأسلوب العربي الخالص، ثم إن ارتكابه لهذه العبارات ناشئ عن اختيار واستحسان لا عن عجز أو جهل بالقواعد اللغوية فإنه فيها نسيج وحده ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾، وبعبارة أخرى فهو من الأدباء الذين يذهبون إلى التجديد المطلق، وللناس فيما يعشقون مذاهب.

وله تآليف غزيرة العلم جيدة التأليف حسنة السبك (أعُدّ منها ولا أعدّدُها) منها: تاريخ المغرب مختصر للمدارس المغربية وشرح الشمقمقية وشَرح مَقْصُورة المكودي وتعليق على ديوان ابن زاكور؛ وأهمها كتاب النبوغ المغربي الذي جمع فيه ما لا يوجد في كتاب واحد من تاريخ الأدب والأدباء والشعر والشعراء مع الإلمام بتاريخ الحوادث العامة والسياسية والنقد الصحيح لكل ما يعرض له. وقد قسم هذا

الكتاب إلى عصور متباينة وتوسع ما أمكنه في تراجم المبرزين من الأدباء والشعراء، ونشر هذا الكتاب في مجلدين من ماله الخاص لم يساعده على ذلك أحد لا حكومة ولا جماعة ولا أفراد من الأمة؛ بل وجد هذا الكتاب في أمته من يحاربه ولكن جهود المحاربين كانت كالزّبَد الذي يذهب جفاء فانتشر الكتاب برغم أنوفهم وترجم باللغة الإسبانية ومنحته إحدى الجامعات الإسبانية عليه لقب دكتور شرفاً، وتلقاه مؤرخ الأدب العربي الأكبر في هذا العصر بلا نزاع، الأستاذ كارل بروكلمان الألماني تلقاه بالإعجاب والثناء العاطر.

ولما تولى الأستاذ كنون إدارة المعهد الخليفي للباحثين الذي أسس في تطوان سنة ١٣٥٦، وجد الفرصة سانحة لنشر كتابه «ذكريات مشاهير رجال المغرب»، الذي لا يقل أهمية عن كتاب النبوغ المغربي، فبدأ يُخرجه في أجزاء صغيرة، ولكنها أجمل طبعاً، وأكثر تأنقاً وأدق نظاماً مُفْرِداً لكل عالم وكل أديب جزءاً خاصاً يشتمل على سيرته ومخلّفاته الأدبية من منظوم ومنثور مع البحث والتحليل الأدبي والتاريخي الدقيق الذي يقال فيه: (أعط القوسَ بارِيها).

ولا يجب أن يكون مصيباً في جميع آرائه فتلك صفة استأثر بها كتاب الله. قال الشافعي رحمه الله: أبى الله أن يسلَم من النقص إلا كتابُه؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾. ولكن كل من قرأ هذه السلسلة من أهل الفن المُنْصِفين يشهد له بالبراعة في النقد والإصابة في أغلب المسائل، وذلك أقصى ما يطمع فيه

البشر. وقد بلغ ما نشر من هذه الأجزاء خمسة عشر فمُلِئتُ إعجاباً بها وأكبرت هذه الهمة الشماء، ولم أكن من قبل أجهَلُها. وإن دنيا الأدب لفي أشد الحاجة إلى بعث هؤلاء النوابغ وإخراج كنوز آدابهم من تحت أنقاض البلى والإهمال في تلك الحلة القشيبة من قرطاس أبيض ناصع وحروف واضحة وطبع متقن. على أن في تصحيحه نقصاً لم يستطع هذا الفاضل أن يتجنبه، ولا أظن أن ذلك ينشأ عن تهاون أو قصور ولكنه نتيجة انحطاط الثقافة اللغوية في البلاد العربية بأسرها؛ وقد يتغاضى هذا الأستاذ الناقد أحياناً عن الخرافات الملتصقة بالأدب المغربي الذي تخدِشُ وجهَه الجميل مع أنه بعيد عن العقائد الخُرافية بُعْدَ الثّريا من الثرى لأن الجمهور لا يزال يخبط في ظلماتها ولعله لم يرَ في الإمكان أبدعَ مما كان. ثم إنه لم يرتب هذه السلسلة على العصور فيبدأ بالمتقدم فالمتقدم في الزمان أو المتأخر فمن دونه ولم يرتب أولئك الرجال على درجاتهم في الكمال. فلا أدري ماذا قصد في ترتيبهم والخطب في ذلك يسير.

وإني لأهنئ الباحثين في الأدب المغربي وتاريخه بهذا العمل المبرور والسعي المشكور أولاً، ثم أهنيء المؤلف ثانياً بما أتاح الله له من خدمة الأدب والتاريخ وخصه بهذه المزية دون أبناء جلدته؛ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

بغداد في العاشر من السادس من ١٣٧١هـ.

تقي الدين الهلالي



محمد المختار السوسي
ثناء وهدية

لما توصل فضيلة الأخ العلامة القدوة سيدي المختار السوسي بالأجزاء الأولى من الذكريات تفضل فأرسل إليّ الكتاب الآتي مع الهدية الموصوفة فيه

الحمد لله وحده

وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه،

٢٩ جمادى الأولى ١٣٦٩هـ.

ما قامَ بالأدَب العالي وبالدين
إلا يراعَة عبدالله كنّون
هيهاتَ ينفعُ ذُو دين بلا أدب
عالٍ وذو أدب عار من الدين

الأخ العلاَّمة الكبير، المفخرة التي نعتزّ بها عن جدارة ديناً وهمّة وطموحاً وعزوفاً ومبدأً سيدي عبدالله كنون. سلاماً طيباً وتحية مباركة.

هذا فلْيُجاز الله الأخَ عن عمله المتتابع في إعلان شأن

الأدب المغربي، وإحياء أعلاق التاريخ المغربي المكنوزة، هكذا هكذا وإلا فلا لا. فقد توصلت من كرم الأخ بكل ما يتحفني به من مطبوعاته القيّمة، فأشكركم من أعماق الفؤاد على ما تقومون به مما اختصصتم به وحدكم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. وليتفضل الأخ بقبول نسخة لها مكانتها في عالم الأدب الأندلسي في عهده الأخير، بين دفّتيها ديوان عزيز نفيس مما قاله محمد بن يوسف الأمير من بني الأحمر سنوات (٢١٥ ـ ٢٢٠هـ).

ولا أعلم للنسخة ثانية إلا نسختين أخذناهما من هذا الأصل، ولكن من غير استتمام المقابلة.

وقد ظفرت بالنسخة في بادية سُوس. وحيث كنت في غير صدد إظهار الديوان رأيت أن حضرتكم أوْلى بأن تتوصل بهذا العِلْق النفيس. فلعلكم تتمكنون من نشره[(١)] وإنْ بوَساطة بعض المطابع في الشرق.

وختاماً أشكركم شكراً جماً. وأما ما ذكرتُ لكم منذ شهور من الإقبال على استخراج الكتاب من المسوّدة، فإلى الآن لم يتيسر لأخيكم الذي هو أشغلُ من ذات النّحْيَين استتمامُ التخريج، وإلى الله المشتكى!

دمتم للعلم وللأدب ولأهلهما ولأخيكم المجلّ لمقامكم.

محمد المختار السوسي

---

(١) فعلاً لقد نشرناه باسم ديوان ملك غرناطة، يوسف الثالث.

النبوغ المغربي
والذكريات
في نظر الزعيم علال الفاسي

- ١ -
إيموزار ١١ شوال ١٣٦٥

الحمد لله وحده...

أخي الأستاذ العلاّمة سيدي عبدالله گنون الحسني.

تحية وسلاماً دائمين، وبعد فقد وصلتني النسخة الثمينة من مؤلفكم القيم (النبوغ المغربي في الأدب العربي) الذي أبت عواطفكم الكريمة، إلا أن تكللوا إهداءه بما رأيتموني أهلاً له من ثناء، وما أنتم أهل له من ودّ ووفاء، فأشكر أخوتكم على نبيل إحساسكم، وجليل تقديركم. أما الكتاب فهو وأيم الله، جدير بالاقتناء، وحقيق بكل مدح وثناء، وقد سدّ فراغاً كانت مكتبتنا العصرية في أمس الحاجات إليه، وقام بواجب كان كلنا في تقاعس عنه، وأعطى للناشئة المغربية بياناً عن نبوغ أسلافها، يدفعها للطموح ويهيب بها للعمل، وفتح باباً للمقتدرين من إخواننا على مواصلة ما بدأتم،

وإكمال ما أسستم، بارك الله فيكم وأدام للبلاد وتاريخها وجودكم، وأعانكم على إنتاج ما فيه نفع أمتكم، وتقدم ثقافتها، وتوسيع دائرة عرفان أبنائها. . . والسلام.

محمد علال الفاسي أرشده الله

ـ ٢ ـ

الحمد لله وحده. . .

سيدي الأخ العزيز:

قرأت باهتمام الحلقات الثلاث من سلسلتكم عن (ذِكْرَيات مشاهير رجال المغرب) التي أهديتموها لي أخيراً.

فأشكركم وأهنيكم على نجاحكم في معالجة هذه التراجم المغربية وإبرازكم ناحية من نواحي تاريخنا القومي الذي يتوقف على معرفته اليقينُ في الكيان الوطني المغربي. وقد أتحتم بعملكم هذا للشبيبة المغربية الاطلاع على نماذج من النبوغ المغربي يصعب على الكثيرين منهم استكشافها من بين المواد الأدبية العتيقة. وتلك خدمة جليلة للوطن في الوقت الذي أصبح فيه خصومه وبعض أبنائه ينكرون عليه أدبه وما أنجبه من نبغاء لا يقلُّون عن غيرهم من نبغاء العالم العربي، وبذلك فإن عملكم هذا ليستوجب التنويه والتشجيع من جميع المخلصين.

بارك الله في همتكم ووهبكم في مهمتكم الثقافية كامل الهداية والتوفيق.

طنجة ١٩ ذو القعدة ١٣٦٨هـ.

المخلص علال الفاسي

الأستاذ عبدالسلام الفاسي
ينوّه بالذكريات

الحمد لله وحده، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله.

محبنا الأود الفقيه العلامة المطلع سيدي عبدالله گنون أمنكم ورعاكم وعليكم السلام ورحمة الله بوجود مولانا أيّده الله وبعد؛

فقد استلمت بريدياً ثلاث حلقات من السلسلة التاريخية «ذكريات مشاهير رجال المغرب» التي دبجها قلمكم وأزحتم بها الستار عن شخصيات فذّة شاء الله أن يهيئ لإحيائها قريحة وقّادة ويوكل لإنقاذها قلماً لا ينبو إذا نبت الظبا، استلمتها فقرأت فيها من نبوغ كاتبها نموذجاً حياً ومن ينبوع بحثه نوعاً مثالياً فلم يسعفني إلا أن أثني على مجهودكم القيم، كما استلمت صحبة الحلقات الثلاث كتاب الأستاذ السيد عبدالسلام الطوق «بنو عباد في إشبيلية»، وإني أراني مقدراً لمجهوده الجليل وأكبر الظن أن الحلقات التي لم تصلني من سلسلة تاريخكم ربما كان للمواصلات البريدية في اختزانها يد جريئة ولهذا أود منكم إتحافي بالحلقات

الأولى والثانية والثالثة وإرسال ما تتفضلون به من منتوجكم القيم على الطريقة التي ترونها أضمن للوصول وأسلم من الضياع حيّاكم الله وحيّا مشاريعكم العلمية وأمدّكم بروح منه وعلى خالص محبتكم والسلام.

في ٦ شعبان ١٣٦٩هـ.

عبدالسلام الفاسي

* * *

هذه السلسلة في نظر الأستاذ المجاهد الحاج أحمد معنينو

الحمد لله، ولا يدوم إلا مُلكه.

حضرة الأخ الأستاذ الخريت والأديب البارع الباحث المبدي سيدي عبدالله گنون مدير المعهد الخليفي بتطوان.

تحية الإسلام الخالدة وبعد، أمس حظيت بهديتكم الثمينة، فقد تسلمت من البريد المضمون الجزأين الممتازين من سلسلة كتابكم القيّم «ذكريات مشاهير رجال المغرب»، الجزء السابع وبه ترجمة العلاّمة الأديب الشهير ميمون الخطابي «سيدي الخباز»[1] دفين أحد أبواب سلا جوار العلامة القاضي الشهير أبي حاجة رحمهما الله، وقد سبق لي أن قرأت لهذا الأديب قطعة شعرية بديعة نشرتها عنه «الحياة» التي سبقت أن صدرت بتطوان ووقفت على كلام حوله وأنه من آل الخطابي الذين إليهم يرجع نسب بطل الريف الأمير

(١) يعرف الشاعر أيضاً بابن خبازة، وهي كنية لخاله ومن ثم أطلق عليه كما في هذه الكلمة سيدي الخباز. المؤلف.

الجليل المجاهد الشهير محمد عبدالكريم الخطابي، فإلى هاته الأسرة الكريمة ينتسب العلمان الشهيران؛ أحدهما: علم في العلم والطب والقريظ، والآخر: في الجهاد والذود عن سيادة البلاد، وكلاهما شخصيتان فريدتان في مجالهما.

وقد كشف الغيب أنهما من ذوي المكانة في الأدب وبطلان في ميدان القلم والسيف أطال الله حياة الثاني وتغمد الأول برحمته وجزاكم خيراً عما وفقتم إليه من إحياء نسبه وشعره وعلمه. والكتاب الثاني ترجمة ابن المرحل الأديب الشهير والشاعر المغربي الكبير وقد تصفحت كلا الجزأين وتعرّفت على مجهوداتكم القيّمة التي تبذلونها للحصول على معلومات كشفت النقاب عن شخصيات رفعوا رأس المغرب عالياً في الأدب والشعر والجهاد يحق للمغرب أن يفتخر بهم وإنه لمجهود مبارك موفق أعانكم الله على تتبعه حتى يظهر المغرب بعظمائه وما كان فيه من جهابذة أعلام وأدباء وعلماء وشعراء وكتّاب خدموا اللغة العربية وشاركوا في ميدان الإنتاج الفكري والأدبي بما رفع الرأس وحلّى الجيد بما هو أهله من النبوغ العلمي والسياسي والحربي. وبذلك تضمحل شائعة المتقولين عليه من كونه شعباً بربرياً لم يعرف الأدب والفن وإنما عاش في خضم من المجازر.

تحياتي وتشكراتي لكم وللأهل وللأسرة وشهر رمضان المعظم مبارك سعيد.

* * *

رسالة تقدير
من صديق المؤلف أديب تِطّاوُن
الأستاذ الشريف سيدي البشير أفَيْلال

الحمد لله وحده، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين.

سيدي الأخ الأجل الشريف الفاضل العلاّمة الكاتب المغربي الأستاذ عبدالله گنون السلام علكيم ورحمة الله.

وبعد؛ فقد وافتني من لدنكم بمزيد الغبطة وكامل التطلع الأعداد الستة من تأليفكم «ذكريات مشاهير رجال المغرب» التي تفضلت بها أخوتكم هدية من مؤلف فاضل، ويا ما أعظمها في النفس، وشكرت لأخينا فضله ونبله، ودعوت له إن صح مني الدعاء بخير دائم وتوفيق.

هذا، وإذا كان عبدالرحمٰن بن خلدون المغربي ابتكر له طريقة في تاريخه العام، وهو الإمام المبرز فيه المشتهر به، وهي تحكيم أصول العادة والعقل والاجتماع وقياس الشاهد بالغائب والحاضر بالذاهب، وترجى مع ذلك من

ذوي المعارف المتسعة الفضاء النظر بعين الانتقاد لا بعين الارتضاء، فإنا لسنا نذهب في شأنه مذهب الإعجاب أو نقرأ له آيات من آيات العبقرية، بل نحكم بها لذلك العصر الثامن الذي عاش في أحضانه، عصر دولة بني مرين الهادئة المتمدنة، الذي نضج فيه عقل المغربي وتفتحت فيه أكمام غرائزه ووجد طلاب المعرفة وذوو الاستعداد الفطري منهم أمامهم وخلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم في المغرب وفي بقية الأندلس وأفريقيا ومصر والشام والعراق ما يذكّي عقولهم ويضخّم معارفهم بالمدارس الجامعة ونظم التعليم المحكمة والأساتذة العباقرة والمكاتب القيّمة والخزائن العلمية والأحباس المرصدة والعلاوات السخية، وفسح المجال في النهاية لذوي الكفاءة والاستعداد لتأدية رسالتهم لشعبهم ودولتهم كأحسن شيء يناله ذو شهادة عليا في دولة رشيدة.

أما الأستاذ سيدي عبدالله گنون الذي أنجبه المغرب العربي وليداً بارًا حنوناً في آخر أطوار حياته، وأول بعثه للوجود والنهضة، بعد مماته، إذا دفعه نبوغه وبروره للحنين إلى أدب وطنه المغربي الغابر، والكشف عن شخصياته البارزة فيه لهذا الجيل الحاضر، فإنه طبعاً سوف لا يجد أمامه ما وجده أمام نقد التاريخ.

لا يجد ما يمده فيه ويسنده، وينير له سبيل الهداية إليه ويرشده، لا سيما والمغرب كما علم حتى في أوقات نضوجه لم يُغْنَ قادتُه وكتّابه بتدوين حياة رجالاته العلمية والأدبية كما ينبغي، وإيرادها بصفة تحليلية مجلوّة كالمرآة

الصافية تظهر للأجيال بعدهم ما انطوت عليه حياة أولئك الماضين لتكون لهم عظة وخبرة وإسوة حسنة وعبرة، فإذا أظهر لنا هذا الكاتب النابغة في هذا العصر والحالة ما قلنا شخصيات المغرب البارزة التي كان لها مكانها الخاص في العلم والأدب ومركزها السامي في المجتمع والدولة في تأليفه، «ذكريات مشاهير رجال المغرب»، وعلمنا منها ما انتحاه في طريق إبرازه وما عاناه من تعب نفس وإجهاد قُوى وإعمال خاطر في استنتاج الحقائق التاريخية الدقيقة من تلك المواد الضئيلة التي كانت مرجعه في التأليف، علمنا حقاً أنه هو هو الذي نقرأ له آيات الإعجاب ونذهب في شأنه مذهب الإكبار.

فليدم من فضيلته هذا النبوغ في خدمة هذا الوسط المغربي المفتون بمظاهر المدنية الجوفاء عن ماضيه المجيد، وشرفه التليد، حتى يعلم هذا الجيل الحاضر أنه من سلالة ذلك الماضي الغابر، وأن ليس بينهما من فرق إلا ما قال الشاعر:

الـنـاس كـالـنـاس والأيـام واحـدة
والـدهـر كـالـدهـر والـدنـيا لـمـن غـلـبـا

وتقبل فائق احترامي وتقديري.

ثاني الربيعين عام ١٣٦٩هـ.

أخوكم البشير أفيلال

* * *

العلاَّمة السيد محمد المرير يقرظ الذكريات

الحمد لله وحده، وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله.

فضيلة الأستاذ العلامة مدير معهد مولاي الحسن سيدي عبدالله گنون، وصل الله سعدكم وحرس مجدكم وسلام عليكم ورحمة الله.

وبعد؛ فقد وصلتني هديتكم الثمينة وتحفتكم الأنيفة النفيسة وهي ثلاثة أجزاء من «ذكريات مشاهير رجال المغرب» فابتهج أخوكم بطلعتها غاية الابتهاج وعدّها في هذه الأعصار من أنفس الإنتاج لما فيها من إظهار ما يخفى على جلّ قومنا من فخار رجال مصرنا العزيز ومن دلالتها على شرف أقدار رؤسائه ووزرائه وتبريزهم في الآداب والمعارف أي تبريز فللّه دركم فقد أصبتم فيما انتخبتم وشنفتم الآذان بما صنفتم وبالأخص في ذينك الوزيرين العظيمين الفشتالي وابن إدريس فإنهما بحق الرجلان علماً وفهماً وسياسة وحكمة وحكماً المُجيدان نثراً ونظماً، حتى أن أهل المغرب لو فاخروا بهما شاعري طيء لفخروا،

والمولى يقر ببقائكم عين العلم والآداب ويوفقنا جميعاً لما فيه إرشاد الأمة لصوب الصواب، والسلام.

وحرر بتطوان في **٢٠** محرم الحرام عام **١٣٦٩هـ** موافق **١٢** نونبر سنة **١٩٤٩م**.

أخوكم: محمد المرير

❋ ❋ ❋

تهنئة وتقريظ
قصيدة الأديب ابن موسى

تَمّم صنيعك

في عام ١٣٦٩هـ، اعترى كاتبَ هذه السلسلة مرضٌ منعه من مواصلة العمل، فأوقفها بعد أن أصدر منها بضع حلقات. ولما شُفِيَ خاطبه صديقه الوزير الأديب الأستاذ محمد بن موسى بهذه القصيدة العصماء يهنئه ويستحثُّه على استئناف عمله الأدبي. وقد والى إصدارها بعد ذلك إلى الحلقة الخامسة والعشرين:

هَوِّنْ عليك فلطفُ الله فيك خفِي
وصُنعُه لك بادٍ غيرُ منصرف

لمّا تَزلْ في رَعِيلٍ من عِنايته
مُستحصِدٍ ومن التوفيق في كَنَف

تحنُو عليك يدٌ من فيض أنعُمه
أنّى اتجهتَ فلا تحزَن ولا تخف

واسْلَم بِأنعَمِ بالٍ تَستطيبُ به
بَرْدَ الرضى ومِزاجٍ غيرِ مُنحرف

لـم يـسـمـح الـبُـرْءُ مـخـتـالاً مـشـاعِـرَه
إلا لِـمَـا شـام مـن فـضـل ومـن شـرف

***

يـا مَـن إذا صـاحَ داعـيـه بـه سـفَـرتْ
غُـرُّ الـمـنـاقـب بـعـد الـيـاء والألـف
فـمـا يُـحـاوِلُ إفـصـاحـاً بِـرَائـعـةٍ
إلا تـحـيَّـر بَـيْـن الـبِـكْـر والـنَّـصَـف
لـم يَـغـرُ ذاتَـك مـكـرُوهٌ تَـنُـوءُ بـهِ
كـلاً ولا مـا يـروع الـقـلـبَ بـالأسـف
لـكِـنَّ دهـرَك لاهٍ فـي سـفـاسـفـه
عـمَّـا تُـحـبِّـرُ مـن وَشْـيٍ ومـن طُـرَف
ومـن عـقـود يـلـوحُ الـتِّـبْـرُ مـن سقَـطٍ
فـي جـنـبـهـا وشُـذُورُ الـدُّرِّ مـن خَـزَف
فصُـمْـتَ كـيـمـا يـرى مَـن كـان ذا بـصرٍ
مَـسافةَ الـخُـلْـف بـين الـتَّـمْـر والـحَـشَـف
حـتى إذا لُـحْـتَ لاحَ الـفضـلُ مُـلْـتَـحِـفاً
رُوحَ الـنُّـهـى فـي رُواءٍ غـيـرِ مُـلْـتَـحِـف
ولـيـس يـلـحَـقُ نـورَ الـبـدر مـن وَهَـنٍ
وإن سـرَى الـبـدرُ وهْـنـاً سيـرَ مُـنْـكَـسِـف
فـانـهَـضْ وَشِـيـكـاً وَقـاك الـلّـهُ مـن وصَـبٍ
تـعـفُـو بـه خَـرزَاتُ الـدر فـي الـصَّـدف

وصِلْ بِرَاحِك أقلاماً متى نَهَلَتْ
لم يصحُ من سُكْرِهِ من جَال في الصُّحف
يهفُو إلى الرَّقْص إن غَنَّتْ فإن نَسَقَتْ
دُرَّ الثغور صبًا شوقاً إلى الرَّشَف
مِن صَادعٍ جَنَبَاتِ الشَّك من فَلَق
وقَادِحٍ لَمَحَاتِ البرق في السُّدَف
كَأَنَّهَا القُضْبُ في يُمنَى أبي حسَنٍ
والسَّمْهَرِيَّةُ في كَفَّيْ أبي دُلَف
نافِخ بِها عن بلادِ طالما سقَطت
أخلاقُها بِعَوادي الجَهْل والجَنَف
تنكَّرتْ لِأَوالِيهَا فَدَيْدَنُها
وقد رَأيتَ؛ عُقُوقُ الخَلْفِ للسَّلَف
أزْرَوْا بِهِم وتَنَاسَوْهُم ولم يزِنُوا
حقًّا لهم فعَذِيرَ القوم من خَلَف
فَغِرْتَ غيرةَ نَذب عن محاسِنِهم
مِنْ أن تَشُوهَ بِعَزْمِ الناقِد الحَصِف
نَشَرْتَ منهم لَفيفاً ضاع نَشْرُهم
لَوْ لَمْ تُذِعْهُ فَما استَغْدَى على التَّلَف
وَفِي الكواكِب من أعلامهم هدفٌ
وَشَأْنُ قَارَة[1] وَضْعُ النَّصل في الهدف

---

(١) قارة: قوم من العرب مشهورون بجودة الرمي، ويقال في المثل: أنصف القارة من راماها.

تَمِّمْ صَنِيعَكَ وابْحَثْ في مَعادِنِهِم
بَحْثَ النِّطاسِيِّ في الآثَار وانْتَقِف

واجمَعْ بدائعَ ما شَدُّوا وما عَقَدُوا
من الطَّرَائِفِ والأعلاقِ والتُّحَف

وضَعْ بِلَبَّةِ قُطْرٍ زِنْتَ سُمْعَتَهُ
أطواقَ مُنْتَصِفٍ بِالصدقِ مُتَّصِف

تُذْنِي المَلاَحَةُ مِنهَا سَمْعَ مُغْتَرِمٍ
وَيَفْتَحُ الحُسْن فيها طَرْفَ مُغْتَرِف

أعَاذَ فَضْلَك، عبدَاللّهِ، مَانِحُه
مِن لِمَّةِ الضُّعْفِ والأسواءِ والدَّنف

ودُمْتَ تَسْقِي يَراعاً كُلَّما هَتَفَتْ
وَرْقَاؤُهُ كَشَفَتْ عَن رَوْضَةٍ أُنُف

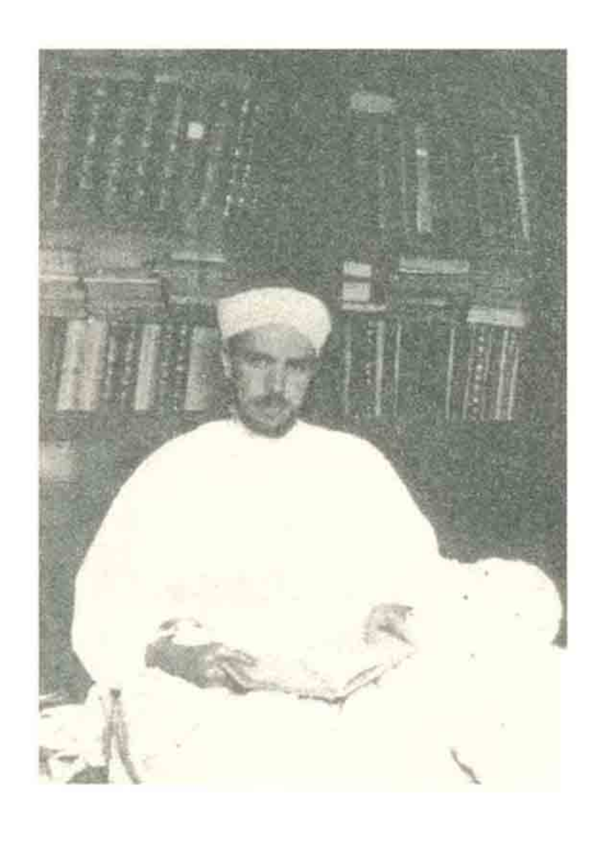
المغرب: إبريل ١٩٦٠

* * *

ملحق الصور







العلاَّمة عبدالله كنون

في مكتبته





صور للعلاَّمة عبدالله ݣنون مع السلطان
محمد الخامس





العلاَّمة عبدالله گنون يلقي درساً حسنياً



العلاَّمة عبدالله گنون في حديث مع الملك الحسن الثاني

الحمد لله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه



نخب جنابنا الشريف، العلامة الكبير، الفقيه الجليل المجتهد، والشاعر الأديب المجدد، الشيخ الأستاذ عبد الله كنون، رئيس رابطة علماء المغرب

أمنك الله ورعاك وحفظك وبارك خطاك. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

وبعد، فتقديراً منا لعلمك الغزير، وإخلاصك الكبير، ووفائك المنقطع النظير، ولمواقفك الوطنية الفذة التي تجلت في كثير من المناسبات، ولجهادك وكفاحك على عدد من الواجهات

ورعيا لعطاءاتك العلمية المتعددة، وإسهاماتك الفكرية والأدبية المتجددة، الأمر الذي رشحك بحق، لحمل لقب أستاذ الأجيال، بدون منازع، وجعل اسمك وعطاءك العلمي يتجاوز حدود بلدك، ويبوئك العضوية البارزة في عدد من النوادي الفكرية والمجامع العلمية الرفيعة في كثير من البلاد العربية والإسلامية

وعرفاناً منا لما أسهمت به من إسهامات قيمة متميزة في الدروس الحسنية التي ألقيتها بين يدينا في شهور رمضان المباركة والتي كنت تختار لها من المواضيع ما يحض على التدبر والتأمل، وما يرفع بعقل المسلم ووجدانه إلى أعلى المقامات،

واعتباراً لوفائك لنا ولوالدنا، رضوان الله عليه، وللعرش العلوي، ذلك الوفاء الذي ورثته عن بيتك العلمي العظيم، وأسرتك الكريمة التي ارتبط فيها آباؤك وأجدادك ارتباطاً وثيقاً بأجدادنا، حتى بعد هجرتكم إلى طنجة عقب إعلان الحماية، واستقراركم بها.

نص الرسالة الملكية التي وجهها الملك الحسن الثاني إلى العلاّمة عبدالله كنون قبل بضعة أيام من وفاته بمناسبة إنعام الملك عليه بوسام الاستحقاق الثقافي سنة ١٩٨٩م

إذ تابعتم جهادكم بنشركم للعلم والدين، والوطنية، والموعظة الحسنة، إلى أن كلل الله مساعينا بالنجاح. وما يزال موقفك ماثلاً في ذهننا ونحن في مطلع الشباب، يوم خرجت لاستقبال والدنا المنعم جلالة الملك محمد الخامس، طيب الله ثراه، أثناء زيارته التاريخية المشهودة لطنجة في أبريل سنة 1947، فوصلتم ماضي الوفاء بحاضره، وطريف الولاء بتليده،

وعرفاناً منا بكل هذه الفضائل، والأعمال الجلائل، قررنا الانعام عليك بوسام الكفاءة الفكرية ونحن على يقين من انك ستحمله بجدارة واستحقاق.

فهنيئاً لك به، وأقر الله عينك بما يحمله إليك من حب ملكك وعطفه ورضاه، ومن تقدير أبناء وطنك من أقصاه إلى أقصاه.

وكم كان بودنا أن نقلدك إياه بنفسنا، لولا ما بلغنا من توعك طارئ على صحتك، عجل الله بشفائك، وحقق فيه كامل رجائك. فآثرنا إرسال وفد من العلماء لينوبوا عنا في هذه الوقفة الجليلة والمهمة النبيلة.

حفظك الله وصانك وبارك فيك، وكثر للمغرب من أمثالك، وأسبغ بفضله عليك نعمة الصحة والعافية، وجزاك خيراً بكل ما أعطيته لدينك، وقومك، ووطنك، وللأمة العربية والاسلامية جمعاء.

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

وحرر بالقصر الملكي بالرباط في يوم الاثنين 29 ذي القعدة 1409 الموافق لـ 3 يوليوز 1989 م.



هيئة التدريس والاكتتاب لمؤسسة المدرسة الإسلامية الحرة بطنجة في الأربعينات

الجالسون: ١ - ٢ - العدل أحمد السوسي ٣ - ٤ - العدل الصادق الفتوح ٥ - محمد بن محمد گنون
٦ - عبدالقادر المؤذن ٧ - عبدالله گنون ٨ - مصطفى الخمال ٩ - عبدالسلام الزكاري ١٠ - محيي الدين الريسوني

الواقفون: ١ - ٢ - ٣ - محمد بن عشوبة ٤ - ٥ - محمد بناني زهوان
٦ - ٧ - ٨ - الحسن الشاط ٩ - ١٠ -
١١ - ١٢ - ١٣ - عبدالرحمٰن أنجاي ١٤ - المختار بن علي



صورة تذكارية
لإحدى الاحتفالات الوطنية بالمدرسة الإسلامية الحرة
ويرى من بين الحضور: الزعيم علال الفاسي، والزعيم عبدالخالق الطريس، والأستاذ الحاج محمد بنونة، والأستاذ محمد الخطيب



العلاَّمة عبدالله گنون مع زعماء الحركة الوطنية
ويظهر في الصورة البطل المجاهد عبدالكريم الخطابي



صورة تذكارية للأستاذين: عبدالله گنون والحاج أحمد بلا فريج
في مدينة طنجة (فترة الثلاثينات)



العلاَّمة عبدالله گنون

في حديث مع عميد الأدب العربي طه حسين



العلاَّمة عبدالله گنون في مجمع اللغة العربية
وبجانبه العلامة الكبير في النحو الدكتور عباس حسن



العلاَّمة عبدالله كنون في أكاديمية المملكة المغربية.
وفي الصورة العلاَّمة المؤرخ محمد الفاسي



العلاّمة عبدالله گنون مع المجمعيين







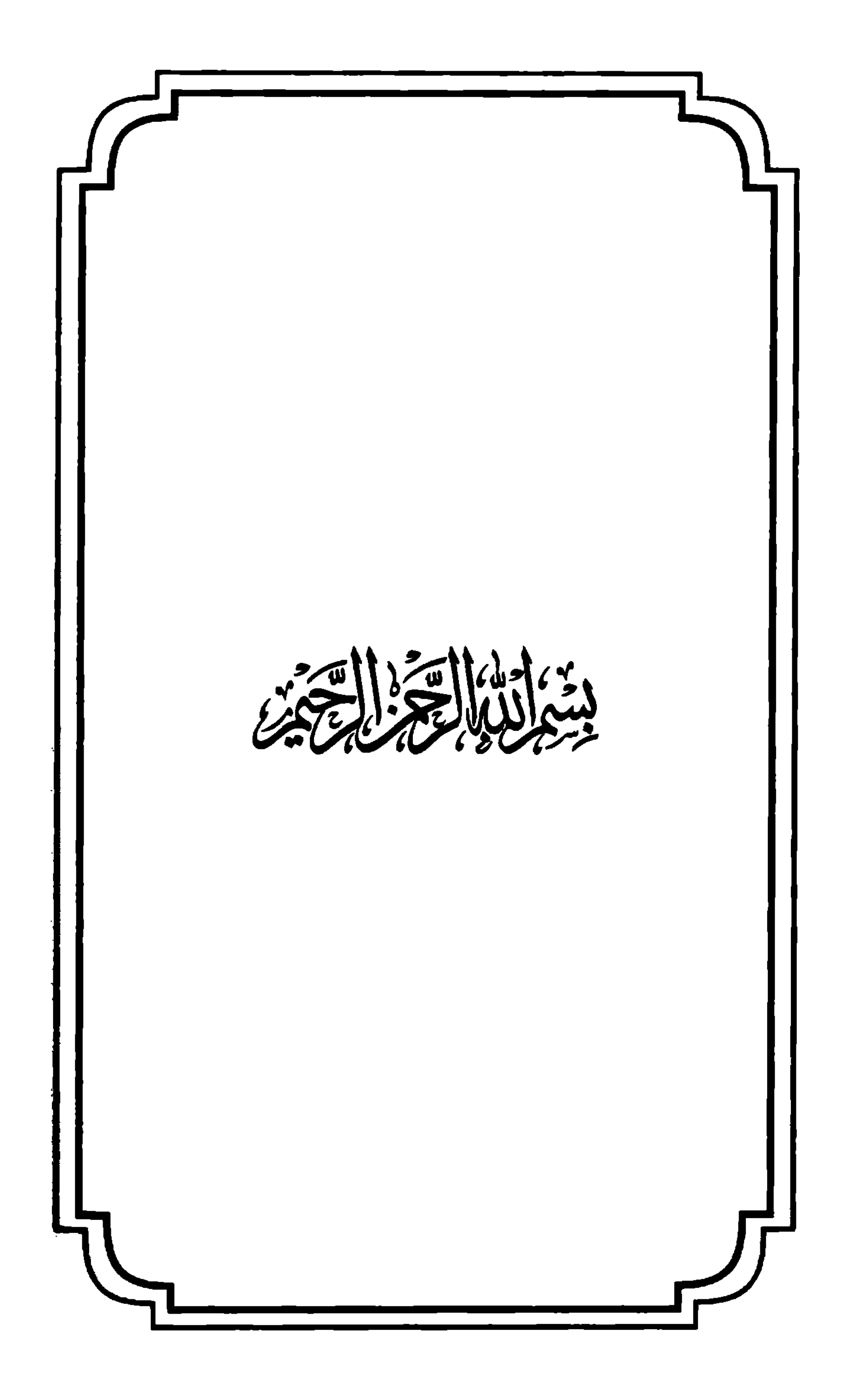
العلاَّمة عبدالله كنون في تدشين مكتبته بطنجة



تأليف
العلامة الأديب عبد الله كنون

قدم له واعتنى به ورتب تراجمه إلى طبقات
الدكتور محمد بن عزوز

الجزء الأول
في العلم



بسم الله الرحمن الرحيم

الأصيلي
(ت ٣٩٢ هـ)

اسمه ونسبه، مغربيته، والده، نشأته العلمية، رحلته، مشايخه وتوسعه في الرواية، ثناء الناس عليه، رئاسته بقرطبة، بعض أوصافه، بعض من فتاواه، تآليفه، روايته للبخاري، حديث من طريقه، وفاته وما قاله عند احتضاره.

هو الإمام الفقيه المحدث، أبو محمد عبدالله بن إبراهيم بن محمد بن عبدالله بن جعفر الأموي الأصيلي نسبة إلى مدينة أصِيلا المعروفة بالمغرب، الواقعة على المحيط غَرْبيّ مدينة طنجة، وهي من المدن القديمة كجارتها طنجة.

ذكره بالنسب الأموي أبو عبدالله الحُمَيْدي في جذوة المقتبس وتبعه على ذلك أبو جعفر الضَّبِّي في بُغية الملتمس، ونَقَلَ القاضي عياض في المدارك عن ابن الحذاء أن جده كان من مسلمة أهل الذمّة، وإذا صحّ هذا فإن نسبه في بني أُمية يكون بطريق الولاء.



وتشكك قوم في مغربيته، وزعم آخرون أن أصله من الأندلس ورحل به أبوه إلى أصِيلا.

ففي معجم البلدان لياقوت تحت اسم أصيل ما يلي: بلد بالأندلس، قال سعد الخير: ربما كان من أعمال طليطلة... ينسب إليه أبو محمد عبدالله بن إبراهيم الأصيلي... وذكر هذا البلد أيضاً في القاموس وزاد شارحه قائلاً: كما في العباب ومعجم ياقوت، ثم نقل قول سعد الخير في نسبة الأصيلي إليه.

وأنكر العلاَّمة ابن الطيب الشّرْقي مُحشّي القاموس والشيخ مُرتضى الزّبِيدي شارحه أن يكون هناك بلد اسمه أصيل لا في الأندلس ولا في المغرب، وإنما المعروف أصيلا وهي بلدة في المغرب، ويقال لها: أزِيلا بالزاي، ومنها الأصيلي راوية البخاري وغيره. لكن الزبيدي تعقبه بأن ياقوت والصّاغاني أثْبتاه وهما حجة، فكيف يصح إنكاره، هذا بالنسبة إلى البلد الأندلسي المسمى أصِيل، وأما بالنسبة إلى المترجم وأنه من أصِيلا المغربية فإنه أيّد قول شيخه ابن الطيب.

ويمكن أن نعلّق على قولِ الزبيدي بأن إثبات ياقوت والصاغاني وحدهما لا يكفي، لأنهما مشرقيان بعيدان عن بلاد الأندلس والمغرب، فربما اشتبه عليهما الأمر وظنّا أصِيلا من الأندلس وقرآها أصِيلاً بلام منصوبة وهي أصيلا بلام ألف. ويدل على ذلك أن من نسب المترجم إلى الأندلس من الأندلسيين أنفسِهم، وهم غيرُ واحدٍ، لم يذكروا

أصيلاً هذا، وإنما ذكروا أصيلا المغربية وأن أباه رحلَ به إليها وهو صغير فنُسِب إليها. ولو كان هناك بلد يسمى أصِيلاً بلام منصوبة لما عدَلُوا به عنه، لا سيما مع ما عُرِف من تعصُّبهم في هذا الباب حتى لقد قال قائل منهم مرة في أحد الأعلام: إنه ممن يُبْخَلُ به على العُدْوة[1]...

والبَكْري وهو من أعلامهم والمُعتَمد عليهم في هذا الشأن، لم يذكر بلدَ أصيل الأندلسي وإنما ذكر مدينة أصِيلا المغربية، كما نقل ذلك عنه ياقوت نفسه، واستدل به فيما استدل على كون الأصيلي مغربياً.

فإنه بعد كلام سعد الخير المتقدم قال: وذكره أبو الوليد بن الفَرَضي في الغُرباء الطارئين على الأندلس، ونقل كلامه، ثم قال في نهايته: ويحقق قولَ ابن الوليد أن الأصيلي من الغُرباء لا من الأندلس كما زعم سعد الخير ما ذكره أبو عبيد البكري في كتابه المسالك عند ذكره بلاد البربر بالعُدوة بالبَرِّ الأعظم فقال: ومدينة أصيلة أولُ مدينة مما يلي الغَرب وهي في سهلة من الأرض حولها رَوابٍ لِطاف، والبحر بِغَرْبِها وجَنوبها، وكان عليها سور، ولها خمسة أبواب فإذا ارتجّ البحر بلغَ الموجُ حائطَ الجامع وسوقها حافلة يوم الجمعة، وماء آبار المدينة شَرُوب وبخارجها آبار عذبة، وهي الآن خَراب، وهي بغَرْبِيّ طنجة بينهما مرحلة.

---

(١) يعني: المغرب.

انتهى كلام البكري بنقل ياقوت. وهو أعظم حجة في شؤون المغرب والأندلس من ياقوت والصاغاني كما لا يخفى. والغريب أن وصفه لأصيلا ما يزال منطبقاً عليها حتى الآن، إلا في قوله: إنها خراب فقد عمرت بعد ذلك وعادت إلى ما كانت عليه، وإلا في أن سُوقها يوم الجمعة فقد صار يوم الخميس، ولعله إنما نُقل من أجل التفرغ لصلاة الجمعة. فإن أهل أصيلا من التديُّن بمكان.

ولما نَقَل مُرتَضى كلامَ ياقوت هذا كتب بعده «فتأمل». ولعله لم يستَبِن الحجةَ فيه على كون الأصيلي مغربياً كما قال ياقوت: إنه مما يحقق كلامَ ابن الفَرَضي. والحجةُ هي أنه لو كان هناك بلد أندلسي باسم أصِيل لذَكَرَه البكري وفرّقَ بينه وبين أصيلا المغربية، فسكوتُه عنه دليل على عدم وجوده، وهو مما يصحح كلام ابن الطيب شيخ مرتضى في أنه لا يُعرف في المغرب ولا في الأندلس بلد بهذا الاسم، وإنما المعروف أصِيلا في المغرب.

ونزيد على هذا فنقول: إن سعدَ الخير نفسَه الذي زعم أن الأصيلي من الأندلس من البلد المسمى بأصيل، لم يحقق مَوْضِعَ هذا البلد وإنما قال فيه: ربما كان من أعمالِ طُلَيْطِلة (وربما) هنا دليل على العدم لا سيما مع تفرُّد قائلها بذلك وعدم موافقة أحد له عليه.

* * *

ولنستمع إلى ما قاله الذين نسبوه إلى الأندلس. قال ابن مفرج كما في المدارك: أصله من كُورة شذونة. وقال ابن الحذّاء: أصله من الجزيرة الخضراء، وكان جده من

مُسْلِمَة أهل الذمّة، ورحل به أبوه إلى أصيلا من بلاد العُدوة. فسكنها ونشأ أبو محمد بها، وطلب العلم بالآفاق، ويقال: بل وُلدَ بأصيلا فيما قاله ابن عائِذ.

فهؤلاء ثلاثة من الأعلام كلّهم أعْرَفُ بالأصيلي وبَلَده المغرب والأندلس ممن ذكر مرتضى، وكل منهم تبنّاه للأندلس بطريقة أو بأخرى، ولكنهم في الأخير يُرجعونَ نسبَه الذي اشتهر به إلى أصيلا المغرب، ولا يُعرّجون على شيء اسمه أصِيل قيل: إنه بلد بالأندلس.

ولعل في هذا ما يكفي لأثبات مغربية الأصيلي جزماً لا شكًا، وإن كان أمر وجود بلَدِ أصِيل في الأندلس غيرَ مُهم بالنسبة إلى هذه الحقيقة التاريخية.

***

ورحلةُ إبراهيم والد المُترجم من الأندلس إلى أصيلا غريبة، فالمعهود كان في ذلك الأبان هو رحلة المغاربة إلى الأندلس لطلب العلم والجاه والمال، لا العكس، وحتى لو رحل أحد الأندلسيين إلى المغرب لقَصَدَ المدن الكبيرة كطنجة وفاس لا مدينة صغيرة كأصِيلا، إلا أن يكون ذلك لِمُوجب خاص كوجود بعض العائلة بها وحينئذ يحتمل أن أصله الأصيل من المغرب، وأن رجوعه كان إلى الأصل، لأن رحلته إلى الأندلس كانت عارضة.

وفيما نعرف من حاله أنه كان أديباً شاعراً على ما ذكره المؤرخون، ما يعضد هذا الاحتمال، فلعله إنما كان يقيم في الأندلس لعمله بها. وحكى عِياض عن ابن الحذّاء

أنه كان ورّاقاً للحكَم. وهو الحكم المستنصر بن عبدالرحمٰن الناصر خليفةُ قرطبة الشهير، كانت له مكتبة تَعُدُّ أربعمائة ألف مجلد فيما قيل، فعمَلُ إبراهيم كان في هذه المكتبة إذن. وقد ولي الحكم الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٣٥٠، وفيما يذكرون عن المترجم أن قُدومه إلى قرطبة كان سنة ٣٤٢، فهل سبق أباه إليها أو أن أباه كان هناك من قبل؟

وتقول رواية أخرى عن ابن عائذ: أنه تفقه بقرطبة منذ صباه، وابن عائذ هذا هو الذي قال: إن المترجم ولد بأصيلا كما تقدم، فيكون دخوله إلى قرطبة في السنة المذكورة وهو ما يزال فتيّ السن، بل صبياً كما عبّر ابنُ عائذ، وإن كان في ذلك مبالغة على ما سنشير إليه فيما بعد. ومع ذلك فلا ندري أدخلها في صحبة أبيه أم وحده. وعلى كلٍّ فإن المغرب آنذاك كان في حكم التَبَعِيّة للأندلس، والمصالحُ العامة، فضلاً عن الخِدمة، تستدعي التنقل كثيراً بين العُدوتَيْن[1]، فلا جرمَ أن نرى الأصيلي ووالده موزّعينْ بين المغرب والأندلس في فترات مُتقاربة، الوالدُ للعمَل والولدُ للطلَب.

ولعلّ ذلك هو السرّ في توجيه إبراهيم ولدَه إلى قرطبة للتعلم منذ صباه، وعدم توجيهه إلى فاس كما جرت العادة، فإنه في قرطبة يتمكن من مراقبة ابنِه وتتبع مراحل دراسته، ولا كذلك في فاس. على أن إبراهيم لم يكن حَسَنَ الرأي في فاس، وربما قصدَها لغرض تعليم ابنِه فيها أولاً، ولكنه لم يحمَد قصدَه فقال فيها هذين البيتين من الشعر يذمّها:

---

(١) الأندلس والمغرب.

دخلتُ فاساً وبي شوقٌ إلى فاسِ
والحَيْنُ يأخذ بالعينين والراس
فلستُ أدخل فاساً ما حَيِيتُ ولو
أُعْطِيتُ فاساً بمَنْ فيها منَ الناس

ولسنا ندري ما وقع لصاحبِنا في فاس حتى قال فيها مقالَتَه هذه بعدما كان متشوقاً إليها، وإنما المهم أن لا تُؤخذ كلمتُه دليلاً على أندلُسِيته، لِمَا عُلِم من سوء رأي أدباء الأندلس في المغرب، لأنه إن كان هجا فاساً فقد مدح بلدَه أصيلا، ولم نسمع أنه قال شيئاً في الأندلس.

وهذا قوله في أصيلا، من قصيدة له:

سقَى غرْبِيّ أرضِ بني زياد سحائبُ ما يجفّ لها غروب
ولا زال النعيم يعُمّ قوماً إزاءهم من الشّرْقِ الكَثِيب

قال ابن عَذاري، وهو يصف أصيلا: «وحولها من القبائل لَواتَة في القِبْلة، ومن هَوّارة قوم يعرفون ببني زياد، بينهم كُدْيَةُ رمل عالية. . . فهذا ما يقصِدُه إبراهيم في شعره.

* * *

ولعلنا وقد عرفنا مكانة هذا الوالد الأدبية، نُقدّر ما كان له من يد في تربية ولده وحسن تنشئته على طلب العلم منذ صغره، فبعدما حفظ القرآن وشدَا طرَفاً من أوّليات المعارف في بلده أصيلا على ما يظهر، توجه إلى قرطبة وهو ابن ثمانيَ عَشْرَةَ سنة، فقد ذكر ابنُ الفَرضي أنه توفي عن ٦٢ سنة، ودخوله لقرطبة كما علمنا كان سنة ٣٤٢،

فيكون عمرُه حينئذٍ ١٨ عاماً تقريباً. فتفقّه فيها بِشَيْخِها اللؤلؤي وأبي إبراهيم وسمع أحمد بن حزْم وابن المشّاط والقاضي ابن السّليم وابن الأحمر وأبّان بن عيسى بن دينار الأصغر ونظائرهم، وهو بعدُ شاب يافِع كما سبق عن ابن عائذ، ولم يقتصر في الأخذ على علماء قرطبة فتوجّه إلى وادي الحِجَارة وأخذ عن ابن مسَرّة الحِجاري، وإلى بجانة فأخذ بها عن ابن فَحْلُون كما في المدارك، وربما أخذ عن غير هؤلاء بغير هذه المدن من بلاد الأندلس.

ونظنّ أن والده الأديب إنما وجّهه هذه الوجهة الفقهية لِمَا كان يراه للفقهاء وعلماءِ الشرع بالأندلس من مكانة سامية عند الناس وذَوي الأمر، وقد صدق حَدْسُه فأدركَ ولدُه بعد ذلك من شفوف المنزلة وعلو القدر ما لم يُعهَد إلا لكبار العلماء في ذلك العهد.

* * *

وبعد تقصّيه في طلب العلم بالأندلس، رحل إلى المشرق سنة إحدى وخمسين أو اثنين وخمسين، فلقي شيوخ إفريقية كأبي العباس الإبياني التونسي، وأبي العرب التميمي، وعلي بن مسرور، وعبدالله بن أبي زيد القيرواني، وكتب عنه ابنُ أبي زيد بعضَ ما أخذه عن شيوخه الأندلسيين، وهي أول ما بدا من تصدُّره وناهيك بها.

ولقي بمصر القاضي أبا الطاهر البغدادي، وابن رشيق وحمزة الحافظ، وأبا إسحٰق بن شعبان ومحمد بن عبدالله بن زكرياء النيسابوري، وأبا أحمد ابن المُفسّر وغيرهم.

وحجّ سنة ثلاث وخمسين فلقي بمكة أبا زيد المَرْوَزي، سَمِعَ منه البخاري، وأبا بكر الآجُريّ. وبالمدينة قاضيهَا أبا مروان المالكي.

وسار إلى العراق فلقي بها الأبْهَرِيّ رئيسَ المالكية، وأخذ عنه الأبْهَريّ أيضاً وسمع من الدارَقُطْني، وسمع منه الدارقطني أيضاً، وقد حدث عنه كثيراً في كتابه في الرواة عن مالك. وسمِعَ بها كذلك من أحمد بن يوسف بن خلاّد وأبي علي الصوّاف وأبي بكر الشافعي وغيرِ واحد من تلك الطبقة وممن يليها ببغداد وبالكوفة والبصرة وواسِط. واضطرب بالمشرق مدّة طويلة وأكثر الجَمْع والرواية. قال ابنُ الحذّاء: أقام بالمشرق نحو ثلاثة عشر عاماً. وسمع ببغداد عرْضتَه الثانية في البخاري من المَرْوَزِي وسمعه أيضاً من أبي أحمد الجُرْجَاني، وهما شيخاه في البخاري وعليهما يعتمِد.

هذه جماعة من شيوخه ذكرهم القاضي عياض وغيرُه. ونَرى أن فيهم من الأكابر مَن أخذ عنه وتدبّج وإياه، ممّا يدُلّ على جلالة قدره وأنه في رحلته العلمية كان بمثَابَة من يأخذ ويُعطي لاستكمال تحصيله وسعة روايته.

وقد أخذ عنه الجَمّاءُ الغَفير، منهم أبو عِمْران الفاسي وابنُ الحذّاء والمُهَلّبُ وأخوه محمد وعيسى بنُ سعادة وأبو المُطَرّف الأنصاري وهشام بن أكْدر وأبو محمد الطُلَيْطِلي وعلي بن أحمد وغيرهم، وأثنى عليه المَشْيَخة الثناءَ العاطر، قال ابن الحذّاء: لم ألقَ مثله في علمه

بالحديث ومعانيه، وعِلَلِه ورجاله. وقال المهلب وذكر مشيختَه فأجلّهُمْ علماً وفقهاً وأثبتُهم نقلاً وأصحّهُم ضبطاً وأرفعُهم حالاً وأعدلهم قَوْلاً: أبو محمد الأصيلي. وقال ابنُ حيّان: كان أبو محمد في حفظ الحديث ومعرفة الرجال، والإتقان للنقل والبصر بالنقد والحفظ للأصول والحذق برأي أهل المدينة والقيام بمذْهَب المالكية والجدَل فيه على أصول البغداديين فرداً لا نظير له في زمانه، بلغني من غير واحد أنه وُجِد في كتاب الدارقطني: وحدثني أبو محمد الأصيلي ولم أرَ مثله. وقال غيره، كما في المدارك: كان الأصيلي من حفاظ رأي مالك، والمتكلمين على الأصول وترك التقليد، من أعلم الناس بالحديث وأبصرهم بعلله ورجاله، ويحضّ أصحابَه عليه، ولا يرى أن مَن خلا من علمه يُعد فقيهاً على حال. ولما ورد أبو يحيى بن الأشَجّ من المشرق، وكان قد روَى كتاب البخاري سُئِل إسْماعَه، فقال: لا يَراني اللّهُ أُحدّثُ به والأصيلي حيٌّ أبداً، فلما مات الأصيلي أسْعَف. قال ابن الوليد: لما دخلتُ القيروان أتيت أبا محمد بن أبي زيد فقال لي: ما حاجتك؟ قلت: الأخذُ عنك. فقال لي: ألَمْ يقدم عليكم الأصيلي؟ قلت: بلى. قال لي: تركت واللّهِ العلمَ وراءَك، فكيف حالِ مع أهل بلده؟ فأخبرته بظلمهم له. فقال: جهِلوا ما أتَى به، وأتيتُ القَابِسي فجرى لي معه مثل ذلك...

قالوا: وسمع به الحَكَم وهو في المشرق، يعنون سمِعَ بعلمه ورسُوخ قدمه في الفقه والحديث، فلعله استدعاه إلى

قرطبة، فلما وصل إلى المَرِيَّة مات الحكم فانعكس أملُ الأصيلي، وبقي حائراً لا يدري ما يفعل.

وعبارة الخبر فيها غموض، فإنها لم تفصح باستدعاء الحكم له، ولكنه مفهوم من السياق، ويظهر أنه أبطأ في تلبية الدعوة لأن الحكم سمع به من مدة طويلة كما جاء في رواية هذا الخبر، وهو لم يُسرِع في العودة إلى الأندلس. والحكَمُ لا يغيب عنه خبر صاحبنا وأبوه إبراهيم ورَّاقُه، وهو يراه كل يوم في مكتبته التي كانت تأخذ من وقته حصة مهمة. والأب مَشُوق إلى ابنه لا أحَبَّ إليه من أن يعود إلى بلده بالحالة التي تَسُرُّ قلبَه وتُقِرَّ عينَه فيلقَى من تقدير الحكَم وإقبال الناس عليه ما هو أهل له.

على أننا لا نجزم بأنه لما عاد كان والده ما يزال حياً، فالمصادر التي نرجع إليها في ترجمته تسكتُ عن هذا ومثلِه، ونحن إنما نفرِض ونقدِّر ما يحتمل أن يكون ولا يبعد وقوعه.

وعلى كل حال، فقد سار صاحبنا إلى قرطبة ونشر بها علمه فطار ذكره وعُرِفَ مكانه وشَرِق به فقهاؤها وتضايقُوا منه، فغضُّوا من قَدْره وتحاملُوا عليه حتى ندم على رجوعه وهمَّ بالانصراف إلى المشرق، فعَلِم المنصور بن أبي عامِر بحاله وهو الذي تولى أمرَ الدولة بعد وفاة الحكم، فقرَّبه ونوَّه به، وأجرى عليه من الرزق ما كفاه.

ثم ارتقى شأنه بتقْليدِه الشورى، وأخذِ الناس عنه، وأدرك جاهاً عظيماً بإقبال ابن أبي عامر عليه وتعظيمه له.

قال أبو إسحاق الشّيرازي: وممن انتهى إليه هذا الأمر من المالكية بالأندلس أبو محمد الأصيلي، يعني رياسةَ العلم، وقال ابن عفِيف رحل وتفقه فاحتوى على علم عظيم، وقدِمَ الأندلس ولا نظير له فيها في الفهم والنبل. وقال الضَّبي في البُغْية: «أكثر الجمع والرواية ورجع إلى الأندلس فساد في ذلك ولم يكن ينافسه إلا القاضي ابن زَرْب، فنشأت بينه وبين أصحابه مُشَاحنَة، أثارتْها المنافَسة وعلُوّ كَعْب الأصيلي في العلم، فأراد ابن أبي عامر صلاح حالهم بتفريقهم فقلَّد الأصيليَّ قضاءَ سَرَقُسْطة، فدارت بينه وبين والِيها مُناقشة في أمور أنكرها عليه الأصيلي، فحلَف الوالي أن لا يَلِيَ معه، فصرَفه ابن أبي عامر عن القضاء صرْفاً جميلاً أراه حاجتَه إليه بالحضرة، فأقام على حاله الأولى رأساً في أهل الشّورى بقُرْطُبة لا سيما بعد وفاة قاضيها ابن زَرْب فإنه استكملتْ رياستُه، حتى صار بالأندلس نظيرَ ابن أبي زيد بالقيروان وعلى هَدْيه.

ويذكرون أنه كانت في خُلُقه زَعارة، أي: شراسة تُخرِجه أوقاتَ الغيظ عن حدّ الاعتدال، وأنه أُبلِغَ عن القاضي ابن زرب رحمه الله يوماً كلاماً عرَّض به فيه فساءه ذلك وحرك من ضجَره ما شقّ صدرَه غضباً وتمثَّل:

لبِستُم ثياب الخَزّ لمَّا كُفِيتُمُ
ومِن قبلُ ما تدرون من فَتح القُرى
وُقُوفاً بأطراف الفِجاج وخيلُنا
تَساقى كؤوسَ الموت تدعون بالقنَا

فلما أكلتُم قتلنا بسِلاحنا

تحدَّثَ مكفِيّ بعَيْب الذي كفَى

ويحكى أنه ناظرَ ابنَ أبي زيد يوماً في مسألة، فاحمرَّ وجهه واحْتَدَّ مِزاجه، فقال له ابن أبي زيد: قال بخلاف قَوْلك فلانٌ، فقال: لو قالها فلان ما صدقتُه أو لكان خطأ أو نحو هذا الكلام مما أسرف فيه، وعلا بفَرْط حرَجِه، فانتدب له البَرادِعي وتولاه ووجد للمقال سبيلاً وأنكر عليه كلّ مَن حضر، ولكن البَرادِعي هو الذي تولى ذلك بفرط حرَجٍ منه أيضاً. فخرج الأصيلي. فكان ذلك سبب مقاطعته مجلِسَ ابن أبي زيد، فيُقال: إن ابن أبي زيد قال للبرادعي: لقد حرَمْتنا فوائدَ الشيخ بإسرافك في الرد عليه.

ومن هذا النحو ما ذكره بعضهم أنه هنأه بالشورى حين تقلدها، فقال: لعن الله الشورى إن لم أرفعها، ولعنني إن رفعتني.

ومع ذلك فإنه كان في فتواه غير متشدد ولا متعصب، وأحضره ابن أبي عامر في جملة الفقهاء فاستشارهم في أرض موقوفة على بعض كنائس أهل الذمة أراد شراءها فمنعه جماعة الفقهاء منها، غيرَ الأصيلي وحده، فإنه أفتاه بجوازه، واحتج لذلك فرجع ابن صاعد منهم إلى قوله.

وأفتى لابن عامر أيضاً بجواز الصلاة في العَمَّارية، وهي مركبة كالهودج، كان يلزم الركوب فيها في أسفاره، وإباحة ذلك في الفريضة، دون النزول بالأرض إذ كانت

صلاتُه إيماءً، للوَجع الذي كان أصاب قدميْه من علة النّقْرِس، وهي إحدى روايتَيْ ابن القاسم عن مالك في المدونة ولم يرَ غيره هذه الفتيا ومنع ذلك حتى يباشر الأرض.

وكان يُخطىءُ القول بنبوة مريم أم عيسى عليهما السلام، ويقول: هي صِدّيقة. وكان يُنكِر الغُلُوّ في كرامات الأولياء، ويثبت منها ما صحّ سنده أو كان بدعاء الصالحين.

ووقعت له في هذه المسألة حكاية مع القَبْري، فإن هذا كان لتعلقه بالعلوم النظرية قد تعصب عليه الفقهاء وأهل الحديث، ولا سيما ابن عون الله شيخ المحدثين وتلميذه أبو عُمر الطَّلَمَنْكِي، وجرت بينه وبينهم قصص ومجاوبات في مسألة الكرامات، وكان القبري يذهب فيها مذهب شيخه ابن أبي زيد في إنكار الغلو فيها، وكان أولئك يُجوّزُونها ويتّسِعون في رواية أشياء كثيرة منها، فلما تفاقم الأمر بينهم تدخل ابن أبي عامر فتدارك المسألة بتسيير جماعة من الطائفتين عن الأندلس إلى أرض العُدوة فيهم القَبْري فأقام بها مدة أخذ عنه فيها جماعة، ثم تراجع خُفْيةً إلى الأندلس. فورد قرطبة متستراً ورمى بنفسه على الأصيلي، وكان من حِزْبه، ففزع الأصيلي لذلك لسطوة ابن أبي عامر فوبّخه القبري وقال له: افعل ما بدا لك، فأنا متوكل على الله. فأعلم الأصيلي ابن أبي عامر، وأنه لم يشعُر به حتى ورد عليه فعفا ابن أبي عامر عنه.

وكان الأصيلي أيضاً يعمل بالمزارعة على الثلث

والربع، ويرى ذلك ولا يقول بمنعها في المذهب. ويقول: هي أَلْيَنُ مسائلنا وأضعفُها. وحجتُه حديث معاملة النبيّ ﷺ أهلَ خيبر، فإنه ﷺ عاملهم على أن يزرعوها ويعملوا فيها، ولهم شَطْرُ ما يخرج منها وما حُكِيَ عن عُمر وجماعةٍ من أهل المدينة في ذلك.

فهذه مسائل مما كان الأصيلي يُفتي به ويذهب إليه، وهي تدل على تساهله وفهمه لروح الشريعة السمحة، فيما يمكن فيه التساهل، وإن كان في مسألة كرامات الأولياء قد أخذ بالاحتياط وراعى الأصل الذي انبنَتْ عليه الدعوة الإسلامية من تصحيح العقيدة وعدم شَوْبِها بما يؤدي إلى الانحلال. إلا أنه في بعض الأحيان كان يأخذ بالعزيمة كباقي فقهاء عصره، ولا يترخص مثلما وقع منه في قضية المسجد الذي بناه ابن أبي عامر في مدينَتِهِ الزَّاهِرة بِطرَف قرطبة الشَّرْقي، وأراد التجميع فيه، فمنعه الفقهاء من ذلك، ذهاباً منهم إلى عدم تعدُّد الجمعة في المِصْر الواحد، وكان أصبغُ الفقيه ممن وقف في ذلك موقفاً شديداً فألزمه ابن أبي عامر بالصلاة فيه والخطبة فامتنع، فسَخِط عليه وأسقطه من الفتوى والقضاء كما سَخِط على آخرين وعاملَهم بنفس المعاملة إلا الأصيلي وابن المَكْوي وابن الصفَّار وبعض الفقهاء الآخرين فإنه تغافل عنهم وإن كانوا ممن أفتى بالمنع.

وفي رواية أخرى أنهم كانوا يصلُّون معه في هذا المسجد بإمامة ابن العطّار الذي انفرد بالإفتاء له بالجواز، ثم يعيدون الصلاة في بيوتهم مُجانبةً لحِقْد ابن أبي عامر

عليهم. وإن صحّ هذا فنرى أن الأصيلي رجعَ عن رأيه في المنع، وهو الأوفق به وبسلوكه.

* * *

وألّف الأصيلي كتاباً في اختلاف مالك والشافعي وأبي حنيفة، سمّاه كتاب «الدلائل على أمّهات المسائل»، وهو أكبر كُتبه وأشهرُها لم يقصّرْ فيه عن حجة واجتهاد، وعلى حسب ما في «كتاب الدّيباج» فإنه وضعه على المُوطّإ للإمام مالك، وقال ابن الفَرَضي: وقد حُفِظت عليه فيه أشياء وقف عليها أصحابنا وعرفوها. ولعل ذلك كان من أخْذِهِ أخْذَ العراقيين من أصحاب مالك على ما ألمع إليه الضبيّ في البُغْية. وعلى كتابه هذا اقتصر جلّ مَن ترجموه، ولكن القاضي عياضاً ذكر له أيضاً كتباً أخرى منها «نوادرُ حديثه» في خمسة أجزاء، وكتاب سمّاه «الانتصار»، و«رسالة الردّ على ما شذّ فيه الأندلسيون»، وقد تكون في هذه المسألة التي حفِظها عليه مَن أشار لهم ابنُ الفَرضِي، و«رسالة المواعد المنتجزة من الله تعالى في كتابه لرسوله ﷺ وللمؤمنين»، وهذه الرسالة ذكرها ابن خير في فهرسته ورواها بسنده إلى الأصيلي.

ومما يذكر في أعماله العلمية روايته لصحيح البخاري عن أبي زيد المَرْوَزِي عن الفِرَبْرِي عن البُخاري، وهي رواية حظيت بعناية كبيرة من العلماء وحفاظ البُخاري، ويجد المرء أثرها فيما كتب على «الجامع الصحيح» من شروح وحواش إذ يقع التنبيه على اختلاف نُسخِه ورواياته في بعض

الكلمات والأسماء والتراجم بحسب ما رواه النَقَلَةُ والحفاظ عن مؤلفه، فلا تخلو تلك الشروح والحواشي من الإشارة إلى الأصيلي وما جاء في روايته من ذلك، وهو أمر يدل على تقدير العلماء والمُحدّثين له واعتمادهم عليه لتثبُّته وحفظه وضبطه. وبذلك عُدّ من رُواةِ البخاري الأولين الموثّقين.

وقد كان ممن رواه عنه في الأندلس تلميذه وصهره المُهلّب بنُ أبي صفْرة، وأخوه محمد والمهلّب من شُرّاح البخاري كما هو معلوم... قال أبو الأصبغ ابن سهل القاضي عنهما: كان أبو القاسم وأبو محمد من كبار أصحاب الأصيلي، وبأبي القاسم حَيَا كتاب البخاري بالأندلس؛ لأنه قرئ عليه تفقهاً أيام حياته، وشرَحه واختصرَه، وله في البخاري اختصار مشهور سمّاه كتاب «النّصيحِ في اختصار الصحيح»، وعلّق عليه تعليقاً في شرحه مفيداً. وما دام السياق سياق روايته وحديثه، فإننا نذكر في خاتمة ترجمته حديثاً من روايته في رحلته التي بلغ بها إلى حضْرَمَوْتَ كما يفيده الخبر على حسب ما جاء في المدارك عن أبي الحسن القابسي قال: قال لنا حمزةُ بن محمد الكِناني حين دخلتُ عليه أنا وأبو موسى عيسى بن سعاد وأبو محمد الأصيلي ووفقناه نازلاً في الدّرَج، درَج مسجد يقال: إنه مسجد ابن لَهِيعة في حضرموت: مَن هؤلاء؟ فقيل له: قوم مغاربة. فوقف فسلّمنا عليه، ثم رجع فنظر في وجوهنا وقال: ما أرى إلا خيراً. حدّثونا عن محمد بن كثير عن سفيان الثوري عن عمرو بن قيس المُلائي عن عَطية

العَوْفي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «**اخْذَرُوا فِراسةَ المؤمن، فإنه ينظرُ بنور الله**» وتلا: «﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥﴾».

* * *

هذا وبقي الأصيلي على ما عُهِدَ منه من نشاط في نشر العلم والقيام بمَهامِّه الدينية إلى سنة ٣٩٢، فتُوفي في ذي الحجة منها ليلةَ الخميس، لإحْدى عشْرَة ليْلَةً بقيت من الشهر آخر السنة، ودُفن يوم الخميس عند صلاة العصر بمقبرة الرّصافَةِ بقرطبة، وصلّى عليه القاضي أحمد بن عبدالله. قال ابن الفرضي وهو ابن ثمانٍ وستين سنة فيما بلغني.

وقال عياض في المدارك: وكان جمعه مشهوداً، وجهّزه المظفرُ بن أبي عامر على عادته للفقهاء. وبعث إلى ابنه أكفاناً له وحنُوطاً من عنده، رعايةً لمكانه من أبيه المنصور فقبل ابنُه كرامتَه. وجهّز أباه فيما كان أعَدّه لنفسه. وكان أراد أن يدفنه ليلاً ولا يُعلِم بجنازته، فردّه عن ذلك صهرُه ابن أبي صُفْرة، وأوصى أن يدفن في خمسة أثواب، وكان آخر ما سمع منه لما احتُضِرَ: «اللّٰهمَّ إنّك قد وعدْتَ بالجزاء عند كل مصيبة، ولا مصيبةَ عليّ أعظم من نفسي، فأحْسِنْ جزائي عنها يا أرحم الراحمين». ثم خَفَت... وهي كلمة حكيمةٌ ومؤثرة.

وكان قد أعدّ قبره لنفسه، يقف عليه ويتعظ به... وكان كثيراً ما يتخوف من سنة أربعمائة، وما يجري فيها من

الفتن. فذكر يوماً شأنها في مجلسه ودعا الله تعالى أن يتوفاه قبلها، وابنَه محمداً، وسأل من حضَر التأمين، وأن ابنه محمداً حاضرٌ كارِهٌ، ففعل من حضر ذلك، وأجيب دعاؤه، فتوفي عما قريب كما ذكرنا. وتوفي ابنه بعده بأعوام رحمهما الله.

قال عياض: وكانت سنة أربعمائة، فكان فيها من الفتن وخراب الأندلس ما كان.



أبو عمران الفاسي
(ت ٤٣٠ هـ)

أحد رجال العلم والإصلاح، بيته وأوليته، فاس وطلبه للعلم بها. رحلته ومشايخه، عودته إلى المغرب واستقراره في القيروان، لماذا أزعج عن فاس، شهرته والثناء عليه، متانة دينه، الآخذون عنه، اتصال أمير صنهاجة به، وما نشأ عن ذلك من قيام دولة المرابطين، تآليفه، جوابه عن أسئلة قاضي دانية، دوره في الفتوى، بعض فتاويه، حديث من طريقه، رحلة ثانية، إيابه من رحلته ثم موته، وما قاله عند موته.

هذا اسم من ألمع الأسماء في تاريخ المغرب العلمي والسياسي على السواء. فصاحبه من أعلام الفقه والحديث والدراسات الإسلامية العليا. وهو كذلك من رجال الإصلاح والتوجيه والمشاركة في الأحداث العامة، حتى أن له يداً في قيام دولة المرابطين وصِبْغتها الدينية المعروفة، وهو موسى بن عيسى بن أبي حاج، واسمه يَحُجّ الغَفَجُومي نسبة إلى غَفَجُوم بفتح الغين والفاء، فَخِذ من قبيلة زِنَاتة الشهيرة، ولكنه لا يُعرف بهذه النسبة، وإنما يُعرف بالفاسي نسبة إلى

مدينة فاس التي سكنها سلفه، وكان لهم بها شهرة ونباهة، ولا شك أنه إنما عرف بذلك في القيروان عند استيطانه بها. أما في فاس فإن بيتهم كان يُعرف ببني أبي حَاجّ، وإليهم يُنسب درب بُوحَاجّ في حيّ الطَّالِعَة من المدينة المذكورة.

قال في كتاب «بيوتات فاس» المجهول المؤلف: «ومنهم بيت بني أبي حاجّ... بيت حسب وثروة وفقه وعلم وعدالة، ولهم زُقاق بفاس يقال له: دَرْب أبي حاجّ. منهم الفقيه الإمام موسى بن أبي حاجّ... المعروف بأبي عِمْران الفاسي» ولا نعرف عن نشأته شيئاً إلا أنه ولد سنة ٣٦٨ فيما نُقل عن ابن عبدالبرّ، وقال أبو عَمْرو الدَّاني سنة ٣٦٥، وهو الموافق لما في المدارك والدّيباج من أنه مات سنة ٤٣٠ وهو ابن ٦٥ سنة.

ولا شك أنه درس أولاً ببلدة فاس فقد كانت مركزاً من مراكز العلم والفقه وما تزال قريبة العهد بمثل درّاس بن إسماعيل، وأبي جيدة اليزناسني، ناهيك بأن ابن أبي زيد القيرواني رحل إليها لزيارة شيخه دراس... فمدينة تحتوي على علمَيْن من أعلام الفقه كهذين الشخصيتين الكبيرتين في الوقت الذي ولد فيه أبو عمران، وقبله بقليل لا بد أن تكون وسطاً علمياً مزدهراً ومثابة للعديد من رجال الفقه والدين.

وبعد أن صلُب عُوده واشتدّ ساعده طمحت نفسه إلى الرحلة والأخذ عن مشايخ العلم ذوي الشهرة الكبيرة في العالم الإسلامي، فرحل إلى القيروان وتفقه فيها على أبي الحسن القابسي وسمع من أبي بكر الزَّوِيلي وعلي بن أحمد

اللَّواتي السوسي، ثم رحل إلى قرطبة فقرأ على أبي محمد الأصيلي وسمع من أبي عثمان بن نصْر وعبدالوارث بن سُفيان وأحمد بن قاسم وغيرهم.

ورحل إلى المشرق فحجّ حِجَجاً كثيرة بمعنى أنه أقام فيه سنوات عديدة، ودخل العراق فسمع من أبي الفتح بن أبي الفَوارس وأبي الحسن بن إبراهيم المُسْتَمْلي وأبي الحسن بن الخَضِر وأبي أحمد الفَرَضي وغيرهم، ودرس الأصول على القاضي أبي بكر البَاقِلاَّني، وكان يُعجِبه حفظه ويقول له: لو اجتمعت في مدرستي أنت وعبدالوهاب بن نصر وكان إذ ذاك في الموصل لاجتمع عندي علمُ مالك، أن تحفظه وهو ينظره، أي: يُعلّلهُ، وفي رواية: ينصرُه بالصاد، أي: يحتج له. والقاضي عبدالوهاب من أعلام مذهب مالك من البغداديين كما هو معلوم.

وكان دخوله إلى بغداد سنة ٣٩٩، وقد رجع منها إلى مكة، وكان سمع بها من أبي ذَرّ الهَرَوِي، وتمكنت المودة بينهما فوجده بسراةِ بني شبَابَة خارج مكة وأراد أن يحقق بعض روايته عنه فطلب من خازنه أن يمكنه من كتبه فمنعه، فبحكم دالّتِه على أبي ذَرّ غلب الخازن عليها وأخذها دون رأيه، فقامت على أبي ذرّ من ذلك القيامة وأغلظ له في الكلام حتى فسد ما بينهما، وبسبب ذلك ترك أبو عمران أن يُسميه فيما يرويه عنه وكان يُكنِّيه ويقول: سمعت أبا عيسى.

وممن سمع منهم بالحجاز أيضاً أبو الحسن بن فِراس وأبو القاسم السقطي، وبمصر أبو الحسن بن أبي جِدَار أخذ

عنه القراءات، وأحمد بن ثَور القاضي وعبدالوهاب بن مُنير وغيرهم.

وبعد هذه الرحلة العلمية الواسعة عاد إلى القيروان واستوطنها فيما يقول مؤرخوه، وذكر حاتم بن محمد أنه لَقِيَه بالقيروان في رحلته إليها سنة ٤٠٢، وبذلك يظهر أنه لم يعد إلى بلده فاس بعد رحلته.

ولكنا نجد في كتاب «بُيوتات فاس» الذي تقدمت الإشارة إليه قولَه عنه: «كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وبسبب ذلك أخرجه من فاس الطُّغاة من أهْلِها العاملين عليها لِمَغْرَاوَة فاستقر بالقيروان إلى أن توفي»، فهذه العبارة ذات أهمية كبيرة في معرفة السبب الذي هجرَ من أجله موطنه الأصلي ومَسْقِط رأسه واستوطن القيروان.

وإذا تذكرنا الظروف السياسية وفوضى الحكم التي كان المغرب يخضع لها آنئذ واضطراب حبْل الأمن وتطاول جيران المغرب إلى الاستيلاء عليه، عذَرْنا مُترجمنا في الهجرة منه إلى القيروان واختيارها دار مُقام لا سيما مع التحرُّش به ومَنْعه من أداء مُهِمّته، التي هي مُهِمّة كل عالِم ديني، في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. لكن هذا فيما نظن لم يكن قبل رحلته العلمية وتَمَلِّيه من الرواية ورسوخ قَدَمِه في الفقه واتّجاه أنظار الناس إليه وسمَاعِهم لقوله، إن دراسته الأولى بفاس لم تكن كافية للتصدر والأمر والنهي، ورحلته أولاً إلى القيروان ثم إلى قرطبة وبعد ذلك إلى المشرق قد استغرقت زمناً طويلاً من حياته، خصوصاً

وهو قد أقام بالمشرق عدة سنوات كما مرّ بنا آنفاً وحجّ حَجّات متكررة، فبحكم ذلك يكون قد خرج من بلده في عنفوان شبابه وطراوة إهابه، وهو لا يقصد إلا طلب العلم وزيادة المعرفة، وليست حاله حينئذ مما يجعله آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ولا مما يدفع بالطغاة من أهل بلده إلى إخراجه منها.

نعم لما عاد من رحلته الطويلة وقد امتلأ وِعاؤه علماً وطارت سمعته في الأقطار وأقبل الناس عليه يأخذون عنه ويسمعون منه ويخدمونه ويُجِلُّون قدره حينئذ ضاق الطغاة به ذرْعاً ولم يقبلوا إنكاره عليهم فاضطهدوه وأخرجوه من بلده فاس، فلجأ إلى القيروان التي تعرِفُه ويعرفها واستقرّ بها نهائياً إلى أن توفي.

فيكون رجوعه على هذا من رحلته المشرقية إلى فاس حيث أهْلُه وعشيرته وبيته الذي كان على ما ألمعنا إليه من قبل، بيتاً شهيراً ونبيهاً، فلما نَبَتْ به فاس ولقي من مضايقة أهلها وَوُلاتِها ما لقيَ، خرج منها مهاجراً أو مبعداً فأمّ القيروان وتديّرها واستوطنها بقية حياته.

ولعل مما يُستأنس به لذلك ما رواه ابن فرحون في الديباج أنه أفتى في مسجد بُني بِجبَل فاس بمثل ما أفتى به في مسجد السّبْت بالقيروان قبله يحيى بن عمر، وكان مسجداً يجتمع فيه أهل الزهد والعبادة فيقرؤون القرآن ويحكون حكايات الصالحين وينشدون الأشعار الرقيقة، فقال يحيى: هذه بِدْعة لم تكن في الزمن الأول ونهى عن

حضوره، واختلف العلماء في ذلك، ولكن أبا الحسن القَابِسي أيَّد فتوى ابن عمر، وأبو الحسن هو شيخ مترجمنا الذي تفقه عليه في القيروان، فمما لا ريب فيه أنه تأثر به في هذه الفتوى بالنسبة إلى المسجد الذي بني بجبل فاس، ولا يمكن أن يكون ذلك قبل رحلته ولقائه للقابسي وأخذِه عنه، فإذا كان هذا صحيحاً فإن فتواه هذه قد تكون مما أُخِذ عليه بفاس وجعلت القوم يأتمرون به، وكانت أحد الأسباب في إزعاجه عنها.

إن هذا الموقف مما يدخل في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي قال صاحب كتاب «بيوتات فاس»: إنه السبب في إخراج أبي عمران من بلده، وهو يدل على شدة في الدين واتباعٍ لما كان عليه سلف الأمة وفقهاء المِلة من عدم التساهل في مقاومة البدع وإنكار المحدثات، فالانفراد عن أهل السنّة والجماعة بمسجد خاصّ يرصد لغير الصلاة وقراءة للعلم كان هو مبدأ هذه الزوايا والخانقات التي فرّقت كلمة المسلمين وجعلت كلّ حزب بما لديهم مُتميّزين، ولذلك تصدّى له هؤلاء الفقهاء الأعلام بالنّكير والمُعارضة، وكان الحارث بن مسكين وهو من هو فقهاً وعلماً وديناً قد قضى قبلهم في مسجد من هذا القبيل بناه أحد الأعاجم بصحراء مصر بالهَدْم، فعلى هذا السّنَن جرى صاحبنا أبو عمران وعلى نهْج هؤلاء الأئمة سار، منتصراً للسنّة محارباً للبدعة، وإن أدى ذلك إلى تَغْريبه وإبعاده عن وطنه.

وعلى أي حال فإن حياته العلمية إنما توطّدت في

القيروان بعد استيطانه بها. وشهرته إنما طارت من هذا البلد العظيم الذي خلف فيه أساتذته الكبار وحصلت له رياسة العلم به، فلم يكن يتقدمه أحد ولا يُعوّل الناس إلا على قوله، ومنه انتشرت فتواه في الأقطار واستغلت مكانته الفقهية فأمَّه الطلاب والدارسون من المغرب والأندلس للأخذ عنه، والتفقه عليه واستجازه من لم يرحل إليه، وأصبح علماً يشار له بالبنان في كل بلاد الإسلام.

وكان يجلس للمذاكرة والسماع في داره من غَدْوة إلى الظهر فلا يتكلم بشيء إلا كتب عنه إلى أن مات. قاله عياض.

وقال حاتم بن محمد: كان أبو عمران من أحفظ الناس وأعلمهم، جمع حفظ المذْهَب المالكي إلى حديث النبيّ ﷺ ومعرفة معانيه، وكان يقرأ القرآن بالسّبْع ويُجوّده، مع معرفته بالرجال وجَرْحهم وتَعْديلهم ولم ألقَ أحداً أوسع علماً منه ولا أكثر رواية.

وقال في المدارك: قال ابن عمّار في رسالته: كان إماماً في كل علم نافذاً في علم الأصول مقطوعاً بفضله وإمامته. ولما دخل بغداد شاع أن فقيهاً من أهل المغرب مالكياً قدم فقال الناس: لسنا نراه إلا عند القاضي أبي بكر الباقلاني، وهو إذ ذاك شيخ المالكية بالعراق، وإمام الناس، فنهض من أهل بغداد جماعة لمسجد أبي بكر ومعه أصحابه وأبو عمران فجرت مسائل أجاب أبو عمران عنها، ثم سأل رجل شافعي عن مسألة من الاستحقاق، فأجابه أبو عمران بجواب صحيح مُجرد عن الدليل، فطلبه السائل بالحجة،

فأطرق الشيخ أبو عمران، فقام شاب من أهل بغداد من المالكية، فقال للسائل: أصلحك الله، هذا الشيخ من كبار شيوخنا ومن الجفاء أن تكلفه المناظرة من أول وهلة، ولكن أخدمه أنا في نصرة هذه المسألة وأنوب عنه فيها. الدليل على صحة ما أجاب به الشيخ حفظه الله كذا وكذا. فاعترضه الشافعي فيه، ثم انفصل المالكي من اعتراضه حتى خلص الدليل. فلما أكمل الكلام على المسألة قام إليه الشافعي فقبّل رأسه وقال: أحسنت يا سيدي وحبيبي أنت والله شيخ المذهب حين نصرته، وجرت في ذلك المجلس مسائل غيرها.

وهذه الحكاية تدل على أنه لما دخل بغداد كان يُعَدُّ من مشيخة العلم وكبار الفقهاء. وتقدم قول شيخه أبي بكر الباقلاَّني فيه وفي القاضي عبدالوهاب لو اجتمعتما في مدرستي لاجتمع علم مالك أنت تحفظه وهو ينظره، ويروى أنه زاد قائلاً: ولو رآكما مالك لَسُرَّ بكما. وإحجام أبي عمران عن مناظرة السائل الشافعي إنما هو لكونه فَهِم منه أنه أراد تَعْنيتَه كما أشار لذلك الشاب الذي تولى الإجابة عنه، لا لعجز كما لا يخفى.

وكان أبو بكر بن عبدالرحمٰن الخوْلاني فقيهَ القيروان وإمامَ الناس بها قبل قدوم أبي عمران إليها، فلما وردها أبو عمران وجلس بها وبان علمه، قال كبار أصحاب أبي بكر نسير إليه، وقالوا: إنه يعز على شيخنا ذلك، وترددوا في الحضور عنده ثم عزموا على ذلك، وقالوا: إنه لا يحل لنا التخلف عن مثله، فأسخطوا شيخهم حتى يحكى أنه دعا

عليهم وهجَرهم. ومن ثم فسد ما بين العالمين الجليلين، حتى طمع بذلك صاحب إفريقية وظن أنه يجد به الحجة على العامة إذ كانت طوْعَهما، فلما اختبرهما لم يجد عندهما ما يوافقه، ووجد دينَهم أمتن مما كان يظن. واستمر هذا الخلاف واشتهر بين الناس حتى إن الكاتب أبا العباس أحمد بن رشيق الأندلسي، وكان يميل إلى الفقه ورواية الحديث، كتب إليهما رسالة شهيرة عندهم في الإصلاح بينهما، ومع أن هذه الخصومة لم يكن له فيها يد كالتي نشِبت بينه وبين شيخه أبي ذرّ، فإنه كان يلزم فيها جانب التعقل ولا يفتح الباب فيها للمستغلين كما رأينا.

وكان تلامذة أبي عمران الذين تفقهوا به وأخذوا عنه جماعة من الفاسيين والسّبْتيين والأندلسيين فضلاً عن القيروانيين كأبي القاسم بن مُحْرِز، وأبي إسحاق التونسي، وأبي القاسم السيّوري، وأبي حفص العطّار، وابن سعدون عبدالحق الصّقلّي، وعتيق السوسي، وأبي محمد الفحصلي، ومحمد بن طاهر بن طاوس، وسواهم.

ومن تلاميذه وَجّاج بن زلُو الشهير الذي كان أحد المؤسسين للدولة المرابطية، أخذ عنه بفاس قبل هجرته إلى القيروان، كما في كتاب «بيوتات فاس»، والذي في كتاب «مفاخر البربر» وغيره أنه رحل إلى القيروان وقرأ عليه بها. ويمكن الجمع بينهما بأنه قرأ عليه أولاً بفاس ولم يُشبع نَهْمَته منه، ولما كانت إقامة أبي عمران بفاس بعد رجوعه من رحلة قصيرة، فإن صاحبنا وجّاجاً رحل إليه لتجديد العهد به وإكمال دراسته عليه.

وكان هذا التلميذ قد تشبّع بروح أستاذه الإصلاحية والعلمية، فلما رجع إلى بلده سوس بنى داراً لطلبة العلم وبها تخرّج عليه عبدالله بن ياسين المؤسس المباشر لدولة المرابطين.

وكان ذلك فيما يروي المؤرخون لما اجتمع يحيى بن إبراهيم الكَدَالي زعيم صنهاجة وهو عائد من الحج، بمتَرجمنا أبي عمران الفاسي في القيروان فسأله أن يبعث معه أحد طلبته لتعليم أبنائه وأبناء قبيلته كتاب الله وقواعد الإسلام، فبعث أبو عمران معه بكتاب إلى تلميذه وجاج يقول فيه: «أما بعد؛ إذا وصلك حامل كتابي هذا وهو يحيى بن إبراهيم الكدالي، فابعث معه إلى بلاده من طلبتك من تثق بدينه وورعه وكثرة علمه وسياسته، ليعلمهم القرآن وشرائع الإسلام ويفقههم في دينهم، وله ولك في ذلك الثواب والأجر العظيم، والله لا يضيع أجر مَن أحسن عملاً والسلام».

وقد وقع اختيار وجاج على تلميذه عبدالله بن ياسين الذي نعرف من أمره في القيام بدولة المرابطين وحربه لأهل الضلال وقضائه على الفتنة والفساد وصبغه للدولة بصبغة الدين التي لم تفارقها حتى انقرضت، ما يَضيق المقام عن تفصيله وإنما المهم أن نشير إلى يد أبي عمران في ذلك وهي إن لم تكن خطة رسمها للزعيم الصنهاجي عند اجتماعه به في القيروان، فعلى الأقل كانت إرشاداً وتوجيهاً وتأثيراً فيه مباشراً أو بواسطة تلميذه وجّاج وتلميذ تلميذه عبدالله بن ياسين، أي: تطبيقاً للدعوة الإصلاحية التي بثّها

مدرسة أبي عمران ونشرت مبادئها في المغرب وإفريقية، وكان أول ما ظهر منها الثورة على الواقع المؤلم والوضع الفاسد في فاس من أبي عمران نفسه مما أدى به إلى النفي والتشريد.

وهكذا يظهر لنا أبو عمران رجل إصلاح وسياسة وتدبير، إلى كونه رجل علم وفقه وحديث... وقد نجح في كلتا المهمتين وقَرْطَس الهدف في كل من الغرضين وقلما تجد عالِماً ذا شهرة وذكر عالٍ إلا وهو ممن أرْصد عِلْمَه لتغيير ما بِقَوْمِه وإصلاح أحوالهم، ولم يقتصر على العلم دون العمل.

ولم يؤلف مترجمنا كتباً كثيرة، فكل ما ذكروا له، أنه ألّف كتاب التعاليق على المدونة، وهو كتاب جليل، إلا أنه لم يكمله، وخرّج عوالي حديثه في نحو مائة ورقة ويوجد في مكتبة الأسكوريال بإسبانيا منسوباً إليه، مخطوط يسمى كتاب «الأحكام» وذكر صديقنا الأستاذ عبدالسلام ابن سودة في كتابه «دليل مؤرخ المغرب» أن له فهرسة، أي: برنامجاً لرواياته ومشيخته، ولعله هو الكتاب الذي ذكرناه سُمّي بالفهرسة لمناسبة موضوعه، وينقل القاضي عياض في المدارك عما يسمِّيه أحياناً التعليق لأبي عمران، وأحياناً أخرى يقول: وجدت بخط أبي عمران، وذلك في تراجم بعض الأفراد وتواريخهم، فهل هذا كتاب آخر له، أو إنما هو تقييد مما ظفر به القاضي عياض من آثار أبي عمران. وفي الحق أن هذه الكتب ولو ثبتت كلّها ليست على قدر علم الرجل وتحصيله واتساع روايته ومشاركته في العلوم،

فإن غيره ممن يعد في تلامذته له عشراتُ الكتب والمؤلفات، ولكن التأليف موهبة، كما أن الاشتغال بالدرس وهو ما كان أبو عمران مُنكبًّا عليه إلى أن مات، يعوق عن الكتابة ويستنفد مجهود العالم. ومع ذلك، فإن علم أبي عمران وفقهه متفرق في الكتب ومُسجّل في فتاواه التي تضم كتب النوازل والمسائل الشيء الكثير منها.

ومما يذكر في هذا الصدد أن أبا عمر بن حسيْن قاضي دانية قَدِم إلى القيروان برسالة من الموفّق صاحب دانية إلى المُعِزّ صاحب إفريقية، وجرت له بالقيروان أخبار وأمور، فكتب إلى علمائها بمائة سؤال عن فنون العلم أجاب عنها كلها أبو عمران الفاسي. وهذا عمل يدل على مقدرته التامة وتصرفه الكامل كما يدل على تصدره وكفايته لعلماء العاصمة الإفريقية الكبيرة.

ونحن اليوم لا نستطيع أن نقدّر الدور الذي كان يقوم به المفتي في المجتمع الإسلامي الذي يخضع لأحكام الشرع في جميع الشؤون، لِبُعْدِنا عن الحياة الدينية الصحيحة، ولكن يكفي لتصوره في الجملة، أن نتذكر ما كان للناس من تشبُّث عظيم بتعاليم الدين، وحرص شديد على عدم مخالفتها في الصغير والكبير من أعمالهم فهم يلجأون دائماً إلى العلماء يستفتونهم، وإذا اختلفوا فإنهم يعتمدون من ثبت لديهم ورعُه ونزاهته وعدم مجاراته للحكام في أهوائهم، إنه لم يكن هناك إفتاء رسمي ولا خطة حكومية له، فالدولة نفسها تستفتي العلماء وكثيراً ما يعارضون أغراضها ولا يوافقون عليها. وذلك هو الذي يرفع مقامهم عند العامة

ويجعلهم بمثابة الزعماء السياسيين الذين ينتقدون الحكومة في أنظمة الحكم العصرية، ويعارضون سياستها وربما أسقطوها، فمن هذا نعرف مهمة المفتي وخطورتها بالنسبة للفرد والجماعة في الوطن الإسلامي، ومنه نعرف مشاغل أبي عمران ومسؤوليته في عاصمة إسلامية كالقيروان تموج بالمذاهب والأهواء والاضطرابات السياسية التي خلص منها خلوص الذهب الإبريز، ولم يتأثر موقفه بشيء منها وإنما بقي ذلك العالم السنّي النصوح المخلص مَلْجأ المسلمين فيما يعرض لهم من الشبه والمشاكل وأب الجميع.

وكان على ما تتبعنا من أقواله وفتاويه يجنح إلى التسامح والرفق وعدم التشديد، إلا مع الولاة والمتسلطين حين يريدون أن يعبثوا بأحكام الشرع ويصلوا إلى مرادهم من الناس كما سبقت الإشارة إلى ذلك. ونسوق هنا فتوى من فتاويه أنقذت رجلاً من الموت بتأويل حسن ونظر متسامح مع ما كان لعامة الشعب فيه من ثقة كاملة... وذلك أنه كان في القيروان رجل ادعى أنه خير البَرِيّة، فلبّب وهمّتْ به العامة، فحمل إلى شيخنا أبي عمران، فسكّن العامة ثم قال: كيف قلت؟ فقال: إنه خير البرية، فقال له: أنت مؤمن أو قال: مسلم، قال: نعم، قال: تصوم وتصلي وتفعل الخير؟ قال: نعم، قال: اذهب بسلام، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧﴾. فانقبض الناس عنه.

ومن تسهيلاته في الفتوى أنه كان يقول فيمن حلف بالأيمان اللازمة: تكفيه طلقة واحدة.

ومما يدل على تأنِّيه وحسن نظره في المسائل وتأتِّيه لها أنه جرت بالقيروان مسألة في الكفار هل يعرفون الله أم لا. فوقع فيها نزاع عظيم بين العلماء، وتجاوز ذلك إلى العامة وكثر التنازع بينهم فيها حتى كاد يقوم بعضهم على بعض في الأسواق ويخرجون عن حد الاعتدال إلى القتال. وكان القائم بذلك رجلاً مؤدباً يركب حماره ويذهب من واحد إلى آخر، فلا يترك متكلماً ولا فقيهاً إلا سأله فيها وناظره. فقال قائل: لو ذهبتم إلى الشيخ أبي عمران لشفانا من هذه المسألة، فقام أهل السوق بجماعتهم حتى أتوا باب داره واستأذنوا عليه، فأذن لهم، فقالوا له: إنك تعلم أن العامة إذا حدث بها حادث إنما تفزع إلى علمائها، وهذه المسألة قد جرى فيها ما بلغك، وما لنا في الأسواق شغل إلا الكلام فيها.

فقال لهم: إن أنصتُّم وأحسنتم الاستماع أخبركم بما عندي. فقالوا له: ما نحب إلا جواباً بيِّناً على قدر أفهامنا. فقال لهم: بالله التوفيق. ثم أطرق ساعة وقال: لا يكلمني إلا واحد ويسمع الباقون، فقصد واحداً منهم فقال له:

أرأيت لو لقيت رجلاً فقلت له: أتعرف أبا عمران الفاسي؟ فقال: أعرفه، فقلت: صِفْه لي، . فقال هو رجل يبيع البَقْل والحنطة والزيت في سوق ابن هشام ويسكن صبرة، أكان يعرفني؟ قال: لا، قال: فلو لقيت آخر فقلت له: أتعرف الشيخ أبا عمران؟ فقال: نعم، فقلت: صفه لي، فقال: هو رجل يدرّس العلم ويفتي الناس، ويسكن بقرب السماط، أكان يعرفني؟ قال: نعم، قال: والأول ما كان

يعرفني، قال: لا، قال لهم الشيخ: فكذلك الكافر إذا قال لمعبوده: صاحبة وولد وأنه جسم، وقصد بعبادته من هذه صفته، فلم يعرف الله ولم يصفه بصفته، بخلاف المؤمن الذي يقول: إن معبوده الله الأحد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤاً أحد. فهذا قد عرف الله ووصفه بصفته وقصد بعبادته مَن يستحق الربوبية سبحانه وتعالى.

فقامت الجماعة وقالوا له: جزاك الله خيراً من عالم فقد شفيت ما بنفوسنا، ودعوا له، ولم يخوضوا في المسألة بعد هذا المجلس.

ومما يدل على غيرته وتعظيمه للحرمات وعدم إسْلاس قيادته لذوي الأمر ما حكي أن المعزّ بن باديس بعث إليه ابن عطاء اليهودي طبيبه وخاصته يستفتيه في مسألة فلما دخل على الشيخ في داره ظنه بعض رجال الدولة إلى أن نبهه بعض الحاضرون بقوله: أكرمك الله إنه من خيار أهل مِلّته. فقال الشيخ: وما مِلّته؟ فقال: هذا ابن عطاء اليهودي، فغضب أبو عمران وقال لابن عطاء: أما علمت أن داري كمسجد، فكيف اجترأت على دخولها؟ وأمره بالخروج. فخرج وهو يرعُد. وكان غير مُعَلم، فأمر الشيخ بصبغ طرف عمامته لشهرته. وقال: انصرف إلى مُرسِلك، فقل له يبعث لي برجل من المسلمين يأخذ جواب مسألته، فإني لأستحيي أن أحمّلك أسماء الله وحكماً من أحكامه...

فلما دخل اليهودي على المعز ذكر له القضية وقال: والله يا سيدي ما ظننت أن بإفريقية ملكاً غيرك، إلا يومي هذا. ولقد وقفت بين يديك في حال غضبك الشديد فما

أدركني فزع، ولا أصابني من الرعب ما أصابني في يومي هذا. فقال له المعزّ: إنما فعلت ذلك لأريك عزّ الإسلام وهيبة علماء المسلمين، وما ألبسهم الله من شعائر الأولياء، لعلك تُسْلم.

ومهما يكن في هذا الموقف من الشدة، وفي روايته من المبالغة، فإنه من أعظم الأدلة على علو مقام أبي عمران وشدته في دينه وكونه لا تأخذه في الله لومة لائم، ولئن كان المعزّ أخطأ في إرسال اليهودي إلى الشيخ مستفتياً في أمر ديني أو استهتر به، فلقد أحسن الاعتذار بعد ذلك حين قال لرسوله: إنما فعلت ذلك لأريك عز الإسلام وهيبة علماء المسلمين.

وأخيراً، هذا حديث شريف من طريقه، ولعله أن يكون من عوالي حديثه، نقله ابن بشكوال في الصلة عن خط أبي مروان الطبْني قال: أخبرني الشيخ الجليل أبو حفص محمد بن زاهر وكتبته من خطه قال: أنا أبو عمران موسى بن عيسى بن أبي حاج الفاسي الفقيه في داره بالقيروان. قال: أنا أبو الحسن الفقيه ابن القابسي رحمه الله، قال لنا حمزة بن محمد الكِناني حين دخلت عليه أنا وأبو موسى وعيسى بن سعادة وأبو محمد الأصيلي ووافقناه نازلاً في الدرج، درج مسجد يقال: إنه مسجد ابن لَهِيعة في حضرموت: مَن هؤلاء؟ فقيل له: قوم مغاربة. فوقف فسلّمنا عليه، ثم رجع فنظر في وجوهنا وقال: ما أرى إلا خيراً. حدّثونا عن محمد بن كثير عن سفيان الثوري عن عمر بن قيْس المُلائي عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخُدْري أن رسول الله ﷺ

قال: «احذرُوا فِراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله» وتلا: «﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥﴾».

وبقي أبو عمران بالقيروان على حاله من الاشتغال بالعلم والإفتاء والنصيحة والعناية الكاملة إلى أن جدّ له الشوق إلى الرحلة للمشرق مرة ثانية سنة ٤٢٦، فحجّ ولقي بمكة عبدالله بن أحمد الهروي فأخذ عنه. ثم قدم إلى القيروان، ولم ينشب أن مرض ومات.

ولما حضرته الوفاة جعلت زوجته تمرغ خدَّيها على رجليه، فقال لها: مرّغي والله ما مشيت بهما إلى معصية قط. وهذا من كمال دينه وتقواه للّه عزّ وجل. وحكي أنها قالت: واشماتة أعداء عيسى بعيسى - تعني به ولد أبي عمران - فقال لها الشيخ: قولي: لأعداء عيسى لا يموتون.

وقيل: إنه توفي عن غير عقِب ذكر وعصّبه بيت المال والعلم للّه.

وكانت وفاته في ١٣ رمضان سنة ٤٣٠ ودفن ببيته، وقبره معروف بالقيروان إلى اليوم رحمه الله رحمة واسعة.

* * *

الشريف الإدريسي
(ت ٥٦٠ هـ)

مصادر ترجمته، لماذا أغفله المؤرخون، شرف بيته، ولادته ونشأته، أين درس، ثقافته، سياحته والبلاد التي تجوّل فيها، قدومه لصقلية، كيف كانت صقلية في ذلك العهد، رغبة ملك صقلية في وضع كتاب جغرافي صحيح، قيام الإدريسي بوضع خريطته وتأليف كتابه نزهة المشتاق، تقويم علمي لعمل الإدريسي هذا، ثناء العلماء عليه، كتب أخرى للإدريسي، آثار أدبية له، وفاته، منتخبات من كتابه نزهة المشتاق شائقة المواضيع.

لم يرد ذكر لهذا العالم الجغرافي الكبير في دواوين المغاربة بالمرّة، وكادت دواوين المشارقة تخلو من ذكره أيضاً لولا هذه النبذة الشبيهة بالترجمة الواردة عنه في كتاب الوافي بالوفيات للصلاح الصفدي، ولولا نبذة أخرى عنه واردة في كتاب عيون الأنباء لابن أبي أُصَيبعة، وإن كانتا معاً لا تغنيان في التعريف به شيئاً لأنهما لا تشيران ولو إلى تاريخ ولادته أو وفاته.

فنحن في كتابة ترجمته مضطرون للاعتماد على علماء

الاستشراق من الأوروبيين الذين عُنوا بتعرُّف أحواله وتتبُّع آثاره. وعلى بعض الكتّاب المحدثين الذين أشادوا بذكره ونوّهوا بقدره، فضلاً عما نستنتجه نحن من دراسة تراثه العلمي والأدبي وما نسجله من أفكار وملاحظات.

ونظن أن السبب الوحيد في عدم تعرض كُتّاب التراجم من مغاربة ومشارقة لذكره هو خفاء حاله عنهم لبُعد مطرحه وطول غربته، فإنه فارق بلده سبتة في أول شبيبته وتجوّل في البلاد النائية ما شاء ثم استقر به المُقَام في أرض العدو كما كان يقال إذ ذاك أو في بلاد أجنبية كما نقول اليوم، والغُربةُ وحدها مما يُعفي على الأثر، ويذهب بالخُبْر والخَبَر فكيف بها مع النشأة الأولى وفي دار الحرب؟ وكم خَفِيت معالم، وذهبت مآثر، وجُهِلت أشخاص، ونُسِيت أسماء بسبب الغربة وتباعد المطارح بالإنسان فلا جرم أن تخفى أخبار الشريف الإدريسي عن المؤلفين وهو بهذه الحالة، فلا يترجمون له وإن كانوا لم يُغفِلوا النقل عنه والإعجاب بآثاره.

جاء في كتاب الرحّالة المسلمون في العصور الوسطى للدكتور زكي محمد حسن ما نصه: «ومما يؤسف له أننا لا نعرف شيئاً كثيراً عن سيرة الإدريسي. وقد ذهب بعض المستشرقين[1] إلى أن مرجع هذا أن المؤلفين العرب كانوا يتجاهلون وجودَه لإسرافه في مدح رُوجَار، ولإنصافه

---

(١) هو دوزي الهولندي في مقدمته للقسم الخاص بالمغرب والسودان ومصر والأندلس من كتاب «النزهة» الذي نشره مع ترجمة فرنسية سنة ١٨٦٤.

المسيحيين في صِقَلّية إلى أبعد حد، في وقت كان المسيحيون فيه يشُنُّون على المسلمين الحروب الصليبية الشعواء أو يعملون على طردهم من الأندلس، ولكن هذا التعليل لا يقوم على أساس متين لأن شكوانا في شأن ضياع سيرة الإدريسي تصلح أيضاً لسيرة كثير من سائر الجغرافيين المسلمين، الذين لم يتصلوا بالمسيحيين ولم يُسرِفوا في مدحهم».

وينبغي أن يزاد على هذا أن المؤلفين المسلمين إن جهِلُوا ترجمته فهم لم يتجاهلوا كتُبه والنقلَ عنه والاستفادةَ من أبحاثه والثناءَ على آرائه في أهم المسائل الجغرافية والطبية والنباتية، وقد انتفع بكتابه ابنُ خلدون وابنُ فضل الله العُمَري والقَلْقشَندي وغيرهم، وأثنوا عليه كما أثنى عليه الصفدي وابنُ أبي أصيبعة في ترجمتهما له. فلو كان المسلمون أرادوا تجاهله لما نقلوا عنه ولما تسابقوا في إطراء عمله.

وهذه النزعة من التعصب على أهل العلم والفضل وإنكار مزاياهم ليست من صفات المسلمين، فإنّا أُمِرْنا أن نُنْزِل الناس منازلهم، وأن لا نبخس أحداً حقه. ولم ينتقص المسلمون عالماً لدينه ولا تجاهلوا مفكراً لمذهبه، بخلاف من قالوا هذا القول في الإدريسي فكم صدر عنهم من مقالات في الطعن على مخالفيهم في الدين بغير حجة ولا دليل، وكم غضُّوا من شأن العلم والفكر والحضارة عند العرب للحقد الدفين في صدورهم والغرض المذموم المستولي على نفوسهم، إلا قليلاً منهم لم يستملهم الهوى

ولم يجرفهم التيار، وهم معروفون بنزاهتهم وترفعهم عن مثل هذا الدس المكشوف.

وبعد؛ فالإدريسي هو أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله بن إدريس بن يحيى بن علي بن حَمّود بن ميمون بن أحمد بن علي بن عبدالله بن عمر بن إدريس بن إدريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، يرتقي بنسبه في طرفه الأعلى إلى إدريس بن عبدالله مؤسس الدولة الإدريسية بالمغرب، وفي طرفه الأدنى إلى علي بن حمود منشئ الدولة الحمودية بالأندلس في عهد ملوك الطوائف. فهو عريق في الشرف والمجد، ولجده إدريس بن يحيى يقول الشاعر:

وكأنّ الشمس لما أشرقت فانثنت عنها عيونُ الناظرين
وجهُ إدريس بن يحيى بن عليّ بنِ حَمّودٍ أميرِ المؤمنين

وكان إدريس هذا يلقب بالعالي بالله ويحتجب عن عيون الناس فلا يكلم إلا من وراء حجاب، فخاطبه هذا الشاعر بقوله من نفس القصيدة:

أُنظُرونا نقتبس من نوركم إنه من نور رب العالمين

فأمر إدريس برفع الحجاب وأدنى الشاعر منه وأجازه.

ولم تلبث دولة الحموديين بعد إدريس هذا إلا قليلاً ثم انقرضت فاستقر سلَف مترجمنا الشريف الإدريسي ببلده سبتة التي كانت من مشمولات ولايتهم وبها ولد في سنة ٤٩٣هـ.

وقد رُبي تربية عالية ونُشىء على ما تقضي به تقاليد بيته الكريم من التعلق بمعالي الأمور والتمرُّس بأسباب الرياسة كالشجاعة والعلم والنظر في أوضاع البلاد وسياسة الناس مما ظهر أثره بعدُ في سلوكه وأفكاره.

والغالب أنه تلقَّى دروسه ببلده سبتة، فقد كانت حافلة بالأعلام في كل فن، وكان المعتمد بن عباد قبل هذا التاريخ بقليل يقول: «اشتهيتُ أن يكون عندي من أهل سبتة ثلاثةُ نفَر: ابن غازي الخطيب، وابن عَطاء الكاتب، وابن مرانة الفَرَضي»، وكان ابن مرانة هذا من أعلم الناس بالحساب والفرائض والهندسة.

ويميل الأستاذ ميلّر الألماني، أحد العلماء الذين عُنوا بآثار الإدريسي عناية خاصة، إلى أنه قد يكون أنهى دراسته بقرطبة أخذاً من وصفه الكامل لهذه العاصمة، في كتابه «نزهة المشتاق» ذلك الوصف الذي لا يصدر إلا عن معرفة تامة بها وإقامة طويلة فيها.

ومهما يكن الأمر فإن الإدريسي كان على ثقافة أدبية متينة، يدلنا عليها إنشاؤه البليغ وشعره البديع الذي نعرض نماذج منه فيما يأتي، كما كان على ثقافة رياضية كاملة من حساب وهندسة وجغرافية فَلَكِية وطبيعية وسياسية، وهذا فضلاً عن معرفته بالطب ومنافع الأعشاب وأماكنها وأعيانها، فهو طبيب ونباتي أيضاً. وبهذه الصفات ذكره من ذكره من المؤلفين على أنه قد أنتج في هذه الفنون كلها كما سنراه بعد.

ومما لا شك فيه أن تَجَوُّله في البلاد ورِحْلاتِه العديدة

قد أفادته كثيراً ووسعت من ثقافته التي أخذها بالدرس وحصّلها بالطلب، ومدرسةُ التجربة والحياة أنفع المدارس على الإطلاق.

وقد بدأ الإدريسي سياحته وهو ابن ستة عشر عاماً، مما يدل على نُضْجه المبكر، شأن النوابغ أمثاله وأبناء البيوتات العريقة. فتجول في بلاد شمالي إفريقيا وعرف مدنه وقراه وكذا بلاد الأندلس وزار بعض مدن فرنسا وشاطئها الواقع على المحيط الإطلنطيقي وكذا بعض مدن الشاطىء الإنجليزي.

وفي الشرق زار مصر والشام وتجول في سائر بلاد آسيا الصغرى وكان ذلك خلال سنة ٥١٠ على ما يذكره هو بنفسه.

ويظهر أن إقامته بالشرق كانت طويلة لأنا نراه في أبيات له من الشعر ـ سنذكرها فيما بعد ـ يشتكي من رجوعه إلى المغرب خائبَ الأمل غيرَ ظافر بما كان يرجوه في الشرق من التقدير اللائق به بصفته أحد النوابغ وبصفته أحد الأشراف أيضاً، وإن سكت عن هذه ولم يقلها.

ولا يبعد أنه كان ينوي الإقامةَ على الدوام بأحد أقطار المشرق، بالشام مثلاً أو بمصر، وعلى كلٍّ فنحن نميل إلى أنه لبث بالشرق العربي مَلِيًّا، سنتين أو ثلاثاً على الأقل إن لم يكن بقصد الإقامة الدائمة فلزيادة التحصيل والتوسع في الدراسة وإلا فإن الثقافة التي كان عليها الإدريسي في مُخْتَلِف العلوم التي ذكرنا ليست مما يمكن تحصيله في السن التي بدأ سياحته فيها. وقد يكون عاد إلى الأندلس

وأقام بقرطبة منها على الخصوص حيث ازداد تمكناً في العلم، ولكن شكواه المشار إليها من قبل تجعلنا نرجح أنه لما عاد إلى المغرب، كان مملوء الوِطاب بالمعارف فليس به من حاجة إلى دراسة زائدة.

ومنذ عام ٥١٠ الذي قلنا: إن الإدريسي كان خِلاله يتجول في بلاد الشرق، لم نعرف من أخبار مترجمنا شيئاً حتى رأيناه في بلاط روجار الثاني ملك صقلية سنة ٥٤٨، وقد أتمّ تأليف كتابه نزهة المشتاق.

وبما أنه ذكر في مقدمة هذا الكتاب أن مدة العمل في تهيئة أبحاثه استغرقت نحواً من ١٥ سنة، فلا بد أن يكون قدومه لصقلية كان في سنة ٥٣٣ أو قبلها بقليل. وقد نبّه على ذلك الأستاذ ميلّر، وهو ظاهر من طرح مدة العمل من السنة التي تمّ فيها الكتاب.

وعلى قول الصفدي في ترجمة روجار من كتابه «الوافي بالوفيات»[1]، فإن الإدريسي إنما حضر إلى صقلية

---

(١) نقل هذه الترجمة المستشرق الإيطالي ميشيل أماري في كتابه «الجامع المنتخب مما ورد من أخبار صقلية في كتب العرب» وهو كتاب حافل بما يتعلق بصقلية العربية من ناحية الوصف والتاريخ والتراجم، جمعه المستشرق المذكور من الكتب العربية المخطوطة والمطبوعة التي تعرضت لذكر صقلية وقد أفدنا منه كثيراً في هذه الترجمة، ومعلوم أن كتاب «الوافي بالوفيات» المشار إليه هنا لم يُطبع منه لحد الآن إلا ثلاثة أجزاء الأول بعناية المستشرق ريتر سنة ١٩٣١، والثاني والثالث بعناية المستشرق ديدرنغ سنة ١٩٤٩ =

باستدعاء من ملكها المذكور ليعينه في أبحاثه الجغرافية. وهذا لا يصح إلا إذا كان الملك يعرف الشريف من قبل ويعرف رسوخ قدمه في هذا العلم، فهل عرفه في زيارة سابقة له إلى صقلية؟ أو عرفه مما كان له من شهرة علمية كبيرة؟ . . .

ومع ذلك فإن كلام الصفدي يدل على أن الشريف لما قَدِم على روجار لم يكن ينوي الإقامة في صقلية، ولكن روجار رغّبه فيها وقال له: «أنتَ من بيت الخلافة ومتى كنت بين المسلمين عمل ملوكهم على قتلك، ومتى كنت عندي أمنت على نفسك فأجابه إلى ذلك» فهل قدومه إلى صقلية كان أولاً من برنامج سياحته ولما رآه ملكُها وعرَف ما له من باع طويل في علم الجغرافية الذي كان هوايته وفي الطب الذي كان يجمع إليه أقطابه، رَغِب إليه في المقام عنده والكَوْن بِمَعِيّته في غاية العز والاحترام فأجابه الشريف إلى ذلك؟

يغلب على ظننا أن يكون هذا هو الواقع ويكون الشريف إنما انتقل إلى صقلية بعد رجوعه إلى المغرب وخاصةً إلى بلده سبتة حيث جدّد العهد بأهله وأصحابه، واستعدّ الاستعداد اللازم لطول مُقامه بصقلية. وذلك هو ما يفسر لنا قول الصفدي في ترجمته لروجار: «وهو الذي

= و١٩٥٣ وهو أوسع كتاب عربي في التراجم لأنه يقع في ٣٠ مجلدة؛ فهذا العمل البطيء في نشره لا يُخرجه من عداد المخطوطات إلا بعد أمد بعيد.

استقدم الشريف الإدريسي صاحب كتاب «نزهة المشتاق» في اختراق الآفاق من العُذْوة ليصنع له شيئاً في شكل صورة العالم».

وكانت صقلية في ذلك الوقت لم تزل تحتفظ بالطابع الإسلامي والعربي، وسُكّانها من المسلمين كثيرون ومعالم الحضارة العربية هي الغالبة على مجتمعها حتى ملكها رُوجار كان يستظهر بعادات المسلمين في اللباس والهيئة وشارَة المُلْك من الجنائب والحُجّاب والسّلاحية والجُنْدارِية وغير ذلك. كما يقول ابن الأثير وغيره من المؤرخين، وخالف عادَة الفرنج وأكرم المسلمين وقرّبهم ومنع عنهم الفرنج فأحبُّوه.

ومن المحقق أن رُوجار كان ملكاً مستنيراً وعلى جانب من التسامح الذي ينذُر في ملوك عصره من النصارى؛ إلا أنه لا يصل الغاية التي يصفها أكثر الكتّاب. فقد كانت تصدر عنه من أعمال الوحشية ما لا يصدر عن أكثر ملوك النصرانية تعصباً في القرون الوسطى.

وناهيك بقصة فتاهُ فِيليبّ المهدوي الذي جهّزه في أسطول لفتح مدينة بونة فحاصرها واستعان عليها بالعرب فأخذها وسبى أهلها وملك ما فيها، غير أنه أغضى عن جماعة من العلماء والصالحين حتى خرجوا بأهليهم وأموالهم إلى القرى. فلما رجع إلى صقلية قبض رُوجار عليه لِمَا اعتمده من الرفق بالمسلمين واتهمه بأنه مسلم، فجمع الأساقفة والقسوس فحكموا عليه بأن يُحرق فأُحرِق!

وهذه شنيعة لا تقع ممن يوسم بشيء من التسامح، إلى هَنَوات أخرى شبيهة بهذه ذكرها المؤرخون.

ونرى أن ما كان يتظاهر به من التسامح مع المسلمين في جزيرة صقلية وخاصة في بَلاطه بعاصمة بالِرْم هو شيء كان مضطراً إليه؛ أولاً: لما فيه من الفائدة له ولمملكته فإن المسلمين كانوا حينئذ هم العنصر الراقي الحامل لمِشْعل العلم والحضارة في الجزيرة وفي غيرها من أنحاء الأرض فالتسامح معهم لبقائهم في كنَفه يُغذُّون النهضة العلمية التي كان يُعنى بها كثيراً ولا يجد من غير المسلمين مَن يُعينه عليها. وفي الشريف الإدريسي وعمله مثال صادق على ذلك.

وثانياً: لأن جزيرة صقلية كانت قريبة العهد بالحكم الإسلامي فإنها لم تسقط في يد رُوجار الأول والد المذكور إلا سنة ٤٨٤ وكانت لا تزال آهلة بالسكان المسلمين وفي جوار بلادٍ إسلامية قوية لم تضعف عن الدفاع عنها حتى سقطت إلا بسبب الفتن الداخلية التي كانت ناشبةً فيها. ولما استتبّ الأمر في إفريقية لعبدالمؤمن الموحدي تنبه إلى خطر هؤلاء النورمانيين الذين كانوا قد احتلوا بعض المدن الواقعة على شاطىء البحر الأبيض المتوسط فحاربهم وانتصر عليهم، ولذلك كان رُوجار يخاف من سطوة المسلمين أن يعيدوا الكرّة على جزيرته فلا يستطيع أن يتحرش بمن عنده منهم ويضطر إلى معاملتهم بالحسنى.

وعلى كل حال ففي هذا البلاط الذي كان كثير الشبه في مظاهره ـ على الأقل ـ بالبلاطات الإسلامية حينذاك،

وكانت ميزته الخاصة من بين سائر البلاطات النصرانية هي تقدير العلم والعلماء على اختلاف أديانهم وأوطانهم بقطع النظر عن الباعث له على ذلك، عاش الشريف الإدريسي وقضى شطراً مهماً من عمره باحثاً منقباً عاملاً على تقدم العلم والمعرفة الإنسانية والحضارة بما قام به من خِدْمات جُلّى لعلم الجغرافية وصفة الأرض وتقويم البلدان، وبوضعه لأول خريطة عالمية صحيحة مبنية على الأصول العلمية والحقائق الفنية الثابتة لذلك العهد والتي لا تختلف اختلافاً كبيراً عما هو ثابت من ذلك لعهدنا هذا.

وكان طِيلَة إقامته في صقلية موضع اعتبار كبير من صاحبها رُوجار ثم من ابنه غليوم بعده. ورتب له ـ كما يقول الصفدي ـ كفاية لا تكون إلا للملوك وكان يجيء إليه راكباً بغلة فإذا صار عنده تنحى له عن مجلسه فيأبى فيجلسان معاً. وهذه نهاية الكرامة وغاية التّجِلّة.

ولما استقر الإدريسي ببلاط رُوجار كان أول ما عرَضه هذا عليه رغبته في أن يؤلف له كتاباً في وصف مملكته الواسعة وما هي عليه من الحضارة والعمران وذكر مسالكها وحدودها وموقعها من بقية الممالك مع وصف هذه الممالك أيضاً وذكر ما يتعلق بها من ذلك على وجه التحقيق وتجنُّب المزاعم الباطلة والخرافات والأوهام، ذاكراً أنه لم يجد ما يشفي غليله من ذلك لدى كتب المؤلفين في تقويم البلدان من قدماء ومُحدَثين، ولا من يجيب على أسئلته في الصدد من العلماء الملتفّين حوله والمرتسمين في بلاطه.

فلم يكن من الإدريسي حينئذ إلا أن شمّر ذيله للعمل على تحقيق هذه الرغبة التي ربما كانت رغبته أيضاً لا سيما وهو قد جال في أطراف آسيا وأوروبا وأفريقيا فعلى الأقل تكون عنده رغبة في تسجيل ما رأى وما علم من أحوال البلاد التي زارها وعرفها.

ولأجل أن يكون على يقين مما يعمل وأن يبني على مثل ما بني عليه في البلاد التي زارها وعرفها أوحى إلى رُوجار أن يبعث إلى سائر أطراف مملكته فيحضر لديه كل من له علم بشيء من صفاتها وأحوالها، ولا سيما من السّفّار المتجولين في أنحائها وجهاتها. ثم يأمر بِتَلَقّي ما يُدْلُون به من معلومات في هذا الشأن فما اتفق فيه قولهم وصحّ به خبرهم ونقلُهم أُثبِت وسُجّل، وما اختلفوا فيه أُلغِي وأُهْمِل، وقد كان الأمر كذلك، فأرسل رُوجار إلى هؤلاء ووقع سؤالهم أفراداً وجماعات بواسطة الإدريسي أو بواسطة مَن كلف بذلك[1] ولم يكتب عنهم إلا ما اتفقوا عليه وما صحّ الخبر به بعد النقد والتمحيص.

وقد أشرف الإدريسي على هذا العمل وقام به أحسن قيام، ولبث مدة خمسة عشر عاماً مضطلعاً بجمع مواده وبحثها وتنسيقها إلى أن انتهى منه إلى ما أراد وما أرضى رغبة صديقه الحفِيّ به الملك رُوجار.

وكان لأجل أن يستعلم يقيناً صحةَ ما اتفق عليه القوم

---

(١) عبارة النزهة لا تفصح بالمراد حيث جاء فيها «فسألهم عنها بواسطة» ولربما كانت صحة هذه العبارة بواسطتي.

المشار إليهم في خصوص مادة الأطوال والعروض للبلاد المختلفة، يحضر ما سماه «لوح الترسيم» وهو لا شك تصميم جغرافي للكرة الأرضية أو هو بعبارة أدق مشروع خريطة العالم التي وضعها فيما بعد، فيمتحن عليه مواقع البلدان واحداً فواحداً بواسطة بِرْكار من حديد مُقارِناً ما عنده من معلومات بما قرره المؤلفون في هذا العلم محققاً بغاية العناية المواقع المذكورة ومرجحاً بالاستناد إلى النظر الصحيح بين الأقوال المتضاربة في بعض المسائل حتى يقف على حقيقتها.

وكان هذا بلا ريب هو الإصلاح العظيم الذي أدخله الإدريسي على خريطة العالم فجعلها تقرُب من وضعها العلمي الصحيح الذي هي عليه اليوم.

ولما وصل إلى هذه النتيجة أراد أن يُخلّدها بوضع خريطة جامعة يرسُمها على صفيحة من الورق لا على صحيفة من الورق فتكون بمنجاة من عوامل التلف إن شاء الله ذلك. وقد أمر الملك أن تُفرَغ له دائرة من الفضة الخالصة «عظيمة الجِرْم ضخمة الجِسم» على حد تعبيره «في وزن أربعمائة رطل بالرومي في كل رطل منها مائة درهم وإثنا عشر درهماً، فلما كملت أمر الفَعَلَة أن ينقُشوا فيها صور الأقاليم السبعة ببلادها وأقطارها وسيفِها وريفِها وخُلجانها وبحارها ومجاري مياهها ومواقع أنهارها وعامِرها وغامرها وما بين كل بلدين منها وبين غيرها من الطرقات المطروقة والأميال المحدودة والمسافات المشهورة والمراسي المعروفة على نص ما يخرج إليهم ممثّلاً في لوح الترسيم ولا يغادروا منه شيئاً ويأتوا به على هيئته وشكله كما يرسم لهم فيه».

ولما نجز هذا العمل انصرف الإدريسي إلى إنجاز كتابه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» الذي كان تأليفه هو الباعث على بذل هذه الجهود كلها والذي جاء بِمثَابة التفسير والشرح لخريطة العالم الجديدة وقد انتهى منه في عام ٥٤٨هـ. كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

وتوفي رُوجار في ذلك العام نفسه فلم يتمتع طويلاً بتحقيق أمنيته، ومع ذلك فلم يكن أحد لينسى ما له من الفضل في وجود ذلك الكتاب حتى لقد سمِّي باسمه فقيل: كتاب رُوجار والكتاب الرّوجاري.

وهذا السياق الذي ذكرناه في طريقة وضع الخريطة وتأليف النزهة والأبحاث التي سبقت ذلك، هو ما يفيده كلام الإدريسي نفسه في مقدمة كتابه. وخالفه الصلاح الصفدي في مسألة وضع الخريطة ونقشها على الصفيحة الفضية فجعلها أولاً قبل أن يعزم عليه رُوجار في الإقامة عنده، وقبل أن يخاطبه في مسألة تأليف الكتاب ويباشر الأبحاث المذكورة. ولا يخفى ما فيه.

ثم إن هناك غلطاً آخر عند الصفدي في عدد الدراهم التي دخلت في صنع الصفيحة الفضية، فإنه ذكر أن رُوجار حمل له من الفضة الحجرَ وزنَ أربعمائة ألف درهم، فاستعمل منها الثلث وأرجح عليه بقليل وفضل له ما يقارب الثلثين فتركه له إجازةً. وما صرح به الإدريسي وضبطه بالوزن والعد يخالف ذلك، فإنه جعل وزن الصفيحة ٤٠٠ رطل بالرومي في كل رطل منها ١١٢ درهماً، وذلك لا يعطي إلا ٤٤٨٠٠ درهم، وهذا العدد لا يكون ثلث الأربعمائة ألف المذكورة.

وقد قدّر الأستاذ تشيا باريلي أحد المستشرقين الطليان الذين كتبوا عن الإدريسي وزن هذه الصفيحة بمبلغ ١٥٠ كيلوغراماً. وقدّر الأستاذ ميلر مساحتها بثلاثة أمتار ونصف طولاً ومتر ونصف عرضاً وثلاثة مليمترات سمكاً.

ومع كونها بهذه المتانة فإنها لم تُعمّر إلا قليلاً جداً؛ سبع سنوات فقط، حيث سطا عليها الثوار في سنة ٥٥٥ واقتسموها أطرافاً فذهبت إلى حيث لم ينتفع بنقوشها أحد؛ على حين بقيت أصولها من الأوراق العادية محتفظة بكنوزها القيّمة حتى وصلت إلينا سالمة.

هذا ويزيد الصفدي على ما تقدم من تنازل الملك رُوجار للشريف الإدريسي عن ذلك المبلغ الضخم الفاضل من الفضة المذكورة أنه أضاف لذلك مائة درهم أخرى ومَرْكباً كان قد جاء إليه من برشلونة مشحوناً بأنواع الأجلاب الرومية فأعطاه كل ذلك جائزة له على خدمته العلمية العظيمة.

ويحق لرُوجار أن يجيز الإدريسي هذه الإجازة السخية، فإنه حقق له حلماً من أعظم أحلامه وخلّد اسمه معه في سجل التاريخ العلمي بما وضع من هذه الخريطة وما كتب من هذا التأليف اللذين يُعدّان فتحاً من الفتوح العلمية في عالم الجغرافية، ذهبت فتوح رُوجار الحربية في أوروبا وإفريقيا وبقي ذكر هذا الفتح مقروناً بالإعجاب إلى يوم الناس هذا، مع الاستفادة منه في تقرير أصول علم الجغرافية طيلة القرون المتتابعة حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن من تقدم وازدهار.

ولشرح عمل الإدريسي من الناحية الفنية ولو باختصار نلم ببعض ما كتبه في هذا الصدد العلاّمة ميلر الألماني الذي جمع أطراف الخريطة الإدريسية، ودرس كتاب «نزهة المشتاق» دراسة علمية وافية حتى أخرج هذه الخريطة ـ لأول مرة ـ في طبعة ملونة غاية في الإتقان سنة ١٩٣١.

ومما قاله في بيان رأي الإدريسي الذي بنى عليه عمله أنه كان يرى مثل زملائه من علماء الجغرافية العرب أن الأرض مكورة على شكل بيضة وأنها منقسمة بواسطة خط الاستواء إلى قسمين متساويين: شمالي وجنوبي، المعمور منها الشمالي فقط. أما الجنوبي فهو خلاء غير معمور لشدة الحرارة ولعدم وجود الماء فيه.

وهنا تنبغي الإشارة إلى أن الفيلسوف ابن رشد عارض الإدريسي في هذه النظرية فرأى أن النصف الجنوبي من الكرة موافق للنصف الشمالي في الجو والطبيعة وأنه مأهول بالسكان كما أشار إلى ذلك ابن خلدون في أول مقدمته[1].

وعلى كلٍّ، فالخريطة الإدريسية إنما تمثل القسم

---

(١) نحن نعتمد في هذا العرض على بحث الأستاذ عبدالله ماضي الذي لخصه عن ميلر ونشره بأعداد الرسالة المصرية ٦٤ و٦٥ و٦٦. ولكن لا بد من ملاحظة أن غير ابن رشد من الجغرافيين العرب عارضوا أيضاً رأي الإدريسي في هذه المسألة. ولينظر ما كتبه ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار بسطاً لرأي الإدريسي ورداً عليه لا في خصوص عدم صلاحية النصف الجنوبي للسكنى فقط، بل فيما بعد درجة ٦٤ شمالاً أيضاً وهي التي انتهى إليها الإدريسي بعمارة الأرض في هذا القسم.

المعمور من الكرة الأرضية وهو النصف الشمالي منها ويشمل العالم القديم أو مجموع القارات الثلاث التي هي آسيا وأفريقيا وأوروبا، وإن كان هذا الاسم أعني قارة لم يكن معروفاً في ذلك الوقت، لأن تقسيم العالم كان مبنياً على نظرية الأقاليم، وهي سبعة كما عند الإدريسي وغيره، ولكن الإدريسي حددها وقسمها بحسب درجات العَرض فجعل الإقليم الأول فيما بين صفر ودرجة ٢٣ شمال خط الاستواء والأقاليم الخمسة بعده كل واحد منها ست درجات والإقليم السابع من ٥٤ ـ ٦٣ وما بعد هذه الدرجة الأخيرة مِنطقة غير مسكونة لكونها كثيرة البرودة ومغمورة بالثلوج.

ولقد أضاف الإدريسي إلى القسم الشمالي من الكرة الأرضية جزءاً صغيراً من القسم الجنوبي حتى درجة ١٦ عرضاً جنوب خط الاستواء. وهذا الجزء هو الذي تقع فيه منابع النيل. وقد بيّنها ببراعة علمية تُغبّر في وجوه الذين ادعوا استكشافها بعد ذلك.

أما الذي يُذكر للإدريسي بالإعجاب والفخر فهو أنه حاول بتقسيمه الأرض إلى الأقاليم السبعة إثبات درجات العَرْض وتحديدها، وأنه أفلح في هذه المحاولة إلى حد بعيد يجعل علماء الفن في العصر الحديث يطأطئون الرأس له إعجاباً وتقديراً.

وقد ابتدأ كما أشرنا إليه بإثبات درجات العرض من درجة ٢٨ إلى درجة ٦٣ على التتابع والدرجات التي أثبتها توافق الدرجات الحقيقية تمام الموافقة في جميع البحار وفي معظم اليابسة حيث توفرت لديه الأسباب وأمكنه إجراء

المقاييس الصحيحة. وفي بعض جهات قليلة من اليابسة حيث لم تتم له الأسباب تختلف الدرجات التي أثبتها عن الدرجات الحقيقية اختلافاً قليلاً، فمثلاً وضع مدينة «كلمار» ببلاد السويد عند درجة ١/٣ ٥٦ وهي تقع عند درجة ١/٢ ٥٦، وجعل الدانيمارك ابتداء من ١/٢ ٥٤ إلى ٥٨ والصحيح أنها من درجة ٥٤ إلى ١/٢ ٥٧، وجعل إنكلترا من ٥٢ ـ ٥٨ بدلاً من ٥٠ ـ ١/٢ ٥٨، وهذا بالطبع فرق ضئيل في جهات قليلة دعاه إليه عدم توفر الأسباب والإمكانيات الموجودة اليوم.

ولعله لهذا السبب لم يثبت درجات العرض إلى درجة ٢٨ شمالاً وإنما اكتفى بوضع أرقام بجانب أسماء البلاد التي تقع في هذه المنطقة[1]. كذلك لم يثبت خطوط الطول وإنما قسم كلاً من الأقاليم السبعة إلى عشرة أقسام متساوية من جهة الغرب إلى جهة الشرق. وهذا التقسيم وإن لم يدل على درجات الطول، فإنه يسهل القيام بالمهمة ويعين على رسم الخريطة.

---

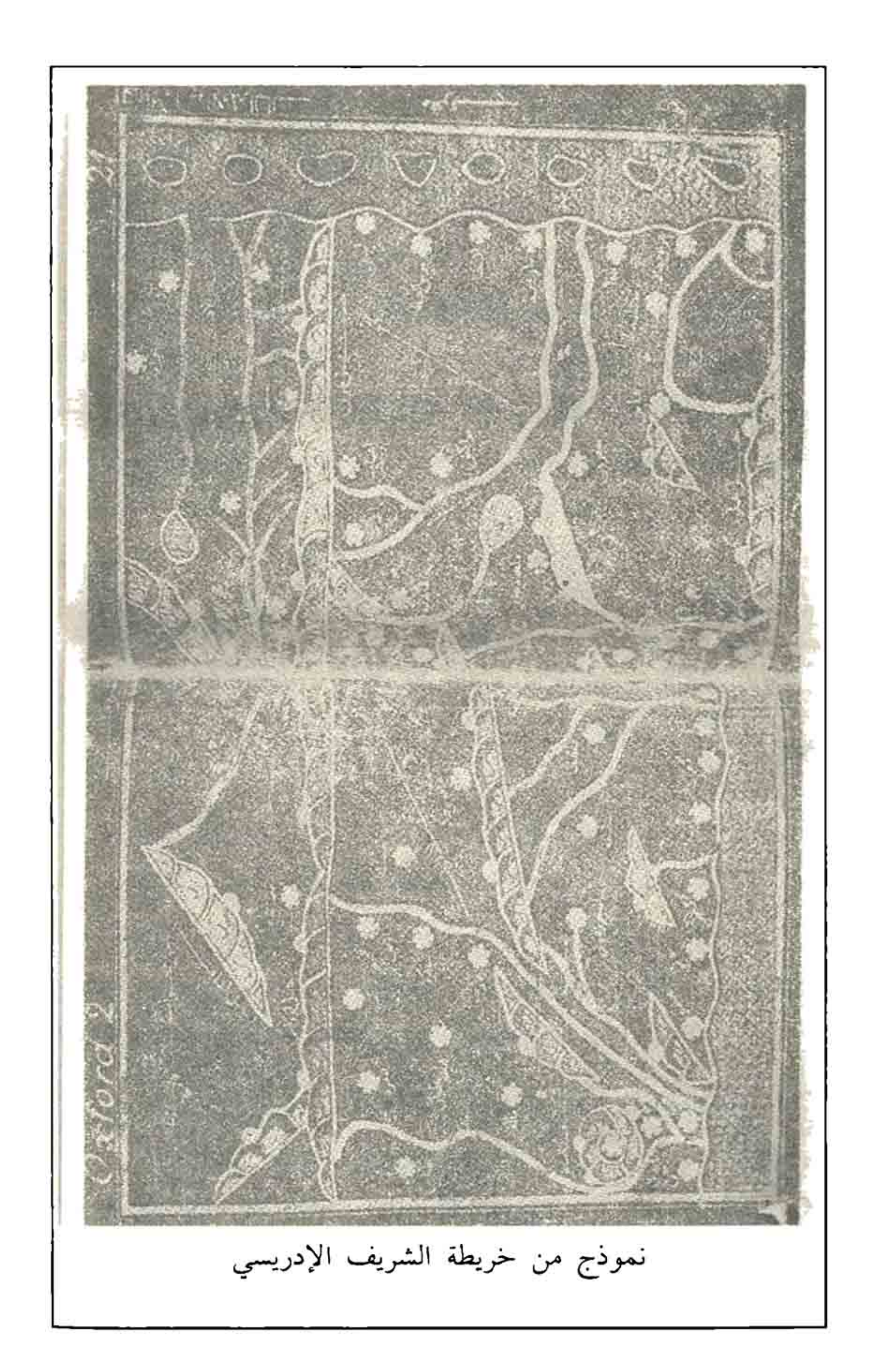
(١) يرى المستشرق الفلندي طالكرن طوليو Tallgren-tuulio أن الإدريسي أثناء مرض روجار لم يعد يشتغل بنفس الاهتمام الذي كان له من قبل، وربما وقع فتور من المتعاونين معه في العمل، فكان وكده إنجاز الكتاب في حياة روجار ولا بد أن تكون هذه رغبة روجار أيضاً فلذلك لم يحرر بعض أقسام الكتاب.

وهذا المستشرق قد نشر بمعونة أحد زملائه المدرسين في جامعة هلسنكي سنة ١٩٣٠ القسم المتعلق بوطنه فلندا والبلاد الأخرى الواقعة شرقي بحر البلطيق من كتاب «نزهة المشتاق» مع ترجمة فرنسية محققة للغاية. وقد استفدنا مما كتبه عن الإدريسي.

وقد وضع لكل قسم من هذه الأقسام السبعين خريطة خاصة زيادة على الخريطة الجامعة، ولحسن الحظ فإن هذه الخرائط السبعين بقيت محفوظة في مختلف النسخ الموجودة من كتاب نزهة المشتاق، ومنها استخرج ميلر خريطة الإدريسي الجامعة التي قلنا إنه اعتنى بجمعها وتحقيقها ثم طبعها لأول مرة طبعة ملونة غاية في الإتقان. ولكن بما أنه نشرها بالحروف اللاتينية فقد انتدب لها المجمع العلمي العراقي وأعادها إلى أصلها العربي بعناية اثنين من أعضائه الباحثين هما الأستاذ محمد بهجة الأثري والدكتور جواد علي بعد أن رجعا في تحقيقها وتصحيحها إلى خمس نسخ مصورة من كتاب «نزهة المشتاق» وطائفة من كتب العرب الجغرافية واستدركا على ميلر ما استدركاه وبيّنا اختلاف النسخ ثم نشرها المجمع المذكور في حلة قشيبة ملونة بحجم المترين طولاً والمتر الواحد عرضاً وذلك سنة ١٩٥١.

ثم مما يجدر التنبيه عليه أن قراءة خريطة الإدريسي هي بخلاف قراءة الخرائط المعهودة لدينا لأنه يجعل الجنوب في أعلى الصحيفة والشمال في أسفلها فيكون الغرب يميناً والشرق يساراً، وعلى ما يفهم من ابن فضل الله العمري فإن هذا هو اصطلاح الأقدمين على العموم.

وإلى القارئ نموذجاً من خريطة الإدريسي يمثل بلاد المغرب وهو منقول عن مخطوط أكسفورد رقم ٢ وفي أكسفورد مخطوطان من كتاب الإدريسي:



نموذج من خريطة الشريف الإدريسي

وبعد هذا التحليل المبيّن لقيمة الخريطة الإدريسية لا نرى حاجة إلى التنبيه على أهمية الكتاب الذي وضع على أساس تفسيرها وشرحها وما يحتويه من علماء الاستشراق في صدد التنويه به والاعتراف بما كان له من أثر في توجيه الدراسات الجغرافية منذ أواسط القرون.

فمن قول سيبولد في دائرة معارف الإسلام: «إن كتاب الإدريسي يُعدّ أعظم مصنفات العصور الوسطى في الجغرافية».

ومن قول كارادوفو في كتابه مفكرو الإسلام: «إن الإدريسي استعمل ملاحظاته الشخصية زيادة على الانتفاع بملاحظات معاصرين وأعمال المؤلفين قبله من مثل المسعودي وابن حوقل والمقدسي، ولا شك أن ما كتبه عن البلاد الغربية كان أحسن ما كُتِب عنها لأنه أعطاها بحثاً من الطبقة الأولى، وباستثناء البكري فإن محاولة الاستفادة مما كتبه عنها الجغرافيون الآخرون تعد عبثاً».

وقال البارون دي سلان في عدد أبريل ١٨٤١ من المجلة الآسيوية الفرنسية: «إن كتاب الإدريسي لا يمكن أن يوازن به أي كتاب جغرافي سابق له، وإن ثمّة بعضَ أجزاء من المعمورة لا يزال هذا الكتاب دليل المؤرخ الجغرافي في الأمور المتعلقة بها».

ويقول لوريش في دائرة المعارف الفرنسية: «إن كتاب الإدريسي هو كتاب جغرافي تركه لنا العرب. وإن ما يحتويه من تحديد المسافات والوصف الدقيق يجعله أعظم وثيقة علمية جغرافية في القرون الوسطى».

والثناء على جغرافية الإدريسي كثير، كالاعتناء بنشرها وترجمتها إلى اللغات الأجنبية. فلنكتفِ بهذا القدر متابعين الكلام في بقية تآليفه وترجمة حياته.

بعد وفاة رُوجار عاش الإدريسي بِمَعِيّة ولده غليوم مدةً ألّف له فيها كتاباً جغرافياً آخر أكثر بسطاً من «نزهة المشتاق» سماه «روض الأنس ونزهة النفس» ويعرف أيضاً بكتاب «الممالك» لكنه ضاع ولم يصلنا منه إلا نقول عند أبي الفدا في تاريخه.

كما وجد منذ نحو ٢٤ سنة في إستانبول كتاب ثالث للإدريسي اسمه «روض الفرج ونزهة المهج» وهو على ما يظهر مختصر لكتاب «النزهة» وإن كان يوجد به في كثير من المواضع أوصاف وأسماء تختلف عما بالأصل.

وذكر ابن أبي أصيبعة أن للإدريسي كتاباً في الأدوية المفردة وذلك ـ مع تحليته بأنه كان فاضلاً عالماً بقوى الأدوية المفردة ومنافعها ومنابتها وأعيانها ـ هو كل ترجمته عنده بعد ذكر اسمه ونسبه.

وأما الصلاح الصفدي فذكر أنه كان أديباً ظريفاً شاعراً زيادة على ما وصفه به من المعرفة بعلم الجغرافيا والتأليف فيه. وثبت وصفه بالأدب والشعر أيضاً في «الخريدة» للعماد الأصفهاني نقلاً عن كتاب «المختار» لابن بِشْرون الصقلي. ومع أن ابن بشرون هذا غلط في اسمه فإنه ذكر أنه لقيه في مدينة صقلية وروى عنه معظم ما أثبته في كتابه من «أدب الأندلسيين» وأشار إلى كتابيه «نزهة المشتاق» و«روض

الأنس». ثم وصفه بتوليد المعاني وتجويدها، وتوكيد المباني في السحر وتشييدها، لا سيما في توشية التوشيح، وتوشيح نظمه المليح، فإنه حاذق زمانه، وسابق ميدانه إلى آخر ما قاله فيه من أسجاع على ما جرت به العادة عند الأدباء.

ومن رواية الشعر الذي ساقه له الصفدي في الوافي بالوفيات نعرف صحة انطباق هذا الوصف عليه، وأنه لم يُقصّر في الأدب عن غاية، كما كان في العلم الذي اشتهر به سابق الحلبة. وإليك من شعره هذين البيتين وهما ينبئان عن حاله:

دَعْني أجُلْ ما بدت لي ... سفينة أو مطيّة
لا بد يقطع سيري ... أمْنِية أو مَنِية

ومنه قوله وهو يدل على حالة من اليأس وعدم الرضا:

ليت شعري أين قَبْري ... ع في الغُرْبَة عُمري
لم أدَعْ للعين ما تشـ ... ـتاق في بَر وبحر
وخبرتُ الناس والأر ... ض لدي خير وشر
لم أجد جاراً ولا دا ... راً كما في طَيّ صدري
فكأني لم أسِرْ إلا ... بمَنيت أو بقَفر

ومنه وقد تقدمت الإشارة إلى مغزاه في أول هذه الترجمة:

إن عيبا على المشارق أن أر ... جِعَ عنها إلى ذيول المغارب
وعجيب يضيعُ فيها غريب ... بعدما جاء فكرُه بالغرائب

ويُقاسي الظمَا خلالَ أناس   قسَموا بينهم هدايا السحائب

ومنه في المدح:

ومن قبل أن أمشي على قدم المنى
سعى قلمي في المدح سعياً على الراس

وفيه أيضاً:

وليل كصدر أخى غُمّة
قطعناه حتّى بلغنا النجاح
وبدر السماء بدا في النجوم
كما لاح في الناس بدر السماح

وبعد فما هي «ذيول المغارب» هذه التي «يضيع فيها الغريب الذي جاء فكره بالغرائب»؟

أتكون هي صقلية ويكون كل ما أسداه رُوجار إلى الإدريسي لم يُنسِه بلده ولم يَحُلّ منه محلّ الرضا؟

وإن لم يكن يعني رُوجار بهذا الكلام فهل يكون المعني ولده غليوم؟

أما قوله في الشعر الآخر: «لم أجد جاراً ولا داراً كما في طي صدري» فإنّا لا نشك أنه يعني به كلا الاثنين، فإن إقامته بجوار ملك نصراني في وقت كان القتال فيه بين المسلمين والنصارى قائماً على ساق؛ لا تكون إقامة هَنِيّة. وأما الدار التي في طي صدره فلا شك أنها بلده وموطنُه، وبعيد جداً أن تحل صقلية على ما هي عليه من خضوع

لحكم النصارى وسيطرة الأغيار محل بلاده المغرب وسبتة بالخصوص من نفسه.

ولهذا، فإنّا نُرجّح أنه ما لبث بعد أن اضطربت الأحوال بصقلية حتى عاد إلى بلده سبتة حيث أمضى بقية عمره وقضى نحبه عام ٥٦٠ وقد مال إلى هذا الرأي أيضاً البارون كارادوفو في كتابه مفكرو الإسلام.

هذا ملخص ترجمة هذا العالِم الكبير وعرضٌ موجز لحياته الحافلة بالأعمال العظيمة. ونرى من تتمة التعريف به أن نقف القارئ على معالمَ من كتابه القيم «نزهة المشتاق» فيرىِ كيف كان هذا الرجل العظيم يفكر وكيف كان يسجل أفكاره بقوة واقتدار.

فهذه نقول منه في وصف بلاد المغرب وما كانت عليه من الحضارة والعمران وكثرة الصنائع ووفرة الإنتاج:

يقول في وصف مدينة أغمات: «مدينة يكنفها جبلُ دَرَن، فإذا كان زمن الشتاء تحللت الثلوج النازلة بالجبل فيسيل ذوبانُها إلى المدينة وربما جمد به النهر في وسطها حتى يجتاز الأطفال عليه وهو جار فلا يتكسر لشدة جموده وهذا شيء عايناه بها غير ما مرة.

ومدينة أغمات أهلها هَوّارة من القبائل المتبربرين بالمجاورة، وهم أمْلِياء تجار ميَاسِير يدخلون إلى بلاد السودان بأعداد الجِمال الحاملة لقناطير الأموال من النحاس الأحمر والملون والأكسية وثياب الصوف والعمائم والمآزر وصنوف النظْم من الزجاج والأصداف والأحجار وضروب

من الأفاوية والعطر وآلات الحديد المصنوع. وما منهم رجل يُسْفِر عبيدَه ورجالَه إلا وله في قوافلهم المائة جمل والسبعون والثمانون جملاً كلها مُوقَرة. ولم يكن في دولة المُلثّم أحد أكثر منهم أموالاً ولا أوسع منهم أحوالاً.
وبأبواب منازلهم علامات تدل على مقادير أموالهم. وذلك أن الرجل منهم إذا ملك أربعة آلاف دينار يمسكها مع نفسه وأربعة آلاف يصرفها في تجارته أقام على يمين بابه وعن يساره عَرْصتَين من الأرض إلى أعلى السقف. وبنيانهم بالآجر والطوب والطين أكثر، فإذا مرّ الخاطر بدار ونظر إلى تلك العرص مع الأبواب قائمة، عدّها فيعلم مِن عدّها كم مبلغ مال صاحب الدار لأنه قد يكون من هذه العرَص خلْفَ الباب أربع وست مع كل عضادة اثنتان وثلاث.

وأما الآن في وقت تأليفنا لهذا الكتاب فقد أتى على أكثر أموالهم المصَامِدةُ وغيرت ما كان بأيديهم من نِعَم الله. ولكنهم مع هذا أملياء مياسير أغنياء لهم نخوة واعتزاز لا يتحولون عنه».

ويقول في وصف مدينة مراكش: «وشمال هذه المدينة (أغمات) وعلى ١٢ ميلاً منها مدينة بناها يوسف بن تاشفين في صدر سنة ٤٧٠ بعد أن اشترى أرضها من أهل أغمات بجملة أموال واختطها له ولبني عمه. وهي في وطَاء من الأرض ليس حولها شيء من الجبال إلا جبل صغير يسمى إيجلِيز. ومنه قُطع الحجر الذي بُني به قصر أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين وهو المعروف بدار الحجر وليس في موضع مدينة مراكش حجر البتة إلا ما كان من هذا

الجبل. وإنما بناؤها بالطين والطوب والطوابي المقامة من التراب. وماؤها الذي تسقى به البساتين مستخرج بصنعة هندسية حسنة، استخرج ذلك عبيدالله بن يونس المهندس، وسبب ذلك أن ماءهم ليس ببعيد الغور موجود إذا احتفر قريباً من وجه الأرض، وذلك أن هذا الرجل المذكور وهو عبيدالله بن يونس جاء إلى مراكش في صدر بنائها وليس بها إلا بستان واحد لأبي الفضل مولى أمير المسلمين المقدم ذكره، فقصد إلى أعلى الأرض مما يلي البستان فاحتفر له بئراً مربعة كبيرة التربيع ثم احتفر منها ساقية متصلة الحفر على وجه الأرض، ومرّة يحفر بتدريج من أرفع إلى أخفض متدرجاً إلى أسفله بميزان حتى وصل الماء إلى البستان وهو منسكب مع وجه الأرض يصب فيه، فهو جار مع الأيام لا يفتر وإذا نظر الناظر إلى مسطح الأرض لم يرَ بها كبير ارتفاع يوجب خروج الماء من قعرها إلى وجهها وإنما يميز ذلك عالم بالسبب الذي استُخرج به ذلك الماء. والسبب هو الوزن للأرض فاستحسن ذلك أمير المسلمين من فعل عبيدالله بن يونس المهندس وأعطاه مالاً وأثواباً وأكرم مثواه مدة بقائه عنده.

ثم إن الناس نظروا إلى ذلك ولم يزالوا يحفرون الأرض ويستخرجون مياهها إلى البساتين حتى كثرت البساتين والجنات واتصلت بذلك عمارات مراكش وحسن قُطْرها ومنظرها.

ومدينة مراكش في هذا الوقت من أكبر مدن المغرب الأقصى لأنها كانت دار إمارة لمتونة ومدار ملكهم وسِلْك

جميعهم وكان بها أعداد قصور لكثير من الأمراء والقواد وخدام الدولة، وأزقتها واسعة ورحابها فسيحة ومبانيها سامية وأسواقها مختلفة وسلعها نافقة. وكان بها جامع بناه أميرها يوسف بن تاشفين فلما كان في هذا الوقت وتغلب عليها المَصامِدةُ تركوا ذلك الجامع معطلاً مغلق الأبواب ولا يرون الصلاة فيه، وبنوا لأنفسهم مسجداً جامعاً يصلون فيه بعد أن نهبوا الأموال وسفكوا الدماء وأباحوا الحُرَم؛ كل ذلك بمذهب لهم يرون ذلك فيه حلالاً».

ويقول في وصف مدينة سلا: «ومدينة سلا الحديثة على ضفّة البحر وكانت في القديم من الزمن مدينة شالة على ميلين من البحر وموضعها على ضفة نهر أسمير الذي يتصل الآن بمدينة سلا الحديثة. وهناك قصبة في البحر، وأما شالة القديمة فهي الآن خراب وبها بقايا بنيان قائم.

وسلا الحديثة على ضفة البحر منيعة من البحر لا يقدر أحد من أهل المراكب على الوصول إليها من جهته. وهي مدينة حسنة حصينة في أرض رمل ولها أسواق نافقة وتجارات ودخل وخرج وتصرف لأهلها وسعةُ أموال ونمو أحوال والطعام بها كثير ورخيص جداً، وبها كروم وغلات وبساتين وحدائق ومزارع. ومراكب أهل إشبيلية وسائر المدن الساحلية من الأندلس يقلعون عنها ويحطون بها بضروب من البضائع. وأهل إشبيلية يقصدونها بالزيت الكثير وهو بضاعتهم ويتجهزون منها بالطعام إلى سائر بلاد الأندلس الساحلية، ترسي المراكب بها في الوادي الذي قدّمنا ذكره وتجوز المراكب على فمه بدليل، لأن في فم الوادي أحجاراً

وتروشاً تنكسر عليها المراكب، وفيه أعطاف لا يدخلها إلا من يعرفها.

وهذا الوادي يدخله المد والجزر في كل يوم مرتين. وإذا كان المد دخلت المراكب به إلى داخل الوادي وكذا تخرج في وقت خروجها. وفي هذا الوادي أنواع من السمك وضروب من الحيتان، والحوت بها لا يكاد يباع ولا يشترى لكثرته وجودته وكل شيء من المأكولات في مدينة سلا موجود بأيسر القيمة وأهون الثمن».

وقال في ذكر فضَالَة وما لها من الأهمية الاقتصادية التي تزيد على ما لها الآن: «ومرسى فضالة ترده المراكب من بلاد الأندلس وحائط البحر الجنوبي فتحمل منه أوساقها طعاماً؛ حنطة وشعيراً وفولاً وحمصاً. وتحمل منه أيضاً الغنم والمعز والبقر. ومن فضالة إلى مرسى آنفا ٤٠ ميلاً وهي مرسى مقصود تأتي إليه المراكب وتحمل منه الحنطة والشعير...».

وقال يذكر مدينة داي وزراعة القطن في المغرب: «ومدينة داي في أسفل جبل خارج من جبل درن وهي مدينة بها معدن النحاس الخالص الذي لا يعدله غيره من النحاس بمشارق الأرض ومغاربها وهو نحاس حلو لونه إلى البياض يتحمل التزويج ويدخل في لحام الفضة وهو إذا طُرّق جاد ولم يتشرح كما يتشرح غيره من أنواع النحاس وهذا المعدن ينسبه العوام إلى السوس، وليست مدينة داي من بلاد السوس لأن بينهما مسافات أيام كثيرة ومن هذا المعدن

يحمل إلى سائر البلاد ويتصرف به في كثير من الأعمال.

ومدينة داي صغيرة لكنها كثيرة العامر والقوافل عليها واردة وصادرة ويزرع بها وبأرضها كثيراً القطن ولكنه بمدينة تادلة يزرع أكثر مما يزرع بمدينة داي، ومن مدينة تادلة يخرج القطن كثيراً ويسافر به إلى الجهات ومنه كل ما يعمل من الثياب القطنية ببلاد المغرب الأقصى ولا يحتاجون مع قطنها إلى غيره من أنواع القطن المجلوب من سائر الأقطار».

وقال في ذكر مدينة فاس: «ومدينة فاس مدينتان بينهما نهر كبير يأتي من عيون تسمى عيون صنهاجة وعليه في داخل المدينة أرحاء كثيرة تطحن بها الحنطة بلا ثمن له خطر. والمدينة الشمالية منها تسمى القرويين وتسمى الجنوبية الأندلس. والأندلس ماؤها قليل لكن يشقها نهر واحد يمر بأعلاها وينتفع منه ببعضها، وأما مدينة القرويين فمياهها كثيرة تجري منها في كل شارع وفي كل زقاق ساقية متى شاء أهل الموضع فجروها فغسلوا مكانهم منها ليلاً فتصبح أزقتهم ورحابهم مغسولة، وفي كل دار منها صغيرة كانت أو كبيرة ساقية ماءً نقياً كان أو غير نقي، وفي كل مدينة منها جامع ومنبر وإمام. وبين المدينتين أبدا فتن ومقاتلات. وبالجملة إن أهل مدينتي فاس يقتل فتيانهما بعضهم بعضاً[(١)].

وبمدينة فاس ضياع ومعايش ومبان سامية ودور

---

(١) هذه حال عرضت في بعض الأحيان ولم تدم طويلاً.

وقصور، ولأهلها اهتمام بحوائجهم ومبانيهم وجميع آلاتهم. ونعمها كثيرة والحنطة بها رخيصة الأسعار جداً دون غيرها من البلاد القريبة منها وفواكهها كثيرة وخصبها زائد. وبها في كل مكان منها عيون نابعة ومياه جارية، وعليها قباب مبنية ودواميس محنية ونقوش وضروب من الزينة، وبخارجها الماء مطرد نابع من عيون غزيرة وجهاتها مخضرة مونقة وبساتينها عامرة وحدائقها ملتفة وفي أهلها عزة ومنعة».

وإلى القارئ بعد هذا نُقولاً أخرى منه تتعلق بمسائل مختلفة فمن ذلك قوله عند ذكر الحبشة ومنابع النيل: «وهي مدينة متحضرة لكنها في برّية بعيدة من العمارة وتتصل عمارتها وبواديها إلى النهر الذي يمد النيل، وهو يشق بلاد الحبشة ولها عليه مدينة مركطة ومدينة النجاغة. وهذا النهر منبعه من فوق خط الاستواء وفي آخر نهاية المعمور[1] من جهة الجنوب، فيمر مُغرّباً مع الشمال حتى يصل إلى أرض النّوبة فيصب هنالك في ذراع النيل الذي يحيط بمدينة بلاق كما قدمنا وصفه وهو نهر كبير عريض كثير الماء بطيء الجري وعليه عمارات للحبشة.

وقد وهم أكثر المسافرين في هذا النهر حين قالوا: إنه النيل، وذلك لأنهم يرون به ما يرون من النيل في خروجه ومدة فيضه في الوقت الذي جرت به عادة خروج النيل، وينقص فيض هذا النهر عند نقصان فيض النيل. ولهذا السبب وهم فيه أكثر الناس وليس كذلك حتى أنهم ما فرقوا

---

(١) لا تنسَ رأي الإدريسي في حد عمارة الأرض.

بينه وبين النيل لما رأوا فيه من الصفات النيلية التي قدّمنا ذكرها.

وتصحيح ما قلناه من أنه ليس بالنيل ما جاءت به الكتب المؤلفة في هذا الفن. وقد حكوا عن صفات هذا النهر ومنبعه وجزيِه ومصبّه في ذراع النيل عند مدينة بلاق. وقد ذكر ذلك بطليموس الأقلوذي في كتابه المسمى بـ«الجغرافيا» وذكره حسان بن المنذر في كتاب «العجائب» عند ذكر الأنهار ومنافعها ومواقعها. وهذا مما لا يَهِمُ فيه نبيل ولا يقع في جهله عالم ناظر في الكتب باحث عن غرضه».

وذكر مدينة القيروان فقال: «ومدينة القيروان أم أمصار وقاعدة أقطار وكانت أعظم مدن الغرب قُطراً وأكثرها بَشَراً وأيسرها أموالاً وأوسعها أحوالاً وأتقنها بناءً وأنفسها هِمماً وأربحها تجارة وأكثرها جباية... فسلط الله سبحانه عليها العرب وتوالت الجوائح عليها حتى لم يبقَ منها إلا أطلال دارسة وآثار طامسة».

وكذلك لما ذكر طرابلس قال: «إلا أن العرب أضرّت بها وبما حولها من ذلك وأجلت أهلها وأخلت بواديها وغيّرت أحوالها وأبادت أشجارها وغوّرت مياهها».

وقال أيضاً عند ذكر قلعة حماد والحصون التي حولها: «وإلى هاهُنا تصل غاراتُ العرب وضررها... وهذه الأرض كلها تجولها العرب وتضر بأهلها... وجميع هذه الحصون أهلها مع العرب في مهادنة وربما أضرّ بعضهم

ببعض غير أن أيدي الأجناد فيها مقبوضة وأيدي العرب مطلقة في الإضرار، وموجب ذلك أن العرب لهاديَة مقتولة وليس عليها دية فيمن تقتل».

وقد ذكر إفساد العرب وعيثها في غير ما موضع وإنما نبهنا إلى هذا لأنا نظن أن للإدريسي تأثيراً على ابن خلدون في الرأي السيىء الذي لهذا الأخير عن العرب في المقدمة.

وقال في وصف بحيرة بنزرت الغريبة ويشتمل على أسماء لأنواع من الأسماك «ومدينة بنزرت صغيرة عامرة بأهلها وبها مرافق وأسواق قائمة بذاتها وبالجهة الشرقية منها بحيرتها المعروفة والمنسوبة إليها وطولها ١٦ ميلاً وعرضها ٨ أميال وفمها متصل بالبحر وكلما أخذت في البريّة اتسعت وكلما قربت من البحر ضاقت وانخرطت.

وهذه البحيرة من أعاجيب الدنيا. وذلك أن بها اثني عشر نوعاً من السمك يوجد منها في كل شهر نوع لا يمتزج بغيره من أصناف السمك، فإذا تمّ الشهر لم يوجد شيء من ذلك النوع في الشهر الآتي ثم يوجد في الشهر الآتي صنف من السمك آخر غير الصنف الأول لا يمتزج بغيره، هكذا لكل شهر نوع من السمك لا يمتزج بسمك غيره إلى كمال السنة، هكذا في كل عام. وهذه الاثنا عشر نوعاً من الحوت التي ذكرناها هي البُورِي والقاجُوج والمحل والطلنط والإشبلينيات والشلبة والقاروص والعاج والجوجة والكحلاء والطنفلو والقلا. ويتصل بهذه البحيرة من جهة الجنوب مع انحراف إلى الغرب بحيرة ثانية تسمى تينجة

وطولها ٤ أميال في عرض مثلها وبينهما فم تتصل منه مياه إحداهما بالأخرى. وفي هاتين البحيرتين أمر عجيب وذلك أن ماء بحيرة تينجة عذب وماء بحيرة بنزرت ملح وكل واحدة من هاتين البحيرتين تصب في أختها ستة أشهر ثم ينعكس جريهما فتمسك الجارية عن الجري وتصب البحيرة الثانية إلى هذه الأولى ستة أشهر أخرى، فلا بحيرة تينجة يتملح ماؤها ولا يعذب ماء بحيرة بنزرت، وهذا أيضاً عجب من عجائب هذا الصقع».

وقال في مدينة الأشبونة وذكر قصة المغرّرِين الذين خرجوا منها لمعرفة ما وراء بحر الظلمات «ولشبونة على نحر البحر الأعظم وعلى ضفة النهر من جنوبه قبالة مدينة لشبونة حصن المعدن وسمي بذلك لأنه عند هيجان البحر يقذف هناك بالذهب والتبر، فإذا كان زمن الشتاء قصد إلى هذا الحصن أهل تلك البلاد فيخدمون المعدن الذي به إلى انقضاء الشتاء وهو من عجائب الأرض، وقد رأيناه عياناً. ومن مدينة لشبونة كان خروج المغررين في ركوب بحر الظلمات ليعرفوا ما فيه وإلى أين انتهاؤه كما تقدم ذكرهم. ولهم بمدينة لشبونة بموضع قرب الحمّة درب منسوب إليهم يعرف بدرب المغررين إلى آخر الأبد.

وذلك أنهم اجتمعوا ثمانيةَ رجال كلهم أبناء عم، فأنشأوا مركباً حمالاً وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر ثم دخلوا البحر في أول طاروس[1] الريح الشرقية فجروا بها نحواً

---

(١) جاء في كتاب العربية لجوهان فك ما يلي: «وتسمى الريح =

من أحد عشر يوماً فوصلوا إلى بحر غليظ الموْج كدِر الروائح كثير التُرُوش قليل الضوء فأيقنوا بالتلف فردوا قلاعهم في اليد الأخرى وجروا في البحر في ناحية الجنوب اثني عشر يوماً فخرجوا إلى جزيرة الغنم، وفيها من الغنم ما لا يأخذه عد ولا تحصيل وهي سارحة لا راعي لها ولا ناظر إليها فقصدوا الجزيرة فنزلوا بها فوجدوا عين ماء جارية وعليها شجرة تين بَرّي. فأخذوا من تلك الغنم فذبحوها فوجدوا لحومها مرة لا يقدر أحد على أكلها فأخذوا من جلودها وساروا مع الجنوب اثني عشر يوماً إلى أن لاحت لهم جزيرة فنظروا فيها إلى عمارة وحرث فقصدوا إليها ليروا ما فيها فما كان غير بعيد حتى أحيط بهم في زوارق هناك فأخذوا وحملوا في مركبهم إلى مدينة على ضفة البحر فأنزلوا بها في دار فرأوا رجالاً شُقْراً زُعْراً شعور رؤوسهم شعور سبطة وهم طوال القدود ولنسائهم جمال عجيب فاعتقلوا منها في بيت ثلاثة أيام ثم دخل عليهم في اليوم الرابع رجل يتكلم باللسان العربي فسألهم عن حالهم وفيما جاؤوا وأين بلدهم، فأخبروه بكل خبرهم فوعدهم خيراً وأعلمهم أنه ترجمان الملك.

= المساعدة في العراق: شرته وفي غيرها طاروس» وعلّق دوزي على هذا المكان من النزهة بقوله: يعني بهذه الكلمة في أول هبوب هذه الريح كما يعلم ذلك بمقابلة ذلك بقوله بدأ جري الريح الغربية، وكما قال في كلامه على آسيا الصغرى وبين أنطانية والقسطنطينية ٨ أيام في البر على دواب البريد وفي البحر على الطاروس، على أن الكلمة يفهم منها هبوب الريح لصالح المسافر، وهي على كل حال ليست بعربية ولا بربرية على ما يظهر. اهـ. نقول: إنها في العامية المغربية اليوم كلمة ترد للذم فيقال مثلاً: فلان كلب طاروس!

فلما كان في اليوم الثاني من ذلك اليوم أحضروا بين يدي الملك فسألهم عما سألهم الترجمان عنه فأخبروه بما أخبروا به الترجمان بالأمس من أنهم اقتحموا البحر ليروا ما به من الأخبار والعجائب ويقفوا على نهايته فلما علم الملك بذلك ضحك وقال للترجمان: خبر القوم أن أبي أمر قوماً من عبيده بركوب هذا البحر وأنهم جروا في عرضه شهراً إلى أن انقطع عنهم الضوء وانصرفوا من غير حاجة ولا فائدة تجدى.

ثم أمر الملك الترجمان أن يعدهم خيراً وأن يحسن ظنهم بالملك ففعل، ثم صرفوا إلى موضع حبسهم إلى أن بدأ جري الريح الغربية فعمر بهم زورق وعصبت أعينهم وجري بهم في البحر برهة من الدهر قال القوم: قدّرنا أنه جري بنا ثلاثة أيام بلياليها حتى جيء بنا إلى البر فأخرجنا وكتّفنا إلى خَلْف وتُركنا بالساحل إلى أن تصاحى النهار وطلعت الشمس ونحن في ضنك وسوء حال من شدة الأكتاف حتى سمعنا ضوضاء وأصوات أناس فصحنا بأجمعنا فأقبل القوم إلينا فوجدونا بتلك الحال السيئة فحلُّونا من وثاقنا وسألونا فأخبرناهم بخبرنا وكانوا برابر فقال لنا أحدهم: أتعلمون كم بينكم وبين بلدكم؟ فقلنا: لا، فقال: إن بينكم وبين بلدكم مسيرة شهرين، فقال زعيم القوم: واأسفي! فسمي المكان إلى اليوم «أسفي» وهو المرسى الذي في أقصى المغرب. وقد ذكرناه قبل هذا».

وهذه الحكاية مشهورة وكثيراً ما تورد في الاستدلال على محاولة العرب كشف أمريكا قديماً قبل كولمبوس ولكن سياقها هذا لا يخلو من مآخذ.

وأخيراً إليك وصف الإدريسي لقُرطبة ومسجدها الخالد وليكن هو الختام لهذه المنتخبات:

«ومدينة قرطبة قاعدة بلاد الأندلس وأم مدنها ودار الخلافة الإسلامية، وفضائل أهل قرطبة أكثر وأشهر من أن تذكر ومناقبهم أظهر من أن تستر وإليهم الانتهاء في السناء والبهاء بل هم أعلام البلاد وأعيان العباد، ذُكِروا بصحة المذهب وطيب المكسب وحسن الزي في الملابس والمراكب وعلو الهمة في المجالس والمراتب وجميل التخصص في المطاعم والمشارب مع جميل الخلائق وحميد الطرائق. ولم تخلُ قرطبة قط من أعلام العلماء وسادات الفضلاء وتجارها مياسير لهم أموال كثيرة وأحوال واسعة، ولهم مراكب سنية وهمم علية، وهي في ذاتها مدن يتلو بعضها بعضاً، بين المدينة والمدينة سور حاجز وفي كل مدينة ما يكفيها من الأسواق والفنادق والحمامات وسائر الصناعات وفي طولها من غربيها إلى شرقيها ثلاثة أميال وكذلك عرضها من باب القنطرة إلى باب اليهود بشمالها ميل واحد، وهي في سفح جبل مطل عليها يسمى جبل العروس. ومدينتها الوسطى هي التي فيها باب القنطرة. وفيها المسجد الجامع الذي ليس بمساجد المسلمين مثله بِنْيةً وتنميقاً وطُولاً وعرضاً.

وطول هذا الجامع مائة باع مُرسَلة وعرضه ثمانون باعاً ونصفه مسقف ونصفه صحن للهواء. وعدد قسي مُسقّفة تسعة عشر قوساً وفيه من السواري أعني سواري مسقّفِه بين أعمدته وسواري قبلته صغاراً وكباراً مع سواري القبة الكبرى

وما فيها ألفُ سارية وفيه مائة وثلاث عشرة ثُرَيَا للوقيد، أكبرها واحدة منها تحمل ألف مصباح، وأقلها تحمل اثني عشر مصباحاً.

وسقفه كله سمَاوات خشب مسمّرة في جوائز سقفه وجميع خشب هذا المسجد الجامع من عيدان الصنوبر الطرطوشي، ارتفاع حد الجائزة منه شبر وافر في غرض شبر إلا ثلاثة أصابع في طول كل جائزة منها ٣٧ شبراً وبين الجائزة والجائزة غِلظ جائزة، والسماوات التي ذكرناها هي كلها مسطحة فيها ضروب الصنائع المنشأة من الضروب المسدسة والموربي وهي صنع الفص وصنع الدوائر والمداهن لا يشبه بعضها بعضاً بل كل سماء منها مكتف بما فيه من صنائع قد أحكم ترتيبها وأبدع تلوينها بأنواع الحمرة الزنجفُرِية والبياض الأسفيذاجي والزرقة اللازَوردية والزرقون الباروقي والخضرة الزنجارية والتكحيل النّقْسي تروق العيون وتستميل النفوس بإتقان ترسيمها ومخلفات ألوانها وتقسيمها.

وسعة كل بلاط منها أعني من بلاطات مسقّفة ٣٣ شبراً وبين العمود والعمود ١٥ شبراً ولكل عمود منها رأس رخام، وقاعدة رخام، وقد عقد بين العمود والعمود على أعلى الرأس قِسي غريبة فوقها قسي أُخر على عمَد من الحجر المنجور متقنة. وقد جصص الكل منها بالجص والجيار وركبت عليها نحور مستديرة ناتئة بينها ضروب صناعات الفص بالمغرة وتحت كل سماء منها إزار خشب فيه مكتوب آيات القرآن.

ولهذا المسجد الجامع قبلة يُعجز الواصفين وصفُها

وفيها إتقان يبهر العقول تنميقُه وكل ذلك من الفسيفساء المذهب والملون مما بعث به صاحب القسطنطينية العظمى إلى عبدالرحمٰن المعروف بالناصر لدين الله الأموي، وعلى هذا الوجه أعني وجه المحراب سبع قسي قائمة على عمد وطول كل قوس منها أشف من قامة، وكل هذه القسي مزججة صنعة القوط قد أعيت الروم والمسلمين بغريب أعمالها ودقيق تكوينها ووضعها. وعلى أعلا الكل كتابان مسجونان بين بحرين من الفسيفساء المذهب في أرض الزجاج اللازوردي، وكذلك تحت هذه القسي التي ذكرناها كتابان مثل الأولين مسجونان بالفسيفساء المذهب في أرض اللازورد وعلى وجه المحراب أنواع كثيرة من التزيين والنقش.

وفي عِضادتي المحراب ٤ أعمدة ٢ أخضران و٢ زرزُوريّان لا تُقوّم بمال، وعلى رأس المحراب خصّةُ رُخام قطعة واحدة مشبوكة محفورة منمقة بأبدع التنميق من الذهب واللازورد وسائر الألوان وعلى وجه المحراب مما استدار به حظيرة خشب بها من أنواع النقش كل غريبة.

ومع يمين المحراب المنبر الذي ليس بمعمور الأرض مثله صنعة خشبه أبنوس وبَقْس وعود المجمر. ويحكى في كتب تواريخ بني أمية أنه صنع في نجارته ونقشه ٧ سنين، وكان عدد صنّاعه ٦ رجال غير من يخدمهم تصرفاً، ولكل صانع منهم في اليوم نصف مثقال محمدي.

وعن شمال المحراب بيت فيه عود وطوشت ذهب وفضة وحسك، وكلها لوقيد الشمع في كل ليلة ٢٧ من شهر رمضان. . .

ومع ذلك ففي هذا المخزن مصحف يرفعه رجلان لثقله فيه ٤ أوراق من مصحف عثمان بن عفان، وهو المصحف الذي خطه بيمينه رضي الله عنه وفيه نقط من دمه. وهذا المصحف يخرج في صبيحة كل يوم جمعة ويتولى إخراجه رجلان من قومة المسجد وأمامهم رجل ثالث بشمعة، وللمصحف غشاء بديع الصنعة منقوش بأغرب ما يكون من النقش وأدقه وأعجبه. وله بموضع المصلى كرسي يوضع عليه ويتولى الإمام قراءة نصف حزب منه ثم يرد إلى موضعه.

وعن يمين المحراب والمنبر باب يفضي إلى القصر بين حائطي الجامع في ساباط متصل، وفي هذا الساباط ٨ أبواب منها ٤ تنغلق من جهة القصر و٤ تنغلق من جهة الجامع.

ولهذا الجامع ٢٠ باباً مصفحة بصفائح النحاس وكواكب النحاس وفي كل باب منها حلقتان في نهاية من الإتقان. وعلى وجه كل باب منها في الحائط ضروب من الفص المتخذ من الآجر الأحمر المحكوك، أنواع شتى وأجناس مختلفة من الصناعات والتريش وصدور البُزاة وفيما استدار بالجامع في أعلا لتمدد الضوء ودخوله إلى المسقف مُتَكَآت رخام طول كل متكأ منها قدر قامة في سعة ٤ أشبار في غلظ ٤ أصابع وكلها صنعة مسدسة ومثمنة مخرمة منفوذة لا يشبه بعضها بعضاً.

وللجامع من الجهة الشمالية الصومعة الغريبة الصنعة الجليلة الأعمال الرائقة الأشكال التي ارتفاعها في الهواء مائة

ذراع بالذراع الرشاشي منها ٨٠ ذراعاً إلى الموضع الذي يقف عليه المؤذن بقدميه، ومن هناك إلى أعلاها ٢٠ ذراعاً ويصعد إلى أعلى هذه المنارة بدرجين؛ أحدهما: من الجانب الغربي، والثاني: من الجانب الشرقي، إذا افترق الصاعدان أسفل الصومعة لم يجتمعا إلا إذا وصلا الأعلى منها. ووجه هذه الصومعة كله مبطن بالكدان اللكي منقوش من وجه الأرض إلى أعلى الصومعة، صنعة مقسمة تحتوي على أنواع من الصنع والتزويق والكتابة والملون، وبالأوجه الأربعة الدائرة من الصومعة صفان من قسي دائرة على عمد الرخام الحسن والذي في الصومعة من العمد بين داخلها وخارجها ٣٠٠ عمود بين صغير وكبير.

وفي أعلى الصومعة بيت له ٤ أبواب مغلقة، يبيت فيه كل ليلة مؤذنان، وللصومعة ١٦ مؤذناً يؤذنون فيها بالدَّوْلة، لكل يوم مؤذنان على توال، وفي أعلى الصومعة على القبة التي على البيت ٣ تفاحات ذهب واثنتان من فضة وأوراق سوسنية تسع الكبيرة من هذه التفاحات ٦٠ رطلاً من الزيت.

ويخدم الجامع كله ٦٠ رجلاً وعليه قائم ينظر في أمورهم.

وهذا الجامع متى سها إمامه لا يسجد لسهوه قبل السلام بل يسجد بعد السلام(١).

---

(١) يعني خلافاً لما ذهب إليه مالك من أن السجود للنقص يكون قبل السلام وللزيادة بعده. وهذا الذي كان عليه العمل في مسجد قرطبة هو مذهب أبي حنيفة القائل بأن سجود السهو كله بعد السلام، وله =

ومدينة قرطبة في حين تأليفنا لهذا الكتاب طحنتها رحى الفتنة وغيرها حلول المصائب والأحداث مع اتصال الشدائد على أهلها فلم يبقَ بها منهم الآن إلا الخليق اليسير، ولا بلد أكبر اسماً منها في بلاد الأندلس.

ولقرطبة القنطرة التي علت القناطر فخراً في بنائها وإتقانها، وعدد قسيها ١٧ قوساً بين القوس والقوس ٥٠ شبراً وسعة القوس مثل ذلك ٥٠ شبراً. وسعة ظهرها المعبور عليه ٣٠ شبراً. ولها ستائر من كل جهة تستر القامة، وارتفاع القنطرة من موضع المشي إلى وجه الماء في أيام جفوف الماء وقلته ٣٠ ذراعاً وإذا كان السيل بلغ الماء منها إلى حلوقها.

وتحت القنطرة يعترض الوادي رصيف سد مصنوع من الأحجار القبطية والعمد الجاشية من الرخام، وعلى هذا السد ثلاثة بيوت أرحاء في كل بيت منها ٤ مطاحن.

ومحاسن هذه المدينة وشماختها أكثر من أن يحاط بها.

ومن مدينة قرطبة إلى مدينة الزهراء ٥ أميال وهي قائمة الذات بأسوارها ورسوم قصورها وفيها قوم سكان بأهليهم وذراريهم وهم قليلون. وهي في ذاتها مدينة عظيمة مدرجة البنية، مدينة فوق مدينة سطح الثلث الأعلى يوازي

= أدلة قوية، ونظن أن العمل لم يستمر في قرطبة على ذلك، وإلا لذكره فقهاؤنا في المسائل التي خولف فيها مذهب مالك بالأندلس وهي ست ليس هذا منها.

أعلى الثلث الأوسط، وسطح الثلث الأوسط يوازي أعلى الثلث الأسفل، وكل منها له سور. فكان الجزء الأعلى منها قصوراً يقصر الوصف عن صفاتها، والجزء الأوسط بساتين وروضات، والجزء الثالث فيه الديار والجامع وهي الآن خراب، في حال ذهاب».



عثمان السلالجي
(ت ٥٧٤ هـ)

اسمه ونسبه، بيته بفاس، مولده ومنشأه، دراسته، اشتغاله بالنظر في علم الاعتقاد، رحلته في طلب هذا العلم، نبوغه واشتهاره، انقطاعه للتعليم وعزوفه عن صحبة السلطان، مشايخه، أخلاقه، تلاميذه، عقيدته البرهانية، المغاربة كانوا على مذهب السلف في الاعتقاد، نفي التجسيم عنهم وبيان أنه من تشنيع الخصوم، سبب تأليف البرهانية، شروحها، فصول منها، قول السلالجي في الإمامة، وفاته.

هو الإمام المتكلّم النظّار أبو عمْرو عثمان بن عبدالله بن عيسى، ويقال: عَسْلُوج القَيْسي القُرَشي، من أهل فاس، عرف بالسّلالجي، لأجل أملاك كانت له بجبل سَلِيلْجُو كان يتردد إليها من فاس قاله ابنُ القاضي.

وفي شرح المديوني لعقيدة المترجم أن سَليلْجُو اسم بلد من بلاد مَدْيُونة في قِبْلة مدينة فاس وعَمَلِها، على مسيرة يوم ونصف منها، وهو في بني مَسْرَت فخِذ من قبيلة مَدْيُونة المذكورة، ولذلك يقال له أيضاً: المَسْرَتي.

والمفهوم من كلامه أن أصله من هذه البلاد وسكن فاساً، كما أن صاحب بيوتات فاس في القديم يقول: إن سكناه بجبل سليلجو وإنه كان يتردد إليه من فاس، فلعل الصواب في هذه النسبة هو ما ذكره هذان الأخيران من أن أصله من سليلجو وسكن فاساً ثم بقي يتردد إلى أملاكه في الجبل، لا أنه نسب إليه لمجرد تردده إلى أملاكه فيه كما قال ابن القاضي.

ثم إنه قد يقال فيه: السّلالِقي بالقاف كما ثبت عند ابن رُشَيْد في رحلته بخطه، وكما في ترجمته عند ابن الأبّار في القسم الذي طبعه الأزكُون وبَلنْسية من التّكْمِلة. وفي صِلَة ابن الزبير. ولا شك أن هذا التغيير إنما هو من باب قولهم: كل ما يجَمْجَم يُقَمْقَم ويُكَمْكَم، لا سيما والجيم في اسم سليلجو هي هذه القاف المعقودة التي تتردد بين الجيم والقاف، وهي الجيم المصرية كما اشتهرت أخيراً. وقد نبهنا في غير هذه الترجمة إلى اصطلاح العلامة ابن خلدون على كتابتها بالكاف المنقوطة ثلاثاً تجنُّباً للالتباس، والخطب في ذلك سهل كما يقولون.

وبيت السلالجي بفاس كان بيت ثروة وفقه، وهم من العرب القيسية، وكانت لهم نجدة ومشاركة في غير الفقه من العلوم كما يفهم من هذه القصة التي أوردها صاحب بيوتات فاس والكلمة التي عقب بها عليها قال:

«وكان أحد أحفاده أي: ـ المترجم ـ بسِمَاط العُدُول، وكان ظريفَ الشكل، حسنَ الوجه، صاحبَ شجاعة، قويّ

الساعد، إذا رأيتَه بالنهار تحسبه امرأة وبالليل يكون كالأسد، يتسور سور البلد، ويرمي بنفسه خارج المدينة، وقد استعد لذلك بسكين في يده، فإن وجد من غشيه الليل بخارج المدينة، يأتي معه حتى يوصله إلى مَغَارة صَنْهاجة التي بخارج باب الفتُوح... أو إلى مَغَارة مَغْرَاوة التي بخارج باب عَجِيسة.

ومرّ في بعض الليالي مع فتيان من أهل النجدة بالموضع المعروف بالطّيْفور من خارج باب الفتوح، فبصروا بسراج في بستان داخل المدينة. فقالوا: في أي مكان ذلك السراج؟ فتحققوا أنه في بستان التنسي... فقال: أنا أسير إليه، فتقلد سيفه وانصرف عنهم وتسوّر سُور المدينة وقصد بستان التنسي، فدخل فوجد شمعة وامرأة معلقة من شعر رأسها في شجرة وهي قد أشرفت على الموت، فرقّ لها وأنزلها من الشجرة وسألها عمن فعل بها ذلك فأخبرته، وسألها عن دارها فعرّفته بها، فجعلها في ظهره واحتملها إلى منزلها، ورجع إلى أصحابه فأخبرهم بالقصة وحمل لهم ما وجده من الطعام مع الشمعة التي كانت في البستان.

وله أولاد فقهاء أصوليون أطباء بفاس الآن. اهـ. باختصار وتجويد للعبارة.

فأنت ترى هذا البيتَ النبيّل ما كان أكثرَ كفاياتِه، وأظهرَ مُروءاته! وكان مولد أبي عمرو حوالي سنة ٥٢١ ونشأ نشأة صالحة في حال من الضعف والإقلال، مُنْكبًا على الدرس والتحصيل منقطعاً إلى العلم والمعرفة بكد

واجتهاد، ونية صادقة، وحسن اعتقاد، فبورك له فيما قرأ، وفُتِحَ عليه في الفهم فنال خيراً كثيراً في مدة يسيرة. وكان مما قرأ بفاس النحو وفروع الفقه ويسير من الأصول.

ورُوي عنه أنه قال: «كنت أقرأ مختصر ابن أبي زيد على أبي عبدالله محمد بن عيسى التادلي رحمه الله، فسلّمت عليه ذات يوم فلم يرد عليّ السلام، فسألته عن موجب ذلك فقال: إنك لا تقصد وجه الله تعالى بعلمك فلذلك لا يرد عليك السلام وينبغي أن تُهجَر. قال: فانصرفت عنه مغموماً مهموماً، فلقيت فتى من أصحابي فبثُّ عنده، وكان الفتى بطالاً وأبوه من طلبة العلم. فجعلت أنظرُ في كُتبه، فوقع في يدي من كتب الاعتقاد «التقريب» و«الإرشاد» فأعجباني، فقال لي صاحبها: هذا الإرشاد هو المدخل إلى هذا العلم، فحملته إلى الفقيه ابن حِرْزِهم وابن الرّمامة واستشرتهما في قراءته، فأشارا لي بالنظر فيه. فقلت لابن حرزهم: أتأذن لي في قراءته عليك؟ فقال لي: إني ما أجيده فإن قنعت بتعليم ما أعلمه فانظره.

فأخذته عليه[١] وكان يفتُر[٢] في مواضع منه فما كملته عليه بالنظر حتى استظهرته حفظاً».

وهاهنا وقفة لا بد منها لنسجل مبدأ التحوُّل في حياة المترجم بل حياة المغرب العَقَدِيّة، فإن هذا الانتقال من

---

(١) بالأصل فأجدته وهي لا تتلاءم مع قوله: إني ما أجيده ومع ما يأتي له من أنه استشكل فيه مواضع لم يجد مَن يفيده بها.

(٢) بالأصل يفشي، ولعل ما أثبتناه هو الصواب.

قراءة مختصر ابن أبي زيد إلى قراءة الإرشاد لإمام الحرَمين، معناه الانتقال في الاعتقاد من مذهب السلف إلى مذهب الأشعري. وإن هذا الفقيه التادلي بقَسْوته على تلميذه السلالجي لم يدرِ أنه كان يعمل على تقليص ظل السلفية من المغرب، وإحلال آراء المتكلمين الأشاعرة محلّها.

والله يعلم ما هذا الذي لاحظه على تلميذه حتى رماه بتلك التهمة الخطيرة، وكان السبب في مقاطعته له بهذه الكيفية الصارمة؛ أيكون آنس منه ميلاً إلى سلوك طريق المؤوّلين، والأخذ بنظر المتأخرين في القول بالجوهر والعرض، والحال والصفة وما إلى ذلك، ويكون هذا الميل من صاحبنا هو الذي وجد ما يرضيه في كتاب «الإرشاد» وما كان على شاكلته؟!...

وأيًّا ما كان، فقد سجل لنا السلالجي عدمَ إلمام علماء المغرب في ذلك العهد بعلم الكلام على طريقة الأشاعرة ومن كان ينحو نحوهم من المتكلمين في الصفات والأدلة. ألا ترى إلى قول فقيه فاس وكبير علمائها أبي الحسن ابن حرزهم للمترجم في كتاب «الإرشاد»: «أنا ما أجيده».

وحقاً فقد كان علماء المغرب لذلك العهد، والمغاربة على العموم، أمْيَل إلى مذهب أهل الحديث والرّعيل الأول من السلف الصالح في عدم التأويل، وإقرار الصفات المتشابهة، وترك الخوض في الكلام جملة، ولهذا طرّقْنا احتمال إنكار الفقيه التادلي على تلميذه السلالجي لأجل

تشوفه إلى شيء من هذه المباحث. إنما هذا لحرصه على هذا المطلب، ورغبته في تحقيق هذا المذهب، لم يقنع بما حصل عليه من قراءة «الإرشاد» على الشيخ ابن حرزهم فقد بقيت في نفسه أشياء من ذلك الكتاب لم يحققها ولم يعرف صوابها من خطإها، ولذلك عزم على الرحلة إلى المشرق لإشباع نهْمته من العلم.

ولنستمع إليه يحكي ما حصل له في هذه الرحلة، والسبب الحامل له عليها وهو قوله بعدما سبق عنه مباشرة:

«فنمتُ ذات يوم في المسجد الجامع، فرأيت في النوم شخصين قصدا لي فدفع أحدهما في صدري فانفتح، وكان أحدهما يصب الملح فيه وهو يلتحم إلى أن التحم الشقّ كله، فانتبهت وأنا أجد في صدري الألم، فقمت وأتيت إمام المسجد الجامع، مَهْدِي الخطيب، فقصصت عليه الرؤيا فقال لي: ما هذا العلم الذي تنظر فيه الآن؟ فقلت له: أنظر في علم الاعتقاد في كتاب «الإرشاد» فقال: الزَمْه فإنه سيُفتَح لك فيه.

فأشكلَ عليّ فيه جملةُ مسائل، فلم أجد من يشفي منها صدري فعزمت على الرحلة إلى بلاد المشرق في فهم الكتاب، فسافرت إلى مدينة بِجاية فعزمت على دخول البحر في جمع كثير، فسجن الوالي كل من عزم على التوجه إلى المشرق، فهربت أنا وصاحب لي من السجن بالليل، فرجعت إلى فاس وبلغني أن الوالي قتل جميع المسجونين معي في بجاية».

وهكذا يرجع صاحبنا خاويَ الوِفاضِ مما قصد إليه، محروماً من نتيجة الرحلة التي تكبد مشاقها في غير طائل بل كادت تذهب بنفسه لولا حفظ الله وفسحة من العمر بقيت له، ليقوم فيها بالمهمة التي خُلق لها على ما سنراه من بعد.

ونلاحظ من كلامه أن الجو العلمي لم يكن يلائم هذا التوجيه الذي أخذ به نفسه، فهو يلتمس الحجج لذلك، بحيث لم يرحل حتى حصل له الإذن ضِمْناً في عالم الرؤيا بالارتحال، إذ كان وضْعُ المِلْح في صدره معناه: العلم، كما عبره إمام المسجد أليس يقولون: «اجعل عِلْمَكَ مِلْحاً وأدَبَك دقِيقاً؟!».

والعلم الذي كان يطلبه وملأ الاهتمامُ به شِغافَ قلبه هو علم الاعتقاد في كتاب «الإرشاد»، فليلزمه ولينصرف إلى تحصيله ولو بالرحلة، وهذا ما نظر فيه أولاً حتى استأذن أستاذيه أبا الحسن بن حرزهم وأبا عبدالله بن الرمامة فأذِنا له، وأولهما نظر فيه معه فهو إذ يحكي هذه الحكايات إنما يمهد السبيل لهذا العلم بين قوم لم يكونوا من الراغبين فيه، ويبشر به في وسط كان يراه كفراً أو قريباً من الكفر.

وذلك سرّ من أسرار اعتماده واتخاذه إماماً في هذا الشأن إذ لا يخفى ما كان للإذْن وللرؤيا في الزمن الماضي من التأثير القوي على نفوس الجماهير.

ولنواصل مع المترجم حكايةَ طلبه، وتحصيله لهذا العلم، فهو بعد رجوعه إلى فاس من بجايَة سالماً بجِلْده،

فارغَ اليد مما رحل إليه؛ طلبه بعضُ الرؤساء لتعليم أولاده وحمَلَه معه إلى مراكش حيث لقي الشيخ أبا الحسن اللّخْمي المعروف بابن الإشبيلي وكان ذا بصيرة في كتاب «الإرشاد» فلازمَه مدة حصلَ له فيها فهم ذلك الكتاب وفُتح عليه كل ما أُغلق من معانيه، كما يقول تلميذه أحمد بن عيسى الأنصاري حاكياً عنه.

وقال تلميذه الحافظ الراوية أبو الحسن بن عَتِيق: لما رحل أبو عمرو إلى مراكش لازم الفقيه الإمام أبا الحسن علي بن الإشبيلي، وانتفع به وفُتِح له على يده في أصول الدين وأصول الفقه ومسائل الاتفاق والاختلاف وفي مسائل القلوب على طريقة الحارث المُحاسبي وبلغ في ذلك المنتهى، ولحق درجة المجتهدين والنظّار المتْقِنِين، وانحاز عن رتبة المستفيد.

وكان يحضر مجلس سيدنا أمير المؤمنين أيّده الله مع جملة من الطلبة، فظهر حِذْقُه وذكاؤه في المجلس، وعرفه أمير المؤمنين عيناً واسماً، وكان رضي الله عنه مُعرّضاً للترقي في منازل كبيرة سَنِية، ودرجات شريفة علية، فزَهِد في ذلك كله، وتركه للّه عزّ وجل وتخلى عنه وانصرف راجعاً إلى مدينة فاس، والتزم الإقراء بها لِبَثّ العلم لوجه الله ونشره وتدريسه، وألْزَم نفسَه الانقباض والتصاوُنَ فانتفع بنفسه، وانتفع به المسلمون وخرج على يده جملة من حذّاق العلماء... إلخ».

فقد أخذ عن ابن الإشبيلي غيرَ أصول الدين أو غير

كتاب الإرشاد، علوماً وكتباً أخرى، وأهمها التصوف الذي كان له أعظم الأثر في هذا التوجيه الذي اختاره لنفسه من الانقطاع للتعليم والإرشاد والزهد في المناصب العلية، وصحبة رجال الدولة مع ترشيحه لذلك وقرب مناله منه.

وابن الإشبيلي هذا أندلسي، من الوافدين على المغرب، ترجمه ابن الأبّار في التكملة وابنُ الزبير في صِلَته وقال: «استقر بمدينة فاس وكان أصولياً ماهراً ومتكلماً حاذقاً، وهو الذي قرر علم الأصول وعلم الكلام بمدينة فاس، أخذ عنه بها الأصولي الكبير أبو عمرو عثمان بن عبدالله السلالِقي المسْرَتي، وإلى أبي عمر هذا مرجعُ الفاسيين في هذا العلم».

وهذا مخالف لما تقدم من أن أبا عمرو رحل إليه وأخذ عنه بمراكش، ففيه درك على ابن الزبير.

ولم يذكر ابن الأبار إلا أنه توفي بمراكش وأن السلالجي وابن المَلْجُوم أخذا عنه.

ثم مَن هو أمير المؤمنين هذا الذي كان السلالجي يحضر مجلسه بمراكش؟

الغالب أنه عبدالمؤمن بن علي لأنه هو الذي كان السلالجي في أيامه شاباً في مقتبل العمر، يرحل إلى مراكش بمعية أحد الرؤساء ويتردد في طلب العلم على ابن الإشبيلي فلا يتم نضجه وتظهر رغبة الدولة في استخدامه حتى يفيءَ راجعاً إلى فاس حيث ينقطع للتعليم ويشتهر أمره بين الناس.

وبعيد جداً أن يكون هذا الأمير يوسف بن عبدالمؤمن أو يعقوب المنصور، لأن السلالجي كما علمت لم يُطِل المُقام بمراكش، فلم تمتد رحلته إلى أيام واحد منهما.

وأبْعَدُ منه أن يكون أحدَ ملوك المرابطين لأن آخرهم في الحقيقة هو علي بن يوسف، وقد مات والسلالجي لم يكمل العَقْد الثاني من عمره، وهم لم يكونوا يلقبون بأمراء المؤمنين، تأدباً مع خلفاء بني العباس، وإنما كان لقبُهم أميرَ المسلمين، هذا فضلاً عن اختلاف منزَعهم في العقائد عن منزَع السلالجي، فإنهم كانوا على طريقة السلف، ولذلك كان الموحّدون يَنْعَوْن عليهم هذا المذهب، ويسمونهم مُجسّمين. والسلالجي كان أشعرياً مناصراً لمذهب الموحدين فلذلك حظِي عندهم وظهر فضله في هذا المجلس السلطاني الذي كان يحضره مع الطلبة.

وقد مرّ لنا أن المترجم أخذ عن محمد بن عيسى التادِلي وأبي الحسن بن حِرْزِهم ومحمد بن الرّمامة، وهؤلاء من علماء فاس المشاهير كما أخذ عن ابن الإشبيلي بمراكش، وبقي جملة من شيوخه ذكرهم أبو الحسن بن عتيق في إحدى فهارسه فقال:

«أخبرني رضي الله عنه أنه لقي الشيخ الفقيه القاضي أبا مروان بن مَسَرّة فسأله الروايةَ عنه فأذن له، وناوله كتاب «البخاري» وكتاب «السنن» لأبي داود وكتاب «أدب الكتاب»، وأجازه جميع مروياته.

قال: وأخبرني أنه قرأ الموطأ على أبي الحسن بن

خليفَة، وحدثني به عن أبي موسى عيسى بن المَلْجُوم عن أبي عبدالله بن الطّلاع عن القاضي يونس بن عبدالله بسنده المعروف، وأخبرني أن الشيخ الإمام أبا عبدالله بن جَبَل أجازه جميع مروياته، وكان يروي عن سُكّرة وغيره، وذكر صحبتَه لابن الإشبيلي وأنه أخذ عنه جلّ ما عنده. ثم قال: وسمع كتاب الترمذي عن الشيخ أبي عبدالله محمد بن علي بن جعفر.

قال: وفيما أجازه القاضي أبو مروان بن مسرة عن أبي إسحاق الأسدي عن أبي عُمَر بن عبدالبَرّ النَّمَيْري قال: أنشدني أبو القاسم محمد بن نصير الكاتب لنفسه:

تخَيّرْ سبيلَ الهُدَى جاهِداً ... ودعْ عنك مُشتَبِهات السّبُل
وأصْبِحْ من الناس مُسْتَوْفِزاً ... فأكثرهُم راصد للزّلَل
وأحسَنُ مَن قَدْ تَرَى منهم ... لعمرك يُردِي الشّجاعَ البَطَل
وتُصْمِي المَقاتِلَ أقوالهُم ... بألسِنَة وقْعُها كالأسَل
ولا تَحْسِبَنْ إن تكُنْ غافِلاً ... مُريدَكَ بالسّرّ يَوْماً غَفَل
ومَن حَكّمَ الناس في عِرْضه ... فما جَارَ أكثر مِمّا عَدَل

فهذه النبذة كافية في الدلالة على سَعة روايتِه. وتنوع معارفه ولذلك كان يُنعَت بالإمامة في العلم، وقيل: إنه بلغ رتبةَ أبي المعالي الجُوَيْني المعروف بإمام الحرمين صاحب كتاب «الإرشاد» وغيره، ووقع الإطباق على أنه عُمدَةُ أهلِ المغرب في علم الاعتقاد وأنه مُنقِذ أهل فاس من التجْسيم.

ومما لا ريب فيه أنه برع في العلوم الشرعية، وتخصص بالنظر في علم الكلام والاطلاع على دقيق

مسائله، والبحث في عَوِيص مشاكله، وأنه كان ذا همة عالية، ونية صادقة في التعليم والإرشاد، والنصح للعباد، مع الزهد والورع والدين المتين، مما حبّبه إلى الناس كافة وإلى تلامذته خاصة، فما يذكره أحد منهم إلا ويترَضّى عنه ويثني عليه الثناء الجميل، ويُعظّم قدره ويذكر من فضله ما قلّ أن يذكره تلميذ عن شيخه.

فهذا تلميذه أحمد بن عيسى الأنصاري يقول في حقه: «زهد في الدنيا وأهلها وانتصب لتعليم العلم لوجه الله إلى أن التحق بالله تعالى وانتفع ونفع المسلمين عفا الله عنه ونضر وجهه».

وهذا تلميذه أبو الحسن بن عتيق يقول عنه بعد كلامه السابق فيه: «وخاف الله تعالى فراقَبه، وعمل بمقتضى ما علِم فشرَح صدره وعلّمه عِلْمَ ما لم يعلم، ووهبه من الفهم لخطاب الشارع ﷺ والتفقه فيه، والعلم بمقاصده، والكشف لمعانيه، ومن التحقيق والتنسيق، والتحرير والتدقيق، ما يقصُر عن وصفه اللسان وتَكِلّ دون البلوغ إلى كُنهه الأذهان واتّقى الله تعالى فوقَاه، وتوكل عليه فكفَاه، واهتدى بهديه فوفقه وهداه وجعل له من أمره يُسْراً ومَخْرَجاً، ورزقه من حيث لا يحتسبُ ووضع البركة في عِلمه وعمَله، ورزقه من الصبر والاحتمال وحسن الخلق والعِشْرة والأدب ما لا مزيد عليه، وحاسب نفسه في لحظاته وخطراته وكلماته وحركاته وسكناته، حتى تقيدت أفعاله كلها بأحكام الشرع، وجرت على مُقتضَيات أوامر الباري تعالى وإذنِه، واقتدى بهدي السلف الصالح رضي الله عنهم ففتح له وعلى يده فتحاً خرق

العادة، وحرك النفوس، وقامت به الحجة على المبطلين؛ مع حَداثَة سنّه، وقِلة تمكنه مما يجده غيرُه من المال والجدة وسعة الحال، فساد أقرانَه ورأس أخوانه وشرف جيرانه، وزيّن عصره ووقته وزمانه، أسأل الله تعالى أن يجعل البركة في عمره ورزقه، وأن ينفعه ويكفيه كلّ هم». اهـ.

فناهيك بهذه الأوصاف التي يصفه بها تلاميذه، والعواطف التي تَجِيش بها صدورهم نحوه، دليلاً على رفعة القدر وعلو الشأن، وأنه كان من أولئك الأفراد القلائل الذين لا يجود الزمان بمثلهم إلا في الفَيْنَة النادرة، يؤدون ما عليهم من واجب ويبلغون ما حملوه من رسالة، ولا يكون غرضهم في الدنيا إلا الوصول إلى الغاية المطلوبة والقيام بمهمتهم على أحسن الوجوه، فهم المصلحون الحقيقيون، وهم المجددون الذين ورد فيهم الحديث وبالحري هم العلماء، ورثةُ الأنبياء!

ألا ترى إلى الرجل كيف زهد في المنصب والجاه، وانقطع إلى العلم والتعليم وكان يعرف أن عليه تَبِعةً من أعظم التَبِعات هي تقرير أمر العقائد للناس، وتسهيل ما عسُرَ عليه للطلبة، فلا يمرُّون بتلك المراحل التي مرّ عليها، ولا يعانُون من الصّعاب ما عاناه حتى كادت نفسه تفلِت، وروحه تزهَق في سبيل هذا العلم (علم الكلام) وتحصيله، وتحرير مشاكله، وتقرير مذاهبه، فهو الآن منقطع للتدريس وتعليم الجهال، لا يبغي أجراً على ذلك ولا يطلب مَثُوبة من أحد، حتى الطلبة يريدون خدمتَه فينهاهم عن ذلك ويقول: لا تفسدوا عليّ نيّتي.

حدّث أحمد بن عيسى الأنصاري قال: سمعت أبا الحجاج يوسف بن موسى يقول: رأيت أبا عمرو يحمل خُبْزَه إلى الفُرْن فيُرِيد تلاميذُه أن يكفُوه حمله فيأبى من ذلك. إلى أن قال لهم: ما انتصبت للتعليم إلا لوجه الله تعالى، فإذا لقيني أحد منكم فلا يعرض لخدمتي بشيء، فإني أخاف أن تفسدوا عليّ نيتي.

قال: وكان يمر بالأبواب فيجد النساء قد أخرجن الخبز لمن يحمله لهن إلى الفُرن فيحمله بنفسه إلى الفرن. اهـ.

وهكذا كانت أخلاقه أخلاق الأولياء الصالحين، وأحواله أحوال العلماء العاملين، وبذلك استحق أن يذكره التادلي في كتاب التشوف إلى معرفة رجال التصوف وإن لم يكن العلماء من هذا الصنف أولياء الله فليس لله من ولي.

وقد أنشد التادلي في ترجمته ـ على العادة عنده ـ قطعة شعرية تناسب ما كان عليه من أحوال، وجعلها المديوني في شرحه للبرهانية من نظمه وفي بعض أبياتها غموض وتحريف فلنقتصر منها على الواضح السالم فمنه قوله:

إذا العلم لا تحشو غرائبُه قلبي

ولا ساقني منه إلى المنهَل العذْب

ولا كان حظي منه إلا حكايةً

على الناس أتلوها فحَسْبي إذن حسبي

وقوله:

أليس عجيباً أن نفسي حقيقتي
وما سِلْمُها سلمي ولا حَرْبُها حربي

على أن صاحب جذوة الاقتباس نسبَ له بيتين من الشعر في هجاء أهل فاس وهما:

خذُوا ضمانيَ إلا تفلحوا أبداً
ولو شَرِبْتم مدادَ الكُتْب بالصّحف
أنتم صغارٌ كبارٌ عند أنفسكم
هل يستوي مَن يقيس الدرّ بالصّدف

وهو منزع غريب عن سيرته وأخلاقه، ولو كنا ممن يتسرّع فينفي ويثبت بمجرد الظنّ والارتياء، لنفَيْناهُما عنه، ولكنهما قد قيلا فرُوِيا ونُسِبا إليه، وللنفس نَزَغات، والبشر هم البشر في كل زمان، فماذا يمنع أن يكون الشيخ هو قائلهما ويعني بهما بعض أهل الإذاية الذين لا يخلو منهم مكان و(لكلّ عليٍّ في الأنام مُعاوِية)!...

وإلى الآن لم نذكر من تلاميذ السلالجي إلا أحمد بن عيسى الأنصاري وأبا الحسن بن عتيق، وناهيك بهما! ولكن ابن الأبار سمّى ممن أخذ عنه أبا عبدالله بن عبدالكريم الكَتّاني وأبا الحجاج بن نموِي وأبا الربيع الشّرْطي من أهل فاس، ممن شاركه في الأخذ عن ابن الرمامة وأخذ عنه علم الكلام فهم إذن خمسة من الأئمة يفتخر بهم، ولا شك أن غيرهم كثير، وإنما أهمل مترجموه ذكرهم، ومن طريق ابن

الكتاني روى عنه «الإرشادَ» الرحّالةُ ابن رُشيْد. قال في ترجمة أبي جعفر اللّبْلي عند التعرض لمروياته في الجزء الثاني من الرحلة:

«كتاب «الإرشاد» قال (ج): قرأت جميعَه تفقّهاً على الشيخ الصالح الزاهد الورع الفاضل أبي بكر يحيى بن ثابت البَهْراني وأخبرني به قراءة منه بفاس على الشيخ العالم الزاهد الورع الفاضل أبي عبدالله بن علي بن عبدالكريم الفَنْدلاوي المعروف بابن الكتّاني عن الإمام الزاهد أبي عمرو الفاسي المشهور بالسلالقي مؤلف العقيدة البُرهانية المشهور بالسّلالِقيّة وهي على صغر جرمها مختصر الإرشاد».

❋ ❋ ❋

وأما بعدُ ومعَ وقبل، فإن ما حصل به الشيخ على الشهرة الواسعة وأبقى له الذكر الحسن في الناس، هو هذه المقدمة العقدِيّة التي شهرت بـ(البرهَانيّة) واقترنت بذكر جهاده في بث عقيدة أهل التأويل، ومحاربة عقيدة أهل التسليم الذين يسمونهم على سبيل المُغالَطَة مجسمين.

ولا بد قبل الخوض في الكلام على هذه (المقدمة) من مقدمة تشرح الحال وتبين ما كان عليه أهل المغرب في أمر الاعتقاد من لَدُن الفتح الأوّل إلى أوائل القرن السادس حين قام المهدي بن تومرت بدعوته عام ٥١٥.

قال ابن خلدون أثناء كلامه على المهدي بعد ذكر رحلته إلى المشرق في طلب العلم: «وانطوى هذا الإمامُ راجعاً إلى المغرب بحراً متفجراً من العلم وشهاباً وارياً من

الدين، وكان قد لقي بالمغرب أئمة الأشعرية من أهل السنة، وأخذ عنهم، واستحسن طريقهم في الانتصار للعقائد السلفية، والذب عنها بالحجج العقلية الدافعة في صدر أهل البدعة، وذهب إلى رأيهم في تأويل المتشابه من الآي والأحاديث، بعد أن كان أهل المغرب بمَعْزِل من اتّباعهم في التأويل والأخذ برأيهم فيه، اقتداءً بالسلف في ترك التأويل وإقرار المتشابهات كما جاءت، ففطّنَ أهل المغرب في ذلك وحملهم على القول بالتأويل والأخذ بمذاهب الأشعرية في كافة العقائد وأعلن بإمامتهم ووجوب تقليدهم، وألّف العقائد على رأيهم مثل (المرشدة).

وكان من رأيه القول بعصمة الإمام على رأي الإمامية من الشيعة، وألّف في ذلك كتابه الذي افتتحه بقوله: «أعز ما يطلب» فصار هذا المفتتح لقباً على ذلك الكتاب... إلخ».

وقال أيضاً في المقدمة وقد تعرض لذكر المرابطين واللقب بأمير المؤمنين: «وجاء المهدي على أثرهم داعياً إلى الحق آخذاً بمذهب الأشعرية ناعياً على أهل المغرب عُدُولهم عنها إلى تقليد السلف في ترك التأويل لظواهر الشريعة وما يؤول إليه ذلك من التجسيم كما هو معروف من مذهب الأشعرية، وسمى أتباعه الموحدين تعريضاً بذلك النكير.

وكان يرى رأي أهل البيت في الإمام المعصوم، وأنه لا بد منه في كل زمان يحفظ بوجوده نظام هذا العالم،

فسُمي بالإمام لما قلناه أولاً من مذاهب الشيعة في ألقاب خلفائهم، وأردف بالمعصوم إشارة إلى مذهبه في عصمة الإمام، وتنزّه عند أتباعه عن أمير المؤمنين أخذاً بمذاهب المتقدمين من الشيعة، ولما فيها من مشاركة الأغمار والولدان من أعقاب أهل الخلافة يومئذ بالمشرق. . . إلخ».

فهذا الكلام يشتمل على أمور:

أولها: أن أهل المغرب قبل قيام المهدي بن تومرت بدعوته كانوا على مذهب السلف في الاعتقاد من إقرار النصوص على ظاهرها وعدم تأويلها كما يفعل الأشاعرة، وأنه لا تجسيم هناك، وإنما هو ما يَؤولُ إليه ذلك أي عدمُ التأويل من التجسيم.

ثانيها: أن مذهب الأشاعرة المؤولين لم يعرف بالمغرب حتى جاء به المهدي ابن تومرت وحمل الناس عليه حملاً بالدعاوى أولاً ثم بالقوة ثانياً، ومعلوم أن المهدي رحل إلى الأندلس ثم إلى المشرق سنة ٥٠٠ فحجّ ولقي الأئمة أبا حامد الغزالي وأبوي بكر الشاسي والطَرْطُوشي وعاد عام ٥١٢ فبقي يجول في بلاد المغرب آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، داعياً إلى مذهبه نحواً من ثلاث سنين، ثم أعلن بدعوته ودعا إلى نفسه سنة ٥١٥، فمترجمنا أبو عمْرو السلالجي الذي ولد في عام ٥٢١ إنما تلقى عقيدته واعتنق مذهب الأشعرية في ظلال الدولة الموحدية وبعد دعوة إمامها لهذا المذهب بسنين.

ثالثها: إن مما دعا إليه المهدي زيادة على مذهب

الأشعرية القول بعصمة الإمام على رأي الإمامية من الشيعة، وقد صار هذا مذهباً رسمياً للدولة حتى كان يعلن به من فوق المنابر.

ويستخلص من هذه الأمور:

أولاً: إن أهل المغرب لم يكونوا مُجسّمين ولا كان التجسيم لهم عقيدة، إلا أن يقال مثل ذلك في السلف الصالح رضوان الله عليهم، وقد قاله أعداؤهم وخصومهم من أهل البدع والأهواء وهذه عقيدة ابن أبي زيد بأيدينا تدلنا على ما كان يعتقده أهل المغرب قبل قيام الدعوة الموحدية، من العقائد السلفية الطاهرة التي لا زيغ فيها ولا إلحاد.

وتقدم عن السلالجي أنه كان يقرأ أولاً «مختصر ابن أبي زيد» ثم تحول عنه إلى «الإرشاد» و«التقريب»، وأن أستاذه أبا عبدالله بن عيسى التادلي الذي كان يقرأ عليه «مختصر ابن أبي زيد» قاطعه وقال له: إنك لا تقصد وجه الله تعالى بعلمك، أفيكون ذلك لما آنَسَه فيه من الميل إلى مذهب المؤولين؟

وأما أن هذا المذهب يؤول إلى التجسيم فليس بكاف لرمي أمة من أنظف الناس اعتقاداً بهذه العظيمة، وقد تقرّر أن لازِمَ المذهب ليس بمذهب، وابن خلدون نفسه يقول في محل آخر من المقدمة وقد رد مذهب النافين لظواهر الصفات من غير تأويل ما نصه:

«ولم يبقَ في هذه الظواهر إلا اعتقادات السلف ومذاهبهم والإيمان بها كما هي ليلاً يكرّ النفيُ على معانيها

بنفيها مع أنها صحيحة ثابتة من القرآن، ولهذا تنظر ما تراه في عقيدة الرسالة لابن أبي زيد وكتاب «المختصر» له وفي كتاب الحافظ ابن عبدالبر وغيرهم، فإنهم يحُومُون على هذا المعنى، ولا تغمض عينك عن القرائن الدالّة على ذلك في غضون كلامهم».

فأنت ترى كيف جعل عقيدة السلف الطاهرة هي عقيدة المغاربة الموجودة في كتبهم، وأن ما يوهمه مذهبهم في ذلك من المحظور غيرُ مراد لدلالة القرائن على نفيه.

ومن ثمّ نقول: إن هذا الذي تُلزِمون به عقيدةَ أهل المغرب إذ ذاك، يلزم مثلُه أو أفظعُ منه عقيدة الأشاعرة المؤولين، ألا ترى أن تأويل الصفة بما ليس ظاهراً فيها ربما أدى إلى نوع من التعطيل، وإذا قلنا: الأشاعرة المؤولين، فلأنّا نستثني منهم من لا يُؤوّل ممن دَرَج على القول الأخير للإمام أبي الحسن الأشعري الذي حكاه عنه الإمام ابن عساكر في كتابه «تبيين كذب المفتري»، فيما نسب إلى الإمام الأشعري ـ وهو عدم التأويل.

ثانياً: إن أهل فاس لم تؤثر فيهم دعوةُ الموحدين، وبقي اعتقادهم على مذهب السلف حتى أن السلالجي رحمه الله لم يجد بفاس من يقرئه كتب الأشاعرة كالإرشاد والتقريب، وإنما كان قرأ على أستاذه أبي عبدالله بن عيسى التادلي مختصر ابن أبي زيد، وبما أنه كانت تترامى إليه هذه المقالات من علم الكلام على مذهب الأشعري وهو شاب متعطش إلى العلم والمعرفة فإنه بقي في المُقِيم المُقْعِد حتى

رحل ولقي من فتح له مُغلَق هذا العلم، فرجع إلى فاس وكرّس جهوده لنشره وتقليص ظل السلفية من القرويين.

وقد تقدم وصف انقطاعه إلى التعليم، وما كان له من نية صادقة في سبيل نشر العلم، وتعظيم الناس له، وتعلقهم به، فلا جرم أن يكون إمامَ أهل فاس في علم الاعتقاد ومرجِعَهم في تقرير مذهب الأشعرية وأن يقال عنه: إنه الذي أنقذهم من التجسيم على ما بيّنّاه من المراد بهذا التجسيم.

ثالثاً: إن مما يزيد في رفعة شأن مترجمنا وعلو قدره أنه إنما أخذ عن الموحدين مذهبَ الأشعرية في الاعتقاد، ولم يأخذ عنهم شيئاً من هذا المذهب الشيعي الذي أتوا به وأدخلوه على الأمة المغربية من القول بالإمامة والعصمة، فإنه كما تقدّم رحل إلى مراكش وبها حصل ما حصل من علم الكلام، وفتق رتْق كتاب «الإرشاد» على ابن الإشبيلي هناك، وفاق وبرعَ وتأدّى به الحال إلى حضور مجلس الخليفة ولُوحِظ بعين العناية، حتى كان يُرشّح للمناصب الرفيعة إلا أنه زهد في ذلك كله وعاد إلى بلده فاس وتصدى فيها للتعليم ولم يعرج على شيء من دعاوى الموحدين ولم يكن بُوقاً قط لمذاهبهم، لأنه أخلص النية لله في هذه الدعوة التي قام بها، وعرف بطلان تلك الدعاوى الأخرى فأعرض عنها بل لعله ما فرّ إلا منها وما حمله على مغادرة مراكش إلا خوف الوقوع في أوحالها.

وكيف وهي دعوة كانت قد استعلت حتى ملأت

الآذان وانتصب للتبشير بها شيوخ المصَامِدة وخطباءُ المساجد في كل مكان فإغفالُ السلالجي لها وتجاهُله إياها مما يدل على متانة دينه، وقوة يقينه لا سيما إذا علمنا أن القوم بلغوا من التعصُّب لدعوتهم هذه أنه قتلوا ولدَ بن الصّقْر، لما ردّ على الخطيب حين فاه باسم المهدي وعصمته، وذلك في زمن المرتضَى من خلفائهم، وقد أراد الخليفة أن يسجنه فقط، ولكن الأشياخ والوزراء من الموحدين أبوا إلا قتله فغلبوه على أمره وقتلوه كما ذكر ذلك أبو إسحاق الشاطبي في كتاب «الاعتصام».

فهذا مما زاد في إجلال الناس للسلالجي وإكبارهم له وسماعِهم قولَه وأخذِهم بمذهبه: أن رأوه يأخذ بحق ما عند القوم ويذر باطلَهم كما ننظر نحن اليوم للداعية المخلص يدعو المسلمين إلى أخذ ما عند الأوروبيين من علم وفن وصناعة، ويحضهم على التمسك بدينهم وعاداتهم وأخلاقهم ولا ينخدع لما يَلْتَمِعُ في الأعين من زخرف وطلاء وتمويه.

وإذ بيّنّا هذه الأمور الثلاثة وما يستخلص منها، فلنوجه النظر إلى عقيدة السلالجي؛ هذه المقدمة التي تُعرف بالبرهانيّة، والتي قامت عليها أو على مبدئها شهرة السلالجي كإمام من أئمة المتكلمين حتى قارنوه بإمام الحرمين رحمهما الله معاً.

ونبادر فنقول: إن هذه المقدمة تقع في بضْع صفحات من القطْع الصّغير ليس غير، فهي من حيثُ الحجمُ أشبهُ بمقدمة ابن آجرّوم في النحو، ومن الغريب أن تقوم شهرة

الرجلين على مؤلف بهذه المثابة من الصَغَر، ولكن الاعتبار بالكَيْف لا بالكمّ، وبالنوع لا بالعدد.

وسبب تأليفه لها هو ما حكاه تلميذه أبو الحسن بن عتيق قال: «كان بفاس امرأة تسمّى خَيْرُونة، وكانت من الصالحات القانتات، الزاهدات الغافلات المؤمنات، وكانت تعظّمه وتوقّره، وتلتزم مجلسه، فرغبت إليه أن يكتب لها في لوحها شيئاً تقرأه على ما يلزمها من العقيدة فكتبها، فأخذتها أنا وقام بفكري أن أرتّبها فصولاً، وأعمل لها شِبْهَ الخطبة.

ثم شاورتهُ في ذلك فمنع منه وقال لي: لم أتعرض فيها أن تكون تأليفاً تكتب وتنشر، وإنما كتبتها لخيرونة على وجه (كذا)، فشاء الله أن تشيع فاترُكْها كما هي ولا تزد فيها شيئاً فتخرج عما قصد بها، فتركتُها كما هي».

هذا هو سبب تأليفها أو كتابتها على الأصح، ومنه يظهر أن هذا التحميد وهذه التصلية في أولها، والفصول المتخللة لها ليست من وضع السلالجي ولا من وضع تلميذه أبي الحسن بن عتيق.

وقد ذكر المديوني في شرحه أن الخطبة غير ثابتة في رواية الجماعة، وإنما ثبتت في رواية ابن ناهض أبي الثناء، وعلى إثباتها شرح الأستاذ الحفّاف رحمه الله، وعلى إسقاطها شرح أكثر المفسرين منهم أبو عبدالله الكتّاني وأبو القاسم بن الزّقّ وإبراهيم بن بَزِيزَة وغيرهم.

ويظهر من هذا أن الناس اعتنوا بها كثيراً وأنها أخذت دوراً كبيراً بين أُمّهات العقائد، فشُرِحت بعدة شروح،

ورويت بروايات مختلفة فضلاً عن اعتمادها الدراسة غيرَ قليل من الزمن.

وقد مضى عن الرحالة ابنُ رُشَيد قوله فيها: إنها مختصر «الإرشاد» على صِغرِ جِرْمها، وهي كلمة تقريظ بارعة، وإن لم يكن السلالجي قصد إلى هذا الاختصار كما رأيت.

وإلى القارئ طالعتها بخطبتها كما هي في نسختنا:

«الحمد لله رب العالمين، وصلواته على محمد خاتم النبيّين والمرسلين، اعلم ـ أرشدك الله ـ أن العالم عبارة عن كل موجود سوى الله تعالى وصفاته وذاتِه، ثم العالم على ضربين: جواهر وأعراض، فالجوهر هو المتحيّز، والعرَض هو المعنى القائم بالجوهر.

والدليل على ثبوت الجواهر تناهي الأجسام في انقسامها إلى حد يستحيل انقسامه، فذلك هو الجوهر لأن القِسْمة هي الافتراق والشيء الواحد لا يفارق نفسه فكل ما تألف معه فهو على حُكمه وبه تفضُل الأجسام بعضُها بعضاً في الكبر والصغر كالذرّة والفيل لأن ما لا يتناهى لا يفضُل ما لا يتناهى، وأيضاً أن ما لا يتناهى يستحيل دخوله في الوجود».

بعد هذه الطالعة يأتي فصلُ الدليل على ثبوت الأعراض، ثم فصل الدليل على حدوثها، ثم فصل الدليل على حدوث الجواهر، ثم فصل الدليل على ثبوت الصانع، وهذا هو بنصه:

«فصل، والدليل على ثبوت الصانع أن العالم جائز وجُودُه وجائز عدمُه، فليس وجوده بأولى من عدمه ولا عدمه بأولى من وجوده، فلما اختص بالوجود الجائز بدلاً من العدم المُجَوّز افتقر إلى مُقتضٍ وهو الفاعل المختار».

فهذا هو نفس الدليل الذي درج عليه المتأخرون من المتكلمين كالسّنُوسي وابن عاشر وأضرابهما، وهذه الطريقة في تقرير العقائد من الاستدلال بأدلة المنطق وتقديم المقدمات العقلية مثل إثبات الجوهر والعرض وبيان خواصها وما يطرأ عليها هي نفس الطريقة التي استعملها أبو المعالي في كتاب «الإرشاد» ولخّصها المترجم وتأدت من بعده لجميع المؤلفين المغاربة في هذا العلم فما يَفْتأ يُدرَس بها حتى اليوم.

ومن ثمّ سجلنا أن مبدأ التحوُّل العَقَدي في المغرب كان مع تحول المترجم من دراسة «مختصر ابن أبي زيد» إلى دراسة كتاب «الإرشاد»، وإن كانت طريقة السلف لم تندثر منه بالكلية.

ونتابع ذكر فصول البرهانية فنقول: إنه بعد فصل الدليل على ثبوت الصانع يأتي فصل الدليل على قِدَمه، ثم فصل الدليل على قيامه بنفسه، ثم فصل الدليل على مخالفته للحوادث، ثم فصل الدليل على أنه عالم قادر، ثم فصل الدليل على ثبوت الصفات الأزليّة، ويعني بها صفات المعاني، وعدّ من جملتها الإدراك.

وفي هذا الفصل أقام الدليل على الوحدانية وعلى

جواز رؤيته تعالى، ثم تطرّق لذكر الجائزات من غير فصل. فيظهر أن المتوَلّيَ وضْعَ كلمةِ فصل في أول العقيدة استغنى عنها في آخرها.

ولما ذكر من جملة الجائزات بعثةَ الرّسل تعرض لما يجب اعتقاده فيهم، ولوجوب الإيمان بما أتوا به، والعمل بما بيّنوه من قضايا التكليف، وذكر أن أصول الحكم الكتاب والسنّة والإجماع. وعرّف الإجماعَ وذكر بعضاً مما أجمعت الأمة عليه، ثم أفضى إلى ذكر الإمامة فقال:

«ومن الجائزات عقدُ الإمامة، ولها شرائط، منها أن يكون قُرَشياً وأن يكون مجتهداً مفتياً، وأن يكون ذا كفاية ونَجْدة في نزول الدواهي والملمات، وليس من شرطها أن يكون معصوماً إذ لا معصوم إلا الأنبياء عليهم السلام، وليس من شرطها أن تثبت نصاً بل تثبت نصاً واجتهاداً، وهذا ما أجمعت عليه الصحابة رضي الله عنهم أجمعين».

ثم ختم بذكر أفضل الأمة بعد نبيها ﷺ على ما هو معلوم.

وهذه الفقرة المتعلقة بالإمامة هي مما يدل على جرأة السلالجي وعدم مبالاته بالخطر في جانب الحقّ يقولُه، والسنةِ ينصرُها إذ لا يخفى أن مذهب الدولة كان مبنياً على المقالة الشيعية من الوصية والعصمة، وقد نفى الأولى بقوله: «وليس من شرطها أن تثبت نصاً»، ونفى الثانية مطلقاً عن غير الأنبياء، والقوم قد بلغ من تعصبهم لها أن قتلوا على نفيها. فهذا ما جعل الناس تُكْبِرُ المترجمَ وتُجِلُّه وتقول: إنه

ضَريبُ الأستاذ أبي المعالي، وأنه أنقذ أهل فاس من التجسيم، إذ أنها لم ترَ فيه إلا مكافحاً في سبيل الحقيقة منافحاً عن حريم الدين، فرحمه الله وقدّس روحه.

وكانت وفاته كما قال تلميذه أبو الحسن بن عتيق حسبما في «شرح المديوني»، في ليلة الأحد لثلث الليل الأخير من ليلة أحد وعشرين من جمادى الأخيرة عام أربعة وسبعين وخمسمائة.

ودفن خارج باب الجيزيين[1] من مدينة فاس، عُدوةِ الأندلس عند قبر درّاس بن إسماعيل، وصلّى عليه الفقيه أبو محمد عبدالحق بن عبدالرحمٰن بن خَنُوشة. وحضرَه من الخلق جمع عظيم وحفلٌ شنيع، وأسِفَ الناس لفقده ودعوا له.

وهذا الذي ذكره ابن عتيق في وفاته هو الذي في الوفيات لابن قُنفُذ القُسَنْطِيني، وفي نظمها للفشتالي، قال مُشيراً إلى وفاة أبي يَعْزَى يَلَنّور بن عبدالله بقوله: (سرّكما) وإلى وفاة السلالجي بقوله: (لتقدم) من هذا البيت:

(يلنّور) فيه النجح (سرّكما) معاً

(لتقدم) عن (سلالجيّ) بمكلله

ومعلوم أن مجموع نقط حروف لتقدم بحساب الجمل هو ٥٧٤.

---

(١) ويقال لها: باب الحمراء وبه تعرف الآن.

وعليه فما في «التشوف» وتبعه عليه صاحبا «الجذوة» و«السلوة» من أنه توفي عام ٥٦٤ لا يعول عليه.

ونقل ابن القاضي عن بعضهم أن وفاته كانت سنة ٥٩٤، وحكاه أيضاً في السلوة، ولا شك أن تسعين هذه إنما هي تصحيف سبعين والله أعلم.

ولم يذكر ابنُ الأبار في ترجمته له تاريخَ وفاته وهي ترجمة صغيرة في بضعة سطور.

* * *

أبو الحسن المسفر
(من رجال القرن السادس)

اسمه ونسبه، بدايته المجهولة، قول ابن العربي الحاتمي فيه، مناقشة هذا الكلام للعياشي، إطباق المترجمين على عدم ذكر كتاب منهاج العابدين في مؤلفات الغزالي، قولهم في كتابي النفخ والتسوية والمضنون الكبير المنسوبين أيضاً للغزالي، قصيدته النونية في الموت وما بعده.

هو الشيخ الحكيم أبو الحسن بن خليل المسفر السبتي، عرف بلقب المسفر الذي يعني أنه من أهل صناعة تسفير الكتب، وربما كان من آل المسفر الأشراف الحسينيين المعروفين بفاس لأننا لم نعرف هذا الشيخ إلا من طريق ذكره عرضاً في كتاب «محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار» لابن عربي الحاتمي فلا نستطيع أن نجزم فيه بشيء.

قال ابن عربي: أنشدنا أبو عبدالله بن عبدالجليل قال: أنشدني أبو الحسن علي المسفر بسبتة لنفسه:

يا أيها المبتلي بذمي ... قد علم الله ما تقول

فالقول إن خفّ في لساني أخافني وزنه الثقيل
وحافظ كاتب شهيد يكتب عني الذي أقول
من حاسب النفس كل حين لم يتهاون بما يقول

ثم قال بإثر ذلك: «كان هذا الشيخ المسفر جليل القدر حكيماً عارفاً غامضاً في الناس مخمول الذكر، رأيته بسبتة؛ له تصانيف منها «منهاج العابدين» يعزى لأبي حامد الغزالي وليس له، وإنما هو من مصنفات هذا الشيخ وكذلك كتاب «النفخ والتسوية»، الذي يعزى إلى أبي حامد أيضاً، وتسميه الناس المضنون الصغير.

ولهذا الشيخ أيضاً القصيدة المشهورة وهي هذه:

قل لإخوان رأوني ميّتاً فبكوني وَرَثَوْني حزنا
أتظنون بأني ميتكم لست ذاك الميت واللّهِ أنا

إلى آخر القصيدة التي سنتكلم عنها فيما بعد.

هذا جملة ما ورد عن صاحبنا في كتاب المحاضرة وهو أمر مهم يدعو إلى إطالة التفكير في هذه الشخصية الغامضة التي كاد الإهمال يطويها من سجل التاريخ لولا تلك الإشارة العابرة من الشيخ محيي الدين رحمه الله. وعلى كل حال فالراوية ثقة لا يتطرق إليه الشك ألا ترى إلى روايته للأبيات الأربعة عن ابن عبدالجليل، أي: بالواسطة على الرغم من رؤيته للشيخ بسبتة؟ وهو مع ذلك من أرباب هذا الشأن وذوي الرسوخ فيه، فإذا قال عن «منهاج العابدين» إنه يعزى لأبي حامد وليس له وإنما هو

من مصنفات الشيخ، بهذه العبارات المفيدة لتأكيد مضمونها فإنه يعرف ما يقول ويعنيه. وكذلك يقال في كتاب «النفخ والتسوية» والقصيدة النونية التي نسبت أيضاً إلى الغزالي، وليس هذا فقط فإنا نجد في هذه الفذلكة من كلام الشيخ الأكبر جواباً عن تساؤل طالما ردده الباحثون في آثار الإمام الغزالي، وحلاً لمشكل يتعلق بفلسفة هذا المفكر العظيم.

ذلك أن كتاب «منهاج العابدين» لم يذكره ابن السبكي في جملة مؤلفات الغزالي أثناء ترجمته له في «طبقات الشافعية»، وقد لاحظ ذلك السيد مرتضى الزبيدي في شرح الإحياء وأشار إلى مقالة ابن عربي هذه. وقد يعني ذلك أن نسبة الكتاب إلى الغزالي لم تكن معروفة في كل الأوساط بحيث خفيت على ابن السبكي فلم يذكره ولو بهذه الصفة، وذلك مما يرجح أنه ليس من مؤلفاته.

وذكر أبو سالم العياشي في رحلته كلام ابن عربي هذا، ثم عقب عليه بما يلي:

«قلت: قد اشتهر واستفاض نسبة «منهاج العابدين» للغزالي، وقد كنت قبل رؤية هذا الكلام أعجب من كونه ليس جارياً على مذهبه، ولا هو مطابق لنَفَسه، وكنت أبحث كثيراً عن المشايخ الذين ينقل عنهم فيه حيث يقول: قال شيخنا أبو محمد: قال شيخنا أبو عمرو: ليس ذلك دأبه في مصنفاته وأنا مع ذلك لا أشك أن الكتاب له لاشتهار ذلك. وللإشارة فيه إلى «إحياء علوم الدين» ولنقله فيه عن إمام الحرمين سماعاً، فلما رأيت كلام الشيخ محيي الدين المتقدم

تيقنت أنه ليس له، لعدالة الشيخ محيي الدين وسعة علمه واطلاعه لا سيما وقد ذكر أنه يُعزى لأبي حامد فيما نفاه عنه مع علمه بالعزو المذكور إلا لعلم يقين حصل له بأنه لغيره مع شواهد القرائن المتقدمة، فإن كلام أبي حامد لا يكاد يخفى على من مارسه فإنه لسان وقته بلاغة وتحريراً.

وذو الذوق السليم يميز الكلامين، ويشهد لذلك أيضاً أن من عرف بالإمام أبي حامد من الأقدمين لم يذكروا هذا الكتاب في تآليفه، والله أعلم.

وهذا البحث المنهجي من أبي سالم العياشي ينفي كل ما بقي من احتمال صحة نسبة الكتاب المذكور إلى الإمام الغزالي وهو عند التحليل يرجع إلى العناصر التالية:

١ ـ أسلوبه غير أسلوب الغزالي فهو ليس جارياً على مذهبه ولا مطابقاً لنَفَسه. وقد توارد الدكتور زكي مبارك مع العلاَّمة أبي سالم على هذه العلة فقال في كتاب «الأخلاق» عند الغزالي: «ومن مؤلفاته الهامة في الأخلاق كتاب «منهاج العابدين» وهو آخر مصنفاته ولعل هذا هو السر فيما احتواه هذا الكتاب من مظاهر الضعف والاضطراب، وقد رأيتَ كيف اعتلَّت صحته بسبب العزلة. ونقل الزَّبيدي عن «المسامرة» لابن عربي أنه ليس له وإنما هو لأبي الحسن علي بن خليل السبتي وسترى بعد قليل ما زُوِّر باسم الغزالي من التأليف».

٢ ـ الأشياخ الذين ينقل عنهم ليسوا من أشياخ الغزالي

المعروفين. وقد كنت قبل وقوفي على كلام أبي سالم سلكت نفس الطريق في معرفة مدى توافق هذا الكتاب وكتاب «الإحياء» الذي وقعت الإشارة إليه فيه على أنه للمؤلف فوصلت للنتيجة نفسها وهي أن هؤلاء المشايخ لا ذكر لهم عند الغزالي.

٣ ـ عدالة الشيخ محيي الدين الذي نسب الكتاب لصاحبه الحقيقي مع معرفته لعزوه للغزالي وقد زدنا على ذلك فيما سبق أنه من أرباب هذا الشأن فلا يخفى عليه ما هو من كلام الغزالي وما هو من كلام غيره.

٤ ـ عدم ذكر هذا الكتاب في مؤلفات الغزالي عند من عرف به من الأقدمين وقد أشار الزَّبيدي إلى هذا الوجه فيما ألمعنا إليه سابقاً.

وبالرغم من القيمة العلمية لهذا البحث فإن المحقق أبا العباس الهلالي لم يقتنع به فكتب عليه في «نور البصر» بعد نقله له ما نصه: «قلت: ورأيت مكتوباً على نسخة «منهاج العابدين» منقولاً من خط الإمام القصّار أنه للغزالي وأنه آخر ما ألّفه. وأنه أنفع كتبه فيما أظن، وما ذكره ابن العربي إن صحّ فلعله كتاب آخر لابن المسفر وافق كتاب الغزالي في الاسم، وأما «منهاج العابدين» المشهور ففيه التصريح بأن مؤلفه هو مؤلف «الإحياء»، ففي رجوع الشيخ أبي سالم عن اعتقاده الأول إلى ما عند الحاتمي نظر، والله أعلم».

والعجب من الهلالي إذ يقول: «وما ذكره ابن العربي (إن صح) فلعله كتاب آخر لابن المسفر وافق كتاب الغزالي

في الاسم» وهو يرى أن الكلام كله مبني على نفي هذا المنهاج المنسوب للغزالي عنه وإثباته لمن هو له حقيقة. ثم هو يتشكك في رواية ابن عربي مع ما علم من عدالته وتثبُّته وكونه معاصراً لصاحبنا أبي الحسن المسفر، ويتمسك بما وُجِد منقولاً من خط الإمام القصار في صحة نسبة الكتاب إلى الغزالي، ولا يخلو أن يكون ذلك مجاراة للاعتقاد الشائع الذي لم يخفَ على أبي سالم. وأما ما جاء في الكتاب من التصريح بأن صاحبه هو مؤلف كتاب «الإحياء» فقد عرفه الجميع وهو ما حفَزهم على البحث في ذلك حتى تحققوا بعدم صحته وتطرقوا منه إلى ذكر ما نسب إلى الغزالي وغيره من الكتب التي ليست له ولا تتمثل فيها روحه. فلا شك عندي أن الهلالي لم يتأمل كلام العياشي ولذلك خانَهُ تحقيقُه.

هذا ما يتعلق بكتاب «منهاج العابدين» وأما كتاب «النفخ والتسوية» المعروف بالمضنون الصغير فإنه أيضاً لم يذكره ابن السبكي في تَعْداد مؤلفات الغزالي وذكر المضنون به على غير أهله أعني المضمون الكبير عَرضاً أثناء الدفاع عن أبي حامد ورد ما انتُقِد عليه وهذا نصه في ذلك: «وذكر ابن الصلاح أن كتاب المضنون المنسوب إليه معاذَ الله أن يكون له وبيَّن سبب كونه مختلفاً موضوعاً عليه. والأمر كما قال. وقد اشتمل المضنون على التصريح بقدم العالم ونفي علم القديم بالجزئيات ونفي الصفات وكل واحدة من هذه يُكفِّرُ الغزالي قائلها هو وأهلُ السنة أجمعون فكيف يتصور أنه يقولها؟».

فإذا كان ابن عربي إنما نفَى عن الغزالي المضنون

الصغير وإذا كان كلامه يقضي بأن المضنون الكبير هو للغزالي فهذا ابن السبكي لا يتعرض للمضنون الصغير بنفي ولا إثبات وينفي المضنون الكبير قطعاً عن الغزالي.

وربما يقول القارئ إن كلامه ليس نصاً في أحد المضنونين فبماذا حملتموه على الكبير؟ قلنا: إن وصف الكبير والصغير إنما هو اصطلاح حادث وإلا فالكبير اسمه المضنون به على غير أهله والصغير اسمه النفخ والتسوية. وأظن أن الناس أطلقوا عليه اسم المضنون الصغير من أجل تشابهه موضوعاً في الجملة مع المضنون به على غير أهله ثم لصغر حجمه عنه. على أن السيد مرتضى الزَّبيدي قد فصَّل الكلام عنهما تفصيلاً مما يفيد أن انتقاد ابن الصلاح مُوجَّه يقيناً للمضنون الكبير، فقد قال في التنبيه على ما عُزِي لأبي حامد من كتب ليست له: «ومنها كتاب «النفخ والتسوية» فإنه كذلك موضوع عليه، ومنها المضنون به على غير أهله قال ابن السبكي: ذكر ابن الصلاح أنه منسوب إليه وقال: معاذ الله أن يكون له» إلى آخر ما سبق نقله عن ابن السبكي.

وقال على إثره: (وهو عندي، وفي المسامرة ـ يعني: «محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار» لابن عربي ـ أنه من تأليف علي بن خليل السبتي وكذلك صرّح صاحب «تحفة الإرشاد» بأنه موضوع عليه وقد صنّف أبو بكر محمد بن عبدالله المالِقي كتاباً في رده وتوفي سنة ٧٥٠).

وقد عاد الزَّبيدي فخلط في هذا الكلام بين المضنونين إذ من المعلوم أن الذي ذكره ابن عربي هو الصغير. وعلى كلٍّ فقد أفاد هذا الكلام أن كليهما موضوع على الغزالي

وليس من تأليفه، وأن أحدهما وهو الكبير فيما يظهر لقي حملة عنيفة من لدن ابن الصَّلاح إلى أبي بكر المالِقي الذي ألّف كتاباً خاصاً في رده وقفتُ على تسميته عند النُّباهي في المَرْقَبة العليا بكتاب «السجوم الواكفة والظلال الوارفة»، في الرد على ما تضمنه المضنون به من اعتقادات الفلاسفة.

ولنا في سبب عزو كتاب النفخ والتسوية إلى الغزالي وتسميته المضنون الصغير رأي لا يبعد أن يكون صواباً وهو أن هذا الكتاب وضع بشكل أسئلة وأجوبة نسبت في طالعها إلى الغزالي ولذلك يسمى أيضاً كتاب «الأجوبة الغزالية في المسائل الأخروية» كما ثبت على ظهر النسخة المطبوعة منه فلعل صاحبنا الشيخ المسفر وضعه بهذا الشكل لترويجه ولضمان إقبال الناس عليه وهكذا جاء في أوله:

«سئل الشيخ الإمام الأجل الزاهد السيد حجة الإسلام زين الدين مُقتدَى الأمة قدوة الفريقين أبو حامد محمد بن محمد الغزالي قدّس الله روحه ونوّر ضريحه عن معنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ ما التسوية وما النفخ وما الروح؟ فقال: . . .» إلى آخره. فهذا الأسلوب الذي حرر به الكتاب مما يفيد أنه من إملاء الغزالي وإن كان هو في الواقع من تأليف المُسفِّر، جعل الناس ينسبونه للأول دون الثاني وتلاقيه مع المضمون به على غير أهله في بعض المسائل، وخاصة في الركن الرابع الذي يشتمل على أحوال ما بعد الموت مع كبر حجم هذا وتعرضه لمسائل لم يتعرض لها كتاب «النفخ والتسوية». كل ذلك مما أعطاه اسم المضنون الصغير.

على أن المهم في هذا كله هو حل المشكل الذي تعرض له ابن الصلاح وهو اقتضاء نسبة المضنون إلى الغزالي أنه يقول بِقِدَم العالَم وعدم علم القديم سبحانه وتعالى بالجزئيات ونفْي الصفات القديمة عنه وهو مذهب الفلاسفة الذي عُرِف الغزالي رحمه الله بالتفاني في دحضه وإقامة الأدلة على بطلانه كما يعلم من كتابه «تهافت الفلاسفة» وغيره، فجاء كلام ابن عربي في كتابه محاضرة الأبرار مُزِيحاً لهذه العلة مُزيلاً لهذه الشُّبهة حيث بيَّن أن الكتاب المذكور ليس له، وإنما هو لصاحبنا المُسفِّر كما جاء كلامه المشار إليه جواباً عن سؤال المشتَبِهين في نسبة كتاب «منهاج العابدين» للغزالي بعد أن درسوه ورأوه مخالفاً لطريقته ولا يشبه نَفَسه.

فإن قيل: إن الذي نفاه ابن عربي عن أبي حامد هو المضنون الصغير، والطعن المذكور إنما يتوجه إلى المضنون الكبير، قلنا: هذه مسألة أخرى تثير إشكالاً جديداً وهو أن كلاً من المضنونين اللذين بيدنا لا يوجد فيهما التصريح بشيء مما ذكره ابن الصلاح، عدا ما يوهمه كلامه في المضنون الصغير في فصل الروح من القول الأول أعني قدم العالم. وكذلك بعض فقرات من المضنون الكبير فلعل العبارات التي كانت صريحة في هذا المعنى جُرِّدت منه.

وثم في المضنون الصغير في الفصل المذكور عبارة تزري بالأشعرية والمعتزلة، وهذا بالنسبة إلى نفي الكتاب عن الغزالي مهم جداً لأن من المعروف أن أبا حامد كان أشعري العقيدة فهو لا يتوكأ على أصحابه بهذه الصورة.

ونتظر أخيراً في قصيدة صاحبنا النونية التي قال عنها ابن عربي: إنها قصيدة مشهورة فنجد أنها نُسِبت أيضاً إلى الغزالي، وقيل: إنها وجدت بعد موته تحت وسادته فأما نسبتها إليه فتُستفاد من شرح «الإحياء» للزَّبيدي حيث أنه قال في التنبيه الذي تقدمت الإشارة إليه على الكتب التي عُزِيت للغزالي ما نصه: (ومنها كتاب تحسين الظنون) وله فيها:

لا تظنُّوا الموتَ موتاً إنه ... لَحياةٌ وهي غايات المُنَى

أحسِنُوا الظن برب راحم ... تشكروا السعي وتأتوا أمَنا

ما أرى نفسي إلا أنتُمُ ... واعتقادي أنكم أنتمْ أنا

وهذه الأبيات هي من ضمن القصيدة التي نحن بصددها، فهذا ما يدل على نَحْلِها للغزالي. وأما أنها وُجِدت بعد موته تحت وَسادته فإنا رأينا ذلك مكتوباً على نسخة خطية منها. وقد علمت أن الشيخ الأكبر جَزَم بنسبتها لصاحبنا من غير أن يقول: إنها تُنسَب للغزالي كما قال في الكتابين السابقين من تأليفه فلم يبقَ شك في أنها للشيخ المُسفِّر.

وهذه القصيدة هي من الشعر الفلسفي الرفيع. وحقها أن تُقْرَن بِعَيْنية الشيخ الرئيس ابن سينا فإن كُلاً منهما تناول مطلباً مهماً من مطالب الفلسفة وصاغه صياغة شعرية جميلة يمتزج الخيال فيها بالحقيقة وحلَّق في سماء العقل يرود آفاق المعرفة من غير أن يفقد طبيعته السحرية الأخّاذة أو يَضِيع لحنُه الشجي الخالد.

وإذا كانت عينية ابن سينا تتناول موضوع النفس، فإن

نونية صاحبنا تتناول موضوع الموت وما بعد الطبيعة، فتعتبر الموت تحرراً من قيد السجن وانطلاقاً نحو حياة أفضل من هذه الحياة الدنيا هي ما كانت النفس تتمناه وترغب في التعرف إليه لتبلغ كمالها وتنعم أبداً في عالم قُدسي يُكشَف لها فيه الحجاب عن الحقائق العليا وتَعُود سِيرتَها الأولى من الفِطرة التي فطر الله عليها الناس. ويُتَلَمَّحُ من القصيدة القولُ بوحدة الوجود وهو من مذاهب الفلسفة التي أخذ بها كثير من المتصوفة كالشيخ الأكبر وغيره، وفي النص الذي أثبته الزَّبِيدي من كلام ابن عربي عن صاحبنا بعد قوله: رأيته بسبتة زيادة جملة لا توجد بنسخة المحاضرة المطبوعة وهي (وتباحثت معه) فلا شك أن مباحثاتِهما كانت في هذه المطالب وما شابهها. وكان ابن عربي حينئذ في عنفوان الشباب في سن الثلاثين فما إليها لأنه ولد سنة ٥٦٠ ورحل إلى المشرق رحلته التي لم يرجع منها قبل سنة ٥٩٨، وفي أثناء ذلك كان يقيم بإشبيلية، ويتردد على المغرب للدراسة والسياحة إذ ثبت أنه درس بسبتة وفاس على بعض علمائها.

أما صاحبُنا فالغالب أنه كان في نهاية عمره ويدل على ذلك أن ابن عربي روى الأبيات اللامية الأربعة من نظمه عن طريق بعض شيوخه فهو وإن لَقِيه يُعدُّ في رتبة مشيخة شيوخه، وبذلك نظن أنه لم يتجاوز القرن السادس فهو من رجاله.

والآن نقدم نص القصيدة كاملاً على ما حققناه من مقابلة النسخة المطبوعة بالمخطوطة التي عندنا وهي تزيد على المطبوعة خمسة أبيات مع اختلاف في الترتيب وفي

بعض الألفاظ وإن كان لفظ المطبوعة في بعض الأبيات يكون أوفق للمعنى أو أنسب للوزن، والأبيات الزائدة في مخطوطتنا هي: الثاني، والسادس، والتاسع، والثامن والعشرون، والواحد والثلاثون بترتيبها الذي اتبعناه لا ترجيحاً له ولكن لأن ترتيب المطبوعة هو تحت نظر كل واحد فنكون بهذا قد وضعنا النسختين معاً بين يدي من يهتم بدراسة القصيدة أو آثار الشيخ المُسفِّر جملةً:

١ ـ قُلْ لإخوانٍ رأوني مَيّتاً — فبكوني ورثَوْني حزَنا

٢ ـ أعلَى الغائِب مني حُزنُكم — أم على الحاضر مَعْكم هاهُنا

٣ ـ أتظنُّون بأني مَيْتُكمْ — ليس ذاك المَيْت واللّهِ أنا

٤ ـ أنا في الصُّور وهذا جسَدي — كان لِبْسي وقميصي زمَنا

٥ ـ أنا كنزٌ وحجابي طلْسَمٌ — من تُراب قد تهيَّا للفَنا

٦ ـ أنا دُرّ قد حواني صَدَفٌ — طِرتُ عنه فتخلّى رَهَنا

٧ ـ أنا عصفور وهذا قَفَصي — كان سِجْني فألِفْتُ السِّجنا

٨ ـ أشكر الله الذي خلَّصني — وبنَى لي في المعالي رُكْنا

٩ ـ كنت قبل اليوم ميْتاً بينكم — فحيِيتُ وخَلَعْت الكَفَنا

١٠ ـ فأنا اليوم أُناجِي مَلأً — وأرى اللّهَ جِهاراً علَنا

١١ ـ عاكِف في اللوح أقرا وأرى — كلَّ ما كان ويأتي وَدَنا

١٢ ـ وطعامي وشرابي واحِدٌ — هو رمزٌ فافهموه حَسَنا

١٣ ـ ليس خمراً سائغاً أو عسَلاً — لا ولا ماءً ولكن لَبَنا

١٤ ـ هو مشروب رسول الله إذْ — كان يَسْرِي فِطْرُه مع فِطْرنا

١٥ ـ فافهموا السر ففيه نبَأٌ — أيُّ معنى تحتَ لفْظ كمَنَا

١٦ ـ فاهدِموا بيتي ورُضُّوا قفَصي — وذَرُوا الطِّلْسَم بعدي وثَنَا

١٧ ـ وقميصي مزِّقُوه رِمَماً ودعـوا الـكـل دفِـينـاً بـيـنـنـا
١٨ ـ قد ترحلت وخلَّفتُكُم لست أرضى دارَكم لي وطنا
١٩ ـ حيٌّ ذي الدار نَؤُومٌ مغرق فـإذا مـات أطـار الـوسَـنـا
٢٠ ـ لا تظنوا الموت موتاً إنه لَـحـيـاةٌ هـي غـايـاتُ الـمُـنى
٢١ ـ لا تَرُعْكُمْ هجْمةُ الموت فما هـي إلا نُـقْـلـة مـن هَـاهُـنـا
٢٢ ـ فاخلعوا الأجساد عن أنفسكم تُـبـصِـروا الـحـق عِـيـانـاً بيِّنا
٢٣ ـ وخذُوا في الزاد جهداً لا تَنُوا ليس بـالـعـاقـل مِـنَّـا مَـن ونَـى
٢٤ ـ أحسنوا الظن برب راحم تشكروا السعي وتأتُوا أمَنا
٢٥ ـ ما أرى نَفْسيَ إلا أنتمُ واعـتـقـادي أنـكـمْ أنـتُـمْ أنـا
٢٦ ـ عُنصُر الأنفُس منا واحد وَكـذا الـجـسـم جـمـيـعاً عَـمَّـنا
٢٧ ـ فمتى ما كان خير فلَنا ومـتـى مـا كـان شـر فَـبِـنـا
٢٨ ـ فارحموني ترحموا أنفسكم واعـلـمـوا أنـكـمُ فـي إثْـرَنـا
٢٩ ـ أسأل الله لنفسي رحمةً رحـــم الله صـــديـــقـــاً أمَّـــنـــا
٣٠ ـ وعليكم من سلامي صيِّبٌ وســلام الله بَـــدْءاً وَثُـــنـــى
٣١ ـ أبدَ الدهر إلى يومٍ يَرى بعضُنا بعضاً لِرخب وَهَنا

* * *

ابن الياسمين
(ت ٦٠١ هـ)

هويته، شخصية أدبية ممتازة، عالم رياضي كبير، أرجوزته في علم الجبر، كتابه «تلقيح الأفكار»، حساب الغبار وأشكاله، حل مشكلة الأرقام العربية، وفاته.

العالم الرياضي الأديب أبو محمد عبدالله بن محمد بن حجّاج المعروف بابن الياسمين، من أهل مدينة (فاس)، بَرْبَرِيّ الأصل من بني حجاج أهل قلعة (فنْدلاوة). كذا عرف به في «الذخيرة السّنية» وحلاّه بالفقيه الحاسب. وبه تعلم أن وصف ابن سعيد المغربي له في كتاب «الغصون اليانعة» بالأشبِيلي، إنما هو جَرْي على عادتهم من اعتبار الشخص الذي أقام بقطر ما، من أهل ذلك القطر، ولو جرَيْنا نحن على هذا الاعتبار لتبَيّنّا أكثرَ نبغاء الأندلس في القرْنين الخامس والسادس وما بعدهما.

والياسمينُ اسمُ أمه نُسِبَ إليها وكانت سوداء، وكان هو أيضاً أسود ومنه يُعلم أن هذا الاسم في الإماء قديم.

قال في الذخيرة: أخذ عن أبي عبدالله بن قاسم عِلْمَ

الحساب والعَدَد وشارك في غير ذلك، وكان أحد خُدَّام المنصور (الموحّدي) ثم ولَدِهِ الناصر. وله أرجوزة في الجبر قُرِئتْ عليه وسمعت منه بـ(إشبيلية) سنة سبع وثمانين وخمسمائة، وقال في «الغصون اليانعة»: تخرّج بإشبيلية في فنون العلم. وكان أول تعلقهِ بالفقه والتوثيق. حتى صار من أعلام العارفين بالوثيقة. ثم اشتغل بالنظم والنثر وفنون الآداب فصار من أعلام الأدباء والكتّاب.

ويظهر من النصَّيْن أنه كان مشاركاً في الفقه والأدب زيادة على رسوخه في علم الحساب، وأن براعته في هذا العلم كانت بالأخذ عن ابن قاسم الذي خلفه بعد في نَشْرِه بإشبيلية.

ويُفيضُ ابنُ سعيد في الناحية الأدبية من ترجمة صاحبنا على حين أن الناحية العلمية لا تحظى منه بأدنى اهتمام ونحن نتتبع ما عنده في ذلك ثم نُعقِبُه بالكلام على الناحية الأخرى إذ كانت الشخصية الكاملة للمترجم لا تبرز إلا بتشخيصهما معاً.

ولقد حكى مما يدل على أوليته النابهة بأنه جاء بإشبيلية إلى شيخ طبيب فشكى إليه بتلهب مَعِدته وأنه لا يُشبعه شيء، فقال له وقد لمحَ عليه بوارِق السعادة: لا بد لك من أن تشتكي بِسُوء هضْم مَعِدتك. نعمْ وبِثَانية نَعمْ وبِثالثة. فمضت الأيام وطلع[1] إلى (مَرّاكش)، وبلغ المبلغ

---

(١) يقال: طلع المكان بلغه، والتعدية بإلى تقوية، وهو كذلك من المستعمل في العامية المغربية.

العظيم من مُجالَسة المنصور ومُسايَرته له إذا ركب في أسفاره، لافِتِتانه بحديثه وما يجد عنده مما لا يجده عند غيره. فاتفق أن طلع ذلك الطبيب إلى مراكش واجتمع به. فقال له: يا حكيم صدقتَ فيما أنذرتني به من سوء الهضم فما تراه؟ فدلّه على ما يصنع، ثم مضت الأيام فشكا له بالنّقْرس[1]، وقال: أظن هذه الثانية. قال: نعم، ثم أقام مدة ووقع اجتماعه به، فقال له: يا حكيم، صدقتَ في اثنتين فأين الثالثة؟ فقال: يا فقيه، بلغَتْني على ألسُن الناس ولو كانت علّة شكوتَ بها. فضحك أبو محمد وكان كثير الاحتمال والمُطايبَة. وأحسنَ للطبيب. وكان قبل ذلك لم يُفِضْ عليه من دنياه بشيء، قال ابن سعد: وإنما أشار الطبيب إلى الخلَّة التي اشتهرت عن ابن الياسمين، والله أعلم بالسرائر.

وظهر أن هذا الطبيب كان إلى جانب معرفته بطب الأبدان طبيباً نَفسانياً ولذلك تعرَّف على ما سيؤول إليه حال مُترجمنا من انحراف وشذوذ، إن صحّت هذه الحكاية. وهي على كل حال تدل على نشأته المدلَّلة وسماحة أخلاقه، وتدل على أنه كان بإشبيلية في عنفوان شبابه.

ثم أشار ابن سعيد إلى وفاته ذبيحاً بداره بمراكش والكيفية البَشِعة التي وُجد عليها بمثل الحال التي وُجد فيها الفتح بن خاقان صاحب (قلائِد العِقْيان) و(المطْمَح)، وتطرّق

---

(١) النقرس مرض، يسمى بداء الملوك وهو ألم يأخذ في الرِجل والقدم على الخصوص.

لذكر بعض أشعاره المكشوفة في هذا الصدد وحكى الحكاية الآتية عن أبي عِمْران الطرْيَاني: «قال: كنتُ في اليوم الذي أصبح فيه ابن الياسمين مذبوحاً عند الكاتب أبي الحسن بن عيَّاش، فبينا أنا ألاعبُه بالشطرنج إذ دخلت إليه أمَة له وألقت لديْه بَراءة عرَّفته أن امرأة دفعتها إليها، ورغبَت منها أن توصلها إلى سيدها، فقال: هذا وقتك؟ ولم يلتفت إليها، قال: فقلت له: ولعل فيها ما لا يجب تأخيره، قال: ولعلّ، ثم أخذها وقرأها، فإذا بوجْهِه تغيَّر ثم ضحك ورَمَى بها إليَّ، وقال: انظرْ هذا الذي لا يجب تأخيره، فقرأتها فإذا فيها:

هـذا ابـنُ حـجَّـاجٍ تـفـاقـمَ أمـرُه
وجـرَى وجـرَّ لِـحـدّ غـايـتِـه الـرسَـنْ
حـتـى غـدا مُـلـقـى ذبـيـحـاً حـاكـيـاً
لـلـنـاس رقْـدتَـه إذا هـجـرَ الـوسَـنْ
فـلْـيَـحـذرَ الـكُـتَّـابُ مـا قـد غـالَـه
وأخُصّ بـيـنـهـمُ الـفـقـيـهَ أبـا الـحـسـنْ

فقلتُ: ومَن ترى قائل هذه الأبيات لعنه الله؟ قال: يا سبحان الله! وهل صاحبُها غيرُ الكورائي[1] (الجراوي) الذي طبعه الله على ألاّ يُضيّع فرصة من فُرَص الأذِيَّة؟ قال أبو عِمْران: ثم اشتهر بعد ذلك قول الكورائي (الجراوي) في تلك القضية مُعرِّضاً بابن عياش:

---

(١) يعرفه ابن سعيد بالكورائي ويختلف نسبه كذلك عند غيره من المؤرخين، وهو الجراوي. انظر الحلقة الخامسة من «سلسلة ذكريات مشاهير المغرب».

فليحذر الكُتَّابُ ما قد غاله وأخصّ من بين الجميع فُلانا

فحصل التحقيق بأنه قائلُ ما تقدم.

ومما وقع بينه وبين الشاعر أبي العباس الجرّاوي أن هذا هجاه بقوله:

إسْتُ الحُبارى ورأسُ النَّسْر بينهما
لَوْنُ الغُراب وأنفاسٌ من الجُعَلِ
خُذْها إليكَ بحكم الوَزْن أربعة
كالنعت والعطف والتوكيد والبدلِ

فاشتهر قولُه بين الناس حتى استفزَّ حِلْمَ ابن الياسمين فقال يُجيبه:

يا أعرَقَ الناس في نسْل اليهود[1] ومَن
تأبَى شمائلُه التفصيل للجُمَلِ
خذها بِحُكْم اجتماع الذم واحدة
تُغْني عن العطف والتوكيد والبدلِ

ثم قال ابن سعيد: وله مُوشَّحات يُغنَّى بها، وأمداح في المنصور والناصر. وأمثلُ ما وقع من ذلك قوله من قصيدة منصورية ذكر فيها قطع المنصور الاشتغال بكتب الفروع والاقتصار على ما ثبت من الأحاديث النبوية:

أسيدَنا قد وردتُم بِنا مَواردَ كنَّا عليها نَحُومْ

---

(١) نسبة إلى اليهود؛ لأن القبيلة التي هو منها كانت على اليهودية قبل الإسلام.

نـبـذتُـم مـقـالـةَ هـذا وذا فـزال الـمِـراءُ وقـلَّ الـخـصـومْ
وأثـبـتُّـمُ قـولَ مـن لـفـظُـه هـو الـحق والـشـرعُ منه يقومْ
فـلا زِلـتُـمُ لـكـمـال الـهـدى وإحـيـاءِ دارِس دِرْس الـعـلـومْ

وقوله من قصيدة ناصِرية:

عجبتُ لمن يراك وبعد هذا يحاولُ أن يرى ملِكاً سواكا
وقد جمع الإلهُ لديك ما قد تفرّق في البرية مِن حُلاكا
ومـا أحـدٌ يـؤمّ ذَراك يـومـاً فيـختـار الـترحُّـلَ عن ذَراكا
فسبحانَ الذي أعطاك مُلْكاً على مِقْدار ما أعلى عُلاكا

قال: وخرج ابن الياسمين إلى بعض بَحائِر مراكش فنظر إلى زهر نارَنْج فاستحثّ على وصفه مَن كان معه من أهل الشعر والأدب، فقال كل واحد منهم على ما أعطاه فكره فلم يحفظ من ذلك إلا قول ابن الياسمين:

جـاء الـربـيـع وهـذا أولـى الـبـشـائـر مـنـه
كـأنـمـا هـو ثـغـرٌ قـد جـاء يـضـحـك عـنـه

وختم ابن سعيد ترجمة صاحبنا بهذه المحاورة الشعرية التي جرت بينه وبين أبي الحجّاج ابن نَمَوي أحد كبار علماء فاس، وكان حضر إلى مراكش فَاسْتُحْسِنَتْ مُذاكرتُه بها وأُحسِن إليه وخُلِع عليه على حسب ما ذكره (أبو الوليد الشقُنْدي) في معجمه ومنه نقل ابن سعيد. قال: وحضر مع ابن الياسمين فاستقبَح صورته واستحسن كلامه فقال فيه:

أيـهـا الـلابـسُ لـونَ الـ ـلـيـل ثـوبـاً حـيـن أظـلـمْ
والـذي يُـضـمِـر داءً مـنـه يـومـاً مـا تـألـمْ

أنت من أقبح خلق الله ما لم تتكلمْ
بشذور باهراتٍ ساحراتٍ لو تُجَسَّمْ
أصبحتْ في كل جيد حسنٍ عقداً مُنظَّمْ

فلما بلغ ذلك ابن الياسمين قال:

أيها الفَاسي أتى ريـ ـحُك قبلَ النجْو يفْغَمْ
في قريظ حسَن الصّو رة بالهجْو مُجذَّمْ
فقبلْناه وقد جا ء لنا بالمدح مُعلَمْ
ثم قلنا بمزاح منك يوماً ليس يُعدَمْ
إنما الشأن فقِيهٌ عالِمٌ ليس يعلَمْ
لا تراه الدهرَ إلاَّ بِغَرِيم الكأس مُغْرَمْ
يرفُضُ النفلَ مع الفَرْ ض! أوَانَ الزّير والبَمْ[1]
وإذا صلَّى رياء كان فيها مثلَ أبكَمْ
في ثياب كربيع قد سرى فيها المحرّمْ
ذا جوابي وهو ظُلْمٌ لكَ والبادِىء أظلَمْ

قال الشقُنْدي: هذان الشّعْران بمنزلة الشعْرَيَين، وكلاهما عينٌ في مقابلة عيْن... وناهيك بها شهادة من الشقنْدي صاحب الرسالة المعروفة في الإزراء على أدباء المغرب وشعرائه.

* * *

وإلى هنا، نكون قد انتهيْنا من ترجمة ابن الياسمين

(١) الزير وتر رقيق، والبم بخلافه وتر غليظ.

الأدبية. وقد عرَفْنا عنه أنه أديب مُمْتِع حسنَ الحديث فَكِه المَخْضَر مع سماحة نفْس وطِيب خلق، وبذلك تأهَّل لمجالسة المنصور والناصرِ والكونِ في مَعِيَّتهما. وأما حظه من الشعر فكان، كما رأينا في هذه النماذج من نظمه، ليس بالقليل فهو يُزاحم الشعراء والفقهاء بمنكِبَيْه ولا يُقصّر في الغالب عن إجادة وإن كانت ميزته هي المحاضرة بعلمه وأدبه والحديث الطَّلِيّ الذي يرغب فيه ولذلك حلاَّه ابن سعيد بقوله الحلِيس المتفنّن الكاتب.

بقيت الناحية العلمية من ترجمته، وهي التي قامت على شهرته بالبراعة في علم الحساب والجَبْر. وهو لذلك يُعدّ من ألمع علماء العرب شهرة في الرياضيات، وقد تقدمت الإشارة إلى أرجوزته في علم الجبْر التي أخذت عنه بأشبيلية، وهي تبدأ بمقدِّمة، في العدد الصحيح وأبواب في الجمع والطرح والضرب والقسمة وحلّ العدد إلى أصوله، ثم مُقدّمة في الكسور وأبواب في الجبْر أي جبر الكسور والحطّ وهو عكسُ جبْر الكسور والصرف وطرُق استخدام المجهولات، وأخيراً ينتقل إلى علم الجبر والمقابلة وهو أهمّ أبواب الأرجوزة وأنفَسُها[1] وقد شرحها كثير من علماء الفن كالْمارديني والقَلصادِي وابن الهائِم وغيرهم، ومنهم من اقتصر على شرح القسم الأخير منها وهو المتعلق بالجبر والمقابلة لعظم نفعه وكثرة فائدته، وفي هذه الأرجوزة تُوجد

---

(١) قدري طوقان في كتابه «تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك» ص١١١.

خُلاصة كثير من القوانين والمُعادَلات الجبْرية التي تتضمنها كتب الجبر الحديثة، وهي تدل على تضلُّع الناظم في الجبر وبُعْد غَوْره فيه كما تدل على أن ثروته الأدبية لا يستهان بها فلولا إحاطتُه بالجبر والشعر إحاطة كلية لما استطاع أن يضعهما في قالب جذّاب[1].

ومثال منها قوله في معنى الجبر والمقابلة:

وكل ما استثنيتَ في المسائل ... صَيّرْهُ إيجاباً مع المعادل

وبعد ما يُجبر فليقابل ... بطرْح ما نظيره يماثل

وقوله في أحكام الجبر:

على ثلاثة يدورُ الجبْرُ ... المالُ والأعداد ثم الجذْرُ

فالمال كُلّ عدد مربعِ ... وجذره واحد تلك الأضلعِ

والعددُ المطلَق ما لم يُنسبِ ... للمال أو للجذر فاحكم تصِبِ

فبعضُها يعدل بعضاً عدداً ... مركباً مع غيره أو مُفرَدا

فتلك سِتّ نصفُها مركبة ... ونصفها بسيطة مرتبة

والجذر والشيء بمعنى واحدِ ... كالقول في لفظ أب ووالد

إلخ...

* * *

ولابن الياسمين أيضاً كتاب «تلقيح الأفكار في العمل برسوم الغُبار» ويوجد مخطوطاً في الخزانة العامة بالرباط ضِمْنَ كتب المكتبة الكتّانية. وهو كتاب له أهمية عِلميَّة

---

(١) الكاتب نفسه في مجلة الرسالة العدد ٦٣.

وتاريخية كبيرة. أما العِلْمية: فتظهر من مُحتوياته وقد جعله على خمسة أبواب تتضمن أربعين فصلاً.

فالباب الأول: في العدد الصحيح وما يتعلق به، وينقسم إلى خمسة فصول:

الفصل الأول: في ضرب الأعداد بعضِها في بعض.

الفصل الثاني: في قسمة الأعداد بعضِها على بعض.

الفصل الثالث: في تسمية الأعداد بعضِها من بعض.

الفصل الرابع: في جمع الأعداد بعضِها إلى بعض.

الفصل الخامس: في طرح الأعداد بعضِها من بعض.

والباب الثاني: في الكسور وما يتعلق بها، وينقسم إلى أحد عشر فصلاً:

الفصل الأول: في ضرب الكسور المتصلة وأخذ بَسْطها.

الفصل الثاني: في ضرب الكسور المنفصلة.

الفصل الثالث: في ضرب الكسور المبعَّضة على اختلافها.

الفصل الرابع: في ضرب الكسور المستثنى منها على اختلافها.

الفصل الخامس: في جمع الكسور بعضِها إلى بعض.

الفصل السادس: في طرح الكسور بعضِها من بعض.

الفصل السابع: في صرف الكسور من اسم إلى اسم.

الفصل الثامن: في قسمة الكسور بعضِها على بعض.

الفصل التاسع: في معرفة تسمية الكسور بعضِها من بعض.

الفصل العاشر: في معرفة تركيب الكسور.

الفصل الحادي عشر: في جبر الكسور.

والباب الثالث: في فوائد لا يُستغنى عنها فيما تقدم من المسائل، وينقسم إلى أربعة فصول:

الفصل الأول: في معرفة الطروحات التي يستدل بها على الصواب من الخطإ.

الفصل الثاني: في معرفة ما للعدد من المقامات في القسمة وغيرها.

الفصل الثالث: في الأجزاء التي لا تنقسم.

الفصل الرابع: في حكم التكرار من الآلاف.

والباب الرابع: في استخراج الأحوال المجهولة وينقسم إلى أحد عشر فصلاً:

الفصل الأول: في جمع الأموال لِمُجرَّد الكسور.

الفصل الثاني: في جمع الأموال بزيادة الدراهم.

الفصل الثالث: في جمع الأموال باستثناء دراهم من كسورها.

الفصل الرابع: في جمع الأموال باستثناء دراهم من كسرها وزيادة دراهم في كسر آخر.

الفصل الخامس: في جمع الأموال بلا مَثِيل.

الفصل السادس: في الأموال المختلفة.

الفصل السابع: في طرح الأموال.

الفصل الثامن: في ضرب الأموال.

الفصل التاسع: في جمع الأموال.

الفصل العاشر: في أنواع شتَّى من الأموال.

الفصل الحادي عشر: في امتحان الأموال.

والباب الخامس: في أشياء يُحتاج إليها في الجبر والمقابلة وينقسم إلى تسعة فصول:

الفصل الأول: في المسائل الست التي يُحتاج إليها في الجبر.

الفصل الثاني: في أخذ الجذور.

الفصل الثالث: في ضرب الأجذار بعضِها في بعض.

الفصل الرابع: في قسمة الأجذار بعضِها على بعض وتسميتها.

الفصل الخامس: في جمع الأجذار بعضِها إلى بعض.

الفصل السادس: في طرح الأجذار بعضِها من بعض.

الفصل السابع: في ضرب كسور الأجذار.

الفصل الثامن: في أخذ المكعبات.

الفصل التاسع: في مسائل من المساحة مقرّبة إن شاء الله.

والدارس لفصول الكتاب لا بد أن يقف على دلائل كثيرة تُعرّفه بعبقرية صاحبنا في هذا الفن وتُظهره منه على ذِهْنية رياضية قلَّما توفرت إلا للأفذاذ من العلماء. وعلى حسب ما يظهر فإن هذا الكتاب جمعه من مذكراته التي كان يلقيها دروساً على الطلبة، فإنه يقول في مقدمته: «كنت في مدة تعلمي الحساب أثبِت مسألة من كل نوع من أنواعه مخافة اختلافه في حين إهماله... فأكثر جماعة من الإخوان البحث عنها ورغبوا في انتساخ ما تحصل منها، فدفعت إليهم ما كان عندي، فلم يعد منها شيء إليّ... وكان من جملة من رغب فيها أخَوَا صدق، وصديقا حق، فقدّر الله عزَّ وجلَّ إهمالها قبل أخذهما لها. فلم أزل أمطُلُهما وأسوِّف، وأعِدُهما وأخلِف وكل ذلك لا ينقض عهدهما، ولا يُحيل ودهما إلى أن فتح الله العليم في وجود بعض مسائل منها عند بعض إخواني، فحمدت الله عزّ وجل على ذلك كثيراً، وصرفت الهمة إلى جمعها وأضفتُ ما لا غِنى عن معرفته منها مثل جمع الأموال وطرحها وضربها وامتحانها، واختلاف أعمالها لاختلاف معانيها وما يستحيل منها وبعض ما يتصرف فيها من وجوه الأعمال مثل الجبر والقياس ومثل المكعبات... إلخ».

* * *

وأما أهميتُه التاريخية فإنها في إشارته إلى أصل الأرقام الحسابية المعروفة بالغُبار ووجه تسميتها بذلك وأنها ـ وهذا من الأهمية بمكان ـ لها شكلان، شكل هو هذا المستعمل بالمغرب وشكل هو المعروف بالأرقام الهندية. وهذه هي عبارته في ذلك أثناء المقدمة: واعلم أن الرسوم التي وُضعت للعدد تِسعةُ أشكال يتركب عليها جميع العدد، وهي التي تسمى أشكال الغُبار، وهي هذه (وهنا رسم أرقام الحساب كما نَرسُمها في المغرب من واحد إلى تسعة) وقد تكون أيضاً هكذا (وهنا رسمها بالشكل المعروف بالهندي) ثم قال: ولكن الناس عندنا على الوضع الأول. ولو اصطلحتَ مع نفسك على تبديلها أو عكسها لجاز. ووجه العمل على حاله لا يتبدل. وقد صنعها قوم من جواهر الأرض مثل الحديد والنحاس من كل شيء منها أعداد كثيرة ويضرِبُ بها ما شاء من غير نقش ولا محو. وأما أهل الهند فإنهم يتخذون لوحاً أسودَ يمدُّون عليه الغبار وينقشون فيه ما شاؤوا. لذلك يسمى حِسَابَ الغُبار. وعلى الحقيقة ليس إلا المداد والمحو.

إن لهذه النبذة من القيمة التاريخية ما لا يخفى فإنها كشفت أن للشكلين المستعملين في البلاد العربية من هذه الأرقام الحسابية أصلاً واحداً وأنهما قديماً كانا مستعملين هنا وهناك. فإن صاحبنا يقول: (ولو اصطلحت مع نفسك على تبديلها أو عكسها لجاز) وهذا واقع فإننا نجدهما في بعض المخطوطات مما يقرب من عصر المؤلف (القرن السادس) يَتقارَضان كما أنها تُثبتُ اشتراكهما معاً في التسمية بحروف

الغُبار أو برسومه جزئياً على اصطلاح المؤلف. وقد كان هذا بحسب الأصل، وإن كان هذا الاسم فيما بعدُ كاد يختص بالأرقام المستعملة في المغرب في حين أن الأرقام المستعملة في الشرق اشتهرت بالأرقام الهندية والهنود هم الذين كانوا يتخذون طريقة الرقم على الغُبار في الأعمال الحسابية فأطلق على هذه الأرقام بملاحظة تلك الطريقة اسم الغُبار والغُبارى والغُبارية، يبقى أن أرقامنا المغربية التي اشتهرت أيضاً بالأرقام العربية عند الغربيين إنما جاءها هذا الاسم من اقتباس الغربيين لها عن طريق المغرب العربي بواسطة (البابا سلفستري الثاني) أو غيره الذي تعلَّمهما في الأندلس أو هنا في المغرب ولا زائد، وإلا فالشكلان معاً غُباريّان بمعنى أنهما كانا يُستعمَلان في الأعمال الحسابية على الطريقة الهندية، وكانا مستعملين أيضاً عند أجدادنا العرب في المشرق والمغرب.

والسبب الذي اخترناهما له هو بعينه السبب الذي كان الحامل للغربيين على اختيار هذا الشكل المسمى عندهما بالعربي، وهو السهولة والوضوح واليُسر. وقد نوّه صاحبنا ابن الياسمين في خطبة كتابه الذي نحن بصدده، بهذه المزية التي لهما في هذه العبارة: (هذا العمل المعروف بالغُبار أقصر أنواع الحساب وأفيدها وأوضحها بجودة بيانه ويُلُوج بُرْهانه).

هذا هو ابن الياسمين العالم الرياضي الفذّ والأديب المحاضر الممتِع، لا نزعم أننا كتبنا ترجمة له، وإنما رسمنا الخطوط الأولى في ترجمته، وهو حريّ بأن يُخَصَّ ببحث

واسع مستقل يحلل شخصيته الأدبية، ويُبرز مظاهر نبوغه العلمي، وفي انتظار هذا البحث نؤمل أن يكون في هذا التعريف الموجز ما يعطي فكرة ولو مجملة عن حياته وإنتاجه.

وقد كانت وفاته رحمه الله سنة ٦٠١، وقيل: آخر سنة ٦٠٠، وعلى الأول اقتصر صاحب «الذخيرة السنية» وابن سعيد في «الغصون اليانعة».



أبو موسى الجزولي
(ت ٦٠٦ هـ)

اسمه ونسبه من جهة أبيه وأمه، تفسير معاني بعض الأسماء البربرية، طلبه للعلم وتجوله في البلدان، استقراره بمراكش، مَن أخذ عنه من العلماء، النهضة العلمية في عصره وإسهامه فيها بإنهاض علم النحو، مقدمته النحوية وقيمتها، كلام الناس فيها، بقية كتبه، شهرته واتصاله بالسلطان، وفاته ومدفنه.

عيسى بن عبدالعزيز بن يلبخت بن وَمَارِيلي الجُزولي اليَزْدَكْتَني، أبو موسى الإمام النحوي المشهور.

اسم جده الأدنى يلبخت بفتح الياء وتشديد اللام، وهو مركب من يلا والبخت، ويلا في لغة أهل سوس بمعنى له أو عنده فهو يعني صاحب البخت، واسم جده الأعلى وماريلي بفتح الواو التي بمعنى ابن، ثم ميم وألف وراء وياء مد ولام وياء مد فهو أيضاً اسم مركب من ابن، و(ماريلي) كذا ضبطه في كتاب الذيل والتكملة لابن عبدالملك المراكشي، نسخه العلاّمة المؤرخ السيد عباس بن

إبراهيم قاضي مراكش، ولم يفسر معنى ماريلي كما فسر الألفاظ الأخرى.

وجعل ابنُ خلكان يللبخت بلامين مفتوحة فساكنة مفكوك الإدغام، وأما الجد الأعلى فهو عنده يوماريلي بياء مضمومة بعدها واو ساكنة.

والجزولي نسبة إلى قبيلة جُزولة من قبائل سوس المشهورة بكثرة من نبغ منها من أهل العلم والفضل، والمعروف فيه الفتح وإن كان ابن خلكان يقول بضم الجيم، ويقول ابن عبدالملك بقاف معقود مضموم، والقاف المعقود هو الجيم المصرية، ولكن إن كان هذا يجري في اسم القبيلة فإن الجاري على الألسنة في النسبة إليها هو الجيم المفتوحة كما في اسم نسيبه محمد بن سليمان الجَزولي صاحب كتاب «دلائل الخيرات» وغيره، فقد عرب هذا الاسم أو بالأحرى هذا النسب ولم يبقَ لحكاية الأصل فيه موجب.

واليزدكتني بفتح الياء وإسكان الزاي وفتح الدال وإسكان الكاف وفتح التاء ونون، نسبة إلى بطن من جزولة.

وذكر ابن عبدالملك اسم أمه أيضاً وهو تيلمان بتشديد اللام بنت تيفاوت، ويقول: إن تين بمعنى صاحبة فركبت مع الأمان وسمى بها، وأن تيفاوت معناه الضياء، فإن كانت تين فيه بمعنى صاحبة أيضاً فهو اسم جدته لأمه... وهذا الأمر أعني ذكر اسم أم المترجم من أندَر شيء في كتب التراجم، وما أرى ابن عبدالملك ذكره إلا للإغراب بتفسير

معناه أو لأنه كان مشتهراً بأمه في الوسط المراكشي كما يحدث أحياناً في بعض الأعلام.

ولد أبو موسى بإيدا وغَرْدا من جزولة سنة ٥٤٠، وإيدا بكسر الهمزة معناه طائفة، ثم واو مفتوح بمعنى ابن، فغين مفتوحة فراء ساكنة بعدها دال غُفْل هذا الاسم معناه الفار، وأصله اغردا بمد أوله ولكنه يخفف بحذفه، والمقصود أن هذا الموضع يعرف ببني الفار وهو كالفخذ من البطن قبله، فما أشبه تقسيم القبيلة وأسماءها في البربرية بهما في العربية، ولتقرير هذا الشبه تتبعنا ذكر معاني هذه الألفاظ وليس الأمر كذلك في الفارسية مثلاً فإن كثيراً من أسماء الأعلام التي فسرت في تراجم أصحابها تعطي معاني غير ذات موضوع في العربية.

ولم يذكر أحد من المؤرخين تاريخ رحلة أبي موسى للمشرق ولا شيئاً عن نشأته وطلبه للعلم في بلاده، بل الذي يستفاد من ابن عبدالملك أنه لم يأخذ في هذا الشأن حتى حجّ وحضرَ مجلس ابن بَرّي بمصر، قال: «شرّق أبو موسى وحج وحضر بمصر مجلس أبي محمد عبدالله بن أبي الوَحْش بن عبدالجبار بن بَرّي رئيس النحويين بالبلاد المصرية والمرجوع إليه في وقته في علم العربية، وأبو موسى لا يُحْسِنُ شيئاً من النحو، فبِحُبّه في العلم ومواظبته على الطلب لم يمرّ له إلا القليل حتى فَهِم الطريقة وتكلم فيها مع أربابها» انتهى بتصرف قليل مُوجِبُه بعضُ المحو الموجود في النسخة المنقول عنها.

فهذا ما يقوله ابنُ عبدالملك في الذيل والتكملة عن

نشأته العلمية، وهو صريح في أنه لم يكن له إلمام بالعلم وعلى الأقل بصناعة النحو قبل مغادرتِه للمغرب، وكيفما كان فإن عُمْدتَه في هذا العلم وتخرُّجه إنما كان على يد شيخه ابن برّي المصري[1]، ومن ثمّ فإن حياته العلمية إنما بدأت في مصر.

قال ابن عبدالملك: «وعكف على قراءة النحو عند أبي محمد بن بَرّي وقرأ عليه «تاج اللغة وصحاح العربية» لأبي نصر إسماعيل بن حماد النيسابوري الجوهري وكتبه بخطه وروى أيضاً هنالك عن مهذب الدين أبي المحاسن مُهلّب ابن الحسن بن بركات بن علي بن غياث بن سلمان المُهلّبي النحوي اللغوي، وبالإسكندرية عن أبي الطاهر السِّلَفي وأبي حفص عمر بن أبي بكر بن إبراهيم التَمِيمي السعدي الصَقِلّي ثم قفل إلى المغرب فأقام بجزائر بني مَزْغَنّا (هي عاصمة الجزائر اليوم) أخذ بها عن أبي عبدالله بن إبراهيم أصول الفقه ولزمه حتى أتقنه ودرس أثناء مُقامه بها العربية فأخذ عنه بها حينئذٍ أبو زكرياء يحيى بن مُعْطٍ بن عبدالنور الزّواوي المستوطن بعدُ دِمَشْقَ المدعو هناك بزَيْن الدين ناظم الأرجوزة المهذبة في النحو الموسومة بـ«الدرة الألْفية في علم العربية»، وأبو عبدالله محمد بن قاسم بن مَنْداس وأخذ عنه بها أو بغيرها من بلاد إفريقية أبو زكرياء يحيى بن علي بن الحسين بن حَبُوس الهمداني وأبو عبدالله محمد بن علي بن بُلَقّين القَلْعي.

---

(١) وفي ترجمة ابن بري من «بغية الوعاة» أنه قرأ على الجزولي وهو سهو ظاهر.

ثم أجاز البحر إلى جزيرة الأندلس فكتب بالمَرِيّة زماناً وأخذ عنه بها من أهلها جماعة منهم أبو إسحٰق بن غالب وأبو عبدالله بن أحمد بن الشوّاش ثم عاد إلى العُدْوة وأخذ عن أبي محمد الحَجْري واستوطن مراكش وانتصب فيها لتدريس العربية فأخذ بها عنه أبو إدريس يعقوب بن يوسف الصنهاجي وأبو إسحٰق بن القشّاش شيخُنا وأبو بكر عبدالرحمٰن بن دحمان وأبو الحجاج بن عَلاءِ النّاس وأبو الحسن بن القَطّان وأبو زيد المكادي...».

وهكذا رحل أبو موسى إلى المشرق وغادر بلاده وهو نَكِرة من النكرات فلم يَعُدْ إليها إلا وهو علَم من أعلام العربية يشار إليه بالبنان ويتنافس في الأخذ عنه أينما حلّ من البلدان، وقد نشر علماً كثيراً في طريق عودته إلى المغرب بإفريقية والأندلس وتخرّج به الكثير من نحاة هذا البلد فلا نجد في عصره مُحققاً من أهل الفن ولا مُلِمًّا بأسرار العربية سواء في قُطر إفريقية أو الأندلس بَلْهَ المغرب إلا مَن كان من تلامذته أو من تلامذتهم.

... فهذا الغُبريني يقول في عُنوان «الدراية» عن شيخه أبي عبدالله محمد بن الحسن بن علي بن ميمون القَلْعي: «كان في علم العربية بارعاً مُقدّماً محكماً بفنونها الثلاثة: النحو واللغة والأدب، وكان له درس يحضره من الطلبة فضلاؤهم ونبهاؤهم وتجري فيه المذاكرات المختلفة في التفسير والحديث وأبيات الغريب وغيرها، وتمضي في ذلك من المعاني المنقحة ما لا يكاد يوجد مثله في نوادر الكتب، وكان رحمه الله قوياً في علم التصريف ومحباً في

التعليل وكان جارياً فيه على سنن أبي الفتح بن جنّي وكان كثير التلامذة والأصحاب وتقرأ عليه جميع الكتب النحوية واللغوية والأدبية ويقوم على جميعها أحسن قيام وهو أفضل مَن لقيت في علم العربية»، وشيخه هذا كان ممن أخذ عن أبي عبدالله بن منداس تلميذ الجزولي الذي تقدم أنه أخذ عنه بالجزائر.

... ويقول الغبريني أيضاً: «وحدثني بكتاب القانون لأبي موسى الجزولي الفقيه أبو عبدالله يعني ابن ميمون القلعي المذكور عن أبي عبدالله محمد بن قاسم بن منداس النحوي من أهل الجزائر عمَلِ بجاية وأصله من أشِير أخذ العربية عن أبي موسى الجزولي المذكور لقيه بالجزائر سنة ٥٤٣»، وقد تعمدنا ذكر هذا النقل لما فيه من زيادة النص على ما كان لأبي موسى من فضل في تجديد سَند العربية بأقطار المغرب في القرن السادس، وإنشاء المدرسة النحوية التي تهتم بالتقنين والتعليل، ولننبه أيضاً على ما فيه من غلط تاريخي ربما كان منشأه الخطأ المطبعي وهو كون ابن منداس لقي الجزولي بالجزائر سنة ٥٤٣! وهذا أمر لا يمكن بالنظر إلى تاريخ ولادة الجزولي التي كانت كما سبق عام ٥٤٠ فضلاً عن أن بقية كلام الغبريني ينقض بعضها بعضاً.

فقد قال عقب ما تقدم: «وتوفي أبو عبدالله بن منداس في أول المحرم سنة ٦٤٣، وولد أول ليلة من جمادى الأولى سنة ٥٥٧ وهو ابن ست وثمانين سنة إلا شهراً»، فكيف يكون ابن منداس لقي الجزولي سنة ٥٤٣ وهو لم يولد إلا سنة ٥٥٧؟ الحاصل أن هذه النبذة التاريخية من

كلام الغبريني فيها تخليط كثير، ومع ذلك فقد اعتمد عليها كاتب ترجمة الجزولي في دائرة المعارف الإسلامية (وهو نفسُه ناشرُ الغُبريني) وقال: كان في الجزائر عام ٥٤٣ (١١٤٨ ـ ١١٤٩) ولم يكن يلزمه إلا قليل من التأمّل ليعرف أن ذلك غير ممكن وأن النص فيه تحريف.

واستقر الجزولي بمراكش وهي يومئذ عاصمة الدولة الموحِّدِية، أعني عاصمة الأندلس والمغرب والجزائر وتونس وطرابلس الغرب، أزهى ما كانت حضارةً وتقدماً في العلوم والمعارف في عصر يعقوب المنصور واسطة عِقْد هذه الدولة الذي ملأ صيتُه الخافقين، وكانت مراكش في عهده تعج بكبار العلماء من الأطباء والفلاسفة والفقهاء والأدباء وأهل النظر في كل صناعة وفن، فلا جرمَ أن يتديرها أبو موسى وهو النحوي الممتاز بجودة الفكر وحسن التعليل فيكون إحدى دعائم النهضة التي شملت كل ميدان من ميدان النشاط العقلي في البلاد.

ومن طبيعة النهضة إذا وُجِدت أنها تعمُّ جميع مظاهر الحياة للأمة، وأنها تكون ذات نزعة خاصة تجذب إليها النظراء والأمثال، فالنحوي الذي يُعايِش مثل الطبيب ابن زُهر والفيلسوف ابن رشد وعشرات الفقهاء المجتهدين والأدباء المبتكرين لا بد أن يكون من طِراز أبي موسى ذا طريقة جديدة في النحو تُلائِم طبيعة النهضة العتيدة في إخضاع النحو وهو العلم النَّقْلي للقياس العقلي وتعليل قواعده وأحكامه، كما تُعلّلُ قواعد المنطق وأحكامه، ومن ثم كان أبو موسى منشىء مدرسة نحوية تخرّج فيها الكثير من علماء

الفن وتردد صداها في الأقطار العربية شرقاً وغرباً مدى أجيال عديدة.

ولسنا نزعم أنه أتى بنحو جديد ولا أنه أدخل إصلاحاً على النحو مما يتطلبه الجيل الحاضر الذي يميل إلى التبسيط كثيراً في قواعد هذا العلم، ولكن الذي نحقق أن الجزولي عَمِله هو أنه عمَد إلى طريقة بعض أوائل النحويين الذين كانوا يميلون إلى تعليل بعض قواعد النحو والنظر إليه على أنه علم ذو قوانين محكَمة فتوسع فيها ومزجها بشيء من المنطق، وكان وكْدُه أن يجمع أكثر ما يمكن من أحكام هذا العلم في أقلّ ما يمكن من الألفاظ فبلغ إلى مراده من ذلك وأوفى عليه.

ولا نظن أن مُقَدمته، واسمُها هذا اصطلاح من اصطلاحات المنطق، وكذا القانون اسمُها الآخَر تَقصُر عن أوسع كتب النحو جمعاً أو تَقِلّ عن أكثر مؤلفات من قبله من النحويين استيعاباً، هذا على صِغَر حَجْمها ولُطْف جِرْمها بحيث تُسمّى الكَرّاسة أيضاً، بل إننا نرى أنها اشتملت على حقائق ودقائق قلما توجد في غيرها من الأمهات، وهذا ما جعل لها مقاماً خاصاً بين كتب هذا العلم وجعل المختصّين به ينظرون إليها نظر إعجاب وإكبار.

يقول ابن خلّكان عنها في ترجمته له: «كان إماماً في علم النحو كثير الاطلاع على دقائقه وغريبه وشاذه، وصنّف فيه المقدمة التي سمّاها بالقانون ولقد أتى فيها بالعجائب وهي في غاية الإيجاز مع الاشتمال على كثير من النحو ولم

يُسبَق إلى مثلها، واعتنى بها جماعة من الفضلاء فشرحوها، ومنهم مَن وضع لها أمثلة ومع هذا كله فلا تُفهَم حقيقتها، وأكثر النحاة ممن لم يكن أخذها عن موقّف يعترفون بقصور أفهامهم عن إدراك مراده منها فإنها كلها رموز وإشارات، ولقد سمعتُ من بعض أئمة العربية المشار إليه في وقته وهو يقول: أنا ما أعرف هذه المقدمة وما يلزم من كوني ما أعرفها أني لا أعرف النحو، وبالجملة فقد أبدع فيها».

ويقول السيوطي في «بُغْية الوعاة»: «وله المقدمة المشهورة وهي حواشي على الجمل للزجاجي، وقال بعضهم: ليس فيها نحو وإنما هي منطق لحدودها وصناعتها العقلية» ثم أنشد للشيخ مجد الدين بن ظهير الإزبلي فيها:

مقدمةٌ في النحو ذاتُ نتيجة
تناهتْ فأغنت عن مقدمة أخرى
حبانا بها بحرٌ من العلم زاخرٌ
ولا عَجَبٌ للبحر أن يقذِفَ الدرّا

ويقول ابن مالك في شرحه لها كما بـ«كشف الظنون»: «إن كتاب القانون في النحو للشيخ الإمام الفاضل عيسى أبي موسى الجزولي وإن كان صغير الحجم لكنه كثير العلم، مستعصٍ عن الفهم، مشتمل على لباب الأدب، مُنْطوٍ على سر كلاَم العرب متضمن للنكات الغريبة التي خلا عنها أكثر شروح النحو ورأيت أكثر أهل عصرنا مائلين إلى حفظه لكنهم يعجزون عن فهمه حتى ظنّ بعضهم به أنه منطق أو أن أكثره منطق وليس فيه ما يتعلق بالبحث المنطقي سوى

فصلِ نَزْر من أوله، وقد كنت أكثرت من تتبع ألفاظه فأقبلت على شرحه».

فهذه أقوال أئمة النحو وجهابذة الفن تُثْبِتُ ما قلنا من أن الجزولي أتى في مقدمته بما لم يكن معهوداً لديهم وأنه امتاز بطريقة لخَصَتْ قواعد هذا العلم وأحكامه تلخيصاً بحيث ضمّن المقدمةَ وهي أوراق قليلة ما لا يكاد يوجد في الكتب الأمهات من أسرار العربية ونِكَات النحو، وذلك ما جعل ابن عرفة يقول: إنها تكفي المجتهد في مادة النحو على ما نُقِل عنه ونَاهِيك به!...

على أنه إذا كان لكل شيء ضد فإن هناك من النحاة مَن لم يكن يرى لها هذه القيمة كالأغْمَاتي النحوي المترجم في عنوان «الدراية» الذي يقول عنه أحدُ تلامذته: إنه كان من أعلم الناس بكتاب سيبويه وأعرفهم بمقاصده وأشدهم تنظيراً لمسائله، وأما كراسُ الجزولي ومُفَصّل الزمخشري فكانا عنده من المبادي فنزلت المقدمة عند هذا الرجل وقد علَتْ عند غيره حتى عزت على التناول.

ويرى بعضُهم أن ما فيها من صناعة المنطق جعلها تستعصي على الفهم ويبالغ غيره فيقول: إن ليس فيها نحو أصلاً وإنما هي منطق خالص والإنصاف هو ما قاله ابن مالك رحمه الله من أن ما يتعلق بالبحث المنطقي فيها فصل نزر في أولها يعني وإن كان ذلك لا ينفي الصّياغَة المنطقية التي صيغت بها من الحدود والتعاريف والقضايا الكلية التي تنطبق على الأحكام الجزئية.

والفصل الذي يشير إليه ابن مالك هو هذه الجمل الواقعة في افتتاح المقدمة ونصها: «الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع، كلّ جنس قُسِم إلى أنواعه أو نوع قسِم إلى أشخاصه، فاسمُ المقسوم يَصدقُ على الأنواع وعلى أشخاص الأنواع، وإلا فليست الأنواع أنواعاً له ولا الأشخاصُ أشخاصاً لتلك الأنواع، الاسم كل كلمة تدل على معنى في نفسها ولا يَتعرّض لزمانٍ وجودِ ذلك المعنى...» فهذه النبذة هي ما يتعلق بالبحث المنطقي الخالص من المقدمة.

ولعله إنما أتى بها في الافتتاح لينبّه على وجوب ملاحظة تلك القاعدة في كل حكم يأتي به فيما بعد، يدل على ذلك ما ذكره ابن قنفذ في وَفَياته من أن الأستاذ أبا عبدالله بن حَياتي وكان له تحقيق في النحو والقراءات، طلب منه بعضُ الناس أن يقرأ عليه الجزولية في النحو، فأخذها الأستاذ في يده وقصد الشيخ أبا العباس بن الشمّاع المراكشي لمعرفته بفن المنطق، وقرأ عليه استفتاحها في الجنس والنوع قال: وأنا حاضر ثم قرأها في عشية يومه وعُدّ ذلك من إنصافه وتحقيقه رحمه الله.

هذه ناحية المنطق في «الجزولية»، وثمّ ناحية أخرى نرى أن لها دَخلاً كبيراً في صعوبة فهمها وصِغَر حجمها وهي خلوها من التطبيق، فإنها كلها أحكام متتابعة متلاحقة، ولا شيء مما يوضح هذه الأحكام من الأمثلة والشواهد التي درَج النحاة على إيرادها وتوضيح المراد بها حتى أنهم يقولون بالمثال يتّضِحُ الحال، وليس في المقدمة تطبيق من هذا القبيل إلا في مواضع قليلة جداً، وذلك ما حدا ببعض

المعتنين بها أن يضع لها أمثلة كما قال ابن خلكان. وهي بالأمثلة المطلوبة والشواهد المقتضاة قد تبلُغ ضِعْفَ عددِ أوراقها فتصير الكراسة كراستين، ولكنها مع ذلك بالنظر إلى ما احتوته من المعلومات والفوائد النحوية تبقى مُركّزة تركيزاً تفوق به كثيراً من المطولات في هذا العلم.

ولعل من المفيد جداً أن ننقل فصلاً من فصولها يكون نموذجاً لأسلوبها وجمعها فإنها نادرة الوجود ولم ينشر منها شيء إلى الآن[1]، وقد توخّينا أن يكون الفصل المنقول وسَطاً بين السهولة والامتناع، وهو فصل الابتداء، قال فيه:

«باب الابتداء. الابتداء جعلُ الاسم أول الكلام معنى مسْنَداً إليه الخبر، وبه يرتفع المبتدأ والخبر جميعاً بشرط التّعرِيَة عن العوامل اللفظية والمبتدأ معتمَد البيان والخبر معتمَد الفائدة.

ويكون المبتدأ معرفة ونكرة، فالمعرفة بلا شرط والنكرة بشروط، منها الاعتماد على حرف نفي أو استفهام أو ظرف هو الخبر، ومنها الاختصاص، ومنها العموم، ومنها كون الكلام في معنى كلام آخر لا يُخِلّ بمعناه كونُ الاسم فيه نكرة ومنها أن يكون في النكرة معنى الدعاء.

خبر المبتدأ مفرد وجملةٌ، فالمفرد ثلاثة أقسام: قسم

---

(١) ونحن ننقل عن نسخة المكتبة التيمورية التي هي من أحسن النسخ خطاً وأتقنها ضبطاً وإن لم تخلُ من تحريف في بعض المواضع، وقد بعث لنا بمصورها صديقنا الأستاذ العالم الباحث السيد محمد بن تاويت الطنجي، فنشكره على ذلك أحر الشكر.

هو المبتدأ وينقسم قسمين: جامد ومشتق، ويلزم الضمير في المشتق، وقسم أقيم مقام شيء هو المبتدأ مبالغة في التشبيه، وقد يكون معه لا فيه ضميرٌ يعود على المبتدأ وقد لا يكون، وقسم هو معمول لما هو المبتدأ أو واقع موقعه وهو الظرف ويلزم فيه ضمير يعود على المبتدأ.

الجملة إما إسمية وإما فعلية وكلتاهما لا بد فيها من ضمير يعود على المبتدأ لفظاً أو نية إلا أن تكون في المعنى نفسَ المبتدأ وربما حُذِف الضمير للعلم به كما أنه ربما حذف المبتدأ مرة والخبر أخرى لدَلالة السياق عليه.

والمبتدأ مرتبته التقديم على الخبر ثم قد يُوضع غيرَ موضعه وقد يلزم فيه الأصل وقد يلزم فيه الفرع، وموضع لزوم الأصل إذا كان المبتدأ ضمير الشأن والقِصّة أو مُتضمّناً معنى حرفٍ له صدرُ الكلام أو مضافاً إلى ما يتضمنه أو كان معه لامِ التوكيد أو ما التعجبية أو كان الخبر محذوفاً والمبتدأ معرفة أو كانا معرفتين أو نكرتين متساويتَيْ المرتبة بُعْداً عن المعرفة ودُنُواً منها أو كان المبتدأ مشتبهاً بالخبر وقد يخرُج هذا أيضاً عن أصله في الشعر أو كان مخبراً عنه بفعله وربما استُجِيز خروجُ هذا أيضاً عن أصله في الكلام وهو ضعيف نحو قاما أخواك على أن الألف ضمير.

وقد يلزم إخراجُ الخبر عن أصله وذلك إن كان مفرداً وفيه معنى الاستفهام، أو كان ظرفاً لا يُسوّغ الابتداء بالنكرة سوى تقديمه عليها، أو كان المبتدأ متصلاً بضمير يعود عليه أو على شيء في الخبر، أو كان المبتدأ هو أن المفتوحة وما

عمِلَت فيه، أو كان محذوفاً والمبتدأ نكرة لا يبتدأ بها ما لم يتقدم عليها ظرف هو خبر لها...

هذا فصل من أقرب فصول المقدّمة تَناولاً وأقلّها تعليلاً، ومع ذلك فهو ممتلئ أشد ما يكون الامتلاء بالقواعد والأحكام وخالٍ مما يُوضّح شيئاً من ذلك بحيث لا بد لفهمه من الشرح والبيان وقراءته جملة جملة ثم تنزيل كلّ جملة على ما تصدق عليه من الأمثلة والشواهد، وهي غير موجودة فيه، فتُطلَب من خارج وذلك منشأ الصعوبة في المقدمة كما قلنا.

ولقد كان قوم من النحاة قبل الجزولي يتوخون فلسفة هذا العلم والمزْج بينه وبين المنطق، منهم الرمّاني الذي قال فيه أبو علي الفارسي: إن كان النحو ما يقوله الرماني فليس معنا منه شيء، وإن كان ما نقوله نحن فليس معه منه شيء، وهذه كلمة شبيهة بما قيل في «الجزولي» على ما تقدم عن ابن خلكان، وكان أبو علي الفارسي قد صنّف لعَضُد الدولة ابن بُوَيْه كتاب «الإيضاح في النحو» فاستقصره عضد الدولة وقال: ما زدت على ما أعرف شيئاً وإنما يصلح هذا للصبيان، فمضى وصنّف التكملة وحمَلها إليه فلما وقف عليها قال: غضب الشيخ وجاء بما لا نفهمه نحن ولا هو، فوقع أبو علي فيما عابه على الرمّاني!

وهذا شأن النحو بل العلم النّقْلي كله، إن ذهبتَ تُعلّلهُ وتفلسفه فإنه يفسُد ولا يبقى عليه رونق، فهو إما أن يكون مما يصلح للصبيان كالآجرُوميّة وإيضاح أبي علي وكالإقناع لأبي سعيد السّيرافي الذي قيل فيه وضعَ أبو سعيد النحوَ

على المزابل بكتاب الإقناع يعنون أنه سهّلَهُ جداً فلا تحتاج إلى مُفسّر، وإما أن يكون هكذا مما يتضجّر منه الناس.

ونرجع إلى قول السيوطي في المقدمة أنها حواشٍ على الجُمل للزجاجي فلا نرده إلا بأن الحاشية تكون توضيحاً (للمَتْن) ومُسايرة له في أبوابه ومقاصده، وليست المقدمة كذلك مع الجُمَل لأنه أحرى أن يكون توضيحاً لها ولا يقابِلُ ما فيه من السهولة إلا ما فيها من الامتناع، على أن ترتيبها مخالِفٌ لترتيبه في كثير من الأبواب، ولم يُذكَر فيها الجُمَل إلا مرة واحدة، وهذا فضلاً عن اختلاف الأسلوب والمادة في غالب الأحوال، ولولا خشية التطويل لنقلنا على وجه المثال باب الابتداء من الجمل لنرى عظيم الفرق بينها وبين باب الابتداء في المقدمة.

ثم إن هذا القول لم ينفرد به السيوطي فقد قاله قبله ابنُ الأبّار في التكملة ونصه: «وله مجموع على الجُمَل كثير الفائدة متداول يسمى بالقانون وقد نسب إلى غيره»، ويُرَدّ عليه بمثل ما رددنا به على السيوطي الذي كان في تعبيره أصرح من ابن الأبار فجعل المقدمة حواشي على الجمل على حين أن ابن الأبار إنما عبّر عنها بمجموع على الجمل.

والقول الذي هو أغرب من هذا كله ما أشار له ابن الأبار بقوله: «وقد نسب إلى غيره»، يعني أن هذا المجموع المسمى بالقانون ليس من تأليف الجزولي وإنما انتحله انتحالاً، ويفسر ذلك ابن خلكان حين يقول: «وذكر بعضُ المتأخرين في تصنيفه أنه كان قد قرأ الجُمَل على ابن بَريّ وسأله عن مسائل على أبواب الكتاب، فأجابه ابن بري عنها

وجرى فيها بحث بين الطلبة حصل منه فوائدُ علقها الجزولي مفردة فجاءت كالمقدمة فيها كلام غامض وعقود لطيفة وإشارات إلى أصول صناعة النحو غريبة، فنقلها الناس عنه واستفادوها منه، ثم قال هذا المصنف: وبلغني أنه كان إذا سئل عنها هل هي من تصنيفك؟ قال: لا؛ لأنه كان مُتورعاً، ولما كانت من نتائج خواطر الجماعة عند البحث ومن كلام شيخه ابن بَرّي لم يَسَعْه أن يقول: هي من تصنيفي وإن كانت منسوبة إليه لأنه هو الذي انفرد بترتيبها».

وأفصح عن ذلك ابنُ الزُّبَير في صِلَة الصّلة فقال: «هو جالب الكراسة المشهورة في العربية، يحمِلُ عن أبي محمد بن بَريّ نَحْويّ الديار المصرية قرأ عليه ولازمه في رحلته، ومن كلام ابن بري المذكور على الجمل علّق ذلك التأليف المنسوب عند كثير من الناس إلى جالِبه أبي موسى الجزولي. . .».

وقد ردّد الأستاذ ابنُ شنَب هذه التهمة في دائرة المعارف الإسلامية ونحن نحمد الله على أن المؤرخ النقاد ابن عبدالملك المراكشي قد كفانا مؤونة الرد على هذا القول في كتابه «الذيل والتكملة»، فنورد كلامه في ذلك مقتصرين عليه.

قال: «وله مُصنفات في النحو مفيدة أشهرها التقييد المحاذي به أبواب الجُمل للزجاجي المسمى بالاعتماد وبالقانون أيضاً الجاري عليه بين الناس اسم الكرّاسة الجزولية، ومن الناس وأكثرهم من الأندلسيين ينسُبها لشيخه أبي محمد بن برّي ويُذكَر عن أبي موسى أنه كان يقول:

إنها جَمْعُ تلامذةِ أبي محمد بن بري حسبما لَقِنُوه عنه، ومنهم من يأثرُ عن أبي موسى أنها من إملاءات ابن برّي على أبواب الجمل وأن أبا موسى كمّلها... وكل ذلك مما لا ينبغي التعريج عليه وإنما هي تقوُّلات حسَدَتِه المنافسين عليه، وإلا فلم تعرف إلا من قِبَل أبي موسى وقد أخذَها الناس عنه ودرسهم إياها ولم تشهر إلا له وقد وقفت على خطه في نسخ منها محمّلاً إياها بعض آخذيها عنه، ولم يأتِ بها أحد زاعماً أنه أخذها عن ابن بري على كثرة تلاميذه والآخذين عنه إلى عصرنا هذا، ولم يزل أبو موسى يتولى تهذيبها وتنقيحها والزيادةَ فيها والنقصَ منها وتغييرَ بعض عباراتها حسبما يؤديه إليه اجتهاده ويقتضيه اختباره، وشهيرُ ورعه يزَعُه عن التعرض إلى مثل هذه التصرفات في غير مُصنّفه، اللَّهمَّ إلا أن يكون ابن بري قد أذن له في ذلك وهو بعيد إن لم يكن باطلاً لِمَا تقدم من أنه لم يأتِ بها أحد عنه، ولا نسبها إليه منذ مائة وثلاثين سنة أو نحوها وهلُمّ جرًّا... وعلى الجملة فإنه كان راسخ القدم في النحو ولا سبيل إلى إنكار ذلك ومصنفاتُه تشهد بذلك...».

انتهى كلام ابن عبدالملك في هذا الصدد وهو واضح في أن حسَدته وخصوصاً من الأندلسيين الذين كانوا يضنُّون بكل شيء جميل على المغرب، والمغاربة[1] هم الذين أشَاعُوا هذه الشائعة، ويؤيده ما في رحلة ابن رُشَيْد نقلاً عن

---

(١) نتذكر هنا قول ابن الأبار في ابن المناصف: «وذكره في الغرباء لا يصح ضنانة بعلمه على العدوة».

برنامج شيخه أبي جعفر اللبْلي فقد ذكر «الجزولية» وقال: إنه سمعها تفقُّهاً بإشبيلية على الشَلَوبِين قال: ولم تكن له فيها رواية لأنه كان يعتقد فيها أنها ليست لأبي موسى وما ظنّه غير صحيح قال: وقد بيّنت ذلك في البرنامج الكبير، فالشلوبين إذن هو ممن روّج هذه التهمة، وإذا عرفنا أنه ممن غمَره أبو موسى بعلمه فلم يكن له معه ظهور ـ على ما يأتي قريباً ـ لم نستغرب أن يصدر منه ذلك.

ولأبي موسى تآليف أخرى غيرَ المقدمة وهي حسب ما عند السيوطي وابن خلكان وابن عبدالملك ودائرة المعارف الإسلامية سبعة بدون المقدمة:

١ ـ أمالي في النحو.

٢ ـ شرح على المقدمة.

٣ ـ شرح على الإيضاح لأبي علي الفارسي.

٤ ـ شرح على شواهده.

٥ ـ شرح على أصول ابن السرّاج.

٦ ـ شرح على قصيدة بانت سعاد.

٧ ـ مختصر شرح الفَسْر لابن جِني على ديوان المتنبي.

ثم تنبيهات وتعليقات على الكتاب لسيبويه و«المفصل» للزمخشري وغيرهما.

وقد شرح المقدمة فضلاً عن مؤلّفها كثيرٌ من مشايخ النحويين منهم أبو علي الشلوبين الذي كان يُنكِر نسبتَها

للجزولي، له عليها شرحان كبير وصغير وقفتُ عليهما في مكتبة الأسكوريال، إلا أن الكبير غيرُ تام، وممن شرحها أيضاً أحمد بن عبدالنور المالَقي المتوفى سنة ٧٠٢[1]، وعلم الدين القاسم بن أحمد اللّوْرقي المتوفى سنة ٦٦١، وسعد بن أحمد الجُذامي الأندلسي المتوفى سنة ٦٤٥، وابن مالك الشهير، وتقدمت خطبة شرحه لها وابن الفخّار وابن عُصْفور وابن مَيْمون القَلْعي متقدم الترجمة عن الغبريني وعز الدين العَجَمي وإبراهيم بن جعفر الإزبِلي وأحمد بن الخبّاز ومحمد بن عبدالرحمٰن الخزرجي الشاطبي وغيرهم.

وهذه العناية الكبيرة من علماء النحو بهذه المقدمة إن دلّت على شيء، فإنما تدل على أهميتها من الناحية الموضوعية، وما كان لها من أثَرٍ على سيْر الدراسات النحوية بالمشرق والمغرب من الناحية التاريخية.

وإذ فرغنا من الكلام على «الجزولية» فلنتكلم على مؤلفها قليلاً:

يحدثنا ابنُ عبدالملك عن أخلاق الجزولي وصفاته فيقول: «وكان كبير النحاة غيرَ مُدافَع... حافظاً للغة ضابطاً لما يُقيّد حسن الخط المشرقي وافِرَ الحظ من الفقه بارعاً في أصوله متعلقاً بطَرَف صالح من رواية الحديث مع الورع والزهد والتقشف والانقباض عن مخالطة الناس ومُداخلَة أبناء الدنيا وهو أول مَن أدخلَ صَحاحَ الجوهري إلى المغرب».

---

(١) قال في الإحاطة عند تعداد مؤلفات هذا الفاضل: وكتاب شرح الكامل لأبي موسى الجزولي يكون نحو الموطأ في الجرم.

ثم يقول في وصف مجلس إقرائه: «وقد حدثني غير واحد ممن قد لقيه أن الأستاذ أبا علي الشلوبين قَدِمَ إلى مراكش أولَ قَدَماته عليها وهو مستعد بما عنده للظهور على من اشتملت عليه (من أهل العلم) بالعربية فدخل إليها من باب دُكّالة أحدِ أبوابها الشمالية وكان أبو موسى في ذلك الوقت يُدرّس في مسجد على الطريق بمقْرُبة من ذلك الباب (فمرّ) به الأستاذ أبو علي وسمع أصواتَ طلبة العلم قد علت بالمذاكرة والمباحثة، فسأل عن ذلك فأُخبِرَ أنه مجلس بعض أساتيذ العربية، فدخل إليه متشوفاً ومتطلعاً على مراتِب طَلَبة مراكش في النحو، فألفاهم يتفاوضون في مسائل من النحو وبينما هو يستظرف مأخذَهم في المناظرة، دخل أبو موسى رجلاً رقيق الأدَمة تعلوه صُفْرة، ذا غَدِيرَتَيْنِ مُبْتَذَل المَلْبس على رأسه قَلَنْسُوةُ عَزف، على زِيّ ذوي المِهَن من برابرة البوادي، وعندما أطلّ عليهم سكتوا وسكنوا له إجلالاً.

ولما استقر بأبي موسى المجلس أخذ يتكلم في بعض أبواب العربية بضبْط قوانينها وتقييد مسائلها وإحكام أصولها بما لا عهد لأبي علي بمثله، فبُهِت عند ذلك وسُقِط في يده وقال: إذا كان مثلُ هذا الموضع الخامل الذي لا يكاد يُؤبَه له ولا يُعَدّ من كبار مجالس العلم لكونه في أُخْرَيات البلد، ينتصب للتدريس فيه مثلُ هذا البربري البعيد في بادئ الرأي عن التكلم فضلاً عن مثل هذا الاستبحار في النحو، فما الظن بالمجالس المختلفة والمساجد المشهورة التي يعتني بها ويمُدرّسيها ولاةُ الأمر ويعظمُ فيها الحفْل ويجتمع إليها أكابرُ طلبة العلم، هذا بلد لا أسُودُ فيه بعلمي!

فانكفأ للحين من ذلك الموضع ولم يحُلّ بمراكش

ولا حضر مجلساً من مجالس أساتيذها وعاد إلى بلده إشبيلية قاضياً العجب مما شاهده». وقد حكى أبو علي اليُوسي في كتابه القانون هذه الحكاية على وجه آخر فقال:

وحدثونا عن الأستاذ أبي علي الشلوبين أنه دخل حضرة مراكش حرسها الله فوجد الشيخ الجزولي النحوي رحم الله الجميع، يدرّس في مسجده علم العربية، فلما قعد إذا بين يديه حلقة من المبتدئين (وهو يخاطبهم) على قدر أفهامهم، فألقى عليه سؤالاً فأجابه بجواب مُتوسّط على قدرهم ثم ارتفعوا فجاءت حَلْقَةٌ أخرى للنجباء الشّادِين فكان يلقي حينئذٍ الأسئلة فيجيبه بغاية التحقيق والتدقيق».

وهذه الرواية على انقطاعها لا تعارض روايةَ ابن عبدالملك الذي يعتبر كالمعاصر للجزولي، وغاية ما تفيده أن الشلوبين كان هو المباشر للسؤال[1]، وهو كذلك يكون أكثرَ استعداداً للمنافسة والتحامل.

وأشار ابن عبدالملك إلى ما أدركه الجزولي من عظيم الشهرة فقال: «ولما شاع ذكرُ أبي موسى واشتهر أمرُه وعُرِف قدرُه تكاثرت طلبة العلم عليه، وانثالوا من كل حَدَب إليه، حتى ضاق عنهم ذلك المسجد الذي كان يدرس فيه، فانتقل إلى مسجد ابن الأبْكَم شماليّ محلّة الشرقيين أسفَل ممَرّ باب أغْمَات الأعظم إلى جهة العوّادين».

ثم ذكر اتصال خبره بالخليفة يعقوب المنصور الموحدي، وما كان من كشفه عن حاله لمَا بلغه من زهده

(١) ولعله بذلك جعله السيوطي في بغية الوعاة ممن أخذ عن الجزولي.

وورعه وافتتان الناس به، خشية أن يثور عليه منه شرّ، فبعث إلى وزيره أبي زيد بن يُوجَان ونقيب طلبة العلم أبي القاسم بن أبي محمد المالَقي وأمرهما بالتوجه إليه وإحضاره بين يديه، وأوعزَ إلى وزيره أنه إن وافقه على الوصول معه استصحبه مُكرّماً مبروراً وإن أبى أو تَلَكّأ ضربَ عُنقه في مجلسه وجاء إليه برأسه.

فتوجها إليه ولما دخلا عليه لم يعبأ بهما ولا عرف مَن هما وظنهما ممن يقصده لاقتباس العلم، فلما انتهيا إليه سلّما عليه فردّ عليهما السلام ومرّ في شأنه غيرَ مُعرّج عليهما فمكثا هنيئة فرأيا من حاله وهيئته ومعرفته وهيبته عند الحاضرين ما أوقع في نفوسهما إجلاله.

ثم دنا منه الوزير فقال له: أجِبْ أمير المؤمنين! فإنا رسُولاه إليك، فسَبْحل وحَسْبَل وحَوْقَل وقال: ما لي ولأمير المؤمنين، وأخذ يكررها فتشاغل عنه الوزير بالتكلم مع بعض من وَلِيَه من طلبة المجلس، وأشار إلى رئيس الطلبة بأن يلقي إليه ما يهوّن عليه إجابة الدعوة والعمل على إرضاء أمير المؤمنين ويُعرّض له بما تجرّه الإباية عن ذلك مما يحذر عليه، فلم يزل يتلطف به حتى أجابه إلى ما دعي إليه على كُره منه، وتوجه معهما وأخذ أبو القاسم يؤنسه ويلقي إليه صُورةَ لقائه المنصور كيف تكون ويؤكد عليه في موافقة أغراضه حتى انتهيا به إلى مجلس المنصور مُتلفّفاً في عباءة مُؤتزراً بقطعة ثوب من الصوف، فتعجب من هيئته واختبره بكل وجه واستنطقه فألفاه أحد رجال الكمال فصاحة وديناً وفضلاً وعلماً، فقرّبه وأدناه ولاطفه في المكالمة حتى آنسه

وأمر بنزع ما عليه من الثياب ولبس كسوة كاملة قد أُعِدّت له فامتثل ما أمر به عملاً على إشارة أبي القاسم، ثم صرفه مكرماً منوهاً به وأصحبه النقيب أبا القاسم ابن المالقي مؤنساً إياه، فلما انتهيا إلى باب السادة أحد أبواب القصر المفضية إلى ظاهره من خارج مراكش قُدّمت إليه بَغْلَة فارهة قد عُيّنت لركوبه فأشار عليه أبو القاسم بركوبها وتوجه معه نحو مراكش حتى دخلا على باب النصر وهو الجاري عليه اسم باب الرّبّ، وأبو موسى لا يعرف أين يتوجه حتى أفضيا إلى دار بمحلّة هَرْغَة، فدخلا عليها فوجداها كأحسن ما يكون قد جُهّزت بما يحتاج إليه مثله من كتب العلم والفُرش والبُسُط والأثاث والمواعن والخُرْثِيّ والأطعمة على اختلاف أنواعها، ولما استقرّا بالدار وتطوّفا عليها ورأيا جميع ما فيها أعلمه أبو القاسم أنها وجميع ما احتوت عليه ملك له وإنعام من أمير المؤمنين عليه وسلمها إليه وانصرف عنه.

وهذه الحكاية أشبه ما يكون بحكاية الطبيب أبي بكر بن زُهْر مع المنصور الموحدي نفسه، وكان يحتبس الطبيب المذكور عنده المدة الطويلة فتشوق هذا إلى أهله وولده وقال شعراً في ذلك فسمعه المنصور فأمر المهندسين بأن يبنوا داراً مثل داره في إشبيلية بمراكش وحارة مثل حارته في أقرب ما يكون من الوقت ونقل أهله وولده إليها، ثم جيء به إليها فوقع له من السرور ما لم يدر به في يقظة هو أم في منام، والحكاية مذكورة في كتب الأدب وقد أوردناها مع الشعر الذي قاله ابن زهر في كتاب النبوغ المغربي.

ثم يشير ابن عبدالملك إلى ما بلغه الجزولي عند

المنصور من حظوة عظيمة فيقول: «ولم يزل (المنصور) بعد ذلك شديد العناية بأبي موسى راعياً له مُفِيضاً عوارفه عليه، متعهداً أحواله مُتبرّكاً (بالصلاة خلفه) وقدّمه إلى الخطابة في جامعه الأعظم المتصل بقصره حين أتمّ بناءه، فكان أول خطيب خطب به، واستمرت حاله معه على ما ذكر من التنويه به واعتقاد الخير التام فيه، ولما حضرت المنصور الوفاة عهد أن يتولى غسْلَه أبو موسى تبركاً به فكان كذلك، وكان أبو العباس الكورائي (الجرّاوي)[1] على عادته في التنكيت على الناس والنيل منهم يقول إذا رأى أبا موسى: «الصّفْرة في الوجه كنز من الكنوز».

قال: «وأخبرني غيرُ واحد ممن أثق به أن الفقيه المتفنن الورع المجمع على فضله أبا سعيد يَخْلفتن بن تَنْفِليشت بن إبراهيم المتدرازي البُوغَاغي رحمه الله كان متى أشكل عليه شيء من علم العربية تعرّض لأبي موسى في طريقه الذي جرت عادته بالمرور عليه من داره متوجّهاً إلى مجالس المنصور فيستفتيه في بعض ما يعرض له وأبو موسى راكب فيهم بالنزول إليه والمواعدة معه في الوصول إلى منزله أو الاجتماع به في أحد المساجد القريبة من موضع تلاقيهما أو الوقوف معه حتى يفرغا من محاورتهما فيأبى أبو سعيد من ذلك كله إلا مماشاتَه على قدمه وأبو موسى راكب، فكان أبو موسى يقلق لذلك كثيراً تواضعاً منه وإجلالاً لأبي سعيد، ولا تسَعُه إلا مساعدَتُه فيأخذ معه فيما قصد إليه بسببه حتى ينقضي أرَبه وينفصل عنه أبو سعيد

---

(١) انظر الجزء السادس من هذه السلسلة.

متأسفاً عليه مسترجعاً قائلاً: أيّ رجل استمالته الدنيا واستهواه زُخرفُها!...

وكان هذا القول من أبي سعيد بناءً على حالته التي ستره الله فيها وأعانه عليها، وإلا فأبو موسى رحمه الله لم يتلبّس من الدنيا إلا بما يتظاهر به بين أبنائها تقيةً منه على نفسه، فأما في باطن أمره وخفي حاله فإنه كان على أرفع درجات الزهد والتقلل من الدنيا نفعه الله».

ثم أشار ابن عبدالملك إلى وفاته فقال: «ولم يزل أبو موسى بعد وفاة المنصور خطيباً عنه ابنه الناصر مكرماً لديه يستصحبه في أسفاره ويتبرك بلقائه إلى أن وجّهه رسولاً ومُصلِحاً في قضية بين صَنْهَاجَة الساكنين بأزمّور، فتوفي هناك ليلةَ السبت الثالثة عشرة من شعبان سبع وستمائة ودفن بتربة الشيخ الفاضل أبي شُعَيْب أيوب بن سعيد الصنهاجي المعروف بالسّارِية، شهرةً عُرِفَ بها لطول قيامه في الصلاة».

وهذا الذي ذكره في وفاته هو الذي ينبغي أن يُعوّل عليه لأنه مبيَّن مفصَّل باليوم والشهر والمكان والسبب الذي من أجله توفي خارج مراكش، فضلاً عما تدل عليه ترجمته عند ابن عبدالملك من الاطلاع على غالب أحواله التي إنما استفدناها منه، ولولاه لما عرف عن هذا الفاضل أكثر المعلومات المتعلقة بحياته.

وفي ابن خلكان أنه توفي ٦١٠، وعند ابن الأبار سنة ست أو سبع وستمائة، وعند ابن قنفذ سنة ٦١٦ ومثله في «طبقات الحضيكي»، وعلى ما عند ابن عبدالملك اقتصر السيوطي وابن العماد، وفي «كشف الظنون» أنه توفي سنة

٦٧٧ وهو غلط لا شك فيه. كما أن ما في «صلة الصلة» من أنه مات قبيل سنة ٦٠٠ لا يعوّل عليه.

قال عبدالملك: «وأخبرني غير واحد منهم الشيخ الفقيه المتخلق الفاضل أبو العباس أحمد بن عبدالله بن عبدالعزيز بن عبدون البرّغُواطي الأصل الزّموري المولد والنشأة... قال: لما توفي أبو موسى الجزولي رحمه الله تفاوض أهلُ العلم والخير والصلاح في تعيين مَدْفَنه، فقال بعضهم: يُدفَن إزاءَ أبي شعيب لعله يجد بركةَ أبي شُعيب، وكان ممن حضر ذلك المقام وتلك المفاوضة، الفقيه أبو بكر بن محمد بن أبي بكر الزّناتي النحوي فقال: نعم يُدْفَن معه حتى يجدَ أبو شعيب بركةَ أبي موسى! لأنه كان في الصلاح والفضل مثلَه ويزيد أبو موسى عليه بفضيلة العلم فدُفِن إلى جنبه، قال: وقد زُرْتُ قبره غير مرة... وهو لاطئ بالأرض وسط قبة بين قبرَيْ أبي شعيب المذكور وابن ابنه الناسك الورع أبي محمد رحمة الله عليهم أجمعين».

وقد ختم ابن خلكان ترجمته بهذه اللطيفة قال: «وذكر بعض أصحابه أنه حضر عنده ليقرأ عليه قراءة أبي عَمْرو فقال بعض الحاضرين: أتريد أن تقرأ على الشيخ النحو؟ قال: فقلت: لا، فسألني آخر فقلت: لا، فأنشد الشيخ وقال: قال لهم:

لستُ للنحو جِئْتُكم لا ولا فيه أرْغَبُ
خَلّ زيداً لشأنه أينما شاء يَذْهَبُ
أنا ما لي ولامرئ أبَدَ الدّهْرِ يُضرَبُ؟

* * *

عبدالواحد المراكشي
(ت ٦٢٥ هـ)

اسمه ونسبه، نشأته العلمية، رحلته إلى الأندلس، نبوغه المبكر، تركه للأخذ عن الأمثال وتعلقه بمشيخة الرواية العالية، ظهور شخصيته، اتصاله بالرؤساء والأمراء، توطد مكانته الاجتماعية، مداخلته لرجال الدولة تفيده اطلاعاً واسعاً على أسرار السياسة وأخبار القصر، لقاؤه للخليفة، رحلته إلى المشرق، إقامته بمصر، حجه، دخوله بغداد وتأليفه لكتابه «المعجب»، وصف الكتاب، أهميته الإخبارية والأدبية، بعض أغلاطه التاريخية، أدب المراكشي، نموذج من إنشائه البليغ مع اضطراب في تاريخ وفاته.

هذا رجل من رجالات المغرب، كان لَه شأنٌ وبالٌ مدة حياته، ثم طواه الإهمال والنسيان حتى بُعِثَ في عالم الاستشراق حديثاً، فإذا هو أكثر أهمية بالنسبة إلى تاريخنا السياسي والأدبي مِمّا كان عليه قَيْدَ الحياة.

لم يؤرخ له أحدٌ في مغرب ولا مشرق، وإن كان هو قد كتب تاريخ المغرب للمشرق. وكأنه كان يعرف ما

سيؤول إليه أمرُه من جُحود ونُكران، فكتب هذه السطور القليلة التي يتحدث فيها عن نفسه في تاريخه «المعجب»، ولولاها لما علمْنا من حاله شيئاً.

وإن الصُّدَف العجيبة التي رمَتْ بهذه النسخة الفريدة من كتابه القيِّم إلى مكتبة ليدن فجعلته يقعُ في يد المستشرق الهولاندي (رينهارت دوزي) الذي عنيَ بنشره، ونوّه بقيمته التاريخية لهِيَ التي ندِينُ لها بجميل الاحتفاظ بذكره وأثره. وكم للصُّدَف على الباحثين من يد تثبتُ أن الأمر ليس كله تدبيراً وترتيباً.

اسمُه الكامل كما بالسَّماع الموجود في أول مخطوطة لَيْدَن من كتابه المعجب، عبدُالواحد بنُ علي التميمي المراكشي يُلقَّبُ بمحيي الدين ويكنى أبا محمد، أما اللقب فلا شك أنه أطلِقَ عليه في المشرق أثناء إقامته هناك، إذ ليس من شأن المغاربة اتخاذ هذه الألقاب المضافة إلى الدِّين بل ولا غيرها إلا النادر جداً. وأما الكنية فلا ندري هل كان لها مدلول واقعي بمعنى أنه كان له ولدٌ كنِّي به أم أنها مُجرَّد تشريف، إذ كان يجوز في عُرْفهم تكنية من يُولد له. ولكن الأمر المؤكد هو أنه لم يشر قط في كتابه إلى زَوْج ولا إلى أولاد، ولم يُبْدِ حَنيناً إلى بيت ولا إلى أُسرة، إلا شكوى مُبهمة من هموم الحياة وغمومها التي لا يخلو منها إنسان.

وكانت ولادته على ما نصه هو في تاريخه بمراكش لسبع خلَوْنَ من ربيع الآخر سنة ٥٨١، في أوائل أيام يعقوب المنصور الموحدي، أي: عندما كانت الدولة

الموحدية في عُنفُوانها والمغرب الكبير في أزهى عصوره علماً وتقدماً وحضارة. ثم فصلَ عنها وهو ابنُ سبعة أعوام إلى مدينة فاس، وهي يومئذ حاضرةُ المغرب ومَوضِعُ العِلم منه، اجتمع فيها علمُ القيروان وعلمُ قرطبة، بذِكر صاحبنا نفسِه، فلم يَزلْ بها إلى أن قرأ القرآن وجوَّده ورواه عن جماعة كانوا هناك مُبرّزين في علم القرآن والنحو، ثم عاد إلى مراكش فلم يزل متردداً بينها وبين فاس للدراسة في هذه ولا شك، وصِلة رَحِمه في تلك، وإن لم يُشِرْ هو إلى هذا المعنى الذي يؤخذ من كلامه عن فاس. على أنه وهو التلميذ المجتهد لم يكن يُخلي وجوده في مراكش من الدراسة والتحصيل والاستفادة من أعلام الرجال الوافدين عليها لغرض من الأغراض، إذ كانت عاصمة الدولة تَهوي إليها أفئدة الناس من كل طبقة ومن كل صوب، وها نحن نلتقي فيها خلال سنة ٥٩٥، وهو ابن أربعة عشر عاماً، أي: في سن التفتُّح الذهني ولا سيما للنبغاء أمثاله، وقد زار مراكش الوزير أبو بكر بن زُهْر لتجديد بيعة محمد الناصر بن يعقوب المنصور، وشُهرة الوزير المذكور في العلم والأدب تغني عن التعريف به، فما يكون من صاحبنا إلا أن يسعى إلى لقائه والاتصال به، والسماع منه والرواية عنه، وقد كان أبو بكر بن زهر حينئذ في الثمانين من عمره في السنة التي توفي فيها، فلو لم ينتهز المراكشي هذه الفرصة لفاته لقاؤه إلى الأبد، ولما حصل له شرف الأخذ عن هذا العَلم الشهير. وقد كان من جملة ما سمعه منه خبر زيارة الأديب الشاعر عبدالمجيد بن عَبْدون لوالده الوزير أبي مروان في

زيّ أهل البادية بحيث تجهَّمَتْه عَيْن أبي بكر واستهان به لِغرارة الصِّبا حتى رأى من أدبه وإجلال والِده له ما عرَّفه بحاله. وهو خبرٌ طريف يطلعُنا من صفات ابن عبدون وأخلاقه على ما لا تطالِعُنا به التراجم والكتب.

ولم يَفْتر مترجمُنا عن الطلب وينتهِ من التحصيل حتى أشبعَ نهمتَه وشفَى غليله، فلما رحل إلى الأندلس وهو ابنُ اثنتين وعشرين سنة لم يجد عند فضلائها الذين أدركهم ما يأخذه عنهم، ولم يُفِدْ من لقائهم إلا معرفتهم اسماً وعيناً وتاريخ ميلادٍ ووفاة. وهذا مما يدلُّ على نبوغه المبكر وتناهيه في هذه السن إلى درجة الاستيعاب لِضُروب المعارف، وخاصة الأدبية التي هي بضاعته، بحيث لم يَجِدْ فضلاً يطلبه عند هؤلاء الفضلاء من بقية الأندلسيين الذين رحلَ إليهم. وهو أيضاً مما يدلُّ على نهضة العلوم والآداب بالمغرب في ذلك العهد نهضة لم تبقَ الأندلس تعَدّ معها شيئاً. وقد تقدمت الإشارة إلى قول المراكشي في فاس إنها ورثتْ علم القيروان وعلم قرطبة. ولكن هذا الكلام ليس على إطلاقه، فإنه إن صحَّ في إشبيلية التي يظهر أن صاحبَنا قصدها أولاً لأنها كانت عاصمة الأندلس على عهد الموحدين ومقرَّ السلطة المركزية فلن يصح في قرطبة، وقد طالما امتازتْ على سائر مدن الأندلس الكبرى بمكانتها العلمية التي لا تزاحَم، وحسبُك بمناظرة ابن رُشْد وابن زُهْر في التفضيل بين المدينتين بمجلس يعقوب المنصور، وقول ابن رشد لمناظره: يكفي من فضل قرطبة أنه إذا مات فيها مُطْرِبٌ بيعَث آلاتُه بإشبيلية، وإذا مات بهذه عالم بيعَث كتُبُه

بقرطبة... والمراكشي الذي لم يكن هواه مع آلات الطرب والمُطربين بل مع الكتب وأصحاب الكتب، لم يهدأ له بالٌ حتى كان في قرطبة حيث وجد ضالتّه المنشودة في الشيخ أبي جعفر الحِمْيَري... آخر ما انتهى إليه علمُ الآداب بالأندلس على حد تعبيره وذلك سنة ٦٠٦، فلزمَه نحواً من سنتين يَغترفُ من معارفه الجمّة ويتضلّع مما لم يكن عند غيره من مختلفِ الفنون... وفي الوقت نفسه يجلس للطلبة يقرؤون عليه إذ كان كما علمت تامَّ التحصيل لم يلقَ في الأندلس مَن ينفرد دونه بفضيلة قبل الشيخ المذكور، ومن جملة ما قرىء عليه في هذه الفترة ديوانُ المتنبي في نسخة صحيحة كتِبَتْ من إملاء أبي جعفر الحِمْيَري هذا. ويظهر من أحوال المراكشي التي ذكرناها أنّ الرجل كان ذا هِمّة عالية في طلب العلم وأنه كان مَغْنياً بلقاء الشيوخ ذوي الرواية الواسعة والسّنَد العالي، ففي مراكش ما سمِع بوجود الوزير أبي بكر بن زهر حتى اقتحمَ مجلسه وهو ابنُ أربعة عشر عاماً يُنصِتُ إلى حديثه ويَرْوي من شعره، وفي قرطبة لما ظفِر بالشيخ أبي جعفر لزمه وعكف على الأخذ عنه مدة تقرُب من السنتين لِما رآه من سعةِ علمه وعلوّ روايته، فإنه قال في وصفه: «ما رأيتُ أروى لشعر قديم ولا حديث ولا أذكر لحكاية تتعلق بأدب أو مَثل سائر أو بيتٍ نادر أو سجعةٍ مُسْتَحْسَنة مِنه رضي الله عنه وجازاه عنا خيراً»، أدْرَكَ جِلّة من مَشايخ الأندلس فأخذ عنهم علم الحديث والقرآن والآداب، وأعانه على ذلك طولُ عُمره وصِدْقُ محبته وإفراط شغَفِه بالعلم إلى أن يقول: «توفي في شهر صفر من سنة

٦١٠، وقد كمُلتْ له سِتٌّ وتِسعون سنة، لم يبقَ في الأندلس أعلى رواية منه في كل ما يروى ولم أرَ قبله ولا بعده مع اتساع علمه وشدة تمييزه وحسن اختياره ومعرفته بعِلل هذه الصناعة أكثر إنصافاً منه ولا أسرعَ رجوعاً إلى الحق. . . ».

فانظرْ كيف يُسجِّلُ وفاة شيخه عن سن عالية، كما سجّلَ ذلك في كلامه على ابن زهر، وانظر كيف ينص على أنه لم يكن في الأندلس أعلى رواية منه، فهذا الهُيَام الشديد عنده بلقاء الشيوخ والرواية العالية منذ ابتداء طلبه هو مما يشِفُّ عما له من نفس توّاقة إلى الكمال لا تصِلُ إلى درجة من العلم إلا تطلعتْ لِما فوقها، وهو الذي سيَحمِله فيما بعد إلى مغادرة المغرب والرحلة إلى المشرق كما فعَلَ من قبله كثيرٌ من أهل هذا الشأن مغاربة وأندلسيين.

وإلى هنا، لم نذكر من نشاط صاحبنا إلا ما يتعلق بطلبه للعلم وجده في تحصيله وهو قد كان له منذ فتاء سِنِّه نشاط اجتماعي لا يقِلُّ عن نشاطه العلمي عجّلَ بظهور شخصيته، ومهّد له السبيل إلى ربط علاقات كثيرة مع شخصيات كبيرة، والوصول إلى مقامات عليا تنقطع أطماع أمثاله من الأدباء الناشئين دونها، وقد أعانه على ذلك ما بدا من نجابته المبكرة، وما فطر عليه من شجاعة أدبية تتمثل في إقدامه على نقد الأشخاص والأعمال، وإبداء رأيه فيما يعرض له من أمور سياسية وغيرها بكامل الصراحة مع اهتمامه بماجريات الأمور وعدم عزوب الشاذة والفاذة من حركات رجال الدولة عنه. وهذه الصفات ما اجتمعت لأحد

إلا كان صَدْرَ المجالس ومطمح الأنظار، ومن ثَمَّ كانت رغبة من اتصل بهم من الكبراء والأمراء فيه شديدة، حتى أن الأمير أبا إسحٰق بن يعقوب المنصور وزير أخيه الناصر، وواليَ إشبيلية بعد ذلك كان يقول له: «والله إني لأشتاقك إذا غِبْتَ عني أشدّ الشوق وأصدقه». وكان تعرُّفه إلى هذا الأمير في إشبيلية سنة ٦٠٥، أي: في رحلته الأولى إلى الأندلس وهو ابنُ اثنين وعشرين سنة بواسطة أحد أصدقائه من الكتّاب اسمه محمد بن الفضل، هو الذي أوصله إليه، فأنشده المراكشي حين لقِيَه قصيدة من نظمه يمدحه بها، قال: فاستحسنها رحمه الله وبالغ في الثناء عليها تفضلاً منه وسؤدداً. ويظهر أنه التحق بخدمته من يومئذٍ لأنه داخله أشد المداخلة، ونشأت بينهما علاقة متينة مِما جعل الأمير يقول فيه كلمته السابقة.

وصاحبنا المراكشي يقول عن الأمير: «كان لي رحمه الله محباً وبي حفِياً، وصلتْ إليّ منه أموال وخِلَع جَمّة غير مرّة»، بل إنه ليعلن عن رأي سياسي خطير له في هذا الأمير فيقول: إنه خير ولد يعقوب المنصور وأجدرهم بالأمر، لو كانت جارية على إيثار الحق واطراح الهوى... هذا مع أن الناصر كان ولي العهد بويع له في حياة أبيه، وظهر منه عند ولايته من الحزم والشجاعة وحسن التدبير ما هو معلوم، وإنما خانه الحظ في وقعة العقاب فانكسرت نفسه للهزيمة الساحقة، ويشير المراكشي إلى خلّتين كانتا فيه وهما لثَغ لسانه والبخل، فلعله وهو الأديب الذي صناعته الفصاحة وعيشه مِمَّا يتفضل عليه به أهل الكرم والجود من

أمراء وغيرهم إنما فضّل مخدومه الأمير أبا إسحٰق على أخيه الخليفة الناصر لاتصافه بنقيض الخليتين المذكورتين في الفصاحة والكرم.

وكانت للمراكشي علاقة مودّة أيضاً بالأمير يحيى بن يوسف بن عبدالمؤمن أخ الخليفة يعقوب المنصور، فإنه لما ذكره في جملة أولاد يوسف قال: «كان يحيى هذا رحمه الله لي صديقاً، ومن جهته تلقيت أكثر أخبارهم، لم أرَ في الملوك ولا في السوقة مثله رحمة الله عليه، وما استجزت لفظة الصداقة مع أن الواجب لفظُ الخدمة إلا لِما كان رحمه الله يكتب إليّ: «أخي وصديقي في بعض الأوقات ووليّي في بعضها اجتمعت عندي بخطه رقاعٌ كثيرة خلع عليّ فيها فضله، وحلاّني بما لم أكن أستحقه»، وفائدة هذا الخبر مهمة جداً لأنها من جهة تؤكد ما قلناه من أنه كان ذا شخصية محبّبة مرغوب فيها ممن عرفه من ذوي الحيثيات، ومن جهة أخرى تدلنا على مصدر المعلومات الدقيقة التي يعطيها عن بني عبدالمؤمن من ملوك وأمراء وأميرات وأصهارهم وكل مَن له صلة رحم بهم، حتى ليظنُّ أنه يمت إليهم بقرابة وما هو إلا حب الاطلاع الذي جُبلَ عليه، وإفضاء هذا الأمير إليه بتلك الأنباء المضبوطة عن أفراد أُسرتهم، وما لكل واحد منهم من فضائل ونزوات، على أنه لم يكن يستخبر من هذا الأمير وحده، فإن أخوته محمداً وإسحٰق فضلاً عن إبراهيم مخدومه وصديقه كلهم كانوا مصادر خبر له، تمده بالتفاصيل الكافية عن كل ما يهمُّه من هذا الشأن فقد قال في أثناء الحديث عن يوسف بن عبدالمؤمن: (أخبرني مَن لقيتُه من

ولده كأبي زكرياء وأبي عبدالله وأبي إبراهيم إسحٰق وغيرهم ممن لقيتُه وشافهتُه منهم أنه كان أحسنَ الناس ألفاظاً بالقرآن. . . إلخ)، فهو كما رأيت يستقي من كل مورد. وغريزة حب الاطلاع التي كان مفطوراً عليها تجعله يتساءل عن كل شيء ويستنبئ من كل أحد. ولقد نشبت بسوس ثورة على الناصر سنة ٥٩٧ قام بها رجل من جزولة، فكان صاحبنا يتطلع إلى أخبارها حتى وقع قمعُها. وجاء كتاب بذلك من صديق له من أبناء العمال لم يكن بلغ الحلم بعد، وهو نفسه في تلك الأثناء جاوز السابعة عشرة من عمره على ما عُلِمَ من سنة ولادته، وكان توصله بذلك الكتاب قبل أن يصل خبر الفتح من طرف الجهات الرسمية المتولية لذلك، وهو سبق صحفي يسجله المراكشي بغاية الاهتمام إظهاراً لِما كان له من علاقات متعددة ومن تتبع للحوادث السياسية في تلك السن المبكرة.

والخلاصة، أن الرجل كان ذا مكانة اجتماعية مرموقة شقّ طريقها بنفسه، وبما له من مواهب فكرية وخلقية نادرة، فلم يزل يترقى في مراقي المجد منذ نعومة أظفاره يصحب كبار العلماء، ويخالط الكتاب الجلّة ورجال الدولة، حتى أصبح جلِيس الأمراء، وممن يحضر في بيعة الخليفة ويقابله مقابلة خاصة، وقد عبّر هو عن تطور حاله على هذا النحو بعبارات واضحة كقوله في الحديث عن علاقته بالأمير أبي إسحٰق: ثم علتْ حالي عنده بعد ذلك نضّر الله وجهه إلى أن كان يقول لي في أكثر الأوقات: والله إني لأشتاقك إذا غبت عني أشد الشوق. . . إلخ.

ولما ذكر بيعة الخليفة يوسف الثاني وكانت يوم الخميس ١١ شعبان سنة ٦١٠ قال: (وبويع البيعة الخاصة يوم الخميس ويوم الجمعة بايعه أشياخ الموحدين والقرابة، وفي يوم السبت أذن للناس عامة، شهدتُ ذلك اليوم) وهو يعني بالبيعة الخاصة تقديمه للخلافة من طرف بعض أعمامه وبعض زعماء الموحدين عند الفراغ من دفن أبيه يوم الخميس، ويوم الجمعة بايعه بقية القرابة وأشياخ الموحدين ثم كانت البيعة العامة التي حضرها المراكشي يوم السبت مع طبقة الناس التي يحددها له مركزه الاجتماعي. ويقول في مقابلته لهذا الخليفة: (لقِيته وجلستُ بين يديه خالياً به وذلك في غرة سنة ٦١١، فرأيت من حِدّة نفسه وتيقظ قلبه وسؤاله عن جزئيات لا يعرفها أكثر السوق فكيف الملوك ما قضيتُ منه العجب) وهي مقابلة نظن أن بعض أصدقائه من الأمراء وربما كان مخدومه أبا إسحٰق هو الذي سعى له فيها وعرف الخليفة بما له من المزايا، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا: إنه حدّثه عما له من الآراء السياسية والأفكار الإصلاحية، فلذلك رأينا الخليفة يخلو به ويسأله عن جزئيات قلّ من يعرفها، ولكن هذه المقابلة لم تكن لها نتيجة إيجابية بالنسبة إلى صاحبنا ولا بالنسبة إلى سياسة الدولة، وقد كان الناس ينتظرون تغييراً في السياسة العامة تلافياً لتلك الانتكاسة التي مُنيَتْ بها الدولة على إثر هزيمة العِقَاب فلم يقع شيء من ذلك، قال المراكشي عَقِبَ خبر المقابلة الذي رويناه عنه آنفاً: (وإلى وقتنا هذا لم يظهر منه شيء مما يتوقع).

ولما شعُر صاحبنا أنه قد بلغ الغاية من الحظوة والتقريب لدى رجال الدولة وأن الحياة بالنسبة إليه قد

صارت رتيبة لا جديد فيها تاقتْ نفسُه إلى الرحلة وإلى لقاء المشايخ والتكثر من الرواية كما كان يفعل نظراؤه من ذوي الطموح والنَّهم العلمي. . . وحقاً إنها لتضحية كبيرة أن يزهد في كل ما له من رفعة قدر وعزة شأن، ويفارق الأهل والأوطان، مغترباً في سبيل العلم والتوسع في الرواية الذي لا يَحصُل إلا بالتوسع في الرحلة، ولكن من خطب العَلياء لم يُغْلِه المهْر. وهكذا نراه يُودع صديقه ومخدومه الأمير أبا إسحٰق في آخر يوم من ذي الحجة متم عام ٦١٣، وهو أول والٍ على إشبيلية ولايته الثانية فيما يقول المراكشي، فيفيدنا أنه كان غُزلَ عنها فيما بين سنة ٦٠٥ وهذه السنة، ولعله لما كان في قرطبة ملازماً حلقة شيخه أبي جعفر الحِمْيري، كان هذا الأمير معزولاً عن ولايته. وتوجه المراكشي بعد مغادرته إشبيلية إلى مَرْسِية، ولعله منها أبحر إلى مدينة تونس، حيث أقام مدة ريثما تأتى له الإبحار إلى مصر. نقول هذا لأنه يذكر وصوله إلى تونس عن طريق البحر، ولا يذكر من أين ركبه ويذكر دخوله إليها سنة ٦١٤ فيؤرخه بالسنة لا بالشهر، وذلك ما يفيد بقاءه فيها بعض تلك السنة أو كلها، وأما ذهابه إلى مصر بحراً فلأنه يذكر أنه لم يدخل من بلدان إفريقية غير تونس، ولو كان سافر إلى مصر براً لمرّ في طريقه إليها بمدن كثيرة، ولعله لم يجد في تونس ما يرغبه في زيارة بقية المدن الإفريقية، أو لعلّ الطريق البرّي لم يكن مأموناً وقتئذ لِما عُلِمَ من عَبْثِ الأعراب واضطراب الأمن في إفريقية بسبب الثورات المتوالية آنذاك، وعلى كل حال فإنه توجه إلى مصر بعد سنة على أكثر تقدير من حلوله

بتونس، وأقام بها بضع سنوات، ففي سنة ٦١٧ يخبرنا أنه كان بالصعيد المصري، حيث اتصلت به وفاة الأمير أبي إسحٰق. ويتحدّث عن بعض الثوار بالمغرب فيقول: إن خبر الظفر به بلغه وهو بالديار المصرية سنة ٦١٨، وفي سنة ٦١٩ وكان لا يزال بمصر حيث علم بوفاة بعض الكتاب.

ولا شك أنه كان خلال هذه السنين يتّصل برجال العلم والأدب وأهل الرواية والحديث؛ يأخذ ويعطي ويستفيد ويفيد وإنما لم يحدثنا عن نشاطه في مصر وفي بلاد المشرق عامة لأن كتابه موضوع لأخبار المغرب فلا مجال للحديث عن غير ذلك، وقد كان وهو في المغرب يتشوَّف إلى أخبار المشرق ورجاله الأعلام وخاصة منهم أهل الأدب؛ فإنه لما ترجم للكاتب محمد بن عبد ربه قال: (وله رحمه الله رحلة إلى مصر لقي فيها ابن سناء المُلْك، وأخذ عنه من شعره، وهو أوّل من سمعتُ يذكره عندنا ويَروي شعره) فها هو ذا في مصر، موطن ابن سناء الملك، فليَلْقَ أعلامها وأدباءها وليَرْوِ ما شاء من أخبارهم وأشعارهم فهو لذلك ارتحل، ومن أجله اغترب.

وتنتهي إقامته في مصر فنلتقي به في الحجاز سنة ٦٢٠ يؤدي فريضة الحج ويأخذ الحديث عن أئمته الأعلام، ففي الفصل الذي ذكر فيه فضل المغرب من كتابه «المعجب» نجده يروي حديث: **«لا يزالُ أهل المغرب ظاهرين على الحق»** من طريق محمد بن أبي الفضل الشّيْباني سماعاً عليه بمكة في رمضان من هذه السنة، وذلك مما يؤكد لنا أنّ رحلته كانت لهذا الغرض النبيّل وهو لقاء الشيوخ والتوسع

في الرواية، ونلاحظ أنه هنا لما كان البساط ملائماً لسياق بعض مروياته عن مشايخه الذين أخذ عنهم في المشرق لم يتردد في إيراد ذلك عن السَّنن المعروف والاصطلاح المعهود، فهو إذن ما أغفل ذكر نشاطه الذي من هذا القبيل في المشرق، إلا لعدم المناسبة، وفي كتابه كله لم يذكر شيئاً إلا بمناسبته.

وتحلُّ سنة ٦٢١ فإذا بصاحبنا في بغداد في خدمة أحد وزراء الخليفة العباسي الناصر لدين الله. ويسأله هذا الوزير أن يؤلف له كتاباً في أخبار المغرب وتقويمه وسير ملوكه وخصوصاً بني عبدالمؤمن من لدُن ابتداء دولتهم إلى هذه السنة، فيجيب السؤال ويؤلف كتابه المعجب. وهذه قصة تكرّرث مِراراً، ما سافر أحد رجال الفكر من المغرب إلى المشرق وتحدَّث بأخبار بلاده وما لأهلها من تفوق في العلوم والآداب إلا وطُلِب منه أن يقيم الحجة على ذلك بتأليف كتاب في الموضوع.

هكذا كتب أبو عبدالله الحُمَيْدي في بغداد نفسها كتابه «جذوة المقتبس في أخبار وُلاة الأندلس» وكتب أبو الخطاب ابنُ دِحْيَة في مصر وفي نفس هذا العصر كتابه «المطرب من أشعار أهل المغرب» وكتب أبو العباس المقرّي في دمشق موسوعته الأندلسية الضخمة «كتاب نفْح الطيب من غصن الأندلس الرَّطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب». فالمراكشي الذي كان أحد هؤلاء الرسل الغيارى على سمعة بلادهم، لم يتردد وقد طلب منه كتابة تاريخ للمغرب على سبيل التعريف به في أن يقدّم وثيقة لا تاريخاً فحَسْب تشهد

بعظمة المغرب في الميدان السياسي والحربي والاقتصادي والثقافي مع الإلمام بوصف طبيعة البلاد وموقعها الفريد، وجمالها الفتّان، وإنا لمدينون لهذا الوزير الأديب باصطناع صاحبنا وحمايته وحمله على تأليف هذا الكتاب الذي كان في زمن وضعه هدية المغرب إلى المشرق، فأصبح في زمننا هذا هدية المشرق إلى المغرب، لأنه عرّفنا من تاريخنا ومن دقائق أخبار ملوكنا، ومن حضارتنا وتقدمنا العلمي والأدبي ما لولاه لكنا نجهله تماماً، وحسبك منه هذه الصفحات البيض في حياة يوسف بن عبدالمؤمن، وما بذل من سعي محمود في سبيل تقدّم المباحث العلمية والفلسفية على الخصوص، وما كان من أخذه بضبع الفيلسوف ابن رشد، وندبه إلى شرح فلسفة أرسطو، تلك الشروح التي كانت أساس النهضة العلمية بأوروبا في عهد الانبعاث، فإن هذه المعلومات القيّمة كلها مما انفرد به تاريخ المراكشي ولولاه لبقيت في حكم المجهول... على أن تاريخ الموحدين عنده وهو القسم الثاني من الكتاب كله من هذا القبيل ندرة وطرافة، وخاصة الناحية الفكرية مما لا نجده عند غيره من المؤرخين لهذا العصر إلا قليلاً جداً. والسبب في ذلك أنه كان يكتب عن مشاهدة حسيّة، ومعرفة يقينيّة بما كان له من صلة متينة مع رجال الدولة وأمراء البيت المالك فضلاً عن روحه الأدبية وحساسيته الفنية التي تجعله يلاحظ ما لا يلاحظه غيره، ويهتم بالأشياء الدقيقة التي يكون لها ميزان ثقيل في تقدير الأشخاص والأعمال وهي لا تثير انتباه الرجل العادي من الناس، وكذلك القسم الأول من المعجب

ونريد به ما كتبه عن تاريخ الأندلس على عهد الخلافة الأموية، وملوك الطوائف، ثم على عهد المرابطين، مما كان اعتماده فيه على محفوظه أو على بعض المصادر القليلة كجذوة الحميدي ويتيمة الثعالبي هو مما لا يقلُّ أهميّة عن تاريخه للموحدين لأنه لم يثبت فيه إلا العيون من الأنباء والآداب، والفصول التي كتبها عن حياة المعتمد ابن عبّاد وأدبه ونكبته في هذا القسم هي مما لا كفاء له في الحسن. ومن ثم كانت فائدة الكتاب الخبرية والأدبية لا تقدّر بقيمة، ولقد اعتمد عليه المستشرقون وخاصة دُوزي اعتماداً كاملاً في كتابته تاريخ الحياة الفكرية بالأندلس، وحُقَّ لهم ذلك، فهو من المصادر ذات الأهمية الكبرى في هذا الباب وما أشبهه بكتاب الفخري في «الآداب السلطانية» و«الدول الإسلامية» لابن طباطبا من حيث التركيز وجمعه بين المادتين الخبرية والأدبية، فكلاهما من هذه الحيثية ذو أهمية كبرى، هذا بالنسبة إلى المغرب وذلك بالنسبة إلى المشرق. هذا وتنويهنا بقيمة الكتاب الخبرية والأدبية لا يمنعنا من القول: إنه يجب التثبُّت من صحة بعض تواريخه؛ لأنه وقعت لمؤلفه أغلاط في تاريخ بعض الحوادث المهمة بسبب اعتماده على الذاكرة وعدم رجوعه إلى مصدر مختص إلا كتاب «جذوة المقتبس» للحُمَيْدي كما قلنا، وهو كذلك مما كتبه صاحبه بالاستناد إلى حفظه، فلم يخلُ من أغلاط من هذا القبيل. ومن أغلاطه في وفيات الأشخاص ما ذكره في وفاة صاعد الأديب البغدادي الشهير، والمنصور ابن أبي عامر ويوسف بن تاشفين وحفيده تاشفين بن علي، ومن أغلاطه

في تاريخ الحوادث ما ذكره في تاريخ وقعة الزلاقة وتسمي يوسف وأصحابه بالمرابطين، ومبدأ اختلال أحوال المرابطين، ودخول الموحدين إلى مراكش، ومن أغلاطه في الأسماء قوله في ولادة بنت المستكفي: إنها بنت المهدي، وخلطه في قضية عزل الكاتب محمد بن أبي الخصال ومن تولى ملك الموحدين من ولد يوسف الثاني بعد وفاته، إلى هفوات أخرى تصحح من كتب التاريخ المضبوطة، وهي بكل وجه لا تقدح في أهمية الكتاب الكبرى التي ذكرناها.
لكن المؤسف هو أن النسخة الوحيدة التي توجد من «المعجب» والتي عليها جرى طبعه أول مرة في أوروبا وتتابع بعد ذلك في مصر والمغرب يقع بها خصاص بمقدار كراس كان يشتمل على بقية تاريخ الحكم بن هشام ومن بعده من ولاة بني أمية إلى تاريخ الحكم المستنصر، فصار الكتاب بسبب ذلك غير كامل، ولئن كان ما فاتنا منه بسبب هذا البتر من أخبار بني أمية قد نجده في غيره من التواريخ، فإن ما يكون للمؤلف فيه من تعليق أو إنتاج أو خبر شخصي ذكره عرضاً كما هي عادته هو مما لا يعوّض. ومع هذا كله فإن الكتاب يبقى حجة بيد المراكشي على أنه مؤرخ عبقري يعنى باللباب دون القشور، وبالمهمات دون التافه من الأمور، ويعطينا في الوقت نفسه مادة أدبية غزيرة من إنتاج صاحبنا تدل على رسوخ قدمه في الكتابة وتمكنه من ناصية الإنشاء بطريقة الترسيل البليغ من جراء تقلبه على ما نظن في خطة الكتابة عن الولاة والأمراء الموحدين منذ نشأته ولذلك فهو في نظرنا من حيث الكفاءة الأدبية كاتب بارع، ولئن

كان يتعاطى الشعر مع الكتابة، فهو فيه ليس بذلك، وعلى الأقل فإن درجته فيه دون درجته في الكتابة، وقصيدته التي مدح بها الأمير أبا إسحٰق وهو في عنفوان شبابه وقال: إنه أثنى عليها كثيراً هي ممّا ينبئ بضعف ملكته الشعرية. وهذا أولها:

لكُمُ على هذَا الوَرى التَّقديمُ وعَليهمُ التفويضُ والتَّسليمُ
اللّهُ أعلاكُم وأعلى أمْره بِكُمُ وأنفُ الحاسدينَ رغيمُ
أحيَيْتُمُ المنصور فهو كأنَّهُ لَمْ تَفْتقِدْه مَعالِمٌ وعلومُ
ومَحابِرٌ ومَنَابِرٌ ومحَارِبٌ وحِمًى يُحاطُ وأرْمَلٌ ويَتِيمُ

وقد اعترف هو نفسه في تواضعه المعهود بعدم رضاه عنها، وله فيمن اسمه فتح وجنّسه:

يا مَن لَهُ عن كِناسٍ مِنَ المُتَيَّم قَلْبُه
ما أنتَ كَاسْمِك فَتْحٌ وإنَّما أنتَ قَلْبُه

أما نثره، فقد تقدَّمتْ منه نماذج عديدة، وإليك منه هذا الفصل في وصف مدينة فاس: «ومدينة فاس هذه هي حاضرة المغرب في وقتنا هذا، وموضع العلم منه، اجتمع فيها علمُ القيروان وعلم قرطبة إذ كانت قرطبة حاضرة الأندلس كما كانت القيروان حاضرة المغرب، فلما اضطرب أمر القيروان كما ذكرنا بعَبَثِ العرب فيها واضطرب أمر قرطبة باختلاف بني أمية بعد موت ابن أبي عامر وابنه رحلَ من هذه وهذه من كانَ فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة فراراً من الفتنة فنزل أكثرهم مدينة فاس فهي اليوم على غاية الحضارة، وأهلها في غاية الكيْس ونهاية الظرف،

ولغتهم أفصح اللغات في ذلك الإقليم وما زلتُ أسمع المشايخ يدعونها بغداد المغرب. وبحقٍّ ما قالوا ذلك، فإنه ليس بالمغرب شيء من أنواع الظرف واللباقة في كل معنى إلا وهو منسوب إليها، وموجود فيها، ومأخوذ منها لا يدفع هذا القول أحد من أهل المغرب. ولم يتّخذ لمتونة والمصامدة مدينة مراكش وطناً ولا جعلوها دار مملكة لأنها خير من مدينة فاس في شيء من الأشياء، ولكن لقرب مراكش من جبال المصامدة وصحراء لمتونة، فلهذا السبب كانت مراكش كرسي المملكة، وإلا فمدينة فاس أحق بذلك منها، وما أظن في الدنيا مدينة كمدينة فاس أكثر مرافق وأوسع معايش وأخصب جهات، وذلك أنها مدينة يحفها الماء والشجر من جميع جهاتها ويتخلل الأنهار أكثر دورها زائداً على نحو من أربعين عيناً ينغلق عليها أبوابها، ويحيط بها سورها، وفي داخلها وتحت سورها نحو من ثلاثمائة طاحونة تطحن بالماء، ولا أعلم بالمغرب مدينة لا تحتاج إلى شيء يجلب إليها من غيرها إلا ما كان من العطر الهندي سوى مدينة فاس هذه فإنها لا تحتاج إلى مدينة في شيء مما تدعو إليه الضرورة، بل هي توسِعُ البلاد مرافقَ وتملؤها خيراً».

ويقول في وصف القيروان: «وكانت القيروان في قديم الزمان منذ الفتح إلى أن خرّبتها الأعراب دار العلم بالمغرب إليها ينسب أكابر علمائه، وإليها كانت رحلة أهله في طلب العلم، وقد ألّف الناس في أخبار القيروان ومناقبه وذكر علمائه ومَن كان به من الزهّاد والصالحين والفضلاء المتبتلين

كتباً مشهورة، ككتاب أبي محمد بن عفيف وكتاب ابن زيادة الله الطُّبني وغيرهما من الكتب، فلما استولى عليها الخراب كما ذكرنا تفرق أهلها في كل وجه فمنهم من قصد بلاد مصر، ومنهم من قصد صقلية والأندلس، وقصدت منهم طائفة عظيمة أقصى المغرب فنزلوا مدينة فاس، فعقبهم بها إلى اليوم».

أما قرطبة فيصفها قائلاً: «وقد تقدم ذكر قرطبة وأنها كانت دار ملك المسلمين ومقر تدبيرهم إلى أن نشأت الفتنة واختلّ أمر بني أمية بالأندلس، وبلغت قرطبة هذه من القوة وكثرة العمارة وازدحام الناس مبلغاً لم تبلغه بلدة، حكى ابن فياض في تاريخه في أخبار قرطبة قال: «كان بالربض الشرقي من قرطبة مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي هذا ما في ناحية من نواحيها فكيف بجميع جهاتها، وقيل: إنه كان فيها ثلاثة آلاف مقلَّس، وكان لا يتقلس[1] عندهم في ذلك الزمن إلا من صلح للفتيا، وسمعت ببلاد الأندلس من غير واحد من مشايخها أن الماشي كان يستضيء بسرج قرطبة ثلاثة فراسخ، لا ينقطع عنه الضوء، وبها الجامع الأعظم الذي بناه أبو المطرّف عبدالرحمٰن بن محمد المتلقب بالناصر لدين الله، وزاد فيه بعده ابنه الحكم المستنصر بالله. فزيادة الحكم معروفة إلى اليوم».

فهذه أوصافه للعواصم المغربية الثلاث تعطينا صورة

---

(١) أي: يلبس القلنسوة.

واضحة من نثره المرسل البليغ الذي لا يتكلف فيه ولا يتخلف، وقد اخترنا أن يكون المثال الذي نعطيه منه منوعاً وإن كان في موضوع واحد لتتبَين منه مقدرته وحسن تصرفه في التعبير عن مقاصده بأسلوب سهل جميل، ولتَتَبين أيضاً مكانة فاس وما بلغته في هذا العصر من الحضارة والعمران فضلاً عن جمالها الطبيعي وموقعها البديع.

وبعد فقد كانت سنة ٦٢١ أخصب السنين في حياة صاحبنا المراكشي بسبب إنتاجه فيها لكتابه «المعجب»، وهذا على ما نعرف عنه لحد الآن، وقد يكون له إنتاج آخر في غيرها من السنين، وإنما نحن لم نقف عليه كما أننا لم نقف له على خبر بعدها إلى أن دخل في ذمة التاريخ وتغمده الله برحمته.

هذا وأرَّخ الأستاذ خير الدين الزركلي في كتابه الأعلام، الطبعة الأولى، وفاة المراكشي بسنة ٦٢٥، ثم في الطبعة الثانية جعلها سنة ٦٤٧ اعتماداً على كتاب «هدية العارفين» لإسماعيل باشا البغدادي ولم يذكر هذا الأخير مستنده في ذلك.



ابن البنَّاء العددي
(ت ٧٢١ هـ)

اسمه ونسبه، ولادته ونشأته، أخلاقه، قدومه لفاس وتدريسه فيها، صلته بالسلطان، اشتغاله بعلم التنجيم، سبب انتشار مؤلفاته، مزيد من التحرير في موضوع التنجيم، براعته في العلوم الرياضية، ثناء الناس عليه، إعجاب الأوروبيين بأعماله، مشاركته في الفلسفة والتصوف، رسالته مراسم الطريقة وشرحها، مؤلفاته وتصنيفها، الكلام على كتاب التلخيص وشرحه، الكلام على كتاب الجبر والمقابلة، تلاميذه، شعره، وفاته ومدفنه ومحل ولادته.

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزْدِيّ المراكشي، الشهير بابن البَنَّاء العَدَدِي. العالم الرياضي والفلَكي الكبير الذي جاوزت شهرته حدود بلاده وأصبح مفخرة للعرب والمسلمين، وكان له تأثير ملحوظ في النهضة العلمية بأوروبا، لمَّا أخذ الأوروبيون يقتبسون من الحضارة العربية ويترجمون كتب العرب إلى لغاتهم.

وُلد ببلَدِه مراكش في الحيّ المعروف بقاعة ابنِ

النَّاهض منها، في التاسع أو العاشر من ذي الحجة متمّ عام ٦٥٤هـ ـ ١٢٥٦م. وكان والده يحترف بالبُنْيان فلذلك عُرف بابن البنَّاء، ويوصف زيادة على ذلك بالعَدَدِي لتمييزه من آخرين عرفوا بهذه الكُنْية أيضاً، وللدَّلالة على أخصّ ما تفوق فيه من العلم وهو علم العدد.

ودرس ابن البناء أولاً ببلده مراكش فقرأ القرآن على أبي عبدالله محمد المراكشي المعروف بابن مُبَشّر، وتلاه بحرف نافع من طريقَيْ وَرْش وقالون على المقرىء الصالح المعروف بالأحدب. قال: وكان كثيراً ما يدعو لي بالخير، لأني كنت أخفف عنه بعض الأعمال التي كان يناولها بالمَكْتَب فانتفعت بدعائه.

وانتفع في العربية بقاضي الجماعة أبي عبدالله محمد بن علي بن يحيى الشريف المراكشي، قرأ عليه بعض كتاب سيبويه، ولازم حضور مجلسه مدة، وذاكره في مسائل من كتاب الأركان لأقْلِيدس، كان الحق فيها معه إذ لم تكن صناعة لأبي عبدالله المذكور كما يقول ابن هَيْدُور في شرحه لكتاب «التلخيص» للمترجم. قال: وردّ عليه في مسائل من التناسب في كتابه الذي ألفه في صناعة الحساب.

وقرأ على أبي إسحاق إبراهيم بن عبدالسلام الصّنهاجي المعروف بالعطّار جميع كتاب سيبويه وكرّاسة أبي موسى الجزولي قراءة تفهُّم وتفقُّه وحلّ لمشكلاتهما وبَحْث عن غوامضهما، وأملى عليه حال قراءته عليه الكرّاسة شرحه المعروف عليها وكتب عليه بخطه وصححه له. ثم بعد ذلك

زاد فيه أبو إسحاق المذكور مباحث وقوانين وأخرجه لمن رغب فيه من الطلبة الراحلين إليه.

وأخذ علم العروض عن أبي بكر القَالُوشي الملقب بالفَأر، لَقِيه بمراكش فقرأ عليه كتابه الكبير المسمى بالختام المفضوض عن خلاصة العَرُوض وأرجوزته العروضية المسماة بالنّكات العلمية في مشكلات الغوامض الوزنية. كما أخذ عنه أرجوزته الفَرَضية المسماة بإثارة المسائل الغوامض من مُغْلقات مشكلات الفرائض، ويُحكى عن المترجم قولُه: كنت أفرِضُ له مسائل من علم الفرائض فينظمها حتى أكمل أرجوزته هذه. وقال فيما حكاه عنه ابن هيدُور: وكنت أقرأ عروض أبي محمد بن علي الأنصاري المعروف بابن السقّاط على أبي عبدالله بن عبدالملك للقراءة عليه وألحَّ عليّ في ذلك وكان معجباً به.

وفي خبَره هذا مع أبي بكر القالوشي وخبَره المتقدم مع أبي عبدالله بن يحيى الشريف ما يدل على أنه كان عند الأخذ عن هذين الشيخين، بحالة من الفهم والتحصيل تجعله يأخذ ويُعطي ويستفيد ويُناقش، ففي مُذاكراته مع الشريف كان الحق معه ولا غَرْوَ فإن الفنَّ فنّه، وفي قراءته للعروض على القالوشي كان يستعدّ لذلك بقراءة عروض ابن السقاط على ابن عبدالملك المراكشي الذي كان معجباً به، ويُلحّ عليه في قراءته. بل إنه كان يُزوِّدُه بالمادّة التي كوّن منها منظومته الفرَضيّة وأخذَها بعد إكمالها عنه. ويذكر ابن القاضي في ترجمة القالوشي بالجذْوة أن صاحبنا ابن البناء أخذ عنه ما ذُكر بفاس، وإن كان في ترجمته لابن البناء

يُوافِق غيرَه ممَّن ترجم له في أنه لقيه بمراكش وأخذ عنه بها، ويُرجّح ذلك هذا الذي ذكرناه عنه من قراءاته على ابن عبدالملك بمراكش طبعاً، استعداداً لقراءته على القالوشي.

وقد قرأ على ابن عبدالملك غيرَ العروض، علمَ الحديث، فروى عنه كتاب «الموطإ» للإمام مالك برواية يحيى بن يحيى اللَّيْثي، وتدرَّب بين يديه في عقود الوثائق، وانتفع به كثيراً. وهذا يدل على أنه كان يشتغل بالشهادة والتوثيق أيامَ ولاية ابن عبدالملك للقضاء في مراكش.

وتفقه بأبي عمران موسى بن أبي علي الزّناتي المراكشي، قرأ عليه شرحه لموطإ مالك، وبأبي الوليد بن أبي بكر بن حجّاج، قرأ عليه كتاب «التهذيب» للبراذِعي، و«فرائض أبي القاسم الحَوْفي»، كما أخذ عنه كتابَيْ «المعيار في المنطق» و«المستصفى في الأصول» لأبي حامد الغَزالي.

وقرأ كتاب «الإرشاد» لأبي المعالي على أبي الحسن محمد بن عبدالرحمٰن المغيلي القاضي الكاتب قراءة تفقه حتى أكمله.

وأخذ علوم السنة عن قاضي الجماعة بفاس أبي الحجاج يوسف بن أحمد بن حَكَم التّجِيبي المكْناسي، وأبي يوسف يعقوب بن عبدالرحمٰن الجزولي وأبي محمد الفشتالي وأبي عبدالله محمد بن عثمان بن سعيد شُهِر بابن أبي سعيد كنية أبيه.

هكذا أجمل مترجموه فيما أخذ عن هؤلاء الأعلام من

علوم السنة ولم يبينوا ذلك. على أن ابن القاضي وهو أحدهم قال في ترجمة أولهم أعني القاضي ابنَ حكَم من كتابه الجذوة ما يلي: «أخذ عنه بفاس أبو العباس بن البناء الأزدي وغيْره، أخذ عنه الحساب والتعاليم وغير ذلك»، وبه نعلم أن مشيخته في العلوم الرياضية والفلك لم تقتصر على الأفراد المختصين المذكورين بعده، إذ كان من أساتذته في العلوم النقلية من يشارك في العلوم العقلية كأبي يحيى الشريف الذي مرَّ بنا أنه كان يذاكره في إقليدس وكابْنِ حَكَم هذا الذي أخذ عنه الحساب والتعاليم زيادة على ما أخذ عنه من علم السنة المراد به غالباً الحديث الشريف.

والتعاليم اصطلاح كانوا يطلقونه على العلوم الكَوْنيَّة من فلسفة وطبيعة وطب وكيمياء وما إليها، فدِراستُه في هذا المجال كانت أوسع مما يُظن بناءً على هذه الملاحظة. ولذلك جاءنا منه هذا العبقريّ الفَذّ الذي أكبرَ قدرَه الأجانب فضلاً عن ذوي قُرْباه.

وقرأ ابن البناء الطب على الحكيم المعروف بالمَرّيخ[1]. وأخذ علم العدد على أبي عبدالله محمد بن علي المعروف بابن حَجلَة وهذا ليس هو أستاذه الوحيد في

---

(١) لم نقف على ترجمة لهذا الحكيم ولعله هو الذي هجاه الحسن بن نصر الدباغ صاحب كتاب ملح الزجالين بقوله زجلاً:

إن رأيــت مَــن عـــاداك	يـشـتـكـي مـن تـلـطـيـخ
وتـريـد أن يـقـبـر	احـمـلـه لـلـمـريـخ
قـد حـلـف مـلـك الـمـوت	بـجـمـيـع إيـمـانـو
ألا يـبـرح سـاعـة	مـن جـوار دكـانـو

هذه المادة كما نعلم، فينبغي أن نضيف إليه الشريف المراكشي وابن حكم.

وأخيراً فإن شيخه في علم النجوم هو أبو عبدالله محمد بن مخلوف السجلماسي نزيل مراكش.

وفي تعداد مشايخه يجب أن لا نغفل ذكر الشيخ أبي زيد الهَزْمِيرِي الصّوفي الجليل الذي كان يعطف على صاحبنا عطفاً شديداً وأخذ بيده في سلوك طريق القوم حتى بلغ مبلغ العارفين.

وظاهر مما تقدم، أن جانباً مهماً من دراسته كان بفاس على جِلّة من مشايخها المعدودين ولذلك قلنا فيما سبق أنه درس أولاً ببلده مراكش، فلا شك أنه بعدما صَلُب عودُه وقضى نَهْمته مما عند مَشْيَخة المراكشيين رحل إلى فاس التي كانت محلّ دراسته الثانية التي أكمل بها تحصيلَه، واستوعب معارف علماء قُطره.

ولا نعرف له رحلة إلى غيرها من البلاد داخل المغرب ولا خارجه[1].

على أن فاساً إن عرفته طالباً نجيباً ودارساً متفوقاً، فإنها لم تلبث أن عرفته مدرّساً بارعاً وشيخاً مفيداً فيما بعد ذلك كما يحدثنا عنه أبو زيد عبدالرحمٰن بن أبي الربيع سليمان اللّجائي فيما حكاه تلميذه ابن هيدور قال:

---

(١) لقد عنينا بتحرير هذا المطلب من ترجمة ابن البناء المتعلق بذكر مشيخته لأنه وقع فيه كثير من الخبط والتخليط عند جميع مَن ترجموا له.

«وأخبرني شيخي وسيدي أبو زيد عبدالرحمٰن ابن الشيخ الفقيه الأستاذ أبي الربيع سليمان اللجائي حين قراءته عليه بمدرسة العطّارين بمدينة فاس قال: كان شيخنا أبو العباس بن البناء رحمه الله شيخاً وقوراً حسن السيرة قوي العقل مهذباً فاضلاً حسن الهيئة طويل[1] القد أبيض اللون يلبس الثياب الرفيعة ويأكل المآكل الطيبة، وكان لا يمرّ بموضع إلاّ ويسلّم على من لقيه، ما رآه أحد وتحدث معه إلا انصرف عنه وهو يثني عليه، وكان محبوباً عند العلماء والصلحاء والولاة، مشغولاً بالنظر والبحث والتعليم، حسن الإلقاء، قريب الإفادة ماهراً في جميع العلوم محققاً لها مُحِباً في أهل العلم حريصاً على إفادة الناس بما عنده، وكان قليل الكلام جداً، لا يتكلم بِهذَر ولا بما يكون خارجاً عن مسائل العلم، وكان إذا حضر في مجلس فتكلم فيه سكت لكلامه جميع من حضر لاستماع حديثه، حتى قيل فيه: إن عنده طِلَّسْمَ السَّكوت، يُسكِت به الناس إذا تكلم».

إن هذا الكلام يتضمن إفاداتٍ شتّى عن المترجم، فهو أولاً: يفيدنا أنه أقام مدة بفاس يدرّس العلم في مدرسة العطارين، وثانياً: يعطينا صورة عن درسه وطريقته فيه، وثالثاً: يحدثنا عن صفاته وأخلاقه ومعاملته مع الناس وأحوال معيشته، وذلك كله مما يزيدنا به معرفة ويبرز لنا شخصيته العلمية والاجتماعية القوية.

---

(١) في الجذوة معتدل القد.

ولكنه لا يُعرّج على سبب قدومه لفاس ولا على تاريخه ومدة إقامته بها، ولم نرَ من مترجميه من ذكر شيئاً من ذلك. ونحن نظن أن السلطان أبا سعيد المريني يمكن أن يكون هو الذي استقدمه للتدريس في مدرسته التي هي مدرسة العطارين المذكورة لما فرغ من بنائها، لكن يعكر علينا ذلك أن تاريخ تأسيس هذه المدرسة هو عام ٧٢٣، وابن البناء توفي عام ٧٢١ في القول المشهور، فإما أن يكون تدريسه بفاس في غير مدرسة العطارين واللجائي أو غيره ممن روى الخبر عنه غلط في ذلك، وإما أن يكون تاريخ وفاة ابن البناء تأخَّر إلى سنة ٧٢٣ وهو القول الثاني فيها، أو إلى سنة ٧٢٤ وهو قول ثالث نُقِل عن تلميذه أبي جعفر بن صفوان.

وعلى كلٍّ فإن صلة مترجمنا بالسلطان أبي سعيد معروفة ومداخلته له ثابتة حتى أنه فيما يحكُون عنه سأله عن زمن موته فأجابه أن موته يكون عند اشتغاله ببناء موضع في قبلة مدينة تَازَة يقال له: تازَرُوت فكان كذلك. والسلطان أبو سعيد كان كوالده أبي يوسف يعقوب المنصور المريني معنياً بنشر العلم وتقريب العلماء وبناء المدارس وخزائن الكتب، ومن المروي تاريخياً أنه حضر عند الشروع في بناء مدرستِه المُشار إليها وحضر معه الفقهاء وأهل الخير، ولما تمَّ بناؤها شحنها بالطلبة ورتّب فيها إماماً ومؤذنين وقومَه يقومون بأمرها ورتّب فيها الفقهاء لتدريس العلم وأجرى على الكل المرتبات والمؤون فوق الكفاية، واشترى عدة أملاك وقفها عليها

احتساباً لله تعالى[1]، فلا غَرْوَ أن يكون أبو سعيد قد استقدم ابن البناء لحضور تأسيس هذه المدرسة وللتدريس فيها بعدما تمّ بناؤها إذا كانت وفاته قد امتدت فعلاً إلى ما قيل من سنة ٧٢٤، أو أنه استقدمه من مراكش ليكون في مَعِيَّته وللتدريس بفاس في مدارسها الأخرى إن كان قد تُوفي فعْلاً قبل بناء مدرسة العطارين لا سيما وأمثالُ ابن البناء ممن يشتغلون بعلم التنجيم كانوا دائماً طَلِبَةَ الملوك وخاصة الخاصة من رجال الحاشية الذين لا يُستغنى عنهم.

واشتغال ابن البناء بعلم التنجيم هو مما لا شك فيه وله فيه موضوعات معروفة، إنما الناس قد تزَيَّدوا فيه وبالغوا فيما ينسبونه إليه من الحكايات المتعلقة بذلك، ومنها ما تقدم في كلام اللجائي من أنه كان عنده طِلَّسْم السكوت، يسكت به الناس إذا تكلم. ويحسن أن نورد بقية كلام المذكور تعليقاً على ذلك فإنه يحتوي على تعليل معقول لما حمل الناس على قولهم هذا. ونصّه نقلاً عن ابن هيدور:

قال شيخنا رحمه الله: «أما» أبو العباس فكان محققاً في كلامه قليل الخطإ فيه، ولأجل ذلك حُسِد ونُسِب إليه علم الطلسم، وكذلك أيضاً حُسِد في موضوعاته، وقيل: إنه كان يضعها بالاختيارات النجومية لكثرة طلب الناس لها وعنايتهم بها وكثرة شهرتها في البلدان وهذا كله ظاهره إنما

---

(١) الاستقصا للناصري ج ث ص٥٤.

هو الحسد. وسبب شهرتها إنما هو اشتغاله بقراءتها حتى اشتهرت بحياته في جميع البلدان.

وتُبين لنا هذه النبذة إغراب الناس أيضاً حتى في تعليل ما لقيته مؤلفات المترجم من الرواج ونسبتهم ذلك إلى اختيار الطالع السعيد والقِرانات النجومية ساعة وضْعِها وتأليفها. والحالةُ السيْكولُوجية للعوام، وبعض العلماء المحدودي الإدراك عند مشاهدة بعض الظواهر الغريبة، كثيراً ما تُوحي بمثل تعليل طِلَّسم السكوت وما إليه من العجائب، والتعليل الصحيح هو ما أشار إليه اللجائي. ويَعضُده في خصوص إصابة ابن البناء في كلامه وإنصات الناس إليه وتسليمهم له، قولُه هو نفسه أعني ابن البناء في هذه الأبيات الشعرية الحكيمة المشتهرة من نظمه:

قصدتُ إلى الوَجازَة في كلامي لعِلْمِي بالصواب في الاختصارِ
ولم أحذَرْ فُهوماً دون فهمي ولكن خفتُ إزراء الكبارِ
فشأن فُحولة العُلماء شأني وشأنُ البَسْط تعليمُ الصّغارِ

ويمكن أن يضافَ هذا التعليلُ وهو التحرير والتلخيص في تآليف ابن البناء إلى ما ذكر اللجائي في سبب شهرتها وانتشارها من قراءته لها في حياته وأخذ الناس لها عنه، فإن الرجل كان مختصاً في علومه ومحصلاً لها تمام التحصيل، وبذلك فهو لا يُودع في مؤلفاته إلا زُبْدةَ الفن وخلاصةَ العلم، مما يجعل الناس يرغبون فيها ويتنافسون في تحصيلها. وقد أشار في أزهار الرياض إلى هذا المعنى، وزاد على ذلك أنه كان عريقاً في الحضارة بريئاً من البداوة.

ويحتاج موضوع اشتغال المترجم بالتنجيم والعجائب المنسوبة إليه في ذلك إلى مزيد بَسْط. فَنَنْقُل كلامَ ابن شاطر المراكشي الذي ساقه ابن هيدور، والمُبين لمبدإ تعلق ابن البناء بهذا العلم إلى أن بلغ فيه الغاية بحسب زعم ابن شاطر ثم نعقب عليه بما يلزم. وهذا هو باختصار قليل:

«وأخبرني الشيخ أبو عبدالله محمد بن شاطر رحمه الله قال: كان أبو العباس من أهل العلم متفنناً في فنون كثيرة، وكان ينظر في أحكام النجوم مع محافظته على الدين وأخذه في علوم أهل السنة واشتغاله بها، فكان آخذاً من الطرَفَيْن بالحظ الوافر. وخدم في أول حالِه وليَّ الله تعالى أبا زيد الهزْميري رحمه الله ودخل في طريقة مع الفقراء الذين كانوا تلامذة له، فأعطاه ذكراً من الأذكار ودخل به الخلوة مدة سنة كاملة فرأى ليلة وهو بحال يقظة ومشاهدة، دائرة الفَلك بأجمعها حتى عاين مَجْرَى الشمس من أوله إلى آخره فوجد في نفسه من ذلك هوْلاً شديداً فسمع نداء الشيخ من خَلْوته وهو يقول له: أُثْبُت. أُثْبُت. حتى عاين ما رأى عياناً مستوفى، فلما أصبح قال له الشيخ مبتدئاً: إن الله تعالى قد فتح لك فيما أراك وهو عِلْمُك الذي وهبك الله فاطْلُبْه.

«فأخذ من ذلك الوقت في طلب علم الهيئة والنجوم حتى أدرك في ذلك الغاية التي لم يلحقها أحد في زمانه، إلا أنه لم يصحَّ عنده الإخبار بالكائنات قبل كوْنها، ولم يطَّرِد له في ذلك قانون مما ذكره أصحاب تَقْدِمة المعرفة فكان يُحسّ من ذلك في باطنه أمراً عظيماً، وأخذ يستقصي في ذلك جميع أصول أحكام النجوم، ولم يدع في ذلك مما

قاله الأقدمون شيئاً إلا جرَّبه واختبره، فلم يحصُل له في ذلك قانون إخْباري مُطَّرد، وبقي على تلك الحالة سنين إلى أن استعمل الصوْم والخلوة طلباً لتصحيح مراده وأن يُخبَر بقانون مطرد في الإخبار بالمغيِّبات فدام في تلك الخلوة عدة أيام إلى أن رأى يوماً بين يديه في صلاة كان يصليها صورةَ قُبَّة من نُحاس مصنوعة بصنائع لم يرَ مثلها في عالم الحس وهي محبوسة في وسط الهواء وفي داخلها شخص يتعبّد فهالهُ ما رأى من صُور مُفْزِعة وسمع أصواتاً مَهُولةً تناديه أن اذنُ منا فلم يثبُت له جأش وأُغْمِيَ عليه وصار يهذي فمرَّضَه أهله مدة إلى أن بلغ خبرُه للشيخ الهزميري فعاده ومسح رأسه فزال ما به، وسأله عما رأى فأخبره فقال له: أنا كنتُ ذلك الرجل الذي في القبة أُمِرتُ أن أخبرك في ذلك المقام فلم تثبت، وها أنا ذا أخبرك في عالَم الحِس. ثم أخبره بمطلبه بعد أن أخذ عليه العهد ألاّ يعلمه لأحد إلا بعد الإذن».

هذا هو كلام ابن شاطر في موضوع التنجيم والمراحل التي قطعها ابن البناء في طلبه وقبل التعليق عليه بشيء ننوّه بما في طَيّه من دلالة على تعلُّق صاحبنا ابن البناء بالعلم واجتهاده في طلبه واتخاذه جميع الوسائل لبلوغ غرضه منه حتى الرياضة الروحية، وقد ذكر غيره من ذلك أنه بقي مدة لا يأكل ما فيه رُوح ثم نُؤمِّنُ على ما ورد في النصف الأول من هذا الكلام وهو المتعلق برؤيا ابن البناء لدائرة الفلك وتمثّله لشيخه الهزميري وهو يُثَبّته أمام هوْل ما رأى. ونقول: رؤيا. ونحن نعني ما نقول فلا شك أنها كانت رُؤيا

مَنامية بدليل عبارة (فلما أصبح) التي بعدها، وإن كان الراوي جعلها رؤية عيْنية مُبالغة أملتْها عليه الحالة النفسية التي كان وما يزال فريق من الناس يخضَعُون لها إيماناً منهم بالخوارق وكرامات الأولياء التي لا يحدّها شرع ولا يزِنُها منطق.

فأما أن تكون هذه رؤيا منامية فلا حرَجَ في ذلك، وهي بهذه الصفة أدخل في الكرامة من الصفة الأخرى. وقد حصل المقصود منها وهو الفتح على صاحبنا في علم الفلك والنجوم، كما قال له الشيخ الهزميري، حتى بلغ في ذلك الغاية التي لم يلحقها أحد في زمنه.

نعم بقي النصف الثاني من كلام ابن شاطر وهو ما نتَحفَّظ في قبوله، ونرى أن فيه تَزَيُّداً كبيراً والمراد منه هو القول بأن ابن البناء ظفِر بالنتيجة المُتوخّاة من علم التنجيم وهي معرفة المغيبات وإعطاء ذلك صِبْغة شرعية بِجَعْلِه حاصلاً عن طريق المُجاهدة وبالإذن من الشيخ الهزميري حتى لا يقع اعْتِراض على مُدَّعيه، لا سيما مع التمهيد له بما جاء في استهلال الكلام من أنه كان ينظر في أحكام النجوم مع محافظته على الدّين... إلخ.

ونحن وإن كنا لا نُنكِر علمَ التنجيم ولا نُثبِتُه، فإن ما لا نتساهل فيه هو حكم الشرع على هذا العلم وأحْكامِه وأنه من الشرك اعتقاد شيء من ذلك وأن الاشتغال به إن لم يكن لغَرض شرعي كإبطاله وعدم الاغترار به، حرامٌ لا يُجوّزُه الشرع ولا بد أن يكون ابن البناء إنما عَمِل به في هذه

الدائرة إن حصل منه على شيء حقاً، وكان هو في نفسه حقاً.

ومما يحكى من أخباره في ذلك والراوي هو ابن شاطر أيضاً قال:

«كنت قاعداً مع الشيخ ابن البناء في دُكّان فلان الطبيب بمراكش، فإذا برجل قد أتى لابن البناء وقال له: يا سيدي: توفي والدي وكان مُتّهماً بالمال ولم يترك لي شيئاً وقيل لي: إن ماله مدفون بداره فأحِبّ أن تُعمِل خاطرَك معي لوجه الله. ففكّر الشيخ بَرْهة ثم قال للرجل: صَوّرْ لي صورة الدار في الرمل، فصوّر له صورتَها من غير أن يدع شيئاً منها. فأمره أن يزيل تلك الصورة فأزالها. ثم أمره أن يصورها ثانية فصوّرها كالأولى، فأمره أن يزيلها، ثم أمره أن يصورها ثالثاً فصوّرها كالأولى والثانية، فنظر فيها وقال له: إن مالك في هذا الموضع. فقبّل يدَه وانصرف».

قال ابن شاطر: فبحثت عن الرجل فالتقيتُ به بعد يومين فأخبرني أنه وجد مال أبيه في الموضع الذي ذكره الشيخ فقضيت العجب من ذلك.

وهذا أمر إلى الزّكانة وحدّة الذهن أقرب منه إلى الحكم بالنجوم.

وحكوا عنه أيضاً أن شُرْطياً عدا على خديمه فقتله، فلما بلغه الخبر عمل بعض الأوْفاق فما استتمها حتى مات الشرطي. وهذا يمكن أن يكون وقع صُدْفة بموت الشرطي موتاً فجائياً متأثراً مِنْ خُصومته مع خديم المترجم، فنُسِب

إلى تأثير الأوفاق. وعلى كلٍّ فإن اشتغال ابن البناء بهذا العلم إن صحّ أن نسمّيه علماً أمرٌ ثابت لا مِرْية فيه، بل إنه أخذ منه مجهوداً كبيراً ووقتاً طويلاً. وكونه وصل فيه إلى نتيجة عملية أمر مشكوك فيه. ومُخالفتُه للشرع لا غُبار عليها، إنما نحن لا نشك أنه كان له وجه ومدخل شرعي لذلك، لا سيما وأن بين تآليفه موضوعاً اعتمد فيه حكم الشرع في ردّ الأحكام النّجومية وإبطالها كما نقف عليه في لائحة مؤلفاته، وحرصُنا على ذكر هذه الأشياء مع تحفُّظِنا بإزائها، من المقاصد التي نتوخّاها في كتابة تراجم علمائنا وعظمائنا لتخليصها من الشوائب، وإفراغ حلّة المعقُولية عليها، فقد غبَرَ الزمنُ الذي كان الناس يقفون فيه مشْدُوهين أمام النبغاء والعباقرة فينسبون ما يرون من أعمالهم العجيبة إلى المُعْجزة أو السّحْر وما إلى ذلك من الأمور التي وراء العقل وفوق الطبيعة البشرية وهو خطأ ينبغي أن يزول.

ومما روَوْه على أنه كرامة، وهو أحرى أن يكون فِراسة أن أبا عبدالله الكُومي، وهو من فضلاء مراكش المشهورين بالخير والصلاح، خرج في قائلة يوماً قاصداً إلى زيارة الفقيه أبي عبدالله البَقّوري مُكَمّل إكمال المُعْلِم[١] وقال: فدخلت عليه فوجدته بين كتبه على التراب، وعليه مُرقَّعة غليظة وعرَقُه يقطر، فجلست عنده ساعة ثم خرجت إلى زيارة ابن البناء فخرجتْ إليّ وَصِيفةٌ خُماسية قالت: مَن

(١) المعلم على صحيح مسلم للمازري وإكماله للقاضي عياض ومكمله هو صاحبنا البقوري.

هذا؟ قلت: قُولِيَ له الكُومي، فأعلمته وأذِن في دخولي فوجدته في قُبَّة رياضه الذي[١] أحْدثَ بناءه بمراكش وعليه ثوب كتَّان من عَمل تونسيّ وفي القُبة أقطِعَة ومَخَايدُ وعليها حجاب حسن[٢] فسلّمتُ عليه وجلستُ فنادى الخادم وأشار لها فقدّمت آنية بالسُّكّر وأخرى بالبطيخ. فقال لي: ادنُ، فدنوت. وقلت في نفسي: سبحان الله كيف تركت البقوري وكيف وجدت هذا الرجل؟ فقال لي: اسكُت ودع الفضول. لو كان البقوري في هذا المقام وأنا في مقامه لاختلَّ حال كل واحد منا.

إن ما يعنينا من هذه الحكاية ليس هو تفرُّس ابن البناء الذي عرف به حال الكومي ولا سيما إن كان أخبره بأنه آت من عند البقوري وإنما يعنينا منها وصفُ معيشة صاحبنا وتَرفُّهه الذي يدل على غناه وسعة حاله وأنه بنى رَوْضاً لسكناه ببلده حاضرة مراكش، لم يكن مما وَرِثَه عن أبيه حتى لو كان أبوه ذا ثروة اكتسبها من حِرْفته بل الأمر يدل على أنه هو الذي استفاد ماله ونمّى ثروته بمخالطة السلطان وربما بوسائل أخرى كالتجارة ونحوها.

وقد مرّ بنا آنفاً في حديث أبي زيد اللجائي عنه أن تلك كانت حاله أيضاً لما كان مقيماً بفاس فكان يلبس

---

(١) ذكر الوصف على اعتبار الرياض مفرداً كما يجري في لسان العامة بالمغرب.

(٢) يريد بالأقطعة المراتب والمضربات، وبالحجاب الأغلفة التي تجعل للمخدات وللمضربات والمراتب وهذه تعرف بالتلاميط.

اللباس الرفيع ويأكل المأكول الطيب وهي حال تناسب ما كان له من المكانة الاجتماعية المرموقة.

ولقد كان هذا الذي أدرَكَه من شفوف المنزلة لدى السلطان وكفاية الحال ومحبة الناس له وتعظيمهم إياه، إنما هو من بركة العلم والعمل والحرص على النفع ونُصح العباد، فإنه قد بلغ في المعرفة مقاماً عالياً اعترف له به الجميع وكان قد شارك غيره من أهل العلم المتصدرين فيما عندهم، وانفرد عنهم بفنون لم يَتْقفْها فقط ولكنه تعمَّقها واختص بها حتى أصبح يُشار إليه بالبنان فيها وهو مع ذلك على جانب من الوقار والسكينة وسَمْت العلماء، يبذُل ما عنده من العلم، ويعامل الناس بأحسن الأخلاق، ويقوم على قدم الاجتهاد في العبادة والبِرّ وفعل الخير.

إن أهل العلم والصلاح كلهم قد أثنوا عليه ونوّهوا به، ناهيك بما قاله فيه العلامة ابن رُشَيْد وهو مَن هو كما في نيل الابتهاج: «لم أرَ عالماً بالمغرب إلا رجلين: ابن البناء العددي بمراكش وابن الشَّاطّ بسَبْتَة» وكان ما اشتهر به أكثرَ من غيره ورُزِق فيه الفتح هو علمُ العَدد وعلمُ الفلك، فالعدد بمعناه الواسع الذي يشمل الحسابَ والجبرَ والمُقابلة وما تفرّع منها مما نسميه بالرياضيات، كان له فيه تفوق كبير وفضل مُعترف به من أهل الفن على تقدُّم أبحاثه وتوسُّع نظَرياته وخاصة في حساب الكسور المتسلسلة والجُذور الصمَّاء ومُربّعات الأعداد ومُكَعَّباتها وحساب الخطأين وقد أدخل بعضَ التعديل على القاعدة المعروفة بقاعدة الخطإ الواحد وحلَّ بعضَ المعادلات الجبْرية العَويصة، وذلك كله

بطرق سهْلة وقريبة المأخذ مما أطلق ألسنة العلماء بالثناء وتقدير عمَلِه، ولا سيما الأوروبيون الذين أدهشتهم تحقيقاته حينما نُقِلت بعضُ مؤلفاته إلى اللغات الأجنبية في أول عصر النهضة. وممن شهد بفضله في هذا المقام لالاند وسارطون وويكه وسوتر وألدوميلي. وأشار الرياضي الفرنسي شال إلى أن بعض علماء الغَرْب أغاروا على كتُبه وتبَنَّوْا نظرياته[1].

وفي الفلك بمعنى علم الهيئة والمواقيت والرَّصْد وعَمل الأزْياج والتنجيم وما إلى ذلك كان لابن البناء أيضاً اليدُ الطّولى والقِدْحُ المُعَلّى، واعتُبِرت بعضُ بحوثه أساساً لوضع الأزياج وضبْط المواقيت، لأنه كان يُعنى بالتجربة ولا يكتفي بالنظر. فَمِن ثَمَّ انتقد أشياء كانت تؤخذ مُسلَّمة وأسّس قوانين للعمل في هذا الصدد قُوبِلت بمزيد الاستحسان. وإننا لِنُعطيَ دليلاً على ذلك نكتفي بالقوْل إن كثيراً من مؤلفاته ورسائله العلمية تحمِلُ اسم قانون أو مِنْهاج حتى قيل: إن كلمةَ almanac الأجنبية مأخوذةٌ من اسم كتابه مِنْهاج الطالب المعروف. وقال العلاّمة سارطون: إنها مأخوذة من اسم كتابه المناخ.

ولم يقتصر صاحبنا ابن البناء على هذين العِلْمين، بل إنه نظر في الهندسة كذلك وله فيها أوضاع جيّدة واستعان بمهارته في علم العدد على بسط مطالبها الأساسية، وبذلك يكون عطاؤه في العلوم الرياضية كاملاً.

ولابن البناء مجال آخر من العلم النظري له فيه آثار

---

(١) قدري حافظ طوقان: تراث العرب العلمي ص٣٨٠.

ما زالت لم تدرس وهو المنطق والفلسفة، فقد سبق لنا أنه أخذ التعاليم عن ابن حَكَم، وغالباً ما يراد بها الفلسفة وإن كانت تطلق ويراد بها العلوم الكونية من نظرية وعمليّة. ولقد وجدنا في أسماء مؤلفاته كتاباً باسم الكليات في المنطق، ولا بد أن يكون كما عوّدَنا محتوياً على شيء جديد ولو في طريقة العَرْض. وفي مؤلفاته أيضاً رسالةٌ صغيرة الحجم ولكنها كثيرة العلم سماها مراسم الطريقة، وشرْحٌ لها مبسوط، وهما تأليفان لم يُسبق بهما على ما قال الشيخ أحمد بابا في «نيل الابتهاج». والحقيقة أن هذا الكتاب متْناً وشرحاً عملٌ فريد، وله فيه نفَس عال لم نعرفه لغيره فيما تضمنه من الأبحاث.

ولنستمع مثلاً إلى قوله في المرسم الأول مقارناً بين وظيفة النفس والعقل:

«إن النفس إذا توجهت نحو المحسوسات وأدركتها ارتسمت منها في النفس صور خيالية، وبعد ذلك تتصرف فيها القوة المفكرة تركيباً وتفصيلاً، وتخلص ماهية الشيء المحسوس من مُشَخّصاته وترك الأمر الكلي الذي وقع بتشابه الجزئيات وإذا توجّهتْ نحوَ ما ليس بمحسوس لها سواء كان شأنه أن يُحَسّ أو ليس شأنه أن يُحس، فلا بد لها من وضع علامة في النفس تَتنزّلُ عندها منزلة الصور المتخيّلة من المحسوسات ويُسمى هذا الوضع توهُماً فإن الرسم إنما هو اتباع الخيال الذي عن المحسوسات ولا يرتسم في النفس شيء سوى ذلك.

والعقل لا يضع لشيء رسماً أصلاً إنما له أبداً الشهادةُ

لحق، ومُدْركُه وجْدانُ اللزوم في الأشياء. فلذلك إذا صرف الإنسان فكره نحو ربه نصبَ الوهم في الذهن شيئاً لا ينفك الوهم عنه يجعله كالعلامة. فهذا الذي حصل في الذهن بالوهم يساعد العقلُ الوهمَ على نصْبِه، إذ لا حيلة للوهم إلا به، ويتفقان على أنها علامة مُشيرة إلى الاسم حيث هو وليست هذه العلامة هي ماهية الربّ ولا نفسه، إذ لا ماهية للربّ وله حقيقة جلّت عن إحاطتنا بها يشير إليها العقل والوهم ويتفقان أيضاً في الشهود الصريح على اطراح تلك العلامة بمعنى عدم اعتبارها فيبقى الذكر خالصاً بقوة الروح، وليس تلك العلامة أيضاً مأخوذة من شيء أصلاً، إنما حدثت في النفس من ذكر الرب فهي مشيرة إلى اسمه كما ذُكِر وعلامة ضابطة للوهم».

ولنستمع إليه أيضاً في إبطال شُبهة من شُبَه الفلاسفة في قِدَم العالم:

«فمما يغلّط إطلاقُ أن المؤثر لا يؤثر حتى يتأثر، وقد يبنى على لازمه قدم العالم في الوجود لاستحالة تأثر القديم بالحادث، وما ذلك إلا لإطلاق هذا القول وميْل العلامة التي في النفس عما يقبل التأثير في نفسه إلى العموم، وليس ذلك يحق في كل شيء بل نجد مؤثرات لا تتأثر أصلاً مع أثرها الحادث مثل خطين متوازيين ممتدين بلا نهاية هما في مُدْرَك العقل لا يلتقيان أصلاً ويلتقيان حساً، فقد أثّرا أنهما تأثّرا بالالتقاء والنهاية، وسبب ذلك الارتباط الذي بين الخطّين والبصر، وبامتداد البصر معهما تظهر صورة الاجتماع وبانقباضه تظهر صورة الافتراق، ولم يتأثرا من جهة ذاتَيْهما

أصلاً وإنما الأثر في غيرهما، وهما مع ذلك يُوصَفان بأنهما مُلْتقيان وليست هذه الصفة موجودة في ذاتيهما بل هي حال لهما في البصر لا فيهما فيوصفان بالضدَّين الاجتماع والافتراق وتلك الأوصاف لهما حقيقة، لأن شأنهما أن تكون لهما تلك الأوصاف بسبب تلك الأحوال، وليس ذلك بموجب كثرتهما، ولا تغيرهما ولا نفي الأثر عنهما بل حقيقتهما عند الأثر وقبله وبعده من جهة ذاتيهما حقيقة واحدة لم تتغير، فهذا مؤثرٌ أثَّرَ أثَراً ظهر منه أنه تأثر وهو لم يتأثر لأن ذلك الأثر عائد إلى المتأثر... إلخ».

هذان نموذجان من تفكيره الفلسفي في رسالة المراسم لم نسُقْها إلا للتنبيه على غرابة منْزَعه وقوة نظره، وإلا فإنهما لا يُغنيان شيئاً عن وجوب الاطلاع عليها ودراستها مع شرحها لمعرفة ما لابْنِ البناء في هذا الميدان الآخر من العلم من بَسْط واتّساع، ولا نَغفُل عن استغلاله لِمَعارفه من العلوم التطبيقية فيما ضربه من مثال للاحتجاج على بطلان التأثر، وهو بِصَدَد تقرير نظرية فلسفية، فإن ذلك من أصالة فِكْره وتمام تصرُّفه.

ونظن أن هذه الاتجاهات العلْمية الثلاثة هي التي برَّزَ فيها وأبدع ما شاء حتى طارت له تلك الشهرة المعروفة التي جاوزت آفاق بلاد العروبة والإسلام إلى الآفاق العلمية العالمية، وإن كان كما علمنا قد شارَكَ مُشاركة هامة في العلوم الشرعية واللغوية وله فيها كذلك آثار قيِّمة. ولكننا لا نقف عندها كما وقَفْنا عند علومه السابقة لأن هذه هي التي اختص بها في زمنه، وأما تلك فقد كانت مُشاعة بينه وبين

جميع عُلَماء عصره، فلنكتفِ الآن بسرد لائحة مؤلَّفاته التي تشملُها وغيرَها ومنها نتعرَّف إلى مَجْهُودِهِ فيها أيضاً.

ونحن نقسم هذه اللائحة باعتبار ما ذكرنا إلى أربعة أقسام، مؤلفاته في العلوم الشرعية واللغوية، ومؤلفاته في الرياضيات، ومؤلفاته في علم الفلك، ومؤلفاته في الفلسفة. ونلاحظ أولاً أن هذه المؤلفات أكثرها رسائل صغيرة، وقد سبقنا إلى هذه الملاحظة شارحه ابن هيدور الذي قال:

«أما موضوعاته ـ يعني تآليفه ـ فكثيرة جداً، ألّف في جميع ما عني به، ومعظمها صغار جداً».

أ ـ المؤلفات الشرعية واللغوية:

١ ـ تفسير الباء من بسم الله الرحمٰن الرحيم جزء صغير.

٢ ـ تفسير سورتَيْ العصر، وإنا أعطيناك الكوثر.

٣ ـ عنوان الدليل من مرسوم خط التنزيل وهو جزء نبيل في تعليل رسم المصحف[1] الإمام.

٤ ـ حاشية على تفسير الكشاف، سفر صغير غريب في معناه.

٥ ـ كتاب نحا فيه منحى ابن الزبير في كتابه المسمى «ملاك التأويل في المتشابه اللفظ من آي التنزيل»، موضوع غريب أتى فيه ببدائع وعجائب.

---

(١) إن أكثر ما نعقب به من بيان على أسماء هذه الكتب هو من صنع ابن هيدور وعنه ننقله.

٦ ـ الاقتضاب والتقريب للطالب اللبيب في أصول الفقه.

٧ ـ منتهى السُول في علم الأصول، جزء صغير.

٨ ـ تنبيه الفهوم على مدارك العلوم في أصول الفقه، أيضاً جزء كبير.

٩ ـ شرح التنقيح للشهاب القرافي.

١٠ ـ اختصار كتاب الإحياء للغزالي.

١١ ـ كتاب في عمل الفرائض.

١٢ ـ كتاب الفصول في الفرائض أيضاً.

١٣ ـ شرح بعض مسائل الحوفي في الفرائض.

١٤ ـ مقالة في الإقرار والإنكار.

١٥ ـ مقالة في مسائل المُدبَّر.

١٦ ـ مقالة في مقادير المكايل الشرعية.

١٧ ـ رسالة في ذكر الجهات وبيان القبلة والنهي عن تغييرها لأنها بوضع مجتهد.

١٨ ـ رسالة في إحصاء عدد أسماء الله الحسنى من القرآن وإخراجها منه على حسب ما هي من غير تغيير وتداخلها من جهة العموم والخصوص.

١٩ ـ رسالة في الفرق بين الخوارق الثلاثة المعجزة والكرامة والسحر، ومن فصولها أن المعجزة من باب الوجود الممتنع على البشر والكرامة من باب الوجود المفتوح للبشر،

ولهذا يمكن التحدي فيها والسحر من باب الخواص الأرضية المرتبطة بالقوى. وصاحب السحر لا بد له من آلة ظاهرة أو خفية، وليس لصاحب المعجزة أو الكرامة آلة إلا الدعاء إلى الله تعالى.

٢٠ ـ رسائل في تفسير بعض الآي من القرآن.

٢١ ـ شرح عوذة مُغْفَلَة.

٢٢ ـ شرح ما يكتب في الحفيظة التي تُكتب في آخر جمعة من شهر رمضان.

٢٣ ـ كلام في العزائم والرقى والسحر والتمائم.

٢٤ ـ كلام في خواص بعض الدعوات.

٢٥ ـ رد على الأحكام النجومية وإبطالها.

٢٦ ـ الكليات في العربية جزء صغير.

٢٧ ـ الروض المَرِيع في صناعة البديع في علم البيان.

٢٨ ـ كتاب الاختصار.

٢٩ ـ مقالة في عيوب الشعر.

٣٠ ـ قانون في معرفة الشعر.

٣١ ـ مقالة في الفرق بين الحكمة والشعر.

٣٢ ـ مقالة شرح فيها لغز عمر بن الفارض الذي أوله:

ما اسم ثلاثي الحروف فثلثه   مثل له والثلث ضعف جميعه[1]

(١) لا يوجد هذا اللغز في ديوان ابن الفارض.

ب ـ المؤلفات الرياضية:

٣٣ ـ كتاب التلخيص في الحساب، وهو من أشهر تآليفه.

٣٤ ـ شرحه المسمى برفع الحجاب. قال ابن هيدور: «وهو سفر صغير كثير المنفعة، ورأيت عليه خط مؤلفه أنه ألّفه عام واحد وسبعمائة». وقال ابن خلدون في التلخيص: «إنه ضابط لقوانين أعماله مفيد»، وفي رفع الحجاب: «هو كتاب جليل القدر أدركنا المشيخة تعظمه وهو جدير بذلك».

وهذان الكتابان عليهما قامت شهرته بصفته حاسباً كبيراً ورياضياً ممتازاً. وقد نُقِل التلخيص إلى اللغة الفرنسية في القرن الماضي بمعرفة الأستاذ أريستيدمار وطبع غير مرة كما نُقِلت محتوياته وأطراف من شروحه إلى الفرنسية وغيرها قبل ترجمته كاملاً.

ومن شراحه القَلْصادي وابن هَيْدور وابن مُجْدي والهَوَّاري والإشبيلي ونظمَه ابن غازي في رجزه المعروف المسمى بالمُنْية واختصره ابن الهائِم وسمَّى مختصره الحاوِي.

وعلى هذه الشهرة المطبقة التي أدركها التلخيص فقد قيل: إنه اختصره من كتاب أبي زكرياء الحصّار حتى أن بعضهم يطلق عليه الحصّار الصغير وكذا قيل في شرحه رفع الحجاب أنه مأخوذ من كتاب أبي كامل شجاع المصري وغيره، ولا عيب في ذلك فما زال العلماء يأخذ بعضهم عن بعض وقد اختُصر التلخيص نفسه كما رأينا ولكن قيمته لم

تذهب باختصاره ولا بالقول إنما هو مختصر الحصّار فما أعطاه تلك القيمة إلا شيء زائد على المختصر منه، والناس أكْيَسُ من أن يمدحوا رجُلاً البيتَ بل صرّح ابن هيدور بهذا المعنى إذ قال: «وكل ما ألف بعده من المختصرات فمُقَصّر عن درجته وأنى للضالع بإدراك شأو الضليع» وقال في مدحه نظماً:

يا طالباً علمَ الحساب وكُنْهَه وأصالةَ البرهان في الأعمال
فعليك بالتلخيص تُدْرِكْ جَوْدةً في علمه من غير ما إشكال

٣٥ ـ كتاب الجبْر والمقابلة وقيل فيه أيضاً: إنه مُقتبس من كتاب أبي القاسم القُرَشي بل مأخذو منه بالحرف، ذكر ذلك أبو العباس بن صفوان تلميذ المترجم في شرحه على كتاب القرشي المذكور، وكان نبَّهه على ذلك أبو بكر القَالُوسي، أثناء قراءته على ابن البناء بمراكش وأوقفه على بعض ذلك ثم لما رجع ابن صفوان إلى الأندلس تصيَّرتْ إليه نسخة من كتاب القرشي قال:

«فتأملته فرأيت كتاب ابن البناء مأخوذاً منه بجملته منقولاً بنصه لم يضع فيه كلمة واحدة ليست في كتاب القرشي، حاشا الخطبة وما في حكمها وما عدا ذلك مما تضمنه من المسائل والأمثلة وجميع ما فيه من كتاب القرشي كأنه لخّصه منه وجرّده عن البراهين. وكان ابن البناء رحمه الله تعالى فريدَ عصره... قادراً على التأليف، صدرت عنه تآليف كثيرة في فنون شتى ولكنه رأى حُسْنَ تأليف القرشي فانتقَى منه عيوناً بديعة واقتضب نُكتاً مفيدة ونظمَها كتاباً صغيرَ الحجْم كبير العلم انتفع به أهل تلك

الطريقة وصار عُمدةً لهم فيها»، هذا كلام ابن صفوان وقد أحسنَ توْجِيهَ عمل ابن البناء في هذا الكتاب ولو أنه أشار إلى قصده هذا لاَرْتفعَ عنه كل لوم والكمال لله.

٣٦ ـ مقدمة في أُقليدس.

٣٧ ـ المقالات الأربع.

٣٨ ـ القوانين وضعه لابن القاضي العِمْراني الذي كان يقضي في زمنه بمراكش.

٣٩ ـ الأصول والمقدمات في صناعة الجبر.

٤٠ ـ جزء في ذوات الأسماء والمُنفصِلات.

٤١ ـ القانون في العدد، كراس.

٤٢ ـ جزء في العمل بالرّومي، سمّاه الاقتضاب.

٤٣ ـ مُخْتصر في المساحة.

٤٤ ـ جوابات عن مسائل هندسية ومساحية.

٤٥ ـ رسالة على الكرة (لا ندري جغرافية هي أم فلكية).

٤٦ ـ اختصار في الفلاحة (أثبتناه هنا لتقليل التقسيمات).

ج ـ المؤلفات الفلكية والتنجيمية وما إليها:

٤٧ ـ رسالة في مسائل مختلفة فقهية ونُجُومية منها الردّ على مَن يقول: إن وقت العصر يُعلَم بوقوع قُرص الشمس على بصَر القائم قُبالتَها، وبين أن ذلك لا يصحّ في بلد دون بلد ولا زمن دون زمن.

٤٨ ـ منهاج الطالب في تعديل الكواكب وهو من أشهر تآليفه في هذا العلم وقد نقله الدكتور خوان برنيت إلى الإسبانية ونشره مع الأصل العربي معهد الأبحاث بتطوان سنة ١٩٥٢.

٤٩ ـ الزّمام المعروف بالمستطيل وهو مختصر المنهاج المذكور.

٥٠ ـ اليَسارة في تعديل السيَّارة، وهو أيضاً من تآليفه المشهورة أتى به على وجه التقريب للمبتدي وجعله دون الكتابين المذكورين.

٥١ ـ الإشارة في اختصار اليسارة، اختصر فيه الكتاب الذي قبله مبالغة في التسهيل على الطالب.

٥٢ ـ المنهاج في رؤية الأهلّة وهو معروف من كتبه ومتداول بين الفقهاء.

٥٣ ـ المنهاج في تركيب الأزياج... وهذان الكتابان وكتاب منهاج الطالب تصحّفت أسماؤها في بعض المطبوعات من ترجمة ابن البناء[1] من المنهاج إلى المُناخ، وبذلك وقع الاختلاف في أصل كلمة المناك Almanac هل هو المناخ أو المنهاج مع الجَزْم بأنها مأخوذة من أعمال ابن البناء، والصواب أنها من المنهاج.

٥٤ ـ تأليف غريب في أحكام النجوم.

---

(١) في كتاب الجذوة لابن القاضي وكتاب الأعلام لابن إبراهيم المراكشي.

٥٥ ـ ثلاثة مداخل إلى صناعة الأحكام النجومية.

٥٦ ـ مقالة في عمل الإسْطرلاَّب.

٥٧ ـ رسالة في العمل بالصفيحة الزرقالية.

٥٨ ـ رسالة في العمل بالصفيحة الشكازية، وهاتان الرسالتان مشهورتان معروفتان من تأليفه.

٥٩ ـ مختصر رسالة ابن الصفّار.

٦٠ ـ جزء في الأنواء فيه صور الكواكب ويقال فيه أيضاً: كتاب، والغالب أنه هو الذي نشره معهد الدروس العُليا المغربي سنة ١٩٤٨ مع ترجمة فرنسية للدكتور رينو باسم رسالة في الأنواء، إذ ليس للمؤلف موضوع ثان في الأنواء على ما نعرف وإن كانت هذه الرسالة المنشورة ليس فيها صور للكواكب كما يذكرون.

٦١ ـ رسالة في العمل بالميزان المعروف بالكامل المقرب.

٦٢ ـ قانون في معرفة الأوقات بالحساب.

٦٣ ـ قانون في فصول السنة وما تحتوي عليه.

٦٤ ـ مقالة في الحُملاء الستة بجدول.

٦٥ ـ قانون في ترحيل الشمس.

٦٦ ـ كتاب في تسمية الحروف وخاصية وجودها في أوائل سور القرآن.

٦٧ ـ رسالة في طبائع الحروف ومناسبتها للمعاني.

٦٨ ـ موضوع حسن في الأوفاق.

٦٩ ـ رسالة في المناسبات.

٧٠ ـ كلام في عمل الطِّلّسمات.

٧١ ـ كلام على الصَّرْع الروحاني والصَّرْع المِزَاجي.

٧٢ ـ كلام على الزجْر والفَال والكهانة.

٧٣ ـ كلام على خط الرمل.

٧٤ ـ كلام على السيمياء.

٧٥ ـ رد على ابن عبدالعظيم الزموري في خَلْوته وردّ على البُوني.

٧٦ ـ كلام على خواص الأشياء.

٧٧ ـ كلام في الكيمياء.

د ـ المؤلفات الفلسفية:

٧٨ ـ الكليات في المنطق جزء صغير.

٧٩ ـ شرح عليه.

٨٠ ـ جزء صغير في الجدل.

٨١ ـ شرح عليه.

٨٢ ـ مراسم الطريقة في فهم الحقيقة من حال الخليقة، رسالة تقدم الكلام عليها.

٨٣ ـ شرحها وهما موجودان بمكتبة الأسكوريال.

٨٤ ـ عواطف المعارف في الكلام والأصول والتصوف.

٨٥ ـ رسالة في ذكر العلوم الثمانية (لم نعرف المراد بهذه العلوم ووضعنا الرسالة هنا اعتداداً بمفهوم الفلسفة القديم).

هذه خمسة وثمانون كتاباً أو تأليفاً أو موضوعاً باختلاف التعبير مما استطعنا أن نحصيه لمترجمنا بمقارنة أسمائها في الكتب المطبوعة التي ترجمَتْه ومخطوطه شرح ابن هيدور على كتاب «التلخيص»، والجميع مما دخلَه تحريف كثير فضلاً عن عدم تعيين موضوع البعض منها، ولكنا اجتهدنا أن نضع كلاً في محله المناسب ونرجو أن نكون وفِّقنا في ذلك. وظاهر أن أكثر هذه المؤلفات رسائل صغيرة كما نصّ على ذلك في تعدادها وكما نعرفه مما نملكه أو وقَفْنا عليه منها. وعلى كل حال فهي أعظم دليل على رَحْب باعه واتّساع دائرة معرفته وخاصة في فنونه التي اختص بها وأعطاها كلّيته فكان يُرحَل إليه فيها من نواحي المغرب وأقطاره ومن القطر الأندلسي أيضاً، فعبدالرحمٰن اللجائي الذي نبغ بعده في الحساب والفلك رحل إليه من فاس بأمر والده الشيخ الكبير أبو الربيع سليمان وناهيك بها. وكان تأليفه لكتاب الكرة أثناء قراءة هذا عليه بمراكش كما أخبر هو بذلك وكان يقرأ عليه أيضاً بمدرسة العطارين بفاس في آخر حياته كأنه لم يُشبع نَهْمَته مما عنده. وأبو جعفر بن صفوان رَحَل إليه من الأندلس، وبرغم ما قال في كتابه في الجبر والمقابلة، فإن أبا زكرياء السرَّاج نقل عنه أنه قال فيه:

«وصلَ شيخُنا ابن البناء في علم الهيئة والنجوم غايةً لم يلحقها أحد من أهل زمانه مع اتصافه بطهارة الاعتقاد واعتبار السنّة» وهي شهادة تتوافق مع كلام ابن شاطر المتقدم في شأنه. ونظائرها كثيرة.

ويدعونا هذا إلى ذكر أشهر مَن أخذ عنه من الأعلام فإنهم بمثابة تآليف حية له خصوصاً، وأن ذلك مما يحفظ سنَد العلم ويبين كيفية انتقاله من جيل إلى جيل، فزيادةً على مَن ذكرنا من أبي زيد اللجائي وابن شاطر وابن صفوان من تلاميذه الذين يردد ذكرهم في هذه الترجمة وكلهم من الأفذاذ، نذكر أيضاً العلامة أبا البركات ابن الحاج البلفيقي وهو شيخ شهير من أهل الأندلس أخذ عنه الجماعة، والعلامة الآبليّ أحد حكماء الإسلام في القرن الثامن أخذ عنه ابن خلدون ونوّه به كثيراً، وابنَيْ الإمام العالِمَيْن التّلمسانيَّيْن المعروفَيْن، وأبا عبدالله بن النجار من شيوخ القَلْصادي المتفنّنين في المنقول والمعقول وسواهم من أهل هذه الطبقة فما دونها.

ولابن البناء شعر قليل تقدّمت منه تلك الأبيات الثلاثة الحكيمة في تعليل إيجاز مقاصده. ونروي منه أيضاً هذه الأبيات الطريفة الغَزَلِيَةَ المضمونِ الهندسيةَ الشكْل. وكل إناء يرشح بما فيه:

خطَّ الغرامُ على المشوق مُثلّثاً	مُتساوِيَ الأضلاع خَطَّ مُبرّز
فغدا ينادي ظبْيةً فتّانةً	فتكت به عمْداً بغير تحرّز
يا ميّ إن أرسلتِ سهماً صائباً،	من قوس طرف ما لها من مُحْرز

تَجدِي المتيمَ وسْطَ دائرة الهوى　　وفؤادُه فيها كنقطة مَرْكَز
أضحى كخط ليمس يُدرَك رقةً　　أو نقطةٍ في الوهْم لم تَتميَّز
وإذا يرُوم الغُنجُ منكِ قتالَه　　يُلْفِيه دون تحرُّف وتحيُّز

ذكرها ابن هيدور في «شرح التلخيص».

هذا وقد اشتهر أن المترجم توفي عشية يوم السبت ٥ رجب ودفن من الغد بخارج باب أغْمات من مراكش عن يسار الخارج منه، والتفريق بين يوم الوفاة والدفن مما وقفت عليه مقيداً بظهر بعض تآليفه وهو مفيد لرفع الخلاف بين ما يُقال من أنه توفي يوم ٥ أو يوم ٦، أما الباقي فهو مما عند صاحب «الجذوة»، وعلّق عليه ابن المُوقّت في كتابه «السعادة الأبدية» بقوله: «وأما موضع دفنه فهو مجهول إلى الآن، إلا أنه مشهور عند الخاص والعَامّ بالبُرْج الرّكْني داخل حوْمة جنان بُوسكْري من باب إيلان وعليه علامة من الطين وهي محل مُواجَهة الزائر»، وابن الموقت من أهل مراكش ومن أحدث مترجميه فهو أعرف بأمره هذا. كما أنه ذكر أن محل ولادته بمراكش من حي قاعة ابن الناهض ما يزال معروفاً حتى الآن وهو محل سكنى أحد فضلاء المراكشيين المسمى محمد بن هاشم الجَبَلي وكان حياً عند كتابة ابن الموقت لهذا الكلام.

نعم، قيل في عام وفاته غيرُ ما ذكر، فابْن القاضي في «الجذوة» قال: عام أحدٍ أو ثلاثة وعشرين فصدَّر بالمشهور وعقَّب بالقول الذي يجعلها عام ٢٣، ونقل في «نيل الابتهاج» عن أبي زكرياء السرَّاج أن وفاته كانت عام ٢٤ إلا

أنه جعل مولده أيضاً سابقاً عن تاريخه المعروف وذلك سنة ٦٤٩.

وهذا الخلاف في وفاته له مجال من النظر بالنسبة إلى ما تقدم عن تلميذه اللجائي من أنه درس بمدرسة العطارين وهذه المدرسة لم تؤسَّس إلا سنة ٢٣ على ما سبق لنا من ملاحظة والعلم عند الله.



ابن رشيد
(ت ٧٢١ هـ)

اسمه ونسبه، مولده، طلبه للعلم وتفوقه في صناعة الحديث، رحلته إلى المشرق ثم رجوعه إلى بلده، شخوصه إلى غرناطة وتوليه بها المناصب المختلفة، إجادته للخطابة، تألب الفقهاء عليه لأخذه بالسنة، محنته وانتقاله إلى المغرب، استقراره بفاس في كنف السلطان، وفاته، كتبه، رحلته ملء العية، فوائد منها.

أبو عبدالله محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد بن إدريس بن سعيد بن مسعود بن حسن بن محمد بن عمر بن رشَيْد الفِهْري السَبْتي الخطيب المحدث، الرحّالة المتبحّر في علوم الرواية والإسناد، يعرف بابن رُشَيْد مصغراً ويُلَقّب من الألقاب المشرقية بمحب الدين.

ولد بسَبْتة عام ٦٥٧، ودرس بها على الأستاذ أبي الحُسَيْن بن أبي الربيع النحوي كتاب سيبويه والقراءات السّبع، ثم توسّع في الأخذ عن غيره بإفريقية والأندلس، ورحل إلى المشرق فزادت روايته اتساعاً، وأدرك جِلّة من مشايخ مصر والشام والحجاز، فروى عنهم وانقلب إلى بلاده

يتفجر علماً وأدباً ويطاول الشيوخ فضلاً عن الأقران بعلو روايته وصحة سنده.

وكان مشاركاً في العلوم، إلا أنه أرسخُ قدماً في العربية والأدب وعلم الحديث، وصفَه ابن خلدون في تاريخه بكبير مَشْيَخة المغرب، وسيد أهله، شيخ المحدثين الرحالة. وقال فيه ابن الخطيب: «كان رحمه الله فريد دهره عدالة وجلالة وحفظاً وأدباً وسَمْتاً وهَدْياً، واسع الأسْمِعَة، عالي الإسناد، صحيح النقل، أصيل الضبط، تام العناية بصناعة الحديث قيّماً عليها بصيراً بها، محققاً فيها، ذاكراً للرجال، جمّاعة للكتب، محافظاً على الطريقة مضطلعاً بغيرها من العربية واللغة والعروض، فقيهاً أصيل النظر، ذاكراً للتفسير، ريّان من الأدب حافظاً للأخبار والتواريخ، مشاركاً في الأصْلين، عارفاً بالقراءات عظيم الوقار والسكينة، بارع الخط حسن الخلق كثير التواضع، رقيق الوجه متحملاً كُلفَ الخاصة والعامة مَبْذُول الجاه والشفاعة كهفاً لأصناف الطلبة...»، ولم يبالغ ابن الخطيب رحمه الله فيما حلاه به من الأوصاف فسنستعرض من أحواله ما يصدق ذلك كله.

وقال ابن القاضي في ترجمته من «دُرّة الحجال»: «رحل إلى المشرق لأداء فريضة الحج سنة ٦٨٣، وكانت إجازتُه البحرَ من المَرِيّة، فتلاقى بها هو والوزير أبو عبدالله ابن الحكيم، وكان قصْدُهما واحداً فترافقا في السفر فدخل إفريقية ومصر والشام وأخذ بها وبالحجاز عمن لقي من الأئمة. وكان له تحقق بعلم الحديث وضبْطِ أسانيده، وميْزِ

رجاله ومعرفة انقطاعه واتصاله، ثقة عدلاً من أهل هذا الشأن، وكان من أهل المعرفة بعلم القراءات والعربية وعلم البيان والآداب والعروض والقافية...».

ولما رحل وهو في عنفوان الشباب، في أواسط العقد الثالث من عمره، كان قد برع في علم العربية والبيان والآداب وفي الفقه والحديث والأصول، بحيث كان يذاكر ويناظر أهل كل فن من هذه الفنون، وربما راجع المشايخ الكبار في دقائق المسائل فسلّموا له. وأكبرُ ما استفاده في رحلته هذه هو سَعةُ الرواية والاطلاع على الأمّهات من كتب الفقه والحديث والأدب واللغة ومعالجة طُرق التحديث وممارسة أساليب البيان، وهو إن تفوّق في صناعة الحديث ففي الأدب لم يزل متوسط الطبقة برغم الكثرة الكاثرة مما روى من أدبيات عصره وممن لقيهم وساجلهم من الأدباء والبلغاء.

وكما كان توجُّهه إلى المشرق من الأندلس عن طريق تونس، كذلك كان رجوعه، وحيث أن رفيقه في رحلته الوزير أبا عبدالله ابن الحكيم الذي رجع قبله، كان أخذ عليه العهد أنه إن ألمّ بالأندلس لا بد أن يزوره قبل قُفوله إلى أهله، فإنه قصد رنْدَة من مَالقَة ووجّه إليه الوزيرُ جماعةً من كبار القوم يستقبلونه، وبالغ في الاحتفال به ثم توجه من رندة إلى الجزيرة الخضراء وركب البحر إلى سَبْتة صبيحةَ يوم الإثنين ٢٢ جمادى الأخرى عام ٦٨٦ فوصل إليها ضحى ذلك اليوم.

عاد ابن رُشَيد إلى بلَده ثغرِ سبتة المحروس، ومحلّ

نشأته المأنوس، على حد تعبيره بعد غياب ثلاثِ سنين زار فيها عدة مدن وعواصم إسلامية كانت زاخرة بمظاهر الحضارة ومعاهد العلم، ولقي رجالاً من ذوي الكفايات النادرة في مُختلف أبواب المعرفة، وأخذ عنهم وأخذوا عنه، وسجّل من آثارهم ودوّن من أخبارهم ما لولاه لغاب في مطاوي النسيان، ولمّا اطّلع عليه إنسان نَاهِيك بما اكتسبه في هذه الرحلة الطويلة من شهرة وبُعد صيت، وحسن ذكر ورفعة شأن، فلا عجب إذا نبَتْ به بلدته الصغيرة وضاق بها وهو قد تعوّد حياة العواصم وألِف التقلُّب في بلاد الله الواسعة حيث يلقى كل يوم شخصية جديدة ويرى منظراً غير مألوف.

ولم يَكَدْ صديقُه ورفيقه الوزير أبو عبدالله ابن الحكيم يعلم بحاله حتى كتب إليه يستدعيه إلى حضرة غرناطة ويَعِدُه بكل مأمول فلبّى دعوته وانتقل إلى غرناطة حيث قدم للخطبة والصلاة بجامعها الأعظم، وهو قد عُرِف بإجادته في فن الخطابة حتى وُصِف بالخطيب ابن رُشَيد، فكان توليه لهذا المنصب الديني المهم من باب إعطاء القوس باريها وإسكان الدار بانيها، ثم وُلي قضاء الأنكحة وبقي على هذه الحال إلى أن وقع اغتيال صاحبه الوزير ابن الحكيم عام ٧٠٨ فأزمع الرحلة إلى المغرب.

وفي دخوله غرناطة ومقامه بها يقول ابن الخطيب في إحاطته: «ورد على الأندلس في عام اثنين وتسعين وستمائة، فعقد مجالس للخاص والعام يقرىء بها فنوناً من العلم، وتقدم خطيباً وإماماً بالمسجد الأعظم منها، حدثني بعض

أشياخنا قال: قعد يوماً على المنبر وظنّ أن المؤذّن الثالث قد فرغ فقام يخطب والمؤذّن قد رفع صوته بأذانه فاستعظم ذلك بعضُ الحاضرين وهمَّ آخرُ بإشعاره وتنبيهه، وكلّمه آخر فلم يُثْنِه ذلك عما شرع فيه وقال بديهةً:

«أيها الناس! رحمكم الله! إن الواجب لا يُبْطِله المندوب، وإن الأذان الذي بعد الأول غيرُ مشروع الوجوب، فتأهّبوا لطلبِ العلم وانتبِهوا، وتذكروا قول الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾، وقد روينا عنه ﷺ أنه قال: **«مَن قَالَ لأخِيهِ والإمامُ يَخْطُب أنصِتْ فقد لَغَى، ومَن لَغَى فلا جُمْعَةَ له، جعلني الله وإياكم ممّن عَلِمَ فَعَمِل، وعمل فقُبل، وأخلصَ فتخلّص»**، ثم نزل وتقدم للصلاة، وكان ذلك مما استدل به على قوّة جنانه وانقياد لسانه لبيانه».

وذكر ابنُ حجر في الدرر الكامنة أن ابنَ الحكيم كان إذا فرغ من الخدمةِ يَجيءُ إلى ابن رشيد فيباشر خدمَتَه بنفسه أحياناً، ويبالغ في إكرامه، وإن المترجَم أيام إقامته بغرناطة كان له مجلس في صحيح البخاري يقرأ فيه حديثين فيتكلم على سندهما ومتنهما أحسن كلام، وذلك بالمسجد الأعظم منها، وأنه كان على مذهب أهل الحديث في الصفات يُمِرّها ولا يتأوّل، وكان يسكُت لدعاء الاسْتِفْتاح ويُسِرّ البسملة فأنكروا عليه وكتبوا محضراً بأنه ليس مالكياً، فاتفق أن القاضي الذي شرع في المحضر. مات فجأة وبطل المحضر.

وهذا الذي ذكره ابنُ حجر من كونه على مذهب أهل

الحديث صحيح، إلا أنه على ما أُرَجّحُ ليس عامًا في جميع الأحكام بل في الاعتقاد ومسائل العبادات خاصة كما كان عليه غيرُ واحد من فقهاء المذاهب المشتغلين بالحديث وسيمرّ بك ما يشهد له من أقوال المترجم واستظهاراته، كما أن المحضر المذكور لا بد أن يكون عُمِلَ في الأندلس إذ هي التي عُرِفتْ بهذا التشديد في اتباع مذهب مالك، وأما في المغرب فإن الناس وأعني بهم العلماء كانوا كثيراً ما يَنْهَجُون هذا النهج إن لم يكن في كل المسائل ففي بعضها، ولذلك لم يكن عَمَلُ محضر من هذا القبيل في المغرب مُحتملاً كثيراً.

ومع ذلك فإن ابن رشيد وإن أفلت من هذه، لم يُفلت من محنة أخرى يوم اغْتِيل صديقه وحاميه الوزير ابن الحكيم وكان فيها ذهابُ نفسه لولا لطف الله وبقيةٌ من عمْر، وفي ذلك يقول ابن الخطيب: «تعرض إليه قوم يوم قَتْل صديقه أبي عبدالله ابن الحكيم بإذاية قبيحة وأسْمِع كلّ شانئ من القول على ألسِنَةِ زَعانِف ممن وَتَرَهم القتيل فتخلّص ولا تسأل كيف؟ وأزمع الرحيل فلم يلبث بعدُ».

وإذا كان في طي كل نقمة نعمة، فإن النعمة في هذا الحادث السيئ هي انتقالُ ابن رشيد إلى المغرب وعودتُه إلى وطنه حيث قضى ما بقي من عمره عزيزَ الجانب، موفورَ الكرامة، ونَشر علومه الغزيرة[1] وألّفَ كتبه القيّمة، وكان له

---

(١) كان لابن رشيد مجلس حافل في صحيح البخاري يعقده بين الظهر والعصر شرق صحن القرويين.

من المكانة العالية عند ذوي السلطان ما لا يقِلّ عما كان له في الأندلس إن لم يزد عليه.

قال ابن القاضي: «رحل عن غرناطة ولحِق بحضرة فاس فحلّ بها تحت عناية وفي كَنَف رعاية، وجعل له الأمرُ السلطاني الاختيار، أين يُحب الاستقرار، فاختار التحوُّل إلى مراكش إذ كان قبل قد سكنها، فاستحسنها فورد عليها وقُدِّم للصلاة والخطبة بجامعها العتيق، ثم استدعاه المَقامُ السلطاني إلى حضرة فاس فورَدها وصار من خواصّ السلطان بها وأقام على ذلك إلى أن توفي بفاس في الثالث والعشرين لشهر محرم سنة ٧٢١ ودُفِنَ خارج باب الفتوح بمَطْرَح الجَنّة».

والسلطان الذي عاش ابنُ رُشَيْد في كنفه، هو أبو سعيد المريني الأكبر ابن السلطان يعقوب المنصور المريني، وكان معروفاً بحبه للعلم والعلماء وتعظيمهم واحترامهم وهو الذي بنى مدرسة العطّارين بفاس وغيرها.

أما مَطرح الجنّة الذي دفن فيه ابن رشيد فهو روضة معروفة بمقَابِر باب الفُتوح خارجَ فاس، كان يقال فيها: مطرَح الجِلّة بكسر الجيم وباللام لما ضمّته من مراقد العلماء والفضلاء من الغرباء الواردين على فاس ومن أهلها أيضاً في الأخير، ولكنّ العامّة صحّفت ذلك الاسم بمطرح الجنّة، وهو تفاؤل حسن.

* * *

وخلّف ابن رُشَيْد تآليف مهمة في علوم الرواية والإسناد والعربية والأدب هذه أسماؤها:

١ ـ تُرْجُمان التراجم في إبْداء مناسبة تراجم صحيح البخاري يستمدّ منه كثيرٌ من شرّاحه.

٢ ـ السّنَن الأبْيَن في السند المُعَنْعَن.

٣ ـ إيضاح المذاهب فيمن ينطَلِق عليه اسمُ صاحب.

٤ ـ المقدّمة المعرّفة لِعُلوّ المسافة والصّفة.

٥ ـ المحاكمة بين البُخاري ومُسْلم.

٦ ـ إحكام التأسيس في أحكام التجنيس.

٧ ـ إيراد المَرِيع لرائد التسجيع والترصيع.

٨ ـ وَصْلُ القوادم بالخوافي في ذكر أمثلة القوافي؛ شرح فيه كتاب القوافي لشيخه أبي الحسن حازم القرطاجني.

٩ ـ جزء مختصر في العروض.

١٠ ـ تقييد على كتاب سيبويه قيّده أيام قراءته على الأستاذ ابن أبي الربيع النحوي بسبتة.

١١ ـ إفادة النّصيح بالتعريف بإسناد الجامع الصحيح وقفتُ عليه بمكتبة الأسكوريال.

١٢ ـ رحلته مِلْءُ العَيْبَة فيما جُمع بطُول الغَيْبَة في الوِجْهَتَين الكريمتين إلى مكة وطَيْبة، وهي أهم كتبه وأعظمها قيمة علمية، جمع فيها من الفوائد الحديثية والفرائد الأدبية كل غريبة وعجيبة وهي كما قال ابن شَبْرِين: «ديوان كبير لم يُسْبَق إلى مثله».

وقد اختلفت كلمة المؤرخين في عدد أسفارها، فمن قائل: إنها أربعة، ومن قائل: إنها ستة، والموجود منها

بمكتبة الأسكوريال بإسبانيا خمسة أجزاء، أربعة منها بخطه وواحد وهو الخاص بمصر بخط مغاير، وفي بعض هذه الأجزاء خَصاص من ورقة وورقتين، وابتداء الكلام فيها من وجوده بتونس مَقْدَمَه عليها أولاً من المغرب إلى أن تنتهي برجوعه إلى بلاده سبتة في التاريخ الذي ألمعنا إليه من قبل، فالظاهر أن الذي ينقصها هو الجزء الأول الذي يتحدث عن ابتداء الرحلة وركوبه البحر من المرية إلى تونس، ووصوله إلى تونس ومن لقيه من الفضلاء غير من ذكرهم في الجزء الذي يليه والذي هو أول النسخة الموجودة.

وقد كانت هذه النسخة في ملك الإمام أبي العباس أحمد الوَنْشرِيسي صاحب المِعْيَار، والعلامة أبي العباس أحمد المنجور وعليها خطّهُما كما تخللتها خطوط غيرهما من العلماء في أسْمِعة وإجازات مختلفة، ومنها خط الرئيس عبدالمهيمن الحضرمي بسماعه لها من المؤلف وخط أبي عبدالله بن يوسف الخلاسي وأبي عبدالله بن هارون شيخَي المؤلف في إجازتهما له وسواهما.

ويظهر أنها مُسوّدة المؤلف الأولى لما تحتويه من الزيادات والإلحاقات وعدم الترتيب في ذكر بعض الحوادث أو التواريخ التي حقها أن تذكر مثلاً في الجزء الأخير فذكرت في الذي قبله وهكذا، ولعلها أن تكون هي المسوّدة التي وقف عليها ابن شبرين في سبتة فقال فيها كلمته السابقة كما عند ابن الخطيب، وهي من دون شك كانت من محتويات مكتبة زَيْدان بن المنصور السّعْدي، التي نُقِلت إلى إسبانيا بخيانة المركب الفرنسي الذي كان حاملاً لها.

وأما قبل وبعد فإن ما تشتمل عليه هذه الرحلة العامرة من فوائد علمية وأدبية وتاريخية، وتحقيقات في المسائل العويصة من المعقول والمنقول، وتعريف بأحوال المترجَمين فيها من علماء وأدباء وشيوخ الرواية والحديث، وتوصيفٍ للبُلدان التي مرّ بها المؤلف وما شاهد فيها من مآثر ومناظر فضلاً عن الروايات والأسمعة التي تَحَمّل بها، والكتب والأجزاء التي قَرَأها في مُختلَفِ فنون العلم، هو شيء لا يأتي عليه الوصف في هذه الترجمة المختصرة ولا يُدرك أهميّتَه إلا من وقف على نفس الرحلة واستوعبَ مضمونها واستخلص زُبْدَتها في غير ملل ولا ضجر ولكنا بالرغم من ذلك نورد جملة من فوائدها ونستعرض نماذج من محتوياتها، خصوصاً ما له تعلُّق بالمترجَم وما يكون فيه مَزِيدُ تعريف به، وقديماً قيل: «مِن كلامهم تعرفونهم».

فمن ذلك ما جاء في خاتمتها من أنه لم يكن يقصد بها قصدَ التأليف ولذلك لم تجئ مرتبة مهذبة كما أشرنا إلى ذلك في وصفها آنفاً، وهو قوله: «ولما أنعم الله سبحانه بتيسير الغرض، من هذا التقييد الذي تَسنّى ببركة التوجه لأداءِ المفترض، سنح ببالي أن بعض ما ذكر فيه قد يعترضه من اعترَض، ممن لا يُفرّق بين الجوهر والعَرَض، فرأيت أن أبيّن كيفَ وقع الحال، فيما اشتمل عليه بين الحَلّ والترحال، فأقول: والله في العفو والصفح المسؤول، إني لم أكن قصدتُ به مقصد التصانيف المهذبة، ولا التآليف المرتبة، وإنما قيّدتُه بحسب ما يُسِّر لي مما كنت كتبته على ظهور الكتب وفي بطون البطائق مما قيّد للتذكار بتلك

المعاهد اللائحة الأنوار، فقصدت أن أضم بَدَدَه، وأجمَعَ عَدَدَه، وأكثره وقع على غير رَوِيّة، بل وَفْق ما سمحت به السجِيّة، فبحسب ذلك ربما وقع فيه من أفراد الشيوخ، مقدّماً من غيرُه أحقّ بالتقديم منه، ومؤخّراً مَن حقه أن يؤخر غيره عنه، وربما وقعت كذلك أيضاً التواريخ في قراءتي على مَنْ قرأت عليه أو سمعت منه أو أخذت عنه...».

ولعل من تتمة الكلام في هذا الصدد الإشارة إلى ما كان للرئيس عبدالمهيمن الحضرمي تلميذ المؤلف من يد طُولى في كتابة هذه الرحلة واستخراجها من مُسوّداتها كما قال ابن رُشَيْد، وقد ذكره في إحدى المناسبات وذكر مقابلتَه معه للرحلة واعتناءَه باكتتابها لنفسه واكتسابها وتحمله لها عنه ومعرفته لفضلها قال: «ولولا عزمُه عليّ في تخليصها ما خلصتها ولا أخرجتها ولا أظهرتها لعدم الراغب وقلة الطالب».

وهاك نقلاً منها يدلّك على مبلغ تمسكه بالسنّة واحتياطه لدينه: «وبمَقْربة من العين (عين تَبُوك) أصلُ شجرة يابس فيه غصن كبير ناعم، أظنها سِدْراً يزعم الناس أنه ﷺ قعد هناك فاخضرّت الشجرة والله أعلم، ولقد اتفق لي هناك أن أخذت يسيراً من لِحائها بسكين الأقلام على حكم التبرُّك بما ذُكِر من أمرها ولأني رأيت بعض من حضر هناك أخذ شيئاً منها متبركاً، فرأيت شخصاً قد أقبل إليّ لم أعرفه قبل ولا بعد فقال لي: حتى أنت تفعل ذلك؟ فقلت: ولِمَ؟ وما تُنكِرُ من ذلك؟ فقال: إن كان حقاً ما ذُكِر فيقتدِي الناس بك في الأخذ منها فيُفْنِيها الناس فيذهب هذا الأثر المبارك

فتكون سببَ إذهابه، وإلا يكن فيقتدي الناس بك في باطل أو معنى هذا الكلام، فشكرتُه وانصرف».

ونظيره قوله في المَبِيت ليلة التاسع بعرفات موافقة للجمهور على ما أشار به عليه الشيخ أبو محمد المَرْجانيّ قال: «ورأينا في تلك الليلة عَجَباً فيما ابتدعته العامّة من الاستعداد والاحتفال بوقْد الشمع بطول تلك الليلة بالجبل القائم في وسط عرفات، المعروف عند القدماء بإلال، وهو جبل مرتفع، وفي أعلاه مسجد تُنصب به راياتُ أمراء الركب، وقد صُنع له درَج بالبناء من أمامه ومن خلفه فيُرتَقى إليه عن طريق وينزل من أخرى، وربما التقى فريق مع فريق فيغص الجبل بالصاعدين والنازلين وهو يتأجج ناراً، ويتموّج كالبحر زخّاراً، والطرق إليه بالشمع في بسيط عرفات، كالسطور المُذهَبات، تتصل به من كل الجهات، وأنت إذا نظرتَ إليه على بُعد من الخيْمات، تراه كشعلة واحدة، وما يطول من الشمع كأن ألسُنٌ متعاضِدة فترى عجباً، صَلْداً عاد ذهباً، أو صار لهباً» ثم أتى في ذلك بشعر من نظمه وقال: «استغفر الله من هذا المقال، واسأله الصفح عما جرى مما يوهم استحسان هذه الحال، بل هذه الحالة من قبيح البدع، التي يجب أن يزجر عنها فاعلها ويردع»، ونقل بعد ذلك كلاماً لأبي عَمْرو بن الحاجب الفقيه المالكي في استنكار هذا الذي أحدثته العامّة من الخروج لعرفة في تلك الليلة وإيقاد الشموع واختلاط النساء بالرجال.

ومن دلائل مَيْلِه للنظر وعدم تعصُّبه للمذهب مذاكرته مع شيخه أبي محمد بن عبدالقادر البِجائي التونسي في مسألة

النضح في الطهارة وهي كما قال: «وجرى الكلام يوماً بحضرته في حكم النضح وكان الشيخ رضي الله عنه يماشيني على طريقة النظر، ويسامحني في الاحتجاج للمنصور، وإن كان في المذهب المالكي ليس بالمشهور فقلت ما معناه: لا يخلُو أن تَتَحقّق النجاسة ويُشكّ في الحصول أو يُشكّ في النجاسة ويتحقق الحصول أو يُشكّ فيهما، فإن شكّ فيهما فلا نَضح، وإن شكّ في الحصول لم يلزم النضح، وإن شكّ في النجاسة وتحقق الحصول وجب النضح، وجرى في كلامي أثناء التناظر أن قلت: هذا هو المعروف، وكان حضر في المجلس شاب يعرف بابن عيّارة، ولم يكن من عادته أن يحضر فقال سادراً: هذا المعروف يحتاج إلى معرّف، فخجِلتُ منه وأعرض الشيخ عنه:

ومَن ظنّ ممن لا يلاقي الحروب   بأن لا يُصابَ فقد ظنّ عجزا»

وأشار إلى ضابط المسألة في المذهب من قول ابن الحاجب رحمه الله، إن شكّ في إصابتها نَضَح والنضْح من أمر الناس طُهُور لكل ما يشك فيه، فإن شكّ في كونه نجاسة فقولان، فإن شكّ فيهما فلا نضح لضعف الشكّ وتعرض للفرق بين حكم النضح إذا شكّ في الحاصل وحكمِه إذا شكّ في الحصول فقال: لو قيل بإلزام النضح حيث يتحقق الحصول ويشك في الحاصل لكان أوْلى.

ثم قال: «وبالجملة فمآخذ النضح ضعيفة من حيث المآخذ اللفظية والنظرية، أما المآخذ اللفظية فلأن النضح في اللغة يقال بمعنى الصب ويقال بمعنى الرش فهو مجمل فلا

يتعين لأحد المَحْمَلين إلا بدليل، وأما النظرية فلأنه قد ينشُر النجاسة، ولذلك شرط بعضهم في صفته أن يرش ثم يترك حتى يجف وحينئذ يلبس، ودليل المالكية على شرعية النضح في الشك ما جاء في حديث الطفل الذي بال في حَجْره عليه السلام، فنضَحَه ولم يغْسِلْه، وغسلَ عمر رضي الله عنه ما رآه من الاحتلام في ثوبه، ونضح ما لم يره، وأمره عليه السلام بنَضْح الحَصِير الذي اسْوَدّ من طُول ما لُبِس».

ومن ذلك كلام له في حكم العُمْرة والنية فيها وإليك بسْطَه كما عرضه على شيخه ابن عبدالقادر البِجَائي المذكور وما عقّب به عليه قال: «واستَفتيت يوماً شيخنا الإمام أبا محمد عمن تردد نظره في العمرة لاختلاف العلماء رضي الله عنهم بين الوجوب والندب هل يأخذ بالنية العامة وهي كونها مطلوبة وهو القدر المشترك بين الوجوب والندب فقال مُجِيباً يقلد من يقول بالوجوب أو الندب فهو أولى من هذا النظر»، قال: «ولي في تسويغ النية العامة سؤال شديد قد عرضته على غير واحد من نبلاء الأصحاب فاستصعب الجواب عنه، وأجاب بعضهم بما هو أضعف من السؤال ولم يتفق لي عرض السؤال على الشيخ لأنه لم يخطر ببالي إلا بعد مفارقته، ولكن سؤالي عن المسألة له هو الذي حرّك عندي ذلك مع تسويغ بعض الفقهاء الدخول في الصلاة المعادة في الجماعة بنيّة التفويض وقد جمع بعض فضلاء أصحابنا ونبلائهم سؤالي وجوابه وجواب الأصحاب في جزء فمَن تشوّف إليه ليقف عليه فليتطلبه.

وملخص السؤال أن قلت: إن أحد الأمرين لازم، أما

إبطالُ القول بأن الأحكام الشرعية منحصرة في خمسة: الوجوب والندب والحظْر والكراهة والإباحة، أو في ثلاثة منها عند مَن يرى ذلك، أو خلافُ الإجماع في جواز الإقدام على العمل من غير توقُّف بالمطلقات إذا تعرّتْ عن القرائن كقول القائل: أعتق وأضرب، وأعتق رقبة فيمن جعل الأمر حقيقة في القدر المشترك فإذا فرضنا صحة ما اختاره الفخر بن الخطيب من أن الأمر حقيقة في القدر المشترك دفعاً للمجاز والاشتراك ولتعارض الأدلة بين الوجوب والندب فوجب تركهما ولزم القول بالقدر المشترك لما ذكرناه فنشأ عن هذا جوازُ الإقدام من غير توقف عند قول الشارع مثلاً اعتمروا من غير قرينة معتقدين للقدر المشترك، وذلك يستلزم ثبوت حكم سادس، وهو كونه مطلوباً وذلك أعم من كونه واجباً أو مندوباً، والعام لا أشعار له بالخاص، وهو معنى النية العامة أو يلزم التوقف عن الإقدام على العمل، في المطلَقات العَرِيات عن القرينات وهو خلاف الإجماع، فقد لزم أحد الأمرين: إما ثبوت حكم زائد، أو لزوم التوقف وكلاهما خلاف الإجماع، ومما يُستدلّ به لصحة القول بالنية العامة قولُ ابن عمر رضي الله عنهما لما سئل عن الوتر أواجبٌ هو أم لا، فقال: أوتر رسول الله ﷺ وأوتر المسلمون، فأعيد عليه السؤال فأعاد الجواب، والسؤال قوي، وما يجاب به عنه ضعيف والله الموفق للصواب بمنّه».

ومما يدلّ على ضبطه وإتقانه ومعرفته بعِلَل الحديث وطرق الإسناد أنه قلّما يمرّ به حديث فيه انقطاع أو علة أو تحريف لمتن أو إسناد إلا ويقف عنده وينبّه على الصواب

فيه مُقارِناً محتجًّا برواية غيره ممن أخذ عنه لنفس الحديث حتى يتبين الصبح لِذي عينين، والأمثلة على ذلك كثيرة فمنها هذا الحديث من الجزء المعروف بجزء أبي الجهم العلاء بن موسى الباهلي وهو ممن يروي عن الليث بن سعد، وقد قرأه المترجم على الشَّيْخة الصالحة الكاتبة فاطمة بنت إبراهيم البطائحي بالحرم النبوي قال: «ومنه بالإسناد، حدثنا الليث بن سعد عن نافع عن إبراهيم بن عبدالله بن مَعْبَد بن عباس أنه قال: إن امرأة اشتكت شكوى فنذَرَت لئن شفاني الله لأخْرُجنّ فلأصلينّ في بيت المقدس، فبرئت وصحّت، وظهرت تريد الخروج فلما أتت ميمونة زوج النبيّ ﷺ تسلّم عليها فأخبرتها بذلك فقالت: انطلقي فكلي ما صنعت[1]، وصلّي في مسجد الرسول، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«صلاة فيه أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا مسجد الكعبة»**.

قال ابن رشيد: «قلت كذا سمعنا هذا الحديث على فاطمة عن نافع عن إبراهيم بن عبدالله بن مَعْبَد بن عباس أنه قال: إن امرأة وكذا رأيته في الأصل المسموع على ابن أبي مسعود الفارسي وفي غيره من الأصول ولعله سقط فيه عن ابن عباس، والحديث عند مسلم بن الحجاج رحمه الله عن قُتَيْبَة بن سعيد ومحمد بن رمح عن الليث عن نافع عن إبراهيم بن عبدالله بن معبد عن ابن عباس أنه قال: . . . وذكر الحديث؛ وفي اللفظ اختلاف يسير.

---

(١) تعني بذلك الزاد الذي صنعته للسفر.

وإبراهيم هذا هو ابن عبدالله بن معبد بن عباس بن عبدالمطلب أخرج له مسلم دون البخاري يروي عن أبيه عبدالله، وذكر محمد بن طاهر المقدسي في كتابه الذي جمع فيه بين الصحيحين، أن إبراهيم هذا يروي عن ميمونة عند مسلم ولم يعين الموضع، فما أدري أعَنى هذا الموضعَ أم غيرَه فزدْ فيه بحثاً».

ومنها في روايته لثُلاثِيّات البخاري بالمدينة المنورة عن الشيخ الفقيه أبي إسحٰق بن يحيى الفاسي منسوب إلى فاس ولكنه كان يهمزه فراراً من الاشتراك فيما يُظَن، وذلك بحق سماعه لها من أبي البركات الهمداني بمكة وإجازتِه له. قال ابن رشيد: «قال شيخنا أبو إسحاق بحق سماعه من أبي الوَقْت وأجاز لي الشيخ أبو إسحاق وكتب لي خطه بذلك، وخطه حسن مُدْمَج.

(تنبيه): قول شيخنا أبي إسحاق أن ابن أبي البركات سمع من أبي الوقت لا تُعْلَم صحته وإنما حدّث عنه بالإجازة، وكذلك حدّث عنه فخرُ الدين التّوْزَرِي سمع عليه بالحرم الشريف وقال: أنا الشيخ المعمّر الصدوق جمال الدين أبو عبدالله محمد بن أبي البركات بن أبي الخير الهمداني، قال: أنا[1] أبو الوقت إجازة، وقد حدّث فخر الدين التوزري عنه بالثلاثيات سماعاً عن أبي الوقت إجازة، وقد كنا نقول: لعله سمع منه الثلاثيات فحسب لولا أن التوزري قد قال: إنها إجازة وهو معتبر في قوله إذ هو من أهل

(١) مختصرة من أخبرنا.

الشأن، وليس الشيخ أبو إسحاق من أهل هذا الشأن وإنما طريقه طريق الفقه».

ومنها وقد ذكر أخذه لكتاب التقصّي لآثار الموطأ للحافظ أبي عمر ابن عبدالبرّ عن شيخه القاضي أبي العباس بن الغماز بسنده قال: «أخبرني رضي الله عنه أنه قرأه كله مع زياداته على شيخه الحافظ الخطيب الشهير أبي الربيع سليمان بن موسى بن سالم بن حسّان الكَلاعيّ البَلَنْسي رحمه الله قال: قرأته على أبي عبدالله محمد بن سعيد بن زَرْقُون وهو أول شيء قرأته عليه وقال لي: سمعته على الفقيه المشاور أبي عمران ابن أبي تَلِيد قال: سمعته على مؤلفه.

(قلت): هكذا سمعت هذا السند يُقْرَأُ على شيخنا أبي العباس في فهرسة شيخه أبي الربيع بن سالم وهو كما تراه قد أطلق سماع ابن زَرْقُون لجميع الكتاب على ابن أبي تَلِيد ووجدت بخط المحدث المتقن المقيّد أبي عمرو سالم بن صالح بن علي بن صالح بن محمد بن عباس الهمداني المالَقي على متن نسخة من كتاب التقصّي قرأته لجميعه على أبي عبدالله بن زَرْقُون قال: سمعته على أبي عمران بن أبي تَلِيد إلا يسيراً من أوله قال: قرأته على مؤلفه، هكذا كتب أبو عمر بن[1] سالم الإسنَادَ بخطه، وصحّح له ابن زرقون عليه بخطه، وهو كما تراه قد قال: إنه فاته سماع

(١) كذا بخط ابن رشيد أبو عمرو بن سالم ولم تثبت لفظة ابن في تسميته قبل.

شيء من أوله على ابن أبي تَلِيد فزد في ذلك بحثاً على أن أبا الربيع بن سالم لا يقاس به غيره، لولا خط الشيخ بالتصحيح على ذلك».

ومن تثبّته وضبطه أنه في إحدى رواياته لكتاب مُلَخّص القَابِسي عن شيخه أبي بكر بن حَبِيش التّونسي بسنده إلى المؤلف، وفيه قال حاتم بن محمد الطرابلسي قرأته على مؤلفه، لم يستطع أن يمر على كلمة قرأته هذه حتى يحقق فيها، فكتب إلحاقاً بالهامش ما نصه: «قلت كذا وقع في سند شيخنا أبي بكر بن حَبيش، قال: قرأته على مؤلفه وكذلك في فهرسته وبخط أبي الربيع بن سالم قال: سمعته وهو الصحيح إن شاء الله وكذا قال حاتم في فهرسته أنه سمعه عليه على أنهم قد يعبّرون عن القراءة بالسماع».

ومن ذلك أنه في أحد أسانيد كتاب الأمثال لأبي أحمد العسكري وقد أخذه عن شيخه المذكور، وقع هذا الاسم أبو نصر محمد بن سلمان فشكّ فيه فكتب عليه: «قلت كذا وقع في هذا الإسناد أبو نصر محمد بن سلمان وكذا كان في صدر أصل كتاب أبي محمد بن عُبَيْدالله الحَجْري وهو مما قرأه على الأندى ثم أصلحه أبو محمد الحجري في متن الكتاب وردّه سُلَيمان على التصغير وكتب الإسناد أيضاً بخطه على ظهر الكتاب فقال فيه سليمان بالتصغير أيضاً، والذي قرأته بخط أبي الربيع بن سالم في هذا الإسناد محمد بن سلمان وأعاد الإسناد بخطه كذلك، واعتنى بهذا الإسناد عناية تامة».

ولقد كان أخذ هذا الكتاب عن شيخه المذكور أول

مرة مع رفيقه الوزير ابن الحكيم في ليلة وصباح لأنه لم يكن في تونس منه إلا نسخة واحدة يضِنّ بها صاحبها فسمعوها عنده في بيته فلم يهدأ بال مترجمنا حتى حصل منه على نسخة أخرى وأعاد قراءته على شيخه المذكور لأنه كان اعتراه نوم في تلك الليلة فشكّ في سماع بعض مواضع من الكتاب، وهذه هي الغاية في التثبُّت والتحرّي والهمّة التي لم نعهدها إلا من رجال العهد الأول وصدر الإسلام في الحرص على الرواية والسماع.

وننتقل من شؤون الرواية إلى تحقيقات المؤلف في مسائل حديثية وهي أيضاً مما يدل على قوة نظره وسعة اطلاعه، ولا نورد من ذلك إلا بعض أمثلة تُشوّق أهل العلم ولا تُمِلّ من لم يكن من أهل هذا الشأن من عموم المثقفين.

فمن ذلك تحقيقُه فيما اشتهر من أن زيادة (من المسلمين) في حديث زكاة الفطر مما انفرد به مالك من بين الثقات وإليك نصه: «قلت: اشتهر بين المحدّثين أنّ مالكاً رحمه الله انفرد من بين الثقات في هذا الحديث بقوله: من المسلمين، قال الإمام أبو عمرو بن الصلاح رحمه الله في كتابه البديع الذي صنّفه في معرفة أنواع الحديث في النوع المحتوي على معرفة زيادات الثقات وحكمها (الثالث) ما يقع بين هاتين المرتبتين مثل زيادة لفظة في حديث لم يذكرها سائر من روى ذلك الحديث مثاله ما رواه مالك عن نافع عن ابن عُمَر أن رسول الله ﷺ فرض زكاة الفطر من رمضان على كل حر أو عبد ذكراً وأنثى من المسلمين فذكر

أبو عيسى الترمِذي أن مالكاً تفرّد من بين الثقات بزيادة قوله: من المسلمين، وروى عُبيدالله بن عمر وأيّوب وغيرهما هذا الحديث عن نافع عن ابن عمر دون هذه الزيادة فأخذ بها غيرُ واحد من الأئمة واحتجُّوا بها منهم الشافعي وأحمد رضي الله عنهم، والله أعلم. انتهى ما أردنا إيراده من كلام ابن الصلاح رحمه الله.

وفي كلامه وحكاية ما حكاه عن الترمذي بعضُ النظر، فقد روى هذه الزيادة عن نافع أبو عثمان الضحّاك بن عثمان بن عبدالله بن خالد القُرَشي ذكر ذلك مسلم في صحيحه. قال مسلم رحمه الله: وحدثنا محمد بن رافع نا[1] ابن أبي فديك قال: أنا الضحّاك عن نافع عن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ فرض زكاة الفطر من رمضان على كل نفس من المسلمين، حراً وعبداً ورجل أو امرأة، صغير أو كبير، صاعاً من تَمر أو صاعاً من شَعِير، ورواه أيضاً بزيادة من المسلمين عن نافع ابنُه عمر بن نافع ذكر ذلك البخاري في صحيحه قال البخاري رحمه الله نا يحيى بن محمد بن السكن نا محمد بن جهم قال: نا إسماعيل بن جعفر عن عمر بن نافع عن أبيه عن ابن عمر قال: فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير على العبد والحرّ والذكر والأنثى والصغير والكبير من المسلمين، وأمرَ بها أن تُؤدّى قبل خروج الناس من الصلاة.

---

(١) مختصرة من حدثنا.

وأورد ابن رُشَيْد كلام الناس في توثيق عمر بن نافع والضحّاك ابن عثمان الراويين للحديث عن نافع بتلك الزيادة ثم قال: «فهذا ما يَرِدُ على قول الترمذي وعلى قول الإمام ابن الصلاح فإنه نقل قول الترمذي كالراضي به.

ويَرِدُ على ابن الصلاح تعقُّب آخر إلا أنه خفي دقيق، وذلك أنه حكى عن الترمذي أن مالكاً تفرد بهذه الزيادة من بين الثقات، وكلام الترمذي في معرضه إذا تُؤمّل أقْبَلُ للتأويل مما حكاه عنه ابن الصلاح رحمه الله وبإيراد نصه في ذلك يتبين المعنى الذي أشرنا إلى غموضه، قال أبو عيسى رحمه الله في جامعه ما نصه: ورُبَّ حديث إنما يستغرب لزيادة تكون في الحديث، وإنما يصح إذا كانت الزيادة ممن يعتمد على حفظه مثل ما رَوَى مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر قال: فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر من رمضان على كلّ حر وعبد ذكراً أو أنثى من المسلمين صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير قال: وزاد مالك في هذا الحديث من المسلمين، وروى أيّوب السّخْتِياني وعبيدُالله بن عمر وغير واحد من الأئمة هذا الحديث عن نافع عن ابن عمر، ولم يذكروا فيه من المسلمين، وقد روى بعضهم عن نافع مثلَ رواية مالك ممن لا يُعْتَمَد على حفظه، وقد أخذ غير واحد من الأئمة بحديث مالك واحتجوا به. منهم الشافعي وأحمد بن حنبل قالا: إذا كان للرجل عَبِيد غير مسلمين[1]

---

(١) أو كانت له أم غير مسلمة أو زوجة مثلاً فليس الحكم قاصراً على العبيد.

لم يؤد عنهم صدَقَة الفطر واحتجّا بحديث مالك، فإذا زاد حافظ ممن يُعتمد على حفظه قُبِل ذلك عنه، انتهى كلام الترمذي وهو أوسع فإنه علّق الحكم في الزيادة عمن يعتمد على حفظه وابن الصلاح علّق الحكم بالثقة ولا شك أن المعتمد على حفظه في إطلاقهم أعلى رتبة من الثقة فإن الترمذي موافق على أن عمر بن نافع ثقة، وقد لا يوافق على أنه ممن يعتمد على حفظه فلذلك لم يذكره مع مالك فافهم هذا فإنه مهم خاف، والله الموفق والمرشد».

ومن ذلك تحقيقه في ضبط لفظة يكف من قول البخاري في الجنائز، باب: الكَفَن في القميص الذي يَكِفّ والذي لا يَكُفّ، وكان سمع منه مواضع على شيخه أبي العباس بن الغمّاز في أصل عتيق من رواية أبي ذَرّ الهَرَوي بخط أصبغ بن راشد الإشبيلي، كتبه بمكة وسمع فيه على أبي ذر ثم صار هذا الأصل للشيخ أبي الحسن بن النّعْمة. واعتنى به عناية جيدة، وبعد ذلك صار لابن رُشيْد، ومما قرأه فيه على شيخه المذكور هذا الباب:

«باب الكفن في القميص الذي يكف والذي لا يكف، ومن كفن بغير قميص. نا مسدد قال: نا يحيى بن سعيد عن عبيدالله قال: حدثني نافع عن ابن عمر أن عبدالله بن أُبَيّ، لما توفي جاء ابنه إلى النبيّ ﷺ فقال: أعْطِني قميصك أُكفّنْه فيه وصلّ عليه واستغفِرْ له، فأعطاه قميصه فقال: آذِنّي أصلي عليه فأذَنَه، فلما أراد أن يصلي عليه جذبه عمر رضي الله عنه فقال: أليس الله نهاك أن تصلي على المنافقين؟ فقال: أنا بين خِيرتَين، قال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا

﴿تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ فصلّى عليه فنزلت: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾، نا مالك بن إسماعيل قال: نا ابن عُيَيْنَة عنِ عمر، وسمع جابراً[1] قال: أتى النبيّ ﷺ عبدالله بن أُبَيّ بعدما دُفِن فأخرجه فَنَفَثَ فيه من ريقه وألبسه قميصه. قال ابن رشيد: هكذا وقع مضبوطاً في الأصل يُكَفّ بضم الياء في الحرفين، وليس الضبط بقلم النسخ، وكأنه بمداد أبي الحسن بن النعمة، ولنورد على هذه الترجمة ما حضرني مما لعله يعزّ وجوده فنقول والله المرشد:

قال الإمام أبو محمد السفاقسي رحمه الله في شرح البخاري من تأليفه هكذا وقع هذا الباب وضبطه بعضهم بضم الياء وفتح الكاف وتشديد الفاء، وضبطه بعضهم بإسكان الكاف وكسر الفاء، وقرأه بعضهم بضم الكاف وتشديد الفاء وضمها. والأول أشبه بالمعنى، انتهى ما ذكره السفاقسي وليس ما اختار وراءه أشبه بأشبه ولا بمختار، والضبط الصحيح فيه، والله أعلم هو الآخر، وهو فتح الياء وضم الكاف وتشديد الفاء، وكذلك وقع في الأصل العتيق، أصلِ حاتم الطرابلسي وقفت عليه مُعتَنى بضبطه مُجوداً وكذلك جوّده أبو القاسم بن ورْد رحمه الله فيما وجدته في كتابه الذي تولى تصحيحه وتجويده.

ومعناه عندي المعنى الذي فهم البخاري من قوله

---

(١) ثبت بخط ابن رشيد في الطرة ما يلي: الألف في جابر ملحقة وأظنها من إلحاق ابن النعمة وهي في بعض الأصول العتق ساقطة والراء مضببة. (مؤلف)

تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ وهو الذي قصد البخاري إن شاء الله، أي: أن النبيّ ﷺ ألبسه القميص وإن كان لا يكُفّ عنه العذابَ إرضاءً لابنه وبرًّا به، فهو وإن كان لا يغني عنه الميت يُرضي الحي، فكأن البخاري يقول: يؤخذ من هذا التبرُّكُ بثوب الفاضل للميت أثّر في حاله أو لم يؤثر. وما حكاه السفاقسي من ضبط يكف بضم الياء وفتح الكاف وتشديد الفاء إن صحّت روايته، فيكون معناه راجعاً إلى هذا ويكون معناه الذي يكف به عن الميت أو لا يكف أن يُدْرأ عنه ببركته توقُّع العذاب أو لا يُدرأ، ولا يصح أن يراد به سواءً كان الثوب مكفوفةً أطرافُه أو غيرَ مكفوفة، لأن ذلك وصف لا أثر له، وأما مَن ضبطه يكف بفتح الياء وسكون الكاف وكسر الفاء فهو لحن، إذ لا موجب لحذف الياء ولو أراد هذا لقال: يكفي أو لا يكفي من الكفاية ويكون راجعاً إلى المعنى الذي قدّمناه، والله أعلم.

قال: ويعضُد ما بيّناه من مقصد البخاري أنه قد روي أنه قيل له ﷺ: لِمَ وجهتَ إليه بقميصك وهو كافر؟ فقال: **«إن قميصي لن يغني عنه من الله شيئاً، وإني أؤمّل من الله أن يدخل في الإسلام كثيرٌ بهذا السبب»**، فرُوِيَ أنه أسلمَ ألف من الخزرج لما رأوا ولده طلب الاستشفاء بثوب رسول الله ﷺ... ويوضح ذلك إيضاحاً لا يبقى معه إشكال أنه قد أُلِفَ من عمل البخاري في صحيحه أنه إذا لم يصح عنده حديث الباب ترجم بلفظه وساق حديثاً له تعلق بالباب يستدل به وربما ترجم بالمعنى مُغمِضاً، وهذا من ذاك

القبيل. ولو ترجم بقوله: باب الكفن في القميص الذي يغني أو لا يغني لكان أصرح، لكنه لما كان الحديث عنده بعيداً عن شرطه عدل عن لفظه إلى معناه، والله أعلم».

ونكتفي بهذا القدر من المباحث الحديثية، وكان بودنا أن نأتي ببحثه القيِّم في عبدالله الصّنابحي راوي حديث الوضوء الذي في موطأ الإمام مالك، وما قيل من أنه أبو عبدالله لا عبدالله، تابعي لا صحابي، وأن مالكاً وَهِمَ فيه لما تضمّنه هذا البحث من نقول غريبة من كتب مفقودة ومنها كتاب ابن القطّان مع التعليق عليه لابن الموّاق، ولكن طوله مَنَعَنا من ذلك، فلنصرف الوجه إلى أبحاث أخرى للمترجم في اللغة والأدب وما إليهما.

فمِمّا كتبه على خُليص، منزل نزله بعد رابَغ في توجهه من المدينة المنورة إلى مكّة: «ثم رحلنا عنه (رابغ) منزلاً منزلاً إلى أن وافينا خُلَيْصاً يوم الأربعاء ضحوة الثالث من ذي الحجة (٦٨٤) فقلنا هناك، ورفعنا عشي النهار. وفي وصف خليص أقول من قصيد:

وخُلَيْص إذْ وردنا خِلْصَه　　　فرعى الله أُوَيْقَاتِ الورود

ومطلع القصيد:

أهلَ ودي لا تدينوا بالصدود　　　بذِمام كان في وادي زَرود

وخليص البيت، وهذا البيت اتفقت فيه موافقة حسنة في التصغير كرَعت في مورد من الحسن لا تُحلأ عنه، وذلك أن الشعراء أكثروا من التصغير في مَحالّ إما لضرورة

وزن أو لقصد ضعيف غير قوي، وربما ندر منهم فيما صدر عنهم ما يُستحسن، كان شيخنا بحر البلغاء وحبر الأدباء أبو الحسن حازم بن محمد (القرطاجني) يقول وقرأته بخطه: كان أبو الطيب المتنبي مُولَعاً بالتصغير. ولم يوفّق من ذلك إلا في قوله:

ظللت بين أُصَيْحَابي أكفكفه وظلّ يسفح بين العذر والغزل

فحسن هذا لما كان الموطن مظنة لقلة الصحب فكثيراً ما يستعملون ذكر الخليلين في هذا الموضع.

قلت: ووجه حسن البيت الذي أنشدته من طريقين؛ أحدهما: المناسبة اللفظية فإن خليصاً مصغر، وأويقات كذلك، والمناسبة اللفظية مما تعتبر، ومن مُسْتحْسَنِ ذلك قول الأديب البارع أبي عبدالله محمد بن غالب الرصافي رحمه الله:

بلادي التي ريشت قُوَيْدِمتي بها فُرَيْخاً وآوتني قرارتُها وكرا

فحُسْن موقع تصغير القادمة لمكان تصغير فرخ. (الثاني): وهو أقوى اللحظ المعنوي وهو أن أوقات السرور توصف بالقِصَر، وقد أكثر الشعراء من ذلك حتى قلت:

ولم يزل زَمَن الأفراح مُختصَراً

من ذلك قول الشريف:

يُولّع الطلّ بُردَيْنا وقد نسمت رُوَيْحَة الفجر بين الضّالِ والسّلَم

فإن لقوله: رويحة حسن موقع من النفس، لأنهم لما

كانوا يقولون نسيم عليل ونفس خافت كان تصغير لفظ الريح في هذا البيت مستحسناً مختاراً ولذلك سمعنا شيخنا أبا الحسن رحمه الله يعيب قول ابن عمار:

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى. لأن الانبراء كأنه اعتراض بقوة، والنسيم من شأنه أن يوصف باللدونة والرقة.

ومن التصغير الذي له طلاوة وحسن موقع قول أبي العلاء صاعد بن عيسى الكاتب:

إذا لاح من برق العقيق وُمَيْضَةٌ تدِقّ على لمح العيون الشوائم

فحسن تصغير الومْضة لما وصفها بالدقة والخفاء، ومن المستحسن قول أبي العلاء المعري:

إذا شربتْ رأيتَ الماء فيها أُزَيرقَ ليس يستره الجِرانُ

لما وصفها برقة الأعناق ودقتها حَسُن تحقير ما يمر عليها من الماء لضيق مسلكه، فمقداره لذلك نزر. ومن المستحسن قول عمر بن أبي ربيعة:

وغاب قُمَيْر كنت أرجو غيوبه وروّح رُعيان ونوّم سُمّر

فحَسُن تصغير القمر هنا، لأنه قد دلّ بإخباره أنه غاب عند ترويح الرعيان ونوم السمار على أنه كان هِلالاً. ومما استحسن قول أبي نصر بن نباتة:

ففي الهضبة الحمراء إن كنت سارياً

أُغيبِرُ يأوي في صدوع الشواهق

لأن الحيّة توصفُ بالضّؤول والدقّة وحسبك قول النابغة:

فبت كأني ساورَتْني ضئِيلة   من الرّقْش في أنيابها السمّ ناقع

ونحو منه قول الشريف:

زال وأبقى منه ورّاثُه   جُذَيْمَ مال عرقته الحقوق...»

وكتب على الصخرات التي وقف بها النبيّ ﷺ بعَرَفة وجبَل الرّحْمة ما يلي: «وهي ـ أعني هذه الصخرات ـ عند الجبل الذي يعتني الناس بصعوده ويسمونه جبل عرفة، وإنما عَرَفَةُ بسيط تحيط به جبال، وهذا الجبلُ يُسمّى جبل الرحمة وجبل الدعاء. واسمه في لسان العرب إلاَل على وزن فِعال بكسر الهمزة وذكره صاحب الصّحاح في اللغة بفتح الهمزة وهو خلاف المحفوظ، وبالكسر ضبطه أبو علي في البارع وقال: هو جبل بعرفات، وكذلك حكاه بالكسر صاحب المُجمَل والمُحْكَم وأبو عُبَيْد وغيره من أئمة هذا الشأن، قال أبو عبيد: إلال بكسر أوله على وزن فعال، كأنه جمع ألّة جبل صغير من رمل عن يمين الإمام بعرفة. قال النابغة الذبياني:

بِمُصطَبِحات من لِعاب وثَبْرة   يَرِدْنَ إلالاً سيرهُن تَدافُع

وقال طفيل:

فزُرن إلالاً لا يُنَحّبْن غيره   بكل مُلَبٍّ أشعثِ الرأس محرم

وفي البارع: الإلّ جبل رمل بعرفات هكذا ذكره بلفظ المفرد على وزن فعل، قال: وكتب هشام بن عبدالملك إلى

بعض ولده: «أما بعد فإذا ورد كتابي فامضِ إلى الإلّ فقم بأمر الناس»، فلم يدروا أي ولاية هي حتى جاء أبو بكر الهُذَلي فقال له: هي ولاية الموسم، وأنشده بيت النابغة المذكور:

يَــزُرْنَ إلالاً ســيْــرُهــنّ تَــدَافُــع

وهذا الذي قاله أبو عبيد ونقله كله صحيح، إلا قوله: إنه جبل رمل فليس كذلك، وإنما هو جبل مرتفع من حجر صلد وقد نبتت منه أجبُل بعضها أكبر من بعض يُسمّى بعضها النّبْعة وبعضها النبيّعة بالتصغير جرياً على خيالات العرب في تسمياتها كأنهما نبعتا منه، ولم نجد من يُعيّنهما لنا لكن التسمية تشعر بتعينهما من جملة تلك الأحجار والصخور الكبار التي هناك، كما تُعيّن النابتَ منها لأنه ضرس قديم والصخرات التي بإزائه يمكن الصعود عليها. وإن تكلف في بعضها إلى أن يحصل الصعود فتكون محلاً حاملاً للراكب والراجل، وبإزائها قطع من أجبُل الرمال لا يمكن الصعود عليها، منفصل بعضها عن بعض، وأما هذه الصخرات فقريبة الاتصال بعضها ببعض.

قال الإمام أبو عمرو بن الصلاح رحمه الله وجاء في الحديث تسميته جبل المُشاة لكون الرجال تقف عليه وتسمّي الأجبُل الصغار المذكورة النبعة والنبيّعة والنابت. وروى مسلم في صحيحه عن جابر أن رسول الله ﷺ ركب إلى الموقف فجعل بطن ناقته القَصْواء إلى الصخرات، وجعل جبل المُشاة بين يديه واستقبل القبلة، وضبطه غير واحد من المصنفين حَبْل المشاة، وجعله من جِبال الرمل وهو ما

استطال من الرمل مرتفعاً وما ذكرناه من كونه جبل الإلّ هو الصحيح، وبه شهدت المشاهدة، وهو الذي ذكره بعض مَن صنّف في الأماكن المتعلقة بالحجيج. وروى أبو الوليد الأزرقي في كتاب مكة بإسناده أن موقف النبيّ ﷺ كان بين جبل النبعة والنبيّعة والنابت، وموقفه منها على النابت قال: والنابت عند النشْزة التي خلف موقف الإمام، وموقفه ﷺ على ضِرْس من الجبل النابت مضرّس بين أحجار هنالك نابتة من الجبل الذي يقال له: الإلّ.

قلت: الوجه أن يقول: وموقفه إلى النابت لا على النابت؛ لأن النابت لا يمكن القرار عليه وإنما الوقوف على صخرات مُفَلْطحات بإزائه يكون الضرس النابت منها عن يساره. وقوله في الحديث جعل جبل المشاة بين يديه واستقبل القبلة هو في التحقيق أميَل إلى يمينه، ولعله التفت ﷺ للناس، فصار بين يديه وإلا ففي العبارة بحسب المشاهدة بعض اتساع وتقريب، وقوله أيضاً: فجعل بطن ناقته القَصْواء إلى الصخرات في تخيله إشكال، فإن بطن الناقة إن اعتبر به جانبها الأيسر فإنما يجيء إلى الضرس النابت، وإن اعتبر أسفل البطن فكيون عبارة عن كونه صعد على الصخرات فإن الصعود عليها ممن بالمشاهدة وإن احتاج إلى انعراج عند الصعود حتى يتم فيستقر لاتساعها والله أعلم، ولم أرَ من نبّه على هذا...».

وهكذا كل أبحاثه التي تناول فيها شيئاً من هذا القبيل مركزة على شواهد اللغة والنصوص الأدبية مع مناقشة ما

يكون في حاجة إلى المناقشة من هذه النصوص والوصول بالبحث إلى نهايته من التدقيق.

ونعرض بعد هذا لبعض اللطائف التي تخلّلت الرحلةَ في كثير من صحفها فكانت كمراحل استجمام بين أبحاثها الدسمة فمنها غريبة رابغ التي أشار إليها بقوله:

«ذِكْرُ غريبة عنّت لنا به وما عنت، بل أغنت في معنى الآية الكريمة وأقْنَتْ، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٖ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ صَحِبني في الطريق من المدينة على ساكنها الصلاة والسلام إلى البيت الحرام أحدُ الشيوخ من شرفاء المدينة فلما وافَيْنا رابغَ، رأيتُ أمراً عَجَباً من تخلُّل الوحش؛ الغزال والأرنب؛ بين الجِمال والرّحال بحيث يناله الناس بأيديهم، والناس ينادون: حَرام! حَرام! والجوارحُ قد سُلْست خيفة تعدي جاهل، يتعسّف المجاهِل، فقال لي ذلك الشيخ الشريف: تأمّلْ تَرَ عَجَباً! هكذا جرت عادتنا في هذه الطريق إذا مررنا به ونحن مُحرِمُون نجد به من الوحش ما ترى، فإذا عدنا مُحلِّين لم نجد به شيئاً، فلما عُدنا كان كما قال فبان لي من معنى الآية ما لم يكن عندي بالمشاهدة».

ومنها: ما رواه عن شيخه أبي إسحاق الفأسي بالهمز المتقدم الذكر قال: «أخبرني أنه سمع الموطأ الليثي[1] على ابن مسدى وأجاز له وأخبرني أنه لما جاء ليسمع عليه

(١) أي: رواية يحيى بن يحيى الليثي.

الموطأ قال له: لزِمَتْني يمين أن لا أسمعه إلا بعشرة دنانير عيْناً، فقلت له: لو جعلت على الناس في سماعه عشرة فلوس لزهدتهم فيه ولم يكن عندي ما أعطيه فجاء بعض بني الدنيا ليسمعه عليه فبعث ابن مَسْدى إليّ فسمعته منه: قال ابنُ رُشَيد: «وهذه جُرَحة إلا أن يتأول عليه أنه قصد بذلك تنفيق العلم».

ومنها: أن الوزير أبا الحسن سهل بن مالك الأزدي الغرناطي دخل عليه جماعة من أصحابه بمُرْسِية لما غرّبه ابن هود عن وطنه فقدّم إليهم حُوتاً وسمعوا عجوزاً من أهل بيته تقول: هلا قدم إليهم من عُدَيْل التين الطيب الذي سيق إليه، وكان الوزير في سمعه ثقل فقالوا له: يا أبا الحسن هلاّ أطعمتَنا من عُدَيْل التين الذي أهدى لك؟ فقال: ومَن أعلمكم به؟ ثم أنشدهم لنفسه:

لو جاء إبليس إلى منزلي سراً عن الناس بإحدى الطّرف
أخبرتَني أنت بمن ساقها يا عالمَ الغيب بما في الغُرَف!

ولعلنا قد أكثرنا من هذه النقول ولم نعرّج بعد على شيء من شعر المترجم فلنكمل الفائدة ببعض آثاره في مَيْدان النظم وإن كان ليس بذاك، فمن قوله في مدح السفر وهو مما اشتهر من نظمه:

تغرّب ولا تحفِل بفُرقة موطن
تفُز بالمنى في كل ما شئت من حاج
فلولا اغتراب المسك ما حلّ مفرقاً
ولولا اغترابُ الدر ما حلّ في التاج

وله في رثاء ابن له ثكِلَه بغرناطة:

شباب تَوَى شابت عليه المفارق
وغصن ذَوَى تاقت إليه الحدائق
على حين راق الناظرين بُسوقُه
رمته سهام للعيون رواشق
فما أخطأت منه الفؤاد بعَمْدها
فلا أبصرت تلك العيون الروامق
وحين تدانى للكمال هلاله
ألَمّ به نقص وجَدّث مَواحق
إلى الله أشكو، فهو يُشكى نوازعاً
عظاماً سطاها للعظام عوارق
ولا مثلَ فقدان البُنى فُجِعته
وإن طال ما لحّت ولجّت بوائق
محمدٌ إن الصبر فيك مصارمٌ
محمد إن الوجد فيك مصادق
محمد إن الصبر فيك مخالف
محمد إن الوجد فيك موافق
محمد إن الصبر صِبْر وعلْقَم
على أنه حُلْو المثابة سابق
فإن جزَعاً فالله للعبد عاذر
وإن جلَداً فالله للوعد صادق

وتالله ما لي بعد عيشك لذة
ولا راقني مرأى لعيني رائق
وأنى به والمذكرات عديدة
فنُبل وفَهم للعوائد خارق
فإن ألتفِتْ فالشخص للعين ماثل
وإن أستمع فالصوت للأذن طارق
وإن أدع شخصاً باسمه لضرورة
فإنْ اسمك المحبوب للنطق سابق
وإن تقرع الأبواب راحةُ قارع
يطِر عندها قلب لذكرك خافق
وكلّ كتاب قد حويت فمُذْكِر
وآثاره كلّ إليك توائق
سبقتَ كهولاً في الطفولة لا تني
وأرهقت أشياخاً وأنت مراهق
فلو لم يغُلْك الموت مت مُجْلياً
واقبل سُكَيتاً وَجِيهٌ ولاحِق
على مهل أحرزت ما شئت ثانياً
عِنانَك لا تجهد وأنت مسابق
رأتك المنايا سابقاً فأغرتها
فجُدّ طِلاباً إنهنّ لواحق
لئن سلبت مني نفيسَ ذخائر
فإني بمذخور الأجور لواثق

وقد كان ظني أنني لك سابق
فقد صار علمي أنني بك لاحق

غريبين كُنا فرّق البين بيننا
بِأبْرح ما يلقى الغريب المفارق

فبَيْن وبُعد بالغريب توكّلا
فذرعي بما حُملت والله ضائق

عسى وطن يدنو فتدنو مُنًى به
وأي الأماني والخطوب عوائق

فلولا الأسى ذاب الفؤاد من الأسى
ولولا البكى لم يحمل الحزن طائق

يخط الأسى خطاً تروق سطوره
ويمحو البكى فالدمع ماح وماحق

فيا واحداً قد كان للعين نورَها
أكلّ ضياء بَعد بُعدك غاسق

عليك سلام الله ما حنّ عاشق[1]
وما طلعت شمس وما ذرّ شارق

وما همَعت سُحْبٌ غوادٍ لوائح
وما لمعت تحدو الرعود البوارق

وجاد على مثواك غيث مُروّض
عِهادٌ لرضوان الإلٰه موافق

---

(١) في الأصل بخط الناظم: غاسق، ولا شك أنه سبق قلم، أو يكون حن بالجيم لا بالحاء.

وهذه القصيدة تفيض لوعة وحزناً وإن لانت شيئاً من ناحية الصناعة وذلك هو قول ابن الخطيب فيه: «وله شعر يتكلّفه إذ كان لا يزن أعاريضه إلا بميزان العروض»، على أن مصراعها الأول مما يقصر عنه الفحول، وفيها أبيات أخرى لا تقصر عن مدارك البلغاء.

ويا لسخرية الأقدار أن كان هذا الولد المرثى هو ابنه أبو القاسم الذي طالما استجاز له المشايخ في رحلته ولأختيه عائشة وأمَة الله، فهو كان يريده سابق زمانه، والأجل لم يمهله لبلوغ أوانه، على أنه سماه في القصيدة محمداً ولا مانع أن تكون أبو القاسم كنيته، ولله الأمر من قبل ومن بعد وإليه المرجع والمآب.



ابن آجروم
(ت ٧٢٣ هـ)

اسمه ونسبه، معنى آجروم، ولادته ونشأته، معارفه، انتصابه للتعليم وعموم النفع به، جملة ممن أخذ عنه من المشاهير، إطلاق اسم مقدمته الآجرومية على علم النحو، تقريظ الآجرومية وتحليلها، رد كلام دائرة المعارف فيها هل كان ابن آجروم كوفي المذهب؟ عناية علماء المشرق والمغرب بالآجرومية، بقية كتب ابن آجروم، وفاته.

هو الأستاذ المقرِئ النحوي الشهير أبو عبدالله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي الفاسي عرف بابن آجُرّوم، وهي كلمة بربرية معناها الفقير الصوفي كما ذكره جميع من ترجمه من المؤرخين أو كتب على مقدمته من الشارحين. ولا يزال الشّلُوح يستعملونها بهذا المعنى أو ما يقرب منه لكن بلفظ أكُرّام، وعلى كل حال فهي لقب تشريف عندهم وتقوم مقام السيد بالعربية، ويقال: إن جده داود هو أول من عرف بها.

وأصله من صنْهاجة عملِ بلدة صِفْرو. لكنه وُلد

بفاس بعُدوة الأندلس منها عام اثنين وسبعين وستماية (٦٧٢)، وهي السنة التي توفي فيها ابن مالك الإمام النحوي المشهور، فقيل: تُوفي نحوي ووُلد نحوي، ولعل هذا الاقتران إنما لوحظ بسبب جريان العمل في البلاد العربية منذ قرون بدراسة النحو في مقدمة ابن آجُرّوم أولاً ثم في ألفية ابن مالك ثانياً، لا سيما وكثير ممن كتب على الآجرومية كتب أيضاً على الألفية فكانوا يبحثون عن ترجمة المؤلفين فوقع الاهتداء إلى أن سنة وفاة ابن مالك هي سنة ولادة ابن آجروم فقيل هذا القول: «توفي نحوي وولد نحوي»، ولقد كان هذا من غير شك خيراً مما قيل في ولادة عمر بن أبي ربيعة شاعر الغَزل المشهور، ليلة وفاة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان ابن أبي ربيعة قد أسرف في المجون والتعرض للحُرَم بشعره فقيل في ذكر هذا الاقتران بين وفاة الفاروق وولادة الشاعر: «أيّ حق رُفع! وأي باطل وُضع!» وفي ابن خلكان أن قائل ذلك هو الحسن البَصْري.

ولقد نشأ المترجم ودرس بفاس طبعاً، وإن كنا لا نعرف شيئاً عن نشأته ولا عن دراسته حتى شيوخه الذين أخذ عنهم لم يذكرهم أحد، ما عدا أبا حيان النحوي صاحب التفسير الكبير المعروف بالبحر المحيط فإنهم ذكروا أن المترجم أخذ عنه بمصر في طريقه إلى الحاج. على أنه كان مشاركاً في العلوم، ففضلاً عن القراءات والنحو اللذين اشتهر بهما، كان له معلومات من فرائض وحساب وأدب بارع كما يقول ابن مكتُوم من معاصريه، فيما نقل عنه

السيوطي في بغية الوعاة» قال: وهو مقيم بفاس يفيد أهلها معلوماته المذكورة.

وقال ابن القاضي في «الْجَذْوة»: إنه كان من مُؤدّبي أهل مدينة فاس، فيظهر من هذا إنه بعد التحصيل وفراغه من القراءة انتصب للتعليم والإقراء بجامع الأندلس على ما في دائرة المعارف الإسلامية، ولا غرو فقد كانت سكناه بعدوة الأندلس، وعلى ما تفيده عبارة الجذوة فإنه كان مُعلّم صِبْيان لأنه المراد بالمؤدب إذا أطلق. وذلك لا يزيده إلا رفعةَ قدر وعلوّ منزلة:

قُمْ للمُعَلّم وَفّهِ التبجيلا
كاد المعلمُ أن يكون رَسُولا

أعلِمتَ أشرفَ أو أجلّ من الذي
يَبني ويُنشىء أنفساً وعقُولا

وقد كان هذا هو سر نجاح أسلافنا وبلوغهم إلى أقصى الغايات في العلوم والمعارف حيث كانوا لا يَكِلُون تعليم أبنائهم إلا إلى كبار الأساتيذ الراسخين في العلم، فسُرعانَ ما تظهر نجابتهم ويبدو تحصيلهم، ولما صار التعليم حِرْفَةً يتعاطاها كل مَن هبّ ودبّ وصار أنصافُ المتعلمين يعدُّون أنفسهم من كبار الأساتيذ قلّ التحصيل وانعدم النفع وصارت البلاد إلى ما هي عليه من توطُّن الجهالة وغُرْبَة العلم ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد ذكر الكتاني في السلوة جملة من تلامذته فقال: «وأخذ عنه جماعة من الأئمة بفاس كالشيخ أبي العباس

أحمد بن محمد بن شعيب الجزنّائي[1]، والأستاذ الفقيه النحوي الصالح أبي محمد عبدالله بن عمر الوَانغِيلي الضرير، والقاضي أبي عبدالله محمد بن عبدالمهيمن الحضرمي، والفقيه الأستاذ المقرىء الأغرَف أبي العباس أحمد بن محمد بن حِزْب الله الخَزْرَجي. وممن أخذ عنه أيضاً ولداه الأستاذ الأثير العالم الكبير أبو محمد عبدالله وبرسمه وضع والدُه المقدمة... والأستاذ المحقق الناظم الناثر أبو عبدالله محمد المدعو بمَنْدِيل»، وذكر السيوطي أنه رأى في تاريخ غرناطة أن محمداً بن علي بن عمر الغساني النحوي قرأ عليه بفاس.

فهؤلاء جملة من النوابغ في النحو والقراءات تخرجوا بالمترجَم وتأثروا به في الاختصاص بعلم العربية، ولا شك أن هناك كثيرين غيرَهم من تلامذته المباشرين لم يحفظ لنا التاريخ أسماءهم. ونقول: المباشرين؛ لأن غير المباشرين من تلامذته ونعني بهم الذين انتفعوا بمقدمته؛ لا يحصون كثرة ولا يحيط بهم العدد. فقد غَبَرَ زمن طويل على العالم العربي لا يبتدئ أحد فيه دراسة علم النحو إلا ويجعل المقدمة الآجرومية أول ما يدرس وفاتحةً ما يتلقى من هذه الدراسة حتى لقد صار اسمها عَلَماً على قواعد الإعراب وعلم النحو جملة فيقال: أخذ الآجرومية مثلاً أو أتقن الآجرومية ويُراد العلم لا الكتاب وذلك من كثرة ما شاعت هذه المقدمة بين المتعلمين ووقع التعويل عليها في تلقين

---

(١) انظر الجزء ١٦ من هذه السلسلة.

قواعد اللغة العربية للمبتدئين. وأيضاً للموافقة اللفظية بين هذه التسمية وهي الآجرومية نسبة لابن آجُرّوم وبين اسم النحو في اللغة اليونانية ثم في اللاتينية.

وجاء في مجلة المقتطف (عدد مارس سنة ١٩١١) من مقال لصاحبها الدكتور يعقوب صرُّوف ما نصه: «وأول من وضع علم النحو أو قواعد علم اللغة وتركيب الألفاظ فيما يُعلَم اليونان، والظاهر أنهم وضعوها لكي يسهّلوا تعليم لغتهم على الطلبة من الرومانيين. والمعروف أن ديونيسيوس تراكس ألّف غَرَامَاطِيقا في زمن بمبيوس قبل المسيح بنحو سبعين سنة، فكان أساس كل الآجُرّوميات التي أُلّفت بعده. وقد حُدّد هذا العلم بأنه معرفة لغة العلماء في أقسامها الستة، أي: علم اللفظ والشكل (أو الإعراب) وعلم تفسير الكلام المجازي وعلم التعريف أو التحديد وعلم الاشتقاق وعلم التصريف وعلم النقد. وعلى هذا المبدأ ألّف الآجروميات في رومية والإسكندرية ووصلت إلى السّريان فالعرب. ويظهر لنا أن كلمة الآجرومية بالعربية هي نفس كلمة أغراما اليونانية أو غرماريا اللاتينية. نعم إن الزّبيدي قال في تاج العروس: إن مؤلف الآجرومية هو ابن آجُرّوم فنسبت إليه ولكن المأثور أن مؤلفها هو الشيخ أبو عبدالله محمد بن داود الصنهاجي ولا ذكر لآجرّوم في ترجمته».

ولا يخفى ما فيه من القصور فإن صاحب هذه المقدمة قد اشتهر بابن آجروم أكثر مما اشتهر باسمه ولا تخلو ترجمة له من ذكر هذه الكُنْية وذكر معناها بالعربية وهو الفقير الصوفي، وآجرومية مادة ليس لها وجود في اللغة

العربية فأحرى أن يكون معناها هو معنى كلمة «كراماطيكا» اللاتينية أو اليونانية وإنما جاء هذا التشابه في اللفظ موافقاً للمعنى الجديد الذي اكتسبه ذلك الاسم في اللغة العربية فأوْهَم أنه أصيل مثل الكلمة الأعجمية وليس كذلك. وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على التوفيق الذي أصابه هذا المؤلف وأخطأه كثيرون غيره من واضعي العلوم بَلْهَ المؤلفين فيها فقط. فسيبويه الذي هذّب هذا العلم وجمع شوارده في «الكتاب» لم يُطلَق اسمه عليه وابن آجروم الذي كتب فيه هذه الورقات (وجمع السلامة للقِلّة) اشتهر اسمه وشرّق وغرّب حتى أطلق على نفس العلم وصار مُرادِفاً له تقريباً والدنيا حظوظ كما يقولون!...

ولئن عزا بعضُهم هذا إلى صدق النية والإخلاص وأنه ألّفها تجاهَ الكعبة الشريفة، فإنه لا ينبغي أن يُغفَل الجانب المادي في ذلك وهو طريقة التأليف فإن هذه المقدمة امتازت عن كتب النحو الأخرى بأشياء: منها اختصارها الذي جعَلَها سهلة التناوُل بحيث تُطمِعُ كلّ قارىء في تحصيلها لأنها بِضْعُ ورَقات. ومنها حسن ترتيبها فإنها ألَمّتْ بأبواب النحو في تسلسل طبَعي من أقسام الكلام وأقسام الإعراب وعلاماته ثم المعرَب من الفعل والاسم إذ كان الغرَضُ المهمّ من معرفة النحو هو إعراب الكلام وما عدا ذلك من المشاكل فإنما أشارت له إشارةً خفيفة في ضِمْن هذه الأبواب فلم تُشوّش به ذِهْنَ الطالب. ومنها اعتمادُها على القواعد الجلية والعلامات الظاهرة كما في تعريفها للاسم والفعل والإعراب ونحو ذلك. ومنها ذكرها لأكثر عدد ممكن من أقسام

الحرف كحروف الجر والنصب وأدوات الجزم لأنها فضلاً عمّا تفيده من التمييز بينها وبين الفعل والاسم فإن الطالب يُحِسّ ما تحدثه من الأثر في أواخر الكَلِم وذلك غرض مهم في هذا العلم. ومنها، وهو طريف جداً وأظن أنها مما اختصت به، هذا التحصيل المفيد لعلامات الإعراب. الأصول والفروع في (فصل المعربات قسمان) الذي ذكره ابن آجُرّوم بعد (باب معرفة علامات الإعراب) وجعله كالتمرين للطالب الذي يَضِلّ ذهنُه في تِيه تلك العلامات المتشعبة.

وإذا علمنا أن مَدار النحو كله على معرفة الإعراب وإتقان أحكامه، علمنا مقدار أهمية هذا التحصيل وذكْر العلامات مقسمةً إلى حروف وحركات بعد ذكرها مجتمعة بحسب أنواع الإعراب.

وهذا التمرين مع ما ذُكِر قبله هو الذي جعلها كأحد هذه التآليف المدرسية الناجحة التي روعي فيها نفسية الطفل وأصول التربية الحديثة بالتدرُّج من المحسوس إلى المعقول ومن البسيط إلى المركب، ولذلك نراها كثيراً ما تُستعمل حتى في المدارس العصرية اليوم، وكم وضع لها المدرّسون العصريون من تمارين وجداول صرفية وأُمثولات مما يدل على شدة عنايتهم بها ومزيد حرصهم عليها.

هذا وجاء في دائرة المعارف الإسلامية في ترجمة ابن آجروم عند الكلام على مقدمته الآجرومية ما نصه: «وهذا الكتاب، وهو مُوجز مُمْعِن في الإيجاز «لجُمَل» أبي القاسم

عبدالرحمٰن بن إسحاق الزّجاجي صار بفضل إيجازه الذي أكسبه الحُظْوة حتى اليوم من المحيط الأطلسي إلى نهر الفُرات، أساساً للدراسة النحوية. وهو يُحفَظ بسهولة عن ظهر قلب في المدارس لإيجازه ولو أن هذا الإيجاز ضحّى بالوضوح وجعله قليل النفع للمبتدئين الذين يحتاجون إلى بسطٍ أوْفَى للقواعد».

فأما كونه قليل النفع للمبتدئين بسبب إفراط إيجازه فهذا مردود بقولها: إن ذلك الإيجاز أكسبه الحظوة لدى العالم العربي كله وجعله أساساً للدراسة النحوية فيه فليت شعري لو كان قليل النفع لماذا حظي عند الناس ولماذا اعتمدوه في الدراسة الأولية لعلم النحو قروناً متطاولة وحفظه التلاميذ عن ظهر قلب في المشرق والمغرب ولقنوا منه مبادئ العربية ولم يشتَكُوا من فرط إيجازه ولا من قلة نفعه بل نراهم هم وشيوخهم يتمسكون به ولا يبغون عنه بديلاً والكل يعترف بما أفاد منه ويقِرّ بأنه هو الذي فتح له باب الفهم لقواعد الإعراب؟

والناس أكيس من أن يمدحوا رجلاً

حتى يروا عنده آثار إحسان

وأما كونه موجزاً ممعناً في الإيجاز لجمل الزجاجي فإنه إسراف في القول وظُلْم فادح لابن آجروم رحمه الله. وقد كتب الناس على هذه المقدمة كثيراً وبحثوا فيها طويلاً وشرحوا ألفاظها وحلّلوا كلماتها في الوقت الذي كان فيه جُمَلُ الزُجاجي لا يزال مدروساً ومن الكتب المعتمدة

لطلاب هذا العلم وما قال قائل منهم: إن الآجرومية مأخوذة من الجمل ولا أنها مختصر له. نعم إن هناك ألفاظاً متشابهة مما يتداوله النحاة في بعض التعاريف والأمثلة والأحكام وهي ليست حُبساً على الزجاجي حتى لا يجوز أن يستعملها ابن آجروم مثلاً.

ولعل هذا هو الذي غرّ الأستاذ ابنَ أبي شنَب ناشرَ جمل الزجاجي وكاتب ترجمة ابن آجروم في دائرة المعارف الإسلامية فحكم بأن الآجرومية مختصر للجمل، ولو نظر إلى مجرد افتتاحها ثم ترتيبها الذي لا يتوافق وترتيب الجمل لما جازف بذلك القول. فإن ابن آجروم افتتح مقدمته بتعريف الكلام ثم ذكر أقسامه، والزجاجي إنما بدأ بذكر الأقسام فالتعريفُ إذن من زيادات الآجرومية على الجمل، والموجَزُ الممعن في الإيجاز لا يكون زائداً. ثم بعد أن ذكر الإعراب مُعرّفاً له أيضاً، في حين أن الزجاجي لم يعرفه، ذكر أقسامه وعلاماته. وهذا الترتيب مما توافق عليه أكثر النحويين وقدوتُهم فيه هو «الكتاب» لإمامهم سيبويه.

وقد تزيّد ابن آجروم في هذا الكتاب أيضاً بفصْل المعربات قسمان الذي سبق الكلام عليه فإنه من باب التمرين، والموجز الممعن في الإيجاز من أي كتاب لا يتزيد عليه بأشياء وفصول.

ومن باب الأفعال التي تأتي بعد ذلك يختلف الترتيب تماماً فيأخذ ابن آجروم في ذكر أبواب النحو متسلسلة تسلسلاً طبيعياً، فهذه أبواب المرفوعات تَسْتَتْلِي بعد استيفائها

أبوابَ التوابع ثم أبواب المنصوبات ثم المخفوضات وليس الأمر كذلك في الجمل كما يُعرَفُ بالاطلاع عليه.

ولولا خوف الإطالة لتوسعنا في بيان بطلان هذا القول من أن الآجرومية مختصر للجمل ويكفي هذا القدر الآن فإن المسألة من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى مزيد بيان.

وهاهنا بحث لطيف أشار له الجلال السيوطي في بغية الوعاة حيث قال: «وهنا شيء آخر وهو أنّا استفدنا من مقدمته أنه كان على مذهب الكوفيين في النحو لأنه عبّر بالخفض وهو عبارتهم وقال: الأمرُ مجُزوم وهو ظاهر في أنه معرَب وهو رأيهم وذكر في الجوازم كيفما والجزم بها رأيهم وأنكره البصريون فتفطّنْ». اهـ.

وقال العلاّمة السّوداني في شرحه على هذه المقدمة عَقِب كلام السيوطي هذا: وقلت زيادة على ذلك وذكر في حروف الجر وا ورب وهو مذهب كوفي ومذهب البصري أن الجارّ هو رب المحذوفة وعبّر بالنعت وهو عبارةُ الكوفي وعبارة البصري الوصف والصفة كما ذكر أبو حيان. ولم يُتَرجِم لعطف البيان وذكر الأعْلَمُ أنه لا يُترجم له الكوفي وإنما يترجم له البصري وحدّ الإعراب على القول بأنه معنوي وهو قولهم، وقال في لا: تنصب النكراتِ بغير تنوين وهو قولهم، وقال البصري: مبني، وذكر من النواصب حتى، وقال البصرية: النصب بعدها بأن مضمرة».

ثم قال السوداني (تعقّب) لا يَنْهَضُ هذا كلهُ دليلاً على أنه كوفي المذهب في النحو لِمَا وجدناه كثيراً في هذه

المقدمة على مذهب البصريين وآرائها واصطلاحاتها كقوله: وأقسامُه أربعة، قالوا: ثلاثة بأسقط الجزم، وقال: المنصرف والاسم الذي لا ينصرِف، وقالوا: المُجرَى والاسم الذي لا يُجرى، ومنها قوله: الأفعال ثلاثة، وقالوا: الفعل قسمان، وقوله: المذكور قبله فعله، وقالوا: يجوز تقديم الفاعل على فعله، وقوله: العاري عن العوامل اللفظية، وقالوا: مرفوع بالخبر، وقوله في كان: ترفع المبتدأ، وقالوا: مرفوع بما كان به مرفوعاً قبل دخول كان، وقوله: تنصِبُ الخبر على أنه خبرُها، وقالوا: على أنه حال، وفي إنّ ترفع الخبر، وقالوا: هو مرفوع بما كان مرفوعاً به قبل دخول إن، وفي ظن تنصبهما على أنهما مفعولان لها، وقالوا: على أن الثاني حال، وقال: الضمير والمُضْمَر وعبارَتُهم الكناية والمكْنِي. وقال: التوكيد تابع للمؤكد في رفعه ونصبه وخفضه وتعريفه فقط، وقالوا: وفي تنكيره. وقال: البَدل وعبارتهم الترجمة والتبْيين والتكرير. وقال الظرف خ[1] هو تسمية البصريين، وقوله في الخبر: (الجار والمجرور والظرف) وفي الاستثناء (مجرور) لا غير، يجوز (جره) ونصبه، وقوله: (يجوز) فيه البدل يعني أن الاتباع فيه على البَدَلية، وقالوا: معطوف عطف نسَق وإلا عندهم من حروف العطف، وقوله في المنادى: يبنيان على الضم، وقالوا: يعربان بغير تنوين وعدّ رب في حروف الجر، وقالوا: اسم. انتهى. والله أعلم.

قلت: حرّر العلاّمة السوداني هذا المبحث بما لا مزيد

---

(١) يرمز بالخاء إلى الشيخ خالد الأزهري.

عليه وخلاصته أنه لا يمكن أن يجزم بأن ابن آجروم كوفي المذهب في النحو ولا بَصرِيه لأنه جارَى المذهبين معاً وأخذ من المدرستَيْن كلتَيْهما، وما أحسن ما قال الشيخ ابن عَجِيبة في شرحه على الآجرومية عند تعريفِه بالمؤلف: «وتمهّر في علم العربية فكان يجتهد فيها لا يتَقَيّد بمذهب البصريين ولا مذهب الكوفيين بل يميل مع الحق أينما ظهر له». اهـ. وهذا هو عينُ الصواب وهو في نظرنا مما مهّد لمقدمته وجعلها تنتشر هذا الانتشار العظيم بين الناس.

وقد كنا وما زلنا مُعجَبين ببعض اصطلاحاته فيها ومنها قوله في النواصب: إن الناصب هو نفسُ كي ولام كي ولامُ الجحود وحتى والفاءُ والواو في الجواب وأوْ؛ فإنه أقربُ للانسجام مع بقية النواصب، وما أثقِلَ تقديرَ أنْ مُضمرَةً وجوباً أو جوازاً وتقريرها للمبتدئين وزَعْمَ أنّ النصب بها لا بهذه الحروف! فلو أن المصنّفين في النحو بعد ابن آجروم درَجوا على هذا المبدأ من تحقيق النظر واعتماد الاختيار من مذاهب النحاة بصريين وكوفيين لسهُل النحو ودنت قطوفه للطالبين ولكنه الجمودُ عمّ فأعمَى والأمر للّه من قبل ومن بعد!

وقد اعتنى العلماء، بهذه المقدمة عناية كبيرة فشرحوها شروحاً عديدة ونظموها أنظاماً مختلفة وشرحوا هذه الأنظام وحشّوْا على الجميع وأعرَبُوها وكتبوا مُتممات لها ووضعوا تمارين عليها، الشيء الذي يفوتُ الحصر ولا يكاد يحصيه أحد.

وأذكر أني في حالة الصبا لما أخذت في طلب النحو

كنت أردد النظر فيما بين عشرة شروح لها أو تزيد فضلاً عن الشرح المقرر الذي كانت به القراءة وهو شرح الشيخ خالد الأزهري رحمه الله.

فمِن أشهر شروحها وهو أول ما كتب عليها شرحُ أبي عبدالله الشريف من أهل فاس وهو شرح مبسوط يعتني بتفسير ألفاظها لفظاً لفظاً ثم يذكر المعنى بوضوح تام ثم يعرب ألفاظها إعراباً كاملاً. ويظهر أن هذا الشرح كان له رواج كبير بين المتعلمين ولذلك شرح الشيخ أحمد الدّقّون شواهدَه الشعرية. ومن شروحها المشهورة شرح الرّاعي النحوي الأندلسي المشهور وهو شرح مبسوط أيضاً كثير الفوائد. ومن شروحها المبسوطة كذلك شرح العلامة السّوداني المشهور وهو عامر بالشواهد والأبيات والفوائد العلمية وعلى هذا الشرح حاشية للعلاّمة المهدي الوَزّاني طُبِعا معاً بفاس، ومن شروحها الواسعة المادة الغزيرة الفائدة شرح الشيخ علي بَرَكة عالِم تطوان المشهور وهو في سفر كبير.

ومن شروحها المختصرة شرح العلاّمة المكُودي النحوي المغربي المشهور وهو مطبوع ولم يقع عليه إقبال كما وقع على شرحه للألفية. ومن شروحها المتوسطة شرح الشيخ خالد الأزهري وهو شرح مفيد وقع الإقبال عليه كثيراً واقتصر طلابها على الدراسة به، وعليه حواشٍ عديدة منها حاشية الشيخ أبي النّجا المِصري ومنها حاشية الشيخ أحمد ابن الحاج الفاسي وهي كثيرة الفوائد مشهورة بين الطلبة ومنها حاشية الشيخ إسماعيل الآبي الأزهري وكلها

مطبوعة. ومن شروحها الشهيرة شرح الشيخ حسن الكَفراوي وهو يعتني بإعرابها الكامل والطلبة يحبُّونه لأنه يُدرّبهم على الإعراب. وعليه حاشية للحامدي طُبِعا معاً بمصر. ومنها شرح العلاَّمة أحمد زيني ومكان مطبوع بمصر وهو مختصر جداً. ومنها شرح العلاَّمة أحمد البرهوني بما أن تسهيل الفهوم لمقدمة ابن آجُرّوم ومنها شرح الأستاذ الكحاك وهذان الأخيران مطبوعان في تطوان وصاحباهما مُعاصران. ومن الحواشي المباشرة على الآجرومية حاشية الشيخ عبدالله العشماوي بمصر.

ومن أغرب الشروح عليها شرحُ الشيخ أبي العباس بن عَجِيبة الصوفي المشهور وهو شرح مزدوج يُشبع الكلام على الناحية النحوية ثم يتبعه بالكلام على الأغراض الصوفية وذلك بطريق الإشارة أعني تنزيل كلام القوم على ألفاظ المقدمة واقتصر على الناحية الإشارية منه العلاَّمة الكُوهَن في شرح سمّاه مُنيةَ الفقير المتجرّد وهو مطبوع. وذكر ابن عسْكَر في ترجمة الشريف ابن ميمون أن له على الآجرومية شرحاً بالتوحيد وربما يكون ابنُ عجيبة نسَج على منواله.

ومما كُتِب عليها في غير أسلوب الشروح كتاب مُتمّمة الآجرومية للعلامة الحطاب وهي بشكل محاذٍ وتكميل وعليها شرح للفاكِهي وآخرُ للأهْدَل طُبع الجميع بمصر ومن ذلك أيضاً كتاب التمارين العصرية للعلامة أقَضْبِي وهو جملة من التمارين والاختبارات تتنزّل عليها قواعد العلم على حسب أبواب المقدمة.

وأما النظم فقد نظمها علي بن حسن الشافعي المُقْري في قصيدة من بحر الطويل وشرحها بشرح سمّاه التحفة البهية.
ونظمها شرف الدين العمْريطي في رجز حُلو يقول فيه:

وبعد فاعْلَم أنه لما اقتصر جلّ الورى على الكلام المختصر
وكان مطلوباً أشدّ الطلَب من الورى حفظُ اللسان العربي
كي يفهموا معاني القرآن والسنةِ الدقيقة المعاني
والنحوُ أولى أولاً أن يُعلَما إذِ الكلام دونه لن يفهما
وكان خيْرُ كُتْبه الصغيرة كراسةٌ لطيفة شهيرة
في عُربها وعُجمها والروم ألّفا الحبْرُ ابنُ آجُرّوم
وانتفعت أجِلّةٌ بعلمها معْ ما تراه من صغير حجمها
نظمتُها نظماً بديعاً مُقتد بالأصل في تقريبها للمبتدي

... إلخ.

وشرح هذا النظم العلامة الباجوري وهو مطبوع كما نظمها الأستاذ ميْمُون موْلى الفخّار في رجز يقول فيه:

والـقـصـدُ مـن ذا الـرّجـزَ الـمـقـرّب
تـعـلـيـمُ أولاد صِـغَـار الـمـكْـتَـب
عـسـى الـذي مـنـهـم بـه تـعـلّـمـا
يـقـولُ يـا ربّ ارْحَـم الـمـعـلّـمـا
لـمـا رأيـتُـهـم شَـقُـوا وتـعِـبـوا
فـي جـمـع مـنـثـور ولـم يـقْـتـرِبُـوا
أيـقـنـتُ أن الـنـظـم فـيـمـا أدري
أشـهـى وأولـى مـن نـفـيـس الـنـثـر

. . . إلخ.

وعلى هذا النظم شرحان لعمّنا محمد بن التهامي كنّون كبير وصغير.

هذا بعض ما أولاه علماؤنا لهذه المقدمة من عناية. ولو ذهبنا نستقصي كل ما كُتِب عليها من شرح وتعليق لطال بنا الكلام.

وأما علماء الغرب فلم يألوا اهتماماً بها، شأنهم في كل كتاب له قيمة علمية من كتب العرب وقد طبعوها مراراً عديدة وترجموها إلى لغاتهم كاللاتينية والإنجليزية والألمانية والفرنسية وكانت أولى طبعة لها بروما سنة ١٥٩٢، انظر: دائرة المعارف الإسلامية ومعجم المطبوعات.

وللمترجم رحمه الله من غير المقدمة شرح على (حِرْزِ الأماني) المنظومة المعروفة بالشاطبية في القراءات، لأنه كان ذا قَدم راسخةٍ في هذا العلم أخذه الناس عنه وانتفعوا به

فيه، وقد رأيت في بعض شروح الخرّاز أنه ممن أخذ عن المترجم.

وله أيضاً أنظام في علم القراءات منها رجَزٌ في قراءة نافع سمّاه (البارع) فرغ منه في عام ٦٩٦ كما بآخره نظْماً. وأوله:

يقول من عفو الإله راج	وعونَه محمدُ الصّنهاجي
اللّهَ أحمدُ الذي هدانا	ومَنّ أن علّمنا القرآنا
وخصّنا بأكْرَم البَريئَة	محمد وخاتم النّبوءة
صلّى عليه الله مِن رسُول	وصَحْبِه طرًّا ذوِي التفضيل
وبعدُ فالقصدُ بهذا الرجز	مَقْرَأُ نَافِع بلفظٍ مُوجَز

... إلخ.

ولا شك أن له غيرَ ذلك ولم نقف إلا على ما ذكر.

وكانت وفاته رحمه الله يوم الأحد بعد الزوال لِعشر بقيت من صفَر عام ٧٢٣، ودفن من الغد بعد صلاة الظهر بباب الجِيزيين وهو المعروف اليوم بباب الحَمْراء عن يمين باب الفتوح. كذا لجميع مَن ترجموه. وفي حاشية العلامة ابن الحاج أنه توفي يوم الإثنين، ولعله اعتبر يوم الدفن فقط والعلم لله.



ابن الحاج الفاسي
(ت ٧٣٧ هـ)

ولادته ونشأته، شيوخه الذين أخذ عنهم، هجرته إلى المشرق وتقدير تاريخها، من دواعي ضياع ترجمته، أسرة بني الحاج العبدرية، تصدره، مدرسة أرباب القلوب، الآخذون عنه، كتابه «المدخل» تحليله وتقويمه، تاريخ فراغه منه وتاريخ وفاته، نقول مختلفة عنه، صور من المجتمع المغربي على عهده، فصل في تربية الأولاد.

لم يكن اهتمام الناس بابن الحاج الفاسي صاحب كتاب المدخل على قدر اهتمامهم بمدخله، فقد اشتهر هذا الكتاب وانتشر ما بين الأوساط العلمية والعامية منذ أواسط القرن الثامن أعني من لدن فراغ مؤلفه منه، ولكن ذلك لم يكن باعثاً لأحد على البحث عن ترجمة ابن الحاج هذا وتقصّي أخباره وتتبُّع آثاره على حسب ما تقضي به مكانته العلمية والدينية التي كان هذا الكتاب ثمرة من ثمراتها الناضجة. وعلى ذلك فنحن أمام اسم من أشهر الأسماء وحياة لا نعرف من تفاصيلها شيئاً وإن تكن لصاحب ذلك

الاسم المشهور، فلعلنا نكشف شيئاً من أسرارها في هذه السطور.

ولد أبو عبدالله محمد بن محمد بن محمد العَبْدَري الفاسي الشهير بابن الحاج ببلده فاس على ما نظن في أواسط القرن السابع لأنه توفي سنة ٧٣٧، وقد بلغ الثمانين أو جاوزها على ما عند ابن حجر في الدرر الكامنة، وفي الطبقات الكبرى للشعراني أنه عاش بضعاً وثمانين سنة. وقد نشأ ودرس أولاً ببلده وإن كان هو لا يذكر من مشايخه الفاسيين إلا أبا عبدالله الفاسي الذي هو لشيوخ الصوفية أقرب من شيوخ العلم.

وثمّ شيخ آخر من أهل تلمسان يذكرون أنه أخذ عنه وذكره هو في صدد التنويه بورع أهل العلم وإن كنا لا ندري أين أخذ عنه، وهذا الشيخ هو أبو إسحٰق التنيسي من أهل العلم والعمل الذين تغلب عليهم النزعة الصوفية أيضاً.

وأما عمدته وسنده الذي لا يلهج إلا به ولا يستوحي مُثُلَه إلا منه فهو أبو محمد عبدالله بن أبي جَمْرة الفقيه المحدث الزاهد المعروف وهو أندلسي ولا ندري أين لقيه أول مرة، وإنما نعرف أنهما تصاحبا في مصر زمناً طويلاً، وكان أول ما جاء للقراءة عليه. قال له ابن أبي جمرة: «أما تقرأ على العلماء؟»، فقال ابن الحاج: «أريد أن أقرأ عليك»، فقال له: «كيف تترك العلماء وتأتي تقرأ على مثلي؟»، فقال: «أريد أن أقرأ عليك»، فقال: «استَخِر الله تعالى»، قال: «فاستخرت الله تعالى ثم جئت إليه فقلت:

اقرأ! قال: عزمت؟ قلت: نعم! فقال لي: لا يخطر بخاطرك ولا يمر ببالك أنك تقرأ على عالم ولا أنك بين يدَي شيخ إنما نحن إخوان مجتمعون نتذاكر أشياء من أحكام الله تعالى فعلى أي لسان خلق الله الصواب والحقّ قَبِلْناه وإن كان صبياً من المكتب».

ويظهر من هذا الكلام أنه لما لقيه كان على جانب من العلم وإلا لم يقل له ابن أبي جمرة إنما نحن أخوان! وهذا الكلام بقدر ما يدل على تواضع ابن أبي جمرة يدل على حسن نظر ابن الحاج في اختيار الشيخ الذي يتتلمذ له.

وهناك أيضاً من الشيوخ الذين أخذ عنهم وأثروا كثيراً في مجرى حياته الشيخ أبو محمد عبدالله بن محمد المَرْجاني وهو من أهل تونس، وقد كانت رحلتهما إلى المشرق في وقت واحد كما يؤخذ من الحكاية التي ذكرها في المدخل عن هياج البحر واضطراب المركب بهم ولجوء أهل المركب إلى الشيخ فأمرهم بالصدقة واحتازها منهم ووزعها على الفقراء الذين بالمركب فسكن البحر، بل إن عبارته تعطي أنه خرج في صحبة هذا الشيخ من أول وهْلة، فهو إذا كان السبب في هجرته إلى المشرق وذلك غاية ما يكون من تأثير الأستاذ على تلميذه.

ولم يذكر مع الأسف تاريخ هذه الرحلة على عادته في جميع الأحداث التي يتعرض لها لأنه إنما يقصد فيها لوجه من الاعتبار وشيء من الاستذكار ولا يريد بحال الحدث الزمني والواقع التاريخي.

وذكر ابن حجر أنه لما قدم لمصر سمع الموطأ من الحافظ تقي الدين عبيد الأسعردي وحدّث به والأسعردي هذا توفي سنة ٦٩٢، وعليه يكون قدوم ابن الحاج إلى مصر قبل هذه السنة، ولو أنا جعلناه قبلها بعام فقط لكان قد أقام بها أربعين سنة وهي مدة تقرب من نصف عمره فكيف إذا كان قدم إليها قبل ذلك بكثير؟

والمقصود من هذه الملاحظة أنه خرج من بلاده قبل أن يشتهر وأقام ببلد غربة فلذلك لم تتوفّر الدواعي على كتابة ترجمة مستوفاة له، وهو كان من الهَضْم لنفسه بالمكان الذي يجعله لا يتحدث عن شخصه ولا يذكر من ماجَرَيات أحواله إلا ما فيه عبرة للقارىء لا فائدة المؤرخ وهكذا ضاعت معالم ترجمته كما ضاعت تراجم كثير غيره ممن كان على هذه الحال ومن المغتربين.

ورأيت في رحلة ابن رُشَيْد رواية عن أحد الشيوخ اسمه أبو عمرو عثمان بن محمد بن عبدالله بن إبراهيم العَبْدري الفاسي عرف ابن الحاج كان حياً في العشرة السادسة من القرن السابع فهل يعني هذا أنه كان بفاس أُسرة علمية منسوبة إلى بني عبد الدار وتُعرف ببني الحاج كما أن هناك أُسرةً بهذا الوصف منسوبة إلى بني سُلَيْم وتعرف ببني الحاج أيضاً؟ وإذا كان هذا صحيحاً فماذا يكون مُتَرجَمُنا من هذا الشيخ في صلة النسب؟ إننا لا نستطيع الإجابة عن شيء من ذلك لأن مصادر ترجمة ابن الحاج هذا قليلة جداً وشحيحة جداً.

وعلى كل حال فقد وصلنا من هذه التحرّيات إلى أنه ولد ونشأ بفاس وأخذ عن بعض أعلامها فشدا طرفاً من العلم قبل أن يرحل إلى المشرق وربما أخذ بتلمسان أيضاً عن بعض أعلامها وصحب الشيخ أبا محمد المرجاني في تونس ورافقه في رحلته إلى المشرق، ويكون لِزاماً علينا أن نقول: إنه حجّ في رحلته هذه ثم استقرّ بمصر حيث لازم الشيخ ابنَ أبي جمرة إلى أن توفي في سنة ٦٩٩ فحلّ محله في الهداية والإرشاد.

وقد أجمع من ترجموه على أنه كان أحد العلماء العاملين المشهورين بالزهد والورع وأن صحبة أرباب القلوب عادت عليه بالخير والبركة فلُوحظ بالجلالة والمشْيَخة وقام على ساق الجد في إحياء السنة وإماتة البدعة وهدى الله به إلى طريق الحق والرشاد خلقاً كثيراً. وعبارة أرباب القلوب هذه مما اختصت به أو كادت الجماعة التي تتألف من بعض شيوخ المترجم كالمرجاني وابن أبي جمرة وبعض شيوخ هذين أيضاً ويمثلها هو أحسن تمثيل، ولقد كوّنت هذه الجماعةُ طريقةً أو قُلْ مدرسة هذا شعارها؛ فهي كانت تعنى بأعمال القلوب أشد العناية وتعمل على تنمية الأجور بالنيات الحسنة فضلاً عن ملازمة سبيل السنة في الحركات والسكنات وإسقاط الدعوى بالمرّة وتحكيم الشرع في البواطن والظواهر وعدم الاغترار بلوائح الغيوب أو الكرامات ومن ثم كانت هذه الطريقة أبعد الطرق الصوفية عن الانحراف وأنجاها من الضلال وقد جعلها الشيخ زروق في قواعده طريقةَ الفقهاء حيث قال: «وللفقيه تصوُّف رامَه ابنُ

الحاج في مَدْخله» وحُبِّب إلينا نحن أن نسميها مدرسة لا طريقة لبُعْد ما بينها وبين الطرق في الوسيلة والمقصد وكان الشيخ زروق ممن سار على هديها في القرن التاسع وكذلك الشيخ ابن ناصر في القرن الحادي عشر والشيخ كَنّون في القرن الثالث عشر[١].

أصبح ابنُ الحاج من العلماء الذين يشار إليهم بالبنان في مصر وصارت إليه مشيخة هذه الجماعة من أرباب القلوب، وبما أنها جماعة قليلة لأنها ممن يصدق عليهم قول الرسول ﷺ: **«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق»**، فإنّا نجِد قِلّةً في الآخذين عنه والمتخرجين به وإن كانت هذه القِلةُ مما يرجح بالكثرة في ميزان الفضائل النفسية والرسوخ في العلم والعمل؛ ناهيك منها بالشيخ عبدالله المنوفي إمام أهل العلم والورع في وقته وبالشيخ خليل بن إسحٰق الجندي الفقيه الزاهد عمدة المالكية صاحب المختصر الفقهي المشهور. قال ابن حجر: «كان أبوه حنفياً لكنه كان يلازم الشيخ أبا عبدالله ابن الحاج ويعتقده فشغّل ولدَه مالكياً بسببه»، فلو لم يكن ممن أخذ عنه وتخرّج في مدرسته إلا أحد هذين الفاضلين لرجح بالعدد الكثير الذي لا غِنَاء فيه فكيف بهما معاً وقد ذكر ابن حجر في ترجمة شمس الدين الرقّاء الملقب حَمام الحرَم أنه كان يذكر أنه سمع المدخل لأبي عبدالله ابن الحاج منه فهذا تلميذ آخر للمترجم على

---

(١) ونشير للمناسبة بأن طبع كتاب المدخل لأول مرة كان على أصل من خزانة الشيخ كنون كما حدثني بذلك بعض الأعلام.

نهجه وطريقته ولا تغفل عما في هذه الصيغة «كان يذكر أنه سمع المدخل. . .» من إكبار لشأن هذا السماع!. . .

والمدْخَلُ هو كتاب ابن الحاج الوحيد الذي وصل إلينا بل لا نظن أنه ألّف غيره وهو نفسه كان عُرضَة للعدم لو لم يُقيّض الله له أحد الفضلاء ممن عرف قيمته فأُنقِذ على يده، والحكاية كما ذكرها مؤلفه هي أنه لما بلغ فيه الكرّاس الثاني عشر حصل له قلق وانزعاج في أخذ العلم عنه قال: ولست عند نفسي أهلاً لذلك». ولا يخفى ما في هذا من الهضم لنفسه والتواضع الجم وإسقاط الدعوى مما هو من صفات هذه الطائفة كما تقدمت الإشارة إلى ذلك. ثم قال: «فعزمت على أن أُعدم تلك الكراريس فأخذتها وشددت عليها ودفعتها لبعض الأخوان وقلت له: يثقلها بحجر ويلقيها في البحر فمكثت عنده أكثر من عام. ثم جاء الفقيه الخطيب أبو عبد الله محمد بن عبدالمعطي المعروف بابن سَبُع خطيب جامع الظاهر بالحسينية وفّقه الله وإيانا فطلب الكراريس فأخبرته بما جرى فشقّ عليه وقال لي: اسأل عنها فلعله أن يكون لم يفعل ما أمرته به إلى الآن فقلت له: إن له مدة، فقال: ولعل أن تكون قد بقيت فسألت الشخص الذي أمرته بتغريقها فقال لي: هي باقية إلى الآن، فسألته عن موجب تركه لها فأخبر أنه وضعها في موضع في بيته حتى يتفرغ فيلقيها في البحر، قال: فعزمت على ذلك مراراً ثم إني أنسى وهي إلى الآن عندي لم أغرقها بعد فطلبتها منه وأخذتها ودفعتها للفقيه الخطيب المذكور فطالعها ثم أتاني بها فقال لي: يحرم عليك إتلافُها، وحضّني على

إتمامها وسألني مراراً أن أعين اسمه فيها وأنه كان داخلاً في جملة من أعان عليها لكي يدعى له لكونه كان سبباً في إتمامها» إذن فنحن مَدينُون بإتمام هذا الكتاب وبقائه لهذا الفاضل. ولذلك لا نظن أن يكون لابن الحاج غيره. ولعل معركة حامية نشبت بينه وبين ابن سبع في شأن الإبقاء على هذا التأليف وفي مسألة التأليف من أصله وطرق الدعوة والتبليغ ولذلك نجده يلح عليه في ذكر اسمه في جملة مَن أعان على إتمام الكتاب وإنقاذه من العدم لينال بركة الدعاء ممن يقف عليه وليشجع المؤلف بتحمُّله مسؤولية إخراجه للوجود فرحمه الله على ذلك.

وكانت فكرة هذا الكتاب مما أوصى به إليه أستاذُه ابن أبي جمرة كما ذكره هو في أوله، وحقيقتها وما تهدف إليه هو العمل على إيجاد مجتمع صالح أشبه بما فكر فيه الفلاسفة الأقدمون من المدينة الفاضلة ولكن عن طريق التديُّن والتشرُّع بتجريد الأعمال صغيرها وكبيرها ولو كانت عادية من المقاصد الخاصة وإلباسها بالنية الحسنة لباسَ المقاصد العامة فيكون الإنسان في عمله الذي يكسب به قُوتَه وهو كأنه في عبادة لا تنقطع بما يحتسب من النيات العديدة التي يكتسب بها الأجور العظيمة.

وليس هذا أمراً جديداً في هذه الفكرة فإنه مما وردت به السنة وكثُر حديثُها عنه ولكن الجديد فيها هو تفصيل هذه النيات والتوسع في بيانها مما لا يُمكِن أن يخطر ببال كل واحد ويستحضره كل محترف، فالتوقيفُ عليه وتلقينُ جزئياته التي لا تنحصر هو الجديد وهو موضوع الكتاب.

ولعل القارىء لا يدرك وجه الارتباط في الفكرة بين تحسين النيات وإيجاد مجتمع صالح على نحو ما فكر فيه الفلاسفة المتقدمون ولكن إدراك ذلك جِدّ سَهْل إذا علم ما تُحدِثُه هذه النياتُ في نفس المرء من الانعطاف نحو بني جنسه وإخلاص النصح لهم وتكريس جهوده لتيسير مصالحهم فهو يعُدّ نفسه عضواً من جسم واحد لا يمكن أن يسعى إلا في منفعة ذلك الجسم وراحته ولا يمكن أن يصدر منه ما يؤذيه أو يضُرّ به. قال في أثناء كلامه على صناعة الخياطة وما يجب على صاحبها من الاحتياط لدينه والنصح لإخوانه:

«فإن قال الصانع مثلاً إذا تحرزت مما ذكرتموه ذهبت المعيشة أو قلّت والحاجة تدعو إلى الصنعة لأجل الضرورات والعائلة وقَلّ أن تتأتى الصنعة مع ما ذكرتم فالجواب أن التحرز من تلك المفاسد هو الذي يجلب الرزق جلْباً ويسُوقه سوْقاً لأن الله تعالى مع المتقين الموفين بالأمانة، ولا شك أن مَن نصح في صنعته فقد نصح لأخوانه المسلمين ومَن فعل ذلك كثر الحلال لديه لأنه إذا عُرف بذلك بادر إليه أهل العلم والصلاح وكان كثير من أشغالهم على يديه وكسبهم على ما يعلم من الحلال يعين على الطاعة ويُكسل عن المعصية كما تقدم. فإذا امتثل الخياط ما تقدم ذكره ومشى على ما وقع التنبيه عليه أو على أكثر منه وتحرى لنفسه فلا يبالي في أي وقت يفجؤه الموت ليلاً كان أو نهاراً كان في دكانه أو في بيْته كان في صنعته أو في صلاته لأنه متى جاءه الموت وجده على الاستقامة والطاعة والامتثال لأمر الله ونهْيه كما تقدّم».

وقال في فصل تاجر البَزّ: «قد تقدّم أن الرزق لا يسوقه حرصُ حريص ولا يجلب بالحِيَل والتدبير. ألا ترى أن كثيراً ممن لا يحسن التصرف؛ المال لديه كثير وعكسه ممن يحسن التصرف بسبب حذقه ونباهته فقير لا شيء له. وكذلك تجد بعض مَن لا يحسن صنعةً لديه الرزق كثير وبعض مَن يحسن صنائع جملة لا يقدر على قوت يومه إلا بمشقة وتعب إلى غير ذلك من أحوالهم وهي كثيرة. وإذا كان ذلك كذلك فيتعين على التاجر أن يجلس بنية التيسير على إخوانه المسلمين وإعانته لهم بما يحصله في دكانه من السلع حتى يأتي مَن هو مضطر أو محتاج فيجد حاجته متيسرة دون تعب لأن بعض الناس يحتاج إلى عشرة أذرُع مثلاً أو أكثر من ذلك أو أقل فلو كلف هذا أن يشتري سوسية أو مقطعاً على الكمال حتى يأخذ حاجته منه لشقّ ذلك عليه وصعب، فإذن قد تعيّن أن ما يحاوله في دكانه من باب التيسير على إخوانه المسلمين وقد تقدم قوله عليه الصلاة والسلام: «**والله في عوْن العبد ما دام العبدُ في عوْن أخيه**...» ثم مضى في بيان نيات هذا التاجر ومعاملته مع زملائه وجُواره في السوق ومع زبائنه والمشترين منه رجالاً ونساءً مما يطول تتبُّعه، ومدارُه كغيره من الصنّاع والمحترفين على النصح والإخلاص واستحضار أنه متعبّد بفعله ذلك وسببه.

هذه هي فكرة التأليف في أصلها وإن كان قد خرج عنها إلى ذكر البدع وحوادث الوقت والتشنيع على أهلها وزجر مرتكبيها كما أنه ردّ في الجزء الأول على تأليف

لبعضهم في جواز القيام للداخل ولأهل الفضل مطلقاً فأشبع الكلام في إبطال حجج هذا المؤلف بما لا كفاء له في الحسن والقوة وقد استغرق رده هذا ما ينيف على مائة وخمسين صفحة. وكذلك رد في الجزء الرابع على تأليف لآخر في تجويز صلاة الرغائب في المسجد فتتبعه بنقض أدلته وإثبات أن ذلك بدعة منكرة لا قائل بها قبل هذا المؤلف ولا دليل عليها من كتاب أو سنّة وقد أطال في ذلك أيضاً ولكن دون رده الأول.

والحقيقة أن خروجه هذا عن فكرة الكتاب الأصلية هو توسُّع في أغراضه وشرح لمُراده وليس حشْواً ولا استطراداً، على أن اسم الكتاب مما يشمل هذه الأمور كلها ويستوفيها استيفاء وهو (المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على بعض البدع والعوائد التي انتحلت وبيان شناعتها وقبحها). وقد كان القسم الثاني من مقاصد الكتاب مَثار نزاع لا يخلو منه مَن ألّف في البدع فلم يسلم له العلماء كل ما فيه ونبّهوا على أنه ينبغي التحفظ في بعض ما أنكره وعدم الأخذ بقوله في ذلك حتى عمل منه الشيخ أبو العباس بنُ عَجيبة مختصراً في نحو الخمسة كراريس اقتصر فيه على نيات العامل من مدرس وصانع وتاجر ومحترف على ما كان يقتضيه الوضع الأول للكتاب.

يقول ابن حجر فيه: «وجمع كتاباً سمّاه المدخل كثير الفوائد كشف فيه عن معايب وبِدَع يفعلها الناس ويتساهلون فيها وأكثرها مما يُنكَر وبعضها مما يُحتمَل».

وفي ترجمة ابن أبي جمرة من نيل الابتهاج أن الإمام ابن مرزوق الحفيد ذكر في شرحه على مختصر خليل أن ابن أبي جمرة وتلميذه ليْسا من الأئمة المعتمَد عليهم في نقل المذهب. قال: هكذا رأيته في شرحه مُعترضاً به على خليل ولا يخفى أن خليلاً يعتمد على صاحب المدخل ونقل عنه في التوضيح في غير موضع فتأمل ذلك.

ولعل كلام ابن مرزوق هذا مما يؤول إلى قول ابن حجر في المسائل التي تحتمل فهي مما لا بأس به عند الفقهاء ولكنها عند أرباب القلوب مُنكَر لا هَوادةَ فيه كمسألة القيام والسماع والذكر جماعةً وصلاةِ الرغائب في المساجد ونحو ذلك، أما إذا كان يقصد غير ذلك فهو من التعصب المذهبي الذي كان ابن الحاج خلْواً منه وحذر كثيراً منه في كتابه ولعلنا ننقل بعض كلامه في ذلك.

ومما يحسن ذكرُه في التعريف بقيمة المدخل أنه يعطي صورة واضحة عما كان عليه المجتمع الإسلامي في مصر والبلاد الشرقية على العموم في القرن الثامن الهجري من انحلال في الأخلاق وخراب في الذمم وابتداع في الدين وذلك على عكس ما كان عليه الحال في المغرب في ذلك كله أو جله فإن المُفَارقات التي يذكرها بين البلادين في هذا الصدد تعطي أن المغرب كان على قدَم صِدْق في دينه وأنه كان أقرب حالاً إلى الإصلاح من كل قطر إسلامي غيره وأن القانون الخُلُقي فيه كان دائماً هو السائد في علاقات الناس بعضهم مع بعض والسبب في ذلك هيمنةُ أهل العلم والصلاح على المجتمع وبناء الأحكام وسياسة البلاد على

القانون الفقهي الإسلامي الذي استنفد من جهود الباحثين في المغرب ما لم يستفده علْمٌ سواه وسنعرض لأمثلة مما ذكره شاهداً في هذا المقام.

وثم فوائد أخرى مما امتاز به المدخل وهي مما يرجع إلى نظر سديد للمؤلف في بعض المسائل أو تأويل حسن لبعض النصوص أو تنبيه على بعض النكت الخفية وغير ذلك من أدلة عالِمِيّته وتعمُّقه في البحث والنظر.

وإن ننسَى فلا ننسَ أسلوبه الكتابي السهل الممتنع الذي قَلّ أن يوجد له نظير في كتابات الفقهاء أمثاله فإنك تقرأ له الصفحة والصفحتين ولا تشعر بأدنى تعب أو قلق في الفكرة أو الصورة الكلامية التي يؤديها بها فإذا ما نقل كلاماً لغيره شعرت للحال بالفرق العظيم بينه وبين كلامه وجعلت تتلمس الفائدة منه والغرض الذي لأجله جاء به، وفيما ننقله من كلامه بعد برهان واضح ما نقول.

وقبل أن نستعرض النماذج التي اخترناها من المدخل كشواهد على ما قدّمناه من الآراء والأفكار نختم الكلام عن ابن الحاج بأنه لم يزل على ما عُهد منه من الانقطاع للعبادة والوقوف عند حدود الشريعة إلى أن اخْتَرَمَتْهُ المنية في جمادى الأولى من سنة ٧٣٧ عن بضع وثمانين سنة على ما تقدم وكان قد أضَرّ في آخر عمره وأُقعِد رحمه الله ونفعه بذلك. وفرغ من تأليف المدخل في ٧ محرم عام ٧٣٢ قبل وفاته بخمسة أعوام وأشهر.

وإلى القارئ الآن بعض الفصول المختارة من هذا

الكتاب المفيد، فمن ذلك هذا الفصل في حض العالم على تعليم الناس السنة وعدم الاقتصار على أقوال الفقهاء:

«(فصل) وينبغي له أيضاً أن يتفقد إخوانه وجلساءه في أثناء المسائل والفروع بمعرفة السنّة والعمل بها والتنبيه عليها ومعرفة فضلها وعُلُو قدرها وقدر مَن يعمل عليها ويتبعها والتجنُّب عن البدعة والتحذير منها وما يحصل بها من المقْت لفاعلها، فإن هذا العلم اليوم هو الأصل وهو الذي يتعين فرضَ عين على أكثر الناس، لأنّا نجد كثيراً من طلبة هذا الزمان يقعدون في مجالس العلماء وهم صغار ثم يَشِيبون وهم على ذلك الحال من حضور المجالس، وقلَّ أن تجد منهم مَن إذا ذُكِرت له سُنة أو بدعة يعرفها أو يتنبّه لها لما قد تربّى عليه من ترك هذا الفن إلا قولَه إن كان حاذقاً نبيهاً: ذهب الشافعي إلى كذا وذهب مالك إلى كذا وقال ابنُ القاسم كذا وقال الرّبيع كذا فيبحث في بعض الفروع ولا يعرف غير ذلك. وهذا قبح عظيم شنيع أن تكون هذه الطائفة المنسوبة تسأل أحدهم عن السنة في بعض تصرُّفه لا يعرفها أو بدعة في زمانه لا يعلمها بل يحتج على جوازها لأجل العوائد المستمرة كما تقدم، فإذا نبهَهم على ما ذكر تيقظوا للسنة في تصرفهم فأحبُّوها وتنبّهوا للبدعة فأبغضوها وهذا اليوم متعين على كل من يتكلم في مسألة فكيف بهذا العالم الذي قعَد يُعلّم الأحكام وواجب عليه التغيير باللسان، فإذا تكلم بذلك في مجلسه عُرفَت السنة إذ ذلك منه وعُرفت البدعة، وأقل ما يحصل فيه من الفائدة أن يبقى كل مَن حضر يعلم من أي قسم هو وفي أي شيء يتصرف وهل هو

في سنة أو في بدعة. وهذا خير عظيم لبقاء هذا المنصب الشريف نظيفاً لا يُنسب إليه غير ما هو فيه، فتزول بسببه هذه الثلمة التي وقعت لنا في زماننا من البدع المحدثة التي تنسب إلى أنها من السنة. فإذا نبّه عليها هذا العالم عُرفت ومع ذلك فالأكثر منهم يتبع ويمتثل لأن الخير والحمد للّه لم يُعدَم من الناس وإن عدم في بعضهم فهو موجود في آخرين».

وهناك ما كتبه في ذَمّ التعصب المذهبي أثناء كلامه على آداب المدرس:

«ثم يوجه مذهبَهُ وينتصر له، وذلك بشرط التحفظ على مَنصِب غير إمامه أن ينسُب إليه ما ينسب بعض المتعصبين من الغَلط والوهْم لغير إمامة.

فإن كنت على مذهب مالك مثلاً فلا يدخلك غضاضة لمذهب الشافعي أو غيره من الأئمة رضي الله عنهم لأنهم الكل جعلهم الله رحمة لك لأنهم أطباء دينك كلما اعْوَجَّ أمر في الدين قوّموه، وكلما وقع لك خلل في دينك اتفق الكل على ذهابه عنك وتلافي أمرك وإصلاحه واختلفوا في كيفية الدواء لك على ما اقتضى اجتهاد كل واحد منهم على مقتضى الأصول في تخليصك من علتك وحِمْيَتِك وإعطاء الدواء لك، فإذا رجعت إلى طبيب منهم وسكنتَ إلى وصفه وما اقتضاه نظرُه من المصلحة لك فلا يكن في قلبك حَزَازة من الأطباء الباقين الذين شفَوْا مرض غيرك من إخوانك المؤمنين وقد أقامهم الله لمصلحة الأمة وتدبير دينهم فإياك إياك أن تجد في قلبك حزازة لبعضهم وإن قام لك الدليل

ووضح على بطلان قول من قال، لأن مَن قال ما قال ما قاله مجّاناً بل مستنداً إلى الأصول ولو كان حاضراً يبحث معك لرأيت مذهبه هو الصواب لما يظهر لك من بحثه واستدلاله.

ألا ترى إلى قول مالك رحمه الله لما أن سئل عن أبي حنيفة فقال: رأيته رجلاً لو أراد أن يستدل على هذا العمود أنه من ذهب لفعل، فيكون قلبك واعتقادك مع لسانك مُجلاً لهم ومعظّماً ومحترماً وإن كنت قد خالفتهم بالرجوع إلى إمامك في بعض الفروع فإنك لم تخالفهم في أكثر الفروع فالأصول قد جمعت الجميع والحمد للّه.

ألا ترى إلى جواب مالك رحمه الله للخليفة لما أراد أن يكتب إلى الأقاليم بكتاب الموطأ وبالأمر أن لا يقرأ أحد إلا إياه فقال له مالك: لا تفعل يا أمير المؤمنين فإن أصحاب النبيّ ﷺ قد تفرقوا في الأقاليم وقد أخذ الناس عنهم، فانظر هذا الكلام منه مع اعتقاده فيما ذهب إليه أنه هو الأولى والأرجح على مقتضى الأصول والنظر فلم يطعن على ما ذهب إليه غيرُه ولم يَعِبْه ولم يقل الأولى أن يرجع إلى ما رأيته فيكون هذا العالم يتأسى بهذا الإمام في التسليم لمذاهب الناس في الفروع والأحكام مع اعتقاد الصواب فيما ذهب إليه دون تغليط غيره أو توهيمه».

ومما سجله من المفارقات بين الحالة الاجتماعية في المشرق وبينها في المغرب:

١ ـ العلماء في المشرق يتنوّقون في اللباس ويتميزون

بهيئة مخصوصة حتى أن بعضهم ليَغْرِزُ الأُبَر في الطيْلسان مع العمامة كي لا يكشفه الهواء كما تفعل النساء، ومنهم من يفصل من كمه ثوبٌ لغيره من كثرة سَعته وقد أدى ذلك إلى أن بعض المُخايلين من أهل اللهو واللعب إذا عملوا الخيال بحضرة بعض العوام وغيرهم في بعض الأوقات يُخرِجُون في أثناء لعبهم لعْبة يسمونها (بابة القاضي) فيلبسون زيّه من كبر العمامة وسعة الأكمام وطولها وطول الطيلسان فيرقصون به ويذكرون عليه فواحش كثيرة ينسبونها إليه فيكثر ضحك من هناك ويسخرون به ويكثرون النّقوط عليهم بسبب ذلك فلو أنهم اتبعوا السنة المطهرة لسلموا من هذه الإهانة. . . مع أن علماء المغرب إلى الآن لا يعرفون ثياب الدروس ولا يعرجون عليها فالحمد لله (الذي) بقي من الأمر بقية تعرف في بلاد المغرب العالم الكبير المرجوع إليه في الفتوى والمقلد في النوازل الذي يحضر عنده من الفقهاء الجمع الكثير إذا قعد لأخذ الدروس لا يعرف من بينهم بل هو أقلهم لباساً لأنه أزهدهم وأورعهم فهو أقلهم تكلُّفاً من الدنيا وربما يخرج للسوق لشراء حاجته بيده لأنهم لا يتخذون لأنفسهم خادماً ولا يتخذون مركوباً بل يحمل أحدهم حاجته بيده وربما اجتمع في يده الخضرة والكانون واللحم والعجين وغير ذلك، وربما أتاه القاضي بجماعته ليستفتيه في بعض النوازل وهو على تلك الحالة في السوق فيقف معهم ويفتيهم وهو على تلك الحالة ثم يرجعون ويمر هو إلى بيته وليس فيهم من يجسر على أن يأخذ شيئاً من يده أو يمشي معه اتّقاء على خاطره وعملاً على ما يختاره منهم وإذا تفرق

الناس عنه من الدرس خرج وحده لا سبيل إلى مَن يتبعه اتقاء على خاطره.

ويذكر بعد ذلك مخالطتهم للعوام ومداخلتهم لهم في البيع والشراء والأخذ والعطاء وتخصيصهم الأوقات التي يكون العوام فارغين فيها للدروس العامة كبَعْدَ صلاة الصبح مباشرة وغير ذلك من الأمور التي تعود بركتها على الناس كافة حتى قال: «ألا ترى إلى ما جرى للإمام الطّرْطُوشي رحمه الله تعالى وكان من المتأخرين لما أن ورد الديار المصرية ليحج، فلما أن حجّ ورجع وجد الديار المصرية شاغرة من العلم ولا يتكلم أحد في مسألة جهاراً ولا يقدر أن يمسك في يده كتاباً لغلبة الأمر من السلطنة على ترك ذلك لبدعة كانت فيهم تديّنوا بها، فلما أن رأى الإمام الطرطوشي رحمه الله هذا الحال ودّع رفيقه من الإسكندرية وأرسل السلام إلى ولده بالمغرب وقال: هذه بلاد لا يحِلّ لي أن أخرج منها لِمَا غلب فيها من الجهل فجعل رحمه الله يقعد على دكان بَيّاع فيعلمه ما يحتاج إليه في عقيدته وفرائض وضوئه وسننه وفضائله وكذلك تيمُّمه وغسله وصلاته ثم ينظر لما عنده من السلع فيعلّمه ما فيها من الأحكام التي تلزمه وكيفية تَعاطِيه بيْعَها وشراءها وكيفية دخول الربا عليه والسلامة منه إن كان مما فيه الربا، فإذا فرغ منه يقول له: عَلّم جارَك، ثم ينتقل إلى دكان آخر حتى قام العلم على مناره وزال الجهل في حكاية يطول ذكرها... إلخ.

وهنا نتساءل هل كان هذا هو السبب في إقامة

المترجم أيضاً بتلك الديار وعدم رجوعه إلى وطنه؟

٢ ـ المساجد تجد الجامع الأعظم في غالب الأوقات إذا صلّى الإمام يستره عوامّ الناس ممن لا يعرف العلم وقد يطرأ عليه سهو فلا يجد مَن يُسَبّحُ له ومَن يستخلفه إن جرى عليه أمر يحوجه للخروج من الصلاة فيكون سبباً لإفساد صلاة المأمومين، ثم إنك إذا نظرت إلى الصف الأول لا تجد فيه في الغالب مَن يُقتَدى به عكس ما كان عليه السلف والخلف رضي الله عنهم أجمعين وقد قال عليه الصلاة والسلام: **«لِيَلِني منكم أولُو الأحلام والنهى»**. . .

وهذه سنة قد أمِيتَت وتُرِكت في الغالب في هذا الزمن لكن والحمد للّه بقي منها بقية خير قائمة بهذه الشعيرة في بلاد المغرب فإنك تجد بها المساجد مُصانَة مُرفَّعة عظيمة لا ترفع فيها الأصوات ولا تُدخَل إلا للصلاة أو لمجالس العلم. وما قدّمناه من الترتيب في الصف الأول وغيره فهم مَاشُون على ذلك الأسلوب أو قريب منه ولهم عادة حسنة وهي أن الذين يعمرون الصفوف الأمثلُ فالأمثَل لكن الذين يسترون الإمام هم أكثر امتيازاً من غيرهم في الفضل والدين وهم معلومون قلّما يغيب أحد منهم فإن غاب لضرورة قدّموا موضعه مَن هو مثله أو يقاربه فيصلي الإمام وهو مطمئن القلب مما يطرأ عليه في صلاته إذ أنهم في الفضل والعلم بحيث لا يغفلون عن حركاته وأحواله، وهذا عكس ما الحال عليه اليوم حتى أنه لو حضر أحد ممن يقتدى به في المسجد لرأيته بعيداً من الإمام وقد لا يُصلي في الصف الأول ثم مع ذلك تتقدمه السجادة. . .

«وقد كان سيدي أبو محمد (ابن أبي جمرة) رحمه الله يقول: إذا أخذك وقتُ الصلاة بمسجد من المساجد، فإن كنت في بلاد المغرب فصلِّ حيث كنت وليس عليك إعادة وإن كنت في الديار المصرية وما أشبهها فيقع التفصيل بين أن تَعْلَم حال الإمام أم لا؟! فتعمل على ما تعلم من حاله فإن كان فيه أهلية مضت صلاتك وإلا فتُعيدها. وكان رحمه الله يعلل ذلك فيقول: إن بلاد المغرب لا يتولى الإمامة في المسجد الأعظم إلا مَن أجمع أهلُ تلك البلاد على فضيلته وتقدمته في العلم والخير والصلاح، وسائر المساجد لا يتولى الإمامة فيها إلا مَن أجمع أهل تلك الناحية على فضيلته عليهم. وأما الديار المصرية وما أشبهها فإن الإمامة فيها بالدراهم غالباً وهي إذا كانت كذلك لا يتولاها إلا صاحب جاه أو شَوْكة ومَن اتصف بذلك فالغالب عليه رِقّةُ الدين فإذا صلّى خلفه وهو لا يعرف حاله أعاد صلاته لقوله ﷺ: **«أئِمّتُكم شفعاؤكم فانظروا بمَن تستشفعون»**...».

٣ ـ الشعبذة والتخييل قال: «ومنهم مَن يظهر الكرامة بإمساك الثعابين والأُنس بها وهذا فيه ما فيه من مخالفة الشرع الشريف والتمويه على الأمة بما لا حقيقة له إذ أن مثل ذلك يفعله كثير من الناس لمعيشتهم فكيف يُعدُّ كرامة. ومن ذلك أيضاً ما يفعلونه من أكلهم الثعابين بالحياة بمرأى من الناس وذلك محرّم أي لو كان صحيحاً لأن أكلها لا يجوز إلا بعد تذكيتها عند مَن يرى أكلها وهم يأكلونها من غير تذكية بل يُؤدّبُون على كل أكلة من أكلاتهم تأديباً بليغاً رادعاً ثم إن كان ذلك من غير حقيقة فهو من صنعة

النارنجيات والسيمياء وما شاكلها وليس من باب الكرامة في شيء... وكنت أعهد مثل هذه الأشياء ببلاد المغرب تفعل على أبوابها ويتضاحك الناس عليها في لهوهم ولعبهم ويستغنون بسببها وهم في هذه البلاد في بعض الأماكن يعدُونها من الكرامات ويعتقدونهم بسببها.

ويطول بنا الأمر لو تتبّعنا هذا الباب أعني باب المفارقات فلننظر في شيء من الفوائد العلمية والنكت الحسنة التي يشتمل عليها المدخل وربما عزّ وجودها في كتاب غيره.

فمن ذلك قوله في القراءة على القبور: «ولا يقرأ الزائر عند قبر الميت لما تقدم من شغله بما ذكر من الاعتبار وقراءة القرآن يحتاج صاحبها إلى التدبُّر وإحضار الفكرة فيما يتلوه وفكرتان في قلب واحد في محل واحد لا يجتمعان... وقد سمعت سيدي أبا محمد (ابن أبي جمرة) رحمه الله يقول: القراءة على القبور بدعة وليست بسنّة وإن مذهب مالك الكراهة».

وقال في وجوب تعليم الزوجة أحكام الدين: «ويجب عليه (الزوج) أن يعلّمها إذا كانت جاهلة وإن لم يكن عالِماً فيجب عليه أن يسأل مَن يعلمه فيعلمها أو يأذن لها في الخروج لتتعلم وإن أبى أن تخرج فلتخرج ولا حرج عليها ولا تكون عاصية، وعلى الحاكم أن يجبره على تحصيل العلم لها فإن لم يفعل أذن لها الحاكم في ذلك».

وقد كرّر هذا المعنى من خروجها وإن لم يأذن لها زوجها مؤكداً له.

وقال بعد أن ذكر أن عمل المولد النبوي بدعة وإن سلم من الآفات الشرعية فكيف به معها: «ثم العجب العجيب كيف يعملون المولد بالمغاني والفرح والسرور كما تقدم لأجل مولده عليه الصلاة والسلام كما تقدم في هذا الشهر الكريم وهو عليه السلام فيه انتقل إلى كرامة ربه عزَّ وجلَّ وفجِعت الأمة فيه وأصيبت بمصاب عظيم لا يعدل ذلك غيرها من المصائب أبداً، فعلى هذا كان يتعين البكاء والحزن الكثير وانفراد كل إنسان بنفسه لما أصيب به بقوله عليه الصلاة والسلام: «**لِيُعزِّ المسلمين في مصائبهم المصيبةُ بي**»...».

وهي نكتة عجيبة والحديث الذي ختمها به أخرجه ابن المبارك عن القاسم مرسلاً ومن الملاحظ أنه كثيراً ما يُغْرِب في الأحاديث التي يستشهد بها فلو قيّض الله له مَن يخرّج أحاديثه ويبين صحيحها من سقيمها بهامشه لأدى خدمة عظيمة للعلم والدين.

ومن قوله في الذين يرون أن الأحاديث النبوية إنما تروى للتبرك بها لا للعمل: «... بلغني ممن أثق به أن بعض مَن ينسب إلى العلم تكلم في مسألة ونقل فيها عن بعض شيوخه نقلاً تأباه الشريعة، فقال له بعض مَن حضره: حديث النبيّ ﷺ إنما يراد للتبرك والشيوخ هم الذين يُقتدى بهم. وهذا إن كان مُعتقِداً لما قاله كان كافراً حلال الدم وإن لم يعتقده فهو مرتكب لكبيرة عظمى يجب عليه أن يتوب منها مع الأدب الموجع».

ومن قوله في اتخاذ السّبْحة: «ومن هذا الباب أيضاً ما

يفعله بعضهم من تعليق السبحة في عنقه، وقد تقدم قول عمر رضي الله عنه لِتَمِيم الدّاري رضي الله عنه، أنت تريد أن تقول: أنا تميم الداري فاعرفوني، وما كان مراده إلا أن يُذكّر الناس بالأحكام الشرعية المأمور بإظهارها وإشاعتها وإظهار السبحة والتزيُّن بها لا مدخل لهما في ذلك بل للشهرة والبدعة لغير ضرورة شرعية... ثم العجب ممن يعدّ على السبحة حقيقة ويحصر ما يحصله من الحسنات ولا يعد ما اجترحه من السيئات وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**حاسِبُوا أنفسكم قبل أن تحاسَبوا**»... ثم إن بعضهم يحتج بأنها محركة ومُذكرة فواسوْأتاه إن لم يكن التحريك والتذكير من القلب فيما بين العبد وبين الرب سبحانه وتعالى».

وقال في الاستخارة النبوية وتفضيلها على غيرها وليقس غيرها من ألفاظ الصلاة والسلام على النبيّ ﷺ ونحو ذلك: «وليحذر مما يفعله بعض الناس ممن لا علم عنده أو عنده علم وليس عنده معرفة بحكمة الشرع الشريف في ألفاظه الجامعة للأسرار العلية لأن بعضهم يختارون لأنفسهم استخارة غير الاستخارة المتقدمة الذكر وهذا فيه ما فيه من اختيار المرء لنفسه غيرَ ما اختاره له مَن هو أرحم به وأشفق عليه من نفسه ووالديه العالم بمصالح الأمور المرشد لما فيه الخير والفلاح صلوات الله وسلامه عليه...».

ومن قوله يحذر المبالغة في التحلية في الرسائل: «وينبغي له أن يجتنب ما اعتاده بعض الناس في مكاتبة بعضهم لبعض بالألفاظ التي احتوت على التزكية والتعظيم والكذب والتنميق والقوافي والسجع والعبارات القلقة

والتكلف إذ أن ذلك لا يجوز. ألا ترى أن كتب السلف رضي الله عنهم بعضهم إلى بعض على منهاج غير هذا، فمن ذلك كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إلى مَن يكاتبه من ولاته: من عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بن الجرّاح إلى خالد بن الوليد إلى عمرو بن العاص وكتبهم له من أبي عبيدة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فوصفوه بالصفة الملازمة له...».

وفوائده ونكته التي من هذا القبيل كثيرة وكان بودنا نقل كلامه في تعليم أولاد المسلمين عند مُعلّمين غير مسلمين وما ينشأ عن ذلك من انطباع الولد على أفكار وأخلاق معلمه التي لا توافق الدين وتقاليد المسلمين، وقوله أيضاً في التوقيع الذي يُعفي به التاجر من أداء المغارم على السلعة وبيع هذا التوقيع مما عمّت به البلوى اليوم وكلها مواضيع حية وواقعة بين المسلمين الآن ولكن طول ذلك وضيق المجال مما يمنعنا من التوسع في هذه النقول الكثيرة.

ولا بد أن نختم هذه الترجمة بنقل فصل فريد في تربية الأولاد لا يقل عما يكتبه أحد علماء التربية الحديثة اليوم ويزيد عليه بالمحافظة على الروح الدينية وهو مع ذلك مما يُتعرّف منه أسلوب ابن الحاج السهل الممتنع في الكتابة. قال رحمه الله:

... (فصل) في تربية الأولاد ومَشْيِهم على قانون الشريعة وترك ما عداها وحسن السياسة في ذلك كله. قال القاضي أبو بكر بن العربي رحمه الله في كتابه «مَراقي

الزّلْفى» له: اعلم أن الصبي أمانة عند والديه وقلبُه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورةٍ وهو قابل لكل نقش وقابل لكل ما يُمال به إليه، فإن عوّد الخير وعلّمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة يشاركه في ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب، وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شَقِي وهلك وكان الوزر في رقبة القَيّم به والولي عليه. وقد قال تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا﴾، ومهما كان الأب يصونه من نار الدنيا فينبغي أن يصونه من نار الآخرة وهو أوْلى.

وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من القُرناء السوء ولا يُعوّده التنعُّم ولا يحبّب إليه الزينة وأسباب الرفاهية فيضِيع عمرُه في طلبها إذا كبر ويهلك هلاك الأبد. بل ينبغي أن يراقبه من أول أمره فلا يُشغّل في حضانته وإرضاعه إلا امرأة صالحة متديّنة تأكل الحلال، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه فإذا وقعت عليه نشأة الصبي عُجِنت طينته فيميل الصبي إلى ما يناسب الخبائث.

ومهما بدت فيه مخايل التمييز فينبغي أن يحسن مراقبته، وأول ذلك ظهور أوائل الحياء فإذا كان يحتشم ويستحي ويترك بعض الأفعال فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه حتى رأى بعض الأشياء قبيحة ومخالفة لبعضها فصار يستحي من شيء دون شيء، وهذه هدية من الله إليه وبشارة تدل على الأخلاق وصفاء القلب وهو مُبشر بكمال العقل عند البلوغ، فالصبي المستحيي لا ينبغي أن يُهمل بل يُعان على تأديبه بكمال حيائه وتمييزه. وأول ما يغلب عليه

من الصفات شَرَهُ الطعام فيعلمه متى يأكل ويعلمه أن لا يسرع في الأكل ويمضغ الطعام مضغاً جيداً ولا يوالي بين اللقم ولا يلطخ يده ولا ثوبه، ويعوّد الخبز القَفار في بعض الأوقات حتى لا يصير بحيث يرى الإدام حتماً ويقبح عنده كثرة الأكل بأن يُشَبّه مَن يكثر الأكل بالبهائم وأن يُذَمّ بين يديه الصبي الذي يكثر الأكل ويمدح بين يديه الصبي المتأدب القليل الأكل ويحبّب إليه الإيثار بالطعام وقلة المبالاة والقناعة بالطعام الخشِن أيّ طعام كان، ويحبّب إليه من الثياب الأبيض دون الملون والإبريسم ويقرر عنده أن ذلك لباس النساء والمُخنّثين من الرجال، ومهما رأى على الصبي ثوباً من إبريسم أو ملوناً فينبغي أن يستنكره ويذم ذلك.

ثم ينبغي أن يُقدّم إلى المكتب ويشغل بتعليم القرآن وبأحاديث الأنبياء وحكايات الصالحين والأخيار وما قارب ذلك ويمنع من سماع الأشعار التي فيها ذكر العشق وأهله ويحفظ من مخالطة الأدباء الذين يزعمون أن ذلك من الظرف ورقة الطبع، فإن ذلك يغرس في قلوب الصبيان الفساد. ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود فينبغي أن يكرم عليه ويجازى عليه بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس، فإن خالف ذلك في بعض الأحيان مرة فينبغي أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره ولا يكاشفه ولا يظهر أنه يتصور أن أحداً يتحاشى عن مثله لا سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه، فإن إظهار ذلك ربما يفيده جسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة بعد ذلك فإن عاد ثانياً فينبغي أن يعاقب

سراً ويعظم الأمر فيه ويقال له: إن يطلع عليك في مثل هذا تفتضح بين يدَيْ الناس ولا يكثر القول عليه بالعتاب في كل حين فإنه يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح ويسقط وقع الكلام من قلبه.

وليكن الأب حافظاً هيئة الكلام معه لا يوبخه إلا أحياناً والأم تخوّفه بالأب وتزجره عن القبائح، وينبغي أن يمنع النوم نهاراً فإنه يُورّث الكسل ولا يمنع النوم ليلاً ولكن يمنع الفُرُش الوطيئة حتى تصلُب أعضاؤه ولا يخصب بدنه فلا يصبر عن التنعُّم بل يعوده الخشونة من الفَرْش والملبَس والمطعَم. وينبغي أن يمنع من كل ما يفعله في خُفْية إلا وهو يعتقد أنه قبيح فإذا تُرِك تعود فعل القبيح. ويعود في بعض النهار المشي والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل، ويعود ذلك بكشف أطرافه ولا يسرع المشي ولا يرخي يديه بل يضمها إلى صدره. ويمنع من أن يفتخر على أقرانه بما يملكه والداه وبشيء من مطاعمه وملابسه وملذوذاته.

ويعوّد التواضع والإكرام لكل من عاشره والتلطف في الكلام معهم ويمنع أن يأخذ من الصبيان شيئاً بداية إن كان من أولاد المحتشمين بل يعلم أن الرفعة في الإعطاء لا في الأخذ وأن الأخذ لُؤم، وإن كان من أولاد الفقراء فيعلم أن الأخذ والطمع مهانة ومذلة وإن ذلك من دأب الكلب فإنه يبصبصُ في انتظار لقمة.

وبالجملة يقبح إلى الصبيان حب الذهب والفضة والطمع فيهما ويحذر منهما أكثر من التحذير من الحيّات

والعقارب فإن آفة حب الذهب والفضة والطمع فيهما أكثر من آفة السموم القاتلة على الصبيان بل على الكبار أيضاً. وينبغي أن يعود أن لا يبصق في المجالس ولا يتمخّط بحضرة غيره ولا يضع رِجلاً على رِجل ولا يضرب بكفه تحت ذقنه ولا يستدبر غيره ولا يغمز رأسه بساعده فإن ذلك دليل الكسل. ويعلم كيفية الجلوس. وينبغي أن يمنع كثرة الكلام ويبين له أن ذلك يدل على الوقاحة وأنه عادة أبناء اللئام.

ويمنع اليمين رأساً صِدْقَها وكذِبَها حتى لا يتعوده في الصغر، ويمنع أن يبتدىء بالكلام ويعود أن لا يتكلم إلا جواباً وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو أكبر منه سنًا ويوسع لمن فوقه المكان ويجلس بين يديه. ويمنع من لغو الكلام وفُحْشه وعن اللعب والشتم ومن مخالطة من يجري على لسانه شيء من الفواحش فإن ذلك يسري لا محالة من القرناء السوء. وينبغي إذا ضربه المعلم أن لا يُكثر عليه الصراخ دأب المماليك والنسوان.

وينبغي أن يؤذن له بعد الفراغ من المكتب أن يلعب لعباً جميلاً يستريح إليه من تعب الأدب بحيث لا يتعب في اللعب فإن مَنْعَ الصبي من اللعب وإرهاقَه إلى التعليم دائماً يميت قلبه ويبطل فكره وذكاءه ويبغض إليه ذلك وينغص عيشته حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأساً، وينبغي أن يعلم طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه وكل مَن هو أكبر منه سناً من قريب أو أجنبي وأن ينظر إليهم بعين الجلالة والتعظيم وأن يترك اللعب بين أيديهم.

ومهما بلغ سن التمييز ينبغي أن لا يسامح في ترك الطهارة ويؤمر بالصيام في بعض الأيام من رمضان ويتجنب لبس الحرير والذهب والفضة ويعلم كل ما يحتاج إليه من حدود الشرع ويخوف من السرقة وأكل الحرام ومن الكذب والخيانة والفحش وكل ما يغلب على الإنسان من شدة الكلام من لسانه فإذا وقعت نشأته في صباه انتفع بذلك. ومهما قارب البلوغ أمكن أن يعرف أسرار هذه الأمور فيذكر له أن الأطعمة أدوية وإنما المقصود منها أن يتقوى الإنسان بها على طاعة الله وعبادته وأن الدنيا كلها لا أصل لها إذ لا بقاء لها وأن الموت يقطع نعيمها وإنها دار مَمَرّ لا دارَ مَقرّ وأن الموت منتظر في كل ساعة وأن الكَيّس العاقل مَن تزوّد من الدنيا للآخرة حتى تعظم عند الله درجته وتتسع في الجنان نعمته.

فإذا كانت نشأته صالحة كان هذا الكلام عند البلوغ واقعاً مؤثراً ثابتاً يثبت فيه كما يثبت النقش في الحجر، وإن وقعت النشأة بخلاف ذلك حتى ألف الصبا واللعب والفحش والوقاحة وشرَه الطعام واللباس والتزيُّن والتفاخر نبا قلبه عن قبول الحق نُبوّ الحائط عن التراب اليابس. فأوائل الأمور هي التي ينبغي أن تُراعى فإن الصبي خُلِق جوهرةً قابلاً لنقش الخير والشر جميعاً وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين. قال رسول الله ﷺ: **«كلّ مولود يُولَد على الفِطْرَة فأبَواه يُهَوّدانه أو يُنصّرانه أو يمجّسانه»...».**

***

ابن أبي زرع
(ت ٧٤١ هـ)

مؤرخ ليس له تاريخ، الخلاف في اسمه وفي كتابه «القرطاس»، منشأ الخلاف، هل هما قرطاسان؟ القرطاس الذي بأيدينا هو لابن أبي زرع، وَهم دائرة المعارف في جعلها صالح بن عبدالحليم هو ابن أبي زرع، مَن صالح بن عبدالحليم؟ التحقيق في اسم المترجم واسم أبيه وكنيته، أبو العباس ابن أبي زرع من قرابته، أسرته ومكانتها الاجتماعية، حاله، كتابه «أزهار البستان»، مؤلف الذخيرة السنية، حصيلته الثقافية، صفاته وأخلاقه، تحرّيه وتجرُّده، التحقيق في وفاته، قيمة القرطاس العلمية، نموذج من إنشائه.

هذا الرجل على شُهرتِه الواسعة، واقتران اسمه بتأليف أهمّ كتاب تاريخي للمغرب منذُ استقلاله عن الخِلافة العبّاسية إلى قيام الدولة المَرِينيَّة، لا نعرفُ عن تاريخه شيئاً ولا عن حياته ولا حتى عن أُسْرَتِه، إلا القليلَ الذي لا يُغنِي من معرفة، بل إننا لَنَصْطَدِمُ بالجهل حتى لاسمِه والخلاف فيه خلافاً ما نظن أنه وقع في اسم شخص أسْدَى إلى بلاده يداً

كُبْرى وعَارِفةً عظمى مثلَما فعل ابنُ أبي زرع، وإنه مع ذلك لَمِنَ المَنْسِيِّين ومِمّن لم يُحظَوْا بدراسة ولو خاطفة تكشفُ عن جانب من شخصيته المتمثلة في كتابه الفريد.

لذلك فنحن سنُحاوِلُ أن نُجَلِّي بعضَ الغموض الذي يُساوِرُ هذه الشخصيةَ بالنظر فيما انتهى إلينا من أقوال عن «السجِلِّ المدَني» لصاحبها وحياتِه وتاريخِه ومُقَارَنةِ تلك الأقوال بعضِها ببعض، والحكم بما صحَّ لدينا منها والإشارةِ إلى ما في كتابه من مَعَانٍ وأفكار تُمِيطُ اللِّثَامَ بعضَ الشيء عن ملامح وجهِه الذي بقي مُتحجِّباً مدى أجيال. ولكنَّ هذا لا يعني أننا سنَصْنَع ترجمةً لابن أبي زرع من لا شيء فما ادَّعيْنا أننا وفَّيْنا حقَّ الترجمة لأحدٍ مِمَّن تتَوافر عناصِرُ ترجمتهم فأحْرَى لِمَن كان مثلَ صاحبنا يكادُ لا يُعرف اسمُه على وجه التحقيق... وإنما هي ذكرى من هذه الذِّكْرَيات التي نُحْيِيها لأعلام المغرب بما لدينا من إمكانيات محدودة، ومعلومات ضيِّقة وإن كانت لحدِّ الآن هي أوسع ما كُتِبَ عن كثير منهم.

ولعل أول مُشكِل يُواجِهنا من المشاكل المتعلقة بترجمتِه وهو أحرَى بتقديم النظر فيه على غيره، هو الخلاف الواقع في كوْنِه هو مؤلفُ كتاب «القِرْطاس» المعروف أو غيره، إذ بِحَلِّه يمكننا أن نبُتَّ في غيره من المشاكل، كاسْمِه ونسَبِه، ونُقِيم بعضَ معالم شخصيته التي لا نُلْفِيها إلاّ في ذلك الكتاب.

ومنشَأُ هذا الخلاف هو ما وردَ في كتاب السَّلْوَة للعلامة محمد بن جَعْفر الكَتَّاني حين تعرَّض لذْكرِ القِرْطاس

في ثَبَت أسماء المصادر التي استَقى منها كتابه المذكور ونصه: «الأنِيسُ المطرب وروض القِرْطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس لصالح بن عبدالحليم، ومنهم من ينسُبه للشيخ الإمام الواعظ الخطيب المفتي الولي الصالح الورع الزاهد أبي الحسن أو أبي عبدالله أو أبي العباس أحمد بن أبي زَرْع. والصواب أنهما اثنان «الأنيسُ الصغير» وهو للأول وكان فراغه من تأليفه عند وفاته في سنة ستة وعشرين وسبعمائة وألّف كتاباً آخر سمّاه «زَهْرَ البُستان في أخبار الزمان» أكبر من الأنيس. و«الأنيس الكبير» وهو للثاني، وكانت وفاته في بضعة عشر وسبعمائة وكثيراً ما يتفقان فيهما في الإخبار بالمسائل».

وهذا الكلام أصلُه لصاحب كتاب «مشاهير أعيان فاس في القديم» وهو مؤلّفٌ مجهول ذكره عرَضاً أثناء حديثه عن بيت بني أبي مدْيَن. ويحسن أن نُورِدَهُ هنا بلفْظِه، ثم نُعَقّب عليه بِبَيان ما فيه. وهذا هو بتمامه: «وقد ذكر ذلك صالحُ بنُ عبدالحليم في «الأنيس المطرب» و«روض القِرْطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس»، وكان انتهاؤه من تأليفه هذا عند وفاته في سنة ست وعشرين وسبعمائة. . . وقد ألّف صالحُ بن عبدالحليم كتاباً آخر سمّاه «زهر البستان في أخبار الزمان» أكبر من الأنيس. والأنيسُ اثنان: الصغير وهو تأليف صالح بن عبدالحليم المذكور، والكبير وهو تأليف الشيخ الكبير الإمام الخطيب البليغ الواعظ الزاهد الوَليّ الصالح العلاّمة المدرّس المُفتِي أبي العباس أحمد بن أبي زَرْع، تولّى الإمامةَ والخُطبةَ بجامع القرويين بطلب

العوامِّ منه ذلك، ولحظَه الناس وطلبوا منه الاسْتِسْقاء فصلّى لهم بخارج باب الفُتوح وقدَّم بين يدَيْه آل النبيّ ﷺ يسْتَشْفِعُ بهم كما فعل عمرُ بنُ الخطاب بالعبَّاس رضي الله عنهما، فسُقِيَ الناسُ وحمِدُوا الله على إجابة دعائهم. وكانت وفاةُ ابن أبي زرع في بضعةَ عشرَ وسبعمائة، وكثيراً ما يتَّفِقَّان فيهما في الإخبار بالمسائل. انتهى كلامه بحذف ما لا علاقة له بالموضوع وبتصحيح بعض العبارات إذ كان يغلِبُ عليه التحريف وهَلْهَلَةُ الأسلوب لعاميّة صاحبه فيما يظهر. وعلى كل حال فهو يتضمن الدلالات الآتية:

١ ـ أن هناك قِرْطاسَيْن اثنين صغيراً وكبيراً، وهما لِمؤلّفَيْن مختَلِفين، فالصغير لصالح بن عبدالحليم والكبير لابن أبي زرع.

٢ ـ أن هذا القِرْطاس الذي بيدنا هو الصغير، ومؤلفُه هو صالح بن عبدالحليم، بدليل أنه يذكر له من تأليفه كتاب «زهر البستان في أخبار الزمان»، وهذا الكتاب ذكره مؤلف القِرْطاس الذي بيدنا مراراً على أنه من تأليفه وأحال عليه في استيفاء بعض الأخبار التي اختصرها في القِرْطاس.

٣ ـ أن اسم صاحب «القِرْطاس الكبير» هو أبو العباس أحمد بن أبي زَرْع وكان إماماً وخطيباً بجامع القرويين فضلاً عن وصْفه بالشيخ الكبير والعلامة المدرّس المفتي.

٤ ـ أن وفاة صالح بن عبدالحليم كانت سنة ٧٢٦ حين انتهائه من تأليف كتاب «القِرْطاس الصغير» على حين أن وفاةَ ابن أبي زرع قد سبقت ذلك فكانت في بضعةَ عشرَ وسبعمائة.

والأمر الأول غريب جداً فإننا لم نرَ مَن ذكر أن هناك قرطاسين أو أنيسين اثنين، أي: كتابين في تاريخ المغرب، مُتماثِلَيْن في المبتدأ والمنتهى، ويتَّفِقان معاً في الإخبار بالمسائل، وهما مع ذلك يحملان اسماً واحداً... إلا هذا المؤلف المجهول، وحتى لو ذكرهما أحدٌ غيرُه لكان ذلك من الغرابة بمكان، فكيف وقد انفرد هو بهذا الخبر مع جهْل شخصه ودلالة أسلوبه على عاميّته؟ لا جرم أن تحُفَّ الشُّبْهَةُ بقوله هذا ويكون الباحث المتثبت في حِلٍّ من الأخذ به، لأنه من الجائز أن يكون اختلاف نسخ القِرْطاس هو الذي لَبَس عليه فظَنَّ الكتاب الواحد كتابين... وقد اختلفت هذه النسخُ بالفعل اختلافاً كثيراً كما يُشيرُ لذلك كلُّ الناشرين لكتاب القِرْطاس، ونُقِلت عنه بعض العبارات بلفظ لا يوجَد في النسخة التي بأيدينا وإن كان معنَاها موجوداً فيها[1]... وذلك حتْماً مما يُوقِع قارئه في الوَهْم وخاصةً إن لم يكن من أهل العلم كمؤلف كتاب مشاهير أعيان فاس.

وبخصوص الأمر الثاني، نلاحظ أننا لا نجد بين أيدينا إلا قِرْطاساً، أو قُلْ أنيساً واحداً، فإذا كانا اثنين مفروغاً منهما موجودين زمَن هذا المؤلف، وهذا هو الصغير، فأين

(١) مثال ذلك أن أبا بكر السيوطي، وهو مؤلف مغربي مجهول، في كتاب الأنساب له نقل عن القرطاس أن الإمام إدريس الثاني كان يدرّس اثنتي عشر علماً وهو ابن اثنتي عشرة سنة... وإذا قرأنا يدرس بالتخفيف كان معناها يقرأ ويتعلم وهذا موجود في القرطاس الذي بأيدينا. أما إذا قرئت بالتضعيف من التدريس فذلك ما لا يوجد فيه، وهو خطأ حمل بعضهم على نسبة ذلك للقرطاس الكبير.

ذهبَ الكبير؟ نعم إن عدم الوجْدان لا يدل على عدم الوجود، ولكن أين النقل عنه وهو مما تتَوافَرُ الدواعي إليه لا سيما في المسائل التي يكون أشبَع الكلام فيها أكثر من صِنْوِه الصغير؟ إن هذا المؤلف كان يعيش في أواخر القرن التاسع لأنه من تلامذة أبي عبدالله القَوْري المتوفى سنة ٨٧٢ والشيخ عبدالعزيز الورياغلي المتوفى سنة ٨٨١ وإذَنْ فإن الأنيس أو القِرْطاس الكبير كان لا يزال موجوداً إلى هذا الحين، ولكن أحداً من المؤلفين في التاريخ أو غيره لم يُعرِّج على ذكره، لا قبلُ ولا بعدُ، ولم ينقُل عنه شيئاً لا نجِدُه في هذا الصغير، مما يُثْبِتُ أن الكتاب واحد وأن من حسِبَه اثنين إنما اختَلط عليه الأمر بسبب تعدُّد النسخ واختلافها.

ثم إن كل من ذكر القِرْطاس أو الأنيس فإنه ينسُبه لابن أبي زَرْع، ولم نرَ مَن نسبه لصالح بن عبدالحليم غير المؤلف المذكور... فهذا ابن خلدون في العِبَر، وابنُ الخطيب في الإحاطة، والجزنائي في زَهْرة الآس، وابنُ القاضِي في الجَذْوة، والمقَّرِي في النفح، والحلَبِي في الدرّ النفيس، وحاجِي خليفة في كشف الظنون، وعبدالسلام القادري في الدرّ السَّنِيّ، والزَّيَاني في الحادي المطرب، والناصري في الاستقصا، وابنُ جعفر الكتاني في الأزهار العاطرة الأنفاس، وغيرُهم من المؤرخين الأثبَات والنسَّابين الحُفَّاظ الذين لم نستحضرهم الآن كلهم ينسُبونه لابن أبي زرع وينقُلون عنه نقولاً تتَّفِقُ والنسخةَ الموجودة منه التي يقول صاحبها: إنه هو مؤلف الكتاب الثاني المسمى بزهر

البستان في أخبار الزمان، فكيف ندَعُ أقوالَ هؤلاء الأعلام جميعاً لقول مؤلف مجهول وهو مع ذلك مشكوك في علمه وتحقيقه؟

أضِفْ إلى هذا إجماعَ أهل العلم من المُعاصِرين شرقِيِّين ومُسْتَشْرِقِين وعمُوم المثقفين، على هذه النسبة فما يذْكُر أحد منهم كتابَ القِرْطاس إلا مقْرُوناً باسم ابن أبي زَرْع، ولا يذكُر هذا الاسمَ إلا ويشير إلى أنه مؤلِّف كتاب القِرْطاس... بل العَجِيب في الأمر أن صاحب السلوة الذي كان أول مَن أشار إلى كلام ذلك المؤلف المجهول هو نفسُه بعد اعتماده لذلك الكلام يعود فيذكر القِرْطاس منسوباً لابن أبي زرع في بعض المواضع من السَّلوة، أما في كتابه «الأزهار العاطرة الأنفاس»، لَمَّا كان لم يقِفْ بعد على كتاب مشاهير أعيان فاس فإنه لا ينسبه إلا لابن أبي زرع... ومثل هذا وقع لبعض من قفاه من المؤلفين المعاصرين في اعتماد ذلك القول الذي بيَّنَّا ضعفه، فإنه لم يفتأ أن ذكرَ القِرْطاس ونسبه إلى ابن أبي زرع بعد التأكيد على صحَّة القول المشار إليه في تأليفه... وهذا إنْ دلَّ على شيء فهو عدم الاطمئنان إلى ذلك القول، وأن العقل الباطِن يبقى محتفظاً بما تقرَّر لديه من نسبة القِرْطاس لابن أبي زرع فلا يلْبَثُ أن يعيد الأمر إلى نِصابه، بتأكيد تلك النسبة ولو عن غير وَعي.

وأغرب كاتِبُ ترجمةِ ابن أبي زرع في دائرة المعارف الإسلامية وهو الأستاذ رِيني بَاسِّي فجعل الرجلين شخصاً واحداً، وقال: إن أبا الحسن (أو أبا محمد) عليَّ بن

أبي زرع الفاسي مؤلف القِرْطاس وزَهْر البستان يُسمَّى أيضاً أبا محمد صالح بن عبدالحليم الغرناطي. وغالبُ الظن أنه صدرَ في هذه الترجمة الفارغة عمَّا كُتِبَ بأول ورَقَةٍ من طبْعة فاس الحجَريَّة للقرطاس ـ وكَم له من مِثْلها ـ وهي أقوال مختلفة نقَلَها مُصحِّح هذه الطبعة من هنا وهناك من غير أن يجْزِمَ بشيء فآلت عند كاتِب المادَّة في دائرة المعارف إلى هذا التحقيق الغريب!...

وإذا كان الأمرُ كما ذكرنا فمَن يكون صالح بن عبدالحليم هذا وما الذي أقحم به في هذا الخلاف؟ جاء في كتاب مَفاخِر البربر المجهول المؤلف ما يلي: «ومنهم الشيخ الفقيه الصالح العالم التاريخي أبو علي صالح ابن الشيخ الصالح الولي الزاهد الورع أبي صالح عبدالحليم، نزل نفّيس، وهو يعيش إلى وقتنا هذا وهو سنة ٧١٢، وقد جمع الله له بين العلم والعبادة، وخصّه بالفضل والديانة، اشتهر بالعفاف، واقتصر من الدنيا على الكفاف مع الانقباض عن أهل الدنيا، والحلول من الوَرَع في الدرجة العُليا، إلى ما يتميَّز به من الكرم والسّخاء، والطهارة والتُّقى. وتلك أوصاف السلف الصالح رضي الله عنهم.

ولـوْلاَ أنْ يُـظَـنَّ بِـنـا غُـلُـوّ   لَزِدْنَا في المقال مَن استَزَادا

وقد سألتُه عن قبيلته فذكر لي أنه إيلانِيُّ النَّسب، وإيلان اسم رجل وهو إيلان بن مصمود أبو إيلانة بن مازيغ بن تميلا بن كنعان.

إن هذه على كل حال ترجمة لصالح بن عبدالحليم

لَيْتَنا نظفَرُ بمِثلها لابن أبي زَرْع. وقد أفادتنا زيادةً على صلاحه وصلاح أبوَّتِه أنه كان عالماً تاريخياً فتلاقت ضِمْناً مع ما أفاده عنه صاحبُ كتاب مشاهير أعيان فاس الذي نسب إليه تأليفَيْن مهمَّيْن في التاريخ يعرفهما القارىء ولكنَّ وصفَه بالتاريخي لا يكفي لنسبة ذيْنك التأليفين له، بل إننا نرى أنهما لو كانا له لما سكت مؤلفُ مفاخر البربر عنهما أو عن أحدهما ولنوَّه بذلك أعظمَ تنويه، وحيث لم يرِدْ لهما ذكر في كلامه وهو معاصر بل مُداخِل لصاحبِنا ابن عبدالحليم، مُطَّلِع على أحواله، عارِفٌ بِحَسَبِه ونَسبه فإن هذه النسبة تبقى في أقل تقدير على ما كانت عليه من عدم الثبوت. وهذا لا يمنعُ أن يكون لصالح كتاب أو أكثر في التاريخ ألَّفَه فيما بعد هذا الوقت الذي تحدّث فيه عن صاحب مفاخر البربر ـ كما يُمكِنُ أن يقال ـ إنما الذي يَجِبُ أن لا يُنسى هو أن هذا الكتاب لا بد أن يكون غير القِرْطاس حتى ولو كان اسمُه الأنيس وإلاَّ وقعنا في المحظور السابق، وهو نَبْذُ كلام الأئِمَّة المَوْثُوق بهم واعتمادُ خبَر لا يُعرف قائِلُه.

وإذ قد ثبت الآن أن القِرْطاس واحد، وأن مؤلفه هو ابن أبي زرع فمَن هو إذن هذا المؤلف المعروف بهذه الكُنية؟...

لقد تمنَّيْنا آنِفاً أن لو ظفِرْنا بترجمة لابن أبي زَرْع مثل الترجمة التي ذكرناها لصالح بن عبدالحليم عن كتاب مفاخر البربر، فهي على ضآلتها تُعطينا معلوماتٍ مضبوطةً عن اسمه واسم أبيه وحاله ومحل إقامته، وهذا قَدْرٌ يهمُّنا أن نعرفه

عن مترجمَنا على وجْه الصحة فلا نجِدُه؛ لأنه قد اختُلِف في اسمه واسم أبيه اختلاف كبير، وكذلك وقع الاشتباه في حالهِ فمِنْ واصِفٍ له بالعلم والصلاح والفقه والإفتاء وما إلى ذلك، ومن مقتصر لا يزيد على وصْفِه بالثقة والعدالة شيئاً. ولذلك فنحن إزاءَ هذا الاختلاف وهذا الاشتباه لا نملك إلا أن نُقَارِنَ بين الأقوال ونُرجِّح بعضها على بعضٍ فنأخذ بما تأكد لدينا وندع غيره حتى تأتينا الأيام ببينة تقوم حُجَّتُها على ما ينبغي الأخذ به.

فأمّا اسمُه فقد رأينا النص السابق عن كتاب مشاهير أعيان فاس يجعَلُه أحْمَدَ ومن ثَمّ فهو يُكنّيه بأبي العباس، وكنّاه الجزنّائي في زهرة الآس بأبي الحسن، وسمّاه علي بن عبدالله، وكناه ابن القاضي في لقط الفرائد بأبي عبدالله ولم يُسمّه، وكذلك الحلَبي في الدر النفيس، وقال: هكذا وجدتُه ويقال: أبو الحسن. على أن ابن القاضي في الجذوة عاد فكنّاه بأبي الحسن وسمّاه علياً. وعلى تكنيته بأبي الحسن وتسميته بعلي اقتصر في كشف الظنون وزاد فقال: ابن محمد بن أحمد بن عُمَر بن أبي زَرْع... وجمعَ في السلوة هذه الأقوال كلها فقال: أبو الحسن أو أبو عبدالله أو أبو العباس أحمد، ولم يتبع كنية أبي الحسن باسم عليٍّ اتكالاً على المتعارَف في ذلك، وبمقتضاه على تكنيته بأبي عبدالله يكون اسمه محمداً وقد سمّاه بذلك مصحح الطبعة الحجَرِيّة الفاسية.

هذا ما وقع من الخلاف في اسمه، وهو كما ترى مُتشعّبٌ جداً يحارُ المرء فيما يأخذ منه وما يذَر، غيرَ أننا

بعد إمعان النظر في ذلك اعتمدنا أن اسمه علي وكنيته أبو الحسن وباقي عَمُود نسبِه هو كما عند صاحب «كشف الظنون»... أما أولاً فلكثرة من كناه بأبي الحسن وسمّاه بعلي مِمَّن ذكرناهم فضلاً عمن أغفلناهم من المعاصِرين، وأمّا ثانياً فلأن ما في كشف الظنون يدُلُّ على مزيد علم بأحوال المترجَم وممّا هو مُقرَّر أن زيادة الثقة مقبولة فكيف كان الضبْط وعدم التردد والرجلُ كان واسعَ الاطلاع فلعله وقف على نسخ عديدة وصحيحة من القِرْطاس فيها تسميةُ المؤلف على النحو الذي ذكره... على أنه لا أحد غيره ممّن ذكرناهم سمّى والِده بلْه جَدَّه باستثناء الجزنائي الذي جعل اسم والده عبدالله وهو يحتمل أن يكون ابن أبي عبدالله فلا ندع قول حاجي خَلِيفة له.

بَقِيَ القولُ في أبي العباس أحمد بن أبي زرع الإمام والخطيب بالقرويين الذي نسَبَ إليه صاحبُ مشاهير أعيان فاس كتاب القِرْطاس أو الأنيس الكبير على حدِّ تعبيره. ونحن نرى أن هذا غلط نشأ من اعتقاد أن القِرْطاس الموجود هو الصغير وهو تأليف صالح بن عبدالحليم، وبما أنه ذكر أبا العباس أحمد بن أبي زرع في جملة خُطباء القرويين وأئمتها، وقد عُلِمَ أن الأنيس الكبير أو القِرْطاس الثاني هو من تأليف ابن أبي زرع، فإن الذين لم يعرِفُوا شيئاً عن ابن أبي زرع هذا جعلوه هو أبا العباس المذكور. وأقول الذين وأعني الذي، وذلك لأن أول من نسبه إليه وآخره منفرداً بذلك هو صاحبُ مشاهير أعيان فاس فيما أعلم، والحجةُ لا تقوم به وحِده لِما علِمت من أنه شخصٌ مجهول وأنه من الناحية العلمية ليس بذاك.

وليس هذا فقط فإنّ ما وُصِف به أبو العباس بنُ أبي زَرْع سواء لدى هذا المؤلف أو لدى قَرِيبِه أبي الحسن بن أبي زرع في القِرْطاس من الحِلى العِلْمِيَّة الضّخْمة لا يُجامِعُ ما ثبتَ لدينا عن الثقات في شأن صاحِبنا أبي الحسن من أنه لم يكن مُشاراً إليه بالعلم وإنما كان من العُدول الذين لم يبلُغوا مقام الفتوى والتدريس.

زِدْ على ذلك ما قررناه سابقاً من إطْباق المؤرخين والمؤلفين عموماً من نسبة القِرْطاس المَوْجُود بأيْدِينا إلى ابن أبي زرع، وهو قد ذكر الإمام الخطيب أبا العباس بن أبي زرع وحلاَّه بما حلاَّه به من الأوصاف المحمودة فكيف يعقل أن يكون هو صاحب الكتاب ويتحدث عن نفسه بهذه الطريقة؟...

والدليلُ الأقوى من هذا كله هو أنّ الجزنّائي في زَهْرة الآس ذكرهما معاً فَسَمّى المؤرخَ صاحب القِرْطاس بأبي الحسن علي بن عبدالله بن أبي زرع كما ألمعنا إلى ذلك قبلُ وسمّى الإمام الخطيب أبا العباس بن أبي زرع وحلاَّهُ بالشيخ الفقيه القارئ. فلم يبقَ شك في أنه غيره وأنه أحدُ قرابته فقط.

والعجَبُ من العلامة القادري حيث ذكرَهُما معاً في الدر السني باسم ابن أبي زرع فحسبُ ولم يفرق بينهما مع أنه على ما يُذكَرُ في ترجمته ألّف في التعريف بصاحبنا المؤرخ رسالةً صغيرة لم نعثُر عليها ولا وجدْنا عند من عثرَ عليها عِلْماً زائِداً بحال المترجم.

ولعلنا بعدما طَرقناه من هذه الأبحاث نستطيعُ أن نقول مُطمئنين إلى نتيجتها: إن الاسم الكامل لمؤلف القِرْطاس هو أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن عمر بن أبي زرع الفاسي. وابن أبي زرع هو النسب الذي عُرِفَتْ به أسرتُه بدليل أنه نفسَه هو نسبُ قريبه الخطيب والإمام بجامع القرويين أبي العباس... ويظهر أن هذه الأسرة كانت من أهل العلم والفضل وإن لم يبلغنا عنها خبر غير ما ذُكِر، وكفى بوجود هذين الشخصيتين منها في زمن واحد دليلاً على ذلك.

ولا يطمعُ قارِؤنا في أن نذكر له تاريخ ولادة المترجم ولا شيئاً عن نشأته، وقد رأى أننا لم نصل إلى معرفة اسمه إلا بعد عَرَقِ القِرْبَة. نعم نُشير إلى بعض أحواله التي تُفهَم من كلامٍ للشيخ أحمد زَرُّوق جاء ذِكرُه فيه عرَضاً، وهو قوله أولَ شرحه لنظم المباحث الأصلية: «مؤلف هذه الأرجوزة هو الشيخ الفقيه الصالح الناصح أبو العباس ابنُ البنّاء السّرُقسْطِي، لم يكن مشهوراً بالعلم مع ما له فيه من القَدَم الراسخ الذي دلّ عليه كلامُه، فعُدّ من عجائب مدينة فاس إذ كان من عامّتِها، وألّفَ كابن أبي زرع صاحب التاريخ وغيره، كذا ذكرَ لي بعضُ عدول بلَدِنا عن صاحبٍ له عَدْل، وأنه[1] ألّف في التاريخ وذكرَه بما قلناه. ولم نقف على تاريخ وفاته ولا زمانِه، غير أن الظن الغالب بأنه قريب العهد رحمة الله عليه».

---

(١) الضمير لابن البناء كما لا يخفى.

هذا كلام زروق في ابن البناء السرقسطي، ويهمنا هنا تلك اللمحَةُ التي وردت أثناءه عن ابن أبي زرع صاحب التاريخ وهي أنه أيضاً كان غيرَ مشهور بالعلم مع أنه ذو مكانة فيه، وعُدّ من عجائب فاس إذ كان من عامّتِها وألّفَ الكُتُب... وهذا كلام كثيراً ما كان يتردّد على الألسنة فيقال: إن بعض عامة أهل فاس ربما كان أعلم من فقهاء غيرها من البلدان... ولم يَزِدْ زرُّوق على أن أثبت هذه الحقيقة وأعطى الدليلَ الماديَّ عليها من شخصيّتيْن كل واحدة منهما ذاتُ قيمة علمية لا تُنكَر.

إنما الذي ينبغي أن يُعرف، هو أن المراد بالعامّية هنا هو عدم الشهرة بالعلم والتصدُّرِ في مناصبه المعهودة كالتدريس والفتوى والقضاء أو على الأقل عدَمُ المشاركة في فنونه المختلفة، ولا سيما علوم الآلة التي لا يتِمُّ علم العالم إلا بها وبتحقيقها. هذا هو معنى العاميَّة إذا أُطلِق عند العلماء، ومنه يؤخذ أنهم يَعنُون بالعوام في هذا الصدد الذين لم يُحصّلوا القواعدَ ولم يُتْقِنوا الأصول وإن كانوا على جانب من العلم لا يُستهان به لا الجُهّالُ والأغمار كما لا يَخفى.

ومن هنا نعلَمُ سِرَّ عدم ذكر هؤلاء في كتب التراجم والطبقات لأن أصحابها لا يعترفون بعَالميّة أمثالهم، وهم حين لا تكون لهم شهرة بالعلم في زمنهم لا يجرأون على إظهار آثارهم فتضيع أخبَارُهم، وربما ضاعت آثارُهم أيضاً كما وقع لصاحبِنا ابن أبي زرع.

وعلى كل حال فقد أفَدْنا من كلام زروق أن ابن

أبي زرع هو صاحب التاريخ، وناهيك بها. وأنه وإن كان من أهل العلم، إلا أنه كان مغموراً ليست له شهرة بذلك، وهذا في نظرنا هو السبب في ضياع ترجمته. ثُمّ إنه كان من عُدول فاس على ما يؤخَذُ من كلامٍ آخر للحَلَبي في الدر النَّفِيس ونصه:

«ومنهم الماهِرُ ذو السرّ الباهِر عُمْدَةُ أهل المغرب في التاريخ الشهير بكتاب الأنيس والقِرْطاس وهو أبو عبدالله بن أبي زَرْع، هكذا وجدتُه. ويقال: أبو الحسن، ذكره الإمام الوليُّ الصالح العارف بالله تعالى سيدي أحمد زرُّوق، وتعجّب من صنيعه، في شرحه أرجوزةَ أبي العباس ابن البنّاء وأثنى عليهما. وحسبَهُ الإمام ابنُ خلدون فيمن حسبَهُ من الذين يُعتَمد عليهم في الأخبار في كتابه في أول المقدمة منه، وذكرَه ابنُ الخطيب السّلْماني في أول كتاب «الإحاطة» مع من ذكرَهُم أيضاً. وكان فيما أُخْبِرْتُ ثقة عدلاً في سِماط العُدول من فاس عند الجامع القَروِيّ. وهو ذو علم وبراعة ولفظُه يدل على ذلك وصنيعُه في كتابه».

هذا هو قول الحلبي فيه، وقد ذكره أثناء تعرُّضه لمصادر كتابه «الدر النفيس»، ونلاحظ تحليتَه له بقوله: «الماهر ذو السر الباهر عمدة أهل المغرب في التاريخ» فإنها تحلية دالَّة على ما سبق من عدم شهرته بعِلْم إلا بكتابه التاريخي. ثم نشير إلى أن قوله: «في شرحه أرجوزة أبي العباس بن البناء» يتعلق بقوله قبل ذلك: «ذكره الإمام. . . إلخ»، لا بقوله: «وتعجب من صنيعه» لئلا يُفهَم منه أن للمترجم شرحاً على أرجوزة ابن البنّاء المسمّاة

بالمباحث الأصلية في التصوف، فإن العشّ ليس بعُشه.

وعلى هذا فليس للمترجَم إلا كتاب القِرْطاس المعروف، واسمُه الكامل «الأنيس المطرب بروض القِرْطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس» وكتاب «زهر» ويُقال: «أزهار البستان في أخبار الزمان» وهو المسمى أيضاً: «ذكر الموجود من أخبار الوجود» وكثيراً ما يُحيل عليه في القِرْطاس ويقول فيه: «كتابنا الكبير» مما يدل على أنه تاريخ عام وأوسعُ من القِرْطاس، إلا أنه يُعتَبر في حكم المفقود من قديم، فكما أنه لا وجود له اليوم كذلك لم نرَ مَن نقل عنه شيئاً أو ذكره من قبل إلا صاحب مشاهير أعيان فاس، وهو قد ذكره منسوباً إلى صالح بن عبدالحليم كما علمتَ.

ثم إننا يمكن أن نعُدّ في مؤلفات صاحب الترجمة كتاب «الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية» المجهول المؤلِف بحسب ما استنتجناه من البحث الذي كتبناه في هذا الصدد ونشرناه بمجلة تطوان العدد الثاني الصادر في سنة ١٩٥٧، والذي نُذَيِّلُ به هذه الترجمة، فإذا صحّ ذلك فإن كتب ابن أبي زرع حينئذٍ تكون ثلاثةً، الموجودُ منها اثنان.

وعلى كل حال فإن الحَصِيلَة الثقافية التي للمترجم هي التاريخ، والتاريخ المغربي بالخصوص، يضاف إلى ذلك قدرٌ صالح من علم الفقه وصناعة التوثيق والحساب مما يقتضيه انتصابُه لوظيف العدالة، أي: الشهادة... وقد عهِدنا في العدول ولا سيما المُبرِّزين منهم الاعتناء بفنِّ الإنشاء وتحسين الخط ومن ثَم فإنهم يتوفَّرُون على مادة أدبية ولُغَوية

لا بأس بها. وإلى هذا نعزو ما نجده عند صاحبنا من عبارات مُنتقاة وجُمَل بَلِيغة وحسبُك منه هذه الخطبة البارعة التي جعلها لكتابه القِرْطاس.

فنحنُ لا نذهب مذهب الذين وصَفُوا أسلوبَه بالهَلْهَلَة وألفاظه بعدم الفصاحة، وإذا وقع شيء من ذلك في كتابه فإنه يرجع إلى اختلاف النصوص وتبَايُن مراتب الذين نقل عنهم من المؤرخين في صياغة الكلام.

ومما يدل على سلامة ذَوْقه الأدبي هذه الأسماء التي يتخَيَّرُها لكُتبه فيُوازِنُ بين سجْعَاتها ويتخيَّل فيها تخيُّلاً شعرياً جميلاً كاسم «الأنيس المطرب برَوْض القِرْطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس»، وكاسم «أزهار البُستان في أخبار الزمان»... ومن اللطيف أن نشير هنا إلى ما زعمه الأديب أكنسوس في كتابه «الجيش العرمرم» من أن لفظ القِرْطاس كان لقباً لابن أبي زرع لا اسماً لكتابه، أي: مختصرَ اسمِه، على أنه إن صحّ هذا الأمر فإن ذلك الاسم يصير أكثر بلاغةً إذ يكون قد ارتكب فيه البديع المُسمّى بالتورية. وتتعزَّز هذه الناحية الثقافية في المترجم بالمُيُول الأخلاقية فتبدو معالِمُ شخصيته واضحةً جليَّةً كأن بيننا وبينها صِلةً وطيدةً وعهداً قديماً.

ومن أبرز صفاتهِ الإيمانُ العميق ومحبَّةُ أهل البيت وتعظيم العلماء ومشايخ الدِّين، وتجد شواهد ذلك مثبوتةً في مواضع كثيرة من كتابه كهذه الصفحات الخالدة التي كتبها في تاريخ بناء القرويين والزيادات التي زيدت فيها على مرّ القرون والإصلاحات التي أُدخلت عليها ولائحة أسماء الأئمة

والخطباء الذين تعاقبوا على مِحْرابها ومِنْبَرِها منذ تأسيسها وما يُسبغُ عليهم من تقدير وإعجاب لِما اتَّصفوا به من الديانة المتينة والورَع والزهد والإخلاص مما لا نجِدُه عند غيره إلا عندَ ناقلٍ عنه لا يعدو ما عِندَه. ودلالةُ هذا على إيمانه العميق مما لا يخفى، وكذلك حديثه عن مجيء الإمام إدريس بن عبدالله إلى المغرب وقيامِ دولة الأدارسة وبناء الإمام إدريس الثاني لمدينة فاس وما وضع الله في هذه المدينة من بركة آل البيت ثم ما آل إليه أمرُهم بعد ثورة موسى بن أبي العَافِية عليهم والعطف الذي يُحِيطُهم به في نُكبَتِهم هذه، كلٌ ذلك مما يعضُد ما قلناه في هذا الصدد، ولا نغفُل عما تضمنه كتابُه من تتبع أخبار العلماء والصالحين وذكر وفياتهم وفضائلهم ومنَاقِبهم فإنه أيضاً من هذا الواد.

ومن صفاته الاعتدال وعدَمُ التطرُّف فهو قد تكلَّم أصلاً، وعرَضاً على زُهاءِ عَشر دُوَل ومع ذلك لم ينَلْ من واحدة منهن منالاً ولم يُظْهِرْ تَحَيُّزَه السافِرَ لواحدة منهن إلا ما كان من عطْفِه على الأدارسة كما قلنا وعيْبِه على موسى بن أبي العافية تنْكِيلَه بالأشراف، وقد كان في هذه الدول السُّنية والشيعيّة والعرَبِيَّة والبربرية وغير ذلك، وهو ينقُل عن كتُبٍ مختلفة المشَارب والمذاهب، ولكنّه بقِيَ محافظاً على خطته ولم ينقُل إلا ما يُوافِق مَنْزَعه. وهو في النقول عجيب لأنه يختارُها أحسن اختيار ويُنزِّلُها في محلها أحس تنزيل، ولقد أفادنا كثيراً بنقوله هذه التي لم نكُن لِنظفَر بها لولا تضمِينُه لها في كتابه، لأن الكتب التي نُقِلتْ منها تُعتبر الآن في طَيِّ العدم.

وبعد استيفاء الكلام على النقطة الثانية مما تضمّنه نصُّ كتاب مشاهير أعيان فاس المتعلق بصاحبنا نختِمُ القول بالنظر في النقطة الرابعة وهي المتعلقة بوَفَاته. فقد أشار ذلك النص إلى وفاة صالح بن عبدالحليم وجعلها سنة ٧٢٦ عند انتهائه من تأليف «الأنيس الصغير»، أي: القِرْطاس الذي بيدنا، وقد علمتَ أن هذا ليس من تأليف ابن عبدالحليم بل هو من تأليف صاحبنا، كما أشار إلى وفاة أبي العباس أحمد بن أبي زرع سنة بضع عشرة وسبعمائة، وهو أيضاً على ما علمتَ غيرُ صاحبنا لأن هذا اسمه أبو الحسن عليُّ بن أبي زرع... وقد كان من السهل أن يُعتبر تاريخ وفاة ابن عبدالحليم هو تاريخ وفاة أبي الحسن بن أبي زرع لا سيما والأنيس الصغير أو القِرْطاس الذي حققنا أنه له قد تمّ فعلاً في ذلك التاريخ... ولكن المؤرخ الحافظ أحمد ابن القاضي قد أثبتَ لنا تاريخ وفاة صاحبنا في كتابه الصغير «لَقْط الفرائد من حِقَاق الفوائد»، أي: وفياتِه التي ذيّلَ بها وفيات ابن الخطيب القُسَنْطيني المعروف بابن قُنْفُذ فقال في سنة ٧٤١ بعد أن ذكر عدداً من المُتَوفِّين بها:

«والكاتب المؤرخ أبو عبدالله بن أبي زرع صاحبُ تاريخ فاس»، فإذاً إن حياة صاحبنا قد امتدت إلى ما بعدَ التاريخ الذي انتهى فيه تأليفُه خمسَ عشْرَة سنةً. وهذا هو تفسير ما يُقال من أن بعض نسخ القِرْطاس تمتدُّ فيها الحوادث إلى سنة ٧٣٢ كما في دليل مؤرخ المغرب.

أما أنه كناه بأبي عبدالله فقد تقدمت الإشارة لذلك وهو لا يضر مع التنصيص على أنه ابن أبي زرع صاحب

التاريخ. . . ومن المحتمل أن تكون هذه كنية ثانية له لا سيما وهو لم يُغْفِل كنيتَه المشهورة أعني أبا الحسن فإنَّ بها ذكرَه في الجَذْوة.

هذا ما تهيأ لنا كتابتُه من ترجمة ابن أبي زرع، أو من مخطَّطِنا على الأصح، راجين أن نكون أصَبْنا فيه كبد الحقيقة، وأن يكون نُقطةَ البَدْء في كتابة ترجمة مستوفاة له على قدر عمله العظيم في خدمة تاريخ المغرب، وذلك عندما يقعُ الاهتداء إلى مصادر جديدة تلقي ضوءاً كاشفاً على حياة هذا الجُندي المجهول.

بقي أن نقول كلمةً في كتابه القِرْطاس وقيمَتِه التاريخية وإن كان ذلك من الخبر بمعلوم عند المشتغلين بهذا الفن، إلا أنه ليس كلُّ الناس من المشتغلين بالتاريخ حتّى يُقدِّرُوه حقَّ قدْره، ونحن نكتب هذه التراجم لِعمُوم المثقفين فكم منهم لم يُتَحْ له الاطلاع على هذا الكتاب القَيِّم ولا أن يتَّخِذَ عنه نظرةً ولو سطحية.

إن مصادرَ التاريخ المغربي قليلةٌ جداً وهي على قِلَّتها نادرةُ الوجود بل أكثرُها يُعَدُّ في حكم المفقود. هذا حكم لا يُنازِعُ فيه أحد من الباحثين المُعْتَنِين بهذه الناحية من المباحث العلمية، وكُلَّما أوغلَ الباحثُ في عصور التاريخ البعيدة منَّا كلَّما ازدادَ يقيناً بهذه الحقيقة، وصار يخبِطُ في مجاهل تلك العصور على غير هُدًى ونَخصُرُ الكلام في التاريخ الإسلامي للمغرب تحريراً للمَنَاط فنجد أن زُهاءَ أربعة قرون منذ أشرقت شمسُ الإسلام على هذه الربوع لا تاريخَ لها بيَدِنا نرجع إليه ونعتمده في معرفة حوادث الأجيال

المتعاقبة في تلك المدة الطويلة والدول التي حكمت المغرب أثناءها. وليس معنى ذلك أنه لم يُكْتَب لهذهِ الحِقْبَة البعيدة المدى تاريخ مُطلقاً، بل الواقع أن هناك تواريخَ عديدة وضعَها أصحابُها في ذلك الوقت أو ما يُقارِبُه، ولكنها فُقِدت ودخلت في خبر كان ومن جُملتِها تاريخُ الورَّاق، وتاريخُ البُرْنُسي، وتاريخ ابن جنُّون وغيرهم، فإذا قلنا: إن ابن أبي زرع قد اطَّلَع على هذه التواريخ ونقلَ زُبْدَتها علِمْنا حينئذٍ القيمةَ العظيمة التي لتاريخه والفراغَ الكبير الذي سدَّه كتابُه القِرْطاس... وقد ظلَّ فعلاً إلى يومنا هذا هو التاريخ الوحيد لدولة الأدارسة وبني أبي العافية ومَغْراوةَ وبني يَفْرَن والمُرابِطين والموحِّدين وأوائل المرينيين إلى أيام أبي سَعِيد بن يعقوبَ المنصور منهم، أي: من قيامِ الدولة الأدريسية سنة ١٧٢ إلى سنة ٧٢٦ وهي مدة تنِيفُ على خمسة قرون ونصف قرن؛ تدخلُ فيها الحِقْبَةُ التي ليس لها بأيدينا تاريخ خاص وما بعدها من تاريخ الموحدين الذي عندنا مما وُضِع فيه كتابُ «المعجب» للمراكشي، ثم ما بعد ذلك من تاريخ المرينيين إلى زمن المؤلف، وذلك باستثناء التواريخ العامة كتاريخ ابن عَذارى وما ألّف بعده كتاريخ ابن خلدون وهي مع ذلك لا تستوعبُ استيعابَه في كثير من المسائل.

ومن الجديرِ بالتنبيه عليه أنه قصرَ تاريخه على المغرب الأقصى بحدودِهِ المعروفة، ولم يفعل ما فعله غيرُه، كصاحب المُعجِب وابنِ عَذارى وإن كانا مغْرِبيَّيْن من التعرُّض لِدُوَل إفريقية والأندلس إلاّ ما دعَتْ الضرورةُ إليه حين كانت هذه الدول تتدخّلُ في شؤون المغرب أو تتصدّى لحربه.

وأعجبُ من هذا أنه افتتحَ تاريخَه بالكلام عن الدولة

الإدريسية مُباشرةً من غير تمهيد ولا مقدمة في ذكر فتح المغرب وعهد الوُلاة فهل يعني هذا أن فكرةَ الوطنية المغربية والاستقلال عن دولة الخلافة كانت من المبادىء المُسَلَّمَة لديْه؟...

ونُنهِي هذا الوصفَ لكتاب القِرْطاس بإعطاء نموذَج منه يطلِعُنا على أسلوبه الإنشائي وطريقةِ تناوله للموضوع، وليكُن هذا النموذج هو وصفُه لمدينة فاس. قال:

«لم تَزلْ مدينَةُ فاس من حين أُسِّسَتْ دارَ فِقْه وعِلْم وصلاحٍ ودين، وهي قاعِدَةُ بلاد المغرب وقُطْرُها ومَرْكَزُها وقُطْبُهاَ، وهي كانت دارَ ممْلكَةِ الأدارسة الحسَنِيِّين الذين اختطُّوها، ودارُ مملكة زِناتَة من بني يَفْرَن ومَغْراوة وغيرهم من ملوك المغرب في الإسلام، ونزلها لمْتُونَة في أول ظهورهم على المغرب ثم بَنَوْا مدينة مرَّاكُش فانتقلوا إليها لقُرْبها من بلادهم بلادِ القبلة فأتى الموحدون بعدهم فنزلوا مرَّاكُش واتخذوها دارَ ملكهم لِقُرْبها من بلادهم، وكوْنِها مبنيةً في جِوَارهم وبين قبائلهم ومدينة فاس لم تزَل أمَّ بلاد المغرب في القديم والجديد، وهي الآن قاعدةُ ملوك بني مَرِين أطال الله أيامهم، وأعلى أمرهم، وخلّد سلطانهم، فهي منهم في المحل الرفيع، والشكل البديع، وقد جمعت مدينةُ فاس بين عُذوبة الماء، واعتدال الهواء، وطيب التُّرْبة وحسن الثمرة وسعة المحرَث وعظيم بَرَكتِه، وقُرْب الحطَب وكثرة عدَده وشجَره، وبها منَازِل مُؤنِقَة، وبساتين مُشرقَة ورياض مُورِقة وأسواق مرتّبة مُنسّقة، وعُيُونٌ منهمرة، وأنهارٌ متدفقة منحدرة وأشجار مُلتفَّة وجنات دائرة بها مُختَفّة، وقال

الحكماء: أحسنُ مواضع المدن أن تجمع خمسةَ أشياء وهي النهر الجاري والمحْرَثُ الطيب والمحطَب القريب والسُور الحصين والسلطان، إذ به صلاح حالها وأمْنُ سُبُلِها وكفُّ جبابرتها؛ وقد جمعَت مدينةُ فاس هذه الخصالَ التي هي كمال المُدن وشرَفُها، وزادت عليها بمحاسن كثيرة نذكُرها بعدُ إن شاء الله تعالى. فلها من المَحْرَث العظيم سَقْياً وبعلاً على كل جهة منها ما ليس هو على مدينة من مدائن المغرب، وعليها المحطَبُ في جبل بني بَهْلول الذي في قِبْلَتِها يُصْبِحُ كلَّ يوم على أبوابها من أحْمال حطَب البَلّوط والفَحْم ما لا يوصَف كثرةً، ونهرُها يشقُّها نِصْفَين، ويتشَعّب في داخلها أنهاراً وَجداولَ وخُلْجاناً، فتتخلل الأنهارُ ديارَها وبساتِينَها وجنّاتِها وشوارِعها وأسواقَها وحمّاماتِها، وتَطْحَنُ به أرجاؤها، ويخرجُ منها وقد حملَ أثقالها وأقْذارها ورَماداتها وقد أنشد الفقيه الصالح الزاهد أبو الفضل ابنُ النَّحوي في مدحها ووصفها:

يا فاسُ منكِ جميعُ الحُسْن مُسْتَرَقُ
والسَّاكِنُوك لِيَهْنُوا بِالَّذِي رُزِقُوا
هذا نَسيمُكِ أمْ رَوْح لِرَاحَتِنا
ومَاؤكِ السَّلْسَلُ الصَّافي أمِ الوَرِقُ
أرْضٌ تَخَلَّلها الأنهارُ داخِلَها
حتى المجالِسُ والأسْوَاقُ والطُرُقُ

وكان الفقيه أبو الفضل ابنُ النَّحوي من أهل العلم والدِّين والورع والفضل، ذكره صاحب كتاب التَشوُّف.

بَحْثٌ بقلم المؤلف
في أن: مؤلف الذخيرة
السنية هو مؤلف القرطاس

«الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية» كتاب مفيد جداً في تاريخ هذه الدولة وملوكها الأولين، عبدالحق وأبنائه الأربعة أبي سعيد وأبي مُعَرّف وأبي يحيى وأبي يوسف، والأحداث الهامة التي جرت في أيامهم سواء بالمغرب أو الأندلس أو المشرق، ومنها وفيات بعض الأعيان من علماء وغيرهم. ولذلك أصبح هذا الكتاب مرجعاً معتمداً لدى الباحثين في هذه الشؤون منذ قام بنشره الأستاذ المرحوم محمد بن أبي شنب في سنة ١٩٢٠ بالجزائر.

ولم يقدّم له الناشر المذكور بمقدمة يعرف فيها بالكتاب، وأين وجده، وصفة المخطوطة التي نَشَرَهُ عنها، وتاريخها، وما إلى ذلك مما يعين على معرفة هُوِية مؤلفه الذي لم يُذْكَر اسمه كذلك في هذه النشرة. ومن ثم فقد بقي هذا الكتاب المفيد مجهول المؤلف وكلما أشير إليه في مناسبة من المناسبات، وهي كثيرة، قيل: إنه لمؤلف مجهول.

ولقد كنت منذ تملكت هذا الكتاب وقرأته، وذلك لعدة سنين خلت، اعتقدت أنه أخو القِرْطاس وشقيقه، وأن مؤلفهما واحد. وظللت كلما مررت بذكره ورأيت نسبته لمؤلف مجهول تعجبت من ذلك واستغربت عدم الاهتداء لمعرفة مؤلفه، مع أن جميع صفحاته تكاد تعلن بالحقيقة وتقول: إنني من إنتاج صاحب القِرْطاس، وهذا هو الذي جعلني الآن أستعرض محتويات هذا الكتاب وأسلوبه، وبعض العبارات الخاصة التي تعين شخصية مؤلفه، مما يعتبر دليلاً قاطعاً على أنه هو مؤلف كتاب القِرْطاس نفسه.

فأولاً: إن صاحب القِرْطاس الذي جعل كتابه تاريخاً لملوك المغرب ولمدينة فاس، كان معاصراً لدولة بني مرين يعيش في كَنَفِها ويحيا تحت ظلها، وكذلك صاحب الذخيرة السنية. وقد انتهى بتاريخها في كتابه الجامع الذي هو القِرْطاس إلى مدة السلطان أبي سعيد بن أبي يوسف، وكذلك فعل في تصميم كتابه الخاص، الذي هو الذخيرة السنية، فانتهى به إلى مدة أبي سعيد هذا... وإنما قلت في تصميم كتابه، لأنه قسم الذخيرة إلى عشرة أبواب، الباب العاشر منها هو الخاص بأبي سعيد ولكن ما طبع منها يقف عند الباب السادس المخصص للسلطان أبي يوسف. ولذلك جاءت هذه العبارة في آخر طبعة الذخيرة: «هذا ما وجد من هذا الكتاب» فهو في تصميمه كان ينوي أن ينتهي به كما انتهى في القِرْطاس عند دولة أبي سعيد ولكن الأقدار لم تساعده... هذا إذا لم تكن المخطوطة التي نُشِر عنها الكتاب مبتورة فتكون هي الناقصة لا الكتاب. وإلى أن

توجد نسخة أخرى منه لا نستطيع أن نجزم بشيء في هذا الصدد. على أن مؤلفنا الذي أنهى كتابه القِرْطاس بالكلام على دولة أبي سعيد ووصفه بما يصف به المؤرخون المعاصرون ملوك زمانهم من تلك الأوصاف الضخمة، ودعا له كما يفعلون، بأحرّ الأدعية، قد افتتح كتابه الذخيرة بذكر دولة أبي سعيد، ووصفه بنفس الأوصاف ودعا له تلك الأدعية، فهو إن لم ينتهِ إليه في آخر الكتاب، لم يغفل أن يفعل ذكره أولاً. وبذلك تطابق الكتابان في نهاية تاريخهما لدولة بني مرين.

ثانياً: إن ما يذكره الكتابان معاً في أصل بني مرين ونشأة دولتهم متشابه جداً، لا في الرواية فحسب، التي من شأنها أن تتشابه في مثل هذه الحال بل في المصدر والنسق والعبارة. فهما معاً يبدآن بذكر مفاخر بني مرين ومآثرهم على الإجمال، وتأتي أثناء ذلك هذه العبارات التي يقول فيها المؤلف باللفظ الواحد: «أما بنو مرين فهم أعلى قبائل زِنَاتةَ حسباً، وأشرفها نسباً، وأغزرها كرماً، وأحسنها شيماً، وأرعاها زماماً، وأرجحها أحلاماً، وأشدها في الحروب بأساً وإقداماً، وأقواها ديناً، وأصحها يقيناً، وأوثقها عَقداً، وأوفاها عهداً، وأوفرها عدداً، وأطولها في الشدائد يداً... إلخ.

وإذا كان المؤلف في الذخيرة يتوسع في هذه الحِلَى أكثر من القِرْطاس ويطرزها ببعض الأبيات الشعرية المناسبة للمقام مما قيل فيهم من بعض شعرائهم، فإن مما لا ينبغي أن يغيب عن الذهن أن الذخيرة كتاب خاص بمملكة بني مرين، وهو لذلك أوسع دائرة في أخبارهم وحوادث أيامهم،

بل وتواريخ غيرهم من الممالك الإسلامية المعاصرة فلا عجب إذا رأيناه يفيض حتى في مدحهم أكثر مما فعل في القِرْطاس على أنه من الناحية الخبرية الصرف لا يخل في القِرْطاس بشيء مما يتعلق بدولتهم وإن آثر الإيجاز، فالقِرْطاس لا يقل فائدة عن الذخيرة مطلقاً.

وبعد الانتهاء من تَعداد هذه المناقب المجملة يتعرض الكتابان معاً كذلك لذكر «نسبهم الصريح وحسبهم العالي الصحيح» ويعتمدان في ذلك على النقل عن الفقيه أبي علي الملياني فيرفعان نسب مرين في عِدَاد قبائل زِنَاتة الكثيرة إلى قَيْس عَيْلان. وتتوسع الذخيرة فتذكر أسماء هذه القبائل وأبياتاً من الشعر تشهد بصحة هذا النسب ثم يتطرقان كلاهما لسبب تعجُم ألسنتهم ورحلتهم عن بلاد العرب في قصة مِيثُلُوجِية طريفة مُخَلَّلة بالأشعار على العادة مع إفاضة من الذخيرة وانفراد ببعض الفوائد كذكر أصل المرينيين الأشراف وبني وطاس الذين يظن أنهم من بني مرين، وهم لمتونيون صنهاجيون يَمَنِيون لا قَيْسِيون، وإنما انضموا إلى زِناتة بعد ذهاب دولتهم وقيام الموحدين عليهم. وبعد هذا يذكران أيضاً «كيفية دخولهم للمغرب وظهور ملكهم السني المعجب» فيسوقان الخبر سياقاً واحداً لا يختلف إلا في بعض الزيادات التي تأتي بها الذخيرة مما يقتضيه مقام الإطناب والتوسُّع، ويستشهدان معاً في تاريخ دخول بني مرين للمغرب ببيتين من الشعر من بحر الكامل سجل قائلهما ذلك التاريخ نظماً، وكذلك بأبيات من أُرجوزة المَلْزُوزي الشهيرة في التاريخ ولا يلبثان حتى يختما هذا الفصل بعبارة واحدة هي هذه:

«فضعف ملكهم (يعني الموحدين) بذلك وضَوِي، وظهر أمر بني مرين واعتز وقَوِي».

ثالثاً: يساير القِرْطاس الذخيرة وتسايره في كل ما يؤرخان به للملوك الخمسة الأولين من بني مرين، فالتواريخ باليوم والشهر والعام هي هي فيهما، والأوصاف الخَلقية والخُلقية لهؤلاء الملوك متحدة تماماً، والحوادث لا تختلف في قليل ولا كثير، إلا ما سبق أن أشرنا إليه من زيادة البيان والتوسع في عرض بعض الأخبار التي عند الذخيرة. وكل ذلك بعبارة تكاد تكون واحدة، بل إن ما ينقص منها في أحدهما تجده تاماً في الآخر، بحيث يمكن أن يُوصي بتصحيح أحد الكتابين على الآخر إذا أُعيد طبعهما... ولا شك أن مؤلِّفاً مهماً بلغت جرأته في السطو على آثار الآخرين، لا يستسيغ أن ينقل كلام غيره بنصه وفصه بل قُلْ أن ينسخه من غير تبديل ولا تغيير وينسبه لنفسه. فلم يبقَ إلا أن الكتابين معاً هما لمؤلف واحد، يذكر في القِرْطاس ما يناسب وضعه ومنهاجه، من كونه تاريخاً لملوك المغرب من بني مرين وغيرهم فيقتصر على المهم من الأخبار وما يخص موضوع التأليف. ويذكر في كتاب «الذخيرة» ما يناسب فكرته وتصميمه من كونه تأليفاً خاصاً بمملكة بني مرين فيستوعب ما ذكره في القِرْطاس ويزيد على ذلك ما يقتضيه المقام من شروح وإيضاحات.

ويلفت نظرك في هذا الباب بعض الأخبار الخاصة والجزئيات التي تميز هذا الكتاب عن ذلك، وبها تتفاضل الكتب فيما بينها، فإنها واحدة في كل من القِرْطاس

والذخيرة لا ينفرد واحد منهما عن الآخر بشيء منها. وذلك فيما يتعلق بملوك بني مرين طبعاً. . فمثلاً والد الأمير عبدالحق كان ممن شهد غَزوة الأرك مع المنصور الموحدي متطوعاً فعقد له على جميع مَن كان في العسكر من زناتة وأبلى البلاء الحسن وتوفي متأثراً بجراحاته في تلك الغزوة وعبدالحق كان «قليل الوليد فريداً في العدد» فرأى رؤيا فسرت له بأنه يلد أولاداً يملك المغرب منهم أربعة؛ وأنه لما قتل في حربه مع عَرب رِيَاح أقسمت بنو مرين «ألا يدفن حتى تأخذ ثأره، وتحمي ذِمَاره، فحملوا على رياح حملة الأسد على الثعالب، وانقضُّوا في جيوشهم انقضاض البُزاة في اليعاقب، وهزموهم» هذا كله مما يتفق فيه لفظ الكتابين ومعناهما ويدل على أن شخصية مؤلفهما واحدة.

وفي ترجمة الأمير أبي يعقوب يذكر الكتابان معاً من أوصافه ولا سيما شجاعته ما يقرب بعضه من بعض، ثم يعبران بهذه العبارة قائلين: «فهو كما وصفه صاحب الأرجوزة» يقصدان شاعر دولتهم عبدالعزيز الملزوزي وأرجوزته التاريخية التي سبقت الإشارة إليها. ويأتيان بعد ذلك بخمسة أبيات من هذه الأرجوزة في وصفه.

وفي ترجمة الأمير أبي يحيى يتفق الكتابان على أنه لما قصد إليه السعيد الموحدي؛ وهو بمكناس، خرج ليلاً وحده فطاف بعسكر السعيد، فلما رأى ما هاله تخلى عن مكناس وبايع للسعيد، وأنه لما طلب من هذا الأخير أن يمده بالعدد والعدة ويرسله لحرب يَغْمُراسِن، شاور السعيد وزراءه فقالوا له: «لا تفعل، فإن الزّناتي أخو الزناتي لا يخذله ولا يُسلِمُه

فنخاف أن يصطلحا عليك ويجتمعا على حربك» وإن أهل فاس بعثوا إلى الأمير أبي يحيى فبايعوه بالرابطة التي بخارج باب الشريعة، وأخرجوا والي الموحدين عنهم فأمنه أبو يحيى وأرسله في خفارة خمسين فارساً إلى وادي أم الربيع... كما أنهم لما انتقضوا على واليه فقتلوه وأراد الانتقام منهم قام إليه شيخ من بينهم يعرف بابن الخبا فدلّه على مَن تولى ذلك الفعل، وهم ستة أشخاص من بينهم القاضي فقتلهم وأخذ سائر أشياخهم بغرم المال الذي أخذوه من القصبة لما قتلوا الوالي «فذلُّوا ولم يبقَ فيهم مَن يرفع رأساً بعدها إلى اليوم» بهذه العبارة تقريباً في الكتابين معاً.

وهكذا سجل الكتابان أيضاً أخص الأنباء عن السلطان أبي يوسف المنصور... وأبرز ما يلاحظه المطالع لهما أن المؤلف لما أتى بهذا العنوان المتشابه: «الخبر عن سِيَره الجميلة ومآثره الجليلة» قال في القِرْطاس: «نذكرها مختصرة وجيزة، ونقتصر منها على ما ذكر صاحب الأرجوزة» وفي الذخيرة ما نصه: «اذكرها مختصرة وجيزة، من نظم صاحب الأرجوزة» ثم أتى في الكتابين معاً بسبعة وعشرين بيتاً من الرَجزية خصصها الملزوزي لذكر يعقوب المنصور وسيرته. وحين عرضا لتاريخ سير هذا السلطان إلى مدينة مراكش وحصاره بها للمرتضى الموحدي، استشهدا معاً بأربعة أبيات من رجزية الملزوزي. وفي جوازه الأول للأندلس وإيقاعه بزعيم النصرانية ضُون نُونَة ذكر الكتابان معاً أن ابن اشْقَيْلُولة كان من جملة مَن هنّأه بهذا النصر المبين، وضمن كتاب التهنئة قصيدة عينية من وزن الكامل. فأورداها معاً بنصها

التام إلا بيتين انخرما من نسخة القِرْطاس، وقد تكلمنا على هذه القصيدة ونسبتها في غير هذا المحل[1]. ويطول بنا الكلام لو تتبعنا مثل هذه الجزئيات التي يتوافقان فيها بالنص والحرف من ترجمة المنصور، ونحن إنما نريد أن نقول: إن شخصية الكتاب، بمعنى خصائصه ومميزاته، من شخصية المؤلف. ولو اختلف مؤلِّف الكتابين لما توافقا إلى هذا الحد الذي ذكرناه.

رابعاً: ترجم المؤلف في القِرْطاس لبعض الأعيان من العلماء وغيرهم الذين توفوا أثناء هذه المدة، التي نشأت فيها دولة بني مرين، كالعلامة ابن تاخميست والأمير أبي مالك بن يعقوب المنصور، وسجل بعض الحوادث المهمة في الاجتماع والعمران التي حصلت في هذه الأثناء كوقوع الغلاء والقحط وبناء باب المحروق بفاس مع بيان سبب تسميتها بذلك وبناء سور مدينة بادس والمزمَّة ومَلِيلة.. وكل هذه الأمور مما أثبتته الذخيرة وبالعبارات نفسها التي وردت في القِرْطاس.

خامساً: بالرغم من أن الأسلوب الكتابي في المؤلَّفين معاً أسلوب عربي فصيح، لا يعكر عليه في بعض المواضع إلا التحريف الذي يرجع لعدم التصحيح وسقم النسخ الأصلية، فإن المؤلف قد يستعمل بعض الكلمات العامية المغربية مما يجري على الألسنة كثيراً ويستعمله الموثقون، والمؤلف منهم فيما يقال، رغبة في الإيضاح، ونجد هذا في

(١) انظر: الحلقة العاشرة من سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب.

الكتابين معاً. . . وذلك كالقطائن بمعنى القيود والدخيل بمعنى الشفيع والمحلة بمعنى الجيش. فهما إذاً يستمدان من مصدر واحد.

سادساً: وهو أقوى الأدلة: أن المؤلف لما تعرض لأولية بني مرين قال في القِرْطاس: «نقلت من تقييد الفقيه أبي علي الملياني بخط يده» وقال في الذخيرة: «ذكر الفقيه الكاتب البارع أبو علي الملياني رحمه الله في نسبهم ما نذكره إن شاء الله، ونقلتُه من تقييد بخطه» وعندما تكلم على دخول مرين للمغرب قال في القِرْطاس: «حدثني مَن أثق به من أهل التاريخ أنه لما دخلت مرين المغرب تفرقت قبائلها في أنحائه. . .»، وقال في الذخيرة: «أخبرني مَن أثق به من أهل العلم والمعرفة بالتاريخ وأيام الناس، وهو الشيخ الفقيه أبو العباس بن الجبر، وأدركته وقد أخذت منه السن العالية: أن بني مرين، أنجدهم الله تعالى، لما دخلوا المغرب تفرقت قبائلهم في جهاته وأنحائه. . .» فزاد في الذخيرة تسمية الشخص الذي نقل عنه الحديث ومطط العبارة على عادته فيها وإن كان المؤدى واحداً. وفي ترجمة الأمير عبدالحق، وهو بصدد الكلام على أخلاقه وصفاته، يقول في القِرْطاس: «أخبرني الفقيه القاضي أبو محمد عبدالله بن الوَدُون وأخوه الفقيه أبو الحجاج يوسف، أنهما قدما على أمير المسلمين أبي يوسف بن عبدالحق رحمه الله في وفد أهل مدينة فاس من الشرفاء والفقهاء والصلحاء بمدينة رباط الفتح، وذلك في شهر رمضان من سنة ثلاث وثمانين وستمائة للسلام عليه حين قدم من حضرة مراكش

يريد الجواز إلى الأندلس برسم الجهاد فجرى في مجلسه رحمه الله ذكر والده الأمير أبي محمد عبدالحق فقال أمير المسلمين: «كان والله الأمير عبدالحق صادق اللسان...»، ويقول في الذخيرة: «أخبرني الشيخ الفقيه القاضي المبارك أبو محمد عبدالله الودون أنه قدم على أمير المؤمنين أبي يوسف يعقوب بن عبدالحق المذكور في وفد أهل مدينة فاس...». فهذه أحاديث تلقاها المؤلف مباشرة من رواتها وذكرها بصيغة واحدة في الكتابين معاً، مما يدل دلالة قاطعة على أنه المؤلف لها وأنهما من إنتاجه بغير شك ولا ريب.

هذا كله بالنسبة لمقابلة الكتابين ومحتوياتهما المتعلقة بتاريخ بني مرين، وثَمّ أدلة أخرى منها:

سابعاً: أن مؤلِّف الذخيرة فاسي، كما يظهر لمن يتتبع كلامه فيها من اعتنائه بأخبار عاصمة العلم وذكره لرجالها وحركة العمران فيها وأحوالها الاجتماعية. وغير ذلك مع إظهاره لمزيد العطف وعظيم الميل نحوها مما لا يصدر إلا ممن يُكِنّ لها وداً مكيناً وحباً راسخاً عملت على تكوينه وإنمائه النشأة وطول السنين... وهكذا كان شأن صاحب القِرْطاس. ألم يجعل مؤلفه القيم يحتوي على موضوعين اثنين: تاريخ ملوك المغرب ومدينة فاس؟ وهاك مثلاً ما يقوله في الذخيرة بشأن بناء المدينة الجديدة (فاس الجديدة) عاصمة بني مرين: «وكان تأسيسها في طالع سعيد ووقت يُمْن وبَرَكَة ومَزِية، دلّ على طول بقائها، وكثرة عمارتها واتصال خيْراتها، وما يجيء إليها من الأموال. فكانت والحمد لله مدينة مباركة. فاتخذها (يعقوب المنصور) دار

ملكه وملك بنيه وعَقِبه من بعده، يجيء إليها جميع خراج المغرب. ومن بركاتها وسعادتها ويُمْن طالعها أنها لا يموت فيها خليفة، وأنها لم يخرج منها قط جيش إلا ظفِر ولم يُعقد بها قط لواء إلا نُصِر، ومصداق ذلك أن أمير المسلمين أبا يوسف الذي اختطها وبناها وشيّدها وبنى أسوارها وجامعها وأسواقها واتخذها دار مُلكه وقرار سلطانه توفي رحمه الله غائباً عنها في المدينة التي بناها أمام الجزيرة الخضراء من بلاد الأندلس. ثم ولده الخليفة بعده أمير المسلمين أبا يعقوب توفي بقصره في بلدته الجديدة التي بناها بتلمسان وهو محاصر لها فاستوطنها ومدَّنها واتخذها حضرتَه إلى أن توفي بها على ما يأتي بيانه. وكذلك حفيده الخليفة بعده وهو الأمير أبو عبدالله بن أبي يعقوب المذكور توفي بقصره بقصبة طنجة. وكذلك أخوه الوالي بعده أبو الربيع سليمان فإنه توفي أيضاً بقصبة رباط تازة».

وقد ذكر في القِرْطاس هذه المزية أيضاً، ولكنه لم يستعرض أماكن وفيات هؤلاء الملوك. ونحن آثرنا ذكر نص الذخيرة بكامله لتأكيد ما قدّمناه من أن تصميمها كان يشمل بقية ملوك بني مرين إلى أبي سعيد الذي انتهى إليه القِرْطاس، فإما أنه لم يَتِمَّ وضعاً وإما أن النسخة المطبوع عليها كانت مبتورة... وعلى كل حال فإن الكتابين هما من نَبْعَة واحدة بهذا وذاك.

ثامناً: تمتاز الذخيرة عن القِرْطاس كما قلنا بالتوسع في حكاية بعض الأنباء المتعلقة ببني مرين، وذلك مما يقتضيه كونها كتاباً خاصاً بدولتهم، كما تمتاز بالتعرض لبعض أخبار

الممالك الإسلامية في المشرق وترجمة بعض العلماء المشارقة بمناسبة ذكر وفياتهم، فمما نجده فيها من ذلك أخبار عن مملكة بني أيوب والحروب الصليبية، وهجَمات التتار على بُخَارى وسمَرْقَنْد ثم بغداد وقتل الخليفة المعتصم العباسي وانقراض الخلافة العباسية مع ذكر مدة بقائها، وتراجم للفخر الرازي وابن الصلاح وابن الحاجب وأمثالهم مما ينبئ عن ثقافة تاريخية واسعة تُعِدُّ صاحبَها لأن يكون مؤرخاً عمومياً ومن أصحاب الموسوعات التاريخية الكبيرة. . . وهو ما يشير إليه ويتحدث به صاحبُ القِرْطاس حينما يُحِيلُنا في بعض المواضع من كتابه المذكور على مُؤلَّفه الكبير الذي سمّاه: «زهر البستان في أخبار الزمان»، فما في الذخيرة من ذلك إنما هو أثارة من علم هذا المؤرخ الضليع الواسع الاطلاع.

ويظهر أن تأليفه للذخيرة متأخر عن كتابَيْه المذكورين، فإنه في القِرْطاس يُحِيلُ على زهر البستان ولا يذكر الذخيرة، وبطبيعة الحال إن الذخيرة أوفر مادة من القِرْطاس في موضوعها فلا محل للإحالة فيها عليه. وأما عدم الإحالة على زَهْر البستان في الذخيرة فلأن ما يذكره من الأخبار العارضة الخارجة عن موضوع الكتاب إنما هو تبرُّع منه فما قلّ منه يكون كافياً في توسيع دائرة معلومات قارئه، وإذا لم يكن مقصوداً بالذات فلا موجب للإحالة على البستان ولا على غيره فيما لم يقع فيه الاستيعاب.

ويعد فإن بالمكتبة الوطنية بمدريد أوراقاً عدتها ١٥ صفحة من الحجم الكبير يوجد في أولها هذا العنوان: «ذكر

الياقوتة الجلية، في الذرية السعيدية المرينية المباركة العبد الحقية (كذا) أطالها (كذا) الله تعالى وخلّدها، وأعلى كلمتها وأيّدها» وهي تشتمل على أولية بني مرين وأخبار الملوك الأولين منهم المترجمين في الذخيرة بمثل نسَقِها وبالعبارات نفسها الواردة فيها، ولكن على سبيل الاختصار مع تحريف بعض الأسماء والخطأ الشنيع في بعض العبارات، وهلهلة الأسلوب واضطراب حبل الارتباط بين الجمل... وفي نظرنا أن هذه العبارات المتشابهة إن لم تكن نقلاً عن تاريخ سابق أو تقييد رسمي استمد منه كل من صاحب القِرْطاس والذخيرة، وصاحب هذه الأوراق فإنه لا مَعْدى عن أن تكون هذه الأوراق شِبْهَ اختصار للذخيرة من أحد المتطفّلين على التأليف... وعلى كل حال فلا علاقة بينها وبين مؤلفنا صاحب الذوق الفني الجميل وخاصة في تسمية كتبه. فأين يقع هذا الاسم المهلهل من اسم الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، وانظر إلى التزام النون في السجعتين الذي تمّ به تناسقهما. ومن اسم الأنيس المطرب بروض القِرْطاس، في تاريخ ملوك المغرب وبناء مدينة فاس، فإنه أيضاً اسم منسّق تنسيقاً بديعاً، وصاحبه لا يقول الياقوتة الجلية في الذرية السعيدية المرينية... إلخ.

وإنما قلنا: إن هذه الأوراق ربما كانت اختصاراً للذخيرة لمسايرتها لها في الأخبار التي تتضمنها عن بني مرين مقتصرة على المادة التاريخية الخاصة بهم لا تتجاوز إلى غيرها، ولاسمها هذا الذي يفيد أنها تقف عند أبي سعيد أيضاً وإن كان الموجود منها يقف عند أبي يوسف،

فكادت أن تكون مسخاً من الذخيرة. وربما رجح وقوفها عند أبي يوسف كون الذخيرة لم تكمل وضعاً وأن المطبوع منها هو ما كتبه صاحبها الذي وضَحَ أنه هو صاحب القِرْطاس رحمه الله.

* * *

ابن بطوطة
(ت ٧٧٧ هـ)

اسمه ونسبه، مولده، نشأته العلمية وتربيته الخلقية، مكانته بين الرحّالة، تقويم الرحلة، ابتداء رحلته الأولى إلى أقطار الشرق، رحلته الثانية إلى الأندلس، رحلته الثالثة إلى السودان، عودته إلى المغرب وإملاؤه رحلته، ولايته القضاء بالمغرب، وفاته، ضريحه بطنجة، كلام الناس فيه وتزكية ابن مرزوق له، دفاع ابن خلدون عنه، رد انتقاد آخر على الرحلة.

هو الرحّالة العالمي الشهير أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم بن عبدالرحمٰن بن يوسف اللّواتي الطنجي المعروف بابن بَطُوطة، بفتح الباء وضم الطاء الأولى مع التخفيف، وبعضهم يشددها والجاري على الألسنة خلافه.

ولَواتَةُ التي يُنسب إليها هي بفتح اللام قبيلة مغربية منازلها الأصلية بِبَرقة من أرض طرابلس، وتوطن منها بجهات المغرب المختلفة أقوام نبغ منهم بطنجة قبل المترجم أسرة بني سمَجُون الفقهاء الأعلام، وبسبتة الفقيه المشاوَر

أبو جعفر اللّواتي المعروف بابن القابِسي شيخ القاضي عياض وغير هؤلاء.

على أن أسرة ابن بَطُوطة نفسها كانت أسرة علمية ظهر فيها القضاة ومشايخ العلم على ما أخبر هو عنها في الرحلة لما خيّره ملك الهند في وظائف الوزارة والكتابة والإمارة والتدريس فقال: «أما الوزارة والكتابة فليست شغلي، وأما القضاء والمشيخة فشغلي وشغل آبائي». وذكر في الرحلة أيضاً أنه لما قدم إلى رُنْدة في رحلته إلى الأندلس كان القاضي بها هو ابن عمه الفقيه أبو القاسم محمد بن يحيى بن بطوطة. فهذا بيت ثان من لَواتة نبغ بطنجة وإن لم نحط بأفراده علماً، لسكوت المؤرخين وكتاب التراجم عن ذكرهم. ولولا هذه الإشارة العابرة من رحالتنا إلى ما كان لأهله من مجد علمي لما عرفنا عنه شيئاً من ذلك.

وكانت ولادة ابن بَطُوطة في مدينة طنجة يوم الإثنين ١٧ رجب عام ٧٠٣ والدولة المرينية في عنفوان القوة، والشعب المغربي في أوج تقدمه العلمي والأدبي، فمن الطبيعي أن ينشأ ابن بطوطة؛ وهو سليل أسرة علمية عريقة، على طلب العلم وينبت في حجر والديه نباتاً حسناً. والظاهر أنه إنما درس على مشايخ بلده، إذ لا نعلم له رحلة في هذا الصدد قبل رحلته الكبرى.

أما طلبه العلم وتحصيله طرفاً منه فمما لا شك فيه. ويدلنا على ذلك أنه في أثناء رحلته لم يكن يخالط إلا أهل العلم ولا يجنح إلا إليهم، وإذا لقي أحداً من كبار المشايخ، ومشاهير العلماء حرص على الأخذ عنه والقراءة

عليه، وتَخيّره هذا لشيوخ الرواية هو وحده دليل على نزعة علمية أصيلة فيه.

ولا ننسى أنه لما كان بالبصرة وشَهِد صلاة الجمعة فيها بمسجد عَلِيّ، لاحظ أن الخطيب يلحن لحناً كثيراً جلياً على حد تعبيره، فعجب من ذلك وذكره للقاضي فقال القاضي له: «إن هذا البلد لم يبقَ به من يعرف شيئاً من علم النحو»، وهذا الأمر حمله على أن يسجل هذه الملاحظة للاعتبار فيقول: «وهذه عبرة لمن تفكر فيها، سبحانه مغير الأشياء ومقلب الأمور! هذه البصرة التي إلى أهلها انتهت رياسة النحو وفيها أصله وفرعه ومن أهلها إمامه الذي لا ينكر سبقه؛ لا يُقيم خطيبُها خطبةَ الجمعة على دؤوبة عليها!».

ثم لا ننسى أنه ولي منصب القضاء على المذهب المالكي في مدينة دهلي بالهند مدة تنيف على سبع سنين ثم بجزيرة ذِيبَة المهَل أيضاً ما يقرب من سنة ونصف كما ولي قضاء الركب التونسي للحج فَوْرَ انفصاله عن المغرب، ومات وهو قاضٍ ببعض جهات المغرب كما يأتينا عن ابن مرزوق. فهذان الأمران، وهما ملاحظة اللحن على خطيب البصرة وولايته للقضاء في بلاد عديدة، زمناً طويلاً يُرْشِدانِنَا إلى ما كان عليه من ثقافة لغوية وفقهية لا يستهان بها.

أضف إلى أنه كان ينظم شعراً وسطاً على عادة العلماء المتفننين، وقد أعطانا نموذجاً منه في الرحلة، وهو سبعة أبيات من قصيدة مدح بها ملك الهند، فهذا أيضاً دليل على ثقافته الأدبية.

ولم يشر في الرحلة على طولها إلى أنه تلقى شيئاً من الدراسات المماثلة لما ذُكر عن أحد من العلماء الذين لقيهم في البلاد المختلفة، وإنما ذكرَ سماعَه لبعض كتب الحديث على بعض كبار العلماء وإجازتهم له، وأخْذَه للعهد عن بعض مشايخ الصوفية على ما كان عليه الحال في الزمن الماضي، وتلك طريقة العلماء الذين يحرصون على سعة الرواية وعلو السند، فلا يقال: إنه درسَ أثناء رحلته، لأن ذلك لا يُفهم منه بحال.

وعليه فهو قد درس ببلده طنجة، وزاول دراسته في فجر حياته، لأنه لما شدّ الرحلة كان ابن اثنين وعشرين عاماً، وفي الوقت نفسه كان قد انتهى من الدراسة، وإذا دلّ هذا على شيء فعلى أن طنجة كانت غنية بعلمائها في ذلك الوقت، وهم من الصنف الذي يستغني به الطالب في دراسته الكاملة فلا يحتاج إلى الهجرة في طلب العلم. والغريب أنه لم يسمّ لنا أحداً من شيوخه هؤلاء ولم يذكر شيئاً عن أوليته في الطلب، وإنما المرجح أن يكون من بين شيوخه بعض أقاربه الذين قال عنهم ما قال.

هذا استنتاجنا بالنسبة إلى تكوينه العلمي. وأما بالنسبة إلى تكوينه الخُلُقي فيظهر أن والديه اللذين لم يفتأ يحن إليهما أشد الحنين طوال رحلته، قد ربّياه تربية دينية متينة. فكان قوي العقيدة، محافظاً على أداء الشعائر الدينية، صبوراً، صدوقاً، واثقاً بالعناية الإلهية، لا سيما عند الشدائد. وذلك ما جعله يخاطر بالتوغل في أقاصي البلاد والرحلة إلى أقطار العالم في زمن كانت المواصلات فيه

شاقة جداً، والطرق غير مأمونة. وأكثر الشعوب والأمم على عَداءٍ متصل فيما بينها. ومن الدليل على شدة تديُّنه أن باعثه الأول على الرحلة كان هو إرادة الحج وأداء هذه الفريضة التي لا تجب على الفور، وهو لم يزل بعد في عنفوان الشباب وطراوة الإهاب، أمامه متسع من الوقت للقيام بهذه العبادة لو كان كغيره من الشباب يريد أن يقضي لُبانات النفس من اللهو والمتاع ثم يستأنف حياة الجد والتديُّن بعد ذلك، ولكنه، كان شاباً من طراز آخر يتمثل فيه قول الرسول ﷺ في حديث السبعة الذين يُظلهم الله بظل العرش: «**وشاب نشأ في عبادة الله!**».

وفي أثناء رحلته الطويلة كان لا يسمع برجل من الصالحين في بلد من البلدان ولو لم يكن على طريقه، إلا عرّج عليه وزاره وتبرك به وطلب منه الدعاء له ولوالديه. وكذلك كان لا يجنح إلا لأفاضل الناس ولا يصحب إلا ذوي المروءات منهم. وشيء آخر وهو أنه منذ ابتداء رحلته، جرى على الاستفادة من سماحة الشريعة الغراء فكان يتزوج في كل بلد يحل به وينوي الإقامة فيه، وربما تزوج في الطريق ويصطحب معه زوجته ولا يفارقها هو حتى تكون هي الراغبة في الفراق، يتحامى بذلك عن الوقوع في العَنَت وهتك حرمات أهل البلد الذي ينزله، وكل ذلك مما يدل على قوة دينه ونقاء عرضه.

ومن أخلاقه الأصيلة أنه كان سريع التأقْلُم إن صحّ هذا التعبير، ونعني به التكيُّف بطبيعة الإقليم الذي يستقر به والاندماج في أهله ومواطأتهم على عاداتهم ومألوفاتهم حتى

يصبح كأنه واحد منهم وكأنما ولد بين ظهرانيهم وعاش معهم زماناً طويلاً، ولعل لبلده طنجة التي هي طريق رئيسي بين الشرق والغرب وطبيعة أهلها المرِحَة المنشرحة دخَلاً في ذلك. وهذا على ما نظن مما كان له أثر كبير في تغلغله في الأوساط الاجتماعية المختلفة للبلاد التي زارها، أضف إلى ذلك ما كان عليه من شدة الملاحظة وقوة الذاكرة فلا جرم أن تمتاز رحلته بكونها سجلاً مهماً للحياة الاجتماعية بل والسياسية والاقتصادية في أقطار لم نكن لنعرف عنها شيئاً في الوقت الذي زارها فيه لولا انطباعاته هذه التي سجلها بكل دقة وأمانة.

وإلى هنا نكون قد ألممنا بالعناصر الأولية التي كونت هذه الشخصية القوية، ولعل عنصراً آخر مادياً يكون ضروري الإضافة إلى هذه العناصر المعنوية، وهو متانة بِنْيَة الرجل وشِدّة أسْرِه، ولا نعدم في الرحلة ما يدلنا على ذلك من المشاق والمتاعب بل والمعارك المسلحة التي اشترك فيها وواجهها بثبات وشجاعة. وبهذا تتم الصفات التي كان يتوفر عليها الرحّالة الإسلامي الأكبر، والتي هي بتوفيق الله سبب نجاحه المنقطع النظير.

وإذا قلنا: الرحّالة الإسلامي الأكبر فإننا نعني ما نقول؛ لأنه لم يقم بين المسلمين على كثرة الرحالين فيهم من جاب هذه البلاد العديدة التي جابها ابن بطوطة في الشرق والغرب والشمال والجنوب، ودوّن مشاهداته فيها، وترك لنا مثل هذا الأثر الجغرافي الممتع الذي يقر له الكفاء، على أنه حتى بين الأوروبيين لم يقم رحّالة يَفْري فريه قبل العصر الحديث. ولهذا نجد مثل سيتزن (Seetzen) الرحّالة الألماني يقول:

«أي مسافر أوروبي في هذا العصر يمكنه الافتخار بأنه خصص قدر الزمن الذي يبلغ نصف حياة الإنسان في سبيل التفتيش عن مثل هذا العدد من البلدان السحيقة وذلك بشجاعة لا يزعزعها شيء وبتحمل المشقات العديدة؟ بل أية أمة أوروبية كان يمكنها لخمسة قرون خلت إيجاد مسافر يجوب المناطق الأجنبية بمثل هذا الاستقلال في الحكم، وبمثل هذه المقدرة على المراقبة، وبمثل هذه الدقة في كتابة الملحوظات، الذي اتصف به هذا الشيخ المراكشي المشهور في المجلدين من كتابه؟ إن معلوماته عن الكثير من المقاطعات الإفريقية المجهولة وعن نهر النيجر وعن بلاد الزنج (زنجبار)... إلخ، لا تقل فائدة عن معلومات لاون الإفريقي. أما جغرافية بلاد العرب وبخارى وكابول وقندهار فإنها تستفيد كثيراً من كتابه، حتى أخباره عن الهند وسيلان وسومطرة والصين فإنه من الواجب على إنكليز الهند[1] أن يقرؤوها باهتمام خاص.

هذه الشهادة التي أوردها الأستاذ فؤاد أفرام البستاني في روائعه، وهي واحدة من عشرات نظيرتها للعلماء الغربيين، تطلعنا على بالغ التقدير الذي يحظى به رحّالتنا عند القوم، والمقام السامي الذي يحلونه فيه بين رحاليهم العصريين؛ ولئن كان الأستاذ المذكور ينبّه على أنه لا ينبغي أن نعد ابن بطوطة من جوّابي الآفاق ودارسي المجاهل من علماء عصرنا، فإننا نذكره بأن جواباً دارساً من هؤلاء لا

(١) يقول هذا لما كان للإنكليز هند.

يستطيع أن يجوب ويدرس في آن واحد مثل هذه الرقعة الفسيحة من سطح الكرة الأرضية التي جابَها ابن بطوطة ودرسها دراسة إن لم تكن وافية من الناحية العلمية فإنها لا تقصر عن أي وصف جغرافي صحيح إلا في مواطن قليلة، وقع له فيها غلط، وأي عالِم لا يغلط؟

على أن إفاداته عن الأحوال الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لكثير من البلاد التي زارها، كانت وستبقى مصدراً هاماً للكاتِبين في تاريخ هذه البلاد والباحثين عن قصة الحضارة في القرون الوسطى.

وقد ردد ذلك التنبيه ولكن بصفة أكثر تحاملاً على ابن بطوطة، كل من الأستاذين أحمد العوامري بك ومحمد أحمد جاد المولى بك فيما كتباه من ترجمة للرحّالة بمقدمة مُهَذّب رحلته، وإن كانت هذه الترجمة لا تخرج عن أن تكون نسخة مصغرة مما كتبه صاحب الروائع.

وقد كتب صديقنا الأستاذ محمد عبدالله عنان بمقال له عن أدب الرواد المسلمين في مجلة «الرسالة»[١] كلمة فيها إنصاف لرحّالتنا، ولذلك يروقنا أن نثبتها هنا.

قال حضرته: «على أن أعظم الرواد المسلمين على الإطلاق هو أبو عبدالله محمد بن عبدالله الطنجي الشهير بابن بطوطة، ولم يكن ابن بطوطة رحّالة عظيماً فقد يجوب أنحاء العالم المعروف يومئذ، بل كان مكتشفاً عظيماً يقصد إلى

---

(١) عدد ٥٦.

مجاهل البر والبحر، وكتابه «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» وهو المعروف برحلة ابن بطوطة أجمل وأنفس أثر عربي في هذا النوع من الأدب.

وقد خرج ابن بطوطة من طنجة مسقط رأسه في سنة ٧٢٥هـ - ١٣٢٥م يجوب أقطار العالم، واخترق بلاد المغرب ومصر والشام وبلاد العرب وبلاد الروم وقُسطنطينة، وفارس وخُراسان وتُركُستان والهند وسيلان والصين وجزائر الهند الشرقية، واخترق في عوده قلب إفريقية من السودان إلى بلاد النّيجر، ووقف على كثير من مجاهل بعض الأقطار والأمم التي لم تكن معروفة يومئذ تمام المعرفة، ووصل إلى أعالي نهر النيجر وإلى تِمْبكتُو وسُكُوتو قبل أن يصل إليها الرواد الأوروبيون ويكتشفها الرحّالة الإنجليزي منجوبارك بعد ذلك بنحو ثلاثة قرون، وسلخ في رحلاته نحو ربع قرن، وترك لنا عن أسفاره واكتشافاته ومشاهداته، ذلك الأثر الذي يعتبر بحق من أبدع آثار السياحة والاكتشاف».

وإذ قد عرفنا قيمة الرجل وأهمية الرحلة التي قام بها، فلنتأثر خطاه لمعرفة البلاد التي زارها والطرق التي سلكها، من غير أن نقف معه في بلد أو طريق، إلا نادراً جداً حين نمر بخبر طريف أو نُكتة حارّة أو وصف لشيء غريب يحسن الوقوف عنده. ولا نستوعب في ذلك أيضاً وإنما نعطي أمثلة قليلة منه لعلها تكون حافزاً لمطالعة أخبار الرحلة كلها في كتاب «تحفة النظار».

وقد رحل صاحبنا ثلاث رِحْلات، أولاهن وهي

أطولهن، بدأها في يوم الخميس ٢ رجب ٧٢٥ وانتهى منها في يوم الجمعة أواخر شعبان عام ٧٥٠، ومعلوم أن قصده الأول كان هو الحج إلى بيت الله الحرام وأن خروجه كان من طنجة، وأنه كان له من العمر حين ابتداء الرحلة اثنان وعشرون عاماً، وذلك في أيام السلطان أبي سعيد المَرِيني الأكبر. وقد مرّ في طريقه بتلمسان وسلطانُها يومئذ أبو تاشَفين بن أبي حَمّو، ولم يمكث بها طويلاً لأنه رغب في صحبة رسولَيْ ملك تونس إلى بلاط تلمسان، وهما القاضي أبو عبدالله النفزاوي والشيخ أبو عبدالله الزبيدي، وكانا قد انفصلا عنها يوم وصوله إليها فلحق بهما، وتوفي القاضي في الطريق فتأخر هذا الوفد لأجل دفن الميت. وارتحل صاحبنا مع رفقة من التجار، ومات أحدهم أيضاً وترك مالاً فسطا عليه عامل بجاية قال: «وهذا أول ما شاهدته من ظلم عمال الموحدين» يعني الحفصيين أصحاب تونس. ثم مرض صاحبنا بالحمّى ولكنه تحامل على نفسه، وكان قد لقي ثانياً الشيخ أبا عبدالله الزبيدي فساعده كثيراً، وبعد لأيٍ وصل إلى تونس. قال «فبرَزَ أهلُها للقاء الشيخ أبي عبدالله الزبيدي ولقاء أبي الطيب ابن القاضي أبي عبدالله النفزاوي (المتوفى) فأقبل بعضهم على بعض بالسلام والسؤال، ولم يسلم عليّ أحد لعدم معرفتي بهم فوجدت من ذلك في النفس ما لم أملك معه سوابقَ العبرة واشتد بكائي، فشعر بحالي بعضُ الحجاج فأقبل عليّ بالسلام والإيناس وما زال يؤنسني بحديثه حتى دخلت المدينة».

وهذا الضعف الذي بدا من صاحبنا في هذا الموقف

هو مما يُستغرَب من رجل سيجوب فيما بعد أكثر المعمور، وينقطع عن موطنه وأهله خمساً وعشرين سنة، إلا أنه كان الأول والآخر فلم نعد نراه شاكياً ولا باكياً، وقد برهن بما بدا منه بعد ذلك في غير موقف من التجلُّد وعدم المبالاة بالأخطار مهما عظمت، أنه إنما انفجر عند أبواب تونس لوَداع المغرب، وأن ذلك الضعف لم يكن له خلُقاً أصيلاً كما حاول أن يُلصقه به كل مَن كتب عنه من الكتّاب المحدثين.

وعلى كل حال فقد دخل تونس ونزل بمدرسة الكُتْبِيّين منها، وكان سلطانها يومئذ هو أبو يحيى بن أبي زكرياء الحفصي، ومن أعلامها حينئذٍ ابن الغمّاز وابن عبد الرفيع وابن قداح الهواري قال: «ومن عوائده أنه يستند كل جمعة بعد صلاتها إلى بعض أساطين الجامع الأعظم المعروف بجامع الزيتونة ويستفتيه الناس في المسائل فإذا أفتى في أربعين مسألة انصرف»، وقد حضر صلاة عيد الفطر بها ورأى بُروزَ السلطان إلى الصلاة ثم خرج في ركب الحاج التونسي إلى الحجاز وكان أكثره من المصامدة قال: «فقدّموني قاضياً بينهم» وولايته هذه للقضاء في فور انفصاله عن المغرب مما يدل على أنه كان يتوفر على مؤهلات علمية كافية.

وخرج الركب من تونس في أواخر ذي القعدة سالكاً طريق الساحل فوصل إلى طرابلس في ١٣ من ذي الحجة وتزوج صاحبنا ببنت لأحد التونسيين، ثم انفصل عن الركب الذي أقام بطرابلس خوفاً من البرد والمطر وغادرها هو

أواخر محرم ٧٢٦ في جماعة من المصامدة وتقدم عليهم، وفي أثناء الطريق وقع بينه وبين صهره التونسي مشاجرة أدت إلى فراق بنته، ثم تزوج بنتاً لبعض طلبة فاس، وأولم وليمة حبس لها الركب الذي تلاحق بهم بعدما كان قد تخلف في طرابلس.

وفي أول جمادى الأولى وصل الركب إلى مدينة الإسكندرية، ويخصها الرحّالة بوقفة طويلة وصف فيها عجائبها وذكر بعض علمائها، منهم قاضيها عماد الدين الكندي «إمام من أئمة علم اللسان، وكان يعتَمّ بعمامة خرقت المعتاد للعمائم، لم أرَ في مشارق الأرض ومغاربها عمامة أعظم منها، رأيته يوماً قاعداً في صدر محراب وقد كادت عمامته أن تملأ المحراب».

وذكر أنه وجد في الإسكندرية ملك تونس المخلوع أبا يحيى زكرياء بن أحمد بن أبي حفص المعروف باللحياني ومعه أولاده وحاجبه ووزيره.

وتجوّل في الأقاليم المصرية قصداً لزيارة بعض الصالحين، وفي إحدى القرى جرى بينه وبين ناظر القرية حديث عن مبلغ جباية بلده طنجة فأخبره أنها اثنا عشر ألف دينار ذهب فعجب الناظر وقال له: «رأيت هذه القرية؟ فإنْ مَجْباها اثنان وسبعون ألف دينار ذهباً»، قال: «وإنما عظمت مَجابي ديار مصر لأن جميع أملاكها لبيت المال»، وفي مدينة أبيار حضر عند قاضيها يوم الرّكبة وهو يوم ارتقاب هلال شهر رمضان، وفي مدينة دمياط شاهد عجباً وهو أنه «إذا دخلها أحد لم يكن له سبيل إلى الخروج منها إلا بطابع

الوالي، فمَن كان من الناس معتبراً طبع له في قطعة كَاغَد يستظهر به لحراس بابها، وغيرهم يطبع على ذراعه فيستظهر به»، وهذا الإجراء الذي كان يوحي به ـ ولا شك ـ موقع المدينة الحربي يشبه ما نسمّيه اليوم بالجواز، ولم يقل صاحبنا ما كان حظه بالنسبة إلى هذا الإجراء؛ هل الطبع في الكاغَد أوْ على ذراعه فكان من أصحاب الأذرع الممدودة للكشف عنها عند الخروج؟

وركب الرحّالة النيل من مدينة سمنود مُصعِداً إلى مصر «ما بين مدائن وقرى منتظمة متصل بعضها ببعض»، قال: «ولا يفتقر راكب النيل إلى استصحاب الزاد، لأنه مهما أراد النزول بالشاطئ نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك، والأسواق متصلة من مدينة الإسكندرية إلى مصر، ومن مصر إلى مدينة أسْوان من الصعيد» ووصل إلى مصر فبهرَته بعظمتها ووصفَ مشاهدها ومعالمها وذكر أشياء من أخبار أمرائها وأخلاق أهلها، وكان سلطانها يومئذ محمد الناصر بن قلاوون، وقد أثنى عليه وحمد سيرته، وأعجب بالزاوية التي عمّرها خارج القاهرة، لكنه استطرد ففضل عليها الزاوية التي أنشأها السلطان أبو عنان بخارج فاس الجديد. ثم ذكر قضاة مصر فقال: إن أعلاهم منزلة وأكبرهم قدراً هو القاضي الشافعي، وكان إذ ذاك هو العالِم بدر الدين بن جماعة الشهير. وذكر العلماء أيضاً فكان من بينهم النحوي الأندلسي المعروف أبو حيان، وسافر من مصر متوجهاً إلى الحجاز بطريق الصعيد، وفي قُوص عاصمة هذا الإقليم، رأى العالم فتح الدين ابن دَقِيق العِيد، وكان هو

الخطيب بها، فأثنى عليه بالفصاحة والبلاغة والسبق في هذا المضمار وقال: «لم أرَ مَن يماثله إلا خطيب المسجد الحرام بهاء الدين الطبري وخطيب مدينة خُوارزم حُسام الدين الشاطبي» وإذا كان خطباء العالم الإسلامي في ذاك العصر ثلاثة، فلا عجب أن نرى ما عليه الخطباء اليوم من العجز المخجل. وواصل صاحبنا سفره في صعيد مصر إلى مدينة أذفُو ثم ركب النيل إلى مدينة العطواني، ومنها امتطى ظهر الجمال ودخل الصحراء مع جماعة من الأعراب إلى مدينة عَيْذَاب فوصلها بعد خمسة عشر يوماً. قال: وأهلها البجاة وهم سود الألوان؛ وأميرهم يعرف بالحذْرَبي وكان تحت السيطرة الإسمية للناصر بن قلاوون. ولقي صاحبنا فيها مشايخ منهم الشيخ المسن محمد المراكشي «زعم أنه ابن المرتضى ملك مراكش (يعني الموحدي) وأن سنَّه خمس وتسعون سنة».

ولم يأتِ لصاحبنا أن يبحر من عيْذاب، إلى جُدَّة كما كان يؤمل لأنه وجد صاحبها في حالة حرب مع الناصر، وقد خرق المراكب وتعطلت طريق البحر، فرجع عوْدَه على بدْئِه مع قافلة الأعراب وقطع الصحراء ثانية إلى الصعيد ثم إلى قُوص، وانحدر منها في النيل إلى مصر، وكان أوان مده، فوصلها بعد مسيرة ثمان، ولم يلبث فيها إلا ليلة واحدة وقصد الشام فاخترق شمال مصر كما اخترق جنوبها وذلك في منتصف شعبان ٧٢٦ وفي مركز على الحدود يسمى قطياً وجد صاحبنا ديواناً للتفتيش أهم من الذي حكى عنه بدمياط، يوجد به العمال والكتّاب والشهود، فتفتَّش فيه

أمتعة التجار ويُبحث عما لديهم أعظم البحث، وتؤخذ منهم الأعشار، ولا يجاوزه أحد إلى الشام إلا ببراءة من مصر ولا إلى مصر إلا ببراءة من الشام، احتياطاً على أموال الناس وتوقياً من الجواسيس العراقيين، وذلك يدل على أن العلاقات السياسية بين ملوك مصر والمغول الحاكمين بالعراق لم تكن على ما يرام. ويقول الرحالة: أن الطريق الفاصل بين البلادين كان في ضمان العرب قد وُكّلوا بحفظه، فإذا كان الليل مسحوا على الرمل حتى لا يبقى به أثر، ثم يأتي الأمير في الصباح فينظر إلى الرمل فإن وجد به أثراً طالب العرب بإحضار مُؤثّره، فيذهبون في طلبه فلا يفوتهم فيأتون به الأمير فيعاقبه بما شاء. وهكذا كانت سياسة الملوك والرؤساء، وما زالت، عاملاً مؤثراً في فرقة العرب والمسلمين وتفكيك وحدتهم. ويُعفى الأميرُ صاحبنا ومَن معه من الرسوم الواجبة والإجراءات اللازمة، حينما يتحقق أنه مغربي؛ لأن المغاربة لا يتعرض لهم في هذا المركز، ويوجد عند الأمير موظف مغربي يسمى عبدالجليل هو الذي يقوم بمهمة التحقق من مغربية المسافرين. وبذلك لا يختلف هذا المركز عن أي مركز تفتيشي على الحدود بين بلادين مختلفين في هذا العصر حتى في تنصيب الخبراء في الأشخاص!...

ويصل صاحبنا إلى غَزّة من بلاد الشام وينتقل منها إلى الخليل ثم إلى القدس فيزور كل ما يمر به من المعاهد والمشاهد، ويصف المسجد الأقصى، وقبة الصخرة، ويذكر أسماء مشايخ القدس وقد أخذ عن بعضهم العهد ثم يغادرها

متنقلاً بين عدة مدن إلى أن يصل إلى صُور قال: «وهي خراب وبخارجها قرية معمورة وأكثر أهلها أرْفاض، ولقد نزلتُ بها مرة على بعض المياه أريد الوضوء، فأتى بعض أهل تلك القرية ليتوضأ، فبدأ بغسل رجليه ثم غسل وجهه ولم يتمضمض ولا استنشق ثم مسح رأسه، فأخذت عليه في فعله، فقال لي: إن البناء يكون ابتداؤه من الأساس» ويواصل السير إلى أن يصل بيروت ويقصد منها لزيارة قبر أبي يعقوب يوسف الذي يزعمون أنه من ملوك المغرب قال: «وهو بموضع يعرف بكرك نوح من بقاع العزيز، وعليه زاوية يُطعَم بها الوارد والصادر» ثم يذكر حكايته في الفرار من الملك وما نسجه العوام حول ذلك من عناكب الخيال. والمعروف أن أبا يوسف يعقوب المنصور الموحدي هو الذي راجت حوله هذه الأسطورة[1]، وابن بطوطة يجعله أبا يعقوب يوسف فلعله أخطأ في اسمه إن لم يكن ذلك من تصحيف النسّاخ.

ويمضي صاحبنا في طريقه إلى طرابلس فيصفها ويذكر من وجد بها من العلماء ومنهم شمس الدين بن النقيب. وما يزال ينتقل من بلدة إلى أخرى حتى يصل مدينة حلب فينوّه بها كثيراً، ويغلط في تسمية نهرها بالعاصي ظناً منه أنه النهر الذي يمر بحماة، واسمه الصحيح القُوَيْق، على أنه يشرح لنا سبب تسمية النهر بالعاصي شرحاً طريفاً فيقول: «قيل: إنه سمّي بذلك لأنه يخيل لناظره أن جريانه من أسفل

---

(١) انظر الاستقصا ج ص ل ١٨٤.

إلى علو» ولا ينسى أن يذكر من وجد بها من العلماء ومنهم ابن الزَمْلكاني، ويمر بعد ذلك بأنطاكية ثم بحصون الإسماعيلية «ويقال لهم: الفِدَاوية ولا يدخل عليهم أحد من غيرهم، وهم سهام الملك الناصر، بهم يصيب من بَعْد عنه من أعدائه بالعراق وغيرها» إلى آخر كلامه عنهم، ثم يمر بمنازل النصيرية، الطائفة المعروفة، فيتحدث عنهم وعن هَوَسِهم وبجبل لبنان فيصفه بخصب التربة وجمال الطبيعة وبأنه لا يخلو من المنقطعين إلى الله تعالى، ومن لبنان يصل إلى بَعْلَبَكّ فيذكر من خيراتها ومصنوعاتها الشيء الكثير ومن ذلك صحاف الخشب وملاعقه التي لا نظير لها في البلاد، يصنعون منها دسُوتاً يجعل بعضها في جوف بعض فيكون الدست يحتوي على عشر صحاف أو ملاعق واحدة منها أصغر من الأخرى إلى النهاية ويصنعون لها غشاء من جلد تمسك به.

وفي ٩ رمضان ٧٢٦ وصل صاحبنا إلى دمشق، وكان عظيم الاشتياق إليها. فنزل منها بمدرسة المالكية التي تُعرف بالشرابشية. ووصفها فقال: «ودمشق هي التي تفضُل جميع بلاد الدنيا حُسناً وتتقدمها جمالاً وكل وصف وإن طال فهو قاصر عن محاسنها».

ويجول فيها جولته فيتحدث عن الجامع الأموي بإسهاب وعن غيره من المعاهد والمدارس والمزارات وعن الأوقاف الخيرية التي أوقفها أهل دمشق على السابلة والمحتاجين وتجهيز البنات الفقيرات إلى أزواجهن وإعانة العاجزين عن الحج وفكاك الأسرى وإصلاح الطرق. ويذكر

أن لطرق دمشق رصيفين في جنبيها يمر عليهما المترجلون ويمر الركبان في وسطها ويحكي هذه الحكاية الطريفة مما يتعلق بالأوقاف الخيرية قال: «مررت يوماً ببعض أزقة دمشق فرأيت مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صفحة من الفخار الصيني وهم يسمونها الصحن فتكسرت واجتمع عليه الناس فقال له بعضهم: اجمع شقَفْها واحملها معك لصاحب أوقاف الأواني فجَمَعها وذهب الرجل معه إليه فأراه إياها فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن. وهذا من أحسن الأعمال، فإن سيد الغلام لا بد له أن يضربه على كسر الصحن أو ينهره، وهو أيضاً ينكسر قلبه ويتغير لأجل ذلك، فكان هذا الوقف جبراً للقلوب، جزى الله خير من تسامت همته في الخير إلى مثل هذا».

وبالجملة فهو ينوّه كثيراً بأخلاق أهل دمشق وبحُسن معاملتهم للغريب وكرم ضيافتهم، ومن كلامه يعلم أن دمشق في ذلك العصر كانت لا تزال عظيمة العمران برغم ما مرّ عليها من أحداث وأن المجتمع الإسلامي بها كان أرقى ما يكون. ثم يذكر مَن لقي بها من العلماء وهم جماعة كثيرة ومنهم ابن الشّحْنة سمع عليه البخاري في أربعة عشر مجلساً بقراءة البَرْزالي وأجازه إجازة عامة كما أجازه غيره من أعلامها. ولم يأخذ عن ابن تَيْمية وإن قال إنه رآه[1].

وفي مستهل شوال السنة خرج من دمشق مع الركب

(١) في رؤيته له نظر، لأن ابن تيمية عند وصول ابن بطوطة إلى دمشق كان رهن الاعتقال.

الحجازي قاصداً معان ومنها دخل الصحراء «التي يقال: إن داخلها مفقود وخارجها مولود» على حد تعبيره، فوصل المدينة المشرّفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، وبعد قيامه بزيارة الروضة الشريفة وشفاء غليله من تلك المعاهد المنيفة توجه إلى مكة المكرمة على الطريق المعتاد فأدّى الفريضة على أتم وجه إلى مكة كما كان يؤمل وطاف بجميع المشاعر وزار كل المشاهد ووصف البيت الحرام والحياة في مكة وأثنى على أخلاق أهلها أحسن الثناء.

وفي ٢٠ من ذي الحجة خرج من مكة صحبة الركب العراقي، وكان ركباً حافلاً يحتوي على جمع من العراقيين والخراسانيين والفارسيين والأعاجم «لا يحصى عددهم، تموج بهم الأرض موجاً، ويسيرون سير السحاب المتراكم فمَن خرج لحاجة ولم تكن له علامة يستدل بها على موضعه ضلّ عنه لكثرة الناس» أما تجهيز هذا الركب بالمواد والمؤون والأدوية والأشربة ووسائل الراحة فحدّثْ عنه ولا حرج، وكان أميره يدعى البَهْلوان وهو من أهل الموصل، وجميع ما يتوفر عليه هذا الركب من الاستعداد الكامل هو من حسنات ملك العراق أبي سعيد. وقد قرّب أمير الركب صاحبَنا وأكرمه ويعجبك حديث الرحّالة عن الطريق بين الحجاز والعراق عَبْرَ نجد وخاصة عن مصانع الماء في الصحراء القاحلة وسير الركب ليلاً، وقد أوقِدت المشاعل أمام القطار والمحارات فترى الأرض تتلألأ نوراً والليل قد عاد نهاراً، وبالجملة فإن ركب الحج العراقي فيما يحدث صاحبنا لا يضاهيه ركب، وهو يتأخر بمكة عن الركبين

الشامي والمصري أربعة أيام تفتح له فيها الكعبة الشريفة فيدخلها هو ومَن ينضوي تحت لوائه ويكثر أفراده من الصدقة والعطاءات لأهل مكة حتى إنهم «ربما وجدوا إنساناً نائماً فجعلوا في فيه الذهب والفضة إلى أن يفيق» وتؤثر نفقاتهم السخية على سعر الذهب بمكة فيرخص سَوْمُه وذكر الرحّالة أنه لما عاد إلى مكة في سنة ٧٢٨ بصحبة هذا الركب وقع التنويه باسم ملك العراق أبي سعيد على المنبر في الحرم وما ذلك إلا لأن اللّهي تفتح اللّها كما يقولون.

ويترك صاحبنا الركب العراقي في النجف، بعدما يزور مشاهد آل البيت فيقصد البصرة عن طريق واسط، ويصف المدينة العربية الشهيرة ويقُصّ حكاية خطيبها اللحّانة الّتي تقدمت ثم يجوب شط العرب ويخترق بلاد فارس، وفي عبّدان يلتقي بأحد العُبّاد فيدعو له بقوله: «بلّغَك الله مرادَك في الدنيا والآخرة» ويُعقّب هو بهذه العبارة: «فقد بلغت بحمد الله مرادي في الدنيا، وهو السياحة في الأرض، وبلغت من ذلك ما لم يبلغه غيري فيما أعلم، وبقيت الأخرى والرجاء قوي في رحمة الله وتجاوزه وبلوغ المراد من دخول الجنة»، وهنا فقط أعرب عن أن مراده كان هو السياحة في الأرض، ولم يكن قبل يذكر إلا الحج. كما أنه ذكر هنا عادته في سفره، وهي أنه لا يعود من طريق سلكها ما أمكنه ذلك، وأنه كان يريد زيارة بغداد ولكن بعض أهل البصرة أشار عليه بالسفر صَوْبَ بلاد العجم فعمل بإشارته لما كانت موافقة لعادته وزار في هذه البلاد مدينة تُسْتَر وأقام في ضيافة شيخها صدر الدين من ذرية سهل بن عبدالله

التَّسْتري الشهير ٦١ يوماً قال: «فلم أرَ أعجب من ترتيبه ولا أرغد من طعامه. . . وهذا الشيخ من أحسن الناس صورة وأقومهم سيرة، وهو يعظ الناس بعد صلاة الجمعة بالمسجد الجامع، ولما شاهدت مجالسه في الوعظ صغُر لديّ كل واعظ رأيته قبله بالحجاز والشام ومصر ولم ألقَ فيمن لقيتهم مثله».

وزار أيضاً مدينة أصفهان ووصف من ترف أهلها ما يقضى منه العجب، وأخذ العهدَ عن بعض شيوخها وذلك في ٢٤ جمادى الآخرة ٧٢٧ ثم زار شيراز وأثنى عليها كثيراً وجعلها نظيرة دمشق في كثير من الأوصاف، وذكر من غريب أمورها أن النساء يجتمعن بها لسماع الوعظ كل يوم إثنين وخميس وجمعة في المسجد الأعظم وربما اجتمع منهن الألف والألفان بأيديهن المراوح يروحن بها على أنفسهن من شدة الحر قال: «ولم أرَ اجتماع النساء في مثل عددهن في بلدة من البلاد، ولاحظ شدة تعظيم الأعاجم للعلم والعلماء حتى أن سلاطينهم ربما سمُّوا أبناءهم بأسماء مشيخة العلم، كسلطان شيراز أبي إسحٰق بن محمد شاه الذي سمّاه أبوه باسم الشيخ أبي إسحٰق الكازَرُوني قال: «والفقيه ببلاد الأعاجم كلها إنما يخاطب بمولانا» وممن لقي بشيراز الشيخ مجد الدين إسماعيل بن محمد بن خداد إذ سمع عليه مسند الإمام الشافعي ومشارق الأنوار للصاغاني، ومن المشاهد التي زارها هناك قبر الشاعر سَعْدي المشهور قال: «وكان أشعر أهل زمانه باللسان الفارسي وربما ألمع في كلامه بالعربي».

ثم دخل البرية بعد ذلك قاصداً الكوفة ومنها إلى بغداد دار السلام وحضرة الإسلام كما قال، وكان يوجد بها في رجب السنة حين سمع مُسنَد الدارمي على الشيخ سراج الدين القَزْوِيني ولم يطل الكلام عليها؛ لأنها كانت في إدبار من أمرها، لكنه تبسّط في الكلام على ملكها أبي سعيد بَهادُور وموكبه العظيم، وكان قد سافر بمعيته أياماً، ثم زار تِبرِيز فأعجب بسوقها الجامعة وخاصة سوق الجوهريين حيث حار بصره مما رأى من أنواع الجواهر، وهي بأيدي مماليك حِسان الصُّوَر عليهم الثياب الفاخرة، وأوساطهم مشدودة بمناديل الحرير وهم بين أيدي التجار يعرضون الجوهر على نساء الأتراك، وهن يشترينه كثيراً ويتنافسن فيه. قال: فرأيت من ذلك كله فتنة يُتعوّذ بالله منها».

وكان ملك العراق أبو سعيد عرف أنه يريد الحج إلى بيت الله الحرام، فأمر له بالزاد والركوب في السبيل مع المحمل إلا أنه رأى الموسم لا يزال بعيداً، فسافر إلى الموصل وديار بكر ثم عاد فلحق بركب العراق وكان أميره هو سابق الذكر فأظهر من الاعتناء بصاحبنا ما لا مزيد عليه... ووصل مكة وحجّ ثانية عام ٧٢٧ ولما كان قد اختار المُجاورة بالحرم الشريف، فقد حجّ ثالثةً في العام الموالي، وحضر هذه الحجة أناس من بلده طنجة ومن قَصْر المجَاز ومن القصر الكبير، جلّهم من الفقهاء فتعرف منهم أخبارَ المغرب، ثم إنه أقام مجاوراً بمكة أيضاً إلى سنة ٧٢٧ وحجّ للمرة الرابعة، وفي السنة التي بعدها وقعت فتنة بمكة فخرج منها إلى جدة وركب البحر لأول مرة إلى اليمن عَبْر

سَواكن، فطاف بأرجاء القطر العربي العريق، ولم ينسَ أن يسجل التشابه بين اليمنيين والمغاربة في كثير من الأحوال «مما يقوِّي القول بأن صنهاجة وسواهم من قبائل المغرب أصلهم من حمير».

وأبحر من عدن إلى مدينة زَيْلَع بالصّومال ولاحظ عليها شدة القذارة بحيث إنه لم يستطع المبيت بها، ففضل النوم بالمركب مع اضطراب البحر ثم توجه إلى مَقْدَشَو عاصمة تلك البلاد ولقي سلطانها وهو يلقب بالشيخ، ومن غريب ما ذكر من أحوالها أنه عندما تصدح الموسيقى الرسمية لا يتحرك أحد ولا يتزحزح من مقامه، ومَن كان ماشياً وقف، كما يجري الآن تماماً في بعض البلاد ذات الحكم العسكري، وعاد إلى اليمن عبر ظِفَار ثم عرج على هُرْمُز وسِيرَاف والبَحْرين ووصف مَغَاصَ اللؤلؤ فيما بين تلك البلاد ورجع أدراجه فعبر إلى القطيف مجتازاً باليمامة قصد مكة، فحجّ للمرة الخامسة وذلك سنة ٧٢٧ وذكر أن الملك الناصر ابن قلاوون حجّ في تلك السنة ولكنه لم يتصل به على ما يظهر كما لم يتصل به في مصر.

وهنا يكون ابن بطوطة قد قضى في الرحلة سبع سنين ونصفاً، وحجّ خمس مرات، وطاف العالم العربي كله وجانباً مهماً من العالم الإسلامي، ومع ذلك فإن القسم الأكبر من رحلته كان لا يزال أمامه. ولنتأثره مسرعين فقد أتى جدة وأراد أن يبحر إلى اليمن قَصْدَ الهند، ولكنه لم يجد مركباً ولا رفيقاً، فعاد إلى مصر بطريق الصعيد ثم إلى الشام عن طريق بلبيس وركب البحر إلى العلايا بجنوبي آسيا

الصغرى قال: «وهي أول بلاد الروم» فجاس خلالها وتحدّث عن أمرائها، وكان الأتراك حينذاك لم يستتموا وحدتهم بعد، فحديثه عنهم في هذه الفترة من تاريخهم السياسي له أهمية كبيرة، ومما يلفت النظر في حديثه عن هذه البلاد مُنظّماتُ الفِتْيان المسماة بالأخِيّة التي كان يلتقي بها في طول البلاد وعرضها، وهي منظمات شبيهة بالنقابات والكشفية وتغلب عليها الصبغة الدينية والخُلُقية، فتنتظم فيها جماعات من الشباب ينتسبون إلى مهنة معينة ويتخذون مقراً لهم يجتمعون فيه كل ليلة ويأكلون ويشربون ويغنُّون ويرقصون مع المحافظة على الشعائر الإسلامية والاعتناء بإكرام الضيف وتسلية الغريب وإعانته على قضاء مآربه ولهم في هذه الطريقة التي يسمونها الفتوة سند يتصل بالإمام علي كرّم الله وجهه وشعارهم فيها لبس السراويل كما تلبس الصوفية الخرْقة ولعلهم إنما اتخذوا السراويل شعاراً لما يهدفون إليه من التزام الصيانة والعفاف.

وانتقل صاحبنا إلى شبه جزيرة القِرِيم من ثغر صنوب بشمالي آسيا الصغرى ثم إلى آزاق فبلاد البلغار؛ التي وصلها في رمضان قال: «فلما صلّينا المغرب أفطرنا وأذّن بالعشاء في أثناء إفطارنا فصلّيناها وصلّينا التراويح والشفع والوتر وطلع الفجر إثر ذلك، وكذلك يقصر النهار بها في فصله»، وفي هذه البلاد الفسيحة ركب العرَبَات لأول مرة وأكل لحم الخيل وذاق البُوزَة وهي نوع من النبيّذ، وبما أن أهل البلاد أحناف فإنهم لم يكونوا يتحرّجون من شربها. ولاحظ كثرة الخيل بها وانخفاض ثمنها بحيث يكون إصدارها إلى الهند

تجارة رابحة جداً. واتصل بالسلطان محمد أزبك خان في بلاطه المنتقل وهو «مدينة عظيمة تسير بأهلها فيها المساجد والأسواق» وقد حظي عند هذا السلطان حتى أرسله بمعية إحدى زوجاته الأربع إلى القسطنطينية، وكانت تقصد زيارة أبيها ملك الروم، فأتيحت له فرصة زيارة العاصمة البيزنطية الشهيرة ولم تكن فُتحت بعد.

وعاد إلى مدينة السّرا عاصمة السلطان أوزبك ثم اخترق طريق خوارزم فبخارى وسمرقند وتِرْمِذ فخراسان فأفغانستان إلى الهند، ويطول بنا الأمر لو وقفنا معه في أي بلد من هذه البلاد وتتبعنا ملاحظاته الدقيقة وأحاديثه الطَلِيّة عن البلاد وأهلها.

وقد وصل إلى الهند في محرم ٧٣٤ وفي الحين أخبر به ملك الهند محمد شاه بن تَغلُق، إذ كان ذلك هو النظام المتبع في هذه البلاد، لا يجاوز أحد حدودها حتى يرفع به إلى الملك، فصدر الأمر بإكرامه والاعتناء به ثم اتصل به بعد ذلك في ٤ شوال السنة وحظي عنده وخيّره في مناصب الدولة على ما سبقت الإشارة إليه فاختار القضاء لأنه منصب آبائه. وفعلاً ولي القضاء المالكي بعاصمة الهند دهلي إلى سنة ٧٤٢، أي: ما ينيف على سبعة أعوام وبذلك أمكنه أن يذكر من أحوال هذا الملك وبلاطه وحاشيته الشيء الكثير وخاصة عن كرمه وأعطِيته الخيالية التي لا يفوت صاحبنا أن يُصرّفها بالعُمْلة المغربية ليدل على أهميتها، وكذلك ذكر فَتكاتِه التي تُغطّي على إحسانه مما لا يمكن تلخيصه إلا إذا جاوزنا الحد الذي نلتزمه في هذه التراجم. والحقيقة أن

كتابته عن الهند وعن أمرائها وعن أحوالها الاجتماعية، وهي تكاد تستبد بالجزء الثاني من الرحلة، هي من خير ما كتب ابن بطوطة تعريفاً بالبلاد التي زارها وستبقى مرجعاً هاماً للمؤرخين والباحثين في شؤون الهند وحضارة أهلها تحت الحكم الإسلامي.

وفي جمادى الآخرة من عام ٧٤٢ ترك الهند على رأس سفارة عظيمة إلى الصين وبرغم الاستعدادات الفائقة، فإن هذه السفارة قد تَعوّقت عن الوصول إلى غايتها وطوّحت الأقدار بصاحبنا إلى جزائر ذِيبَة المَهَل بالمحيط الهندي حيث أقام عاماً ونصفاً وولي القضاء من طرف سلطانتها خديجة بنت جلال الدين وهو يحكي غرائب عن حياة أهل هذه الجزائر لأنه بحكم إقامته هذه المدة بين أظهرهم وتولّيه السلطة في بلادهم تعرّف على كثير من أحوالهم.

ثم غادر هذه الجزائر متوجهاً إلى الصين عن طريق سيلان فبَنْغالة فالملايُو فسُومَطرة فالزّيتون التي هي ميناء صينية على المحيط الهادي تعرف الآن بتِسيوَان تْشُو وتوغل صاحبنا في داخل البلاد التي تقع على مقربة من ساحل المحيط الأعظم حتى وصل خان بَالق التي هي بكين عاصمة الصين اليوم، ومع أنه لم يجب الصين كما جاب الهند فإنه لم يُخْلِ رحلته من أخبار مهمة عن هذه البلاد ولا سيما أحوال المسلمين بها، وتحدّث عن براعة الصينيين في فن التصوير وصناعة الفخار، وعن تعاملهم بأوراق النقد وادخارهم الذهب والفضة بشكل سبائك كما يعمل مصرف أي دولة في هذا العصر. واسْتَمِعْ إلى حديثه عنهم في

التصوير «ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك أني ما دخلت قط مدينة من مدنهم ثم عدت إليها إلا ورأيت صورتي وصور أصحابي منقوشة في الحيطان والكواغد موضوعة في الأسواق»... إلخ. وما ندري هل اصطحب معه صورة منها أم لا؟

أما حديثه عن أمن الطرق والتحفظ على أموال الناس وسهولة المواصلات وتنظيم الملاحة التجارية فشيء لا يقل عما لدى أرقى الدول العصرية اليوم، وفي الشرق على العموم كانت الطرق حسبما يروي صاحبنا مأمونة ومقسّمة إلى مراحل يجد فيها المسافر كل ما يحتاج إليه وبعضها كما في بلاد المليبار، كان مكتنَفاً من الجانبين في أكثره بدكاكين التجار وبعضها كالطريق بين دهْلي ومدينة ظِهار كانت عليها النّصُب فيها عدد الأميال التي قطعها المسافر والتي بقيت له، فالأمر كما يقال: لا جديد تحت الشمس.

ومن الصين ينكفىء صاحبنا راجعاً عن طريق سُومَطْرة فالهند فاليمن فبلاد العَجم فالعراق فالشام فمصر إلى أن يصل مكة في ٢٢ شعبان ٧٤٩ فيقيم بها إلى موسم الحج ويحج للمرة السادسة ثم يسافر إلى المدينة المنورة ومنها إلى القدس ثم إلى مصر وينثني عائداً إلى المغرب بعد أن غاب عنه ٢٥ سنة فيدخل فاساً في أواخر شعبان عام ٧٥٠هـ، ويَمْثُل بين يدَيْ السلطان أبي عِنَان المرِيني فيغمُره بإحسانه كما قال ويثني عليه أحسن الثناء بل يعمل مقارنة بينه وبين مَن شاهدهم من ملوك الدنيا فيفضله عليهم.

* * *

لم تستقر النوى بصاحبنا بعد رحلته الأولى هذه، حتى عاد فبدأ رحلته الثانية في مملكة غرناطة بالأندلس وذلك لئلا يفوته هذا القسم من العالم الإسلامي مع أنه برؤية منه ومسمع، فقد أصبح الآن حريصاً على استيعاب البلاد الإسلامية بالزيارة ليتأتى له أن يقول مفتخراً على السائح المصري الذي لقيه بمدينة بُرْصى (وهو من الصالحين جال الأرض إلا أنه لم يدخل الصين ولا جزيرة سِرَنْدِيب ولا المغرب ولا الأندلس ولا بلاد السودان وقد زدت عليه بدخول هذه الأقاليم) وليصبح بعد ذلك (مسافر العرب والعجم) كما قال له الشيخ جلال الدين التبريزي في بنغالة.

وقد خرج صاحبنا في هذه الرحلة من بلدة طنجة فمرّ بسبتة وجبل طارق وكان خاضعاً للمغرب ثم مرّ برنُدْه فمالقة فغرناطة وكان ملكها حينئذٍ أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل بن نصر ولقي بها من الأعلام أبا القاسم الشريف وأبا سعيد بن لب وأبا البركات ابن الحاج وأبا القاسم بن عاصم، وقد ذكره ابن الخطيب في الإحاطة ولم يزد على تسميته شيئاً غير ما نقله من خط شيخه أبي البركات تبييناً لحاله ونصه: (هذا رجل لديه مشاركة يسيرة في الطلب رحل من بلاده إلى بلاد الشرق يوم الخميس الثاني من رجب عام خمسة وعشرين وسبعمائة، فدخل بلاد مصر والشام وعراق العجم وبلاد الهند والسند والصين وصين الصين وبلاد اليمن وحجّ عام ستة وعشرين وسبعمائة، ولقي من الملوك والمشايخ عالماً وجاور بمكة واستقر عند ملك الهند فحظي لديه وولاه القضاء، وأفاد مالاً جسيماً، وكانت رحلته على

رسم الصوفية زياً وسجيةً ثم قفل إلى بلاد المغرب ودخل جزيرة الأندلس فحكى بها أحوال المشرق وما استفاد من أهله فكُذِّب).

قال: «لقيته بغرناطة وبِتْنا معه ببستان أبي القاسم بن عاصم بقرية نبلة، وحدثنا في تلك الليلة وفي اليوم قبلها عن البلاد المشرقية وغيرها فأخبر أنه دخل الكنيسة العظمى بالقسطنطينية العظمى، وهي على قدر مدينة مسقّفة كلها، وفيها اثنا عشر ألف أسقف»[١].

وقد عقب ابن الخطيب على هذه الفذلكة بقوله: «قلت وأحاديثه في الغرابة أبعدُ غَوْراً من هذا. وانتقل إلى العدوة فدخل بلاد السودان ثم إن ملك المغرب استدعاه فلحق به وأمره بتدوين رحلته».

وهذا الاجتماع الذي كان في بستان ابن عاصم أشار له صاحبنا في الرحلة وحكى أنهم أقاموا فيه يومين وليلة، وزاد كاتب الرحلة أبو عبدالله بن جزَيّ فقال: «كنت معهم في ذلك البستان ومتّعنا الشيخ أبو عبدالله (يعني ابن بطوطة) بأخبار رحلته وقيدت عنه أسماء الأعلام الذين لقيهم واستفدنا منه الفوائد العجيبة».

* * *

وعاد صاحبنا إلى فاس، فلم ينشَب أن شرع في رحلته الثالثة إلى بلاد السودان. وفي سجلماسة أخذ أهبته لهذه

---

(١) هذا مخالف لما في الرحلة فانظرها.

الرحلة والتحق برفقة يرأسها أحد رجال مَسُوفَة، وذلك في غرة محرم فاتح ٢٥، فبعد ٧٥٣ يوماً وصل إلى تغازي، وهي قرية الملح بناؤها من أحجار الملح المسقفة بجلود الجمال، وتجارتها في الملح مع السوادين تجارة عظيمة. وبعد استراحة عشرة أيام، استأنف الرحلة عبر الصحراء وكانت رحلة شاقة ومحفوفة بالمخاطر، وأخيراً وصل إلى مدينة إيوالاتن أول عمالة السودان وهي مدينة أكثر سكانها من مسوفة، وهم مع محافظتهم على الصلاة وقراءة القرآن وطلب العلم، لا غيرة لهم على أزواجهم، وللنساء هنالك حياة اجتماعية متحررة من كل القيود.

وخرج صاحبنا من إيوالاتن متوجهاً صوب مالي عاصمة البلاد فلقي سلطانها منسي سليمان، ولم ينل منه خيراً، غير أنه وصفه بالعدل والاستقامة وأتى بوصف معجب لبلاطه ولخروجه إلى صلاة العيد، ثم توجه إلى تمبكتو ومنها إلى تكدا، ووصل في تنقلاته بين هذه المدن إلى نهر النيجر، فظنه النيل، ورأى التمساح في بعض ضفافه «كأنه قارب صغير» كما رأى فرس البحر في بعض خُلْجانه؛ ومن المحقق أنه جاب في هذه الرحلة أماكن لم يصل إليها سائح من قبله، ووصفها وصفاً معجباً. فلهذا القسم من رحلته أهميته التي لا تقل عن أقسامها الأخرى.

وبينما هو في تكدا وافاه أمر السلطان أبي عنان بالرجوع إلى المغرب، فكرّ راجعاً إلى سجلماسة عن طريق تُوات. وفي نهاية عام ٧٥٤ وصل إلى فاس بعد أن قضى في هذه الرحلة عامين كاملين، وبإضافتهما مع الزمن الذي

قضاه في رحلة الأندلس يكون قد صرف زهاء ثمانية وعشرين عاماً في التنقل والترحال، فما أعظمها من همّة! وهكذا تكون الرجال!

وأمره السلطان بإملاء رحلته على الكاتب أبي عبدالله بن جُزَي، وهو أحد أولاد العالم أبي القاسم بن جزي، فقام هذا بما كلف به من ضم أطراف الرحلة وترتيبها، وتصنيفها وتهذيبها وسماها تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، وانتهى من ذلك في ٣ ذي الحجة عام ٧٥٦... وكأن السلطان أبا عنان لما وفدَ عليه ابن بطوطة أولاً في عام خمسين غفل عن أمره بتدوين رحلته، والعذر له، فقد كان مشتغلاً بتثبيت دعائم ملكه، ومصارعة أعدائه. ثم تنبّه للأمر بعد ذلك فنفذه كما رأيت، باستدعاء ابن بطوطة من أقصى بلاد السودان، على أنه قد قيل: إنه كان موفداً من قِبَله إلى تلك الديار في مهمة، ولا يظهر ذلك من سياق الخبر في الرحلة.

وبعد انتهاء الرحلة ينسدلِ حجاب كثيف على حياة ابن بطوطة التي وإن طالت بعد ذلك أكثر من عَقْدَيْن من السنين فإننا لم نعد نعرف عنها شيئاً بعد أن لابسناها وصاحبناها في أفراحها وأتراحها مدة ثمان وعشرين سنة، غير أن ابن حجر في «الدرر الكامنة» نقل من خط ابن مرزوق: «إنه بقي إلى سنة سبع وسبعين ومات وهو متولي القضاء ببعض البلاد» فيرشد هذا الكلام إلى أنه حظي عند بني مرين وولوه منصب القضاء الذي قال عنه: «إنه شغله وشغل آبائه».

ويزيد ابن مرزوق فيقول، فيما قرأه ابن حجر بخطه:

«ولا أعلم أحداً جال في البلاد كرحلته، وكان مع ذلك جواداً محسناً» وهي شهادة لرحّالتنا من العلامة ابن مرزوق تعضُدها قراءةُ الرحلة. على أن ابن حجر أشار أيضاً إلى دفاع ابن مرزوق عن الرحّالة فيما كان من اتهام أبي البركات ابن الحاج له فقال: «وكان البِلّفِيقي رماه بالكذب فبرأه ابنُ مرزوق، والبلفيقي هو أبو البركات ابن الحاج. وقد سبق نقل كلامه عن الإحاطة.

ولم يبين ابن مرزوق الجهة التي كان ابن بطوطة يتولى بها القضاء، ولكن ابن الخطيب في «نفاضة الجراب» أثبت نص كتاب وجهه إلى صاحبنا بصفته قاضي تامسنا، يرجو منه المساعدة على شراء قطعة أرض بجواره، يعدها للفلاحة عند الحاجة، وذلك لما قرر الاستقرار بالمغرب، فمن هذا نعرف مكان ولايته للقضاء الذي كان هو محل وفاته.

وعلى ظاهر كلام ابن مرزوق، فإن ابن بطوطة توفي سنة ٧٧٧، وفي دائرة المعارف الإسلامية أنه توفي سنة ٧٧٩ وعليه كثير من الكتّاب المحدثين.

ومن هنا يُعلَم أنه لم يتوفَّ بطنجة، وإن كان يوجد بها ضريح ينسب إليه، ويَفِدُ الرحّالةُ من كل جنس إذا قدموا طنجة عليه. لكننا نستريب في أن يكون ذلك هو مرقد الرحّالة الحقيقي.

أولاً: لأن وفاته لم تكن بطنجة.

ثانياً: لأن اسم صاحب الضريح في ألسنة الناس أحمد بن علال وليس هو اسم ابن بطوطة.

ثالثاً: لأن طنجة خضعت للاحتلال الأجنبي؛ البرتغالي ثم الإنجليزي ما ينيف على قرنين من الزمن بعد موت ابن بطوطة، فيبعد أن يبقى قبره محفوظاً ومعروفاً بعد هذه المدة الطويلة التي تغيرت فيها معالم المدينة من جميع الوجوه وعلى كل حال فهو، وإن يكون ذا صفة ومزية، ضريح متواضع جداً لا يتناسب وعظمة الرجل الذي طبقت سمعته الآفاق.

وقبل أن نختم هذه الترجمة لا بد أن ننقل ما كتبه ابن خلدون في مقدمته عن رحلة صاحبنا، لأن فيه رداً على ما سبق عن ابن الخطيب من الاسترابة بأخبار الرحّالة الصدوق، قال ابن خلدون:

«ورد على المغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين، رجل من مَشْيَخة طنجة يعرف بابن بَطُوطة، وكان قد رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق وتقلب في بلاد العراق واليمن والهند ودخل مدينة دهلي حاضرة ملك الهند، واتصل بملكها لذلك العهد، وهو السلطان محمد شاه، وكان له منه مكان واستعمله في خطة القضاء بمذهب المالكية في عمله، ثم انقلب إلى المغرب واتصل بالسلطان أبي عنان، وكان يحدّث عن شأن رحلته، وما رأى من العجائب بممالك الأرض، وأكثر ما كان يحدّث عن دولة صاحب الهند ويأتي من أحواله بما يستغربه السامعون، مثل أن ملك الهند إذا رجع خرج للسفر أحضر أهل مدينته من الرجال والنساء والولدان وفرض لهم رزق ستة أشهر يدفع لهم من عطائه، وأنه عند رجوعه من سفره يدخل في يوم

مشهود يبرز فيه الناس كافة إلى صحراء البلد ويطوفون به وينصب أمامه في ذلك المحفل منجنيقات على الظهر يرمي بها شكائر الدراهم والدنانير على الناس إلى أن يدخل ديوانه، وأمثال هذه الحكايات، فتناجى الناس في الدولة بتكذيبه، ولقيت أنا يومئذ في بعض الأيام وزير السلطان فارسَ بن وَدْرار البعيد الصيت، ففاوضته في هذا الشأن وأريتُه إنكار أخبار ذلك الرجل، لما استفاض في الناس من تكذيبه فقال الوزير فارس: إياك أن تستنكر مثل هذا من أحوال الدول بما أنك لم تره فتكون كابن الوزير الناشىء في السجن، وذلك أن وزيراً اعتقله سلطانه فمكث في السجن سنين ربَا فيها ابنهُ في ذلك المحبس، فلما أدرك وعقل سأل عن اللّحمان التي كان يتغذى بها، فإذا قال له أبوه: هذا لحم الغنم يقول وما الغنم؟ فيصفها له أبوه بشِياتِها ونعُوتها، فيقول: يا أبتِ تراها مثل الفأر؟ فينكر عليه ويقول: أين الغنم من الفأر؟ وكذا في لحم البقر والإبل، إذ لم يعاين في محبسه إلا الفأر، فيحسِبها كلها أبناء جنس للفأر، وهذا كثيراً ما يعتري الناس في الأخبار، كما يعتريهم الوسواس في الزيادة عند قصد الأغراب، كما قدمناه أول الكتاب.
فليرجع الإنسان إلى أصوله، وليكن مهيمناً على نفسه، ومميزاً بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله، ومستقيم فطرته، فما دخل في نطاق الإمكان قبله، وما خرج عنه رفضه، وليس مرادنا الإمكان العقلي المطلق فإن نطاقه أوسع شيء، فلا يفرض حداً بين الواقعات، وإنما مرادنا الإمكان بحسب المادة التي للشيء، فإذا نظرنا أصل الشيء وجنسه

وفصله ومقدار عظمه وقوته أجرينا الحكم في نسبة ذلك على أحواله وحكمنا بالامتناع على ما خرج من نطاقه ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾».

وهناك أيضاً انتقاد آخر على الرحلة وجهه بعض كتاب الشرق: وهو أن أسلوبها الإنشائي لا يخلو من ضعف سواء من حيث استعمال بعض الألفاظ العامية أو اللحن؛ ومن ثم يتلخصون إلى التشكيك في ثقافة الرجل اللغوية، فالدكتور محمد مصطفى زيادة في محاضرته عنه يقول حين تعرض لملاحظته اللحن على خطيب البصرة: «غير أن هذه الملاحظة تدعو إلى الالتفات، فكتاب رحلة ابن بطوطة كما كتبه ابن جزي لم يخلُ من أخطاء نحوية، فضلاً عن احتوائه على تعبيرات غريبة، وأساليب قد تخالف ما نعهده للفصحاء، فهل يكون معنى هذا أن ابن بطوطة لم يقرأ نص رحلته بعد إتمامها، ليصلحها ويضبطها ضبطاً صحيحاً؟» وكاتبا مهذب الرحلة كثيراً ما يعلقان على ألفاظ للمؤلف بما يدل على أنهما لم يفهما المراد منها.

والجواب عن هذا الانتقاد أن المؤلف حقيقة استعمل بعض الألفاظ الجارية على ألسنة الناس في المغرب، للتوضيح والبيان وليست كلها عامية بل إن منها ما هو فصيح صحيح، وإنما لم يجرِ على ألسنة الناس في المشرق، وهذا الصنيع قد ارتكبه كثير من الكتاب قديماً وحديثاً فلا حرج على المؤلف فيه، وكنا نود لو اتسع لنا المجال، فتتبعنا تلك الألفاظ كلها بالشرح والبيان. وأما اللحن فلا يصح مطلقاً نسبته إلى إنشاء الرحلة، كيف والمشرف على تحبيرها هو

الكاتب أبو عبدالله بن جزي، وهو من كبار أدباء المغرب والأندلس في وقته؟ وهي فعلاً، مع تشويهها بالطبع الرخيص لا يوجد فيها لحن مطلقاً. وعلى كل فالدكتور زيادة الذي يقع في كلامه مثل هذه العبارة: «وأضحى سلاطين المماليك يفرضون لأنفسهم مكاناً سامياً على ملوك العالم الإسلامي، باعتبارهم حماة (بضمة على التاء) الخلافة (والمتمتعون ببيعتها» ويقول: «غير أن هذا الحديث (المبروك)...» ويقول: «ممتاز كتب الرحلات، (من) دون الكتب التي (نتشوف) منها أحوال القرون الخالية» لا يحق له أن يتحدث عن اللحن ومخالفة أساليب الفصحاء في كلام غيره. والكمال لله.



أحمد زروق
(ت ٨٩٩ هـ)

اسمه ونسبه، ولادته ونشأته، طلبه للعلم ومشيخته، رحلته إلى المشرق والسبب فيها، رد تقولات عنه، تلقيبه بمحتسب العلماء والأولياء، رأي ابن عجيبة فيه ومناقشة هذا الرأي، مَن أخذ عنه من المشايخ وثناء العلماء عليه، استقراره أخيراً في طرابلس ووفاته بها، تراثه المادي والأدبي، آرائه وأقواله في السلوك والطريق.

هو أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البَرْنُسي الفاسي عُرف بزَرّوق، أحد كبار الفقهاء والصوفية المشهورين في العالم الإسلامي. نسبه في عِداد قبيلة البَرانِس المغربية. وهو فيما يجري على الألسنة بفتح الباء وسكون الراء وضم النون. فإن كانت البرانس جمع بُرنس فمُقتضاه ضمّ الباء. وأما لقبه زَرّوق فهو بفتح الزاي وراء مشدودة مضمومة، وقال فيه المترجمُ نفسُه على ما نقل من كناشته: «إنما جاءني من جهة الجد، كان أزرق العينين واكتسبه من أمه، قال: وكانت شريفة لكنني لم أتحقق نسبها لموت أبي، وشرف المرء إنما هو سلامة دينه وحِلْيَتُه ومروءته، ولا

شرف أكبر من تقوى الله ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ . . .».

ولد زروق يوم الخميس ١٨ محرم ٨٤٦ عند طلوع الشمس، وتوفيت أمه يوم السبت بعده، وأبوه يوم الثلاثاء الموالي. قيل: وكان والده سمّاه محمداً فلما توفي قبل سابعه سُمّي أحمد باسم والده.

وكانت جدته الفقيهة الصالحة أم البنين هي التي كفلته بعد وفاة والديه وربّته تربية حسنة فحفظ القرآن وهو ابن عشر سنين، ثم تعلّم صناعة الخرز وهي السكافة على العادة في أبناء الفقراء فإنهم يُحمَلون على تعلُّم صناعة ما ليستعينوا بها على كسب معيشتهم. ويظهر أن والده لم يُخَلّف له مالاً، كما أنه لم يكن من أهل العلم. لأنّا لم نرَ مَن وصفه بذلك، وأخبرني صديقي الفقيه الأستاذ عالم شفشاون السيد أحمد السمّار أن عليه بناية أنيقة بقرية تِليوان من قبيلة البرانس وهي ملحقة بالمسجد هناك مع أماكن لسكنى الإمام والزائرين ويطلق على الجميع الزاوية الزروقية، ممّا يدل على أن والده كان من أهل الصلاح. ونظن أن هذه البناية إنما بُنيت بعد وفاة المترجم واشتهاره. ويقول المترجَمُ في طَالِعة نظمه لفصول السّلَمي مُعرّفاً بنفْسِه:

يقولُ راجي رحمةَ الغفار	أحمدُ نجلُ أحمدَ الحضّار
البَرنُسيّ الأصل ثم الفاسي	المشتهر زَرّوقُ بين الناس

وثبت وصف الخضار في نسخة صحيحة جيدة عندنا من هذا النظم بنقط الخاء والضاد، وفي نسخة أخرى دونها

صحة وجودة (الحضار) بالحاء المهملة ولعله هو الصواب، فإن بقُرب قرية تليوان المذكورة وادياً يسمى وادي الحضار بالحاء المهملة والضاد المخفّفة كما أخبرني بذلك الصديق السمّار فيحتمل جداً أن يكون المترجمُ نسب نفسه في نظمه إلى هذا الوادي.

وعلى كل حال فإن مترجمنا لم يتماد في صنعة الخِرازة وقد أراد الله به خيراً حين أهّله لطلب العلم وهو في سن السادسة عشرة كما قال: «ثم نقلني الله بعد بلوغي سادس عشر إلى القراءة فقرأت الرسالة على الشيخين عليّ السطي وعبدالله الفخار قراءة بحث وتحقيق، والقرآن على جماعة منهم القوري والزرهوني، وكان رجلاً صالحاً والمجّاصي والأستاذ الصغير بحرف نافع، واشتغلت بالتصوف والتوحيد فأخذت الرسالة القُدسية وعقائد الطوسي على الشيخ عبدالرحمٰن المجدولي وهو من تلاميذ الأبي وبعض التنوير على القوري وسمعت عليه البخاري كثيراً وتفقهت عليه في كل أحكام عبدالحق الصغرى وجامع الترمذي وصحبت جماعة من المباركين لا تحصى كثرة بين فقيه وفقير».

هذه نشأة زروق الأولى وتربيته البيتية والعلمية التي تشبه إلى حد ما تربية صديقه وقرينه ابن غازي، فإن كلاً منهما نشأ في حضن امرأة صالحة عملت على توجيهه توجيهاً نافعاً ظهر أثره في سيرته المِثالية وحياته العلمية الناجحة. ولقد كانت والدةُ ابن غازي تكفل ولدَها من الناحية التربوية فقط، أما الناحية المادية فوالده كان كفيلاً بها، في حين أن جدة زروق كانت تكفل حفيدها من

الناحيتين التربوية والمادية معاً؛ لأن والده لم يترك له ثروة يعيش بها، ولذلك حملته على تعلُّم الصنعة بعد حفظ القرآن الكريم، ثم ما لبث أن عاد سيرةَ جدته من طلب العلم والتفقه في الدين، وكانت جدته كما علمت فقيهة صالحة وبذلك تعلم ما للمرأة المتعلمة من الأثر القوي في إصلاح المجتمع وتقويم خُلق النشء حتى قيل: الأم هي المدرسة الأولى.

ثم إن هؤلاء الأعلام الذين ذكرهم المترجم هم مَشيختُه الذين أخذ عنهم بفاس في أول أمره، وقد أخذ عن غيرهم بعد ذلك بها وبغيرها من مدن المشرق والمغرب لأنه كان كثير التجوُّل في البلاد الإسلامية وحجّ وجاور بالمدينة المنورة وأقام بمصر زمناً للإفادة والاستفادة فأخذ عن أعلامها الكبار وأخذ عنه كثير ممن يشار إليه من أهلها. ومِمّن سُمّي من شيوخه بين مغاربة وأفارقة ومصريين غير من ذكر؛ العلامة السرّاج الصغير وأحمد بن سعيد الحَبّاك وأبو مهدي عيسى الماواسي وعبدالرحمٰن الثعالبي وإبراهيم التازي والمشذالي وحُلولو والرصاع والسنُوسي وابن زكْري التلمساني والتّنسي ونور الدين السنهوري والحافظان السّخاوي والدّيمي وأبو العباس ابن عُقْبة الحضرمي وشهاب الدين الإبشيطي وهما من مشايخ الصوفية والأول هو عمدته في طريق السلوك.

وقد ذكر ابن غازي في فهرسته أن المترجم استجاز له بمصر الحافظين السخاوي والديمي فأجازاه وذلك سنة ٨٨٥.

ومنه تعلَمُ أن رحلته كانت علمية وأنه كان على صلة

بأصدقائه وزملائه في المغرب أثناءها، يُكاتِبُهم ويُمَكّنُ للعلاقات الأدبية بينهم وبين علماء المشرق. وقد شملت الإجازةُ التي طلبها لابن غازي من حافظَيْ مصر المذكورين، غيرَ ابن غازي من مشايخه وأقرانه كأبي مهدي الماواسي وأبي العباس الوَنْشَريسي وقاضي الجماعة محمد بن محمد بن عيسى بن علاّل المصمودي، فماذا تبتغي من نشاط علمي أكثر من هذا؟...

ولكن القوم الذين اصطدم بهم في حياته وأنكر عليهم كثيراً من الأحوال التي لا يُقِرّها الشرع أبوا إلا أن يُصوّروا رحلتَه بصورة قاتمة ويُخرِجُوه من المغرب في صفة طَريد لا يقرّ له قَرار إلى أن يتراجع عن إنكاره ويُسلم قِيادَه إلى رجل من أهل التصرف في الغيب فيدخل في جِواره ويأمن حينئذ على نفسه. وهاك نصّ الحكاية على ما عند ابن عسكر في الدّوحة قال:

«حدثني شيخنا أبو الحجاج يوسف بن عيسى وغيرُه أن الشيخ أبا العباس - يعني صاحب الترجمة - صحب الشيخ أبا عبدالله محمد الزيتوني، وكان رجلاً أعمى، وكان من رجال التصريف فتوغّل صاحب الترجمة في محبته وادعى فيها قصبَ السبق فكان من امتحانه في ذلك أن جاء زائراً له فدقّ الباب عليه فسمع صوتاً بالإذن فدخل الدار فلم يجد أحداً فصعد إلى غُرفة في أعلى الدار فوجد الشيخ جالساً في وسط الغرفة وعن يمينه امرأة متزينة وعن يساره أخرى وهو يلتفت إلى هذه ويُقبلها ويُقبِل عليها ويرجع إلى الأخرى كذلك، فقال أبو العباس: إن هذا الرجل من الزنادقة ووَلّى

راجعاً فناداه الشيخ الزيتوني: يا أحمد الكذاب! ارجع! فرجع مُسرعاً فلم يجد معه أحداً. فعلم أنه امتحنه فقال له الشيخ الزيتوني: أما التي رأيت عن يميني فهي الآخرة وأما التي عن يساري فهي الدنيا، وأنت كاذب في دعواك ولكنك لا تبقى في المغرب ساعة واحدة. فخرج الشيخ أبو العباس من حينه وتوجه إلى المشرق مُشفِقاً على نفسه مما اتفق له حتى انتهى إلى الديار المصرية فوجد أصحاب الشيخ أحمد بن عُقبة الحضرمي ينتظرونه على ضفّة النيل لأن شيخهم المذكور أمرهم بذلك وأخبرهم بقدومه، فسلّموا عليه ورحّبوا به وحملوه معهم. فلما دخل على الشيخ ابن عقبة وسلّم عليه قال له: يا أحمد! يا ولدي! ما جرّأك على الأفعى العمياء؟ وإني لمشفق عليك منه هاهُنا! فحمله إلى بيت عنده وأمره بلزوم الذكر فبعد ثلاثة أيام سمع الشيخ ابنُ عقبة رجّةً عظيمة وهو مع أصحابه فصاح: «الله»! ورفع يده ثم قال: قوموا بنا إلى صاحبكم فقاموا إليه فوجدوا البيت الذي كان فيه أبو العباس قد صار دكًا، فقال ابن عقبة: احفروا على صاحبكم فحفروا عليه إلى أن وجدوه في ركن البيت وقد طاحت الخُشُب فخيّمت عليه فرفع عنه الردْم وقد أنجاه الله منه. فلما أبصره الشيخ ابن عقبة قال له: «الحمد للّه الذي عصمك منه! يا أحمد! هذه آخر عقوبة الزيتوني ولقد ضربك ضربة من أقصى المغرب فدفعتُها عنك بيدي، وها هي مكسورة من ضربته» وأخرجها من تحته مكسورة. ثم لازمه إلى أن انفصل عنه فقال له: «أوصني يا سيدي!» فقال له منشداً:

سَلِّمْ لِسَلْمَى وسِرْ حَيْثُ سَارَتْ
واتْبَعْ رِيَاحَ القَضَا ودُرْ حَيْثُ دارت

وقد حكى هذه القصة غير ابن عسكر وزاد فيها بعضهم أنه لما خرج من عند شيخه الزيتوني أُلقِي عليه شَبَهُ اليهود فصار الناس يتجنبونه ولا يرون فيه إلا يهودياً حتى شفع له بعض أحبابه عند الشيخ فعفا عنه بشرط أن يخرج من المغرب.

ونحن لا نرى في هذه الحكاية إلا تنقيصاً من قدر زَرّوق لتوطيد أركان التّدجيل الذي كان يُحاربه، ومن ثَمّ كانت نهايتُها (سَلّمْ لِسلمى) وإلا فالرجل رحل لطلب العلم وللأخذ عن الشيوخ كما رحل ويرحل كثيرٌ غيره من علماء المغرب وطَلَبته. وقد استجاز الأكابر لنفسه ولغيره من مشايخه وأقرانه على ما سبقت الإشارة إليه، وقال ابن العِمَاد أنه أقام بمصر سنة واشتغل فيها بالعربية والأصول على الجوجري وغيره وأخذ الحديث عن السخاوي ثم غلب عليه التصوف، فميله إلى التصوف متأخر عن اشتغاله بالعلم حتى في مصر بعد رحلته. ولو كان جاء إليها طريداً بالصفة التي ذكَرُوها لمَا بقِي له في الاشتغال بالعربية والأصول مَأرَب، ولا في استجازة مشايخ الحديث له ولغيره من علماء المغرب مَطْلَب، وعلى كل حال فإن التزيُّد في هذه الحكاية ظاهر وهي إن كان لها أصل فهو ما يتوافق مع روح زروق العلمية من الإنكار على أهل الدعاوى الباطلة وتحكيم الأصول فيما يعرض من أحوال أهل الطريق. ولعل زَرّوقاً وقع له مع شيخه الزيتوني خلاف من هذا القبيل فنسج خَيالُ المخَرّفين حوله هذه القصة.

وإن مما يزيدها بطلاناً أن زروقاً لم يتراجع قط عن إنكاره على المدّعين ولم يزدد إلا حِسْبةً في مُحاجَجة المبطلين. ولقد عاد من رحلته هذه إلى فاس فكان أول ما بدأ به مُستقبِليه من أهل العلم الإنكار عليهم فيما يتناولونه من أسباب العيش، ولو كان خرج من فاس بسبب الإنكار تلك الخَرْجَة المنكرة وأوصاه شيخه الحضرمي في آخر ما أوصاه به، بالتسليم لسلمى لكان حرياً أن يسكت وأن يغُضّ الطرف على القَذَى مهما كان الأمر. ولكن الأمر بالعكس فإن الرجل خرج ليتمَلأ بالعلم وليتقَوّى في الدين فلم ينكص على عَقِبيْه في علم ولا عمل. وهذه حكايته مع علماء فاس على ما عند ابن عسكر أيضاً وعنه رواها غيره قال: «حدثني الفقيه القاضي أبو عبدالله الكراسي الأندلسي قال: «لما قدم الشيخ زروق قافلاً من البلاد المشرقية خرج الفقهاء إلى لقائه قال: وأنا كنت في جملة من خرج معهم فلما سلّمنا عليه وجلسنا في خِبائه صار يسأل الفقهاء عن أسباب أقواتهم فقال بعضهم: مُعظَمُ القوت من الأوقاف المُحبّسة على قبور الموتى! فقال الشيخ: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم! تعيشون من لُحوم الموتى!! فأجابه الفقيه ابن الحبّاك بأن قال: يا سيدي، الحمد لله الذي جعلنا نقْتنِص من لحوم الموتى وهي مُسوّغة عند الضرورة في الشريعة ولم يجعلنا نقتنص من لحوم الأحياء الممنوعة من كل وجه! فصاح الشيخ مَغْشِياً عليه. فخرجنا عنه وتركناه كذلك...».

فأنت تراه كيف سألهم عن أسباب عيشهم اهتماماً بالأصل الأصيل في سلامة الدين وهو أكل الحلال، ولما أخبروه بادرهم بالإنكار على ما رضوا به من العيش على

الصدقات، ثم لما أجابوه وكان للجواب وجه من الشرع لم يتمالك أن أخذته حال من الخشية اتهاماً لنفسه على عادة أهل المواَجِد من محققي الصوفية. وهكذا يكون زروق في كلا حاليه؛ حال الإنكار وحال التسليم موافقاً للشرع عاملاً بمقتضى العلم الذي جمّله الله به.

ومن ثمّ أطلق عليه علماؤنا رحمهم الله «مُحتسِب العلماء والأولياء» وهي صفة جليلة ضخمة لم يظفر بها غيره من علماء الإسلام لا فيما قبله ولا فيما بعده. وإنما المحتسِب القائم بالحِسْبَة ذلك الوظيف الشرعي الممتاز الذي يعم اختصاصه ويشمل كلّ الوظائف الشرعية حتى الخلافة العظمى والقضاء! أليست مهمته هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ ويقول علماؤنا رحمهم الله أن المحتسب إذا مرّ بباب الأمير أو القاضي ووجد الناس مجتمعين حوله ينتظرون خروجه، فإن عليه أن يدخل إليه ويخرجه للناس لأن تركهم ينتظرون من المنكر وخروجه إليهم من المعروف. فيَدُ المحتسب إذن مبسوطة على كل ذي منصب شرعي كبُر شأنه أو صغُر عظم أو حقُر، ولا يَد أعظمُ منها بهذا الاعتبار إلا يد زَرّوق التي بسطها علماؤنا على صفوة الصفوة من أهل الإسلام بإطلاقهم عليه «محتسب العلماء والأولياء» وذلك لما رأوه متتبعاً لأقوالهم وأعمالهم وازناً لها بميزان الشرع فيصحح منها ما صحّ ويبطل ما بطل، ولما تحققوا من رسوخ قَدمه في الفقه وعلو مقامه في التصوف من غير أن يَحِيف فقهُه على تصوفه، فينكر المقامات والأحوال أو يطغى تصوفُه على فقهه فيُهمِل الشعائر والرسوم. على أن

هذه التحلية لم ترُق فيما يظهر بعض أئمة الصوفية، فهذا الشيخ أحمد بن عجيبة يقول في أول شرحه لنُونِية العارف الششتري: «وقد سبق إلى شرحها الشيخ العلاّمة الصوفي أبو العباس سيدي أحمد زروق رضي الله عنه، اقتصر فيه على حَلّ ألفاظها وبيان ما تعلق ببعض معانيها غيرَ أنه لم يغُصْ في تيار بحر أسرارها على غوامض أنوارها ولا فض خاتم إسرارها ولا دخل بعرائس أبكارها، ولعله شرحها قبل أن يُفتَح عليه في أسرار الحقيقة فقد كان شيخ شيوخنا سيدي علي العمراني رضي الله عنه يقول: ما فُتِح على الشيخ زروق إلا في آخر عمره أي بحيث لم يؤلف شيئاً بعد الفتح والله أعلم، وكتُبه شاهدة بذلك إذ الكلام وصف المتكلم ومَن تكلّم عُرف من ساعته فهو في علوم الطريقة إمام، وأما في علوم الحقيقة وأسرار الأذواق فلم ينل منها شيئاً إلا في آخر عمره كاد أن يخرج منها صِفْرَ اليدين، ولذلك كثُر اعتراضه على أهل النّسبة وظهر في كلامه التشديد والتضييق عليهم. ولقد رأيتُه في نوم كاليقَظة فقلت له: قد شددت على أهل النسبة في حقيقة المريد فقال: وما قلت فيها؟ فقلت له: قلت كذا وكذا وذكرت له بعض ما انتقد به عليهم وما شدّد فيه فقال: ذلك الذي يناسب مذهب مالك، فقلت له: الصوفي الحقيقي لا يُقلّد مالكاً ولا غيرَه بل يأخذ الشريعة من أصلها والحقيقة من معدنها، فقال: مَن بلغَ هذا أو صَحِب مَن بلغ هذا لا يتكلم معه، فقلت له: والله لقد بلغناه وصحبنا مَن بلغه فغاب عني. وكان بعض مشايخنا من الفقهاء يقول: الشيخ زروق محتسب الصوفية، قلت: إنما

يكون مُحتسِب صُوفية أهل الظاهر، أهل العبادة الظاهرة والتنسك الظاهر أما أهل التربية والسر الباطن فلا حِسْبَةَ له عليهم إذ لم يُحِط علماً بما عندهم ولقد سمعت شيخ مشايخ التربية في زمانه مولاي العربي الدرقاوي الحسني رضي الله عنه يقول: الشيخ زروق عند أهل الظاهر شيء كبير وعند أهل الباطن شيء صغير:

لا يعرفُ الشوقَ إلا مَن يُكابدُه
ولا الصَّبابةَ إلا مَن يُعانِيها

ومراتب الأولياء كطبقات الجِنان؛ الأعلى يعرف الأسفل دون العكس، والله أعلم».

هذا كلام ابن عجيبة في زروق ورأيه بخصوص اللقب الذي أطلقه عليه العلماء، ونحن لا نخوض في الرد عليه ولا في إبطال ما ذهب إليه ولْنُعْطِ الكلمة لزروق فإنه أولى بالدفاع عن نفسه. وإليك ما قاله في هذا الصدد بآخر شرحه لحزب البحر في التنبيه الرابع:

«قد أُولع كثير من فقراء الوقت بعلوم الأسرار ودقائق الأذواق ورقيق كلام القوم دون اعتناء بأحكام العبودية وآداب الربوبية فانصرفوا عن المراد، وفارقوا مُوجِبات الوداد، وحصل لهم التعريف في عين ادّعاء السداد. ومنهم مَن تَسْري فيه لذة فهم الكلام فيظنه ذوقاً وربما ادّعاه حالاً لنفسه فكان طرْداً، فحَقّ الصادق أن يشتغل بما به كمالُه من التخلُّق والتعلُّق مع الإعراض عن الأغراض. قال ابن عطاء الله في الحكم: «تشوفُك إلى ما بطن فيك من العيوب

خير من تشوفك إلى ما حُجِب عنك من الغيوب» وقد قالوا: إذا تكلم المريد في مقام لم يبلغه حالُه حُرِم منالَه إذ صار فيه صاحب علم ثم لا يأمن ضلالَه به أو أن يتيه في بعض رموزه إن كان يأخذه من كلام الناس»... إلخ.

على أن ابن عجيبة بكثرة ما ينقل من كلام زروق في شرح النونية وغيره، يبرهن على أنه لا غِنى له عن الاغتراف من بحره، وأن ما قاله فيه إنما هو شطحة من شطحات الصوفية صدرت منه لما رأى شِدّةَ إنكار زروق على أهل الطريق أو هو مدح لشرحه على ما جرت به عادة المؤلفين من تنكيت المتأخر على المتقدم:

كما قال ابن مالك في ألفيته:

فائقة ألفية ابن مُعْطِ

فجاء السيوطي بعده فقال:

فائقة ألفيةً ابن مالك

والواقع: أنه لم يكن لكلام ابن عجيبة أثرٌ في الأوساط العلمية بالنسبة لإطلاق هذا اللقب على زروق، فما زال علماؤنا رحمهم الله، وجلّهم إن لم نقل كلهم ممن لهم جُنُوح إلى التصوف وتعلُّق بسبب منه، يُحلُّونه بتلك التحلية ويصفونه بتلك الصفة. وإنما قلنا: إن جلهم أو كلهم ممن ينتمي إلى التصوف لأن المعروف عن أهل القرن العاشر فمَن بعده أنهم مالوا بكليتهم إلى سلوك الطريق، ومَن لم يمِل منهم إلى ذلك بالقلب والقالب فلا بد من أن يُظهر هذا الميل، مُداراةً عن نفسه لما صار للطرق من

الصولة والجاه وعِظَم النفوذ، ولهذا قلّ أن قام في العصور المتأخرة ناقد صوفي من طراز زروق حتى انبلج فجر النهضة الحديثة.

والمقصود أن هؤلاء العلماء المتصوفين هم الذين لَقّبوا زروقاً بمحتسب العلماء والأولياء فلا يقدح في ذلك مَن شذّ عنهم.

وقد تورّك ابنُ عجيبة على زروق في شرح النونية مرة أخرى عند نقله سانحةً من سوانحه فقال: «وإنما تعطّل الفتح على الشيخ زروق لقلة صحبته لشيخه الحضرمي فقد قال عن نفسه أنه صحبه أولاً سبعةَ أشهر أو نحوها ثم انفصل عنه ثم رجع لزيارته فبقي معه نحو ثمانية أشهر فكان المجموع من صحبته خمسة عشر شهراً أو نحوها. قال: وانتفعت بها انتفاعاً لا يخفى. اهـ. قلت: هذه المدة لا تسلخ المُريد عن طبعه بالكُلّية ولا تُخرجه عن علمه وعوالمه لا سيما وقد كان متغلغلاً في العلوم النقلية والعقلية فلا يسلخُه منها إلا طولُ الصحبة بالصدق والخدمة والتجرد التام كما هو مجرّب في شأن أمثاله. وقد كان شيخُه يكاتبه بشيء من الحقائق فلم يهتدِ إليها لأنها لا تُؤخذ بمجرد العلم وإنما تؤخذ بالسّراية مع تحقق الصدق والتصديق. واعلم أن كثيراً من العلماء صحبوا المشايخ العارفين ولم ينالوا من حقائقهم شيئاً لأنهم كانوا يصحبونهم على نظر نفوسهم لا على نظر المشايخ فإذا أمروهم بشيء أو نهوهم عن شيء وزَنُوه بميزان (شريعتهم) فما وافق نظرهم قبِلُوه وما خالفه ردُّوه فبَقوا مع أنفسهم ولم يغرقوا في بحر أسرارهم، والله أعلم».

انتهى كلام ابن عجيبة وفيه تحامُل كبير على زروق وعلى علماء الإسلام جملةً وهو كلام لو لم يُختَم بجملة والله أعلم لكان فيه دَرَكٌ عظيم على قائله. ويهمنا منه الآن ما يتعلق بزروق فقد زعم أنه تعطّل عليه الفتح أخذاً من السانحة التي أوردها له وهي كما تأتينا في أعقاب ترجمته إنما تدل على الجهود التي بذلها زروق في الوصول إلى المعرفة ولا دلالة لها مطلقاً على ما فهمه منها ابن عجيبة. وتعليله لتأخر الفتح بقلة مدة الصحبة ليس بحجة عندهم، فقد عهدناهم يقولون: إن فلاناً نال من فلان بمجرّد لقاء قصير أو بنظرة واحدة، وكثيراً ما يمثّلون ذلك بمن جاء بفَتيلَة مُنعَمة دُهْناً فاقتبس من المصباح وأشرق نورُه في الحال. وكون التغلغل في العلوم النقلية والعقلية عَقبةً في طريق الفتح هو مما يختلف فيه نظرنا مع ابن عجيبة وأمثاله ممن يقولون بهذا القول، فنحن لا نرى فتْحاً حقيقياً حصل أو يحصُل لأحد إلا مع هذا التغلغل في العلوم. وإليك المثال في أقطاب الصوفية أنفسهم كالجيلاني والحاتمي وابن الفارض وابن سبعين وغيرهم ممن لم يشتهر أمرُهم في هذا الشأن حتى رسخ قدمُهم في العلوم. وابن عجيبة نفسُه لو لم يكن ذا باع مديد في العلوم لما أدرك ما أدرك من هذا المقام.

وقد كان زروق ذا حساسية مُرهفة وتذوُّق لكلام القوم يشهد به تنزيلُه للنصوص وتعقُّبه لما فيها من مآخذ وطرْحُه للحشو واهتباله بالجواهر دون الأعراض فضلاً عن وزْنه للخواطر بميزان الشرع وأخذه بالحيطة في مجال القول والعمل وإنما أعانه على ذلك تمكُّنه من العلوم العقلية

والنقلية وسلوكه للطريق سلوكَ الحذرِ اليقظ الذي أخذ الأهبة لكل طارئ، واستعدّ لكل ما يفاجئ، فلم يكن وصوله للحقيقة عن ظن وتخمين، بل عن طريق المعرفة واليقين، ولعمري إن هذا لهو الفتح المبين.

فإن يكُن المهديّ مَن بان هديُه
فهذا؛ وإلا فالهُدى ذا، فما المهْدي؟

وبعد هذا لا نرى داعياً لذكر ما كان لزروق وما لا يزال له من مقام كبير بين طوائف الصوفية وخاصة الشاذلية منهم فقد أقامه الجميع مقام الحَكَم الذي تُرضي حكومته وأقرُّوا له بالإمامة وأثنوا عليه الثناء العاطر وتداولوا عهده وتلقوا كلامه بالقبول وروَوْا وظيفته، وهي كلها أذكار نبوية، كابراً عن كابر، وهذا فضلاً عن مشايخ العلماء وكبار الفقهاء الذين أخذوا عنه بالمشرق والمغرب.

فمنهم الإمام القسطلاني والحطّاب الكبير والخرُّوبي الصغير وشمس الدين وناصر الدين اللقّانيّان وزين الدين القسنطيني نزيل مكة والشيخ عبدالوهاب الشّعْراني والعارف أبو الحسن البَكْري وهما من عمَد أهل التصوف وغيرهم. وذكرُه وارد في سند الطريق في مرآة المحاسن وغيرها.

وذكر صاحب طبقات الشاذلية المسماة بجامع الكرامات أنه لما قدم مصر وسمعت بقدومه العلماء والفضلاء من أهلها وفدوا عليه، ومثَلوا بين يديه، وكان يحضر درسَه في الأزهر الشريف زهاءُ ستة آلاف نفس من مصر والقاهرة وأحوازها وتولى إمامة المالكية وصار أستاذ رِواقهم ونصَبوا

له كرسياً عالي الأركان بديع الإتقان صار يجلس عليه للإفادة. قال: وهذا الكرسي موجود إلى وقتنا هذا برواق السادة المغاربة بالأزهر الشريف. وكانت له صولة ودولة عند أمراء المصريين والقبول التام عند الخاص منهم والعام.

ولعل هذا في غير القَدْمة الأولى التي قَدِمها إلى مصر وكان فيها لا يزال بصدد الأخذ عن أعلامها. يدل عليه قول السخاوي في الضوء اللامع بعد أن ذكر نشأته وقراءته بفاس: «وارتحل إلى الديار المصرية فحجّ وجاور بالمدينة وأقام بالقاهرة نحو سنة ومدِيماً للاشتغال، وقرأ عليّ بلوغَ المرام وبحث عليّ في الاصطلاح بقراءته ولازمني في أشياء وأفادني جماعة من أهل بلاده والغالب عليه التصوف... وقد تجرّد وساح وورَدَ القاهرة بعد الثمانين ثم تكرّر دخوله إليها ولقيني بمكة في سنة أربع وتسعين وصار له أتباع ومحبُّون وكتب على حكم ابن عطاء الله»... إلخ.

وفي شذرات الذهب قال المناوي في طبقاته وهو يعني زَرّوقاً: «عابِد من بحر العِبَر يغترف، وعالِم بالولاية متصف، تحلّى بعقود القناعة والعفاف، وبرع في معرفة الفقه والتصوف والأصول والخلاف، خطبَتْه الدنيا فخاطب سواها، وعرِضت عليه المناصب فردّها وأباها». وهذا مما يؤيد ما قاله صاحب طبقات الشاذلية عما كان له في مصر من نفوذ وجاه عند خاصتها وعامتها.

ثم إنه زهد في ذلك كله ورحل إلى قطر طَرابلس واستقر منه بمصراته بجهة تيكران منها حتى مات. قال ابن غَلْبون في تاريخه: «وكان استوطنها وانخرط في سلك أهلِها

وتزوج بها من أولاد الشيخ الجعافرة ووُلد له منها وبقوا بعد موته ثم لحقوا به، وليس له بها نسل ومقامه مشهور. وتولى خدمته وأوقافه قوم من أهل سِرْتَ كانوا في سالف الزمن لهم تشبُّه بالصالحين ونشأ من بعدِهم خَلْفٌ أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات». . . إلخ.

وقد زار الشيخ أبو سالم العَيّاشي مقام المترجم في طريقه إلى الحج وتحدث عن ذلك في رحلته بقوله: «ومن الغد ارتحلنا ونزلنا بزاوية الشيخ المحقق العالم العلاّمة العارف بالله الدال على الله صاحب العلمَيْن ومحقّق النظَرَيْن ومحصل المذهَبَيْن ومُرتضى الفريقين مُقتدَى أهل العلم الباطن ومتبوع أهل الظاهر وينبوع الأسرار في سائر المظاهر قطب مغربنا وإمام أئمتنا سيدي أبي العباس أحمد بن أحمد زروق البرنسي الفاسي حقق الله إليه نسبتنا وخلص في محبته سريرتنا آمين. وكان نزولنا بزاويته صبيحة يوم الجمعة وزرنا قبر الشيخ بما اقتضاه الوقت من أدب ووقار وذل وانكسار وصلّينا الجمعة بالمسجد الجامع وهو الذي كان يصلي فيه الشيخ وخطب إمام المسجد من ورقَة وليتَه أحسن القراءة منها فإنه كان يتوقف حتى في آيات من القرآن العظيم وأسفتُ لذلك المكان مع شرفه بجوار الشيخ وكونه واسطة البلد كيف يُسندَ الأمر فيه إلى غير أهله، ويوضع في غير محله ولله الأمر من قبل ومن بعد».

ثم ذكر العياشي بعد ذلك ما يفيد أن الشيخ رحمه الله لم يكن هو باني الزاوية على ما أخبره به قَيِّمُها أبو العباس أحمد بن عبدالرحيم خديم الشيخ قال:

«(لطيفة): وقد أخبرني سيدي أبو العباس المذكور أن جده الأعلى سيدي أحمد الذي كان خديم الشيخ قال للشيخ في حياته: ألا نبني هنا زاوية ونتخذ لها أوقافاً؟ فقال له: يا أحمد، نحن لا تفوح رائحة مِسْكنا إلا بعدما نَتسوسُ تحت التراب. ثم بعد موته وكثرة الواردين والزائرين وانتشار صيته في مشارق الأرض ومغاربها بنى تلميذه المذكور المسجد بإزاء قبره وسكن عنده بعد موته بعشرين سنة».

قلت: وهذا هو اللائق بعلم الشيخ وعمَله وتمسكه بالسنة قولاً وفعلاً واعتقاداً فرحمه الله ورضي عنه وجازاه عن إيمانه وإخلاصه الجزاء الأوفى.

وكانت وفاته سنة ٨٩٩ في صفر. وذكر العياشي أيضاً أنه وقف على ورقة فيها زِمَامُ تركة الشيخ وعَدَدُ ورثته فساقها باللفظ قال: «لما اشتملت عليه من الفوائد، منها استفادة عدد أولاده وأين استوطنوا بعده فإني لم أجد ذلك بعد الفحص الشديد عنها. ومنها التأسي به في قلة ما خلفه من الدنيا مع كونه ذا أولاد ونساء في بلد يشق فيها العيش ولا يعوزه ما يُخلّفه لهم لو شاء لانتشار صيته وخدمة الدنيا وأهلها له ومع ذلك لم يخلف إلا ما ستراه». وخلاصة ما في هذه الورقة أنه توفي عن زوجتين وأربعة أولاد كل منهم يسمى أحمد ويتميز بكنية وبنت واحدة اسمها عائشة وخلف نصف فرس وكانت شركة مع الغير وبُرنُساً أبيض وجبةَ صوف وثوباً آخر وسبحة كانت لشيخه الحضرمي وأربعة عشر سفراً وكناشة. . . إلخ، فانظرها إن شئت في الرحلة العياشية.

هذا هو تراث زروق المادي فليخجل عند ذكره كل شيخ يزعم التصوف وهو أغنى من قارون! أما تراثه الأدبي فمجموعة من الكتب في الفقه والتصوف مؤسسة القواعد محررة المقاصد يميل فيها إلى الاختصار لكونه ممن ألغى فضُول القول، ويأتي فيها باللباب من العلم الذي يتناوله لأنه كان أنصح من أن يشغل قارئه بالقشور، وليس قارئه إلا طالباً متفقهاً في الدين أو مريداً مترقياً في مقامات اليقين ولا أحق بالنصح منهما.

وإليك حلقات هذه السلسلة الذهبية قبل أن نأتي بشذرات منها تُقرّ أعين الناظرين. ولعل الشيخ أحمد بابا في «نيل الابتهاج» كان أحصى لمؤلفاته من غيره فلنعتمد قوله في هذا الصدد ونصه: «وأما تآليفه فكثيرة يميل فيها إلى الاختصار مع التحرير ولا يخلو شيء منها عن فوائد غزيرة وتحقيقات مفيدة لا سيما في التصوف فقد انفرد بمعرفته وجودة التأليف فيه. فمنها شرحان على الرسالة وشرح إرشاد ابن عسكر وشرح مختصر خليل وشرح الوغليسية وشرح القرطبية وشرح الغافقية وشرح العقيدة القُدسية للغَزالي ونيف وعشرون شرحاً على الحكم وشرحان على حزب البحر وشرح الحزب الكبير لأبي الحسن الشاذلي وشرح مشكلاته وشرح الحقائق والدقائق للمقري وشرح قطع الششتري وشرح الأسماء الحسنى وشرح المراصد في التصوف لشيخه ابن عقبة والنصيحة الكافية لمن خصّه الله بالعافية ومختصره وإعانة المتوجه المسكين على طريق الفتح والتمكين وكتاب القواعد في التصوف، وهذه الثلاثة في غاية النبل والحسن،

لا سيما الأخير منها لا نظير له. وكتاب النصح الأنفع والجنة للمعتصم من البدع بالسنة وكتاب عدة المريد الصادق من أسباب المقت في بيان الطريق وذكر حوادث الوقت كتاب جليل فيه مائة فصل بَيّن فيه البدع التي يفعلها فقراء الصوفية. وله تعليق على البخاري قدر عشرين كراسة اقتصر فيه على ضبط الألفاظ وتفسيرها، وجزء صغير في علم الحديث. وله رسائل كثيرة لأصحابه مشتملة على حكَم ومواعظ وآداب ولطائف التصوف مع الاختصار قلّ أن توجد لغيره. وبالجملة فقدره فوق ما يذكر ومن تفرغ لذكر حاله وفوائده وحكمه ورسائله جمع منها مجلداً... وهو آخر أئمة الصوفية المحققين الجامعين لعلمَيْ الحقيقة والشريعة».

ويزاد على ما ذكره كناشته التي تعد من أحفل كتبه بالفوائد التاريخية وكثيراً ما ينقل عنها الشيخ أحمد بابَا نفسه وغيره وتقدم ذكرها في زمام تركته. وله فهرست ذكرها ابن القاضي في ترجمته من درّة الحجال وله أيضاً مما وقفت عليه ولم يذكره رسالة الأصول البديعة والجوامع الرفيعة ورسالة في أصول الطريق نظمها الشيخ أبو سالم العياشي وشرحها تلميذه الخروبي ونظم فصول السّلَمي في عيوب النفس وشرح المباحث الأصلية وكتاب لم يسم في علاج أدواء القلب إلى غير ذلك. وكتبه وإن كانت كلها محررة مفيدة إلا أن عيونها هي الثلاثة التي ذكرها صاحب نيل الابتهاج ويزاد عليها كتاب عدة المريد الذي لا نظير له في النّضح عن التصوف والدفع في وجوه أدعيائه بالحجة والبرهان. وهو في نظرنا عَدِيلُ كتاب تلبيس إبليس لابن

الجوزي وربما فاقه لاختصاصه بهذا العلم ولمكانة صاحبه عند المتصوف أنفسهم فلا يمكن أن يقدحوا فيه بما يقدحون به في تلبيس إبليس وانظر ما قاله اليُوسي في المحاضرات بصدد الإنكار على أهل الوقت فإنه لم يجوّزه إلا للراسخ في العلم والعمل والإنصاف كمترجمنا وهذا نص كلامه مختصراً:

«وأما استنقاص أهل الزمان على ما مر فلا شك أنه لا يحرم إذ لا يدخل في الغيبة المحرمة حيث لا يكون التعيين... نعم ذكر ما يقع منهم من المناكر بالتنصيص بقصد الاحتراز مع الإنصاف كما فعل أبو العباس زروق رضي الله عنه في النصح الأنفع وفي عدة المريد نافع مفيد، غير أنه صعب مفتقر إلى تحقيق المدارك وتضلع في العلوم وتجربة تامة»... إلخ. وناهيك بها من مثل اليوسي.

وها نحن أولاً نستعرض من كتابه المذكور بعض الفصول للتعريف بقيمته ولتتمة التعريف بمؤلفه أيضاً. وقد صدّره بكلمة لبيان الغرض من تأليفه هذا نصها:

«ليعلم الناظر في هذا الكتاب، المتأمل لما فيه من حق وصواب، أنا لم نقصد به الطعن على الناس ولا القدح فيهم، ولا الاشتغال بمساويهم ولا إظهار عيوبهم، ولا أردنا الاستظهار بالمزية عليهم، وإنما قصَدْنا به التحذير من الوقوع فيما حذرنا منه، والتحرير لما نبهنا عليه، ليكون عُدّة للصادق في دينه، وإعانة للمحقق في يقينه، ورحمة للمسكين في حاله، فمَن قصده لشيء مما قصدناه به فالله

المسؤول في إعانته ونفعه، ومَن قصده لغير ذلك فالله المستعان على إتلافه ومنعه، وأن يعمي عنه مَن يريد به هتك أستار الناس، ويريد به إظهار اللبس والالتباس، ومَن قصده لذلك فالله حسيبه وسائله ومتولي الانتقام منه لأن مَن تتبع عورة أخيه تتبّع الله عورته حتى يفضحه ولو في جوف بيته، والمؤمن يلتمس المعاذير والمنافق يتتبع العيوب، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه، ويعلم الله لولا الشفقة على الأخوان الصادقين ما كتبتُ منه حرفاً مع ما أخذ على من عَلم شيئاً أن يبينه ولا يكتمه، وما ورد من الوعيد في سكوت العالم عند ظهور البدع مع ما انضم إلى ذلك من أسباب خاصة وعامة. وعلى الله المعتمد في عموم النفع به وأن يجعله رحمة وبركة حيث ما حلّ.

ثم أرغب لمن كتبه أن يكتب هذه المقدمة في ضمن نسخته لنبرأ من جهل الجاهلين وعلى الله ثوابه».

ولسنا بحاجة إلى التنبيه على ما يفيض به هذا التصدير من روح الإنصاف والنصيحة والإخلاص، فتلك شيمةَ زروق التي عُرفَ بها في كتبه وأبحاثه وآرائه بعامة. وهاك الآن الفصل الأول من الكتاب وهو في تحقيق معنى البدعة وتقسيمها قال:

«(فصل) في حقيقة البدعة وخواصّها وأحكامها: أما حقيقة البدعة فشرعاً: إحداثُ أمر في الدين يشبه أن يكون منه سواء كان بالصورة أو بالحقيقة لقول رسول الله ﷺ: **«مَن أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»**. وقوله عليه السلام: **«كل محدثة بدعة»** كما تقدم. وقد بيّن العلماء

رضي الله عنهم أن المعنى في الحديثين المذكورين راجع لتغيير الحكم باعتقاد ما ليس بقُربةٍ قُربةً، لا مطلق الإحداث إذ قد تتناوله الشريعة بأصولها فيكون راجعاً إليها أو بفروعها فيكون مقيساً عليها. قالوا: وبحسب هذا فلا تكون البدعة إلا محرمة أو مكروهة لأنها إن قَوِيت شُبهتُها لا يصح أن يبلغ بها التحريم وإن ضعفت شبهتها جداً كانت محرمة لا سيما إن كانت في مقابلة منصوص عن الشارع أو مخالفة لأصل الملة أو خارجة عن قواعد الأحكام الشرعية. قال المحققون: وإنما قسّمها بعضم لأقسام الشريعة اعتباراً بمطلق الإحداث ومن حيث اللغة ومنه قول عمر رضي الله عنه في شأن التراويح: نِعْمت البدعة هذه فسمّاها بدعة من حيث صورةُ إثباتها وإلا فهي سنة بفعل النبيّ ﷺ في ثلاث ليال من رمضان في حياته، ثابت إقامتها بقوله عليه السلام: «إني خشيت أن يفرض عليكم». فنبّه على العلة ليشعر بثبوت الحكم عند ارتفاعها كما أثبته عمر رضي الله عنه بإجماع من الصحابة في قبوله، فإن قلت: كيف تكون البدعة المكروهة ضلالة، مع أن المكروه من قبيل الجائز والنبيّ ﷺ قد حكم على كل بدعة بأنها ضلالة؟ قلت: الكراهة مصروفة للعمل بها، وإحداثها حرام لأنه افتيات على الشارع وتقدّم بين يديه وتغيير لأحكامه مع وجود شبهة منه.

ثم من خواص البدعة ثلاثة:

أحدها: أنها لا توجد غالباً إلا مقرونة بمحرم صريح أو آيلة إليه، أو يكون تابعاً لها، ومَن تأمل ذلك وجده في كل ما قيل فإنه لا ينخرم بحال كما ننبه عليه إن شاء الله تعالى.

الثاني: أنها لا توجد غالباً إلا في الأمور المستغربة غير المألوفة في الدين وهي في الكيفيات من المندوبات وتوابع الأعمال وما تميل إليه النفوس وتستحسنه كالذكر والتلاوة والصلاة والصوم بما يدخلون عليها من الكيفيات ونحوها والسلوك ونحو ذلك فتأمله.

الثالث: أنها لا توجد غالباً إلا مستندة لوجه من الشريعة أو معنى من الحقيقة يلتبس على قليل العلم فيتحير أو يسلم ويتروج على الجاهل فيظنه ديناً قيّماً من حيث لا يعلم، وما غرّه في ذلك إلا شبهة الأصل وتسليم مَن يعتقد فيه العلم والفضل. ولكن لكل شيء ميزان يظهر به الحق من الباطل يعرفه العالم وينفيه الجاهل فيكون ضالاً بفعله مضلاً بدعوى الخلق إليه غير معذور في أمره لعدم تبصُّره إذ الدين مبني على التبصُّر، وبالله التوفيق».

ولا يخفى تحرير هذا الفصل وأنه على اختصاره جمع بين تحقيق النظر في معنى البدعة وتقسيمها الصحيح إلى قسميها الطبيعيين: الحرمة والكراهة، ولم يجار اصطلاح الفقهاء في عصره على تقسيمها إلى أقسام الحكم الشرعي الخمسة وأن بين وجهة نظرهم في ذلك التقسيم ودليله، ثم عرض لما يتوهم من أن البدعة المكروهة لا حرج فيها فبيّن أن الكراهة إنما تتعلق بالعمل بها، وأما أصل إحداثها فحرام وبذلك حسم المادة في أمر الابتداع وأغلق الباب في وجه المبتدعين، ومن ثم تخلص إلى الكلام على خواص البدعة بما لم يدع في أمرها اشتباهاً وهكذا حرّر هذا الفصل تحرير الجوهر وركزه تركيزاً مُوعَباً بحيث جمع فأوعى.

وهاك فصلاً آخر بيّن فيه الأسباب التي تدعو إلى الابتداع وخاصة في الطريق وهو نظير سابقه تحريراً وتركيزاً، قال:

«(فصل) في أصل ظهور مدّعي التصوف في هذا الزمن بالبدع واتباع الناس لهم عليها:

فأما ظهورهم بالبدع فله أصول ثلاثة:

أولها: نقص الإيمان لعدم العلم بحرمة الشارع وفقد نور الإيمان الهادي إلى اتباع الرسول عليه السلام. قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾. وقال أحمد بن حضرويه رضي الله عنه: الدليل لائح الطريق واضح والداعي قد أسمع فما التحيُّر بعد هذا إلا من العمى. وقال ابن عطاء الله رضي الله عنه في حِكَمه: لا يُخاف عليك أن تلتبس الطرق عليك وإنما يُخاف عليك من غلبة الهوى عليك. وقال أيضاً: تمكن حلاوة الهوى من القلب هو الداء العضال. قال بعضهم: نحت الجبال بالأظافر أيسر من زوال الهوى إذا تمكن، قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ﴾، يعني أن الحيل والأسباب لا تفيد في هدايته لتمكن الباطل من نفسه وفقدان نور الإيمان من قلبه، ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾.

الثاني: الجهل بأصول الطريقة واعتقاد أن الشريعة خلاف الحقيقة وهذا هو الأصل الكبير في ذلك وهو من

مبادىء الزندقة ومنه خرجت الطوائف كلها وصار الفروعي الجامد لا يتوقف في سب الصوفية، والمتصوف لا يتوقف في النفور من العلم وأهله ويخالف ظاهر الشريعة في أمره ويرى ذلك كمالاً في محله حتى لقد سمعت من بعض مَن تفقّر من طلبة الوقت أنه سمع حكاية من حكايات الخارجين أوجبت أثراً في الوجود فنطق ناطق زندقته وجهله بأن قال ظاهر الشريعة حرمان، وهذا والعياذ بالله كفر وضلال انجرّ له من جهله بالطريق واعتقاده الفرق بين الشريعة والحقيقة، وهذا هو الأصل الذي بنى عليه المارقون أصولهم واستظهرت الطوائف بأعمال خارجة عن الدين وأحوال موافقة للمارقين فحمل الصادق على الكاذب والمصيب على الخائب، ووقع الكل في جهالات لا يمكن تفصيلها ولا ينضبط تأصيلها ودفع ذلك لا يكون إلا بتقرير أصول القوم وسنفرد له فصلاً بعد إن شاء الله.

الثالث: حب الرئاسة والظهور مع الضعف عن أسبابها والقصور فيضطرهم ذلك لإحداث أمور تستميل القلوب لكونها مجبولة على استحسان الغريب مع جهلها بما يشين ويريب وحرصها على الخير وظهور هذا الشخص بصورة ذلك وحقائق منه مع ما يجري على يديه من خوارق شيطانية أو يبدو لتابعيه من لذة نفسانية أو يدركه من أذواق طبيعية يظنها فتوحات وأسبابَ وُصول فينبذ لها الفروع والأصول مع ما يعينه على ذلك من احتقار الأمور المألوفة واعتقاده أن المقام العجيب لا يدرك إلا بالأمر الغريب وأن العبادة في صورها ووجوهها لا تفيد المقصود إلا بإضافة أمر إليها

فينقاد لذلك عند ظهوره ويعمل به فيجتهد الأمر له بذلك ويتقوى عليه بما ظهر له من ذلك وما هو إلا الجهل والانقياد للوهم وعدم التثبت والفهم نسأل الله السلامة بمنّه وكرمه».

وهذه جُمَلٌ من فصول منه تُبين نظره في أشياء مما ضلّت فيه آراء القوم فمن ذلك قوله في المهدي المنتظر:

«هذا مع أن كثيراً من العلماء يقولون بأن الفاطمي قد انقضى زمانه وأنه عمر بن عبدالعزيز أو غيره على اختلافهم في ذلك، والحق أن الأمر فيه مبهم وأن الاشتغال به مما لا ينبغي لاشتباه الأمر واضطرابه مع عدم الاضطرار إليه، وهب أنه نزل بباب المدينة التي أنت فيها أليس في عنقك بيعة أميرها فلا يحل لك الخروج عنه ولا الخروج إليه لما في رقبتك من حق أميرك، هذا إن تحقق فما ظنك والأمر متوهم الصحة في أصله غير متحقق التأخير في وقوعه».

ومن قوله فيه، في نسبة الفقه من التصوف: «قالوا: وما مثل الفقيه إلا كبَوّاب الملك والصوفي المحقق صاحب سرّه فإذا حدّث الصوفي عن خبايا بيت الملك نادى عليه الفقيه إنما أنت سارق أو كذاب أو متجاسر، فإن أتى بأمارة من الملك وإلا فحجة البواب عليه قائمة وإنكاره صحيح، فمن ثم صحّ إنكارُ الفقيه على الصوفي ولم يصح إنكار الصوفي عليه فاعرف ذلك».

ومن قوله في كتب الحاتمي ومَن على شاكلته في أحد الفصول منه: «فأما كتب الحاتمي وابن سَبْعين وابن الفارض

وأبي العباس البوني ومَن جرى مجراهم فلها رجال، لهم في الحقائق مجال، وعندهم في التمييز مقال، فلا يشتغلُ بها في البداية إلا غَوِي ولا في النهاية إلا خَلي ولا في التوسط إلا ذَكي يأخذ بما كان رُشدُه ويسلم ما وراء ذلك ليسلم من آفاته وما هو إلا كما قيل:

مَـن تـحـلّـى بـحِـلْـيَـة لـيـس فـيـه
فـضَـحـتـه شـواهـد الامـتـحـان

أعاذنا الله من البلاء بمنّه».

ومثله قوله في أحزاب ابن سبعين ودعوات البُوني في أحد فصول الكتاب ونصه:

«(فصل) في أمور أولع بها بعض الناس وفيها مغمز ما، منها أحزاب الشيخ أبي محمد عبدالحق بن سبعين وهي محتوية على حقائق ودقائق وأمور عالية بعبارات فائقة وشقاشق عظيمة بعضها في الإضمار وبعضها خارج عنه، فلذلك وجب على الضعفاء اتقاؤها وكان التسليم فيها أوْلى من العمل بها إلا حزب السلام له وفيه ما فيه للعدول عن الألفاظ الشرعية إلى عبارات أخرى لا ندري ما قصد بها إن لم يكن الإيقاع في النفس، وبالجملة فذلك واقع له بحسب حاله ومقامه ونحن لا نأخذ إلا ما جمع العبودية والأدب والتأثير لا غير ذلك فافهم. ومنها دعوات البوني وأقسامه المرتبة على الساعات وغيرها، وقد نصّ العلماء على أن ذلك بدعة مكروهة ويَعنون للعالم به، فأما غيره من الجهّال فلا حديث عليه وهو ممنوع منه بكل حال».

ومن هذا القبيل قوله في كتب الصلوات المعروفة من فصل آخر: «ومن ذلك تصنيف بعض الناس في الصلاة عليه ﷺ بكيفيات يعتمدها ويأتي فيها بألفاظ مستغربة وأنواع منتخبة تألفها نفوسُ العوام وتتحرك بها نفوس الغافلين للصلاة عليه ﷺ في الجملة. والأوْلى بأهل التوجه الاقتصارُ على الألفاظ الواردة عنه ﷺ، فإن الخير كله في الاتباع والفتح الكامل في التقيُّد بألفاظه عليه الصلاة والسلام فلا تعدل بها شيئاً ولو قلّت فقليلها كثير ومعناها كبير».

وأخيراً استَمِعْ إليه فيه وهو يحذّر أتباعه من الاقتداء به في أمور ربما صدرت منه عن غير تعمُّد ولا إصرار، ولكن النصيحة التي جعلها هجّيراه وهضم النفس الذي هو ديْدَنُه أمليا عليه هذه الجملة: «وما زلتُ أحذّر الأصحاب من الاقتداء بي في خمسة أمور:

أحدها: العمل بالسماع وأقبَحهُ في عيونهم.

الثاني: التوسع في الأكل صفةً ومقداراً فإن ذلك إساءة أدب.

الثالث: مخالطة كل أحد ومباسطته وذلك هُجْنَة وقلّة مروءة.

الرابع: كثرة المزاح والانبساط والتوسع في الكلام لأنه يجر إلى الشر والنقص.

الخامس: النظر في كتب الرقائق والعمل عليها دون غيرها.

فإني لا أفعل ذلك والله عن رؤية ولا اختيار وما كتبت التحذير منه هاهنا إلا لئلا أجعَلَ حجة فيه، وبالله التوفيق».

هذه فصول ونقول من كتاب عدة المريد تَقفُك على أهميته وتتعرف منها آراء زروق في المسائل الصوفية الدقيقة. وهي آراء موزونة بميزان الشرع ترد إلى التصوف الإسلامي اعتبارَه وتعود به سيرتَه الأولى التي كان عليها في عهد الجنيْد وطبقته من الصوفية الأخيار. وقد احتوى كتابه قواعد التصوف الذي يُعد حجة في هذا الباب على كثير من هذه الآراء التي نظن أنه جرّدها من كتابه الأول وأودعها في القواعد كما احتوى على حقائق أخرى لها أهمية كبيرة في الموضوع. وتتميماً للفائدة نُورد بعضها هنا فمن ذلك قوله:

«(قاعدة) الفقه حكم عام في العموم لأن مقصوده إقامةُ رسم الدين ورفعُ مناره وإظهار كلمته وحكم التصوف خاص في الخصوص لأنه معاملة بين العبد وربه من غير زائد على ذلك، فمن ثم صحّ إنكار الفقيه على الصوفي ولا يصح إنكار الصوفي على الفقيه ولزم الرجوع من التصوف إلى الفقه والاكتفاء به دونه ولم يكف التصوف عن الفقه بل لا يصح دونه ولا يجوز الرجوع منه إليه إلا به وإن كان أعلى منه رتبةً فهو أسلمُ وأعم منه مصلحة، ولذلك قيل: كن فقيهاً صوفياً ولا تكن صوفياً فقيهاً وصوفي الفقهاء أكمل من فقيه الصوفية وأسلمُ؛ لأن صوفي الفقهاء قد تحقق بالتصوف حالاً وعملاً وذوقاً بخلاف فقيه الصوفية المتمكن من عمله وحاله ولا يتم له ذلك إلا بفقه صحيح وذوق صريح لا

يصح له أحدهما دون الآخر كالطب الذي لا يكفي علمُه عن التجربة ولا العكس فافهم».

ومنه قوله «(قاعدة) تحديدُ ما لم يرد في الشرع تحديدُه ابتداع في الدين لا سيما إن عارض أصلاً شرعياً كصيام يوم لفوات وِرْد ليلته الذي لم يجعل له الشارع كفارة إلا الإتيان به قبل صلاة الصبح أو زوال اليوم وكذا قراءة الفاتحة قبل الصلاة وتوقيت ورد الصلاة ونحوه مما لم يرد من الشرع نص فيه لا ما ورد فيه نص أو إشارة كصلاة الرواتب وأذكار ما بعد الصلاة وقراءة القرآن وصيام النفل ونحوه فافهم».

ومنه قوله: «(قاعدة) لا يشفع عند الله أحد بإذنه وقد أمر بابتغاء الوسيلة إليه، قيل: هي لا إلٰه إلا الله، وقيل: اتباع رسول الله، وقيل: اتباع في العموم فيُتوسل بالأعمال كأصحاب الغار الذين دعا أحدهم بأفضل عمله وبالأشخاص كتوسل عمر رضي الله عنه بالعباس رضي الله عنه في استسقائه وجاء الترغيب في دعاء المرء لأخيه مطلقاً، وقال عليه السلام لعمر رضي الله عنه حين ذهب لعُمْرة له: **«أشركْنا في دعائك يا أخي»** وذلك للتعليم وإلا فهو عليه السلام وسيلةُ الوسائل وأساس الخيرات والفضائل، وقد روي عن مالك: لا يتوسل بمخلوق أصلاً، وقيل: إلا برسول الله ﷺ، وهذا كما قال أبو بكر بن العربي في زيارة المقابر: لا يُزار لينتفعَ به إلا قبرُه عليه السلام».

وقوله منه: «(قاعدة) لا علم إلا بتعلُّم عن الشارع أو

مَن ناب منابه فيما أتى به، إذ قال عليه السلام: «**إنما العلم بالتعلُّم وإنما الحلم بالتحلُّم ومَن طلب الخير يؤته ومَن يتقِ الشر يوقَه**»، وما تفيده التقوى إنما هو فهم يوافق الأصول ويشرح الصدور ويوسع العقول، ثم هو منقسم لما يدخل تحت دائرة الأحكام، ومنه ما لا يدخل تحت دائرة العبارة وإن كان مما تتناوله الإشارة، ومنه ما لا تفهمه الضمائر وإن أشارت إليه الحقائق مع وضوحه عند مشاهده وتحقيقه عند مُتلَقّيه وقولنا فيه: فَهْم لإثبات أصله لا غير فاعرف ما أشرنا إليه، وبالله التوفيق».

ومن شَذَراته القيّمة قوله في شرح المباحث الأصلية تعليقاً على قولهم: مَن تصوّف ولم يتفقّه فقد تزندق، ومَن تفقّه ولم يتصوّف فقد تفسّق، ومَن جمع بينهما فقد تحقق. «قلت: تزندَقَ الأولُ لرفضه الحكمة والأحكام وتفسّق الثاني لخلُوّه من صدق النية فيما هو به والعمل به وتحقق الثالث لقيامه بكلّ في محله فمرجع كلام الصوفية في كل باب لأحوالهم وإلا فلا تنافي بين أقوالهم لمن تأملها وذلك خلاف مذاهب غيرهم فمذاهب الغير يتسلط عليها الإبطال ومذهب القوم يرجع إلى وفاق الحال فإن لم يقبل ذلك فليس من مذاهبهم».

ومنها فيه أيضاً: «(تنبيه) الذي ينبغي أن يُجزَم به في هذا الزمن منع الخِرَق والدخول عليها مما عليه الناس من الشح والاعتلال في الغالب وإذا كان الغدر في النفوس طبعاً فالثقة بكل أحد عجز».

ومنها فيه أيضاً وقد أورده في عدة المريد مختصراً:

«سئل شيخنا القوري رحمه الله عن ابن العربي الحاتمي فقال: أعرف بكل فن من أهل كل فن، قيل له: ما سألناك عن هذا، قال: اختُلِف فيه من الكفُر إلى القُطبانية، قيل له: ما ترجح؟ قال: التسليم، (قلت): وذلك لأن التعرض للتكفير مُخطِر وإظهارُ المزية ربما أدّى الجاهل للاقتداء به في الواقع أو لاعتقاد ظاهره، والله أعلم. ومن هذا النوع ما تقدم ذكره من جواب الإمام مُحيي الدين النووي رحمه الله إذ قال: الكلام كلام صوفي و﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ الآية، وطولِب بعض المغاربة المجاورين بمكة في ضبط مُعتقَده في ابن العربي الحاتمي ليصل بعض القضاة إلى عقُوبته وإذايته لكونه مُنكِراً له ومُكفّراً فقال: اشهدوا أني مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، وما كان من كلام فلان موافقاً بظاهره للكتاب والسنّة فأنا أقول به وما كان على خلاف ذلك فأنا أكِلُ علمه إلى أربابه. فلم يجد له سبيلاً. ووقفتُ لأبي زُرْعَة العراقي على جواب في شأنه وكذا ابن الفارض ذكر فيه كلام الناس من المنكرين وغيرهم ومال إلى أنه يُعترَضُ على الكلام ويُترَك القائل لاحتمال توبته ونحوها. وهذا وجه من السلامة أيضاً.

والتحقيق في ذلك أن وجه الشريعة مُراعَى ومعنى الحقيقة ملحوظ وحرمةُ العالم لا يرفعها غلَطُه ولا سهوُه ولا خطؤه ورتبته من العلم والدين لا ترفع عنه الأحكام فتُعتبر عباراتهم من حيث حقائقُها بأن يؤخذ منها ما دلت عليه من المعاني الصحيحة السالمة من الاعتراض وينظر في الألفاظ من حيث ما يقتضيه مُوجب الحكم في محله فلا يُهمَل حق الله فيه وحماية الشريعة بالعمل به ولا يتحامل على

صاحبه بأن هذا مذهبه لأن دلائل انتفائه عنه أكثرُ من دلائل ثبوته وحسنُ الظن في محله مُقدّم على سوء الظن والمؤمن يلتمس المعاذير والمنافق يتبع العيوب وهذا الوجه الذي قلنا أسلمُ الوجوه وأحسنُها شرعاً وحقيقةً، وبالله التوفيق».

انتهى، وهو كلام نفيس وصدوره من عالم صوفي يزيده نفاسةً ولعل غير زروق من المتصوفة الذين أتوا بعده لا يمكن أن يحكي هذا الكلام، وإن حكاه فإنما ليطعَن به في زروق... أما أن يكون له رأي من هذا القبيل في الشيخ الأكبر فهذا هو الكفر أو أكبر وبذلك تعرف مقام زروق في العلم والعمل ورسوخ قدمه في التحقُّق والتشرُّع.

ومنها في شرح الحزب الكبير للإمام الشاذلي عند قوله: (يا مَن هُوَ هُوَ يَا هُوَ)... إلخ، مُبيّناً حُكْمَ إطلاق هذا الضمير على الله تعالى ما نصه: «معناه الذي لا يمكن أن يشار لجلالته وعظمته فهو هو، وللناس في هذا الإطلاق بحث وإنكار على الصوفية، والتحقيق أن إطلاقه في محل الإثبات المطلق إساءة أدب وفي مقام التعظيم بإشعاره واستشعاره وشواهده وقرائنه لا بأس به لأهله».

وتعرض في شرح الوَغلِيسِيّة للحج بالخَطْوة الشائع ذكرُه بين أهل هذا الشأن فتساءل هذا السؤال: «وانظر هل يجِبُ على أهل الخَطْوَة (يعني إذا عُدِمت الاستطاعة) وإذا فُعِل هل يُجْزِئ أو لا بد من اعتبار فعله عليه السلام؟».

ثم إلى جانب هذا الاحتياط المشروع نجد له إرشاداً عظيم الفائدة في تمييز كتب القوم لمن يريد أن يتناولها وهو

ما أشار إليه في أحد شروحه للحكم بقوله: «كتبُ القوم تحتوي على أربعة أنواع (التذكير والوعظ) وهو حظ العوام وللخواص منه نصيب وموادّه من كتب ابن الجوزي وبعض تعاليق المحاسِبي وشيء من كتب الإحياء والقُوت وتحبير القُشَيري وما جرى مجراها (والكلام والأحكام) أي: أحكام تصفية الأعمال وتصحيح الأحوال من واجب وسنّة ومندوب وآداب ظاهراً وباطناً وهو حق المتوجهين من كل فريق وبكل طريق وموادّه من كتب الغزالي والسهروَرْدي ونحوهما، (والكلام على الأحوال) أي: تحقيقها وتحقيق المقامات والأذواق والمنازَلات وهو نصيب المريدين وربما كان تنبيهاً أو تشويقاً لغيرهم ومواده من كتب الحاتِمي في المعاملات والبوني في المنازلات ونحوهما، وفي رسالة القشيري مواضع من ذلك، وفي الجميع مَهاوي فاحذرها لصعوبة فهمها، (والكلام على الحقائق) أي: المعارف والعلوم الإلهامية وهو نصيب العارفين المحققين، وكتاب الحِكَم محتوٍ على الأطراف الأربعة لا سيما الأخيرين منها فهو جامع لما في كتب الصوفية المطولة والمختصرة مع زيادة البيان واختصار الألفاظ».

ونظر في القواعد إلى هذه الكتب نظرةً فنية فصنّفها تصنيفاً آخر بحسب الأذواق والميول التي تكون لكل فريق ممن يسلك الطريق فقال:

«(فائدة): تعدّدُ وجوه الحسن يقضي بتعدد الاستحسان وحصول الحسن لكل مستحسن، فمن ثم كان لكل فريق طريق، فللعامي تصوف حوتْه كتب المحاسبي ومَن نحا نحوه

وللفقيه تصوف رامه ابن الحاج في مدخله، وللمُحدث تصوف حام حوله ابنُ العربي في سراجه[1]، وللعابد تصوف دار عليه الغزالي في منْهاجه، وللمتريض تصوف نبّه عليه القُشَيري في رسالته وللناسك تصوف حواه القُوت والإحياء، وللحكيم تصوُّف أدخله الحاتمي في كتبه، وللمنطقي تصوُّف نحا إليه ابن سبعين في تآليفه، وللطبائعي[2] تصوُّف جاء به البُوني في أسراره، وللأصولي تصوُّف قام الشاذلي بتحقيقه، فلْيعتَبر كلٌ بأصله من محله، وبالله التوفيق».

ونظن أن هذا الاستعراض السريع لآرائه في التصوف والصوفية وأحكامه على أعمال القوم ومنازلاتهم يكفي للدلالة على صدق مَن لقبه بمحتسب العلماء والأولياء وإصابته في هذا اللقب.

وكان بودنا أن نستوعب كل ما تخيّرناه من كتبه واستوقف نظرنا من أبحاثه وما استحسنّاه من رسائله الجامعة إلى إخوانه ومريديه، ونعقد بحثاً للكلام على طريقته الفقهية وتآليفه في هذا العلم فإنه كان علَماً من أعلامه ومَقامُه فيه كمقامه في التصوف يأخُذ ويُعطي ويقبَلُ ويُردّ، ويستشهد بأقوال غير المالكية من علماء المذاهب الأخرى مما يدل على سعة أفقه وكثرة اطلاعه، ولكن خوف الإطالة والخروج

---

(١) لابن العربي سراجان: سراج المهتدين وهو من منحى شهاب القضاعي، وسراج المريدين ولعله المراد هنا.

(٢) يعني بالطبائعي: صاحب علم أسرار الحروف وطبائعها المتصرف في عالم الطبيعة بها وبما تركب منها من الأسماء على حسب مذهبهم في ذلك.

عن المعتاد في هذه التراجم جعلنا نكتفي بما تقدم ونقف عند هذا الحد في التعريف بعبقرية الرجل والدلالة على مكانته العلمية الكبيرة.

ثم نختم بهذه السانحة الصوفية الجميلة من سوانحه، التي كانت محل انتقاد من الشيخ ابن عجيبة على ما سبقت الإشارة إليه وهي قوله: «طفتُ مشارق الأرض ومغاربها في طلب الحق، واستعملتُ جميع الأسباب المذكورة في معالجة النفس بقدر الإمكان، في مرضاة الحق، فما طلبت قرب الحق بشيء إلا كان مبعدي، ولا عملت في معالجتها بشيء إلا كان مُعيناً لها، ولا توجهت لإرضاء الخلق إلا كان غير مُوَفَّ بالمقصود، ففزعت إلى اللجأ إليه عزَّ وجلَّ في الجميع فخرجتْ بفضل ذلك علةُ رؤية الأسباب ففزعت إلى الاستسلام فخرج لي منه رؤيةُ وجودي، وهو رأس العلل، فطرحت نفسي بين يدَيْ الحق سبحانه طرحاً لا يصحبه حول ولا قوة، فصحّ عندي أن السلامة من كل شيء، بالتبرّي من كل شيء، والغنيمة من كل شيء، بالرجوع إلى الله في كل شيء، اعتباراً بالحكمة والقدرة، وقياماً مع الطباع، بشواهد الانطباع، ولما يَرِدُ منه تعالى أمراً ونهياً وخيراً وقهراً وعبودية لا تصحبها رؤية، ورؤية لا يصحبها اعتماد، واتساعاً لا يصحبه ضيق، وضيقاً لا يصحبه اتساع، ممتثلاً في ذلك قول القائل:

قد كنتُ أحسب أن وصلَك يشترى
بنفائس الأموال والأرباح
وظننتُ جهلاً أن حبك هيّن
تُفنَى عليه كرائمُ الأرواح

حتى رأيتُك تجتبي وتخصّ مَن
تختاره بلطائف الأمناح
فعلمتُ أنك لا تُنال بحيلة
فلويتُ رأسي تحت طيّ جناحي
وجعلتُ في عُشّ الغرام إقامتي
فيه غُدُوّي دائماً ورَواحي...»

ولعل ما نقلناه من أقواله في الإنكار على أهل الدعاوى العريضة وردوده لما يصدر عن القوم في شطحاتهم من الكلمات الناشزة عن منهاج الورع هو وحده كاف في رد هذه القصيدة التائية التي ذكر الشيخ أحمد بابا جملة منها في تكميله للديباج وذكرها كلها ابن مريم في بستانه؛ لأنها مما يخالف طريقته واعتقادَه وهَضْمَه لنفسه وإهداره للدعاوى بالكلية. ونظن أن أحد أتباعه المغرورين هو صاحبُها وضعَها على لسان الشيخ تنفيقاً لها وتدليساً على الضعفاء. وكم ذلك من نظير. نعم لا نضع القلم من يدنا حتى نروي لزروق رحمه الله هذين البيتين من نظمه، وقد ذكرهما في كتابه «عدة المريد»:

هذا التصوفُ علمٌ ليس يدرِكه
إلا ذكي الحجا بالجُود موصوف
يرضَى القليلَ من الدنيا ويبذلها
عند الوجود بتقوى الله معروف

* * *

ابن غازي
(ت ٩١٩ هـ)

اسمه ونسبه، ولادته ونشأته، أثر أمه في توجيهه، دراسته بمكناس وفاس، مشايخه الذين أخذ عنهم العلم، استقراره بمكناس ثم تحوله إلى فاس، السبب في ذلك، وظائفه الدينية، شخصيته، عناصر الشخصية، علمه واجتهاده، تلاميذه، مشاركته في حرب التحرير، وفاته وأسف الناس عليه، تراثه الفكري، مؤلفات عديدة في مختلف العلوم، إفادات منه بين نظم ونثر.

هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن غازي العُثماني المكْناسي؛ أحد علماء المغرب وأساتذته الذين عظُم بهم الانتفاع، وملأ صِيتُهم البقاع. نسبُه في بني عُثمان قبيلة من كُتَامَة على ما ذكره هو في الروض الهتون استناداً إلى ابن خلدون.

وفي نشر المثاني أن العَثَامِنة بطن من مُختار حوزَ مَكْناسَةِ الزّيتون. ولا يبعد أن يكون أصلهم من كُتامة واعتبر المترجم الأصل فقط.

وكانت ولادته ببلده مَكْنَاسة عام واحد وأربعين وثمانمائة كما قاله المَنْجُور في فهرسته، خلافاً لما عند ابن القاضي من أنها كانت سنة ٨٥٨ قائلاً: إنه هكذا رآها في الروض الهتون؛ فالذي في الروض الهتون هو أنه رحل إلى فاس لطلب العلم في السنة المذكورة ـ على ما يَظُن ـ فلعله وقع لابن القاضي تحريف في نسخته من الروض كما قال في السلوة.

وهذا نص كلامه في الروض بآخره: «قال المؤلف محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن غازي العثماني منسوباً لأبي عثمان، وهو من قبيلة كتامة حسبما ذكر ابن خلدون في كتاب العبر: نشأت بهذه المدينة «مكناس» كما نشأ بها أسلافي وقرأت بها ثم ارتحلت إلى فاس في طلب العلم، أظنه سنة ثمان وخمسين وثمانمائة. فأقمت بها ما شاء الله تعالى. ولقيت من الأشياخ بالمدينتين جماعة ذكرت مشاهيرهم في الفهرسة التي سمّيتها بالتعلُّل برسوم الإسناد، بعد انتقال أهل المنزل والناد. ثم عدت إلى مكناسة فأقمت بها بين أهلي وعشيرتي زماناً، ثم انتقلت إلى فاس، كلأها الله تعالى، فاستوطنتها:

وكان ما كان مما لستُ أذكره

فظُنّ خيراً ولا تسأل عن الخبر»

وقد أفادنا في هذه الكلمة القصيرة بعدة أشياء: أولها: بيان نسبه. وثانيها: نشأته وطلبه العلم ببلده مكناسة ثم رحلته إلى فاس بصدد إكمال دراسته. وثالثها: عودته إلى

مكناس واستقراره بها بين أهله وعشيرته مدة من الزمان.

وهذه كلها أمور طبَعية لا تلفِت نظر الباحث كما يلفته رابعُ تلك الأشياء: وهو انتقاله بأخرَة إلى فاس متوطناً لها من غير ذكر موجب لذلك، إلا هذا البيت من الشعر الذي أنشده محاولاً صرف نظرنا عن البحث في هذا الأمر فكأنه أغرانا به ووكلنا بالكشف عن سره!...

والواقع أن مترجميه الذين قرأناهم، قد اقتنعوا بهذه الإشارة فلم يُعرّجوا على ذلك السبب في انتقاله إلى فاس، ولم يسألوا «عن الخبر» اليقين في ذلك بل ظنوا خيراً ـ كما أمرهم ـ وقالوا: هذه مَؤونة كُفِيت.

وما هي بأول غفلات مؤلفي التراجم عندنا عن العناصر الأصلية التي تتكون منها ترجمة الشخص الذي يعرّفونه كطفولته ونشأته وأخلاقه والأعمال النافعة التي قام بها والأحداث التي وقعت له في حياته وتاريخ ذلك كله، إلى غير ما ذكر من المعلومات الواضحة التي تُعطينا صورة صحيحة عن الشخص الذي نتعرفه بالترجمة. فأما الألفاظ الجوفاء من الأسجاع المتكلفة والتّحْليات المبالغَ فيها ـ وهي ما يجتهد فيه المترجمون غالباً ـ فإنها لا تكاد تفيدنا في هذا الباب شيئاً، وأكثرها مما يتماثل حتى لا يعودَ فرق بين هذه الترجمة وتلك إلا في الاسم والتاريخ.

وعلى كل حال، فإن ابن غازي بعد أن كان استقر ببلده مكناس، أزعِجَ عنها إلى فاس في الحالة التي جعلته يتمثل بذلك البيت من الشعر، ومترجموه مع اعترافهم بإمامته

في العلم وورعه التام بحيث لا يصدر منه ما يوجب إخراجه من بلده شرعاً، لم يعيروا هذه المسألة أدنى اهتمام، فلننفُض يدنا منهم ولننظر ما تقوله المظان الأخرى عن هذه القضية.

قال المؤرخ ابن القاضي في درة الحجال في غير ترجمة ابن غازي بل في ترجمة الأستاذ محمد بن يوسف التَّرْغي: «وحدثني أن ابن غازي لما نفاه محمد بن أبي زكرياء يحيى بن عمر الوَطّاسي الملقب بالحلو عن مكناسة، لقيه بَوّابُ مكناسة وهو خارج منها قاصداً المشرق ـ أعني كان في ظنه ذلك ثم حبسه أهل فاس عندهم ـ فقال له البواب يوصيه: يا محمد! عليك بالقراءة فمِنْ بركتها بلغتُ هذا المنصب وهذه الخطة! يعني خطة الجلوس لحراسة الأبواب، فكان ابن غازي يُسلّي نفسه بعد ذلك بقوله وكان أمير فاس يومئذ محمد ابن الشيخ أبي زكرياء».

فهذه الحكاية تفيد أن ابن غازي خرج من مكناسة منفياً، نفاه أميرها محمد الحلو أخو السلطان محمد الشيخ، ولكن العلاَّمة الناصري في الاستقصا يقول: «وفي سنة إحدى وتسعين وثمانمائة استدعى السلطان محمد الشيخ الإمام أبا عبدالله بن غازي من مكناسة إلى فاس فولي الخطابة أولاً بالمسجد الجامع من فاس الجديد ثم ولي الإمامة والخطابة ثانياً بمسجد القَرَوِيّين من فاس وصار شيخ الجماعة بها واستوطنها إلى أن مات رحمه الله». فبماذا يجمع بين هذين الخبرين المتناقضين؟

لا شك أن النفي إن كان لقضية سياسية لا يُجامِعُ

الاستدعاءَ الذي يدل على الكرامة، خصوصاً إذا علمنا أن الأخوين السلطان والأمير لم تكن بينهما خصومة حتى يتعمد السلطان إغاظة أخيه باستدعاء ابن غازي، كيف وقد كان هذا الأخ وزيراً له فضلاً عن إمارته لمكناسة؟...

وأما إذا قلنا: إنها خصومة شخصية بين الأستاذ ابن غازي والأمير محمد الحلو لم يجد السلطان معها بداً من استدعاء ابن غازي إلى فاس تلافياً للضرر الذي يمكن أن ينشأ عنها، فكيف نؤول ما جاء في حكاية ابن القاضي عن التّزغي من أن ابن غازي لما نفاه محمد الحلو عن مكناسة خرج يريد المشرق ثم حبسه أهلُ فاس عندهم؟... فمقتضاها أنه لم يكن هناك استدعاء من السلطان وأنه خرج من مكناس ناوياً مُغادرة المغرب، وفي طريقه إلى المشرق حبسه أهل فاس عندهم.

وعلى كل حال، فكلام ابن غازي نفسِه وإنشادُه للبيت المتقدم يشعر أن هناك خصومة حادة كانت بينه وبين أمير مكناس، وأن العناية التي لقيها من السلطان ومن عامة الناس منعته من الخوض في أسباب تلك الخصومة وما نشأ عنها من النفي والتشريد عن بلده ومَسْقِط رأسه مكناسة الزيتون التي أحبها وكلف بها وكان عازماً على الاستقرار فيها إلى الوفاة كما كانت مقراً لأجداده وسلفه من قبل.

وهذه عبارة له في الروض أثناء الكلام على رجالات مكناس من علماء وغيرهم تشعر بأنه كان ينطوي من هذا الأمر على سر لا يرى إفشاءَه تقيةً أو رعياً للذّمام وهي قوله: «وقد كنت أردت أن أجمع من أمكن منهم مرتبين

على حروف المعجم، فجمعت منهم جماعة صالحة ثم خمدت القريحة عن ذلك وجمدت الطبيعة وعاقت العوائق وشط المزار... وعدَتْ عوادٍ بيننا وخطوب. وما برز من الغيب فهو المختار، وربك يخلق ما يشاء ويختار».

على أنه فيما يظهر من حاله كان يتجنب الخوضَ في مثل هذه الشؤون حتى لو لم تتعلق به، فإنا نجده عندما تعرض لذكر شيخَيْه أحمد بن سعيد الحبّاك وأبي عبدالله القَوْرِي المِكْناسيّين وكان لقيهما بفاس يقول: «وكان هذان الشيخان قد ارتحلا من مكناسة إلى فاس، وسبب ارتحالهما مشهور عند الناس، فلنَقْبِضْ عنه العِنان، والله المستعان» فهذه من تلك، ولا ريب أن هناك اعتبارات سياسية أو اجتماعية كان يراعيها في تركه للكلام عن سبب انتقال هؤلاء العلماء من مكناسة إلى فاس، والله من وراء القصد.

وقد تقدم في آخر الحكاية المنقولة عن درة الحجال أن أمير فاس حين انتقل إليها ابن غازي كان هو محمد ابن الشيخ أبي زكرياء وهو خطأ صوابه محمد الشيخ بن أبي زكرياء كما لا يخفى.

هذا، ولا نترك الحديث عن هذه الحكاية حتى ننبّه إلى ما فيها من الدلالة على خفة روح ابن غازي ولطف تندّره بقول البواب له وهو خارج من بلده مطروداً: يا محمد عليك بالقراءة فمن بركتها بلغت هذا المنصب!.. ولعل هذا البواب كان لا يرى في ابن غازي حتى ذلك الوقت، وهو قد بلغ الخمسين من عمره وأنهى دراستَه بمكناس وفاس منذ سنين، إلا طالباً ناشئاً لم يُحصّل بعدُ من العلم ما يستحق به

أن يكون بواباً مثله فلذلك أوصاه بالقراءة، وهي مشكلة العلماء مع الجهّال والشباب مع الشيوخ لم تزل قائمة منذ الأزل ولن تزال إلى يوم الدين.

وبعدُ فلا يفوتنا أن نلاحظ كونَ القراءة هي شرط الولاية ـ كانت ـ في عموم المناصب حتى منصب البواب. وهذا في دولة بني وطاس ولم تكن من الدول العظمى بالمغرب، فما ظنك بدولة الموحدين والمرينيين مثلاً؟...

أولئك قوم إن بنَوْا أحسَنُوا البنا
وإن عاهدوا وَفَوا وإن أوثقوا شَدوا

* * *

ونعود إلى الروْض الهَتُون ننخُله فإذا بكلمة أخرى لها أهميتها في معرفة منبت ابن غازي وتربيته البيتية أثناءَ طفولته ومنشأه في حِجْر أمه الصالحة رَحْمَة بنت الجَنّان، من أُسْرة الجنّان الشهيرة بمكناس... وذلك عند كلامه على الشيخ أبي عبدالله محمد بن عزّوز الصنهاجي من علماء مكناسة، حيث ذكر أنه توفي بالمشرق في حجته الثانية فتزوج والد ابن غازي زوجه رحمة المذكورة قال:

«فهي أمي والحاج المذكور والدُ أخوتي لأمي. وقد كانت أمي حفظت منه حديثاً كثيراً في أيام الصغر فلم أتعب في حفظه بعد الكبر، ولله الحمد. وكانت رحمها الله ملازمة لدرس القرآن العزيز في المصحف وكان علّمها كثيراً من تفسير قصصه وأخباره فنفعتنا بذلك في الصغر غايةً برّد اللّهُ ضريحها وحدثتني عنه بحكايات وفوائد يطول جلبها».

فإلى هذه الأم الصالحة يعود الفضل في تكوين هذا الولد وتوجيهه التوجيه الخُلُقي والعِلْمي. وقلّما رأيت رجلاً عظيماً له شأن يذكر ولم يكُن للمرأة في حياته تأثير ملموس لا سيما الأم التي في حجرها يتلقى أول درس في الحياة. فإن كانت امرأة فاضلة مهذبة طبعت ولدَها على غِرار نفسها فنشأ فاضلاً مهذباً وإلا فأول ما يؤتى منه الولد الأم الجاهلة السيئة الخلق. ولقد أثرت هذه السيدة في ولدها تأثيراً بليغاً بقي يذكره لها مدى الحياة، ففضلاً عن التربية العملية التي تقوم بها كلّ أم لولدها، كانت تُلقّنه بعضَ المعلومات النافعة من الأدعية النبوية والفوائد العلمية، وتحكي له عن زوجها الأول حكايات لا شك أنها كانت تعمل عَمَلَها في نفس الصبي من حيث توجيهُه العلمي إذ كان ذلك الزوج فقيهاً مُحَدّثاً مُقْرِئاً أديباً مؤرّخاً. وعلى منواله نسَجَ ابن غازي بعدُ فكان متفنناً مثل زوج أمه بل أرْبَى عليه في ذلك.

ولعل هذه الأم التي فُجِعَت بزوجها العالم كان لا يُرضيها إلا أن ترى له خَلَفاً من بنيها تتسلى به عنه فكان هو ابنها هذا الذي لم تألُ جُهْداً في تربيته وإعداده لذلك. وعليه فإذا ذهبنا نعد أشياخ ابن غازي الذين أخذ عنهم واستفاد منهم فإن أمه السيدة رحمة الجنّان تكون في الطليعة لا يتقدم عليها أحد في هذا الأمر.

ثم يأتي بعدها أكبرُ شيوخه قدراً وأجلهم خطراً وهو الإمام أبو عبدالله القَوْري المكناسي ثم الفاسي أخذ عنه الفقه والحديث وغيرهما. فأبو عبدالله محمد الصغير النّيجي أخذ عنه القراءات والعربية وكان عمدة فيهما. وأبو العباس المَزْجَلْدي،

وأبو علي المغيلي، وآباء زيد القَرْمُوني والمَجْدُولي والكاوَاني وأبو الحسن ابن مَنُون، وأبو العباس الحبّاك، وأبو عبدالله محمد بن محمد بن جابر الغسّاني، وأبو الحسن الأنْفاسي وأبو سالم ابن الحاج، والقاضي الوَزْياغلي، وأبو عبدالله محمد بن يحيى البادِسي وأبو الفَرَج الطنجي، وأبو عبدالله بن أبي سعيد السّلَوي، وأبو عبدالله محمد بن أبي القاسم بن يحيى السرّاج، والشيخ الرحّالة أبو محمد عبدالقادر البَكْري المَقْدِسي ورد على المغرب سنة ٨٨٠ وتدبّج هو وإياه.

فهؤلاء شيوخه الذين لقيَهم وأخذ عنهم بالسماع فقط أو بالسماع والإجازة. ولقد ضمّن تراجمهم وما أخذ عن كل منهم في فهرسته السابقة الذكر المسماة بالتعلل برسوم الإسناد بعد ذهاب أهل المنزل والناد. وهي فهرسة مليحة تدل على خبرته بفن الرواية وطُرق التحمُّل. وكان لا يزال عند أهل عصره أثارَةٌ من هذا العلم لم يُفسدها ما أُدخِلَ عليه بعدُ من التكثر بما لا يزيد شيئاً في العلم إن لم ينقصْ منه. حيث صار هَمّ كثير ممن يصرفون أعمارهم في إحصاء هذه الروايات أن ينتسبوا إلى أكبر عدد من الشيوخ ويأخذوا عنهم بطريق الإجازة العامة وهم لم يسمعوا منهم لفظاً ولم يحققوا عنهم معنى ولذلك نراهم أكثرَ الناس تحريفاً للنصوص وألحنَهم في النطق والكتابة.

وبينما كان أسلافهم يبذلون الجهود في الرواية والدراية ويحررون المسائل ويحلُّون المشاكل، نرى هؤلاء وأكثرُ ما عندهم رويتُ عن فلان وأجاز لي فلان، فنعوذُ بالله من الجهل الفادح والادعاء الفاضح.

ولقد أجاز لمترجمنا الحافظان المصريان الدّيمي والسّخاوي، استجازهما له صديقُه ورفيقُه الشيخ زروق سنة ٨٨٥ كما أجاز له العلامة ابن مَرْزُوق الكفيف (من تلمسان) ولكن اعتماده كما رأيت كان على شيوخ الأخذ والسماع لا على شيوخ الإجازة والإذن، ولعل هذا المعنى أولُ ما يُفهم من اسم الفهرسة (التعلل برسوم الإسناد بعد ذهاب أهل المنزل والناد) فللّه در ابن غازي ما أحسن مقاصدَه، وأعذب موارده!...

وإلى هنا، نكون قد تتبعنا المترجم في مراحل دراسته ورأينا كيف نشأ طالباً مجتهداً يؤم فاساً لإكمال دروسه في سن السابعة عشرة فلا يلبث أن يصير عالماً كبيراً ويعود إلى بلده مكناسة فيكون له من الظهور ما يجعل أميرَها يتحرّش به فيضطره إلى العودة لفاس حيث يتوطّد له هذا المجد العلمي الذي يصير به رئيس الهيئة العلمية في عصره بالمغرب، ويكون له مقام ديني رفيع يصير به رئيس الأئمة والخطباء الدينيين بتولّيه لخطبة وإمامة جامع القرويين إلى غير ذلك من شفوف المنزلة عند السلطان ومزيد الاعتبار له حتى كان يصحبه معه في حركاته ولا يستغني عنه في غدواته وروحاته.

والحق أنه كان شخصية كبيرة تبعث على الاحترام سواء من الناحية العلمية أو الدينية أو الخلقية...

فأما علمه فيقول تلميذه عبدالواحد الوَنْشَريسي عنه: «كان إماماً مُقْرِئاً مُجوّداً صَدْراً في القراءات مُتْقِناً فيها عارفاً بوجوهها وعِلَلِها والراجح منها، طيّب النغمة، قائماً بعلم

التفسير والفقه والعربية متقدماً فيها عارفاً بوجوهها، ومتقدماً في الحديث حافظاً له واقفاً على أحوال رجاله وطبقاتهم ضابطاً لذلك كله معتنياً به، ذاكراً للسيَرِ والمغازي والتواريخ والآداب. فاق في ذلك كل أهل زمانه».

وبقي عليه ذكرُ تفوّقه في علم الحساب فإنه كان متمكناً منه عمدة أهل عصره فيه. وبذلك يكون قد جمع معارف أهل عصره وشارك في كل العلوم التي كانت تدرس بالقرويين إذ ذاك، بل حصل على الإمامة فيها. ولم يكن حظه من ذلك النظر فقط، فإنه كما يقول تلميذه الونشريسي أيضاً:

«أنفق أيام حياته في طلب العلم وإقرائه والعكوف على تقييده ونشره... وتخرّج بين يديه عامّةُ طلبة فاس وغيرها وارتحل الناس إلى الأخذ عنه وتنافسوا في ذلك. وكان عذبَ المنطق حسَنَ الإيراد والتقرير فصيح اللسان عارفاً بصناعة التدريس، مُمْتِع المجالسة جميل الصحبة سَرِيّ الهمة نقيّ الشيْبة حسن الأخلاق والهيئة، عذب المفاكهة معظماً عند الخاصة والعامة. حضرت مجالس إقرائه في الفقه والعربية والتفسير والحديث وغيرها وكلها في غاية الاحتفال. وبالجملة فهو آخر المقرئين، وخاتمة المحققين».

وإذن فنحن أمام عالم جامع بذل مجهوداً كبيراً في الدراسة حتى حصل على غالب معارف أهل عصره: ثم بذل مجهوداً مماثلاً في بث هذه المعارف ونشرها. بل خاض معركة عظيمة ضد الجهل وانتشاره فحفظ الله به رَمَقَ العلم

وصان سَنَدَهُ عن الانقِطاع، فلا تجد إلا مُنْتَمِياً له آخذاً عنه متحدثاً بفضائله مُثْنِياً على اجتهاده.

وطار صيتُه في الآفاق فلم يقتصر الأخذ عنه على أهل المغرب خاصة بل قصده الناس من كافة أنحاء إفريقيا الشمالية، فهؤلاء كثير من علماء تلمسان ـ وهي ما هي حينذاك ـ رووا عنه وتتلمذوا له. ومثل تلمسان غيرُها من مدن المغربين الأوسط والأدنى. كما إن اجتهادَه العلمي لم يقتصر على التدريس، وهو بالصفة التي ذكرنا غايةٌ لا تُدرَك، بل تعدّاه إلى التأليف في كل هذه العلوم ووضعِ الكتب المتعددة في كل فن بحيث أعطى الدليل المادي لكلِّ مَن لم يسعده الحظ بلقائه أو مارى في كفاءته العلمية على أنه جُذَيْلُها المُحَكَّك، وعُذَيْقها المُرَجَّب، وصحّ أن يقال فيه، مِن أحدِ عارفيه:

تـكـلّـمْ فـي الـحـقـيـقـةِ والـمـجـاز
فـمـا فـي الأرض مِثْلُك يا ابن غازي

وقال أبو عبدالله الكفيف:

حَـبْـرٌ تـثَـبّـتَ والإنـصـافُ شِـيـمـتُـه
أكـرِمْ بِـه طـاب مـن خَـلْـق ومـن خُـلُـق
أتـى بـه الـدهـرُ فـرداً لا نـظـيـر لـه
مـثْـلَ الـبُـخـاريّ لـمـا جـاء بـالـعُـتَـقـي

ويعني بالعتقي الإمام عبدالرحمٰن بن القاسم صاحب الإمام مالك، فإن البخاري لم يروِ عنه في صحيحه إلا

حديثاً واحداً في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ الآية.

وهذه أسماء بعض الآخذين عنه من كبار العلماء، فمنهم من أهل تلمسان أبو عبدالله بن العباس الصغير وأبو عبدالله محمد بن علي الشريف، ومن أهل وَهْران أبو عبدالله شَقْرون بن أبي جُمعة المَغْراوي ومن أهل المغرب أبو العباس الدّقّون والمفتي علي بن هارون وعبدالواحد الوَنْشريسي وغيرهم...

وأما دينه وتقواه وخلقه المتين فناهيك أنه مع هذا الانقطاع إلى خدمة العلم والتجنُّد في سبيله، لم ينسَ أو يُهْمِلَ واجباته الأخرى كعالم ديني، فهو قد تولى الخطابة بمكناس ثم بفاس الجديد بإثر انتقاله إلى فاس. ثم تولى الإمامة والخَطَابة معاً بالقرويين فقام بذلك خيرَ قيام. لم يَسْتَنِبْ على شيء منه كما يفعل بعض العلماء الذين لا يقومون حتى بواجب التعليم فيُفرّطون في الجميع ويتقاضون مرتّبات الجميع، بل نهض بعِبْئِه وإنّه لثَقِيل وسار في طريقه لا يَلْوِي على شيء حتى بلغ الغاية محموداً مشكوراً. قال الونشريسي: «ولم يكن في عصره أخطبُ منه» فأفاد أنه كان يقوم بواجبه على أتم الوجوه ولم يكن يؤديه كما اتفق، شأن العاملين المجدّين في كل الأمور.

وهناك ما هو أعظم من هذا في الدلالة على قوة دينه ومتانة خلقه وهو أنه كان دائم الخروج إلى الرباط والجهاد بثغور المغرب التي دهمها العدو في آخر عهد الدولة

المرينية، يبتغي بذلك الأجر والثواب ويريد أن يكون قُدوة حسَنة في هذا الباب لغيره من الناس كما كان سلف الأمة الصالح وعلماؤها العاملون. وأقربهم إليه وأحراهم أن يكون ابن غازي ترسّم خُطاه في هذا العمل شيخُه أبو محمد الورياغلي الذي كان من كبار فقهاء عصره، ومن حفّاظ مذهب مالك حتى كانوا يَقِيسونه في علمه بالمازَرِي ولا يَعْدُونَ به طَبَقَتَه. فإنه كان من عادته أن يشتغل بالتدريس في فصلَيْ الشتاء والربيع، وفي المصيف والخريف يرابط في الثغور...

... فلا شك أن ابن غازي كان يقتدى به في ذلك وإن لم يوقّتْ لخروجه وقتاً معيناً. قال الونشريسي: «لم يزل باذِلَ النصيحة للمسلمين محرضاً لهم في خُطَبه ومجالس إقرائه على الجهاد والاعتناء بأموره... حضرَ فيه بنفسه مواقفَ عديدة ورابط مرات كثيرة وخرج في آخر عمره لقَصْر كُتامة للحراسة فمرض ورجع لفاس فاستمر به مرضه إلى أن توفي إثر صلاة الظهر يوم الأربعاء تاسع جمادى الأولى سنة تسع عشرة وتسعمائة. ودفن بالموضع المعروف بالكغّادين من صبيحة يوم الخميس التالي. واحتفل الناس بجنازته احتفالاً عظيماً وحضرها السلطان ووجوهُ دولته فمَن دونه وأتْبعُوه ذكراً حسناً وثناءً جميلاً وتأسفوا عليه تأسُّفاً عظيماً رحمه الله ونفع به».

فأنت ترى أنه كان يحض على الجهاد في دروسه وخطبه، ويحضره بالفعل مواظباً على ذلك حتى خرج إليه في آخر عمره وقد بلغ من الكبر عِتِيًّا فلم يرجع إلا محمولاً

من شدة المرض الذي ألمّ به في ذلك الخروج، ومات بإثر وصوله إلى فاس.

وفي دَوْحةِ الناشر أن خروجه هذا كان مع السلطان محمد الشيخ الوطاسي للإغارة على نصارى أصِيلا. فأفاد أنه كان للغزو لا للحِراسة كما سبق عن الونشريسي ولكنه غلط في اسم السلطان الذي كان متولياً حينئذ وهو محمد البرتغالي[1] ابن محمد الشيخ لا والده هذا لأنه توفي عام ٩١٠ قبل ابن غازي بتسع سنين.

هذا وقد كان لوفاة ابن غازي تأثير عميق في النفوس جعل العلماء يأخذونها بحساب الجمل من لفظ (ابن غازي) بعد إلغاء سنة الولادة. وذلك مع التاريخ لها بالساعة واليوم والشهر والسنة وذكر المدْفَنَ على ما رأيت، مما يدل على عظيم الاهتمام ومزيد الاحترام.

ولا أُعلّق بشيء على مواقف ابن غازي ومَشَاهِدِه في حركة التحرير العظمى التي كانت شُغْلَ الناس الشاغل في ذلك الوقت حيث لم يُلْهِه عنها ما كان مُطوّقاً به من الأعمال النافعة كالتدريس والوعظ والخطابة والإمامة بَلْهَ التأليف، مما كان سبب هذه المحبوبية التي وُضعت له في القلوب، وهذا الاعتبار الخاص الذي حصل له من الجميع حتى السلطان حضر جنازته. ولم ينقطع الثناء عليه بعد موته إلى حين...

---

(١) عرف بذلك لأنه كان وقع في أسر البرتغال لما أخذوا ثغر أصيلا وبقي عندهم نحواً من سبع سنين ثم افتكه والده.

.... إلا أني من باب المفارقات أُورِدُ حكاية مُضادّةً لذلك تُرِينا كيف تقعُد الهِمَم القاصرة بأصحابها عن مَدَارِك السّبّاق. وفيها بلاغ لقوم يعقلون. وهي حكاية ولدِ ابن غازي الشيخ العالم الإمام والخطيب بجامع القرويين محمد غازي، مع الشيخ أبي عبدالله محمد بن يحيى البَهْلُولي وكان من أبطال المعمعة في حرب المقاومة المذكورة وقد حكاها ابنُ عَسْكَر في الدوحة قال:

«إنه غزا مرة إلى الثغور الهَبْطِيّة وقدِمَ منها مع أصحابه فوجد زوجته فلانة بنت الشيخ أبي زكرياء يحيى بن بكار قد قُضيَ نحْبُها وصلّى عليها الناس بجامع القرويين وإمامُهم الشيخ غازي ابن الشيخ أبي عبدالله محمد بن غازي. فوصل الشيخ أبو عبدالله ووجد جِنازَتها على شَفِير القبر والناس يريدون مُواراتها فقال لهم: مَهْلاً، فتقدم وأعاد الصلاة عليها مع أصحابه. فتقدم الناس إليه بالنكير في تكرير الصلاة على الجنازة بالجماعة مرتين فقال لهم على البديهة: صلاتُكم الأولى عليها فاسدة لكونها بغير إمام. فقالوا: كيف ذلك يا سيدي؟ فقال: إذ من شروط الإمام الذكُوريّة وهي مفقودة في صاحبكم، لأنّ مَن لم يتقلّد سيفاً قط في سبيل الله ولم يضرب به ولا يعرِفُ الحرب كما كان نبينا عليه الصلاة والسلام ولم يتصف بالسيرة النبوية فكيف يُعَدّ إماماً ذكراً؟ بل إمامكم والله من جملة النساء!».

***

وقد آن أن ننظر في تراث ابن غازي العلمي والأدبي، فإنه خلف جملة من الكتب في الفقه والحديث والعربية والتاريخ والحساب لها أهميتها.

وقد تداول الناس كثيراً منها منذ تأليفها وانتفعوا بها وأثنوا عليها الثناء الحسن وهي جديرة بذلك.

وأول ما نسجله في وصف هذه الكتب أنها في غالبها صغيرة الحجم كثيرة العلم، إذ لم يكن ابن غازي من المُولَعين بالمَلْء والاستكثار من غير تمحيصٍ ولا اختيار بل إنه كان ممن يأخذ بمبدأ خير الكلام ما قلّ ودلّ، ويستشعر: من عاداتِ السادات مُعاداةُ المُعادَات.

فهذه كتبه في الفقه والعربية وإن تكن في فنون مطروقة كثُرت فيها التأليف إلا أن أيّ واحدٍ منها لا يخلو من فوائد كثيرة وزوائدَ على ما في غيره من كتب ذلك الفن، وربما كان وضْعُه أصلاً لتكميل نقص في تلك الكتب واستدراك ما فاتَ أصحابها من المهمات، فليست هي من الكتب المكرّرة لغيرها ولا مما يقال فيه «انقُل من هنا ومن هنا، وقُلْ: هذا كتابنا».

وأيضاً فإن جريدة أسماء هذه الكتب تدل بمجردها على ما كان عند ابن غازي من ذوْق مهذّب وطبع سليم، فإنها على العادة المتعارفة مُركّبَة من سجعتين ولكن هاتين السجعتين غيرُ متكلفتين، وتفيدان المطلوب بغاية الوضوح، وذلك خاصيّة إنشائه على الجملة، وقد سبق عن الونشريسي أنه كان أخطَبَ أهل عصره، وما نظن أنه استحق هذا الوصف، إلا بتلك الخاصية.

وقد ذكرنا من كتبه:

١ ـ الفهرسة التي سماها التعلُّل برسوم الإسناد بعد

انتقال أهل المنزل والناد وبيّنّا مضمونها وما في اسمها هذا من المناسبة لموضوعها، وهاك بقية أسماء كتبه:

٢ ـ شِفاءُ الغَلِيل في حلّ مُقفَل خليل بيَّن فيه هفوات وقعت لِبَهْرام في شرحه لمختصر خليل ومواضعَ مُشكِلَة من المختصر أجاد فيه ما شاء، وقد قدّم بين يديه مقدمتين؛ الأولى: في التعريف بالمصنف، والثانية: في بيان بعض اصطلاحاته التي أخذها منه بالاستقراء.

٣ ـ تكميل التقييد وتحليل التعقيل كمّل به تقييد أبي الحسن الزّرْويلي على المُدَوّنة وحلّ كلام ابن عرفة في مختصره. وكان بعض معاصريه من علماء فاس يقول: أما التكميل فقد كمّله وأما التعقيد فما حلّه، والمُعاصَرَةُ ـ كما يقولون ـ حجاب.

٤ ـ الجامع المستَوْفي بجداول الحَوْفي. استخرج فيه مسائل الحَوْفية في الفرائض «بوضعها في جداول تقرّب المرام، وتغني عن كثير من الكلام»، فجاء كله جداولَ إلا المقدمة وبعضَ التعاليق القليلة التي بيَّن فيها ما أشكلَ من تلك الجداول.

٥ ـ تحرير المقالة في نظائر الرسالة. منظومة رجزية في المسائل التي تنشأ به في الحكم من رسالة ابن أبي زيد القيرواني.

٦ ـ المسائل الحِسان المرفوعة إلى حبر فاس والجزائر وتلمسان.

٧ ـ إتحاف السائل في تحرير المقاتل والدلائل.

٨ ـ الكليات الفقهية وهو من مُبتكراته جمع فيه قواعد الفقه الكلية التي تندرج تحتها جزئيات كثيرة. وكان تأليفه له بطريق تامسنا في أوائل عام ٨٩٣، وهو في كرّاسة صغيرة.

٩ ـ إمداد ذوي الاستحقاق ببعض زوائد المُرادي وفوائد أبي إسحاق. وهي حاشية على ألفية ابن مالك جمع فيها بين كلام المُرادي والشّاطبي في شرحَيْهما عليها مع زيادات مفيدة جداً.

١٠ ـ إرشاد اللبيب إلى مقاصد حديث الحبيب. وهو حاشية مختصره على صحيح البخاري جعلها كالتكملة لشرح الزّرْكشي فلا يذكر غالباً إلا ما أغفله وأودعها مع ذلك نُكتاً لطيفة.

١١ ـ إنشاد الشّريد من ضَوالِّ القصيد. ذيّل به نظم الشاطبية في علم القراءات.

١٢ ـ إمداد بحر القصيد ببحرَيْ أهل التوليد. ذيّلَ به نظم الخزرجية في علم العروض وشرحه. وهو مطبوع.

١٣ ـ نظم على الطّرُق العشر في القراءات.

١٤ ـ نظم فواصل المقال وشرحه.

١٥ ـ مُنْيَة الحُسّاب في علم الحِساب وشرحُها نظم فيه تلخيص ابن البنّاء في علم العدد وهو مشهور متداول بين الطلبة مطبوع هو وشرحه بالمطبعة الفاسية. وهو نظم سهل قريب المأخذ يقول في أوله:

وبعد فالقصد بذا الكتاب ... نظْمُ المهمّات من الحساب
ضمّنْتُهُ مسائل التلخيص ... وربما أزيد في التمحيص
تحريراً أو مسألة غريبة ... أو نُكتَة مُونِقة عجيبة
وربما استغنيتُ بالتلويح ... مخافَة الطول عن التصريح
فجاء تأليفاً صغيرَ الحجم ... قد احتوى على كثير العلم
يُقرّبُ الأبوابَ والمعاني ... ويضبِطُ الأصولَ والمَباني
في رجز مُزْدَوِج مشطور ... يحكي عُقُودَ الدرّ في النحور
لِأجْل ما حوى من اللّباب ... سمّيتُه بِمُنيَة الحُسّاب

١٦ ـ تأليف في حكم ماء الحياة. وقرأتُ بخطّ جدّي الشيخ محمد التهامي رحمه الله أنه مال فيه إلى الإباحة مع أن المعروف أنه مُسكرٌ، وإن لم أقِفْ على تأليفه هذا فلْيُحَرّر.

١٧ ـ وأخيراً، تاريخه الروض الهَتُون في أخبار مكناسة الزيتون في بضعة كراريس مطبوع. وهو من الكتب المفيدة جداً تناول فيه تاريخ بَلَدِه مكناس وخططها وآثارها وتراجِمَ المشاهير من أعلامها فاحتوى برغم صغر حَجْمه على ما لم تحتوِ عليه الكتب الكبيرة من المعلومات والأخبار ولطائف الآداب. وما أحسن افتتاحه هذا: «الحمد لله الذي حبّب الأوطان للظاعنين من أهلها والقُطّان» وهو مشعر بمقصوده وحاله في آن واحد، فللّه دره! غير أنه لا يفوتنا أن نُنبّه على أن وصف الروض بالهتُون، لا يصحّ؛ لأنه يريدُ المهْتون فيه، والهتون وصف للمسطر. فالعجب من غفلته عن ذلك.

وقد نقلنا عنه بعض الجُمَل المتعلقة بحياة المؤلف نفسه. ومن فوائده في هذا الصدد قوله في ترجمة العلاَّمة ابن الصبّاغ أحد كبار العلماء المكناسيين: «وحدثني شيخنا الأستاذ السيد أبو الحسن علي بن مَنُون الحسني أنه بلغه عنه أنه أملَى في مجلس دَرْسه بمكناسة على قوله عليه السلام: «**يا أبا عُمَير! ما فَعَل النّغَيْر؟**» أربعمائة فائدة» قال: وكنت تأملتُ هذا الحديث فانقدح لي فيه زهاءُ مائتين وخمسين من الفوائد، فقيّدتُ رسومها ولم أجد فراغاً لبسطها ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾.

وقد ذكر الشيخ أحمد بَابَا هذا التقييد في ضمن مؤلفات ابن غازي إلا أنه جعل فوائده مائتين فقط، وأياً كان فإن هذه همة عالية كانت دائماً تتعلق بالسمو وتنحو نحو الكمال، رأى ابن غازي أستاذه الورياغلي يقوم بتدريس العلم ويُنازل العدو في المعارك الحربية، فأبى إلا أن يكون مثله، وسمع أن بلديّه ابنَ الصباغ أملى على الحديث الشريف: «**يا أبا عُمَير! ما فعل النّغير؟**» ما أملى من الفوائد التي بلغت أربعمائة فاجتهد حتى استخرج منه عدداً إن لم يكن مماثلاً فإنه يدعو إلى الإعجاب... وهكذا يكون طموح الهمة!...

ومن فوائده في شفاء الغليل عند شرح قول المختصر (كَثَيّب لِيَمين فيجدُها بِكْراً) ما نصه: «وسمعت شيخنا الحافظ أبا عبدالله القَوْري يقول: قال أبو عبدالله محمد بن عمر بن الفتوح: سبب انتقالي من تلمسان إلى فاس عجْزُ فقهاءِ تلمسان عن مسألتين؛ إحداهما: هذه، قالوا فيها كمن ضاع له قُبّ فوجد حمّاماً. و(القُبّ) في اللغة: الكوب

واحد الأكواب. والثانية: مسألة الأيمان والنذور من المدونة فيمن التزم من النذور ما لا يُطيقه»...

ومنها عند قوله: (لا بأماتَه الله كافراً على الأصح): «كذا ذكره ابن راشد القَفْصي عن فتيا شيخه القَرافي وزاد عنه: الخطيب يأتيه كافر يريد أن ينطق بكلمة الإسلام فيقول له: اصبر حتى أفرغ من خطبتي فإنه يُحكَم بكفر الخطيب لأن ذلك يقتضي أنه أراد بقاء الكفر زماناً ما. قال: سمعته من شيخنا القرافي ولم أرَ موضعه. اهـ.

ولم أرَ مسألة الخطيب لغيره وعنه نقلها في التوضيح... وأما الدعاء بأماته الله ونحوه، فقد أطال فيه القرافي النفس في الفروق الثلاثة الأخيرة من قواعده في أحكام الأدعية. وسلّم ابن الشّاطّ بعض مباحثه دون بعض والوقوف على ذلك كله متأكد».

ومنها عند قوله: (وقَبُول هَدِية): «بعدما طوّل فيها ابن عرفة قال: يُخفَّفُ للمُفْتي في قبولها إن كان محتاجاً، ولا سيما إن كان اشتغاله بأصوله يقطَعُه عن التسبُّب ولا رِزْقَ له عليها من بيت المال. وعليه يحمَل ما أخبرني به غير واحد عن الشيخ الفقيه أبي علي بن عَلّون أنه كان يقبل الهدية ويطلبها من مستفتيه».

ومنها عند قوله: (وأحضَرَ العلماء وشاوَرَهُم): «وكان عندنا قاض اشتهرت بالأمصار نزاهته فرفع إليّ (محاضِر) بين خصمين طال فيها النزاع والإثبات والتجريح، فتأملتُ المحاضر فوجدتها تتضمن أن الخصمين متفقان في المعنى

مختلفان في العبارة ولم يتفطن لذلك حتى نبهتُه فخَجِل وارتفع الخصام. فمثل هذا لا بد أن يحضره أهلُ العلم أو كَاتبٌ يُؤمَن معه مثل هذا».

ومن فوائده في الجامع المستوفي - ذكره استطراداً - ما نصه: «من تلامذة السّطّي الشيخُ ابن عرفة قرأ عليه الحوْفِية عند باب دار أبي الحسن المَرِيني من حضرة تونس المحروسة في خلال ما ينتظر الشيخ خُروجَه في وقت معلوم من كل يوم كان يلقاه فيه. ومنهم أبو عثمان العُقْباني قرأها عليه بالمنصورة حين كان بها مع أبي الحسن المرِيني. ومنهم حَمامة النّفْزي كان يأتي الشيخ السّطّي بما يتضمنه مجلسه مما يحتاج إلى تفسير من الحوفية مكتوباً في لَوْح فينطلق به حمامةُ فينقله حتى كمل منه الشرح الذي بأيدي الناس، فهو الذي فتح فيه الباب أثابه الله تعالى بالحسنى والزيادة».

ومن فوائده في حاشية الألفية عند قول الناظم: (ووضعوا لبعض الأجناس علم) بعدما أطال الكلام في علم الجنس ما نصه: «على أنه قد صنّف في المسألة أحدُ حذّاق المتأخرين وهو العلامة أبو جعفر بن خَاتِمة جزءاً نبيلاً فائقاً بديعاً رائقاً سمّاه: «إلحاق العَقْلي بالحسّي في الفرْق بين الكُلي والعَلَم الجنْسي». أجاد فيه ما شاء وذكر أنه طالع به شيخَه القاضي الخطيب الأستاذ أبا البركات ابن الحاج البَلْفِيقي فصوّبه واستنبله. قال فيه: «يظهر لي أن هذا المعنى استأثر به اللسان العربي دون اللسان اليوناني لاتساع عباراته ولطائف إشاراته إذ لو كان في اللسان اليوناني لوُجِد في

كتب المنطق المترجمة وتداولته مناطقة الإسلام في كتبهم كأبي نصْر الفارابي وأبي علي بن سينا والقاضي أبي الوليد بن رُشد الحفيد وغيرهم»... ثم نقل عن ابن خاتمة مُسَوّدة طويلة في المسموع من عَلَم الجنس بعدما نوّعَه إلى عربي ومُوَلّد، والأول: إما خاص بالأعيان، وإما خاص بغيرهم. وتتبع ذلك يطول وقد ذكر بعضاً منه السيوطي في المزهر فلينظره مَن يهمه.

ومنها عند قوله: (وفي ذا الحذف أيًا غيرُ أيّ يقتَفِي): «عن الشاطبي قال: حدثنا شيخنا أبو عبدالله بن الفخار قال: سئل شيخنا أبو إسحاق الغافِقي عن حذف الضمير من الصلة في قولك رغبت فيما رغبت فيه فجوّز ذلك فانتهى الخبر إلى تلميذه شيخنا أبي عبدالله بن عبدالمنْعِم فمنعَه واستشهد بأنه يقال: رغبت فيما رغبت فيه على معنى القبول ورغب عما رغبت عنه على معنى الإعراض ولا يكون الحذف إلا حيث يتعين المحذوف خوْفَ اللبس. فانتهى ذلك للغافقي فاستدل للجواز بأنك إذا رأيته محذوفاً دلّ ذلك على اتفاق الحرفين ولو كانا متباينين لم يجز الحذف لأنه مشروط بالاتفاق، وكذا رغبت عما رغبت وعلى هذا وقف الأمر عند نُحاة سبتة».

ومنها فذلكَة مفيدة في الخلاف بين نُحاة المغرب في مسألة صرف أبي هُريرة وعدمِه. وأخرى في مسألة الاحتجاج بالحديث الشريف في النحو ومذهب ابن مالك في ذلك، وفوائد مختلفة عن أبي علي الشَلَوْبِين وغيره من نحاة المغرب، وأنظام مفيدة له، وألغاز في مسائل من إعراب الألفية.

وفي أوائلها أنقال كثيرة من شرح المكودي الكبير مما يدل على أنه بقي إلى أيام ابن غازي وأنه لا صحة لما يروى من أن أعداءه أحرقوه وإنما الصحيح أنه لم يُكَمّلْه.

ومن فوائده في نظمه لنظائر الرسالة قولُه في الكفّارات:

خَيِّرْ بصوم وبصَيْد وأذَى
وقُلْ لكلّ خَصْلَة يا حبّذا
ورتِّبِ الظِّهَارَ والتَّمَتّعَا
والقَتْل، كلّ في اليمين اجتمعا

وقولُه في صرف الدينار:

الصرفُ في الدينار (يَبّ) فاعلَم
في دِيَة قَطْع نِكَاح قَسَمِ
والصرفْ في الجِزْيَةِ والزكاة
عشرة، والباقي بالأوْقات

وقوله فيما يُلغَى فيه اليومُ الأول:

واليومُ يلغَى في اليمين والكِرا
وفي الإقامة على ما اشتهرا
وفي خِيار البيع ثم العِدّه
وأجَلِ عَقِيقَة وعُهْدَه

وأنظامه العلمية كثيرة ولم يكن يخلو مجلس من

مجالس أهل العلم المهمة من الاستشهاد بها والاستفادة منها في جمع النظائر وحصر الشوارد.

وله شعر حسن منه: قولُه في بَلَده مكناسة، متأثراً بالمضايقات التي ألجأته إلى الخروج منها:

طَلّقْتُ مكناسةً ثلاثاً والشَّرْعُ يأبَى الرجوعَ فيه
ليستْ بدار سوى لقاضٍ أو عامِلِ الجَوْر أو سفِيه

ومنه قوله في الموضوع:

أقمتُ بِمِكْنَاسةٍ مدةً أُعلّمُ أبناءَها ما الكلام
فلمّا توَهّمَه بعضُهم علَيّ به بَخِلُوا والسلام

وفيه تورية بديعة بالأسلوب المغربي المتبَع في الرسائل العادية. ورَحِمُ اللّهُ ابن غازي فقد كان أعظمَ من أن لا يحسد وينكر فضله ويجحد، ولكنه تجاهلَ هذه الحقيقة فقال ما قال، ولا بُدّ للمصدور أن يَنفِث، ولله في خلقه شؤون.

* * *

محمد المسناوي
(ت ١١٣٦ هـ)

اسمه ونسبه، ولادته ونشأته، مشيخته، تلامذته، مكانته العلمية، وصف مجلسه، تآليفه، نصرته للقبض، مسألة تتبُّع الرخص، رأيه في قول ابن القاسم في المدونة، الأخذ بالراجح في غير المذهب أولى من الأخذ بالشاذ في المذهب، مسألة الاستنابة في الوظائف الدينية، مذهب الحنابلة في الاعتقاد هو مذهب أهل الحديث، قوله بعدم انقطاع الاجتهاد، تأنّيه في البحث ومنهجيته، إنكار للدعاوى الباطلة والشعوذة.

هو الشيخ الإمام أبو عبدالله محمد بن أحمد بن محمد المَسْنَاوي بن محمد بن أبي بكر الدِّلائي؛ شُهر بلقب جده المسناوي. وهو أحد أفراد هذا البيت الدلائي الشهير في الرياسة والعلم.

ولقد ولد بزاوية (الدِّلاء) عام ١٠٧٢، ثم انتقل لفاس عام ١٠٧٩ مع أسرته حين استولى السلطان مولاي رشيد العلوي على زاويتهم، ونشأ على طلب العلم وأخذ عن كبار المشايخ، كعبدالقادر الفاسي وابنه محمد وعبدالسلام القادري

وأخيه العربي وأبي عبدالله القَسْمطِيني وعبدالملك التَّاجَمُوعتي وأحمد ابن الحاج وأبي علي اليوسي وعم والده المُرابِط الدلائي وغيرهم. ونبغ وبرع في المعقول والمنقول، والفروع والأصول، ودرَّس علوم البلاغة والمنطق والفقه والحديث والتفسير، وأخذ عنه وتخرَّج به جِلَّةٌ من العلماء كمحمد بن عبدالسلام بنَّاني وأحمد بن مُبارك ومحمد بن زُكْري ومحمد بن قاسم جسُّوس وسواهم.

وكان حَلاّلاً للمشاكل، معتمداً في النوازل بيد أنه يتحرَّى من الجواب في مسائل الطلاق والنكاح، تورُّعاً وتحرُّجاً من مسؤولياتها، وكان يميل إلى تحقيق النظر وتحرير المناط في فتاواه وموضوعاته ويجادل كبار العلماء ويناقش أقوالهم، ويكادُ يميل إلى الاجتهاد، ويشارك في غير مذهب الإمام مالك، ويُرجِّحُ ما ثبت دليله من الأقوال وإن خالف المذهب، ولا يتعصب تعصُّب الفقهاء الجامدين.

وكان له مجلس حافل في جامع القرويين يصفه الأفراني فيقول: «وكان جميل المخاطبة حسن الأخلاق، عالي الهمة كبير التؤدة في مجلس العلم، فكان لا يستطيع الكلام في مجلسه الأكابرُ لهيبته وعظيم سَمْتِه، وإذا أخذ في تقرير مسألة يأتي على وجوه احتمالاتها ولا يدع شيئاً مما يقع في نفوس الحاضرين مما يقتضيه المعقول والمنقول مع التحرير التام، مجلسه مجلس سكون ووقار، وخشية وتذكار، وإن صدر فيه من أحد فَلْتة مما ينافي الوقار أغلظ عليه القول حتى يدهيه، لا يسامح في ذلك جمعاً للقلوب

عن الجد ولو كان مَن كان فلا يبالي بجاهه ولا برياسته، فالضعيف والقوي عنده في ذلك سواء، يمزج تقريراته بالأدب، وله باع طويل في مناسبة ذلك بمقتضى الحال، ومع ذلك كان في انفصاله عن المجلس يبسط أخلاقه حتى لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه».

واشتهر مما وقع له في مجلسه هذا أن بعض حساده كتبوا له على كرسي جلوسه:

وكنت أرى زيداً كما قيل سيداً
إذا أنه عبد الفقا واللأهازم

فأجابهم بهذين البيتين من نظمه:

أيا مَن رماني بالبراعة واختفى
ولم يتعرض للقنا والصوارم
هلم إلى الميدان إن كنت فارساً
لتنظر من عبد الفقا واللأهازم

وذلك مما يدل على قوة عارضته وملكته الأدبية وتحدِّيه لخصوم الدعوة والإصلاح.

ألّف بضعة كتب صغيرة الحجم، ولكنها كبيرة العلم تزري بضخامة المجلدات التي يتكثر بها غيره من المؤلفين، وهي هذه:

١ ـ نصرة القبض، والرد على مَن أنكر مشروعيته في صلاتَيْ: النفل والفرض.

٢ ـ القول الكاشف، عن أحكام الاستنابة في الوظائف.

٣ ـ صرف الهمة، إلى تحقيق معنى الذمة.

٤ ـ نتيجة التحقيق، في بعض أهل نسب الوثيق.

٥ ـ جُهد المقل القاصر، في نصرة الشيخ عبدالقادر.

والرسالة الأولى مشهورة متداولة بأيدي الناس، وقد حمل فيها حملة موفقة على منكري القبض في الصلاة من المالكية وغيرهم وأتى بها صحيفة بيضاء نضحت عن السنّة المحمدية وفضحت عوار المتعنتين في هذه المسألة من جهلة الفقهاء.

وبناها على ثلاثة مباحث؛ الأول: في حكم القبض في صلاتَيْ النفل والفرض. الثاني: في حكم التقليد وما ورد في الانتقال من مذهب إلى آخر من تخفيف أو تشديد. الثالث: في معارضة مَن اعترض ذلك من الجهّال وبيان ما اشتملت عليه حججهم الواهية من الاختلال ويتخلل ذلك فوائد ونكت وتحقيقات قلّ نظيرها ومَن يعتني بها من المؤلفين. قال في خطبتها: «وبعد فلما وقع في هذه الأعصار التي هطلت فيها سحائب الجهل على البوادي والأمصار، إنكار القبض على مَن فعله من المالكية في صلاة الفرض وبولغ في التشنيع عليه حتى نسب إلى ما لا يُحب أحد أن ينتسب إليه، رسمنا في ذلك هذا التقييد، وذكرنا فيه من نصوص الأئمة ما ليس عليه مزيد». واستهلّ المبحث الأول بقوله: «اعلم أن قبض اليسرى باليمنى في قيام الصلاة

وبدله، مختلف فيه في مذهب الإمام مالك على أربعة أقوال مذكورة في مشاهير كتب أئمة مذهبه كمختصرَيْ ابن الحاجب وابن عرفة وغيرهما: الاستحباب والكراهة والجواز والمنع.

. . . فأما القول الأول في استحبابه في الفرض والنفل، وترجيحه منهما على الإرسال والسدل، فهو قول مالك في الواضحة وسماع القرنين أيضاً واختاره غير واحد من المحققين كالإمام ابن الحسن اللخمي والحافظ أبي عمر بن عبدالبر والقاضيين أبي بكر بن العربي، وأبي الوليد بن رشد وعدّه في مقدماته من فضائل الصلاة وتبعه القاضي عياض في قواعده، وكذا القرافي في الذخيرة صدر بأنه من الفضائل ثم ذكر بعدُ ما فيه من الخلاف ومن اصطلاحه فيه تقديم المشهور على غيره كما نبّه عليه في خطبته قال: وهو في الصحاح عنه عليه السلام ومثل ما للقرافي لابن جزي في قوانينه ونسبه عياض في الإكمال إلى الجمهور وهو أيضاً كما في الذخيرة للقرافي والميزان للشعراني قول الأئمة الثلاثة الشافعي وأبي حنيفة وابن حنبل. . . إلخ».

ثم مضى يفصّل القول فيما أجمله وينقل كلام العلماء في هذا الصدد معزّزاً ذلك برواية الأحاديث الصحيحة التي أخرجها أئمة الحديث ومنهم الإمام مالك. والعجب من تنبهه لضياع هذه السنة وانتصاره لها في وقت كاد ينكرها فيه الجميع من خاصة وعامة، وأعجب من ذلك أنه لم يتأثر في هذا الأمر بعامل خارجي كما حصل لبعض علمائنا الذين

نادوا بمشروعية القبض وسنيّته لما زاروا بلاد المشرق ورأوا عمل الناس عليه وثاقفوا فقهاء المذاهب الأخرى واقتنعوا بحجّيّهم، بل كان ذلك منه اجتهاداً وصدعاً بالحق وتجديداً لأمر الدين وهذا مُنتهى البَسْطَة والرسوخ في العلم.

ومما يحسُنُ إيرادُه من هذه الرسالة فذلكةٌ في مسألة تتبُّع الرُّخَص، تُرِينا طريقة المسناوي في البحث وسعةَ نظرِه في مسائل الخلاف ونصها: «وما تقدم في كلام النَّووي من امتناع تتبُّع الرخص هو الواقع في كلام غير واحد من الأئمة، بل حكى بعضهم الإجماع عليه، وهو خلاف ما ذهب إليه عزّ الدين بن عبدالسلام ففي جوابه المذكور بعدما تقدم ما نصه: ويجوزُ للعامِّي أن يعمل بِرُخص المذاهب؛ لِما ذكرتُه وإنكار ذلك جهْل ممن أنكره؛ لأن الأخذ بالرخص محبوب، ودينُ الله تعالى يُسْر، وما جعل علينا في الدين من حرج، فإن قلنا بِتَصْويب المجتهدين، فكل الرُّخص صواب، ولا يجوز إنكار الصواب وإن لم نقل بذلك فالصواب غيرُ منحصِر في العزيمة، وإن كان الأفضل الأخذ بالعزيمة تورعاً واجتناباً لمظانِّ الريب.

وقال أيضاً في فصل تنويع العبادات البدنية: من قواعده الكبرى فائدة في الشرع رُخص وتسهيلات، وعزائم وتشديدات، فإذا تعارض دليلان يقتضي أحدهما الترخيص، ويقتضي الآخر التعسير والتشديد. فقد اختلف أصحاب الشافعي رضي الله عنه، فمنهم من ذهب إلى التشديد؛ لكونه أحوط وأحْصَن، ومنهم من ذهب إلى الترخيص؛ لأنه أرفقُ وأهوَنُ. وقد أخبرنا ربنا أنه يريد بنا اليسر، ولا يريد

بنا العسر، وأنه ما جعل علينا في الطاعة والعبادة من حرج، وقال: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾، وقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ وهذا المختار، وقال عليه السلام لمعاذ وأبي موسى لمّا أرسلهما إلى اليمن: **«يسّرا ولا تُعسّرا وبشّرا ولا تُنَفّرا»**.

وفي جواب لصاحب المعيار ذكره في نوازل الجامع من كتابه المذكور ما نصُّه بعد حكاية الإجماع المشار إليه من حافظَيْ الأندلس أبي عُمر بن عبدالبر وأبي محمد بن حزْم (لا يقال): الإجماع الذي حكيته عن ابن حزم وأبي عُمر ينتَقِضُ ويُرَدُّ بقول عز الدين بن عبدالسلام الشافعي رحمه الله في بعض فتاويه. ويجوز للعامّي إلى آخر ما نقلناه عنه أولاً من ذلك الجواب. ثم قال: لا سيما والشيخ عزّ الدين بن عبدالسلام هذا ممن لا يتقرّرُ إجماع مع مخالفته باعتبار رأيه وروايته كما شهد له بذلك الثقةُ العدل الضابط المحقق أبو عبدالله بنُ عَرفة رحمه الله (لأنا أقول): إن ابن حزم وأبا عمر قد حكيا الإجماع ومستندهما النَّقْل وعز الدين لم يُبيِّن بِفَتْواه مُستنداً فيحتمل أن يكون رأياً رآه فتفرّد به أو لازمَ قول وهو الظاهر من قوة كلامه وأياً ما كان فهو إحداث قول بعد تقدم الإجماع فيكون باطلاً لتضمنه تخطئه الأمة وتخطئتُها ممتنعةٌ على ما تقرر في أصول الفقه، ثم قال: نعم لو نقل عز الدين ما به أفتى روايةً عن مُتقدم لصحّ نقضُ الإجماع وخَرْقه بها؛ لأنه ثقة ضابط راسخ القدم ومَن حَفِظ حجة على مَن لم يحفظ. اهـ.

«قلت: كلامه في القواعد الذي ذكرنا يقتضي أنه رواية

لا رأي فتبطل دعوى الإجماع فليتأمل ولهذا أبطلها الإمام ابن عرفة به...».

وهذه فذلكة أخرى منها في مسألة التقليد والانتقال من مذهب إلى مذهب؛ لظهور الحجة للمنتقل: «وقد عُلِم مما قدّمنا في المبحث الثاني أن الصحيح عند غير واحد من الأئمة جوازُ التنقل في المذاهب على الوجه السابق ولا سيما إذا ترجح عند الشخص في مسألةٍ مذهبُ غير متبوعه، فإنَّ الجمود على مذهب الإمام المتبوع في كل ما يعرض من الفروع، شأنُ البليد الجاهل، الذي ليس معه من العلم ما يهتدي به في المجاهِل. قال ابن عبدالسلام في قاعدة مَن يجبُ طاعتُه ومَن لا، من قواعده الكبرى: ومن العجب العجيب أن الفقهاء المقلّدين يقف أحدُهم على ضُعف مأخذ إمامه بحيث لا يجدُ لضعفه مدفعاً، وهو مع ذلك يُقلّده فيه ويترك من شهد الكتابُ والسنةُ والأقيسةُ الصحيحة لمذهبه جموداً على تقليد إمامه كأنه نبيّ أُرسل إليه بل يتخيَّلُ لدفع ظواهر الكتاب والسنّة ويتأوّلها بالتأويلات البعيدة الباطلة؛ نضالاً عن مُقلّده، وهذا نأيٌ عن الحق، وبُعْدٌ عن الصواب لا يرضى به أحد من أولي الألباب. وقد رأيناهم يجتمعون في المجالس، فإذا ذُكر لأحدهم خلافُ ما وطّن نفسه عليه، تعجب منه غاية العجب من غير استِرواح إلى دليل بل لِمَا أَلِفَهُ من تقليد إمامه حتى ظنّ أن الحق مُنحصِر في مذهب إمامه ولو تدبّره لكان تعجُّبه من مذهب إمامه أوْلى من تعجُّبه من مذهب غيره...

قال الشيخ علي الأُجهوري في أول باب القضاء من

شرح المختصر بعد نقله كلام ابن عبدالسلام هذا ما نصه: وقد كنتُ على هذا في عبادتي ومُعاملتي وغيرهما من حين عرفتُه».

وقد اكتفيت من نقله عن ابن عبدالسلام بما ذكر ومرادي ذكر نقله عن الأجهوري لأُبيّن كيف يُطبّق المفصل بكلام المالكية أنفسهم كما فعل قبل في الاعتضاد بابن عرفة على عدم صحة الإجماع المدَّعى من ابن عبدالبَرّ وابن حزم في مسألة تتبُّع الرخص.

ودُونك أيضاً هذه النُّبذة من الرسالة المذكورة في قولهم: إن المشهور هو كلام ابن القاسم في المدونة:

«وأما القول بأن المشهور مُنحصِرٌ في قول ابن القاسم في المدونة فلم يرتضيه الإمام الحجّة ابنُ عرفة، وإن قال به كثير من الأئمة وخصوصاً أهل الأندلس، وذلك أنه لمّا نقل في باب الغسل في مختصره عن الباجي واللَّخْمي والمازَري أنهم نقلوا عن مالك روايةً بوجوب الغسل؛ لانقطاع دم الاستحاضة. قال: وقول ابن عبدالسلام استشكلوا ظاهر الرسالة بوجوبه، إن كان لِمُخالَفته ظاهر المدونة، فالمشهور قد لا يتقيَّدُ بها، وإن كان لعدم وجوده فقُصور. وفي نقل التَّتائي له تحريف، فأنت تراه جعل المشهور لا يتقيد بالمدونة، أي: بل يكون غير ما فيها. . . إلخ».

أما الرسالة الثانية: فقد تناول فيها كذلك الموضوع الذي لا يزالُ قائماً، وهو الاستنابة في الوظائف الدينية: من إمامة وخطابة وتدريس واستحقاق الأجر على ذلك كله أو بعضه، وحرَّر الكلام فيها بما لا مزيد عليه. ومن الطريف

اعترافُه بأن الذي دعاه إلى الكتابة في الموضوع ما هو فيه كغيره من هذه الحال. وقد أجال النظر في نصوص المسألة مذهبية وغيرها ـ كعادته ـ وبيَّن وجه ذكر كلام غير أهل المذهب، بما يدُل على اتساع آفاق التفكير عنده.

ولقد نقل عن الحطاب كلاماً للشيخ يوسف بن عمر مُفادَه أن الشاذَّ في المذهب يُقدَّم على ما كان خارجه فعلَّق عليه بقوله: «ظاهره أنه يقدم عليه ولو كان الخارج راجحاً عند أهل مذهبه، أي: قَوِيَ الدليل أو كَثُر القائل به، وليس كذلك بل العمل بالراجح الخارج عن المذهب مقدّم على العمل بشاذِّ المذهب؛ لما قدمناه من الخلاف في الانتقال من أصحيَّة جوازه مُطلقاً، ولِحرمة تقليد الضعيف المذهبي لغير ضرورة. . . إلخ».

أما الرسالة الثالثة: في تحقيق معنى الذمة فقد وضعها جواباً عن سؤال رُفِع إليه في ذلك ولم يألُ جُهداً في تهذيبها واستيعاب المسائل المتعلقة بموضوعها. وتوسيع دائرة النظر في ذلك على ما عُهِد منه وإرضاء طموحه حتى جاءت وَفْق ما يؤمل. وختمها بقصيدة من نظمه يقول فيها:

فَشُدَّ عليه الكَفَّ ضَنًّا فإنه
على مشرع التحقيق حام بما يُملي
ولم أدرِ هل فَازتْ يداه بغَرْفَة
تُبرِّدُ من أحشائه غُلَّةَ الجهل
أو انقلبت كفَّاه صِغْراً فإن يكن
فلا عَجَبٌ فالطَّيْشُ يعرضُ للنَّبل

وتنبُو لدى الضَّرب الصّوارمُ في الوغى
وتكبُو جِيَادُ الخيل في الموطىء السهل
ومَن ذا الذي تُرضى سجاياه كُلُّها
ولو كان ـ حاشا المصطفى ـ فائقَ النبل

وبقيت الرسالتان الرابعة والخامسة وهما مرتبطتان ببعضهما من حيث إن أُولاهما: تتعلق بتحقيق نسب السادة القادريين وذِكْر فروعهم الموجودة بفاس، والثانية: تتعلق بالشيخ عبدالقادر نفسِه وبيان ما نُسب إليه من مخالفات في الاعتقاد، وقضية ذلك أنه كان نقل في الرسالة الأولى قول العِزّ بن عبدالسلام: «ما نُقِلتْ إلينا كراماتُ أحد بالتَّواتُر إلاَّ الشيخ عبدالقادر فقيل له: هذا مع اعتقاده؟ فقال: لازِمُ المذهب ليس بمذهب» وتوقَّف في ذلك أي من لَمْزِ ابن عبدالسلام له في اعتقاده ثُمَّ اهتدى إلى بيان المراد منه في كلام ابن حجر وغيره فجرَّد سيفَ النصرة لهذا الشيخ وكتب هذه الرسالة.

وقد بناها على أربعة أوجه:

الأول: في تصحيح اعتقاد الحنابلة الذين الشيخ منهم وأنه هو مذهب أهل الحديث ونَفْي ما ينسب إليهم من التجسيم.

الثاني: في نسبة ذلك إلى البعض القليل منهم ـ على احتمال صحته ـ ولا عار على الأكثر؛ لأنَّهُ قلَّما يخلو أهل مذهب من أصحاب الأهواء.

الثالث: في تنزيه الشيخ عن ذلك؛ لأنه ربما كان

اتِّباعُه لمذهب الحنابلة في أول الأمر، حيث لا يصحُّ تقليدُ مثله بل شأنُه الاجتهاد، وفيه كلام في الاجتهاد وإثباته وسبب امتناع بعض الناس من إعلانه.

الرابع: في أنه ولو كان مُقلِّداً في الفروع، فإنه لا يكون كذلك في الأصول؛ لعلو مكانته في العرفان. وهذه الوجوه والاحتمالات التي تتضمنها إنما دُفِع إليها المسناوي دفعاً من قلة المصادر وعدم وجود ما يشفي غليله من كتب الحنابلة وأئمة الحديث من تقرُّر الاعتقاد حينئذٍ أن أهل السنّة إنما هم الأشاعرة فقط وغيرهم ضالّ مبتدع، وأن مذهب السلف إن كان أسلَم، فإن مذهب الخلف أعْلَم وأحكَم وما إلى ذلك مما أنت به عليم. ولكن هِمَّة المسناوي لم تقعُد به مع ذلك عن تحقيق المناط في المسألة وتسقُّط الأقوال من هنا وهناك حتى أثبتَ براءة مذهب الشيخ في الاعتقاد بما لا مزيد عليه وحرَّر مسألةَ الجهة بكلامٍ نفيس، ولم يبقَ لأن يتحوَّل هو نفسُه عن الأشعرية إلى اعتِقاد أهل الحديث إلاَّ أن يكون بيده نصوص أئمتهم وكتب ابن تيمية وابن القيم مثلاً.

ولولا أن يطول نبأ الموضوع لجلبنا من كلامه ما يجعلك تعجب بحماسته في هذا الباب.

وللمسناوي أناةٌ في البحث وتقصٍّ للمسائل عجيب، فهو كلما مرت به لفظة أو واقعة أو مُشكلة ما، وإن كانت من غير صميم الموضوع الذي هو بصدده، عقَّب عليها بالشرح والبيان ولا يتركها حتى يزول إبهامُها ويتَّضح أمرُها. ولا يفعل مثل بعض المؤلفين أو الناشرين الذين يُعْنَون

بالتعليق على كتبهم ولكنَّهم إنما يُفسِّرون الألفاظ الواضحة، والمسائل المفهومة ويتركون المشاكل والمُبهَمات على حالها ثم يدَّعُون أن هذه هي الطريقة العلمية للتأليف والنشر، فعلى هؤلاء أن يتمرَّنُوا في كتب المسناوي التي ذكرناها ولا سيما في جُهْد المُقِلّ القاصِر ليعرفوا كيف يكون التعليق واستيفاء جوانب البحث فإنه في هذا الكتاب بالخصوص - وقد قلنا: إنه بناه على أربعة أوجه - عقَّب على كل وجه بشرح ما اشتمل عليه من الأبحاث في صفحات ربما تفوقُ صفحات الوجه المشروح، وهكذا تجدُ في ذلك تراجم الأشخاص المذكورين في البحث عَرَضاً، وشرحَ الألفاظ الغريبة والأبيات النادرة وتحرير المسائل الفقهية والأصولية بل والاستطراد إلى الفوائد الأدبية التي ليس بينها وبين هذه الموضوعات العلمية أيةُ صِلة... فإن للمسناوي رحمه الله نَزْعةً أدبية ظاهرة في نَثْره القوي ونَظْمه البليغ، وهذا جانب آخر من شخصية المُترجَم لا يمكن أن نتجاوزه بدون أن نشير إليه ولو على سبيل الإجمال...

ولكن قبل أن نورد شيئاً من أدبياته علينا أن نُتِم الكلام على مؤلفاته الدينية وما فيها من روح إصلاحية ودعوة تجديدية، وقد رأينا في الرسائل المتقدمة كلامه في التقليد والاجتهاد وذَبّه عن مذهب أهل الحديث في مسائل الاعتقاد ويُحْسن بنا أن نورد أيضاً كلاماً له في البدع والأهواء الضالّة وما يُوَسْوِسُ به الدَّجاجِلَة والقُبُوريُّون على الناس من مسألة النُّذُور والتعلُّق بالمشايخ وأصحاب القُبور، وهو كلام مُشْرِق نَيِّر قلَّ أن تجد له نظيراً في كلام غيره. ولا سيما رأيه

الصريح فيما يُحكى عن الشيخ أبي العباس السبتي من الأعاجيب التي لا يخرج أمره ـ كما قال المسناوي ـ من كونها من تزَيُّدات النقَلَة فلا يُوثَق بها أو أنها مما يجب تأويلُه وحمْلُه على محملٍ مقبول؛ لثبوت عدالة الشيخ وسداد طريقته لا أنها مما يُحكم به على الشرع ويُجعل دليلاً على انخرام الأصول...

وهذا كلامُه في جواب عن سؤال في الموضوع ضمن مجموعة نوازله المعروفة ونصُّهما معاً: «سيدي جوابكم رضي الله عنكم عن مسألة وهي أن فقراء هذا الزمان جرت عادتهم أن يأخذوا من ذوي المآرب مالاً لِيَضْمنوا لهم قضاء تلك المآرب فيقول الضامن منهم لرب الأرَب: أضْمنُ لك على سيدي فلان أو على الله وعلى سيدي فلان أو أنت في ضماني لا تخف من شيء وأربَابُ الآراب في ذلك فِرَق منهم مَن يُعطي ما يُعطي عن طيب نفسه ولا يعودُ فيه سواءً قُضِيت حاجتُه أم لا، ومنهم مَن يعطيه مُشوِّفاً لحاجته فإن قُضيت طابت نفسه وإلا فلا، ومنهم مَن لا يعطي حتى تعطي حاجتَه، ومن الفقراء المذكورين من يُبرز ذلك في قالَب البيع والشراء فيبيع ممن يريد أن يتولّى بلداً مثلاً ذلك البلد وغير ذلك من مراتب الصالحين أو العلماء أو الدنيا وقد يبيعون الخُبزة أو الثمرة أو نحوها بمال عريض ولا سيما إن كانت ممن يُتبرك به وربما برز منهم مثل ذلك على سبيل المزاح، وكثيراً سيدي ما يطرق سمعَنا أن كبراء الصالحين رضي الله عنهم كسيدي أبي العباس السبتي وغيره كانت عادتُهم ذلك فما حكم الله سيدي في هذه العادة الصادرة

ممّن تقادم عصره من الكبراء. وهل جوازُ ذلك ـ إنْ جاز ـ خاص بأهل التعرُّف أم كيف الحكم في ذلك وفي الضامن والبائع وما أخذ أو في الفرق المضمون لهم والمبيع لهم والسلام؟ «فأجاب بما نصه: الحمد لله، إعلم أن الفعل المذكور إنما يصدر من الدَّجاجِلة الذين اتخذُوا الكذب على الله حِرْفَة وأكل أموال الناس بِتُرَّهات الباطل عادة ومعاذَ الله أن يصدُر ذلك من الفقراء الصادقين بل ولا من المتفَقِّرة المتشبِّهين بهم في الظاهر وإن لم يكن ما لهم من السر الباطن، فإن ذلك من الأمور الخارجة عن المنْهَج الشرعي، والسَّنَن الديني المرْعي، العريقة في طريق الضلالة والمذهب البِدْعِي، إذ لم ينزل الله بها من سلطان، ولا فعلها أو قال بجوازها أحد ممن يُقْتدى به من أهل هذا الشأن، ومن أين لأعداء الله أن يتألَّوْا ويتحكَّموا على الله فيما يفعل بعباده، وقد قال الله تعالى لنبيه عليه السلام: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾. وقال عليه السلام في شأن عثمان بن مظعون رضي الله عنه لمّا قالت تلك المرأة في حقه ما قالت من الشهادة له بإكرام الله: **«وما يُدريكِ أن الله أكرمهُ؟ والله ما أدري، وأنا رسول الله، ما يُفعَل به»**، وقضيته في البخاري، وقال عليه السلام أيضاً: **«مَن يتألّ على الله يُكْذِبْه»**؛ واحتجاجُهم على باطلهم بما حُكِيَ عن الشيخ أبي العباس السبتي وأنظاره من أهل الصدق مع الله الذين وزَنُوا أفعالهم بميزان الشرع والورع، وجروْا مع الحق في كل أمر مُتَّبع، رضي الله عنهم أجمعين باطل.

أمّا أولاً: فلأنها حكايات تجري على الألسنة وتُوجد

في بعض الكتب التي لم يلتزم مؤلفوها الصحة فيما ينقلون ولا عُرِفوا بالنقد فيما يأتون أو يذرون ولم تُنقل بسند صحيح ولا حسَن ولا ضعيف يُقبل ويُستحسن فلا يجوز الاستناد في أمور الدين إليها ولا يصح الاعتماد في أحكام الشرع عليها... وفي عِلمكم ما وقع من كثرة الكذب عليه ﷺ في أحاديث الأحكام وغيرها مع أن الكذب عليه ليس كالكذب على غيره فكيف بمَن سواه وإنما يُروِّجُ ذلك غالباً ويُشيعه أهلُ البِدعة الذين يريدون أن يجعلوه حُجةً لأضاليلهم وسُلَّماً لأهوائهم وأباطيلهم.

«**أما ثانياً**: فبتقدير ثبوتها عنهم، وصدُور تلك الأمور منهم، فلها وجوه حسنة، وتأويلات مستحسنة، لا يفقهُها الجاهلون، وإنما يعقِلُها العالمون؛ لأنه لمَّا ثبتت عَدالَتُهم، وصحَّت وِلايتُهم، بما كانوا عليه من سَداد الطريقة، والجمع بين الشريعة والحقيقة، وبما ظهر لهم من براهين مُنيرة، هي أجْلَى من شمس الظهيرة، تعيَّن تأويلُ ما أشكل ظاهرُه من أفعالهم، وتحسِنُ الظن فيما خفِي علينا من أحوالهم، فمن أين لهؤلاء الذين هم على الضدِّ منهم هدْياً وحالاً أن يقتدوا بهم في هذه المسائل، وهم باقون في الحضيض السافل، كلاً، ليس بعشّك فادرُجي ولا بمنزلك فاخْرُجي:

عذَرْنا النخْلَ في إبداء شَوْكٍ ... يذُودُ به الأناملَ عن جَناهُ
فما للعَوْسج الملْعُون أبْدَى ... لنا شوْكاً بلا ثَمر نَراهُ

وهلاً اقتدوا بهم فيما كانوا عليه من الاستقامة والاجتهاد، والورَع والزُّهد في المال والجاه اللذين أهلكا

أكثرَ العِباد، أو وجدوا ذلك مُرتقًى صعباً، ولم يسهل عليهم من فعل أولئك إلاَّ هذا الأمر الذي اتخذوه سُلَّماً للحُطام الحرام افتراءً وكذباً.

«والحالُ أنه ليس لأحد أن يقتدي بالمشايخ فيما ثبت وصحَّ عنهم من المسائل المُشكِلة والأمور الخفية ويدَع الجادَّة التي شرعها الله سبحانه للخاصَّة والعامَّة من عباده وتركها النبيّ ﷺ بَيْضاءَ نقية، وقد قرَّر العلاَّمةُ النظَّار أبو إسحاق الشاطبي قدّس الله روحه هذا المعنى أتم تقرير... إلخ.

ونكتفي بهذا القدر من كلامه وقد ظهَرْنا منه في نفس الوقت على بيان ناصع وأسلوب في الكتابة رائع يؤكد ما قدّمناه من تمكنه في الأدب مع براعته في العلم. وقد كان الأديب البليغ أبو عبدالله محمد بن الطيب العلمي صاحب كتاب (الأنيس المُطرب) يفزعُ إلى المترجَم في المسائل الأدبية كما كان غيرُه من الناس يفزعون إليه في المسائل الدينية وجرت بينهما مراسلات أثبتها العَلَمي في كتابه المذكور فلتُنظر هناك.

وقد اشتهر من شعره قصيدته التي قالها في مرضه الذي توفي فيه وأوصى أن يُشيَّع بها وأولها:

يا رب عطفاً على مُسيءٍ أتى به القومُ للمقابِرْ

وآخرها:

ويرحم الله كلَّ عبد يقول: آمين وهو سائرْ

وكان قد حفر قبره قبل موته بثلاث سنين واضطجع فيه وقرأ شيئاً من القرآن وما زال يتعهده حتى توفي ودُفِن فيه، وهو بداخل قبّة السيد العابدي بِمَطْرَح الجِلّة خارجَ باب الفتوح من فاس.

وكانت وفاته رحمه الله في ١٦ شوال ١١٣٦هـ، وحضرَ جنازتَه جمهورٌ غفير من النساء والرجال والأطفال وحزن الناس لِفَقْده كثيراً.

* * *

أبو القاسم الزياني
(ت ١٢٤٩ هـ)

اسمه ونسبه، أبوته، ولادته، نشأته وطلبه العلم، تحصيله، استمداده في التاريخ والعلوم الأخرى من كتب جده، رحلته الأولى مع والده للحج، نكبته الأولى، ما استفاده في هذه الرحلة، خدمته للسلطان، نكبته الثانية، رضى السلطان عنه ورجوعه للخدمة، سفارته إلى الآستانة ونجاحه العظيم، تقلُّبه في الوظائف، موت السلطان وتولية اليزيد، انتقام اليزيد منه وتوالي النكبات عليه، اعتزاله الخدمة واعتكافه بالعبادة في تلمسان، رحلته الثالثة، عوده إلى المغرب وتوليه الوزارة، نكبة السلطان له من جديد، انقطاعه للكتابة والتأليف، كتبه، شخصيته في كتبه، أسلوبه في الكتابة والشعر، وفاته ومدفنه.

هو أبو القاسم أو بَلْقاسِم كما كان يُوقِّعُ هو، على حدّ قولهم: بَلحَرت ونحوه، ابنُ أحمد ابن الفقيه الأستاذ المُقرىء النسَّابة أبي الحسن علي بن إبراهيم الزيَّاني... الوزير المؤرخ الدّاهية...

... والزيَاني بالزاي مُفَخَّمةً أو بالصاد المُشَمَّمَة زاياً

كلفظ صِرَاط في قراءة حَمْزة ـ كما يقول الناصري ويكتبها هو كذلك وبتخفيف الياء ـ نِسبة إلى قبيلة زَيَان من أهل الأطلس المتوسط.

كان مقر جده هذا بقرية أركو قرب آدخسان وبها قرأ عليه العلاَّمةُ اليُوسي القراءات السّبْعَ، ثم نقله السلطان مولاي إسماعيل إلى حاضِرَته مَكْناس، وسببُ ذلك أنه لما نزلَ بآدخسان واجتمع عليه الأشرافُ الذين بآزكو قال لهم: دُلُّوني على رجل فقه ودين يؤمّني في الصلوات فقالوا له: ليس بهذا الجبَل أتقى من سيدي علي بن إبراهيم، فأتوا به فكان إمامَه في المحَلة[1] ولما قفلَ أخذَه معه، قال حفيدُه المترجم: «فهذا سبب انتقال جدِّنا من آزكو إلى الحَضَر». وقد بقي هو وأولاده على هذه الحال إلى أن توفي بها فانتقل ولده أحمد والد المترجم إلى فاس سنة ١١٣٩ عند وفاة السلطان فاستوطنها وَوُلِد له بها أبو القاسم سنة ١١٤٧.

وقد نشأ في حِجْر والده وقرأ القرآن واشتغل بطلب العلم على شيوخها أحمد بن الطاهر الشَّرْقي وهو أول مَن أخذ عنه ومحمد بن الطيب القادري وعبدالقادر بُو خريص وعمر الفاسي ومحمد بن إبراهيم والتاوُدي بن سُودة ومحمد بَنّاني. إلا أنه انقطع عن مجلس الفاسي بسبب شيْطنة التلاميذ حيث ذكروا له عنه أشياء كان يُتَّهَم بها، ولعلها مسائل الخط والجدول، وكانوا في نزهة فقال له الفقيه: «يا فلان، أرِنَا شيئاً مما تعلمه ولا نعلمه نحن»، قال:

---

(١) هي الجيش والمعسكر في اصطلاح المغاربة.

وصمّم عليّ في ذلك فخجلتُ منه وقلت: لم يتهيأ لي عمَلٌ الآن، فقال: «ولو ما خفّ»، فقلت: لم يحضرني شيء الآن. فكان ذلك سبب انقطاعي عنه. ولازم محمد بن الحسن بناني ونسخ حاشيته على الزرقاني فكان يُطالِعُها ويحضر مجلس ابن إبراهيم. قال: فكان يشمَئِزُّ من أبحاثها وذلك يدل على أنه كان يورد تلك الأبحاث على الشيخ فِعْلَ شياطين التلاميذ ويدل بالأحرى هو والواقعة التي قبله على نجابة الزَّيَاني وحُسْن تأتّيه للأشياء منذ صِغَره.

ومن دون علم الجَدْوَل وغيره من العلوم السِّريَّة التي ربما كان أخذها عن والده، فإن ما درسه على هؤلاء العلماء هو الفقه والحديث والتفسير والنحو والمنطق. وعلى كل حال فإن التاريخ والنَّسَب والجغرافية التي هي بِضاعَتُه المُنْتقَاة لم تكن مما درسه في القرويين ولا مما أخذه عن شيوخها المذكورين؛ وإنما سَرَتْ عَدْواها إليه من جده علي بن إبراهيم المذكور آنفاً وقد كان كما قال هو عنه آنفاً عَشْريًا نَسّابةً إخْبارِيًا لم يكن في وقته مَن يلحقه في النسب، واليُوسِي نفسُه يقول في حقه: «عنه أخذتُ عَمُود أجدادي إلى يُوسِي أبي القَبيل لأنّه كان نسّابة الوقت».

وقال حفيدُه المترجم: «لما طالعتُ الكنّاش الذي فيه رفع نسبه إلى أبي القبيلة زَيَان ومنه للجد مَالُو الصّنهاجي، ومن مَالُو رفعه إلى اليَسع الذي أسلم على ما في تاريخ سليمان بن سابق المَطْمَاطِي نَسَّابةِ البربر ومنه إلى صَنْهاج أبو صَنهاجَة في الجاهلية، ومنه إلى بَرّ بْنِ مَازِيغ بْنِ نَبْذ بن

كَنْعان بن حام بن نوح عليه السلام[1]، وهذا سبب اعتنائي بالبحث عن كتب التاريخ والأنساب لِما وجدتُ فيه من تقييداته رحمه الله» فكشف بهذا عن سرّ توجُّهه هذه الوجهة من البحث وأفاد أن كل ما أدركه فيها من تفوُّق ونبوغ إنما هو نتيجة جدّه واجتهاده.

ولا يبعد في نظرنا أن يكون هذا الكنَّاش، الذي حوى معارفَ جده، هو الذي لقَّنه تلك العلوم السِّيميَّة من سر الحرْف والجدْول وغيرهما؛ وإن لم يذكر أن جده كان على بال منها لأن عادة أهل هذه العلوم إخفاؤها وعدمَ البَوْحِ بها إلا لخاصة الخاصة من أحبابهم، والمترجمُ نفسه تنصَّل منها وتبرّأ لما خاطبه شيخه أبو حفص الفاسي في شأنها مع أنه كان يُرمَى بها بل لم يملك أنْ اعترف بها ضمناً عندما تكلم في الرحلة على بعض المُتَمشْيِخِين الذين يخدعون الناس بالحيل فقال:

«كيف لو عَلِمَ منها ما يُعَدُّ من الكرامات، ومَن يشاهده لا يشك أنه من أكبر العلامات، إذاً لادّعى النبوة وأنواع الرسالات فإني أعرف الرجل يُلْقِي من يده السُّبْحَة فتسعى إليه بعد الاستدعاء ولا يرتكب هذا التدليس والافتراء، ويتكلم على المصباح الموقود فيطفى، ويضع الحاجةَ (الشيء) أمام القوم فتَخفى، ويتكلم على المصباح الذي انطفا فيشتعل، وعلى النائم فينفعل، ويصب الماء في

(١) هكذا بالأصل من الترجمانة، وسبك العبارة أن يقال: كان هذا سبب اعتنائي...

الإناء فيجمُد، ويقرأ على النار فتخمُد، ويكتب المكاتب لمن بالشرق ويُلقيها من خلفه، ثم يفتحها فتوجَد أجوبتُها كلٌّ على وَفْقِه، ويستخرج اسمَ الرجل المجهول واسم أبيه وأمه، وقبيلته وفصيلته وقومه ويلقي على النحاس المُذَاب غُباراً، فيصير نُضاراً، وهو زاهد في ذلك (يعني دعوة المشيخة) وَرِعٌ في حَيِّز الإهمال، لا يلتفت لمنصب ولا جاه ولا مال، مقبل في بيته على تسويد الأوراق، بما شاهده في الجولان بالآفاق. فمَن يكون هذا الرجل غير أبي القاسم؟

ولا يقال: إنه إنما تعلّم هذه العلوم بمصر على ما سيأتي لأن هذا أعني وقوفه على كناش جده كان قبل ذهابه لمصر، نعم في مصر زاد فيها براعة واتساعاً وتفنُّناً واطلاعاً. وإذاً فيكون تخرُّجه من مدرستَيْن: مدرسة القرويين وقد قرأ فيها علوم الدين واللغة؛ ومدرسة العائلة وقد قرأ فيها التاريخ والنسب وسائر العلوم الخَفِيّة.

ولما أشبعَ نَهْمتَه من المدرستين أُتيح له سبب آخر ليدخل مدرسة جديدة أوسعَ دائرة وأعظمَ مفعولاً من كل ما عداها وهي مدرسة السيَاحة، فإن الفِتَن التي توالَتْ على المغرب منذ وفاة السلطان إسماعيل واضطراب حبل الأمن وعدم استقرار الأحوال على ما عُهِد من قبل، جعلت والد مترجمنا يفكر في الرحلة بُغْيَةَ المُجاورة والاستقرار نهائياً في المدينة المنورة.

وقد نفَّذ هذه الفكرة في عام ١١٦٩ وكان عمر ولده المترجم ٢٣ سنة. فباع، كما يقول ولده في سذاجة، دارَيْن

كانتا له بفاس وكتُباً لوالده الأستاذ علي وجمع من ذلك ما فيه بلاغ ومَقْنَع. وكان المترجم يساعد والده ويأخذ بيده في تدبير أمور السفر وهو على طَيْشِه وجِدَّتِه كان محبوباً من والدَيْه لأنه لم يبقَ لهما غيره.

ولما بلغوا مصر كان مرادهم أن يصحبوا ركب الحاج؛ إلا أن بعضهم أشار على والده بركوب البحر لكونه أقرب مسافة وأقل مشقة. واشترى له سِلْعَة بِقَصد التجارة، ففي مَرْسى اليَنْبُع تكسّر المركب وضاعت السلعة وتلِفَت الأسباب وحَمِدُوا الله على عِتْق رقابهم، وكانت هذه النكبة هي أُولى النَّكبات السبع التي أصابت المترجم وأثرت في حياته تأثيراً عظيماً. وهناك أخرجت والدتُه من حزامها ٣٠٠ دينار، لم يكن لهم بها علم، وإنما كانت ادَّخَرتْها لمثل هذا اليوم؛ فمنها اكتروا لجِدَّة ومَكة وأقاموا الفَرْضَ كما يجب وتوجهوا إلى المدينة بقصد الزيارة فقط؛ لأن المجاورة مع ذهاب البضاعة التي كان مُعَوَّلُهم عليها أصبحت مستحيلة، فرجعوا إلى مصر وكانوا قد تركوا بها بعض الأسباب عند صاحبهم بقصد بيعها، فباعوها وتحصّل فيها مبلغ ٦٠٠ ريال، فبها أصلحوا الأحوال واستعدُّوا للرجوع إلى المغرب حيث بلغهم خبرُ وفاة السلطان مولاي عبدالله وبيعة مولاي محمد.

وفي الإسكندرية لم يجدوا مَرْكباً قاصداً لأجل الحرب القائمة بين إسبانيا وفرنسا وبين الإنجليز المُسمّاة حربَ السّبْع سنوات، وكان القُرْصان في نشاط عظيم فاكتروا مركباً إلى الكُرْنة (لِيكورن بإيطاليا) حيث أقاموا أربعة أشهر ثم توجهوا إلى مرسيليا ومنها لِبَرْشِلُونة فأقاموا بها حيث كان الفرنسيون

مُحاصِرين لجبَل طارق، وبعد رفع الحصار ذهبوا إلى تطوان ومن ثم إلى فاس فدخلوها وليس معهم إلا سبعة مثاقيل.

كان قد مرّ على خروجهم من فاس نحو الثلاث سنوات، رأى مُترجمُنا فيها كثيراً من بلاد الشرق والغرب ودرس أحوال أمم كثيرة واستفاد معلومات مختلفة، لم يكن ليحصل عليها وهو مستقر بفاس، متردد بين دارهم والقرويين. وأعظمُ ما حصل عليه بالقاهرة في بيت صاحبهم التي كان نزولهم عنده هو تعلُّمه من ابن هذا الصاحب لمسائل من علم الرَّمْل والسِّيمِياء، أضافها إلى ما كان عنده من هذه العلوم السِّرية ورجع بذلك فَرِحاً مسروراً يقول لنفسه حجًّا مبروراً. وهاك عبارتَه، في هذا الصدد:

«وفي إقامتنا بمصر كنتُ أجالس بالبيت ابنَ ذلك الصاحب، وأشاهدُ منه عجائب، كان له يد في علم الرمل وعلم السيمياء، ومن رأى تصوُّراتِه يحسب أنه من الأولياء، فشغفتُ بِفَنِّه واتخذته شيخاً ولازمتُه حتى ملكتُ لُبَّه بالسَّخاء، فجاد هو أيضاً بما عنده في الجَرِيب، وأفادني في أمد قريب، وأوقفني على ما في علمه من خواص المعادن وما ينشأ عنها من الأسرار والعجائب، التي يبلغ المرء بها أعلى المراتب، وأطلعني على ما يلحق بها من الحِيَل التي يستعملها المُشَعْوذُون، ومن بحرها يستمِدُّون فعُدت بذلك مسروراً، وقلت: حَجًّا مبروراً».

ولما استقروا بفاس عاد المترجم إلى القراءة كما كان ثُمَّ سأل عن رفقائه في الأُنس والطلب كأحمد بن ناصر الغياثي والغَزَّال وابن الوزَّان وسُكَيْرج وابن عُثمان ومحمد بن

الشاهد وسعيد الشَلَيّح الجُزُولي فوجدهم قد تعلقوا بخدمة السلطان. وكان بينه وبين هذا الأخير أعني الشُلَيح مودة كبيرة، إذ طالما عكفا على المطالعة معاً وسَرْد كتب التاريخ التي كان للشليح ولعٌ كبير بها، فلما بلغه خبرُه وما صار إليه أمره عند السلطان سيدي محمد بن عبدالله شَرِهَت نفسُه لِلّحاق به وتعلّق هو أيضاً بالخدمة؛ ولم يُجْدِ نُصحُ والده له ولا نَهْيُهُ عن ذلك شيئاً وهكذا أصبح أبو القاسم الزيّاني كاتباً في البلاط العلوي من رجال الدولة المعدودين.

إنما لم يكد الحظ يبسم له حتى قَطَبَ في وجهه قُطوباً شديداً لِينْكبه الدهر نُكبتَه الثانية، ففي عام ١١٨٢ طردَه السلطان وبقي مهدداً بالقتل بعدما مرّت له عشرُ سنين في الخدمة والطاعة. وذلك بسبب وشاية القائد أبو القاسم الزِّمُوري به حيث اتَّهمَه بأن له يداً في ثورة (آيت ومَالُو) التي لم تُرحّبْ بالقائد المذكور وردّته على أعقابه ناكصاً، مما اضطر السلطان إلى استفسار القبائل وخروجه بنفسه إلى قتال القبيلة المذكورة، وتبعاً لإشارة القائد قسمَ السلطان جيشه أثلاثاً وعيّن لكل ثلث مكاناً يُرابط فيه. غير أن هذه الإشارة دلّت على جهل القائد بالأماكن التي يقع فيها القتال وتعريضه الجيش للانكسار وفي ذلك هزيمة السلطان وضياع هيبة المخْزن[١]، فلم يسَع السلطان إلا أن استدعى الزيّاني الذي كان منبوذاً مُطّرحاً في المحلّة[٢] فأسرع نحوه وبيّن له خطأ الفكرة وفشَل الخطّة؛ ولم يتورع أن يقول له: إن

---

(١) يعني: الحكومة.

(٢) يعني: الجيش كما تقدم.

أبا القاسم الزمُّوري رجل مشؤوم، ثم بيّن له السبب الذي نفرت به آيت ومَالُو عن القائد حتى عرّفه وحينئذ أقبل عليه السلطان واعتمدَه في إنقاذ الموقف باستخدام جاهِه عند تلك القبائل، فما عتَّمَت أن ألقَت السلاح ودخلت في الطاعة.

ورجع السلطان ظافراً منتصراً من غير أن يُريقَ دماً حراماً أو يُزهِق روحاً بريئة. وعرف إخلاصَ كاتبه فرفع منزلته على أقرانه وصار يقدمه في المهمات وأخلف له ما ضاع، وخوَّله المماليك والأتباع، وربما جعله رئيس ديوان الكتَبَة على ما تُعطيه عبارتُه، في حين أبعد خصمه الواشي به وجعله بمكان الإهمال.

ثم في سنة ١١٩٨ توجّه السلطان إلى تافِيلالت حيث كان عمُّه الحسن بن إسماعيل قد اعصَوْصب بشِيعةٍ من قبائل الصحراء وكثر إيذاؤه لأبناء عمه من الأشراف، فأفرده عن تلك القبائل وكسرَ شوكتَه وبعث إليه بأبي القاسم الزياني يعرض عليه السكنى بمكناسة ويُنفِّذ له ما يكفيه؛ فقضى المهمة على أحسن حال وانقلب به إلى مكناسة، من حيث صَحِبَ معه بأمر من السلطان، أولادَه الثلاثة مولاي سليمان والحسن والحسين وعدداً من المدافع والمهاريس والقذائف وطائفة من الطُّبْجية الألمان وألفاً من عسكر الثغور، فقضى الغرض كما ينبغي. ثم وجّهه السلطان أيضاً إلى الغرب ليأتيه بجيش من عبيد الثغور ويلقاه بهم إلى مراكش ففعل. ومن ثَمَّ خرج السلطان إلى الصّويرَة بقصد الفُرْجة وجِمَام النفس وأشخص معه جماعة من العلماء والأدباء كان أبو القاسم من جُملتهم فقضى هناك الربيع على أحسن حال.

وفي عام ١٢٠٠، أرسله السلطان سفيراً إلى الخليفة عبدالحميد الأول بالآستانة، فركب البحر من الصويرة هو وسفير تركي اسمه إسماعيل أفندي كان عند السلطان، ونزل بمالقة ثم ركب منها قاصداً دارَ الخلافة ولكن المركب عَطِبَ فلجأ إلى تونس بقصد إصلاحه ونزل عند بايها حَمودة باشا الذي أكرم نُزُله. ثم بعد عشرة أيام أُصلِحَ المركب وتوجه تواً إلى طِيَّته، فحين عاين السفيرُ التركي شواطئ بلاده استأسد وجعل يسبُّ المغرب وسُلطانه فنهاه الزياني فلم ينتَه، فحينئذٍ قام إليه وأخذ بلِحْيته وأراد ذبحه متقرباً به إلى الله ـ كما يقول ـ إلا أن رئيس المركب خلّصه من يديه وشفع فيه فتركه. ولا نحتاج إلى القول: إن الزياني قام بمهمته كما يجب وأن وُلاة الأمر في الآستانة قد اعتنوا به غاية، وأنه قابل الخليفة في غير الموعد المحدد لمقابلة أمثاله من السفراء رعياً لوقوع الحرب بين الدولة العلية وروسيا ومحاولة الدولة السلَف من سلطان المغرب. ومما يزيد في اعتبار الزياني أنه لما عرض عليه الوزير التركي الأول فكرة السلف رحّب بها وأيّدها وقال: إن سلطاننا له رغبة في الجهاد ولولا مشَقّةُ البحر وبُعْدُ المغرب لسعى للجهاد بنفسه، وأما المال فإنه يُعطِيه بلا سَلف.

وهكذا تقرر رجوع الزياني ومعه سفير تركي إلى المغرب بعدما قضى ١٠٠ يوم في الآستانة وزار جميع مشاهدها وآثارها من مساجد ومدارس ومكاتب ودار السكة والخزينة وغيرها ووصف كلَّ ما وقعت عليه عينُه وسمِعته أُذنه وصفاً دقيقاً شيّقاً يطول تتبُّعه. وكان ممن اجتمع به

هناك الشيخ كمال الدين باشا وقرأ عليه تاريخه لتركيا واختصره.

وفي أثناء الطريق وقع من السفير التركي مثلُ ما وقع من سابقه برغم توصيته والتأكيد عليه أن يكون عند نظر الزياني. ولما شعُر به أنه يراود رئيس المركب على الدخول إلى مرسيليا التي لم يشأ الزياني التعريج عليها كرهاً للحَجْر الصحّي، جعل يُراقِبه وينظر في الخريطة، حتى إذا وصلوا للمحل الذي يتوجه منه إلى مرسيليا طلع فوق (القامرة) وجلس ووقف خدامُه بسلاحهم. فلما أراد رئيس المركب أن يتوجه نحو مرسيليا قال له: ابقَ على طريقك، والله لو دُرتَ بالمركبِ لأقتلنّك! وهكذا انتصر على السفير التركي مرة أخرى، وسجّل النزق والطيش على السفراء الترك، مثل ما كان يقع من بعض سفرائنا، كالذين تصرّفوا في مال الفِدْية الذي وجّه به السلطان هدية إلى الخليفة، لما لم يقْبَلْ أهلُ مالطة فِداءَ الأسرى الترك الذين عندهم، فلما تنبّهوا لسوءِ تصرفهم انقطعوا بالمشرق خوفاً من السلطان. ولهذا لما وجّه السلطان الزياني قال له: «إني اخترتُك لتشفي غليلي في أمرين؛ أحدهما: تقبض على أولئك الظلمة الذين سرقوا من مال الله. والثاني: تسفِّهُ هذا الباشدور (السفير الذي ذهب معه) الذي كذبَ عليّ وتُعرّفهم أنه لا يصلح للسفارة بين الملوك ويلزمه ما يلزم أصحابي الذين سرقوا من مال الله».

ولما لقِيَ الزياني السلطان ناوله كتاباً من عند الخليفة يقول فيه: «وبعد فإنه قد وصلنا من مقامك الأسمى عشرون سفيراً وأحسنهم عقلاً ونبلاً وسياسة وأدباً فلان الذي أدّى

رسالتك وهديتَك بأدب وانفصل عنا بأدب، فمِثْلهُ مَن يكون سفيراً بين الملوك، فإن اقتضى نظرك توجيه سفير من أطرافك فليكن هو فإن ظاهره وباطنه سواء» وما ندري هذا نص الرسالة أو تقرير من الزياني. وعلى كل حال فقد سُرَّ السلطان به سروراً عظيماً ودعا له بخير وأثنى عليه ونوَّه به أمام الجمهور.

ثم استشاره في مقدار المال الذي يُوجّهُه إعانة على الجهاد لا سَلَفاً فقال: مليونان فاستكثرهما السلطان. فبَيَّن له أنهما مبلغ ستمائة ألف وخمسين ألف ريال فقط من سكة المغرب، لأن سكتهم رُبعها فقطِ فِضة والباقي نُحاس، وسَماعُ المليونين تعلو بهما همّة السلطان عندهم فاستصوب رَأيَه ودعا له وأمر بإرسال العدة المذكورة، جعلها سبائك في أربعة صناديق ووجهها على طريق إسبانيا ثم فرنسا فجاء الجواب بوصولها في ستين يوماً والسفير التركي لا يزال عنده مع كاتب آخر قدم بعده.

وأما الزياني، فقد تقلب بعد ذلك في عدة وظائف، من قيادة وولاية على المدن وتدريب الجنود البحرية، فضلاً عن الأسفار المتعددة بين وَجْدة وتازة ومَكناس وطَنْجة وتِطْوان والعرائِش وغيرها. ثم في سنة ١٢٠٢ سمّاه السلطان والياً بِتَافِلالْت ولما أظهر التردد قال له: «طِبْ نفساً ولولا أني أحبك ما وليتك على أولادي وأهل بيتي» فبقي هناك ثلاثَ سنين إلى أن توفي السلطان، وكان المولى سليمان اقترح عليه تأليف تاريخه الترجمان المعرب وهو بسلجماسة (فبدأ يشتغل به من حينذاك).

لما توفي السلطان سيدي محمد بن عبدالله ووَلي ابنُه اليزيد الذي لم يكن راضياً عن الزياني بدأ سوء الطالع يصاحب هذا الأخير، فلم ينشب أن زجَّه اليزيد في السجن وصادر أملاكه إلا داراً صغيرة أُبقِيَت لسكنى عياله، وكانت هذه هي النكبة الثالثة. وبعد مدة أخرج من السجن وولاه السلطان على أكادير، ثم ردَّه وكلّفه بعدة مُهِمّات. ولكنَّه عاد فقبض عليه وضربَه حتى غاب عن الوجود وأخرج مُسدسَّه ولكنه نجا من الموت لعدم حضور أجَلِه وكان ذلك في العرائش فأمر بسِجْنه هناك. قال: «ولم أُفِق من غَشْيتي إلا بعد ثلاثة أيام فوجدت الحديد على رجلي والسلسلة في عنقي ويدي مكسورة وأصابعي كذلك، فكان بعض الأحبة يأتيني ليلاً بطبيب يُعالج يدي ورأسي وجراحتي» ولعل هذا الكسر الذي أصابه في رأسه هو الذي يُتحدَّثُ أنه طارت به جمجمته فجُعِل مكانَها طرفٌ من القَرْع فاختَفَّ به اللحم وتماسك.

ثم بعد شهر استقدمه السلطان للرباط وكان مُرادُه قَتْله فسَلِم أيضاً بحفظ الله بعد تجريده من الثياب ويأسِه من الحياة، وكانت هذه هي النكبة الرابعة من نكبَاتِه السبع. وبقي مسجوناً في الرباط إلى أن توفي اليزيد فسرَّحه أهلُ الرباط برَغْم امتناع حاكمهم ومِن ثم قصد فاس حيث حضر بيعة المولى سليمان.

كان المولى سليمان يعرفُ كفاءته ومَقْدرته فولاّه على وَجْدة ليُصْلِح ما فسد من أحوالها، فإن عرب أنكاد كانوا قد عاثوا في تلك النواحي فساداً ونهبوا الحجّاج ولم يرَ السلطان

خيراً من تولية الزياني لِقَمْعِهم وكَبْح جِماحِهم، إلا أنه كرِهَ ذلك لعلمه بما فيه من المشقة. واستقال فما أُقِيل، فتوجَّه إليها مُرغماً وخرج معه ركبُ التجار الذي كان محصوراً بفاس. وما وصلوا إلى أرض أنكاد حتى عدا عليهم العَرَبُ وقتَلوهم ونهَبُوا الأموال والمتاع ولم ينجُ منهم إلا القليل، وكانت هذه نكبته الخامسة.

وقد انسلَّ منها فارًا بجِلْدِه سائِماً من الخدمة السلطانية؛ فتوجه إلى وَهْرَان، ثم إلى تِلمِسَان حيثُ أقام بجِوار العُبّاد[1] سنة ونِصْفاً مُشْتَغِلاً بالمطالعة والتقييد والتأليف، واطلع هناك على غرائب كتب التاريخ التي تُعَدُّ اليوم في حكم المفقودة، كتاريخ سليمان بن إسحاق المطْمَاطِي[2]، وتاريخ هاني بن يصُور الكومي، وتاريخ كهْلان بن أبي لُوَي الأوْرَبي في أنساب البربر وأيامهم في الجاهلية والإسلام لأنهم كانوا نسّابة البربر، وتاريخ العُقْباني في دولة بني زيّان، وتاريخ ابن مرزوق الذي سمّاه نفي الوسن في محاسن أبي الحسن[3]، وتاريخ السلطان أبي حَمُّو موسى الزياني صاحب تلمسان الذي سمّاه واسطة السلوك في سياسة الملوك إلى غير ذلك.

---

(١) العباد قرية من عمل تلمسان على ثلاثة أميال منها اشتهرت بوجود مسجد الشيخ أبي مدين فيها.

(٢) سبق عند تسمية نسابة البربر هذا بسليمان بن سابق، وهنا يسميه ـ لأنا ننقل عن رحلته ـ سليمان بن إسحٰق. والذي عند ابن خلدون أنه سابق بن سليمان، وانظر بحثنا عن سابق البربري في كتاب خل وبقل.

(٣) المعروف في اسم تاريخ ابن مرزوق أنه «المسند الصحيح الحسن في مآثر السلطان أبي الحسن».

ثم تجدّد عنده باعثُ السفر والرحلة ففكّر في زيارة الآستانة وبلاد المشرق مُتعهِّداً تلك الديار ومتفقداً ما له بها من الأصحاب فذهب إلى وهران ثم إلى الجزائر ثم إلى قُسَنْطِينة ثم إلى تونس حيث احتفل به الوُلاةُ والأعيانُ والعلماء في كل منها، وفي فاتح جمادى الأولى من عام ١٢٠٨ ركب متنَ البحر إلى الآستانة ووصل إليها بعد مُعاناة الأهوال، فقُوبل بمزيد الترحاب، ثم توجه إلى الحج مع أمير الركب ولقي بمكة أحمد الجزّار والي عكا، فرغب إليه في الذهاب معه إلى الشام بسبب ما رأى منه من البراعة في علم الجدول وغيره من العلوم السيمية؛ وكان الجزّار مُولعاً بها فراوغَه الزياني حتى خلص منه. كما لقِيَ الشيخ جَعْفَر الهندي وكاشفه بما في ضميره وأخبره بما سيصيبه من شدة في نفسه وماله ورجوعه إلى المغرب ونُكبة السلطان له ثم نجاتِه من كل ذلك. فعاد إلى مصر مع رَكبِها وصَحِبَتْه جاريتان حَبَشِيّتان كان قد اشتراهما من المدينة.

وفي كل هذه الانتقالات كان يُقابل الوُجوهَ والصُّدور من رجال الدولة وأهل العلم ويحتفون به غاية الاحتفاء ويتذاكرون معه أيام العز والهناء في مدة السلطانين عبدالحميد الأول ومحمد بن عبدالله. وممن اجتمع به في مصر من العلماء هذه المرة المؤرخ الجبرتي وإسماعيل العباسي وسواهما.

وفي مصر وقع له حادث خطير كاد يذهب بحياته حيث ركب النيل في نزهة مع أحد الأغوات فانقلب المركب وغرق كل من فيه وسبح رحالتنا جهده حتى خارت قواه،

ثم أنقذه أهل مركب آخر كانوا على مقربة منه وأوصلوه إلى الشاطىء ومات لأغا وأناسٌ آخرون فكان هذا مصداق نبوءة الشيخ الهندي عن الشدة التي تصيبه في نفسه.

ثم عزم على الرجوع إلى المغرب فركب من الإسكندرية مركباً كان متوجهاً إلى أزمير بشَحْنَة من القمح، يعود بعدها إلى الجزائر حاملاً للجنود. ولكن الريح عاكسَتْه فدخل إلى جزيرة رُودس ومنها إلى أنطاكية حيث بقي بها شهراً توجه رحّالتُنا فيه إلى القدس الشريف ثم إلى دمشق زائراً ومتبركاً. ولقي بهذه الشيخين كمال الدين الغزّي وسعد الدين النابلسي حفيد الشيخ عبدالغني الشهير، ثم توجه المركب إلى أزمير فدخلها الزياني ومعه فضلاً عن البضاعة عشرون ألف قرش نقداً تركياً، فتوقف مأمور الجمرك في تسليم البضاعة حتى أُعلِم بحيثِية الرحّالة وماضي مجده في بلاد الترك فسلّمها.

ولم يزل الزياني هناك في عز واحترام مدة ستة أشهر، إذ كان السفر قد تعذّر عليه بسبب الوباء العام وقِلة المراكب. ولما عادت المياه إلى مجاريها عوَّل على السفر وكان قد اشترى من أزمير بما معه من المال بضاعة من الحرير، فشحنها في مركب ذاهب إلى الجزائر وتخلّف هو لأجل امتلاء المركب بالجند، فذهب في مركب آخر إلى تونس حيث وضعوا في «الكرنطينة الشّنعا، الممنوعة عُرْفاً وشَرْعاً» كما يقول هو. وكانت له جارية على وشك الطَّلْق فأشفق من حالها وكتبَ يتشفّع إلى بعضهم فلم يُجْدِه شيئاً. ومن الليلة القابلة جاء الطَّلْقُ للجارية فكان هو القَابلة وَوُلِد

له ابن سمّاه بعبدالسلام، ثم أنشأ قصيدة في ذم هذه الكرنطينة ومن وضعها، ولا شك أنه كان يتذكر أيام الصولة في رحلته السابقة، حين وقف هو وأصحابه بسلاحهم يهددون رئيس المركب ويصرفونه عن الدخول إلى مرسيليا خوف الكرنطينة ويتمنى لو تأتى له أن يفعل مثل ذلك، حتى ينتقم من هؤلاء الوُلاة القساة، ولكن حِيلَ بين العِير والنزَوَان، وقد كبِرَ الرحّالةُ وأُنهكتْ قواه فلم يبقَ له إلا الرجوع إلى سلاح اللسان والطعن به بدل الطعن بالسّنان.

ثم بعد النزول إلى تونس ماتت الجارية بالوباء وتركت الولد ولم يجد مَن يرضعه، إلى أن جاءه رجل مغربي مات له صبي ويقيت امرأته بدون رضيع، فدفعه لها وسافر إلى قسنطينة فلم يجد الوالي بها، ثم إلى الجزائر، وكان إنما باع لأجل ذلك نسخة من صحيح مسلم بخمسين محبوباً[1] اشتراها من مصر بمائة، ولما دخل الجزائر علم أن بضاعة الحرير لم تصِل وأن المركب أخذه القرصان فسلّم الأمر إلى الله وبقي خاويَ الوفاض، لا يجد ما يكمّل به أجرة الحمار؛ لولا أن القاضي أبا عبدالله بن مالك وصله وباشره بما أصلحه وبقي منتظراً المركب نحواً من سبعة أشهر. وكان صاحِبُه يباشر قضية التجار والسلعة مع العدو وادعى أنه تونسي، وتونس كانت في مدة صُلْح معه فأحرز المركب والسلعة وسلم الجند وبذلك وصلت إلى الزياني بضاعتُه

(١) أي: قطعة من قطع العملة.

سالمة فانتعش بعد الانتكاس وعوّل على الإقامة بتلمسان وكتب لأهله بفاس يأتونه إليها.

وقد فرح أهله وأصدقاؤه برجوعه وكانت قد انقطعت أخباره عنهم ولكنهم رغبوا إليه في الرجوع إلى فاس ولم يرسلوا إليه عدا جارية واحدة للخدمة، والسلطان نفسه كتب له يأمره بالرجوع ويطمّنه ويعفيه من الخدمة التي من أجلها هجر المغرب. ولكنه ما وصل إلى فاس ولقي السلطان حتى عرض عليه ولاية العرائش فحاجه بكتابه فحجّه، ولكنه عاد فطلب منه بإلحاح أن يذهب إلى تفتيش مراسي المغرب ومراقبة عُمّالها، ولما كان هذا الوظيف تكليفاً موقتاً قبِلَه وقضاه بنجاح، ثم كلفه أيضاً بمهمة أخرى وقتية في مراكش. وبعد رجوعه ألزمه خدمته فقلّده الكتابة والوزارة والحجابة وبلغ إلى أوْجِ مجده واستقر في بُرْجِ سعده وذلك سنة ١٢١٣.

ولم يزل على هذه الحال مدة من السنين إلى أن قلَبَ الدهرُ له ظَهْرَ المِجَنّ وحصل منه الملل وكثرت به السعايات، فنكبَه السلطان وأنزله من على منصّة سائر هذه الولايات سنة ١٢٢٤، وكانت تلك نكبته السادسة. ثم في سنة ١٢٣٣ مات ولده البار كما يقول هو، وانظر هل هو الولد الذي قَبِلَه في المحْجَر الصحّي بتونس وماتت أمه في تلك المدينة أو غيره؟ وكان الزياني في كِبَرٍ من سنّه ومحنةٍ من إهمال السلطان له فعظُمت عليه المصيبة وتمّت بذلك نكباته سبْعاً.

على أن هناك نكبات أخرى قد مرّت الإشارة إليها

وهي غرَقُه في نيل مصر ودخوله المحجر الصحي بتونس وكان يكرهه أشد الكراهة وموتُ الجارية وضَياعُ الحرير وهو بالجزائر على أشد حالات الفقر، ولو عُدَّت هذه مع تفاصيل نكبات اليزيد له لبلغت نكباته أكثر من عشر.

بعد نكبة السلطان له عزم على الرجوع إلى المشرق مرة رابعة ثم ثناه عن عزمه بعض المواعظ والحكم التي قرأها في القصيدتين الفريدتين اللتين جمَعتا من السياسة الدينية والدنيوية ـ في نظره على الأقل ـ ما فيه بلاغ للعاقل، وكفاية للعامل، وهما القصيدة الزِّينبيَّة لصالح بن عبدالقدوس: «صَرَمَتْ حِبَالك بعد وصلك زيْنَبُ... إلخ»، وإن كان هو نسبها لأثير الدين المعروف بالوزير المغربي، وقصيدة أبي الفتح البُستي: «زيادة المرء في دنياه نقصان... إلخ».

وعلى كل حال فإن لهاتين القصيدتين فضلاً كبيراً على مؤرخنا وعلينا أيضاً، حيث حمَلَتاهُ على الاستقرار والعزلة ونبذ الخلق طراً والعكوف على التقييد والتأليف، حتى ترك لنا هذه الآثار الحافلة والكتب المهمة التي ما كنا نرى منها شيئاً لو ذهب يتقلب في البلاد شأنه في أول مرة وثانيها وثالثها.

في هذه الفترة المباركة من عُمره على تقدمه في السن وانكسار خاطره بسبب النكبة أكملَ كتُبه الخمسة عشر، ما كان بدأ به منها قبلُ وما لم يفكر فيه إلا حينئذٍ.

وأعظمها تاريخه الكبير الذي سماه (الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب) وهو تاريخ عام أراد أن يقف به

في وصف المؤرخين الكبار كابن خلدون وابن الأثير وابن جرير الطبري وغيرهم. وقد جعله من بدء الخليقة إلى نهاية عام ١٢٢٨ فاستهله بمقدمة في سياسة الملك، ثم تاريخ آدم وسُلالته إلى الطوفان وأولاد نوح فالدولة الفارسية فالحميرية فالفراعنة فالإسرائيليين فاليونان فالرومان فتاريخ البِعْثة، حيث توسع قليلاً. ثم الخلفاء الراشدين فالأمويين فالعباسيين إلى هجوم التتار فالفاطميين فالأغالِبَة فالأيوبيين فالأتراك العثمانيين الذين انبسط في الكلام عليهم، مستفيداً من المعلومات التي أخذها عن تاريخ الشيخ كمال الدين الذي لقيه بالآستانة كما سبق. وهنا انتهى القسم الأول من الترجمان.

وبدأ القسم الثاني بتاريخ الأدارسة في المغرب فمَغْرَاوة وبني يَفْرن فالمرابطين فالموحدين فالحفصيين فالمرينيين فالزيّانيين فبني الأحمر فالسّعديين فالعلويين، ثم فصول في شرفاء المغرب، فجامعة في الدول التي لم تعترف بالخلافة، فخاتمة في سفارَته والبلاد التي زارها.

وقد قدّمنا أنه في أيام ولايته على سجلماسة فكّر في وضع هذا التاريخ وذكر في الترجمانة أنه بدأ به هناك وأنه كان يعرض فصولاً منه على السلطان مولاي سليمان، وكان أميراً إذ ذاك، فكان يشجعه ويحضه على إكماله كما تقدم أنه في مدة انقطاعه بتلمسان اشتغل بالتأليف والتقييد من كتب التاريخ، فلا شك أنه ابتدأ هذا الكتاب بسجلماسة ثم اشتغل فيه بتلمسان ولكنه لم يكمله إلا في هذه الفترة بدليل أنه وصل به إلى عام ١٢٢٨.

هذا والترجمان على كونه مُشْبَعاً بهذه المواد التاريخية

العالمية يقع في مجلد واحد، فما أحراه بالنشر والتعميم بعد التوفيق بين نسخه المتعددة ومقابلتها بالتدقيق. وقد نشر منه المستشرق (هوداس) القطعة المتعلقة بتاريخ دولتنا العلوية مع ترجمتها إلى الفرنسية سنة ١٣٠٣، فيا ليت أصحاب المطابع ينتبهون لهذا الكنز الدفين فينفعوا وينتفعوا.

ثاني كتبه في الأهمية رحلتُه المسماة (الترجمانة الكبرى التي جمعت أمصار المعمور كله براً وبحراً) في مجلد واسمُها كاف في معرفتها فهي جغرافية في الأعمّ الغالب، ولكنها تحتوي على فوائد تاريخية وأدبية وتراجمَ مختلفة وأعظمُها ترجمة الكاتب نفسِه وغير ذلك مما جعلها غيرَ ذات خطة مستقلة ولا موحّدة الموضوع كما يقول هو عنها بعد سرد برنامجها الجغرافي: «وفي كل مقام منها مقال، وفي كل روض منها مجال، حسبما يقتضيه الحال، ويخطر على البال، من نصوص قرآنية، وتأويلات تفسيرية، وأحاديث نبوية، وفتاوى فقهية، ومواعظ صوفية، وحجج قطعية، وأدلة معقولية، وشواهد شعرية، وضوابط معنوية، وأسامي لغوية، ونوادر سَروجيّة[1]، وقصائد عالية، وما يناسب كل خبر ويؤيده، ويعتمد عليه ويعضده، وختمتها بنصوص من التوراة والإنجيل والفرقان، للرد على اليهود والنصارى والصابئة والمجوس من عَبَدة النيران».

وعلى كل حال فإن هذه الاستطرادات وإن كانت تفسد جمال الكتب فإن لنا فيها معشر الباحثين فوائد جمة. وهاك

---

(١) نسبة إلى أبي زيد السروجي بطل المقامات الحريرية المعروف.

مثلاً هذه الاستطرادات التاريخية في الرحلة فإنها تُعد تكميلاً للترجمان الذي وقف به عند سنة ١٢٢٨ بينما الرحلة لا تنتهي إلا سنة ١٢٣٣ بل إنه سجّل فيها بعض حوادث سنة ١٢٣٤ و١٢٣٥.

ثالث كتبه المهمة تاريخ الدولة العلوية المسمى (البستان الظريف في دولة أولاد مولانا عليّ الشريف) ألّفه لما لم يجد للدولة تاريخاً مستقلاً وكان لا زال تاريخ الكنسوس لم يكتب، فإن هذا منه اقتبس وعلى منواله نسج وكذا من بعده بالطبع، وهاك بقية أسماء كتبه باختصار:

٤ ـ ألفية السلوك في وفيات الملوك، أرجوزة مرموزة التواريخ بحساب الجمل وشرحها.

٥ ـ الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب وهو مستمد من الفصول التي كتبها في الترجمان خاصة بهذا الموضوع.

٦ ـ رسالة في سياسة الملك سماها: (السلوك فيما يجب على الملوك).

٧ ـ رسالة دينية سماها: (الدرة السنية الفائقة في كشف مذاهب أهل البدع من الخوارج والروافض والمعتزلة والزنادقة).

٨ ـ رحلة الحذّاق لمشاهدة الآفاق لخصها من رحلته الكبرى.

٩ ـ جوهرة التيجان وفهرست الياقوت واللؤلؤ

والمرجان في الملوك العلويين وأشياخ مولانا سليمان. وهي برنامج لأشياخ هذا السلطان.

١٠ ـ إباحة الأدباء والنحاة الجمع بين الأخوات الثلاث، رحلة ثالثة.

١١ ـ كشف الأسرار في الرد على أهل البدع الأشرار.

١٢ ـ تحفة الأخوان والأوليا، في صنعة السيميا.

١٣ ـ كشف أسرار المحتالين الأشقياء، الذين يزعمون علم الكيميا وتسمى هاتان الرسالتان أيضاً رشف الحميا ونصيحة المغترين. . . إلخ.

١٤ ـ حلية الأدباء والكتّاب في مدح هذا الكتاب، يعني الترجمان وقد ضمّ هذه الرسالة لآخر الترجمان.

١٥ ـ ديوان شعر جامع لأنظامه في الأغراض المختلفة.

ولا يخفى أن بعض هذه الكتب مكرر للبعض الآخر، فبقطع النظر عن هذه الرسائل التي موضوعها ديني بحت، لا نجد صعوبة في رد الفرع إلى أصله من كل ذلك، كالرحلتين الصغيرتين إلى الترجمانة الكبرى وألفية السلوك وشرحها والحادي المطرب ورسالة السلوك إلى الترجمان وهكذا. ويذكر له بعض المؤرخين أسماء كتب أخرى وهي الروضة السلمانية في الدولة الإسماعيلية وما قبلها من الدول الإسلامية، والتاج والإكليل في مآثر السلطان الجليل مولاي

إسماعيل. فبعضهم يجعلها كتباً مستقلة بنفسها وبعضهم يقول: إنها نفس البستان الظريف وإنما هذه أسماء أخرى له فبعض النسخ تكون حاملة لهذا الاسم وبعضها لذاك.

وعلى كلٍّ فالزياني من أولئك الكُتّاب القلائل الذين تظهر شخصيتُهم القويةُ بين سطور كتاباتهم عاريةً من كل تصنُّع، بريئةً من كل تَزيُّد. وإذا كان يُبالغ بعض الأحيان في ادعاءاته لنفسه واتهاماته لغيره فإنما ذلك من سذاجته واغتراره بظواهر الأشياء، وربما كان لعدم تثقُّف قلمه وخشونة عبارته. ولو كان مُهذَّبَ حواشي الكلام لما وقع في كثير من تلك الهفوات. ومما يدل على سلامة صدره وأن تلك الحملات التي كان يحملها على كثير من أهل عصره إنما هي فَوراتٌ نفسية لا تلبث أن تخبوَ ويذهب أثرها إلى الأبد، ما تجده في رحلته التُرجمانة بصدد الشيخ حمدون ابن الحاج فتارةً يمدحه ويُحَلِّيه بأغلى وأحسن الحِلَى وتارةً يقع فيه ويُصْلِيه من انتقاده ناراً حامية.

وهو في غالب الأحيان مُتَنبِّه الشعور دقيق الإحساس فلا يمر بحادثة ولا خبر ولا تقع له واقعة إلا علّق عليها بما يُناسِب واستطرد نظائر وأشباهاً لها مما زاد في قيمة تاريخه وجعلَه من التواريخ المهمة التي لا تُعنَى بسرد الحوادث والأخبار مجردةً عن النظر والتمحيص، هذا مع اختصاره وجمعه لاقتصاره على أهم الأشياء وإعراضه عن الحَشْو والأمور التافهة. على أنه في بعض المرات يُسِفُّ إسفافاً مُخجِلاً وربما كان مُضحِكاً فيروي رواياتٍ تحمل في طيِّها دلائل تزْييفها كقوله: إن الكُسْكُس مما صنعه طبِيبُ الجانّ

لسيدنا سليمان، وقوله هذا: «وهذه المملكة ليس في الممالك كلِّها أحسَنُ من رجالهم ولا نسائهم ولا أكملُ محاسنَ منهم في المعمور كله ولا أجملُ أوصافاً ولا أطيب خَلْوةً ومُضاجَعة منهم. ولنسائها من الحُسْن والتِّيه والظَّرْف واللذة الزائدة الوصف التي لم توجد في نساء الدنيا. ويبلغ الرجُل منهم سِنَّ المائة وقُوتُه في نفسه ومُجامَعته باقيةٌ. وإذا جامع الرجل امرأتَه فإنه ينسى الدنيا وما عليها إذا بلغت المرأة منهم خمسين أو ستين أو سبعين (الزيادة بالعشرات فقط) فلا تتغير محاسنها وتبقى على ما كانت عليه وهي ابنة العشرين. يا فتّاح يا رزّاق هَبْ لنا من هذا!؟».

وإلى جانب هذه السذَاجة الفِطْرِية يُثْبِتُ بعضَ ملاحظاته الصائبة، فإنه من أول مَن تحدَّث عن كُرْه الترك للعرب واحتقارهم لهم وإزرائهم عليهم في كل شيء مما أدّى إلى خروج العرب على الترك أخيراً كما هو معلوم. قال: «ومِن مَساوي الترك مع دينهم وإكرامهم للغرباء وأهل البيت والعلماء بُغْضُهم لجنس العرب كلِّهم وإن كانوا غيرَ عرب إنما يتكلمون بالعربية أو البربرية أو الهندية، يستخفُّون بهم ويَحْقِرُونهم ويُهِينُونهم فهم مَجْبُولون على ذلك متخلِّقُون به خاصتُهم وعامتُهم في بلادهم وغيرها، علماؤهم وأمراؤهم وأشرافهم فسبحان مَن ابتلاهم بذلك، ولو بلغ العربي ما بلغ من العلم والشرف والصلاح ما عظُم بين أعينهم، شاهدنا ذلك ببلدهم وغيرها وبحضرة المملكة العظمى، وكثيراً ما كنت أتحدّثُ مع فقهائهم وأمرائهم وأجاريهم في الكلام على لسان الترجمان في كل شيء ويثنون الثناء الجميل ويعترفون

بالفضل لأهله ويذكرون ذلك بلغتهم - وكنت أفهَمُها ولا أتكلم بها لأطَّلع على ما يُخفُونه مني وأكونَ على بصيرة مع كل طائفة كنتُ بينها - فكانوا يقولون: لله دَرُّه من رجل ما ألطفه وما أدركه وما أنسبه لولا أنه عربي»... إلخ.

وكذلك كان مما سجَّلَه على الحكام التُّرك والقضاة الشرعيين وسائر أهل النفوذ منهم أخذ الرُّشا والجَوْر في الحكم وإضاعة الحقوق وأسف على ذلك أشد الأسف. ولما وردت له بضاعة الحرير بعد انتظاره سبعةَ شهور بالجزائر وكان أخذَها قرصان النصارى فوجدها سالمة لم ينقص منها شيء قضَى من ذلك العجب وكتب هذه الملاحظة التي قلّ مَن كان يعترف بها في ذلك الوقت الشديد الجهل والكثير التعصب. قال: «ولما فتحنا صنادقَنا وحوائجنا وجدْنَاها على حالها لم يُفقَد منها قُلاَمَةُ ظُفْر بعد النَّهب والانتقال، فانظر إلى هذا الاحتراز وهذا الصدقَ الذي هو من شأن المسلمين صار للكفار، ولو كان هذا الحادث وقع من عساكر المسلمين وتَبيَّن فيه التخليط وأمَر وُلاتُهم برده ما بلغ على حاله، بل لم يرجع نصفه ولا ربعه ويأخذ منه الحاكم والرئيس والمباشر لرده والحامل له والمتكلم فيه ولا يحصُلُ صاحبُه إلا على التّافِه منه، ولو كان في وقتنا هذا لا يرجع بالكُلِّية وعلى فرض رجوعه يأخذه الذي تسبب في رده. نسأل الله العصمة والسلامة من ظلمات الجور بمنّه وكرمه».

وأسلوب الزياني في الكتابة كما تراه سهل واضح قريب من العاميَّة وإن كان في بعض المرّات يحتفِلُ احتفال

بلغاء الكتّاب فيُقوّمُه ويُسجّعُه وإن كان لا يستطيع أن يُخلّصه من اللحن الخفيف الشبيه بلحن كتاب الجرائد اليوم. وهذه إحدى رسائله الأدبية المنمقة كتبها للكمال الغَزّي بدمشق: أُحَيِّي طلعةَ ذلك الهلال، المرقُوب بسلامةٍ من النقص بعد الكمال، الذي هو للدنيا جمال وللدين كمال، وللمُسْتَمِعين فَال، وللمُعْتَرّين آمال، تحيةَ صَبٍّ معتكف على حبكم لا يَبْرَح، وذي وَجد بمحاسنكم لا يُتَكَيَّف لعدم انتهائه ولا يُشْرَح، ويستنجز منكم ما وعدتم به من ترجمة الشيخ أرسلان، فقد كان في ذلك عليكم الاعتمادُ والتكْلان، والله يتولى هُداكم، ويفسح في بقاء مُدتكم ومَداكم، ولا تبخلوا عنا برؤيتك وأنفسنا تفْدِيك، ولا تَجْعَلَنَّها بَيْضَة الدِّيك، والسلام» ومن رسالةٍ له إلى الشيخ حمدون ابن الحاجّ: «شيخ أهل الأدب، ونُخبة أشراف العرب، سيف الفقهاء، ولسان الخطباء، العالم المحقق، المشارك المدقّق، الورع الزاهد، المتخلّق بأخلاق الأفاضل الأماجد، الذي بِمَضَاءِ عزْمه علماءُ الوقت يقْتَدُون، وبآرائه السديدة يَهْتَدون، مُحِبّنا الأجل السيد حمدون، لا زالت سيوف أقلامك قاطعةً لحجج المُلَبِّسين وسِهَام فِقَرك رَاشِقَةً لأهل البدع المُبْلِسين وسلام الله عليك والرحمة والبركة، حالتَيْ السكون والحركة». . . إلخ.

فالحق إن أفكارَ الزياني ومعانيه مَعينٌ لا ينْضب وكنزٌ لا يَنْفدُ. وفي الشعر بالخصوص: ويا أسفي على الشعر لو توفق لإقامة أعاريضه وسلامة قوَافِيه لأتى بالعجب العُجاب ولكنّه كان ينظِمُ نظْمَ الفقهاء ويعرف ذلك من نفسه ويعترف

به فلا نُواخِذُه بما ليس في طَوْقه ولا نلومه على ما لا يَدَ له فيه، ولا ننسَ قول علمائنا في هذا الصدد:

إنـــمـــا الـــشـــعـــر سَـــجِـــيَّـــة
لا بـــعـــلْـــم الـــخَـــزْرَجِـــيَّـــة[1]

وعلى كل حال فلا بد من رواية بعض الأبيات من نظمه إتماماً للفائدة. قال في سفر البحر:

لو كلُّ مَن رَكِبَ البحر اغْتنَى ونجا
لم يبقَ في البر للإنسان من سَفَر
أو كـــلُّ راكِـــبــه أصـــابَـــه غـــرَقٌ
فلا ترى عنه طول الدهر من خَبر
خاطرْ بنفسك في العَلا لتدركه
وسَلْ من الله حُسْن الظن في القدر
لولا مخاطرة النفوس ما ظَفِرت
بنَيْل ما تبتغي في الدهر من وَطر

وقال يخاطب السلطان مولاي سُلَيْمان بسبب قَطع الفتوى:

يا مالكاً يقضي بسُنّة الأمين
مؤيّداً بعفوِ رب العالمين
نصيحةٌ تُرضي أميرَ المؤمنين
والعلماءَ وجميعَ المسلمين

---

(١) الخزرجية: قصيدة في علم العروض معروفة.

قطْعُ الفتاوى لم يكن بِمُرتضى

ولم يقع في الزمن الذي مَضى

وفي الحديث علماءُ أمتي

كالأنبياء تبليغهم بفَتْوة

واللّهُ أفتى الناس في الكلالة

لمَّا اسْتَفْتوا لِصاحِب الرسالة

فَيا لها من فَتْوةِ الرب الكبير

أفادت الحضّ على الفتوى كثير

كذاك قد صرَّح بالإفتاء

مِن بَعد الاستفتاءِ في النِّساء

إلخ...

وهكذا كان يُسجّلُ الحوادث المهمة في شعره ويَرصُد لها قلَمَه تأييداً وإنكاراً من غير خوف ولا وجل شأنُ أصحاب النفوس الكبار، وذوي الغيرة من أهل الأخطار. فمما قاله في حدود عام ١٢٤٨ مُخاطباً السلطان مولاي عبدالرحمٰن في عزل واليه على فاس القائد الطيب الوَديني، وقد كان الزياني في ذلك الوقت شيخاً هرِماً قد تجاوز المائة:

يا مالكاً لا يرى عزْل الولاة ولو

جاروا ولا يقبلُ الشكوى بوَالِيه

فليس هذا بقانون الملوك ولا

وقعَ في غربنا ولا في شَرْقِيه

اخفِض جناحَك للشَكاة وألقهم
واسمع كلامهم واعمَل بما فيه
لا تعتمد في مظالم على حاجِب
ولا وزير فوَالِي الجَوْر يَرشِيه
قد جاءَ في الذكر لَعْنُ الظالمين غداً
وفي الحديث الذي تَتْلو وتَرْويه
وأنتَ وليتَ هذا العَبْدَ مُفترِساً
سبْعَ سِنين وكلّ الناس تَشكيه
يأكُل أموالهم يهتِكُ أعراضهم
يزنِي جُهاراً ولا يخَافُ بَاريه
فكلُّ أفعاله تُكتَب في صحفٍ
عليك يا بن رسول الله فاذْرِيه
وفي المَعاد تَرى الصُّحفَ مُنشرَةً
إليك بالذي كان يَجْبِي ويَخْبِيه
فما تقولُ وما عذرك يا ملكاً
مع الإله الذي ولأك تَكفيه
فانظر لنفسك أوْ دَعْها على غرَرٍ
فالموتُ يأتي على كل ويُفْنيه
والله ما قلتُ ذا بُغضاً ولا فندًا
إلاَّ نصيحتَكم للّه فاقْصِيه
إن لم تُرِدْ عَزْلَهُ فالله يُهلِكُه
عما قريب وربُّ البيت يحميه

إذ لـيس لـي نـاقـةٌ فـي ذا ولا جـمَـلُ

فسَـلْ تـجِـدْ صِـدْقَ مـا قـلـتُ لـكـم فِـيـه

نعم، يقول هذا الزياني الشُّجاع القَوِيُّ النفس المَخْشِي البادِرَة في سنة ١٢٤٨ وهو في سن المائة والواحد على حافة الموت، فما أعجب أمره وأشدَّ أسْرَه! وبعد ذلك بعام واحد عصرَ يوم الأحد ٤ رجب ١٢٤٩ كانت هذه النفس الكبيرة قد فارقت العالم واستراحت من متاعب الحياة وأمِنَت من مُلاحقة النكبات وذلك عن مائة واثنتين من السنين كما يجب أن يكون لولادته على ما تقدم في عام ١١٤٧ ووَهِمَ صاحبُ السَّلْوة ومَن تَبِعَه فقال: عن ستِّ سنوَات.

وكانت وفاتُه بفاس ومَدْفَنُه فيها بالزاوية النَّاصِريَّة بالصَّحْن المُتَّصِل بالقُبَّة رحمةُ الله عليه.

* * *

أكنسوس
(ت ١٢٩٤ هـ)

قبيلته ونسبه، مولده ونشأته، طلبه للعلم بفاس، تعرُّفه بالوزير ابن إدريس، نبوغه في العلوم والآداب، كتابته ثم وزارته، نكبة السلطان له ثم عفوه عنه، حياته بعد ذلك، وفاته، آثاره، التاريخ، نثره، شعره.

هو أبو عبدالله محمد بن أحمد أكنسوس المراكشي الوزير الكاتب الشاعر والعلاّمة المؤرخ المشهور، عرف باسم قبيلته (أيداوكنسوس) التي هي إحدى قبائل سوس أو قل: إنها عرفت به على حد قول العلاّمة ابن يوسف الحنفي فيه:

همام لكنسوس انتمى شرفاً لها
وكم قاطن لولاه ما شرف المثوى

وبعضهم يقول فيه: الكنسوسي على القياس وهو الصواب. ثم ربما زيد في نسبة الجعفري استناداً إلى ما ذكره هو في تاريخه من أنه وجد آباءه ينتسبون إلى سيدنا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وأنه وإن لم يقف على

تحقيق ذلك فإنه يتشبث به فراراً من الدخول في حديث تبرأ من نسب وإن دقّ كفر.

ولد سنة ١٢١١ بقبيلته، ونشأ فيها على عفاف وصيانة، لأن عائلته كانت ذات حسب ونسب. وكفاك أن الشيخ ابن ناصر كان صاهرهم على ابنته، كما حكى هو في التاريخ، وفي عام ١٢٢٩ توجه إلى فاس بقصد طلب العلم رغم المثل الجاري بين قومه أهل سوس وهو قولهم: «العلم في الراس، ما هو في فاس»، فكنت تراه وهو في عنفوان الشباب، يتنقل بين حلقات الدرس ويعتام مجالس أكابر العلماء كالنحلة في الروض المجود تمتص عصير الأزهار متنقلة من غصن إلى غصن.

وكان من بين الشيوخ الذين أخذ عنهم: العلاّمة محمد بن عامر التادلي، والشيخ حمدون ابن الحاج، وأبو العباس أحمد بن التاودي ابن سودة، وعبدالسلام الأزمي، وابن عمرو الزروالي، وابن منصور الشفشاوني، ولا شك أن تأثره بالأولين كان أشد وأعمق، وذلك أن الأول منهما على اتصاله بالسلطان، إذ كان من أهل شورى سيدي محمد بن عبدالله وشيخ مولاي سليمان، فإنه أيضاً كان متضلعاً من علوم اللغة والبيان والتاريخ مما ظهر أثره في مترجمنا واضحاً جلياً.

وأما الثاني: فمكانه من البلاغة والشعر والأدب مما لا يحتاج أن ينبّه عليه، فلا جرم أنه تخرّج به في ذلك وتدرّب عليه كثيراً.

وفي هذه الأثناء تعرّف بالوزير ابن إدريس وكان شاباً

مثله يمرح في أرجاء القرويين مقتبساً من مشكاة مشايخها الأعلام، وسبب تعارفهما أن شيخهما الأزمي ختم المختصر الفقهي للشيخ خليل فأنشد الطلبة في ذلك قصائد على العادة، ومن جملة ذلك قصيدة لأكنسوس أولها:

ختام الهوى قد فضّ منك بسره
فما لك تطوي الحب من بعد نشره

فكتب إليه ابن إدريس يطلب نسخة منها بقطعة أولها:

ختام الهوى هام الحبيب بحسنها... إلخ.

فتمكن بينهما من حينذاك ود صادق واشتركا في الطلب، وجرت بينهما مساجلات أدبية وانتهبا من الزمان أوقاتاً عزيزة قضياها في المرح والنشاط، والنزهة والانبساط، لم يشعرا بلذتها حتى مرت، وكأن لم تكن، وإذا لسان الحال يقول مع مَن قال:

ذم المنازل بعد منزلة اللوى
والعيش بعد أولئك الأيام

ونبغ أكنسوس في عدة علوم كالنحو واللغة والأدب والتاريخ والحساب والتوقيت، وكان له نظر في بعض العلوم الروحانية كسر الحرف والجدول والتصوف، وهذه هي التي أكسبته تقدير الجمهور واحترام العامة حتى أنه لم يفقد مكانته في نفوس الشعب بعد فقد رتبة الوزارة وكل عز لم يوطد بعلم فإلى ذل يصير:

فقل لملوك الأرض تجهد جهدها

فذا الملك ملك لا يباع ويشترى

وأما في صناعتَيْ النظم والإنشاء فقد فاق وبرع، وكان طبقة عصره غير مزاحم واستحق لذلك أن يدعى أديب الغرب والسوس وبهما وصل إلى رتبة الكتابة فالوزارة في الأعوام الأخيرة للسلطان العادل مولاي سليمان.

وكانت هذه المدة من حياته كلها جد ونشاط إذ أن السلطان كان يواجه مشاكل عديدة من خروج أهل فاس عليه ومبايعتهم مع أهل تطوان لولده مولاي اليزيد، وانحراف جيش الودايا عن طاعته ثم ثورة الشراردة وغير ذلك، وقد طلبه السلطان في هذه المدة من فاس بواسطة ولده مولاي الطيب ولا شك أنه كان يعرفه من قبل ويعرف كفاءته ومواهبه، ومولاي الطيب كان بفاس الجديد وأكنسوس بفاس البالي، فوجّه إليه كتاب السلطان مع مَن تسوّر السور ليلاً واحتال هو في الخروج وركب الصعب والذلول إلى أن وصل عند السلطان فوجده بالقرب من القصر الكبير قاصداً تطوان لإخضاعها، وبعد أن سأله عن فاس وأحوالها وجهه في بعض المهام إليها وحمّله بعض رسائل إلى ولده وغيره ثم رجع إليه فوجده في الطريق إلى فاس.

ولما لم ينل السلطان منها شيئاً رجع إلى طنجة للنظر في أمر تطوان وأرسل أكنسوس في مهمة أخرى إلى ابن أخيه مولاي عبدالرحمٰن بن هشام الذي كان حالاً بالرباط في قبائل الحوز فقدم سلا ولقي مولاي عبدالرحمٰن وسار هو

وإياه وتلك الجموع إلى لقاء السلطان بالقصر فوجدوه لا زال بطنجة فتقدم إليه أكنسوس وأعلمه بقدوم ابن أخيه فنهض إليه السلطان وتلاقيا بالعرائش ومن ثم سار السلطان إلى فاس واستصلح حالها وانقلب إلى مراكش.

وفي خروجه منها لمعالجة أمر الشراردة وجه أكنسوس إلى السوس في شأن ابن أخيه مولاي بناصر وكان عاملاً عليها فكثرت عليه الشكايات إلى السلطان، ولكنه قبل أن يباشر النظر في القضية وقعت الهزيمة على السلطان ورجع هو من تارودانت ثم توفي السلطان ١٢٣٨ فانتهى أمر المترجم وترك عمله في الدولة كوزير إذ أن السلطان الجديد مولاي عبدالرحمٰن بسعي من الوشاة والحسّاد غض النظر عن أكنسوس واستوزر مكانه رفيق صباه وقرينه في الطلب محمد بن إدريس ثم نكبه بالسجن لما نقل إليه أنه يفتل في حبل بعض أولاد ولي نعمته السلطان المرحوم مولاي سليمان ورأى السلطان بعينه كثرة تردده على ولد السلطان المذكور وملازمته له فصحّ عنده ما نقل إليه.

قال في فواصل الجمان: «وأخبرني مَن له مزيد الاطلاع على حقيقة أمره أن السلطان كان يعتقد ما نقل فيه زوراً وتدليساً ويكاد يلعن قائله كما يلعن إبليساً، حتى رآه لبعض أولئك الشرفاء جليساً بفناء دارهم بزقاق الحجر، فعلم أن الساعي به ما كذب وما فجر، وكان هؤلاء الأشراف في بقية من ثروة، وتمسك من الطمع في ميل الرعية بعروة، ودالة ومن بعهد جادبه أبوهم عن تخيُّر وجهد، لمن رآه بأعبائه مضطلعاً، وعلى أسراره مطلعاً، اقتداءً بالصديق

وسليمان بن عبدالملك بن مروان، في استخلاف العمرين عليهم الرحمة والرضوان، واجتمع للسلطان بهذا الاتفاق من التأثر والإشفاق، ما لم يجتمع، وليس مَن رأى كمن سمع، ولا ذنب أعظم عند الملوك من التعرض لأعراضهم، والخروج عن أغراضهم، والإقبال على مَن بلي بإعراضهم...».

وقد أشخص إلى مراكش وبقي مغضوباً عليه من طرف السلطان مدة كان عائذاً فيها بريح الولي الصالح مولاي عبدالله الغزواني، ففي بعض زيارات السلطان للولي المذكور رآه هناك وتطارح هو عليه مستعطفاً له مسترحماً، فرقّ له وسامحه وبقي بمراكش يحيا حياة النسك والعبادة سالكاً سبل الحكماء والزهّاد في التقلُّل والامتناع من أكل الحيوان مع طهارة الاعتقاد، معظماً من العموم والخصوص، ملحوظاً بعين العناية من الرؤساء والملوك مدّاحاً لهم آخذاً لجوائزهم فعاش مدة السلطان مولاي عبدالرحمٰن وابنه سيدي محمد وأدرك صدراً من ولاية السلطان المقدّس مولاي الحسن.

وقد أنجب ولده عبدالله وكان من صدور الشعراء والكتّاب في زمن مولاي الحسن، وتوفي المترجم في يوم الثلاثاء ٢٩ محرم عام ١٢٩٤ عن ٨٣ سنة ودفن قرب ضريح الإمام أبي القاسم السهيلي خارج باب الرب من مراكش وحضره الجم الغفير من الناس.

وقد خلف رحمه الله آثاراً شعرية ونثرية كثيرة، فأما النثرية فأهمها تاريخه الذي أسماه (الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي) ويعني بها الدولة

العلوية الشريفة أمره بوضعه السلطان سيدي محمد بن عبدالرحمٰن لما رأى أن الكتّاب والمؤرخين لم يؤدوا حق هذه الدولة على وجهه، ولم يشكروا نعمتها كما يجب فوضعه وهو في سن السبعين قائلاً: «ولو قدر الله سبحانه كون هذا التأليف المبارك عند مقاربة الأربعين لا بعد مجاوزة السبعين لكان فيه شأن يذكر ومجد يحمد ويشكر، ولكن لا محل للعتاب ولكل أجل كتاب».

وقد رتّبه ترتيباً غريباً ونسّقه نسقاً عجباً فجعله على نظام الخميس وهو الجيش المركب من خمسة أقسام: مقدمة وساقة وجناحان وقلب، ولهذا سمّاه بذلك الاسم الذي ربما كان متأثراً فيه بالديار بكري صاحب كتاب الخميس المعروف في التاريخ فالمقدمة في الأوليات وحقيقة الإمامة العظمى وفضلها وحكمها شرعاً والفرق بينها وبين الخلافة وبين الملك، والجناح الأيمن في دول المشرق يشتمل على ذكر النبيّ ﷺ والخلفاء الراشدين وبني أمية والعباسيين والفاطميين والأتراك العثمانيين، والجناح الأيسر في دول المغرب الأدارسة والأمويين بالأندلس والمرابطين والموحدين والحفصيين بإفريقية والمرينيين والسعديين، ولكن بتلميح وإشارة فقط كالسابق، والقلب في الدولة العلوية التي هي المقصودة بالذات، والساقة في سياسة الملك وتدبيره وأعوان الملك من وزراء وكتّاب وغيرهم وما يتعلق بذلك، وقد ضمّنها تراجم بعض وزراء السلطان ورجال القصر في عصره.

ثم إن هذه الأقسام ما عدا المقدمة والساقة تشتمل

على ألوية كبار، وتحت كل لواء رايات صغار، فيقصد باللواء الدولة وبالراية الملك، وكل منها ملوّن بلون يلائم حالة من نسب إليه ودلّ به عليه.

فالبياض يوصف به الخالص الكامل في أحواله الصالحة في الدين والدنيا، والسواد يوصف به الثابت في سيادته وعزته، والحمرة يوصف بها القوي الشهير مع خوف الافتتان بها، والصفرة يوصف بها الفرح النصيب (كذا) مع اللهو المفرط، والخضرة يوصف بها المعتدل الذي غلب عليه الخير والصلاح، والزرقة عكس الأخضر والامتزاج بحسب مزاجه، والغبرة يوصف بها مجهول الحال.

وقد رأيت من هذا كيف أن مترجمنا جمع في تاريخه بين مسائل السياسة والتاريخ والفقه وذكر دول المشرق وإفريقية والأندلس ودول المغرب السابقة إلى جنب الدولة العتيدة التي ألّف كتابه فيها فأتى في ذلك بعمل فريد، ودلّ على تمكنه ورسوخه وحسن تصرفه ولباقته حيث شحن جميع هذه المباحث وضمن كل هذه المقاصد في كتاب صغير الحجم، لا يحتوي بجزأيه الاثنين على أكثر من ٤٢٠ صفحة هذا مع التوسع الكثير في أخبار الدولة الشريفة وذكر ملوكها إلى عهده ملكاً ملكاً وما وقع في أيامه من حوادث وما خلفه من آثار، وإثبات نبذة صالحة من أشعاره وأشعار غيره في التهاني والمدائح بحسب الظروف والمناسبات وما إلى ذلك.

فمن هنا تعرف قيمة هذا الكتاب وصاحبه ولا سيما إذا علمت أنه لم يكن من أولئك المؤرخين المقتصرين على

سرد الوقائع وحكاية الأخبار بدون إبداء رأي ولا إلقاء نظر عليها بل إنه لا يخلي كتابه في الفينة بعد الفينة من انتقاد بعض القضايا التي تستحق الانتقاد وارتياء بعض الآراء السديدة فيما يعرض من الأمور وحسبك بالعناوين الرمزية التي يعنون بها فصوله من تلك الألوية والرايات المختلفة الألوان دليلاً على حرية فكره وصحة نظره كقوله مثلاً في فصل المولى اليزيد:

(الراية الزرقاء الكسيفة المنظر الكريهة المخبر راية مولانا اليزيد بن مولانا محمد بن عبدالله بن إسماعيل) وقد كان كافيه أن يقول: الراية الزرقاء فقط على حسب ما أشار إليه في المقدمة وألمعنا إليه آنفاً، ولكنه أكد ذلك بما بعده ليفهم عنه ما يقصد إليه من الرمز.

وإذا قلنا: إنه يصيب في الانتقاد فلا نقصد به ذلك الانتقاد المغرض الذي وجهه بدون حق إلى زميله وقرينه وسابقه في الاختصاص بخدمة الدولة وكتابة تاريخها، والذي لا شك أنه استمد منه وترسّم خطاه في تاريخه كثيراً الوزير أبي القاسم الزياني، فينبغي أن يغض الطرف عن عثرات لسانه بحق هذا الفاضل فإنما هي حزازات شخصية وأغراض دنيوية أوجبتها المعاصرة التي يقال: إنها حرمان والمنافسة في الرياسة والسلطان، والله تعالى يتجاوز عن الجميع.

ونثره في التاريخ كما في بعض رسائله الأخرى قوي متين السبك ينم عن ثروة لغوية طائلة ومحفوظ عظيم من أمثال العرب وأشعارهم وكلام بلغائهم، ولا يلزم فيه السجع

وإن كان هو خرج زمانه، بل تارةً وتارةً مما ينبئ عن أنه كان يكتب بسهولة وطواعية لا متكلفاً ولا متصنعاً.

وهذا أنموذج منه: قال في افتتاح بعض رسائله الانتقادية: «اللّهمّ إنا نبرأ إليك من الحول والقوة اللّهمّ إنا نعوذ بك وبآياتك المتلوة والمجلوة من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا واتباع أهوائنا، اللّهمّ إنك تعلم عجزنا وفقرنا وذلتنا وضعفنا، اللهم إنا لا ندعي أن يكون شيء من العزة والقوة أو الكمال وصفنا إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علماً، على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق، وأنت خير الفاتحين، اللهم إنا نستوهبك سكينة تنعش القلوب والأرواح، وطمأنينة يتجلى بها علينا في ظلمات هذا الزمان ضوء الصباح، وإنا نحمدك اللّهمّ حمداً كثيراً كما أنت أهله، ونصلي ونسلّم على بذرة الوجود وقبلة السجود سيدنا ومولانا محمد الذي عمّ جميع المكونات نواله وفضله، وعلى آله وأصحابه الهداة المهتدين ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين».

ونص رسالة له أجاب بها الحاجب موسى بن أحمد وقد وجه إليه كتاباً في المعادن ليرى فيه رأيه: (الأخ الفاضل الناسك المرابط الفقيه الذي يحفظه الله ويقيه، وزير الحضرة العالية وصاحبها وقهرمانها الأكبر وكاتبها، أبو عمران سيدي موسى بن أحمد سلام عليك ورحمة الله وبركاته بوجود مولانا نصره الله.

«وبعد فقد بلغنا كتابك الأعز المتضمن لأمر مولانا المنصور بالله بتصفُّح الكتاب الموضوع في شأن المعادن وما

يناسبها. وقد تصفّحت الكتاب المذكور من أوله لآخره، فلا شك أنه من الذخائر والنفائس الملوكية، التي ينبغي أن لا تخلو منها الخزائن السلطانية التي تعدها عظماء السلاطين، لا سيما العلماء منهم والأساطين، لأنها لا بد أن يوجد فيها ما ينتفع به في الجملة، ولكن كنت أظن أنه قد بيّن فيه ما يتوقف عليه الأمر من بيان كيفية استخلاص المعادن من مقارها، والذي لا بد منه في ذلك من الآلات والعقاقير والتناكير، التي تسيل القاسي منها، وما يخرج متعاصياً عن السبك والذوبان، فإنها كثيراً ما تخرج كذلك فيظن أنها مجرد تراب فيزهد فيها كما ذكر ذلك مَن جرّب، مع أنها إنما تحتاج إلى تنكار أو عقار مخصوص، فتجيب إلى ما يراد منها إلى الانسباك والانتفاع بها في الأعمال الضروريات على السبيل الأسهل، دون مشقة كثيرة، ولا كبير عمل.

«هذا هو المطلوب الأهم، وأما كون الحديد أو النحاس مثلاً تكون منه سبائك وشبابيك وأواني كذا، وثمنه كذا، ويوجد في البلاد الفلانية كثيراً، والخارج المستفاد المحصل منه في كل عام كذا ونحو ذلك من هذه الأخبار، فلا فائدة فيه ولا كبير جدوى وهذا هو القدر الذي عليه مدار هذا الكتاب، على أنه لو ذكر ما هو الأهم الذي أشرنا إليه، فإنه لا بد من حضور شخص عارف قد باشر تلك الأمور بيده، فتؤخذ منه الكيفية كفاحاً عياناً، وأما العلم المجرد عن العمل فإنه لا يفيد قلامة ظفر، كما قال الإمام ابن رشد رحمه الله:

العلم في الراس وفي العينين
لكن تبقى صنعة اليدين

«وأما ما ذكره هذا المؤلف في هذا الموضع من إصلاح المزارع والمغارس، فالظاهر أن ذلك خاص بالبلاد الشديدة البرد، الكثيرة الثلوج، كالجزر المتوغلة في الشمال، بدليل أن المعتمد عنده في ذلك هو التغبير بالجير والجبص والأملاح المستخرجة من أبوال الآدميين وغيرهم، ونحن إذا غبرنا موضع الحرث بالجير لا ينبت شيئاً بالمشاهدة، والله أعلم».

«والله يديم لنا عز مولانا نصره الله ويبارك في عمره ويحفظ به نظام هذا الدين آمين والسلام».

وهذا كتاب بقدر ما يدل على براعة أكنسوس في الإنشاء يدل على سعة اطلاعه وتفتُّح ذهنه، فإن نقده العملي لكتاب المعادن المذكور، يجعلك تعتقد أنه رجل من أهل العصر الحاضر الذي تقدمت فيه العلوم والمعارف، وألغت التجارب والاختبارات كل الأنظار والأقوال المبنية على غير أساس، فلو أنك قدّمت هذا الكتاب لمجلة علمية عصرية كالمقتطف مثلاً، لما كتبت عنه أحسن مما كتبه أكنسوس.

وأما شعره فقد أودع تاريخه منه الكثير الطيب، وهو إما مديح أو تهنئة أو رثاء، ولا نعلم له غير ذلك إلا بعض الأشعار الصوفية التي أشاد فيها بفضائل التيجانية ولكنها ليس فيها شيء يخرجها عن اعتبار كونها من قبيل المديح أيضاً.

وحكى الأديب غريط في فواصله، أن المترجم كان

كثيراً ما يجتمع هو والعلامة أبو العباس أحمد بناني كلاً في الزاوية التجانية بفاس، فتلقى عليه اقتراحات متمنعة فيقيد القافية والمعنى ثم ينجز للطالب ما تمنى بديهة، وإن الوزير ابن إدريس كان يجمع بينه وبين الوزير أبي عبدالله غريط في كل يوم خميس ويحتفل لهما احتفالاً جميلاً، ويوسعهما مبرّة وتبجيلاً في روضة الزهراء بمراكشة الحمراء، فينفض مجلسهم عن نظام، أنضر من زهر الأكمام، وأطيب من مسك الختام.

وذكر هو في تاريخه أن الوزير ابن إدريس، كان يستنيبه في نظم القصائد المولوية وغيرها مما هو من وظيف الوزير المذكور، فينوب عنه في ذلك، وقد أورد نص رسالة الوزير إليه في ذلك الغرض، كما أثبت بعض القصائد التي قالها بهذا الرسم، وكل هذا يدل على إكثاره، وتفنُّنه واقتداره، ولكن لم نسمع أن له ديواناً مجموعاً، ولم نرَ مَن ألمع إلى شيء من أشعاره في غير ما قدّمنا، فلنقدم للقارئ بعض القصائد على سبيل المثال.

فمن قصائده المولدية، التي هنّأ بها السلطان مولاي عبدالرحمٰن بن هشام هذه اللامية التي أبان فيها عن قوة عارضته، وعلو نفسه وحسن تصرفه في الأغراض الشعرية، وتخلُّصه في القصيدة الواحدة من غرض إلى غرض بدون أن يشعر السامع بانقطاع الصلة ما بين الغرضين، ويلاحظ ما يبدو على تغزلها من نزعة صوفية لطيفة حقاً:

عهدي بكم جيرة البطحاء موصول

يا ناسي العهد إن العهد مسؤول

أشيم برقاً سرى من نحو ربعكم

وفضل ذيلي بوبل الدمع مبلول

فيلهب الشوق أحشاء مروعة

مني وللشوق ترويع وتهويل

يا ليت شعري والأيام شيمتها

تمنع وضمير الغيب مجهول

هل من وفاء بوعد من أحبتنا

والوعد عند حسان الدل ممطول

وهل ترى مقلتي داراً عهدت بها

بيضاً يلاحظها سمر بها ليل

سقيت حبهم قدماً على ظما

فحبهم في ضمير الروح مجبول

يا حبذا في هواهم ما غدوت به

كأنني طافح بالراح معلول

لا أجتلي أحداً إلا تمثّل لي

في وجهه من أحبتي تماثيلُ

وذاك إن قد سرى في الكون سرهم

وليس إن الهوى زور وتخييل

فوالذي سجدت في شطر كعبته

أهل الخشوع لهم ذكر وتهليل

لقد سرى سريان الروح في جسدي

غرامهم فأنا من ذاك متبول

يا لائمي إن فرط الحب معذرتي
وفي الصبابة لي عرق وتأصيل
فكيف أصغي إلى اللاحين إن عذلوا
فعاذلي المبتلى بالحب معذول
نعم فلي كبد تهتاج لوعتها
إذا دنا من ربيع النور تجليل
شهر تشرف بالإسلام حق له
بين المواسم تعظيم وتبجيل
شهر تعاظم مجداً أن يماثله
عيد ولا زمن بالفضل مشمول
شهر غدا غرة في كل مكرمة
وأين من غرة في الفخر تحجيل
فيه تكون كون الفضل وانفتحت
أبوابه وأتانا العز والسول
فيه تفجر كل الخير منبجساً
على الخلائق طراً فهو مبذول
فيه البشائر قد لاحت أشعتها
فيه تعين للخيرات تسهيل
وزخرفت لعباد الله جنته
واستبشر الملأ الأعلى وجبريل
في ليلة المولد الأسمى وسحرته
يا أمة سعدت بالمصطفى قولوا

قولوا وتيهوا على الأكوان وافتخروا

فقولكم لمكان الصدق مقبول

أهلاً بمولد خير المرسلين ومَن

له على الكل تسييد وتمويل

بمولد الصفوة الأعلى الرسول إلى

كل الوجود وما للحق تبديل

سر العوالم والأرواح عنصرها

من ذكره في قديم الذكر منقول

ألواح موسى بن عمران مبشرة

ببعثه ويقرب البعث إنجيل

يا مَن بدا روحه للخلق مبتدئاً

وجسمه لمناط الوحي تكميل

يا دوحة الحق يا مجلي المحامد يا

من نطقه كله وحي وتنزيل

لك اللواء لواء الحمد يشملنا

من ظله عند هول العرش تظليل

لك الشفاعة والحوض المعد لنا

لك الجنان جنان الخلد تنفيل

لك المقام الذي قد عزّ مدركه

برؤية ما لها في الصدق تأويل

إن لم يطق حملها موسى الكليم فقد

عاينت ربك والتقديس مسدول

لـك الـوسـيـلـة والـجـاه الـعـظـيـم إذا
ما أنت فوق نطاق العرش محمول
يا من يخلص من أضحى لمدحته
عـلـى جـنـاب كـريـم مـنـه تـطـفـيـل
هــذي مــدائــح راج أن يــكــون لــه
مــن الــرســول بــإذن الله تــنــويــل
صلّى عليك مفيض الجود منك على
كـل الـخـلائـق والـتـعـمـيـم تـسـجـيـل
والآل والصحب ما زمت على مرح
إلـى زيـارتـك الـعـيـس الـمـراسـيـل
يا حاشر الخلق يا ماحي الظلام
من مدحه لرضى الرحمٰن توسيل
يا واضع الأصر عنا في شريعته
فـضـلاً ومـن قـبـلـنـا بـالأصـر مـغـلـول
تـركـتـنـا وسـبـيـل الـحـق واضـحـة
أعـلامـهـا ومـحـيـا الـديـن مـغـسـول
بـآل بـيـتـك والـذكـر الـحـكـيـم لـنـا
كـل اعـتـصـام إذا مـا اغـتـالـت الـغـول
هـٰذا حـفـيـدك سـلـطـان الـمـلـوك أبـو
زيـد إمـام بـنـصـر الـديـن مـشـغـول
سبط الخلائق باني العز في شرف
عـال عـلـى مـجـده لـلـنـاس تـعـويـل

قـرم تـداركـت الـعـلـيـا سـعـادتـه

لـمـا غـدا وإلـيـه الأمـر مـوكـول

ما زال مـجـتـهـداً في الله مـنـتـصـراً

بـالله والـسـيـف في يـمـنـاه مـسـلـول

حتى استنارت نجوم للهدى فلها

والـحـمـد لله تـقـويـم وتـعـديـل

فـهـو الـمـؤمـل لـلـسـمـحـا يـجـددهـا

من بعد ما عزّ للتجديد تأهيل

وهو الذي سنّة المختار قد حبيت

بـه وقـد سـامـهـا وهـن وتـعـطـيـل

وهـو الـمـؤيـد بـالإسـعـاد هـمـتـه

لـبـنـيـة الـعـز تـشـيـيـد وتـطـويـل

فـفـضـلـه روضـة غـنـاء دانـيـة

قـطـفـوهـا وجـنـى كـفَّـيْـه مـعـسـول

وبـأسـه فـي ديـار الـكـفـر صـاعـقـة

فـيـهـا لـحـزب ذوي الأهـواء تـنـكـيـل

يا خزي من حاد عن منهاج طاعته

ويـلـمـه أنـه والله مـشـكـول

إن سار يوماً إلى الهيجاء تتبعه

أجـنـاد جـرد أبـابـيـل أبـابـيـل

مـن كـل أروع فـي إقـدامـه بـطـر

وسـيـفـه مـن قـراع الـهـام مـفـلـول

يجرها كعديد الطيس عابسة
وما له غير وجه الله مأمول
يعني بها النصر لا ينفك يلزمه
كأنه علة والنصر معلول
وعزمه نافذ لا شيء يحجبه
فكل ما يبتغي في الحين مفعول
وتلك سنة ربي في عزائمه
وما لسنة رب الناس تحويل
وللسعادة أسباب مقدرة
في سابق العلم لا كسب وتحصيل
من أسرة زين الأقطار ملكهم
كان ملكهم تاج وإكليل
بنو علي أدام الله عزهم
فهم لمغربنا عز وتأصيل
يا أيها الملك الأتقى المحيط به
من الجلالة إجمال وتفصيل
بقيت للمولد المشهور تشهده
وعزه بجلال منك مكفول

ومما قاله على لسان السلطان وتوجه مع ولديه إلى سيد الوجود محمد ﷺ:

اركبا سرى إذ شام برقاً يمانيا
ليهنكم إنا بلغنا الأمانيا

تألق في ظلمائه فكأنه
مباسم تحكي في سناها اللآليا
زجرنا به الآمال فابتسمت لنا
وضاءت كما أضحى يضيء الدياجيا
وروع أحشاء تحن لمعهد
تقضت به عهد الشباب تقاضيا
وما زال هذا البين يوقد لوعة
أبت في فؤاد الصب إلا تماديا
فؤاد دعاه الحب من بعد كبوة
وما للهوى بعد المشيب وماليا
ولكن أدواء الهوى إن تمكنت
لواعجها لم تلفِ منهن شافيا
إلا حي مغني للحبيب وإن نأى
وما ذا على صب يحيي المغانيا
ونحن وقد حقّ الكتاب معاشر
رضينا الهوى فليقضِ ما كان قاضيا
رعى الله أهل الحب من كل حادث
ولا راعهم عذل لمن كان لاحيا
نرد على الأعقاب صوب مدامع
حذار رقيب ليس يبرح واشيا
ولولا عيون الكاشحين لا خلفت
مدامع نجريها الغمام الغواديا

وهيهات إطفاء الهوى بجوانح
تذوب إذا ما الركب أصبح غاديا
يهيج الصبا إن هبّ من أرض حاجر
كوامن أشواق تزيل الرواسيا
عذير غرير في الهوى لعبت به
صبابات ذكراه الربوع القواصيا
إذا غردت في الأيك وهنا حمامة
تذكر نجداً والنقا والمغانيا
وبيتاً عتيقاً في أباطح مكة
رفيعاً من الديباج ما زال حاليا
إذا ما دنا منها الركاب تجردوا
وطافوا بها شعثاً ظمأ بواكيا
وأيقن كل أنه ببلوغه
لذاك الحمى نال المنى والأمانيا
وأضحى أميناً من عذاب إلٰهه
ومن بعد سخط يستبيح المراضيا
هنيئاً لقوم ناظرين جمالها
عكوفاً عليها يحمدون المساعيا
قضوا تفثاً بعد الإفاضة وانثنوا
لطيبة يزجون القلاص النواجيا
وراحوا على إثر الوداع وحصبوا
على مرح يطوون تلك الفيافيا

وما فصلوا حتى تراءت بعيدة
من الغور أنوار تنير المحانيا
وهبّت رياح عاطرات بليلة
كما فاح روض بالأزاهر حاليا
فجدت على الأين الركاب وهيمنت
ركائبهم كيما تنال التدانيا
ولما دنت أرض الحبيب ترجّلوا
وأظهرت الأشواق ما كان خافيا
وعفر كل في التراب وجوههم
تراب به خير الورى كان ماشيا
وخرّت ملوك الأرض فيه جلالة
لمن كان فيه، يسحبون النواصيا
ألا يا بقاعاً في البقيع ووادياً
به خيرة الرحمٰن حييت واديا
فوالله لا أنسى زماناً قطعته
بمغناك حيث السعد كان مواتيا
ويا وافداً قد أنزلته عناية
هناك فأضحى بالكرامة راضيا
لك الله ما أهنا وأكرم موطناً
ثويت به حيّاك ربي ثاويا
فعنى لخير الرسل أدّ رسالة
وإياك تنسى أو ترى متناسيا

فقل بعد إهداء السلام تحية
تعم ضجيعَيْه الكرام المواليا
إليك رسول الله من أرض مغرب
عن المذنب الجاني أتيتك شاكيا
عن ابن هشام الأسير لنفسه
وأهوائه يبغي لديك التفاديا
عن ابن هشام الذي قد تقاعدت
به عنك أشغال أصارته عانيا
عن ابن هشام الذي ليس يرتجي
سواك فحقق فيك ما كان راجيا
يحاول إصلاحاً لأمتك التي
رجوناك تنفي عن حماها الأعاديا
رجوناك تكفينا المخاوف كلها
فما زلت في كل المخاوف كافيا
رجونا لديك النصر في كل حالةً
على مَن غدا بالغي في الناس باغيا
رجوناك ترعانا من الفتن التي
غدا أهلها فيها الأسود الضواريا
فليس لهذا السرح غيرك كالئا
فكن يا رسول الله للسرح كاليا
وليس لنا إلا بملة أحمد
دعاء إذا ما الغير أصبح داعيا

وحاشاك مَن ينمى إليك تمله
وتسلمه إن أصبح الهول داجيا
وحاشا ندى كفَّيك وهو مفجر
على سائر الأكوان يترك صاديا
ألا يا رسول الله إني خائف
وأنت مجير الخائفين الدواهيا
ولي رحم موصولة بك أبتغي
لها صلة تولي لديك التراضيا
ومثلك للأرحام يرعى ذمامها
ولا شك ترعى لي كذاك ذماميا
فرحماك للرحم القريب وعطفة
فأولى بعطف منك مَن كان دانيا
وعوناً لنا من صولة الدهر أننا
بغيرك لا نرجو من الدهر واقيا
فقد أحكمت فينا المقادير حكمها
سياسة أقوام تحاكي الأفاعيا
وقد ألزمتنا أن نعاشر معشراً
يسرُّون شيئاً غير ما كان باديا
على قلة الإنصاف والخير فيهم
وكثرة أقوال تطيل التناجيا
سوابق للأطماع ينتهبونها
كواسل عند الروع تخشى التلاقيا

عزائمهم في نيل ملء بطونهم
فندعوهم ربي بطاناً بواطيا
ولا عون إلا من عنايتك التي
بها نتقي هاذي الذياب العواديا
ولا ملجأ إلا إلى عزك الذي
نلوذ به حصناً من الضيم عاليا
بجاهك يا قطب العوالم كلها
ويا منبع الإمداد نرجو الأمانيا
فوجه من النصر الإلٰهي عاجلا
لنا مدداً ما دام عزك باقيا
وصلّى عليك الله في كل لمحة
بكل صلاة لا تروم التناهيا

وقال مهنئاً السلطان سيدي محمد بن عبدالرحمٰن بالمولد النبوي عام ١٢٧٩ :

حنانيك إن الشوق قد بلغ المدى
أما ترحم المضني الكئيب المسهدا
ورحماك إن المستهام من النوى
له حالة سوأى ترق له العدا
فلا تسأل الولهان عما أصابه
وسل حاله إن شئت ذاك فتشهدا
هو الصب لا تزداد لوعة حبه
إذا حاول الإطفاء إلا توقدا

فما تركت فيه الصبابة والهوى
على حمل أعباء الغرام تجلّدا
وكم عاث في أهل الغرام هيامهم
وحرق أحشاء ومزّق أكبدا
وكم سلب الحب الرجال عقولهم
وحب الفتى يعميه عن سبل الهدى
فلا تعجبوا من عبرة قد سفحتها
على زمن قد كان بالجزع مسعدا
فيا حسن ذاك العهد يا طيب ذكره
سقاه الغمام الجود غيثاً مرددا
ولله عيش بالحمى سمحت به
ليال ملاح ما ألذ وأرغدا
ليالٍ تولى السعد حين طلوعها
فكانت كما يهواه يمناً وأسعدا
إذا ذكرت نفسي هنالك جيرة
أتاح لها وجداً مقيماً ومقعدا
وكم غرّد القمري في خوط أيكة
فجاوبت ذيّاك الحمام المغردا
وقلت كفاك الله ما أنت حاذر
وبوئت في الأدواح وكراً ممهدا
فإنك قد أذكرتني زمناً مضى
به ضرب الأفراح للهو موعدا

يدير بظل السرح كأس مسرة
إذا بلي الإيناس فيه تجددا
على أن ما قد فات ليس بعائد
ولا يدني بالوهم ما كان أبعدا
فأما وقد زمّ الركاب ويمّموا
زيارة خير الأنس والجن أحمدا
فقد شاقني من نحو طيبة بارق
ينسي مشوق الروح ما قد تعوّدا
وأزعجني حادي المطي وقد شذا
وردد خلف العيس هيمنة الحدا
رويدك يا حادي المطايا فإنني
أنادي رسول الله أسمعه الندا
ألا يا رسول الله دعوة قاطن
تخلف خلف الظاعنين وأفردا
ولا عذر إلا الضعف منه فإنه
تقمص فضفاضاً من العجز وارتدى
وأوثقه جور الزمان وأهله
فيشكوك من دهر عليه قد اعتدى
ومن نفسه يا حجة الله يشتكي
فتلك التي ألقته في هوة الردى
بجاهك يدعو الله مالك أمره
يخلصه مما به قد تقيدا

فليس له يا ابن العواتك ملجأ
سواك ولا يرجو بغيرك مقصدا
فإنك قد حزتَ المحامد كلها
وأنت لمرتاد الندى لجة الندى
عليك لواء الحمد ينشر آدم
فمن دونه في ظل منشوره غدا
إذا جمع الله الخلائق كلهم
دعيت لمن في ذلك الجمع سيدا
وكنت شفيعاً فيهم ولبست من
حلى الحمد ما يزداد عزاً وسؤددا
سموت إلى أعلا الطباق وجزتها
وخلفت جبريل الأمين المؤيدا
وذلك في وهن قليل من الدجى
وجئت بأنوار الهدى لمن اهتدى
وأطلعت شمس الحق من أفق العلا
وفتحت باباً للسعادة موصدا
وأنذرتنا من نار كل شقاوة
وبشرت من أضحى حنيفاً موحدا
وغيضت بحراً للضلالة قد طغى
على أهله حتى استجاش وأزبدا
وغادرت عين الشرك تبكي دماءها
على من بغى من أهلها وتمردا

وبـددت فـي بـدر رؤوس كـمـاتـهـم
فـصـارت لـقـى عـنـد الـقـلـيـب مـقـددا
وأحزنت في الأحزاب صخر بن حربهم
وأرجعته بالخزي خزياً مخلدا[1]
وحـكـمـت فـيـهـم كـل أسـمـر ذابـل
وكـل حـسـام كـالـشـواظ مـهـنـدا
يصول بها من هاجروا ثم جاهدوا
ومن نصروا الدين القويم المسددا
هم الملأ العالون في حضرة الرضى
وهـم أسـسـوا هـذا الـبـنـاء الـمـشـيـدا
وهـم بـذلـوا فـي طـاعـة الله أنـفـسـاً
مـطـهـرة تـبـغـي الـثـواب الـمـؤيـدا
ومـا زلـت يـا روح الـعـوالـم فـيـهـم
إلى أن محوت الشرك محواً مسرمدا
وجـاءك نـصـر الله والـفـتـح وارتـضـى
لـك الله في أعـلى الـفراديس مقعدا
وصرت من الرضوان حياً لتبتنى
لـنـا فـي جـوار الـحـق عـزاً مـمـهـدا
وخـلـفـت فـيـنـا الآل والـذكـر حـاكـمـاً
فـآلـك والـذكـر الـحـكـيـم لـنـا هـدى

---

(١) في هذا درك عليه فإن أبا سفيان قد أسلم بعد ذلك وحسن بلاؤه في الإسلام حتى أصيب بعينه في غزوة الطائف.

هما الثقلان بارك الله فيهما
وخصّ أمير المؤمنين محمدا
خليفتك المأمون نجل خلائف
أجل ملوك الأرض فخراً ومحتدا
من الذروة العلياء من آل هاشم
وآل هشام ما أجل وأمجدا
هو الملك الحامي الذمار ومَن له
روينا حديثاً في الأصالة مسندا
كسا دولة الأشراف عزاً وسؤددا
وأصلح ما أوهى الزمان وجدّدا
وجالد عباد الصليب فأذعنوا
لعزته تحت الضراعة أعبدا
وعدّد أمثال الأسود عساكراً
تخر لها الأُسد الضراغم سجَّدا
وتهتز منها الأرض عند ركوبها
وترجف أطواد الجبال تميدا
وتحسب أن الجو نار تأججت
يضج لها باغي الفساد مشرّدا
وتخفق ريح النصر بين بنودها
على غرة المنصور أكرم من غدا
على الملك الجحجاح أبهى متوج
تبختر واقتاد الخميس المجنّدا

وأعلى ملوك العالمين مفاخرا
وأطهرهم قلباً وأطولهم يدا
وأكثرهم رجحان عقل وحكمة
وأعذبهم في مشرع العلم موردا
وأوضحهم بنيان مجد ومفخر
وأوثقهم بنيان عز ومصعدا
قضى الله تعنو الناس طرًا لأمره
وتنقاد إجلالاً له وتوددا
فما زال يوليهم عواطف بره
ويصفح عن ذنب المسيء إذا بدا
وبالعدل والإحسان ما زال آمرا
إيالته الغرّاء أمراً مؤكدا
به حييت أرض المغارب وازدهت
وأضحت لهم أهل المشارق حسّدا
هنيئاً لنا قد أسعد الله أرضنا
بملك همام في العلا قد توحّدا
بأبهر من بدر التمام جلالة
وأسمح من بيض الغمام وأجودا
يقيم لنا في كل عام مواسما
مباركة فطراً وأضحى ومولدا
يفيض علينا من سحائب جوده
مواهب لا تنفك نفسي له الفدا

ونهدي له حر المدائح جوهرا
فيمنحنا بالفضل تبراً منضدا
فلا زال بالعمر الطويل ممتعا
ولا زال منصوراً للواء مؤيدا
ولا تبرح الأعياد يشرق نورها
بغرته إن راح يوماً أو اغتدا

وقال أيضاً يمدحه:

هاذي لعمرك راية مرفوعة
بيد السعود يقلها التوفيق
رفعت على خير الملوك محمد
ملك إلى كل الجمال سبوق
خضل البنان بنائل من دونه
وجه يجول البشر فيه طليق
ورث الإمامة كابراً عن كابر
عالي المجادة بالعلاء خليق
أفضلت إليه خلافة نبوية
من دونها للمشرفي بريق
فرحت ببيعته القلوب فلم يمل
منها إلى أحد سواه فريق
فاختال منبرها به وسريرها
وكلاهما طرب إليه مشوق

فـالآن قـرّت فـي مـعـرسـهـا الـذي

يـسـمـو بـه نـسـب أعـز عـريـق

ومـنـاقـب يـزداد طـولاً عـنـدهـا

بـاع بـتـصـريـف الأمـور لـبـيـق

وشـمـائل رسـخـت بـهـن مـن الـعـلا

فـي مـنـبـت الـشـرف الأصـيـل عـروق

* * *

محمد بن المدني گنون
(ت ١٣٠٢ هـ)

معلومات أولية، نشأته وطلبه للعلم، مشيخته، تلامذته، مكانته العلمية، دروسه الجامعة، ثناء الناس عليه، تآليفه ومواقفه، رسائله السياسية وأفكاره الإصلاحية، تعرُّضه للأذى من طرف المُبطلين والحكام، وفاته.

جاءتني رسالة من محل الولد العزيز السيد العربي گنون مؤرخة بمنتصف ربيع الثاني ١٤٠٢ يقول فيها:

عمنا الأمجد.

السلام عليكم ورحمة الله.

ستحُلُّ كما لا يخفى عليكم في غُرّة ذي الحجة المقبل، الذكرى المئوية لوفاة قطب من أقطاب المغرب، وعلَم من أعلام الإسلام شيخ الجماعة سيدي الحاج محمد بن المدني گنون.

وقد ارتأيْتُ أن أفاتحكم في موضوع إحياء ذكرى هذا العالم الجليل تقديراً لعلمه ومعارفه، وتنويهاً بعمله ومواقفه،

وأعتقد أنه من أوجب الواجبات أن يعمل ذوو القربى فضلاً عن المهتمين بتاريخ المغرب ورجالاته، على إقامة هذه الذكرى وإضفاء الصبغة اللائقة عليها في ظل الصحوة الإسلامية التي تعرفها بلادُنا احتفاءً بمطلع القرن الخامس عشر الهجري، وما ذاك إلا تحية من الخلف للسلف، وتجديدٌ من الأبناء لعهد الآباء وتخليدٌ لاسم الفقيه الكبير، وتعريف بمؤلفاته العديدة، ومواقفه الشجاعة، وما تُوحي به هذه الذكرى من إحساس بكرامة العلم وشعور بمسؤولية الدعوة إلى الإصلاح.

ولئن كان العلماء وأهل الغيرة والدين من الجيل السابق تعرّفوا على هذا الشيخ الجليل من خلال أعماله وكتبه ومجالسه العلمية الذائعة الصيت، فإن الجيل الجديد لا يكاد يعرف عنه شيئاً سوى ما ورد في كتاب «النبوغ المغربي» وهو لا يشفي غليلاً، وكتاب «الدر المكنون» للعلامة المشرِفي غير متداول لنفاذ طبعته منذ زمان، كما أن ما كتبه الأستاذ العَزْوي في حق الفقيه الكبير لا يعدو أن يكون مجرد تعضيد لواقعة وتأييد لوجهة نظر.

ثم تقول الرسالة:

واليوم ألتمس منكم، أن تعملوا على إحياء هذه الذكرى لما لها من مغازي ومرامي، فقد رفعتم النبراس عالياً وأدّيتم الأمانة، وتحمّلتم مسؤولية متابعة المسيرة بالإبداع والتجديد مع الثبات والإخلاص للأصول والمبادئ.

وختاماً أستسمحكم في الإنهاء إليكم بهذه البادرة وقد

تعمدت عدم التطويل والتعليل، فالاجتزاء نصف البلاغة، وسلامي إليكم وإلى الأخوة الأساتذة وجميع الأسرة.

الرباط في ١٥ ربيع الثاني ١٤٠٢
موافق ١٠ يبراير ١٩٨٢
الإمضاء: العربي گنون

لا شك أن الروح الطيبة التي أملت هذه الرسالة على الأستاذ العربي بقيت تنتظر الجواب العملي منذ إطلالة شهر ذي الحجة الحرام، وأنا في هذا الشهر كنت في الديار المقدسة للحج، وقبله للمشاركة في أعمال المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.

وبعد رجوعي لم أجد هنا من يردد صدى مبادرة السيد العربي لا من قريب ولا من بعيد، فأنّى لي بإقامة الذكرى المقترحة، والمعهود أن ذكريات الآباء والأجداد إنما يقيمها أبناء الزوايا، فلو أنها أتيح لها من ينهض بها لكنت أحد المشاركين بما أعلمه عن الفقيه الكبير رحمه الله بحكم قرابتي منه فقط لا غير.

ثم إني لا أجدُ وقتاً أتفرّغ فيه لمثل هذا العمل، وما أنا فيه لا يقل أهمية عن الذكرى، بل لعله يكون هو الذكرى الحقيقية التي يسرّ بها الفقيه في برزخه وينتفع بها المسلمون في حياتهم اليومية أقصد المسلمين الذين يتّصلون بي ويتتبعون عملي، وليس المسلمين كافةً، عياذاً بالله من الغرور.

ومع هذا فإني أستجيب لدعوة الأستاذ العربي گنون

بما أستطيعه من عمل يتوافق وطبيعتي ويكون فيه تعريف ولو في دائرة محدودة، بشخصية الشيخ گنون ودعوته وأفكاره الإصلاحية وجهاده في الحياة العملية من أجل العودة بالمجتمع الإسلامي إلى ما كان عليه من سُمُو وطُهْر في ظل حكم شرعي عادل.

وبخصوص كتاب العلاّمة المشرفي في التعريف بالشيخ المسمى بالدرّ المكنون، فإنه لا يعزّ على أساتذة الأسرة ومثْريها إعادة طبعه، بهذه المناسبة، لا سيما والطلب عليه كثير، وتصلني دائماً طلبات عليه من الداخل والخارج، وقد كانت عندي منه بعض نسخ أهديتها للطالبين من أهل العلم بالجزائر وتونس والمغرب ونفِدتِ منذ زمان، ولم يبقَ عندي منه إلا نسختان خطيتان إحداهما بخط مؤلفه.

أما الأستاذ العروي فلم أطلع على ما كتبه عن الفقيه، ومن المهم تعريب ما كتب عنه باللغة الأجنبية والتعليق على ذلك بما يلزم، والله الموفق.

وتحية مخلصة للسيد العربي حفظه الله.

معلومات أولية:

يخطىء كثير من الكتّاب الشرقيين في اسم هذا الشيخ ويَخْلِطون بينه وبين أقربائه الذين يحملون اسمه ولقبه معاً أو الذي يحملون لقبه فقط، وذلك عند نِسْبة بعض مؤلفاته لأحد هؤلاء الأقرباء أو العكس في فهارس الكتب وفي تراجم مَن يترجمون لهم من آل گنون، بل إن هذا الخلط

يقع فيه بعض الكتّاب المغاربة ممن لا يحققون ما ينقلون ولا يُنقِّحون ما يكتبون.

والكتّاب المشارقة لا يعرفون عن دعوة الشيخ وأفكاره الإصلاحية شيئاً، لأن مَن ينقلون عنهم من كتاب الجيل السابق كانوا يُجْمِلون القول في ذلك ويُلَخِّصُونه في العبارة الشهيرة، ناصر السنة وقامع البدعة، وما أشبهها والكتَّابُ المعاصرون لم يدركوا زمنه فيعرفون ما كان له من تأثير في الحياة الدينية والسياسية، ولم يقرؤوا كُتبه فيلمُّوا ولو بقليل من اتجاهه الإصلاحي، لذلك بقيت دعوته وآراؤه ومواقفه الشجاعة من السلطة وأهل الابتداع والضلال مجهولة عند الجيل الجديد أو غير مُقدَّرة كما يجب.

من أجل هذا رأينا أن نبدأ بتصحيح الأخطاء وتوضيح الإشكالات، في معلومات أولية لا بد منها لتحرير ترجمة الشيخ وتخليصها من الأوهام التي اكتنفتها في أذهان بعض الناس وتسرّبت إلى كتابات بعضهم عنه.

فاسم الشيخ محمد بن المدني گنون، وگنون بفتح الكاف المعقودة وتشديد النون المضمومة قبل الواو هو لقب الأسرة التي ينتمي إليها الشيخ، وهو لقب أطلقه البربر على محمد بن القاسم بن إدريس الحسني، يقال: إن معناه القمر، فسرى في عقبه وعُرفوا به، وهم يحُلُّون بعدة قبائل مغربية ومُعظمهم من قبيلة بني مستارة الذي هم فرقة الشيخ، ومنها دخل جده عبدالله إلى فاس طالباً للعلم، فاستقر بها لما تزوج بنت شيخه العلاّمة الشيخ سيدي محمد بن

عبدالسلام بناني شارح الاكتفاء كتاب في مغازي المصطفى والثلاثة خلفاء للكلاعي، كما بيَّن ذلك بكل تفصيل مترجمه السيد محمد بن مصطفى المشرفي في كتاب الدر المكنون في التعريف بالشيخ گنون.

ثم إن الشيخ كثيراً ما يوصف بالحاج فيقال فيه: الحاج محمد بن المدني، وهو لم يحجَّ حجة الفريضة وإنما حجّ صبياً دون بلوغ مع والده الفاضل السيد المدني في حجته الثانية... ويروى عن والدته السيدة خديجة الزَّرْوالية ابنة الفقيه الكاتب السيد أحمد الزروالي أخ العلاَّمة المحقق سيدي محمد بن عمرو الزروالي شيخ الجماعة بفاس على عهده، وكانت مُعمَّرة عاشت بعد ولدها مدة طويلة، أن والده السيد المدني دعا الله عزَّ وجلَّ في حجته الأولى أن يهبه ولداً عالماً عاملاً فاستجاب الله دعاءه ورزقه ولدين اثنين على الصفة المطلوبة، هما الشيخ محمد وأخوه السيد التهامي الفقيه العلاَّمة المحدث الكبير.

وكانت ولادة الشيخ بفاس عام ١٢٤٠ وولادة أخيه عام ١٢٥٠.

ويوصف الشيخ بالفقيه گنون الكبير فرقاً بينه وبين الفقيه العلامة الحافظ النظار السيد محمد بن محمد بن عبدالسلام گنون الذي يوصف بالصغير، وهو من أقربائه وتلامذته.

ومحمَّد في الأسرة أكثر من واحد، ويشتبه الأمر على البعض فيخلِطُ بينهم وينسب تآليف هذا إلى ذاك، وأكثرهم

التباساً بالشيخ هذا المذكور قبله، ولكن الفرق بينهما كبير، في الاتجاه والتحرر، وإن كانا في العلم فرسَيْ رهان، وعُرف هذا بالتحقيق والمشاركة في العلوم والتمكين حتى أن المحققين من علماء فاس في الثلاثينات وما بعدها من القرن الهجري المنصرم كانوا تقريباً كلهم من تلامذته وتوفي عام ١٣٢٦هـ.

ومن المحمدين من علماء الأسرة الشيخ العلاَّمة المربي سيدي محمد بن التهامي گنون، وهو عالم مشارك مؤلف في الفقه والعربية والسيرة والتصوف، وانتفع به خلقٌ من الناس وتوفي عام ١٣٣٣هـ.

ومنهم من الأحياء العلاَّمة الأديب سيدي محمد بن عبدالصمد گنون كاتب وشاعر وخطيب له عدة تآليف منها دواوين شعرية وخطب منبرية وهو بقيد الحياة حفظه الله.

ومنهم الفقيه العلاَّمة الأستاذ محمد بن عبدالسلام گنون مفيد الشيخ، وله عدة كتابات وبحوث فقهية وأصولية، وهو الآن رئيس غرفة الاستئناف بفاس. دام حفظه، إن هؤلاء كلهم على اسم الشيخ ولقبه فربما، ورب للتكثير، اشتبه اسم أحدهم باسم الشيخ ونسب ما له إليهم وما لهم إليه لا سيما وقد اشتبه به على البعض حتى مَن ليس اسمه محمداً، فلعل ذكرنا لهم يبعد هذا الاشتباه ويعطي لكل ذي حق حقه.

بقي أن نشير إلى أن لفظ گنون يكتب بالكاف وبعضهم يكتبه بالجيم، وهو خلاف المتبع، فالشيخ ما كان يكتبه إلا بالكاف، وهو كذلك في رسوم ووثائق الأسرة، ثم هو

كذلك في كتب التاريخ المشهورة مثل كتاب القرطاس لابن أبي زَرْع وكتاب العِبر لابن خلدون وكتاب الاستقصا للناصري وكُتب الأنساب المعروفة كدرّة التيجان للدّلائي ونشر المَثَاني للقادري وشُذُور الذهب لابن رحمون وغيرها.

ويُفرّقُ صاحب كتاب الشرف المصون لآل گنون بين گنون وجنون نسبياً ويرجع كل منهما إلى قُعْدُدٍ مُتميز عن الآخر هذا بحكم أن هذا اللفظ بربري فإنه قد يوجد في غير المنسوبين لا سيما وبعض تلامذة الشيخ وأخيه ومريديهما كثيراً ما سمَّوْا به أولادهم حتى أن هناك مَن سُمّي بالتهامي گنون، أي: باسم ولقب أخي الشيخ المشار إليه آنفاً، ولله في خلقه شؤون.

نشأته وطلبه للعلم:

نشأ الشيخ في كنف والده الخيِّر الدِّين السيد المدني ووالدته الفاضلة السيدة خديجة، وقد حرصا معاً على تربيته تربيةً مُثلى لا سيما وهو كما سبق القول كان ثمرة دعوة صالحة من والده بالأماكن المقدسة في حجته الأولى، ومن عناية والده بتربيته اصطحبه معه في حجته الثانية. عملاً بما جاء في الحديث الصحيح أن امرأة رفعت للنبيّ ﷺ صبياً، وهي تقصد الحج فقالت: ألهذا حج يا رسول الله؟ قال: «نعم، ولك أجر»، وقد لزمه لقب الحاجّ، وإن لم يكن حجه في وقت الوجوب، على المعتاد في مثله من الصبيان، إذ يتعمد الناس وصفهم ونداءهم به إعجاباً وتحبُّباً ويكون لذلك في نفس الصبي أثر حميد ووقع حسن.

وكانت والدته تحدثه عن عمها العلامة الشيخ أبي عبدالله بن عمرو الزروالي وما كان من تعظيم السلطان مولاي سليمان له، وزيارته له في بيته لِمُذاكرته في العلم وقراءة بعض الكتب عليه، وكان السلطان كثيراً ما يطلبه ولكنه يمتنع عليه ويعتذر ببعض الأعذار، فيفاجئه السلطان بالزيارة على غير موعد في بيته مُتنكِّراً وربما وجده في مهنة أهله فيساعده على ذلك ليتفرغ له الشيخ ولما جاء من أجله، وكان الصبي يستمع لذلك باهتمام كبير ويرسخ في ذهنه فضل العلم والعلماء وأن الملوك والأمراء يحتاجون إليهم ويعظمون جانبهم، فيزيد حماساً واجتهاداً في القراءة والتحصيل، لإقرار عينَيْ والده ووالدته بتحقيق ما يؤملانه فيه.

وبعد التأهُّب بحفظ القرآن الكريم ومتون العلم المتداولة دخل الطالب الحاج إلى جامعة القرويين للارتواء من معينها العذب الزلال، فلزم مشايخها الأعيان صباحاً ومساءً، يقتبس من مشكاتهم ويشف سمعه بِدُررهم، وكان منهم على ما ذكره مترجمه المشرفي العلاَّمة محمد بن عبدالرحمٰن الفيلالي الحجرتي، وهو عمدته والعلاَّمة أحمد المرنيسي والفقيه العبّاس بن الطيب بن كيران والشيخ سيدي الوليد العراقي والشيخ مولاي عبدالسلام بوغالب والعلاَّمة محمد بن عبدالله المجّاوي والعلاَّمة بدر الدين الحمُّومي والعلاَّمة محمد الكردودي والشيخ الطالب ابن الحاج وغيرهم من جلّة العلماء.

وكان ما أخذه عن هؤلاء الأعلام الفقه والعربية

والحديث النبوي والتفسير والأصول والكلام والمنطق والبلاغة والسيرة النبوية والتصوف وغير ذلك من العلوم العقلية والنقلية، ومنهم مَن أخذ عنه بالقراءة والإجازة، ومنهم مَن كان أخذه عنه على العكس بالإجازة دون قراءة ومن هؤلاء الشيخ محمد صالح الرضَوي البخاري الذي ورد على فاس زائراً وكانت له أسانيد عالية حرص المشايخ على استجازته من أجلها، وكان المترجم منهم.

ومن المسلَّم به عند المعاصرين والآخذين عنه أن علومه كانت أكثر من دراسته وأوسع من طلبه، إذ ما فتىء أن اشتهر وظهر من تحصيله ورسوخ قدمه في العلم ما كثر منه العجب، وسلّم له أقرانُه وأكبَرهُ أساتذتُهُ واعترف الجميع له بالمشيخة على فَتاءِ السِّن ونضارة الشباب. ولا شك أن ذلك كان نتيجة اجتهاده واعتماده على نفسه وجهوده الفردية في القراءة والاطلاع كما تنم عليه نقوله الكثيرة في كتبه ورسائله وما أخبر به غير واحد من تلامذته من أنهم كانوا يسمعون منه من نوادر المسائل ما لا يجدونه في كتاب.

ولا نغفل مع ذلك ما يفتح الله به على أهل العلم العاملين المخلصين في بثه ونشره وإرادة النفع لعباده ـ والشيخ منهم ـ من أبواب المعارف ومدارك الفهوم، اعتباراً بقول أبي سليمان الداراني أن النفوس إذا صَمَّمت على ترك المعاصي جالت في الملكوت ثم رجعت إلى صاحبها بطرائف من الحكمة من غير أن يلقي إليها عالم علماً، ومصداقه الحديث من عمل بما علم ورّثه الله علم ما لم يعلم، وفي الصحيح قيل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: هل خصَّكم

رسول الله ﷺ يا آل البيت بشيء؟ فقال: لا، إنما هو كتاب الله وما في هذه الصحيفة ـ وأشار إلى صحيفة في قِراب سيفه فيها العُقُول والديات ـ أو فهمٌ أُوتيه رجل مسلم.

فالفهم عن الله والاجتهاد في البحث عن الحقيقة مما يفتح آفاق العمل النافع ومجال الإصلاح المنشود، ولذا كان الشيخ من الدعاة والمصلحين المتميزين عن أهل زمنه وعلماء عصره بمبادراته ومواقفه، وكان لما يشعر به من مسؤولية التّغْيير يرى ما لا يرَوْن، ويرفع صوته بما يسكتُون عنه.

هذا ومن منهجية الترجمة لأهل العلم أن يُذكر بعد المشايخ الذين أخذوا عنهم المشايخ الذين تتلمذوا لهم، حفظاً لسند العلم، وفَرْقاً بينهم وبين المدّعين أو المدَّعى لهم أنهم رجال علم ورُسُل معرفة فيقال في حقهم مَن هم الذين روَوْا عنهم أو تخرّجوا على يديهم، ونحنُ لا نجد لهم ذاكراً في الفهارس ولا نعثر على أنه كان لهم مجلس بين المجالس؟! وتلامذة الشيخ لا يحصون عدداً، وقد كانوا متفرقين في المدن والقرى بجميع أنحاء المغرب الأقصى والأوسط ويُعرفون بتمكنهم وعلو كعبهم في العلم ولا سيما في الفقه والحديث، وتمسكهم بالسنّة وإنكارهم للبدع والخرافات والدعاوى الباطلة وقد ذكر العلاّمة المشرفي نخبة منهم وهم ثلة قليلة من أهل فاس في الغالب ولكنهم كانوا في وقتهم من علماء الطبقة الأولى الذين سارت بذكرهم الركبان وتشد الرحال إليهم من كل مكان، وفي طليعتهم

أخوه السيد التهامي والقاضي مولاي عبدالهادي الصقلي وسيدي محمد فتحا القادري وسيدي محمد بن التهامي الوزاني ومولاي الكامل الأمراني والسيد عبدالرحمٰن بن القرشي والقاضيان السيد عبدالله بناني والسيد عبدالسلام الهواري والسيد أحمد بن الجيلالي والسيد المهدي الوزاني والسيد العباس التازي والسيد المدني بن جلُّون والقاضي السيد عبدالعزيز بناني والسيد عبدالسلام بن زَرُّوق العرايشي والسيد أحمد الزواق التطواني والسيد الغالي بن سليمان والسيد محمد فتحا بن محمد گنون المعروف بالصغير وغيرهم.

وأكثرهم ممن كان لهم اليد الطولى في التأليف، وكتبهم تملأ خزائن العلم وجميعهم ممن عكفوا على نشر العلم بالتدريس وكانوا من أساطين جامعة القرويين المشار إليهم بالبنان أو منارات العلم التي يهتدى بها في بلدهم الذي يقطنونه من غير مدينة فاس.

مكانته العلمية:

كان اختصاص الشيخ گنون هو علم الفقه أو هو ما يغلب عليه لحد أنه كان إنما يُعرف بالفقيه، وعلى ما سمعنا من غير واحد من العلماء الذين أدركوا زمنه، كان وصف الفقيه يكاد يكون علماً بالغلبة عليه، بحيث إذا أطلق لا ينصرف إلا إليه، وفيما نظن أن آل فيه للكمال فهو يعني أنه الفقيه الذي تحقق فيه هذا الوصف وكمُل فلم يكن نعته به مجاملة أو على سبيل التجوُّز كما هو الغالب فيمن يوصفون

بالفقيه؛ وهم من أهل العلم بالنحو أو بالحساب أو من الملمّين بالفقه وغيره من العلوم ولكن لا على سبيل الرسوخ والتمكين حتى صارت هذه الصفة تعني ما تعنيه حكمة المثقف عندنا اليوم من غير أن نصدق بمفهوم اختصاص مّا.

وهذا على كل حال لا يعني أنه كان قاصراً على الفقه أو مختصاً فيه بمصطلح الاختصاص الذي نعرفه في وقتنا هذا، فالشيخ كان كذلك إماماً في علوم شتى ومنها بالتأكيد علوم التفسير والحديث والأصول والكلام والتصوف ورسائلها الموصّلة إليها من علم اللغة والنحو والصرف والبيان والمنطق والحساب والهيئة والطب كما تدل عليه كتاباته وأنظامه في كل من هذه العلوم، فالاختصاص بالنسبة إليه أحرى أن يكون أو يفسر بما يعني العلوم الإسلامية وعلى رأسها الفقه.

وغني عن البيان أن المراد بالفقه هنا الفقه المالكي المعمول به في المغرب والتتبع من لدن السكان قاطبة حكاماً ومحكومين منذ قيام الدولة الإدريسية في القرن الثاني الهجري بالمغرب الأقصى وفي الأندلس وباقي أقطار المغرب العربي تقريباً في نفس الوقت وفي بلاد إفريقيا على العموم إلا ما قلّ، مع استثناء مصر التي ينتشر فيها المذهب الشافعي، ومع ملاحظة دخول المذهب الحنفي إلى الأقطار المغربية التي حكمتها الدولة العثمانية باعتباره المذهب الرسمي لها مع بقاء المذهب المالكي منتشراً فيها بكثرة.

تُقرر هذه الحقيقة لبيان الواقع، ولنُقرر أن الشيخ كان حاملاً لراية الفقه المالكي في وقته وكان صيته يبلغ إلى

أقصى هذه البلاد المتمذهبة بمذهب الإمام مالك رضي الله عنه يستفتى منها وتنشر كتبه فيها ويقصده الطلاب من أقصاها ويأخذ علماؤها برأيه ويعتمدون قوله في هذا المذهب لا سيما وهو كان باحثاً نظاراً مقارناً لأقوال أئمة المذهب بعضها ببعض مرجحاً لما قوي دليله المبني على الكتاب والسنّة والمخرَّج على قواعد المذهب المعروفة فلم يكن فقيهاً جامداً كما وصفه بعض المفتونين ممن حقه أن يخجل من نفسه ومن تصرفاته الطائشة، أو فقيهاً خارجاً على إجماع المسلمين نابذاً للكتاب والسنّة كما يحلو لبعض الناس اليوم أن يصوروا فقهاء المذاهب وهم لا يزيدون على أن يدعوا لمذهبهم الخاص واجتهادهم الذي يخطئ ويصيب كسائر الاجتهادات وتقليدهم بدل المذاهب الأخرى زاعمين أن ذلك هو الحق والصواب، وهو مقتضى السنّة والكتّاب ومُتشنِّعين على علماء الأمة وأئمة المِلّة بما لا يروج إلا عند العوام وغلاظ الأفهام، بل ربما كفروا عموم المسلمين بدعواهم أن تقليدهم لأئمة المذاهب هو عبادة لهم من دون الله ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ وهم أول مَن يصدق عليهم وعلى أتباعهم هذا الحكم إن صحّ لأنهم بتقليدهم يصبحون آلهة لأتباعهم، وهذا من الباطل الذي لا خفاء له.

نعم، إن الشيخ كان فقيهاً على مذهب مالك، كما كان جلّ بل كل علماء المغرب الكبير من محدثين ومفسرين وحملة الشريعة الإسلامية الذين حفظوا الأمانة وحافظوا عليها وبلغوها لمن أتى بعدهم حتى بقي هذا الجزء من العالم الإسلامي مسلماً صحيح الإسلام متمسكاً بعقيدته مُحتكِماً

إلى شريعته مُتَّبعاً لما كان عليه سلف الأمة من تصحيح العقيدة وإقامة الدليل عليها من الكتاب والسنّة كل على قدر ما يصل إليه إدراكه ويُبَرِّئه من التقليد آخذاً في عبادته ومعاملاته بأقوال العلماء وفقهاء المذهب المستنبطة من أدلتها الإجمالية ونصوصها الأصلية، ولا شيء أعز عنده من دينه فهو أحب إليه من ماله وولده عليه يَحيا ويموت رغبة في رضى الله عزَّ وجلَّ آملاً في نجاته غداً وسعادته في دنياه وآخرته ومثل ذلك يقال في سائر البلاد الإسلامية المتّبعة لمذهب من مذاهب أهل السنّة والجماعة، والله يهدي مَن يشاء إلى صراط مستقيم.

ومع ذلك لا بد من الإشارة إلى أخذه بالسنة أيضاً في العبادات من ذلك تأييده للبسملة وقوله: «إن الجهر بها أو السر على حد سواء في المخالفة للمذهب فلا معنى للسرّية وكذلك تأييدُه للسكوت في تشييع الجنازة على ما حققه الرهوني وكذلك سكوته على تأييد القبض وعدم التعرض لترجيح المالكية كما فعل غيره من تلامذته فمن دونهم، ولعل البرهنة على ما قلناه تظهر بأعماله هو قبل أقوال الناس فيه. فلنبدأ باستعراض أعماله في هذا الصدد، ونفصّلُها فصْلَيْن: دروسه العمومية التي كان يلقيها للطلبة والناس، وتآليفه في مادتَيْ الفقه والحديث وما إليهما من العلوم الإسلامية.

أما عن دروسه فأهمُّها درسه الفقهي بالقرويين صباحاً ودرسه الحديثي بسيدي قاسم بن رحمون مساءً ودرس القرويين كان يجلس له في الحصة الأولى التي تلي صلاة

الصبح وقراءة الحزب والمسماة عند الطلبة بالأول ويستمر فيه إلى الحصة الثانية المسماة بالثاني وربما إلى الثالث، أي: ما يقارب ثلاث ساعات، لا يكلّ ولا يملّ فيجُول في آفاق العلم والمعرفة نصاً ونقلاً ونظراً وفكراً وتطبيقاً وتمثيلاً مع المقارنة بين الأقوال والترجيح والاستشهاد بآيات الكتاب العزيز والسنة المطهرة وأقوال الصحابة والأئمة المقتدى بهم من أهل العصر الأول والسلف الصالح إلى مَن بعدهم من العلماء العاملين والفقهاء العارفين وأرباب القلوب المتقين، حتى يستوفي حق الموضوع ولا يبقى فيه لأحد ما يقول، وكل ذلك في وقار تامّ وجِدِّية باللغة بحيث يَمْلِكُ زمام المجلس وتتعلق به الأبصار فلا يزيغ عنه طرف ولا تبدو من أحد بادرة انشغال بغير ما هو فيه لهيمنة روح التحصيل والاستفادة على الجميع.

مثل ذلك يقال في درسه الحديثي الليلي الذي يحضره الجم الغفير من الناس خاصة وعامة. فيأخذ كل منهم بحظه، لا سيما وهو يتعرض فيه لأحوال المجتمع وما عليه كل فئة من الناس من الانحراف عن الجادة والتفريط في أمر الدين والانشغال بالدنيا والانهماك في البدع والمخالفات ونسيان الآخرة والعَرْض والحساب، فيُبدِىءُ ويُعيد ويستقصي أحوال المقصرين حتى يكاد يشير إلى كل واحد بعينه وما هو عليه من البطالة مما يُعَدُّ مكاشفة صريحة ويبعث المعني بالأمر على التوبة والإنابة إلى الله كما حكى غير واحد عن نفسه من الطلبة وعموم الناس.

ونقتطف بعض الفقرات من كتاب الدر المكنون للعلامة

المشرفي تتعلق بهذا المعنى، يقول رحمه الله: «كان قدّس سره في علم المعقول عَلَماً واضحاً، وفي علم المنقول بدراً لائِحاً، متى قصدته في فن منهما وجدته بحراً زاخراً، ومتى سألته عن عويصة لفظت لك أمواجه دراً فاخراً، ومتى درَّس فناً خلته لم يعرف سواه، وقطعت بأن جميع عمره أنفقه فيه وأفناه، ومن الشائع المعلوم، أنه فريد دهره، ووحيد عصره، في سائر العلوم، متى تعارضت الأدلةُ صَرَف كُلاً منها لما يقتضيه لشدة تمسكه بأثر النبيّ ﷺ وطول باعه فيه، وبالجملة فهو السواد الأعظم كما قال إسحاق محمد بن أسلم، أن الله لم يكن ليجمع أمته على ضلالة، فإذا رأيتم الاختلاف فعليكم بالسواد الأعظم... إلخ.

ويقول العلاَّمة المشارك النظّار سيدي محمد بن قاسم القادري في فهرسته: «كان رضي الله عنه كبير الصِّيت والقدْر، عظيم الجناب والخطْر، ذا مهابة ورفعة، وجلالة ومكانة ومنَعَة، قوّالاً بالحق لا يخشى صَوْلة ظالم، ولا تأخذه في الله لومة لائم، جميل المشاركة، ثابت الملكة، فتَّاقاً لأفكار العلوم، درَّاكاً لغوامض الفهوم، مرجوعاً إليه في حل المشكلات، مقصوراً عليه في دفع الشبهات، له معرفة بالفقه والحديث والتصوف والنحو والأصلين وغير ذلك... وقد ضاعت لموته علوم، لتحريره لها تحرير أهل اجتهاد على الخصوص والعموم، وفيه يحق أن يقال، ويحسن المقال:

حلَف الزمانُ لَيأتِينّ بمِثله
حَنِثَت يمينُك يا زمان فكفِّر»

ويقول العلاّمة الوزير محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي في كتابه الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي: «هذا الشيخ من أكبر المتضلعين في العلوم الشرعية الورعين، المعلنين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخاتمهم في المغرب، شيخ شيوخنا وشيخ جل شيوخ المغرب، رأس علمائه في القرن الثالث عشر بلا منازع، كان فقيهاً محدِّثاً نحوياً لغوياً معقولياً مشاركاً محققاً نزيهاً قوّالاً للحق، مطبوعاً على ذلك، غير هَيَّاب ولا وَجِل، مِقْداماً مَهِيباً، عالي الهمّة ذؤوباً على نشر العلم والإرشاد والنهي عن المناكر والبدع التي تكاثرت في أيامه، لا يخشى في الحق لومة لائم، يحضُر مجلسه الولاة والأمراء أبناءُ الملوك وغيرُهم يصرح بإنكار أحوالهم وما هم عليه مُبيِّن لهفواتهم غير متشدق ولا متصنّع بل تعتريه حال ربانية، ولكلامه تأثير على سلطان النفوس. رُزق في ذلك القبول والهيبة، على نحول جسمه، وَوَصَلتْه بذلك إذايةٌ، وسُجِن، لكن بمجرد سجنه اعتصب الطلبةُ وقامت قيامة العامّة، وأُطلِق سبيله، لذلك فهو أحق من يقال في حقه: مُجدِّد لكثرة النفع به وانتشار العلم عنه وعن تلامذته وقيامه بالنهي عن المناكر في وقته».

نسجل هنا أن هذه التظاهرة التي قام بها الطلبة وعموم الناس ولا سيما عمال الدباغة والخرازة والصباغة وغيرهم من الحِرفيِّين والتجار والفلاحين عند سجن الشيخ لعلها أول مظاهرة تقعُ بالمغرب فيما قبل العصر الحديث، ضداً على قمع حرية الفكر واضطهاد العلماء الأحرار، وسنعودُ إليها عند الكلام على مواقف الشيخ وأفكاره الإصلاحية.

وأما كتبه فأشهرها الكتاب المعروف بالاختصار في أربع مجلدات وهو في الواقع اختصار لحاشية الشيخ الرهوني الكبرى التي وضعها على حاشية الشيخ بناني على شرح الزرقاني لمختصر الشيخ خليل الجُنْدي المبين لما به الفتوى في مذهب الإمام مالك وأهمية هذه الحاشية عظيمة جداً لأنها صحّحت الأخطاء الواقعة في شروح الأجاهرة أعني الشيخ علي الأجهوري وأتباعه من تلامذته وغيرهم التي حذّر الفقهاءُ من اعتمادها إلا بمراجعة ما كتبه عليها الشيخ الرهوني الذي التزم بذكر النصوص وتسجيل النقول المنسوبة لأئمة المذهب بالتمام والكمال من غير حذف ولا تصرُّف، ففضح تلك الأخطاء التي انبنتْ عليها أحكام غير صحيحة. ولكنها طالت بسبب ذلك فجاءت في ثمانية مجلدات فاختصرها الشيخ وحلاَّها بفوائد يأتي بغالبها في أول الأبواب، كأصل الباب من الكتاب والسنة وتصحيح المعاملات والتحذير مما يقع فيها من المخالفات الشرعية وقرّب على القارىء ما عسى أن يطول عليه من استيعاب تلك النصوص مع مناقشة بعض الأقوال وردّ ما لا يصح منها، وقد طبع الاختصار مع الأصل ويعتبران معاً من المراجع الفقهية التي لا غنى عنها للباحث والمفتي والمدرس.

ومن كتبه حاشيته على موطأ الإمام صدّرها بمقدمة مطولة في التعريف بالموطأ ومؤلفها وساير فيها ساذج الفقه المأخوذ به من الراجح والمشهور وما به العمل وهي مطبوعة طبعة حجرية بفاس مع المتن في مجلدين.

ومنها حاشيته على شرح الشيخ بنيس لفرائض

المختصر اعتمدها كل الذين كتبوا في الموضوع من بعده وهي أيضاً مطبوعة بفاس.

ومنها تأليفه في النشوز وأحكامه وهو الخروج على طاعة الزوج وما يتعلق به، مهم جداً لأنه حرر المسألة وأعطى الطرفين من الزوج والزوجة وما يستحق كل منهما، مطبوع كذلك.

ومنها تأليفه في الشهادة والفتوى والقضاء وشروطها والأحكام المتعلقة بها، مما يرتفع بهذه الخطط الشرعية عن المستوى الهابط الذي وصلت إليه، وهو مطلوب في الداخل والخارج، ومن المجامع الفقهية والكليات الإسلامية، ولكنه نفد من زمان وأصبح نادر الوجود.

ومنها كتاب «الدرر المستنيرة» بشرح حديث: **«لا عدوى، لا طيرة»**، تنزل فيه لمسألة العدوى، وما قيل فيها طبياً وفقهياً، وجمع بين الأحاديث المتعارضة وأقوال العلماء المختلفة بإثبات وقوع العدوى، لكن مع تنزيه الاعتقاد إسناد الحكم كله لله، وهو مطبوع طبعاً حجرياً بفاس كسابقيه.

ومنها نوازله الفقهية التي أجاب عنها السلاثلين بما عُرف عنه من سعة العلم والتنزل للموضوع بكل ما يلزم من التحقيق والاستيعاب وقد جمعها أخوه العلاّمة السيد التهامي وسماها: «وضوح الدلائل في أجود مهمات المسائل»، وهي مطبوعة كذلك.

ومنها الدرة المكنونة في النسبة الشريفة المصونة أبدأ فيه وأعاد في فضل النسب الشريف وما يجب لأهله من

التعظيم والاحترام وما يجب عليهم بمقتضاه من التخلُّق بالأخلاق الكريمة والبُعد عما يشين النسب الشريف من الخصال المذمومة كما تعرّض فيه للبيوتات الشريفة بالمغرب منوّهاً بها ومشيداً بمكارمها مع النصح والتحذير من الغرور إلى غير ذلك مما لا يوجد في كتاب غيره، وهو في جزء مطبوع.

ومنها كتاب الزجر والإقماع بزواجر الشرع المطاع عن حضور آلات اللهو والسماع، في جزء مطبوع، جنح فيه إلى ما ذهب إليه الجمهور الغفير من سلف الأمة وعلمائها وصلحائها من تحريم سماع الآلات الموسيقية لا سيما مع اجتماعها والغناء الذي يصحبها وكذلك المنفرد إذا كان مما يحث على اللهو والتصابي والفجور خاصة من الجواري والنسوان والمخنَّثِين من الرجال، ولم يُسامح في السماع إلا لأصحاب الأحوال الصحيحة الذين يستعينون به على الذكر والذكرى والتفكر والاعتبار حاملاً على ذلك ما روي عن بعض الأفاضل من حضورهم لمجالسه وقولهم بجوازه، متحاملاً على مَن تساهل فيه من الأعلام كابن حزم وغيره، ومن المؤكد أن باعثه على تأليف هذا الكتاب كان سياسياً بالدرجة الأولى، نظراً لما كان عليه الوضع السياسي بالمغرب في وقته من الانهيار وهزيمة الجيش الوطني في حربين مُتتاليتين، مع فرنسا وإسبانيا في إيسْلي وتطوان وانشغال المسؤولين بالغناء والطرب حتى اعتُبرت تلك الفترة من الزمان عند المهتمين بالفن فترة إحياء للموسيقى الأندلسية ونهوض. ولا نحتاج إلى القول أن رأيه هذا كان

مما يردده في دروسه على رؤوس الملأ، وإنه كان يمتنع من حضور الحفلات التي تقام في الأعراس وما يماثلها بمشاركة أجواق الطرب ولو كانت لأقرب الناس إليه حتى عرف عنه ذلك عند الخاص والعام، ولم يقتصر قوله به على التعبير عنه في كتاب لا يقرؤه إلا العارفون ويعد هذا الموقف من مواقفه السياسية والإصلاحية في آن واحد.

وقد أوعز المسؤولون إلى بعض مَن عاصره من أهل العلم بالرد عليه ولكنه لم يكن له أثرٌ ملحوظٌ في الأوساط العلمية. ومن المؤسف أن قلة من تلامذته هم الذين أخذوا برأيه هذا وكانوا يمتنعون من سماع آلات الطرب والسماع وهم فيما نعلم أخوه السيد التهامي والعلاَّمة سيدي محمد بن جعفر الكتاني والعم سيدي محمد بن التهامي والوالد رحمهم الله، إلا أن يكون هناك مَن لم نعرفهم ولا سيما من تلامذته المتفرقين في القبائل؛ وقد كان منهم رجال صدق وأنصار حق.

ومن كتبه في المواعظ والأخلاق كتاب التَّسْلية والسلوان، لمن ابتُلي بالإذاية والبهتان، وهو في مجلد مطبوع طبع حجر بفاس، جمع فأوعى، ولم يترك شاذة ولا فاذة مما ورد في الشرع والتاريخ والأدب من أخبار النبيّين والمرسلين، والصحابة والتابعين، وأئمة الدين، وعباد الله الصالحين الذين تعرضوا للأذى ووُجهوا بالمكروه من التهم الباطلة، والدعاوى الكاذبة والطعن والتجريح، والإرجاف في حقهم بما يصد عن دعوتهم، والوقوف في وجههم لمنعهم من أداء رسالتهم، وكأنه في هذا الكتاب كان يتمثل حاله مع

الخصوم المناوئين له ويلتمس العزاء فيما أصاب من قبله من الدعاة والمصلحين، ومنها في هذا الصدد كتاب نصيحة النذير العريان، لأهل الإسلام والإيمان في التحذير من مخالطة أهل النميمة والغيبة والبهتان، في جزء مطبوع كذلك، ومنها في هذا المعنى أيضاً نصيحة ذوي الهمم الأكياس فيما يتعلق بخلطة الناس، وهو عامر بالحكم والأمثال والنوادر والأشعار في الخلطة والخلطاء والصداقة والأصدقاء إضافة إلى مادته الأساسية من الأحكام الشرعية والمواعظ والآثار والأحاديث والأخبار، وهو مطبوع في جزء بفاس. وهذه الكتب الثلاثة تتقارب موضوعاً ولكنها لم تُنسج على منوال واحد، بحيث يكرر بعضها بعضاً، بل إن بعضها يكمل بعضاً، وإن دلّ ذلك على شيء فأول ما يدل عليه هذا البحر من المعلومات الذي يغرف منه المؤلف والاطلاع الواسع الذي يقل له النظير، وخاصة في عصره وفي الموضوع الواحد الذي هو أبعد ما يكون عن الفلك الذي يدور فيه الفقهاء ومنها رسالته المسماة بإيقاظ المفتون المغرور، مما تذم عواقبه يوم النشور وركز فيها على النصح للعلماء خاصة، وذكر ما كان عليه علماء السلف من الجدّ والاجتهاد والحرص على نفع العباد ومُقارنة أحوالهم بأحوال علماء عصره قائلاً في تصديرها.

وبعد فإنما المقبول المنقول بشرط أن يكون في محله غير محرّف عن موضعه، وغيره بأجمعه حضر فضول وتضييع للقائل والمقول، ولم يتفرغ أهل الجِد قطّ ولا يتفرغون عَوْضُ للعمل المعلول... إلخ. وهي مطبوعة

بالمطبعة الحَجرية بفاس ومنها اختصاره لرسالة العجيمي في الطرق الصوفية الموجودة في عصره، ومنها ختمه لمختصر الشيخ خليل مطبوع في بعض ملازم وقد ذكر العلامة المشرفي أنه شهد ختمه للمختصر الذي دام ثلاثة أيام كل يوم كانوا يقولون: إنه يوم الختم فكان يجلس من الصباح إلى قرب الزوال وهو يملي من حفظه ما يبهر العقول وينهي المجلس ويعد بالختم غداً ثم يفعل مثل اليوم الأول ولم يختم إلا في اليوم الثالث وكل يوم كان الناس يزيد عددهم ويكثر تأثرهم بما يسمعون من المواعظ والرقائق فيبكون ويصرخون من الجد.

ومن كتبه العلمية التي لم تكمل شرح مختصر ابن فارس المعروف في السيرة النبوية أطال فيه ما شاء، ومنها حاشيته على شرح الشيخ التاودي بن سودة لجامع الشيخ خليل الذي جعله تكميلاً لمختصره الفقهي، وهو كتاب جليل في الآداب والأخلاق الإسلامية، وكان بعض العلماء يقرأه بعد ختم المختصر مباشرة، ومنهم الشيخ، إذ يرون أن فائدة العلم بالأحكام الفقهية لا تحصل إلا إذا صحبها العمل بالسنن والفضائل التي هي جوهر الإسلام، ولذلك ختم ابن أبي زيد رسالته الفقهية بباب من هذا القبيل هو لب الرسالة وثمرتها تصحيحاً لعلم الطالب وتقويماً لسلوكه، وجامع الشيخ خليل من هذا الباب، وحاشية المترجم على شرحه للشيخ التاودي في مجلد تطفح بالعلم الرباني والتجربة الخلقية العالية تأصيلاً لما تضمنه المتن والشرح وتكميلاً لها.

ومنها حاشية على شرح الشيخ السنوسي لصغراه حافلة

بالأبحاث والنقول، ومنها شرح على همزية الإمام البوصيري في السيرة النبوية عالي النفس واسع الأفق يجيء ما كتبه فيه على البيت القائل:

ليته خصني برؤية وجه زال عن كل من رآه الشقاء

في تأليف جامع لمباحث الرؤيا وأحكامها ومنها نزهة الألباب والإسماع في الحض على الذِّكْر الشرعي النافع بالإجماع، والتحذير من الرقص وسماع أهل الذنوب والابتداع، وهذا الكتاب كمله أخونا الفقيه المحدّث السيد عبدالحفيظ جزاه الله خيراً، ومنها تكميل بتراث حاشية الشيخ ابن زكري على صحيح البخاري، لكن بعض هذه البترات هي من عمل أخيه الشيخ التهامي، وبهما كملت الحاشية المذكورة وطبعت بفاس في خمسة مجلدات.

ومن رسائله في السياسة وشؤون الحكم رسالة في التحذير من الإقامة بأرض العدو، وأخرى في التحذير من تولية الجهال ووجوب عزلهم وإبعادهم عن تدبير أمور المسلمين، وثالثة في التحذير من الازدراء بالعلماء وتنقيصهم والأمر بتعظيمهم واحترامهم، ورابعةٌ في أحد المسؤولين الكبار المسمى بعبدالله وعنونها بـ(عبضل) وسأله الملك عن معنى هذا العنوان فقال له: إنه عبد ضلّ وحاشا أن يكون هذا عبداً له، وخامسة في أهل الحماية وخروجهم عن جماعة المسلمين بناها على أحد شرفاء المغرب الذي احتمى بدولة أجنبية مدّعياً أن باعثه على ذلك دفع الظلم الذي كان يتوقع نزوله به من السلطان ولكن الشيخ ردّ التعلل بأنه من

ذوي العصبية التي لا يمكن معها أن يصيبه مكروه، كيف وبيته ممن يجير الناس من السلطة حتى ولو كانوا مجرمين، ومنها رسالته في إبطال التسرِّي والحكم بأن ما عليه الناس من اتخاذ الولائد المُجْتَلَبِين من السودان وغيره هو محض زنى.

مواقفه وأفكاره الإصلاحية:

يمكننا من التأمُّل في قائمة كتب الشيخ ورسائله أن نعرف مواقفه من قضايا مُجتَمعه وأفكاره الإصلاحية التي نادى بها طول حياته في دروسه وكتاباته، وهي مجمل دعوته التي تُبَلوِر في لبها وجوهرها دعوة الإسلام الصحيح؛ فهو لم يأتِ بشيء جديد من عنده، إنه كما قلنا فقيه مالكي ملتزم بمذهب إمام دار الهجرة، كما كان كل المصلحين قبله: ابن تيمية وابن القيم والشاطبي والطرطوشي وابن الجوزي وزرّوق وابن عبدالوهاب ومحمد عبده وغيرهم كانوا متمذهبين بأحد هذه المذاهب السُّنِّية، ويدعون إلى تطبيق الشريعة في المعاملات والسلوك ومجانبة البدع والأهواء، وكذلك كان الشيخ يدعو الناس إلى اتباع السنّة ويشتد على المخالفين، ويقف منهم مواقف جادة أدت إلى إيذائه والانتقام منه على الصعيدين العام والخاص، كما أوذي مَن سبقه أو لحقه من المصلحين. وهذا فَرْقُ ما بينه وبين معاصريه من العلماء الذين كانوا يعلمون ما يعلمه ولكنهم لم يتجرأوا وينكروا ما ينكره.

إن العهد كان قد بعد جداً بظهور عالم في المغرب

على سنن الأئمة الناطقين بالحق، الذابّين عن الشريعة المحمدية باللسان والقلم والحال، عالم من ورثة الأنبياء، اتخذ العلم وسيلة للدعوة إلى الله وصراطه المستقيم ولم يجعله وسيلة للإثراء ومواطأة الظالمين على ظلمهم، إنه عالم عامل ومصلح حقيقي ومُجَدِّد كما وصفه بذلك غير واحد من مترجميه، لقد كانت دعوته إلى اتباع السنة ومحاربة البدعة قوية صارخة بحيث اشتهر بها وعرفت مواقفه فيها ضد أصحاب الطرائق المحدثة والطوائف الضالة؛ فكان صاعقة عليهم لا يفتأ يندِّد بهم ويشنِّع عليهم وينتقد أحوالهم ويبيّن مخالفتهم للكتاب والسنّة، ومُحادثتهم لله ورسوله بما يرتكبونه من الفسوق والمروق، ويتظاهرون به من الولاية والصلاح، حتى أنه كان إذا رأى أحد المُتفرّقة واضعاً المِسْبحة في عنقه نزعها منه بيده وأنكر عليه هذا التظاهر وقال له: إذا كنت ذاكراً فلا تعلن لنا عن نفسك، وإن السلف الصالح لم يثبُتْ عنهم شيء من ذلك، وربما نزل عن الكرسي في مجلسه العلمي وقصد إلى من لمح عليه التلبُّس بمنكر من المنكرات فغيَّره بيده ورجع إلى مجلسه وأبدأ وأعاد في ذكر ما ورد في البدع والمحدثات من العقاب والوعيد لأصحابها. وكان إذا مرّ بأهل الحضْرة ـ كما يسمونها ـ وهي الرقص حالة الذكر، هجم عليهم وفرّقهم وأمر بإفراغ الماء على المكان الذي كانوا يرقصون فيه وقال: إنه تنجس بهذه البدعة الإسرائيلية وأول من فعلها هو السامريّ لعنه الله.

وألّف في تحريم السماع كتابه المشهور «الزجر والأقماع» وقد أسلَفنا ذكره، وكذا كتابه «نزهة الألباب

والأسماع»، على أن كتبه الأخرى كلها حافلة بهذه الدعوة، وقصته مع أحد طلبته هو العلاَّمة شيخ الجماعة سيدي أحمد بن الخياط شهيرة؛ وذلك أنه تخطفته إحدى هذه الطرق فانقطع عن الدرس، فكتب الشيخ إلى قاضي الجماعة بفاس يقول: إن هاهنا طالباً ظهرت نجابته وجادت قريحته وأصبح طلب العلم في حقه واجباً عينياً لا كفائياً، وقد استمالته إليها إحدى الطرق المنتسبة إلى التصوف، فيجب إجباره على الرجوع لطلب العلم والاشتغال بما هو أنفع له وللمسلمين، وأنتم أوْلى بنصحه ورده إلى الصراط المستقيم، فهل عُرف في التاريخ مَن يحمل الناس على طلب العلم بسلطة القضاء؟

وقام الشيخ بدعوة أخرى كان لها وقع عظيم في أوساط الولاة والمترفين. وهي قوله ببطلان التسرِّي على ما كان عليه من اختطاف بنات القبائل وأبنائها الصغار، ولا سيما السوادين وبَيْعهم على أنهم أرقاء، فتُنكح إناثُهم بما يسمى ملك اليمين، مصرحاً بأن هذا النكاح فاسد، وأن ما ينشأ عنه من ذرية وما يبنى عليه من أحكام الرقيق كله غير شرعي وباطل لأنه واقع في غير موقعه، ومُنزَّل على خلاف ما ورد في أحكام الشريعة، وأن مَن شاء السلامة والاستبراء لدينه وعرضه فعليه أن يعتق الرقيقة من هذا القبيل ويستبرئها ويعقد عليها بصداق ونكاح شرعي صحيح، ولا يجوز أن تكون زائدة على الأربع التي أحلّها الشرع وإلا كان نكاحها والزنى سواء من باب لا فرق يقرر ذلك في مجالسه العلمية ويجهر به وينكر على مَن يفعله أشد الإنكار، مُبيناً أن ملك اليمين

لا يكون إلا من المسترقِّين في الحرب مع الكفار لا غير، وهؤلاء من المسلمين معتدى عليهم بالاختطاف، فامتلاكهم لا يصح وأحرى نكاح إناثهم بملك اليمين، وينشد في ذلك من نظمه:

جلُّ أرقاء السوادين أعلما حر، كما ثبت عند العلما

وقد ضاق بدعوته هذه أبناء الإماء والكبراء وذوو الجاه الذين كانت دُورُهم وقصورُهم تعج بالإماء المستولَدات والبنين والبنات المتكونين من هذا النكاح، ورَمَوْهُ بالفظائع وطعنوا في عِرْضه وسبّه، وكثرت الشكاية من الشيخ فاستُدعي من طرف الوالي وبلغه استياء أولي الأمر وعموم الناس من هذه الحملة التي تمسُّهم في دينهم وأعراضهم، وأن عليه أن يكف عن قوله هذا ولْيسعه ما وسع غيره من العلماء، فبيّن له الشيخ مُدْرَك هذا الحكم وأدلته من الشرع، وإن حكم أولي الأمر أن يغيروا هذا المنكر ويمتثلوا في أنفسهم ويأمروا غيرهم بالامتثال لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ﴾ فجعل الوالي يناقش الشيخ، فأغلظ له الشيخ القول وردّ عليه بأن العلم ليس شغله، فقال لأعوانه: خذوه إلى السجن، فقال له الشيخ: نعم هذا شغلك!

وما إن شاع خبر سجنه في المدينة حتى عمّها الاضطراب وخصوصاً في أوساط العمال والحِرَفيين والطلبة وغيرهم وقاموا بمظاهرة عظيمة هي الأولى من نوعها في مغرب أمس كما سبق القول، احتجاجاً على اضطهاد قادة

الرأي من أهل العلم وكبْت الحرية الفكرية، فصدر الأمر بتسريح الشيخ فوراً، وكان عالم فاس الشيخ المهدي ابن سودة ممن استنكر فعل الوالي وكتب إليه بذلك، وهكذا أخرج الشيخ من السجن محمولاً على الأعناق وعاد إلى منزله معزّزاً مكرّماً وتقاطرت الوفود إليه من مختلف الطبقات مهنئة وشادّة أزره، فأصبح أقوى شكيمة وأصلب عوداً مما كان عليه من قبل، لما رآه من تضامن الناس معه ومناصرتهم له، وإلى ذلك يشير مؤرخ المغرب العلامة الناصري في كتابه الاستقصا بقوله: «وكان رحمه الله فقيهاً عالماً متضلعاً قوّالاً بالحق دعا به لا يهاب في ذلك كبيراً ولا صغيراً، ولقد امتحن في ذلك من قبل السلطان فلم يَفُلَّ ذلك من عزمه، ولم يُوهِ من حدته وصرامته».

وموقف آخر كان للشيخ فيه قدم صدق وانفرد كذلك برفع رايته في وقته، وهو الاعتراض على الولاة الظَّلمة وإنكار أعمالهم وانتقاد تصرفاتهم بكل صراحة وغلظة وتشنيع، ويتجسد ذلك في الرسائل التي كتبها ضدهم وفيها الوزير ورجل السلطة والمكلف بمهمة كخليفة الوالي الذي وكل إليه أمر التجنيد فكان يتلاعب به حسب مصالحه الشخصية، وفي غير ذلك مما كانت تمليه عليه الغيرة الدينية والاهتمام بقضايا الشعب والنصح لمن ولأه الله على الأمة الذي هو من أحب الواجبات على عموم المسلمين فكيف بالعلماء.

ومواقفه من هذا القبيل مما يطول تتبُّعه، والناس تحكي منها الغرائب فلنكتفِ بما ذكرناه، ويهمنا أن نُمحِّص

موقفه من التصوف كما فعلنا في موقفه من السماع. فهو لم يكن ينكر التصوف من أهله، كيف وهو لا يفتأ يستشهد بكلام أئمته كالجُنَيد والقُشَيْري صاحب الرسالة والغزالي وغيرهم، ولكنه كان ينكر على أهل الأحوال الكاذبة والدعاوى الباطلة، والمتشيخين من غير علم، والمتصوفين مع سوء السلوك، وكان اهتمامه بالباطن أكثر من الظاهر، وبالأعمال قبل الأفعال، ومما كان يقوله ازدراءً على المتفرّقة الذين يتعاطون النشوق: «الفضيحة كل الفضيحة، السَّبْحة والتنفيحة» وكثيراً ما كان ينشد فيهم قول صاحب المباحث الأصلية:

قولُ الفقير أنني فقير إلى الظهور أبداً يشير

وخلاصة القول، إنه كان يخضع التصوف للفقه من غير عكس، فمدرستُه فيه هي مدرسة ابن الحاج صاحب المدخل والمرجاني وابن أبي جمرة ومن أتى بعدهم وكان على هذا النهج مثل زروق وابن ناصر ومن خزانته خرجت النسخة التي طبع عليها كتاب المدخل أول ما طُبع. ويدل على ذلك مسلكه في كتاب الاختصار من تطريز أبواب الفقه بما ورد في الكتاب والسنّة متعلقاً بكل باب، وتنزيل أحكام المسائل على مقتضى الشرع، من تصحيح الأعمال بالنيات واتباع السلف الصالح.

ونخرج من هذا إلى أخذه بالسنة ولو خالفت المذهب كترجيحه للقول الذي يوافق الحديث وإن كان ضعيفاً وقوله كما سبقت الإشارة إليه بالجهر بالبسملة لأن مخالفة المذهب حاصلة بالأسرار فيها فلا معنى له، وسكوته عن تأييد

المسناوي للقبض وعدم التعرض لكراهيته، وتأييده لسنة السكوت في تشييع الجنازة على ما ذهب إليه الرهوني بعدم رده عليه وقوله بالتنفل بين الأذان والإقامة على ما جاء في السنة وغير ذلك من الجزئيات التي يمكن استخراجها من الاختصار وغيره من كتبه.

ومن المهم أن نذكر أنه ولي القضاء بمراكش وأنه اعتذر عن القبول وتعلل بكل العلل، فلم يقبل منه عذر ولا سومح في ذلك، فقال له شيخه ابن عبدالرحمٰن الحجرتي: أقبل وأذهب وأحكم بالشرعية ولا تخالف شيئاً مما تعرف من شروط الخطة فإنهم يعفونك سريعاً وهكذا قدم إلى مراكش، وجاءه عدول المحكمة يسلمون عليه ويرحبون به فقال لهم: مَن أنتم؟ قالوا: العدول، فقال لهم: أنا غريب عن هذا البلد وعدالتكم عندي غير ثابتة ولا أعرفها فأتوني بما يثبتها لأتعامل معكم وأقبل شهادتكم فأحدث كلامه هذا رجة في نفوسهم، وخرجوا من عنده يتلاومون، وذهبوا إلى القاضي الثاني، وكان في مراكش قاضيان اثنان، فقال لهم: لا عليكم أنتم مقبولون عندي فلا ترجعوا إليه.

وكذلك فعل مع ناظر الأوقاف لما جاء للسلام عليه قال له بناءً على ما هو مقرر في كتب الفقه فإن الأوقاف لنظر القاضي ومتوليها تابع له وعليه فيجب أن تحضر لي الحوالة الحبسية ودفاتر الحسابات ولا تبرم شيئاً بعد الآن إلا بمشاورتي وموافقتي، فخرج الناظر وهو لا يقضي العجب من هذا القاضي الذي لم يرَ مثله من قبل.

وراجع الوالي الجهات المسؤولة في الأمر، وبقي الشيخ لا ينظر إلا في الدعاوى التي أزمنت أو التي كان أصحابها يخافون من التلاعب بها، فهم يرفعونها إليهم علماً بأن القاضي الجديد ممن اشتهر بالاستقامة والدين المتين فلعله يفصل فيها بما يجب، ولما كان يتوقعه من عدم الموافقة على السيرة التي سلكها وتشوفه إلى العودة لبلده كتب للوزير الأول يستقيل من هذه الولاية التي لم يخلق لها على حد تعبيره، ويطلب الرجوع إلى أهله وطلبته ودروسه العلمية ومدينته فاس التي ألف العيش فيها وألفته وأنه في مراكش غريب ضائع يخدم نفسه بنفسه، وفي مثل هذه الحال يجوز له أن يُقيل نفسه كما نصّ عليه الفقهاء إن لم تقبل استقالته فلم يلبث أن جاءه الإعفاء والإذن برجوعه إلى فاس.

ولا يستغرب هذا من فعله فالرجل كادت أحواله تكون غريبة بالنسبة إلى أهل عصره، وقد قلت شبه هذا الكلام لأخينا العلامة المرحوم سيدي الجواد الصقلي حين أبدى لي تعجبه من تشديد الشيخ فبيّنت له أن ما كان عليه الشيخ لا يُعدُّ تشديداً إلا بالنسبة لعصرنا، ولفت نظره إلى ما يقوله الناس عنه هو بالذات من حيث تديُّنه والتزامه فهل يعتبر متشدداً هو الآخر؟

إن الحق في زمن الباطل لا أنصار له، ولكن المصلحين في كل زمان يعملون على نصرته، ولا يبالون بما يلاقونه من المبطلين على كثرتهم ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾.

وفاته:

قال العلامة المشرفي في كتابه «الدر المكنون»: كان ابتداء مرض شيخنا قدّس الله روحه في يوم الجمعة مفتتح شوال سنة ثنتين وثلاثمائة وألف وذلك أنه لما صعد المنبر للخطبة بجامع أبي الجنود وشرع فيها أصابته حالة لم يقدر معها على إتمام الخطبة قائماً فكملها بالجلوس ثم لم يزل به كذلك بعض الضرر وتفاقم الأمر واشتد عليه المرض حتى كان آخر يوم من ذي القعدة وهو يوم الخميس فاحتُضر وخرجت روحه رحمه الله وهو محاط بالعلماء والطلبة وكثير من الناس وذلك ليلة الجمعة مهل ذي الحجة الحرام من السنة المذكورة واجتمع لجنازته ما لا يحصى من الخلائق وأراد طلبة العلم أن يحملوا نعشه فمنعهم أخوه وارث سره العلاّمة سيدي التهامي فحمله الحمّالون المُعدُّون لذلك إلى جامع الأندلس حيث صلّي عليه ثم حُمل إلى مقبرة القباب خارج باب الفتوح في حشد من الخلائق يُستغرب وجوده بفاس، وكُسِر نعشه وتخاطفه الناس تبركاً به، كما كُسِر النعش تحت مولاتنا عائشة وسالم بن عبدالله وغيرهما رضي الله عنهم. (انتهى باختصار كثير).

أثره:

سبق أن ذكرنا أسماء كتبه ورسائله ونقدم فيما يلي بعض أنظامه العلمية فمنها قوله فيما يوجب الكفر:

ولا تكفِّرَنْ إلا بالشَّرع
وضابط التكفير فيه مرعِي

وهــو اعــتــقــادُه أو الــتــكــذيــبُ
بِــبَــعــض مــا جــاء بــه الــحــبــيــب
أو الــتــهــيُّــؤُ بــهــيــئــة الــكــفــار
كــحــمــل صَــالِــبٍ وعــقــد زُنَّــار

ومنها قوله فيما تصير به الصغيرة كبيرة:

صــغــيــرة تــكــبــرُ بــالإصــرار
أو فــرحٍ بــهــا أو افــتــخــارِ
أو عــدم اســتــحــيــا أو اســتــصــغــار
أو كــونــهــا مــن قــدوة يــا قَــارِ

وقوله بتعريف الإخلاص:

حــقــيــقــة الإخــلاص أن لا تــطــلــبــا
شــاهــداً غــيــر الله مــنــه فــارهــبــا
وقــيــل الإخــلاص تــصــفــيــة الــعــمــل
مــن الــكَــدُوراتِ فــجــنّــب الــخــلــل
وقــيــل إنــه مــن أســرار الإلٰــه
يــودعــه فــيــمــن أحــبّ واصــطــفــاه

ومنها قوله في العمل الصالح:

وفَــسّــرَنَّ صــالــحَ الأعــمــال
بــجــامــع لــهــذه الــخــصــال
الــعــلــمِ والــنــيــة والإخــلاص
والــصــبــرِ لــيــس عــنــه مــن مــنــاص

وقوله:

وضرب كل ذي حياة محترم
حرام إجماعاً فَعَم الحُرَم
وضربه الوارد في الأخبار
بقصد تأديب بلا إضرار

وقوله في تعريف السّتْر الجميل:

ثم العناية بلا رجال
مع الغِنى بغير ما أموال
وبعد ذا دخول الجنَّة بلا
عملٍ هو السَّتْرُ فَلْتَبْتَهِلا

وقوله:

وبالمخالفة للشيطان
عداوُهُ لا اللَّعنِ باللِّسان

وقوله في مخالفة الإجماع:

وكلُّ مَن خالف بعد الإجماع
فهو محجوج به بلا نزاع
إذ خرقُهُ حرام باتفاق
لآية الترهيب في الشقاق
ولحديث أمَّتي لا تجتمع
على ضلال فاتَّبِعْ لا تَبْتَدع

وقوله:

وتـغـظُـم الـطـاعـة والـمـعـصـيـة
بـالـوقـت والـمـكـان والـوصـفـيـة

وقوله في الصور:

ولـيـس فـي الـصُّـوَر مـا يُـخَـفِّـفُ
إلا بـفـرشٍ بـامـتـهـان يـوصـف

وقوله في شروط الأخذ بالعمل:

الـشَّـرْط فـي عَـمَـلِـنـا بـالـعـمـل
ثُـبـوتُـهُ عـن قِـذْوَةٍ مُـؤهَّـل
مـعـرفـةُ الـزمـان والـمـكـان
وجـود مـوجـبٍ إلـى الأوان

وقوله:

ثـلاثـة عـمـلـهـا يـسـيـرُ
وأجـرهـا عـن الـنـبـيّ كـبـيـرُ
تـقـديـمـك الـنـعـلَ وإمـسـاكُ الإنـا
كـذا الـرِّكـاب كـن بِـهِـنَّ مُـعْـلِـنـا

ومنها قوله وهو خلاصة رسالته في التسَرِّي بمَلْك اليمين من غير الكفار:

جُـلُّ أرقَّـاء الـسَّـوادِيـن أعـلَـمـا
حُـرّ كـمـا ثـبـت عـنـد الـعـلـمـا

وديـــن غـــالـــبـــهـــم الإســـلام
لـــذا تَـــمَـــلُّـــكـــهـــمُ حـــرام

وبـعـد عـتـق ثـم عـقـد شـرعـي
إنـاثـهـم تُـنـكـح حـسْـب الـمرعِـي

مِـلْـك الـيـمـيـن لا يُـحِـلُّ بُـضُـعـاً
مـــنـــهـــن إلا بـــصـــداقٍ فَـــأَزْعـــا

وَهْـي مـن الأربَـع حـقـاً تُـحـسـبُ
ومـن تَـعـدَّى فـهْـو عـاصٍ مـذنِـبُ

يـا عَـجَـبـاً كـيـف يـبـاع الـمـسـلـم
ويُـسْـتَـبَـاحُ عِـرضـه ويُـظـلـم

وأعْـجَـبُ الـعَـجَـبِ إشـهـادُ الـعـدول
عـلـيـه بـالـبـيـع وسـائـر الـفـضُـول

فـــنـــســـأل الله الـــذي ألْـــهَـــمَـــنـــا
يـــنـــفـــعـــنـــا بـــكـــل مـــا عَـــلَّـــمـــنـــا

* * *

فهرس الجزء الأول

الموضوع	الصفحة
تقديم	أ
العلاَّمة عبدالله گنون يتحدث عن نفسه من خلال كتابه «مذكرات غير شخصية»	٥
العلامة عبداللّه گنون يتحدّث عن نفسه	٩
أصداء فاس	١٥
وداعاً يا فاس	٢٣
طنجة: النشأة والمقام	٣٥
طنجة النشأة والمقام	٥١
لقاءات على الصعيد الوطني	٧٠
المدرسة الإسلامية الحرة ومنشآت أخرى	٨٦
لائحة المؤلفات والكتب المحققة والمنشورة للأستاذ المرحوم سيدي عبد اللّه گنون	١٠٨
ما قاله علماء العصر عن كتاب «ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة»	١١٩
١ ـ الأمير جعفر الحسني ـ أمين المجمع العلمي العربي بدمشق ـ يكتب عن الذكريات	١٢١

الموضوع	الصفحة

٢ ـ عرض وتعليق الدكتور نقولا زيادة ١٢٤
٣ ـ محمد الشاذلي خزندار تحية من تونس ١٢٧
٤ ـ هذه السلسلة في الميزان بقلم الأستاذ الدكتور تقي الدين الهلالي ١٣٠
٥ ـ محمد المختار السوسي ثناء وهدية ١٣٤
٦ ـ النبوغ المغربي والذكريات في نظر الزعيم علال الفاسي ١٣٦
٧ ـ الأستاذ عبدالسلام الفاسي ينوّه بالذكريات ١٣٨
٨ ـ هذه السلسلة في نظر الأستاذ المجاهد الحاج أحمد معنينو ١٤٠
٩ ـ رسالة تقدير من صديق المؤلف أديب تِطّاوُن الأستاذ الشريف سيدي البشير أفَيْلال ١٤٢
١٠ ـ العلاَّمة السيد محمد المرير يقرظ الذكريات ١٤٥
١١ ـ تهنئة وتقريظ قصيدة الأديب ابن موسى ١٤٧
تَمّم صنيعك ١٤٧
ملحق الصور ١٥١

الجزء الأول: ذكريات ومشاهير رجال العلم

١ ـ الأصيلي (ت ٣٩٢ هـ) ١٦٩
٢ ـ أبو عمران الفاسي (ت ٤٣٠ هـ) ١٨٨
٣ ـ الشريف الإدريسي (ت ٥٦٠ هـ) ٢٠٥
٤ ـ عثمان السلالجي (ت ٥٧٤ هـ) ٢٤٨
٥ ـ أبو الحسن المسفر (ق ٦) ٢٧٦
٦ ـ ابن الياسمين (ت ٦٠١ هـ) ٢٨٩
٧ ـ أبو موسى الجزولي (ت ٦٠٦ هـ) ٣٠٥
٨ ـ عبدالواحد المراكشي (ت ٦٢٥ هـ) ٣٣١
٩ ـ ابن البنَّاء العددي (ت ٧٢١ هـ) ٣٥١

الموضوع	الصفحة

١٠ ـ ابن رشيد (ت ٧٢١ هـ) ٣٨٥

١١ ـ ابن آجروم (ت ٧٢٣ هـ) ٤٢٢

١٢ ـ ابن الحاج الفاسي (ت ٧٣٧ هـ) ٤٣٩

١٣ ـ ابن أبي زرع (ت ٧٤١ هـ) ٤٦٨

بَحْثٌ بقلم المؤلف في أن: مؤلف الذخيرة السنية هو مؤلف القرطاس ٤٩١

١٤ ـ ابن بطوطة (ت ٧٧٧ هـ) ٥٠٥

١٥ ـ أحمد زروق (ت ٨٩٩ هـ) ٥٤١

١٦ ـ ابن غازي (ت ٩١٩ هـ) ٥٧٩

١٧ ـ محمد المسناوي (ت ١١٣٦ هـ) ٦٠٥

١٨ ـ أبو القاسم الزياني (ت ١٢٤٩ هـ) ٦٢٣

١٩ ـ أكنسوس (ت ١٢٩٤ هـ) ٦٥٤

٢٠ ـ محمد بن المدني گنون (ت ١٣٠٢ هـ) ٦٨٧

* * *



تأليف

العلامة الأديب عبد الله كنون

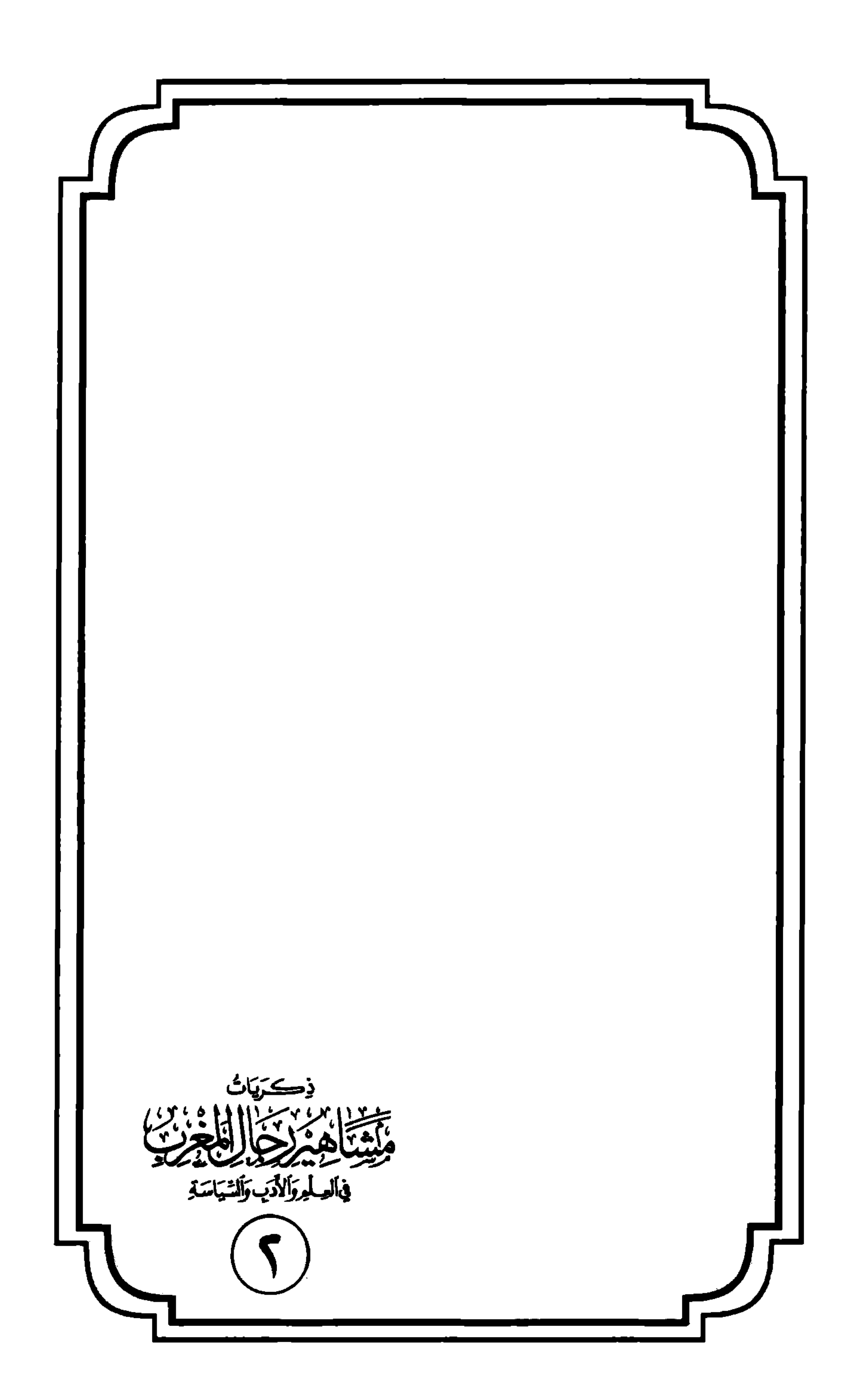
قدم له واعتنى به ورتب تراجمه إلى طبقات

الدكتور محمد بن عزوز

الجزء الثاني
في الأدب

دار ابن حزم

مركز التراث الثقافي المغربي


ذكريات
مشاهير رجال المغرب
في العلم والأدب والسياسة
٢

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ - ٢٠١٠م



ISBN 978-9953-81-857-3

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

مركز التراث الثقافي المغربي
الدار البيضاء - 52 شارع القسطلاني - الأحباس
هاتف: 442931 - 022/ فاكس: 442935 - 022
المملكة المغربية

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - ص.ب: 14/6366
هاتف وفاكس: 701974 - 300227 (009611)
بريد إلكتروني: ibnhazim@cyberia.net.lb



تأليف

العلامة الأديب عبد الله كنون

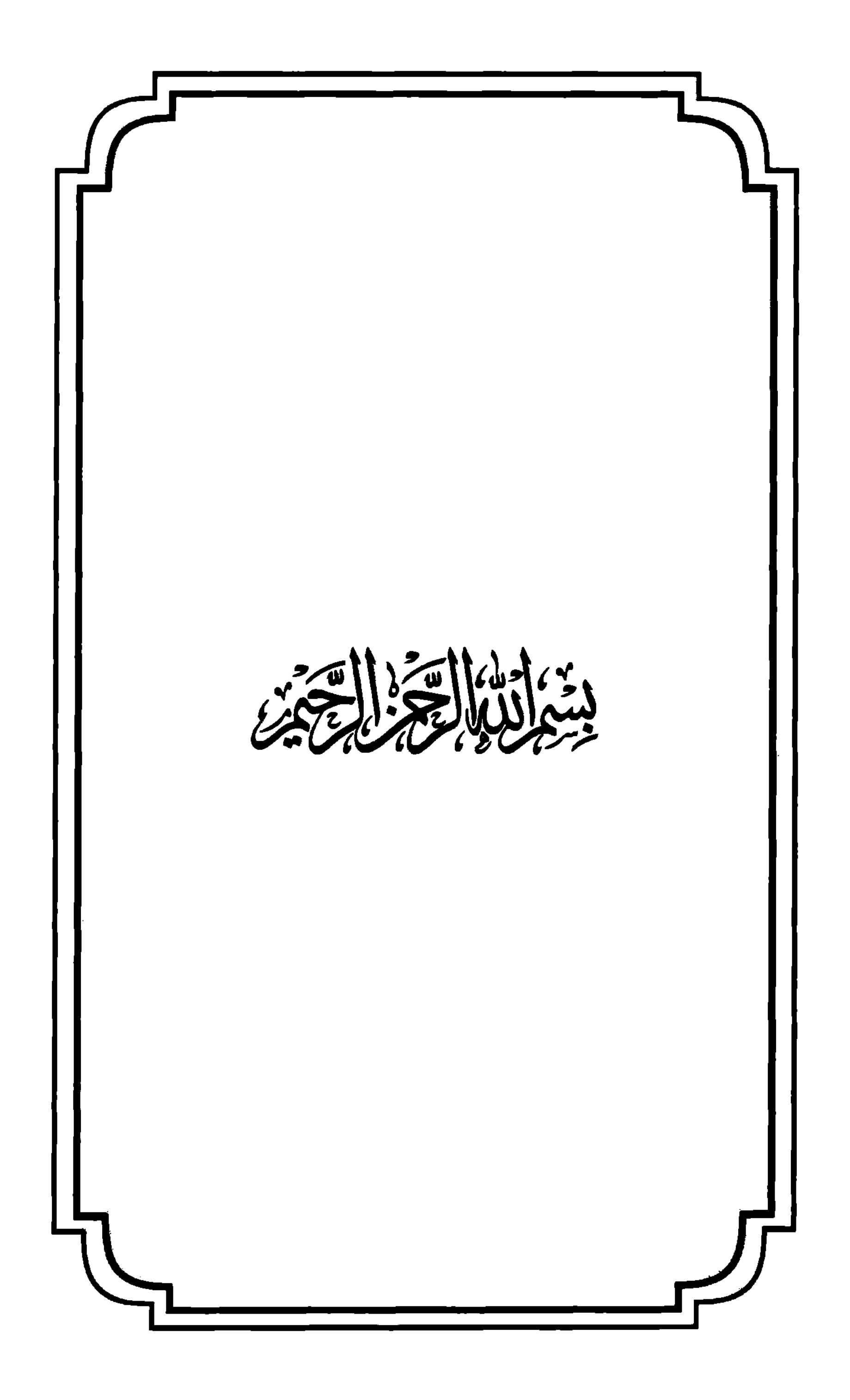
قدم له واعتنى به ورتب تراجمه إلى طبقات

الدكتور محمد بن عزوز

الجزء الثاني

في الأدب

مركز التراث الثقافي المغربي دار ابن حزم


بسم الله الرحمن الرحيم

سابق البربري

اسمه ونسبه، اشتباه أمره على المؤرخين، مَن روى عنه من أهل العلم ومَن تتلمذ له، أحاديث رويت من طريقه، اشتهاره بنظم الشعر، اختصاصه بالنظم في المواعظ والحكم، اتصاله بعمر بن عبدالعزيز، إقامته في دمشق وتولِّيه القضاء في الرقة، الاستشهاد بشعره في العربية، مقارنة الجاحظ له بصالح بن عبدالقدوس، بينه وبين أبي العتاهية.

أبو سعيد بن عبدالله، هكذا كناه ونسبه في تاج العروس قال: روى عنه مكحول وروى عنه الأوزاعي، فهو إذن من تابعي التابعين، وممن سكن دمشق، إذ أن مكحول دمشقي والأوزاعي هو إمام أهل الشام، ويأتي في أخباره مع عمر بن عبدالعزيز ما يؤكد ذلك.

لكن هناك ما يدل على أنه سكن الرقَّة أيضاً وكان إمام مسجدها وقاضي أهلها ولا ندري إن كان ذلك قبل أو بعد سكناه دمشق، أو أنه كان من سكان الرقة وإنما يتردد على دمشق، على أن البخاري قال: يعد في الشاميين، وذلك ما يرجح العكس، كما أن هناك نصاً عن أبي عبيدالله المزراري

نقله ابن عساكر يقول: إنه كان مولى للوليد بن عبدالملك، فهو أموي بالولاء كطارق بن زياد ومن ثم جاءهما هذا التمكن من اللغة العربية.

وهذا الخلاف في نسبته البلدانية جعل بعضهم يقول: إنهما شخصان شامي ورقي، وابن عساكر وإن وصفه أولاً بالرقي عاد فجعلهما شخصاً واحداً، وأغرب الحافظ ابن عبدالبر فجعله عربياً إذ قال عنه في كتاب «جامع بيان العلم»: سابق البلوي المعروف بالبربري، وبَلِي التي نسبه إليها من عرب اليمن كما هو معروف، وممن روى عنه زيادة على مكحول أبو حنيفة وربيعة بن عبدالرحمٰن وشعبة ومطرف والعلاء بن عبدالرحمٰن وغيرهم، وكذلك روى عنه زيادة على الأوزاعي موسى بن أعين وعثمان بن عبدالرحمٰن الطرائفي والسكوني وسواهم. ورويت عنه عدة أحاديث منها حديث: **«الحلال بيّن...»**، وحديث: **«إذا مدح الفاسق غضب الله عزَّ وجلَّ»** وروى عنه ابن عساكر هذا الخبر: كتب مكحول إلى الحسن يسأله عن الطالب والمطلوب فجاءه جواب: إن كنت طالباً فصلِّ بالأرض وإن كنت مطلوباً فصلِّ على الدابة. وهذا مما يدل على مشاركته في علوم الفقه والرواية والحديث.

وقد اشتهر صاحبنا بقول الشعر والإجادة فيه بحيث سارت بعض أقواله سير الأمثال، ومنها هذان البيتان:

قد ينفع الأدبُ الأبناءَ في صغر

وليس ينفعهم من بعده الأدب

إن الـغـصـون إذا عـدَّلْـتـهـا اعـتـدَلـت

ولا يَـلِـيـن ولـو لـيَّـنْـتَّـه الـخـشـب

نسبهما إليه غير واحد.

والمعتقد أن له ديواناً شعرياً يحتوي جميع ما قاله في الأدب والأخلاق والحكم والمواعظ، إذ هي المواضيع الغالبة على شعره، وهاك ما جاء في فهرست ابن خير دليلاً على ما ذكر:

«أخبار سابق البربري وأشعاره» حدثني به القاضي أبو بكر بن العربي رحمه الله قال: أنا أبو الحسين المبارك بن عبدالجبار الصيرفي قال: أنا أبو إسحٰق إبراهيم بن عمر بن أحمد البرمكي، قال: قرئ على أبي عمر محمد بن العباس بن زكريا بن حيوية قال: قرىء على أبي الحسن أحمد بن جعفر بن محمد من كتابه هو يسمع، وأنا أسمع فأقر به، قال: كان سابق البربري فذكر أخباره وقصيداً واحداً ثم قصائده بروايات مختلفة، قال ابن العربي: تقيدت في مواضعها عندنا والحمد لله، ولا يوجد هذا الكتاب الآن أو على الأصح لا نعرف عنه خبراً، ومن المؤسف حقاً أن يضيع هذا الأثر الأدبي النفيس لشاعر ربما كان هو أول من نبغ من هذا المغرب العربي بقول الشعر في لغة الضاد والإجادة فيه، وهذا النبوغ المبكر، على أثر اتصال البربر بالعرب إن دلّ على شيء، فإنما يدل على صحة انتساب هذه القبائل المغربية إلى الشعب العربي، وصِدْقِ النسابة الذين

يرجعون البربر إلى أصول عربية من عدنانية وقحطانية. وما أصدق ما ينسب إلى تماضر بنت قيس عيلان ترثي أخاها براً، وتذكر بُعده عن وطنه:

كأني وبراً لم تَعِزَّ ديارنا بنجد ولم نقسم نهاباً ومغنما
وشطت ببر داره عن بلاده وطوح بر نفسه حيث يمما
وأزرت ببر لكنة أعجمية وما كان بر في الحجاز بأعجما

نعم، لقد استعجم بر لما غاب عن بلاده وتوحد في ديار الغربة، وها هو لما اجتمع ببني أبيه وأخواله وأعمامه يستعرب ثانية ويتفتق لسانه في أسرع ما يكون بلغة الضاد. ويصبح سابق بين عشية وضحاها من أشعر أهل زمانه، وطارق من أفصح خطبائهم. ولماذا لا يكون ذلك: وإسماعيل أبو العرب المستعربة يمثل لنا نفس القصة، وإنما يعرضه عرضاً معاكساً لقصة بر؟

أما إنه قد آن لنا أن نهتم جدياً بالمسألة، ونعرض قضية عروبة البربر على الباحثين النفسيين ونحلل هذه اللهجات البربرية تحليلاً فيلولوجياً فلا يمكن أن يكون هذا التعلق الشديد بالعرب وهذا البيان المعرب بلغتهم ظاهرتين عاديتين لا ترجعان إلى عناصر نفسية وأصول لغوية متحدة أو مشتركة. وإلا فلماذا لا يعتز الفارسي مثلاً إلا بأصله، ولم تكن إلا كلا ولا، حتى عاد إلى فَهلويته يمكن لها في بلاده بعد أن كان بلغ في العربية شأواً لا يلحق، على حين أن البربري، في عنفوان مجده وإقبال دولته لا يحيد عن الانتماء إلى الأصول العربية التي يعتقد أنه منحدر

منها، وما يزال كذلك إلى الآن يُدلّ بعروبته ويرفع من شأن عربيته؟

المسألة مهمة جداً فلينظر فيها بجد...

ونعود فنروي بعض ما وقفنا عليه من شعر صاحبنا سابق، في مطالعاتنا طول عدة سنين. وهو جملة من القصائد والقطع النفيسة في الأدب والأخلاق نزُفّها إلى الناشئة المغربية على أنها أثر من الآثار الأدبية الرفيعة التي أنتجها أبناء هذه البلاد الخصبة، وإن كان بعضهم ما يزال يتشكك في أن لبلاد المغرب أدباً.

قال سابق يُزهّد في الدنيا وهي مما أنشده له الجراوي في كتابه صفوة الأدب المعروف بالحماسة المغربية:

النفس تكلف بالدنيا وقد علمت
أن السلامة منها ترك ما فيها
والله ما قنعت نفس بِمَا رزقت
من المعيشة إلا سوف يكفيها
أمْوَالنا لذوي الميراث نجمعها
ودُورنا لخراب الدهر نبنيها
قِسْ بالتجارب أحداث الزمان كما
تقيس نعلاً بنعل حين تحذوها
والله ما عبرت في الأرض قاطرة
إلا وصرف الليالي سوف يُفنيها

ومما أنشده له الشريسي في شرح المقامات، ولعله هو والأبيات قبله من قصيدة زهدية طويلة:

نلهو ونأمل أياماً تعد لنا
سريعة المَرّ تطوينا ونطويها

كم من عزيز سيلقى بعد عزته
ذلاً وضاحكة يوماً سيبكيها

وللحتوف تُرَبّى كل مرضعة
وللحساب برى الأرواح باريها

لا تبرح النفس تنعى وهي سالمة
حتى يقوم بنادي القوم ناعيها

ولن تزال طوال الدّهر ظاعنة
حتى تقيم بواد غير واديها

أموالنا لذوي الميراث نجمعها
ودورنا لخراب الدهر نبنيها

وقال: ولعله من هذه القصيدة أيضاً:

أين الملوك التي عن خطبها غفلت
حتى سقاها بكأس الموت ساقيها

غرت زماناً بملك لا دوام له
جهلاً كما غرّ نفساً مَن يُمَنّيها

وصبحت قوم عاد في ديارهمُ
بِمُفظعٍ يومَ عادتهم عواديها

وتُبَّعاً وثمودَ الحِجْر غادرهم
ريب المنون رميماً في مغانيها
فكيف يبقى على الأحداث غابرنا
كأننا قد أضلتنا دواهيها

ومن قوله في الحكمة على طريقة المعاريض:

تعاون على الخيرات تظفر ولا تكن
على الإثم والعدوان ممن يعاون
وداهن إذا ما خفت يوماً مسلَّطاً
عليك ولا يحتال من لا يداهن
ولا تكُ ذا لونين يبدي بشاشة
وفي صدره ضب من الغِلّ كامن

وقال في اتباع الهوى، ولعلهما من تتمة الأبيات قبلهما:

وهجر الهوى للمرء ـ فاعلم ـ سعادة
وطول الهوى رَيْنٌ على القلب رائن
فكن دافناً للشر بالخير تسترح
من الشر، إن الخير للشر دافن

وقال ولعلهما منها أيضاً:

فحتى متى تلهو بمنزل باطن
كأنك فيه الثابت الأصل قاطن
وتجمع ما لا تأكل الدهر دائباً
كأنك في الدنيا لغيرك خازن

وأنشد له المبرد في الكامل هذا البيت المفرد:

وإن جاء ما لا تستطيعان دفعه
فلا تجزعا مما قضى الله واصبرا

وأنشد له البحتري في حماسته هذه الأبيات الأربعة مفردة:

استخبر الناس عما أنت جاهله
إذا عَمِيتَ فقد يجلو العمى الخبر

* * *

وفي البحث قدماً والسؤال لِذي الْعَمى
شفاء وأشفى منهما ما تعاين

* * *

إن عبت يوماً على قوم بعاقبة
أمراً أتوه فلا تصنع كما صنعوا

* * *

إذا عبت أمراً فلا تأته
وذو اللب مجتنب ما يعيب

والأول من هذه الأبيات من قصيدة طويلة ذكرها ابن الجوزي في كتابه مناقب عمر بن عبدالعزيز قال:

«ذِكْرُ ما وعظ به عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه» عن أبي سليمان أحمد بن عبدالله الجواليقي قال: قال سابق البربري لعمر بن عبدالعزيز رحمه الله:

بسم الذي أنزلت من عنده السور
الحمد للّه أما بعد يا عمر
إن كنت تعلم ما تأتي وما تذر
فكن على حذر قد ينفع الحذر
واصبر على القدر المجلوب وارض به
وإن أتاك بما لا تشتهي القدر
فما صفا لامرىء عيش يُسَرُّ به
إلا سيتبع يوماً صفوه الكدر
واستخبر الناس عما أنت جاهله
إذا عميت فقد يجلو العمى الخبر
قد يرعوي المرء يوماً بعد هفوته
وتحكم الجاهل الأيام والغِير
إن التُّقى خير زاد أنت حامله
والبر أفضل شيء ناله البشر
من يطلب الجور لا يظفر بحاجته
وطالب الحق قد يهدى له الظفر
وفي الهدى عبر تسقى القلوب بها
كالغيث ينضرُ عن وسْميّه الشجر
وليس ذو العلم بالتقوى كجاهله
ولا البصيرُ كأعمى ما له بصر
والرشد نافلة تهدي لصاحبها
والغي يكره منه الورد والصدَر

قد يوبق المرءَ أمر وهو يحقره
والشيء بالنفس يَنمي وهو يحتقر
لا يشبع النفس شيء حين تحرزه
ولا يزال لها في غيره وطر
ولا يزال وإن كانت بها سعة
لها إلى الشيء لم تظفر به نظر
وكل شيء له حال تغيره
كما تغير لون اللمة الغِير
والذكر فيه حياة للقلوب كما
يحيي البلاد، إذا ما ماتت المطر
والعلم يجلو العمى عن قلب صاحبه
كما يُجَلّي سواد الظلمة القمر
لا ينفع الذكر قلباً قاسياً أبداً
وهل يلين لقلب الواعظ الحجر
والموت جسر لمن يمشي على قدم
إلى الأمور التي تخشى وتنتظر
فهم يمرون أفواجاً وتجمعهم
دار إليها يصير البدو والحضر
من كان في معقل للحرز أسلمه
أو كان في خَمَرٍ لم ينجه الخَمَر
حتى متى أنا في الدنيا أخو كُلَفٍ
في الخد مني إلى لذاتها صَعَر

ولا أرى أثراً للذكر في خلدي
والحبل في الحجَر القاسي له أثر
لو كان يسهر عيني ذكر آخرتي
كما يُؤَرقني للعاجل السهر
إذاً لداويت قلباً قد أضر به
طول السقام وهيض العظم ينجبر
ما يلبث الشيء أن يبلى إذا اختلفت
يوماً على نقصه الرَّوْحات والبُكر
والمرء يصعد ريعان الشباب به
وكل مصعدة يوماً ستنحدر
بينا يرى الغصن لدناً في أرومته
ريان صار حطاماً جوفه نخِر
كم من جموع أشت الدهر شملهم
وكل شملٍ جميع سوف ينتثِر
وكم أصيد سامي الطرف معتصب
بالتاج نيرانه للحرب تستعر
يظل مفترش الديباج محتَجِباً
عليه تبنى قباب الملك والحُجر
قد غادرته المنايا وهو مستلب
مجدّل تَرِبُ الخدين منعفر
أبعد آدم ترجون البقاء وهل
تبقى فروع لأصل حين ينقعر

لكم بيوت بمستن السيول وهل
يبقى على الماء بيت أُسُّه مَدر
إلى الفناء وإن طالت سلامتهم
مصير كل بني أنثى وإن كثروا
إن الأمور إذا استقبلتها اشتبهت
وفي تدبرها التِّبيان والعِبر
والمرء ما عاش في الدنيا له أمل
إذا انقضى سفر منها أتى سفر
لها حلاوة عيش غير دائمة
وفي العواقب منها المرء والصَّبِر
إذا قضت زمر آجالها نزلت
على مَنازلها من بعدها زمر
وليس يزجركم ما توعظون به
والبَهم يزجرها الراعي فتنزجر
أصبحتم جزراً للموت يقبضكم
كما البهائم في الدنيا لكم جزر
لا تَبْطَروا واهجروا الدنيا فإن لها
غباً وخيماً وكفر النعمة البطر
ثم اقتدوا بالألى كانوا لكم غرراً
وليس من أمة إلا لها غرر
حتى تكونوا على منهاج أولكم
وتصبروا عدم الدنيا كما صبروا

فهذه قصيدة من أحسن شعر سابق وأحفله بالموعظة والتذكير، ولو لم يكن له إلا هي لكانت أصدق برهان على تألهه وشاعريته التي خضع لها عمر بن عبدالعزيز مع ما عرف من تأبّيه على الشعراء وامتناعه من مقابلتهم، ولمَ لا يخضع له عمر وهو يفتتح شعره بسم الله والحمد لله؟ وقد وقفت على أبيات مختلفة من هذه القصيدة في مظان عديدة فلا حاجة لذكرها، وقد أتحفنا بها كاملة الحافظ ابن الجوزي جزاه الله خيراً.

وأما البيت الثاني من الأبيات الأربعة التي عند البحتري فلا شك أنه من تلك القطع النونية التي أوردناها قبل وأنها جميعاً تكوّن قصيدة من أبدع قصائد سابق.

بقي البيتان الثالث والرابع، ونحب أن نشير إلى أن معناهما هو ما تضمنه بيت مشهور من قصيدة تنسب إلى أبي الأسود الدؤلي وهو:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله
عار عليك إذا فعلت عظيم

ونحبّ أن نشير كذلك إلى أن هذه القصيدة قد نسبت لصاحبنا أيضاً، كما نسبت للمتوكل الليثي، وهذا البيت بالخصوص وجد في قصيدة للأخطل. ونقل السيوطي عن تاريخ ابن عساكر أنه للطرماح، وانظر شرح شواهد المغني، وفي البداية والنهاية لابن كثير: روى ابن أبي الدنيا عن ميمون بن مهران قال: دخلت على عمر بن عبدالعزيز، وعنده سابق البربري وهو ينشده شعراً فانتهى في شعره إلى هذه الأبيات:

فكم من صحيح بات للموت آمناً
أتته المنايا بغتة بعدما هجع
فلم يستطع إذ جاءه الموت بغتة
فراراً ولا منه بقوته امتنع
فأصبح تبكيه النساء مقنعاً
ولا يسمع الداعي وإن صوته رفَع
وقرب من لحد فصار مقيلَه
وفارق ما قد كان بالأمس قد جمع
فلا يترك الموت الغَنِيّ لماله
ولا معدِماً في المال ذا حاجة يدع

ولعل هذه الأبيات من قصيدة طويلة أنشد فيها الزجاج في أماليه منها هذين البيتين مع نسبتهما لسابق:

فلا تحفرن بيراً تريد أخاً بها
فإنك فيها أنت من دونه تقع
كذاك الذي يبغي على الناس ظالماً
تصبه على رغم العواقب ما صنع

وهو مما يستشهد به أيضاً لجزم تصبه بدون جازم بل بما في الموصول من معنى الشرط؛ ومما نسب له المرزباني برواية ابن عساكر:

يخادع ريب الدهر عن نفسه الفتى
سفاهاً وريب الدهر عنها يخادعه

ويطمع في سوف ويهلك دونها

وكم من حريص أهلكته مطامعه

ونسب إليه أيضاً البيت الشهير:

وكأن ترى من صامت لك معجب

... إلخ، وهو لزهير كما لا يخفى.

وروى ابن عساكر أيضاً قطعة من رائيته الكبرى جاء فيها هذا البيت ولم يرد في القصيدة بعد قوله: وليس يزجركم ما توعظون به... إلخ:

ما يشعرون بما في دينهم نقصوا

جهلاً وإن نقصوا دنياهم شعروا

وروي عن عثمان بن عبدالحميد قال: دخل سابق البربري على عمر بن عبدالعزيز فقال له عمر: عظني يا سابق وأوجز، قال: نعم يا أمير المؤمنين وأُبْلغ إن شاء الله فقال له: هات. فأنشده:

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى

ووافيت بعد الموت مَن قد تزودا

ندمت على أن لا تكون شريكه

وأرصَدْت قبل الموت ما كان أرصدا

وروي له ما ثبت في وصية الحسن بن سهل لابنه إبراهيم بن الحسن منسوباً إلى سابق هذه الأبيـات:

العلم والحلم خَلَّتان هما
للخلق زين إذا هما اجتمعا
صنوان لا يستتم حسنهما
إلا بجمع لذا وذاك معا
كم من وضيع سما به العلم والحـ
لم فنال العلا وارتفعا
ومن رفيع البِنا أضاعهما
أخمله ما أضاع فاتَّضعا

وروي مما أنشده أبو الفضل الرياشي من هذه القصيدة:

إن كنت متخذاً خليلاً
فتوقَّ وانتقد الخليلا
من لم يكن لك منصفاً
في الود فابغ به بديلا
وعليك نفسك فارعها
واكسب لها عملاً جليلا
ومن استخف بنفسه
زرعت له قالاً وقيلا
وأقل ما تجد اللئيم
عليك إلا مستطيلا
والمرء إن عرف الجميل
وجدته يأتي الجميلا

ولربما سئل البخيـ
ـل الشيء لا يسوى فتيلا

فيقول لا أجد السبيـ
ـل إليه يكره أن ينيلا

ولذاك لا جعل الإلـ
ـه له إلى خير سبيلا

يا مبتني الدارِ التي
هو مسرع عنها الرحيلا

إن لم تُنل خيراً أخا
ك فكن له عبداً ذليلا

وتجنب الشهوات واحـ
ـذر أن تكون لها قتيلا

فلرب شهوةِ ساعة
قد أورثت حزناً طويلا

وأنشد له ابن عبدالبر:

إذا زجرت لجوجاً زدته علقاً
ولجّت النفس منه في تماديها

فعد عليه إذا ما نفسه جمحت
باللين منك فإن الليـنَ يَثنيها

ويشبه أن يكون هذان البيتان من قصيدة واحدة سبق ذكر مقطعات منها على مثل الوزن والقافية. وله أيضاً مما أنشده ابن عبدالبر:

موت التقي حياة لا انقطاع لها

قد مات قوم وهم في الناس أحياء

نعم، إن حياة العلماء العاملين لا انقطاع لها بالموت فذكرهم باق على الأيام ومنهم صاحبنا الذي مرّ على موته أكثر من اثني عشر قرناً وهو ما يزال يعطر المجالس بذكره وتحلى الصحف بآثاره.

وتحدث الجاحظ في «البيان والتبيين» عن شعر صالح بن عبدالقدوس وسابق البربري فأطراهما بما اشتمل عليه من الحكمة والأمثال التي لو تفرّقت في أشعار غيرهما لأغنتها، وهذا قوله في ذلك: «لو كان شعر صالح بن عبدالقدوس وسابق البربري مفرقاً في أشعار كثيرة لصارت تلك الأشعار أرفع مما هي عليه بطبقات، ولصار شعرهما نوادر سائرة في الآفاق، ولكن القصيدة إذا كانت كلها أمثالاً لم تسرِ ولم تجرِ مجرى النوادر، ومتى لم يخرج السامع من شيء إلى شيء لم يكن لذلك النظام عنده موقع».

وبعد، فهذا شاعر فحل من أكبر الشعراء الذين يفخر بهم هذا المغرب العربي، ويستظهر بهم عند الحديث عن الأدب والأدباء، وقد احتج به أهل العربية وعلماء البلاغة، وقرّبه الخليفة الصالح عمر بن عبدالعزيز، مما يعطيك أن شعره كان مرآة لسلوكه وأخلاقه، فهو قد أربى على أبي العتاهية المعروف بشعره في الزهد والمواعظ، سواء من ناحية تخلُّقه، أو من جهة سبقه إلى جعل شعره قاصراً على

هذه المواضيع، فلا نقول فيه: إنه أبو العتاهية المغربي، بل نقول عن أبي العتاهية: إنه سابق المشرقي.

وشعره أكثر مما ذكرنا، وفي البحث المطول الذي كتبناه عنه جملة صالحة من شعره وبعض أخباره زيادة على ما تقدم فليقف عليه من أراد المزيد إذ لا تحتمل هذه الترجمة ما تفوق به نظيراتها، ولا سيما بعد أن اعتمد ذلك البحث كثير من الكتّاب وصار القراء يسألوننا عنه.



أبو جعفر بن عطية

اسمه ونسبه، بلده، والده، نشأته، توليته الكتابة في الدولة اللمتونية، نبوغه المبكر، سقوط دولة لمتونة، تنكره وتطوعه في الجيش الموحدي، ابتسام الحظ له وكتابته بالفتح إلى عبدالمؤمن، طلب عبدالمؤمن له وتوليته الكتابة والوزارة، ثورة الماسي، رياسة أبي جعفر، وزارته، إفساد الحسّاد بينه وبين عبدالمؤمن، شعر في التحريض عليه، هو وجعفر البرمكي، سفره إلى الأندلس ورجوعه منها مزعجاً، السر الذي أفشاه وكان السبب المهم في نكبته، قتل أبي جعفر، آثاره الأدبية، رسالة له في الاستشفاع إلى عبدالمؤمن، قصيدة، بينه وبين ابن عمار، أدب أبي جعفر، كلمة عبدالمؤمن فيه، بعض رسائل له أيضاً، مساجلة بينه وبين عبدالمؤمن.

هو الكاتب الوزير أبو جعفر أحمد ابن الكاتب أبي جعفر بن محمد بن عطية، هكذا عند ابن الخطيب، وعند ابن الأبار في «الحلة السيراء»: أبو جعفر أحمد بن جعفر بن عطية. وهو الصواب، ـ فإن أباه مترجم في

«الجذوة»: باسم جعفر بن محمد بن عطية، ويكنى أبا أحمد ـ القضاعي بضم القاف نسبة إلى قضاعة أبي حي من اليمن، يقال: إن نسبه في «نزار» المراكشي. قال في الإحاطة: وأصله القديم من طرطوشة، ثم بعد ذلك من دانية»، ولا شك أن هذا أصله «القديم». كما قال لأنه من أهل مراكش. ومن مواليدها عند ابن الخطيب نفسه، إنما لا ندري في أي وقت كان انتقال أسرة المترجم إلى مراكش، ولعله ليس ببعيد جداً.

ولد أبو جعفر بمراكش سنة ٥١٧ كما عند ابن الأبار ولا يخفى أن ما في الإحاطة من أن مولده كان عام ٥٢٧ إنما هو خطأ لا يعول عليه، ولقد كنا قبل الوقوف على تاريخ ولادته عند ابن الأبّار ـ قدّرنا أن مولده بالنظر إلى ظروف حياته قد يكون عام ٥١١، فقاربنا ولم نخطئ خطأ الإحاطة.

ولا نعرف عن نشأة مترجمنا شيئاً إنما ابن الخطيب ذكر أنه أخذ عن أبيه وعن طائفة كثيرة من أهل مراكش، وأبوه كان كاتباً لأمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، والظاهر أنه لم يكن كاتب الملك الخاص؛ إذ الذي يذكره المؤرخون في ترجمة علي بن يوسف بصفته كاتبه الخاص هو أبو محمد بن أسباط، فلعله كان أحد كتّاب الديوان فقط، ثم كتب لتاشفين بن علي وتحصّل في قبضة الموحدين فعفا عنه عبدالمؤمن، ولما حاصر عبدالمؤمن فاساً سنة ٥٤٠ اعتزم والد المترجم على الفرار فقبض عليه في طريقه وسيق إلى عبدالمؤمن فاعتذر فلم يقبل عذره، وسحب إلى مصرعه فقتل رحمه الله.

فهذا الوالد الذي كان أحد كتّاب الديوان لا شك أنه قد أخذ ولده منذ نعومة أظفاره بأسباب التربية والتعليم؛ لأنه كان يقدّر المستقبل الزاهر الذي ينتظره في معية ملوك المسلمين من مرابطة اللمتونيين أصحاب المغرب والأندلس، فنشأ شاباً مثقفاً أديباً عبقرياً مستكملاً أدوات الرياسة، حاذقاً لفنون السياسة، فسرعان ما أصبح متقلداً خطة الكتابة في البلاط اللمتوني.

قال صاحب المعجب: «كان قبل اتصاله بعبدالمؤمن، وفي الدولة اللمتونية يكتب لعلي بن يوسف في آخر أيامه، وكتب عن تاشفين بن علي». وهذا يقتضي أنه هو ووالده كانا كاتبين عند علي بن يوسف وولده تاشفين، ومثله في الإحاطة ونفح الطيب. وهذا - إذا صح - فإنه يدل على نبوغ مبكر جداً من أبي جعفر إذ يكون صار كاتباً في البلاط الملكي قبل تمام العشرين من عمره لأن وفاة علي بن يوسف كانت في سنة ٥٣٧ ولا بد أن يكون أبو جعفر كتب له - على الأقل - في هذه السنة، أي: عند مشارفته للعشرين...!! وفي ابن خلدون ما قد يفهم منه أنه كتب لتاشفين بن علي لأنه كان بمعيته في المغرب الأوسط حين بعثه كاتباً مع ابنه إسحٰق إلى مراكش سنة ٥٣٩.

وبعد، فهذا تاشفين قد تردى في ميدان الحرب، وهذا إسحٰق أخوه قد قتل صبراً بيد الموحدين، فماذا يفعل أبو جعفر الكاتب الناشىء الذي لم يكد يبزغ نجمه حتى أدركه الأفول، وشاهد مصرع والده الذي أخلص لدولته فمات من أجل ذلك الإخلاص!؟... أيراد منه أن يكون

مثل عبدالحميد الكاتب فيقدم نفسه ضحية وفائه لأميره، وهو لم يذق بعد من خله ولا من خمره؟ ولم يشهد من أمره إلا أوقات عسره؟ أم يمضي قدماً لطيته وينشد ما فاته من الحظ في دولته؟ ولماذا وهو الفتى الطموح يحجز نفسه عن المراتب العلية التي تتشوف له في كنف الدولة الفتية، تلك الدولة التي يعرف أنها مفتقرة إلى مقدراته ومحتاجة إلى كفاياته؟ وهل انخراطه في سلك خدامها إلا من الإخلاص للدين والوطن والنزول على حكم الزمن؟ وماذا يملك هو للمتونة من قضاء الله؟! وقد قيل في الحكمة: «ما ترك من الجهل شيئاً من أراد أن يظهر في الوقت غير ما أظهره الله؟».

وإن تعجب فما أعجب هذا التدبير الذي اتخذه أبو جعفر وسيلة ناجحة في الاتصال برجال الدولة الجديدة والحظوة لديهم، ففيه التنصل من ماضيه بأبدع أسلوب والدلالة على رجولته بنزوله من دست الكتابة إلى صف الجندية غير آسف على ما فات، ولا متخوف مما هو آت، وهكذا الرجال توزن بالأعمال لا بالأقوال. قال في المعجب: «كان قبل اتصاله بعبدالمؤمن وفي الدولة اللمتونية يكتب لعلي بن يوسف في آخر أيامه، وكتب عن تاشفين بن علي بن يوسف، فلما انقرض أمرهم هرب وغيّر هيئته وتشبّه بالجند، وكان محسناً للرمي، وكان في الجند الذين خرجوا إلى سوس لقتال ثائر قام هناك، كان الأمير على هذا الجند أبو حفص عمر الهنتاتي المتقدم الذكر في أهل الجماعة، فلما انهزم أصحاب ذلك الثائر، وقتل هو وانفضت تلك الجموع، طلب أبو حفص من يكتب عنه صورة هذه الكائنة

إلى الموحدين الذين بمراكش فدلّ على أبي جعفر هذا ونبّه على مكانه، فاستدعاه وكتب عنه إلى الموحدين رسالة في شرح الحال، أجاد في أكثرها ما شاء ـ منعني من رسمها في هذا الموضوع ما فيها من الطول ـ فلما بلغت الرسالة عبدالمؤمن استحسنها واستدعى أبا جعفر هذا، واستكتبه وزاده إلى الكتابة الوزارة لما رأى من شجاعة قلبه، وحصافة عقله.

وزعم ابن الأبار ـ في أعتاب الكتاب ـ أن انخراطه في الجندية كان لأجل التبلغ بجرايتها حيث قال: «وبلغ به الجد في الاستخفاء والاستتار أن ارتسم في المرتزقين من الرماة ليتبلغ بما يجري عليه». وما نظن كاتباً في الديوان الملكي يتجند لأجل المعاش ولو بلغت به الحاجة ما بلغت، فالغالب أنه إنما فعل ذلك لأجل التوصل به إلى خدمة الدولة الجديدة، والتنصل من ماضيه.

مرحى! مرحى! لهذه الوثبة العالية، والخطوة الكبيرة من الجندية إلى الكتابة، إلى الوزارة. ومن حضيض السخط إلى مقعد الرضى في مثل هذا الزمن اليسير، والأمد القصير! إن هذا لهو ابتسام الحظ، وإقبال الأيام ويمن الطالع، ولكن قبل أن نتكلم عن حاله في الوزارة ينبغي لنا أن نلم إلمامة قصيرة بخبر هذه الثورة التي لحق أبو جعفر بالجيش الذاهب لتسكينها ونأتي على الرسالة التي كتبها إلى عبدالمؤمن يخبره فيها بالفتح، وكانت هي السبب في رفعة قدره لديه؛ أما الثورة فهي: ثورة الماسي وهو رجل يدعى محمد بن هود كان قصّاراً بسلا، فخرج وتسمى بالهادي. وكان يتشبه

بالداعية المهدي بن تومرت، فتبعه الناس واجتمعت عليه القبائل، وبلغت دعوته إلى جميع أقطار المغرب، حتى لم يبقَ مع عبدالمؤمن إلا مراكش، كما عند صاحب القرطاس. أو مراكش وفاس، كما عند صاحب «الحلل الموشية» وذلك في سنة ٥٤٢ وهي ـ بغير شك ـ السنة التي تلت سقوط الدولة اللمتونية. وقد جهز عبدالمؤمن جيشاً لقتاله، ووجهه إليه تحت قيادة يحيى ابن الصحراوية فارس المرابطين المشهور، وكان نزع إلى دعوة الموحدين، فحظي لديهم؛ وقودوه على من وحد من لمتونة فهزمه الماسي الثائر، فأرسل إليه عبدالمؤمن جيشاً آخر بقيادة الشيخ أبي حفص عمر الهنتاتي فقاتله قتالاً شديداً وانتصرت جيوش الموحدين على الثائر، وقتل من أشياعه كثير، ومات هو أيضاً.

ففي هذه الموقعة حضر أبو جعفر متنكراً بصفة جندي من الرماة، وقد نمّ عليه أدبه، فحين طلب قائد الجيش كاتباً يكتب له رسالة إلى عبدالمؤمن أخبر بمقام أبي جعفر من ذلك، فدعاه وكتب الرسالة الآتية:

«كتابنا هذا من (وادي ماسة) بعدما تجدد من أمر الله الكريم، ونصره تعالى المعهود القديم، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم، فتح بهر الأنوار إشراقاً، وأحدق بنفوس المؤمنين إحداقاً، ونبه للأماني النائمة جفوناً وأحداقاً، واستغرق غاية الشكر استغراقاً، فلا تطيق الألسن لكنه وصفه إدراكاً ولا لحاقاً، جمع أشتات الطلب والأرب، وتقلب في النعم أكرم منقلب، وملأ دلاء الأمل إلى عقد الكرب.

فتح تفتح أبواب السماء له
وتبرز الأرض في أثوابها القشب

وتقدمت بشارتنا به جملة، حين لم تعط الحال بشرحه مهلة: كان أولئك الضالون قد بطروا عدواناً وظلماً، واقتطعوا الكفر معنى واسماً، وأملى لهم الله تعالى ليزدادوا إثماً، وكان مقدمهم الشقي قد استمال النفوس بخزعبلاته، واستهوى القلوب بمهولاته، ونصب لهم الشيطان من حبالاته، فاتته المخاطبات من بعد ومن كثب ونسلت إليه الرسل من كل حدب، واعتقدته الخواطر أعجب عجب، وكان الذي قادهم إلى ذلك وأوردهم تلك المهالك وصول من كان بتلك السواحل ممن ارتسم برسم الانقطاع عن الناس فيما سلف من الأعوام واشتغل ـ على زعمه ـ بالقيام والصيام آناء الليالي والأيام، لبسوا الناموس أثواباً، وتدرّعوا الرياء جلباباً، فلم يفتح الله لهم للتوفيق باباً».

ومنها في ذكر صاحبهم الماسي المدعي الهداية:

«فصرع بحمد الله تعالى لحينه، وبادرت إليه بوادر منونه، وأتته وافدات الخطيئات عن يساره ويمينه، وقد كان يدعي أنه بشر بأن المنية في هذه الأعوام لا تصيبه، والنوائب لا تنوبه، ويقول في سواه قولاً كثيراً، ويختلق على الله تعالى إفكاً وزوراً، فلما رأوا هيئة اضطجاعه، وما خطّته الأسنّة في أعضائه وأضلاعه، ونفذ فيه من أمر الله تعالى ما لم يقدروا على استرجاعه، هزم من كان لهم من الأحزاب، وتساقطوا على وجوههم تساقط الذباب، وأعطوا

عن بكرة أبيهم صفحات الرقاب، ولم تقطر كلومهم إلا على الأعقاب، فامتلأت تلك الجهات بأجسادهم، وأذنت الآجال بانقراض آجالهم، وأخذهم الله تعالى بكفرهم وفسادهم، فلم يعاين منهم إلا مَن خرّ صريعاً، وسقى الأرض نجيعاً، ولقي من أمر الهنديات فظيعاً ودعت ضرورة باقيهم إلى الترامي في الوادي، فمَن كان يؤمل الفرار ويرتجيه، ويسبح طامعاً في الخروج إلى ما ينجيه، اختطفته الأسنّة اختطافاً، وأذاقته موتاً زعافاً، ومَن لجّ في الترامي على لججه، ورام البقاء في ثبجه، قضى عليه شرقه، وألوى بدقنه غرقه، ودخل الموحدون إلى البقية الكائنة فيه، يتناولون قتالهم طعناً وضرباً، ويلقونهم بأمر الله تعالى هولاً عظيماً وكرباً، حتى انبسطت مراقات الدماء على صفحات الماء، وحكت حمرتها على زرقته حمرة الشفق على زرقة السماء، وجرت العبرة للمعتبر في جري ذلك الدم جري الأبحر...

هذه هي الرسالة في ألفاظها المنتقاة، ومعانيها البليغة، فالعذر لعبدالمؤمن أن استدعاه واستكتبه ثم استوزره، فالرجل أهل للكرامة حقاً، وهو نموذج رجل الدولة المرغوب فيه في ذلك العصر، إذ لا يقصر عن ابن زيدون وابن عمار وأضرابهما من ذي الوزارتين الذين تقدموه، ولو كتب لآثاره من الخلود ما كتب لآثار الآخرين لرأينا أنه يطأ مواضع أقدمهم ويكاد يزاحمهم بمنكبه.

أما وقد أصبح أبو جعفر كاتباً ووزيراً، فقد أعطى القوس باريها، وأسكن الدار بانيها، وأبدل الله درهمه بدينار، حيث أخلف عليه كتابة اللمتوني المغلب، بكتابة

ووزارة عبدالمؤمن الجبار. قال في الإحاطة: «وأسند إليه (يعني عبدالمؤمن) وزارته وفوّض إليه في أموره كلها، فنهض بأعباء ما فوض إليه، وظهر فيه استقلاله وغناؤه، واشتهر بإجمال السعي للناس، واستمالتهم بالإحسان، وعمّت صنائعه، وفشا معروفه، وكان محمود السيرة، مبخت المحاولات ناجح المساعي، سعيد المأخذ، ميسر المأرب، وكانت وزارته زيناً للوقت، وكمالاً للدولة».

فهذه حاله في الوزارة وهي مثل أعلى في الهمة والفضل والكرم والنبل، وغاية لا تُدرك من التوفيق في الأعمال والتسخير في الأمور، فهل ترى أبا جعفر يسلّم على هذه النعمة من أعداء النعم، وينجو مع ذلك الإحسان من إساءة اللئام؟ هيهات هيهات! فإن كل نعمة عليها حسود، والشكور من الناس قليل، وكذلك سعى خصوم أبي جعفر ومبغضوه غاية جهدهم في كيده والإيقاع به، ولعله كان يعرفهم ويعرف دسائسهم، فكان يتغافل عنهم ويتهاون بأمرهم احتقاراً وثقة بمكانه عند أميره، شأن أمثاله من خلطاء الملوك ومقربيهم حتى أصابه صرف الزمان وحلّ به الحدثان.

قال في الإحاطة: «واستمرت حالته إلى أن بلغ الخليفة عبدالمؤمن أن النصارى أخذوا قصبة المرية وتحصنوا بها، واقترن بذلك تقديم ابنه أبي يعقوب على إشبيلية فأصحبه أبا جعفر بن عطية وأمره أن يتوجه ـ بعد استقرار ولده بها ـ إلى المرية، وقد تقدّم إليها السيد أبو سعيد بن عبدالمؤمن، وحاصر مَن بها من النصارى وضيّق عليهم ليحاول أمر

إنزالهم ثم يعود إلى إشبيلية ويتوجه منها مع واليها إلى منازلة الثائر بها: علي الوهيبي. فعمل على ما حاوله من ذلك واستنزل النصارى من المرية على العهد بحسن محاولته، ورجع هو والسيد أبو سعيد إلى غرناطة مزعجين إليها حتى يسبقا جيش الطاغية، ثم انصرف إلى إشبيلية ليقضي الغرض من أمر الوهيبي، فعندما خلا منه الجو وجد حسّاده السبيل إلى التدبير عليه والسعي به حتى أوغروا صدر الخليفة فاستوزر عبدالسلام بن محمد الكومي، وانبرى لمطالبة ابن عطية وجدّ في التماس عوراته وتشنيع سقطاته، وأغرى به صنائعه وشحن عليه حاشيته فبروا وراشوا وانقلبوا...

وكان مما نقم على أبي جعفر نكاية القرح بالقرح في كونه لم يقف في اصطناع العدد الكثير من اللمتونيين وانتشالهم من خمولهم حتى تزوج بنت يحيى الحمار من أمرائهم[1]. وكانت أمها زينب بنت علي بن يوسف فوجدوا السبيل - بذلك - إلى استئصال شأفته حتى نظم مروان بن عبدالعزيز طليقه ومسترق اصطناعه أبياتاً طرحت بمجلس عبدالمؤمن وهي:

قل للأمير أطال الله دولته
قولاً تبين لذي لب حقائقه
إن الزراجين قوم قد وترتهم
وطالب الثار لم تومن بوائقه

---

(١) سيأتي قريباً عن المعجب أنها أخته لابنته وهو الصواب.

وللـــوزيـــر إلـــى آرائـــهـــم مـــيـــل
لـذاك مـا كـثـرت فـيـهـم عـلائـقـه
هـم الـعـدو ومَـن والاهـم كـهـم
فـاحـذر عـدوك واحـذر مـن يـصـادقـه
الله يـعـلـم أنـي نـاصـح لـكـم
والـحـق أبـلـج لا تـخـفـى طـرائـقـه

فلما وقف عبدالمؤمن على هذه الأبيات البليغة في معناها وغر صدره على وزيره الفاضل أبي جعفر وأسرّ له في نفسه تغيراً فكان ذلك من أسباب نكبته.

«وقيل: أفضى إليه بسر فأفشاه، وانتهى ذلك كله إلى أبي جعفر وهو بالأندلس، فقلق وعجل الانصراف إلى مراكش فحجب عند قدومه، ثم قيد إلى المسجد في اليوم الثاني بعده حاسر العمامة واستحضر الناس على طبقاتهم وقرروا ما يعلمون من أمره وما صار إليهم منه، فأجاب كل بما اقتضاه هواه، فأمر بسجنه ولف معه أخوه أبو عقيل عطية، وتوجه عبدالمؤمن في أثر ذلك لزيارة تربة المهدي فاصطحبهما معه منكوبين بحال ثقاف، وصدرت عن أبي جعفر في هذه الحركة من لطائف الأدب نظماً ونثراً في سبيل التوسل بتربة إمامهم عجائب لم تجد شيئاً مع نفوذ قدر الله، ولما انصرف من وجهته أعادهما معه قافلاً إلى مراكش، فلما حاذى (تاغمرت) أمر بقتلهما بالشعراء المتصلة بالحصن على مقربة من الملاحة هنالك، فمضيا لسبيلهما رحمهما الله».

هذا بيان قضية نكبته في الإحاطة وأسبابها وهي كما نرى شبيهة جداً بقضية نكبة جعفر بن يحيى البرمكي وزير هارون الرشيد، وما أشبه الأبيات التي طرحت بمجلس عبدالمؤمن بالبيتين اللذين طرحا بمجلس الرشيد وكانا مما جرّأه على الفتك بوزيره جعفر وهما:

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد
وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة
إنما العاجز مَن لا يستبد

ومن عجيب الاتفاق أن الكاتب أبا بكر محمد بن نصر الأوسي، وكان مختصاً بالوزير أبي جعفر أنشده مادحاً:

أبا جعفر نلت الذي نال جعفر
ولا زلت بالعليا تسر وتحبر
عليك لنا فضل وبر وأنعم
ونحن علينا كل مدح يحبر

فحدّث من حضر المجلس أن أبا جعفر تغير وجهه لما أنشده ابن نصر مطلع هذه القصيدة لأنه كان قد أحسّ التغيُّر من عبدالمؤمن فخشي أن تكون نهايته مثل نهاية جعفر البرمكي، وقد كانت كذلك مع الأسف.

وكان توجه أبي جعفر إلى الأندلس في قضاء هذه المهمات سنة ٥٥١ ويظهر أنه إلى هذا التاريخ لم يزل محل ثقة ومحط اعتبار عند عبدالمؤمن؛ فإن كل مهمة منها إنما

تناط بالرجل العمدة في إخلاصه وكفاءته، ثم مدة غيبته لا يمكن معرفتها بالتدقيق وإنما يقرب بحسب التخمين أن تكون سنة وبضعة أشهر، وذلك بالقياس على تاريخ سفره المتقدم وتاريخ قتله وهو أواخر عام ٥٥٣ وهي مدة كافية لتنفيذ ونجاح الخطط التي كان أعداؤه يدبرونها للإيقاع به، والكيد له عند ولي نعمته، ولا سيما إذا ساعدتهم الأقدار فوقع من أبي جعفر أمر محظور جداً في شرع الملوك، والملوك المستبدين بالخصوص، ألا وهو ما أشار إليه صاحب الإحاطة بقوله: «وقيل: أفضى إليه بسر فأفشاه».

ونحن نحمد الله تعالى أن وجدنا ماهية هذا السر مبسوطة عند المراكشي تمام البسط فلم نذهب نتعسف بيداء الوهم لنصل إلى الغرض المعقول، قال في المعجب: «كان سبب قتله فيما بلغني أنه كانت عنده بنت أبي بكر بن يوسف بن تاشفين التي تعرف ببنت الصحراوية وأخوها يحيى فارس المرابطين المشهور عندهم يعرف أيضاً بيحيى ابن الصحراوية، فحظي يحيى هذا عند الموحدين وقودوه على من وحد من لمتونة ولم يزل وجيهاً عندهم مكرماً لديهم وكان خليقاً بذلك إلى أن نقلت عنه إلى عبدالمؤمن أشياء كان يفعلها، وأقوال كان يقولها أحنقته عليه، فتحدث عبدالمؤمن ببعض ذلك في مجلسه وربما همّ بالقبض على يحيى هذا، فرأى الوزير أبو جعفر أن يجمع بين المصلحتين من نصح أميره وتحذير صهره، فقال لامرأته أخت يحيى المذكور: قولي لأخيك يتحفظ وإذا دعوناه غداً فليعتل ويظهر المرض، وإن قدر على الهروب واللحاق بجزيرة ميورقة فليفعل،

فأخبرته أخته بذلك فتمارض وأخبر أنه لما به[1] فزاره وجوه أصحابه وسألوه عنه، فأسرّ إلى بعضهم ممن كان يثق به ما بلغه عن الوزير، فخرج ذلك الرجل الذي أسرّ إليه فنقل ذلك كله بجملته إلى رجل من ولد عبدالمؤمن، فكان هذا هو السبب الأكبر في قتل أبي جعفر المذكور».

وأنت تعلم أن هناك أسباب أخرى لقتل أبي جعفر، ولكن هذا هو السبب الأكبر في رأي صاحب «المعجب». وليست تلك الأسباب الأخرى إلا ما أثاره أولئك المفسدون حوله من الشكوك والظنون بموجب علاقته بصهره الفارس المرابطي، والقوم كان من سياستهم قتل جميع من يشتبه بإخلاصهم للدعوة الموحدية فلم يتوقفوا في تنفيذ هذه السياسة حتى في وزيرهم أبي جعفر بل لفُّوا معه أخاه ولم يراقبوا فيه الله، إلا أن العجيب في القضية هو أن يحيى الذي بسببه ثار هذا الشر لم يقتل، وإنما قيد وسجن وبقي في سجنه إلى أن مات، كما أشار لذلك المراكشي، ولكن لا عجب فإن يحيى لم يكن موكلاً به من الخصوم والحسّاد ما كان موكلاً بأبي جعفر.

وكان قتل أبي جعفر في صفر لليلة بقيت منه سنة ٥٥٣ كما في «الإحاطة» وابن الأبار، إلا أن هذا لم يعين اليوم من الشهر، وعند الناصري: أنه في شوال السنة، والذي في «القرطاس» أنه سنة ٥٥٢ والصحيح الأول لتعدد قائله ولبيانه التفصيلي.

---

(١) كذا بالأصل.

وقد كدنا نفرغ من هذه الترجمة ولم نتكلم عن أدب أبي جعفر ولو بإجمال على نسبة ما ظفرنا به من آثاره الأدبية القليلة وهي تلك الرسالة التي كانت السبب في ترقيته لمنصب الكتابة والوزارة عند عبدالمؤمن، ورسالة أخرى خاطب بها عبدالمؤمن وهو في السجن مستعطفاً له وهي:

«تالله لو أحاطت بي كل خطيئة، ولم تنفك نفسي عن الخيرات بطيئة، حتى سخرت بمن في الوجود، وأنفت لآدم من السجود، وقلت: إن الله تعالى لم يوحِ، في الفلك لنوحٍ، وبريت لقدار ثمود نبلاً، وأبرمت لحطَب نار الخليل حبلاً، وحططت عن يونس شجرة اليقطين، وأوقدت مع هامان على الطين، وقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها، وافتريت على العذراء البتول فقذفتها، وكتبت صحيفة القطيعة بدار الندوة، وظاهرت الأحزاب بالقصوى من العدوة، وذممت كل قرشي، وأكرمت لأجل وحشي كل حبشي، وقلت: إن بيعة السقيفة لا توجب إمامة الخليفة، وشحذت شفرة غلام المغيرة ابن شعبة، واعتلقت من حصار الدار وقتل أشمطها بشعبة، وقلت: تقاتلوا رغبة في الأبيض والأصفر، وسفكوا الدماء على الثريد الأعفر، وغادرت الوجه من الهامة خضيباً، وناولت من قرع سن الحسين قضيباً، ثم أتيت حضرة الإمام المعلوم لائذاً، وبقبر الإمام المهدي عائذاً، لقد آن لمقالتي أن تسمع وتغفر لي هذه الخطيئات أجمع، مع أني مقترف، بالذنب معترف:

فعفواً أمير المؤمنين فمن لنا

بـرد قـلـوب هـدهـا الـخـفـقـان

والسلام على المقام الكريم ورحمة الله تعالى وبركاته».

هذه هي الرسالة ولعل لها صدراً غير ما ابتديت به، وظاهر أنها على نسق الرسالة الجدية التي كتبها ابن زيدون من السجن أيضاً إلى ابن جهور حتى ليخيل إلى الأديب ـ من أول وهلة ـ أنها قطعة منها أو خلاصة عنها، إلا أنه بعد المقابلة بينهما يعرف أنها غيرها، وهي وإن اعتلقت منها بسبب لا تكاد تقصر عنها براعة وتفنُّناً، بل ربما فاقتها بمزية لفظية لا توجد في رسالة ابن زيدون وهي السجع الذي كانت له مكانته في أدب ذلك العصر.

ومن آثار أبي جعفر الشعرية هذه القصيدة التي أرسلها مع ابن له صغير إلى عبدالمؤمن في غرض الاستعطاف أيضاً:

عطفاً علينا أمير المؤمنين فقد
بان العزاء لفرط البث والحزن
قد أغرقتنا ذنوب كلها لجج
وعطفة منكم أنجى من السفن
وصادفتنا سهام كلها غرض
ورحمة منكم أوقى من الجنن
هيهات للخطب أن تسطو حوادثه
بمَن أجارته رحماكم من المحن
من جاء عندكم يسعى على ثقة
بنصره لم يخف بطشاً من الزمن

فالثوب يطهر عند الغسل من درن
والطرف ينهض بعد الركض في سنن
أنتم بذلتم حياة الخلق كلهم
من دون من عليهم لا ولا ثمن
ونحن من بعض من أحيت مكارمكم
كلتا الحياتين من نفس ومن بدن
وصبية كفراخ الورق من صغر
لم يألفوا النوح في فرع ولا فنن
قد أوجدتهم أيادٍ منك سابقة
والكل لولاك لم يوجد ولم يكن

ولما بلغت هذه القصيدة إلى عبدالمؤمن وقع عليها: (الآن وقد عصيت قبل، وكنت من المفسدين).

والحق أن عبدالمؤمن كان قاسي القلب جداً، حين لم تستمله هذه البلاغة المنسجمة في هذه القصيدة كما قال أبو جعفر نفسه في أبيات ابن عمار التي يخاطب فيها المعتمد ابن عباد حين قبض عليه وهي:

سجاياك إن عافيت أندى وأسمح
وعذرك إن عاقبت أؤلى وأوضح
وإن كان بين الخطتين مزية
فأنت إلى الأدنى من الله أجنح
وماذا عسى الأعداء أن يتزيدوا
سوى أن ذنبي ثابت ومصحح

وإن رجائي أن عندك غير ما
يخوض عدوي اليوم فيه ويمرح
أقلني بما بيني وبينك من رضى
له نحو روح الله باب مفتح
ولا تلتفت[1] قول الوشاة وزورهم
فكل إناء بالذي فيه يرشح
وقالوا سيجزيه فلان بذنبه
فقلت وقد يعفو فلان ويصفح
إلا أن بطشاً للمؤيد يرتمي
ولكن حلماً للمؤيد يرجح
وبين ضلوعي من هواه تميمة
ستشفع لو أن الحمام يجلح
سلام عليه كيف دار به الهوى
إليّ فيدنو أو عليّ فينزح
ويهنيه إن مت السلو فإنني
أموت ولي شوق إلهي مبرح

قال في «نفح الطيب»: «وحكى غير واحد من مؤرخي الأندلس أن الكاتب الشهير الوزير أبا جعفر بن عطية القضاعي لما تغير له عبدالمؤمن وتذاكر مع بعض من أهل العلم أبيات ابن عمار السابقة قال: ما كان المعتمد إلا قاسي

(١) عداه بنفسه وهو غير متعد أو أسقط منه الجار ولا يصح لأنه سماع لا قياس.

القلب حيث لم تعطفه هذه الأبيات إلى العفو، ووقع لابن عطية المذكور مثل قضية ابن عمار واستعطف فما نفع ذلك وقتل رحمه الله».

هذا على أن أبيات أبي جعفر أشجى في جملتها من أبيات ابن عمار وأحكم صنعة وهي ـ بذلك ـ أدعى للعطف وأوجب للرحمة، لولا الحين المتاح والقدر المحتوم[1].

ومما كتب به من السجن أيضاً هذان البيتان الرقيقان:

أنوح على نفسي أم أنتظر الصفحا
فقد آن أن تنسى الذنوب وأن تمحى
وها أنا في ليل من السخط حائر
ولا أهتدي حتى أرى للرضى صبحا

والناقد لا يجد مأخذاً يأخذه على أبي جعفر في هذه القطع كلها لأنها غاية في نصاعة الألفاظ، وتمكنها من مواضعها التي وضعت فيها، غاية في بلوغ المعنى المراد، وتأدية الغرض المقصود إلى المخاطب على أتم الوجوه، ومن أقرب الطرق. غاية في التأثير فتحدث في النفس أثراً عميقاً يذهب بالإنسان كل مذهب في تصور الظلم الفادح

(١) ننبه إلى بعض المآخذ في أبيات ابن عمار التي بها يعرف فرق ما بينها وبين ابن عطية: فقوله أولى وأوضح لا يليق، وكان خيراً منه لو قال: أجلى وأوضح، وقوله: ولا تلتفت قول الوشاة، لا يخفى ما فيه ولو قال: ولا تعتبر لسلم من المؤاخذة، ثم التعبير عن الأمير بفلان في هذا المقام ليس مما يقبل، وغرابة لفظ يجلح ظاهرة، إلى غير ذلك وهو كله مما سلمت منه أبيات شاعرنا.

الذي يقع من المخلوق على أخيه المخلوق، فيشكو إليه، فلا يشكيه، ويعترف إليه بالذنب ويستقيله فلا يقيله، ويتوسل إليه بالوسائط التي يظنها تميله فلا يميل، ويسأله تخفيف العذاب فيقسو ويأبى إلا أن ينزل به أقساه! وهذا فيما عدا الرسالة الأولى من تلك القطع، أما هذه الرسالة فقد رأينا كيف كان تأثيرها شديداً على عبدالمؤمن حتى استكتبه ثم استوزره رغماً عن معرفته بماضيه وقتله لأبيه!

وهي بعد، متكافئة في الجودة والحسن لفظاً ومعنى، لا تلمح في واحدة منها ضعفاً ولا إسفافاً على العادة في جميع آثار الأدباء كتّاباً وشعراء، وها أنت قد رأيت رسالته، في الأخبار بالفتح وكان كتبها بحال رغبة، وخلو بال من الأشغال، ولو قارنتها برسالته الاستعطافية التي كتبها في الاعتقال، والحال غير الحال، والبال كثير البلبال، لرأيت عجباً من قوة الطبع، واتساع العارضة، وما أصدق كلمة عبدالمؤمن فيه، وقد امتحن الشعراء بهجوه، فلما أسمعوه ما قالوا أعرض عنهم وقال: «ذهب ابن عطية وذهب الأدب معه».

هذا وقد نشرت عدة من رسائله في مجموع (رسائل موحدية) وهي على افتقارها الشديد إلى التصحيح قد أفادت مؤرخ الآداب المغربية فائدة جلّى، إنما ينبغي أن يتنبه إلى أن الرسالة التاسعة عشرة في المجموع وهي التي كتبت إلى أهل غرناطة، والثالثة والعشرين، وهي المعروفة برسالة الفصول، لا يصح أن تكونا له والأولى مؤرخة بعشرين من ذي قعدة عام ٥٥٤. والثانية بالثالث من ربيع الأول عام

٥٥٦. فإن ابن عطية في هذا التاريخ كان من الأموات المرحومين، وقد سبق لناشر المجموع[1] أن نشر رسالة الفصول هذه في كتاب أخبار (المهدي بن تومرت) للبيذق مؤرخة بالتاريخ المذكور، ولكنه لم يبدِ أولاً ولا ثانياً أدنى تحفظ في نسبتها إلى أبي جعفر، وسبحان مَن لا يغفل.

ويروق لنا الآن أن نعرض على القارىء بعضاً من هذه الرسائل الجديدة ليرى روح أبي جعفر الفنية الصناع كيف تصحبه في كل آثاره، فمن رسالة له كتبها عن عبدالمؤمن إلى أهل قسنطينة يعرفهم بفتح (بجاية) ويدعوهم إلى الدخول في الدعوة الموحدية:

«ولما قضى الله سبحانه في فتح هذه البلاد المشرقية بخير قضائه وأجرى لهذه الطائفة المباركة في الإظهار والإيثار معهود اختياره وارتضائه، وبسط لهذا الأمر العزيز في أكناف هذه الأنحاء والأذراء بساط غلبتهُ واستيلائه، وأصار مَن كان فيها من الجبابرة والطغاة والكفرة إلى غايات إبعاده وإقصائه، وغيابات إعدامه وإفنائه، فأراهم أن الإعراض عن إجابة دعائه، والاعتراض على محكم سور الحق وآيه، والانتهاض إلى إطفاء نوره وضيائه، محقة لا تبقي ولا تذر، وبطشة لا تمهل ولا تؤخر، ونقمة تحرق بصواعقها مَن يتحرق في سبيل الغواية ويتسعر، رأينا أن نخاطبكم ـ أرشدكم الله ـ داعين إلى الله ورسوله بما أوجبه سبحانه من الدعاء إلى سبيله، والتحريض على اعتماد الحق وقبوله، والتحذير من

(١) هو المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال.

التوقف في إغواء الشيطان وتضليله، وكما أوجب جلّت قدرته على الداعي بدعوته العالية ما أوجب، وندب أن ينادي إليه كل مَن عسى أن ينادي ويندب، فكذلك أمر المدعو بالإجابة والإنابة، وحضه من القبول والبدار الجميل على إتيان باب الإحسان والإصابة، وحذره من إمهال الامتثال، وإهمال الإقبال، ما يعدل به قرار الأمن والمثابة.

فبادروا - وفقكم الله - إلى إجابة منادي الحق وداعيه، واسعوا إلى الخير بأعماله المزلفة ومساعيه، وسارعوا بالتوبة النصوح تسارع الراغب بدينه المقبل إلى ما يعنيه، الصارف نفسه عما كانت تكسبه من الإثم وتجنيه، واعلموا أن الواجب عليكم وعلى جميع عمرة البسيطة إتيان هذا الأمر العزيز في محل قيامه، والهجرة إليه وقت ظهور دلائله وارتفاع أعلامه، وهجر الأوطان والقطان لطلب الرضوان واغتنامه، فكيف به وقد ظلتكم في عقر دياركم رايته، وتجلت بين أظهركم آيته، وتأكدت في الوجوب عليكم واللزوم لكم ولايته وولايته، واستغفروا الله إنه كان غفّاراً، وتوبوا إلى الله توبة تظهر تعويلكم عليه إظهاراً، واحذروا ثم احذروا تمادياً على الخطيئات وإصراراً، واحرصوا على ما ينجيكم وقوا أنفسكم وأهليكم ناراً، وكونوا - أرشدكم الله - ممن سار على الواضحة أحسن سيرة، وسار إلى نعيم هذا الأمر وخيره، واذكروا ما حاق بالمتوقف عنه من سوء مآله وصيره، واتعظوا بغيركم فالسعيد مَن وعظ بغيره.

وقد علم من علم ما منَّ الله به من فتح هذه الأقطار، إن مَن كان بها من زعماء الخسار والبوار، ورؤساء

الاستعلاء الجاهلي والاستكبار، إنما حقت عليهم كلمة العذاب والدمار، بعد تقديم الإنذار إليهم والإعذار، والتربص عليهم أمداً طويلاً رجاء الاستبصار، فلما أبوا ما دعوا إليه من الحق، واغترُّوا بما عاينوه من اللطف والرفق، واختاروا لأنفسهم الأمّارة بالسوء ما اختاروه من المروق عن دين الله والفسق، أحلّ الله بهم من ضروب الانتقام ما صيّرهم عبرة لمن يعتبر، ومزدجراً لمن يزدجر، وآية كبرى يتأملها مَن يتأمل، ويبصرها مَن يبصر. وتلك سنّة الله فيمن صدف عن آياته، وانصرف عقب سيئاته، وتصرف في زوايا ضلالته وغواياته، وتوقف عن أن يستمد من مواد هذا الأمر السعيد الممدود مادة حياته، وإن لله من تخصيص مَن يخصصه بإرشاده ويخلصه لإسعاده، سراً يبديه فيمن شاء من عباده، ويظهره فيمن يؤثره بحسن طويته وصفاء ضميره واعتقاده».

ومن رسالة أخرى إلى أهل سبتة وطنجة في أمر ولاية العهد لابن الخليفة محمد:

«ولما كنتم ـ أكرمكم الله ـ ممن اعتصم في هذا الأمر العظيم بحبله وعروته، واقتدى بوجوب الاتباع بأسوته الهادية وقدوته، رأينا أن نعلمكم بما عقده إخوانكم الموحدون على تقوى من الله ورضوان، والتزموه بأتم ارتضاء واستحسان، وابتدروه ولهم التوفيق والإصابة على يُسر وإمكان، وذلكم أن كثيراً من أولياء هذه الدعوة العلية وإخوانها من أشياخ الأنظار وأعيانها، تقدمت رغبتهم في أمر آخرته الخيرة لميقاتها، وأرجأته التؤدة إلى خير أوقاتها. وكانت هذه العشائر العربية الهلالية، والقبائل الشرقية والصنهاجية ومَن

معها من حاضرة وبادية من أهل إقليمها، وذوي ألبابها وحلومها، يشيرون إلى ذلك على انتزاحهم، ويعلمون بأنه غاية اقتراحهم، ومادة نفوسهم وأرواحهم، ولم تزل مخاطباتهم في ذلك تتردد؛ حيناً بعد حين، ورغباتهم تتأكد، بما كان عندهم من ثلج ويقين، فلما اتفق ـ بحمد الله ـ وصولهم في هذه الوفادة للأخذ بإطناب السعادة المنيفة بهم على مقتضى الآمال والإرادة، صرحوا ـ لأول لقائهم ـ بما أضمروه وأبدوا سرهم المكنون وأظهروه، وأعلموا أن محمداً وفقه الله هو الذي ارتضوه لحمل عبئهم وتخيّروه ورغبوا في تقديمه على بلادهم، وإنفاذه معهم على قصدهم في توليته ومرادهم.

وكان استدعاؤنا في هذه الوجهة المذكورة، والحركة المبرورة لأمور قصدت فيها مذاكرتهم، ونويت بها مباشرتهم، لم تكن مما ذكروه في ود ولا صدر، ولا كان ما سايره القدر جارياً معها في نظر، وكان التماسهم للجواب على سؤالهم بغاية اقتضائهم ونهاية استعجالهم، يتردد ذكره في صدور أقوالهم، ويتأزر أمره بشواهد عباراتهم وأحوالهم، ونحن بين ذلك كله، على غير قصد ننويه، وما نظهره منه مثل الذي نبطنه ونطويه.

ولما احتللنا هذا الرباط الميمون، واستنلنا ـ بفضل الله ـ خيره المعهود، ونصره المضمون، وكان الوافد المذكور بمدرجة الإياب، ومرقب الالتفات والارتقاب، تأكد اقتضاؤهم للجواب وتمكن حديثهم في معنى التقدم المذكور والاستصحاب، فرأينا ـ بعد استخارة الله تعالى ـ أن نجمع

في هذا الموضع المبارك مَن وصله من شيوخ الموحدين وطلبتهم وعمالهم، ونتذاكر معهم في ذلك الأمر المسؤول، ونعارضهم فيه على الجملة والتفصيل، ونلقي إليهم حديث القوم المذكورين بأتم وجوه الإلقاء والتوصيل، فكان ذلك على ما قصد، وذوكروا في الأمر على ما توخي فيه واعتمد وعرفوا بأن ذلك ليس مما بني عليه ولا مما اعتقد، فثارت منهم السواكن، وغلبت على الظواهر والبواطن، وعوين من أحوالهم لذكر فراق المذكور أغرب ما يعاين، وتقدمهم الشيخ الأجل أخونا أبو حفص عمر بن يحيى أعزّه الله بتقواه فقال: هذا أمر نحن (أحق) بتقديمه، وأعلم بوجوبه ولزومه، وأولى بتأميره علينا وتحكيمه، ونحن السابقون إلى مبايعته على حدود الشرع ورسومه، فهو مختارنا للدين والدنيا، ومسؤولنا المأمول للحياطة والرعيا وأتبع ذلك من القول في معناه ما قصد أن يمكنه، وأراد أن يوضح به عزمه عليه ويبينه. وقال أكثر الحاضرين من الأشياخ والطلبة والعمال ومن أعلم به من الطلبة والفقهاء ومن جرت مذاكرته في مثل هذه الآراء: هذا أمر في ضمائر أكثرنا معقود، وفي نفوس جمهورنا موجود، وهو الذي ليس عليه من آمالنا مزيد.

واتفقت الكلمة من جميعهم أن في ذلك من تجديد أمر الإمام المهدي رضي الله عنه وتقويته، وبسط شأنه المعظم وتسويته، ما لا يجوز تأخيره عن ذلك المقام، ولا يحل الخلو عن التقليد له والالتزام، وإن فيه من إبقاء الأمر في نصابه، وإتيان الحق من أبوابه واتباع الدين من أخلائه وأحبابه، وقطع كل منافق مرتاب عن أسباب نفاقه وارتيابه،

والنظر فيما يجمع كلمة الموحدين، ويضم شمل المؤمنين، بأوائل هذا القصد الصالح وأعقابه، ما ابتنى عليه اتفاقهم وإصفاقهم، واسترسل فيه تعيينهم وإطلاقهم...».

ونكتفي بهذا القدر من آثار أبي جعفر ثم نختم بتلك المساجلة المشهورة التي وقعت بينه وبين عبدالمؤمن بينما كانا ذات يوم مارّين ببعض طرق مراكش فأطلّت من شباك جارية بديعة الجمال فقال عبدالمؤمن:

قدت فؤادي من الشباك إذ نظرت

فأجاز أبو جعفر:

حوراء ترنو إلى العشاق بالمقل

عبدالمؤمن:

كأنما لحظها في قلب عاشقها

أبو جعفر:

سيف المؤيد عبدالمؤمن بن علي

قال في النفح: «ولا خفاء أن هذه طبقة عالية».

* * *

ابن زنباع الطنجي
(توفي في أواخر القرن الخامس الهجري)

مغربيته، نسبته، علمه وأدبه، عصره، ترجمة الفتح بن خاقان له، شعره، نبذة منه، تعقيب لغوي.

هو القاضي الأديب أبو الحسن بن زنْباع[1] الصنهاجي من أهل طنجة، نسبه إليها القلقشندي في صبح الأعشى وقال: «ترجم له في قلائد العِقْيان وأثنى عليه وأنشد له أبياتاً منها:

وقد تحمي الدروع من العوالي
ولا تحمي من الحَدَق الدروع

على أنه اقتصر على كنيته ونسبه ولم يقل فيه ابن زنباع كما أن الفتح، إنما قال فيه: أبو الحسن بن زنباع ولم ينسبه ولو إلى قبيلته فأحْرَى بلده، ولولا هذا النص الذي ظفِرْنا به في صبْح الأعشى لمَا علمنا أن هذا الشخص

---

(١) زنباع كقنطار والنون زائدة قاله في القاموس، وروح بن زنباع الجذامي له صحبة.

مغربي أصلاً إذ لم يذكر الفتح في ترجمته ولا كلمةً تشعر بذلك.

وفي الرواسخ علماً من أساتذة
كابن زياد ومنظورٍ وسَحنون
ما لي وتَغداد من بادوا فهل وُجِدت
في النسل أمثالُ موسى أو بلكّين[1]
ماذا أقول ونفسي اليوم منشدة
عند ادكاري لهم: (إني لتعروني)[2]
اللّهَ في خلقٍ، اللّهَ في لغةٍ
اللّهَ في مِلة، اللّهَ في الدين
إني لأفتح عيني في حَوالِكها
من حيث لَغلَعَة التمدين تغشيني[3]
وألتقِي بأناس قيل همْ رَحِمِي
لكنما ما عنَاهم ليس يغنِيني
سبْحانَ مَن غيّر الأوضاعَ فانقلبت
حالاتها فأرى ما ليْس يرْضيني

---

(١) علّق الشاعر على هذا البيت بأنه يريد موسى بن نصير وبلكين بن زيري الصنهاجي أمير أفريقية والمغرب ومؤسس مدينة الجزائر.

(٢) يشير إلى قول الشاعر:

وإني لتعروني لذكراك هزة كما انتفض العصفور بلله القطر

(٣) وعلّق على هذا البيت بقوله: لي في مثل هذا المعنى من شعري المطبوع ضمن قصيدة ما يلي:

إذا كان يعشي العين نور تمدن تخفشت حتى لا تريني شعاعه

لَـوْلا بَـريـق مـن الإيـمـان فـي فِـئـةٍ
ما اسطاعَ غيركَ في البَلْوى يسليني
هي الـسياسة من جرائـها انسلَخوا
عـن الـهـدَى فـالْـتَـوَوْا لـيَّ الـشـعـابـيـن

وقد بحثنا جهدنا علنا نعثر على ترجمته في كتاب أو خبر عنه في ديوان فلم نفلح وألقَيْنا سؤالاً على أدباء المغرب ومؤرخيه في الصحافة المغربية أواخرَ الثلاثينات من التاريخ الميلادي، طالبين ممن عنده علم بحاله أو وَقَفَ على شيء من أخباره أن يتفضل بالإفادة عنه فلم نظفر بجواب؟

وها نحن الآن نضطر إلى إثبات ترجمته في الذكريات ولا نجد ما نشفي به غليلاً منها حتى اسمه لا نقدر أن نقول على الجزم: إنه (علي) وإن كانت كنيته أبا الحسن، لأنه ربما لا يكون كذلك، نعم نَسبه إلى صَنْهيت ـ كما يقول نسبه القلقشندي ـ صحيح بشهادته هو وإقراره على نفسه في هذا البيت من شعره:

وتَـلافَـنِـي قـبـل الـتَّـلافِ فـإنـنِـي
من حِمْيَرٍ وسيأخذونك في دمي

وحمْير هي أهلُ صنهاجة عندهم كما قال الشاعر أبو محمد بن حامد في دولة المرابطين:

قـوم لـهـم شـرَف الـعـلا مـن حِـمْـيَرٍ
وإذا انْـتَـمَـوْا صَـنـهـاجـة فـهُـمُ هـمـو

وقال الراجز عبدالعزيز المَلْزوزي:

وإن صَنْهاجَ سَلِيل حِمْيَر
وهْوَ ابنه لِصلْبه لا العنْصر

ثم وقفنا بعد ذلك على نسخة مخطوطة مِنَ القلائد في المكتبة العامة بتطْوان فوجدنا اسمه فيها (ابن بَيّاع) لا ابن زنباع وهو كذلك وارد في طِراز المجالس للشهاب الخَفاجي الذي أنشد له بيتين مختلفين من قصيدتين منسوبتين له في القلائد، مقتصراً على قوله في تسميته: (ابن بَيّاع) من قصيدة:

وقَفتْ عليها السحْب وقفةَ راحِم
فبكتْ لها بعيونها وقلوبِها

ومن أخرى:

أبِيت أُداري الشوقَ والشوق مقبِل
عليّ وأدعو الصبرَ والصبر مُعرِض

ولعل هذا ما حَمَل المستشرق الفرنسي (هـ. بيريس) على القول في كتابه الشعر الأندلسي في القرن الحادي عشر: أنه يدعَى بكِلا الاسمين، وكلما ذكره سواء في صلْب الكتاب أو في الفِهْرس يقول فيه: ابن زنباع أو ابن بياع.

على أن هناك شاعراً آخر يعرف بابن بَياع، ولكنه سَبْتي، كما نسبه ابن بَسام في الذخيرة فقال: وأنشدت لابن بياع السبتي:

ورَدتُ بـهـا الـتـنـوفَـةَ وهْـي بَـذْر
فـلـم أصْـدر بـهـا إلا هِـلالا

وهذا البيت لا يوجد في الشعر الذي أورده صاحب القلائد لمترجمِنا، وإن كان يشبِه نَفَسَه، فهل هي أسرة تعرف بهذا الاسم كانت موزعة بين طنجة وسَبْتة، ولذلك اضطر ابن بسام لتمييز هذا الفرد الثاني منها بالسبتي؟

كما وجدنا اسم بني زنْباع يطلق على أسرة من سكان إشْبِيلية حسبما في الذيل والتكْمِلة لابن عبدالملك المراكشي، فهي على ما يظهر أسرة كانت متواجدة بالمغرب والأندلس. ولكن هل الأندلسية أيضاً كانت تعرف ببني بَياع كالمغربية؟

هذان سؤالان ليس عندنا ما نعتمده في الجواب عنهما على سبيل القطع.

وإذا كنا في بعض هذه التراجم نتساءل عن تاريخ ولادة المترجم وعن نشأته، وأحياناً عن تاريخ وفاته مع شهرته وانتشار ذكره، فإننا الآن نتساءل عن اسم المترجم وعن كنيته الصحيحة هل هي ابن زنباع أو ابن بَياع؟ وإن كان لا غرابة في ذلك، فقد عهدنا أن يطلِق الناس على بعض الأفراد أكثرَ من اسم واحد ويَشْتَهِرَ بذلك، ونذكر على سبيل المثال اسماً شبيهاً باسم صاحبنا ابن بياع، وهو الحافظ أبو عبدالله الحاكم النيسابوري الذي كان يعرف بـ(ابن البيّع) كما يعرف بالحاكم، وغيره كثير.

وعلى كل حال فإن هذا رجل كان من صدور الرجال في عصره، جمعَ من صفات الفضل وأدوات الكمال ما قلّ

أن اجتمع في غيره، وتولى رفيع المناصب، وبلغَ أعلى المراتب، ويكفي أن يكون من رجال القلائد لمعرفة مكانته الأدبية، ومع ذلك، يقع الاختلاف في اسمه ولا نعرف من أطوار حياته قليلاً ولا كثيراً. ولولا عمل ما يشْبِه المعادلات الرياضية لمَا اهتدينا إلى إثبات مغربيته، ولمَا ظنّ أحد أنه من أبناء هذا المغرب الذي يقال فيه بحق: إنه من بلاد الغرائب.

لذا فنحن لا نستطيع أن نقدّم من المعلومات الشخصية عنه شيئاً غيرَ ما نفهم من تَحْلِيَة الفتْح له بالفقيه القاضي وصفَتِه بالمشاركة في العلوم والآداب والفصاحة والبيان، والطب أيضاً، من أنه حقيقةً شخصيةٌ فذةٌ قضَى عليها الإهمال، وكادَ يمحوها النسيان من تاريخ المغرب، وأن الأدب هو أقل بضاعة كانت تتميز بها هذه الشخصية، فصار اليوم أكثرَ ما نذكرها به.

وأخيراً نأخذ من ترحّم الفتح عليه أنه كان قد توفي عند تأليف القلائد فهو ممن عاش أواخر القرن الخامس وأوائل السادس، في العصر المرابِطي.

وهذه ترجمة الفتح له: «الفقيه القاضي أبو الحسن بن زنْباع رحمه الله تعالى ملِيء حياء، وقنِيء استحياء، طَوْد سكون ووقار، وروضة نباهة يانعة الأزهار، وسَمَت صفحاتِ المَهارق غرَرُه، وانتظمت بِلبّات المغارب والمشارق درَرُه، إن نطق رأيتَ البيان منْسرباً من لسانه، والإحسان منتسباً لإحسانه، حوَى العلومَ وحازَها، وتحقق حقائق العرب

ومجازَها، وروى قصائدها وأرجازَها، وعَلِم إطالَتها وإيجازها، وهو في الطب موفق العلاج، واضح المنهاج، وله نظم تزهَى به نحور الكَعاب، ويُسْتَسْهَل إلى سماعه سلوكُ الصعاب، وقد أثبتُّ منه ما تجتَليه، فتَسْتَحلِيه، وتَعْقله فتَنْقله».

ودلالة هذا الكلام واضحة جداً على الأمور الآتية:

أولاً: أنه كان من مشاهير رجال الفقه والقضاء، ويؤخذ ذلك من ذكر الفتح له في القسم الثالث من كتابه القلائد، الخاص بأعيان القضاة. والعلماء السّراة، فهو في هذه الطبقة التي لها الصدارة والتقديم من الفقهاء والقضاة كأبي الوليد الباجي وابن حَمْدين وابن عَطِية والقاضي عياض، ومن علماء اللغة والأدب كأبي عبَيد البَكْري وابن السيّد البَطَلْيوسي وأمثالهم، ولذلك ذكره معهم، وعلى هذا فإن ولايته للقضاء لا بد أن تكون في مدينة من كبْرَيَات المدن، ولا نستبعد أن تكون في مدينته طنجة، وحيث إن تاريخها على عَراقتها قد لفّه النسيان فكذلك تاريخ صاحبنا وولايته، وهو من خير مَن أنجبتْ وأنجبِ مَن أنْجَلَت.

ثانياً: أنه كان من ذوي المشاركة في العلوم غير الفقه الذي استحق به ولاية القضاء، وذلك ما تصرّح به هذه العبارة: «حوى العلوم وحازَها، وتحقق حقائق العرب ومَجازَها» فضلاً عما قبلها وما بعدها من العبارات التي تشير إلى تضلُّعه في علوم العربية والآداب وضربِه بِسهم مصيب في صناعتَيْ النظم والنثر، وانتشار آثاره في ذلك بالمشرق والمغرب.

ثالثاً: أنه كان يتعاطى صناعة الطب وأنه كان فيها موفقاً صاحب طريقة واضحة، وهي كفاية زائدة على كفاياته المذكورة قبل، وربما دلت على أن له نظراً في غيرها من العلوم التجريبية التي لا تحصل المهارة في الطب إلا بها.

رابعاً: أنه كان ذا أخلاق عالية وصفات كريمة يغلب عليه الحياء وهو يستلزم التواضع والانزواء، ولعله بذلك لم يكن يخالط الناس كثيراً فأغفلوا ذكره... وهذا إلى سكون ووقار يقتضيهما سَمْتُ العلم وناموس الحكم.

وكل هذه الدلالات مما يَرفَع من مقامه ويجعله من الشخصيات البارزة بين أهل عصره وإن كنا الآن إنما نتلمس ملامح شخصيته تلمساً من وَحْي الفِقَر والأسْجاع التي أفرغ الفتح فيها ترجمته.

هذا ولئن كان ما بقِيَ بيدنا من آثاره، إنما هو النبذة من أشعاره، التي نجدها في القلائد، فإنّا نعُد ذلك كسباً هاماً؛ لأنه يظهِرنا على ناحية من حياته الفكرية المتعددة الوجوه، وهي براعته الشعرية التي لا نزاع فيها، فنحن لو كان لنا أن نتخير من إنتاجه الشعري المتنوع الأغراض، لما زدْنا على ما تخيّره منه أديب الأندلس في عصره، وضمنَه مجموعتَه الأولى التي هي قلائد العقيان[1].

إن هذه الترجمة بالقياس إلى مثيلاتها لا تحتَمِل أكثر من النماذج التي عرَضَهَا علينا الفتح، والناقد بصير كما يقولون، فلنا أن نقول مطمئنين إلى اختياره، إن شعر

---

(١) للفتح مجموعة ثانية هي مطمح الأنفس كما هو معلوم.

المترجم طبقة عالية في البلاغة والانسجام متين الحَوْك، رقيق الديباجة، جميل التصوير، لطيف التخيُّل، يصدر عن ثقافة واسعة، ونظرة متفتحة على الحياة، ولو لم يصلنا منه إلا هذه القصيدة البائية التي يقولها في وصف الربيع لكانت كافية في التعرف إلى إبداعه الشعري، فإن من الشعراء مَن خلَد ذكْره بقصيدة واحدة.

كيف وإن لها أخوات شقيقات لا تقل عنها جودةً وإحساناً، فهذه اللامية التي يهنىء فيها بأحد الفتوح، تشتمل على وصف رائع للمعركة بين المسلمين والروم وهزيمة هؤلاء أشنعَ هزيمة، برغم ما أعدُّوه من قوة وعَتاد.

وهذه الميمية التي يخاطب بها الفتح بن خاقان هي من أجود الشعر الإخواني الذي يفيض بأسمى العواطف وأرق المشاعر.

وهذه الضادية التي يعبّر فيها عن مَواجِده ويصف الحرب هي كذلك من أروع الشعر الوجداني والوصفي بحيث لم يملك الخفاجي إلا أن ينشد أحد أبياتها استحساناً له. ثم عَيْنِيته التي ذكره القلقشندي ببيت منها إعجاباً به.

فميميته التغزلية التي تشتمل على خطرات فلسفية رائعة، كل ذلك وغيره من شعره، في الذّرْوة والسنام من البلاغة والانسجام.

وهاك ربيعيتَه المنوّه بها:

أبـدتْ لـنـا الأيـام زهـرةَ طِـيـبِـهـا

وتَـسـرْبَـلَـت بـنَـضـيـرهـا وقَـشِـيـبِـهـا

واهتز عِطْف الأرض بعد خشوعها

وبـدَتْ بـهـا الـنـعـمـاء بـعـد شـحـوبِـهـا

وتـطـلـعـت فـي عـنـفـوان شـبـابـهـا
من بعـد مـا بَـلَـغَـتْ عتِيّ مشِيبِها
وقفَتْ عليها السحب وقْفةَ راحِمٍ
فبكتْ لها بِعيونها وقلوبِها
فعجِبت للأزهار كيف تضاحكتْ
بِبكائها وتباشرتْ بِقطوبِها
وتَسربلتْ حللاً تَجرّ ذيولَها
مِن لَذمِها فيها وشق جيوبِها
فلقد أجادَ المُزْن في إنجادها
وأجادَ حَر الشمس في تَربِيبِها
ما أنصفَ الخِيريّ يمنَع طِيبَه
لِحضورها ويبيحه لِمَغِيبِها
وهْيَ التي قامتْ عليه بِدفْئِها
وتعاهدتْه بِدَرها وحَليبِها
فَكأنه فرض عليه مُوقّتٌ
وَوجوبه متعلق بِوجوبِها[1]
وعلى سماء اليَاسَمين كواكب
أبْدَتْ ذكاء العَجْز عن تغييبها[2]
زُهْر تُوقّتُ ليلَها ونهارَها
وتفُوتُ شأوَ خسوفها وغُروبِها

(١) من وجبت الشمس: غابت.
(٢) ذكاء علم على الشمس.

فَضِلَتْ على سيْر النجوم بأسرها

وسُروّها في الخِلْفتَين وَطِيبها

فتأرّجتْ أرجاؤها بِهبوبها

وتعانقَتْ أزهارُها بِنكوبِها[1]

وتَصوبتْ فيها فروع جَداوِلٍ

تتصاعد الأبصار في تَضويبِها

تطفو وتَرسُب في أصول ثِمارها

والحُسْنُ بين طفوّها ورسوبِها

فكأنما هي موجِسَات أساوِدٍ

تَنساب من أنقابِها لِلصوبِها[2]

فَأدِرْ كؤوسَ الأنسِ في حافَاتِها

واجْعَلْ سَدِيدَ القول من مشروبها

فَحدِيث إخوان الصفاء لَذَاذة

تُجْنَى ويُومَن من جِناية حوبِها

واركضْ إلى اللذاتِ في مَيْدانها

واسْبِق لِسد ثغورها ودروبِها

أغرَيْتَ خيْلَك صَيْفَها وخَرِيفَها

وشِتاءها هذا أوانُ ركوبِها

أوَ ما ترَى الأزهار ما مِنْ زَهْرةٍ

إلا وقد رَكِبتْ فَقارَ قَضِيبها

---

(١) من نكبت الريح: مالت عن مهبها.

(٢) الطرائق والمضايق في الجبال والأودية.

والطيرُ قد خفقَتْ على أفْنانِها

تُلقِي فُنونَ الشذْوِ في أسْلوبِها

تَشْدو وتَهْتز الغصون كأنما

حَركاتُها رقْص على تَطْرِيبِها

لقد اشتملت هذه القصيدة على فنون من بديع القول، قلما تأتتْ إلا لِمَن طال باعه في صناعة الكلام، وقد مرّ بنا البيت الذي أنشده منها الشهاب الخفَاجي لاستجادته إياه، وهو البيت الرابع الذي يصِف فيه تعاطفَ السحاب مع الأرض بعدما بلغت من المَشِيب عتِياً؛ فرحِمَتْها حتى بكَتْ عليها، وهو تخييل بارع يتضمن تعليلاً شعرياً لنزول المطر.

وتأتي بعده الأبيات التي يصف فيها نَوْرَ الخِيري وانتشارَ عَرْفِه ليْلاً بعد غروب الشمس واحتباسَه نهاراً أثناءَ شروقها، عكْسَ المطلوب منه لو أنصف وراعَى يد الشمس عليه التي طالما تعهدتْه بِدفْئِها وحرارتها حتى نما وترعرع، ففي تصويره هذا إلْمام بطبيعة النبات وفِعْل الشمس في تكوين عناصره من لوْنٍ ورائحةٍ وورقٍ نضير.

وإذا كان هذا من الأمور المعلومة لدى عامة الدارسين، فإن صياغته في عبارات شعرية هو محل الإعجاب والتقدير.

كذلك ما وصف به الياسمين من استعارة السماء لعرائشه الخضراء، والنجوم لزهراته البيضاء، والمقارنة بينها وبين نجوم السماء وتفضيلها عليها بكونها تُوَقّت الليلَ والنهارَ معاً، بخلاف نجوم السماء، التي توقت الليل فقط، وبكونها

ثابتة ليلاً ونهاراً لا تحجبها الشمس كما تحجب نجومَ السماء، إلى آخر الوصف الشامل لأريجه العاطر الذي يَسري سريَان النجوم، وجداول الماء التي تغطي سوقَه وتنساب انسيابَ الحيّات، كل ذلك من قوة عارضته البيانية وخياله الشعري الخصْب.

وفي آخر القصيدة يعرب الشاعر عن ابتهاجه بفصل الربيع، ويدعو إلى تعاطي كؤوس الأنس فيه مع إخوان الصفاء وركوب الخيل والركض في اللذات أسوة بالأزهار التي ركبتْ فقرات القضبان، والأطيار التي تغني على الأغصان... إنها حقاً قصيدة ممتعة.

وله يهنىء بالفتح:

كـذا تـصـان الـسـيـوف فـي الـخِـلَـل
ويَـفـخَـر الـخَـط بـالـقَـنَـا الـذُبُـلِ
وتُـكْـرَمُ الـخـيـلُ فـي مَـرابِـطـهـا
بِـرّ الـفـتـاة الـعَـروب بـالـرّجـل
ويُـعـطَـفُ الـنّـبـعُ كـالـحـواجـب أوْ
أحْنى وتُمهي السيوف[1] كالمقَل
ويــوثِــر الــشــرّةَ الــكَــمِــيّ إذا
خُـيّـر بـيـن الـدروع والـحـلَـل
فَـتْـح أنـارث لـه الـبـلاد كـمـا
أشْـرقَـت الـمـقْـرِبـات لـلـنّـهَـل

(١) أي: تسيل بالدماء.

هُـــدّتْ لـــه الـــرّومُ هـــدةً مـــلأت
قـلـوبَ أبـطـالِـهـم مـن الـوَجَـل
فـمـا أطـاقـوا الـولـوجَ فـي نـفَـقٍ
ومـا أطـاقـوا الـصـعـودَ فـي جَـبَـل
ألْـقَــوا بـأيـديـهـم ولا سـبَـب
يَـفْـرُق بـيـن الـفَـتـاة والـبَـطـل
فـمَـجـرئـي الأسْـد فـي مَـرابِـضـهـا
كـمَـجْـرئِـي الـغـانـيـات فـي الـكِـلَـل
وربـمـا لـم تَـقـم مَـنـاصِـلُـهـا
مَـقَـام تـلـك الـلـواحِـظ الـنّـجُـل
تَـغَـامَـسـوا فـي الـدروع زاخِـرةً
كـي يَـسْـلَـمـوا من حَـرارة الأسَـل
فَـمـا أفـادتْـهـم الـدروع سـوى
م الـنـقْـلَـة مـن خِـفـةٍ إلـى ثِـقَـل
كـأنـهـم والـرمـاح تـحـفِـزهـم
جَرْي فِصَالٍ[1] سلكْنَ في الوحَل
جـاؤوا بـهـا سُـبّـقـاً مـضـاعَـفَـةً
قـد أُخْـلِـصـت بـالـحـديـد والـعَـمَـل
مِـثْـل عـيـون الـدّبَـى[2] فـصَـيـرهـا
دَم وطـغـن كـأغـيـن الـحـجَـل

---

(١) جمع فصيل، وهو ولد الناقة يفصل عن أمه.
(٢) صغار الجراد.

هـنـاك سَـلْ بـالـوزيـر مَـنْ شَـهِـد
م الـحـربَ وإن كـنـتَ شـاهِـداً فَـقُـلِ

ولا تَـخـفْ إن حـكـيْـتَ مُـغْـرِبَـةً
عَـنـه مـقـام الـمـكَـذب الـخَـطِـل

فـإنـه الأوحـد الـذي تـرك الـدّ
م هُـرَ بـلا مـشـبِـهٍ ولا مَـثَـل

حَـدّثْ بـمـا شِـئـتَ عـنـه مِـن حَـسـنٍ
وعَـظـم الأمـرَ ثـم لا تَـسَـل

فـفَـضـلـه يَـبْـهَـر الأهِـلّـةَ فـي
سـعـودهـا والـشـمـوسَ فـي الـحـمَـل

وقال مراجِعاً للفتح بن خاقان:

هوًى منْجِد يلقَى به الليلَ مُتهِمُ
يصرح عنه الدمع وهو يُجَمجِمُ

يَـبـيـتُ يـداري أو يـداريءُ مـا بـه
ويَـغـلِـبـه أمـر الـهـوى فـيـسـلّـم

لأجـفـانـه مـن كـل شـيء مـؤرق
ومـن أيـن لـلـمـشـتـاق شـيء يُـنَـوّم

وليس الهوى ما الرأي عنه مُزَحزح
ولـكـنـه مـا الـرأي فـيـه مُـفَـخّـم

وأعـذَرَ أهـل الـحـب كـلّ مـدلّـهٍ
يَرى أن من يهدي له النصحَ ألْوَم

وأجلَد أبناء الزمان مرزأ
يقاسي خطوبَ الدهر وهو مُقيّم

ويصعُب حمل الهم والهمّ مفرد
فكيف ترى في حمله وهو تَوْأم

ولولا أبو نصر ولذاتُ أُنسِه
تقضّتْ حياتي كلها وهي علقَم

فتى فتح الله المعارف بِاسْمِه
ومِن دونِها باب من الجهل مبهَم

تأخر في لفظ الزمان وإنه
بمعناه في أعيانه متقَدم

أتوْا بالمعاني وهْيَ درّ مُنَظّم
وجاء بها من أفقِها وهي أنجم

وما يَستوي في الحكْم راقٍ وغائِص
لقد نال أسنَى الرتبة المتَسنّم

* * *

إليكَ أبا نَصْر بَديهةَ خاطِرٍ
تَوالَى عليه الشغل وهو مقسّم

أهبْتَ به للقول وَهْو (لِمَا بِهِ)[1]
فَلبّى ولم يسْعِدْه نُطق ولا فَم

---

(١) انظر تعقيبنا على هذه الكلمة في آخر الترجمة.

وكم مِضقَعٍ لا يرهَب القولَ فِعله
ثَنَتْه خطوب ما انثنَتْ وهو مفحَم

ولو لم يكن إلا وَدَاعُك وخدَه
لأشفَق منه يَذبل ويلَملَم[1]

فما يَصنع الإنسان وهو بِفهمِه
يحِس بأشتات الأمور ويَفهم

وقد كنتَ تُشكِيني من الدهر دائباً
فقد صرت أشكو منك ما أنت تعلم

عليك سلام تَسحَب الريح ذيْلَه
فيَغبَق منه كل ما يُتنَسّم

وإن لم يكن إلا وَداع وفُرقَة
فإن فؤادي قبلَك المتَقَدّم

وله أيضاً:

أرَى بَارقاً بالأبْلَق الفَرْد يومِضُ
يذَهّبُ جِلْبَابَ الدجى ويُفضضُ

كأن سلَيمى من أعاليه أشرقَتْ
تمد لنا كفاً خَضيباً وتَقْبِضُ

إذا ما تَوالَى وَمْضُه نَفَضَ الدجى
له صِبْغَةَ المسْوَدّ أوْ كاد ينفُضُ

---

(١) يذبل ويلملم جبلان معروفان.

أرقتُ لـه والـقـلـب يـهـفـو هُـفُـوّه
عـلـى أنـه مـنـه أحـدّ وأوْمَـضُ
وبِـت أداري الـشـوقَ والـشـوقُ مـقـبـل
عليّ وأدعو الصبر والصبر مُعرضُ
واسْتَنْجِدُ الدمعَ الأبيّ على الأسى
فتُنْجِدُني منه جَداول فُيّضُ
وأعـذلُ قـلـبـاً لا يـزال يَـرُوعُـه
سَنا النار يستشري أو البرق يَنبِضُ
تـظـنّـهـمـا ثَـغْـرَ الـحـبـيـب وخَـده
فـذا ضـاحِـك مـنـه وذا مُـتَـعَـرّضُ
إذا بـلـغـت منك الـخَـيالات ما أرى
فأنـتَ لِـمـاذا بـالـشـخـوص مُـعـرضُ
إلى أن تفَرّتْ عن سنا الصبح سُدفَة
كما انشقّ عن صَفح من الماء عِرمِضُ[1]
ونـدّتْ إلـى الـغَـرْب الـنـجـومُ مُـروعَـةً
كـمـا نـفـرَتْ عِـيـر من الـسـيْـل رُكّضُ
وأدرَكَـهـا مِـن فَـجْـأة الـصـبـح بَـهـتَـة
فـتَـحـسِـبُـهـا فـيـه عُـيُـونـاً تُـمـرّضُ
كـأن الـثـريـا والـغُـروب يـحـثـهـا
لِجامُ على رأس الدجى وهو يركضُ

---

(١) العرمض: الطحلب.

وما تَمتَري في الهَقعَة[1] العينُ أنها
على عاتِق الجوزاء قُرْط مُفَضضُ

ومنها في صفة الحرب:

سَل الحرب عنه والسُيوفُ جداول
تَدفقُ والأرماحُ رُقْط تُنَضْنِضُ
وبالأرض من وقع الجِيَاد تَمدّد
ولكنه فيما تَروم تَقيّضُ
وبالأفق للنقْع المُثار سحائب
مَواخِضُ لكن بالصواعِق تمخَضُ
وقد سَهِكَتْ[2] تحت الحديد من الصدا
جُسوم بما عُلّت من المسك ترحَضُ
ومدت إلى ورد الصدور عُيونها
صدور العوالي والعيونُ تُغمضُ
وأشرَفت البِيضُ الرقاقُ إلى الطلَى
لِتَكْرعَ فيها والرؤوس تُخفَضُ
فلستَ ترى إلا دماءً مُراقَةً
تخاض إلى أكباد قوم تخَضْخِضُ

وله وهي الأبيات التي أشادَ بها في صبح الأعشى:

---

(١) الهقعة: ثلاثة كواكب تعلو منكب الجوزاء.
(٢) عرقت وتغيرت ريحها.

نِــزاع مــا أرى بــك أم نــزوع
لـقـد شَقِيت بـه مـنـك الـضـلـوع
يَـروعـك أو يـريـعـك كـل داع
أكـل مُـثَـوِّبٍ[1] داعٍ سـمـيـع
جَـهِـلـتَ وقـد عـلاك الـشـيـب أمـراً
يـقـوم بـعـلـمـه الـطـفْـل الـرضـيـع
ولــولا ذاك مــا قــدرت أنــي
أنــوء بِـحَـمْـل مـا لا أسْـتَـطـيـع
بِـحَـسْـبِـك أو بِـحَـسْـبِـي مـنـك دهـر
يـشـت بِـصَـرْفـه الـشـمـل الـجَـمِـيـع
وشـوق تـقـتـضـيـه نَـوى شَـطـون
فـتـقـضـي عـنـه واجِـبَـهـا الـدمـوع
حـمَـلـت الـحـب مـؤتـمَـنـاً عـلـيـه
فـكـيـف يَـضـيـع ذلـك أو يَـذيـع
لـقـد جَـشـمْـتَ نـفـسـكَ مـتـلـفـاتِ
بِـكـل ثَـنِـيـةٍ مـنـهـا صَـريـع
وحَـالُ الـصـب تـخـضـبـه دمـوع
كـحـال الـقِـرْن يـخـضـه نَـجـيـع
وقـد تـحْـمِـي الـدروع مـن الـعـوالـي
ولا تـحـمـي مـن الـحـدَق الـدروع

---

(١) المثوب: الداعي يلوح بثوبه ليرى.

وربَّ فتى تراع الأسد منه
تقنَّصَ قلبَه الرشأ المَروع

وكتب إليه الوزير محمد بن القاسم من رجال القلائد معزياً في قريب مات له:

يشاطِرك الصبابة والسهادا
ويمحضك المحبةَ والودادا
صديق لو كشفتَ الغيْبَ عنه
وجدتَ هواك قد ملأ الفؤادا
يعز عليه رزء بِتَّ منه
شَفِيقَ النفس تلْهِمها سَدادا
أتشفِق للعباد ونحن منهم
من الرب الذي خلقَ العِبادا
أرادَ بنا الفناءَ على سواء
ولا بدَّ لنا مِمَّا أرادا
لئن قدمتَ عِلْقاً مستفَاداً
لقد أكرمت حظاً مستعادا
ومثلك لا يضعِّفه مصاب
ولا يعطِي لِنَائِبَةٍ قِيادا
وما زلتَ الرشيد نهًى وحاشا
لمِثلِك أن نعلِّمه الرشادا

فراجعه القاضي أبو الحسن بن زنباع:

لَـعـاً لَـك[1] مـن جَـوادٍ قـد أجـادا
وَنـال الـغـايـةَ الـقـصْـوَى وزادا
وبـشّـر بـالـتـي يـسـمـو إلـيـهـا
سـواك فـلا تـبـلّـغـهُ مـرادا
فـإنـي قـد رأيـت الـدهـر طـلْـقـاً
تـنـزل عـن خـلائـقـه وحَـادا
ومـنـذ بُـخِـسْـتَ حـظـك وهـو كـبر
أحـالَ عـلـى الـورى سـنَـةً جَـمـادا
ولـن يَـرْضـى الـزمـان وأنـتَ فـيـه
تـدافَـع عـن مـحـلـك أو تـعـادَى
ومـثـلـك وهـو أنـتَ ولا مَـزيـد
شـفَـى وكـفَـى الـمـلـمـات الـشـدادا
ومَـن وَخَـزَتْـه بِـالـنـوَب الـلـيـالـي
فـكـيـف يـطـيـق عَـذْواً واشْـتِـدادا
ولـولا مـا كـفَـفْـتَ بـه فـؤادي
مـن الـحِـكَـم الـتـي تـسْـلِـي تَـمـادى
ومَـن يـطْـفِـئ بِـنَـزْر الـمـاء نَـاراً
فـلـيـس يَـزيـدهـا إلا اتـقـادا
جـزاك الله خـيـراً مـن صـديـق
أفـادَ صـديـقَـه مـمـا اسْـتـفَـادا

---

(١) لعاً لك: دعاء للعاثر بالانتعاش والسلامة وضده لا لعاً لك.

وردَ عـليـه صَبْراً ضلّ عنه
وأقْسَم لا يَنال له قِيادا
وأنجَده على خَطْب عَراه
وأدرَكَ فيه ثأراً فاستَقادا

وله أيضاً:

لَهَواك في قلبي كَريقِك في فَمِي
غيْري يقول الحب مر المطعَم
فأدرْ عليّ بمقْلتَيْك كؤوسَه
حتى يَدب خماره في أعظمي
إن التلَدّد[1] في هواك تَلذّذ
لو كان أقتلَ من زعاف الأرْقَم
أحْبِبْ بِحب لا يثير مَلامةً
ملِئَت بِموليه عيونُ النوّم
شغَل النواظِرَ والقلوبَ ولم يدع
مَن لم يَسِمْه من الأنام بِميسَم
ومن العجائب شغْل شيءٍ واحد
في الحال أمْكِنةً ولم يتَقَسم
وأقامَ أزمِنةً وليس بِجوْهَر
وجرَى وليس بِمَائِعٍ مَجْرَى الدم

---

(١) المعاناة والشدة.

يا أيها القمر الذي إنسانه
يَرْمِي أناساً للعيون بأسهم
لم أُبْدِ حباً غيرَ أن جوانحي
فاضتْ به فيْضَ الإناء المفْعَم
لا ذنب لي عَلِمَ الذي أسرَرْته
نظراً ولم أرمز ولم أتكلم
وأمرتَ بالشكوى إليك وإنما
ينمَى إلى الإنسان ما لم يَعْلَم
ولَربما لم تُشكِني فأماتَنِي
يَأسي فَذرْني تحت أمْر مبْهَم
وتَلافَنِي قبل (التلاف)[1] فإنني
مِن حِمْيَرٍ وسيأخذونك في دَمي
الطاعنين بكل أسْمَر مِدْعَس
والضاربين بكل أبْيضَ مِخْذَم
والواردين الصادرين إذا الوَغَى
لفَحتْ بجَمْرتِها وجوهَ الحوّم
ولعلهم تسمو بِهم هِماتهم
أن يدركوا في الظبْي ثَأرَ الضيْغَم

أو قال ارتجالاً وقد زاره نفَر من إخوانه:

(١) انظر التعقيب على هذه الكلمة في آخر الترجمة.

هـلا وسـهـلاً بـكـم مِـن سَـادةٍ نـجـب
كالذُبْلِ السّمْرِ أو كالأنجم الشهب
أجـمَـلـتـمُ وتـفـضـلْـتـم بـزَوْرتِـكـم
وليس ينكَر فضل من ذوي حسَب
أضـاءَ مـنـزلـنـا مـن نـور أوْجـهِـكـم
وطابَ مِن عيْشِنا ما كان لم يَطِب

* * *

هذا جميع ما أثبته الفتح في القلائد من شعر مترجمنا، وهو كما قلنا فيه كفاية للتعريف بشاعريته وتقديرها، ووَددْنا لو وقفنا بإزاء كل قصيدة أو مقطعة منه وقفةً ولو قصيرة، لإبراز ما فيها من ضروب الإبداع، ولكن ضيق المقام مع استغناء الأديب الحصيف عن ذلك، منعَنا من الاسترسال في التعليق والتحليل بعدما أجملنا القول في أكثر هذه القصائد والتنبيه على محاسنها.

نعم نحب أن نعقب على تعبير (لِمَا بِه) الوارد في قصيدة شاعرنا التي يخاطب بها الفتح بن خاقان، فإنه تعبير غريب كتَبْنا عنه بحثاً خاصاً قدّمناه إلى مجمع اللغة العربية بالقاهرة بعدما كنا توقفنا فيه مدة، وتتبعنا نظائِرَه في فصيح الكلام نظماً ونثراً حتى اهتدينا إلى معناه، وهو أنه يقال في حالة ما يشبه العدم من الاحتضار، وقد أقره المجمع بعد إحالته على لجنة الأصول بالمعنى المذكور، ودلالة وجوده في كلام ابن زنباع هي تضلعه من متن اللغة واطلاعه على غريبها فأحرى مستعملها، ولذلك قال

فيه الفتح: «حوى العلوم وحازها، وتحقق حقائق العرب ومجازها».

وبعكس هذا كلمة (التلاف) في هذا البيت من ميميته التغزلية:

وتـلافَـنـي قـبـل (الـتـلاف) فـإنـنـي
مـن حِـمْـيَـر وسـيـأخـذونـك فـي دمـي

فإن مصدر تَلِف هو التلَف قياساً، ولم يذكر اللغويون لِتَلِفَ مصدراً سماعياً بهذا الوزن، فيبقى إذن أنه من باب الإشباع، وقد استعمله غير المترجم، ومما وقفت عليه من ذلك قول ابن عنَيْن الشاعر:

انـظـر إلـيّ بِـعَـيْـن مَـوْلًـى لـم يـزل
يـولـي الـنـدى وتَـلاف قـبْـل (تَـلافـي)

وقول شرف الدين ابن قاضي اليمن:

وإذا الـــداء خِـــيـــف مـــنـــه (تَـــلاف)
لـيـس يَـشْـفِـي إلا الـحَـكـيـمُ الـبَـصـيـرُ

والعلم لله.



ابن حبوس الفاسي
(ت ٥٧٠ هـ)

الاشتباه في اسمه، ولادته ونشأته، نبوغه واشتهاره، ديوانه، حياته أيام المرابطين، وقف على الشعراء، وفاته، شعره، نماذج منه.

أبو عبدالله محمد بن حسين بن عبدالله بن حَبُوس الفَاسي، شاعر كبير من مخضرمي الدولتين المرابطية والموحّدية، عُرف بجَدّه حَبُوس، وهو بالباء الموحدة المخففة، من مَوالي بني أبي العافية ملوك المغرب بعد الأدارسة، وهذا الاسم معروف في المغاربة قديماً، ومع ذلك فقد اشتبه على كثير من الناس فحرّفوه.

قال ابن خلكان في ترجمة الشاعر الدمشقي ابن حَيّوس ـ بالياء المثناة؛ مشددة ـ: «وفي شعراء المغاربة ابن حَبوس بالباء الموحدة المخففة، وإنما ذكرته لئلا يتصحف على كثير من الناس بابن حيّوس. ورأيت خلقاً كثيراً يتوهمون أن المغربي يقال له: ابن حيّوس أيضاً، وهو غلَط، والصواب ما ذكرته، والله أعلم». وممن تصحف عليه

بابن حيّوس صاحبُ تاج العروس، فأورده في مادة «حاس» وقال: كَتنوّر، كما صحّف اسم والده الحُسَيْن إلى الحيسي، ولعل هذا تطبيع فقط، على أن ابن حيّوس هذا قد يتصحف بابن حبّوس صاحبنا، ونتيجة لذلك، فإن ابن القاضي لما ترجم لأبي بكر بن باجَة في الجذوة، أنشد له قوله:

أسُكّانَ نعْمان الأراكِ تيقّنوا
بأنكمُ في ربْع قلبيَ سكّانُ

إلى آخر الأبيات المشهورة.

ثم قال: ويقال: إنها لابن حَبُوس، فتصحف عليه ابن حيّوس الدمشقي الذي تنسب إليه هذه الأبيات أيضاً بابن حَبُوس الفاسي، فنَسب إليه ما ليس له، وهذا إن لم يكن ذلك من خطأ الطبع، وهو في الجذوة كثير.

وثَمّ شاعر آخر أندلسي اختلف في اسمه فقيل: إنه ابن حيّوس، بياء مثناة وسين كاسم الشاعر ـ الدمشقي ـ وهو ما أشار له صاحب «معاهد التنصيص» في شرح الشاهد:

كيف أسلو وأنت حِقْف وغُصن
وغَزال لحظاً وقَدًّا ورِدْفا

فقال: «البيت من الخفيف وهو منسوب لابن حيّوس، ولم أره في ديوانه، ولعله ابن حيّوس الإشبيلي».

ثم عرّف بابن حيّوس الدمشقي فأطال في ترجمته، وقال في ابن حيّوس الإشبيلي ما نصه: «وابن حيّوس

الإشبيلي ذكره ابن فضل الله». ونقل تَحْلِيةً له فيه، وبَيْتَيْن من شعره أنشدهما له ابنُ سعيد المغربي.

وقد أثار هذا التشابُهُ في الاسم مُشكِلاً عند صديقنا الأستاذ الكبير خليل مردم بك، وهو يحقق ديوان ابن حيّوس الدمشقي، فكتب إلى الأستاذ عبدالعزيز الأهواني، وكان حينئذ في مدريد يتخصص في الأدب الأندلسي كما يقول خليل بك في مقدمة ديوان ابن حيّوس، يسأله عن ابن حيّوس الإشبيلي، فأجابه بأن صاحب البيتين اللذين أنشدهما ابن فضل الله هو ابن حَنون الإشبيلي بالنون لا بالياء كما في كتاب «المُغْرب في حلى المَغْرب» لابن سعيد المغربي، فالصواب في نص صاحب معاهد التنصيص أن يكون الاسم ابن حَنون الإشبيلي لا ابن حيّوس.

وأظن المشكل لا ينحلّ بكون الاسم في كتاب المغرب: ابن حَنون بالنون، فهو في كتاب عنوان: «المرْقِصات والمطْربات» لابن سعيد نفسِه: ابنُ حيّون بمثناة ونون آخره، وكذلك هو في رايات المبرّزِين له، وفي النفح عند الكلام على التوشيح والوشاحين، وهو كلام منقول عن ابن سعيد. وكذلك وَرَدَ اسمُه في «تاريخ الأدب الأندلسي» لِبَالِنْسِيا. ولم يرد فيه ولا في النفح اسم ابن حنون بالنون إطلاقاً.

نعم هو في «زاد المسافر» بالنون مع تكنيته بأبي العباس متوافق مع ما في المُغْرب، وتبقى معنا روايات المرقصات والرايات ونفح الطيب وغُونْسا ـ لِيس بَالِينْسِيا ـ

كلّها على أنه ابن حيّوس، ورواية معاهد التنصيص عن ابن فضل الله أنه ابن حيّوس بالياء المثناة تحت والسين آخِرَه. ويعضدها ما جاء في بدائع البدائه قال: «وأخبرني الفقيه الزاهد أبو عبدالله محمد القرطبي أيّده الله، قال: قال أبو محمد عبدالمؤمن بن علي صاحب قرطبة والمغرب يوماً في مجلسه، وقد عوفيَ من مرض.

الحمد لله رب العالمين على..

ثم طلب إجازتَه من أهل المجلس، فلم يجِبْه أحد. فقال أبو العباس ابن حيّوس:

بُرْءِ الإمام الذي في الآمِنين عَلا»

فهذه ثلاث روايات ليست إحداهن بأوْلى من الأخرى بالترجيح، إذ ليس فيها ما ضُبِط بالحروف كما فعل ابنُ خلكان في ابن حيّوس وابن حبُوس مع احتمال التصحيف في كل منها، ولذلك قلنا: إن المشكل لا ينحل بجواب الأخ الدكتور عبدالعزيز الأهواني.

وبكل وجه فإن اسم صاحبنا المترجم له، هو بالباء الموحدة المخففة من غير خلاف.

ولد ابن حَبُوس ببلده فاس سنة ٥٠٠، وتأدّب بالعلماء من أهلها والطارئين عليها، وقال الشعر في صباه، ولا صحة لما في «المحمدون من الشعراء» للقِفْطي من أنه أندلسي المولِد والمنشأ، ثم رحل إلى تلمسان فأقام بها يسيراً، ثم

رحل إلى مراكش فأقام بها قليلاً، ثم قدم الأندلس فتردد في بعض بلادها معظمَ عصر شبيبته، إلى أن ظهر أمر عبدالمؤمن بن علي، فصحبه ولزم ركابه، وله فيه وفي بنيه أمداح كثيرة. قاله ابن عبدالملك المراكشي.

ونبغ واشتهر، وأصبح شخصية فذّة تجمع بين العلم والشعر، ويروي عنها الرواة وتتقدم المعاصرين من أهل الأدب. قال ابنُ الأبّار عنه في التكملة: «كان عالماً مُحققاً وشاعراً مفلِقاً يتقدم في ذلك أهلَ زمانه، ويُوقَفُ على جودة شعره من ديوانه، امتدح الأمراء وروى عنه أبو بكر عبدالعزيز بن زيدان وغيره»، وقال ابن عبدالملك في الذيل والتكملة: «روى أبو عبدالله عن أبي بكر الأبيض، وروى عنه أبو محمد بن محمد التادلي وعبدالعزيز بن زيدان، وكان شاعراً مفلقاً من جِلّة فحول الشعراء، متفنناً في معارف سوى ذلك من كلام ونحو ولغة».

ويرشدنا ابنُ الأبّار إلى ديوانه لنقف منه على جودة شعره، وأين منا ديوانه؟ فسامحه الله، لقد كان خيراً من إبعاده النجعة، وتلفيقه لتلكَ السجعة، أن يروي لنا قصيدة أو قصيدتين من مختار شعره، فنجدهما لديه الآن كالدرتين المكنوزتَيْن، والشّذرتين المخزونتين، ولكن هكذا شاءت الأقدار أن يتعاون الجميع على طمْر التراث الفكري لهذا القطر المغربي.

وإن تعجب، فعجب مُوافقةُ ابن دِحْيَة لابن الأبار في هذا الصنيع، فإنه لما ذكر شاعرنا في كتابه «المطرب»، لم

يرو من شعره ولا بيتاً واحداً[1]، وإنما أشار إلى ديوانه الذي رفعه إلى الملك الكامل بن أيوب سلطان مصر، مع أنه أثنى عليه عظيم الثناء، ووصفه بشاعر المغرب. وهاك قوله فيه: «ومنهم شاعر المغرب الأقصى، ومفخره في صناعة المحاكاة والتخييل، وإن كان له غلو في الإمداح، وإفراط في الاختراع والاقتداح، فربما ثنى عنانه إلى مدح اللطيف الخبير، ورَوّى ظمأه ذلك العذبُ النمير» ثم ذكر أنه لقيه بمراكش سنة ٥٦٤ ثم زاره في داره بفاس بدرب السرّاجِين، وأخذ عنه وسمع منه.

وقال ابن عبدالملك في ديوانه هذا: «وشعره كثير، وقد جمع له بعض أصحابه المختصين به، ما عَلِقَ بحفظه منه أو أحضره ذكره، أو أسأرته عوادي التنقل والاضطراب إلى آخر ربيعَي ستين وخمسمائة؛ فناهز ذلك ستة آلاف بيت وخمسمائة بيت. وقد وقفت منه على مجلد متوسط»، وهذا على كثرته إنما هو طرف من شعره الذي كان لدى هذا الصاحب، كيف لو جمع كل شعره فيما مضى من عمره قبل الستين ثم فيما بقي إلى حين وفاته؟

وكان ديوانه هذا عند القِفطي وأعاره لعلي بن القاسم بن عساكر فبقي عنده.

ويقول المؤرخ الأديب عبدالواحد المراكشي في كتابه «المعجب» يصف طريقة ابن حَبُوس في الشعر: «وكانت

---

(١) غلط محقق كتاب المطرب فنسب لابن حبوس أبياتاً ليست له، وذلك في فهرس الشعراء الذي وضعه الكتاب.

طريقته في الشعر على نحو طريقة محمد بن هانىء الأندلسي في قصد الألفاظ الرائعة، والقعاقع المهولة، وإيثار التقعير، إلا أن محمد بن هانئ كان أجود منه طبعاً، وأحلى مهيعاً» وهذه شهادة - على ما بها - قاضية بِعُلوّ نفسَه وبُعْد غايته. . . على أنه ذكر له قبلها ما يشهد بتفوُّقه وتقدُّمه على جميع شعراء عصره من أندلسيين ومغاربة، وذلك حين كلامه على بيعة أهل الأندلس لعبدالمؤمن بن علي واحتفاله لذلك بجبل الفتح (جبل طارق) وهو قوله:

«وكان له (لعبدالمؤمن) بهذا الجبل يوم عظيم، اجتمع له وفي مجلسه من وجوه البلاد ورؤسائها وأعيانها وملوكها من العُدوة والأندلس ما لم يجتمع لملك قبله، واستدعى الشعراء في هذا اليوم ابتداء، ولم يستدعهم قبل ذلك، إنما كانوا يستأذنون فيؤذن لهم، وكان على بابه طائفة أكثرهم مجيدون، فدخلوا، فكان أول مَن أنشده أبو عبدالله محمد بن حبُوس من أهل فاس (وأتى بكلامه السابق) ثم قال: «فأنشد في ذلك اليوم قصيدة أجاد فيها ما أراد:

بَلَغَ الزمانُ بهَذيكمْ ما أمَّلا
وتعلمتْ أيامُهُ أن تعدلا

وبِحسْبِهِ إن كان شيئاً قابلا
وجَد الهِداية صورةً فتشكلا

لم يبق على خاطري أكثر من هذين البيتين».

فانظر كيف قُدّم ابنُ حَبُوس في ذلك المحفل العظيم على جميع مَن حضر من شعراء العُدْوتين الذين كانوا يُعدّون

بالعشرات، ما ذاك إلا لتبريزه في الميدان، وتقدمه - كما قال ابن الأبار - على أهل زمانه في هذا الشأن، خصوصاً إذا لاحظنا أن ذلك الترتيب لا بد أن يكون عن قصد من منظمي الاحتفال الرسمي كما يُشعِر به كلامُ صاحبِ «المعجب».

ونلاحظ أيضاً أن سِنّ ابن حَبُوس في ذلك الحين، كانت نحواً من ٥٦ سنة، لأن جواز عبدالمؤمن إلى الأندلس كان في سنة ٥٥٦ على ما عند ابن أبي زَرْع وغيره لا سنة ٥٣٨ كما وَهِمَ المراكشي... وهذه السن أيضاً تقضي بتقديم ابن حبوس لأنه أصبح حينئذ شيخ الأدباء في المغرب.

ثم قال المراكشي عنه: «ولابن حبوس هذا قصائد كثيرة فيه (عبدالمؤمن) وكان حظِيًّا عنده، نال في أيامه ثروة، وكذلك في أيام ابنه أبي يعقوب، وكان في دولة لمتونة مقدماً في الشعراء، حتى نقِلت إليهم عنه حماقات، فهرب إلى الأندلس، ولم يزل بها مستخفياً يتنقل من بلد إلى بلد حتى انتقلت الدولة المرابطية». وهذا النص يفيد تقدمه أيضاً في الصناعة قبل الموحدين، حين كانت أكثرية الأدباء من أهل الأندلس، وكان الأدب الأندلسي في قمة مجده ونهاية كماله.

إنما لا ندري ما هذه «الحماقات» التي نقلت للمرابطين عنه، أهي أقوال تمس بكرامة الدولة ورجالها مما كان يخوض فيه أهل الأندلس؟ أم تصرفات تشعر بميله إلى أعدائهم القائمين عليهم؟ أم تهتُّك ومجون مما كان يصدر

من الشعراء وأهل الأدب في زمانه ولا تحتمله سذاجة الدولة وصبغتها الدينية المعروفة؟ إن لفظ الحماقات يحتمل هذا وغيره من الأمور، ولكن ربما كان الأمر الثاني أرجح في نظرنا، ولهذا قُرِّب في زمن الموحدين ورُفِع مقامه على غيره من الشعراء.

وحَكَى في «المعجب» هذه الحكاية التي جرت له أيامَ تغرُّبه في الأندلس، وفيها فوائد كثيرة، منها اهتمام الأندلسيين بالأدب والشعر، حتى إنهم أوقفوا عليه الأوقاف. ومنها وقوف الحركة الأدبية في الأندلس أيام الفتنة حتى لم يوجد أديب في مدينة شِلْب، مدة سبع سنوات قبل مجيء ابن حبُوس إليها، مع ما اشتهرت به هذه المدينة من كون أهلها أكثرهم شعراء، حتى لو مررت بالفلاح في حقله لوجدته ممن يقول الشعر، ومنها مكانة ابن حبّوس الشعرية في ذلك الوقت، وهذا هو المهم في الحكاية. ونصها:

«قرأ عليّ ابنه (ابن الشاعر) عبدالله من خط أبيه هذه الحكاية. قال: دخلت مدينة شِلب من بلاد الأندلس، ولي يوم دخلتها ثلاثة أيام لم أطعم فيها شيئاً، فسألت عمن يُقصَدُ إليه فيها، فدلّني بعض أهلها على رجل يُعرف بابن الملح، فعمدت إلى بعض الورّاقين، فسألته سِحَاءَةً[1] ودواةً فأعطانيها، فكتبت أبياتاً أمتدحه بها وقصدتُ داره فإذا هو في الدهليز، فسلّمت عليه، فرحّب بي وردّ عليّ أحسن ردّ،

(١) قطعة قرطاس، وانظر تحقيقاً حول هذه الكلمة في كتابنا: «العصف والريحان».

وتلقاني أحسن لقاء، وقال: أحسبك غريباً؟ قلت: نعَمْ. فقال لي: من أي طبقات الناس أنت؟ فأخبرته أني من أهل الأدب من الشعراء، ثم أنشدته الأبيات التي قلت، فوقعت منه أحسن موقع، فأدخلني إلى منزله، وقدّم إليّ الطعام، وجعل يحدثني فما رأيتُ أحسن محاضرة منه. فلما آن الانصراف خرج ثم عاد ومعه عبدان يحملان صندوقاً حتى وضعه بين يديّ، ففتحه فأخرج منه سبعمائة دينار مرابطية، فدفعها إليّ وقال: هذه لك. ثم دفع إليّ صرّةً فيها أربعون مثقالاً وقال: هذه من عندي. فتعجبت من كلامه وأشكل عليّ جداً، وسألته: من أين كانت هذه لي؟ فقال لي: سأحدثك، إني أوقفتُ أرضاً من جملة مالي على الشعراء، غلتها في كل سنة مائة دينار، ومنذ سبع سنين، لم يأتني أحد لتوالي الفتن التي دهمت البلاد، فاجتمع هذا المال حتى سيق إليك. وأما هذه فمِنْ حُرّ مالي، يعني الأربعين ديناراً[1]، فدخلت إليه جائعاً فقيراً وخرجت عنه شبعان غنياً».

وقد استغنى ابنُ حَبُوس بعد ذلك عند اتصاله بعبدالمؤمن وبَنِيه، وأمِنَ واستقرت به الدار في بلده فاس، حيث زاره ابنُ دِحْيَةَ كما سبق القول، وتوفي سنة ٥٧٠، كما في ابن عبدالملك بنقل صاحب الأعلام. وفي تاج العروس أن وفاته كانت سنة ٥٨٠ وربما يكون وقع في الرقم تحريف.

هذا وتقدم عن ابن دحية وصفه بشاعر المغرب

(١) عبّر أولاً بالمثقال، وثانياً بالدينار إيذاناً بتساويهما.

ومَفخَرُه في صناعة المحاكاة والتخييل، ووصَفَه صَفوانُ بنُ إدريس وقد افتتح به كتابه بشاعر الخلافة المهدية، يعني الدولة الموحّدِيّة، وهو اللقب الذي حمله الشاعر الجرّاوي بعدُ. ونستخلص من هذه الأوصاف ومن كلام المراكشي السابق في شعره أنه كان طبقة عالية يتزاحم بشعره الفحول من الشعراء كابن هانيء وغيره. وقد عُرِف شعرُه في المشرق لدى خلق كثير من أهله كما يفهم من كلام ابن خلّكان، وإن كانوا يغلطون في اسمه، ومجمَلُ القول فيه، أخذاً من النماذج التي وقفنا عليها منه، أنه شعر يجمع بين الجزالة والإبداع، ويكثر فيه المجاز والصور الخيالية التي يُقرّبُ بها ما بَعُدَ من المعاني وشرَدَ من الأغراض، والكلمة فيه تخضع لمراد الشاعر ولا تتحكم فيه، ولو كان بيدنا كثير من شعره، لحكمنا جزماً بأنه نسيج وحده في أسلوبه، على ما ظهر لنا مما بيدنا من شعره، وأن نَفَسَه مشرقيّ وليس بأندلسيّ.

والغالب على شعره فَنّا المدحِ والحكمةِ، على الأقل، فيما اطّلعْنا عليه منه، والحكمة تنشأ عن التفكير الطويل والثقافة الواسعة، ولذلك فإننا حين نجده يخلل بها أشعاره، حتى الأمداح منها، نعرف أن تجربته الشعرية كانت تقتضي منه معاناةً وعمليةَ خَلْقٍ فَنّي كما هو الحال عند كل الفنانين والأدباء الكبار.

وهذه نماذج من شعره نحن مدينون بها لكتاب «زاد المسافر» وكتاب «الذيل والتكملة»، إلا أن ما نُقِل عن الذيل وقع في بعض أبياته محو، فاضطررنا إلى الانتقاء منه، فمن

قوله في مدح عبدالمؤمن، وهو من القصيدة التي أنشدها إياه في جبل الفتح وأورد في «المعجب» منها البيتين السابقين:

فَلأنتمُ الحقّ الذي لا يُمتَرَى
فِيه وليس بجائِزٍ أن يُجهَلا
ولأنتُم سرُ الإله وأمرُكمْ
ملأ العوالِمَ مُجمَلاً ومُفصّلا
عُزِلتْ ولاةُ الحسْن عن إدراكه
فهْو المنَزّهُ حسنُه أن يُعقَلا
كاثَرتُمُ زُهْرَ النجوم أسِنّةً
وأدَرْتُمُ فَلَكاً عليها القَسْطِلا
ومنعتُم الريحَ الهبوبَ لأنكم
أرسيتُم الحَلَق المضاعَفَ أجْبُلا
صدّتْ تَمشّى القهقرى ولو أنها
خاضَت رِماحَكُم لعادات مُنخُلا

وله منها في صفة الرياض:

إن رنّتِ الريحُ الخفوقُ إزاءَها
ترك القَضِيبُ قَوامه وتَميّلا
شرب النشاط سلافةً حتى انتشى
ولو أنها حُرمت عليه تأوّلا

وله في عبدالمؤمن، وقد حلّ بالرباط من قصيدة، ويلاحظ ما يدل عليه قوله في الموازنة بين الممدوح والبحر من سعة الثقافة الجغرافية بالخصوص:

ألا أيّـهـا ذا الـبـحـرُ جـاورَك الـبـحـرُ
وخـيّـمَ فـي أرجـائـك الـنـفـعُ والـضـرّ
وجاشَ على أمْواهِك العقلُ والحِجا
وفاضَ على أعطافك النهيُ والأمر
وسـال عـلـيـك الـبَرّ خـيـلاً كـمـاتـهـا
إذا حاولت غزْواً فقد وجَبَ النصرُ
لـعـلـك يُـطـغِـيـك اشـتـراكٌ سـمـعـتَـهُ
فـذلـك بـحـر لا يـشـاكِـلُـه بـحـر
فـأنـتَ خـديـمُ الـشـمـس والـبـدرِ عـنـوةً
وتـخـدمـه فـي أمـره الـشـمـس والـبـدر
ويحويك شطرُ الأرض تعمر بعضَه
وفي صـدره الأفـلاكُ والـبـحـر والـبَـر
وقــد وسِــعَ الأيــامَ جــوداً ونــجْــدةً
ولـيـس لـمـا تـأتـي بـه عـنـده قَـدْر
ومـا لـك مـن مـعـنـى تـشـارِكُـهُ بـه
سوى خُدَعٍ في النطق زخرفها الشعر
ومـا لـك مـن شـيء يُـشـيـر إلـى الـتـي
تَـفُـوهُ بـهـا إلا الـسّـلاطـة والـهَـذرْ
ولـيـس اشـتـراك الـلـفـظ يـوجِـبُ مِـدْحـةً
ولـكـنـه إن وافـقَ الـخَـبـرَ الـخُـبْـرُ

ومنها في ذكر مدينة الرباط:

بـنَـى فـوقـه أمّ الـبـلاد فـكـلـهـا

يـسـحّ عـلـيـه مـن مَـراضِـعـهـا دَرّ

تَـكـنّـفـهـا الـمِـلآن مـن كـل جـانـب

نـقـيـضـان ذا حـلْـوُ الـمَـذاق وذا مُـرُ

فـهـذا عـلـيـه الـمَـدّ والـجَـزْر دائـبـاً

وذلـك لا مـدّ عـلـيـه ولا جَـزْرُ

غـدت نُـقـطـة فـي ضِـمْـن دائـرة الـدّنَـى

فـلا أفُـقٌ يـنـأى عـلـيـهـا ولا قُـطـرُ

فمن حيث ما رُمتَ الجوانب نِلْتَها

بِـيُـسـرٍ، ولا كـدّ عـلـيـك ولا عـسْـرُ

ولـه فـيـه مـن قـصـيـدة لـمـا فـتـح مـديـنـة بـجـايـة سـنـة ٥٤٦ وكان ابن حبوس معه:

مَـنِ الـقـومُ بـالـغَـرْب تُـصـغِـي إلـى

حـديـثِـهـمُ أذُنُ الـمَـشْـرقَ

جَـرَوْا والـمـنـايـا إلـى غـايـةٍ

فـلـم يـسـبـقُـوهـا ولـم تَـسْـبِـق

بـأيـديـهـمُ الـنـارُ مَـشْـبـوبـةً

فـمَـهْـمـا تُـصِـبْ بـاطـلاً تُـحـرِق

يـقـودُهـم مَـلِـكٌ أروعٌ

تـفـرّدَ بـالـسـؤددِ الـمـطـلَـق

تَـخـيّـره الله مـن آدم

فـمـا زال مُـنـحـدِراً يـرتـقـي

إلى الناصِريّة[1] سِرْنا معاً
ولمّا تفُتْنا ولم تُلحَق

إلى بَرْزَةٍ في ذرَا أزْعَنٍ
تَجِلّ عن السّور والخَنْدَق

يعوذُون منا بمولاهُمُ
ومَوْلاهمُ عاذَ بالزّوْرق

وأكسَبَهُ خوفُه رِقّةً
فلو خاضَ في البحر لم يَغْرَق

ويروي ابن القِفْطي بعض أبيات هذه القصيدة ويعلّق عليها، وذلك بعد ذكره أنه وقف على ديوانه وتملّكه ثم أعارَه لابن عساكر ولم يعِذه إليه فيقول: ولم يَعلَقْ بخاطري من شعره، إلا ما قاله ارتجالاً بين يدَيْ عبدالمؤمن عند فتحه بِجَاية، وهرُوب صاحبها في زورق أعدّه لنفسه بعدما انهزم إلى قَصره وغلّق أبوابه من جهة المدينة وفتح بابه من جهة البحر، ولاذَ أهلُ المدينة بالقصر ينادونه: يا مولانا، أخرج إلينا لنقاتل بين يديك، وكان عبدالمؤمن ينظر إلى الأمير الهارب في البحر، فنزل ابنُ حبُوس عن دابته وأنشده هذه القصيدة، لكن القفطي لم يروِ منها إلا قوله: فلاذوا بقصر لمولاهم... البيت.

وبيتاً آخر بعده لم يروه ابن صفوان؛ وهو:

وفارقه أحمراً أبيضاً   ولجّجِ في أخضرٍ أزرق

---

(١) هي بجاية تنسب إلى الناصر الحمادي لتجديده لها بعد خرابها.

ثم أتى بعده بالبيت الأخير وهو باختلاف بعض ألفاظه:

وأورثَــهُ خــوفُــه رقّــةً فلو خاض في اللّجّ لم يغرَق

وقال بعد ذلك، ومنها في مدح عبدالمؤمن:

تخيّره الله من آدم... البيت، وعلّق عليه بقوله:

أراد منحدراً في الأصلاب، مرتقياً إلى المعالي، وهذا في غاية الجودة والرشاقة والصنعة في المطابقة.

وله من قصيدة أخرى ولعلها فيه أيضاً:

أميرَ المؤمنين لقد أضاءَ الـ
زمانُ بِنُور هذيكَ واستنارا
لكمْ شرْقُ البلادِ ومَغرِباها
وأمرُكم مع الفَلَك استدارا
يسير إليكم من ناء عنكم
يدور إليكم من حيث دارا
فمَن قد فرّ عنكم من عدو
فنَحْوَكُمُ إذاً يبغي الفِرارا
ولو خَوّفْتُمُ أعلامَ رَضْوَى
لما سكنتْ ولا وجَدتْ قَرارا

وهذه القطعة كالتي قبلها من أبلغ الشعر وأمدَحِهِ، فإنها تبين عن نَفْس عبدالمؤمن القوية وشخصيته الكبيرة، ولذا رجحنا أنها فيه:

وله من قصيدة لعلها في فتح عبدالمؤمن للمهدية بيتان أحدهما في ذكر اختطاط المهدية من طرف عبيدالله المهدي بطالع الأسد، وهو:

بطالع الأسَد اختُطّ البناءُ لها
لكنك الأسدُ الدامي الأظافير

والآخر في ذكر بابها الحديدي الشهير وهو:

باب حديد وأبراج ثمانية
تسخّر العقل فيها أي تسخير

أنشدهما ابن حماد في كتاب أخبار بني عُبيد، وقد تصحّف اسم ابن حبُوس فيه إلى ابن حيّوس.

وله أيضاً هذان البيتان أنشدهما في زاد المسافر ولم يذكر مَن قيلا فيه:

عصفتْ بدعوتك الرياح الهوجُ
وسطا بأمرك ذابِلٌ ووَشِيجُ
وتقدّمتك إلى العدو مهابة
يشقى بها في سدّه يَاجُوج

وأولهما: يشبه أن يكون ذماً، في حين أن الثاني: مدح بليغ.

وفي كتاب «المن بالإمامة» ما يفيد أن هذه القصيدة قيلت في فتح عبدالمؤمن للمهدية، وقد أنشد البيت الأول منها فقط، وبصورة مغايرة.

ولابن خَبُوس من قصيدة في مدح الوزير أبي جعفر بن عطية:

ألا زارَ مِـن أم الـخُـشَـيْـف خـيَـالُـهـا
ومـن دونـهـا الـبـيـداء يـخـفـق آلُـهـا

لقد أوقدت في القلب مِنّيَ جمرةً
بدا في سواد العارضَيْن اشتعالُها

ثكلتُ الليالي عند غيريَ سِلْمُها
ورَوقَـةُ دنـيـاهـا وعـنـدي قِـتـالُـهـا

أتـحـسـدُنـي فـي أن أعـيـش كـأنـمـا
إذا فسدت حالي ستَصلُح حالُها

أمَا تـتّـقـي أن يـشـرَئِـبّ لـنُـصـرتـي
قَـويّ إذا رام الـسـمـاء يـنـالُـهـا

ومـاذا الـذي يـنـأى عـلـيـه وإنـه
لـذو قَـدَم أمّ الـنـجـوم نِـعـالُـهـا

وزيرَ العلا عندي من القول فَضْلَةٌ
رويـنـهـا فـي مـدحـكـم وارتِـجـالُـهـا

وما كنتُ أخشى مدة الدهر أن أُرَى
تـمـيـدُ بِـيَ الـدنـيـا وأنـتـم جِـبـالُـهـا

وله من أخرى يذمه لما نُكِب، وما أقبح هذا التقلب من الإنسان عندما يغدر بأخيه الزمان:

أنـدلـسـيّ لـيـس مـن بَـرْبـرِ
يـخـتـلـس الـمـلـكَ مـن الـبَـرْبـر

لا تُسْلِمُ البربرُ ما شيّدَتْ
بالمَلِك القَيْسيّ من مَفْخَر

ومرادهُ بالملك القَيسيّ هنا عبدالمؤمن بن علي، لأنه فيما ذكر له من نسب عربي ينتهي إلى قيس عيلان.

ونسجل هنا كيف أنه جعل جريمة الوزير أبي جعفر محاولتَه اختلاس الملك لنفسه، وذلك ما يكون عبدالمؤمن قد روّجه بين الناس لتبرير قتله، فشاعر رسمي مثل ابن حبّوس لا يعدل عن هذه التهمة، كما لا يمكن أن يعدل عن هجائه اليومَ ممدوحَهُ أمس، فإن عبدالمؤمن كان يمتحن الشعراء بهجو وزيره كما ذكِر ذلك في ترجمته.

ولا نمرّ على هذين البيتين حتى نصحح ما فيهما من غلط نسبة أبي جعفر إلى الأندلس، فقد عرف أنه مغربي مراكشي، وإن كان أصله الأصيل من الأندلس[1]، فهذا الذم على حد ما يقال عندنا في بعض الطبقات: هذا من البلد، وهذا طارئ، وإن كان وُلِد ونَشَأ بين أظهرنا.

ولابن حبُوس يذكر احتفال عبدالمؤمن بالمصحف العثماني عند نقله من قرطبة إلى مراكش، والصنيع العظيم الذي فعل بتزيينه وتحليته وصيانته:

سيشكرُ المصحفُ إكبابَكم
عليه إذ أوْجَده الفَقْدُ

---

(١) انظر الحلقة (٥) من «مشاهير رجال المغرب» الخاصة بترجمة الوزير ابن عطية.

أذكــرتُــمُ الأيــامَ مــا أغــفــلــت

مــن بِــرّه إذ قَــدُم الــعــهْــدُ

مُصحف ذي النورين عثمانَ ما

كــان لــكــم عــن صــونــه بُــدّ

أوسعتم الدنيا اطّراحاً وما

كــان لــكــم إلا بــه وَجْــد

يحنو عليه العطف منكم ولا

يُــغــبّــه الإشــفــاقُ والــودّ

صَبابةٌ منكم بله لم تكن

تُــثِــيــرهــا جُــمْــلٌ ولا دَعْــدُ

أحببتُمُ المولى فأحببتُم

مــا خــطّــهُ مــن وَحْــيِــه الــعــبْــدُ

ألبستُموه حِلْيَةً لم يكن

يــســمــحُ لــلــكــفّ بــهــا الــزّنــدُ

لــم تُــدركِ الأعــرابُ مــا كُــنــهُــهــا

ولا ادّعــت إدراكَــهــا الــسّــغْــدُ[1]

لأسْــفَــرت سَــفْــرتُــكــم هــذه

عــن واضــحــاتٍ نُــجْــحــهــا نَــقْــدُ

تكفّل السعدُ بمقصودكم

وبــانــتِ الــوجْــهــةُ والــقَــصــدُ

(١) ناحية نزيهة بين بخارى وسمرقند، والمراد أهلها مقابلة لهم بالعرب.

عـــنـــايـــةُ الله بـــكـــم جـــمّـــةٌ
لـكـم عـلـيـهـا الـشـكـرُ والـحـمـدُ

وله قصيدة أخرى في الموضوع، قال ابن عبدالملك: وهي عندي من غُرَر القصائد:

فِـعـلُ امـرئ دلّ عـلـى عـقـلـه
والـفَـرْعُ مـنـسـوب إلـى أصـلِـه
إن الـذي يَـكـرُم فـي جـنـسـه
هـو الـذي يَـكـرُم فـي فـضـلِـه
والـمـرء لا يُـشـكَـرُ عـن نـفـسـه
وإنـمـا يُـشـكَـرُ عـن فَـضْـلِـه
والـخـيـرُ والـشـرّ لـهـذا وذا
أهـلٌ، فَـرَجّ الـخـيـرَ مـن أهـلِـه
لا يـتـرُك الـلازمُ مـلـزومَـه
والـشـخـصُ لا يـنـفـكّ عـن ظِـلـه
وكـلّ مـفـطـورٍ عـلـى شـيـمـةٍ
لا بـد أن تـظـهـرَ فـي فـعـلِـه
لا يـدرك الـطّـرفُ عـلـى شَـدّه
مـا يُـدرك الـطّـرْفُ عـلـى رِسْـلـه
والـنـاس أشـتـاتٌ وفـي الـطـبـع مـا
قـد يـعـطِـفُ الـشـكـلَ إلـى شَـكـلـه

إلى أن قال:

هــذا كــتــابُ الله جــلّ اســمــه
بــخــط عــثــمــان وفــي دخــلــه
أنــيــسُــه فــي وحــشــة الــدار إذ
تــواطــأ الــقــتــل إلــى قــتــلــه
رمــى بــه الــخــابــطُ فــي غــيّــه
وضــمــه الــحــاطــبُ فــي حــبْــلــه
وصــار مــن أوكــد شــغــل امــرىء
فــي تــركــه الإعــراضُ عــن شــغــلــه
صــيــانــةُ الــشــيــخ لــه أوجــبــت
لــجــاجــة الــبــاغــيــن فــي بَــذْلــه
حــتــى أتــى الأمــةَ مــن نــبــهــت
شــهــادةُ الــرّسْــل عــلــى عــذلــه
فــأيــقــظ الأجــفــان مــن نــومــة
صَــحــا بــهــا الــمــخــبــولُ مــن خبْــلِــه
عــرّفَ مــا يُــجــهــل مــن حــقّــه
وضــمّ مــا فُــرّق مــن شَــمْــلِــه
ومــال فــي تَــعْــظــيــمــه مــيْــلــةً
أعــادت الــفــرعَ إلــى أصــلِــه
ألــبــسَــه مــن رائــق الــحــلْــي مــا
يَــعــجِــزُ جِــيــدُ الــدهــر عــن حَــمْــلــه
وزاد مــا أبــطَــن مــن بِــرّه
عــلــى الــذي أظــهــرَ مــن حــفْــلِــه

نـشْـزٌ يـضـيء الـنـجـمُ فـي عُـلْـوه
ونَـيِّـرات الـشـهْـب فـي سُـفْـلِـه
فـمِـن حَـصـى الـيـاقـوت حَـصـباؤه
وتِـبْـرُه يـغـنـيـه عـن رَمْـلِـه
كـأنـمـا الأصـبـاغُ فـيـه وقـد
تـألـف الـشـكـل إلـى شـكـلِـه
زَخـارفُ الـنـوّار فـي روضـه
هَـرَاق فـيـهـا الـلـيـلُ مـن طَـلّـه

ويشير إلى إشراف عبدالمؤمن بنفسه على هذا العمل وإرشاده الصنّاع عند الحيرة، على ما ثبت في رسالة ابن طُفَيْل التي تصف هذا الصنيع:

ذلـك مـن فـضـل إمـام الـهُـدى
وكـلّـنـا نُـعـزَى إلـى فـضـلِـه
كـأنـمـا الـعُـمّـال آلاتُـه
تـفـعـل مـا يَـصـدُر عـن فـعـلـه
جـهـابـذُ الآفـاق قـد بَـلـدوا
فـي فـضـل مـا يـفـصـل أو وَصْـلِـه
وكـلـهـم بـرّزَ فـي سـبْـقِـه
وأحـرزَ الـخـصـل عـلـى مَـهْـلِـه

ثم يستأنف نظم جواهره الحِكْمية الفريدة:

مـا خَـطْـوُ مَـن يـعـدُو بـه سـابـح
كَـخَـطْـو مـن يـعـدُو عـلـى رجـلِـه

وليس مَن يَغرفُ من نهره
مثل الذي يغرفُ من سَجْلِه
ولا الذي يمرَحُ مرخًى له
مثل الذي يمرح في شُكْله
ولا حسامٌ نال منه الصّدا
مثل الذي بُولِغ في صَقْلِه
التمْرُ مَغزُوٌّ إلى نخْلِه
والشّهْدُ منسوب إلى نَحْلِه
والقدس محفوظ على أهله
وأنتمُ والله من أهلِه
عجائب العالم مختَصة
بأوليـاء الله أو رُسْلِه

وهذا كلام ظاهِرُه الحكمة وباطنه مدحُ عبدالمؤمن، وتلك براعة نادرة يتوفر عليها هذا الشاعر، وتكاد تكون نوعاً من الرمزية غَنِيَ بها ابن حَبوس عن أن يُعدّد صفات الممدوح كما درجَ عليه الشعراء، فأفرغها في هذا القالب الحِكْمي البليغ. وبقَطْع النظر عن هذه الإشارة، فإن ابن عبدالملك لم يملك بعد إيرادها إلا أن يُكرّر إعجابَه بها مرة ثانية وحق له ذلك.

ومن شعر ابن حَبوس هذه القصيدة يمدح الشريعة ويذم الفلسفة، وقد طغت الفلسفة في عصره، وكان من أعلامها ابن طُفَيْل وابن رُشْد، وقبلهما ابن بَاجَة، وغيرُهم، وبمزيد الأسف فإن المحو قد أتى على كلمات من أبيات فيها بأصل العلامة ابن إبراهيم صاحب الأعلام الذي ننقل عنه، فاضطررنا إلى تخطيها :

(لذ)[1] بالنبوة واقتبس من نورها
واسلك على نهج الهداية تَهْتَدِ
وإذا رأيتَ الصادرين عشيّةً
عن مَنْهَل الدين الحنيف فأوْردِ
الدينُ دينُ الله لم يعبأ بمبْتَدعٍ
ولم يحفِل بِضلّة مُلْحدِ
قالوا: بنور العقل يدرَك ما ورا
ءَ الغيب قلت قَدِي من الدعوى قَدِ
مَن لم يحِطْ علماً بغاية نفسه
وهي القريبةُ، مَن له بالأبْعَدِ؟
ولقد نرى الفَلَك المحِيط وعِلْمَ ما
في ضِمْنِه أعيَى على المترصّدِ
سَعْدُ المجَرّة بالكواكبِ دائم
في زعمهم وقَسِيمُها لم يَسْعَدِ
مَن خصّ بالسّفْليّ جِرْمَ البدر أم
مَن خصّ بالعلْويّ جِرْمَ الفَرقدِ؟
ما شاهِقُ الطوْد المنيف وإن علا
إلا بمنزلة الحَضِيض الأوْهَدِ
وجوازُ عكس الأمر في ذا واضح
للعقل فازْدَدْ من يقينك تَرشُدِ

---

(١) ما بين القوسين زيادة من عندنا لإمحائه في الأصل.

ذاك اختصاصٌ ليس يعلم كُنْهَه
مَن ليس يوصَف بالبقَاء السّرْمَدِ

خفّضْ عليك (أبا فلانٍ) إنها
نوب تُطالعُنا تَروح وتغتَدي

سالَتْ علينا للشكوك جَداوِلٌ
بعد اليقين بها ولمّا تَنفَدِ

وتبعّقَتْ[1] بالكفر فينا ألسُنٌ
لا تَفقِد التضليل ما لم تُفقَدِ

أعداؤنا في ربنا أحبابنا
جرَحوا القلوب وأقبلوا في العُوّدِ

كُشِف القِناعُ فلا هوادَةَ بيننا
حتى نُغادِرَهم وراء المسنِدِ

ستَنالُهم منا الغداةَ قوارعٌ
إن لم تَغلْهم غولها فكأنْ قَدِ

وتصوبُ فيهم سُحْبنا بصواعقٍ
تلك التي جَلَبَتْ مَنِيّةَ أرْبَدِ

ولَعَمْر غيْرهم، وتلك ألِيّةٌ
إن الحِمَام لِجَمْعهم بالمَرْصَدِ

أسفي ولَوْ أني نُصِرتُ عليهمُ
للشَمت في المُهَجات كل مُهنّدِ

---

(١) تبعق في الكلام: انبسط.

قالوا الفلاسِفُ، قلت: تلك عصابة
جاءت من الدّعْوَى بكل مُفَنّدِ
خدَعتْ بألفاظٍ تروق لطافةً
فإذا طلبتَ حقيقةً لم تُوجدِ
يُلغَى كتاب الله بين ظهورهم
وجميع مَسنون النبيّ محمدِ
يا قاتلَ الله الجهالةَ إنها
ورقٌ لأغصان الشباب الأمْلَدِ

إن هذا الحِجَاج القوي الذي يدل على رسوخ صاحبنا في المعرفة، هو مما يدخل، ولا شك، في الحمَلات التي شنّت على الفلسفة ومنتَحليها، فهيأت الجو لنكبة ابن رشد في عصر المنصور الموحدي، ولو أن ابن حَبُوس لم يدرك هذا العهد، وبه نعلم أن الدولة لم يكن لها في ذلك يد، لأن ابن حَبُوس يقول هذا وهو يعيش عصرَ يوسفَ بن عبدالمؤمن نصير الفلسفة ومستوزر أصحابها... ونكبةُ ابن رشد على كل حال كان الباعثُ عليها سياسياً أكثر منه فكرياً. وليراجَع كتاب «النبوغ المغربي» في هذا الصدد.

وله في الوصايا والأمثال وذم الزمان:

رِدِ الطَّرْقَ[1] حتى تُوافي النّميرا
فَرُبّ عسيرٍ أتاحَ اليَسيرا

(١) الطرق: الماء الكدر.

وأرسِلْ قَلُوصَك طوراً شَمالاً
وطوراً جَنوباً وطوراً دَبورا
وشُنّ على غازيات البلاد
من النّقْع والرمل جيشاً مُغِيرا
وفِرْ ماءَ وجهك حتى تجمّ
وأطف السّمومَ به والهَجِيرا
وطِرْ حيث أنت قويّ الجنَا
ح لا عُذْرَ عندك أن لا تطيرا
ولا تَقْعَنّ وأنت السليـ
م حيث تضاهي المَهِيضَ الكسيرا
فأمّ الترحّل تُدعَى وَلُوداً
وأمّ الإقامة تُدعَى نَزُورا
وذو العجز يرضَع ثدياً حَذُوراً
وذو العزم يرضع ثدياً دَرورا
يَعِزّ على النبل أنّي غدوتُ
أكنى أديباً وأُسمَى فَقِيرا
وأنّيَ ثبْتٌ لكفّ الزمان
يُعرّق عَظْمِيَ عَرْقاً مُبِيرا
وما ذاك أنّيَ هيّابةٌ
أخافُ الرحيل وأشْنَا المسِيرا
ولكِنْ بِحُكم زمانٍ غدا
يحِطّ الجِيَادَ ويسْمِي الحَمِيرا

وله في الاعتبار بدخول الحمام:

(للمَرْء في)[1] حمّامه عِبْرة
وإنما يعتبر العاقل
يُذْكِرُ بالكونَيْن من جنة
ومن جَحِيمٍ ذكرُها هائل
وإنما يعرِض أنْمُوذجاً
مِن ذَا وذا لَوْ نُبّه الغَافل
نعيمُه فيه الشقاءُ الذي
يُشْفِق منه العالم العامل
تكادُ نفسُ المرء من حرّهِ
تزول لولا أنه زَائِل
يا صاحبي، والجِدّ لي شِيمَةٌ
وليس من أصحابيَ الهازِل
نحن طلبان فبادر بنا
مِن قبْل أن يَقْنصنا الحابِل
بحرّ سلِمْنا منه في ساحِلٍ
فما ترى إن غمر الساحل
في حيث لا تُنجِي الفتى حيلةٌ
سواءٌ الفارِسُ والراجِل

وله من قصيدة يذم الشعر:

---

(١) زيادة من عندنا في مكان المحو.

يــــا غـــرابَ الـــشـــعـــر لا طِـــز
تَ ومُـــلّـــيـــتَ الـــوقـــوعـــا
وإذا اســـتـــيـــقـــظَ شـــهْـــمٌ
قَـــرِمٌ زدتَ هُـــجـــوعـــا
هـــبْـــكَ لا تُـــقـــنَـــصُ عـــزًّا
لِـــمْ تَـــقَـــنّـــصْـــتَ الـــخـــضـــوعـــا؟
رُمْـــتَ أن تـــرقَـــى ســـريـــعـــاً
فـــتـــردّيْـــتَ صـــريـــعـــا
ربـــمـــا اصـــطـــاد بُـــغـــاثٌ
شِـــبَـــعـــاً واصـــطـــدت جُـــوعـــا
ولـــقـــد غـــال (حَـــبِـــيـــبـــاً)
مـــنـــك مـــا غـــال (صَـــرِيـــعـــا)

وله في معاملة الناس، وأغرب غاية الإغراب، ولعل ذلك كان منه أيام تشرده:

أعِـــدّ لِـــنَـــا بـــحـــيـــك عَـــصـــا
وأقْـــضِـــم مَـــاضِـــغِـــيـــكَ حَـــصـــى
وشَـــعـــشـــع لـــلـــورى شَـــرَقـــا
مـــع الـــســـاعـــات أو غُـــصَـــصـــا
وكـــن وَرْداً خُـــبَـــعْـــثِـــنَـــةً[1]
يُـــراوِغ مـــنـــهُـــمُ قَـــنَـــصـــا

---

(١) الورد: الأسد، والخبعثنة: الشديد الضخم.

وعـــامــلْ بـــالـــخــديــعـــة مَـــن
لـــقِـــيـــتَ، وبـــادرِ الـــفُـــرَصـــا
وغــمّــضْ عــيْــنَــك الــنــجـــلا
ءَ حـــتـــى تُـــنـــغَـــتَ الـــحـــوَصـــا
وهُـــزّ لـــمـــعـــشـــرٍ ســيْــفــاً
وهـــزّ لآخـــريـــن عـــصـــا
وكـــاشـــرْ مـــن يَـــدِبّ لـــك الـــ
ضـــرَا واخـــرِص كـــمـــا خَـــرَصَـــا
ولا تَـــعـــتِـــبْ عـــلـــيـــه فـــلـــو
ظـــفِـــرْت بـــه لـــمـــا خـــلَـــصـــا
وسُـــؤ ظـــنّـــاً بـــكـــل أخٍ
يـــقـــاسِـــمـــك الـــثـــنـــا حِـــصَـــصـــا
ولا تَـــحـــفِـــلْ بـــإمّـــعَـــةٍ
يـــخـــال الـــشّـــحـــمـــةَ الـــبَـــرَصـــا
ولا تَـــحـــرِص فـــرُبّ فـــتًـــى
مُـــضـــاعٍ عـــنـــدمـــا حَـــرَصـــا
وحِـــرْصُ الـــطـــائـــر الـــوا
قـــع صَـــيّـــر جَـــوّه قَـــفَـــصـــا
لـــقـــد رَخُـــصَ الـــغـــلاءُ وأهْـــوَ
نُ الأعـــلافِ مـــا رَخـــصـــا
وقـــد ذهـــب الـــوفـــاءُ فـــلا
يـــقـــول مـــغـــالـــطٌ نـــقَـــصـــا

فــلا تــلــزم مــكــان الــظـــ

ـل إنْ وافــيـتــه قَــلَــصــا

وغَــنِّ لــذا الــزمــان إذا انْــ

ـتَـشــى وازْمُــزْ إذا رَقَــصــا

ومَــن شَــهِــد الــخــطــوب وعــا

ش مِــثْــلــي يــشــرَح الــقِــصَــصــا

والبيت الأخير يشهد أن شعره هذا كان نتيجة تجربة قاسية، فمن المحتمل جداً أن يكون من مقوله أيام فراره. ولله في خلقه شؤون!

وبين حَرصا في البيت السابع وحَرصا في البيت الحادي عشر إيطاء، وهو من عيوب القافية (ويزكو عيبه كلما دنا)، والغالب أنه متباعد في الأصل وإنما قرّب ما بينه الاختيار من أبيات القصيدة عند صفوان بن إدريس في زاد المسافر رحم الله الجميع، ويحسن أن نختم هذه الترجمة بلطيفة ذكرها القِفطي، تتعلق بابن حَبُوس وحسَدِ الشعراء له، وخصوصاً الأندلسيين، جرْياً مع طبعهم في الإزراء على أهل المغرب وعدم التسليم لهم. قال القفطي: وأخبرني القرموني أبو عبدالله قال: سُرِقَ لابن حَبوس في سفَرِه خُرْجٌ فيه ثيابه وقصائد له ونفقة، وكان الشعراء يحسدونه، فعملوا في ذلك زَجَلاً ألفاظه عامية على عادتهم في الأزجال، مطلعه:

لــقــد جَــرَتْ رَزِيّــا

عــل وَلْــدْ حَــبُــوس

سـرِق لُـو مـا سَـرَق
هـو مـن شِـغـر الأنـدلـوس
سَـارِق سَـرق لِـسَـارق
يـعـد فـي ذا عَـجَـب
سـرق لـو كـل مـا اقـتـنـى
وكـل مـا اكـتـسَـب
ثـيـابـو والـقـصـائـد
والـسـلـخ بـالـذهـب
وكـل مـا ذكـرنـا
يـسـوى ثـلاث فـلـوس

* * *

أبو حفص بن عمر
(ت ٦٠٣ هـ)

اسمه ونسبه، بيته، مولده ونشأته، شيوخه، نبوغه في صباه، تقلبه في المناصب، صفاته وأحواله، شعره العاطفي وما كان له من أثر في تألُّب الحسّاد عليه، ترتيب ولاياته للقضاء، ثناء الناس عليه وتنزيهه عما رمي به، وفاته، آثاره الأدبية، الشاعر الأنيق، نماذج من شعره، نثره.

هو القاضي الأديب الشهير أبو حفص عُمر بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن عُمر السُّلَمي الأغْماتي، بها ولد وسكن مدينة فاس، ولذلك يُنسَب إليها أحياناً، ويُعرف بابن عُمر نسبةً إلى جده الأعلى. وكان بيته بيت علم وحسب، أما والده عبدالله فكان فقيهاً حافظاً جليل القدر سرِيَّ الهمّة عاقداً للشُّروط بصيراً بها، كتب عن صهره أبي محمد بن علي اللَّخمي أيام استقضائه بأغْمات وساكَنه فيها مدةً طويلة، واستُقضي بفاس فعُرِف بالعدل في أحكامه والنزاهة في قضائه. وأما جده لأمه فهو أبو محمد المذكور، وكان سِبْطَ الحافظ أبي عُمَر بن عبدالبَرّ، فناهيك بها جزالة وأصالة.

وقد وُلد مترجمنا في حدود سنة ثلاثين وخمسمائة، ونشأ في حجْر والده وكنَف جدِّه لأمه بأغمات، وبها بدأ طلب العلم، يدلنا على ذلك إجازةُ جده له، وقد توفي جدُّه وهو صبي صغير، وكانت أغمات من مراكز العلم والرواية في ذلك العهد، فلا بدْعَ أن ينشط الناشئةُ للطلب في وسط علمي خصوصاً إذا كانوا من بيت عريق. ولما تولَّى والدُه قضاءَ فاس بعد وفاة صهره أبي محمد، انتقل مع والده إلى العاصمة العلمية وهناك أتمَّ تحصيلَه، وأخذ عن كبار علمائها، كما أخذ عن غيرهم من علماء المغرب والأندلس. وممَّن سُمِّيَ من مشايخه أبو مروان بن مسرَّة وأبو عبدالله بن الرمَّامَة وأبو بكر بن طاهر المعروف بالخِدَب[1]، قرأ عليه كتاب سيبويه تفهماً، وما عتم أن نبغ وصار من أهل المعرفة والتفنُّن، وغلب عليه الأدبُ فشُهِر به مع جودة الخط وبراعة الأدوات.

ومما ظهر من نجابته وهو بعدُ في صباه أنه خرج مع أبي ذَرّ الخُشَني النحوي وشيخِهما معاً أبي بكر بن طاهر الخِدَب إلى ظاهر المدينة (ونظنُّها مدينة فاس) فأثَّرت الشمسُ في وجهه وكان وسيماً، فقال له أبو ذر:

وَسَمَتْكَ الشمسُ يا عُمَرُ   سِمةً بالحُسن تُعتبَر

فقال أبو حفص:

علِمَتْ قدَر الذي صنعت   فانثنتْ صفراء تعتذر

---

(1) الطويل.

وتُروى هذه الحكاية من سياق آخر على أنها وقعت مع القاضي أبي يوسف حَجّاج بن يوسف الهَوّاري، وكان خرج إلى أغمات من مراكش وبصحبته أبو حفص في حال شبابه ووسامته، فاستقبلتهم الشمس آخر النهار بلفْحها المؤثر في الوجوه فقال له أبو يوسف أجز:

وسمتْك الشمسُ يا عمرُ

فقال هو:

سمةً يَبْقَى لها أثَرُ

عرفتْ قدْر الذي صنعت فانثَنَتْ صفْراءَ تعتذِرُ

واكتملت رجولة أبي حفص وبرزت شخصيته في المجتمع بحيث جلَّ بين قومه بمدينة فاس مقداره، وقضيت بها في الجاه والمال أوطاره، إلى أن كان هنالك من أهل الفُتْيا، ثم صار من جلساء أصحاب الأمر وأرباب العُليا، ثم ترقَّى إلى الخطابة والقضاء، وصار ذا إبرام وإمضاء كما قال عنه ابنُ سعيد المغربي في الغصون اليانعة.

وإذا علمنا أن ذلك كان في صدر عصر الموحدين في أيام عبدالمؤمن ويوسف ابنه ويعقوب المنصور، والدولة في منتهى القوة والعظمة، والمغربُ في أوج الرقي والحضارة، زادت قيمة الرجل في نظرنا وعرفنا أنه كان على جانب عظيم من العلم والفضل، فإن العصر كان عصر نضج ونبوغ ملياً بالعبقريات وأهل الكفايات، فبطبيعة الحال لا يجلي فيه إلا مَن تحلّى بأوصاف الكمال وكان راسخاً في فنون المعارف.

ويقول ابن سعيد أيضاً متحدثاً عن بعض الصفات والأحوال الشخصية لصاحبنا ما نصه: «وكان على غاية من الظرف، إذا أقبل شُمَّتْ رائحة الطيب منه على بعد، وإذا غُسِلَتْ ثيابه لا يكاد يفارقها، كان منزلهُ كأنه الجنَّة، حتى وجد فيه أعداؤه مطعناً ورفعوا للمنصور أنه غير حافظ للناموس الشرعي بكثرة تغزُّله واشتهار مقطَّعاته وانهماكه في العشق». والذي يؤخذ من هذا الوصف في دلالته الأولى هو أن الرجل كان واسع النعمة، عظيم الرفاهية، مهذَّب الذوق متأنقاً في لباسه ومسكنه، ميّالاً إلى الأدب مؤثراً له على سائر العلوم حتى الشرعية التي كانت هي المؤهِّل لولايته القضاء. ولرقة عاطفته فإنه كان مكثراً من قول الشعر الغزلي ومجوِّداً فيه حتى اشتهرت مقطعاته في ذلك وسارت كلَّ مسار. وإذا كانت كل نعمة عليها حسود فإن صاحبنا لم يعدم من معاصريه ومنافسيه مَن يناصبه العداء ويمشي له الضَّرَاء حسداً وبغياً من عند أنفسهم. وهذا ما يستفاد ثانياً من كلام ابن سعيد المارِّ ذكره، على أننا لا نغفل عن طابع العصر وحالة المجتمع إذ ذاك من غلبة التصوُّن على أهل العلم والدين وتقيُّدهم بقيود الشرع في السلوك، والأخلاق، فلم يكن من المستجاز لمن يشغل منصب القاضي وهو نائب إمام المسلمين مع القيام بوظيفة الخطابة الجمعِيَّة وهي وظيفة دينية مدارُها على الوعظ والإرشاد، أن يتظاهر بالمظاهر المُخِلَّة بهذا الناموس فيتدلَّه في العشق، والعشق المادي السافر، ويعبِّر عن تدلُّهِه بأشعار صريحة في تصوير مشاعره، وهي مع ذلك بديعة الصنع بحيث تصبح على كل لسان،

ويُتَغنّى بها في مجالس اللهو والطرب، حتى إذا قيل لمَن هذا الشعر؟ قيل: إنه لفضيلة القاضي وخطيب الجمعة، ناهيك إذا كان ذلك في مدينة محافظة مثل مدينة فاس التي فيها جرت الحكاية على صاحبنا، فالأمر إذاً قد يكون مُتعلّقاً بتجاوز الرجل لحدود مكانته الاجتماعية أكثر مما يتعلق بمؤامرة أعداء وعريضة حسّاد.

ويضيف ابنُ سعيد عاملاً آخر إلى عامل مجاهرة المترجم بهواه، كان بمثابة القَطْرة التي يفيض بها الكأس وهو أن ابن أخ له رمَى يده في امرأة وغصبها على الدخول لمنزله، وشهد بذلك عند أبي موسى ابن رمانة حافظ فاس جماعة، فأمر بإحضار المذكور بعد صلاة الصبح وضرب عنقه، وطلع القاضي ليتكلم فيه وقد بلغه أنه مُثَقَّف[1] فقيل له في الطريق: إنه قد فات الأمر فرجع، وكتب فيه الحافظ: واعلم أن فقهاء فاس أجمعوا على تأخيره عن الأمانة والخطابة، وولّوا غيره حتى يصل الإذن العالي إما باستقرار النائب أو بتعويضه، فوصل الأمر بوصول أبي جعفر إلى الحضرة فما جُهِلَ مكانهُ ولا صغر شأنه، وولاه المنصور قضاء إشبيلية، فشُكِرت فيها سيرتُه وحُمدت سريرته.

ويظهر أن الأمر أثار فتنة بلغت بالعامة إلى حد الثورة، فإنا إذا فسرنا حكم الحافظ أبي موسى على ابن أخ المترجم بالقتل، لكونه اعتبر تعرضه للمرأة واغتصابها من الحِرَابَة فكيف ساغ له تنفيذ الحكم وإقامة الحد الذي لا يقوم به إلا

(١) أي: محبوس.

الإمام أو نائبه؟ لا شك أن اضطراب حالة العامة هو الذي دفع بكبير فقهاء فاس إلى تنفيذ الحكم في الجاني وعزل القاضي عن وظائفه وتولية غيره إنقاذاً للموقف، إذ كان الأمر قد آل إلى شبه ثورة. ولهذا غضّ المنصور الطرف عن فعل أهل فاس لأنه كان في سبيل المصلحة، وعامل أبا حفص بما تقتضيه السياسة من البرّ والإكرام لأنه قاضيَه على كل حال، لم يعزله هو، وإنما عُزِل من طرف خصوم ربما كان فيهم متسخِّطُون للدولة نفسها.

ويفهم من ابن سعيد أن المنصور ولاّه إثرَ ذلك قضاء إشبيلية، ونشير إلى أن ولايته لقضاء إشبيلية سبقتها ولايته لقضاء أغمات على ما يأتي قريباً، ويذكر ابنُ الزبير في حِلتِهِ ولاياتِ المترجم ويرتبها من البداية فيقول: «ولي قضاء مدينة فاس بعد أبيه، ثم ولي قضاء تلمسان ثم أعيد لقضاء فاس ثم ولي قضاء إشبيلية ثم آخر وبقي بها ثم أعيد واستمر إلى أن مات»، ولكنه أغفل قضاء أغمات وهو ثابت كما سنرى ذلك. وفي كل من هذه الولايات كان محمود السيرة حسن الذكر باتفاق كل مترجم له. قال ابن سعيد: «ومن المشهور عنه في قضائه العدل في الأحكام وقِلَّةُ النَّزَق عند اختلاف الخصام»، وقال أبو القاسم العزفي في كتابه الإشادة: «هو من مفاخر المغرب، لم يذكره أحد ممن لَقِيَه وتعرّض لذكره إلا أطنب في الثناء عليه ووصفه بالعلم والفضل والعدل في القضاء، مع براعة النظم والنثر» اللّهمّ إلاّ ما وقع له في فاس وقد علّلْناه بما قد يُبَرِّرُه، على أنه في فاس نفسها لم يستطع خصومه أن يثبتوا عليه شيئاً فيه مس بطهارته وخُلُقه

فأحرى بنزاهته في الحُكم وإلاّ لمَا تَوانَوْا عن البطش به ومدّ اليد فيه كما فعلوا بابن أخيه.

ومن ثناء المحدث أبي عبدالله محمد بن عبدالرحمٰن التُّجِيبي عليه في قضائه بتلمسان كما في أزهار الرياض. قال: «لقيتُه بتلمسان حرسها الله، قَدِمَها علينا قاضياً فشمل أهل البلد كلهم أجمعين بفضله وأدبه وعدله وإجلاله وإكباره وحسن خلقه لا سيما مع طائفة الطلب، وأهل الأدب والحسب، فجزاه الله عن نفسه وعنهم أحسن الجزاء فلا يعرف الفضل إلا فاضل، ولا يكرم الناس إلا كريم» ثم يقول بعد ذلك مما يفيد أنه بعد انفصاله عن فاس ولي قضاء أغمات فضلاً عما فيه من الإفادة عن حسن خلقه وكرمه: «ثم قدَّر الله تعالى بوصولي بعد انفصاله عن مدنية فاس وتوليته لقضاء أغمات، إلى حضرة مراكش، حرسها الله تعالى، وكان بالحضرة المذكورة فسمع بذلك، وكنتُ نزلت بفندق من فنادقها يقال له: فندق الشُّكْر، فوصل إليه واجتمع بي فدعوت له وشكرت، ثم أولاني من بِرّه وتأنيسه ما عهدت قبل منه وزاد عليه، ورغب في الوصول إليه إلى أغمات، فوصلتُ إليه بعد ذلك، فرحّب وسهّل وأنزل وأثنى عليَّ عند الأصحاب والأخوان خيراً، وقال ما يصدر عن مثله، فالعنصر الطيب لا يخرج منه إلا طيب، وكنت معه في داره في خِصْب وسعة وطلاقة وجه، وحسن خلُق وطيب حديث، وكريم مُشاهَدة ومُناشَدة لنفسه ولغيره».

وممن أكثر الثناء عليه ومدحه نظماً ونثراً الفقيه الأديب أبو العباس أحمد بن شُكَيْل الصَّدَفي الشَّرِيشي، وكان قد

صحبه زماناً وولاه قضاء بعض الكُوَر كما عند ابن الأبار، ويحدثنا عنه أنه ورد عليه وهو غلام لم يكتمل بعدُ فأدناه منه ونوَّه به مما أطلق لسانه بحمده وشكره، ونظن أنه اشتغل معه مدةً كاتباً أو شاهداً حتى ولاه القضاء على بعض إيالته، إلا أن البلدة التي استعمل فيها كانت خشنة المبَارِك، على حد تعبيره هو في الفذْلَكة التي قدَّم بها للقصيدة التالية وهي مما ثبتَ في أزهار الرياض، قال: «فكنتُ أتقلَّبُ فيها على جمْر الغَضا وأخاطبه بما لو أُلقي على الحجَر لانفجَر، وكانت الأناة غالبة على طباعه، وخائلةً على نظره وسماعه، وكان مع ذلك مكدوداً بالشفاعات، ومُضَيَّقاً عليه في الجهاد والطاعات، فخلعت عن عاتقي نِجَادَ تلك الخطة، ودار فلك أمري على غير تلك النقطة، وهو ـ عفا الله عنه ـ يقابل تعوُّقي بالانبساط، وفترتي بتجديد الأنشاط. . . فقطع عليه غرضه تأخُّرُه عن الخطة، فما قطعت عنه امتداحاً ولا نسيتُ أيامه حنيناً وارتياحاً، ثم أعيد إلى الولاية فعدت إليه، وقد أتى الهرم والسقم عليه، فعاقته منيته عن بلوغ الآمال، وسلبتنيه عِلْقاً نفِساً لَمَّا تخلفه الأيام والليال» وقد جلبنا هذه الجمل من كلام ابن شُكيْل في علاقته بصاحبنا لما تضمنته من بيان لأحواله في ولايته كتعلق الناس به في قضاء مآربهم، وغلبة الأناة عليه في تصرُّفاته، وقيامه على ساق في الوظائف الدينية التي كانت مَنُوطةً به إلى جانب القضاء وهو ما يشير إليه بأنه كان مُضَيَّقاً عليه في الجهاد والطاعات، ولا شك أن ابن شكيل إنما وفد عليه في الأندلس، لأنه من مواليد سنة ٥٧٨هـ، وهو لا يفِدُ عليه قبل سنة ٥٩٣، أي:

قبل استكماله الخامسة عشرة من العمر، حين كان صاحبنا يلي قضاء إشبيلية للمرة الأولى من قبل المنصور، فقرَّبه واستعمله على بعض الكُوَار حيث نبَا به المحَل، ثم وفد عليه في ولايته الثانية لها فلم ينتفع به لما ذكره. ومن المهم أن نعرف أن تأخير صاحبنا لم يستمر أكثر من عام كما تُفيدُه عبارة لابن فَرْقَد عند المقري في أزهار الرياض يقول فيه: «وتوفي بإشبيلية... وهو يتولى قضاءها بعد صرف محمد بن حوط الله، وكان أبو حفْص قد صُرِفَ بأبي محمد، بعد ذلك بعام أو أزيد» على شرط أن تُصَوَّب هذه العبارة فيقال: قبل ذلك بعام أو أزيد كما يقتضيه السِّيَاق.

وقد قلنا: إن الجُمَل السابقة مقتبسة من فَذْلكَة قدَّم بها ابنُ شُكَيْل لقصيدة في مدح المترجم، وها نحن نورد أبياتاً من هذه القصيدة الطويلة، تؤكد ما سبق من ثناء الناس عليه والتنويه بمكارم أخلاقه:

قالت بنو ثُعَل[1] نفِسْتَ مكارماً
تُعزَى لحاتمها فقلت وما عسى؟
جيئُوا بواحدة لحاتم طيِّىء
مِن هذه وعلَيَّ ألا أنفسا
أو سائِلُوا مَن فِي الأنام سوى أبي
حفْص فهل تجدون عنه مُعَرَّسا

---

(١) قال في الأساس: وإن دعوت على أبناء رجل اسمه عمر أو زفر فقل: أُتيح لكم يا بني فعل رام من بني ثعل. فهذا وجه ذكر الشاعر بني ثعل في مدح ابن عمر.

بل فاحملوا بعض الذي هو حامل
لِيَردَّكم عنه يَلَمْلَمُ[1] قد رسا
الناسُ أشباهٌ ولكن بينهم
في الفضل ما بين الذؤابة والنَّسا[2]
أحَسِبتُم كلَّ امرئ غَمْرَ الندى
ما كلُّ بيت بالشَّآمِ المَقْدِسا
يا خجلةَ القَمرِ المُنِير وقد رآى
عُمَراً بأنواع الجَلالة مُلْبَسا
لو يستطيعُ لجاء مقتبِساً لها
مِن أُفقِه وإذاً لصادف مَقْبِسا
طيَّبْتُ أفواهَ الرُّواة بمدحه
فكأنَّ عطّاراً يُضَمِّخُ مُغرِسا
وعلَوتُ قدَر الناطقين بشكره
وَلئِنْ تَمادَى في نداه لأخْرَسَا

وما دمنا في صَدَد الثناء عليه ووصفه بما ينفي عنه كل ريبة سواء في سلوكه الشخصي أو عمله الحكومي، فإنا نروي هنا قصَّةً تعرَّض فيها ضميره لامتحان عسير، لو كان ما أشيع عنه من انهماك في العشق حقاً لما ثبت على تجربته لحظةً واحدة، ولكن بما أن الرجل إنما كان يُصوِّر عاطفته ويُداري هواه في أشعاره السائرة، فقد خرج منه

(١) يلملم: اسم جبل.
(٢) أي: الرأس والذنب.

عفيف النفس طاهر الذيل. وإليك القصة كما رواها القاضي أبو القاسم الشريف في شرح مقصورة حازم قال: «وذكر الأستاذ الجليل أبو جعفر بن الزبير رحمه الله قال: أنشدني أبو الخطاب بن خليل قال: أنشدني القاضي أبو حفص عمر بن عمر الفاسي لنفسه، وقد أهديتْ إليه جارية فوجدها ابنة سُريّة كان قد تسرّاها فردها وكتب إلى مُهدِيها:

يا مُهدِيَ الرّشأ الذي ألحاظُه
تركتْ فؤادي نُصْبَ تلك الأسهم

ريحانة كلُّ المُنى في شمّها
لولا المهيمنُ واجتنابُ المَحْرَم

ما عن قِلًى صُرِفَتْ إليك وإنما
صَيْدُ الغزالة لم يُبَحْ للمُحْرِمِ

إن الغزالة قد علِمْنا قبلَها
سِرَّ المَهَاةِ وليتَنا لم نَعلم

يا وَيْحَ عنتَرَة الذي قد شفّه
ما شفّني فشَدا ولم يتكلَّم

(يا شَاةَ ما قَنصٍ لمن حلَّت له
حرُمت عليَّ وليتَهَا لم تحرُم)

ثم قال الشريف «ضمّن بيتَ عنترة: والعرب تطلق الشاة على البقرة الوحشية، فكنّى عنترةُ بالشاة عن المرأة تشبيهاً لها بها. ويقال: إنها كانت زوجةً لأبيه فبذلك حرمت عليه». وهذه القصة على ما تفيده من عفة المترجم ومتانة

دينه فإن فيها أدباً غضاً وفناً جميلاً سنرى منهما لدى صاحبنا كنزاً ثميناً وذخيرة قيِّمة فيما نعرض من إنتاجه بعد.

وكانت وفاةُ أبي حفص فيما حكي عن الحافظ الكلاعي أبي الربيع بن سالم، وهو ممن أخذ عنه، بإشبيلية فجأة في الخامس من ربيع الأول سنة ثلاث وستمائة، وهي كذلك عند ابن الأبّار وابن سعيد، وغلط ابنُ فرقد فقال: عام اثنين وستمائة كما غلط في مولده فقال: إنه كان في سنة خمس وثلاثين وخمسمائة، نبَّه على ذلك المقري رحمهم الله جميعاً. على أنه في صِلَةِ ابن الزبير جعلها سنة ٦٠٤ وأخشى أن يكون ذلك تطبيعاً، وقد اتفقوا أنه توفي وهو يلي قضاء إشبيلية.

هذا ما علمنا من ترجمة أبي حفْص وتقلُّبات الأيام به، ولئن كان ذلك كله مما يتعلق بالجانب المادي من حياته فإن الجانب الأدبي منها هو الذي به ذكر وعليه قامت شهرته، وقد اضمحل الجاه والمال وذهبت ولاية القضاء والمكانة الاجتماعية، ولم يبقَ إلا هذه النتف الأدبية القليلة من إنتاجه وعمل قريحته، فلننظر فيها بما تستحقه من عناية واحتفال للتعريف بأدب أبي حفص وتجليته على منصَّة التقدير. . . وبذلك نكون قد وضعنا الخطوط الأولى لترجمته الكاملة التي ستبقى رهناً بذمة الزمن حتى يكشف لنا عن جملة صالحة من آثاره يصح معها الحكم ويتم بها القول في حياته المادية والأدبية معاً.

وما لأبي حفص من إنتاج أدبي في علمنا، ينقسم إلى شعر ونثر، وقد سبق وصف أبي القاسم العَزَفِي له بالبراعة

في النظم والنثر. وشعره على ما يؤخذ من كتاب الغصون اليانعة لابن سعيد المغربي ينقسم إلى مُوشَّح وقصيد فهو من أوائل الوشَّاحين المغاربة الذين نعرفهم، وكان يجيد في التوشيح إجادته في القصيد، ولذلك اشتهرت موشَّحاتُه وتلقفها الناس باستحسان، وكان المغنُّون يغنُّون بها في الأقطار على قول ابن سعيد، وهل تكون هذه الأقطار إلا ما جال فيه ابنُ سعيد من بلاد المشرق والمغرب؟ خاصةً وأن التوشيح كان له في عصر صاحبنا صدى بعيد بين أدباء المشرق الذين تلقوه بإعجاب كبير، ونبغ فيه منهم القاضي ابنُ سنَاء المُلْك ووقف عليه كلَّ مواهبه حتى ألَّف فيه كتابه المشهور دار الطراز، وعليه فإن موشحات المترجم كان لها من السيرورة والانتشار ما جاوز حدود بلاد المغرب والأندلس إلى سائر أنحاء العالم العربي، وما ذلك إلا لبراعتها وجودتها وظهور فنِّ شاعرنا الأنيق فيها بمظهره الأخَّاذ، ولكنها اليوم تعتبر في حكم الضائعة فإنا لم نظفر بشيء ولذلك لا نستطيع أن نقدم للقارىء ولا مثالاً واحداً منها مع الأسف. وأما المُقصَّد من شعره فقد بقيت لنا منه صُبابَةٌ مفرَّقَة في دواوين الأدب ومنها استجلينا نفَسَه وعرفنا مذهبَه فإذا هو كما قيل عنه من أهل التفنن والبراعة، ومن الشعراء الذين يكاد شعرهم يكون مرآة حياتهم فإنه يمثّل تَرَف الحضارة وغضارة النعيم الذي كان قائله يمرح فيه ويتمتع به المتاعَ كلَّه، وهو يعبِّر عن عاطفة غرامية مشبوبة وحب ماديّ عارِم لا جَرَم أن يثير حوله الشكوك، ويبثَّ في شأنه الظنون، من غير أن يكون بِدْعاً في طبقته من الشعراء

المترفين فإنه يحفِلُ بفنون البديع من الجِناس والطِّباق والتلميع وغيرها أعظم الحَفْل، ولكنه يتأنَّقُ في استعمالها أعظم التأنق كذلك، مما يجعلنا نَصِفُه بالشاعر الأنيق، ونحن نعني أناقة شعره لا أناقة شخصه أو مظهره، وإن كان هو في هذه أيضاً جدّ عريق. وهذا كلُّه إنما نلمَسُه في مقطَّعاته الغرامية التي وصلتنا، وقد سبق قولُ ابن سعيد فيها: إنها كانت من أسباب الطعن عليه والدفع فيه.

فلينظر القارئ إلى هذه القطعة وما فيها من جمال المقابلة وحسن التعليل:

همُ نظروا لواحظَها فهاموا
وتشرَبُ عقلَ شاربها المُدام

يخاف الناس مقلتَها سواها
أيذعَرُ قلبَ حاملِه الحُسام؟

سما طرفي إليها وهْوَ باكٍ
وتحت الشمس ينسكِبُ الغَمام

وأذكُر قدَّها فأنوحُ شوقاً
على الأغصان تنتدِبُ الحمَام

وأعقَب بينُها في الصدر غمّاً
إذا غربَتْ ذُكاءُ أتى الظلام

وأظن أنها قصيدة طويلة إنما حفظ الرواةُ لنا منها هذا القدر، فإن العبّاسي في معاهد التنصيص أنشد بيتين من هذا الوزن وهذه القافية لا نرى أنهما إلا من تلك القصيدة،

لا سيما وهو قد نسبهما لبعض شعراء المغرب، وهما:

وعنـدي مـن لـواحـظـهـا حـديـثٌ
يـخُـبِّـر أن رِيـقـتَـهـا مُـدام
وفـي أعـطـافـهـا الـنَّـشْـوَى دلـيـل
ومـا ذُقـنـا ولا زعـم الـهُـمـام

إشارة إلى قول النابغة في المتجرّدة:

زعـم الـهـمـامُ بـأن فـاهـا بـارد
عـذْب مَـقَـبَّـلُـه شـهـيُّ الـمـورد
زعـم الـهـمـام ولـم أذُقـه أنّـه
عـذْبٌ إذا مـا ذُقـتَـه قـلـت ازدَد

ألا يرى القارئ معي أن نفس أبي حفص يتردد في البيتين، وأن شاعريته الأنيقة تضفي عليهما حلةً تجعلهما والقطعة التي قبلهما من نَبْعَةٍ واحدة؟

وهذه قطعة من قصيدة أخرى يقول ابن سعيد في البيتين ٢، ٣ منها أنهما مما اشتهر في الغرب والشرق:

مـشـتْ كـالـغُـصـن يَـثـنـيـه الـنـسـيـم
ويـعـدُوه الـنـسـيـم فـيـسـتـقـيـم
لـهـا رِدْفٌ تـعـلـق فـي لـطـيـف
وذاك الـردفُ لـي ولـهـا ظـلُـوم
يـعـذبـنـي إذا فـكـرتُ فـيـه
ويُـتـعِـبُـهَـا إذا رَاحَـتْ تـقـوم

وما حُبّي لها إلا عذاب
عليه من نَضارتها نعيم

ومن هذه القصيدة:

أعيذُكِ يا سُلَيْمَى من سُلَيْمٍ
قتلتِ فَتاهُم وَهْو الكريم
بلى أنتِ الغَزَالةُ في سَنَاها
فَرامِيها بعيدٌ ما يَرُوم
وما لَكِ طالبٌ بِتراتِ نفسي
إذا قتَل الغرامُ فلا غَرِيم

ومنها:

فؤادي سار نحوكِ عن ضلوع
بها يَا رِيمُ حبُك ما يَرِيم
وِدادُك صحّ في قلب سقيم
كطَرْفِك صَحّ ناظرُه السقيم
إذا أعرضتِ تَسْودُّ الأماني
وإن أقبلتِ تبْيَضُّ الهموم

وما أبدع هذا البيت الأخير الذي يصور إعراض الحبيبة بإظلام الأماني، وهي الأماني شأنها أنْ تُضفي على النفس بهجةً وسروراً تضيء منهما الحياة ويشرق الأفق، فإذا بها مع إعراض الحبيبة تصبح سُوداً تتقزز منها النفس وليس بعد الحبيبة من أمنية، ولذلك فإنها إذا أقبلت تنقلب الحال

وتصير الهموم السود بيضاء جميلة في نظر الشاعر لأنه ليس مع وصال الحبيبة هَم مطلقاً.

ولا تقِلُّ بقية أبيات القصيدة في جمال التعبير وحسن التنظير عن هذا البيت، فإن فنَّ شاعرنا يتدفق كالماء الرقراق في كل مقطع من مقاطعها، وأعظم ما يتجلى فيه هو هذه المقابلة بين المعاني والألفاظ التي يشكل صوراً حيّة وأخيلة جميلة لا تحس معها بأدنى تكلُّف مما يصحَبُ المقابلة غالباً، لأنه لا يتعَمَّدها ولا يُغرِب فيها فتأتي كأنها طبيعية لا استكراه فيها ولا تصنُّع.

وهذه قطعة أخرى من شعره:

هـذا فـؤادي أحـصـدتـه الأسـهـم
مَـن ذا يـرى تـلـك الـجـفـون ويَـسْـلَـم

يـا غُـرَّةً حـكـم الـجـمـالُ لـهـا عـلـى
شمس الضحى وأصابَ فيما يحكم

يـحـكـي الـجـآذِرَ جـيـدُها ولِـحـاظـهـا
هـيـهـات دون الـعـالِـم الـمُـتـعـلِّـم

وكـان قـامـتَـهـا ونـغـمـة لـفـظـهـا
غـصـنٌ عـلـيـه بـلـبـل يـتـرنـم

يُـضـحِـي الـخَـلِـيُّ إذا رآهـا عـاشـقـاً
والـعـشـق تـوقِـظُـه الـلّـحـاظ الـنُّـوَّم

ومن شعره يصف جمال الأعرابيات:

مَـهَـا الـقَـفْـر لا دُمْـيَـةُ الـمَـرْمَـر
وفـي الـعُـرْب لا فـي بـنـي الأصـفـر

بنفسي يَعافِيرُ تلك الخِيام
ومَسْرحُها في النَّقَا الأعفر
ملاعِبُ يصبو إليها الحليم
ويُسلَب فيها فُؤادُ الجري
وفيها الظِّباءُ بناتُ الأُسود
غُيارَى متَى بغَمَتْ تَزْأر
فخِيسُ الهِزَبْر كِنَاسُ الغَزا
ل به الشِّبْلُ نَاشٍ مع الجُؤْذَر
تُخالِسُها نظراً تحته
غرامٌ به الحَيُّ لم يشعر
وباللحظ يُقدَحُ زنْدُ الهوى
فطَرْفٌ غَرٍ وفؤادٌ بَرِي

وقال في الحب وأحوال المحبين، ولا يُنَبِّئُك مثلُ خبير:

أغار على الصَّب من أنَّبَه
هو الحبُّ من يُطفِه ألْهَبَه
نأى القَلْبُ عني وشوقي معي
فَلِلَّه أمرِيَ ما أعجَبَه
يحِنُّ فؤادي إلى قاتلي
كذاك الهوى عند مَن جرَّبه
ترِقُّ شمائلُ مَن ذاقه
وتلطُف شمْألُ من هذَّبه

يـجُـود لِـمُــسْـخِـطـه بـالـرضـا
ويــطــلــب راحــةَ مــن أتــعــبــه
إذا شــفَّ قــلــبــي غــرامُ الــهــوى
دعَــا بــالــنــعــيــم لِـمَــن عــذَّبــه

وقال في عواقب النظرة:

بــقــلــبــك يــا غــافِــلاً فــانــظــر
وعَــيْــنَــيْــك غــمِّــضــهــمــا تُــبــصِــر
إذا أُرسِــل الــطَّــرفُ هــام الــفــؤاد
وبــعــض الــمَــرائــي عَــمَــى الــبَــصــر
وآفــةُ قــلــب الــفــتــى عــيــنُــه
فــإن تَــرْعَ قــلــبــك لا تــنــظُــر

ولأبي حفص إلى جانب شعره الغرامي أشعار في الموعظة والاعتبار وهي أيضاً مما يلُوح عليها طابَعُه الفني، ولعلها مما صدر عنه بعد تقدمه في السن تكفيراً لِغَرامِيَّاته وغزَلِيَّاته، كما قال المقَّري في هذه الأبيات الأخيرة: إنه كفر بها قطعته في جمال الأعرابيات. ومن ذلك قولُه:

أيــهــا الــمــغــتــرُّ بــالــزمــن
فــي هــواه خــالِــعَ الــرَّسَــن
حــبُّــك الــدنــيــا وزيــنــتَــهــا
فــتــنــةٌ عــمَّــتْــك بــالــفــتــن
ظَــلْــتَ والــحــالاتُ شــاهــدة
عــاكــفــاً مــنــهــا عــلــى وشَــن

فاهجرْنها إن زينتها
زينةٌ شانت ولم تَزِن
خدعتك إنها قَبُحَتْ
باطناً في ظاهرِ حَسَن
ولْتُقَدِّم ما تُسَرُّ به
قبل طُول البث والحَزن
فكأنْ أُخْرَاك ما برِحَتْ
وكأنْ دنياك لم تَكُن

ومنه قوله:

ولا تُنسَبْ إلى كِبْر فهذا
أبوك التُّرب يخفِضُك انتسابا
ولا تصحب أخا كِبْرٍ وقدِّمْ
على النفس الأعادِيَ والصِّحابا
ولا تُخبِب مُحاباةً بمدح
كفى بالمرء حُوباً أن يُحَابَى
وحاذر أن تُرَى في القوم رأساً
ولا تنسَ الذنوبَ وكُن ذُنابا
تُراباً كُنْ هنا فعساك أن لا
تمَنَّى أن تكون غداً تُرابا

ومنه قوله في مدح العلم:
العلم يكسو الحُلَل الفاخرة
والعلم يُحيي الأعظم الناخرة

كـم ذَنَـبٍ أصـبـح رأسـاً بـه
وَمِـذْنَـبٍ أبـحـرُه زاخـرة
مـا شـرَفُ الـنـسـبـة إلا الـتـقـى
أيـن تَـهِـيـمُ الأنـفـس الـفـاخـرة
مـن يـطـلُـب الـعـزَّ بـغـيـر الـتـقـى
تـرجِـعُ عـنـه نـفـسـه داخـرة
أعـرِضْ عـن الـدنـيـا تـكـن سـيـداً
بـل مَـلِـكـاً فـيـهـا وفـي الآخـرة

وله في المدح أيضاً قصائد مطولة يروي بعضَها الرواة، ويروون أبياتاً من بعضها الآخر، ولا يخرج شعره في المدح عن نمَط شعره في غيره، بل هو طِرازُه المُعْلَم ومذهبُه المُحْكَم الذي غلب عليه وعُرِفَ به. وإلى القارئ منه مطْلعَ قصيدة أنشدها الخليفةَ يوسف بن عبدالمؤمن الموحدي:

الـلّـهُ حـسْـبُـك والـسَّـبْـعُ الـحَـوامِـيـمُ
تـحـوي بـهـا سـبـعـةً هـي الأقـالـيـم
سبـع الـمـثـانـي الـتـي لـلّـه قُـمْـتَ بـهـا
عـلـيـك مـن سـرِّهـا مـعـنـى وتـقـديـم
وأنـت بـالـسُّـوَر الـسـبْـع الـطُّـوال علَى
كـلِّ الـورى حـاكـم بـالله مـحـكـوم
وسبـعـة الـشُّـهْـبِ لـم تَـخـفِـل بـهـا ثـقـةً
بـوعـد ربـك هـيـهـات الـتَّـنَـاجِـيـم

تسمُو بنفس على السبع الشّداد سمَتْ

فيـنـا، وثَـمَّ لـهـا زُلْـفَـى وتـكـريـم

فهذا المطلع كما ترى كله مقارنات يستعملها الشاعر على طريقته فيستخرج منها معاني أشباهاً في ألفاظِ أشْباهٍ تأنقاً في التعبير وتفنُّناً في التصوير، ولعله إنما ضمّنَه هذه المُسبّعات التي سلكها في نسَقٍ لمناسبةٍ لم يذكرها لنا رواةُ القصيدة، وعلى كل حال فهو يقول بعد ذلك في مدح الخليفة جارياً على منواله في حسن التقسيم:

فـؤاده بـضـيـاء الـعـلـم مـنـشـرح

ووجـهُـه بـجـمـال الـنـور مـوسـوم

وكـفُّـه بـطـنُـهـا بـالـخـيـر مـنـهـمـر

وظـهـرُهـا لـعـهـود الله مـلـثـوم

والـعـلـم قِـيـمـتُـه والـحـلـم شِـيـمـتُـه

طـابـت أرومَـتُـه والـنـفـسُ والـخِـيـم

لـطـالـبي الـعـلـم ما شـاؤوا بِـخِـدْمـتـه

غِــنًــى وعــزٌّ وإرشــاد وتــعــلــيــم

سُـحْـبُ العلوم عليهم من سـماحته

تـهـمِـي ففي بحرِها هُـمْ شُـرَّعٌ هِـيـمُ

يُـفْـضِـي أنـاةً وحِـلْـمـاً عـالـمـاً ولـه

فـي مـوضـع الـحـق إقـدام وتَـصْـمـيـم

تـشـتـدُّ فـيـمـن عـصَـى أو خـانَ وطـأتُـه

وفـي الـثِّـقـاف لـذات الـزَّيْـغ تـقـويـم

الـدهـرُ فـي أنـفِـه مـن حُـكْـمِـه بُـرَةٌ
بـهـا الـزَّمـان عَـنِ الأبـرار مـخـزُوم

إلى أن يقول:

عطفاً على حُسْن أمداحي وإن عجزَتْ
إنَّ الـجـمـال عـلـى الـعِـلاَّت مَـرْحـوم

فلا ينسى حتى في هذا المقام الجمَالَ وتعلُّقَ قلبه به.
ثم يقول:

يـا سـامِـعـيـن أمـادِيـحَ الإمـام ألاَ
فاجْثُوا على رُكَب الإعظام أو قوموا

ويُحكى أنه لما أنشد هذا البيت قام جميعُ مَن في المجلس وكان فيهم الشاعر أبو العباس الجراوي فاحتاج إلى مشايعتهم لذلك، وثقُل عليه لضخامته فجعل وهو يحاول القيام يسُبُّ القاضي أبا حفص وكان الجراوي سَلِيط اللِّسان.
ومنه مطلع قصيدة أخرى وهو بارع:

يَـزَعُ الإلٰـهُ بـسـطـوة الـسـلـطـان
مَـن لـم يَـزَعْـه واعـظُ الـقـرآن
أخَـوَان إمَّـا حـكـمـةٌ أو مُـرهَـفٌ
هَـذِي يَـمـانِـيَّـةٌ وذاك يَـمَـان
شُـدُّوا الـيـراعـةَ بـالـحُـسـام فـإنـه
بُـرهـانُ مَـن يَـعْـمَـى عـن الـبُـرهـان

ومن بديع مديحها هذا البيت:

يهدِي البريّةَ مُمْسِياً أو مُصْبِحاً
فكأنّما في وجهِهِ القَمران

ومن قصيدة له يمدح بها يعقوب المنصور ويهنئه بانتصاره في موقعة الأرك الشهيرة:

أطاعتك الذوابلُ والشِّفارُ
ولَبَّى أمرَك الفلَكُ المُدَار
بِبُشْرَى مثلما ابتهجت رياضٌ
وسعدٍ مثلما وضَحَ النهار
وفتحٍ مثلما انفتحت كِمَامٌ
وشُقّتْ عن صُدور مَهاً صِدار
وآمالٍ كما مُدّتْ ظِلالٌ
وأفعالٍ كما مَدّت بِحار
وأعلامٍ بنصرك خافقات
لها في كل جوّ مُستطَار
لِيهنئ أرضَ أندلس بدورُ
من السَّرّاء ليس لها سِرار

ومنها في وصف جموع العدو:

وكم رامُوا الفرار من الرزايا
ولكن أين من أجل فرار
تُدار عليهمُ حُمْرُ المنايا
بكأس فيه عَقْرٌ لا عُقَار

إذا مـا الـلـيـثُ أصـبـح فـي مَـحَـلٍّ
فــمــا لِــطَــرِيــدة فــيــه قَــرار

وهذه القصيدة هي من السَّهْل الممتنع ونَفَسُه فيها عالٍ جداً، فإن كانت رُقْعَتُها مما طُرِحَ أمامَ المنصور بدون إنشاد[1]، فلا شك أنها بُخِسَتْ حقَّها. ونحب أن ننبه القارىء إلى ما في قوله: «وشُقَّت عن صُدورها صِدار» من مزج المدح بالغزل نزوعاً من الشاعر إلى طبيعته الهائمة بالجمال المتهالكة على تملِّيه، فهي تتخيله، في كل شيء حتى في نتيجة الأعمال الحربية، فإذا ذكرت الفتح وشبهته بتفتُّح الأكمام عن الأزهار لا تلبث أن تذكر تفتُّح الأزرار عن صدور الغواني وما تحوي من إغواء وفتون. ومن هذا القبيل ما تَنِمُّ به المساجلة العشرية التي جرت بينه وبين الشاعر الجراوي والقاضي أبي بكر بن ميمون، وكان الثلاثة قد اجتمعوا في مجلس أنس، فقال الجراوي:

مـا زِلـتُ أضـرب بـالـقـنـا الـمـنـآد
حَـلـقَ الـدروع وأنـفـسَ الـحـسـاد

وقال ابن ميمون:

وحــســبــت أنــي لا أُراع لــحــادث
حــتــى بُـلِـيـتُ بـسـطـوة الـحـسـاد

(١) يذكر المؤرخون أن المنصور لما رجع من غزوة الأرك جلس للشعراء وكانوا من الكثرة بحيث جعل كل واحد إنما يلقي من قصيدته مطلعها ويلقي برقعتها أمام المنصور، فما استتموا الإنشاد حتى حالت الرقعات بين المنصور وبين الناس.

فقال أبو حفص:

مَن لم يبتْ والبينُ يصدع قلبه
لم يدرِ كيف تفتُّتُ الأكباد

فلم يخرج عن طبيعته ولم يجد مجالاً للقول إلا في الحب وذيوله.

وعلى ذكر ما وقع له مع الجراوي، نقول: إن هذا الشاعر الذي كان كثير الهجاء لا يسلم من لسانه أحد، تناول صاحبنا في أبيات تمس كرامةَ ابنةٍ له تسمى عمْرة ـ على ما يفهم من هذه الأبيات ـ وكانت أديبة كأبيها تقول الشعر، وهذا نص تلك الأبيات:

نبغتْ عَمْرَةُ بنتُ ابنِ عمر
هذه فَلْتعجَبُوا إحدى العِبَر

قل لها عنّي إذا ما جئتَهَا
قولةً تترك صدْعاً في الحجَر

هَبْكِ كالخنساء في أشعارها
أو كلَيْلَى هل تُجَارِينَ الذَّكَر؟

فغضب ابنُ عمر لشرف بيته وأجاب الشاعر بقوله:

نهانِي حلمي فما أظْلِمُ
وعزٌّ مكاني فما أُظلَم

ولا بد من حاسد قلبُه
بنور مآثرنا مظلم

قفَانَا[1] الحسودُ ولسنا كما

يقول ولكن كما يعلم

فهذا ما ناسب سياقه من شعر المترجم الذي وقفنا عليه، ونظن أن فيه بلاغاً لتعرُّف شاعريته ولو على سبيل الإجمال. وأما نثره فبيدنا منه نموذجان لا غير؛ أحدهما: خطبة في ذم الفلسفة ومذهب أهلها، ونظن أنه ألقاها في الفترة التي تنكر فيها المنصور للفلاسفة ونكب كبيرهم أبا الوليد بن رشد، والثاني: رسالة في ذم الدنيا والتحذير من الاغترار بها ختمها بشعر من نظمه في الموضوع. ومع أن المقري في «أزهار الرياض» تردد في نسبة هذه الرسالة له، فإنّا نجزم بذلك اعتماداً على الشريشي الذي أنشد القطعة الشعرية المختومة بها معزوةً إلى أبي حفص من غير تردد. وكلا النموذجين من النثر المسجوع المخلَّل ببعض الآيات القرآنية الكريمة في تنزيلٍ أحسنَ من تنزيل الدرر في الحلى الذهبية الجميلة مع تأنُّق كبير في مناسبة الأسجاع ومطابقة الألفاظ للمعاني على مثال ذلك التأنُّق الذي رأيناه في شعره إن لم يكن أفضل، وذلك لمواتاة الأمر في السعة أكثر من الضيق، وهكذا يكون نثره في أعلى مستويات النثر الفني وتتساوقُ قدرتُه على الكتابة والخطابة مع قدرته على القريظ قصيداً وتوشيحاً بدليل ما وصل إلينا من إنتاجه وبشهادة أهل المعرفة من معاصريه الذين يقدمونه إلينا بصفته علماً من أعلام الأدب ورئيساً من رؤساء الصّناعتين:

---

(١) قفاه: اتهمه بالفجور وقذفه.

وهذه هي خطبته المشار إليها:

(إياكم والقدماء وما أحدثوا، فإنهم عن عقولهم حَدَّثُوا، أتوْا من الافتراء بكل أعجوبة، وقلوبُهم عن الأسرار محجوبة، الأنبياء ونورهم، لا الأغبياء وغرورهم، عنهُم يُتلقَّى وبهم يُدرك السُّول ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾، ﴿ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾، والعلمُ كتاب الله وسنّة محمد عليه السلام، ما ضرَّ مَن وقف عندهما، ما جهل بعدهما، خيرُ نبي في خير أمة، ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ دلَّهم من قرب عليه، واختصر لهم الطريق إليه، فما ضرّ تلك النفوس الكريمة، والقلوب السليمة، والألباب العظيمة، ما زُوِيَ عنها من العلوم القديمة، نقَّاهم من الأوضار والأدناس، وقال: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ كتابُهم أعظم كتاب أُنزل، ونبيهم أكرم نبي أُرسِل، السيد الإمام لَبِنَةُ التَّمام، خير البرية على الإطلاق، بُعِث ليتمم مكارم الأخلاق، أنزل الكتاب إليه ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾، هو الشفاء والرحمة، وفيه العلم كله والحكمة، مُعجِزٌ في وصفه، عزيزٌ في رَصْفه ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ آياتُه باهرة قائمة، ومعجزاته باقية دائمة، ماذا أقول، وقد بهر العقول، حَسْبِي حَسْبِي ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾.

وهذا نص الرسالة:

«هذه الدنيا ـ حفظك الله ـ كما قد عَلِمْته، فأعرِض بحِلْمك عن جهلها، وارغَبْ بنفسك عن أهلِها، واذكر قبائح أبنائها،

واضرِمْ وصَلَ أبنائها، لا ترتَع في روضهم، ولا تكْرَع في حوضهم، ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ﴾ وإذا مررت باللاغين بذكر محاسنها اللاهين بحسن ظاهرها عن قُبْح باطِنها، فالْهُ عن لهوهم، ومُرَّ كريماً بلغوهم مَرَّ المهتدي في سيره ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾، فالسيادة والسعادة في نبذِها، لا في أخذِها، وفي تركها، لا في دَرْكها، وإليك عن وصلها إليك، وعليك بهجرها عليك، واتلُ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾، واحرص أن تكون منهم، فزُخرفُ الدنيا في نظر العين زَيْن، وفي نظر العقل شَيْن، فغمِّضْ عينيك تُبصِر، ولا تمُدَّهُمَا وأقصِر، جعلنا الله ممن نظر بقلبه، وأبصر بلبّه، فأولو الألباب والفكر، المخصوصون بالذكر، والعلم أرفعُ المزايا، وأوسعُ العطايا، هو غايةُ المنال والمُدرَك، من ناله أي شيء فاته ومن فاته أيّ شيء أدركه، ولا عِلْمَ إلا علمُ الكتاب والسنّة، هما أفضل العطايا والمِنَّة، فمَن علِمَهُما، ونظر فيهما وعمل بهما نال غايةَ السعادة، وأدرك مُنتهَى السيادة، قال الله تعالى لنبيه الكريم: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾، هذه المزايا العالية، والعطايا الواسعةُ الباقية، لا ما نهتْ عنه الآية الثانية[1] جعلنا الله ممن أبصرَ رشدَه، وذكر مُرادَه، ووَجَّه إليه قصده، ورآى في أول أمره آخره، وابتغى فيما أتاه اللّهُ الدارَ الآخرة، بمنِّه وفضله آمين.

يا راكضاً في طِلاب دُنيا
ليس لمن تصرع انتِعاشُ

---

(١) أي: التي جاءت بعدها مباشرة وهي قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ...﴾ إلخ.

تـنـحَّ يـا عُـرضـةً لِـرَامِ
أسـهُـمُـه بـالـردى تُـراش

لـم تـخشَ نـاراً هـوى لـظـاهـا
لِـمَـن لـه نـحـوهـا انْـحِـيـاش

أعْـذَرُ مـنـك الـفَـراشُ حـالاً
عـلـمـتَ مـا يـجـهـل الـفَـراش

تـطـلُـبـهـا لا تـنـام عـيـنٌ
عـنـهـا ولا يـسـتَـقِـرُّ جَـاش

مَـن لـك بـالـرِّيِّ مـن شـراب
يَـشْـتَـدُّ مـن شُـرْبـه الـعُـطـاش[1]

دعـهـا فـطـلابُـهَـا رَعـاعٌ
طـاشـت بـألْـبـابِـهـم فَـطَـاشُـوا

واظْـمـأْ لِـتَـرْوَى وكـن كـقـومٍ
مـاتُـوا بِـهـا عِـفَّـةً فـعـاشُـوا

لـم يَـرِدُوهـا فـهـم رِوَاءٌ
ووَارِدُوهَـا هُـم الـعِـطـاش

كـأنَّ آمَـالَـنَـا ظِـبَـاءٌ
ونـحـن مـن حـيـرَة خِـرَاش[2]

---

(١) العطاش بالضم، يصيب الإنسان فيشرب الماء ولا يروى.

(٢) تلميح لقول الشاعر:

تكاثرت الظباء على خراش فما يدري خراش ما يصيد

إن لآمـــالِـــنَـــا انـــبـــســـاطـــاً

بـــه لأغـــمَـــارِنـــا انـــكِـــمَـــاش

كـــأنَّ أجَـــالَـــنـــا صُـــقُـــور

ونـــحـــن مـــن تَـــحْـــتِـــهَـــا خَـــشَـــاشُ

* * *

أبو العباس الجراوي
(ت ٦٠٩ هـ)

قبيلته، منشأ الغلط في نسبه، نبوغه ودراسته، سبب هجوه لأهل فاس، ما كتبه ابن الأبار وابن خلكان عنه، كتابه «صفوة الأدب»، مَن خدم من الملوك، مكانته الاجتماعية، كلمة عبدالمؤمن فيه، بينه وبين يوسف بن عبدالمؤمن، مشاعية الفضائل وعدم اختصاصها بجيل من الناس، شعر الجراوي، الاعتذار عن مآخذ الشعراء، مناقشة الشقندي فيما قاله عن الجراوي، بينه وبين كبراء وشعراء وقته، سرعة بديهته، محنته، تحقيق في بيتين نسبا إليه ص٧ س١١ ، وفاته.

هو الأديب المُجِيد، الشاعر الخِنْذيذ: أبو العباس أحمد بن عبدالسلام الجَرّاوي، نسبة إلى جَرّاوة، قبيلة من زِناتة، كان موطنهم بجبل أوْراس، وإليهم كانت رياسة زناتة كلها قبل الإسلام، ثم تفرقوا أوزاعاً بين القبائل، وكان منهم قوم بسواحل مَلِيليّة لعهد ابن خلدون، فلعل في هذا ما يفسر قول ابن خلكان: «وكوران قبيلة من البربر، منازلهم بضواحي مدينة فاس».

ثم هي جرّاوة، ويقال لها أيضاً: جَزْوان لا كوران، وابن خلكان بعدما سمّاها كوران راجع الصواب فقال: «وقيل: إن هذه القبيلة إنما يقال لها: جَراوة بفتح الجيم، وقد يبدل الجيم كافاً فيقال: لها كراوة، والنسبة إليها جراوي وكراوي». والتردد بين الجيم والكاف لا يخفى أنه ناشىء عن الخلاف في كتابة القاف المعقودة، وهي الجيم المصرية بالكاف أو الجيم كما هو مقتضى النطق باسم هذه القبيلة، وبعضهم يكتبها قافاً، ولذلك تجد اسم المترجم مكتوباً بها أيضاً. ولكن ابن خلدون كفانا مؤونة هذا الخلاف، إذ اصطلح في المقدمة على كتابة هذا الحرف بالكاف المنقوطة ثلاثاً، فلمَن أراد تصحيح النطق باسم الشاعر، كما يُنطَق اسم القبيلة، أن يكتبه بالكاف هكذا، الڭراوي. وقد وقع ذكره في زاد المسافر لابن إدريس باسم «القرائي». وفي الغصون اليانعة لابن سعيد باسم «الكوراي» وذلك من تحريف النسّاخ ولا ريب، ثم هو من بني غَفَجُوم بطن من القبيلة المذكورة، وإن لم يشتهر بالنسبة إلى هذا البطن، وكان محلهم بتَادِلاَ، ومنهم الفقيه أبو عِمْران الفاسي، إمام إفريقية في وقته، فكفاهم فخراً كون هذين الشخصيتين العظيمتين منهم.

وأما قبل، ومع، وبعد، فقول صاحب النفح فيه: «الجُذامي» وعامة المغرب يقولون: «الجراوي» هو مما لا يصح الالتفات إليه، ولعله نقله من بعض التقاييد المهملة بدون أن يتأمله.

نبغ الجراوي في نظم الشعر وروايته ونقده، فكان

شاعراً مُفْلِقاً حسنَ البديهة، بليغ القول، مدّاحاً هجّاءً، متصرّفاً في غير ذلك من الفنون، وكان كثير المحفوظ من الشعر، بصيراً بجيده، مستظهراً بذلك على شعراء وقته، كثير الغَضّ مما يأتون به ولو كان في أعلى طبقة، متعرضاً بذلك لهجوهم وتحاملهم عليه، ولكنه لا يبالي بشيء، ولا يخشى من أحد.

والغالب أنه درس ببلده (تادِلا) وبمراكش وفاس، ثم الأندلس. ولربما جرت عليه شِدّة، أو وقعت له إهانة أيام دراسته بفاس، فكان ذلك سبب هجائه لها ولأهلها، خصوصاً ذوي العلم منهم. قال ابن الأبّار: «وله رواية عن أبي الفضل بن الأعلم، وأبي العباس بن سَيّد وغيرهما». وابن سيّد هذا هو الشاعر المعروف باللص، ذكره ابن الأبّار وقال: «روى عنه من الجِلّة أبو القاسم بن المَلْجُوم... وأبو العباس الجراوي». إذاً فابن الملجوم قرينُ الجراوي، وزميلُه في الطلب، فإذا هجا الجراوي فاساً، وبني الملجوم منها بالخصوص، وهم في أعلى ذِرْوَتها، فإنما هي الأغراض الشخصية التي أوحت له بتلك الكلمات البذيئة على ما سنرى.

ثم قال ابن الأبّار في تَخْلِيَتِه: «وكان عالماً بالآداب، حافظاً، بليغ اللسان، شاعراً مفلقاً، وقد وقَفْتُ على ديوان شعره. وألّف للسلطان كتاباً في معنى الحماسة لحبيب، سمّاه «صَفْوَة الأدب ونُخبة كلام العرب» أخذه عنه الناس، وكان شيخنا أبو الحسن سَهْلُ بنُ مالك، يثني على هذا التأليف»... إلخ. ولم يعين ابن الأبّار السلطان الذي ألّف

الجراوي له الكتاب، وقد عيّنه ابن خلّكان إذ قال في ترجمة يعقوب المنصور: «وله ألّف أبو العباس أحمد بن عبدالسلام الجراوي، كتابه الذي سمّاه «صفوةَ الأدب وديوان العرب، في مختار الشعر»، وهو مليح أحسَنَ في اختياره كلّ الإحسان».

وقال ابن خلّكان عنه في ترجمة السلطان يوسف بن عبدالمؤمن: «وكان هذا الأديب نهاية في حفظ الأشعار القديمة والمُحْدَثة، وتقدّمَ في هذا الشأن، وجالَس به عبدالمؤمن، ثم ولده يوسف، ثم ولده يعقوب، وجمع كتاباً يحتوي على فنون الشعر على وَضْع الحماسة لأبي تَمّام الطائي، وسمّاه «صفوة الأدب، وديوان العرب». وهو كثير الوجود بأيدي الناس، وهو عند أهل المغرب كالحماسة عند أهل المشرق.

ونقول: أما ديوانه الذي وقف عليه ابن الأبّار، فما زِلْنا لم نسمع له خبراً ولم نرَ له أثراً، وأما كتابه «صفوة الأدب ونخبة كلام العرب». على ما عند ابن الأبّار، أو ديوان العرب، على ما عند ابن خلّكان أو الحماسة المغربية، على ما اشتهر به عند الناس، فقد ذكر الأستاذان (ابنُ شَنَب) و(بِلّ) في تعليقهما على الطّرَف الذي نشراه من تكْمِلة ابن الأبّار، أن هذا المجموع أو بالحَرِي مختصره موجود بإحدى مكاتب الأستانة بتركيا.

وقد انصرفت الهمّة إلى تحصيله، والسعي في العثور عليه، ووسّطنا المجمع العلمي العربي في ذلك، ولكن بدون طائل، حتى بتنا نخشى أن يكون فُقِد في أثناء الاهتزازات التي أصابت البلاد التركية العزيزة يوم وَلّت العرب والعربية

الدَّبُرَ، وقطعت العلاقة بينها وبين الثقافة الإسلامية العريقة، باصطناع الحروف اللاتينية، زعَمَتْ، لتسهيل الكتابة والقراءة على الشعب.

ولكن كان من حسن الحظ، أن انتدبت الجامعة المصرية في السنة الماضية (١٩٤٨)، أخانا الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي، لتحقيق بعض النصوص في مكاتب إستامبول، فذهب ذلك الدليل الخِرِّيت وقضى مهمته، وأتانا بالحماسة المغربية، مصورةً بالفوتوغراف.

الهمّةُ دَرّاكةٌ كما يقول الصوفية. فها هو ذا أثر جليل من تراثنا الأدبي، قد أُنقذ من الضياع، وها نحن أُولاءِ نتصفحه فنجد أن ثناء الناس عليه كان في محله، ونرى أن محصول ـ أو ـ محفوظ الأديب الجراوي من الشعر العربي، في جميع أبوابه كان شيئاً مدهشاً للغاية، ناهِيكَ بأن هذا المجموع، إنما هو مختصر الكتاب الأصلي، اختصره المؤلف نفسُه بأمر من السلطان، فأيّ بحر كان يغترف منه هذا الشاعر الواعية! وإنه لَعَنْ حَق وصفه ناسخُ الديوان بالشيخ الفقيه (الحافظ).

وقد كُتبت هذه النسخة بخط مغربي واضح، إلا أنه كثير التصحيف، فمثلاً عنوان الكتاب، كُتِبَ هكذا: (كتاب حماسة المغربية). على أن هذا يمكن أن يكون بغير خط ناسخ الكتاب، وأبو الغُول الطّهَوي كتب الطهري بالراء، وقوله:

فدَتْ نفسي وما ملكَتْ يميني
فوارسَ صدّقت فيهم ظنوني

كُتِبَ عَجزُه هكذا:

(قـوارس) صـدقـوا فـيـهـم (طـبـون)

وهكذا باقي الأبيات وكل الكتاب.

وقد انتهى منها ناسخُها، واسمه محمد بن يوسف بن أحمد بن خَلَف بن صَبِيح، في غرّة جمادى الأولى سنة ثمان عشرة وستمائة. أي: بعد وفاة الجراوي بتسع سنين، وإن كانت عبارته في الطالع تُشعر بأنه كان حياً ـ على الأقل حين ابتداء النسخ ـ فقد جاء فيه بعد العنوان السابق: «مختصر كتاب صفوة الأدب ونخوة ديوان العرب. تأليف الشيخ الفقيه؛ الحافظ أبي العباس أحمد بن عبدالسلام الجراوي ـ وبالأصل الحزاوي ـ التادلي، أكرمه الله بتقواه» فهذا الدعاء لا يكون إلا للحي عند مَن يُحقّق مَفهومَه!

وعدد أوراق الكتاب مائة وإحدى عشرة ورقة. أعني ٢٢٢ صفحة، في كل صفحة خمسة وعشرون سطراً، وهذا بحسب الأرقام الهندية المتتابعة في رؤوس أوراقه... إنما إذا بلغنا ورقة (٢٤) وبالضبط صفحة (٤٨) نجد أن الكلام انتقل فجأةً من موضوع المدح إلى الفخر بدون إعلام، على خلاف باقي الكتاب، فهل هذا يعني أنه سقط شيء من الكتاب في هذا الموضع، وأقلّه ورقة واحدة يُعلِم فيها بانتهاء باب المدح وابتداء باب الفخر؟

وقد واجهتنا في طالعة الكتاب جملةٌ ابتسمنا منها أولاً وهي بخط شرقي، ويقرب أن يكون كاتب العنوان الملحون

هو صاحبها وهي هذه: «عددُ أوراقه ما له عِلْم» ثم رجعنا فقلنا: لعل كاتبها ينبّه بها على نقص في الكتاب، وغاضت تلك الابتسامة الأولى أمام هذا الاحتمال المقبول...

أما أبواب الكتاب فهي: المدح ـ الفخر ـ المَرَاثي ـ النّسِيب ـ الأوصاف ـ الأمثال والحِكَم ـ المُلَح ـ ذمّ النقائص ـ الزهد والمَواعظ.

والأشعار فيه مرتبة على سبيل الأقدمية، والمديح النبوي فيه، وهو أوله كامل، كما ورد في صفوة الأدب، لم يختصره تبركاً بالجناب النبوي الكريم.

وفي الكتاب أشعار للجاهليين والإسلاميين، حتى المتنبي وأبي العلاء وأهل عصرهما، كما أن فيه من أشعار المغاربة والأندلسيين غيرَ قليل، وأعني بالمغاربة الأفارقة، مثل تميم بن المُعِزّ، وابن هانئ المغربي، وابن حمّاد التاهَرْتي، وسابِق البربري. وأما الأندلسيون، فمثل أبي بكر بن عمّار، وأبي القاسم (المعتمد) بن عبّاد، وابن خفَاجة، والأعمى التّطِيلي، وابن زَيْدون، وابن اللّبّانة، وابن عبد رَبّه، وسواهم.

وليس فيه من شعر المؤلف إلا بيتان أو ثلاثة، ذُكِرَتْ عَرَضاً في أثناء المقدمة التي هي من إنشاء الجراوي نفسه، ونبّه في الطّرّة على كل بيت بأنه من قصيدة له...

ولقد يكون من المفيد جداً أن نأتي بهذه المقدمة هنا لِنَعْلَمَ منها أُسلوبَه في النثر؛ وهو على طريقة الأدباء في عصره من التزام السجع، والتنوُّق في العبارة، ويظهر منها

أن الشعر كان بِضاعتَه المُنتقاة، وأنه في النثر ليس بذاك، وها هي ذي المقدمة بتمامها:

«الحمد لله على آلائه الوافرة الأعداد، المتصِلَة الأمداد، والصلاة على محمد رسوله الداعي إلى سبيل الرّشاد، المنقِذ برسالته من مَهاوي الضلال والإلحاد، والرّضَى عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، القائم بالحق بعد ظهور الفساد، الفائِضة أنوارُ هدايته على الأغوار والأنجاد، وعن الخليفتين الإمامَين: المنصورَين الناصرَين؛ المتكفّلين لدين الله بالإعانة والإنجاد، المستوليَين في كل مأثرة على الغايات والآماد».

والدعاء بتيسير المأمول وتسهيل المراد، ونجاح الإصدار والإيراد لسيدنا ومولانا أمير المؤمنين، ابن سيدنا أمير المؤمنين، ابن سيدنا أمير المؤمنين أبي يوسف عِصْمةِ الإسلام، وكاشف الظّلْم والظّلام، البَعِيد مَدَى الهِمَم الجزيل البَأس[1] والكرم، يَبْلى الزّمانُ ولا تبلى مفاخره، ويُحصَى[2] الحصى قبل أن تُحصى مآثره:

جاءت به هذه الدنيا فلو سُئِلت

شِبْهاً، لقالت قِياسٌ غيرُ مُطّرِدِ

ماضي العَزَمات، وكاشف الأزمَات، وكافل الأمة وكافيها، وناصر الشريعة وحامِيها:

---

(١) في الأصل: الناس.

(٢) لولا واو العطف لكان هذا بيتاً من الشعر.

تـقَـلّـدَ سـيْـفَ الـحـقّ يُـمْـضـي بـحَـدّه
على كل مَن مَاراه حُكْمَ المصاحف

بَهَرَتْ مناقِبُه الأنوار، وغَمَرَت مواهبُه البِحار، وصدقت سحائبُ جُود يمِينِه، مَخايِلَ بَرْق جَبِينِه:

مـا شـامَ بـرْقَ جـبـيـنِـه مُـسْـتـرفِـدٌ
إلا اسـتـهـلّـت كـفّـه أنـواء[1]

سَنَامُ الشرف وذِرْوَته، ونخبةُ المجد وصَفْوَتُه، ومعنى الجود وسِرّه، وشمسُ الزمان وبدْرُه:

عـزيـمـةٌ لـم يـعـايـنْـهـا بـنـو زَمَـنٍ
وقُدْرَةٌ لا تراها العينُ في الحلُم[1]

ثِمالُ المُعْتَفّين، ومَوْئِلُ الخائِفِينَ، ورحمةُ الله التي وَرَدَ[2] الخلقُ زُلالَها، وتفيّأوا ظِلالها، فللّهِ خلافتُه السعيدة لقد بهَرَ جمالها، وراقتْ غُرَرُها وأحجالها:

مَـن كـان مـوْلِـدُه تـقـدّم قـبْـلَـهـا
أو بـعـدهـا فـكـأنّـه لـم يُـولَـدِ[3]

خَرَق العوائدَ بأساً وسماحاً، وحِلماً راجحاً وإسْجاحاً، وأبرّ على الملوك مَضاءً وتصميماً، وإنشاءً وتتميماً:

---

(١) مكتوب بطرة الأصل: وهذا البيت له من قصيدة.

(٢) بالأصل: ود.

(٣) مكتوب بالطرة: لحبيب.

وجرَى فقصّر عن مداه في العلى

أهلُ الزمانِ وأهلُ كلِّ زمانِ[1]

بهَرَت آياتُه الألباب، وأعجزت غاياتُه الطلاب، وتحيّرت في كُنْهِهِ الأوهام، وقصُرَت عن وصفه ألسُنُ الأنام والأقلام:

جلّت عن المدح واستغنت فضائلُه

والشمسُ تكبرُ عن حَلْيٍ وعن حلل[2]

لا زالت خِلافتُه تروق حُسْناً وجمالاً، وتُوسِعُ البريّةَ إحساناً وإجمالاً، (ولما فَرَغَ) العبد من جمع الكتاب المترجم بصفوة الأدب، ونُخبة ديوان العرب، فجاء خالصاً خلوصَ الذهب الإبْرِيز، مُنْفرداً دون ما تقدمه في فنّه بالسّبْق والتبريز، نفذ الأمرُ المُطاع باختصاره، والاختيار من مُختاره، وكتاب النّخبة وإن كان فيه بعضُ الطّول، فإنه بما اشتمل عليه من غرائب المنظوم، وعجائِبه غيرُ مملول، وقد احتوى هذا المختصرُ منه على جملة كافية، ولغليل المتعطّشِ إلى الأدب شافية، وبِغَرض المُتمثّل والمُحاضرِ وافية، وأُثبِتَ مدحُ النبيّ ﷺ بكماله، وأُقِرّ في الديوانين على حاله، لم يذهب فيه إلى الاختصار، كما فُعِلَ في غيره من الأشعار، رغبةً في كثرتِهِ، وتبرُّكاً بتفصيله وجملته، وإنما تلقّى العبدُ الأمرَ العاليَ وامتثلَه، ووقفَ جُهْدَ استطاعتِهِ عندما حُدّ لَه،

(١) بالطرة: للمتنبي.

(٢) بالطرة: للمؤلف.

فإن أصابَ الغَرَض، وطبّق المفَصْلِ، فَسَهْمٌ سدّدَه رامِيه، وسيفٌ انتضاه مُنْتَضيه، وإن تكُنِ الأخرى فقد استوْفى جُهْدَه، وأبلغَ النفس عُذْرَها ليل[1] ما عندَه.

نسأل الله دوامَ مَن دامت لنا به سوابغ النعم، وشفانا بتعليمه[2] النافع؛ وإحسانه المتتابع؛ من الجهل والعدم، إنه سميع الدعاء، جزيل المواهب والآلاء، لا ربّ غيرُهُ، ولا خيرَ إلا خيرُه».

انتهت المقدمة وبأثرها ذكرَ أول باب من الكتاب، وهو مدح النبيّ ﷺ، ويبدأه بأبيات لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، ثم ثنى بأبيات لعمر بن الخطاب، ثم تابع ذكر أشعار لغيرهما من الصحابة، فغيرهم من شعراء العرب، ثم تعرّض للمدح العام.

وبتتبُّع محتويات هذا الباب فقط، يُعلَم مقدارُ اطلاع المترجم على أقوال الشعراء، ومحصولُه من أدب العرب، فلا جَرَم أن كان ذا عارضة قوية، وملكة متصرفة في أغراض الشعر، جريئاً على النقد، مترصداً للشعراء، يأخذ عليهم الفلَتات، ولا يُقيل لهم عثرة، مع أن هذا إنما هو مختصر الكتاب، فما ظنك بالأصل؟ . . .

* * *

وخدم الجراوي بشعره الخلفاء الموحدين،

---

(١) كذا بالأصل ولعل الصواب: يبذل أو لنيل.

(٢) في الأصل: بتعلمه.

عبدالمؤمن، ويوسف ويعقوب، والناصر، ولذلك دعاه في زاد المسافر (شاعرَ الخلافة) وكانت له مكانة اجتماعية عظيمة في عصره، يدلك على ذلك قول ابن سعيد فيه: «وهو من شيوخ أدباء المغرب، رُزِقَ طولَ العمر والجاه، ومجالسة الخلفاء، فأول مَن جالس منهم عبدالمؤمن، ثم ابنه، ثم حفيده. وصنّف لهذا الصفوة المشهورة بحماسة الكراوي (الجراوي) ولما احتيج لرجل عاقل، يجالس ابنَ مُنْقِذ؛ رسول صلاح الدين بن أيوب، الواصل من المشرق، وقع الاختيار عليه، فما أتيح لأحد مجالسته سواه، ثم جالس الناصر وحضر معه فَتْحَ المهدية، ثم انصرف معه إلى الحضرة... وكان يقول في آخر عمره: تَعْساً لطول العمر الذي أخرني لمعاشرة هؤلاء الأنذال، وعهدي بالخليفة عبدالمؤمن يقول لي في جبل الفتح: يا أبا العباس، إنا نُباهي بك أهلَ الأندلس!...

فكفاه تقديراً كلمة عبدالمؤمن هذه، أما ابنه يوسف، فمما يدل على رفيع مكانته عنده: أنه حضر يوماً بباب القصر هو والطبيب سعيد الغُماري، فقال الخليفة يوسف لبعض خَدَمه: انظر مَن بالباب من الأصحاب؟ فخرج الخادم إلى الباب، ثم عاد إليه فقال: أحمد الجراوي، وسعيد الغماري، فقال يوسف: من عجائب الدنيا، شاعر من جَرّاوة، وطبيب من غُمَارة، فبلغ ذلك الجراوي فقال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ أعجَبُ منهما، واللّهِ خليفةٌ من كُومِية. فيقال: إن الخليفة يوسف لما بلغه ذلك، قال: أعاقبه بالحلم عنه والعفو، ففيه تكذيبه. وهذه وأبيك نهاية

الجرأة، وغاية الدالّة. كما أنها مُغرّبة الأخبار في الحِلم وطابع المنشور؟ الذي استحق به يوسف الخلافة.

ولكن هذا العجب من الخليفة والشاعر، أن تُنجِب قبائلُ المغرب ما أنجبت من هؤلاء الرجال هو في غير محله. فإذا كان سببه هو العُجْمة الأصلية التي كانت عليها هذه القبائل، فإن سائر البلاد العربية غير الجزيرة، كانت على مثل هذه العجمة، وقد أنجبت من العظماء ما لا كفاء له. وإن كان لِنَقْص في الكفاية، وضُعْفٍ في الاستعداد؛ فإن نشر التعليم، وتعميم التربية، كفيلان بإزالة ذلك، ومُلافَاة النقص من أي نوع كان، وكفى دليلاً على ذلك ما مضى ويأتي في هذا الكتاب، من تراجم نبغاء هذه القبائل في العلوم والسياسة والآداب. ويُعجبُني قولُ ابن البنّاء السّرَقُسْطي في هذا الصدد، في نظْم المباحث الأصليّة:

ولم تَزَلْ كلّ نفوس الأحيا
علاّمَةً درّاكةً للأشيا
وإنما تحجُبُها الأبْدَانُ
والأنفُسُ النّزّعُ والشيطانُ
فكلّ مَن أذاقَهم جِهادَهْ
أظْهَرَ للقاعِدِ خرْقَ العادَهْ

* * *

ومن مدح الجراوي للخليفة يوسف قولهُ في قصيدة، قال ابن خلّكان «وهو بديع غريب»:

إن الإمام هو الطبيبُ وقد شفَى
عِلَلَ البرايا ظاهراً ودَخِيلا
حمل البسيطةَ وهي تحمل شخصَه
كالرّوح يوجَدُ حاملاً محمولا

قلتُ: فأينَ هذا من قول النابغة للنعمان:

تخِفّ الأرض إن تفقِدْكَ يوماً
وتبقَى ما بقِيتَ بها ثقيلا

فغضب النعمان، وقال كَعْبُ بن زُهير وكان حاضراً: أبيتَ اللّعْنَ، إن مع هذا البيت آخر وهو:

لأنك موْضع القِسْطاسِ منها
فتمنَعُ جانِبَيْها أن تَمِيلا

فرضي النعمان حينئذٍ، ولكن الجوادَ يكبُو، والصارم ينبُو، ولنفوس البشر حالات من القبض والبسط، والغفلة والانتباه، فتصدر عنها أفعال وأقوال بحسب ما كانت فيه من تلك الأحوال، والمغرور مَن يظن أنه من ذلك بمنجاة:

ألا يا قوم للعَجَبِ العجِيبِ
وللغَفَلات تَعْرِضُ للأرِيبِ

وعليه فما ورَدَ في رسالة الشقُنْدي، المعروفة في المفاضلة بين بَرّ العُدوة والأندلس بخصوص شاعرنا الجراوي من قوله: «فبالله إلا ما أخبرتني مَن شاعِرُكم الذي تُقابِلون به شاعراً ممن ذكرت؟ لا أعرف لكم أشهر ذكراً، وأضخم

شعراً من أبي العباس الجراوي، وأوْلى لكم أن تجحدوا فخره، وتَنْسَوْا ذكره، فقد كفاكم ما جرّ من الفضيحة عليكم في قوله من قصيدة يمدح بها خليفته:

إذا كـان أمـلاكُ الـزمـان أراقـمـاً

فـإنـك فـيـهـم، دائـم الـدهـر، ثُـعـبـانُ

فما أقبح ما وقع عليه ثعبان، وما أضعف ما جاء دائم الدهر، ولقد أنشدتُ أحدَ ظُرفاء الأندلس هذا البيت، فقال: لا ينكر هذا على مثل الجراوي، فسبحان مَن جعل رُوحه ونسبَه وشعره تتناسب في الثقالة».

فيا ضيعةَ الإنصاف عندما تتحرك الأغراض! ألم يجد الشقندي حقاً من شعراء المغرب، مَنْ يذكر في مُقابَلَةِ شعراء الأندلس غيرَ الجراوي؟ ولم يجد من شعر الجراوي الذي وصفَه هو بالضخامة غيرَ هذا البيت الذي توَرّك عليه بسببه؟ نعم! ولماذا قصر استنكاره على هذا البيت وحده، وقضيةُ تناسُب روحه ونسبه وشعره في الثقالة تقضي بأن يكون غالبُ شعره أو كلّهُ من المآخذ؟ هذا كمَن يأخُذُ بيتَ النابغة المتقدم، فيحكم عليه بالثقالة، وخصوصاً لأنه ذكرها في بيته، وبأنه جرّ الفضيحة على قومه ذُبْيان أو العرب عموماً، وينسى اعتذارياته الفذّة وسائر شعره البديع.

ولا نطيل هنا بالكلام مع الشقندي، فلنا معه حساب طويل، نناقشه عليه في موضوع خاص؛ ولنورد هنا من شعر الجراوي ما فيه ـ وحده ـ تكذيبٌ لهذه الدعاوى. فمن ذلك

قوله يهجو قومه بني غَفَجُوم متذرعاً بذلك إلى هجو فاس، وبني الملجوم المُهَلَّبِيِّين من أصلاء بيوتها العلمية:

يا ابن السبيل إذا مررت بتَادِلا
لا تنزِلَنّ على بني غَفَجُوم
أرض أغارَ بها العدُوّ فلن ترى
إلا مُجاوبةَ الصّدى للبُوم
قومٌ طووا ذكرَ السماحةِ بينهم
لكنهم نَشرُوا لواءَ اللّوم
لا حظّ في أموالهم ونَوالهم
للسائلِ العافي ولا المحروم
لا يملكون إذا استُبيح حريمهم
إلاّ الصّراخَ بدعوة المظلوم
يا لَيْتَني من غيرهم ولو أنني
من أهل فاس من بني المَلْجوم

فما ترى في بلاغة هذه القطعة بقطع النظر عن تبِعتِها الأدبية، وهل مَن يقول مثلها يكون ثقيل الروح؟ وقال في هجاء أهل فاس:

مشى اللؤم في الدنيا طريداً مشرداً
يجُوبُ بلاد الله شرقاً ومغربا
فلما أتى فاساً تلقّاه أهلها
وقالوا له أهلاً وسهلاً ومرحبا

وهذه سُبّة عَداكم عارُها ـ يا أهل فاس ـ فما في

عباد الله مَن يجرؤ اليوم على وصفكم باللؤم، وقد سارت بكرمكم الركبان، وهل مع الجود عيب:

يُغَطّى بالسماحة كلّ عَيْب
وكم عيب يغطيه السخاءُ

وله أيضاً من قصيدة في ذكر الصابوني الذي صُلِب:

إني لأعجبُ من خساسة عقله
نسيَ الذنوبَ فخانه الغفران

وغدا على مَشروعة رهنَ الردى
فالجو قبرٌ والهواء أكْفَان

قال صفوان بن إدريس نقله من قول ابن دَرّاج القَسْطلي:

ألا هل إلى الدنيا سبيل وهل لنا
سوى البحر قبر أو سوى الماء أكفان

وله أيضاً من قصيدة يظهر من صنيع صفوان أنها غير قصيدة الصابوني:

وهل هو إلا من أناس تهافتوا
فَرَاشاً على أسيافكم وهي نيران

عَصَوْا دعوةَ المهدِيِّ وهي سفينة
فأغرقهم طغيانُهم وهو طوفانُ

وله يهجو أيضاً:

زعموا يا خُلوف أنك خَلْف
صدقوا فيك من خُلوف أُلوف
ولهذا دعوك بالجمع فرداً
جمع خَلْف بلا خِلاف خُلوف

وله مع أحد المتبذّلين:

يا سيدي جاءتْك رُقعَةُ شاعر
شهدت له الشعراء بالإحسان
لو أدرك النعمانَ في أيامه
لرأى له فضلاً عن الذّبْيَاني
أو كان يوماً في بني حَمْدانَ لم
تَبْهَج بأحمدِها بنو حمدان
لكنه قد أدرَكَتْه حُرْفَة
أدبيةٌ مزجَتْهُ بالعُبْدانِ
فغدا مَزَزَّةَ كل مصفوع القفا
صفر اليدين مُمَزّق الأدرانِ
فإذا نظرتَ إلى قفاه حسِبْتَه
نبتَتْ عليه شقائقُ النّعْمانِ

واستجداه شاعر بقصيدة فوقّع له في أسفلها:

يا مَن يُجَدّي لمن يُجَدّي[1]
أسرفت والله في التعدّي

(١) جدى: طلب الجدوى.

أنـــــا أُجـــــدّي الأنـــــامَ طـــــرًّا
وأنـــت تـبـغـــي الـنـوال عـنـدي

قال ابن إدريس: «فحدثني الشاعر المذكور أنه زاد بعد هذين البيتين:

نـسـبـت لـلـمـسـلـمـيـن آلـي
وكـان شـيـخَ الـيـهـود جَـدّي[1]

فلما وقف عليه الجراوي أجازه ورغب أن لا يسمعه أحد، وهنا غُلِبَ الحُطيْئَة وقُطِعَ لسانُه الطويل. وقال شاعر متحامق بمراكش يعرف بابن تلّيس يهجو الجراوي، وكان يجالس بني الشّحَمات:

بـنـو الـشّـحَـمَـاتِ أنـتـم خـيـرُ آل
وأكـرمُ مَـن تـسـامـى بـالـجـدود
أرى نـجْـلَ الـجَـرَاوي لـكـم جـلـيـساً
وحُـرّمـتِ الـشّـحُـومُ عـلـى الـيـهـود

والجزاء من جِنْسِ العَمَل، ومَن يقرع الباب يسمع الجواب. وهل ظنّ الجراوي أنه يبقى ينهش أعراض الناس، ويهتك حرماتهم، ولا يجد مَن يتطاول إليه، فيكيل له بكَيْله، ويسقيه بكأسه؟

ويظهر من كلامه أنه كان قوي النفس، شديد

---

(١) يشير بذلك إلى ما يقال من أن جراوة قبيلته كانت على دين اليهودية قبل الإسلام.

الشَكِيمَة، عظيم الجرأة، ولذلك لم يكن يُسلّم لأحد، وأطبق المترجمون له على وصفه بذلك، وقد رأيناه ينتقد الشعراء في حضرة الخليفة، ويُقْدِم على الكلام في تلك الأوساط الحافلة برجال العلم والأدب، مما يدل على اعتداده بنفسه كثيراً. ومما وقع له من هذا القبيل، أن الشاعر المُجِيد أبا بكر بن مُجْبر أنشد يوسف بن عبدالمؤمن قصيدة يهنئه فيها بفتح؛ منها:

إنّ خيرَ الفُتُوح ما جاءَ عفْواً

مثلَ ما يخطب الخطيب ارتجالا

وكان أبو العباس الجراوي حاضراً، فقطع عليه قوله وقال: يا سيدنا اهتَدَم بيت وَضّاح:

خيرُ شرابٍ ما كان عفْواً

كأنّه خطبةُ ارتجال

فبدَرَ يعقوب المنصور وهو حينئذ وزيرُ أبيه، وسنه قريب العشرين، وقال: إن كان اهتدمه فقد استحقه لنقله إياه، من معنى خسيس، إلى معنى شريف. فسُرّ أبوه بجوابه، وعجب الحاضرون.

وجواب المنصور هذا هو من قبيل قولهم: مَن استَرَقَ شيئاً واستَرَقّه فقد استحقّه، ويا أسفي! كم تضيعُ جهود المبتكرين عندنا ويُشجّعُ تقصير المقلّدين بمثل هذه الأقوال.

ويظهر أن ضلِعَ المنصور كان مع ابن مُجْبر، فقد وقع

أيضاً أن ابن مُجْبر أنشد المنصور قصيدته التي يصف بها المقصورة «الأوتوماتيكية» التي صنعها المنصور بجامعه من قصبة مراكش؛ ومنها:

طوراً تكونُ بمن حوَته محيطةً
فكأنها سُورٌ مِنَ الأسوارِ

وتكون طوراً عنهم مخبوءةً
فكأنها سِرّ مِنَ الأسرارِ

وكأنما عَلِمَتْ مقادِير الورى
فتصرّفَت لهم على مِقْدارِ

فإذا أحسّت بالإمام يزورُها
في قَوْمِهِ قامت إلى الزوّارِ

يَبْدُو فتبدُو ثم تخفى بعدَه
كتَكَوُّنِ الهالات للأقمارِ

فطرب المنصور لسماعِها، وارتاح لاختراعها، والتفت إلى الجراوي وكان يعلم قِلّةَ تسليمه لأبي بكر، وكثرةَ غضّهِ منه، فقال: سلّم له يا أحمد، ثم أنشده:

إذا لم تستطع شيئاً فَدَعْهُ
وجاوِزْهُ إلى ما تستطيع

ومن شواهد انتقاصه للشعراء، وانتقاده عليهم، ما حكاه صَفْوان بن إدريس عن ابن بَدَل الشريف المكي؛ أنه أنشده قصيدة منها قوله يصف غربته عن وطنه مكة شرّفها الله:

وقـائـلـةٍ أمـسـيـتَ مـن أرضِ مـكـة
بـعـيـداً فـلا أهـل لـديـك ولا تِـبـر
فـقـلـتُ لـهـا كُـفّـي الـمـلامَ وأقْـصـري
فـقـصـدي أمـيـر دون أخـمُـصـه الـنـسـر
أبو حفص النّدْبُ الرشيد[1] الذي له
سـحـائـبُ جـود جَـوْدُهـا أبـداً هَـمْـر

قال: «وحدثني أنه أنشد هذه القصيدة لأبي العباس القرائي (الجراوي) فأنكرها عليه، وهذا شأنه، فغدا على طلبة الحضرة بقصيدة منها:

فـــإن أكُ لا مـــالٌ لـــديّ فـــإنـــنـــي
أبـو بـكـر الـصـديـقُ جدي ولا فـخـر

فَبَكَّتَهُ».

وقال في القاضي الأديب أبي حَفْص عُمَر بن عبدالله بن عُمَر السّلَمي، وكان له فيما يَظْهر، بنتٌ أديبة شاعرة، يقال لها عَمْرة:

نَـبَـغَـتْ عَـمْـرَةُ بـنـت ابـنِ عـمـر
هـذه فـاعـتـبـروا إحـدى الـعِـبـر
قـل لـهـا عـنـي إذا مـا جـئـتَـهـا
قـولـةً تـتـرك صـدْعـاً فـي الـحـجـر

---
(١) هو الرشيد الموحدي وكان يلي إذ ذاك شرق الأندلس. (تعليق لناشر زاد المسافر).

هَبْكِ كالخنساء في أشعارها
أو كليلى، هل تُجارين الذكر؟!

فقال والدها في جوابه:

نهانيَ حِلْمي فما أظْلِمُ
وعزّ مكاني فما أُظلَمُ
ولا بدّ من حاسدٍ قلبُه
بنور مآثرِنا مُظلِمُ
هجَانَا الحسودُ ولسْنَا كما
يقولُ ولكن كما يَعْلَمُ

ومن قوله في هجاء الأستاذ ابن الياسَمِين الشهير وكان أسود:

إستُ الحُبارَى ورأس النسر بينهما
لونُ الغراب وأنفاسٌ من الجُعَل
خذها إليك بحكم الوزن أربعةً
كالنعت والعطف والتوكيد والبدل

وقد أجابه ابنُ الياسمين بقوله:

يا أعرق الناس في نسل اليهود ومَن
تأبى شمائلُه التفصيل للجُمل
خذها بحكم اجتماع الذم واحدةً
تُغني عن العطف والتوكيد والبدل

ومما يدل على شيطنته، وما كمَنَ في طبعه من حب

الأذى ما ذكره ابن سعيد في ترجمة ابن الياسمين قال: «وحكى أبو عمران الطّرْياني، قال: كنت في اليوم الذي أصبح فيه ابن الياسمين مذبُوحاً، عند الكاتب أبي الحسن بن عياش، فبينما أنا ألاعبه الشطرنج، إذ دخلت إليه أَمَةٌ له، وألقَتْ لديه براءةً عرّفته أن امرأة دفعته إليها، ورغبت منها أن توصلها إلى سيدها فقال: هذا وقتُكِ؟... ولم يلتفت إليها، قال: فقلت له: ولعل فيها ما لا يجب تأخيره! قال: ولعل، ثم أخذها وقرأها، فإذا بوجهه تغيّر، ثم ضحك ورمى بها إليّ وقال: انظر هذا الذي لا يجب تأخيره فقرأتها فإذا فيها:

هذا ابنُ حجّاجٍ تفاقم أمرُه
وجرى وجرّ لحد غايته الرّسَن
حتى غدا مُلْقًى ذبيحاً حاكياً
للناس رَقْدتَه إذا هجرَ الوَسَن
فلْيَحْذَرِ الكتّابُ ما قد غاله
وأخصّ بينهم الفقيهَ أبا الحسن

فقلتُ: ومَن تُرى قائل هذه الأبيات لعنه الله؟ قال: يا سبحان الله! وهل صاحبها غير الكراوي (الجراوي) الذي طبعه الله على ألاّ يُضيّع فرصة من فُرَص الإذاية؟ قال أبو عمران: ثم اشتهر بعد ذلك قول الكراوي (الجراوي) في تلك القضية مُعرّضاً بابن عياش:

فليحذر الكتّاب ما قد غاله
وأخص بينهم الفقيه أبا الحسن

فحصل التحقيق بأنه قائل ما تقدم.

وقال في ابن خِيَار الجيّاني، الذي سعى بابن عطية، وزير عبدالمؤمن، وبلغ عنده الغاية في الجاه بعد ذلك:

أيـا ابـنَ خِـيَـار بـلـغـتَ الـمَـدَى
وقـد يُـكْـسَـفُ الـبـدر عـنـد الـتـمـام
فــأيــن الــوزيــرُ أبــو جــعــفــر
وأيــن الــمُــقَــرّب عــبــدُالــســلام

يعني عبدالسلام الكومي، كان يقال له: المقرّب، لشدة تقريب عبدالمؤمن له، وقد ولي الوزارةَ بعد أبي جعفر بن عطية، فلم تمر الأيام حتى نكب.

نسب هذين البيتين للجراوي ابنُ سعيد المغربي، ونسبهما ابن الأبّار وابن إدريس لِلُبَيْكي الهجّاء المقْذِع المشهور.

ولما عظُم أمرُ ابن يُوجان في وزارته، أغرى المنصورَ بالجراوي وقال: إنه من أهل الشعر والهزْل، وما يليق بمجالس الخلافة إلا العلم والجد، فهُجر، ثمّ نُكِب ابن يوجان فهجاه الجراوي وأكثر، ومن قوله فيه:

لقد كنت تحكي في التجهُّم مالكاً[1]
وكانت بك الأحوال تحكي جهنّما
فما أعظم البُشْرَى بعَوْدِك خامِلاً
وغيرُك قد أضحى النبيّةَ المقدّما

(١) يعني: مالكاً خازن النار.

إلى غير ذلك من أهاجيه ومناقضاته.

ومن جيّد شعره قولُه في المنصور عند فتح قَفْصة، وانهزام ابن غانية الذي كان كَبَسَها على غِرّة:

عدوّكم بخطوب الدهر مقصود
وأمرُكم باتصال النصر موعود
ومُلْكُكُم مستمر ما له أمد
مُوقّت، دون يوم الحشر محدود
ألقَى على كل جبار كلاكِله
كأنه وهو في الأحياء مفقود
وَهَبْه عاش أليس الموتُ أروحَ من
عيش يخالطه هَم وتنكيد
أنحى الزمان على الأغزازِ[1] واجتهدت
في قطع دابرهم أحداثه السود
ونازعتهم سيوف الهند أنفسَهم
فلم يُفِدْهم عن الهيجاء تَغرِيد
فهم على التّرب صرعى مثله عدداً
إن كان يُقضى بأن التّرب معدود
إذا حَمَى الأسدُ الغضبانُ ناحيةً
لم يفترس ثعلبٌ فيها ولا سِيدُ

(١) جنس من الأتراك وكانوا من العناصر التي يتألف منها جيش ابن غانية.

وختمها بقوله:

رضـاكـمُ الـديـن والـدنـيـا وعـدلُـكُـمُ
ظـل ظـلـيـل عـلـى الإسـلام مـمـدود
دمتـم حـيـاةَ بـنـي الـدنـيـا ودام لـكـم
نـصـر وفـتـح وتـمـكـيـن وتـأيـيـد

ومنه قوله في عرب رِياح يستميلهم إلى خدمة السلطان؛ وهم من بني هلال بن عامر:

أحـاطـت بـغـايـات الـعُـلا والـمـفـاخـر
عـلـى قِـدَمِ الـدنـيـا هـلالُ بـنُ عـامـر
وزانـوا سـمـاءَ الـمـجـد بـدءاً وعـودةً
بـسُـمْـر الـقـنـا والـمـرهَـفـات الـبـواتـر
هـم الـمُـضَـرِيّـون الـذيـن سـيـوفـهـم
صـواعـقُ نـصـر تـنـتَـحـي كـل كـافـر
أوائـلـهـم فـي الـجُـود والـبـأس غـايـةٌ
وكـم تـركـوا مـن غـايـةٍ لـلأواخـر
وكـم فـيـهـمُ مـن مـثـل كَـعْـب وحـاتـم
وكـم لـهـم مـن مـثـل عَـمْـرو وعـامِـر
وكـم قـد أقـامـوا مـن عـروش مـوائـل
وكـم قـد أقـالـوا مـن جـدود عـواثـر

ومن محاسن صنعته قوله:

جـادُوا وصـالـوا وضـارُوا واخـتـبـوا فـهُـمُ
مُـزْنٌ وأُسْـدٌ وأخـقَـابٌ وأجْـبـال

إن سابقوا سبَقُوا أو حاربوا غلبوا
أو يـمّـموا وصلـوا أو أمّـلوا نـالـوا

وقوله في عكسه:

غُزُوا فما امتنعوا صالوا فما انتَفَعُوا
كَـرُّوا فـمـا دفَـعـوا فَـرُّوا فـمـا فـاتُـوا

وقال في مطلع قصيدة للناصر لما مرض:

اطـلـعَ الـدهـرُ مـنـك بـدراً مـنـيـراً
مــلأ الــسـبـعـة الأقـالـيـمَ نُـورا

ومن شواهد سرعة خاطر الجراوي، وحسن بديهته ما حكاه ابن إدريس قال: «حدثني بعضُ الطلبة بمراكش أن أبا العباس الجراوي كان في حانوت وزّاق بتونس، وهناك فتى يميل إليه، فتناول الفتى سوسنة صفراء وأومأ بها إلى خدّيْه مشيراً وقال: أين الشعراء؟ ـ تحريكاً للجراوي ـ فقال ارتجالاً:

وعُـلْـويّ الـجـمـال إذا تـبـدّى
أراك جـبـيـنُـه بـدراً أنـارا
أشـار بـسـوسـنٍ يـحـكـيـه عَـرْفـاً
ويـحـكـي لـونَ عـاشـقـه اصـفـرارا

قال ابن إدريس: «ثم سألني أن أقول في هذا المعنى» فقلت بديهاً:

أوْمَـى إلـى خـدّه بـسـوسـنَـةٍ
صـفـراءَ صيغت من وجنتيْ عبده

لـم تَـرَ عـيـنـي مـن قـبـلـه غُـصُـنـاً

سـوسـنُـه نـابـت إزاء وزْدِه

أعـمـلـتُ زجْـري فـقـلـت ربّـتـمـا

قـرّب خـدّ الـمَـشُـوق مـن خـدّه

وكان المذكور طلب من أبي بكر بن مُجْبَر مثل ذلك فقال على البديهة أيضاً:

لـي رشـأٌ وسـنـانُ مـهـمـا انـثـنـى

حـار قـضـيـبُ الـبـان فـي خـدّهِ

مُـذْ وَلـيَ الـحـسـنَ وسـلـطـانَـه

صـارت قـلـوبُ الـنـاس مـن جـنـدِهِ

أودع فـي وجـنـتـه زهـرةً

كـأنـهـا تـجـزع مـن صـدّهِ

وقـد تـفـاءلـت عـلـى فـعـلـه

إنـي أرى خـدي عـلـى خـدّهِ

قال ابن إدريس: «فتعجبت من توارد خاطرينا على معنى البيت الأخير». اهـ. بخ.

وامتُحن الجراوي في أواخر أيام المنصور، ضِمْن الجماعة التي امتُحنت مع الفيلسوف ابن رشد. ولا يذكر أحد ممن ترجموا له شيئاً عن هذه المحنة إلا أن الذين ترجموا لابن رشد وذكروا محنته، كلهم يوردون اسمه في لائحة الممتَحَنينَ معه بهذه الصورة (أبو العباس الحافظ الشاعر القراي).

وأبو العباس هي كنية صاحبنا، ووصفه بالحافظ معهود حتى أنه حلّي به في طالعة كتابه صفوة الأدب على ما مرّ بنا، وذلك لكثرة محفوظه من الشعر والأخبار، وأما الشاعر القراي فهو لقبه المشهور وإن كان نسبه فيه قد تحرّف من تلاعب النسّاخ كما قدّمنا في نظيره.

فبقي أنه الجراوي وأنه امتُحن مع ابن رشد لأنه كان من خاصته ومن الذين يخوضونَ فيما أُنكِرَ على ابن رشد، وهو أمر أَدْخَلُ في باب السياسة منه في باب الفلسفة، ولسانُ الجراوي طويل، وعدم ارْتِياح المنصور له معروف سبق ما يشعر به، فلا غروَ أن يقعَ في الفَخّ وتجري عليه المحنة التي جرت على مَن كان يرافقهم.

***

هذا وليس من شعر الجراوي هذان البيتان:

وبين ضلُوعي للصبابَةِ لوعةٌ
بحكم الهوى تقضي عليّ ولا أقضي
جنى ناظري منها على القلب ما جنى
فيا مَن رأى بعضاً يُعينُ على بعضِ

وقد وردا في البستان لابن أبي مريم، منسوبين لأبي العباس الجراوي، فأوهم أنه مترجمُنا وليس به، وإنما سبب هذا اللبس اشتراك صاحبهما مع المترجم في الاسم والنسب والكنية، وهو أبو العباس أحمد بن حسن بن سيّد الجراوي المالقي، ترجمه ابن الأبّار في التكملة وقال:

«قرأت بخط أبي الحجاج العبدري المعروف بالثّغْري وأخبرني أبو عبدالله التّجيبي عنه قال: أنشدنا صاحبنا الأستاذ النحوي؛ الفاضل أبو العباس المالقي؛ ويعرف بابن سيد لنفسه، وكتبه لي بخطه؛ ثم أنشد البيتين؛ وقد نبّه ابن الأبّار على أن ابن سيد هذا ليس هو الشاعر المعروف باللص، وذكره في تحفة القادم، ونبّه هذا التنبيه أيضاً وأنشد له البيتين.

وقد عَمّرَ الجراوي كثيراً كما قال ابن خلّكان: «وكان شيخاً مُسِنّا جاوز الثمانين، وتوفي في آخر أيام الأمير يعقوب بن الأمير يوسف» إلا أنه وَهِم في هذا فإن وفاته كما في ابن الأبّار كانت سنة ٦٠٩ بإشبيلية، بعد وفاة المنصور بنحو ١٤ عاماً. زاد في الأعلام، أنها كانت في ٢٧ صفر من تلك السنة، وأنه نُقِل إلى مراكش، فدُفن خارج باب الدبّاغين رحمه الله.

وقال ابن سعيد، أنه مات سنة ٦٠٣، بعد أن ذكر حضوره فتح المهدية، مع الناصر ورجوعه بصحبته إلى مراكش. ولا يصح ذلك؛ لأن رجوع الناصر من فتح المهدية، كان سنة ٦٠٤ على ما عند المراكشي في المعجب.



ميمون الخطابي
(ابن خبّازة)
(ت ٦٣٧ هـ)

لقبه الذي كان مشتهراً به، اسمه ونسبه، عصره، مكانته الاجتماعية، تعريف شخصي بقلمه، وفاته، شاعريته، نبذة من شعره، نموذج من نثره.

قد يكون في تسمية الشخص بالاسم الذي غلبَ عليه واشتهر به بين الناس تعريفٌ به وإعلام؛ يُغنيان عن كثير من الحِلَى والأوصاف يُترجَم بها ويُعَرّف، ولكن هذا ما دام ذلك الاسم معروفاً ومُتعالماً عند الجمهور، أما إذا أتى عليه النسيان، وصار من نَكِرات التاريخ، فلا حَرَج في إطلاق اسم آخر على ذلك الشخص، وذكره بغيره من نعوته وأوصافه.

وكذلك نحن قد أهملنا اللقب الذي اشتهر به مُترْجمُنا، وكان يدعى به في عصره وهو ابن خَبّازَة. وذكرناه باسمه الذي هو أحرى أن يُعرفَ به، لأن ذلك اللقب قد طُوِيَ مع صاحبه وصار رَهْناً بذمة التاريخ المنسِيّ، فهو لا

يُقدّم ولا يُؤخّر شيئاً في ترجمة هذا الشاعر الموهوب، لا سيما وهو لم يكن لقباً أصلياً له، وإنما تأدّى إليه من خاله الشاعر المشهور بابن خبازة؛ كما يقول مترجِمُوه، ولعله لم يكن يرضاه، بدليل أنه لم يُعرّج عليه في التعريف الذي كتبه بقلمه؛ ويأتي قريباً... على أن هذا الخال الذي كان شاعراً مشهوراً بابن خبّازة، هو نفسه قد عفّى عليه النسيان، فسبحان المنفرد بالبقاء!

وعليه فمُترجمُنا هو أبو عَمْرو، ويكنى أيضاً أبا سعيد ميمون بن علي بن عبدالخالق الخطّابي، نسبة إلى بني خطّاب؛ قَبِيلٍ من صَنْهَاجة، الفاسي نسبة إلى فاس، لأنه بها وُلِد، في تاريخ لا نَعْرِفه، ولا هو يعرفه أيضاً ـ كما سترى من كلامه ـ وبها نشأ. وأخذ عن مشايخها، ثم توسّع في الأخذ بغيرها عن غيرهم.

ومن المؤكد أن البيئة التي نشأ فيها، كان لها عليه تأثير كبير، فجده لأمه علي بن مَهْدي القَيْسي، كان أكبرَ مشايخه، وخالُه ابن خبازة كان شاعراً، فليس ببعيد أن يكون لخاله هذا، فضلٌ في تنشِئَتِه وتكوينه الأدبي؛ زيادةً على تأثير الدم والوراثة، فقد عَهِدْنا وراثةَ الشاعرية عن الخال من لدُن زمان المُهَلْهِل وامرئ القَيْس.

ثم إن العصر الذي عاش فيه الخطابي كان من أزهى عصور المغرب إن لم يكن أزهاها على الإطلاق علماً وأدباً وسياسةً، فيوسف بن عبدالمؤمن؛ مأمونُ الموحدين في مراكش، قد غُصّ بَلاطُه بالعلماء من كل طبقة: كالحكيم بن زُهر، وابن طُفَيل، وابن رُشد، وأمثالهم. وابن يعقوب

المنصور، وقد غزا الأندلس غَزْوَةَ الأرْك الشهيرة، فرفع رأس المغرب عالياً، ونشر له ذكراً داوياً بين أمم الأرض قاطبة، فهو جالس للتهنئة في جبل الفتح «جبل طارق» والشعراء ينشدون، فلا يتّسع الوقت لأكثر من بيت مفرد ينشده الشاعر من قصيدته، ويضع رُقعتَها أمام السلطان، ومع ذلك فلا يستتم عدد الشعراء حتى تحول الرّقاعُ بينه وبين الناس من كثرتها!

حياض العلم دافقة، وأشجار الأدب باسقة، والحضارة المغربية في عُنفوانها، والدولةُ مَنِيعَةُ الجانب، مُترامِيَة الأطراف بين إفريقيا وأوروبا، فالمغربي شامخ بأنفه، لشعوره بروح العظمة الاستقلالية بين جنبيه: حاكمُه منه، وقائدُه منه، وطبيبُه منه، ومِعْمَارِيّهُ منه، فكيف لا يُنشد ويُعجب، ويُغني ويُطرب؟

في هذا العصر نبغ ميمون الخطابي، فكان منه ذلك الشاعر الموهوب المتفوّق، ذو النفَس الممتد، والطبع المتدفّق. قال ابن القاضي: «كان سريع البديهة، ناظماً ناثراً، مع الإجادة والتفنُّن في أساليب الكلام، معرفةً وإتقاناً في هزْله وجِدّه على اختلاف اللّغات، وكان مع إتقانه في الشعر، مشاركاً في كثير من الفنون العلمية: كالفقه والحديث، على جانب من الفضل والصلاح لا يُنْكَر. وذكر ابن القاضي أنه كان يتولى حِسْبَة الطعام بمراكش، وهذه الولاية كما لا يخفى من خطط الشرع الشريف، فكان لا يُوَلاّها إلا مَن ومَن، وخصوصاً في عاصمة الدولة، فذلك ما يدلنا على عِظَم قَدْرِ الخطابي في مجتمعه، وشفوف منزلته في دولته.

وهذه العبارة التي نقلناها عن ابن القاضي مثلها للمقري في «أزهار الرياض»، نقلاً عن إشادَةِ العَزفي، ونصّ كلام المقري كلّه: «وقد عرّف (يعني العزفي) في إشادته بابن خبازة؛ ورأيت أن أذكر بعض ذلك فنقول: هو أبو عمرو ميمون بن علي بن عبدالخالق الخطابي، نسبة إلى قَبِيل من صنهاجة الذي بقُطر فاس، ويعرف بابن خبازة، نسبة إلى خاله الشاعر المشهور بابن خبازة. عرّف به ابنُ عبدالملك المراكشي فقال: كان بارع الخط، وكان من أكبر أعاجيب الدهر في سُرْعة البديهة، ناظماً أو ناثراً، مع الإجادة التي لا تُجارَى، والتفنُّن في أساليب الكلام مُعْرَبِهِ وهَزْله، على اختلاف اللغات، تطوّر كثيراً، وتصوّف ونسَك ووعَظ، وكان في آخر عمره جانحاً إلى امتداح ملوك عصره، فكان يأتي في ذلك بما لم يُسمَع بمثله، ولا يُطمَع في لحاقه، بسرعة ارتجال، وحسن افتنان، وسرعة امتثال، وله في ذلك أخبار غريبة عريقة، وَوَلِيَ بأخرة حِسْبَةَ الطعام بمراكش» وهذا الكلام كما اختصره ابن القاضي، فقد اختصره أيضاً وحرّفَه صاحبُ الأزهار، عَرَفنا ذلك بالوقوف على نصه الكامل، وصوابِه في رحلة ابن رُشيد بخطه، على أن التحريف قد يكون من الطبع لا من الأصل، وإليك جملتَه: «وكان أبو عمرو هذا؛ واسمه ميمون بن علي بن عبدالخالق الخطابي، نسبة إلى قبيلة من صنهاجة، الذين لنظر فاس، ويعرف بابن خبازة، نسبة إلى خاله الشاعر المشهور بابن خبازة؛ ويُعدّ أبو عمرو هذا في أهل إشبيلية، شاعراً مطبوعاً من كُبر

أعاجيب الدهر في سرعة البديهة، ناظراً أو ناثراً، مع الإجادة التي لا يجارى فيها، والتفنُّن في أساليب الكلام، مُعْرَبه وهزله على اختلاف اللغات، تطور كثيراً وتصرف في بعض الخِدَم السلطانية، وتصوّف أيضاً ونَسك ووعظ، وكان في آخر أمره جانحاً إلى امتداح ملوك عصره، فكان يأتي في ذلك بما لم يسمع بمثله، ولا يطمع في لحاقه، سرعةَ ارتجال، وحسنَ افتنان، وبراعةَ إنشاء، له في ذلك أخبار طريفة، واختيارات ظريفة، ومسالكُ لطيفة، وَوَليَ بأخرة حِسبةَ الطعام بمراكش».

فهذا كلام متحد اللفظ والمعنى، تواطأ عليه هؤلاء المؤرّخون من لدُن ابن عبدالملك، وابن رُشَيْد والعَزفي إلى المقّري وابن القاضي، وانظر أصله لمَن هو؟! وقول ابن رشيد «ويُعَدّ أبو عمرو هذا في أهل إشبيلية» إنما ذلك لمُقامه بها في صحبة مخدومه الخليفة المأمون الموحّدي، وكذلك عدّه ابن سعيد المغربي في شعرائها كما يأتي كلامه، وإلا فقد عرفتَ مغربيته التي لا ريب فيها، وهاك هذا التعريف الشخصي المفيد الذي كتبه الخطابي بنفسه، جواباً لمن سأله عن اسمه ونسبه، فمنه تعرف كثيراً من أحواله ودرجةَ تحصيله، أوْرَدَه في كتاب «مفاخر البربر» وهو على ما فيه من التصحيف:

أنا ميمون بن علي بن عبدالخالق الخطابي. وبنو خطاب في قبائل من المغرب والبربر، فبنو خطاب في صَنْهاجة، وفي هَسْكورة من مَلْزُوزة، وفي وَرْغَة من مَكْناسَةِ وَرْغَة، وفي غُمارة من صنهاجة الرّيف، وفي بني أبي عَدِي

بالحامّة، وأنا من الصّنهاجيين، فهذا النسب حِمْيَري يَمَني[1] قَحْطاني، وأما مَوْلدي فبمدينة فاس، قاعدةٍ من قواعد المغرب، وأكثر قراءتي بها على الجِلّة الذين لحقت، وأكبرهم جدّي من الأم علي بن مهدي القَيْسي، وعن الفقيه العالم الفاضل أبي الحسن بن حِرْزِهِم وتقول العامة: (ابن حرازِم) وصحب ابن دُوناس من كبار العلماء بها. وقرأت على جماعة في هذه الطبقة، وقرأت في سبتة على ابن عبيدالله الحَجري، سمعت الموطأ والبخاري، وكتاب السنن عليه، وقرأت بها الرسالة القُشَيريّة على أبي الصبر، وكانت له رحلة إلى المشرق والأندلس، ولحقت من الأندلس مَن لا أُحصيه كثرة، وأكبرهم شأناً أبو محمد القرطبي وأبو الحجاج ابن الشيخ البَلَوي، وقرأت بالمنكب على الفقيه القاضي ابن سَمجُون وكان عالي الرواية يحمل عن الحافظ أبي بكر بن العربي وعن ابن نفيس عن الطبري، بالحرَم شرّفه الله ولحقت من أصحاب شُريح المقرىء ثلاثة: أبا نَصْر التلمساني وابن حَسّون ببَيّاسَة، وابن المؤذّن بمالقَة، وأجازوني، وفي غرناطة جماعة من أقران أبي ابن كوْثَر، ومن أصحابه، وفي مُرْسيَة جماعة وبها تممت قراءتي على الفقيه القاضي أبي محمد حَوْط الله مدة كونه قاضياً بها، وقرأت بشاطبة على الحافظ أبي عُمَر بن عَات رحمه الله ولحقت بوادي آش الحافظ بن عُمَر شارح الموطأ بأحسن شرح رُئي، وفي إشبيلية لحقت بها من المتأخرين أبا الحسن بن زَرْقُون، ونظرائه، وفيها قرأت على أبي

---

(١) بالأصل: يسمى.

الخطّاب بن واجِب في أهل بَلَنسِيَة، وكان من أهل الرواية والفضيلة، وكتب لي أبو عبدالله بن نُوح من بَلَنسِيَة، وسمعت بمالقة خمسة أجزاء من تواليف أبي الربيع الكَلاعي على أبي الربيع المذكور، وكنت سمعت بها، فساقه الله وساقها إليّ، وقرّب القصد عليّ، وقرأت بشِلْب عن أبي فاروق الشارح قصيدة ابن عَبْدُون ما لِلّيَالي[1] ولحقت بها ابن عمر أحد الرواة بها، وقرأت في طبِيرة على صاحبي الحافظ ابن خَلْفون. وأما مَن لقيت وقرأت عليه من علماء الأدب وأئمة اللغة والشعر والنحو، ومن العلماء بطريق الآخرة أعني المتصوفة فممن[2] لا أحصيه كثرة. وأما سنّي فما أضبط تاريخه لكني أعلم أني في السبعين حقيقة. والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته».

وهذا التعريف هو مما ينبىء عن سعة رواية المترجم، وعلو سنده في علم الحديث والفقه، فضلاً عن الأدب والشعر وعلم العربية التي هي ناحيةُ تبريزه، وكذلك التصوف الذي يدل على رسوخه فيه (عَقْدُه) الآتي. وقد تصحّف اسم المترجم في مفاخر البربر أولاً، حيث ذكر هكذا: أبو عمر بن ميمون بن علي بن خطاب، ولا شك أن لفظة: (بن) هذه إنما وقعت موقع واو عمر من كُنْيَتِه، ولما ذُكِر ثانياً في التعريف جاء مطابقاً للصواب. وكتاب مفاخر البربر، عامر بالقلب والتخليط، فمثلاً في نفس الصفحة التي حرّف فيها اسم الخطابي قلب اسم الجراوي رأساً، من أحمد إلى

(١) بأصله ما من ليال.

(٢) بالأصل: ممن بدون فاء.

عبدالله وليس اسماً له، ولا لأبيه، ولا هو داخل في كنية أحدهما، فلا بد من التثبُّت فيه والتحرِّي.

ومن ذكر الخطابي أيضاً، ابن الأبّار في كتابه: تحفة القادم، أتى به في سياق من تركهم لأنه لم يجد لهم إلا هجاء ولفظه: «وأبو سعيد ميمون بن علي المعروف بابن خبازة. وتوفي برباط الفتح سنة سبع وثلاثين وستمائة» قال في الأزهار «وظَلَمَه» يعني بتركه لما ذُكر فإن له غير الهجو أشعاراً جيدة؛ يستحق بها أن يذكر ولا يترك، ولكن ابن الأبّار لم يقف عليها.

وذكره ابن سعيد المغربي في كتابه رايات المبرّزين مع شعراء إشبيلية فقال فيه: «ميمون بن الخبازة شاعر أبي العلاء مأمون بني عبدالمؤمن، نهض في خدمته من إشبيلية إلى مراكش وأظنه الآن حياً...» ثم ساق أبياتاً من شعره.

وكان قدوم المأمون لمراكش سنة ٦٢٧ بعد مبايعة أهلها له أولاً، ثم انتكاثهم عليه ومبايعة ابن أخيه يحيى بن الناصر، فلما قَدِمَها فَتَكَ فتكته المشهورة بأشياخ الموحدين وأعيانهم، ولم يزل في المُقِيم المُقْعِد من أمره حتى توفي آخر سنة ٦٢٩. وعاش الشاعر بعده إلى سنة ٦٣٧ حيث توفي في أولها بـ(الرباط) ودفن في (سلا) خارجاً عنها قِبْليّ قبر الشيخ إبراهيم أبي حاجة، ويعرف قبره الآن بسيّدي الخباز، وتسمى به إحدى أبواب المدينة.

ولقد كانت وفاته في زمن الرشيد ابن مخدومه المأمون، وهو قد أدرك زمن يوسف بن عبدالمؤمن،

والمنصور، فمَن دُونَهما، لأنه كما رأيت في تعريفه بنفسه، عمّر سبعين سنة ولربما زاد عليها كثيراً، إلا أنه في زمن يوسف كان غلاماً لم يكتمل بعد، فهل لم يخدم بشعره إلا المأمون، كما تفيده عبارةُ ابن سعيد؟

الظاهر أن ابن سعيد أخبر عن حاله لما كان بإشبيلية مع المأمون، ثم بعد ذلك أرخى لقريحته العنان، فكانه كما سبق عن ابن رُشَيد، جانحاً إلى امتداح ملوك عصره، ويأتي في ذلك بما لم يسمع بمثله، قال في الأزهار: «وقد كتب عن أبي عمرو هذا كثيراً من شعره؛ أبو عمرو بن سالم بن صالح النهرواني المالقي، الأديب المقيّد الضابط، وتاريخُ إجازته له سنة أربع وستمائة، ومات ابن سالم قبله بست عشرة سنة».

وقال ابن رشيد في رحلته: «أخبرنا الخطيب أبو الحسن بن عاصم جملة، وهذا المفصل فيها، أنا[1] الأديب أبو عمرو بن سالم كتابة، أنا[1] أبو عمرو ميمون بن خبازة ويكنى أيضاً بأبي سعيد كتابة بجميع نظمه ونثره ومنه...» وذكر أبيات القبّة التي سقطت على يحيى بن الناصر وستأتي. ومفادُ هذا الحديث أن شعر الخطابي ونثره كانا مجموعين، جمعهما ابن سالم هذا ورواهما الناس عنه، فعسى الأيام أن تُظفرنا بهما، وتُظهِرنا منهما على ثروة أدبية قلّ لها النظير.

***

---

(١) هو اختصار أخبرنا.

كان الخطابي شاعراً فحلاً، نهايةً في متانة الشعر وقوته، كأنما ينحَتُ الكلام من صخر؛ ويُفرِغهُ في قالب الإجادة والإحسان، ثم يُخرِجُه وقد تحوّل إلى صور شعرية عالية النظم والتركيب، سامية المغازي والمقاصد... ولم يصل إلينا من شعره شيء كثير بل ولا القليل الذي فيه مَقْنَع، ولكن مع ذلك فإن بيدنا له قصيدتين من الطّوال الجِيّاد، ومقطوعات أخرى نستطيع منهما أن نتعرف نفَسَه، ونتبين طريقتَه، فنحكُم عليه، فلا يكون في حكمنا زيغ عن الحقيقة ولا مخالفة للواقع.

وإحدى هاتين القصيدتين، في المديح النبوي تُنِيف عن المائة والخمسين بيتاً، وهي آية من آيات البلاغة وسحر البيان، يقرأها الإنسان فيحس أنه يقرأ لأحد كبار الشعراء المتمكنين من نواصي الكلام، والمتصرفين في ضروب القول؛ كالمتنبي وأبي تمّام ونظرائهما. وعلى طولها فإن نفَسه لم يتخلّف في بيت واحد من أبياتها، وأسلوبُه فيها من البدء إلى الختام مُتساوِق مُتناسِق، لا يضعف ولا يتفكك مما يدل على وُفور مادته وقوة ملَكَته. وها هي ذي بتمامها:

حقيقٌ علينا أن نُجيبَ المعاليا
لِنُفْنيَ في مدح الحبيب المعانيا

ونجمَعَ أشتاتَ الأعاريض جِسْبةً
ونحشُر في ذات الإله القَوافيا

ونَقْتَدّ للأشعار كلّ كَتِيبة
لنصر الهدى والدين تُردِي الأعاديا

فـألـسُـنُ أربـاب الـبـيـان صـوارمٌ
مَضارِبها تُنسي السيوف المواضيا
لِنُطلع من أمداح أحمد أنجُماً
تلوح فتجلُو من سناه الدياجيا
كواكبُ إيمان تلوح فيهتدي
بأنوارها من باتَ يُدْلِجُ ساريا
سهوتُ بمدح الخلقِ دهراً وهذه
سجُودٌ لِجَبري كلّ ما كنتُ ساهيا
فلا مدحَ إلا للذي بمديحه
تُطيعُ إذا ما كنتَ بالمدح عاصيا

***

رسول بَراهُ الله من صفو نوره
وألبسه بُرْداً من النور ضافيا
وما زال ذاك النور من عهد آدمٍ
يُنِيرُ به الله العصورَ الخواليا
ثوى في ظهور الطيّبين يصُونه
وديعةً سِرّ صار بالبعث فاشيا
وخَصّ بُطُونَ الطيّبات بحمله
ليحمل فَرْعاً للسيادة زاكيا
به وزَنَ اللّهُ الخلائق كلهم
فألفاه فيهم راجحَ الوزن وافيا

وأنـقَـذَنـا مـن نـاره بـظـهـوره
ولـولاه كـان الـكـل بـالـكـفـر صـالـيـا
وآدمُ لـمـا خـافَ يُـجـزى بـذنـبـه
تـوسّـل بـالـمـخـتـار لـلّـه داعـيـا
فـتـاب عـلـيـه الله لـمـا دعـا بـه
وأدنـاه مـنـه بـعـدَ مـا كـان نـائـيـا
وقد يهجُر المحبوب في حالة الرضا
ويـأبَـى الـهـوى أن لا يُـصـدّق واشـيـا
(وعين الرضا عن كل عيب كليلةٌ
ولكنّ عين السّخْط تُبدي المساويا)
وأدركَ (نـوحـاً) فـي الـسـفـيـنـة رعيُه
فـخـلّـصـه إذ كـان فـي الـمـوج جـاريـا
ومـا زال (سـامٌ) وهـو ثـاوٍ بـظـهـره
عـلـى أخـويـه بـالـفـضـائـل سـامـيـا
فـخُـصّـصَ حـتـى بـالـمـكـان كـرامـة
وأسـكـن فـي أعـلـى الـبـلاد مَـراقـيـا
فـأنـزلَ (حـامٌ) بـالـجـنـوبِ مُـجـانِـبـاً
و(يافِثُ) في أقصى الشمال مُواريا
وأُنْـزِلَ (سـام) لـلـفـضـيـلـة وحـده
بـأوسـط مـعـمـور الـبـلاد الأعـالـيـا
وبـادرَ جـبـريـلُ الـخـلـيـلَ لأجـلـه
لِـيـخـمِـيـه إذْ أبـصـر الـجـمـرَ حـامـيـا

ويَخبُر في وقت البلاء يقينَه
فصادف وِرْدَ الخُلّة العذبَ صافيا
فقال له هل تسألنّ كفايةً
فجاوبه حسبي بربي كافيا
فكانت عليه النار بَرْداً كما أتى
به وسَلاماً وهي نار كما هيا
وجازاهُ في الإسراء عنها نبيّنا
وألهمَها فوق السماوات ساريا
فلما انتهى جبريلُ عند مَقامِه
بحيث يرى نُوراً وحُجْباً عواليا
أشار على المختار أنْ سِرْ فإنه
مقامي فلا أعدُوه ما دمتُ باقيا
فناداهُ يا جبريلُ هل لك حاجة
إلى الله فاسألها لتُعطى الأمانِيا
فقال له سَلْهُ لأبسط رغبةً
على النار مني للعُصاة جناحيا
فدُلّيَ في أُفُقِ المهابة رفرفٌ
وزُجّ بُراقُ العزّ في النور راقيا
ومن أجله خصّ الذبيح فِداؤه
وفي ظهره المختارُ أصبح ثاويا
فداه بِذبْح عظّمَ الله شأنه
لأنْ كان دهْراً في الفراديس راعيا

وثنّى بعبدالله حامل فضله
فكان بذاك الفرع للأصل واقيا
لذلك ما قال الرسول منبّهاً
أنا ابنُ ذَبِيحَيْها يعُدّ المعاليا
وعفّ أبوه إذ دعته لنفسها
فتاة رأتْ نورَ النبوءة ضاحيا
مضى ولذاك النور بين جبينه
شُعاعُ سَنا يُعشي العيون الروانيا
فأعرض عنها ثم صار لشأنه
وكان له الرحمٰن بالحفظ واقيا
وعاد وقد أدّى أمانة ربه
لأمّته وعداً من الله ماضيا
ومرّ على حيّ الفتاة فنُوديت
هلُمّي تصادِفْ لوعةُ الحب راقيا
فقالت لهم قد كان ذاك مرّةً
لأمْر عصيْنا في هواه النواهيا
أردتُ بأن أعطَى سناه وقد قضى
لغيري به مَن كان بالحق قاضيا
وكم طالبٍ ما لا ينالُ وقاعدٍ
سعادته تُبْدي له السؤل دانيا

* * *

وكم شاهدت من آية أمّه به
يصير بها جِيدُ الديانة حاليا
رأت في معاليه مرائيَ جمّة
وصدقت الآثارُ منه المرائيا
وقيلَ لها بُشْراك فزتِ بخير من
يُرى فوق أكناف البسيطة ماشيا
وحفّتْ به الأملاك في حين وضعه
بليلةِ إفْضال تَزِين اللياليا
وبشّرَ رضوانُ الجنانَ بخَلْقه
ففتّح جناتِ النعيم الثمانيا
ونادى منادي العز طوفوا بأحمدٍ
جهاتِ الدّنا طُرّا وعُمّوا النواحيا
بدا واضِعاً كفيه بالأرض رافعاً
لعينيه نحوَ الأفق بالطّرف ساميا
وأغوَلَ إبليسُ اللعين وقال قد
يئست وقد ما كنت للكفر راجيا
وسار إلى صنعاء شيبةُ جده
فحلّ محلاً للوفادة قاضيا
وحيا بغُمدان ابنَ ذي يَزَن بها
وهنّأه بالملك إذ عاد واليا
فقرّبه دون الوفود وخصّه
ليسمع قولاً في الرسالة شافيا

وقـال لـه إنـا وجـدنـا بـكُـتْـبِـنـا
نـبـيـاً يـرى فـي نـحـو أرضـك دانـيـا
يـمـوتُ أبـوه ثـم تـهـلِـكُ أمّـه
ويـكـفُـلُـه بـعـضُ الـعـمـومـة كـافـيـا
وقال لـه والبيتِ ذي الـحُـجْـب زاره
وفـودُ الـورى جـابـوا إلـيـه الـفـيـافـيـا
لأنتَ على ما يقتضي الوعدُ جدّه
فـشـيّـدْ بـه لـلـمـجـد مـا كـنـتَ بـانـيـا
وقـال لـه احْـفَـظْ مـا أقـول فـإنـه
سيملكُ أرضي إذ أرى الملك واهيا
وقـولُ هِـرَقْـلٍ إذ أظـلّ زمـانُـه
يـقـول أرى مُـلْـكَ الـخِـتـان مـوافـيـا
وطـالـع فـيـه مـصـحـف الأفـق نـاظـراً
كـمـا زعـمـوه يـسـتـشـيـر الـدراريـا
فـلـم تـنـقـضِ الأيـامُ حـتـى أتـى لـه
كـتـاب رسـول الله لـلـحـق داعـيـا
فـبـاحـث عـنـه أهـلَ مـكـة سـائـلاً
وكـان بـأوصـاف الـنـبـوة داريـا
ولـبّـى الـهـدى لـمّـا دعـاه جـمـالـه
وهـام قـلـيـلاً ثـم أُلـفِـيَ سـالـيـا
ووِرْدُ الـرضـى لا يـهـتـدي لـسـبـيـلـه
فـيـروَى بـه مَـن كـان فـي الـبِـذء صـاديـا

وإيوانُ كسرى اهتزّ ليلةَ وضعه
ويـاتَ عليه قصرُه متداعيا
وزاد برؤيا المُوبِذان ارتياعُه
فأذهلَه أن يستبين المساعيا
وفسّرها (شِقٌّ) وشقّ غُبارَه
سَطِيحٌ بسَجْع قصّ ما كان رائيا
فنصّ على إرسال أحمد مُثبتاً
لِدِين الهُدَى بالرغم للكفر ماحيا
وأُخمدتِ النيرانُ نيرانُ فارس
وكانت تَلَظّى ألفَ عام تواليا

* * *

وحُمّلَ ذاك الحِلْمُ حِجْرَ حليمة
لتُرضعه دَرّ الفضائل صافِيا
أبَى حملَه النسوانُ لليتم وانبرت
له فرأت من حِينها الرزقَ ناميا
فحازت به السبقَ الأتانُ كرامةً
وأخصب مرْعاها ففاق المراعيا
وشارِفُها إذ لا تَبِضّ بقَطْرة
فصارت به ثجًّا تُروّي الصواديا
وفي حيها وافاه جبريل قاصداً
وأقبل ميكائيلُ بالأمر تاليا

فشقّا به صدرَ النبيّ لشَرْحه
فكان لما يُلقِي لهُ اللّهُ واعِيا
وردّاه في الحين التئاماً فما ترى
سوى أثر ما زال للشرح باقيا
وجاءا بمَنديل وطَسْت ليغسلا
بماء الرضا قلباً عن الله راضيا
وعاد أخُوه فازعاً مُخبراً بما
جَرَى من مَخُوف كان للأمر جاريا
فسارت به من حينه نحو أمّه
تخافُ عليه إن أقام العواديا
وما زال محروساً أميناً مُؤمناً
سبُوقاً صدُوقاً ساميَ القدر عاليا
حَيِيًا وفيًا خاشعاً مُتَواضِعاً
كريماً حليماً يستفزّ الرواسيا
وفي سيره للشام شامَ بقُربه
بُروقَ الهدى من لم يكن قط رائيا
أكبّ عليه في طريقِ مسيره
إليها (بحيرا) للهُدَى متراميا
ولما رأى تلك العلامةَ لم يزل
لِما وافقَ الكُتبَ القديمةَ باكيا
وكانت به من عِلّة الشوق غُلّة
فساق له منها الطبيب المداويا

وقـصـتُـه فـي ذا الـمـجـاز وعـمّـه
بـه ظـمـأ قـد صـيـر الـصـبـرَ فـانـيـا
فـأهـوى ولا مـاءٌ إلـى الأرض راكـضـاً
فـفـجّـر يـنـبـوعـاً مـن الـمـاء جـاريـا
وكـمْ بـانَ مـن يُـسْـر لِـمَـيْـسـرةٍ بـه
يـردّ أخـا سُـكْـر الـغَـوايـة صـاحـيـا
فـكـان إذا اشـتـدّ الـهـجـيـرُ أظـلّـه
غَـمَـام عـلـيـه لا يـزال مـمـاشـيـا
وأخـبـره نَـسْـطُـورُ بُـصْـرى بـبـعـثـه
فـأظـهـر مـن غـيـب الـرسـالـة خـافـيـا
* * *
وبُغّضت الأصنامُ للمصطفى فلم
يـزل هـاجـراً فـعـل الـضـلالـة قـالـيـا
وكـان يـرى ضـوءاً يـلـوح لـعـيـنـه
ويـسـمـعُ تـسـلـيـمـاً عـلـيـه مـحـاذيـا
ويـأتـي حِـراءً لـلـتـحَـنُّـثِ قـاصـداً
مـحـبـاً لأسـبـاب الـوصـال مـراعـيـا
ويـخـرجُ مـن بـيـن الـبـيـوتِ لـعـلّـه
يـحَـدّثُ عنه النفسَ في السر خـالـيا
وكـان رآه الـلّـهُ أكْـرَمَ خـلـقـه
فـأرسـلَـه بـالـحـق لـلـحـق هـاديـا

وأسْرَى به ليلاً إلى حضرة العلا
فما زال فيها للحبيب مناجيا
وسار على ظهر البُراق كرامة
له راكباً إذ سار جبريل ماشيا
ولما أتاهُ الوحيُ وارتاع قلبه
لشدة ما قد كان منه ملاقيا
فسارت به عمداً خديجةُ زوجُه
لتسألَ حَبْراً بالزّمانة فانيا
وكان امرأً قد مارس الكُتْب قارئاً
وباتَ لضِيفَانِ المعارف قاريا
فبشّره أنْ سوف يطلعُ صبحهُ
فيكشِفُ من ليل الغواية داجيا
وقال له يا ليتني كنتُ حاضراً
بها جَذعاً أُولِيكَ نفسي وماليا
ووقتُك إن يُدرِكْ زماني يومَه
ومَن لي به أنصُرْك نصراً مواليا

* * *

وآيتُه في الغار إذ نَزَلا به
وكان له الصدّيقُ بالصدق ثانيا
وقد أرسل الله الحمامَ وشيّدت
من النسج أيدي العنكبوت مبانيا

فـدافـع عـن صـدّيـقـه ورسـولِـه
بـأضـعـفِ أسـبـابِ الـوُجـود مُـقـاويـا
وكـم آيـةٍ خـصّـت سُـراقـةَ إذ مـشـى
عـلـى أثَـرِ الـمـخـتـار لـلـغـار قـافـيـا
فـشـاهـد آثـاراً مـن الـخَـسْـف كـاد أن
يـكـون لـقـارُونَ الـسّـفـاهِ مـواخـيـا
ولـمـا دعـا بـالـهـاشـمـيّ أجـارَه
فـأبْـصـرَه فـي الـحـين من ذاك نـاجـيـا
وأصـحـبـه مـنـه (ظَـهِـيـراً) مُـكـرّمـاً
بـخـط أبـي بـكـر يُـخِـيـف الـدواهـيـا
وأخـبـره أن سـوف يـفـتـحُ أمْـرَهُ
مـدائِـنَ كِـسْـرَى والـبـلادَ الأقـاصـيـا
ويُـجْـعَـلُ فـي كـفّـيْـه من بـعـد فـتـحـهـا
سِـوارَاهُ مـمـا يُـحـرِزُ الـديـنُ سـامـيـا
فـأخّـرهـا الـفـاروقُ فـي حـين فـتـحـهـا
لـه عِـدَةً بـالـصـدقِ فـيـهـا مـبـاهـيـا
وآيـتُـهُ فـي خـيـمَـتـيْ أُمّ مَـعْـبَـد
وفـي الـشـاة إذ لـم تـبقَ تـصـحَـب راعـيـا
وفـي الـذيـب إذ أقْـعى وأخـبر مُـفـصـحـاً
عن الـمـصـطـفى والـذيـبُ ما زال عـاويـا
وفـي الـضـبّ لـمـا أنْ دعـاه أجـابـهَ
وقـال لـه لـبّـيـكَ لـبّـيـكَ داعـيـا

وآيتُه إذْ فارقَ الجِذْعَ فضلُه
فحنّ إليه الجِذْعُ بالحال شاكيا

وإنّ انشقاق البدر أعظمُ آية
تدلّ على مَن كان للدين راويا

وفي الجمل الآتي بحضرة صحبه
ليشكُوَ تكليفَ المشقّة راغيا

وقصتُه في المخل لما دعا لهم
فأبصرْتَ سُحْباً كالجبال هواميا

وسالَ به وادي قَنَاة لأجله
ثلاثين يوماً لم يزل متواليا

وفي قصّة الزّوراء للخلق آية
وذكرى لعبد كان للذكر ناسيا

دعا بإناء ليس ينقَعُ ماؤه
لقلّتِه بالرّيّ من كان صاديا

ففاضَ نميرُ الماء بين بَنَانِه
وكان وَضُوءاً للكَتِيبة كافيا

ورَكْوتُه يوم الحُدَيْبِيّة التي
أفاضَ بها الله البَنَانَ سواقيا

وإشباعُهُ الجمّ الغفيرَ بقَبضة
من التّمْرِ حتى شاهدوا التمرَ باقيا

وإخبارهُ بالشيء مِن قبل كونه
فيأتي على النص الذي قال حاكيا

فـأخـبـرَ ذا الـنّـوريْـن أن سـيُـصـيـبَـه
على الأمر بَلْوَى تعقِبُ الأمر واهيا
وأخــبــرَ عــمّــاراً بــأنّ حــيــاتــه
سيقطعها بالقتل من كان باغيا
وقال لذي السّبْطين أشقى الورى الذي
سيَخْضِبُها من هامة الرأس داميا
يصادفُ نورَ الشيب أبيضَ ناصعاً
فيسقيه صِرْفَ الحتف أحمر قانيا
ونص على السبط الشهيد بكَرْبلا
فقام له الدين الحنيفيّ ناعيا
وفي الحسَن الزاكي أبانَ بأنه
سيصلح بين الناس للأجر ناويا
وقــال لــقــوم إن آخــرَكــم بــهــا
مَمَاتاً سيصلى فاحمَ الجمْرِ حاميا
وقال إذا ما مات كسرى فما ترى
سَمِيًّا له أخرى الليالي مُساميا
وأخبر عن موت النّجاشيّ حينَه
وبينهما بحرٌ من المَوْج طاميا
وقال على قُرْب الحِمام لبِنْتِه
تَمُوتين بعدي فافْرحي بلقائيا
وآيتُه جلّتْ عنِ العَدّ كثرَةً
فما تبلغُ الأقوالُ منها تناهيا

وأعـظـمُـهـا الـوحـيُ الـذي خـصّـه بـه
فـبـلّـغ عـنـه آمِـراً فـيـه نـاهـيـا
تـحـدّى بـه أهـل الـبـيـانِ بـأسـرهـم
فـكـلّـهـم ألـفـاهُ بـالـعـجْـزِ وانـيـا
وجـاء بـه وحـيـاً صـريـحـاً يـزيـده
مـرُورُ الـلـيـالـي جـدّةً وتـعـالـيـا
تـضـمّـن أحـكـامَ الـوجـود بـأسـرهـا
وعـمّ الـقـضـايـا مُـثـبـتـاً فـيـه نـافـيـا
وأخـبـر عـمـا كـان أو هـو كـائـن
يُـرى مَـاضـيـاً أو مـا يـرى بـعـد آتـيـا
ووافـقَ أخـبـارَ الـنـبـيّـئـيـن كـلّـهـم
وتـمّـم بـالـغـايـات مـنـهـا الـمـباديـا
ومـا كـتـبَـتْ يُـمـنـاه قـطّ صـحـيـفـةً
ولا رِيء يـومـاً لـلـصـحـائـف تـالـيـا
عـلـيـه سـلامُ الله لا زال رائـحـاً
عـلـيـه مَـدَى الأيـام حـقـاً وغـاديـا

القصيدة الثانية في رثاء ابن الوزير أبي بكر ابن الجَدّ وتعزية والده، وهي أيضاً من بدائعه التي تدل على افتنانه في التعبير، وحسن تصرفه في المعاني الشعرية وقال ابن رُشَيْد فيها: إنها «من قصائده المشهورة بل من عجائبه المأثورة» وهي هذه:

أرَجّة الـصّـعْق يومَ النفخ في الـصّـور
أم دَكّة الطّوْدِ يومَ الصعْق في الطور

أم هدّةُ الأرض إظهاراً لما زجرَت

به الخليقةَ من إيقاعِ محذور

أمِ الكواكبُ في آفاقها انتثرت

وباتَتِ الشمْسُ في طيّ وتكوير

ما للنهار تعرّى من ثياب سَنَا

وشابَهَ الليْلَ في أثوابِ ديْجور

قد كان للصبح طِرْفٌ زانه بَلَق

مُقسّم الخلق بين الدّجْن والنور

فما المُلِمّ الذي غشّى بدُهْمتِه

أدِيمَهُ عَنْبراً من بعد كافورِ

اصِخ لتَسْمع من أنبائها نبأً

يطوي من الأنس فيها كل منشور

وانظُر فإن بني عدنان ما حُشِرُوا

إلا لرُزْءٍ عظيم القدر مشهور

وافى مع العيد لا عادت مضاضتُه

فشابَ سَلْسَالَه الأصفى بتكدير

وأعتام داراً لها في السبق جمهرةٌ

من المفاخر أزرت بالجماهير

رمى قُرَيْشاً فأصمى سهمُ حادثه

أبْناء فِهْر بتفريق المقادير

فخانها الجدّ في ابن الجدّ يوم قضى

وأثّر الخطبُ فيها أي تأثير

لله والـمـجـدِ مـا أبـقـاه مـن أثـر
أخرى الليالي بطِيب الذكر مأثور
نَـوّارَة عـنـدمـا راقـت بـدَوْحـتـهـا
أهْوَت إلى التـرب من بين النواوير
جارَ الذبُول عليها عندما ملأت
مَعَاطِس الدهر من طيب وتعطير
وسيفُ بأس لكسر الخطب أغمده
صرْفُ الحوادث فيها بعد تكسير
قضى فرافَق شهرَ الصوم مرتحلا
ووافق الشهرَ في فضل وتطهير
واختاره خاطبُ الخطب الملم به
للصّهْر كفؤاً فأمضى العقد للحُور
فسار للحُسْنِ مسروراً وخلفنا
للحُزْنِ فاعْجَب لمحزونٍ بمسرور
ناديتُ أنجَشَةَ الأحزان يوم حدا
أظعَانَ قلبي رِفْقاً بالقوارير
فالوجد والحزن من دمعي قد اقتسما
قلبي وجفني بمنظوم ومنثور
فالقلب بالغيظ في تصعيد مُستعر
والجفن بالفيض في تصويب ممطور
وسائقُ الخطب يشدُو الحاملين له
يسوقهم سوقَ حادي العِير للعِير

ولـلـمـلائـك فـي آفـاقـهـا زَجَـل
قـد شـيـعـتـه بـتـهـلـيـل وتـكـبـيـر
ثَنى المصابُ على شيخ الجزيرة في
عـقْـد وحـلّ وتـقـديـم وتـأخـيـرِ
ذاق الـرزايـا عـلـى مـقـدار مـنـصـبـه
والابـتـلاءُ عـلـى قَـدْرِ الـمـقـاديـر
يا دهر حملتَه وقعتَ الخطوب ولم
تـزل تُـنـفّـذ عـنـه كـلّ مـأمـورِ
أردت بـالـصـبـر عـنـه أن تـقـيـم لـنـا
بـرهـان تـقـديـمـه لـلـخَـيـر والـخِـيـر
يا عامر الترب كم خلفت من كبد
ومـن فـؤاد بـشـاوي الـحـزن مـعـمـور
لو كُنتَ تُحمى وتُفدَى للعلا ابتدرت
آلافُـهـا بـالـقَـنـى أو بـالـقـنـاطـيـر(1)
وإنـمـا الـمـوت حـكـم لـيـس يـدخـلـه
نـسـخ لـخـلـق وعـدلٌ دون تـجـويـر
يقضي على الأسْد في الآجام حاكمه
وفي الكِناس على البِيض اليَعافير

---

(1) القنى جمع قناة، وهي الرمح. والقناطير المال الكثير، جمع قنطار.

ويمتطي الشّهب في شُمّ الجبال كما
في الوَكْرِ يعتامُ أفراخَ العصافير
أعْظِمْ بآيته من آية عظُمت
فليس تُدْرَك في حال بتفسير
فسلّم الأمْرَ فالأقدارُ قد نفذت
وكلّ شيء بتدبير وتقدير
ما فقرُ ذي الفقرِ عن جهل وعن كسل
ولا غنى المرء عن كَيْس وتشمير
ولا الحِمامُ بنقص في المزاج ولا
ضعفُ الطبيعة عن أسباب تدبير
فكم صحيح قضى فيها بلا مرضٍ
وكم مريض أقامته لتعمير
فاسمع بقلبك فالأشياء ناطقة
وألسُنُ الحال تُغْني كلّ نِحرير
مقدمات الليالي طالما فضحت
نتائجُ الغدر منها كل مغرور
جمعُ السلامة معدوم الوجود بها
فكم بها للردى من جمع تكسير
والكون طِرْسٌ وهذا الخلقُ أحرُفه
والحرْفُ ما بين ممحوٌ ومبتور
والدهر يُعرب والأفعال يظهرها
طوعاً ويُعجِمُ منها كل مسطور

وإنما الخلق أسماء تعاورَها

إعرابه بين مرفوع ومجرور

وكلّهم في مدى الأعمار تحسبهم

كحالِها بين ممدود ومقصور

والموت مثل عَروضيّ يُقطّع من

أبياتهم كلّ موزون ومكسور

يا مَن يؤمّلُ أن يبقى وقد نفضت

أيدي المقادير من إبرام تقدير

هذي الحقيقةُ لا ما حدثتك به

آمالُ نفسك عن دنياك من زُور

لا تخدعنك الليالي إن فتنتها

كادت فكادتْ تُجيز كلّ محذور

كم باكرت بعَبُوس الخطب من مَلِك

قد كان بالبِشر وضّاحَ الأسارير

سائل بكِسْرى مليك الفرس هل تركت

له المنايا جناحاً غير مكسور

وانزلْ بصنعاء في قصر ابن ذي يزَن

تُلمِمْ بقصر على الأغيار مقصور

واعبر على حِيرَة النّعمان معتبراً

تعبُر بأطلال نُعمى ذات تغيير

وأين مَن كان سجنُ الجن في يده

والأنسُ والجنُ في قهر وتسخير

وأيـن مُـخـتـرقُ الـدنـيـا بـعـزمـتـه
يَطوي البلاد معاً طيّ الطوامير[1]
بـادوا فـلـيـس بـهـا بـادٍ يـحـسّ بـه
مـنـهـم وأفـنـاهـم رَيْـبُ الـدهـاريـر

* * *

هـو الـقـضـاءُ أبـا بـكـر أصـبـتَ بـه
فـاصـبـر وسلّـم لـه تـسـلـيـم مـأجـور
والله يـحـرُس عـلـيـاكـم ويـدْفَـعُ عـن
سـامـي مـعـالـيـك أنـواع الـمـحـاذيـر

ومن قوله يهجو المهدي بن تومرت، حيث تبرأ منه الخليفة المأمون وأبدى مساويَه، وأسقط اسمه من الخطبة:

وجَـدَ الـنـبـوءَةَ حُـلّـةً مـطـويّـةً
لا يـسـتـطـيـع الـخـلـقُ نـسْـجَ مـثـالـهـا
فـأسـرّ حـسْـواً فـي ارْتِـغـاءٍ يـبـتـغـي
بِـمِـحـالـه نـسْـجـاً عـلـى مِـنـوالـهـا

وذكر ابن سعيد أنه لما زحفَ أبو العلاء ـ وهو المأمون ـ إلى ملاقاة يحيى بن الناصر مُدّعي الخلافة بمراكش؛ وبادر العربُ إلى قُبّتِهِ الحمراء فقطعوا أسبابها وسقطت قال قصيدة منها:

---

(١) جمع طومار، وهي الصحيفة.

أنظُرْ إلى القبة الحمراءِ ساقطة
لما رأت مُضَرَ الحمراءِ من كثَب
مَن كان أولى بها إن كانت ذا بصر
العُجْمُ أو مَعدِنُ العليا من العرب
وإنما سجدت لما سهتْ وغدت
فوق التراب فكانت أعجب العجب

وهذا المعنى الذي احتوى عليه البيت الأخير هو من توليداته العجيبة، وقد وقع له في القصيدة النبوية المتقدمة في البيت السابع منها ولطرافته فهو لا يزال يردده، وقد ذكر هذه الأبيات أيضاً ابن رُشَيْد في الرحلة. ثم قال ابن سعيد وأنشدني الرئيس أبو عبدالله بن الأبّار في مَلِك قصُر عمره، وكثرت فوائده قوله:

كأنّ عُمْرَكَ من جنس البلاغة قد
طالت معانيه والألفاظُ في قِصَر

ويشبه أن يكون هذا البيت من قصيدة في رثاء مخدومه المأمون، فإنه لبث في الخلافة عامين ونيفاً، وكان ذا عزيمة نافذة، لولا مُعاكَسةُ الأقدار له لأحْيَا دولة بني مؤمن والأمر كله لله. ومن شعره في النسب:

هبّ النسيمُ ضحى ففاح المَنْدَلُ
وتأرّجَتْ منه الصّبا والشمْأل
أسرى عليلاً فاستحتّ إلى الصّبا
صَبًّا بأنفاس الصّبا يتعلل

يهوَى الغدير وساكنيه ومَن له

لو كان يدنو منه ذاك المنزل

ما شامَ برقاً بالغَضا إلا انبرى

شوقاً على جمْر الغضا يتململ

والبرقُ في نقْع السحائب سيفه

سيف الكَمِيّ إذا يكُرّ ويحمِل

فكأنّ ذاك البرقَ واشٍ قد مشى

بنميمة، والرّعدُ لاحٍ يعذِل

وأنا الفِداءُ لجِيرةٍ نزلوا الحمى

وحِمَى القلوب هو الحِمَى والمنزل

وتحمّلوا يوم الفِراقِ وإنما

بقلوبنا يوم الفراق تحملوا

قَبسُوا ومن قلب المُعذّب مَوْقدٌ

وردوا ومن جفن المعنى مَنْهَل

ما ضرّهم إذ أعرضوا لو عرّضوا

للوصل أو ذكروا العهود فأقبلوا

حملوا الجمّال على الجِمال كأنما

أفلاكُها منها الأهلّةُ تكملُ

أبدتْ لنا حَلْيَ الطلى وتبسّمَتْ

زهراً فراقَ مُقلّد ومُقبّل

ومن العجائب أن أهيم بجَنّة

حلّت بقلبي وهو نار تشعل

ويُـهـانُ مُـرسَـلُ نـاظـري فـي حـبـهـا
ومـن الـتـنـاصـف أن يُـعـزّ الـمُـرسَـل

وهذه القطعة مع المرثية السابقة، على كثرة ما فيها من الجناس والبديع، عامرة الأبيات بالمعاني الشعرية الجميلة، فلم تحل الصناعة اللفظية فيها دون بلوغ المراد من أداء فكرة الشاعر كاملة؛ وتصويرها كما يجب، وذلك عَلَمٌ على القدرة والتمكن من تصريف الكلام في شتى الوجوه، وتقليبه على مختلف الأنحاء...

وإني لأشبهه في هذا المعنى بشيخ الشعراء المجددين في العصر العباسي أبي تمام، ولو كان بيدنا شعر كثير له لعمِلنا مقارنة بينهما تكشف اللثام عن وجه هذا الشبه... وإلى أن يتهيأ ذلك نكتفي الآن بهذا القدر من شعره وهو كل ما وقفنا عليه، إلا أبياتاً قليلة طغى عليها التحريف فلم نرَ أن نشوّه بها جمال هذا الذي نقلناه.

ثم نُطلِعك على نموذج من نثره البليغ، وهو هذه الحُجّة الغَريبة التي لم ينسُج أحد على منوالها، ولا استظهر كاتب بمثالها، وهي عُقْدةٌ باع فيها الخطابي للمولى عزّ وجل منزل قلبه بثمن العون على العبادة، ثم أغمَره الحق سبحانه وتعالى ذلك المنزل إلى حين وفاته. وسأله الخطابي أن يمده بعساكر العزم، لمحاربة الجيش المُغِير على ذلك المنزل، وهو جيش مَلكَة النّفس، وأعوانه الشهوة والغضب وغير ذلك، كي يكسِرَ حِدّته، فإما أن يقتله في المجاهدة وإما أن ينزله على حكمه بالمعاهدة.

ودونك نصّها الكامل:

يقول العبد الذي اعترفَ، بما اقترفَ، لمولاه، وأقرّ له بما أضاعَه لا بما أطاعَه، على ما منحه من النّعم وأولاه؛ الميمون بن علي الخطابي جبرَ الله بالتقوى كَسْرَه، وفكَّ من حبائل الدنيا أسْرَه، ولم أزل مدة أيام بل عدةَ أعوام؛ أخاللُ كل مُخِل بديني، وأستظل من إطالة البطالة بكل ظل مُضِل يُرديني، وأخالف كل صالح مُصلح، وأحالف كل طالح غير مُفلح، وأجرّ أذيالَ المجون على أرض الراحة، وأطلق عِنانَ مُهْر الغفلة في ميدان النسيان، فيطيل جِماحَه ومَراحه، راكباً مطايا التسويف دون إهمال، مستوطئاً فرْش الكسل والانهماك في الشهوات والانهمال، مستوطناً رَبْع التصابي بِقلة الأعمال وكثرة الآمال، سالكاً سبيل الهزل وطريقه، تاركاً قبِيل الجدّ وفريقه، لا أثني عِناني إلى ما يَعْنِيني، ولا أزال أعاني ما يُعيِيني ولطائفُ الله عزّ وجلّ التي يضيق عن حمل أصغرها الأمكنةُ الفسيحة، ولا يُطيق بلوغَ شكرها الألسنة الفصيحة صافية الورود، ضافيةُ البرود، وقد طنّبت عليّ قبابَها وأرواقها، وخلعت بعنقي ثيابَها وأطواقها، واطردت بماء النعمة مَذانِبها وأنهارُها، وتساوَى في القدوم بالكرم ليلُها ونهارها، وأنا مع ذلك لا أزيد إلا غفلة عن القصد السنّي وسهواً، ولا أستزيد إلا اشتغالاً عن المقصود السنّي ولهواً، إلى أن أجرى الله عادة إحسانه وجوده، وأرادت مراداته السائقة السابقة إخراجَ العبد المذكور من عدم الغفلة، إلى ظهور الإلهام ووجُوده: فسلّط رعدَ الخوف على سحائب سمائي، فكشفها وجلاها، وحلّ بساحة أرضها سكْرُ السلو،

فسكّرها من سواه وخلاها، وقلّد أجيادَ فكره بقلائد حمده وشكره وحلاها، وسل من سُوَيْداءِ قلبه محبة غيره، فنزهها عنه وسلاها، فلاح إصباح النجاح، وآذن ليل الغفلة بالصباح؛ ونادى مُنادِي الوَصْلة بمنار العُزْلَة، حيّ على الفلاح، وصاح كالثي صبح النّجْح بالسّفْر المُعَرّسين شدّوا المطِيّ فقد سالَ نهرُ النهار، ومال جُرُف الليل والنهار، وانفجر عَمُود الفجر بنوره الوضّاح فلاح، فأفاق العبد المذكور من نوم الركون إلى السكون والكرى، وشمّر للسير ذُيُولَه، وضمّر للسبق خُيولَه، إذ سمع عند الصباح يحمَدُ القومُ السْرى.

ثم كتب العبدُ المذكورُ عَقْداً، وعَهِدَ مع المولى الجليل عهداً وهو على خوْفٍ ووجَل، يسأله إدراك ما أمّله، والوصولَ إلى ما أمّ له، ويتبرأ من حولِه وقوته إليه، ويتوكل في جميع أموره عليه، ويقف بقدَم النّدم بين يديه، معترفاً بما كان له مقترفاً، وراجياً أن يكون من بحر الإحسان لدار الامتنان مغترفاً، والعقد المذكور:

هذا ما اشترى المولى اللطيف الجليل، من العبد الضعيف الذليل؛ الميمون بن علي، اشترى منه في صفْقَة واحدة، دون استبقاء، ولا تبعيض ولا استثناء بتصريح ولا تعريض؛ جميعَ المنزل المعروف بمنزل القلب والفؤاد، الذي من سُكّانه الإخلاصُ والمحبة والوداد، حَدّه من القِبلة، قبولهُ الأوامر المطاعة، ومن المشرق لزومُ السمع والطاعة، ومن الجَنُوب: الإقبالُ على ما عليه أهلُ السنّة والجماعة. ومن الغَرب دوامُ المراقبة في كل وقت وساعة، بكل ما يخصّ

هذا البيع المذكور ويعمّه، وينتهي إليه كل حد من حدوده، ويضمّه، من داخل الحقوق وخارجها، ومَداخِل المنافع، ومَخارِجها، وبكل ما له من الآلات التابعة له في التصرُّف، والحَواسّ الجارية معه في حالة الإضاعة والتشرُّف، السالكة مسلكه في التنكُّر والتعرُّف؛ من يدين ورجلين، ولسان وشفتين، وعينين وأُذُنين، اشتراءً صحيحاً تاماً شائعاً في جميع المَبِيع المذكور، وعاماً ثبَتَتْ قواعدُه، وظهرت بالتسليم الصحيح شواهِدُه، بلا شرط ولا ثُنيا ولا خِيار، ولا بُقْيا مع حظ نفْس ولا اختيار، بثَمَن رتَّبته العناية الربانية، ونَسَختْه المشيئة الإلَهية، بين عاجل وآجل، فالعاجلُ العونُ على كل مندوب ومُفترَض، والصونُ عن كل غَرض وعَرض، والثناءُ على النعم الظاهرة والباطنة، وإهداءُ الآلاء المتحركة والساكنة، والآجلُ الفوز بالدار القُدْسيّة. والحضرة الأُنسيّة التي فيها ما امتدّ به جناحُ التواتر بالخبر الصادق وانتشر، ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من النعيم السرمدي والحُبور الدائم الأبدي.

سلّم العبد المذكور، هذا المبيعَ المذكور، تسليماً تبرأ فيه من الملَكَة ورفعَ به يدَ الاعتراض عما يفعل المولى الجليل فيما مَلَكه، وأيقن أنه المتصرف فيه في سره وجهره، وعلم أن الملك المذكور تحت يد عزته وقهره، يُجري فيه أحكامه القاهرة، ويُنفذ فيه قضاياه الباهرة. ومقتضى قُدرتِه الظاهرة، وقد أحاط المولى الجليل بهذا المبيع المذكور، إحاطةَ ظهور، ولم يخفَ عليه شيء من قليله وكثيره، وجليله وحقيره، ومبانيه ومساكِنِه، ومتحركه

وساكنه، واطلع عليها اطلاعَ عليم قدير ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٤﴾.

ولما أسلم العبد المذكور، المبيع المذكور وأمضاه، واستسلم لمولاه فيما حَكَم به وقضاه، تفضل عليه مولاه، وغمَره بجُوده العميم وأولاه، وجعل له السكنى بهذا المنزل المذكور مدة حياته، والإقامةَ فيه إلى حين مماته وإتيانِ وفاته، إذ يستحيل على المولى الجليل الحلولُ في شيء أو السكون إلى شيء، وهو مُوجِدُ كل شيء وخالق كل ميت وحيّ، ومُريدُ كل رشد، ومقدّر كل شيء[1] به قيامُ جميع العبيد، وعن قَدَره غِناهم وفقرهم، لأنه الفعّال لما يريد، وهو مُيَسّرهم لليُسرى، فمنهم شقي وسعيد، وله الغنى عن كل شيء، وهو الغني الحميد.

وقد أمرَ المولى الجليل بخدمة هذا المنزل المذكور، خدمةَ التقرب إليه، وجعل له التصرف فيه لقبول أمره للفوز بما لديه، وبهذا المنزل المذكور بساتينُ تُسمى بساتين الإخلاص، وجناتٌ تعرف بجنات حضرة القلب المعروف بمحل الاستخلاص، التزم العبدُ المذكور تسهيلَ أرضها من شوْك الشّرْك والارتياب، وتذلِيلَها من حجر العُجْب والاضطراب، في حالتَيْ الحضور والغياب، وتنقيتها من أعشاب الحسد والحِقد والكِبر، وزوالَ ما فيها من عوارض الغش والخديعة والمكر، وأن يقطع منها كل عُود لا منفعة فيه بحديد الفكر. مثل عُود الحرص والطمع، ويَغرِس مكانَه شجرَ الزهد والورع. ويُقلّم أغصانَ الميل إلى الأدران

(١) كذا بالأصل، ولعله غي.

والأقذار، وأفنان الركون إلى الأغيار والأكدار، وقُضبان السكون إلى الشهوات والأوطار، ويفتح أبواب البذل والإيثار، بمفاتح الجود الحميد المساعي والآثار، ويُطلق ينابيع التوكل على مَصْرِف الأقدار، وأن يخدم ما توعّر من سواقي مياهها الإخلاصية وحياضها ويمشي بالمصَلْحَة المُصْلِحَة لدوحاتها وغياضها، ويُفجّر بها مياه الصفاء من الأكدار، المتصلةِ بساقية الوفاء في الإيراد والإصدار، والمُلاصِقَةِ لساقية ترك الجفاء في هذه الدار، حتى يبدوَ إن شاء الله صلاحها، ويثمر بجنيّ المُنى أدوَاحُها، فتُنْبت قَرَنْفُلَ التنقل، وعُودَ التقبل، وآسَ الإنس والسوسان، وياسمينَ اليأس من كل إنسان، ونُعْمانَ النعمان التي لا يصفها إنسان.

وقد علم العبدُ المذكور، أن بخارج هذا المنزل حرَس الله إيمانه، وأدام أمانه، جيشاً يُغير عليه في مسائه وصباحه، وينتهز الفرصة في غدوه ورواحه، ويقطعُ جادّة السبيل بالمرور عليها إلى حضرة الملك الجليل، ومَلِكُ هذا الجيش المذكور النفسُ الكثيرة الأغراض، الميّالة إلى ما يعرضُ من الأعراض المعتكفة على المشارب المهلِكة والأعراض، وخادم الملك المذكور الشهوةُ الموقوفة على خدمته، المعدودة، في أعلى خَزَنَتِه، ووزيرُه المفاخرة، وزِمامُهُ المنافسةُ في زهرة الدنيا، وحاجِبه المُكاثرة، وقيّمُ جيْشه المقدّم، وفارسه الأقدم، شجاعُ الغضب، الذي عنده يتولد الهلاك، وبه يكون العَطَب، وطلَبَ العبد المذكور، من مولاه الإمدادَ بعساكر العزم، وفوارس الحزم، ورغب على الإعانة بكتائب السداد والتوفيق، ومواكب الرشد والتحقيق، وإرسال جيوش الاصطِبار، وفوارس الانتصار في ميادين الاختبار،

والتدرُّع بدروع الأذكار، وجوَلان خيل السعادة في ميادين الاختيار، والعونَ بأعلام العِلْم، والسكون في حصن الحِلْم، حتى يُذهب حِدّةَ النفس ويُزيل كيدها، ويُمِيتها في المجاهدة بسيوف المجادلة، ويقطع قوتها وأيْدَها، أو يمدّ يدَ التسليم بقهرها واضطرارها، وينطق بلسان اعترافها وإقرارها؛ أنها أسقطت جملة دعواها واختيارها ودخلت تحت امتثال الأوامر الربانية، ودخل في باب اللطف في حَرَم كَرَم الإلٰهية، فَمَرّ الظهُورُ بذلك نفسه، وأظهرَ الحضور أنسَه، حتى تتطهر النفس المذكورة، من الأخلاق العَرَضية، وتترقى عن الأغيار الأرضية، ويظهرَ عليها الشمائل الحميدة، والشيم الرّضِية وتنادي: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ۝٢٨﴾.

أشهد على إشهاد البائع المذكور، مَن شهده به على نفسه عارفاً بقدره في صحته وطوْعه، وجواز أمره. وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

انتهت وما كادت، وأنت ترى أنها نمَطٌ من الكلام مُبْتَكر لا هو بالخطبة، ولا بالمقامَة، ثم هي بأسلوبها وجوهر موضوعها، تدل على قوة عارضته أيضاً في النثر، وامتداد نفسه فيه كالشعر، كما أنها برُوحها الصوفية، تدل على صلاحه وتقواه، رحمه الله.

وقد رأينا في «كتاب عُقلاء المجانين» لابن حبيب النيسابوري حديثاً لبَهلول المجنون، يُشبه أن يكون هو الأصل الذي بنى عليه الخطابي في هذه الرسالة؛ ونصه:

قال عباس البنّاء: نظر بهلول إليّ؛ وأنا أبني داراً لبعض أبناء الدنيا، فقال لي: لمَن هذه الدار؟ فقلت: لرجل من

نُبلاء الكوفة، فقال: أرِنيه، فأريتُه إياه فناداه: يا هذا. لقد تعجلتَ الحماية قبلِ العِناية. اسمع إلى صفة دار كوّنها العزيز؛ أساسُها المسكُ؛ وبلاطُها العنبر؛ اشتراها عميدٌ قد أُزعج للرحيل، كتب على نفسه كتاباً، وأشهد على ضمائره شهوداً، هذا ما اشترى العبد الجافي من الرب الوافي، اشترى منه هذه الدار بالخروج من ذلّ الطمع، إلى عز الورع، فما أدرك المستحِقّ فيما اشتراه من دَرَك، فعلى المولى خلاصُ ذلك وتضمينه إياه شهد على ذلك العقْل، وهو الأمين والخواطر، وذلك في إدبار الدنيا، وإقبال الآخرة، أحَدُ حُدُودها ينتهي إلى ميادين الصفا، والحد الثاني ينتهي إلى ترك الجفا، والحد الثالث ينتهي إلى لزوم الوفا، والحد الرابع ينتهي إلى سكون الرضا في جِوارِ مَن على العرش استوى، لها شارعٌ ينتهي إلى دار السلام، وخِيامٌ قد ملئت بالخُدّام، وانتقال الأسقام وزوال الضر والآلام؛ يا لها من دار؛ لا ينقضي نعيمُها ولا يَبِيد، دار أُسّست من الدّرّ، والياقوت شرف تلك الخدور، وجُعِل بلاطها من البهاء والنور.

قال: فترك الرجل قصره وهام على وجهه. وأنشأ يقول:

يا ذا الذي طلَبَ الجِنَان لنفسه
لا تهرَبَنّ فإنه يُعطيكا

فأنت ترى قوة الشبه بينه وبين عقد الخطابي؛ مما يحمل على الظن باقتباسه منه، إلا أننا لا نؤكد ذلك، إذ يجوز أن يكون الخطابي لم يقف عليه أصلاً، والعلم لله.

ابن عبدون المكناسي
(ت ٦٥٨ هـ)

الاشتراك في اسمه، هل درس بفاس، هل كتب لأحد من الأمراء، السبب في عدم انتشار شعره، ثناء ابن غازي وابن القاضي وابن الخطيب عليه، مساجلة بينه وبين أدباء عصره، هل هو شاعر المغرب، علمه بالقراءات، شعره، نثره، تاريخ وفاته.

نحتاج إلى التنصيص على نسبة مترجمنا لِبَلَده تخلُّصاً من الاشتراك الواقع في اسمه، إذ نرى أنه لا يكاد يتميز عن غيره ممن اشتهر بهذا الاسم كابن عَبْدُون الأندلسي صاحب القصيدة المشهورة في رثاء بني الأفْطَس من ملوك الطوائف بالأندلس، ونحن إذا كنا آمنين من الوقوع في هذا الاشتراك لأننا لا نذكر في تراجمنا هذه إلا الأشخاص المغاربة فلا ننسى أن هناك كثيرين من أدباء المشرق وغيره لا يعرفون عن مُترجمنا شيئاً، وربما لم يسمعوا به فيقع لهم الاشتباه في اسمه وينسبون ما له لغيره لا سيما ومؤلفُو الآداب لا يذكرون ابن عَبْدون حين يذكرونه إلا بكنيته هذه، وخصوصاً الأندلسي والمكناسي من أبناء عبدون، فلو أنهم يسمونهما

باسمَيْهما الحقيقيين فيقولون: عبدالمجيد بن عبدون، ومحمد بن عبدون، لكنا نطمئن قليلاً على تراث أديبنا المغربي من السطو الذي عدا كثيراً على آداب المغرب وحضارة المغرب باسم الأندلس، ولكن هذا لم يقع فلا بد من ذكر «مَكْناسِية» مترجمنا بإزاء كنيته فإنها هي المخصصة له من غيره.

أما الاسم الحقيقي لابن عبدون المكناسي فهو: محمد بن عبدون بن قاسم الخزْرجي العربي النجار من ذُرِّية الأنصار المكناسي الدار، قال ابن القاضي: «من أهل مكناسة ودخل مدينة فاس» ولذلك ذكره في الجَذْوة إذ شرطه أن لا يذكر إلا مَن دخل فاساً.

ثم انظر هل دخلها في سن الشباب بقصد الطلب فيكون أخذ عن علمائها وتخرّج بأساتذتها أم لا؟ أما دخوله إليها بعد الاكتمال وفي زمن النّضج الأدبي فإنا متحققون منه لما بيدنا من الشاهد التاريخي عليه، وما يدرينا لعل دخوله إليها قد تكرر خصوصاً إذا قدّرنا أنه كان في مَعِيّة أحد الأمراء على ما تشعر به تَحْلِيَةُ ابن غازي وصاحب الذخيرة السنية له بالكتابة، وعادتُهم أنهم لا يُحلون بها إلا مَن شغل وظيفَتها في دواوينها؟

وإذا ثبت ذلك فمَن يكون هذا الأمير الذي صَحِبَه وكتب له ابن عبدون؟ لا جواب لنا قاطِعاً عن هذا السؤال لأننا نستنطق تاريخه المجهول فلا يكاد يجيبنا عن شيء من أمره، وإنما نقول: إنه كان يعيش في عصر فَتْرَة؛ لا فتْرَة وَحي، ولكن فترة أدب! نعني في أواخر عصر الموحدين،

وابتداء تأسيس دولة بني مَرِين، ولا نظن أنه كان في صحبة الموحدين لأن بلد هؤلاء هو مراكش، وهو كان بمكناس فضلاً عن اشتغالهم بحرب بني مَرين القائمين عليهم فلم تكن أيامهم ولا أحوالهم مما يُرغِّب الأديب في الاتصال بهم والكون في معيّتهم، وأما بنو مَرِين فقد كانت أيامهم في إقبال وأحوالهم إلى صلاح؛ إلا أنهم كانوا لا يزالون مُتَبدِّين مُخْشَوشِنين تَغلِبُ عليهم السذاجة الأعرابية وحالة الفِطرة، فهم أبعد ما يكون عن الأدب واصطناع أهله، خصوصاً ولم يدرك أديبُنا من أيام أول سلاطينهم الذي قعّد قواعد ملكهم وشاد صرح دولتهم وهو يعقوب المنصور إلا مدةً قليلة، إذ توفي بعد ولايته بعامين أو ثلاثة حيث إن ولاية المنصور كانت في سنة ٦٥٦ ووفاةُ ابن عبدون كانت سنة ٦٥٨ على ما عند صاحب الجذوة أو ٥٩ على ما عند صاحب الذخيرة السنية، فهو وإن يكن اتصل بأحد أمراء بني مَرِين لا يجوز أن تتعدى صلته بهم صلةَ الوظيف الذي كان يشغله وهو الكتابة الرسمية، فلا مجالَ لأدبياته عندهم ولا سبيل لإظهار نبوغه لديهم وذلك هو السر في عدم انتشار شعره وتناقل المؤلفين له؛ ولا سيما المؤرخون منهم الذين لا يذكرون في الغالب إلا ما كان مدْحاً لأمير أو ثناء على ذي سلطان.

ودونك الآن عبارةَ ابن غازي في «الروض الهتون» حيث تعرّض لذكر أعلام بلده مكناسة الزيتون قال: «ومنهم ابن عبدون حائزُ قصَب السبق في الشعر والكتابة» وهذه شهادة تنِمّ عمّا لمن قيلت فيه من فضل خصوصاً عند اعتبار مكانة قائلها الفاضل.

وفي زَهرة الآس لأبي الحسن الجزنّائي عند الكلام على الثريا الكبيرة التي بجامع القرويين أن الأستاذ المزيَاتِي كان جالساً تحت هذه الثريا في ليلة السابع والعشرين «من رمضان» ومعه الأستاذ ابنُ عبدون الأديب، ومالك بن المرحّل ومحمد بن خَلَف فأنشد الأستاذ ارتجالاً:

انظُرْ إلى ثُرَيّةٍ نورُها
يصدَعُ باللّلألئ سَجْفَ الغسَق

فقال ابن عبدون:

كأنّها في شَكْلِها رَبْوةٌ
انتظَمَ النّوْرُ بها فاتّسق

وقال ابن المرحّل:

أُعيذُها من شرّ ما يُتّقى
وفَجْأةِ العيْنِ بربّ الفلَق

وقال ابن خَلف:

بَاهَى بها الإسلامُ ما أشرقت
كاسَاتُها عند مَغيب الشّفَق[1]

والقارئ الأديب إذا عمِل مقارنةً بين أبيات هذه

---

(١) أورد ابن القاضي الحكاية في جذوته لكن بسياق آخر، وذكرها الأفراني أيضاً في شرح التوشيح على وجه ثالث وأسند الرواية فيها لابن رشيد باعتباره شاهد عيان. وكان ابن رشيد عند وفاة ابن عبدون صبياً رضيعاً فلهذا ضربنا عن غير رواية الجزنائي المؤلف المعاصر لأصحاب الحكاية.

المُساجلة لا بد أن يحكم لابن عبدون على أصحابه ولو أن فيهم مالك ابن المرحل شاعر المغرب الأكبر. ومن هنا يعلم صدق قول ابن غازي فيه. إنما لا يفهم من هذا تفضيله على المذكورين في الجملة والتفصيل فإننا إنما دللنا به على براعته في القولِ وحسن بديهته في النظم.

وقال ابن القاضي: «كان شاعراً مُجيداً، وهو شاعر أهل العُدْوَة» ويظهر أن الجملة الأخيرة من كلام بعض الأندلسيين لإشعارها بأن قائلها ليس من أهل العدوة، وأيًا كان فهل ذلك صحيح؟ ما أصعب الجواب عن هذا السؤال ولو وُجِد بيدنا ديوان شعر ابن عبدون كاملاً، فكيف مع عدم وجود شيء من شعره إلا النّزْر اليسير الذي لا يُسمِن ولا يُغني من جوع!؟ وذلك لأنه على تقدير وجود جميع ما قاله من الشعر فمن أين لنا جميع ما قاله غيره من شعراء المغرب الكُثار لِنُوازن بينه وبينهم حتى يمكننا أن نحكم له أو عليه؟ وإذاً أفلا يكون في هذه الكلمة مبالغة وإغراق في التقدير سوّغ إطلاقَها النسجُ على منوال قولهم في ابن عبدون الأندلسي أنه أديب الأندلس فابن عبدون المكناسي أيضاً شاعرُ العدوة، وتَمّ حينئذٍ الاشتراكُ بينهما في الاسم والوصف!...

وقد حلاّه في الذخيرة السّنِية بالفقيه الأستاذ المُقرِىء الكاتب البارع أديب وقته، وشاعر عصره، وهي حِلَى ضَخْمة كما ترى، فأما الكتابة والشعر فقد تواردَ مع ابن غازي على وصفه بهما، وأما الأستاذية وهي العِلْمُ بالقراءات كما كان سلَفُنا يستعملون ذلك اللفظ فقد أفدناه من زهرة الآس لكن

بقي في النفس شيء من ذلك إذ قد لا يراد به ذلك المعنى فجاء قول الذخيرة: الأستاذ المُقْرئ نصًا في المراد، فهو إذاً من الأساتذة القُرّاء، وذلك مما يزيد في رفعة شأنه كأديب على ما هو معلوم من أن تلك القراءات إنما هي لغاتُ قوم من العرب ومذاهب جماعة من النحويين فالعالم بها له مزيدُ تضلُّعٍ بالعربية وبصرٍ بأسرارها.

ونرجع في تتميم ترجمة هذا الأديب إلى شعره نستجلي منه نفْسَه الشاعرة وطبعه الرقيق، إذ لم يبقَ بيدنا من أخباره شيء نتعلق به في توْرِيخه فعسى أن نكون رسَمْنا خطوط ترجمته لمن يملأها من بعد.

وأول ما نورده من شعره قوله في بلده مكناسة الزيتون لأنه أشهرُ نظمه وأسيَره، والكثير من الناس لا يعرفهُ إلا به وهو:

إن تفتخر فاس بما في طيّها
وبأنها في زيّها حسناء

يكفيك من مكناسةٍ أرجاؤها
والأطيبان: هواؤها والماء

ولما أوردهما ابن الخطيب عند ذكره مكناس في «نُفاضة الجراب» قال: «لله دره» استحساناً لهما، وتنويهاً ببراعة ناظمهما. ومن قوله الدال على خفة روحه ولطافة جوْهَر نفسِه وهو مما أورده صاحب «الجذوة»، وأكثر الناسخ من التصحيف فيه فصححنا منه ما أمكن:

يا جِيرَتي ومَن استجرتُ بهم
من جَوْر عِزّهمُ على ذلي
عوّضتُموني بالوداد قِلًى
وأبدلتُم الإنصاف بالمَطْل
وشَغلتُم بالي بهجْرِكم
وبَالِه عن كُلِ ما شُغل
ما هكذا فعلُ الكرام بمن
منهم تعوّد أجملَ الفِعْل
علّقتُ حبْلَ محبّتي بكمُ
بحياتكم لا تقطَعُوا حبْلي
ما كان أندى ظِلّ عِيشَتِنا
إذ كان مُنتظماً بكم شملي
إذْ نجْتَني ثمرَ المُنى ذُلُلاً
في روض أنسٍ وافرِ الظل
نجلُو الهموم بحَثّ صافيَة
مُزِجَتْ بخمر الأعين النّجْل
وعُرى العقول متى تحل بها
إحداهما آلتْ إلى الحَلّ
عودوا إلي عاداتِ وصلِكُمُ
لا تحرِموني لذّةَ الوَصل
حاشاكم والفضل شِيمتُكمْ
أن تُعقِبوا الإخصاب بالمحْل

وإذا أبيتم غيرَ جوركم
فالجورُ منكم غايةُ العدل
إن شئتمُ قتلي فها أنا ذَا
لا تحذَروا من طالب ذَحْلي

وهذه القطعة برشاقة لفظها، وعذوبة معناها، تحسبها لإبراهيم بن سهل أو العباس بن الأحنف، الأمر الذي يدل على ما لصاحبها من رقة طبع ولطف ذوق.

ومن قوله يصف نهراً وردته عصابة طير:

أما ترى النهرَ في انصِبَابه
كأنه الصّل في انسِيابه
قد انتحته ظِمَاء طير
مُقتحِمَات على جَنابه
تنقَعُ من مائه أواماً
وتلقُط الحَبَّ من حَبابه

ولا تغفل عن تشبيه انصباب النهر بانسياب الصل فإنه غريب. وقال أيضاً في نهر قُذِفَتْ فيه مصابيح:

انظُر إلى النهر يحكي الأفق إذ قذِفت
فيه مصابيح ذادَتْ عنه أحْلاكا
جالَتْ به سرُجٌ شبّهتُها شُهُباً
على قواعِدَ قد حاكين أفلاكا

وله في مصباح:

تـلألأ مِـضـبـاحُـنـا فـاكـتـسـى
بـهـيـمُ الـدجـا مـن سـنـاه نـحـول

كـــأن الـــذبـــالـــةَ نـــوارَة
ومـن حـولـهـا الـدّهـن مـاءٌ يَـجُـول

إذا رَوِيَـــتْ نَـــعِـــمـــتْ نَـــضـــرةً
وإن ظَـمِـئـت أخـذَتْ فـي الـذبـول

وهو بديع لا يكاد يوجد له نظير.

وله في الشيْب:

لـمّـا تـراءتْ لـلـمـشـيـب بـمـفْـرقـي
شُـهـبٌ أغـرْنَ عـلـى شـبَـابـي الأدهـم

أبْـدَى الـتـجَـهُّـمَ مَـن أحِـبّ أمـا دري
أنّ الـلـيـالـي حُـسْـنُـهـا بـالأنـجُـمِ؟

ومن شعره يخاطب الأديب أحمد بن القصير الإشبيلي عند فراقه له، وقد كان هذا الأديب فاتحه بأبيات يقول فيها:

يـا سـيّـدي قـد سِـرْتُ عـن غَـرْبـكـم
مُـشَـرِقـاً أبـكـي عـلـى غُـرْبـتـي

فأجابه ابن عبدون:

مـــلـــلـــت دنـــيـــايَ لـــبَـــيْـــن دنـــا
مـــن صـــاحـــب مِـــلّـــتُـــه مِـــلّـــتـــي

فَـــرِقـــتُ إذ جَـــدّت بـــه فُـــرقـــة
حـــلّـــت عُـــرى صَـــبـــري إذ حَـــلّـــتِ

وكـنـت أنـسـيـتُ بـأنـسـي بـه
نـوائـبَ الـدهـر الـتـي جَـلّـتِ
لا أحـمـدُ الـحـالَ إذا كـنـتَ يـا
أحـمـدُ عـنـي نـائـي الـحـلّـةِ
وكـيـف يـسـلُـو عـنـه ذو رَوعَـة
عـلـيـه أسـيـاف الـهـوى سـلـتِ
لا أهـلَ بـالـبَـيـن ولا مـرحَـبـاً
فـأدمُـعـي مـن أجْـلـه انـهـلّـتِ
كـم شَـتّ مـن شـمـل وكـم ثَـلّ مـن
عـرش وكـم فـرّق مـن ثُـلّـةِ
إن غِـبْـتَ أو أغْـبَـبْـتَ زَوراً فَـفـي
طـيْـفـك مـا يُـطـفـىء مـن غُـلـتـي

وقد عاوده الأديب المذكور بأبيات لُزُومِيّة مثلِ أبياته يقول فيها:

أيـا ابـنَ عَـبْـدُونَ تَـعَـبّـدتـنـي
بـأنـعُـم فـي جـيـلـنـا جـلّـت
فـفـضـلُـك الـيـوم يُـرى عُـمـدةً
أضـحـى لـه غـيـرك كـالـفَـضْـلَـة

ذكره ابن رُشَيْد في رحلته.

فهذا النزر القليل من شعره يَقِفُنا على شيء غير قليل من شاعريته الخِصْبة فهو دقيق الحسّ لطيف الشعور قويّ التصوُّر حسنَ المُلاحظة وخصوصاً في وصفه. وأما نثرُه فإننا

لم نقف منه إلا على نُتَفٍ يسيرة، وهو بحكم تقلُّده للكتابة على ما فهِمْنا من تحلِيَته بها فيما مرّ، يلزَمُ أن يكون له آثار نثرية لا تقِل عن شعره، وحتى لو لم يتقلّدها رسمياً فإنّ تحلِيتَه بها يؤذنُ بأن له كتاباتٍ أدبيةً على الأقلّ، إخوانيةً وغيرها. ولكنّا لا نجد له شيئاً من ذلك فيما بأيدينا من المظانّ، إلا هذه الجُملة من رسالةٍ كتبها عن أهل بلدِه مكناسة إلى المأمون الموحّدي لما حاصر بعضُ القبائل بلدهم، ونصّها:

«فَالعَبيدُ أيّدكم الله هالكون لا محالة، وحياتهم في حَيّز الاستحالة، إلا أن يتداركَ الله تعالى بلطفه، ويتلافى الجميع بجزيل عَطْفه، ومعروف أن هذا القُطْر ـ حماه الله ـ قُفْلُ الغَرب، والبلادُ مُعتمِدة عليه اعتماد الحسام على الصرب، فإغاثَتُه واجبة، وحمايته حاجِبة، فالعَجَل العَجَل، قبل بُلوغ الأجل، والغِياثَ الغِياثَ، قبل تمكُّن الفساد والإعباث»[1].

وقد أوردَ هذه الجملة صاحب البيان المُغرب وقال بإثرها: «وله شعر في المعنى طويل، فمنه:

إمامَ الهُدى سَمْعاً لدعوة شاكٍ

ثَوَى بين هُلاّك رَهِين هَلاكِ

وأوْشك أن يَغْتَال مكناسةَ الردى

وتبكي على مَن تحتَويه بَواكِ

---

(١) كذا في الأصل، ونظن أن صوابها العباث جمع عابث كالفساد قبلها جمع فاسد.

أحاطتْ بها الأعداء من كل جانب
فقد قعدتْ منها بكل شِرَاكِ
وقد زارَها من أهل زَرهون هونُها
وبثُّوا لها التطليق بعد مِلاَكِ
وأبناءَ فَازَاز[1] لها مُسْتَفِزَة
فها هي تشكُو كلّ أزوع شاكِ

ثم قال عقبه:

«رفع هذه الشكوى، إلى المكان الأعلى، أدامَ الله أيامه، ونصرَ ألوِيتَه وأعلامه، عبيده المستجيرون بعدله أهلُ مَكْناسة تلافَى الله برحمته تَلافها، وتدارك بلطفه قطّانها وأُلافها، مستصرخِين جلاله، مُترقبين إقباله، فالعبيدُ في حُكْم الفَوات، وعِداد الأموات، وعدل المقام الأعلى كَفِيلٌ بتدارك أرْماقِهم، وحلّهم من وثاقهم».

ويُورِدُ ابنُ عَذارى أيضاً من نثر صاحبنا فصولاً من بَيْعة كتَبها أهل مكناس للسيّد ابن المأمون المُوحّدي مجدّدين له العهد الذي نقَضه قاضيهم ببيْعَتِه لغيره. وأولها فصلٌ في التحميد:

«الحمد لله مُقدّر الأمور، ومُصرّف المقدور، ومُخرِج عباده من الظّلمة إلى النور، عالم السرائر، ومُنوّر البصائر، ورافع الدرجات، وواضع الخَطِيئات ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وسِعَ كلّ عاصٍ حِلمُه، وأحاط

(١) لعل هذه هي القبائل التي كانت تحاصرها.

بكل شيء عِلْمُه، ونفَذ في كل موجود حُكْمُه، لا رادَّ لما به حكمَ وأمرَ، ولا ناقضَ لما أحكم وأمرّ، قدّر الأشياء، وأتقن الإنشاء، وآتى مُلكَه مَن شاء، وأسّس بالإمامة مَبانِيَ الديانة، وأمدّ مَن أهّله لوراثة المقام الأسمى، واختاره للأمانة العظمى، بالإنجاد والإعانة» ومنها فصل في الترضّي عن الخليفة:

«اللّهمّ ارضَ عن خليفتك في عِبَادك، المرْتَسم في ديوان أوليائك وعُبّادك، الإمام المؤيّد، والحسام المهنّد، الأتقى الأطْهر، الأعلى المعتضِد بالله أمير المؤمنين أبي الحسن ابن سيّدنا الخليفة الإمام المأمون أمير المؤمنين ابن الخلفاء الراشدين رضًى يُبلّغه أمله في الدنيا والدين، ويحكُم لدولته السعيدة، ومُدّته الحميدة، بالتمهيد والتمْكين، ويجعلُ كلمتَه الباقية إلى يوم الدين، اللهم كما انتقيتَه من أكرم جُرثُومة، وسدّدتَه لإقامة حُدود الله المرسُومة، فضاعِف اللهم في قلوب رعاياه حُبّه، وأيّد بالملائكة والروح عِصابتَه وحِزْبَه».

ومنها فصل في الاعتذار وتجديد العهد:

«ومَنْ شُكِرَت في الخدْمَةِ آثارُه، فحقِيقٌ أن تُغْفر زَلّتُه وتُمحى آثاره، وإن العَبِيد من أهل مكناسة قد اجتمعوا ووَقَفُوا موْقِف الاسْتِكانة والمذَلّة، وقَرَعوا سِنّ الندم على ما صدر منهم من زَلّة، واسْتشعروا لِباسَ الإنابَة، وبادرُوا لهذه الدولة المُعْتصميّة بالإجابة، واتّفقوا جميعاً على ما جدّدوا بيعتهم لسيدنا ومولانا الخليفة الإمام المعتضد بالله

أمير المؤمنين أبي الحسن ابن الأئمّة الراشدين، أعلى الله يَدَه، ونصره وأيّدَه، حسبما تقدم مُسْتَوْعبةَ الشروط، مُسْتوفاة العُقود والرّبوط، لم يَسْتثنوا فيها فصْلاً، ولا أغفلوا من عُقُودها فرعاً ولا أصلاً، بنفوس مُغْتبِطة، ونيّاتٍ على الوفاء بما التزموه من عقودها مُرتَبِطة، وأشهدوا الله وملائكته على أنفسهم بذلك وهم به عالمون ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

هذا ما عرفْنَاهُ من نثر المُترجَم، وهو وإن كان قدْراً ضئيلاً لا يمكن معه الحُكْمُ على مَقَامِه في الكتابة، إلا أنه يَشِفّ عن مقدرة وبَراعة يعرفُهما أهل الصناعة.

ونحن إذا أغفلنا الكلام على تاريخ ولادةِ الشاعر ونشأته لعدم وقوفنا الآن على مَرْجِع نعتمِدُه في ذلك فلا نَغُضّ الطرفَ على هذا الاختلاف في وفاته فقد تقدّم عن صاحب «الجذْوَة» أنه توفي في سنة ٦٥٨، وعن صاحب «الذخيرة السنِيّة» أنّ وفاته كانت سنة ٦٥٩، وزاد قائلاً في العُشْر الأول لذي قَعْدة منها. فنحن لِمَا أنّ صاحب «الذخيرة» كان مُعاصراً أو كالمُعاصر لابن عبدون ولِمّا أنه زادَ تعيين الشهر الذي كانت الوفاةُ فيه وذلك يدلّ على مزيد التحقيق ولِما أن ابن القاضي كثيراً ما تضطرب نُسَخُه في مثل هذه الأمور نُرجّح تاريخَ صاحب الذخيرة، ونزيد في حياة شاعرنا سنةً كاملة، وقد كانت وفاتُه بمكناس باتفاق المؤرخين رحم الله الجميع.



عبدالعزيز الملزوزي
(ت ٦٩٧ هـ)

اسمه ونسبه وبماذا عُرف، مكانته في الدولة المرينية، عصره، لماذا اختير لمنصب شاعر الدولة، بينه وبين ولي العهد، أمداحه للمنصور المريني ومناسباتها، ملحمته الكبرى، أرجوزته التاريخية، البحث عنها في دير الجبل المقدس، وفاته، أديب ملزوزي آخر.

أبو فارس عبدالعزيز بن عبدالرحمٰن بن محمد، ويعرف بعزّوز المَلْزُوزي نسبة إلى مَلْزُوزة إحدى قبائل زِنَاتَة. وهو من أهل مكناس؛ كان شاعر دولة المنصور المَرينيّ والأديب الملحوظ في بَلاطه لم ينافسه في ذلك ولا مالكُ ابنُ المُرَحّل الذي كان شيخ الأدباء المغاربة في ذلك العصر فضلاً عن غيره.

قال في الإحاطة: «كان شاعراً مكثراً سيّال القريحة مُنحطَ الطبقة متجنداً عظيم الكفاية والجرأة جسوراً على الأمراء عَلِق بخدمة الملوك من آل عبدالحق وأبنائهم ووقف أشعارَه عليهم وأكثر النظم في وقائعهم وحروبهم وخَلَط

المعرّب باللسان الزّناتي في مخاطباتهم فعُرِف بهم ونال عريضاً من دنياهم وجماً من تقريبهم. واحتلّ بظاهر غرناطة في جملة السلطان أمير المسلمين أبي يعقوب وأمير المسلمين أبيه فاستحق الذكر لذلك».

فهذه الجملة، عدا ما تشتمل عليه من التنويه بشاعرية الملزوزي، تنبئنا بما كان له من دالّة على القوم ومكانة عظمى عندهم، أوجبها له هذا النسب الذي يَمُتّ به إلى قبيلهم، وهذه الكفاية المزدوجة التي سلكته في جملة المدافعين عن دولتهم بالسيف والقلم، فهو ذو الكِفايتين، وصاحب المزيتين، فلا جرمَ إن رأيناه يتبوأ في دولتهم أعلى المناصب، ويزاحم أمراءهم وملوكهم بالمناكب، ولقد كان يتولى النظر في أمور الحِسْبة ببلاد المغرب بمعنى أنه كان رئيس هذه الخُطَة الشرعية والمرجوع إليه فيها بجميع نواحي المملكة، وناهيك بها.

بل بلغ من حظوته عندهم أن قتلوا بسببه شاعراً هجاه، وهو عبدالمهيمن بن محمد الأشجعي البَلذُودي نزيلُ مراكش ترجمه في الإحاطة وقال فيه: كان شاعراً مكثراً، سهل الشعر، سريعه، كثيراً ما يستجدي به، وكان يتقلد مذهب أبي محمد علي بن حزم الفقيه الظاهري ويصول بلسانه على مَن نافَرَه... ثم قال: (وفاته) من خط الشيخ أبي بكر بن شبرين: وفي عام سبعة وتسعين وستمائة، توفي بفاس الأديب عبدالمهيمن المُكْتَنى بأبي الجيوش البلذودي، وكان ذا هذَر وخُرَق، طوّافاً على البلاد، ينظم شعراً ضعيفاً يستمنح به الناس. وآلت حالهُ إلى أن سُعِيَ به لأبي فارس

عزّوز الملزوزي الشاعر؛ شاعر السلطان أبي يعقوب وخديمه وذُكِر له أنه هجاه، فألْقَى إلى السلطان ما أوجب سجنه ثم ضُرِبَتْ عنقُه صبراً. نفعه الله. اهـ. وهذه ـ وأبيك ـ نهاية التقريب، وغاية الاختصاص.

وقد كان الملزوزي ممن سايرَ الانقلاب المريني في خطواته الأولى وشاهد انهيار دولة الموحدين العظيمة، وكيف أُدِيل بنو مَرِين منهم وظهروا عليهم وألجأوهم إلى الانكماش في عاصمة الجنوب المغربي بعد أن وضعوا أيديهم على شمال المغرب وشرقه، حتى إذا جاءت النوبة للسلطان المنصور أبي يوسف يعقوب بن عبدالحق المريني ممدوح شاعرنا قضى عليهم القضاء المبرم، فقتل آخر ملوكهم أبا دَبّوس، واستولى على عاصمته مراكش سنة ٦٦٨. وبذلك صفا له مُلك المغرب، فوجّه وجهه نحو تملك القطر الجزائري حيناً ونحو إنقاذ الأندلس من أيدي الإسبان حيناً آخر ـ فهذا الشاعرُ ـ رأى المجد والسلطان ينتقلان إلى بني قومه زِنَاتة ورأى السعد مقبلاً نحوه يمشي، فأتاه هو يهَرْوِلُ وارتمى في أحضانه وبسبب هذه العصبية القَبَلية وما كان معها من صدق الوَلاء فإنه حصل على ثقة السلطان وأصبح شاعره الخاص غيرَ مُدافَع.

والسلطان أبو يوسف كان حقاً سلطاناً عظيماً أحد المناصير الثلاثة من ملوك المغرب؛ المنصور الموحدي، وهو، والمنصور الذهبي. فإنه الذي أقرّ نصاب الملك في بني مَرِين وانتزع صولجانه من الموحدين كما علمت، وهو الذي وضع خطة الاستيلاء على المغربين الأوسط والأدنى

وتوحيد إفريقية الشمالية وخضوعها لسلطان واحد، كما كانت أيام الموحدين وإن لم تنجح هذه الفكرة لأسباب بيّناها في النبوغ المغربي.

وفضلاً عن ذلك فإنه كان شديد الاهتمام بإنقاذ الأندلس من يد الإسبان الذين كانوا قد اكتسحوها تماماً إلا ولايةَ غرناطة وما في حكمها من بعض الثغور في جنوب الجزيرة، فجاز إلى الأندلس بطلب من صاحب غرناطة أربعَ مرات ونازلَ الإسبان في عُقْر دارهم وأبلى بلاءً حسناً في قتالهم وكفّ عاديتهم عن المسلمين والدولةِ النّصْرية مَدَى حين. وأبقاها سُنّةً موروثةً بعده لأبنائه وأحفاده من ملوك بني مَرين فكانوا يقيمون الرابطة بالأندلس للدفاع عن البقية الباقية فيها للمسلمين من سكان وسلطان.

فرجلٌ هذه أعماله في ميدان السياسة والحرب، بَلْهَ ما له من آثار جليلة في ميدان الحضارة والعمران كبناء المدينة البيضاء (فاس الجديد) وغيرها كان لِزاماً أن يكون له شاعر خاص يغني بأمجاده ويشيد بفتوحه، فكيف إذا كانَ من قبيلته وأهل عصبيّته؟

وكان المنصور شديدَ التقريب للملزُوزي فرافقه في جميع حركاته ما كان منها بالأندلس أو بغيرها وصدرَ منه في وصف تلك الوقائع الحربية قصائد طنّانة.

وأما ولده وولي عهده الأمير أبو مالك، فإنه اتخذ الملزوزي من بطانته وأهل مجلسه. . . وقد كان على جانب من العلم والأدب يحبّ الشعر ويروي كثيراً منه ويأخذ نفسه بنظمه، فينظم منه البيتين والثلاثة ويجيد. . . فكان يأنَسُ

بشاعرنا ويرتاح إليه ويُساجِلُه ويُناقِلُه فيجد عنده بُغْيَتَه وفوق ما يتمناه من بداهة حاضرة ونكتة بارعة وأدب غضّ وروح خفيفة مع الوَقار والاحتشام، والتحفُّظ التام.

نقل عنه في الإحاطة أنه قال مخبراً عن هذا الأمير: «دعاني يوماً والسماء قد ارتدت بالسحائب، والغيثُ يبكي بالدموع السواكب، كأنه عاشق صدّ عنه حبيبُه، ففاضت دموعه عليه وكثر نحيبه، ولم يرقأ له مَدْمَع، كأنه لم يبقَ له فيه مَطْمَع، فكان الرّعْد حسرَته، والبرق لوعَتَه وزفْرَته، فقال لي: ما أحسن هذا اليوم، لو كان في غير شهر الصوم، فاقترح غاية الاقتراح عليّ، وقال: قل فيه شعراً بين يديّ. فأنشدتُه هذه الأبيات:

اليومُ يومُ نزَاهة وعُقار
وتقرّب الآمال والأوطار
أوَ ما ترى شمس النهار قد اختفت
وتسترت عن أعين النظّار
والغيثُ سحّ غمامُه فكأنّه
دَنِفٌ بكى من شدة التذكار
والبرقُ لاحَ من السماء كأنه
سيف تألّق في سماءِ غُبار
لا شيءَ أحسنُ فيه من نيل المنى
بمُدامة تبدو كشُعْلَة نار
لولا صيامٌ عاقني عن شربها
لخلعْتُ في هذا النهار عِذاري

لـو كـان يُـمـكـنُ أن يُـعـار أعـرتُـهُ
وأصـومُ شـهـراً فـي مـكـان نـهـار
لـكـن تـركـتُ سـرورَه ومُـدامَـه
حـتـى أكـونَ لـديـه ذا إفـطـار
ونُـديرُهـا فـي الـكـأس بـيـن نـواهـد
تـجـلـو الـهـمـوم بـنَـغْـمـة الأوتـار
فـجفُـونُـهـا تـغـنـيـك عـن أكـواسـهـا
وخـدُودُهـا تـغـنـيـك عـن أزهـار»

فشكره غاية الشكر، وقال: «أسكرتَنا بشعرك من غير سُكر».

وقد أورد هذه الحكاية صاحب الذخيرة السنية بسياق آخر وذلك أن ذلك كان بحضرة مراكش ولم يورد هذا الشعر كله ثم قال: إنه بعد إنشاده الشعر أمر له بخمسمائة دينار وكسوة فأعطاه الوكيل الدراهم ناقصة وأعطاه الكسوة من أثواب خشنة وكان الوكيل حاجًا فقال الملزوزي فيه شعراً منه:

إن كـانـت الـحُـجّـاجُ طـرًّا مـثـلَـه
لا بـارك الـرحـمْـنُ فـي الـحـجـاج

فبلغ قوله الأمير فضحك ودعا بالحاج المذكور فأمره بإبدال الدراهم له أن يعطيه كسوة أخرى من رفيع الثياب ويعطيه مائة أخرى كفارة لما صنع.

ثم قال في الذخيرة: «ومرض ـ يعني الشاعر ـ في

مراكش بالحمّى فدخل عليه الأمير أبو مالك وقد وجد راحة فقال له: كيف أنت يا عبدالعزيز؟ وكيف رأيت مراكش؟ فأنشأ يقول:

لـمُـرّاكُـشٍ فـضـلٌ عـلـى كـل بـلـدة
وما أبـصـرت عـيـنٌ لـهـا مـن مُـشـابـه
ومـا هـي إلا جـنّـة قـد تـزخـرفـت
ولـكـنـهـا حُـفّـت لـنـا بـالـمـكـاره...»

ومما أنشده إياه من شعره:

أعَـلِـمـتَ بـعـدك زفـرتـي وأنـيـنـي
وصـبَـابـتـي يـوم الـنّـوى وشُـجـونـي
أودعـتَ إذ ودعـتَ وجـداً فـي الـحـشـا
مـا إن تـزال سـهـامـه تُـصـمـيـنـي
ورقـيـب شـوقـك حـاضـرٌ مـتـرقـب
إن رمـتُ صـبـراً بـالأسـى يُـغـريـنـي
مِـن بَـعـد بُـعـدك مـا ركَـنـتُ لـراحـة
يـومـاً ولا غـاضـتْ عـلـيـك شـؤونـي
قد كـنـتُ أبـكـي الـدمْـعَ أبـيـضَ نـاصـعـاً
فـالـيـوم تـبـكـي بـالـدمـاء جـفـونـي
قـل لـلـذيـن قـد ادّعـوا فَـرْطَ الـهـوى
إن شـئـتُـمُ عِـلْـمَ الـهـوى فـسـلـونـي
إنـي أخـذت كـثـيـره عـن (عُـزْوَة)
ورويـتُ سـائـرَه عـن (الـمـجـنـون)

هـذي روايـتُـنـا عـن أشـيـاخ الـهـوى
فـإن ادّعَـيْـتـم غـيـرهـا فـأرونـي
يـا سـاكـنـي أكـنـافَ رمْـلـةِ عَـالـجِ
ظـفـرتْ بـظَـبـيـكـم الـغـريـرِ يـمـيـنـي
فـي روضـة نـمّ الـنـسـيـمُ بـعَـرفـهـا
وكـذاك عـرف الـروض غـيـرُ مَـصُـون
والـوُرقُ مـن فـوق الـغـصـون تـرنـمـت
فـتُـريـك بـالألـحـان أيّ فـنـون
تُـصـغـي الـغـصـونُ لـمـا تـقـول فـتـنـثـنـي
طَـرَباً لـهـا فـاعْـجَـبْ لـمـيْـل غُـصـون
والأرضُ قـد لـبـسـت غـلائـل سُـنـدُسٍ
قـد كُـلّـلَـت بـالـلـؤلـؤ الـمـكـنـون
تـاهـتْ عـلـى زُهْـر الـسـمـاء بـزَهْـرهـا
وعـلـى الـبـدور بـوجـهـهـا الـمـيـمـون

ولما مات رثاه بهذه القصيدة:

سـهـمُ الـمـنـيـة أيـن مـنـه فِـرار
مـن فـي الـبـريـة مِـن رَداهُ يُـجـارُ
حـكـمَ الـزمـان عـلـى الـخـلائـق بـالـفَـنَـا
فـالـدار لا يـبـقـى بـهـا دَيّـارُ
عـش مـا تـشـاء فـإن غـايـتـك الـردى
يـبـلـى الـزمـان وتـذهـب الأعـمـارُ

فاحذَر مُسالمة الزمان وأمْنَه
إن الزمان بأهله غدارُ
وانظر إلى الأمراء قد سكنوا الثرى
وعليهم كأسُ المنون تُدارُ
قد وُسّدُوا بعد الحرير جنادلاً
ومن اللحود عليهم أستارُ
مُنِعوا القِبابَ وأُسكِنوا بطن الثرى
حكمت بذاك عليهمُ الأقدارُ
لم تنفع الجُرْدُ الجياد ولا القَنَا
يومَ الردى والعسكرُ الجرّارُ
في موت عبدالواحد المِلِك الرّضى
لجميع أملاك الورى إنذارُ
أن ليس يبقى في الملوك مُمَلّك
إلا أتَتْه منيةٌ وبَوارُ
ناديتُه والحزن خامرَ مهجتي
والقلبُ فيه لوعةٌ وأُوارُ
يا مَن ببَطْن الأرض أصبح آفلاً
أتَغِيبُ في بطن الثرى الأقمارُ؟!
إن الذين عهدتَ صفوَ ودادهم
هل فيهمُ بعد الردى لك جارُ؟
ترَكُوكَ في بطن الثرى وتشاغلوا
بعُلا سِواك فعُرْفُهم إنكارُ

لـمـا وقـفـتُ بـقـبـره مُـتـرَحّـمـاً
بـانَ الـعـزاءُ وهـاجـنـي اسـتـعـبـارُ
فـبَـكـيـتُ دمـعـاً لـو بـكـت بـمـثـالـه
غُـرّ الـسـحـائـب لـم تـكـن أمـطـارُ
يـا زائـريـه اسـتـغـفـروا لـمـلـيـكِـكـم
مـلـكَ الـمـلـوك فـإنّـه غـفّـارُ

وكان على مثل الصّلة بالأمير يوسف بن يعقوب، ولما ولي الملك بعد وفاة أبيه كان شاعره وأبقاه على ما كان له من ولاية الاحتساب يدلنا على ذلك ما جاء في «الجذوة» من أنه في سنة ثلاث وتسعين (وستمائة) أمر بجعل الصّيعان على مُدّ النبيّ ﷺ على يد الفقيه الأديب أبي فارس الملزوزي.

أما قصائده في مدح أمير المسلمين يعقوب المنصور فهي الطّوالُ الجِيّاد التي تنمُّ عن تدفق خاطره وتوقد ذهنه، وتدل بالخصوص على تحمُّسه لبني عمه والإشادة بذكرهم ونظره إلى حركتهم بأنها حركة دينية صِرْف فهو يخلع عليها صفات القُدس والجلال مما أدى إلى ـ اختياره كما قلنا ـ من بين الشعراء لمهمة شاعر العرش المريني، وإنه لاختيارٌ صادف محله ونحن نوردها هنا بحسب تواريخها؛ متتبعين المناسبات التي قيلت فيها:

ففي سنة ٦٧٠ اعتزم المنصور الجوازَ إلى الأندلس إجابة لرغبة ابن الأحمر ملك غرناطة الذي بعث إليه يستنصر به ويَسْتَغْدِيه على العدو، وكان المنصور في حرب مع

يَغْمُراسِن بن زيّان صاحب تِلمْسان فبعث إليه يطلب صلحه ويكون معه يداً واحدة في جهاد العدو. فامتنع من ذلك يَغْمُراسن وأقسم ألاّ يُصالحه أبداً حتى يأخذ منه الثأر أو يموت دون ذلك وكتب بذلك كتاباً من بعض فصوله هذان البيتان:

فلا صُلْح حتى نرويَ السيفَ والقَنا
وتأخذ عبدُ الواد منكم بثارِها
وأشفي غليلي من مَرينَ التي طغت
بسبْي غَوانِيها وقتْل خِيارها

فلما سمع يعقوب هذا الجواب عمل على غزوه ورفع له الملزوزي قصيدة يمدحه ويحرضه على يغمراسن وهي هذه:

أرى كلّ جبار بسيفك يصغُر
وكلّ مليك عن فَعالك يقصُر
وكل عزيز خاضعاً متواضعاً
وكل يمان عن يمينك يُمطِرُ
تنام عيون الناس طرًا وأنت في
صلاح العلى والخلق ما زلتَ تسهر
أضاءت بك الدنيا فزال ظلامُها
فأيامها من نُور وجهك تُسفر
وكان لَدَيْنا الدينُ قد ضاع حقّه
ولم يبقَ منه غيرُ عين تَحدرُ

بعثتَ إلى يغمور بالصلح معلماً
وقلت عساه بالبَصيرة ينظُرُ
فلم يغتبط بالصلح جهلاً وغلظة
فيا عجباً من خاسر كيف يخسر
أردتَ بأن تهديه للرشد والهدى
وكيف يرى رشداً شَقيّ مُغيّر
فإنكَ لا تهدي مَن أحبَبْتَ للهدى
أتدفع عنه ما عليه مُقَدّر
أبى الله إلا أن يخصّك بالهدى
ويعطيك في أخراك ما هو أكثر
ويَخرِم يَغْمُوراً جِهادَ عدونا
ويجعله في بحر بأسك يُغمَر
فأسْبِق به فهوَ الجهاد بعينه
فحتى متى في الدين يغمور يُقصر
فتَأخُذُه قهراً وتَمْلِكُ أرضَه
فأنت عليه في الملاحِم أقدر
أيَنْسى نفيض إيسَلي ثم وَجْدةً
ويوم تَلاغٍ والقَنا تتكسّر
وقد سطعت بيضٌ خِفافٌ صوارم
وقد حَجَب الشمس المنيرة أغْبرُ
ولا شمسَ إلا وجه يعقوب إذ بدا
تراه لدى الهَيْجاء والحزب تُسْعر

ويَغْمُور قبل الحرب يحلِفُ أنه
إذا ما التقى الجمعان للأسر يذْعَر
فلما رأى أسيافكم تستبي الطلى
وأبصر خَيْل الله كالأسْد تزأرُ
تولّى على أعقابه متحسراً
فأين مضت أيمانُه والتجبّر
أيجحد يغمورٌ فضائلك التي
إذا عُدّدت عند الوفا ليس تحصر
وأنتَ الذي أنقذتَ درعاً من الرّدى
وكانت بها الأعرابُ للنهب تكثر
قطعت لهم قضداً جِبالاً تصعبت
تُرى العيسُ فيها والسوابق تخبر
فلما حللت السهل أرسلت ماجداً
تذِلّ له الأملاك ساعةَ يظهر
بأولاد عبدالحق قد ظهر الهُدَى
وصار الندى قد يمّم الغرب يقطُر
أتَوْا قاصدين الغرب والظلم عمّه
فصار بهم يسبي العقول ويبْهَرُ
وقد قال خيرُ العالمين محمد
يكون لكم بعدي لدى الغرب معشر
بهم يعتلي الإسلام بعد امتهانه
ويرجع في أثوابه يتبختر

وأرجـو مـن الـرحـمٰـن أنـكـمُ هـمُ
فـفـي فـعـلـكـم هَـذْيُ الـمـآثـر يـظـهـرُ
أبـا يـوسـف أنـت الـغِـيـاثُ لـديـنـنـا
أولـو الـعـلـم في أخبارهـم بك بشّروا
سـتـمـلـكـهـا غـربـاً وشـرقـاً وقِـبْـلَـةً
وجَوْفاً فـهـذا كـان في الـجـفْـرِ يُـذكـر
طُـلَـيْـطِـلـةً تـغـزو ويـفـنـى مـلـيـكـهـا
وإشْـبِـيـلـيَـا عـمّـا قـريـب تُـذَكّـر
مَـريـنُ ألا قُـودُوا الـجـيـاد لـنـهـبـهـا
ولـلـغـزْوِ يـا أُسْـد الـفـوارس فـانـفِـروا
لـقـد سـكـن الأعـداء مـسـاجـدَ ربـنـا
وكـان بـهـا قـبـلُ الـمـهـيـمـنُ يُـذكَـر
فعادت إلى الخِنْزِير والشرك مسكناً
وبُـوقـاتُـهـم فـوق الـصـوامـع تَـزْمُـر
وكـم غَـنِـمـوا مـنّـا حِـسـانـاً كـواعِـبـاً
وغُـزْلانَ درّ في الـمـقـاصـيـر تُـقـصَـر
وكـم أيـتَـمـوا مـنّـا بـنـيـن أصـاغـراً
فـأكـبـادنـا مـن حـالـهـم تـتـفـطـر
يـظـنـون أن الـدهـر قـد نـام عـنـهـمُ
وأنّ عُـــلاهـــم لا تـــزال تُـــظـــفّـــر
أمَـا عَـلِـمُـوا أن الإلٰـه يُـبـيـدهـم
بـجَـيْـش مَـلِـيـكٍ نـصـرُه مـتـيـسـر

هو الملك المنصور ذو المجد والعلا
أبو يوسف غيثُ الغمام المطهر
فلو قيل للإسلام مَن كنت ترتجي
لقال لنا يعقوب ذاك الغَضَنْفَر
وما هو للإسلام إلا مُهَنَّد
بنوه له حَلْي أنيق وجوهر
فمَن كأبي الأملاك مَن مثلُ يوسف
تخال الندى من كفهم يتفجر
يزينهم علم وحلم وعفة
وجود سكِيبُ الوَبْل لا يتعذر
فلا زال هذا الملك فيك وفيهم
يُحسّنُه الرحْمَانُ لا يتكدّر
إليكَ أميرَ المؤمنين قصيدةً
تُعجّزُ مَن في الغرب والشرق يشعرُ
ثناؤكم فيها اللآلىء نظمت
وذكركم مسك ذكي وعنبر

فأنت ترى كيف يُخطّىء يغمراسن في نظره ويستخف به ويُذكّره الكائنات التي هُزم فيها في إيسلى ووجدة وتلاغ ويعظم من شأن ممدوحه ويُكبِر همته وشجاعته ويُؤوّل الحديث المشهور: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق...**» إلخ، على بني مَرِين ويزجُر له الفال بأنه سيملك أقطار الدنيا وجهاتها الأربع وقواعد الأندلس الكبرى

ويؤكد له ذلك بأخبار الجَفْر. ثم يعطف على بني مرين عموماً فيستثير نخوتهم ويهز أريحتهم لحرب الإسبان وإنقاذ الأندلس... إلخ. وهذا خير ما يقوله شاعر رسمي لمليكه فإذا ضمّ لذلك الإخلاص وصدق الاعتقاد فقد حاز الكمال. وذلك كله في عبارة مفهومة وأسلوب واضح وما تلقاه من إبهام أو غموض في بعض الأبيات فإنما مصدره من تحريف النسّاخ أو خطأ المطبعة على أنّا أصلحنا كثيراً من ذلك وحذفنا ما لم يظهر لنا وجه الصواب فيه وإنما أبقينا الأبيات الأساسية التي لا يمكن تجاوزها إلى غيرها لأنها التي تحفظ وحدة القصيدة والخطب فيها سهل كما يقولون.

وكان خروج المنصور لحرب يغمراسن في صَفَر السنة المذكورة، ولما تلاقى الجيشان في رجب انهزم يغمراسن ووقعت الكرة عليه وقتل ابنُه فارس وانتُهبت محلته إلى غير ذلك. وكان مع المنصور، في هذه الحرب ولداه أبو مالك وأبو يعقوب فرفع الملزوزي هذه القصيدة العامرة إلى الأمير أبي مالك يصف فيها الكائنة والقتال ويمدحه:

أشاقَتْك أطلالُ الديار الطواسمُ
فقلبك حيرانٌ ودمعك ساجِم

وقفتَ عليها بَعد بُعد أنيسها
وصبرُك قد ولّى ووجدك لازم

بعيداً عن الأوطان تسلى فإنها
تُهيّج أشواقَ المحب المعالم

تحنّ إلى سلمى ومن سكن الحِمى
وأين من المشتاق تلك النواعم
إليك فإني لست ممن تشوقه
معاهدُ سلمى أو سَبَتْه المباسم
إذا هامت العشاق يوماً بكاعب
فقد بات في الأدلاج في البيد هائم
لألقى ملِيكَ الأرض وابنَ مليكها
أبا مالك، ليثُ الحروب الضّراغم
مُذِلّ الأعادي في سماء عَجاجةٍ
بها البيضُ برقٌ والدماء غمائم
رواعدُها صوتُ الكماة وشُهبها
دَرَاريك[1] هند تشتهيها الصوارم
بها أرضُ حرب لا ترى الأرض مثلها
لها الدّمُ غيثٌ والصخور جماجم
إذا طاف شيطان من الأسد حولها
فكف أبي الأملاك بالسهم راجم
تحيد رماحُ الخطّ عنه كأنها
على الجسم منه والجيادِ طلاسم
وما ذاك من قصد الكماة لرميها
ولكنه بالطعن والضرب عالم

(١) جمع دريكة وهي الطريدة، ولعله يريد قذائف البارود فإن المرينيين من أول من استعمله.

أبو مالك ليث الحروب وغيثها
وبدر إذا ما الحرب بالنقع فاحم
ألا أيها الجيش الذي رامَ حربَهم
تيقّظْ إلى البلوى فإنك نائم
أتطمع أن تلقى ملوكاً ثلاثة
لبعضهم تعنو الملوك القماقم
ألست ترى أُسْدَ العرين تبيدها
وأجسامها قد فارقتها الجماجم
سحائب أطيار تَرنّمُ فوقها
كما سجعت فوق الغصون الحمائم
إذا الخيل جالت في الحروب حسبتهم
قضاءً من الرحمان ما منه عاصم
فهذا على اليمنى يُبِيد حماتها
وذاك على اليسرى فأين المقاوِم
ووالدهم في جاحم الحرب بينهم
يُبيد كماة الجيش والسعد قائم
ترى جثث الأبطال تسقط بينهم
سقوط مبان فارقتها الدعائم
وقد خضَب البيض النجيعُ كأنه
رَقاشٌ وأطراف السيوف معاصم
أبا مالك لا زلت للملك مالكاً
لك السعد بيتٌ والسيوف تمائم

أتاكم به يغمورُ يقدُم جمعَه
ولم يدرِ أن الحَيْن في الجيش قادم
فمُزّقَ ذاك الجيشُ كلّ ممزق
كما مزّقتْ ميتاً بقبر قشاعم
تديرُ كؤوسَ الموت فيه عليهم
أُسودٌ بأطراف السيوف تلاطم
وما كل مَن قاد الجيوش إلى العدا
يعود إلى الأوطان والجيش غانم
إذا لم يكن سعدُ السعود يقوده
فماذا الذي تغني الجيوش الصوارم
فمن كان يبغي الملك والمجد والعلا
تساوى لديه شَهدُها والعلاقم
إذا شيّدوا شيئاً من الرأي بينهم
فرأيكم للرأي والجيشِ هادم
كأن كماة الجيش فعلٌ مضارع
ويَتْرُك للأعناق منها جوازم
وتجمعها بالسيف جمعاً مكسراً
وجمعك ما بين الكتائب سالم
هنيئاً لكم نصر مبين على العدا
وطولُ سعود شأنها متداوم
أمير تلمسانٍ أبدت جيوشه
وما هو مظلوم ولا أنت ظالم

فديتك يا يغمور هل لك زاجر
أيقظانُ جِسّ أنت أم أنت نائم
أفي كل عام تترك ابنَك للقنى
وتُسبَى لك الغِيدُ الحسانُ الكرائم
أتيتَ لأخذ الثأر ونحك منهم
وقلت عسى الأيامُ يوماً تُسالم
فخلفت أيضاً للصوارم فارساً
وليدك لم تشفق عليه الضراغم
فها أنت كالعَيْر الذي مرّ يبتغي
بحرمانه قِرناً فمَرّ يزاحم
ولو أنه قد مرّ يطلب ما قضى
لعاد ولم تبصر عليه خياشم؟

وقال بمدينة سلا وقد أخذ المنصور البيعة لولده أبي يعقوب في ١٢ ربيع الأول ٦٧١:

يا ظبيةَ الوعساءِ قد برِح الخفا
إني صبَرتُ على فراقك ما كفى
كم قد عصيت على هواكِ عواذلي
وأُثابُ بالتبعيد منك وبالجفا
حمّلتِني ما لا أطيق من الهوى
وسقيتِني من غنج لحظك قَرْقفا
وكسوتني ثوب النّحول فمنظري
للناظرين عن العيان قد اختفى

هـذا قـتِـيـلـكِ فـارحـمـيـه فـإنـه
قد صار من فرط النحول على شفا

لـهْـفـي عـلـى زمـن تـقـضّـى بـالـحـمـى
وعـلـى مـحـل بـالأجَـيْـرِع قـد عـفـا

أتـرى يـعـود الـشـمـل كـيـف عـهـدتـه
ويـصـيـر بـعـد فـراقـه مـتـألـفـا

لله درّكِ يـا سـلا مـن بـلـدة
مَن لم يعاين مثل حسنك ما اشتفى

قـد حـزتِ بَـراً ثـم بـحـراً طـامـيـاً
وبـذاك زدتِ مـلاحـةً وتـزخـرفـا

فـإذا رأيـت بـهـا الـقـطـائـع خـلـتَـهـا
طـيـراً يـحـوم عـلـى الـورود مـرفـرفـا

والـجـاذفـيـن عـلـى الـرّكِـيـمُ[1] كـأنـهـم
قـوم قـد اتـخـذوا إمـامـاً مـسـرفـا

جـعـل الـصـلاة لـهـم رُكـوعـاً كـلّـهـا
وأتـى لـيـشـرع فـي الـسـجـود مـخـفـفـا

والـمـوج يـأتـي كـالـجـبـال عُـبَـابُـه
فـتـظـنـه فـوق الـمـنـازل مـشـرفـا

حـتـى إذا مـا الـمـوج أبـصـر حـده
غـض الـعِـنـان عـن الـسـرى وتـوقـفـا

---

(١) يريد به الموج.

فكأنه جيش تعاظم كثرة

قد جاء مزدحماً يبايع يوسفا

ملك به تُزهى الخلافة والعلا

وبه تجدد في الرياسة ما عفا

مَن لم يزل يسبِي الفوارس في الوغى

إن سلّ يوماً في الكريهة مرهفا

ألِفَت محبته القلوبُ لأنه

ملك لناب الجود أضحى مُتحِفا

ألقى إليه الأمرَ والدُه الذي

عن كل خطب في الورى ما استنكفا

يعقوبٌ الملكُ الهمام المجتبى

الماجد الأوفى الرحيم الأرأفا[1]

طُوبَى لمَن في الناس قَبّلَ كفّه

والويل منه لمن غدا متوقفا

أعطاك ربّك وارتضاك لخلقه

فاقتل بسيفك مَن أبى وتخلّفا

وامْدُدْ يمينَك للوجود فكلهم

اليوم عاد مؤملاً متشوفا

فاليومَ لا تخشى النعامُ ذئابها

ويعود من يسطو بها متعطفا

---

(١) لا يخفى أن المقام للرفع، ولكنه نصب على إضمار فعل أمدح رعياً للقافية.

صَلُح الزمان فلا عدو يُتّقى
لم يخشَ خَلْقٌ في علاك تخوّفا
يا مَن سُررْتُ بملكه وعلائه
اليومَ أعلمُ أن دهري أنصفا
فإذا ملكتَ فكن وفيًّا حازماً
واعلم بأن الملك يصلح بالوفا
وأفِضْ بذلك للوجود وكن لهم
كهفاً وكن ببعيدهم مستعطفا
فالجودُ يُصلح ما تثَلّم في العلا
وسواه يفسد في الخلافة ما صفا
إن البَرِيّة في يَدَيْك زِمامُها
فاحذر فديْتُك أن تكون مُعنّفا
يا مَن تسرْبَل بالمكارم والعلا
لا زال حاسدُكم يزيد تأسفا
خذها إليك قصيدةً من شاعر
في نظم فخرك كيف شاء تصرفا
خضَع الكلامُ له فصار كعَبْدِه
ما شاءَ يصنع ناظِماً ومؤلّفا
لا زالت الأمجادُ تخدمُ ملكهم
ما زارت الحُجّاجُ مَرْوةَ والصّفَا

وفي سنة ٦٨٤ لما عاد المنصور من غزوته الكبرى بالأندلس استقرّ بقصره من الجزيرة الخضراء طلباً للاستجمام

والراحة حيث كان قد أوغل في بلاد النصارى وأمعن فيهم قتلاً وأسراً وتخريباً وتدميراً حتى ضجّ الكبراء والرؤساء من ذلك وطلبوا إليه الصلح فصالحهم على شروط منها مُسالمة المسلمين كافة والوقوف عند مَرضاته في ولاية جِيرانه من الملوك أو عَداوتهم ورفعُ الضريبة عن تجار المسلمين بدار الحرب من بلاده وترك التضريب بين ملوك المسلمين والدخول بينهم في فتنة وغير ذلك.

ثم جلس للتهنئة يوم عيد الفطر بقصره المذكور فأنشد الشعراء كلمات مختلفة وكان من أسبقهم في ذلك الميدان شاعره عبدالعزيز الملزوزي أتى بقصيدة طويلة تناهز ٢٥٠ بيتاً ذكر فيها سيرةَ السلطان وغزواته وغزوات بنيه وحفَدتِه وامتدح قبائلَ بني مَرِين ورتَّبهم على منازلهم وذكر فضلهم وقيامهم بالجهاد وذكر القبائل الأخرى على اختلافها وبناء البلد الجديد الذي على الجزيرة والدول وحلول أمير المسلمين بها وصلاتَه بجامعها وذكر منبرها وهنأه بعيد الفطر وشكره على قيامه بأمر الدين واهتمامه بنشر العلم وهي مَلْحَمة فريدة في اللغة العربية فأنشدها بين يديه بمجلسه ذاك، قارِئه الفقيه أبو زيد الفاسي الدار المعروف بالغَرابِلي وهو يصغي وجميع أشياخ بني مَرِين والقبائل الأخرى يستمعون حتى أتى على آخرها وقبّل يده فأمر للقارئ بمائتي دينار وأمر للناظم بألف دينار وخلع عليه ثياباً وأمر له بمركوب وهي هذه متروكاً منها بعض الأبيات لما دخلها من التصحيف:

بِـحَـمْـدِ الله أفْـتَـتِـحُ الـخـطـابـا

وأبـدأ فـي الـنـظـام بـه الـكـتـابـا

لـعـل الله يُـبْـلـغـنـي الأمــانـي

ويـفـتـح بـالـسـرور عـلـيّ بـابـا

ويُـرشـدُنـي إلـى نـقْـل صـحـيـح

ويـرزُقـنـي مـن الـقـول الـصـوابـا

هـو الـمـلِـكُ الـذي خـلَـق الـبـرايـا

وصـوّرهـم وقـد كـانـوا تـرابـا

إلٰـهٌ واحـدٌ حـيّ مـريـد

عـلـيـم قـادر بـالـجـود حـابـى

يـرى أثـرَ الـنّـمَـيْـلَـة حـيـن تـمـشـي

وتـقـطـع فـي الـدجـى الـصّـمّ الـصّـلابـا

ويـسـمـعُـهـا إذا دبّـت عـلـيـه

وجُـنْـحُ الـلـيـل قـد أمـسـى غُـرابـا

تـقـدّس عـن صـفـات الـخـلـق طـرًّا

وأن يُـعْـزَى لـه الـوصـف اكـتـسـابـا

يُـحِـيـطُ بـعـلـم مـا تـحـوِي عـلـيـه

طِـبـاقُ الـسّـبْـع إن دُعِـيَ اسـتـجـابـا

ويَـعـلـمُ فـي الأراضـي الـسـبـع عـلـمـاً

يـحـيـطُ بِـعَـدّ حـصْـبَـاهـا حِـسـابـا

ولَـمْ لا وهْـوَ أنـشـأنـا امـتـنـانـاً

وواعـدنـا عـلـى الـحـسـنـى الـمَـثَـابَـا

وأنـشـأ فـي الـسـمـاء لـنـا بُـرُوجـاً

وألْـبَـسَـهـا بـزيـنـتـهـا ثـيـابـا

وأجرَى الشمسَ ثم البدر فيها
وسخّرَ بالرياح لنا سحابا
لِتَسْقي بلْدة ميْتاً بغيث
هَمُولٍ بالحياة هَمَى وصابا
وأجرى في بسيطتها عُيُوناً
مدفّقة وأودية عِذابا
وأرسل في الورى منهم رسولاً
شفيعاً مصطفى يتلو الكتابا
محمد النبيّ المجتبى مِن
سُلالة هاشم فالأصل طابا
وقد أسرى به مولاه ليلاً
وجبريلٌ له أخَذَ الرّكابا
دَنَا من حضرة العَلْيا تدلّى
وحاز القرب منه فكان قَابا
عليه صلاة رب العرش تَتْرَى
مَدَى الأيّام تُورِثُنا الثوابا
وما سحّتْ بماء المُزْن سُحْبٌ
فحلى الزّهْرُ بالزّهْرِ الهضابا
هو المبعوث بشّرَنا ببشرى
من المولى وأنذرنا العقابا
وحرّضنا على قتل الأعادي
نُضيقُ بهم تِلالاً أو شِعابا

ونبذُلُ في جهاد الكفر نفساً
ومالاً قد جمعناه اكتسابا
فصدّقه أبو بكر عَتِيقٌ
وثانيه أبو حفص أجابا
وثالثهم أبو عمرو ووقّى
أبو حسن طِعاناً أو ضرابا
هم الخلفاء أربعة تواصوا
على الإسلام صوناً واحتجابا
وباقي العَشْرَةِ المرضِيّ عنهم
سموا وعلا ابنُ عَوْفِهم الشهابا
سعيد وابنُ جرّاح وسعد
زُبَيْر طلحة كَرُموا صِحابا
هم قد بايعوا المختار حقاً
على أن لا يضام ولا يصابا
وأن تفنى نفوسُهُم احتماء
لدين الله بُعداً واقترابا
وهم قد جاهدوا في الله حقاً
وسلُّوا في عداتهم الذّبابا
عليهم رحمة الرحمان تَمْلا
بنور من قبورهم الرّحابا
فقد بانُوا وبانَ من اقتفاهم
خَفَى نور بدا منهم وغابا

وعـاد الـديـن بـعـدهـم حـقـيـراً
ومُـنـسـجِـقـاً ومـمـتَـهَـنـاً مُـصـابـا
وصـار بـغـربِـنـا الأقـصـى غـريـبـاً
فـيـا لِـلـدّيـن يـغـتـرب اغـتـرابـا
ولـم يُـعـلـم جـهـاد لـلأعـادي
بـهـا ذِي الأرضُ يـحـتـسـبُ احـتـسـابـا
إلـى أن فـتّـح الـرحـمـانُ فـيـه
لـيـعـقـوب بـن عـبـدالـحـق بـابـا

* * *

لـمـولانـا أمـيـر الـعـدل مُـلْـك
بـه انـسَـلَـبـت يـدُ الـكـفـر انـسـلابـا
ولـم نـرَ قـبـلـه فـي الـعـصـر مَـلْـكـاً
أرانـا فـي الـعِـدا الـعَـجـب الـعُـجـابـا
فـهـنـأه الإلـه الـسـعـدَ فـيـه
ونـيّـةَ صِـدْقِـه بِـراً أثـابـا
دعـا لـلّـه دعـوةَ مـطـمـئـن
لـمـوْلاه دعـاءَ مُـسْـتـجـابـا
فـلـبّـى الـلّـهُ دعـوتـه وسـنّـى
لـه الـحـسـنـى وجـنّـبـه الـصـعـابـا
فـجـازَ الـبـحـر مـجـتـهـداً مـراراً
يـقـود إلـى الـعـدا الـخـيـل الـعِـرابـا

فألبس ملكهم ذلاً وصارت

به الأملاك ترتهب ارتهابا

أبَعْدَ جواز أرض البِرْث[1] فخرٌ

تزيد به مَنالاً واغتِجابا

هو القُطْب الذي دارت عليه

نجوم السعد لا تخشى اضطرابا

بنوه نجومُه والبدر فيهم

وليّ العهد مَن بالفضل حابى

أبو يعقوب مولانا المرجّى

لدفع الخطب إن أرسى ونابا

هو الملِك الذي أعطى وأقنى

وصيّر طَعْم عيش مُستطابا

وأبناء الإمارة ترتجيهم

وأحفاد العلا اعتصبوا اعتصابا

أُوفّي حقّهم فرداً ففرداً

كما جعلوا الجهاد لهم نصابا

واذكُر غزْوَ هذا العام حتى

أذكرُ كل شخص ما أصابا

وانشر من فَخار مَرِينَ بُرداً

كما احتزبوا لدينهم احتزابا

---

(١) أي: جبال البريني، وكان المنصور قد أوغل في أرض العدو حتى وصل إليها.

وأزوِي مدْحَهُم في الدهر شعراً
أُدَوّنه وأودِعُه الكتابا
ليَبْقى ذكرُهم في الأرض يُتلى
يراه الرّكْبُ زاداً واحتقابا
فعزّهمُ مكين في المعالي
وعزّ سواهم أضحى سرابا
سأودِع غزوهم في الروم نصاً
نظاماً لا أخاف به اضطرابا
وأذكر من وقائعهم أموراً
يصير بهن طعم الشرك صابا
فهل من سامع خبراً لُباباً
يرد عليّ بالصدق الجوابا
فيُصغي سمعَه نحوي امتناناً
يقول إذا أصبتَ لقد أصابا

* * *

وذلك إن مولانا أناخت
عزائمُه بطنجةِ الرّكابا
فجاز البحر في صفر خميساً
بخامس شهره قصد الضرابا
وحلّ طَرِيفاً[1] المولى بجَمْع
كَسا شُمّ المعاقِل والهضابا

---

(١) جزيرة طريف التي على المحيط.

وفـي غـدٍ يـومِـه ضُـربـت لـديـه
هـنـالـك قـبـة تُـنـسـي الـقـبـابـا
زهـت حُـسْـنـاً وجـمّـلَـهـا سـنـاهـا
لـهـا اخـتـاروا مـن الـحِـبَـر الـثـيـابـا
ولـم يُـرَ مـثـلُـهـا فـي الـحـسـن لـكـن
قـد انـتُـخـبـت بـسـبـتَـةٍ انـتـخـابـا
فـحـلّ بـهـا كـأنّ الـشـمـس لاحـت
بـطـلـعـتـه ازدهـاءً واعـتـجـابـا
فـيـا لـكِ قـبّـةً يـحـكـي سـنـاهـا
سنَا الـفـلـكِ الـمـحـيـطِ بـهـا انـتـسـابـا
وخـلّـف عـامـراً وأتـى قـريـبـاً
مـن أزكُـشَ[1] ثـم رام بـه اجـتـلابـا
ورامَ نِـكـايَـةَ الأعـداء فـيـه
فـأوسـعـه احـتـرافـاً وانـتـهـابـا
ومـنـه أتـى شَـرِيـسـاً فـي جـمـوع
ووافـتـه مَـحَـلّـتُـه[2] إيـابـا
فـأوسـعـتِ الـزّرُوعَ بـهـا احـتـصـاداً
وأوسـعـت الـغُـروس بـهـا احـتـطـابـا
أذاقـت مـن شَـلُـوقَـةَ[3] كـلّ ربـع
وروض مـن قـنـاطـرهـا عَـذابـا

---

(١) بلدة من عمل شريس.
(٢) يعني: جيشه وهو اصطلاح مغربي يرادف المعسكر.
(٣) هي سانلوكار بالإسبانية.

مـدِيـنـتُـهـا وقـلـعـتـهـا بُـحَـيْـر
أشـاعـوا فـي نـواحـيـهـا خـرابـا
وجـهّـز لـلـعـدا مـنـصـورَ جـيـش
لـيـتـرك دارهـم قـفـراً يـبـابـا
عـلـى إشْـبـيـلـيـةٍ أجـرى خُـيُـولاً
فـأوسـعَ مَـن بـسـاحـتـهـا انـتـهـابـا
سبَـى مـنـهـم وغـادر ألـفَ عِـلـج
تُـطـايـر عـنـهـم الـطَّـيـرُ الـذبـابـا
وآب مـظـفَّـراً وأبـو عـلـي
أخـوه أتـى وقـد حـمـدوا الإيـابـا
وجـهّـز جـيـشـه عـمـروٌ ووافـى
ذُرَى قَـرْمُـونَـةٍ[1] يـحـكـي الـغـرابـا
ولـم يـتـرك بـهـا أحـداً سـوى مَـن
بـهـا يـنـكـبّ فـي الأرض انـكـبـابـا
أتـى بـغـنـائـمٍ مـلأت عـديـداً
بـسـيـطَ الأرض بـل غـطّـت شـعـابـا
وجـيـش أبـي مُـعَـرّف الـمـعـلّـى
عـلـى إشْـبِـيـلـيـةٍ حـطّ الـقـبـابـا
أتـى بـغـنـيـمـة فـيـهـا سـبَـايـا
وأوصـلَ مـن مَـراكـبـهـم لُـبـابـا

---

(١) يقال لها بالإسبانية: كرمونة.

بـذاك الـيـوم سـار أبـو عـلـي
إلـى بُـرْج فـصـيّـره خـرابـا
وغـزوةُ مَـشـقَـرِيـطٍ[1] لـيـس تـخـفـى
فـضـائـلـهـا لـقـد حـسـنـت مـآبـا
ولا أنـسـى الـبُـروز عـلـى شَـرِيـس
فـأهـلُ الـبـرج قـد ذاقـوا الـعـذابـا
فـذاك الـيـوم أعـظـمُ يـوم حـرب
رأيـنـاه إذا ذكـروا الـضـرابـا
ويـوم وصـول مـولانـا الـمـرجـى
أبـى يـعـقـوب أشـرق واسـتـطـابـا
هـنـاك بُـرُوز أهـل الـديـن ردت
مـحـاسـنُـهُ عـلـى الـدهـر الـشـبـابـا
ولا أنـسـى الـقـنـاطِـر حـيـن دارت
بـهـا الإسـلامُ[2] تـوسـعـهـا انـتـهـابـا
وأهـلُ شَـرِيـسَ لـمـا أن تـراءى
ولـيّ الـعـهـد قـد فَـرِقـوا ارتـعـابـا
هـنـالـك خـصـص الـمـولـى بـجـيـش
أبـا يـعـقـوب مـولانـا وحـابـى
بـأربـعـة مـن الآلاف خـيـلاً
مُـسـوّمـة مـظـفّـرة عِـرابـا

---

(١) حصن بناحية قادس يسمى بالإسبانية Mageceite.

(٢) هو على حذف مضاف، أي: أهل الإسلام.

وأجرى الخيل من كل النواحي
على إشبيلية شَرْفاً[1] وغابا
فلم يترك بتلك الأرض خلْقاً
أُسارى أو سَبَايا أو سلابا
فتلك غنيمة ما إن سمعنا
بهذا العام أكثرها انجلابا
وبعد أتى أبو زيّان وافى
شريساً بالبروز وما استرابا
بهذا اليوم جهّزه بألفٍ
إلى قَرْمُونة وافى الصوابا
وجاء بزرعها وانحاز عنها
إلى إشْبيلية ولها استتابا
وقتّل أهلها وسبى وولّى
حميداً في سرور مَن استطابا
ومولانا أبو يعقوب وافى
شَلُوقَة ثم حرقها ضرابا
إلى كَبْتُور[2] أعْمَلَ حدّ عزم
لو أن الهندَ مُسّ به لذابا
أحاط بربعها براً وبحراً
فدمّرها وصيّرها يبابا

---

(١) يريد جبل إشبيلية المسمى بالشرف وغابتها.

(٢) قرية من قرى إشبيلية.

وخلّف أرضها غبْراً وأضحت
حمامةُ حسن مَغْناها غُرابا

* * *

ولمّا دوّخ المولى النصارى
وألبسهم من الذل الثيابا
ولم يترك بأرضهم طعاماً
ولا عيشاً هنيًّا مُستطابا
وأعْوَزَه بها علَف وطالت
بها حركاتُه قصد الإيابا
وقد ظهرت لأسطول الأعادي
علاماتٌ تزيدهم ارتيابا
يؤمّ إلى الجزيرة رام منها
يجدّد غزوةً تدني الشوابا
إلى إشْبيليةٍ ليبيد منها
طغاة طالما عبدوا الصّلابا
ويلزَمُها يقيم بها شتاء
يهدمها ويبقيها خرابا
فلما حلّ ربعَ طريفَ وَالى
إلى أجْفَانِه[1] الغُرّ الكتابا

---

(١) أي: سفنه.

فــيــأمــر أن تُــجَــهّــز لــلأعــادي
أســاطــلُــه فــأســرعــت الــجــوابــا
فــجــهــزهــا ووافــت بــاحــتــفــال
وبــأسٍ مــنــه رأسُ الــكــفــر شــابــا
هــنــالــك شَــنْــجَــةٌ وافَــى شــرِيــســاً
بِــلَــيْــلِ ثــم عَــايَــن مــا أرابــا
فــوجّــه مــنــه أرســال الــنــصــارى
إلــى الــمــولــى لــيُــســعِــفَــه الــطــلابــا
يــطــالــبــه بــعــقــد الــصــلــح يــعــطــي
لــه مــاذا أراد ومــا اســتــجــابــا
ولــم يــقــبــل لــهــم قــولاً وآبــت
لــه الأرســال حــائــرة خــيــابــا
ولــم يــرددهــم الــمــولــى ســوى مِــن
حَــديــثِ الــبــحــر لا يــربــو ارتــيــابــا
فــقــرّب جــيــشَــه الــمــنــصــور بــحــراً
إلــى أُفــرُوطَــة[1] الــكــفــر انــســيــابــا
فــلــمــا بــرّز الأســطــول فــرّت
جيوش الكفر في البحر انسرابا
ومــا ألْــوَتْ عــلــى مُــتــعــذّريــهــا
ولــو سُــئِــلــت لــمــا ردت جــوابــا

---

(١) أي: أسطوله.

فجاز إلى الجزيرة في سرور
يجدد غزوة تبدي العجابا
فوافته بها الأرسال تبغي
بعطفته من الصلح اقترابا
فأسعفهم به جازاه ربي
على آرائِه الحسنى الصوابا
ويجعلُ فيه للإسلام طرًّا
مَصالحَها التي تَرِدُ الطلابا
وذلك من أمور قد حكاها
لنا المولى وأحصاها حسابا
فبادر شنجةٌ في الصلح حتى
تقرّب من مدينته اقترابا
وجاء لقَيْله الأعلى وأعطى
هديات لمولانا رغابا
فكان هناك بينهما أمور
يُنسّيني السرور بها الخطابا
وأسرع شنجة للعقد حِرْصاً
وأظهر فيه للمولى ارتغابا
فتمّ الصلح بينهما لعذر
مُبين واضح والسرّ غابا

فهذي جملة والشرح عندي
سأودعه بإيضاح كتابا

* * *

هَنيئاً يا مَرِينُ لقد علوتم
بني الأملاك بأساً وانتجابا
وفاخرتم بمولانا البرايا
فأعطوكم قِياداً وانغلابا
أبعد الفُنْش وابن الفُنْش يبغي
رضاكم لا يخاف به الغيابا
فحزبُ مرين حزبُ الله يحمي
حِمَى الإسلام لا يخشى عِقابا
إذا سلّوا السيوف ترى الأعادي
وقد حلّوا الرّبَى مَدّتْ رقابا
هم أشفارُ عين الملك تَذْرِي
عن الملك القَتام أو الترابا
وهم مثل الأنامل حيث مدت
يد الأمر التي تعطي الرغابا

* * *

مرينُ لقد مدحتكم فوفّوا
لمادحكم بِبُغْيَتِه الثوابا
وقد ورّختُ دولتكم وصارت
حِلَى يحدو بها الحادي الركابا

وكــل مُــنــظّــم شــعــراً ســيــفــنَــى

ويــبــقــى فــيــكــم مــدحــي كــتــابــا

هذا ما أمكننا روايته من شعر الملزوزي وهو قدر ضئيل بالنسبة إلى إكثاره وسيّلان قريحته على ما أخبرنا به ابن الخطيب في الكلمة المتقدمة عنه. ومهما يكن من أمر فإن هذا القليل من أدبه الذي سمح المؤرخون بإثباته ليدل على ثروة فكرية طائلة؛ إذ الرجل على ما يظهر كان يُنفِق من سعة، فيقول كيفما تأتى له القول ولا يكلف نفسه بصَقْل العبارة ولا بانتقاء الكلمة إلا الكلمة تكون مفهومة من العموم ولو لم تقع موقعها الذي تعنيه قواعد البلاغة؛ وهو ما عناه ابن الخطيب في تلك الكلمة بانحطاط طبقته.

بقي علينا أن نشير إلى أن للملزوزي أيضاً أثراً علمياً مهماً وهو أرجوزته التاريخية التي سماها نظم السلوك في ذكر الأنبياء والخلفاء والملوك. وعلى ما يذكر المؤرخون من بعض أبياتها يظهر أنها أرجوزة نفيسة للغاية، وفضلاً عن دلالتها على قوة ملكة النظم عند صاحبها فإنها تدل على ثقافته التاريخية الواسعة مما يزيد في قَدْرِنا للرجل واعتباره من رجال العلم والأدب معاً.

ودونك هذه القطعة؛ منها في تاريخ دخول بني مرين إلى المغرب:

فــي عــام عــشــرةٍ وســتّ مِــئــةِ

أتــوا إلــى الــغَــرب مــن الــبَــرّيّــة

جــاؤوا مــن الــصــحــراء والــســبــاســب

عــلــى ظــهــور الــخــيــل والــنــجــائــب

كـمـثـل مـا قـد دخـل الـمـلـثّـمـون
مـن قـبـل ذا وهـم لـه مُـيـمّـمُـون

ومنها تعلم أنه يشير إلى التاريخ بأعداده وألفاظه لا بالرموز والألغاز؛ وتلك طريقةُ بلغاء الأدباء كابن عبد ربه، ولسان الدين بن الخطيب، وقد خالف هذه الطريقة أبو القاسم الزياني في أرجوزته ألفية السلوك، وذكر التاريخ بحساب الجُمّل ثم عدّ ذلك من مزايا أرجوزته التي فاقت بها نظم الملزوزي ونظم لسان الدين والعذر له حيث إن باعه في النظم كان قصيراً جداً.

ومن أرجوزة الملزوزي أيضاً في ذكر سيرة المنصور المريني:

سـيـرةُ يـعـقـوبَ بـن عـبـدالـحـق
قـد حـاز فـيـهـا قـصـبـات الـسـبـق
سـيـرتُـه أن يـقـرأ الـكـتـابـا
ويـذكـر الـعـلـوم والآدابـا
يـقـوم لـلـصـلاة ثُـلْـثَ الـلـيـل
ومـا لـه عـن وِرْدِه مـن مَـيْـل
حـتـى إذا مـا الـصـبـح لاح وانـصـدع
قـام وصـلّـى لـلإلـه وركـع
وضـجّ بـالـتـسـبـيـح والـتـقـديـس
حـتـى يُـتـمّ الـحـزب فـي الـتـغـلـيـس
يـقـرأ أولاً كـتـاب الـسـيـر
والـقـصـص الـتـي بـكـل خـبـر

ثم فتوح الشام باجتهاد
وبعده المعروف بالأنجاد
سؤاله تعجز عنه الطلبة
ومَن لديه من أجلّ الكَتَبة
يقعد للكُتب إلى وقت الضحى
ثم يصليها كفعل الصلحا
ويأمر الكتّاب بالأوامر
في باطن من سره وظاهر
ويدخلُ الأشياخُ من مرين
للرأي والتدبير والتزيين
مجلسُه ليس به فجور
ولا فتى في قوله يجُور
كأنهم مثل النجوم الزّهْر
وبينهم يعقوب مثل البدر
قد أُلبِسَ الوَقار والسكينه
وحلّ في مكانة مكينه
حتى إذا ما حانَ وقتُ الظهر
قام إلى بيت الندى والفخر
يبقى إلى وقت صلاة العصر
يأتي بقصد نَهْيِه والأمر
فيُنصف المظلوم ممّن ظلمه
ولم يزل إلى صلاة العَتَمَه

ثـم يـؤم بـيـتـه الـكـريـمـا
ويـتـرك الـوزيـر والـخـديـمـا
ثـم يـنـامُ تـارةً وتـاره
يـدبـر الأمـور والإداره
مـا إن يـنـام الـلـيـل إلا سـاهـراً
يـنـوي الـجـهـاد بـاطـنـاً وظـاهـرا
رَأيـتُـه يـصـحـبـهـا الـتـمـكـيـن
مـبـارك طـالـعـه مـيـمـون
فـأمّـن الـغـرب مـن الـفـسـاد
ونـشـرَ الـعـدل عـلـى الـعـبـاد
ولـم يـدع فـي الـغـرب مَـن يَـجُـور
وزالـت الأهـوال والـفـجـور
وخـضـعـت مَـرِيـنُ تـحـت قـهـره
وأذعـنـوا لـنـهـيـه وأمـره
ورفـع الـظـلـم عـن الـرعـيـه
وقـمـع الـطـغـاة فـي الـبـريّـه
فـهـل سـمـعـتـم مثل هـذي الـسـيـره
وهـذه الـمـآثـر الأثـيـره
كـذاك كـان فـعـلـه قـديـمـا
بـذاك نـال الـمـلـك والـتـعـظـيـمـا

* * *

هذا وللحقيقة والتاريخ أذكر أني بحثت عن هذه الأرجوزة طويلاً فلم أجدها. وكنت وقفت على الفهرس

الذي وضعه المستشرق الإسباني الكبير (أسِين بَلاسْيُوس) لمكتبة دير الجبل المقدّس (Sacro monte) بضاحية غرناطة وذكر فيه أن من جملة محتويات هذه المكتبة أرجوزة الملزوزي هذه فتشوّفت نفسي إلى الحصول عليها.

ومع أنه قال: إنها متلاشية جداً، فقد طلبت أن تنقل لي نسخة منها بالكتابة أو التصوير وجاء الجواب بأن ذلك غير ممكن لأنها في حالَة رَثّة لا يُستفاد منها.

وفي صيف سنة ١٩٤٨ توجهت لغرناطة وما بي إلا الوقوف على عين النسخة والنظر في إمكان الاستفادة منها، ولقيت هناك الأستاذ ليفي بروفنسال فحدثني أنه وقف عليها قبل نحو العشرين عاماً وكتب مقالاً عنها بإحدى المجلات الفرنسية واصفاً لها بما وصفها به الآخرون من أنها عديمة الفائدة لتلاشيها.

ولم يكن هذا الكلام ليثنيني عن عزمي. ففي غد ذلك اليوم أخذت سيارة أجرة (تاكسي) ويمّمتُ دير (Sacro monte) وكان الدير فارغاً من عُمّاره للعطلة الصيفية فاستقبلني به راهب مهذب الأخلاق عَمِلَ على إحضار مفتاح الخزانة من غرناطة وجعل يطلعني على ذخائرها وهو يظنّ أن طَلِبَتي في هذه الكتب المزخرفة المنمّقة التي تُنوّق في كتابتها وتذهيبها وما كانت لتحل من نفسي محل الأرجوزة المطلوبة حتى أيِس وكدت أيأس معه من العثور عليها وإذا به يأتيني بدُرْج يحمل الرقم المطلوب.

ولما فتحته وجدت به أوراقاً متلاشية حقاً؛ بعضها

مخروم والبعض الآخر ممحوّ، وما بقي منها مكتوب بخط مغربي واضح. وبعد تصفُّحها وجدت الورقة السالمة منها ـ وهي الوحيدة ـ تشتمل على خطبة عادية مبتدأ بالحمد والصلاة على النبيّ ﷺ ثم الدعاء للسلطان أبي يعقوب يوسف بن المنصور وتنتهي قبل ذكر المقصود. . . على أنها مفتتحة بهذه العبارة: «قال عبدالعزيز بن (عبدالواحد) بن محمد الملزوزي النجّار المكناسي الدار عفا الله عنه» مما يجعلنا نظن أن تكون هذه الخطبة مقدّمة الأرجوزة. . . ولكن الأرجوزة لا وجود لها في هذه الأوراق.

أما باقي الأوراق فهو شعر نظمه الملزوزي بتلمسان يتشوق إلى بلدته مكناسة، وأمداح مختلفة في السلطان من بحور الشعر المعروفة غير الرجز، وخلافُ ذلك من الأغراض؛ أيكون هذا ديوان شعر الملزوزي أو طَرَفاً منه على الأقل؟. . .

ولكن ماذا يفعل الأديب بشعر ذهب منه في هذا الوجه عجزُه وفي الوجه الآخر صدرُه؟ لأن هذه الأوراق كلها ـ كما علمتَ ـ إما مخرومةُ النصف أو ممحوتُه وليس بين واحدة منها أدنى اتصال. فيا أسفي على هذه البضاعة الأدبية الضائعة! . . .

ولقد أحسّ الراهب الأديب بتحسُّري على ما ذهب من هذه الأوراق، فجعل يعتذر إليّ، ويؤكد لي أن هذا التلاشي لم يقع عندهم، ويريني كيف أنهم معنيون بالمحافظة على هذه الآثار النفيسة والذخائر الثمينة، وأن هذه الأوراق هكذا وصلت إليهم ويستدل لي بأن (أسين) نفسه ذكر هذا التلاشي

الذي أصابها من زمان، فشكرت له لطفه وحمدته على غيرته، وأخيراً قلت: إن رحلتي لم تذهب عبثاً، فقد علمت أن هذا الأثر ليس هو الأرجوزة وكفى.

* * *

ولا يمر هذا الكلام دون أن نسجل ما ورد في طالعة تلك الأوراق من أن اسم والد المترجم عبدالواحد لا عبدالرحمٰن كما ذكرناه في أول هذه الترجمة اعتماداً على ابن الخطيب فليت شعري أيهما الصحيح؟ وعلى كل فغيرُ ابن الخطيب لا يذكر اسم والده مطلقاً، وإنما يقتصر على اسمه مجرداً. وكذلك وفاته لم يذكرها غير ابن الخطيب حيث قال: (وفاته) توفي خنقاً بسجن فاس لسعاية سُعِيت به جناها تهوره في وسط عام سبعة وتسعين وستمائة ويا عجباً كيف جوزي بما جنته يداه في حق الشاعر البلذودي جزاءً وفاقاً في نفس العام ونفس البلدة، فلنطأطىء الرأس أمام العدالة الإلهية التي لا يفوتها ظالم مهما كان حاله...

* * *

ثم إن هناك أديباً مَلْزُوزِيًّا آخر اسمه عبدالله ويكنى أبا محمد ولكنه متأخر جداً عن هذا إذ كان في عصر السعديين ومن قوله في مطلع قصيدة يهنىء المنصور الذهبي عند فتحه للسودان:

هنيئاً لسلطان المغرب من أتى
بشير توالت بالسرور بشائره

ذكره ابن القاضي في دُرّة الحِجال.

مالك بن المرحل
(ت ٦٩٩ هـ)

اسمه ونسبه، ولادته، تردده بين سبتة وفاس، براعته في العلوم، مشيخته، احترافه، ولايته القضاء، كتابته للأمير، نبوغه في الشعر، مواهبه الأدبية، تعميره، وفاته وقبره، كتبه، نظمه، نماذج منه، شعره، نماذج منه، قوة حافظته وكثرة استحضاره، خصوماته الأدبية كان ماذا، بينه وبين ابن رشيق، انتقاد ابن عبدالملك المراكشي له وجواب ابن رشيد السبتي عنه، بينه وبين سارة الحلبية.

أبو الحَكَم مالك بن عبدالرحمٰن بن علي؛ بن عبدالرحمٰن بن فَرَج؛ ابن أزرق بن مُنير بن سالم بن فَرَج؛ ابن المُرَحّل بفتح الراء وتشديد الحاء مع فتحها: المَصْمُودي نسباً، المَخْزُومي ولاءً، السّبْتي بلداً، ويكنى أيضاً أبا المَجْد، الشاعر المغربي الكبير.

ولد بمالقة في ١٧ محرم فاتح عام ٦٠٤، كما قال هو مجيباً لِوَلَد القاضي ابن عبدالملك وقد سأله عن مولده:

يا سائلي عن مولدي كي أذكره
وُلِدتُ يوم سبعةٍ وعَشَرَه
من المحرم افتتاحَ أربعٍ
من بعد ستمائة مُفسّره

وسكن سَبْتَةَ طويلاً، ثم رحلَ إلى فاس وعاد إلى سبتة، ثم إلى فاس ثانية؛ حيث توفي بها.

ونشأ خامل الذكر، خفِيّ المنزلة، فأظهره أدبه وشعره، وأكسباه هذه الشهرة التي يمتاز بها عن سائر شعراء المغرب، وكان بارعاً في النحو واللغة والبيان والعَرُوض، مشاركاً في الفقه والفرائض، ويتلو القرآن بالسبْع.

أخذ القراءات عن أبي جعفر أحمد بن علي بن الفخّام، وجالس بمالقة أبا بكر بن عبدالرحمٰن بن علي، وأبا عُمَر بن سالم، وأبا النّعيم رضوان بن خالد، ولقي بإشبيلية أبا القاسم بن بَقِي. وأبا الحسن الدبّاج، وأبا علي الشّلَوْبين، ودرس بفاس على الفقيه اليَزْناسني وغيره، كما روى عنه أبو جعفر بن الزبير، والقاضي أبو عبدالله بن عبدالملك وجماعة.

وكان ربما احترف صناعة التوثيق ببلده، وولي القضاء مرات بجهات غرناطة وغيرها، وكتب للأمير أبي مالك بن السلطان يعقوب المنصور المريني، وربما لوالده أيضاً، ثم للسلطان يوسف بن يعقوب، وكان حَسَنَ الكتابة، ولكن الشعر أغلب عليه، فإن فيه كان نبوغُه بحيث تصرف في فنونه تصرفاً مطلقاً مع رقة الطبع، وحسن البديهة، استعان

على ذلك بالمقاصد اللسانية؛ من علم العربية؛ والحفظ للجيد من الشعر، والبصَر بمعانيه، ونفوذ الذهن، وشدة الإدراك، وقوة العارضة، والتبريز في ميدان اللَّوْذَعِية، وحرارة النادرة، وحلاوة الدعابة، فكان مالكاً لزِمَام الأدب، راويةً للمُلَح والفوائد، طيب المجالسة، ولم يزدد على تقدّم سِنّه إلا بَسْطَةً في العلم.

وقد عمّر ٩٥ سنة، فما ضعُف في قول الشعر، ولا وَنَى عن مقاومة خصومه، ولا قصّر في شيء من أمره، ولما بلغ الثمانين من عمره قال:

يا أيها الشيخ الذي عُمْرُه
قد زادَ عشراً بعد سبعينا
سَكِرْتَ من أكواس خمْر الصّبا
فحَدّك الدهرُ ثمانينا

ثم لما حضرته الوفاةُ قال وأوصى أن تكتب على قبره:

زُرْ غريباً بمغْرِبِ — نازِحاً ما له ولي
تركوهُ موسّداً — بين صخْر وجنْدل
ولتقُل عند قبره — بلسان التذلُّل
رَحِمَ اللّهُ عبدَه — مالكَ بْنَ المُرَحّل

فنُفذت وصيته، وكتبت هذه الأبيات في مُرَبّعةٍ على قبره وقد زالت في زمن ابن القاضي.

وكانت وفاته رحمه الله في ١٧ رجب عام ٦٩٩ بمدينة

فاس، ودفن خارج باب «عَجِيسة» عن يمين الخارج من المدينة، في الروضة الثانية المركنة. قال في «السلوة»: «ويقال: إن ضريحه من جملة ما قُطِع عن هذا الخارج بالسور الجديد؛ المُحْدَثِ عن يمين خارج هذا الباب، وصار من جملة داخل المدينة، إلى ناحية المحل المعروف الآن، بزربية الخشب، والله أعلم».

وترك ابنُ المرَحّل عدا شعرَه الغزير كتباً منوعة، غالبها منظوم؛ فمنها التبيين والتبصير، في نظم كتاب التيسير؛ قصيدة طويلة عارَضَ بها الشاطبية في علم القراءات وزناً وقافية. والواضحة قصيدة في الفرائض. وأرجوزة في العروض. ونظم غريب القرآن لابن عُزَيْز. ونظم اختصار إصلاح المنطق لابن العربي. وأرجوزة نظم فيها فصيح ثعلب وشرَحَه، سماها المُوَطّاة. ونظم الثلث الأول من كتاب أدب الكتاب لابن قتيبة بعد ترتيبه. وكتاب الحِلى. والقصيدة المسماة اللؤلؤ والمرجان. وأرجوزة سماها سلك النَّحَل؛ لمالك بن المُرَحّل. وترتيب الأمثال لأبي عُبَيْد؛ على حروف المعجم. وكتاب الرمي بالحَصى، والضرب بالعَصا: الآتي الكلام عليه.

وأكثر هذه الكتب غير معروف لنا اليوم، إنما عن المنظوم منها يمكننا أن نقول: إن نظمه متين منسجم، خال من الحشو والتكلف، ضرورة أنه صادر عن قريحة شاعرة، ومَلَكَة قادرة، كان يُضرب بها المثل في المعرفة بقرض الشعر، وعلم العروض. كما قال الكفيف الأنفاسي مُذَيّلاً للبيت الأول المشهور:

لقد مزّقتْ قلبي سهامُ جفونها
كما مزّقَ اللّخمِيّ مذهبَ مالك[1]
وصالتْ على الأوصال بالقَدّ والبها
فأمست كأبيات بتقطيع مالك[2]
وقلّدتُ إذ ذاك الهوى في مرادها
كتقليد أعلام النحاة ابنَ مالك[3]
وملّكْتُها رِقّي لِرِقّةِ عِطْفِها
وإن كنتُ لا أرضاه مِلْكاً لمالك
وناديْتُها يا مُنْيَتي بَذْلُ مهجتي
وما لي، قليلٌ في بديع جَمَالِك

وآية ذلك: نظمُ فصيح ثعلب الذي بأيدينا، فإنه من السهل الممتنع لا تكاد تعثُرُ فيه على لفظة زائدة، ولا تكميل للبيت، كما يقولون؛ ليس له معنى، ولا ما أشبه ذلك مع ما ضمّنه من شرح الكلِم الغريب، وتفسير المعاني المشتبهة، وجمع النظائر، فجاء أحسن من الأصل وأفيد. ويا ليت الطلبة يشتغلون به، وخصوصاً طلبة البادية. الذين تبقى دائماً بينهم وبين اللغة، هُوّةٌ سحيقة، ولو حصلوا ما حصلوا؛ فكما كان أصلُه لناشئة العرب في الماضي مورداً مَعِيناً يستقون منه ألفاظاً فصيحة، وتعابيرَ صحيحة للاستعمال في مختلفِ الأغراض؛ كذلك يكون نظمه للطلبة اليوم مُنجِداً ومُعِيناً على الفهم والأداء.

---

(١) هو ابن أنس الإمام.
(٢) هو ابن المرحل مترجمنا.
(٣) هو صاحب الألفية المشهورة.

وهاك فاتحته:

حمدُ إلٰهي واجب لذاته
وشُكرهُ على عُلا هِباته

نحمده سبحانه ونشكره
ومن ذنوب سلفَتْ نستغفره

ثم نُوالي أفضَلَ الصّلاة
على الرسول الطاهر الصّفات

محمد ذي الكَلِم الفصيح
والفضل والتقديس والتسبيح

صلّى عليه ربنا وسلّما
كما هدى بنوره وسلّما

وبعدَ هذا فجرى في خاطري
من غير ندب نادبٍ أو آمِر

أن أنظِمَ الفصيح في سُلُوك
من رجَز مهذّب مسبُوك

وبعضِ ما لا بد من تفسيره
وشرْحِهِ والقول في تقديره

من غير أن أعدُوَ ذاك المعنى
واللفظَ إلا لاضطرار عنّا

فالمرءُ قد تنتابه الضروره
فتصبح النفس بها مقهوره

رجوتُ فيه من إلٰهي الأجرا
والذكرَ في عباده والشكرا

والآن حين أبتدي في القول
والحمد لله العظيم الطول

ومن أمثلته في باب فَعَلْتُ بفتح العين:

وقد غَبَطتُ المرء في أحواله
أغبِطه بالكسر في استقباله
أعني تمنيتُ لنفسي مثل ما
له ولا يُسلب تلك النّعما

ومنها في باب فَعَلت بغير ألف:

ورَعَدَت سماؤنا وبَرَقَتْ
كأنها قد بسَمَت ونطَقَت
كذلك الإنسانُ في الوعِيد
وفي المُخِيف منه والتهديد
وقد يقال في الوعيد أرعدا
وأبْرَق الإنسانُ إن تهددا
قال الكُمَيتُ بعد كسْرِ السجن
وهَرَبٍ صار به في أمْنِ
(أبرِقْ وأرْعِدْ يا يزيدُ إنني
ليس الوعيد ضائري فأمْعِن)
هذا يزيدُ وأبوه يشهر
بخالد القَسْريّ ليس ينكر

... إلخ.

وهكذا يمضي مُسترسِل النفَس، ناظماً زُهاءَ ١٣٠٠ بيت فلا ينقطع ولا ينبهِر، ويكون نظمه مع ذلك إنما هو خاطر يخطر، (من غير رأي نادب أو آمر) فما أحسن الصدق، وعدم التكلف!...[1].

أما شعر المترجم فهو على أنحاء:

١ ـ ديوانه الجامع المسمى بالجَوَالات، ومعناها: المختارات.

٢ ـ الوسيلة الكُبرى، المرجوّ نفعُها في الدنيا والأخرى. وهي مجموعة أمداح نبوية، رتّبها على حروف المعجم، والتزم افتتاح أبياتها بحرف الرّوِيّ، وفي كل حرف منها عشرون بيتاً.

٣ ـ المُعَشّرات النبوية، وهي مجموعة من نَمَط الوسيلة، إلا أن في كل حرف منها عشرة أبيات فقط.

٤ ـ العَشْرِيّات الزّهْدية. وهذه مجموعة لا شك أنها على نمَط المجموعة قبلَها في عدد الأبيات، والتزام البدء بحرف الروي، وإنما تختلف عنها بالموضوع الذي هو الزهد والترغيب عن الدنيا، ولا شك أن ثمّ مجموعة أخرى عِشْرينية في هذا الموضوع، تماثل في عدد الأبيات مجموعة الوسيلة، وإن لم يذكرها مترجموه؛ لأني وقفت في أوراقٍ

---

(١) نظم الفصيح مطبوع بالمطبعة الفاسية ضمن مجموع المتون العلمية وهو الأثر الوحيد المطبوع من آثار المترجم فيما نعلم.

قديمة متآكلة على نموذج منها، وقد أثبته فيما يأتي، إلا بيتاً لم تمكني قراءتُه لتلاشي الأوراق، فبقيت القصيدة تسعة عشر بيتاً فقط.

وها نحن أولاء، نعرض عليك نماذجاً من كل هذه الأغراض، التي تضمنتها دواوينه، ونبدأ بالمديح النبوي؛ فمن ذلك هذه القصيدة التي استوعب فيها حروف المعجم بصنعة غريبة:

(أَلِفٌ) أجلّ الأنبياء نبيء
بضيائه شمسُ النهار تضيء
وبه يؤمل مُحسِنٌ ومُسيء
فضلاً من الله العظيم عظيما
صلُّوا عليه وسلّموا تسليما
(باءٌ) بدا في أُفق مكةَ كوكبا
ثم اعتلى فجلى سناه الغَيْهَبا
حتى أنارَ الدهرُ منه وأخصبا
إذ كان فيضُ الخير منه عميما
صلُّوا عليه وسلّموا تسليما
(تاءٌ) تبينتُ الهدى لما أتى
فنفى الشريكَ عن القديم وأثبتا
أحَدِيّةً مَن حادَ عنها قد عتا
وتلا كلاماً للكريم كريما
صلُّوا عليه وسلّموا تسليما

(ثاءٌ) ثوَى في الأرض منه حديثُ

في كل أفق طيبُه مبثوث

داعٍ بأنواع الهدى مبعوث

يتلو نُجُوماً أو يهزّ نجوما[1]

صلُّوا عليه وسلّموا تسليما

(جيم) جلا بسِرَاجه الوهّاج

ما جنّ من ليل الظلام الداجي

وسقى القلوبَ بمائه الثجّاج

فأصارها بعد الغُموم غمِيما

صلُّوا عليه وسلّموا تسليما

(حاء) حمَى دين الهدى بصفائح

وسما بشمّ كالجبال أراجِح

من كل أزهر هاشِمِي واضح

لولا نداه غدا النبات هشيما

صلُّوا عليه وسلّموا تسليما

(خاء) خبَت نيرانُ جهل شامخ

آياتُ علم للرسالة راسخ

من مُثبِت ماحٍ ومُنْسٍ ناسخ

قد خَصّ بالذكر الحكيم حكيما

صلُّوا عليه وسلّموا تسليما

---

(١) النجوم الأولى بمعنى الآيات القرآنية الكريمة والثانية بمعنى السيوف.

(دالٌ) دعـا فـأجـاب كـلّ سـعـيـد
وأتـى بـوعـد صـادق ووعـيـد
حـتـى أقـرّ الـنـاسُ بـالـتـوحـيـد
وتـجـنّـبـوا الإشـراك والـتـجـسـيـمـا
صـلُّـوا عـلـيـه وسـلّـمـوا تـسـلـيـمـا
(ذال) ذُبـاب حُـسـامـه مـشـحـوذ
لـلـنـاكـثـيـن وعـهـدهـم مـنـبـوذ
أمّـا الـسـعـيـد فـبـالـنـبـي يَـلُـوذُ
فـيُـدالُ مـن ذُل الـشـقـاء نـعـيـمـا
صـلُّـوا عـلـيـه وسـلّـمـوا تـسـلـيـمـا
(راءٌ) رويـنـا عـن ذوي الأخـبـار
أن الـنّـدى والـبـأس مَـعْ إيـثـا
بعضُ صفات المصطفى المختار
كـم قـد تـقـدّم بـالأنـام زعـيـمـا
صـلُّـوا عـلـيـه وسـلّـمـوا تـسـلـيـمـا
(زايٌ) زعـيـمٌ بـالـنـوال عـزيـز
وبـلـيـغُ معنًى في الـمـقـال وجـيـز
فـلـقـولـه مـن فـعـلـه تـغْـزِيـز
ولـربّـمـا عـاد الـكـلامُ كُـلـومـا
صـلُّـوا عـلـيـه وسـلّـمـوا تـسـلـيـمـا
(سـينٌ) سـلام كـالـنـفـيـس تـنـفّـسـا
وقـد اجـتـنـى وزداً وصـافَـح نـرجـسـا

أُهدِي إليه في الصباح وفي المسا
بقصائدٍ كادت تكون نسيما
صلُّوا عليه وسلّموا تسليما
(شينٌ) شمائلُهُ الكريمةُ تُعطِش
مَن كان من سكر المحبّة يَرْعَش
لكِنْ أضاع العُمْرَ فيما يُوحِش
فغدت ندامتُه عليه نَدِيما
صلُّوا عليه وسلّموا تسليما
(صادٌ) صَفِيّ للإلٰه ومخلصٌ
ومُقرّب ومفضّل ومخصّص
ذَهَبٌ سبيك وزنُه لا ينقُص
قد طاب خيماً في الورى وأروما
صلُّوا عليه وسلّموا تسليما
(ضاد) ضمِين نصحُه ممحوض
ضافي القراءة بالعلوم يَفِيض
إن غاض ماءُ البحر ليس يَغيض
لما استمر زُلالُه تسنيما
صلُّوا عليه وسلّموا تسليما
(طاء) طويل السيف متّسعُ الخطا
رَحْبُ الذراع ومَن يمد لهم سَطا
يُردي العدا وإذا ارتدى متخمّطا
يَبْرِي عذاباً إذْ ألام أليما

صلُّوا عليه وسلِّموا تسليما

(ظاء) ظهيرٌ للعباد حفيظ

حظ له أدب العباد حظيظ

حقّ له التأبين والتقريظ

مَيْتاً وحيًّا ظاعِناً ومُقيما

صلُّوا عليه وسلِّموا تسليما

(عين) عزيز ذكرُه مرفوع

في الأنبياء وقولُه مسموع

مشروح صدر حبّه مشروع

مَن لا يدين بذاك كان ذميما

صلُّوا عليه وسلِّموا تسليما

(غين) غزا مَن زاغ عنه ومَن طغى

وغدا يشُبّ لمن طَغَى نارَ الوغى

حتى أقامت مَن عصا بعد الصّغا

وتُقوّمُ النارُ العَصا تقويما

صلُّوا عليه وسلِّموا تسليما

(فاء) فواتحُ سورة الأعراف

وبَراءةٍ والرّعْد والأحْقاف

أحظتْه بالأقسام والأوصاف

فمتى تُوفي حقّه منظوما؟!

صلُّوا عليه وسلِّموا تسليما

(قاف) قوافي النظم عنه تضيق
أيُطِيقُه الإنسان؟ ليس يُطيق
فالخلق في التقصير عنه خليق
ولو أنهم ملأوا الفضاءَ رُقوما
صلُّوا عليه وسلّموا تسليما
(كاف) كريم العُنصُرين مُبارك
متفرّد بالجاه ليس يُشارَك
فهُوَ الذي بمَقامِه يَتَدارَكُ
والهوْلُ يغدو مُقعِداً ومُقِيما
صلُّوا عليه وسلّموا تسليما
(لام) له عُقِد اللواءُ الأحفل
وله الشفاعَةُ في غد إذ تُسأل
وإذا دعا فدعاؤه متقبّل
حقّ الرحيم بأن يُرى مرحوما
صلُّوا عليه وسلّموا تسليما
(ميم) ملائكة الإله تسلّم
فوْجاً عليه إذا بدا وتُعظم
ويمُرّ جبريل بها يتقدّم
فيُضاعِفُ التعظيم والتكريما
صلُّوا عليه وسلّموا تسليما
(نونٌ) نبيّ جاءنَا ببيان
وبمعجزاتٍ أُبرِزَت لعيَان

وبِحَسْبِه أن جاء بالقرآن
يشفي قلوباً تشتكي وجسوما
صلُّوا عليه وسلّموا تسليما
(هاء) هو الهادي الذي اقتدحَ النّهى
فتفكرت في مُلْك من رفع السّها
وقضى بحدٍّ للأمور ومُنتهى
فأفادها النظر السديد عموما
صلُّوا عليه وسلّموا تسليما
(واو) وهي رُكنُ التجلُّد بل هَوَى
لما ثوَى في التّرب من بَعْد التوى
فحَوَى الضريحُ الرّحبُ نجماً ما غوى
أجرَى من الدمع السّجُوم سُجوما
صلُّوا عليه وسلّموا تسليما
(لام) لأجلك فاض دمعي جدولا
فاخضرّ آسُ أساك إذ يَبِسَ الكلا
يا خَير من كلأ المكارمَ والعُلا
وحَمَى الحِمَى ورمى فأعمى الرّوما[1]
صلُّوا عليه وسلّموا تسليما
(ياءٌ) يُحَيّيه ويَسْقِيهِ الحَيَا
ربّ العباد مُجازِياً ومُوَفّيَا

---

(١) يعني جيش المشركين الذين رماهم ﷺ بالحصى فصاروا لا يبصرون.

ومُشرّفاً ومسلماً ومُصليا

يا مُسلمِينَ ورِثْتُموا التّسليما

صلُّوا عليه وسلّموا تسليما

ومن قوله في الوسيلة الكبرى، وهو مبتدأها:

إلى المصطفى أهديتُ غُرّ ثنائي

فيا طِيبَ إهدائي وحُسْن هِدائي!

أزاهرُ روض تُجتنى لِعِطارَة

وأسلاك در تصطفى لِصفاء

أكاليلُ من مدح النبيّ محمد

بها حازت الآدابُ كلّ بهاء

أضفت إلى ميلاده غزواتِه

وما عنّ لي من آيةٍ وأياء[1]

أردتُ رضى ربي بها فهْوَ أرتجي

وربي كريم لا يُضيع رجائي

أحقّ البرايا بالثناء مضاعفاً

نبي له في الوحي كلّ ثَنَاء

إمامُ هدى صلّى النبيّئون خلْفَه

وصلّى عليه أهلُ كلّ سماء

أمينٌ على الوحي الكريم وإنما

هو السرّ لم يُودَعْ سوى الأمناء

---

(١) أياء الشمس: ضوؤها.

أضاءت به الدنيا فمِن وجهه سرى
إلى الشمس والأقمار كلّ ضياء
أسِرّتُه تُهدي السرورَ وكفّه
يكُفّ عن الأعداء كلّ عَداء
أتانا بقرآنٍ كريمٍ مُفصّلٍ
جلا صَدأ الأذهان أيّ جَلاء
أمانٌ يعم المؤمنين ومنّةٌ
وحظّ جسيم من سَناً وسَناء
أيا عُتقاءَ المصطفى إنّ حقّه
عظيم فكونوا أكْرَم العُتقاء
أما كنتُمُ من قبله في شقاوة
فلولاه هل كنتم من السعداء
أتَرْجُونَ في يوم القيامة غيرَه
إذا قيل هل للناس من شفعاء
ألم تعلمُوا عُذْرَ النبيّين في غد
وقولهم لسنا من الأكْفاء
إليه يُشيرُ ابن البَتُول إذا رأى
ضجيجَ الورى في حيرة وعناء
إشارته من قبل ذاك إلى اسمِه
وكان الحَواريُون في الشهداء
ألا يا رسول الله أنت ملاذُنا
وطِبّك مذخور لأعْضَل داء

أياديك يا خيرَ الورى عمّت الورى
فجازاك ربّ الناس خير جزاء

وهكذا يمضي في كل المجموعة فيبتدئ البيت بنفس الحرف الذي يكون هو روي القصيدة، ويَسْلسُ له النظم مع هذا الالتزام فلا تلقى فيه أدنى تكلُّف؛ لقوة باعه، وتدفُّق طبعه. وقد عَلِمْتَ من قوله: (أضفت إلى ميلاده غزواته) البيت، أنه ضمّن هذه المجموعة، سيرة النبيّ ﷺ من لَدُن ميلاده إلى وفاته، وهو كذلك، فقد خصّ كلّ حرف بجانب من جوانب السيرة النبوية. فحرفُ الباء للبشارة به، والدلالة عليه قبل الولادة، وحرف التاء لمولده وما فيه من الدلائل والعلامات، وحرف الثاء لإخباره بعد الولادة، وبعثه، ونزول القرآن، وهكذا... إلى حرف الواو الذي جعله في وفاته ﷺ، ثم حرف (لام الألف) وحرف الياء، وهما في رثائه عليه السلامة.

وقال في المُعَشّرات من حرف الألف، وقد التزم الميم ثانياً والتزمها قبل حرف الروي:

أمَا لي إلى قبرِ النبيّ مُبَلّغٌ
سلاماً؟ فقد أفنى الزمان ذَمائي
أمانةُ مشتاق حمى الدمعُ جفنَه
فما طاف طيفُ النوم خوفَ حِمائي
أمانيَ كانت لي زيارةُ قبره
وأرضيَ روضٌ يانع وسمائي

أمالَ قَنَاتي بعد حُسْن اعتدالها
زمانٌ أراني النقصَ بعد نَمائي
أماتَ قُوى الأعضاء إلا أقَلّها
وأعطَشَ روضي حين أنضب مائي
أُماري مشيبي في سِنِيّ وقد رمى
فؤادي على قوسي فكيف رمائي
أمامي الرِّوَى لو أبلغتني ناقتي
فلم تُبْقِني ظمآنَ بين ظِماء
إمام جميع المرسلين محمد
وأكرَمُ مبعوث من الكرماء
أمَان الورى مما يخافون حبّه
فيا حُبّ شَغشِغ أدمعي بدماء
أمَاه الأسى عيني وسعّرَ أضلعي
فخذ بيدي يا راحم الرحماء

وهذا الالتزام تبعه في كل قصائد المعشرات، فمثلاً حرف الباء التزم فيه الراء بعد الباء أولاً، وقبل حرف الروي ثانياً، وهكذا بقية الحروف إلى النهاية، وبذلك جاءت المعشرات أدخل في باب التكلُّف من حيث دلّت على شدة عارضته، ومتانة أسْره.

وقال في مثال النعل النبوية الشريفة:

بوصف حبيبي طرّز الشعر ناظمه
ونمْنم خدّ الطِّرس بالنّقس راقِمه

نبي له فضلٌ على الناس كلهم

مفاخره مشهورة ومكارمه

رؤوف عطوف أوسعُ الناس رحمةً

وجادت عليهم بالنوال غمائمه

له الحسن والإحسان في كل مذهب

فآثاره محمودة ومعالمه

صفيّ وفيّ لا تميِنُ عهودهُ

حميّ أبيّ لا تَلِينُ شكائمه

وكم نازعته الأمرَ شُمّ يعزّة

فما أسلمته بيضُه ولهازِمه

غدا العالم العُلْوي ينازع دونه

فتقدمُه قبلَ اللقاء هزائمه

أما نصرَ الإسلام نصراً مؤزراً

فلم ينجُ إلا مسلم أو مسالمه

أما حسَمَ الكفرَ الصريحَ حسامه

أما صرمَ الكفر الصريح صوارمه

نبي له في حضرة الحق رتبة

ترقّى بها في عالَم العُلْو عالمه

به ختمَ الله النبيّئين كلّهم

وكلّ فَعَال صالح فهو خاتمه

أُحِبّ رسول الله حبًّا لو أنّه

تقسّمه قومي كفتهم قسائمه

كـأنّ فـؤادي كـلـمـا مـرّ ذكـرُهُ
من الـوُرْق خفّاق أُصيبت قوادمه
أهـيـم إذا هـبّـت نـواسِـمُ أرضـه
ومَـن لـفـؤادي أن تـهـب نـواسِـمـه
فـأنْـشَـقُ مِـسْـكـاً طَـيِّـبـاً وكـأنـما
نـوافِـجُـهُ جـادت بـه ولـطـائـمـه
ومـمـا دعـانـي والـدواعـي كـثـيرة
إلى الشوق إنّ الشوق مما أكاتمه
مِـثـالٌ لـنـعْـلي مـن أُحِـبّ حَـوَيْـتُه
فـهـا أنـا فـي يـومي ولـيـلي لاثِـمُه
أجُـرّ عـلـى رأسي ووجـهي أديـمَه
وألـثُـمُـه طـوْراً وطـوْراً أُلازِمُـه
صـبـابـةُ مـشـتـاق ولـوعـةُ هـائـم
نـعـم أنـا مـشـتـاق الـفـؤاد وهـائـمـه
كـأنّ مثـالَ الـنـعـل مِـحـرابُ مـسـجـد
فوجهيَ فيه شاخصُ الطّرف دائمه
أُمـثّـلـه فـي رِجـل أكـرم مَـن مـشـى
فـتُـبـصـره عـيـني ومـا أنـا حـالـمـه
أصُـكّ بـه خـدّي وأحـسِـبُ وقْـعَـه
علـى وجْـنـتي خَـطْـواً هـنـاك يـلازمه
ومَن لي بوقع النعل في خُرّ وجنتي
لِمَاشٍ علت فوق النجوم براجمه

تـفـيـض دمـوعـي كـلـمـا لاح نـورُه
يـكـابـد ذا الـبـرق الـذي أنـت شـائـمـه
فيا دمعَ عيني أنت تمنع ناظري
نـعـمـيـاً، بـه فـارْفُـق فـإنـك ظـالـمـه
ويا حَرّ قلبي أنت تحرم باطني
لُـصُـوقـاً بـه فـاسـكُـن لـعـلـك راحـمـه
سـأجـعـلـه فـوق الـتـرائـب عُـوذَةً
لـقـلـبـي لـعـل الـقـلـب يـبـرُد جـاحـمـه
وأربـطـه فـوق الـشـؤون تـمـيـمـة
لـجـفـنـي لـعـل الـجـفـن يـرقَأ سـاجـمـه
ألا بـأبـي تـمـثـال نـعـل مـحـمـد
لـقـد طـاب حـاذِيـه وقُـدّس خَـازمـه
يـودّ هـلال الأفـق لـو أنـه هـوى
يـزاحـمـنـا فـي لـثـمـه ونـزاحـمـه
ومـا ذاك إلا أن حـب مـحـمـد
يـقـوم بـأجـسـام الـخـلائـق لازمـه
سـلام عـلـيـه كـلـمـا هـبّتِ الـصّـبـا
وغـنّـت بـأغـصـان الأراك حـمـائـمـه
سـلام عـلـيـه كـلـمـا افـتـرّ بـارق
فـراقـت عـيـونَ الـمُـجْـدِبـيـن مـبَـاسـمـه
سـلام عـلـيـه مـا تـفـاوحـت الـصّـبـا
بـزَهـر كـأنّ الـمـسـك تـحـوي كـمـائـمـه

وقال فيه أيضاً:

أدمعُك أم سِمْط وقلبك أم قُرط
وشوقك أم سَقْط وجسمك أم خط

أخافرة بعد النزوع عن الصِّبا
وللشيب شُهْب في عذارَيْك أو وَخط

أجَلْ لا، ولكن نُفحةٌ قُدسيّة
أشمّ لها تُرْبَ الحنان فانحطّ

رأيتُ مثال النعل نعل محمد
ثمِلتُ وما لي غيرَ ذلك إسْفَنْطُ

رفعتُ حجابَ السبع عن حسن وجهه
فأبصرته في سِدرة المنتهى يخطو

رأيت مثالاً لو رأته كرؤيتي
نجوم الدجى والليل أسودُ مشمَطّ

لَسَرّ الثريا أنها قدمٌ ولم
يسرّ الثريا أنها أبداً قُرط

ألا بأبي ذاك المثالُ فإنه
خيالُ حبيب والخيال له قِسط

فإن لا تكُنْها أو تَكُنه فإنه
أخوها اعتدالاً مثل ما اعتدل المشط

أرى لثمَه مثلَ التيمُّم مُجزياً
فالثُمه حتى أقول سينغَطّ

وما هي إلاّ لوعة وصبابةٌ
بقلبي لها سقط وفي مدمعي سمط

قذفت الكرى في الدمع والصبر في الأسى
فـأغـرق ذا نـقـط وأحـرق ذا نِـفْـط
فلا تفعلي يا عين أو يُطفأ الأسى
وهيهات أن يُطفأ وموقده الشحط
سيطفأ يوم الحشر عند لقائه
على الحوض بالكأس الرّوِية إذ يعطو
تبسّط عبد مذنب غير أنه
بحب رسول الله صحّ له البسط
عليه سلام الله ما عنّ عارض
ولاح له برق وسحّ له نقط

وقال في الاحتفال بالمولد النبوي:

فحُقّ لنا أن نعتني بولاده
ونجعل ذاك اليوم خيرَ المواسم
وأن نصل الأرحام فيه تقرباً
ونغدو له من مُفطرين وصائم
ونترك فيه الشغل إلا بطاعة
وما ليس فيه من ملام للائم
ونتبع فيه الصالحين فإنهم
هدونا بأنوار الوجوه الوسائم

ومن قوله يمدح الأمير أبا مالك عبدالواحد، ابن السلطان يعقوب المنصور المريني، ويهنئه بفتح مراكش سنة ٦٦٨:

فتح تبسمت الأكوانُ عنه، فما

رأيت أملح منه مَبسِماً وَفَما

فتح كما فتح البستانُ زهرته

ورجّع الطير في أفنانه نغما

فتح كما انشق صبحٌ في قميص دُجا

وطرّز البرق في أردانه عَلَما

أضحت له جنةُ الرضوان قد فتحت

أبوابها وفؤاد الدين قد نعِما

الحمد لله هذا ما وُعِدت به

يا خير مَن ولي الدنيا ومَن حَكَمَا

لن يُخلِفَ الله وعداً كان واعده .

فاشكر يضاعف لك الحظ الذي قسما

بفتح مراكش عمّ السرور فما

يكابد الغمّ إلا قلب من ظَلما

حبا بها الله مولانا الأميرَ كما

حبا أباه فأسنى فتحها لهُما

فلم يزل سعدُه المألوف متصلاً

بسعد والده المنصور منتظما

فدولة الدين والدنيا قد اختلفت

في الفتح والنصر والتأييد بينهما

أفاقت الأرضُ من نوم بها وصحت

وأصبحت وهي تلحَى السكر والحلما

لـمـا رأت رايـةَ الـسـلـطـان قـد رُفـعـت

فـي أفـقـهـا قـرعَـت أسـنـانـهـا نـدمـا

فـاسـتـقـطـفـت مـنـه قـولاً مـن سـجـيـتـه

أن يـحـقـر الـذنـب والـعُـوارَ إن عـظُـمـا

مـن سـنـة الله أن يـحـيـي خـلـيـقـتَـه

عـلـى يـديـك وأن يـكـفـيـهِـمُ الـنّـقـمـا

وأن يُـقـيـمَ بـك الإسـلامَ مـن أوَدٍ

وأن يـديـم بـك الإحـسـان والـنـعـمـا

وأن يـقـرّ عـيـون الـمـسـلـمـيـن وأن

يشفي الصدور وأن يُبري بك السقما

بـشـراك يـا مـالـك الـدنـيـا وحـافِـظـهـا

فـأنـتَ أفـضـلَ مَـن آوى ومَـن رحـمـا

إنـا نـسـخـنـا مـعـالـيـك الـتـي رأفـت

فـلـم نـرَ الـبـأسَ فـيـهـا بـزّ لـلـكُـرمـا

كـمـا نـظـرنـا إلـى يـمـنـاك مـن كـثَـب

فلم نرَ السيف فيها يُسلم القلما

تـضـافـرت ألـسُـنُ الأقـلام فـيـك مـعـاً

وألـسـن الـشـعـر حـتـى أخـرسَ الأمـمـا

لله مـنـك مـلـيـك لا نـظـيـر لـه

لـولاك كـان وجـود الـديـن قـد عُـدِمـا

مَـلـك بـصـيـر بـأدواء الأمـور لـه

رأي نـجـيـح وطـب يُـذهِـب الألـمـا

عدل الحكومة ماضي العزم معتدل

كالريح يمضي بعدل كلما عزما

سيف وسَيْبٌ وعفو بعد مَقدُرةٍ

وبطشة وأناة تجمع الحِكَمَا

إن غاب عنك فإن الأذن شاهدةٌ

وإن تشاهده لم ينطق وقد فهما

لله أعطاه علماً من لدنه فلم

يحتج إلى أحد في علم من علما

ومن تخيّره للدين خالقُه

أعطاه نوراً يجلي الظّلْم والظّلَما

سبحان من بجميع الفضل أفرده

ومن حباه السجايا الغُرّ والشّيَمَا

فللورى أن يقولوا عند رؤيته

ما كان ذا بشراً بل مَلاكاً كَرُما

لا غَرْوَ فالحسن في أوصافه تبَعٌ

وقد علا بالمعالي ملكه وسما

فالغرب يعلو على شرق البلاد به

وقومه يُرهِبُون العُرْبَ والعجَما

مولاي يهنيك ما أُعطيت من ظفر

على عدى أصبحوا في حَيرة وعمى

وعن قريب إلى يُمناك مرجعُهم

فلا يُجازَى امرؤ إلا بما جَرَما

أيـن الـمـفـرّ وخـيـلُ الله تـطـلـبـهـم
لا يـعـصِـمُ الله مـنـهـم غـيـرَ مـن رُجِـمـا
كـم مـن مُـضـر يـلاقـي مـا جـنـت يـده
وتـائـب آئـب بـالـتـوبـة اعـتـصـمـا
أنـت الإمـام لـبـعـض الـسـهـو تـحـمِـلـه
ويـعـضُـهُ يُـحـبِـط الأعـمـال والـحُـرَمـا
وقـد كـفـى الله كـف الـخـائـنـيـن وقـد
أقـال عـثـرةً مـن أخـطـا وقـد رَحِـمـا
يا بنتَ فكري ضعي عنكِ النقاب إذا
بـلـغـتِ حـضـرتَـه ثـم انـثُـري الـنّـظُـمـا
ثـم اسـجُـدي فـي بِـسـاطِ غـيـرَ واطـئـةٍ
فـأصـبـح الـرأس فـيـه يـجـهـد الـقـدمـا
وذكّـــريـــه فـــإنّ الـــذكـــر مـــنـــفـــعـــة
وذاك فـي مـحـكـم الـتـنـزيـل قـد رُسِـمـا
مـن عـبـده (مـالـك) مـمـلـوك دولـتـه
عـلـى الـقـديـم ويـرعـى الـسـيّـدُ الـقِـدَمـا

وقال مجيباً عن قصيدة من نفس البحر والروي، وجهها ابن الأحْمَر صاحبُ غرناطة إلى السلطان يعقوب المنصور يستنجده ويستنصره على العدو، وصدر جوابها من عبدالعزيز الملزوزي ومن ابن المرحل، وهذه قصيدته:

شـهـد الإلـه وأنـتِ يـا أرضُ اشـهـدي
أنـا أجـبـنـا صـرخـة الـمُـسـتـنـجِـد

لـمـا دعـا الـدّاعـي وردّد مـعـلـنـاً
قـمـنـا لـنُـصـرتـه ولـم نـتـردّد
نـسـري لـه بـأسـنّـة قـد جُـرّدت
من غَـضْـبِـهـا والـصـبـح لـم يـتـجـرّد
لـولا الأسِـنّـة والـسـنـابِـكُ مـا درى
أحـد بـسـيـر خـيـولـنـا فـي الـفـرْقَـد
والـخـيـل تـشـكـونـا ولا ذنـبٌ سـوى
أنـا نـروح بـهـا وأنـا نـغـتـدي
لـو أنـهـا عـلـمـت بـنـا فـي قـصـدنـا
كـانـت تـطـيـر بـنـا ولـم تـتـردد
الله يـعـلـم أنـنـا لـم نـعـتـقـد
إلا الـجـهـادَ ونـصـر ديـن مـحـمـد
ثـم اعـتـرضـنـا الـبـحـر وهْـو كـأنـه
مـلـك تـقـدم فـي الـجـيـوش لـمرْصَـد
فـتـرامـت الـخـيـل الـعِـطـاشُ لـورده
هـيـهـات مـا الـمـاء الأجـاجُ بـمـورد
يـا خـيـل إن وراءنـا مـاءً رِوى
ومـشـاربـاً ومـزارعـاً لـم تُـحـصَـد
وأحـبّـةً بـيـن الـفـواقـد أصـبـحـوا
يـتـوقـعـون الـمـوتَ إن لـم نُـنـجِـد
مِـن مُـطْـلَـق الـعَـبـرات إلا أنّـه
تـجـري دمـوع جـفـونـه لِـمُـقـيّـد

ومُـفَـجّـع لا يـسـتـلـذ بـمـطـعـم
ومُـروّع لا يـسـتـقـر بـمَـرقَـد
إخـوانُـنـا فـي ديـنـنـا وودادنـا
ولـهـم مـزيـد تـحـبُّـب وتـودُّد
نـسـري بـأجـنـحـة الـبُـزاة إلى الـعـدا
مـثـلَ الـحـمَـامِ الـحـائـمـات الـوُرّد
واسـتـقـبـلـت بـحـرَ الـزّقـاقِ بـعُـصْـبـة
نـفـذت عـزائـمـهـا ولـم تـتـعَـدّد
فـاسـتـبـشـروا في أفـقـهـم بـطـلـوعـنـا
كـالـشـمـس يـوم طـلـوعـهـا لـلأسـعُـد
حـتـى بـغَـتْـنـا الـقـوم في أوطـانـهـم
إن الـحـوادث لا تـجـيء بـمـوعـد
ثـم الـتـقـيـنـا بـالـذيـن اسـتـصـرخـوا
مـنـا بـكـل مـؤيّـد ومـسـدّد
حـتـى إذا جـئـنـا وجـاؤوا نـحـونـا
ودنـا الـمـزار وقـيـل لـلـبُـعـد ابْـعَـد
ازوَرّ جـانـبـهـم ـ وأشـهـدُ ـ بـعـدمـا
بـسـطـوا لـنـا الآمـال بـسـط مـمـهـد
أو مـا رأونـا قـد تـركـنـا أرضـنـا
ولـنـا بـهـا مُـلْـكٌ رَصـيـنُ الـمـحـتـدِ
وأطـاعـنـا قـوم كـثـيـر أسـرعـوا
فـمُـزوّد مـنـهـم وغـيـر مـزوّد

أتـرون إن عـادوا إلـى أوطـانـهـم
يبقى لكم في الأرض موضعُ مسجد
أم تـحـسـبـون بـوارقـاً نـشـأت لـكـم
أمـثـالَـنـا فـي جـوّكـم لـم تُـعـهَـد
بـرماحكـم نـفـحَـت وعـنـهـا أمـطـرت
بـل كـان ذا مـنـا وإن لـم نـشـهـد
إنـا أردنـا إن رعـيـنـا قـومـنـا
فـيكـم فـيـرجـع مـن مـضـى بـتـزيـد
حـتـى تـرون بـلادكـم مـعـمـورةً
ويـكـون يـومُـكـم يـقـصّـر عـن غـدِ
فـالـيـوم قـد أوحـشـتـمـونـا وحـشـةً
إن لـم تُـمـدّ حِـبـالـهـا فـكـأنْ قَـد
يـا لـيـت شـعـري مـا بـدا مـنـا لـكـم
حـتـى ابـتـديـتـم بـالـمَـكـان الأبـعَـد
تـالله لـولا وِدّنـا فـيـكـم ومـا
أدراك مـن ود قـديـم مُـتـلَـد
ومـخـافُـنَـا أن يـسـتـطـيـل عـدوكـم
ويـثـور بـعـد تـذلـل وتـعـبُّـد
لـخرجت من هذي البلاد بمَن معي
وتـركـتُـهـا لـكـم ولـم أتـعـهـد
أوَ مـا عـلـمـتـم أنـنـا أيـدٍ لـكـم
دون الـعـدا والله خـيـر مـؤيـد

لولا رجال من مَرينٍ رفعوا
منكم لكنتم بالحضيض الأوهد
لولا رجال من مَرِينٍ قاتلوا
عنكم لكنتم كالنّساءِ الخُرّد
عهدي بجندكمُ الذين إذا رأوْا
عِلْجاً توَلّوْا كالنّعام الشرد
يتشبهون بكل أغلَبَ كافر
في زيّهم وكلامِهم في المشهد
وطعامِهم وخلالهم وشرابهم
ومناكرٍ يأتُونها وسْطَ النّدي
وتنقص العلماء والفضلاء والأ
عيان من أهل التقى والسؤدد
كيف الهُدَى لهم ومن لا يقتدي
بنبيّه وإمامه لم يهتد
فأتوا بعزّكم إلى ما عندنا
في حقكم ولتسمعوا من مرشد
ثم السلام عليكم من والد
يدعو ابنه دعوى محب مسعد

وقال مستنفراً المجاهدين للأندلس سنة ٦٦٢، وكان في تلك السنة بفاس يكتب للأمير أبي مالك بن يعقوب، فقُرِئت القصيدة بصَحْن جامع القرويين يوم الجمعة بعد الصلاة، فبكى الناس عند سماعها، وانتدب كثير منهم للجهاد:

استنصرَ الدينُ بكم فاستقدِموا
فإنكم إن تُسلِموه يُسلَمُ
لا تُسلِموا الإسلام يا إخواننا
وأسْرِجوا لنصره وألجِمُوا
لاذت بكم أندلسٌ ناشدةٌ
بِرَحِم الدين ونعم الرحم
فاسترحمتكم فارحموها إنه
لا يَرْحَمُ الرحمٰنُ مَن لا يَرْحم
ما هي إلا قطعةٌ من أرضكم
وأهلُها منكم وأنتم منهم
لكنها حُدّث بكل كافر
فالبحرُ من حدودها والعجم
لهفاً على أندلس من جنة
دارت بها من العِدا جهنم
استخلص الكفّار منها مُدُناً
لكل ذي دِين عليها نَدَمُ
قرطبةٌ هي التي تبكي لها
مكةُ حزناً والصّفا وزَمْزَمُ
وحِمْصُ وهْيَ أختُ بغداد وما
أيامها إلا صِباً والحُلُم
استخلصوها موضعاً فموضعاً
واقتدروا واحتكموا وانتقموا

وقــتــلــوا ومــثّــلــوا وأسَــروا
واحــتــمــلــوا وأيْــتــمُــوا وأيّــمــوا

أيّـامَ كـانَ الـخـوفُ مـن أعـوانـهـم
والـجـوعُ والـفِـتـنَـةُ وهْـيَ أعـظـم

حـتـى إذا لـم يـبـقَ مـن حـيـاتـهـا
إلا ذَمَـــاءٌ تـــدّعـــيـــهِ الـــذّمَـــم

دَعـوا الـعـهـود واعـتـدوا ومـا دروا
بـأنـهـا بـحـبـلـكـم تـعـتـصـم

ظـنـوا وكـان الـظـن مـنـهـم كـاذبـاً
أن لـــيـــس لله جـــنـــود تُـــقـــدِم

مـا صـدّقـوا أن وراءَ الـبـحـر مـن
يـغـضـب لـلإسـلام حـيـن يُـظـلَـم

ولا دروا أن لـــديـــكـــم حُـــرمـــةً
يـحـفـظـهـا شـبـابـكـم والـهَـرم

لـو عـرفـوا قـبـائـلَ الـعـدْوَةِ مـا
عَـدَوْا عـلـى جـيـرانـهـم واجـتـرمـوا

الـيـوم يـدري كـل شـيـطـان بـهـا
أن قـد رمـتـهـم بـالـشّـعـاع الأنـجـم

تـقـدمـت نـحـوَهـم طـلـيـعـةٌ
مـن نـحـوكـم أخـطـاهـم الـتـقـدّم

فـانـتـصـفـوا لـلـديـن مـن أعـدائـه
واقـتَـرَعـوا عـلـيـهـم واقـتـسـمـوا

وامـتـلأت أيـديـهـم مـن الـسَّـبَـا
وأحــسـبـتـهـم نِـعَـم ونَـعَـم
يـا أهـل هـذي الأرض مـا أخَـركـم
عـنـهـم وأنـتـم فـي الأمـور أحـزَم
تـسـابـق الـنـاس إلـى مـواطـن
الأجـرُ فـيـهـا وافـر والـمَـغـنـم
تـعـزّز الـكـفّـار فـي ديـارهـم
وعـزمـوا أن يـهـزمـوا فـهُـزِمُـوا
فـمِـن سـيـوف فـي رؤوس تـنـحـنـي
ومـن رمـاح فـي ذُرى تُـحـطّـم
وقـامـت الـحـرب عـلـى سـاق فـمـا
زلّـتْ لأهـل الـصـدق مـنـهـم قَـدَم
بـاعـوا مـن الله الـكـريـم أنـفُـسـاً
كـريـمـةً فـفـاض مـنـهـا الـحـكـم
دعــاهــم الله إلــى رحــمـتــه
وحـيّـهـم بـيـن يـديـه يـخـدم
يَـضـرب بـالـسـيـف فـيُـرضـي ربّـه
وفـي رضـى الـرب الـنـعـيـم الأدوم
أخـرجـه مـن بـيـتـه إيـمـانُـه
وحُـبّـه فـي فِـعـل مـا يُـقـدّم
مـا هـمّـه إلا قِـتـال أمّـة
يُـكْـفِـرُ عـيـسـى قـولَـهُـم ومـريـم

تشرك بالله وتدعو معه
خَلْقاً يصحّ جسمه ويسقَم
وتدّعي أن له صاحبة
وابْناً ولا صاحبةٌ ولا ابْنُمُ
لم يَثْنِه عن عَزمِه أهلٌ ولا
مالٌ ولا خوفُ نعيم يُعدَم
والله راضٍ عنه والخلقُ له
يدْعُونَ مهما كبّروا وأحرموا
إخواننا ما ذا القعود بعدهم
أفِي ضمان الله ما يُتّهم
هل هي إلا جنّة مضمونة
أو عَوْدةٌ صاحبها مُكرّم
خُذوا السلاح وانفِرُوا وسارعوا
إلى الذي من ربكم وُعدتم
إن أمام البحر من إخوانكم
خَلْقاً لهم تلفّتٌ إليكم
ونحوَكم عيونُهم ناظرة
لا تَطْعَم النوم وكيف تطعم
والرّومُ قد همت بهم وما لهم
سواكم رِدْءٌ فأين الهمم
كلّهم ينظُرُ في أطفاله
ودمعُه من الحذارِ يسجَم

أيــن الــمــفــرّ لا مــفــرّ إنــمــا
هــو الــغِــيــاثُ أو إســارٌ أو دَمُ
يــا ربّ وفّــقــنــا وألــهِــمْــنــا لــمــا
فــيــه لــنــا الــخــيــرُ فــأنــت الــمــلــهــم
يــا ربّ أصــلــح حــالــنــا وبــالــنــا
أنــت بــمــا فــيــه الــصــلاحُ أعــلــم
يــا ربّ وانــصــرنــا عــلــى أعــدائــنــا
يــا ربّ واعــصــمــنــا فــأنــت تــعــصــم
يــا ربــنــا مــا داؤنــا شــيء ســوى
ذنــوبِــنــا فــارْحَــم فــأنــت تــرحــم

ومن قوله في الزهديات، وقد التزم افتتاحه بما ختم به:

بــأيّ لــســانٍ أم بــأيّ طــبــيــب
يُــداوَى عِــذارٌ مــن بــيــاض مــشــيــب
بــيــاض كــمــا لاحــت كــواكــب ســحــرة
تُــرِيــكَ طُــلُــوعــاً مــوذنــاً بــغــروب
بــشــيــراً نــذيــراً لاح كــالــفــجــر صــادقــاً
عــلــى كــاذب حُــلْــو الــلــســان خــلــوب
بُــنــيّ ابــكِ لــي إن الــبــكــا يــبــعــث الــبــكــا
ولــيــس جــوابــي مــنــك غــيــرَ وجــيــب
بــحــاراً ركــبــنــاهــا بــغــيــر ســفــائــن
غــروراً فــإن نَــهْــلَــكْ فــغــيــرُ عــجــيــب

بَـرَتْــنــيَ يــومــاً آيــةٌ فــي بــراءة
فإن ضحِكَت سني فضحْكُ مُريب

بنيتُ لها قلبي على كرة الأسى
فلم تتغير لاختلاف خطوب

بكى صاحبي حتى إذا مال في الثرى
وسَالت مآقيه كمثل غُرُوب

بسطتُ له كفّي وقبّلت كفّه
وقلت له هذا مَقَام كئيب

بحقك لا تَبرح أطارِخك لوعتي
على نَغَم من أنّة ونحِيب

بِداراً إلى هذي الدموع فربما
غسلتَ ذُنُوباً جمّةً بذَنوب

بدايةُ حالٍ إن تدم فلعلما
ورُبّ طلوع كان بعد مغيب

بني الدهرِ أمّا الدهر فهو عدوكم
وإن لاح يوماً في ثياب حبيب

بَوَارِقُه لا رِيّ فيها لعاطش
ولا خِصْب في أنوائه لجديب

بلاكم وأبلاكم تقلُّب صرفه
فيا ويحها من أنفس وقلوب

بصائرها في الرشد غير ثواقب
وأبصارُها في الغيّ ذاتُ ثُقوب

بعيد من التوفيق مَن بات ساهراً

رجاءَ بعيد لا مخاف قريب

بطيء لعمري من سرَى الليلَ كله

وأصبحَ حَوْلَ الحي بعد لُغوب

بخيلٌ لعمري من دعاه حبيبُه

هلُمّ إلينا وهو غيرُ مجيب

وله على هذا المنوال:

جديرٌ بأن يبكي على نفسه أسى

فتى كلّما تُرْجَى له توْبةٌ تُرْجا

جبان عن التقوى جريء على الهوى

قريب من المهوى بعيد من المَلْجا

جرَى في مجال اللهو مِلْءَ عِنانِه

إلى الآن ما ألقى لِجاماً ولا سرجا

جنى ما جنى واستسهل الأمر في الصّبا

فلما نهاه الشيبُ عن فعله لجّا

وله أيضاً:

تَنامُ وهذا الدهرُ إما مُصَبّحٌ

بجيش الرّدى يوماً وإما مُبَيّتُ

تَقَوّتْ بذكر الله تَقْوَى فإنه

حقيق بأن يَقْوَى الذي يتقوّتُ

تُنافِسُ في غير النفيس سفاهةً

فَقدكَ هَوَى إن السفاهة تُمقَتُ

وقال في النسيب:

تملّكْتُم عقلي وطرفي ومسمعي
وروحي وأحشائي وكلي بأجْمَعي
وتيهتموني في بديع جمالكم
فلم أذرِ في بحر الهوى أين موضعي
وأوصيتموني لا أبُوحُ بسرّكمْ
فباحَ بما أُخفي تفيّضُ أدمعي
فلما فَنى صبري وقلّ تجلدي
وفارقني نومي وحرّمتُ مضجعي
شكَوْتُ لقاضي الحبّ قلتُ أحبّتي
جفَوْني وقالوا أنتَ في الحب مُدّع
وعندي شهود بالصبابة والأسى
يزكّون دغوَايَ إذا جئتُ أدّعي
سُهادي وشوقي واكتئابي ولوعتي
ووجدي وسُقمي واصفراري وأدمعي
ومن عَجَبٍ أني أحِنّ إليهم
وأسألُ شوقاً عنهمُ وهمُ معي
وتبكيهم عيني وهم في سوادها
ويشكو النوى قلبي وهم بين أضلعي

وقال واستعمل فيه التوشيع من البديع:

يا راحلين ولي في قربهم أمل
لو أغنت الحيلتان القول والعمل

سِـرتُـم وسـار اشـتـيـاقـي بـعـدَكـم أمـلاً
من دونـه الـسـائِـران الـشـعـر والـمَـثَـل
وظـلّ يـعـذلـنـي فـي حـبـكـم نَـفَـر
لا كـانـت الـمـحـنـتـان الـحـب والـعـذَل
عـطـفاً عـلـيـنـا ولا تَـبـغُـوا بـنـا بـدلاً
فما استوى التابعان العطف والبدل
مُذْ ذُقْتُ فـضـلَـكـمُ فـضـلاً فـلا وأبـي
ما طاب لي الأحمران الخمر والعسل
وقد هرمت أسى من هجركم وجوًى
وشبّ مني اثـنـتـان الـحِـرْصُ والأمـل
غـدَرتـمُ أو مـلـلـتـم يـا ذوي ثـقـتـي
لَـبـيـسَـت الـخـصـلـتـان الـغـدر والـمـلـل

وقال في معنى حديث: **«اللّهمّ هذا قسمي فيما أملك، فلا تواخذني بما لا أملك»**:

لا بـدّ مـن مـيْـل إلـى جـهـة فـلا
تُـنـكـر عـلـى الـرجـل الـكـريـم مَـمِـيـلا
إن الـفـؤادَ وإن تـوسّـط فـي الـحـشـا
لَـيَـمِـيـلُ فـي جـهـة الـشّـمـال قـلـيـلا

وقال؛ وفيه تورية:

مَـذْهَـبـي تـقـبـيـلُ خـد مُـذهَـب
سـيـدي مـاذا تـرى فـي مَـذْهـبـي

لا تُخالف مالكاً في رأيه
فَبِه يأخُذُ أهلُ المغرب

وقال وقد مَلّح في ذكر سَاق حُر، وهو ذكَر القَماري:

رُبّ ربْع وقفتُ فيه وعهد
لم أجاوزه والركائب تسري
أسأل الدار وهي قَفْرٌ خلاء
عن حبيب قد حلّها منذ دهر
حيث لا مُسعِد على الوجد إلا
عينُ حُرّ تجودُ أو ساقُ حُرّ

يريد أنه لا يساعد إلا من يبكي له؛ أو حمام ينوح معه.

وله في قِصَر الليل:

وعشيّةٍ سبَق الصباحُ عِشاءها
قِصَراً فما أمسيتُ حتى أسفرا
مِسْكية لبست حُلى ذهبيّةً
وجلا تبسُّمها نِقاباً أحمرا
وكأنّ شُهْبَ الرّجْم بعضُ حُلِيّها
عَثرَتْ به من سُرعة فتكَسّرا

وقال وأحسن في وصف النهر:

والأرض قد ضَرَبَتْ بمُرهَف نهرها
صفحاً وأُلقيَ في المكان فَصاحا

فاسمع إلى غَرْبَيْه في حصبائه

كالقَيْن جرّ على العَلاةِ سلاحا

وقال يصف بلدته سبتة:

اخْطِرْ على سبْتةَ وانظُر إلى

جمالها تَضبُ إلى حسنه

كأنها عُودُ غِناءٍ وقد

أُلقِيَ في البحر على بطنه

قال ابن القاضي: «ولا شك أن سبتة شكلها في المنظر شكل عود الغناء، موضوع في الجر على بطنه، رأسه وموضع مَفَاتِله موضعُ القصَبة، وهي المعمورة بالنصارى اليوم، وهو الذي يوالي البر، وسائره يدور به البحر من كل مكان، والعُمران كان فيه من أول العنق إلى آخره، وليس بالبطن العالي منه عمران وبه الناظور، وهي مدينة بَهِجةُ المنظر، رائقة الحسن، ساطعة البياض، تخطف الأبصار، إذا طلعت الشمس عليها. أعادها الله دار إسلام».

وقال في خضاب الشيب:

مررتُ عليها والخضابُ لمائه

وَبيصٌ وريحُ المسك قد كاد يسطع

فقالت مليح ما أرى غيرَ أنه

(سحابةُ صيف عن قليل تقَشّع)

وله وارتكب فيه المذهب الكلامي من البديع:

لـو يـكـونُ الـحـب وصـلاً كـلّـه
لـم تـكـن غـايـتُـه إلا الـمـلـل
أو يـكـون الـحـبّ هـجْـراً كـلّـه
لـم تـكـن غـايـتـه إلا الأجَـل
إنـمـا الـوصْـلُ كـمـثـلِ الـمـاء لا
يـسـتـطـاب الـمـاءُ إلا بـالـعَـلَـل

ومن هذا الباب قوله:

ضلّ الـمُـحِـبّـون إلا شـاعـراً غَـزِلا
يُطـارِحُ الـمدحَ بـالـتـشـبـيـب أوطـارا
لا يـشـتـكـي الـحُـبّ إلا فـي مـدائـحـه
دعـوى لـيُـصـغِـيَ أسـمـاعـاً وأبـصـارا
كـضـاربِ الـعُـود وشّـى فـيـه تـوشـيـة
وبـعـد ذلـك غـنّـى فـيـه أشـعـارا

ولكن هذا المذهب لا يروق لكثير من الشعراء الذين يمضون قُدُماً لطيتهم لا يلوون على شيء غيرها، ولا يعرفون اللف والدوران؛ كالمتنبي ومن نهج نهجه.

وقال في رجل أشهب انتحل شِعْره:

خـالَـفـنـي أشـهـبُ فـي مـذهـبـي
ومـالـكٌ وافـقـه (أشـهَـبُ)
فـمـذهـبـي مُـخْـتَـرَعٌ نـادرٌ
وسَـرِقَـةُ الـشـعـر لـه مَـذْهَـبُ

ونكتفي بهذا القدر من شعر ابن المرحل، فإنه بحر لا ينتهي - ولكل بحر ساحل - ملفتين الأنظار، إلى ما فيه من تنوع المقاصد والأغراض؛ واختلاف الأساليب والأوضاع، والتجديد والابتكار؛ سواء في المعاني أو الأساليب، مع ما يتعمده أحياناً من ارتكاب فنون البلاغة، ومُحَسّنات البديع، فيأتي بها مقبولة مستساغة، بل محبوبة مرغوباً فيها، بالعكس مما تقع لبعض المتكلفين، وما ذاك إلا لتمكنه من ناصية اللغة، وصناعة الشعر، وحُسْن تصرُّفه في وجوه البيان وطُرُق الأداء، ووفْرة محفوظه من الشعر القديم والحديث، والنوادر والأخبار.

ونحب أن نورد هنا واقعةَ حال تدل على قوة زَكَنه، وحدة ذهنه، بقدر ما تدل على سعة حفظه وشدة اطلاعه، وهي ما حدّث به أبو زكرياء بن السرّاج الكاتب، قال: إن أبا إسحاق التلمساني وصهره مالك بن المرحل، وكان ابن السراج قد لقيهما اصطحبا في مسير. فآواهما الليل إلى مجشر[1] فسألا عن صاحبه فدُلاَّ عليه، فاستضافاه فأضافهما، فبسط قطيفة بيضاء ثم عطف عليهما بجُبن ولبَن وقال لهما: استعملا من هذه اللّظافة حتى يحضر عَشاؤكما وانصرف فتحاوَرا في اسم اللظافة لأي شيء هو منهما حتى ناما، فلم يَرُع أبا إسحاق إلا مالك يوقظه ويقول: قد وجدت اللظافة. قال: كيف؟ قال: أبعدتُ في طلبها حتى وقعت بما لم يمر

(١) قرية أو عزبة ويقال: جشر، وكلاهما صحيح لغة. وقد تبدل الجيم دالاً في لسان العامة، وعليه فإنكار أمين الريحاني للكلمة فيما نشره من رحلته إلى المغرب بالمقتطف من القصور.

قط على مسمع هذا البدوي، فضلاً عن أن يراه، ثم رجعت القهقرى حتى وقعت على قول النابغة:

بِـمُـخـضَّـب رَخْـصٍ كـأنَّ بـنَـانَـه
عَـنَـمٌ يـكـاد مـن الـلّـطـافـة يُـعـقَـد

فسنح لبالي أنه وجد اللطافة، وعليها مكتوب بالخط الرقيق «اللين»، فجعل إحدى النقطتين للطاء، فصارت اللطافة، اللظافة. واللين، اللبن، وإن كان قد صحّف عنم بغنم، وظن أن يعقد جُبّن، فقد قوى عنده الوهم، فقال أبو إسحاق: ما خرجت عن صوبه.

فلما جاء سألاه فأخبر أنها اللبن، واستشهد بالبيت كما قال مالك.

ثم نشير إلى الخصومات الأدبية بينه وبين معاصريه، وأشهرها خصومته مع بَلَدِيِّه ابن أبي الربيع النحوي، بشأن كلمة (ماذا) هل تقع حشواً كما استعملها مالك في أحد أشعاره أم لا؟ وكان ابن أبي الربيع سمع قول مالك في إحدى قصائده:

وإذا عـشِـقْـتُ يـكـون مـاذا هـل لـه
دَيْـنٌ عـلـيّ فـيـغـتـدي ويـروح

فلَحّنه وقال: لا يقال: كان ماذا. فاحتج عليه مالك ببعض أشعار للمولدين وغيرها، فلجّ ابنُ أبي الربيع في الإنكار وقال:

(كـان مـاذا) لـيـتـهـا عَـدَمُ
جـنـبُـوهـا قُـرْبُـهـا نَـدَم

لـيـتـنـي يـا مـالِ لـم أرَهـا
إنـهـا كـالـنـار تـضـطـرم

وقال مالك:

عـاب قـوم كـان مـاذا
لـيـتَ شـعـري لِـمَ هـذا؟
وإذا عـابـوه جـهـلاً
دون عـلـم كـان مـاذا؟

وألّف كلّ في المسألة، وكان الذي ألّف مالك، هو كتابة السابق الذكر (الرمي بالحصى والضرب بالعصا) وهو ثلاثة أجزاء وقد جلبنا منه فصلاً طويلاً في كتاب النبوغ المغربي فلينظر فيه.

قال أبو حيان: «وألسنة الشعراء حِداد، وإلا فلا نِسْبَة بين ابن أبي الربيع وابن المرحّل، فإن ابن أبي الربيع ملأ الأرض نحواً»، هذا مع العلم بأن ابن المرحل من شيوخ أبي حيان.

ومن خصوماته أيضاً، ما كان بينه وبين أبي علي بن رُشَيْق، فإن هذا كان سكن سبتة وبرّز فيها، وكتب عن أميرها، فلا جرم أن يحتك بأديبها الممتاز، وينشأ بينهما ما هو طبيعي في مثل هذه الحال من التنافس والتحاسد، والمعاصرة ـ كما يقولون: حِجاب ـ قال ابن الخطيب: وجرت بينه وبين الأديب مالك بن المرحل، من الملاحاة والمهاترات، أشدُ ما يجري بين متناقضين، آلت به إلى الحكاية المشهورة. وذلك أنه نظم قصيدة مطلعها:

لِكِلاب سبتةَ في النّباح مدارك
وأشدها عند التهارُش مالك
شيخٌ تفانى في البطالَة عُمْرُهُ
وأجلّ مَخكِيهِ الكلامُ الآفك
مُتهَمّم بذوي الخَنَا متخشّع
متهازل بذوي التقى متضاحك
أحْلى شمائله السّبابُ المفتري
وأعفّ سيرته الهجاء الماحك
وألذّ شيء عنده في محفل
لَمْزٌ لأستار المحافل هاتك
يغشى مَحَاضِره اللئيمُ تفكُّهاً
ويعافُ رؤيتَه الحليمُ الناسك

إلى آخرها وهي طويلة، تشتمل من التعريض والتحريض على كل غريب ونحن لا نفهم من هذه التهم التي كالها ابن رشيق جزافاً لشاعرنا، إلا أنه كان أديباً أريحياً، خفيف الروح، عذب المفاكهة، لادع النكتة، مخشي البادرة، ورجل من هذا الطراز يتحامى جانبه أهل الانقباض والتزمّت، ولا يألفه إلا الرجال «الاجتماعيون» الذين وَطّأوا أكنافهم للناس، وعلموا أنهم من أهل الأرض فنظّموا صِلاتِهم مع سكانها، ولكن ابن رشيق تعامى عن ذلك، وقال: يغشى محاضِرَه اللئيمُ...

ثم قال ابن الخطيب: واتخذ لها (للقصيدة) كِنَانَة

خشبِيّة كأوْعية الكتب، وكتب عليها رقاص[1] مُعَجّل إلى مالك بنِ المُرحّل، وعَمَد إلى كَلْب وجعلها في عنقه، وأوجَعه خبْطاً حتى لا يأوي إلى أحد ولا يستقر، وطرده بالزّقاق مكتماً ذلك، وذهب الكلب، وخلفه من الناس أُمة، وقرىء مكتوب الكنانة، واحتُمل إلى أبي الحَكَم، ونُزِعَت من عنق الكلب ودُفعت إليه، فوقف منها على كل فاقرة كفّت من طِماحه، وغضّت من عِنَان مجاراته، وتحدث الناس بها مدة.

ولم يغِب عنه أنها من حِيَل ابن رشيق، ففوق سهام المراجعة، ثم رجع مكبوحاً. (لا تنسَ أن هذا كلام ابن الخطيب) وفي بعض أجوبته عن ذلك يقول:

كِلابُ المزابل آذَيْنَني
بأبْوالهنّ على باب داري
وقد كنتُ أُوجِعها بالعَصا
ولكن عَوَتْ من وراء الجدار

* * *

وهناك انتقاد آخر موجَّه إلى ابن المرحل من معاصره القاضي ابن عبدالملك المراكشي صاحب «التكملة» المشهور، أورده على قصيدته السابقة في المديح النبوي، ومثال النعلة النبوية الشريفة ونصه: «وفي هذه القصيدة، على ما فيها من إجادة، تعقّب من وجوه، منها التضمين؛ وهو

---

(١) الرقاص في لسان المغاربة هو صاحب البريد.

من عيوب النظم، وذلك في قوله: ومما دعاني والبيت الذي بعده. ومنها الإيطاء في صوارمه في بيتين، فهذان عيبان، ومنها إعادة ضمير نواسمه، وهو مذكر على الأرض وهي مؤنثة وحَمْلُها على إرادة التذكير بتأويل المكان أو المحل أو شبههما، أو إعادة الضمير على النبيّ ﷺ بأدنى نِسْبة، كلّ ذلك متكلّف بعيد التناول، ولو قال: الربع عوض الأرض لخلص من هذا الانتقاد».

ولا ندري هل اطلع مالك على هذا الانتقاد أم لا؟ إنما نعلم أن بلديّهُ العلامة ابن رُشَيْد، قد نقض غَزْله، وقام بمهمة الدفع عنه، كما لو كان مالك قد اطلع عليه ودفع عن نفسه، وهاك ما قاله ابن رشيد: «هذا ما قاله صاحبنا ـ يعني ابن عبدالملك ـ جرياً على عادته عفا الله عنه من انتقاص الأفاضل، واعتساف المحامل، وترك الصافي الزلال، وورود الكدر والعكر من المناهل، وكل ما قاله فاسد، والنقد عليه عائد:

أما هذا التضمين الذي ادعى أنه عيب فليس بهذا، وإنما العيب، الذي ترجم له أهل القوافي. وهو ما كان بين القافية وصدر البيت الذي يليها كقوله:

وهــم أصــحــاب يــوم عــكــاظ إنــي
شــهــدت لــهــم مــواطــن صــادقــات
أتــيــت لــهــم بــصــدق الــود مــنــي

وأما هذا التضمين الذي فعله الشيخ، فسبيل مُعَبّدة، وطريق مستحسنة عند العرب والمولدين، المتقدمين منهم

والمتأخرين، وإنما أوقعه في ذلك عدم معرفته باللفظ المشترك والمشكل.

وأما ما ادعاه من الإيطاء فغلط وقَر في سمعه، أو في خطه عند كتبه ووضعه، وإنما قال الناظم في البيت السادس: فما أسلمته بيضه ولهازمه. وإنما وقع صوارمه في البيت التاسع وهو الذي ألزم به النقد هذا الناقد المتعسف.

وأما ما قاله في عود الضمير، فمما تصان عنه المسامع، ويا للّه! ويا للمسلمين! ماذا الذي يمنع من إعادة الضمير على النبيّ ﷺ!؟ وأي تكلُّف فيه أو أيّ نسبةٍ أو بُعد تناول؟ مع أن إعادته على الضمير المخفوض في قوله: ارضه وهو ضمير المثال، أو ضميره ﷺ، وشرف وكرم، صحيح حسن، ولكنها عادة تعوّدها. ووسادة اعتمدها وتوسّدها. وما نعلم في هذه القصيدة شيئاً ينقد إلا ثقل لفظ (أصك بها خدي)، والله المرشد الملهم، والإنصاف أحق ما اعتمد عليه، وأولى ما استند إليه».

هذا رد ابن رشيد وهو سديد كله، نعم! إنه انتقد أيضاً لفظة أصك، ولم يبين وجه انتقاده، ولا شك أنه نظر إلى ما في ذلك الفعل من قلة الأدب، ويجاب بأنه لقوة عاطفة الحب، وفرحه بما ظفر به من أثر الحبيب، لم يملك نفسه أن جعل حُرّ وجهه موطئاً للنعل الكريمة، بل جعل يصك بها وجهه، كما يصك الرجل وجهه بيدَيْ ولده ومحبوبته، تلذذاً بذلك ومتاعاً، لا إرادةً للصك وإيذاء يَدَيْ مَن ذُكر، ومن هذا المعنى قولُ المُحِبّ الطَّبَري في رفع الصوت بتقبيل الحجَر الأسود، وقد قيل بكراهته:

وقالوا إذا قبّلتَ وجنةَ من تهوى
فلا تُسمِعَنْ صوتاً ولا تُعلِن النجوى
فقلتُ ومَن يمْلِكُ شفاهاً مشوقةً
إذا ظفرت يوماً بحاجتها القصوى
وهل يُبرىءُ التقبِيلُ إلا مُصَوّتاً
وهل يُبرِدُ الأحشا سوى الجهر بالشكوى

وقد انتقد ابن عبدالملك القصيدة الطائية أيضاً، التي تقدمت بأثر هذه، وقال: إن ابن المرحل استعمل أم مكان أو في قوله أم وخط، وكرر معنى بقلبي لها سقط البيت، لأنه افتتح به القصيدة، واستعمل البسط مكان التبسط في البيت الذي قبل الأخير، وضمن بين البيتين رأيت مثالاً والذي بعده. . .

وأجاب ابن رُشَيْد أيضاً عن هذه الانتقادات. فعن الأول: بأن الشاعر أنشده بأو وإن الغلط من المنتقد، وعن الثاني: بأنه وإن كرر اللفظ فبينهما مخالفة في المعنى، وعن الثالث: بأنه من نيابة المصادر بعضها عن بعض، وهو وارد في القرآن وغيره، وعن الرابع: بما أجاب به عن نظيره في القصيدة المتقدمة.

ثم أورد نكتة لطيفة في قوله، لسر الثريا. . . البيت، وهي أنه أخذه من قول المعري:

قريظية الأخوال ألمع قرطها
فسر الثريا أنها أبداً قرط

والمعري أخذه من ابن المعتز الذي شبّه الثريا في كل أحوالها فقال:

فـي الـشـرق كـاس وفـي مـغـاربـهـا
قُـرط وفـي أوسـط الـسـمـاء قَـدَم

لكنه زعم أن الثريا لما رأت قرط هذه، سرّها أن تكون (أبداً) قرطاً وأن لا تشبه بغيره. وكذلك قال ابن المرحل أن الثريا لو رأت مثال النعل الكريمة لسرها أن تكون شبيهة أبداً بالقدم لا بالقرط كما قال المعري.

وبعد هذا نبّه على عدم توهم أنها إنما سرّها أن تكون قدماً دائماً لا قرطاً ولا غيره؛ لأجل أن تكون واطئة لمثال النعل حاشا وكلا، فإن ذلك سوء أدب وتقصير بواجب التعظيم، بل المراد مجرد التشبيه والتشرُّف بالمشاركة في جنس القدم الذي قدم النبيّ ﷺ بعض أشخاصه.

وإذا كنا قد أشرنا إلى خصوماته الأدبية مع مواطنيه، والطّرّاق من الأدباء، فلا بد أن نشير إلى الصداقة المتينة، والعلائق الحسنة التي نشأت بينه وبين الأديبة الشاعرة السيدة سارَة الحَلَبية، الوافدة على المغرب أواخرَ المائة السابعة، فإنها لما حلّتْ بسبتَة مدحت رؤساءها، وخاطبت كتّابها وشعراءها، ومما خاطبت به ابن المرحل قولها:

يـا ذا الـعُـلا يـا مـالـكـي ... أنْـعِـم عـلـيّ بـمـالـك
الـعـالـم الـمـتـفَـنّـن الـبـحـر ... الـمـحـيـط الـسـالـك
يـا نـفـس إن جـاد الـزمـا ... نُ بـه بـلـغـتِ مـنَـالـك

ولـطـالـمـا قـد نِـلْـتِ مـا أمــلــت مــن آمــالــك

فراجعها ابن المرحل بقوله:

يـا نُـذْرة الـدنـيـا لـقـد حـزت الـعـلا بـكـمـالـك
جُمِعَتْ لكِ الآداب حتى إنــهــن كــمــالــك
ومـلـكـتِ أفـئِـدة الـورى فـالـنَـاسُ فـيـك كـمـالـك
إن قـايـسـوك بـمـالـك ألـفـوك أمـلـك مـالـك

فردّت عليه برسالة نثرية بليغة، وأجابها هو أيضاً بأبيات شعرية منعنا من إثبات ذلك كله خوف السآمة.

وقد كنا نريد أن نثبت له أيضاً بعض اللطائف الأدبية كالصّداق الذي كتبه نظماً لابن أبي القاسم العَزفي من رؤساء سبتة المعروفين، ونقارن بينه وبين عَقْد الشراء الذي كتبه نظماً أيضاً الشاعر العبقري عُمَر بن الوَرْدي، وغيرِ الصداق من لطائفه ولكنا رأينا أن نكتفي بهذا، فقد ذكرنا ما لم يذكره أحد من شعره وما فيه بَلاغ إلى أن يوقف على ديوانه ويُنشر، والله سبحانه الموفق والمعين.



أبو العباس العَزَفي
(ت ٧٠٨ هـ)

العزفيون ونسبهم، مكانتهم الاجتماعية، ولايتهم بسبتة، منزلة المترجم فيهم، نشأته، كفاياته، دخوله غرناطة مغرّباً مع قومه، وفاته وتحقيق فيها، حيثيته الأدبية، نظرة في شعره، صوَر من شعره.

بيت العزَفي كان من بُيوتات سبتة النبيّلة، وهم ينتسبون إلى لَخْم من العرب اليَمانِيّة، وقد ترأسوا بِسبتَةَ، وتداولوا الحكم فيها بالاستقلال والتَّبَع، منذ استبدّ بها زعيمُهم الفقيه أبو القاسم جدُّ المترجم في مدة عمر المرتضَى، الملكِ الذي قبل الآخر من ملوك الموحدين، وبالضبط في سنة ٦٤٧. ومن حُسْن حظ سبتة ولايةُ بني العزفي عليها في هذه الفترة التي كان المغرب فيها يَمُوج ويعِجُّ بالأهوال والأوجال، من جرّاء انتقال المُلْك من المُوَحِّدين إلى المَرِينِيّين فبقيت بِمنْجًى من الفتنة وما يصحبُها من اضطراب الأحوال إذ قام رؤساؤها الجُدُد بضبطها وتحصينها حتى انتظم أمرها واشتهر ذكرها. وكانت لهم أجفان بحِريَّة لا تزال جائلةً في اليَمّ، تحمي شواطىء البلاد من هجَمَات العدو،

وهم مع ذلك عاملون على تنشيط الحركة العلمية والأدبية والأخذ بِضَبْعِها، بما كان لهم من مَيْل صادق إلى المعرفة ومشاركة طيِّبة في فنونها.

ثم كان أن دخلوا في طاعة بني مرين، لما استدَفَّ لهم مُلْكُ المغرب في أيام السلطان يعقوب المنصور المَرِيني. ولما انتقض ابنُ الأحمر على السلطان يوسف بن يعقوب وغدرَ بأهل سبتة، نقلَ بني العزفي إلى حضرته غرناطة. فبَقُوا بها إلى أن استردّ السلطان أبو الربيع سليمان سبتة، واستقام ما بينه وبين ابن الأحمر فاستأذنوه في الرجوع إلى المغرب فأذِنَ لهم، واستقرُّوا بفاس. ثم ردّهم السلطان أبو سعيد عثمان إلى سبتة وعقد لأبي زكرياء يحيى بن أبي طالب منهم عليها، وتوفي أبو زكرياء، فقام بالأمر بعده ابنُه محمد، ولم يستقم له حال، فأخّره السلطان أبو سعيد، وكان ذلك نهايةَ رياسة بني العزفي بسبتة.

أمّا مُترجمُنا فهو الشاعر البليغ، أبو العباس أحمد ابن الرئيس أبي طالب عبدالله بن الرئيس أبي القاسم محمد بن أبي العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن حُسَيْن بن علي بن محمد بن سليمان بن محمد الشهير بابْنِ أبي عزَفَةَ[1]، اللَّخْمِي السَّبْتي، وإلى كُنْيَةِ هذا الجَدّ الأخير يرجِعُ نسبهم الذي به يُعرَفون وهو العَزفي.

وقد رأيتَ أن والده وجدّه كانا رئيسيْن على سبتة،

---

(١) تصحف في جزء الإحاطة المطبوع أولاً وثانياً إلى عرفة بالراء، فقوي الداعي إلى التنبيه على صوابه.

وكذلك أخوه أبو زكرياء، أما هو فلا نعلم أنه تبوّأ مقعد الرياسة بالرغم من وصف ابن الخطيب وغيره له بالرئيس، فلعله وصْفُ تَشْرِيف فقط. وكان جده الأعلى أبو العباس من رجالات سبتة عِلْماً وديناً وتقوى، وله الإمامة في الحديث، وهو مؤلِّف كتاب «الدُّرّ المُنَظَّم في مولد النبيّ المُعَظَّم» الذي أكمله ولدُه الرئيس أبو القاسم... ومعلوم ما كان للرؤساء العَزفِيّين بسبتة من الاعتناء بمولد الرسول ﷺ، والاحتفال به، حتى قيل: إنهم أولُ مَن أحدث ذلك في المغرب. وفي مقدمة الكتاب المذكور، يشير أبو العباس إلى سبب إحداثهم لذلك، ويقارنُ بين احتفال المَسِيحيِّين بميلاد عيسى عليه السلام، وإهمالِ المسلمين لمولد نبيهم ﷺ... وكان والدُ أبي العباس هذا، الذي هو الجدُّ الثالث للمترجم، قاضياً فقيهاً مُحدِّثاً أيضاً، فرِيَاسَتُهم الروحيّة بسبتة كانت وَطِيدة قبل رياستهم الزَمَنِيَّة.

وللمُترجم فضلاً عن أخيه الرئيس أبي زكرياء، أخٌ آخرُ عالِمٌ نبِيه، هو أبو القاسم عبدالرحمٰن صاحبُ كتاب «الإشادَة بذكر المُشْتَهرين من المتأخِّرين بالإجادة» وهو كتاب أَلَّفه للوزير ابْن الحكيم الذي كان شديد الرعاية لهم أيامَ تَغَرُّبهم بغرناطة، وقد نقل منه المَقَّري في «أزهار الرياض» ما يدل على أنه كتاب مَشْحُونٌ بالفوائد وكذلك ابن القاضي في «الجذوة» ولا شك أنه يُكَوِّنُ حَلْقَةً عظيمةَ الأهمية بالنسبة إلى التاريخ الأدبي في المغرب.

ومما ذُكِر نعلم أن مترجمنا نشأ في بيت الحَسَب والرياسة، واسْتَرضعَ أفاويقَ النُبْل والكِيَاسة، فكان كما قال

فيه ابنُ الخطيب: فذًّا في الأدب، طرَفساً في الإدراك، مُهذَّب الشمائل، ذَلِقَ اللسان، مُمتِعَ المجالسة والمحاضرة، حُلوَ الفُكاهة، يَرْمِي في كل غَرض بِسهْم)، وليس هذا بكثير على رَجُلٍ دَرَجَ من مَهْد الأدب، وَرُبِي في حِجْره، خصوصاً في ذلك العهد حيث كان الأدب من أهم أدَوَات الرياسة، وأعظم شروط الولاية، وخصوصاً من خصوص في سبتة الفَيْحاء التي كانت حينذاك مَثابَةَ الكثير من أهل العلم والفضل على اختلاف طبقاتهم، وتَبايُن منَاحِيهم.

وقال فيه أخوه أبو القاسم في كتابه «الإشادة»: «هو أخي، الذي بإخائِه أزْهَى وأنتَخِي، وكَبيري المُعتَمَدُ بإجلالي وتَوقِيري، ولولا خوفي من أن يلزَمني ما لزِم مادحَ نفسه؛ لأطنبتُ في وصف ما له من المحاسن التي فاق بها أبناء جِنسه، مع أنها لم تزَلْ على مَنَصَّة البيان مَجلُوَّة، وبألْسِنَة الإبداع مَتْلُوَّة» وهذه التَّحْليَةُ على تواضعها كافيةٌ في الدَّلالة على رفيع قدره وعظيم خَطْرِه. كما أنها تدل على إفادة أبي القاسم في إشادته وأنَّ كتابَه تحفةٌ فنِّية بالغةُ القيمة.

وقال ابنُ الخطيب عنه أيضاً: «حدثني الشيخ أبو زكرياء بن هُذَيْل. قال: حضرتُ بمجلس ذي الوزارتين أبي عبدالله بن الحَكِيم وأبو العباس بدرُ هَالتِهِ، وقُطْب جلالتِه، فلم يُحَدِّث بشيء إلاّ ركَضَ فيه، وتكلَّم بمِلْءِ فيه، ثم قُمْنا إلى زبّارين[1] يصلحون شجرة عِنَب، فقال لِعريفهم:

---

(١) أي: مشذبين، فإن الزّبر في لسان المغاربة بمعنى تشذيب الأشجار.

حقُّ هذا أن يُقصَّر ويُطال هذا، ويُعمَل كذا، فقال الوزير: يا أبا العباس، ما تركتَ لهؤلاء أيضاً حظاً من صناعتهم يستحقون به الأُجرة». وفي هذه الحكاية شاهد آخر على عظيم خِبْرة الرجل وسَعة اطِّلاعه.

ويظهر أنه كان كبيرَ بني أبيه، والمقدَّم عليهم في الكِفَايات، فها أنت ترى مجلسَه وقُرْبَه من ذي الوزارتين ابن الحكيم، وزير محمد الثالث من ملوك بني الأحمر الذي غدرَ بهم، واغتصب بلادهم وقد كان هو الذي تولى مُخاطبَة ابن الأحمر عن قومه لما قدموا عليه في حاضرة ملكه غرناطة. قال في «اللمحة البدريّة»:

«وفي شوال من عام خمسة وسبعمائة، قرع الأسماعَ النبأ الغريب من تملكه ـ يعني محمد الثالث ـ لمدينة سبتة وحُصولِها في قبضة ملكه، وانتزاعِها من يد رئيسها أبي طالب عبدالله ابن الرئيس أبي القاسم بن أبي العباس العزفي، فاستولى عليها واستأصل ما كان لرؤسائها من الخزائن والذخائر، ونقَلَهم، وهم عِدَّة إلى حضرته، فكان ذلك غُرَّةَ المحرم من العام بعده[1] ودخلوا عليه، وقد احتفَل الملِك، واستركب في الأبّهة الجُنْد، فلثَمُوا أطرافَه، واستعطفتْه شعراؤهم بالمنظوم من القول، وخطباؤهم بالمنثور، فأنشد يومئذ الرئيسُ أبو العباس أخوهم:

---

(١) كان الغدر بالعزفيين في شوال ٧٠٥ على يد أمير مالقة فرج بن إسماعيل بن الأحمر ولد عم ملك غرناطة، وقد وقع نقلهم أولاً إلى مالقة، ثم منها إلى الحضرة حيث وصلوا إليها في محرم ٧٠٦.

لَكُم حِمًى في فُؤادِي غيرُ مَقْرُوب
فضَائِعٌ في هواكم كلُّ تَأنيب
إنْ كان ما ساءنِي مِمَّا يَسُرُّكُمُ
فعَذِّبُوا فقدِ استعذَبتُ تعذِيبي

قصيدةٌ شهيرة، فطَمْأنَ رَوْعَهم وسكَّن جأشَهم، وأسكنهم في جِوَاره، وأجرى عليهم الأرزاق الهِلالية[1] وتفقدهُمْ في الفُصول إلى أن كان من أمرهم ما هو معلوم».

فانظر إلى ابن الخطيب كيف لم يُشِرْ إلا إلى ما أنشده أبو العباس ولم يُسَمِّ غيرَه، إذ كان الفردَ الكاملَ منهم والفذَّ النابغ فيهم، ولا يُعترَضُ على ذلك بتقديم أخيه أبي زكرياء يحيى للولاية دُونَه، فإن ذلك إنما كان بعد وفاة أبي العباس، فإنه تُوُفِّيَ بغرناطة قبل رجوعهم إلى المغرب، وبعد حلولهم بها بعامَيْن. قال في «الإحاطة»: قال في «عائد الصلة»: ولما كان من تقَلُّب الحال وإدالة الدولة، وخَلْع الأمير - يعني محمداً الثالث - وقَتْل وزيره - يعني ابن الحكيم - يوم عيد الفطر من عام سبع وسبعمائة، وانْتُهِبَتْ دارُ الوزير، ونالت الأيدي يومئذ مَن شَمِلَه دَهْلِيزُ بابِه من أعيان الطبقات وأولي الخُطَط والرُّتب، ومنهم أبو العباس هذا رحمه الله فأفْلَت تحت سِلاح مشهور، ومَنْبر مَرْقُوب، وثَوْب مسلوب، فأصابتْه بسبب ذلك عِلَّةٌ أياماً إلى أن أوْدَتْ به فقَضتْ عليه في غرناطة في الثامن والعشرين لذي الحجة من سنة سبع

---

(١) يعني: المرتبات الشهرية.

وسبعمائة. ودُفِنَ بمقبرة الغُرباء من الرَّبَض عند الوادي تُجاهَ نجْد[1] رحمة الله عليه».

فهو لم يدخُل فاساً، ولم يبقَ إلى الوقت الذي ردّ فيه السلطان أبو سعيد المريني قومَه إلى مقرّ رياستهم سبتة، ولو بقيَ لما قُدِّم عليه أحدٌ منهم.

ثم إن ما ذكره ابن الخطيب من تاريخ وفاته مخالف لما عند المقَّرِي في «أزهار الرياض» وابن القاضي في «الجَذْوة» من أنَّها كانت في ذي الحجّة من عام ٧٠٨ لا عام ٨٠٧، وإن اتفق ابنُ القاضي مع ابن الخطيب في اليوم الذي وقعت فيه الوفاة، وعيَّنَه الأولُ فقال: إنه يومُ الأحد. ويُؤيِّدُ ما للمقري وابن القاضي أنَّ ابنَ الخطيب نفسَه ذكر في «اللمحة البدرية» كَائِنَةَ خلْع محمد الثالث وأرَّخَها بيوم عيد الفطر من عام ٧٠٨ وذكر أيضاً في «الإحاطة» نفسها قتل الوزير ابن الحكيم يوم خلْع مليكه فأرَّخه بصبيحة عيد الفطر من عام ٧٠٨.. فإذا كان مترجَمُنا أصيب في ذلك اليوم ومات لأيام منه فلا تعدو وفاته ذا الحجّة متم عام ٧٠٨.. وعليه فقد وَهِمَ ابن الخطيب فيما ذكره من ذلك التاريخ في كتابه «عائد الصلة»، ونقله في «الإحاطة». والكمالُ لله.

على أن ابن القاضي إنما ذكره استطراداً في ترجمة أخيه أبي القاسم لأنه ليس على شرطه من حيث كونهُ لم

---

(١) كذا في الإحاطة، طبعة مطبعة الموسوعات، وفي طبعة دار المعارف: تجاه قصور نجد.

يدخل فاساً، بخلاف أخيه المذكور الذي استوطنها ومات فيها... ومع ذلك فإنه لم ينسُبْهما معاً بنسبة عَشِيرتهما العَزَفِيَّة المشهورة، بل اقتصر على نسبتها إلى لَخْم وهي غيرُ كافية في التعريف. ولذلك انبهم الأمر على صاحب «تاريخ الشعر والشعراء» بفاس، فذكر أبا القاسم ناسباً له إلى اللَّخْمِيَّة فقط.

هذه حيْثيَّةُ الرجل الاجتماعية... وأما حيثيّته الأدبية فقد جاء في تحلية ابن الخطيب له قولُه: «الفقيه الرئيس المتفنّن، حامل رايةِ مذهب الشعراء في وقته، المشار إليه بالبَنان في ذلك» وهي عبارة تُوهِمُ أن هناك مذهباً للشعراء، وطريقةً خاصةً في زمن الشاعر، أو قلْ مدرسة شعريّة كان هو رائِدُها وزعيمُها، لا سيما وقد ثبَتتْ هذه العبارةُ في نسخة أخرى من «الإحاطة» بلفظ: (حامل راية مذهب الشِّعر في وقته) ولسنا نعلم للشعراء في وقت المترجم مذهباً خالفوا به المعهودَ لديهم في الشَّكْل أو المَضْمون، لا في المغرب ولا في المشرق، وإلاّ فما بالُ صاحبنا ابن الخطيب لم يُبَيِّنْ لنا هذا المذهب الذي كان الشاعر يحمل رايته في وقته؟ وما له حين عرض لوصف شعره قال: «وشعره نمَطٌ عَالٍ، ومَحل للبراعة حَالٍ، لطيف الهُبُوب، غزير المَائِيَّة، أنيق الديباجة، جَمُّ المحاسن» مما لا إشعارَ له بمذهب معيَّن، ولا طريقة تُبَيِّن، وإن أشعر بتفوُّق الشاعر وتمكُّنِه من قَرْض الشعر الجميل. لذلك نَرى أن لفظة مَذْهب زائدة في هذه العبارة إن لم تكن من مُبالغَات ابن الخطيب. على أن اللفظة جاءت في نسخة ثالثة من «الإحاطة» بصورة مُهذَّب

الشعر، وهي كذلك مقبولة معقولة، ومنسجمة مع وصفه لشعره المنقول آنفاً.

ولا نقول هذا تنقيصاً من قدر المترجم، وإنما دفْعاً لذلك الإيهام، وفي الحقيقة إن الرجل من خواصّ أدباء المغرب ومن شعرائه الموهوبين، ولقد امتاز بصفات نادرة ترتفِعُ به إلى طبقة العِلية من أهل التفنُّن والإبداع فشعره رَيَّانُ من الفصاحة اليَعْربيَّة، حسَنُ السبك، دقيقُ التعبير عن أعمق العواطف القلبية، جميل التصوير للخوَالِج النفسية، يُكثِرُ فيه من استعمال البديع ووجوه التحسين اللفظي، ولكن من غير أن يجعله غاية ويُضحّي لأجله بالمعنى المراد، فهو يُورِدُه في ناسق متناسب مع أغراضه ومعانيه، كتناسُبِ خطوط اللوحة الفنّية من ريشَة الرسَّام العظيم، وهو على إتقان فنه وإجادة صُنْعه، عامرُ الأبيات بالمعاني والأخيِلَة والتَّولِيدات المُستحسَنة، فالمقطوعةُ أو القصيدة من شعره كالشجرة الطيبة: منظرٌ ومَخبَرٌ، وعبرةٌ لمن اعتبر. ومن أعجب شيء في شعره هذا الاتزانُ الرائق في أكثر أنواع الشعر اضطراباً وهو شعرُ الوجْدان، مما يدل على قوة العارضة وحضور المَلَكة. ولعل ذلك أثرٌ من آثار التربية الأرستقراطية التي تلقّاها الشاعر في بيت الحسب والرياسة.

وهاك تغَزُّلَ تلك القصيدة التي أشار لها في اللمحة البدريّة وقال إنها قصيدة شهيرة:

لكُم حمًى في فؤادي غَيرُ مقْروب

فضَائعٌ في هواكم كلُّ تأنيب

إن كـان مـا سَـاءنـي مـمـا يـسـرُّكـم
فـعـذبـوا فـقـد اسـتـعـذبـتُ تـعـذيـبـي
عُودُوا إلى الوصل أو عُودُوا عَلِيْلَكُم
ويـادِرُوا فـرِضَـاكـم طِـبٌّ مـطـبُـوب
كم أرسلتْ أدمعي تَتْرى بصِدْقِيَ في
دَعْـوى هـواكـم، فـقـابـلـتُـم بـتـكـذيـب
ولاذَ بـالـصـبـر قـلـبـي حـيـن غـالَـبـنـي
شـوقـي كـمـا لاذَ غـالِـبٌ بـمـغـلـوب
لـولا الـحـبـيـب الـذي يـنـأى بـنَـأْيِـكـم
مـا كـان قُـربـكـم عـنـدي بـمـحـبـوب
ولا تـشـكّـتْ جِـيَـادِي مـا أضـرَّ بـهـا
مــن طُــول رَكْــض وإسْــآد وتَـأويــب
بــي مــنــكــم رشَــأٌ لــولا لــواحــظُــه
مـا كـان قـلـبِيَ عن صـدري بـمـسـلـوب
إذا بــدا خــرَّت الألــحــاظ ســاجــدةً
لِـنُـور وجْـهِ بـتـاج الـحُـسْـن مَـغـصـوب
تَـخَـالُ حـبَّـةَ قَـلْـبِـي خَـالَـه أبـداً
يُصلَى بجَمْرِ على خدَّيْهِ مشبوب
شـالَـتْ عـقـاربُ صُـدغَـيْـه وحَـفَّ بـهـا
حيَّاتُ وَخـفِ مع الأذيـال مَـسْـحُـوب
تـجـنِـي الـقـلـوب، فـتـجـنـي وَرْدَ وَجْـنَـتِـه
فـتَـنـثَـنِـي بـيـن مَـلْـسُـوع ومَـلْـسُـوب

رِياضُ حُسْنٍ رِمَاحُ الهُدْبِ مُشْرَعَةٌ
لِلذَّب عنها بطَعْنٍ غير تَذْبِيب
فيها مَصَارِعُ لِلعُشَّاق دامِيَةٌ
وكلُّهم بين مطعون ومضروب

فهل لاحظتَ هذا الانسجام بين اللفظ والمعنى برغم المُحسِّنات البديعية والزخارف الكلامية؟ وهل لاحظت هذا الجمال الشائع في كل بيت من أبيات القصيدة وخاصةً في البيتين التاسع والعاشر، وعلى الأخص هذا الوصف الرائع للخال:

تخال حبَّة قلبي خاله أبداً
يُصلى بجمرٍ على خدَّيه مشبوب

ولم ينقل لنا الرواة هذه القصيدة كاملة، فنستطيعَ أن نتتبَّعها إلى النهاية مع قول ابن الخطيب فيها: إنها قصيدة شهيرة، ولكنَّا نَرْوِي هنا قصيدة في معارضتها قالها الملك عبدالله بن الملك حسين، وقد اطلع عليها في ترجمة الشاعر التي كنا نشرناها بمجلة السَّلام لأخينا العلامة السيد محمد داود، وهو الذي مكَّننا منها. قال الملك عبدالله:

كم بالحِمَى من نزيل عزَّ مطلَبُه
وكم به من أنِيس غيرِ مَخروب
أين الحبيبُ تَضُنُّ اليوم مَنزِله
أبِالسَّرَاة تَراه أمْ بِمَلْحُوب
أنَّى لصبري على بعدي ونأيِكم
وفي ابتعادكُم هجري وتعذيبي

لا أبعدَ اللّهُ قوماً كنتُ آلفُهُم
ففي اجتماعي بهم قصدي ومرغوبي
إن عدتُمُ تجدوني وَفْقَ عهدِكُم
أو جئتُكم ساعياً في زيِّ مجلوب
يا آلَ سَلْمَى لَقِدْماً فازَ سهمُكم
بِمَن يُوالي وَلاءً غيرَ مكذوب
كم همتُ أمشي ولا أدري أفي قَمرٍ
مَسْرَايَ أم في نهارٍ كان تَسْرِيبي
وشاكِرَاتُ جيادي سَعْيُها خبَبٌ
وراضِيَاتُ ركابي مَسُّ عُرقُوب
إن كان ذلك يُدني من رحابكم
أو كان في سعيها مِيعَادُ تقريبي
كلُّ البلاد يَبَابٌ بعدكم أبداً
وكلُّ أرض سواكم أرضُ مجدوب
دارُ النبيّ إلى نفسي مُحبَّبَةٌ
وفي اتصالي بها قصدي ومطلوبي
هو الرسول الذي لولاه ما ذُكِرَتْ
لِلْعُرب مأْثُرَةٌ في يوم تضريب
هي البلاد التي أُسُّ الأساس بِها
أصلُ الشريعة، أصلُ المجد والطيب
واللّهِ، لا أبتغي أرضاً بها بدَلاً
لَوْ رَامَ آخرُ إغرائي وترغيبي

قلْ للأديب الذي قد جاء يُتحِفنَا
بفائق من تَحِيَّاتٍ وتَخبِيب
إحْمِلْ ودادي وأشواقي إلى بَلَد
به الأشاوسُ من مُرْدٍ ومِن شِيب
واقْرِ السَّلام لِمَن بالغَرْبِ يقطُنُهُ
وأكّدِ الْوُدَّ مشفوعاً بترحيب

والخطاب في الأبيات الأخيرة للأستاذ داود الذي زار الأردن وقابل الملك عبدالله. ونحن نروي هذه القصيدة على ما فيها من المسامحة إيذاناً بما يجلبُهُ نشر أدب المغرب لأهله من سمعة حسنة وأحدوثة طيبة، ونرى أنّ إعجاب الملك الهاشمي بقصيدة العزفي ناشىء عن تمثله للحالة التي قيلت فيها، فإنها شديدة الشبه بحالته، إذ كل منهما تشرد عن مَوْطنِه وضيّعَ مُلكَ آبائه.

وللمترجم فيما يناسب بيت (شَالَتْ عقارب صدغيه) من وصف الشَّعَر عِذَاراً وغيرَه، كلُّ معنى طريف؛ فمن ذلك قولُه:

وَمُعَذَّرٍ في حُسْنِه
قد قامَ عُذْرُ المُبتَلَى
لما خطَبْتُ وِصالَه
وسألتُه أنْ يَعْدِلا
لم يَرْضَ رَدًّا لِلْجَوَا
ب فَخَطَّ في خَدَّيْه: لا!

وقوله:

أبْدَى عِذَارُك عُذْري في الغَرام به
وزادَني شغَفاً فيه إلى شغفي
كأنه ظنَّ أني قد نسيتُ له
عَهْداً فعرَّض لي باللاَّم والألِف

وقوله:

عذَلُوني فيمن أُحِبُّ وقالوا:
دَبَّ نَمْلُ العِذَار في وَجْنَتَيْه
وكذا النملُ كلَّمَا حلَّ شيئاً
مَنَعَ النفسَ أنْ تَمِيل إليْه
كنتُ قبل العذار أعذَرُ فيه
ثُمَّ مِن بَعْدِه ألاَمُ علَيْه
إنَّما دبَّ نحوَ شَهْدٍ بفِيهِ
فلذاك انتهى إلى شَفَتَيْه

وقال في مثل الجِناس الواقع في بيت (عودوا إلى الوصل أو عودوا عليلكم):

هَجْرُكُمْ ما لي عليه جَلَدُ
فأعِيدُوا لي الرِّضى أوْ فَعِدُوا
ما قسَا قَلْبيَ من هجركم
ولقد طال عليه الأمَدُ

ومعنى البيت الثاني مُقتَبَسٌ من الآية: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ

ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ والحديث: **«ألا لا يَطوَلنّ عليكُم الأمَد فتَقسُو قلوبُكم»**.

وله، يمدح الوزير ابنَ الحكيم، وصدّرها بهذا الغزل البديع الذي تفنَّن فيه ما شاء، ثم تخَلَّص منه إلى شكوى الحال، ومنها إلى مدح المذكور:

مَلَكْتَ[1] رقِّي بالجمال فأجْمِل
وَأصبْتَ من قلبي بِجَوْرِك فاعْدِل

أنتَ الأميرُ على المِلاَح ومَن يَجُرْ
في حُكْمِهِ، إلاَّ جفُونَك يُعزَل

إن قيل أنتَ البدرُ فالفضلُ الذي
لك بالكمال ونَقْصه لم يُجْهَل

لولا الحظوظُ لكنتَ أنتَ مكانَه
ولكان دُونَك في الحضيض الأسفل

عيناك نازَلتِ القلوبَ فكلُّها
إمَّا جَريحٌ أو مُصَابُ المَقْتَل

هزَّتْ ظُباها بعد كَسْر جُفُونها
فأُصِيبَ قلبي في الرَّعيل الأوّل

ما زلتُ أعذَل في هواك ولم يَزلْ
سمعي عن العُذَّال فيك بِمَعْزِل

---

(١) دخله زحاف الوقص وهو حذف ثاني الجزء المتحرك، وهو فيه صالح، فإذن لا حاجة لتشديد اللام من ملكت مع بنائه للمجهول لمخالفته لأصبت في أول العجز.

أصبحتُ في شغل بحبك شاغل
عن أن أُصيخَ إلى كلام العُذَّل
لم أُهمِلِ الكِتمانَ لكن أدمُعي
همَلَت ولو لم تَعْصِني لم تَهمُل
جَمعَ الصحيحين الوفَاء مع الهوَى
قلبي، فأملَى الدمع كشفَ المُشكل
ما في الدّبور ولا ٱلجَنُوب جوابٌ ما
أُهْدِي إليك مع الصَّبا والشَّمأل
حمّلْهُما من طِيب عَرْفِك نَفْحةً
تُحيِي ذَمَاء عليلك المُتَعَلِّل
إن كنتَ بعدي حُلتَ عما لم أحُل
عنه وقد أهمَلتَ ما لم أُهْمل
أو حالتِ الأحوال فاستَبْدلتَ بي
فأنا بحُبِّي فيك لم أستَبْدل
لاقيتُ بعدك منا لو أنَّ أقلَّه
لاَقى الثَّرَى لأذاب صُمَّ الجَندل
وحَمَلتُ في حُبِّيك ما لو حُمِّلتْ
شُمُّ الجبال أخفَّه، لم تَحمِل
من حَيْف دَهرِ بالحوادث مُقْدِم
حتى على خِيسِ الهِزَبْرِ المُشْبِل
قد كنتُ منه قبل كَرِّ صُروفه
فوق السَّنام فصرت تحت الكَلْكل

ونُـصُـولِ شَـيْـبٍ قـد أَلَـمَّ بـلِـمَّـتـي
ونُـضُـوبِ غَـضٍّ شـبـيـبـةٍ لـم تَـنـصُـل
يـنـوي الإقـامـةَ مـا بـقـيـتُ وأقـسَـمـتْ
لا تـنـزِلُ الـلـذَّاتُ مـا لـم يَـرْحَـل
وَمُـسِـرِّ[1] ضِـغْـنٍ وَدَّ أَنَّ حَـمِـيـمَـه
لاقَـى الـحِـمَـام وأنـه لـم يَـقْـفُـل[2]
يطوي على حسدي[3] الضلوعَ فقلبُه
بـأُوَارِه يَـغْـلِـي كَـغَـلْـيِ الـمِـرْجَـل
فـي صَـدْرِه مـا لَـيْـس فـي صَـدْري لـه
مِـن مِـثْـلِـه مِـثْـقـالُ حَـبَّـة خَـردل
أعـرضـتُ عـنـه ولـو أسـفَّ[4] لِـذَمِّـه
شِـعْـرِي لـجَـرَّعَـه نـقِـيـعَ الـحَـنْـظـل
جـلَّـيْـتُ فـي حـلَـبَـات سَـبْـقٍ لـم يـكـن
فـيـهـا بِـمُـزاحٍ ولا بِـمُـؤَمَّـل
مـا ضـرَّه سَـبْـقـيـه فـي زمـن قَـضـى[5]
أن الـمُـجَـلِّـيَ فـيـه دُونَ الـفِـسْـكَـل

---

(١) ثبت في طبعتَيِ الإحاطة: ومسير ظعن، ولا شك أن كسرة السين في الأصل المطبوع عليه حولت إلى نقطتين، ومن ثم صحفت ضغن بظعن.

(٢) ثبت لم يفعل، ونظن أن يقفل أنسب بالمعنى وبحال الشاعر المغرّب.

(٣) في الطبعتين: جسدي.

(٤) وفيهما: أشف.

(٥) نظن أن قضى هنا أنسب من مضى التي ثبتت في الإحاطة.

ساءَتْه مني عَجْرَفِيَّةُ قُلَّبٍ
بَاقٍ على مَرِّ الحوادث حُوَّل
مُتخرِّقٍ في البَذْل مُدَّةَ يُسْرِه[1]
مُتَجَلِّدٍ في عُسْرِه مُتَجَمِّل
حتَّى يَثُوبَ له الغِنَى من ماجِدٍ
بقضاء حاجَات الكرام مُوكَّل
مِثْلِ الوزير ابن الحكيم ومَا لَه
مِثْلٌ يقُوم مَقَامَه لِمُمَثِّل[2]
سادَ الورَى بحدِيثه وقَدِيمه
في الحالِ والماضي وفي المُسْتَقبل
من بَيْتِ مَجْدٍ قد سَمَتْ بِقِبَابِه
أَقْيَالُ لَخْمٍ في الزَّمان الأوَّل
سامِي الدَّعائِم طَالَ بَيْتَ زُرَارة
ومُجَاشِعٍ وأَبِي الفَوارس نَهْشَل
يلْقَى العُفَاةَ ببَسْطِ وَجْهٍ مُشْرِق
تجلُو طَلاقَتُه هُمُومَ المُجْتلي
وإذا نحَا بالعَدْل فَصْلَ قَضِيَّةٍ
لم يُخطِ فَصْلاً من إصابة مَفْصِل
عجِلٍ على من يَسْتَحِقُّ مَثُوبَةً
فإذا استحقَّ عقُوبَةً لم يَعْجَل

---

(١) في الطبعتين: سيره.

(٢) وفيهما: متمثل وهو غير مناسب معنى وإعراباً.

والقصيدة أطولُ من هذا... ولكن فيما أوردناه منها استيفاء للأغراض التي ضمَّنها إياها الشاعر. والقارئ يرى أنه بقدر ما رقّ قسْمُ الغزل منها وراق، ودلَّ على مَقدَرَة فائقة في المُزاوجة بين جمال المعاني وجمال الألفاظ... بقدر ما جاد قِسْمُ الشكوى، وانسجم مع حال المترجم، فصوَّر لنا النكبة التي حاقتْ به وبقومه تصويراً له في النفس أشجَى وقْع وأعظمُ تأثير. ولا يغفُل القارئ عن التملّي بحسن البيت الثاني والبيت الخامس والبيت السادس من غزلِها البليغ... أما البيت العاشر فقد غلبت عليه صنعة التورية بالكتب، فلم يجيء متناسباً مع هذه الأبيات الأخرى المشبوبة العاطفة والتي لم تُضعِف الصناعةُ حرارتها.

ويبلغ الشاعر ذروة الإحسان في التعبير عن حاله بهذا البيت من قسم الشكوى:

قد كنت منه قبل كرّ صُرُوفه
فوق السَّنَام فصرت تحت الكلكل

ويا لله من وصفه لهذا الشَّيْب الطَّالع بِلمَّتِه، مُؤذِناً بنُضُوبِ ماء شبيبته، الذي لا تنزلُ اللذات ما لم يرحل، مُقسِمة على ذلك، لأنه حِليَةُ الوقار، ولا يطيب مع الوقار متاع، كما قال شاعرنا نفسه في قطعة جميلة من نظمه:

ويوم كساه الدَّجنُ دُكْنَ ثِيَابِه
وهبَّ نسيمُ الروض وهو عليل
ولاحَتْ بأفلاكِ الرياض كواكبٌ
لها بالبُدورِ الطَّالعات أُفُول

وجالتْ جيادُ الراح بِالرَّاح جَوْلةً
فلم تَخْلُ إلاَّ والوَقارُ قَتِيل

وكلامه في وصف غريمه الذي يظهر أنه كان أحد قرابته، وكان مع الدهر عوناً عليه، هو أيضاً مما يدل على رسوخ قدمه في البلاغة، وتمكنه من التعبير عما بدَخِيلة نفسه أشدّ التمكن، وقد مزج فيه بين الفخر والإزراء على هذا الغريم بما لا كفاء له في الحسن.

أما مدحه لابن الحكيم فهو من تقارض الأكفاء وشكر الكرام لليد التي تمتد إليهم بالمُؤاساة حين يتعثر بهم الدهر، ويقلبُ لهم ظهر المِجَنّ... وهو من حيث الأسلوب قوي متين وذو معان سامية كما يُرَى فيما رويناه منه.

وبالجملة، فإن هذه القصيدة من غرر شعر المترجم، وقد أشار ابن الخطيب إلى ذلك، وأنه إنما اجتلبها كلها لكون صاحبها يمدح أديباً ناقداً، وبليغاً بصيراً بالكلام، فبطبيعة الحال لا بد أن يأخذ نفسه بالإجادة، ولا يسعه عذرٌ في ذلك. والأمر كما قال، إلا أننا نرى الإجادة طبعاً لصاحبنا لا تتخلف عنه في حال من الأحوال. وابن الحكيم على فضله وعلمه وأدبه، كان مزجى البضاعة في الشعر على ما عند ابن الخطيب نفسه في ترجمته بالإحاطة، وإن كان أعلم الناس به، وأشدّهم تيقُّظاً لموافقة الحسن وضده.

وله من قصيدة أخرى يمدح بها الوزير المذكور:

هذا الصباحُ فغادني بصَبُوح
وانهَضْ برَاحِك فهي رَاحةُ رُوحي

لا تَكتَرِثْ لِخُطوب دهرك واسقِني
كأساً تُحَسِّنُ منه كلَّ قبيح
واسْرَحْ سَوامَ اللفظ بين حدَائِق
ما سَائِمٌ في مثلها بِمُرِيح
فُتِنَت بزهرة زهرها فتمايلت
تختال في الحِبَرات بعد مُسُوح
شقَّت شقائقُها جُيوبَ كمائم
أسَفاً على زِقٍّ يَخِرُّ جَرِيح
وعُيونُ نرجسها تَلُوح شَواخِصاً
لِوَمِيض بَرْقٍ في الكُؤوس مُلِيح
والوردُ تُخْجِلُه أنامِلُ سَوْسن
تُومي إليه بالسَّلام وتُوحِي
وأتى الربيعُ رُبوعها بسواجِعٍ
عُجْمٍ تَشُقُّ فؤادَ كل فَصيح
سَجَعَتْ تُبَشِّرُها بِعَوْدِ شبابها
فأصِخْ إلى شِقٍّ بها وسَطِيح
ما لي وللأطْلال أسألُ صامِتاً
منها وأُعْوِلُ في مَهَامِهَ فِيح
في الرَّاحِ والريحانِ شُغْلٌ شاغل
لي عن عِيَافَةِ بَارح وسَنِيح
وأهِيمُ في وَرد الخدود وآسها
لا في عَرارٍ بالفَلاة وشِيح

وأصُونُ سمْعي عن مَقَالَةِ عاذل
لِتذلُّلي والحِبُّ غَيْرُ مُشيح
كم عرَّضوا لي بالمَلاَم وصرَّحوا
فعَصيتُ في التَّعْرِيض والتَّصْريح
عجباً لهم يَلْقَونَني بملامهم
في حُبِّ مَن يَلْقَوْن بالتَّسْبِيح
إن صوَّحَ الروضُ النَّضِيرُ فخَدُّهُ
أزْهَارُه أمِنَتْ من التَّصْوِيح
وتحارُ أعيُنُ مُبْصِريه إذا بَدا
في ثِقَل أرْدَافٍ وخِفَّة رُوح
قَلْبي بعَذْلِهم يَزِيدُ تَوَقُّداً
لا غَرْوَ في نَارٍ تُشَبُّ بِريح

وإحسانه في هذه القصيدة كالتي قبلها كثير... وهو في قوله: (ما لي وللأطلال) الأبيات الثلاثة، يذهب مذهب أبي نواس في الإزراء بطريقة القدماء وما كان سنةً عندهم من الوقوف على الأطلال وسؤالها والبكاء عندها، ويعوّض ذلك بوصف الرياض، ومحاسن الطبيعة، وسجع الطير مما يمثل بيئة الشاعر وجمال البقعة التي يعيش فيها. وأما قوله: (عجباً لهم يلقونني بملامهم) البيت، فهو من فرائد معانيه وخرائد لآليه، وكذلك قوله: (قلبي بعذلهم) البيت، هو من لطيف التنظير وجميل التصوير.

ويشير الشريف السبتي في شرح مقصورة حازم إلى براعة الشاعر في توليد المعاني وَغَوصِه عليها في هذا المثال

الذي يقول فيه: وقد ولَّد الرئيس أبو العباس بن أبي طالب العزفي من تشبيه البروق بالسلاسل توليداً ما أظنه سُبِقَ إلى مثله، فقال يخاطب الوزير أبا عبدالله بن الحكيم، واصفاً له بسرعة البديهة إذا كتب:

لــه قَــلــمٌ لــو يُــجــارِي الــبُــرُوق
لَــخِــلْــت الــسلاســلَ فــيــهــا قُــيُــودا

وهذه النهاية في الإحسان» ويقول في مثال آخر: «وقد قال الفقيه الرئيس أبو العباس بن أبي طالب العزفي رحمه الله في قصيدة هي من قلائده:

لـم تـشـتَـعِـلْ نـار الـمـشـيـب بـمـفـرقـي
حـتـى أراقَ الـدهـرُ مـاء شـبـابـي

وإنما اهتدى إليه أبو العباس من الآية، يعني قوله تعالى: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ ومن قول الشاعر:

هـريـق شـبـابـي واسـتـشـنَّ أديـمـي
...........................»

وهذه القصيدة التي منها هذا البيت قد روى لنا ابن الخطيب منها أربعة أبيات أخرى من مطلعها وهي:

أمَّـا الـرُّسـوم فـلـم تَـرِقَّ لِـمَـا بـي
واسـتـعـجـمـتْ عـن أن تَـرُدَّ جـوابـي
واسـتـبـدلـت بِـوُحُـوشِـهـا مـن أُنُـسٍ
بِـيـضِ الـوُجُـوه كـواعِـبٍ أتْـراب

ولـقـد وقـفـتُ بـهـا أرقـرقُ عـبـرةً
حتّى اشتكى طولَ الوُقوف صِحابي
يـبكي لِطُول بُكَاي في عَرَصَاتـها
صَحْبِي ورجعتِ الحَنِينَ رِكابي

وله في المقطوعات الغرامية:

وكـم لـيـلـةٍ نـلـتُ فـيـهـا الـمُـنـى
وبـاتَ لِـيَ الـحـبُّ فـيـهـا نَـجِـيـا
إذا ضـلَّ لـحـظـي فـي جُـنْـحـهـا
هـدَتْ وجـنـتـاه الـصـراط الـسـويـا
أُراع فـأسـأل عـن صُـبْـحـهـا
فـيُـرْجِـع لـي جُـنْـحُـهـا: نَـمْ هَـنِـيـا
إلـى أن بـدا لـي سَـرْحَـانُـهـا
يُـحـاوِلُ لِـلْـجَـدْي فـيـهـا رُقِـيـا
فـيـا لَـكِ مـن لَـيْـلَـةٍ بِـتُّـهـا
أنـادِمُ بَـدْرَ دُجـاهـا الـبَـهِـيَّـا
حكـتْ ليلةَ السَّفْح في حُسْنها
فأصْبحتُ أحكي الشَّرِيف الرضيا

يشير إلى قصيدة الشريف الرضي التي أولها:

يـا لـيـلـةَ الـسَّـفْـح هـلا عُـدتِ ثـانـيـةً
سـقَـى زمَـانَـكِ هَـطَّـالٌ مـن الـدِّيَـم

وهذه القصيدة شهيرة؛ وكان لها صدًى بعيدٌ عند أدباء المغرب.

وله أيضاً:

وعـدتَـنـي أن تـزُورَ يـا أمـلِـي
فـلـمْ أزَلْ لـلـطَّـرِيـقِ مُـرتَـقِـبـا
حتـى إذا الـشـمـس لـلـغـروب دَنَـتْ
وصُـيِّـرَتْ مـن لُـجَـيْـنِـهـا ذَهـبـا
أنِـسْـتُ بـالـبَـدْر مـنـك حـيـن بـدَا
لأنَّـه لـو ظَـهَـرْتَ لاحْـتَـجَـبـا

وله:

كـأنـمـا الـخـالُ مـصـباحٌ بـوَجْـنَـتِـه
هبَّتْ عـواصِـفُ أنـفـاسي بِـه فـطُـفِـي
أو نُقطةٌ قطَرَتْ في الخدِّ إذ رسَمت
خـطَّ الـجـمـال بـخـط الـلاَّم والألـف

وقال متشوّقاً إلى بلَده سَبْتَةَ، وما له بها من حُبٍّ وسَكَن وهي قطعة من أخفّ شعره روحاً وأعذَبه لفظاً:

لِـيَ فـي سـبـتَـةٍ سـكَـنْ
حُـبُّـه فـي الـحَـشـا سـكَـن
فـهْـو يَـزدادُ جِـدَّةً
مـعَ إبْـلائِـه الـزَّمـن
أصـبَـحَ الـقـلـبُ عِـنـدَهُ
وبِـغَـرْنَـاطَـة الـبَـدَن
إنَّ هَـارُوتَ لـو رَأى
سِـحْـرَ ألـحـاظِـه افْـتَـتَـن

رَشَـــأٌ سِـــحــرُ بَـــابِـــلِ
بَـيْــن عَـيْـنَـيْـه قَـد كَـمَـن

زَارَنـــي والــرَّقِـــيــبُ قَـــدْ
غــابَ والــلَّــيــلُ جِـيــن جَـنْ

بَــعْــدَ بُــعْــدٍ حــنَــى الــضُّــلــو
عَ عــلــى الــشَّــجْــوِ وَالــشَّــجَــن

فَـــشَـــهِــدْنَـــا عـــلـــى نِـــكَـــا
حِ ابْـــنِ مُـــزْنٍ بِـــبِـــنْـــتِ دَن

وَنَـــعِـــمْـــنَـــا إلـــى الـــصـــبـــا
ح كَــــرُوحَــــيْــــن فــــي بَــــدَن

وســكِــرْنَــا فــظُــنَّ خَــيْــراً
بِــنَـــا واتْـــرُكِ الـــظَّـــنَـــن

وشعره أكثر من هذا، ولكنه لم يصلنا منه إلا هذا النزر اليسير مع كثرة التبديل والتحريف والسقوط في أبياته، وقد اختَرْنا منه أنسب الروايات بظاهر المعنى، وصحّحنا الأخطاء العربية والعَروضيَّة حَسْبَ الإمكان.

* * *

ابنُ هانىء السبتي
(ت ٧٣٣ هـ)

علمه، أخلاقه، شيوخه، تلاميذه، تآليفه، تطوعه للجهاد، استشهاده، غرابة منازعه، أدبه، رسالة له، شعره.

هو أبو عبدالله محمد بن علي بن هانىء اللخمي السبتي العالم النحوي اللغوي الأديب أحد مفاخر سبتة المعدودين، جمع بين العلم والأدب ودرّس وألّف ونظم وكتب وخرج على يده الفطاحل من علماء العربية والنوابغ من الكتّاب والشعراء أمثال أبي القاسم الشريف وأبي بكر بن شبرين وسواهما. وكان من أهل الدين المتين والاجتهاد في العبادة عالي الهمة سري الخلق من بيت كريم نبيل.

ذكره ابن الخطيب في الإكليل فقال: «علم تشير إليه الأكفّ، ويعمل إلى لقائه الحافر والخف، رفع للعربية ببلاده راية لا تتأخر، ومرج منها لجة تزخر، فانقسم مجال درسه، وأثمرت أدواخ غرسه، فركض ما شاء وبرح، ودوّن وشرح، إلى شمائل يملك الطَّرف زِمامَها، ودعابة راشت الحلاوة سِهامها».

وترجمه في «الإحاطة» بقوله: «كان رحمه الله فريد دهره في سمو الهمة وإيثار الاقتصاد والتحلّي بالقناعة وشموخ الآنف على أهل الرياسة مقتصراً على فائد ربع له ببلده يتبلغ به، مع الصبر والعمل على حفظ المروءة وصون ماء الوجه، إماماً في علم العربية مُبرّزاً متقدماً فيه حافظاً للأقوال مستوعباً لطريق الخلاف مستحضراً لحجج التوحيد لا يُشقّ في ذلك غباره، ريّانَ من الأدب، بارع الخط، سهل مَقادة الكلام، مشاركاً في الأصلين، قائماً على القراءات، كثير الاجتهاد والعكوف، مليح الخلق، ظاهر الخشوع، قريب الدمعة، كثير القناعة، بيته شهير الحسب والجلالة».

وناهيك بها من حِلي تنبىء عن رسوخ القدم في المعارف والفنون وبعد الشأو في المكارم والأخلاق وعلو الهمة والاعتزاز بالعلم.

ثم قال ابن الخطيب في الإحاطة: «قرأ على الأستاذ العلاَّمة أبي إسحاق الغافقي وعلى الأستاذ النحوي أبي بكر بن عبيدة واعتمد عليه وقرأ على الإمام الصالح أبي عبدالله بن حريث وألّف كتباً منها «شرح تسهيل الفوائد» لابن مالك، وهو أجلّ كتبه، أبدع فيه ما شاء وتنافس الناس فيه، ومنها «كتاب الغرة الطالعة في شعراء المائة السابعة» ومنها كتاب «إنشاد الضوال وإرشاد السؤال في لحن العامة» وهو كتاب مفيد، وكتاب «قوت المُقيم» ودوّن ترسيل رئيس الكتّاب أبي المُطرّف بن عُمَيرة وضمه في سفرين وله جزء في

الفرائض مفيد وهو أرجوزة كما في نسخة أخرى من الإحاطة.

وأنت ترى أن هذه مجموعة من الكتب مهمة للغاية إلا أنها مع الأسف ما زالت مما لم يهتدِ إليه أحد ولا رفع عنه أنقاض الإهمال باحث[1]. والكتاب الثاني يلزم أن يكون طَلِبة كل مهتم بهذه الشؤون فإنه لا بد كاشف عن نواحي مجهولة من أدب المغرب والأندلس في جيل كامل من التاريخ. وفيما يظهر لنا أن ابن الخطيب وضع كتابه «الكتيبة الكامنة في شعراء المائة الثامنة» على غِراره وذيلاً له وإن لم يصرح هو بذلك. ومما يؤسف له أشد الأسف أنه ورد في مجلة المجمع العلمي العربي بالمجلد الرابع عشر ذكر المؤلف وكتابه الثالث هكذا: «لحن الفامة لابن بانئ محمد بن علي السبتي ٧٣٣» فلم يقتصر الأمر على جهل الكتاب بل تعداه إلى جهل مؤلفه أيضاً وهذا ـ كما نقول دائماً ـ مما يعود أكثر اللوم فيه علينا نحن الذين أهملنا تاريخ بلادنا ورجالنا وضيّعنا مفاخر أسلافنا ومآثرهم حتى صرنا نكرة مجهولة بين الناس.

وكان ابن هانىء ممن حضر مع المتطوعة لما نازل المسلمون في مدة السلطان أبي الحسن المريني جبل الفتح (جبل طارق) وحاصروه لانتزاعه من يد العدو فأبلى في تلك

---

(١) باستثناء ترسيل ابن عميرة، فإنه توجد بالخزانة العامة بالرباط مجموعتان منه غير تامتين، ويحتمل أن تكونا معاً أو إحداهما من عمل صاحبنا.

الوقعة بلاءً حسناً وبعد سقوطه في أيديهم بثلاثة أيام أناخ عليه العدو أيضاً فاستشهد رحمه الله في أواخر قعدة عام ٧٣٣هـ، أصيب بحجر المنجنيق في رأسه فمضى إلى الله تعالى طوع نيته، وصَحِبَتْهُ غَرابة المَنَازع حتى في مَنِيَّته».

وحقاً فقد كان غريب المنازع ـ كما يقول ابن الخطيب ـ في علمه وأدبه وأخلاقه.

فأما في علمه فقد رأينا المنزع الذي نزعه في كتبه من التأليف في لحن العامة وشعراء عصره وغيرهما مما لا ينكر أحد أنه فريد في بابه غريب في مَنْحاه. وأما في أخلاقه فكذلك كان متميزاً برقة الطبع وخفة الروح مع قوة الدين وصدق اليقين. وأما في أدبه فله منازع غريبة تشهد بذوقه السليم ولا سيما نثره الفائق الذي تكاد ألفاظه تضيق عن معانيه، وتتنوع أساليبه ولو اتَّحدتْ مقاصده، فهو من النثر القويّ مادة وروحاً القليل النظير في إنتاج الأدباء. وهاك نموذجاً منه هذه الرسالة التي أجاب بها أبا القاسم الشريف وصدّرها بقصيدة مهموزة وكان أبو القاسم فاتحه بنظيرتها:

«هذا بني، وصل الله سبحانه لي ولك علو المقدار، وأجرى وِفْق أو فَوْق إرادتك وإرادتي جاريات الأقدار، ما سنح به الذهن الكليل واللسان الفليل، في مراجعة قصيدتك الغراء، الجالية السراء الآخذة بمجامع القلوب الموفية بجوامع المطلوب، والحسنة المَهْيَع والأسلوب المتحلية بالحلى السَّنية، العريقة المنتسَب في العُلى الحسنية الجالية لصدأ القلوب ران عليها الكسل وخانها المَسْعِدَان السؤل

والأمل، فمتى حامت المعاني حولها، ولو أقامت حولها[1]، شكت ويلها وعَوْلها، وحرمت من فريضة الفضيلة عولها[2]، وعهدي بها والزمان زمان، وأحكامها الماضية أماني مقضية وأمان، تتوارد ألاّفها، ويجمع إجماعها وخلافها، ويساعدها على الألفاظ كل سهل ممتنع، مفترق مجتمع، مستأنس غريب، بعيد الغور قريب، فاضح الحلى، واضح العلى، وضّاح الغُرَّة والجبين، رافع عمود الصبح المبين. أُيّد من الفصاحة بأياد، فلم يخفِل بصاحبي طيء وإياد[3]، وكسي نصاعة البلاغة. فلم يعبأ بهمام وابن المراغة[4]، شفاء المحزون، وعِلْم السرّ المخزون، ما بين منثوره والموزون.

والآن لا مَلْهَج ولا مَبْهَج، ولا مرشد ولا منهج، عكست القضايا فلم تنتج، فتبلد القلب الذكي، ولم يرشح القلم الزكي، وعمّ الإفحام، وعمّ الإحجام، وتمكن الأكداء والأجبال[5]، وكورت الشمس وسيرت الجبال وعلت سآمة، وغلبت ندامة وارتفعت ملامة، وقامت لنواعي الأدب قيامة حتى إذا ورد ذلك المُهْرق[6]، وفرع غصنه المورِق، تغنى به الحمام الأوْرق، وأحاط بعداد عُداتِه الغُصص والشَّرق، وأمن

---

(١) أي: عامها.

(٢) العول في الإرث زيادة السهام على الفريضة فيدخل النقصان على الورثة بقدر حصصهم.

(٣) يعني: أبا تمام وقيس بن ساعدة الأيادي.

(٤) يقصد الفرزدق وجريراً.

(٥) الأكداء الحاجة، والأجبال تعذر القول على الشاعر.

(٦) المكتوب.

من الغصب والسرق، وأقبل الأمر وذهب لإقباله الفرَق، نفخ في صور أهل المنظوم والمنثور، بعث ما في القبور، وحصل ما في الصدور، وتراءت للأدب صُور، وعمرت للبلاغة كور[1]، وهمّت للبراعة دِرر، ونظمت للبراعة دُرر، وعندما تبين أنك واحد حلبة البيان، والسابق في ذلك الميدان يوم الرّهان، فكان لك القدم، وأقر لك مع التأخر السابق الأقدم، فوحق فصاحة ألفاظ أجدتها حين أوردتها، وأسلتها حين أرسلتها، وأزنتها[2] حين وزنتها، وبراعة معان سلكتها حين ملكتها، وأرويتها حين رويتها، وأريتها وأصلتها حين فصلتها ووصلتها، ونظام جعلته يحسد البيان قلباً، وبمعصمه قلباً[3]، وهصرت حدائقه غلباً، وارتكبت رويه صعباً، ونثار أتبعت له خديماً، وصيرته لمدير كأسه نديماً، ولحفظ ذمامه المُدَامي أو مُدامة الذّيامي مُديماً، لقد فتنتني حين أتتني، وسبتني حين صَبتني، فذهبت خفتها بوقاري، ولم يرعها بعد شيب عِذاري، بل دعت للتصابي فقلت مرحباً، وحللت لفتنتها الحبا، ولم أحفل بشيْب وألفيت ما رَدَّ نِصابي نصيب[4]، وإن كنا فرسَيْ رهان، وسابقي حلبة ميدان، غير أن الجلدة بيضاء، والمرجو الإغضاء بل الإرضاء.

---

(١) جمع كورة وهي القرية.
(٢) أي: زينتها.
(٣) القلب بالضم السوار.
(٤) نصيب شاعر أموي والإشارة إلى بيتيه اللذين يقول فيهما:

ولولا أن يقال صبا نصيب ... لقلت بنفسي النشا الصغار
بنفسي كل مهضوم حشاها ... إذا ظلمت فليس لها انتصار

بني، كيف رأيت للبيان هذا الطوع، والخروج فيه من نوع إلى نوع، وأين صفوان بن إدريس، ومحل دعواه بي رحلة وتعريس، كم بين ثغار بقر الفلاة وزئير ليث الفريس، كما أني أعلم قطعاً علماً، وأحكم قضاء وأمضى حكماً، أنه لو نظر إلى قصيدتك الرائقة، وفريدتك الحالية الفائقة، المعارَضة بها قصيدته[1]، المنتسخة بها فريدته، لذهب عرضاً وطولاً، ثم اعتقد لك اليد الطولى، وأقرّ فارتفع النزاع، وذهبت لك تلك العُلالات والأطماع، ونسي كلمته اللؤلؤية، ورجع عن دعواه الأدبية، واستغفر ربه عن تلك الإلية[2].

بني، وهذا من ذلك، من الجري في تلك المسالك، والتبسط في تلك المآخذ والمتارك. أينزع غيري هذا المنزع، أم المرء بشعره وابنه مولع[3] حيّا الله الأدب وبنيه، وأعاد علينا من أيامه وسِنِيه، ما أعلى منازعه، وأكبر مُنازعه، وأجلّ مأخذه، وأجهل تاركه، وأعلم آخذه، وأرق طباعه، وأحق أشياعه وأتباعه، وأبعد طريقه، وأسعد فريقه، وأقوم

---

(١) قصيدة صفوان بن إدريس الهمزية شهيرة بين أدباء المغرب ومطلعها:

جاد الربى من بانة الجرعاء ... نوءان من دمعي وغيم سماء

هي التي عارضها الشريف السبتي بقصيدة مدح بها المترجم، وبعثها إليه مع نثر أجاب عنهما ابن هانىء بهذه الرسالة وقصيدة مماثلة، وقد أثبتنا أطرافاً منها في المتن.

(٢) أي: الحلف.

(٣) إشارة إلى بيت أبي تمام:

ويسيء بالإحسان ظناً لا كمن ... هو بابنه وبشعره مفتون

نهجه، وأوثق نسجه، وأسمح ألفاظه[1]، وأفصح عكاظه، وأصدق معانيه وألفاظه، وأحمد نظامه ونثاره، وأغنى شعاره ودثاره فعائبه مطرود، وعاتبه مصفود، وجاهله محصود، وعالمه محسود، غير أن الإحسان فيه قليل ولطريق الإصابة فيه عَلم ودليل، من ظفِر بهما وصل، وعلى الغاية القصوى منه حصل، ومن نكب عن الطريق، لم يُعَدَّ من ذلك الفريق، فليهنك أيها الابن الذكي، البر الزكي، الحبيب الحفي، الصفي الوفي، أنك حامل رايته، وواصل غايته، ليس أوّلوه وآخروه لك بمنكرين ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾.

ولولا أن يطول الكتاب، وينحرف الشعراء والكتّاب، لفاضت ينابيع الفضل فيضاً، وخرجت إلى نوع من البلاغة أيضاً، قرّت عيونُ أوِدّائك، وملئت غيظاً صدور أعدائك، وَرَقِيت دَرَج الآمال، ورقيت عين الكمال، وحفظ منصبك العالي، بفضل ربك الكبير المتعالي والسلام الأتم الأنَمّ، الأكمل الأعم، يخصك به من طال في مدحه إرْقَالُك وإغْذَاذُك، وراض روض حمده وَابِلُك وطَلك ورذاذك، وعادت[2] مصالح سعيه في سعي مصالحك، وسينفعك بحول الله وقوته، وفضله ومنّته معاذك، ووسمتَ نفسك بتلميذه فسمت نفسه بأنه أستاذك، ابن هانئ، ورحمة الله وبركاته».

---

(١) كذا ولعل الصواب حفاظه، نظراً لأن ألفاظه أتت في السجعة الثالثة.

(٢) بالأصل وغدت ونرجح أنها تصحيف مما ذكرنا بدليل معاذك الواقعة في السجعة، وهذه الفقرة ساقطة من مخطوط الأسكوريال.

وهذه هي القصيدة التي أجاب بها مع الرسالة المذكورة تلميذه أبا القاسم الشريف:

يا أوحد الأدباء أو يا أوحد الـ
فضلاء أو يا أوحد الشرفاء
من ذا تراه أحق منك إذا التوت
طرق الحجاج بأن يجيب ندائي
أدب أرق من الهواء وإن تشأ
فمن الهوا والماء والصهباء
وألذ من ظَلْم الحبيب وظُلمِه
بالظاء مفتوحاً وضم الظاء
ما السحر إلا ما تصوغ بنانه
ولسانه من حلية الإنشاء
والفضل ما حُلّيتَه وحُبِيتَه
وحبوتني منه بخير حباء
أبكار فكرك قد زففن بمدحة
تمشي روائعها على استحياء
لا من قصور بل لتقصير بها
من حيث لم يظفرن بالأكفاء
لكن جبرن وقد جبلن على الرضا
فالجبر للأبكار، وللآباء
هذا إلى الشرف الذي قد فزت من
عليائه بالعزة القعساء

من رام رتبتك السنية فليقف
دون المرام مواقف الإقصاء

ومنها:

لله نفحة سحر ما قد شدت لي
من نفث سحرك في مُشاد ثناء
عارضت صفواناً بها فأريت ما
يستعظم الراوي لها والرائي
لو راء لؤلؤك المنظم لم يفز
من نظم لؤلؤه بغير عناء
بَوّأتني منها أجلّ مُبَوَّءٍ
فلا خمصي مستوطىء الجوزاء
وسما بها اسمي سائراً فأنا بما
أسدَيْتَ ذو الإسماء في الأسماء
وأشدت ذكري في البلاد فلي بها
طول الثناء وإن أطلت ثوائي
ولقومي الفخر المَشِيدُ بَنَيْتَه
يا حسن تشييد وحسن بناء
فليهن (هانيهم) يد بيضاء ما
إن مثلها لك من يد بيضاء
حَلَّيْتَ أبياتاً له لَخْمِيَّة
تُجلَى على مُضَرِية غَراء

فليشمخوا آنفاً بما أوْلَيْتَهُم
يا محرز الآلاء بالإيلاء

ومن شعره ما راجع به أبا القاسم الشريف أيضاً قطعة بعثها إليه من نفس الوزن والروي:

لولا مَشِيت بفَوْدي للفؤاد عصى
أنفَيْتُ في مَهْمَهِ التَّشْبيب لي قُلُصَا
واستوقفت غَبراتي وهي جارية
وَكْفَاء تُوهم رَبْعاً للحبيب قصا
مستئلاً عن لآليه التي انتهزت
أيد الأماني بها ما شئته فُرَصا
وكنت جاريت فيها من جرى طَلَقاً
من الإجادة لم يَجْمَح ولا نكصا
أصاب شاكلة المرمي حين رمى
من الشوارد ما لولاه ما اقْتُنِصا
ومن أعد مكان النبل نبل حجا
لم يرضَ إلا بأبكار النهى قنصا
ثم انثنى ثانياً عِطف النسيب إلى
مدح به قد غَلا ما كان قد رَخُصا
فظَلْتُ أرفُل فيها لِبْسَةً شرفت
ذاتاً ومنتسباً أعز بها قمصا
يقول فيها وقد خُوّلْت منحتها
وجُرْعُ الكاشح المغري بها غُصصا

فقلت هلا عكست القول منك له
ولم يكن قابلاً في مدحه الرُّخصا
وقلت ذي بِكر فِكر من أخي شرف
يردي ويرضي بها الحساد والخلصا
لها حلى حسنيات على حُلَلٍ
حُسْنِيَّة تستبي من حلَّ أو شخصا
خولتها وقد اغتزَت ملابسها
بالبخت ينقاد للإنسان ما عوصا
خذها أبا قاسم مني نتيجة ذي
ود إذا شيب ود للورى خلصا
جاءت تجاوب عما قد بعثت به
إن كنت تأخذ من در النحور حصى

ومن شعره في الفخر:

قل للموالي عش بغبطة حامد
أو للمعادي مت بضغنة حاسد
المزن كفي والثريا همتي
وذكاء ذكري والسعود مقاصدي

وقال في غير ذلك:

غنيت بي دون غيري الدهرُ عن مثل
بعضي لبعضي أضحى يضرب المثلا

ظهري انحنى لمشيب لاح واعجبي
غضّ إذا أينعت أزهاره ذبلا
أذاك أم زُهر لاحت تُخَبِّرُ أن
يوم الصبا والتصابي آنس الطِّفَلا

وله هذان البيتان وفيهما تورية مليحة:

ما للنوى مدت لغير ضرورة
ولطالما عهدي بها مقصورَة
إن (الخليل) وإن دعته ضرورة
لم يرض ذاك فكيف دون ضرورة

وقال مضمناً للثاني:

لا تلمني عاذلي حتى ترى
وجه من أهوى فلومي مستحيل
(لو رأى وجه حبيبي عاذلي
لتفارقنا على وجه جميل)

ولما مات رحمه الله رثاه أبو القاسم الشريف بقصيدة منها:

سقى الله بالخضراء أشلاء سؤدد
تضمنهن الترب صوب الغمائم

وقد ذكرنا مرثية أبي بكر بن شبرين في ترجمة هذا الأخير.

* * *

أبو بكر ابن شَبْرين
(ت ٧٤٤ هـ)

أصله وسلفه، مولده، مشيخته، كفايته وأخلاقه، دخوله الأندلس وكتابته عن ملكها، ولايته القضاء، وفاته، آثاره، شعره، نثره، شبرين بالباء لا بالياء.

أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبدالرحمٰن بن علي بن شَبْرين (كذا عند ابن الخطيب في الإحاطة وعند النّباهي في المرقبة العليا بعد محمد الثالث بن أحمد بن شَبْرين الجُذامي القاضي المؤرخ الأديب البارع، من أهل سَبْتة مُهاجر أبيه بعد استيلاء العدو على مدينة إشبيلية سنة ٦٤٦، وكانت دارَهم من قبلُ وتقدم لهم بها سَلَفٌ كريم.

وولد أبو بكر في سبتة أواخر عام ٦٧٤ ودرَج بها في مراقي النجابة وأخذ عن أعلامها البارزين منهم جدّه لأمه الأستاذ الإمام أبو بكر بن عُبَيْدة الإشبيلي والأستاذ أبو إسحاق الغافِقي ثم سمع بغرناطة على الأستاذ أبي جعفر بن الزبير والخطيب أبي عبدالله بن رُشَيْد وبمالَقَة وبِجايَة وتُونس

على كثير من المشاهير وأجازه غيرُهم من أهل المشرق، فهذا الاتّساع في الرواية مع الأبوّة الكريمة من الطرفين أخرج منه عالماً نبيهاً وأديباً نابغاً نافسَ فحول النظم والنثر في عصره وتقلّب في المناصب العالية التي لم يكُن يَلِيها إلا أهلُ الكفاية التامة من ذوي المعرفة الناضجة واللّباقة السياسية والخلق السجيح.

ودونكَ ما يقوله تلميذُه ابن الخطيب في الإحاطة واصفاً كِفَايَتَه وأخلاقَه على العموم «كان فريد دهره ونسيج وحده في حُسْن السّمْت والرّواء وكمال الظرف وجمال الشارَة وبراعة الخط وطِيبِ المُجالسة وقوراً عظيم الأبّهة عذْبَ التلاوة لكتاب الله، من أهل الدين والفضل والعدالة، تاريخياً طُلعة أخْبار أصحابه مُحققاً لما ينقله، فَكِهاً مع وقار غَزِلاً لوْذعياً، جميل العِشرة عَلِيّ شأن الكتابة أشدّ الناس (اقتداراً) على الشعر». . . إلخ، ما قال مما يفيد أنه كان مُكْثِراً منه جداً حتى عظُم ديوان شعره وأن ميزانه في النثر أرجح.

وذكره في التاج والكَتِيبَة بقوله: «خاتمة المُحْسِنين، في هذه السنين، وبَقيةُ الفُصحاء اللّسِنِين، ملأ العيون هَدْياً وسمْتاً، وصوْناً وصَمْتاً، وسلك من الوقار طريقةً لا ترى فيها عِوَجاً ولا أمْتاً، ما شئت من كمال باهر، وتألّق زُهر وتأرّج أزاهر، ومُناسبة باطن لظاهر، وبراعة أدوات، وذاتِ فضّلها الله على ذوات، إن خطّ، نزل ابنُ مُقْلَة عن درجته وانحطّ، وأنكرَ البَرْيَ والقَطّ، وإن نظم أو نثر، تبِعت البلغاءُ ذلك الأثَر، وإن تكلّم أنصتَ الحفْل لاستماعه وفرّغ لدُرره النفيسة صَدَف أسماعه».

ومثل هذه الحلى ما قاله فيه القاضي النّباهي بل كاد يكون نقلاً عن الإحاطة ونصه: «وكان رحمه الله فريد دهره في حسن السمت وجمال الرواء وبراعة الخط وطيب المجالسة من أهل الدين والفضل والعدالة، غاية في حسن العهد ومجاملة العشرة، أشد الناس اقتداراً على نظم الشعر، والكتُب الرّائق».

وإذ كان بهذه المثابة من العلم والاقتدار، فلا غَرْوَ أن يلي المناصب الكبار، ويتلقاه رجال الدولة في الأندلس بمزيد الحفاوة والاعتبار كما قال ابن الخطيب: «قَدِمَ الأندلس وذو الوزارة ابنُ الحكيم يُدير مَلكَها، ويُنير حَلَكَها، فأنهض آمالَه، وألقى له قبل الوسادة مالَه»... إلخ، وكان قدومه للأندلس في سنة ٧٠٥ حين استيلاء صاحب غرناطة على سَبْتة ونَقْلِه لرؤسائها وكرَام عشائرها إلى حضرة غرناطة فَوَلي أولاً الكتابة السلطانية بتصدير الوزير ابن الحكيم ثم تصرّف في القضاء بجهات مختلفة من الإيالة، محمود السيرة مشكور المسعى، وإن كان على ما يظهر من عبارة ابن الخطيب في الإحاطة لم يُواتِه الحظ دائماً في هذه الولايات نعم تأثل المال والشهرة وجرى مجرى الأعيان والوجهاء ثم مات في ليلة السبت الثاني من شعبان عام ٧٤٧ وخلف وفْراً لم يشتمل على شيء من الكتب لإيثاره اقتناء النَّقْدَيْن وعيّن جِرايةً لمن يتلو كتاب الله على قبره، ودُفِن بباب البيرة في دار اتخذها لذلك رحمه الله رحمة واسعة.

وكما لم يُخلّف المترجم كتُباً لم يُخلّف مؤلفات إلا ما كان من ديوان شعره الكبير جداً المتعدد الأسفار وهو في

حكم المفقود الآن، ورسائله التي نظن أنها لم تجمع ولا احتفظ معاصروه بالكثير منها وإن كان هو كاتباً أكثرُ منه شاعراً، ويقول ابن الخطيب في أدبه على وجه العموم: «وله الأدب الذي تحلّت بقلائده اللبّاتُ والنحور، وقَصرت عن جواهره البحور».

على أن ناحية أخرى من نواحيه العِلْمية غيرَ الكتابة والشعر قد أهْمِلت أيضاً وهي ثقافتُه التاريخية وقد وصفَه ابن الخطيب في الإحاطة بالمؤرّخ، ومن استقراء كثير من كتب التراجم كالإحاطة وغيرها نرى أن جملة من وفيَات العلماء والشخصيات الكبيرة إنما حُفِظت ونُقِلت من خطه وذلك مما يدل على اطلاعه وحسن ضبطه.

ومن قول ابن قَطْرال فيه مجيباً له عن شعر خاطبه به:

زارت فأزرت بمسك دَارين
تَفْتنّ للحسن في أفانينِ
ومثلُها في شتى محاسنها
ليست ببدع من ابن شَبرينِ

أما شعره فالنّبذ التي قرأناها منه تدل على طبع سليم وتمكن من الصنعة وحسن تصرف في الفنون الشعرية ونزوع في بعضه إلى المعاني الصّوفية والدقائق الحكْمية، وهذا النوع عليه مُسْحَة من الجمال الرّوحي تهُزُّ المشاعر وتبعث على التفكير العميق فيما وراء المادة وعالم الغيب ومن هنا جاء إحسانُه في الرثاء وإكثارُه منه على ما تُشير إليه عبارةُ ابن الخطيب في اللمْحة البَدْرِية:

«وكان على ظَرْفه وحُسْن رُوائه غُرابَ نُدْبة ونائحةَ مَأتم» فمن مَراثيه الشجية هذه التي قالها في بلَديّه العلامة ابن هانىء وقد استُشْهِد في حصار جبَل طارق:

قد كان ما قال البريد فاصبرْ فحُزْنُك لا يفيد
أودَى ابنُ هانىء الرضَى فاعتادني للثكل عِيد

إلى آخرها. وقد ذكرناها في النبوغ المغربي. . .

ومنها مرثَيته في الشيخ أبي جعفر الزيّات وأولها:

أيساعد رائده الأملُ أو يسمع سائله الطلل
يا صاح فديتُك ما فعلت دمَنُ الأحباب وما فعلوا
فأجاب الدمع مناديَه أما الأحبابُ فقد رحلوا

ومنها ما رثى به سادسَ ملوك بني نصر وقد اغتِيل في عنفوان شبابه ولاحظ كيف يدافع عنه التّهَم التي رُمِي بها ويتولاه أحسنَ الولاء وفاءً منه وحُسْنَ عهد قال:

استَقلاّ ودعاني طائفاً بين المغاني
وانْعَما بالصبر إني لا أرى ما تَريَاني
قُضي الأمرُ الذي في شأنه تستفتيان
ومضى حكمُ إلٰه ما له في الملك ثان
مات يوم السّلْم قَعْصا مِدره الحرب العوان
واستُبِيح الملِكُ ابنُ الملِك الحُرّ الهجان
يا خليلي أعينا ني على شجْو عَناني
واذكرَا سابغةَ النّـ ـعمة فيما تذكران
وإذا صليتما يو ماً عليه أذّنان

ما علِمْنا غيرَ خير ... فاقْضِيا ما تَقضِيان
لا نُبالي ما سمِعْنا ... من فلان وفلان
غيرَ ما قالوا اعتقَدْنا ... وعليْنا شاهدان
وغداً يجمعُنا المو ... قِفُ من قاص ودان
ورضَى الله هو المطلوبُ في كل أوان
وأخو الصدق لعمري ... ذُو مقاماتٍ حِسان
وهَوى النفس عناء ... حائلٌ دون المعَاني
وعلى البغضاء يطوي ... ودّ إخوان الخِوَان
بأبي واللّهِ أشلا ... ءٌ على الرمل خَوان
بفتي ما كان بالوَا ... ني ولا بالمُتواني
يمزِجُ الماء نجيعاً ... وينادي: علّلاني
ليس بالهيّابة النّكس ولا الغُمْر الهدان
أبيضِ الوجه تراه ... والرّدى أحمرُ قَان
أيُ سيف لضِراب ... أي رُمح لطِعان
ذو نجار خَزْرجي المنتَمَى سامي المَكان
ذكرُه قد شاع في الأ ... رض إلى أقصى عُمان
لا تراه الدهرَ إلا ... حِلْفَ سَرْج أو عِنان
عن صهِيل الخيل لا يُلهيه تَعزافُ القيان
إن ألمّت هيْعةٌ طا ... رَ إليها غيرَ وان
يصرَعُ الليلَ بقلب ... ليس بالقلب الجبَان
يا لهَا من نَضْبة لو ... لا نحوس في القران
وشباب عاجَلُوه ... بالردى في العنفوان

لـم يـجـاوز مـن سِـنـيـه الـعَـشْـرَ إلا بـثَـمـان

دوّخ الأقـطـارَ غـزْواً مـن هـضـاب ومـحـان

حكّموا فيه الظّبى أسرعَ من لمْح العيان

أن يـكـونـوا غـادَرُوه في الثّرى مُلقى الجران

تـشـرَبُ الأرض دمـاً مـنـه تـهـاداه الـغَـوانـي

وتُـحَـيّـيـه بـتَـسـلـيـم ثـغـورُ الأقـحـوان

فـالـمَـعـالـي أودعـتْـه بـيـن سـحْـر ولَـبـان

وغـوادي الـمُـزْن يُـرضـعـن ثَـراه بـلِـبـان

ضاع صرْحُ الثّغر لما أُغمد السيف اليَماني

وأعـيـرَ الأسـدُ الـور دُ الـقَـمِـيـص الأرْجُـوانـي

عـاطِـيَـانـي أكـؤسَ الـحُـزْ ن عـلـيـه عـاطِـيَـانـي

حـمـلُـه دون صـلاة للثّرى مما شجاني[1]

أو مـا كـانُـوا لـه يـد عُـون أعـقـابَ الأذان

لا تُـهِـيـنُـوه فـمـا كـا ن بـأهْـل لـلـهـوان

عـجَـبـي والـلّـهِ مـن إبـطـانِ هـذا الـشَـنَـئَـان

أنـا مُـذْ غـاب فَـبِـالـسّـا لـي فُـؤاداً مـا أرانـي

ويـحـسْـبـي دعـواتٌ أنـا فـيـهـا ذو افـتـنـان

بـتُ أهـديـهـا إلـيـه بعد ترتيل المَثاني

ذلـك جَـهْـدي إن إحـسـا نَ أبـيـه قـد غـذَانـي

فـإنـا الـشّـيـعَـةُ حـقـاً بـفُـؤادي ولـسـانـي

---

(١) انظر القطعة الآتية بعد هذه القصيدة مباشرة.

أفأنسى ذلك العهد وليس الغدرُ شاني

ويقال الرشحُ موجو د قديماً في الأواني

وعهودُ الناس شتّى من عِجاف وسِمان

وهي النّعمةُ حقاً شُكرها في كل آن

اتّئِذْ يا فارسَ الخيل فغير الله فان

والمعالي تطلب الثأ رَ وتأتي بالأمان

وهيَ الأرحامُ لا تُنسى ولو بعد زمان

أنتَ من رحمةِ غفّا ر الخطايا في ضَمان

وهو يُوفي الخصمَ إن شا ء وزاناً بوزان

والذي أفشى قَبيحاً حظّه عضّ البَنان

سلّم الله على مَن فيه ذو جهل لَحاني

وجزّاه بجهاد جاء منه ببيان

ربّنا أنت خبير بخَفِيات الجَنان

ويداك الدهرَ فينا بالنّدى مبسوطتان

ومجال العفو رحب والرضى غضّ المجاني

فتغمّدْنا برُحمَى وقَبُول وأمان

واجمع الشملَ على أفضل حال في الجنان

ومن المعاني البديعة في عكس الأغراض قوله:

عَينِ بكّي لميّت غادروه

في ثَراه مُلقّى وقد غَدرُوه

دفَنُوه ولم يصلّ عليه

أحدٌ منهم ولا غسّلُوه

إنـمـا مـاتَ حـين مـات شـهـيـداً

فـأقـامُـوا رسْـمـاً ولـم يـقـصـدوه[(١)]

ومن رثائه لوالد المذكور وهو الخامس من ملوكهم:

عــزّ الـعَـزاءُ فـمـا الـذي نُـبـديـه

فـي الـحـزن إلا بـعـضُ مـا نُـخـفِـيـه

يـا أيـهـا الـغـادي يـحـثّ قَـلـوصَـه

إيـهِ عـن الـخـبـرِ الـمُـرجّـم إيـه

أوْدَى أمـيـرُ الـمـسـلـمـين فـكـيـف لا

نـأسـى عـلـيـه وكـيـف لا نـبـكـيـه

قـد كـان لـلإسـلام عـيْـنَ بَـصِـيـرة

فـأصـابـت الإسـلامَ عـيـنٌ فـيـه

وقال على لسان الثالث منهم بعد خلْعِه واستقراره بقصبة المنَكّب مُغرّباً والمترجم يومئذٍ والي أحكامها، وقد جرت بينهما مودة أكيدة بحيث طلب المذكور منه أن يُعبر عن حاله شعراً:

قـفـا نـفَـسـاً فـالـخـطـبُ فـيـه يـهـون

ولا تَـعْـجـلا إن الـحـديـث شُـجـون

علِمْنا الذي قد كان من صرف دهرنا

ولـمْ تَـعـلـمـا هـذا الـذي سـيـكـون

---

(١) يعني: دفنه دون غسل ولا صلاة كما يدفن الشهداء.

ذكرنا نعيماً قد تقضّى نعيمُه
فأقلقنا شوقٌ له وحنين
وكنّا بأمس كيف شئنا وللدّنا
حَراك على أحكامها وسكون
وإذْ بَابُنا مثوى الغوادي ونحوَنا
تُمدّ رقاب أو تُشير عيون
فنُغّص من ذاك السرور مُهنّأ
وكُدّر من ذاك النعيم مَعين
وبنّا عن الأوطان بينَ ضرورة
وقد يغرُب الإنسان ثم يَبِين
أيا معهدَ الإيناس حُيّيت معهداً
وجادك من سيب الغمام هَتون
تُريد الليالي أن تُهِينَ مكانَنا
رُوَيْدك إن الحرّ ليس يهُون
فإن تكُنِ الأيام قد لعِبَث بنا
ودارت علينا للخطوب فنون
فمن عادة الأيام ذلّ كرامها
ولكنْ سبيلُ الصابرين مُبين
لئن خاننا الدهرُ الذي كان عبدَنا
فلا عجَبٌ أن العبيد تَخُون
وما غضّ منا مَخبَر غير أننا
تضاعفَ إيمانٌ وزاد يَقين

وقَفْنا على فضل الإله ظُنونَنا
وفي فضل ربي ما تَخِيب ظنون

وله أيضاً في رثاء الوزير ابن الحكيم الذي أخذ بِضبْعِه وكان السبب في إعلاء قدره ورفعه، وهي:

سقى اللّهُ أشلاءً كرُمْن عن البِلا
وما غضّ من مقدارها حادثُ البَلا
ومما شجاني أن أُهِين مكانُها
وأُهمِل قدر ما عهدناه مُهمَلا
ألا اصْنَعْ بها يا دهرُ ما أنت صانع
فما كنتَ إلا عبدَها المتذلّلا
سفَكْت دماً كان الرّقُوء نَوالَه[1]
لقد جئتَها شنعاءَ فاضحةَ المَلا
بِكفّيْ سَبَتْنَى أزرق العين مُطرقٍ
عَدا فغدا في غِيلِه مُتوغّلا
لنِعْم قتيلُ القوم في يوم عِيده
قتيلٌ تُبكّيه المكارمُ والعلا
ألا إنّ يومَ ابن الحكيم لمُشكِل
فؤادي فما ينفكّ ما عِشتُ مشكلا

---

(١) رقوء الدم: انقطاعه بعد جريانه، والاسم بالفتح ومنه لا تسبُّوا الإبل فإن فيها رقوء، أي: حقنة، والمراد أنه كان يحقن الدماء بعطائه.

فـقـدنـاه فــي يــوم أغــرّ مُــحــجّــلٍ
ففـي الـحـشـر نـلـقـاه أغـرّ مـحـجّـلا
سـمـتْ نـحـوَه الأيـامُ وهـو عـمِـيـدُها
فلـم تشكُر النّعمى ولـم تحفظِ الوَلا
تـعـاورت الأسـيـافُ مـنـه مـمـدّحـاً
كريماً سما فوق السّماكَيْن مرجلا
وخانتْه رجلٌ في الطواف به سعت
فـنـاءَ بـصـدر لـلـعـلـوم تـحـمّـلا
وجُدّل لـم يحضُره في الـحي ناصر
فمن مُبْلِغُ الأحياء أن مُهلْهِلا[1]
يــدُ الله فــي ذاك الأديــم مُــمــزّقــاً
تُـبـاركُ مـا هـبّـت جـنـوبـاً وشـمـألا
ومن حزَني أن لست أعرف مُلحَداً
لـه فـأرى لـلـتّـرب مـنـه مـقـبّـلا
رُوَيْـدَك يـا مَـن قـد غـدا شـامـتـاً بـه
فـبالأمـس مـا كـان الـعِـمـادَ الـمؤمّـلا
وكــنّــا نــغــادِي أو نُــراوِحُ بــابَــه
وقـد ظـلّ فـي أوْج الـعُـلا مـتـوقّـلا

(١) مأخوذ من قول مهلهل بن ربيعة محرضاً على الأخذ بثأره ممن قتله:

من مـبـلـغ الـحـيـين أن مـهـلـهـلاً ... أمـسـى قـتـيـلاً في الـفـلاة مـجـدلا
لله دركـــمـــا ودر أبـــيـــكـــمـــا ... لا يـبـرح الـعـبـدان حـتـى يـقـتـلا

ذكرناهُ يوماً فاستهلّت جفُونُنا
بدمع إذا ما أمحلَ العامُ أخضلا
ومازَج منه الحزنُ طولَ اعتبارنا
ولم ندرِ ماذا منهما كان أطْوَلا
وهاجَ لنا شجْواً تذكّرُ مجلسٍ
له كان يهدي الحي والملأ الألى
به كانت الدنيا تُؤخر مُدْبِراً
من الناس حَتماً أو تُقدّم مُقبِلا
لِتَبْكِ عيونُ الباكيات على فتًى
كريم إذا ما أسبغَ العُرف أسجلا
على خادِمِ الآثار تُتْلَى صحائفاً
على حامل القُرآن يُتلى مُفصّلا
على عضُدِ الملك الذي قد تضوّعت
مَكارِمُه في الأرض مِسكاً ومندلا
على قاسِم الأموال فينا على الذي
وضَعْنا عليه كلّ إضر عَلى على
وأنّى لنا من بعده مُتعللٌ
وما كان في حاجاتنا مُتَعلّلا
ألا يا قصير العُمْر يا كاملَ العُلا
يميناً لقد غادرت حُزْناً مُؤثّلا
يسوء المصلّى أن هلكتَ ولم تُقَم
عليك صلاةٌ فيه يشهدُها المَلا

وذاك لأن الأمـرَ فـيـه شـهـادةٌ

وسُـنّتُـهـا مـحـفـوظـةٌ لـن تُـبَـدّلا

فيا أيها الـميْتُ القديم الذي قضى

سـعـيـداً حـمـيـداً فـاضـلاً ومـفـضّـلا

لِـتَـهْـنِـك مـن رب الـسـمـاء شـهـادةٌ

تُـلاقـي ببُشرى وَجْـهَـك الـمتـهـلّلا

رثَيْتُك عن حُبّ ثوى في جوانحي

فـمـا ودَعَ الـقـلـبُ الـعـمـيـدُ ومـا قَـلا

ويـا رُبّ مَـن أولـيـتَـه مـنـك نـعـمـة

وكـنـتَ لـه ذُخـراً عـتِـيـداً ومـوئـلا

تـنـاسـاك حـتـى مـا تـمـرّ بـبـالـه

ولـم يـذّكـر ذاك الـنّـدى والـتـفـضُّـلا

يُـرابِـض فـي مـثـواكَ كـلّ عـشـيـة

ضـفِـيـفَ شِـواء أو قَـديـراً مـعـجّـلا

لحَى اللّهِ من ينسى الأذمّة رافضاً

ويَذْهَل مهما أصبح الأمر مشكلا

حنَانَيْك يا بـدر الـدجى فَلَشَدّ ما

تـركـتَ بُـدورَ الأفـق بـعـدك أُقّـلا

وكـنـتَ لآمـالـي حـيـاةً هـنـيـئـة

فـغـادرتَ مـنـي الـيـوم قـلْـبـاً مُـقـتّـلا

فـلا وأبـيـكَ الـخـيـرِ مـا أنـا بـالـذي

على البُعْد ينسى من ذمامك ما خلا

فأنت الذي آويتَني مُتغرّباً
وأنتَ الذي أكرمتني مُتطَفّلا
فآليتُ لا ينفكّ قلبي مكْمَداً
عليك ولا ينفك دمعي مُسْبَلا

وترى آية الوفاء أيضاً في هذه القصيدة مُسجّلة على المترجم من حسن العهد وكرم الصحبة ما يزيد به قدرُه ارتفاعاً ونجْمُ ذكره التِماعاً، ولذلك ثبت بعدها بخط ابن لسان الدين هذه الجملة «شكرَ اللّهُ وفاءَك يا ابن شبرين وقدّس لحْدَك وأين مثلُك في الدنيا حُسْناً ووفاءً وعِلْماً».

ومن مراثيه الإخوانية هذه التي قالها في صديقه أبي بكر البَلَوي وهي مُركّزة على التنويه بأخلاقه الحميدة فكأنها مرآة تعكس ما كان لصاحبها من هُيام بالمُثل العليا قال:

يا عَيْنُ سحّي بدمعٍ واكفٍ سربِ
لحامل الفضل والأخلاق والأدب
بكيتُ إذ ذُكِر الموتى على رجل
إلى بَلِيٍّ من الأحياء منتسب
على الفقيه أبي بكر تضمّنه
رمسٌ واغمَل سيْراً ثم لم يؤب
قد كان لي منه ود طاب مَشرَعُه
ما كان عن رغَب كلا ولا رهب
لكن ولاءً على الرحمٰن مُحتَسباً
في طاعة الله لم يُمذَق ولم يُشَب

فاليومَ أصبح في الأجداث مُرتهَناً
ما هزّت الريح أُملوداً من القُضب
إنّا إلى الله من فقد الأحبة ما
أشدّ لذعاً لقلب الثاكل الوَصِب
مَن للفضائل يُسْديها ويُلْحِمها
مَن للعلى بين موروث ومُكتَسب
قل فيه إمّا تَصِفْ رُكْناً لمُستنِد
روضاً لمنتجِع أنساً لمُغْترب
باقٍ على العهد لا تَثنيه ثانِيَةٌ
عن المكارم في وِرْد ولا قُرب
سهْل الخَليقة بادي البِشْر منبسط
يلقي الغَريب بوجه الوالد الحَدِب
كم غيّر الدهر من حال فقَلّبها
وحالُ إخلاصه ممتدةُ الطّنُب
سامي المكانة معروفٌ تقدّمه
وقدْرُه في ذوي الأقدار والرّتب
أكرِمْ به من سجايا كان يحمِلُها
وكلّها حسن ينبيك عن حسب
ما كان إلا من الناس الألى درجوا
عقلاً وحلماً وجُوداً هاميَ السّحب
أمسى ضجيعَ الثرى في جنْب بَلْقعة
لكن محامده تبقى على الحقُب

ليست صبابةُ نفسي بعده عجباً
وإنما صبرُها من أعجب العجب
أجاب دمعيَ إذْ نادى النّعيّ به
لو غيرُ منعاه نادى الدمع لم يجب
ما أغفل المرءَ عما قد أُريد به
في كل يوم يناديه الردى اقْترِب
يا ويْحَ نفسي لأنفاس مضت هَدراً
بين البطالة والتسويف واللعب
ظننتُ أنيَ بالأيام ذو هُزءٍ
غلِطْت بل كانت الأيام تهزأ بي
أشكو إلى الله فَقْري من مُعاملة
لله أنجو بها من موقف العطب
ما المالُ إلا من التقوى فأفلَح من
جاء القيامة ذا مال وذا نشب

* * *

أيا أبا بكر الأرضى نداءَ أخ
باكٍ عليك مدى الأيام مكتئب
أهلاً بقَدمتك الميمون طائرها
على محل الرضى والسهل والرّحب
نَمْ في الكرامة فالأسباب وافرة
وربما نِيلت الحُسنى بلا سبب

لله لله! والآجـــال قـــاطـــعـــة

ما بيننا من خِطابات ومن خُطب

ومـــن فـــرائـــد آداب نـــحـــبّـــرهـــا

فَتُودع الشهبَ أفلاكاً من الكُتب

أما الحياة فقد مللتُ مدّتها

فعوّضَ الله منها خير منقلب

لولا قواطعُ لي أشراكها نُصِبَت

لزرتُ قبرك لا أشكو من النصب

وقلّما شُفِيت نفس بزورة من

حلّ البَقِيع ولكن جهدُ ذي أرب

يا نُخبةً ضمها تُربٌ ولا عجب

إن التراب قديماً مَدفَن النُخَب

كيف السبيلُ إلى اللّقيا وقد ضربوا

بيني وبينك ما يُعيي من الحجب

عليك مني سلامُ الله يتبعه

حسنُ الثناء وما حييت مِن كثَب

ومن نظم ابن شبرين في السوانح الغرامية والمواعظ الدينية:

ظعَن الصّبا ومن المُحال قُفُوله

إن كنتَ باكِيَه فتلك طلُوله

قف عندها خيلَ الدموع ورجْلهَا

واندُب شباباً شطّ عنك رحيله

نزحت (بُثينته) و(ليلاه) معاً
فبكى المعاهد (قَيسُه) و(جميلُه)
رغياً لجيراني وللظل الذي
قد كان يجمعُنا هناك ظليله
هاذي ديارُهم فمَثّلهم بها
إن المتيّم شأنه تمثيله
واندُب أخلاّءَ المُصافاة الألى
فلربما ندب الخليلَ خليلُه
عهد أُحِيلت حالهُ فاليوم لا
معقولُه منا ولا منقولُه
أشجَاك مجتمَعٌ عفت آياته
وتعاورته شَمالُه وقَبولَه
قد كنت تصغُر عن سِني فِتْيانه
فاليوم تصغر عن سِنيك كهُولُه
ولَقلّما تبقى الرسوم فويْحَ مَن
ألهاه مِن هذا المتاع قليلُ
لا يأمنَن ذو مُهْلة فكأنْ به
قد يمّمتْ دار المقام حمُوله
ما كان ماضي العيش إلا خطرةً
خطَرت ووقتاً قد تتابع جِيله
أسفاً على زمَن كريم عهدُه
ولّتْ غضارتُه وغاب سبيله

ضيّعتَ في طلب الفضول بكورَه
لكن ندمتَ وقد أتاك أصيله
دع عنك تذكارَ الصّبا إن الصبا
رسم يَهِيج لك الغرام مَحِيلُه
يا مَفْرقاً نزل المشيبُ به اتئد
فالحر لا يوذَى لديه نزيلُه
لم يعتمد شيبٌ محلة لِمّة
سوداءَ إلا والحمامُ زَمِيله
قد كان أُنسي في الشباب فصدّني
وأبى عليّ وصالُه ووصوله
فعليك يا أُنسي تحيةُ مُقْصِر
طاحت على اللذات منك ذُحوله
حسْبي إذا رمت الأنيس مؤنسٌ
من ربنا سبحانه تنزيلُه
تبدو الحقائق لي إذا رتلتُه
يا حَبّذاه وحبذا ترتيله
يبلى الزمان وما يزال مُجدّداً
لا نصّه يبلَى ولا تأويله
أعظم به للمؤمنين مفصّلاً
فَرَقَ الضلال من الهدى تفصيلُه
نالَ الهُدى والبِرّ حاملُه كما
نال الكرامة والعلى محمولُه

أدّى أمـــانــتَـــه أمـــيـــن نـــاصـــح
فـي الـسّـذرة الـعـلـيـاء طاب مَقيلُه
ووعـاه مـنـه مـصـطـفـى متَـخـيّـر
صـحـت رسـالـتـه وصُـدّق قِـيـلُـه
فَـلـشـدّ مـا قـد أحـسـنـا فـي أمره
هــذا (مــحــمّــده) وذا (جِـبـريـلُـه)
لـلـقـانـتـيـن بـه زئـيـرٌ كـلـمـا
مُـدّت مـن الـلـيـل الـبَـهـيـم سُـدولُـه
كـم تـحـت هـذا الليل من متَملْمِل
متـمـلّـق خـرَق الـحـجـاب عـويـلُـه
مـن كـل مـن راقـت أسـرة وجـهـه
وحـلا لـه بـيـن الأنـام خُـمـولـه
ذي مـشـيـة هَـوْن وبُـرد مُـنـهـج
وعـلـى الـمـقـامـات الـعـلـى تَـغـوِيـلُـه
رفـض الـوجـود ولـم يُـبـال بـرزقـه
لِـمَ لا ومـولاه الـغـنـي كـفـيـلـه
لله مـــنـــه فـــي الـــدّجـــنـــة وقـــفـــة
هــبّ الـنـسـيـم لـهـا فَـرَقّ بَـلـيـلُـه
فـإذا الـصـبـاح بـدا طـوى مـنـشـوره
صـونـاً لـسـر والـجـهـول يُـزِيـلُـه
يـا حـاضـراً عـنـدي ولـيـس بـجـائـز
إدراكــه إن الــعــيــون تُــحِــيــلُــه

يا غائباً عن ناظريّ ولم يغِب
إحسانُه عني ولا تَنويله
يا واحداً حقاً وليس بممكن
تشبيهُه كلا ولا تخييله
أنا ذلك العبدُ الظلوم لنفسه
زلّت به قدم وأنت مُقيلُه

ومنه في هذا الصدد:

يا ليت شعري وهل يجدي الفتى الطمع
هل بعد مُفترق الأحباب مُجتمَع
جزعت إذ قيل سار القوم وانطلقوا
وليس يُنكَر في أمثالها الجزع
حاز الأسى بعدهم صبري بجملته
لا النّصف فرضيَ منه لا ولا الربع
رُدّوا على فؤادي إنني رجل
بالعيش بعد فؤادي لست أنتفع
وعللوني بأخبار العُذَيب فلي
على العذيب أسى للصبر ينتزع
جارت عليّ النوى في حكمها وعدت
فكُلّف القلب منها فوق ما يسع
فمن رأى ليَ سِرباً عند كاظمة
كادت عليه حَصاةُ القلب تنصدع

قـريـنُ أنـسـي فـي دار الـغـرام ثـوى
فيـا نـعـيـم الـهـوى هـل أنـت مُـطّـلـع
وأيّ أُنــس لـنـاءي الـدار مـغـتـرب
ولـت عـلـى رغـمـه لـذّاتـه جُـمَـع
يـا حـبـذا مـنـزل بـالـغَـوْر تـنـدبـه
وحـبـذا فـيـه مـصـطـافٌ ومُـرتَـبَـع
وحـبـذا ذلـك الـوادي الـمـقـدس إذ[1]
سـالـت مَـذَانِـبُـه فـالـرّي والـشَّـبَـع
وحـبـذا وقـفـةٌ لـي عـنـد شـاطـئـه
طـوراً أقـوم وطـوراً عـنـده أقَـع
يـا تـلـعـةً اخـضـلـت مـاءَ جـوانـبُـهـا
هل فيكِ للطارق المجهود مُنتَجع
ويـا شـبـابـاً ذَوى هـل كـرة أبـداً
ويـا خـلـيـطاً نـأى هـل أنـت مُرْتَجَعُ
إذا تـذكـرت أيـامـي فَـحَـيّـهَـلاً
بـالـدمـع يـنـصـبّ والأنـفـاس تـرتـفـع
خُزَعْبِلات صِبى مرت وأهل هوًى
مرُوا فـلا رجـعـت يـومـاً ولا رجـعـوا
فـلـو رأيـتَ رسـوم الـدار مـاثـلـة
ينتابها الظّبي أو يغتالها السّبع

---

(١) كذا بالأصل، ولعل الصواب: إن.

أنكرتَ ما كنتَ قبل اليوم تعرفه
وأخبرتْك الليالي أنها خُدَع
آه على صَبوة جاد الزمان بها
وكلّ أنس لأيام الصبا تَبَع
ما أسأرت غيرَ أشواق وغير أسى
يَحُثه ندم يشقى به لُكَع
سُرعان ما رِيع ذاك السّرب واأسفي
فاليوم لا سُبغ فيه ولا رُبع
قوم جميع على حكم النوى نزلوا
لم يغن ما ألفوا قِدْماً وما جمعوا
وأي حال على الأيام باقية
فبادر السير واعلم أنها قُلَع
عادوا حديثاً وعادت دارهم طلَلاً
كأنهم في عِراص الدهر ما ربَعوا
ألقى الزمان عليهم خُلعة حسُنَتْ
لكن على عجَل ما ابتُزّت الخُلَع
حَتى مَ أنت على دنياك معتكِفٌ
أما تُغصّك منها هذه الجُرع
ما ضرّ لما رأيتَ الصالحين بها
لو كنت تقنع منها بالذي قَنِعوا

جازوا عليهم[1] فلم يستهوهم عرَض
ولا ألـمّ بـهـم حـرص ولا جَـشَـع
فـكـلـمـا عـرضـت دنـيـا لـهـم نـفـروا
وكـلـمـا ذكـروا مـولاهـم خـشَـعـوا
طـوبـى لـهـم فـلـقـد قـرّ الـقـرار بـهـم
فـي مـسـتـقَـرّ نـعـيـمِ لـيـس يـنـقـطـع

ومن مقطوعاته البديعة:

أخذتِ بكَظْم الروح يا ساعةَ النوى
وأضرمتِ في طي الحشا لاعج الجوى
فمن مُخبري يا ليت شعري متى اللقى
وهل تُحْسِن الدنيا وهل يرجع الهوى
سـلا كـلّ مـشـتـاق واقـصَـر وجـده
وعند اللوى وجْدي وفي ساكني اللوى
ولي نيةٌ ما عشتُ في حفظ عهدهم
إلـى يـوم ألـقـاهُـم ولـلـمـرء مـا نـوى

وقال أيضاً:

متى تـسـمَـح الـدنـيـا بـقـربـكُـم مـتـى
لـقـد عـاث هـذا الـبـيـنُ ظُـلْـمـاً وعـنّـتـا
ألا قـبّـح الـلّـهُ الـفـراقَ فـإنـه
لأصـعـب مـا يـلـقـاه مـن دهـره الـفـتـى

---

(١) كذا، بالأصل ولعل الصواب: عليها.

أفــي كـل يـوم رحــلــةٌ بـعــد رحــلــةٍ
لـقـد أتـعـبـتـنـا رحـلـةُ الـصـيـف والـشـتـا

وكـــنـــت أُرَى ذا قـــوة وشـــبـــيـــبـــة
ولـكـن تـولـتـنـي الـلـيـالـي فـوَلّـتـا

وكيف احتمالي ذاك والركن قد هوى
وهـذا مَـشِـيـبـي بـالـحِـمـام مُـبَـكِّـتـا

وقال أيضاً:

هـل تـرجِـعَـنّ لـي الأيـام هـيـهـاتـا
سُـرعـانَ مـا صَـدَرَ الأحـبـاب أشـتـاتـا

لـهـفي عـلى مـا تـقضّـى من عـهـودهـم
فـإنـــمـــا كُـــنّ لـــلأفـــراحِ مـــيـــقـــاتـــا

أرجـو لـقـاءهـم والـحـال يـنـشـدنـي
هـيـهـات يـرجـع فـي دنـيـاه مـن مـاتـا

هـانـت عـلـى نـفـسيَ الأرزاءُ بـعـدهـم
فـلـســت آسـى عـلـى شـيء وإن فـاتـا

ومن نسيبه قوله:

مُـنـتـهَـى مـطـلـبـي وأقـصـى مـرامـي
نـظـرةٌ مـنـك قـبـل يـوم الـحِـمـام

لـم أسِـغْ مـذ نَـزعـت عـنـي، شـرابـي
يـا حـبـيـبـي ولا اسـتـطـبـت طـعـامـي

ظلمتْني فيك النوى أيّ ظلم
وامتحى نورُ وصلنا بظلام
فسلام على السرور فما كا
ن سوى الحُلِم غرّني في المنام

ومن مليح غرامياته:

يا مَن أعاد صباحي فقدُه حَلَكاً
قتلت عبدك لكن لم تخف دَرَكا
مُصيبتي منك ليست كالمصائب لا
ولا بكائي عليها مثل كل بُكا
فمن أُطالب في شرع الهوى بدم
لحظي ولحظك في دمي قد اشتركا

وقال مقتبساً:

لي همّةٌ كلما حاولت أُمسكها
على المذلة في أوحال أرضيها
قالت ألم تكُ أرضُ الله واسعةً
حتى يهاجرَ عبدٌ مومن فيها

وقال مستوحشاً من شيبه:

قد كان عيبي قبلُ في غيْب
فمذ بدا شيبي بدا عيبي
لا عذرَ لي اليوم ولا حجةٌ
فضحتني واللّهِ يا شيبي

وقال مشفقاً من ذنبه:

أثقلتني الذنوب وَيحي وَوَيسي
ليتني كنت زاهداً (كَأوَيس)
إنما أصلُ محنتي حبّ دنيا
هي (ليلى) ولي بها وجدُ (قيس)

ومن عجيب قوله في الاعتذار عن بَرْد غرناطة:

رعَى اللّهُ من غَرناطةٍ مُتبوّأ
يسرّ كئيباً أو يُجيرُ طريدا
تبرم منها صاحبي عندما رأى
مسارحها بالبَرْد عُدن جليدا
هي الثّغرُ صان الله من أهلَت به
وما خيْرُ ثغر لا يكون بَرُودا

وله هذان البيتان المشهوران ونختم بهما شعره:

ألاَ يا مُحِبَ المصطفى زد صبابةً
وضمّخ لسانَ الذكر دأباً بطيبه
ولا تعبأنْ بالمُبْطلين فإنما
علامةُ حب الله حبُ حبيبه

وقد ذيلها جماعة من أهل العلم والأدب من المعاصرين فقال أبو الحسن بن الجيّاب:

فمَن يعمُر الأوقات طراً بذكره
فليس نصيب في الهدى كنصيبه

ومن كان عنه مُعرضاً طولَ عمره

فكيف يُرجّيه شفيع ذنوبه

وقال أبو القاسم بن أبي العافية:

أليس الذي جلى دُجَى الجهل هَديه

بنور أقَمْنا بعده نهتدي به

ومَن لم يكن من دأبه شكرُ منعم

فمشهَدُه في الناس مثلُ مغيبه

وقال أبو بكر بن أرقم:

نبي هدانا من ضلال وحيرة

إلى مُرتقى سامي المحلّ خَصِيبه

فهل ينكر الملهوف فضل مُجيره

ويَغمط شاكي الداء شكرَ طبيبه

وقال الخطيب أبو محمد بن أبي المجد:

ومن قال مغروراً حِجابُك ذكره

فذلك مغمور طريدُ عيوبه

وذكرُ رسول الله فرض مؤكد

وكل محق قائل بوجوبه

فهذه نبذة صالحة من شعره لا يبقى معها مجال للتردد في الحكم بنبوغه وعبقريته، وأما النثر فَبِرغم شهادة ابن الخطيب له بأنه كان سابقاً بميدانه راجح الكفة فيه على النظم فإننا لا نستطيع أن نحكم فيه بشيء لِنُدرة ما بيدنا منه

وإنما نقدم للقارئ ـ كنموذج منه ـ هذه الرسالة التي كتبها إلى أبي الحكم بن مسعود، وهو شاهد بالمواريث، يُداعبُه فيها مُداعبةً تستخف الوَقور، وتلِجُ السمعَ الموْقور:

«أطال الله بقاءَ أخي وسيدي لأهل الفرائض يُحسِن الاحتيال في مُداراتهم، وللمنتقلين إلى الدار الآخرة يأمر بالاحتياط في أمواتهم، ودامت أقلامه مشروعة لِصَرْم الأجل المُنسَأ، مُعَدّة لتحليل هذا الصنف المنشأ من الصلصال والحمأ، فمن ميت يُغسَل وآخر يُقبَر. ومن أجل يُطوى وكفَن يُنشَر... فكلما خَرِبت ساحة، نشأت في الحانوت رَاحة، وكلما قامت في شِعْب مَناحة، اتّسعت للرزق مِساحة، فيباكر سيدي الحانوت وقد احتسى مرَقَتَه، وأسبلَ عنْفَقته... فيلحظ هذا برفْق وينظر إلى هذا شزْراً، ويأمر بشقّ (الجيوب) تارةً والبحث عن (المناطق) أخرى، ثم يأخذ القلمَ أخذاً رفيقاً، ويقول وقد خامره السرور: رحم الله فلاناً لقد كان لنا صديقاً، وربما واراه بالإزعاج الحثِيث، وقال مستريح كما جاء في الحديث، وتختلف عند ذلك المراتب، وتتبين الأصدقاء والأجانب، فينصرف هذا وحظه التهديد، والنظر الحديد، ثم يغشى دارَ الميْت، ويسأل عن الكيت والكيْت، ويقول: عليّ بما في البيْت، أين رِعاء الثاغية والراغية، أين عُقُود الأملاك بالبادية، قد كانت لهذا الرجل حال وأي حال وقد ذُكِرَ في الأسماء الخمسة فقيل ذو مال، وعيون الأعوان ترنو من خَلل، وأعناقُهم تشرَئبّ إلى ما خلف الكلل، وأرجُلُهم تدِبّ إلى الأسْفاط دبيب الصّقْر إلى الحجَل، والموتى قد وجبَت منهم الجنوب، وحضر

الموروث والمكسوب، وقيّد المطعوم والمشروب وعُدّت الصّحاح، ووزن بالأرطال وكيل بالأقْدَاح، والشهود يُغلِظون على الورثة في الأليّة، ويسيئونهم بالسّباب في النشأة الأولية، والروائح حينئذٍ تفغَم الأرض طِيباً، وتهدي إلى الأرواح شذاً يفعل في الأبدان فعلاً عجيباً، والدلاّل يقول هذا مفتاح الباب، والسمسار يصيح قام النداء فما تنتظرون بالسباب، والشاهد يصيح فتعلو صيحته، والمشرف يشرف فتسقط سُبْحَتُه... ثم يشرع في تقسيم الفرض، ولو أكفِئت السماوات على الأرض، ويقول لأهل السّهام: أحسنوا فالإحسان ثالث مراتب الإسلام، وقد نصّ ابن القاسم على أخذ أجرة القسّام وسوّغه أصبَغُ وسَحْنُون، ولم يختلف فيه مُطَرّف وابنُ الماجِشُون ولعل الخروج إلى الانبساط يجرُ عذْراً، ونسأل الله حمداً يوجب المزيد من نعمائه وشكراً، ولولا أن أعقِل عن الخصم، واثقِل رحلَ الفقيه أبي النجم، لتوسعنا في المجال شرحاً، ولكان لنا في بحر المباسطة سبحاً[1]. ولأفَضْنا في ذكر الورّاث، وبيّنّا العلة في أقسام الشهود مع المشتغل بنسبة الذكور مع الإناث، والله يصل عز أخي ومجدَه، ويهَبُ له قوة تخصه بالفوز عنده، ويزيده بصيرة يتبع بها الحقوق إلى أقصاها، وبصراً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ودام يحصي الخراريب والفلوس والأطمار، ويملأ الطوامِر بأقلامه البديعة الصنعة ويقرِن الطُومار بالطومار».

---

(١) المقام للرفع لا للنصب كما لا يخفى، ولعل أصل الفقرتين: لتوسعنا في مجال الشرح. ولكان لنا في بحر المباسطة سبح.

وعلى كل حال فما تصدُر هذه الرسالة إلا من متمكن في صنعة الإنشاء متفنن في ضروب الكلام حلو التندير بديع التنكيت والعجب من إجادته في هذا الباب وباب الرثاء وهما نقيضان. وذلك مما يعرف به علُوّ كَعْب الرجل ورسُوخُ قدمه رحمه الله.

ومن آثاره النثرية أيضاً ما كتب به إلى صديقه أبي عبدالله محمد بن عمر المليكشي وهو معتقل بقصبة بجاية يُسَلِّيه عَقِبَ شعر: «لا غرو إن وقع تَوان، أو تلَوّم دهرٌ ذُو ألوَان، فالأمر بين الكاف والنون، ومن صبر لم يبُؤ بصفقة المغبون، وللسعداء تخصيص، ومع التقريب تمحِيص، وما عن القضاء مَحِيص، والمتصرف في ملكه غير معتُوب، وقديم الحقيقة إلى الحيْف ليس بمنسوب، وقد ورد خطاب عمادي أطاب الله مخضره، وسدّد إلى المرامي العلية نظره ناطقاً بلسان التفويض سارحاً من الرضى في الفضاء العريض، لائذاً بالانقياد والتسليم، قائماً على أسكُفَة باب الأدب لمثابة حُكم الحكيم» إلى أن يقول:

«والوقائع عافاكم الله وُعّاظ، ونحن هُجُود وفي الحي إيقاظ، وما كل المعاني تؤدّيها الألفاظ، وهذا الفناء الذي نشأ عن الوقت هو إن شاء الله عين البقيا وإذا أحبّ الله عبداً حماه الدنيا، وما هي إلا فتُون، وجنُون فنون، وحديث كله شجون، وقد يجمع الله الشَتِيتَين، ولن يغلب عُسْرُ يُسْرَيْن، فلا بأس، ويا خطب لا مِسَاس وأبعد الله اليأس، وإنما يوفي الأجر الصابرون ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون».

قال ابن الخطيب «وهي طويلة بديعة» وفي نظرنا أن هذا الذي رأيناه من نثره، لا يفوق كثيراً شيئاً من شعره، فهُما لديه فرسَا رِهان، كلما ركب أحدَهما جلى في الميدان.

وبعد فقد كتبنا ابن شبرين بالباء على ما هو الصحيح فيه وهو الواقع في غالب الكتب، التي ذكرته كـ«اللمحة البدرية» وهي مصححة على عدة نسخ و«الكتيبة الكامنة» في ذكره وذكر ابن أخ له وهي مخطوطة، و«الصلة» لابن بشكوال طبع كديرة، و«التكملة» لابن الأبار طبع ابن أبي شنب وبل، كلتيهما في ذكر جده أبي عبدالله، و«مخطوطة الإحاطة»، و«النفح والإحاطة» المطبوعين في مواضع منهما، وفي مواضع أخرى كتب شيرين بالياء ومن حيث أن هذين الكتابين غير مصححين فإنا نجزم بأن كتابته بياء بعد الشين إنما هي تصحيف مطبعي لا غير، وقد غلط من قلّد هذا التصحيف من العصريين والعلم كله للّه.



أحمد بن شعيب الجزنائي
(ت ٧٤٩ هـ)

اسمه ونسبه، عبقريته العلمية وكفايته الأدبية، دراسته ومشيخته، قبيلة جزناية وما اشتهر عنها من البدعة، رد قول ابن الخطيب فيه أنه مُقِت لاشتغاله بالفلسفة، عَملُه في البلاط المريني، ترفُّعه عن التكسُّب بالشعر، شعره، نثره، وفاته.

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن شُعَيْب، وبه عُرِف، التَّازِي داراً الفاسي قراراً، الجِزِنَّائِي أصْلاً ونِجاراً، نسبةً إلى قبيلة جِزنَّايَة المعروفة من قبائل إقليم الرِّيف، وهي بالجيم المِصْرية، ولذلك تُكتَب أحياناً بِالكاف: الكاتب الشاعر الفيلسوف الطبيب الكيماوي المُجَرِّب.

عرَّف به ابنُ الأحمر في كتابَيْه: «نثر الجُمان ونثر فرائد الجمان»، وابنُ الخطيب في كتاب «الإحاطة» وغيرها، وذكره ابن خلدون في تاريخه وفي كتاب «التعريف»، وأثنى عليه كثيراً. وننقل ترجمة ابن الأحمر له في كتاب «نثر فرائد الجمان» إذ كانت أوسع من غيرها، ونُعقِّب عليها بما يقتضيه الحال.

قال ابن الأحمر: «سابِقٌ ركضَ في مَيْدان الشعر فجلَّى، وماهِرٌ طلعَ في سماء الإجادة فتجلَّى، له في الطب قدم في صحته وعِلّته رسخت، وفي أحكام النجوم آية بإعجازها سور[1] الكلدانيين نسخت، وبرع في الحساب وأحكامه، وأصاب في الفقه وأحكامه، وأدبه من الأصول حظ وافر، كما وجه النحو له سافر، والإنشاء أجرى في لوح الإحسان قلمه، واطلع بين جبال تَنْميقه عَلَمه، ومدينة تازا مسقط رأسه، ومتوقد نبراسه، وطرأ على فاس فحمدت سُراه، وقالت: ما أجمل مسراه. وصميم منتسبه في البربر جزناية، حيث الاعتزال عمت به الجناية، ولو كان من الأعراب لشُمل في شعرائها، وحمل راية الكلام في أمرائها... والعجب من بربري الأصل يدرك مدارك الأعراب ويأتي من الفصاحة اليعربيّة بالإغراب».

أول دلالة هذا الكلام أن المترجم كان ذا عبقرية محيطة بجملة من المعارف والفنون تجعل منه شخصية علمية وأدبية مرموقة، وقلّما اجتمع العلم والأدب بمعناهما الكامل إلا للنوابغ الأفذاذ وأهل الكفايات النادرة... وكان من واجب ابن الأحمر أن يذكر لنا أين درس، وعمن أخذ من الشيوخ والأساتيذ، فإن هذه الحصيلة الوافرة من العلوم لا تتأتى بدون سعي واجتهاد وتلقين وتفهيم، وقد أشار إلى شيء من ذلك لسان الدين في الإحاطة حين قال:

---

(١) بالأصل: صدور الكلدانيين، ونظن أن الصواب ما أثبتناه، وفي أصل المخطوط الوحيد من نثر الفرائد الموجود بدار الكتب المصرية تصحيف كثير حاولنا جهدنا أن نصحح ما ننقله منه.

«قرأ في بلدة فاس على كثير من شيوخها كالأستاذ أبي عبدالله بن آجروم والأستاذ أبي عبدالله بن رُشَيْد، ووصل إلى تونس فأخذ بها الطب والهيئة على الشيخ رُحْلة وقته في تلك الفنون يعقوب بن الدراس».

فهذا النص يلقي الضوء على بدايته ومكان دراسته وإن لم يستوعب الكلام في ذلك كما يجب. ثم إن قوله قرأ في بلدة فاس لا يصح مع ما ذكره ابن الأحمر من أنه ولد بتازا وفيها نشأ وأنه طارىءٌ على فاس وليس من أهلها، والغالب أن قول ابن الخطيب في بلده محرّف عن بلدة بالتاء، وإن كان وصف فاس ببلده غريباً.

ويشير ابن الأحمر إلى قبيلة المترجم جزناية ويصفها بجناية الاعتزال، وهو يطلق هذا الوصف بمعنى عامّ، إذ الذي نعلم من حال هذه القبيلة هي أنها كانت ما تزال متمسكة ببعض تعاليم المهدي بن تومرت التي بثها في القبائل البربرية، وقد كان منها بعض عقائد الشيعة، والشيعة يميلون إلى الاعتزال، فلعله إنما وصفها به لذلك.

وفي المعيار سؤال مرفوع إلى فقيه تازا ومفتيها الفقيه أبي عبدالله محمد بن عبدالمؤمن رحمه الله عن طائفة جزناية من أخماس تازا هذا نصه: (الحمد لله سيدي رضي الله عنكم، جوابكم في قوم فَارَقُوا الجماعة ويكفِّرون المسلمين ولا يأكلون ذبائحهم ولا يصلُّون خلفهم ويقولون: مَن لم يؤمن بالمهدي بن تومرت فهو كافر، ويفضلونه على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ويقولون: مَن لم يعلم اثني عشر باباً من التوحيد فهو كافر، وينقضون الوضوء بلمس ذوات

المحارم ويقولون: مَن حلق ما تحت اللحية فهو مجوسي، بيِّنوا لنا الرد عليهم في ذلك وما يلزمهم والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته). وقد أجاب الفقيه المذكور عن جميع فصول السؤال بما تقتضيه أدلة الشرع، وما يهمنا هنا هو النحلة التي كانت عليها قبيلة جزناية والتي نعتها ابن الأحمر بالاعتزال وما هي منه بالمعنى الدقيق للكلمة.

على كلٍّ ما نظن أن صاحبنا ابن شعيب كان من المتمين لهذا المذهب الزائغ، ولا نعتقد أن في جزناية اليوم مَن يرفع به رأساً، فقد قضى علماؤنا رضي الله عنهم على أمثال هذه الانحرافات في غير ما قبيلة وبلد، ودلُّوا الناس على الجادة ونوّروهم بالعلم وهَدْي السنّة والكتاب، فلم يبقَ في ناحية من نواحي المغرب مَن يعتقد شيئاً من المذاهب والآراء الباطلة.

وأخيراً يتعجب ابن الأحمر من نبوغ المترجم في اللغة العربية والأدب ومزاحمته بالمنكب لشعراء العرب وأمراء الكلام فيهم، مع أنه بربري الأصل، وهو تعجب في غير محله، فالناس لا تتفاضل بالأصول وإنما تتفاضل بالجد والعمل، فكم من عربي أصيل لا يحسن تركيب جملة عربية ولا يعرف من قواعد لغته مسألة واحدة، وعلى العكس كم من عجمي الأصل برع في الأدب واللغة والشعر بحيث فاق الكثير من العرب في ذلك؛ وناهيك بأن الكتاب الأول في نحو العربية هو لعجمي وليس لعربي، والمختصر النحوي المغربي الذي يُعدُّ ألف باء علم العربية هو لابن آجرُّوم وهو بربري كما هو معلوم، والشعراء الذين يرجع أصلهم إلى غير

العرب ولا سيما المولدون لا يحصون ولا يعدون، وقد ألمعنا إلى هذا المعنى بكلمة مشابهة في ترجمة الشاعر الجراوي فلتنظر هناك.

ويؤكد ابن خلدون تنوع كفايات مترجمنا وينوّه به أكبر تنويه فيقول في كتاب التعريف عنه: «برع في اللسان والأدب والعلوم العقلية من الفلسفية والتعاليم والطب وغيرها ونظمه السلطان أبو سعيد في جملة الكتاب وأجرى عليه رزق الأطباء لتقدمه فيه فكان كاتبه وطبيبه، وكذا مع السلطان أبي الحسن بعده».

ونلاحظ بكل أسف أن هذه الناحية العلمية من المترجم قد دخلت في ذمة التاريخ، فليس بيدنا ما يكشف لنا عنها إلا أن نقف على أثر من آثاره فيها ومن أين لنا ذلك؟

إنما الذي نتحققه أنه كان فيها قوياً متيناً بالنسبة لوقته وظرفه طبعاً، فالطبيب الذي يخدم السلاطين أمثال أبي سعيد وأبي الحسن المرينيين لا يكون طبيباً مزيفاً ولا ممن يترامى على الصناعة وليس له فيها يد، ناهيك بشهادة ابن الخطيب له، وقد كان يتعاطى شيئاً من هذه المهنة، إذ قال فيه: (من أهل المعرفة بصناعة الطب وتدقيق النظر فيها، وقد أضاف إلى ذلك الاشتغال بالكيمياء، ولها بالطب أكبر علاقة). ومن قول ابن الخطيب عنه في هذا الصدد: «وتهتك في علم الكيمياء وخلع عليه العذار فلم يحصل على طائل إلا أنه كان يتفوّه بالوصول، شنشنة المفتونين بها على مدى الدهر».

وهذا الكلام وإن كان المراد به الكيمياء القديمة، إلا أنه يفيد تضلُّعه في هذا العلم بعامة، وهو مما يدل على رسوخ قدمه في الطب ولا يعنينا من كلام ابن الخطيب غير هذا القدر، وما زاد عليه فهو من شقشقته المعروفة. وكذا قوله بعد أن ذكر نبوغه في الأدب: (والغالب عليه العلوم الفلسفية وقد مُقِتَ لذلك) فليت شعري من الذي مقته، وقد كان بحيث يتنافس فيه الملوك ويخدم في خاصة رجال البلاط كاتباً وطبيباً ولم يستغنِ عنه أبو الحسن حتى صحبه في حركته إلى إفريقية، وهلك بمعيته هناك.

على أن العلاَّمة ابن مرزوق يشير إلى نفرة السلطان أبي الحسن منه، ولكنه لا يجعل سبب ذلك اشتغاله بالعلم والفلسفة، وهو يبرئه مما عسى أن يظن به لذلك. وهذا كلامه في كتابه المسند الصحيح الحسن: «وكان مولانا رضي الله عنه ينفرُ منه لموجب الله أعلم بحقيقته، ولا يبدو على ظاهره ما يدل على طعن في طريقته في المعتقد. ولقد خبرته وذاكرته وباحثته ـ عَلِم الله غير مرة ـ فما اطلع والله منه إلا على ما يرضى»، فبان بهذا أن أحداً لم يمقت ابن شعيب لنزعته الفلسفية واشتغاله بالحكمة. والسلطان نفسه وإن كان ينفرُ عنه لسبب لا نعرفه، لم يستغنِ عنه حتى آخر نفس، وحسبه ذلك عزاً وشرفاً.

والمقصود أن لا يتقول مُتقوّلٌ على عصر التقديم في الحضارة والعرفان بالمغرب، وهو عصر بني مرين، فينسُب إليه استناداً إلى قول ابن الخطيب أن الاشتغال بالعلم والفلسفة فيه كان من أسباب المقت، ويسجل عار ذلك على

رجال الدولة والشعب وربما نسبه إلى التعصب الديني، مع أن المعروف في التاريخ أن هذا العصر كان من أكثر العصور تسامحاً، لذلك تقدمت فيه العلوم وكثر المشتغلون بها بين المغاربة أنفسهم بشكل لم يسبق له مثيل ولم ينقل عنه ولا حادث صغير في باب الاضطهاد الفكري من الدولة أو من الشعب، لا ظاهراً و مستوراً بستر من سياسة أو دين كما وقع في غيره. والغريب أننا نجد ابن الخطيب في ريحانة الكتاب يحلّيه تحلية منصفة فلا ينبزه بشيء من هذه القالة السوء، ويتأسف على كونه لم يلقه حين قدومه لغرناطة، ودونك قوله بالنص الكامل:

مورد ترده الهِيمُ فتروَى، وتهوى إليه النفوس فتجد عنده ما تهوَى. وصدر لا يخفى مكانه، وذخر أضاعه زمانه، حاز من كل فن نصيباً، ورقى إلى كل غرض سهماً مصيباً، واستمطر كل عارض وديمة، من العلوم الحديثة والقديمة. فبرع في فنونها وبهر، وحذق الطب منها ومهر، وبلغ في صنعة النبات، درجة الإثبات، ورضي بالانتماء إلى العلم والانتساب، عن الاكتساب. فما أهمّه الدهر بألوانه، ولا ثناهُ عن شأنه. وعانى في حركته وانتقاله، مشقة اعتقاله، وخلص خلوص الحسام بعد صقاله، وهو الآن من كتاب ملوك المغرب تطوى عليه الخناصر إذا عُدُّوا، وتذخر له قصب السبق إذا حضروا في المحاضرة واستدُّوا... ورد على الحضرة في خدمة لبعض الولاة... فرأيته رؤية لم تنهض إلى المحاورة والكلام، والمخاطبة بما يجب أمثلة من الأعلام، لخمود هذا الباعث عندي في العهد المتقدم، ولم

ألبث أن عضضت يد المتندم أسفاً على ما ضاع من لقائه واجتلاء الفوائد من تلقائه، وله شعر تهوى الشعرى أن تتخذه شنفاً ونثر تود النثرة لو تتحلى به وإن شمخت آنفاً».

ففي هذه النبذة من كلام ابن الخطيب إنصاف كبير للرجل الذي لمزه في كلامه السابق، واعتراف بسبقه وفضله في الوقت الذي كان قائله لم ينتبه بعد إلى العناية بهذه الشؤون حتى أنه لم يسعه إلا التأسف على ما فاته من مداخلته والاستفادة منه.

ومما نستخلصه من هذه النبذة أن المترجم امتحن بالاعتقال، وهو أمر لم يذكره أحد ممن وقفنا على كلامه فيه، وأنه لما قدم إلى غرناطة كان كاتباً لأحد الولاة، فذلك يعني أنه سبق أن عمل كاتباً خصوصياً قبل أن يصل إلى البلاط الملكي.

والفائدة المهمة التي تحتويها هذه النبذة من كلام ابن الخطيب، أن مترجمنا كان يتحلّى بسمة أهل العلم ويترفّع عن حشر نفسه في زُمرة الأدباء المتكسبين بأدبهم، ولذلك لا نرى له أمداحاً في رجال الدولة، وناهيك بها، ولعلهم لذلك كانوا يميلون عنه.

وإذا كانت الناحية العلمية منه قد عميت علينا أنباؤها، فالناحية الأدبية يمكن أن نتتبع آثارها، ونستخرج أخبارها من بعض عبارات كبار الأدباء فيه، وبعض أقواله الواصلة إلينا، برغم قِلّتها، فإنها تدل على كِبَر نفْسه، وعلو نفسه، وما ظنك بمن ترأس ديوان الكتاب في عهد بني مرين، في أيام

النخبة الصالحة من ملوكهم، وقد كانوا محاطين بكبار رجال العلم والأدب من أهل الأندلس وإفريقية والمغرب؟ وابن الخطيب على نيله منه في «الإحاطة»، لم يستطع أن يتجاهل مكانته الأدبية، فاعترف أنه كان مشاركاً في الفنون، وخصوصاً في علم الأدب حافظاً للشعر ذاكراً له، وأن له شعراً رائقاً وكتابة حسنة وخطاً ظريفاً، وأما في الريحانة فقد وفاه حقه، ولم يملك إلا أن يظهر غاية الإعجاب به.

ويقول ابن خلدون في التعريف بعد العبارة السابقة له عن معارف هذا الأديب: «وكان له شعر سابق به الفحول من المتقدمين والمتأخرين وكانت له الإمامة في نقد الشعر والبصر به»، ويكفينا هذا على ما ننسبه لأدبائنا، والمترجم منهم، من التفوق على كثير من أدباء الأقطار التي ربما ينكر أهلها الأدب على أهل المغرب، فإن شهادة ابن خلدون هذه لفرد من أفراد أدباء المغرب لها قيمتها العظيمة، لا سيما وهو لا يتحفظ في شيء كتحفظه في هذا الباب.

على أنه ما يمنع أن يكون الجزنائي إماماً في نقد الشعر، وقد كان يحفظ منه عشرين ألف بيت للمحدثين فقط، كما في الإحاطة، فلا جرم أننا بإزاء أديب كبير ونقّادة إمام، وإنما حوادث الأيام والظروف التي لاقى فيها حتفه بالطاعون العام في تونس مُغَرَّباً عن أهله وبلده هي التي قضت على آثاره بالضياع، ولم يبقَ منها إلا ما أفلت من التلف برغم أنف الدهر.

وهذا مثال من نقده، تعرف به سلامة ذوقه، ومتانة

أسلوبه، قال أبو القاسم بن رضوان كاتب العلامة بالدولة المرينية، فيما حكاه عنه ابن خلدون في المقدمة:

«ذاكرت يوماً صاحبنا أبا العباس بن شعيب كاتب السلطان المريني وكان المقدم في البصر باللسان لعهده، فأنشدته مطلع قصيدة ابن النحوي، ولم أنسبها إليه، وهو هذا:

لم أدرِ حين وقفت بالأطلال
ما الفرق بين قديمها والبالي

فقال لي على البديهة: هذا شعر فقيه. فقلت له: ومن أين لك ذلك؟ قال: من قوله: ما الفرق، إذ هي من عبارات الفقهاء وليست من أساليب كلام العرب».

ومما يدل على أريحيته الأدبية أنه كان تَسرَّى جارية رومية اسمها صبح من أجمل الجواري وأحسنهن، فأدبها حتى لقِنَتْ حظاً من العربية ونظمت الشعر، وكان شديد الغرام بها، فهلكت أشد ما كان حبالها وامتداد آمالٍ فيها، فكان بعد وفاتها لا يرى إلا في تأوه دائم وأسف متماد كما يقول ابن الخطيب، ففتحت له هذه الحادثة باب القول العاطفي، فصدرت عنه بدائع في رثاء محبوبته ومناجاتها وصفة محاسنها، تشدُّ بلابل الصدور وتَهِيج أشجان القلوب، فمن ذلك قوله:

يا قبر صبح حلَّ فيك ... لِمُهجتي أسنَى الأماني
وغدوت بعد عيانها ... أشهى البقاع إلى العيان
أخشى المنية أنها ... تنئي مكانك عن مكاني

كم بين مقبور بفاس وقابس بالقيروان

وقوله:

يا صاحبَ القبر الذي أعلامُه
درَست ولكنْ حبُّه لم يدرُس
ما اليأسُ منك على التصبُّر حاملي
أيأستني فكأنَّني لم أيأسِ
لما ذهبت بِكل حُسن أصبحت
نفسي تعاني شَجْوَ كلِّ الأنفُس
يا صبح أيامي ليالٍ كلُّها
لا تنجلي عن صُبْحك المتنفْس

وله فيها أيضاً:

يا نازحاً في الضمير ما بَرحا
داني محلِّ الهوى وإن نزَحا
لم تُضمِر الصبرَ عنك جارحةٌ
ولا فؤادي لسلوة جنَحا
مُستعبر المُزْن فيك أدمعُه
يظل يبكيك كلما سفحا
ولا أرى البرق عاد مبتسماً
بعدك بل زَند شوقه قدَحا
وما تغني الحمامُ من طرب
بل يعلن النَّوح كلما صدَحا

وفي هذه الأبيات خيال جميل أضفى عليها جوًا من الشاعرية التي أشركت الطبيعة ومظاهرها في الإحساس بعواطف الشاعر والتأثر بمواجده، فالسحاب إنما تهمى أدمعه بكاء على هذا الحبيب المفارق، والبرق ولمعانه ليس كما يحسبه غيره من الشعراء ابتساماً وتنويراً، وإنما هو اشتعال زند شوقه عند القدح وانبعاث شرارته، وكذلك الحمام وهديله إنما هو نواح على فقد الحبيب لا غناء كما يظن.
وإذا بلغت الرؤية الشعرية هذا الحد من التطلع والاستشراف الذي وصفه شاعرنا، فإنها تكون قد خرقت الحجب والأستار ونفذت إلى آفاق الشاعرية ومجالاتها اللامحدودة ومن قوله الذي جارى به الفحول في موضوع النَّسيب:

أعلِمتَ ما صنع الفراق
غداة جدَّ به الرفاق
ووقفت منهم حيث للنـ
ـظرات والدمع اتّساق
سبقت مطاياهم فما
أبطأ بنفسك في السباق
أأطقتَ حمل صدودهم
البَيْنُ خطب لا يُطاق
عَن ذات عِرْق اصعدوا
أتقولُ دارُهم العِراق
ما ضرهم وهم المنى
لو وافقوا بعضَ الوفاق

وتـــيـــامـــنـــوا عُـــسْـــفـــان أن
يـقِـفُـوا لِـمُـجـتـمـع الـرفـاق
قـــالـــوا تـــفـــرُّقُـــنـــا غـــداً
فـشُـغِـلـت عـن وعـد الـتـلاق
عـــمـــداً رأوا قـــتْـــلَ الـــعَـــمِـــيـــ
ـد فـكـان عـيـشُـك فـي نـفَـاق
أوْلَـــى بـــجـــســـمــك أن يَـــرِ
قَّ ودمْـعِ عـيـنـيـك أن يُـراق
أمـــا الـــفـــؤاد فـــعـــنـــدهـــم
دَغـــه ودعـــوى الاشـــتـــيـــاق
اغـــتـــادَ حُـــبَّ مـــحـــلـــهـــم
فـــرحـــيـــبُ صـــدرك ضَـــاق
واهـــاً لـــســـالـــفـــة الـــشَّـــهـــا
ب مـضَـتْ بـأيـامِـي الـرِّقـاق
أبـــقـــت حـــرارةَ لـــوعـــةٍ
بـيـن الـتَّـرائـب والـتَّـراقـي
لا تَـــنْـــطـــفـــي ووُرُودهـــا
مـن أدْمُـعـي كـأسٌ دِهـاق

وقال أيضاً:

يـا مُـوحِـشي والـبـعـدُ دون لِـقـائـه
أدْعُـوك عـن شَـحْـط وإن لـم تـسـمـع
يُـدنـيـك مـنـي الـشـوقُ حـتـى أنـنـي
لأراك رأيَ الـعـيـن لـولا أدْمُـعِـي

وأحنُّ شوقاً للنسيم إذا سرى

بحديثكم وأُصِيخُ كالمستطلِع

كان اللقاء فكان حظي ناظري

وسطا الفراق فصار حظي مَسْمعي

فابْعَثْ خيالَك تَهْدِهِ نارُ الحشا

إن كان يجهل من مقامي موضعي

وهذه القطعة لا تقل عن القطع السابقة في غرابة معانيها وبداعة صورها ومنزعها الفلسفي فهي مثلها من الشعر الفريد في هذا الباب ومن شعره أيضاً في النسيب:

دارُ الهوى نجدٌ وساكِنُها

أقصى أماني النفس من نجد

هل باكر الوَسْمِيُّ ساحتَها

واسْتَنَّ في قِيعانها الجُرد

أو بات مُعتَلُّ النسيم بها

مُستشفياً بِالْبان والرَّند

يتلو أحاديثَ الذين همُ

قصدي وإن جارُوا عن القَصد

أيامَ سُمْرُ ظلالها وطني

منها وزُرْقُ مياهها وِرْدي

ومَطارح النظرات في رَشأ

أحوى المدامع أهيفِ القَد

يرنو إليك بعين جازية
قُتِل المحب بها على عمد
حتى أجدَّ بهم على عجَلٍ
ريبُ الخطوب وعاثِرُ الجَد
فُقدوا فما وأبِيك بعدهم
عيْشي شفًا إلا على الفقد
وغدوا دَفيناً قد تضمَّنه
بطنُ الثرى وقرارةُ اللحد
ومُشرَّداً من دون رؤيتِه
قذَفُ النوى وتَنُوفَةُ البعد
أجرى عليَّ العيشُ بعدهم
أنّى جرَعتُ حميمَهم وجدي
لا تَلْحني يا صاحِ في شجَن
أخْفَيْتُ منه فوق ما أُبدي
بالغرب لي سكن يُؤَوِّبُني
من ذكره سُهْدٌ على سهد
فَرْخان قد تُركا بِمَضْيَعةٍ
زُويتْ عن الرِّفداء والرِّفد

وهذه القصيدة مما خاطب به الفقيه العالم أبا جعفر بن رضوان يسأله عن شيء من علم صناعة الكيمياء، ولم يذكر ابن خلدون منها إلا هذا القدر، وأما ابن الخطيب فقد اقتصر منها على البيت الأول.

وخاطبه أيضاً وقد نشأت بينهما فيما يقول ابن الخطيب صداقة أوجبها القدر المشترك من الولوع بالصنعة المرموزة يتشوق إلى جهة كانوا يحلون بها للشيخ فيها ضَيْعةٌ بخارج مَالَقَة:

رعى اللّهُ وادي شَنْبانَةٍ
وتلك الغدايا وتلك الليال
ومسرَحنا بين خُضر الغصون
ووَدْق المِياه وسِحْر الظلال
ومرتَعَنا تحت أوداجِه
ومَكْرعَنا في النَّمير الزُّلال
نشاهد منها كعُرض الحُسام
إذا ما انتشت فوقه كالعوال
ولله من دُرّ حَضبائه
لآل وأحسن بها من لآل
وبُلْبُلة في ستور الغُصون
كخَوْدٍ ترَنَّمُ فوق الحِجال
وأسماره كيف رقَّت شذاً
وصحَّ النسيمُ بها في اعتلال
ولله منك أبا جعفر
عَمِيد الجَلال حَمِيد الخِصال
تُطارحُني برمُوز الكنوز
وتُسْفِر لي عن معاني المَعال

فألقطُ مِن فيك سحر البيان
مُجيباً به عن عَويص السؤال

وله وهو مليح الإشارة والتلميح:

أيُجمَع هذا الشملُ بعد شتاته
ويُوصَلُ هذا الحبْل بعد انْبِتاته
أما اللَّيالي آيةٌ عِيسَوِيةٌ
فتنشُرَ ميْتَ الأُنسي بعد مماته
وتُورد عيني بعد مِلْح مَدامِعي
برؤيته في عذْبِه وفُراته

وله واستعمل فيه أنواعاً من البديع: فهو من شِعْر الصناعة لا غير:

يا رب ظبي شعارُه نُسْك
ألحاظُه في الورى لها فتك
يترك من هام فيه مكتئباً
لا تعجبوا إن قومَه التُّرك
أشكو له ما لقيت من حرق
فينثني لاهياً إذا أشكُو
صبرت حتى اطلَّ عارِضُه
فكان صبح ختامه مسك

وله من هذا المنزع:

يا من توعَّدني بحادث هجْره
إن السلو لَدُون ما تتوعَّد

هـذا عِـذَارُك وهْـو مـوعـدُ سـلْـوتـي

فاكْفُفْ فقد سبق الـوعيد الـمَوْعِـد

وأظـن سـلـوتـنـا غـداً أو بـعـدَه

(وبـذاك خَـبَّـرنـا الـغُـراب الأسـود)

وقال في ضده:

قـال الـعَـزُولُ تـنـقُّـصاً لِـجـمالـه

هـذا حـبـيـبـك قـد أطـل عِـذارُه

لا بـل بـدا فـضْـلُ الـربـيـع بِـخَـده

فَـلِـذا تـسـاوَى لـيـلُـه ونـهـارُه

وله في التورية بأسماء الكتب:

ومُـولَـع بـالـكُـتْـب يـبـتـاعُـهـا

بـأرخـص الـسَّـوْم وأغـلاه

فـي نـصـف الاسـتـذكـار أعـطـيـتُـهُ

(مُـلـخَّـص الـعـيـن) فـأرضـاه

ومن شعره هذه القصيدة الأعرابية المعنى والأسلوب، يشكو الزمان ويصف ريبه ويفتخر، وهي مما أنشده له ابن الأحمر، في نثر فرائده الجمان، وقد دخلها كثير من التصحيف صححنا غاليه:

أحـارِ سَـلِ الـعـتـبى فـلـسـتُ بـعـاتـب

حـنـانَـيْك إن الـدهـر أخـبـثُ صـاحـب

عَجِبْتُ من الأيام أنّى أَلِفتها[1]
مُسالمة الأيام إحدى العجائب
عرفت الليالي قبل عرفاني النُّهى
وقد أخلدت قِلْداً وما طرَّ شاربي
ولابست حالَيْها مع الكُرْه والرضى
وقد شاب رأسي وهي سود الذوائب
ومارست أبناء الزمان فلم أجد
أخائِفة يا حار، غير التجارب
مُليُّون بالبغضاء إلا تملُّقاً
وما هو إلا مثل إبْساس حالب
يضيق بها رحْبُ الفضاء وإنها
لَجاثِمةٌ بين الحشا والترائب
إذا ذكرتْ ملقى عصاها من العُلَى[2]
ترامت إليه دُون ذكر العواقب
فإن تسألوا صعب الشكيمة ماضياً
فحيَّهلا بِي أو بسعد بن ناشب[3]
وسعت الليالي عفة وقناعة
وقد ضِقْن ذرعاً عن تَسنِّي مآربي
وقضيتها خمساً وعشرين حجة
أصدق ظني بالأماني الكواذب

---

(١) في الأصل: إني ألفتها لنا.
(٢) في الأصل: الحلى.
(٣) بالأصل: قاضياً، وسعد هذا من شعراء الحماسة الشجعان الفتاك.

فما لي وللأوطان هلْ يُطلب الجَدا
من القَطر إلا كائِناً في السحائب
وما كنتُ أرضَى أن أقيم بذِلَّة
فكيف وما سُدَّت عليَّ مذاهبي
وما يَطِّبني أين نِيطَت تمائمي
عليَّ فأوطاني ظُهورُ الركائب
فإن محَّ[1] عن فوْدَى جونُ شبيبتي
فلا محَّ[1] من عطفَيّ جونُ الغياهب
ستألَفُ منّي البِيدُ طَلاَّحَ أنجُدِ
قَلِيل هُموم النفس جَمَّ المطالب
وشَيْحان[2] لا تثني المهابةُ عزْمَهُ
يخُوض غِمارات الرَّدى غير هائب
حليف سُرًى لا يسأَمُ البِيدَ والسُّرى
طَوالَ الليالي في عِراض السباسب
أُزَجّي بها من عزمتي مُتوقِّداً
فأحسبني بعضَ النجوم الثواقب
حثيثاً ونُزْعان النجوم كأنما
تسابقني من خشية المغارب
تَقدَّمني حتى أقول شمائلي
وأقدمُها حتى أقول جنائبي

---

(١) مح، زال ودثر، وفي الأصل: صح.
(٢) في الأصل: وشيْخان.

بِمُنْخَرق يثني العيون كَلِيلةً
طَرُوح النَّوى جمّ السرى غير لاحب
كأن جنّى الظلماء فيه ابنُ دايَةٍ
لأمْنِ فراق البِيد ليس بنَاعِب[1]
تخال به زُهْر الكواكب جُثَّماً
وتحسب فيه البَرْق نارَ الحُباحِب
فلا جَهْوري[2] الرعد فيه بنابِس
من الرُّعب إلا مثلَ صرّ الجنادب
ولا ناجم إلاً قتادٌ كأنه
بَراثِنُ أُسْد أو حُمات عقارب
وفي شُعَب الأكوار شُعْثٌ كأنني
بهم في ذُرى دَوّ سُلَيْك المَقَانب
إذا اعتكر الليل البهيم تَنوَّرُوا
إضاءةَ مشقُوق العقيقة قاضِب
ألاَ عَلِمَتْ سُبْل المعالي بأنني
سريْتُ إليها حين كَلٌ مُصاحِبي
معَ الليل إلاً بارِقاً[3] مُتَنوراً
كطَرْفة[4] جفْن أو كَرمْأة[5] صاحب

(١) في الأصل: بناهب.
(٢) في الأصل: جوهري.
(٣) في الأصل: فارقا.
(٤) في الأصل: لطرفة.
(٥) في الأصل: كمرأة.

وبين جفوني والكرى فيه جازِمٌ
بِهَمّ على خفْض من العيش ناصِب
فإن ثاب نَحْوي مؤهِناً قَعْقَعت له
خُطَى من شِنَان[1] كالقِسيّ لواعب
قد اضطَلَمَتْها[2] البِيدُ إلا بقيةً
وكانت مُنِيفَاتِ الذُّرى والغوارب
ألا يا اسْلمى يا ناقُ ثم تقدمي
بنا تَصْدُرِي بالرفد مَلأى الحقائب
فلي أمل في آل فِهْر[3] بن مالك
خَلا إن حُبّي في لُؤَيّ بن غالب

وما أظنني بحاجة إلى التنبيه على ما في هذه القصيدة من معان وأخْيِلة تعكس قوةَ نفَس صاحبها وشدةَ أسْره حتى ليبدو لنا كأنه أحد شعراء العرب وفرسانها المتقدمين، جزالةَ لفظ ومتانةَ أسلوب، وشجاعةً وإقداماً وبَأْواً وفخْراً، وقد كان نظمه لها وهو ابن ٢٥ سنة أعني في فَوْرة الشباب وشِرّة الطموح، فلا غرابة إن قال ابن الأحمر عنه: إنه لو كان من الأعراب لَعُدَّ في شعرائها وأمراء كلامها، وقال ابن خلدون فيه وله شعر سابق به الفحول من المتقدمين والمتأخرين. ولكن يا للأسف مما دخل هذه القصيدة من التحريف في أصلها الوحيد الموجود بيدنا حتى الآن، ولئن كنا قد قوّمنا

(١) في الأصل: شان.
(٢) في الأصل: اصطلبتها.
(٣) في الأصل: فهم.

أكثره فقد بقي منها بعض الأبيات مغلق العبارة غامض المعنى، على أن روائع أبياتها وهي كثيرة تغطي على هذا البعض الذي لم نهتدِ إلى صوابه.

هذا ما وقفنا عليه من شعر المترجم وجملة الرأي فيه. وأما نثره وهو كاتب الملوك بل رئيس الكتّاب في البلاط المريني، فإننا لم نقف منه إلا على رسالة من قَبيل الإخوانيات أوردها ابنُ الأحمر مصدَّرةً بالأبيات العينية السابقة الذكر، ويظهر أنه كتبها إلى أحد خُلَصائه من أهل الأدب وهي مُحرَّرة بطريقة السجع وفيها بعض التَّكلف مما يجعلنا نظن أنه في الشعر أطبع منه في النثر، ولكن الحكم على نثره بإطلاق من رسالة واحدة لا يصح، لا سيما وأصلها الوحيد الذي بأيدينا مليء بالتصحيف، ونحن نذكرها على ما بها مستظهرين ما نعتقده صواباً في بعض عباراتها.

قال ابن الأحمر: (ومِن كَتْبه البارع):

يا مُوحِشي والبُعْد دون لقائه
أدعوك عَنْ شَحْط وإن لم تسمع

يُدنيك مني الشوقُ حتى أنني
لأراك رأيَ العَيْن لولا أدمُعي

وأحن شوقاً للنسيم إذا سرى
بحديثكم وأضيخ كالمستطلع

كان اللقاء فكان حظي ناظري
وأتى الفراق فصار حظي مَسمعي

فابعث خيالك تَهْدِه نارُ الحشا
إن كان يجهل من مقامي وموضعي
واصحَبْه من نَوْمِي بتَحفة قادم
فمُذ استقَلَّ ركابكم[1] لم أهْجَع
كيما أُطارحه حديثَ صَبابتي
وتُصدِّق البلْوى مقال المدَّعي
موقُوف آمالٍ ومُسنَد لوْعة
وبلاغ أشواق ومرسل أدمع[2]

قد كان حنيني إلى سيدي أطال الله بقاءه، وسنَّى لقاءه، موصولاً مع الاتصال، دائماً مع البُكَر والآصال، لا تلْحَقهُ فترة فاضل فيها عن هديه[3] الواضح الأمم، وأظلّ[4] فيها من سواه عاكِفاً على صنَم، ومنظرُ العيش أنِيق، وغصن الشيبة وَرِيق، والدهر جَمع ولم يُحسن التفريق، ومِسْك العِذار تحت ختامه، وماء الشباب في عُوده لم تغضِ العين بانسجامه، والدار حرية مما تهوى الأنفس، واليد ملية بنُضار العقار تصرفه في لُجَيْن الأكؤُس، وشَمْلُنا المنتظم عِقْد على لِبَّة الزمان ولَيالينا في مُقْلته كُحْل وفي وجنتيه خِيلاَن، فكيف

(١) في الأصل: فمدا استقل ردي بكم.
(٢) يلاحظ اقتباس ألقاب الحديث في هذا البيت والقطعة بعد البيت الخامس دخلتها الصنعة فلذلك اقتصر ابن الخطيب على إيراد ما قبل هذا البيت فقط.
(٣) في الأصل: عن هذه.
(٤) في الأصل: وأضل.

وقد عاد الدهرُ بِجَوْره وسطاه، فشَتَّ عِقْد شَمْلنا وأذْهَب وُسْطاه، وأرانا من حَدَثانه عجَباً، فبُرْدُ[1] مُزِيقْياء، وشمْلُ الأحباب أيدي سَبأ، فهل كان إلا مِثْل ظل القناة[2] طُولاً، هزَّته أريحية الشباب فالتقى طرفاه، وكصفح الحُسام صقيلاً، فانقلب بصفحه حرفاه، ورمانا الفراق مرامياً، وسِرْنا شآماً[3] فانفردتُ يمَانياً، حتى لا نلتقي إلا بالفِكْر[4] ولا نجتمع إلا في الذكر، اللَّهمَّ إلا طيف الخيال كالبدر المتوهم، والليل في شِيَة الجواد الأدْهم، قد نظَم الكواكب بجيده عِقْداً، والتحف الظلماءَ بُرداً، فكتمت منه صُبْحاً مُسفِراً وسرى عرفُه في سوادها فكانت مِسْكاً أذفراً، واعْتَسف المسافة الزيزاء، والأفقُ مُتَّشِح بصارم الفجْر، والجو مُعتقِلٌ عصا الجوزاء، والرامح قد أشرع سِنَانه فخفق قلب الأسد ذُعراً، وجرى دمع الغُمَيْصاء على العَبُور فكلفت به المَجَرَّةُ نَهراً، وذهبت تستبق الكواكبُ للمغارب، فجاء الفجر على قميص الليل بدم كذب فقيل فجر كاذِب، وافَى فكان من تباشير الصباح، والنوم مُتخبِّط في حبائل الأجفان يجاذبها وقد علق الجناح، اعتياداً لطروقه مثْواه، لا عياذاً لِمشُوقِه من بلواه، وقد طبع في طِينة القلب، واعتورته نار الحُب، فأقام ماثِلاً بين الجوانح لا تطفيه[5] الأنفاس العواطف ولا الدموع السوافح،

---

(١) في الأصل: برد.

(٢) في الأصل: الفتاة.

(٣) في الأصل: وصرنا سياماً.

(٤) في الأصل: بالكفر.

(٥) في الأصل: لا تعفيه.

لا ينزل به طارق السلُوّ وإن كان محل كريم، ولا يقوم فيه رسول العَذْل وإن كان فترة بين طُوفان نوح ونار إبراهيم، ولو شاء لكان بَرْداً وسلاماً، بِرَدّ السلام، أو هبَّة شمال، وبرود الليل أسْمال، بليلة الجناح، عليلة تُنعِش الأرواح، كليلة المسرى، قد تطوفت معاهد حسَّان بين جِلّق وبُصْرى، وبثَّت[١] لبُثَيْنة حالَ جَمِيل، وجالت بالْحِمى فأذكرت إذْ ضراً وجَليل[٢] وقضَتْ لقَيْس من لُبْناه لُبانَة، فخلع عليها لقد كان فيها للأمانة، وألَمَّتْ بالخمائل إلماماً، فمنحت الغصون اعتناقاً والأزهار التثاماً، وأطارت السجف عن الخُدود بالسُّدَف عن البدور، فالْتَمس الصحبُ تلك الغِرَّة، فاختلس فيها نظرة، حتى خلَصتْ إلى مثواي، وما تخلَّصتُ من بلواي، فظننتني من خوافيها نُسالاً، فقلَّبتني في الشمال يميناً وشِمالاً، فلما تَنسَّمتُ نَشْرك في طيّها، وتوسَّمْتُ بِشْرك من حُليّها، قلتُ: أسَعيدية فأسعِدي، إني لأجِد ريحه لولا أن تُفَنِدي، وإلا فما عطْر شذاك، اصدُقي، فقالت: هو ذاك، فقلت لها بعد الترحيبة والتحية: ما حال تلك الشِيَم المرضية، التي لو كانت نسيماً لكانت الصَّبا، أو عُصُراً لكانت أيامَ الصِّبا، قالت: كالزَّهر أشْرقَه النَّدى بمائه، والأقحوان غداةَ غِبِّ سمائه، قلتُ: فالهمم العالية لا تبصر العليا اختلاساً[٣] ولا تدركها

---

(١) في الأصل: وتبثت.

(٢) تلميح لقول بلال: ألا ليت شعري هل أبيت ليلة، بواد وحولي إذ ضر وجليل/ البيتين.

(٣) اختلاسها: التماسها.

التماساً[1]، قالت: ما كنتُ أقْفُو ما ليس لي به عِلْم، فما لي ولأُخَيَّات النجم؟ فمَن لي بالمجَرَّة أوافِيها، فأعْلم مَن فِيها، فأسأل الكواكب عن عِدادها، فأنت حِلْف سِدادها، قلت: فما حالُ ذلك الكمال والسيادة، قالت: الحُسْنُ[2] والزيادة، قلت: جُعلت فِداك، إنك خالَطْت سقيماً[3] فأعداك، فجئت سَمُوماً وستعودين نَسِيماً، لِمَنْ أهداك، فينكر سُماك[4]، ويقول: ما وراءك، وأين خلعت رداءك، فقُولي: حلى يعقوب هوَاك، الذي لا يفتر عن ذكراك المستشعر مع يأس السلُوّ عنك، رجاءَ الدنُو منك، والسلام الكريم، يخص ذلك الحسب الصميم، رحمة الله وبركاته.

انتهت - وما كادت - وهي كما ترى من النثر المسجوع أو الفني كما سمي حديثاً، تشتمل على فِقَر عالية في الحسن والرونق والرصف والتنسيق، وفيها فِقَر أخرى يظهر عليها التكلف وتحتاج إلى بعض التوجيه، على أن نصها الكامل بعد التقويم الشامل، لا يستغني عن الشرح والبيان. وخاصة للشُداة من أهل الطلب وناشئة الأدب، وهي على كل حال إن دلت على براعته فلن تكون وحدَها نَمُوذَج إنشائه وأسلوبه في الكتابة الذي يحكم به عليه، كيف

---

(١) في الأصل: حالك الكمال.

(٢) في الأصل: بالحسن.

(٣) في الأصل: مستقيماً.

(٤) في الأصل: سماءك وهي سماك بالضم كما نرجح.

ونحن لم نطلع على شيء من كتابته الديوانية التي كانت أكثر أعماله؟

هذا وبعد أن ذكر ابن الخطيب دخوله إلى غرناطة في أيام السابع من ملوكها لقُرْبِهِ من ولايته في بعض شؤونه كما قال، وحقق بها بعض الأغراض التي تتعلق بمهنته الطبيّة، ذكر أنه توفي رحمه الله بتونس في يوم عيد الأضحى من سنة تسع وأربعين وسبعمائة، وسبقت الإشارة إلى أنه كان في صحبة السلطان أبي الحسن المريني وأن وفاته كانت بالطاعون الجارف الذي عمّ البلاد في تلك المدة.

ومن الحكايات المروية عن ابن شاطر الجمحي المراكشي المعروف بنكته ونوادره أنه دخل الأندلس ومرّ يوماً بابن العباس بن شعيب الكاتب صاحبنا وهو جالس في جامع الجزيرة، وقد ذهب به الفكر، فصاح به: انظر إلى مركب عزرائيل قد رفع شراعه يعني بعزرائيل ملك الموت على ما هو شائع بين الناس، ولله في خلقه شؤون.



عبدالمهيمن الحضرمي
(ت ٧٤٩ هـ)

بيته، مولده، نشأته، طلبه للعلم، مشيخته، الآخذون عنه، تحلية ابن خلدون والمقري وابن الخطيب له، دخوله الأندلس وكتابته عن ملكها، رجوعه للمغرب وكتابته لولي العهد، تنازع الأمراء فيه، بلوغه الغاية من المجد والشرف، ذهابه إلى إفريقية صحبة السلطان، حلوله بتونس محل الكرامة ثم وفاته بها، همّته وحُسن بديهته، تضلُّعه من العربية، مدح أبي حيان له، فوائده، أدبه وشعره، وِلْده الأنجاب.

الأستاذ الرئيس صاحب القلم الأعلى أبو محمد عبدالمهيمن بن محمد بن عبدالمهيمن بن محمد بن علي بن محمد بن عبدالله بن محمد الحضرمي السبتي، يرتفع نسبه إلى العَلاءِ بن الحضرمي صاحب رسول الله ﷺ ورضي عن صاحبه. وأصل سلفه من اليمن قدموا إلى الأندلس وكان لهم بها شأن. قال ابن الأحمر: «ولجده الأمير كُرَيْب بالأندلس ثورة»، وكان أحد جدوده المسمى عبدون لَحِقَه الضَّيم ببلده فارتحل إلى المغرب فنزل سبتة. وبيتُهم بها

شهير يُعرفون ببني عبدالمهيمن. وكان والد المترجم قاضيهَا أيام بني العَزَفي وَوُلد هو سنة ٦٧٦ فنشأ في صون وعفاف وطلب العلم على جِلَّة شيوخها وغيرهم كأبي إسحاق الغافقي وابن رُشَيْد وابن الشاطّ وابن أبي الرَّبِيع وابن الغَمَّاز وأبي جعفر بن الزبير وأبي بكر بن عُبَيْدة وابن صالح الكناني وخلف القتبوري وخَلْق، وأجاز له مالك بن المُرَحَّل وأبو الفتح بن سيِّد الناس وولده أبو عمر، والأبرقوهي من المشرق، وابن عبدالهادي، وخليل المراغي وأبو حيان والدمياطي، وستُّ الفقهاء بنتُ الواسطي وكثير غيرهم، وقد بلغت مَشْيَختُه الألْفَ.

ونَجُب وفَهُم وتصدر للإفادة على حداثة سنّه فبذَّ الأقران ولَحِقَ بالشيوخ الكبار وكان له القِدْحُ المُعَلَّى في علم العربية والمشاركةُ الحسنةُ في الأصْلَيْن والإمامة في الحديث والتبريزُ في الأدب والتاريخ واللغات والعروض. وأخذ عنه الجمُّ الغفير من أئمة العلم والأدب يكفي أن نذكر من بينهم المقَّرِيَّ الجَدَّ وابنَ مرزوق الكبيرَ وابن الخطيب وابن خلدون. وحلاَّهُ هذا الأخيرُ بإمام المحدثين وقال فيه: «كانت بضاعتُه في الحديث وَافِرةً، ونِحْلتُه في التَّقْييدِ والحِفْظ كاملةً وكانت له خِزَانة من الكتب تزيد على ثلاثة آلاف سِفْر، في الحديث والفقه والعربية والأدب والمعقول وسائر الفنون مضبوطةً كلُّها مُقابَلَةً. ولا يخلو ديوانٌ منها عن ضبط بخط بعض شيوخه المعروفين في سَنَدِه إلى مؤلفه حتى الفقه والعربية الغريبة الإسناد إلى مؤلفها في هذه العصور»، وقال فيه المقري الكبير: «جمع فأوعَى،

واستوعب أكثر المشاهير وما سعى، فهو المُقِيم الظاعِن، الضارب القَاطِن»، وهو يشير بذلك إلى سَعَةِ روايتِه وكثرة مَن أخذ عنهم عن أئمة المشرق والمغرب سماعاً أو إجازة مع أنه ليس له رِحْلة.

وهذه تَحْلِيَةُ ابن الخطيب له في الإكليل: «تاجُ المَفْرِق، وفخرُ المغرِب على المَشرِق، أطلعَ منه نوراً أضاءت له الآفاق، وأتَى منه بذخيرة حمَلَت أحاديثَها الرِّفاق، ما شِئتَ من مجدٍ سامي المَصاعِد والمَراقِب، عزيزٍ عن لَحاقِ النجم الثاقب، وسلَفٍ زِينَت سماؤه بنُجوم المنَاقِب».

ثم قال في ذكر نشأته وتبريزه: «نشأ بسبتة بلَدِه بين علم يُفِيدُه، وفخر يَشِيده، وطهارة يلْتَحِفُ مَطارِفَها، ورياسةٍ يتَفَيَّأ وَارِفَها، وأبوه رحمه الله تعالى قُطبُ مَدارِها، ومَقَامُ حجِّها واعتمارِها، فسلك الوُعُورَ من المعارف والسُّهول، وبذَّ على حداثة سنّه الكُهول، فلما تحلَّى من الفوائد العلمية بما تحلّى، واشتهر اشتهارَ الصباح إذا تجلَّى، تنافست فيه هِمَمُ الملوك الأخاير، واستأثرتْ به الدول على عادتها في الاستئثار بالذَّخائِر، فاستقلَّت بالرياسة ذِراعُه، وأخدمَ الذوابلَ والسيوفَ يَراعُه، وكان عينَ المِلك التي بها يُبْصِر، ولسانَه الذي به يُسهِب أو يَختصِر، وقد تقدمت له إلى هذه البلاد - يعني غرناطة - الوِفادةُ، وجَلَّت به عليها الإفادة، وكتب عن بعض ملوكِها، وانتظم في عقُودها الرفيعة وسُلُوكِها، وله في الأدب الرايةُ الخافقة، والعقود المُتَنَاسِقَة، ومَشْيَخَتُه حافِلةٌ تزيد عن الإحصاء، وشعرُه مُنحَطٌّ عن محله من العلم والشهرة، وإن كان داخلاً تحت طور الإجادة».

نَعَمْ، وفد إلى غرناطة مع والده لما استولى صاحبُها وهو الثالث من ملوك بني الأحمر على سبتة سنة ٧٠٥، ونقل رؤساءَها بني العَزَفِي مع جُمْلة أعيانِها إلى حَضرتِه وكان بنو عبدالمهيمن، كما علمتَ، من عُيون أعيانها فضلاً عن صِهْرِهم مع العزَفِيّين فنُقِلوا إليها كذلك. واستكمل المترجمُ قراءة العلم هناك وكتب لملكها المذكور مُختصًا بالوزير ابن الحكيم مُنتظِماً في طبقة الفضلاء الذين كانوا بمجلسه مثل ابن سيِّد الفهري وأبي العباس العزَفي وابن خَميس التّلْمساني.

ثم لما نُكِب ابنُ الحكيم رجع إلى سبتة وكتب عن قائدها يحيى بن مَسْلَمة مُدَّةً فلما استخلص بَنُو مَرِين سبتةَ سنة ٧٠٩، واستولى السلطان أبو سعيد على المغرب واستقل بالأمر وليُّ عهده ابنُه أبو علي وكان مُحباً للعلم مُنتَحِلاً للأدب؛ استدعى عبدَالمهيمن من سبتة فقلَّده كتابتَه وعلامَتَه سنة ٧١٢، وهذه العلامةُ هي بِمثَابَةِ الطُّغْراء تُوضَعُ أسفَل مكتوبات السلطان، وإنما يتولاها رئيسُ الكُتّاب وربما وضعَها السلطان بيده. فلما خرج الأمير أبو علي على أبيه تحيَّز عبدالمهيمن إلى أخيه الأمير أبي الحسن. فلما صُولح أبو عليّ على النزول عن العاصمة والخروج إلى سِجِلمَاسة وكتب شروطه على السلطان، كان من جُملتها كوْنُ عبدالمهيمن معه، وأمضى السلطانُ ذلك. فأنِفَ أبو الحسن منها وأقسم ليقتُلَنَّه إنْ فعل. فرفع عبدالمهيمن أمرَه إلى السلطان فأمرَهُ باعتزالهما معاً والرجوع إلى خدمته. وفي ذلك ما يُؤذِنُ برفعة قدره وعلو شأنه حيث تنافس فيه الأمراءُ الثلاثةُ وهو مِصْداقُ قول ابن الخطيب فيما مضى «تنافست فيه همم الملوك الأخاير».

واستمر في خدمة السلطان أبي سعيد وعَظم أمرُه واختصّه منْديلٌ الكِنَاني كبيرُ الدولة وزعيمُ الخاصَّة وأنكحه ابنته، ولما نُكِبَ مَندِيل استغنى عنه السلطان مدةً ثم أعاده إلى حاله من الكتابة والعَلامة. ولما توفي أبو سعيد وتولى ابنُه أبو الحسن زاد في تقريبه وكان يُجِلُّه كثيراً وسار معه في حركته إلى إفريقية سنة ٧٤٨، ولكنه لم يحضر واقعةَ القيروان لِما كان به من عِلَّة النِّقْرِس، فلما وصل خبرُ الهزيمة وكانت الهَيْعَة بتونس تحيّزَ أولياءُ السلطان مع حَرَمِه إلى القَصَبَة وانتبذ عبدالمهيمن عنهم إلى المدينة مُتوارياً في بيت صديقه والدِ ابن خلدون، والمؤرخُ العظيمُ يومئذٍ غلامٌ ابنُ ١٦ سنة. فلما انْجَلَت تلك الغَيابَةُ ورجع السلطان أعرض عن عبدالمهيمن لِما كان من انخذاله عن أهله، وجعل العلامة لابن أبي مَدْيَن وكانت من قبل مقْصورةً على هذا البيت، وأقام عبدالمهيمن عُطْلاً من العَمل شهراً ثم افتقد السلطان مكانه وردّه إلى ما كان عليه. ذكر القاضي أبو الحسن النُّباهِي في كتاب المَرْقَبة العُلْيا أنه سُمِعَ ينشد بتونس أيام إعراض السلطان عنه، وقد مرّ به قومٌ من أعيان جند فاس:

يـأيـهـا الـنـاس سـيـروا إنَّ قَـصْـرَكُـم
أَن تُـصـبِـحُـوا ذاتَ يـوم لا تَـسِـيـرُونـا

حُـثُّـوا الـمَـطِـيَّ وأرخُـوا مـن أزِمَّـتِـهـا
قـبـلَ الـمـمـات وقَـضُّـوا مـا تُـقَـضُّـونـا

كـنَّـا أُنـاسـاً كـمـا كُـنـتُـم فـغـيَّـرنَـا
دهـرٌ، فـأنـتُـم كـمـا كـنـا تـكُـونُـونـا

قال: «وهذه الأبيات أوّلُ شعر قيل في العرب على ما نقله ابنُ إسحاق» وإنشادُ المترجم لها في ذلك الظرف الخاصّ دليل على شدة تأثُّره من تغيُّر السلطان عليه وتأخيره عن منصبه، فيا عجباً لهذه الولاية، كيف تتحكم في ذَوي الأقدار، وتَسْتَزِلُّ عُظماء الأخطار، وصدَق رسول الله ﷺ حين قال: «**نِعمَت المُرضِعَة وبِيسَت الفَاطِمة!**».

وحلَّ عبدالمهيمن بتونس كغيره من أعلام المغرب الذين صَحِبوا السلطان مَحلَّ إجلال وإعظام كما يدلُّ قولُ أبي القاسم الرّحَويّ شاعِرها فيهم من قصيدة:

هـمُ الـقـومُ كـلُّ الـقـوم أمّا حُـلُـومُـهـم
فـأرسَـخُ مـن طَـوْدَيْ ثَـبِـيـرٍ وثَـهْـلان
فـلا طـيـشَ يـعـلُـوهـم وأمّا عـلُـومـهـم
فـأعـلامُـهـا تَـهْـدِيك مـن غـيـر نِـيـران

ومنها في ذكر عبدالمهيمن:

وهـامَـتْ عـلـى عـبـدالـمـهـيـمن تُـونُـسٌ
وقـد ظـفِـرَتْ مـنـه بـوصـلٍ وقُـرْبـان
ومـا عَـلِـقَـتْ مـنـي الـضـمـائـرُ غـيـرَه
وإنْ هَـوِيـتُ كـلاً بِـحُـبِّ ابـنِ رضـوان

ويعني بابن رضوان أبا القاسم عبدالله بن يوسف بن رضوان المالقي الكاتبَ الرئيس لأنه رفع إليه هذه القصيدة يرجو منه أن يذكره لشيخه عبدالمهيمن في إيصال مدحه للسلطان.
ومن مدح الرَّحَوِيّ لعبدالمهيمن أيضاً مِن قصيدة طويلة:

لَهِيَ النفسُ باكتساب وسعي
وهُوَ العُمْرُ في انتهاب وفَيّ
وأرى الناسَ بين ساعٍ لرشد
يتوخّى الهُدى وساع لِغَيّ
وأرى العِلمَ للبرية زَيْناً
فتَزَيَّنْ منه بأحسن زِيّ
وأرى الفضلَ قد تجمع كُلاً
في ابن عبدالمهيمن[1] الحضرمِيّ

ثم لم يلبث عبدالمهيمن أن توفي بتونس في ذلك الطاعون الجَارِف ثاني عشر شوال عام ٧٤٩ وكانت جنازتُه حافِلةً رحمه الله.

ومما يتصل بأمر ولايته ويدل على علو همته أن السلطان أبا الحسن المَرِينِيّ سبَّه بمجلس كُتَّابه ذاتَ يوم فأخذ عبدالمهيمن القلمَ وكسَره وقال: «هذا هو الجامِعُ بيني وبينك» ثم إنَّ السلطان نَدِم وأفضلَ عليه وخَجِلَ مما صدر منه.

وحُكِي أن القاضي المَلِيليَّ وعبدالمهيمن حضرا مجلس السلطان مرةً فجرى ذكرُ الفقيه ابن عبدالرزَّاق فقال المَلِيليُّ: جمعَ من الفنون كذا، حتى وضع يده على عبدالمهيمن وقال مُخاطِباً للسلطان: ويكتُب لك أحسنَ من ذا. فوضع عبدالمهيمن يدَه على المليلي وقال: نعم يا مولاي ويَقضِي

(١) سبق أن قومه كانوا يعرفون في سبتة بيني عبدالمهيمن.

لك أحسنَ من ذا! وفيه من سرعة الجواب وحُسن البديهة ما لا يخفى. ونَظِيرُه ما حُكِيَ من أنه ذكرَ يوماً بني العزَفِي فأثنى عليهم فقال له أحدُ الحُسَيْنِيِّين مُنَكِّتاً وكان بينهم شيءٌ: «إنَّهم كانوا يُحِبُّون أهلَ البيت فكيف حُبُّك أنتَ لهم؟» فقال: «أُحِبُّهم حبَّ التشرُّع لا حب التشيُّع» ويظهر أنه كان في خُلُقِه حِدَّة، ويُشِيرُ ابن الخطيب إلى شيء من ذلك حين يقول: «يغلِبُ عليه ضجَرٌ يكاد يُخِلُّ به!».

وكان ينطق بالكلام مُعْرَباً مما يدل على تضلُّعِه من العربية حتى قال فيه أبو حيان:

ليس في الغَرْب عالِمٌ	مِثْلُ عبدالمهيمنِ
نحنُ في العلم إسْوةٌ	أنا مِنْه وهُو مِني (١)

وناهيكَ بها من أبي حيان على علو مقامه في اللغة والنحو. وتَشكُّكُ المقريِّ في النفح في نسبة البيتين لأبي حيان لأن مُرورَه بالمغرب كان قبل ظهور عبدالمهيمن لا يَصِح، فليس بلازم أن يكون لَقِيَه لِيَمْدَحَه بل يجوز أن يكون بلغه خَبَرُه وعلُوُّ كعبه في العلوم وخصوصاً العربية التي هي بضاعةُ أبِي حيان، فإذا أضفتَ إلى ذلك أن عبدالمهيمن

(١) هو بضم الهاء وإسكان الواو لغة. قال عبيد:

وركضك لولا هو لقيت الذي لقوا

ومني بتخفيف النون على حد قول الشاعر:

أيها السائل عنهم وعني	لست من قيس ولا قيس مني

ولا غرو أن يرتكب أبو حيان غريب اللغة، فإن الرجل نحوي أفنى عمره في دراسة هذه الشواهد.

ربما كان استجازه فأجازه كما سبق القول، لم يبعُد كونُ أبي حيان مدَحَه بالبيتين السابقين من باب التنزُّل والاعتراف بالفضل لأهله. لا سيما ورَاويِهما ثِقةٌ، وهو العلامة ابنُ غازي، ذكرَهُما في حاشيته على الألفية.

ومن فوائده اللغوية أنه كان يُنكِرُ إضافةَ الحَوْل إلى الله عزَّ وجلَّ فلا يُجيزُ أن يقال: بحول الله وقُوّته، قال: لأنه لم يرِدْ إطلاقُه. والمعنى يقتضي امتناعِ لأن الحَوْل كالحِيلة أو قريب منها. وردّ بوُرُودِه في السُّنَّة فلا مَنْع. ومنها أنه سُئِل عن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ لِمَ عادَ ضميرُ مَن يعقِلُ إلى ما لا يعقل؟ فأجاب بأن الشيء المُعَظَّم عند العرب تُعامِلُه معاملةَ العاقل وإن لم يكن عاقلاً لِعِظَمِه عندهم. وكان جوابُ غيره أنه قال: لما اشترك مع مَن يعقل في السّباحة وهي العَوْمُ عُومِلَ لذلك مُعاملتَه. وبَحَثَ فيه المقريُّ الجَدُّ بأن السباحة لِمَا لا يعقل كالحُوت وإنما لِمَن يعقِلُ العَوْمُ لا السباحة. وأيضاً فإلحاقُه بما العومُ له لازمٌ كالحوت أوْلى من إلحاقه بما هو غيرُ لازم له. ثم أجاب بأنه لمّا عُومِلَتْ في غير هذا الموضع معاملةَ من يعقل في نحو قوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ لِصدُور أفعال العقلاء عنها أُجرِيَ عليها هنا ذلك الحكم للأنس به في موضعه. ولا يخفى أن جواب عبدالمهيمن هو الطبيعي والمعقول.

وقد رأيتَ أن غالب ما يُوصَفُ به الرجل هو الحديثُ والعربية، فأما الحديثُ فيكفي أن مَشْيَخَتَه كانت تحتوي على ألف شيخ ولكنها ضاعت وضاع بها علم كثير ـ كما يقول

ابنُ القاضي - ومن هذا الباب أعني اهتمامَه بالرواية ولقاءِ المشايخ، أنه كان السبب الحامل للإمام ابن رُشَيْد على جمع رحلته الشهيرة العامرة بالفوائد الحديثية والأسانيد. وقد نوّهَ ابنُ رُشَيْد نفسُه بذلك وذكرَ مُقابلتَه لها معه، واعتناءَه باكتتابها لنفسه واكتسابها، وتحمُّله لها عنه ومعرفتَه لفضلها حتى قال: «لولا عزمُه عليَّ في تخليصها ما خلصتها، ولا أخرجتها ولا أظهرتها، لعدم الراغب، وقلة الطالب»، ومما جاء في ختامها بخط المُترجم في مخطوطة الأسكوريال: «بلغت قراءةً بجميعها على المُصنِّف أبقى الله حياته نقلاً ومعارضةً معه بأصله هذا في يوم الأربعاء مُنتصف جمادى الأخرى عام عشرين وسبعمائة. وكتب عبدالمهيمن بن محمد بن عبدالمهيمن بن محمد الحضرمي السبتي بمدينة فاس[1] حرسها الله تعالى حامداً الله ومصلياً على نبيه محمد المصطفى ومسلماً تسليماً كثيراً كثيراً وخطه مغربي جميل جداً كما وَصَفوه.

وأما العربيةُ فأطبق مُترجِمُوه على طول باعِه فيها، وإليك عبارة لابن الأحمر في نَثِير الجُمَان بشأن معرفته لكتاب سيبويه: «وأما كتاب سيبويه فكان بمسائله عارِفاً، وعلى إقرائه بطول عمره مُداوماً وعاكِفاً، لم يكن له في المعرفة به قَرين، ولقد تصدَّر لإقرائه وهو ابن عَشْر سنين». ومما يتعلق بهذا الموضوع ما ذكره «نفْح الطيب» في ترجمة

---

(١) ذكر ابن القاضي في الجذوة أن سكنى المترجم بفاس كانت بزقاق حجامة، وزاد أنها دار ابن ماواس في زمنه.

جدِّه الإمام المقري، من فوائده ونصه: «وتوفي الشيخُ ابنُ مالك سنةَ اثنتين وسبعين وستمائة، وفيها وُلِد شيخُنا عبدالمهيمن الحضرمي فقيل: مات فيها إمامُ نحو وَوُلِد فيها إمامُ نحو» وهذه الفائدةُ إن صحَّت من حيث دَلالتُها على أن المُترجم إمامُ نحو، ما في ذلك شك، فإنها غيرُ صحيحة من ناحية التاريخ؛ لأن عبدالمهيمن ولد كما سبق القول عام ٦٧٦ لا عام ٦٧٢، وصاحبُ النفح نفسُه ذكر ذلك في ترجمته. وقد اشتبه الأمر في هذه القضية على المقّري الجدّ، لأن الذي قِيلتْ فيه تلك الكلمةُ هو ابنُ آجَرُّوم النحويُّ المشهور لا عبدالمهيمن، وهو الذي وُلد في سنة ٧٢ التي توفي فيها ابنُ مالك، فقيل: مات نحويٌّ وَوُلِد نحويّ.

ويقول ابن الأحمر بعد العبارة السابقة عنه: «وقد دوَّن الكثير من العلوم وصنَّف، وقَرَّط مسامعَ الفهوم وشَنَّف ونحن لم نقف على أنه كتب شيئاً غير مشيخته الحافلة التي ضاعت في أيام حياته، وإنْ عُرفَ بأنه كان متصلَ الاجتهاد والتقييد، لا يفتُر له قلم إلى أن مضى لسبيله كما جاء في «الإحاطة». وعلى كل حال فباعتبار أنه كتب للرئيس أبي طالب العَزَفي بسبتة، ولبعض ملوك بني الأحمر بغرناطة، ثم لأبي سعيد المَرِيني ولولدِه أبي الحسن، لا بد أن يكون له نتاجٌ أدبيٌّ ضخْم وخصوصاً في النثر، ومع ذلك فليس بيدنا شيء كثير من آثاره الأدبية وإنما هي بعض نُتَفِ وقصائدَ لا تكفي في الحكم على إنتاجه الأدبي ومعرفة مقامه بين الأدباء وإن شوَّقَتْ إلى البحث عما ضاع منها وشَفَّتْ

عمَّا وراءَها من نفس حسَّاسَةٍ وقريحةٍ صَنَاع، فمن ذلك قولُه في السَّرَاوَةَ والتأبّي:

أبـتْ هِـمَّـتـي أن يـرانـي امـرُؤٌ
عـلـى الـدهـر يـومـاً لـه ذا خُـضُـوع
ومـا ذَاكَ إلاَّ لِأَنّـي اتَّـقَـيْـتُ
بـعِـزِّ الـقـنـاعـة ذُلَّ الـخُـشُـوع

ومن قوله في غريب التشبيه:

لقد راقني مَرْأى سِجِلْمَاسَةَ الذي
يُقِرُّ له في حسنه كلُّ مُنْصِفِ
كأنَّ رؤوس النخل في عَرَصَاتِهَا
فَواتِحُ سُورَاتٍ بآخِر مُصحَفِ

قال في نفح الطيب: «وهذا من التشبيه العقيم الذي لم يُسبَقْ إليه فيما أظن. وكان سبب قوله ذلك أن السلطان أمير المسلمين أبا الحسن المريني لما تحرّك لقتال أخيه السلطان أبي علي بسجلماسة وظَفِرَ به استمطر أنواءَ أفكار الكُتّاب وغيرهم في تشبيه النخل فقال عبدالمهيمن: ما مرّ فلم يتركْ مقالاً لقائل» ومن قوله في رقة النسب، والتشوُّق إلى الحبيب:

نفسي الفِداءُ لعهدٍ كنت آلفُهُ
وطِيبِ عَيْشٍ تَقَضَّى، كُله كرَمُ
وجِيرةٍ كان لي أُنسٌ بوصلِهِمُ
والأنسُ أفضَلُ ما في الوصل يُغْتَنَمُ

كانوا نَعِيمَ فؤادي والحيَاةَ له
فالآنَ كلُّ وُجُودٍ بعدهم عدَمُ
بانُوا فعادَ نهارِي كلُّه ظُلَماً
وكان قُرْبُهُمُ تُمحَى به الظُّلَمُ
والعينُ مِنّيَ لاَ تَرْقَا مدامِعُها
كأنَّهَا سُحُبٌ تَهْمِي وتنسَجِمُ
تبكي عُهودَ وصال منهمُ سلَفتْ
كأنَّما هِيَ في إنسانِها حُلُمُ
لَئن ضحكتُ سروراً بالوصال لقد
بَكَيْتُ حزناً عليهم والدموعُ دَمُ
هم علَّمُوني البكا ما كنتُ أعرِفُه
يا لَيْتَهُمْ علَّمُوني كيف أبتَسِمُ
واسترْضعُوني لِبَانَ الوصل في صِغَرِي
حتى إذا عَلِقَتْ روحي بِهِمْ فَطِمُوا

ومن قوله يمدح الوزير الشهير أبا عبدالله بن الحكيم الرُّنْدي:

تراءى سُحَيْراً والنسيمُ عليل
وللنجم طَرف بالصباح كليل
وللفجر نهرٌ خاضه الليل فاعتلَتْ
شَوَى أدهَمِ الظلماءِ منه حُجُول
بُرَيْقٌ بأعلى الرَّقمتَيْن كأنه
طلائعُ شُهْبٍ في السماء تجول

فمزَّق ساجي الليل منه شَرارَةٌ
وخرَّقَ سِتْرَ الغيم منه نُصول
تبسَّم ثَغرُ الروض عند ابتسامه
وفاضت عيونٌ للغمام هُمُول
ومالت غصونُ الْبَانِ نشوَى كأنها
يُدارُ عليها من صَباه شَمُول
وغنَّت على تلك الغصون حمائمٌ
لَهُنَّ حفيفٌ دونها وهَدِيل
إذا سجعَت في لحنها ثم قَرْقَرت
يطيح خفيفٌ دونها وثقيل
سقَى اللّهُ ربْعاً لا يزال يَشُوقني
إليه رسومٌ دُونَهُ وطُلول
وجادَ رُباه كلما ذَرَّ شارقٌ
من الوَدْق هَتَّانٌ أجَشُّ هَطول
وما لِيَ أستسقي الغمام ومَدمعي
سَفوح على تلك العِرَاص هَمُول
وعاذِلَةٍ باتَتْ تلوم على السُّرى
وتُكْثِرُ من تَعْذَالِها وتُطيل
تَقُولُ إلَى كَمْ ذَا؟ فِرَاقٌ وغُرْبةٌ
ونَأْيٌ على ما خَيَّلَتْ وَرَحِيلُ
ذَرِينِيَ أسعَى للتي تُكْسِبُ العُلا
سَناءً وتُبقِي الذكر وهو جميل

فَإمَّا تَرَيْنِي من مُمَارسة الهوى
نَحِيلاً فَحَدُّ المَشْرَفِيِّ نحيل
وَفَوْقَ أنَابِيب اليَرَاعَةِ صُفْرة
تَزِينُ وفي قَدِّ القناة ذُبول
ولولا السُّرى لم يُجْتَلَ البدرُ كامِلاً
ولا بَاتَ منه للسُّعُود نزيل
ولولا اغترابُ المرء في طلب العلا
لَمَا كان نحوَ المجد منه وُصول
ولولا نوالُ ابنِ الحكيم مُحمدٍ
لأصبح رَبْعُ المجد وهو مَحِيل
وزيرٌ سما فوق السِّماك جلالةً
وليس له إلا النُّجومَ قَبِيل
مِن القوم أمَّا في النَّدِيِّ فإنَّهُم
هِضَابٌ وأمَّا في النَّدَى فَسُيُول
حَوَوْا شَرَفَ العلياءِ إرْثاً وَمَكْسَباً
وطابت فُروع منهُم وأُصول
وما جَوْنَةٌ هطَّالَةٌ ذَاتُ هَيْدَبٍ
مَرَتْهَا شَمَالٌ مُرْجِفٌ وَقَبُول
لها زَجَلٌ من رَعْدِها ولوامع
من البرق عنها للعيون كُلُول
كما هَدَرَتْ وَسْطَ القِلاص وأرسلت
شَقَاشِقَها عند الهِيَاج فُحُول

بـأجْـوَدَ مـن كـفِّ الـوزيـر مـحـمـد
إذا مـا تـوالـت لـلـسِّـنِـيـن مُـحُـول

ولا روضـةٌ بـالـحـسـن طـيِّـبـةُ الـشَّـذا
يَـنِـمُّ عـلـيـهـا إذْخِـرٌ وجَـلِـيـل

وقـد أُذْكِـيـتْ لـلـزَّهـر فـيـهـا مَـجَـامِـرٌ
تَـعَـطَّـر مـنـهـا لـلـنـسـيـم ذُيـول

وفـي مُـقَـل الـنُّـوار لـلـطَّـلِّ عَـبْـرَة
تُـرددهـا أجـفـانُـهَـا وتُـجِـيـل

بـأطـيـبَ مـن أخـلاقـه الـغُـرّ كـلـمـا
تـفـاقَـم خـطـبٌ لـلـزمـان يـهـول

حـويـتَ أبـا عـبـدالإلـه مَـنـاقِـبـاً
تَـفُـوت يـداً مَـن رامـهـا وَتَـطـول

فـغَـرنـاطـةٌ مـصـرٌ وأنـتَ خَـصِـيـبُـهـا
ونـائِـلُ يُـمـنـاك الـكـريـمـة نِـيـل

فِـدَاك رجـالٌ حَـاولـوا دَرَكَ الـعُـلا
بِـبُـخـل وهـل نَـالَ الـعَـلاَ بـخـيـل

تَـخَـيَّـرَكَ الـمـولـى وَزيـراً ونـاصـحـاً
فـكـان لـه مِـمَّـا أراد حُـصـول

وألـقَـى مـقَـاديـرَ الأُمـور مُـفَـوِّضـاً
إلـيـك فـلـم يَـعـدَم يـمـيـنَـك سُـول

وقـام بـحـفـظ الـمـلـك مـنـك مُـؤيَّـدٌ
نَـهُـوضٌ بـمـا أعْـيـى سـواك كَـفِـيـل

وَسَاسَ الرعايا منك أشْوَسُ بَاسِلٌ
مُبِيدُ العِدا؛ للمُعتَفِين مُنيل
وأبلجُ وقّادُ الجَبِين كأنّما
على وَجْنَتَيْهِ للنُّضار مَسِيل
تَهِيمُ به العَلْيَاءُ حتى كأنها
بُثَيْنَتُهُ في الحب وهو جَمِيل
له عَزَمَاتٌ لو أُعِيرَ مَضاءَهَا
حُسَامٌ لما نَالت ظُباه فُلُول
سَرَى ذِكْرُه في الخافِقَيْن فأصبحت
إليه قَلُوبُ العالَمِين تَميل
وأعدَى قَريظِي جودُهُ وثَنَاؤُهُ
فأصبحَ في أقصى البلاد يَجُول
إليكَ أيا فَخر الوزارة أرقَلَتْ
بِرَحْلِيَ هَوْجَاءُ النَّجاء ذَلُول
فَلَيْتُ إلى لُقياكَ ناصيةَ الفَلا
بأيدي ركابٍ سيرُهنَّ ذَمِيل
تُسَدِّدُني سهماً لكل ثَنِيَّةٍ
ضَوَامِرُ أشْبَاهُ القِسِيِّ نُحُول
وقد لفظتني الأرضُ حتى رمت إلى
ذَرَاك بِرَحلي هوجَلٌ وهَجُول
ففَيَّدتُ أفراسِي به وركائبي
ولذَّ مُقَامٌ لي به وحُلُول

وقـد كـنـتُ ذا نـفـسٍ عَـزُوفٍ وهـمَّـة
عـلـيـهـا لأحـداث الـزمـان ذُحـول
وتَـهْـوَى العُـلا حظي وتُغْرِي بَضده
لـــذاك اعــتــرتــه رِقّــةٌ ونُــحُــول
وتـــأبَـــى لِـــيَ الأيـــامُ إلاَّ إدالـــةً
فَـصَـوْنَـكَ لِـي إنَّ الـزمـان مُـدِيـل
فـكـلُّ خـضـوعٍ فـي جـنـابـك عِـزَّةٌ
وكــل اعــتــزازٍ قــد عَـداك خُـمُـول

وله يَحِنُّ إلى بلده سبتة قبل التخلص لمدح ابن الحكيم:

سـقَـى ثَـرى سـبـتـةَ بـيـن الـبـلاد
وعَـهْـدَهَـا الـمَـحـمـودَ، صَـوْبُ العِـهـاد
وجـادَ مُـنْـهَـلُّ الـحـيـا رَبْـعَـهَـا
بِـوَبْـلِـهِ تِـلـك الـرُّبَـى والـوِهَـاد
فـكـم لَـنـا فـي طُـورِ سِـيـنَـائِـهَـا
مِـنْ رَائـحٍ لـلأُنـسِ فـي إثْـرِ غَـاد
وعَـيْـنُـهَـا الـبـيـضـاءُ كـم لـيـلـةٍ
بـيـضـاءَ فـيـهـا قـد خـلَـتْ لَـوْ تُـعـاد
وبـالـمَـنـارَةِ الـتـي نُـورُهَـا
لـكـل مَـن ضَـلَّ دلـيـلٌ وهَـاد
نَـرُوحُ مـنـهـا مِـثْـلـمَـا نـغـتـدي
لـلأُنـس، والأفـراحُ ذاتُ ازديـاد

فـي فِـتْـيَـةٍ مِـثـلِ نُـجُـوم الـدُّجـى
مــا مِــنْــهُــمْ إلا كــريــمٌ جَــوَاد
ارتَـشَـفُـوا كـأسَ الـصَّـفَـا بـيـنـهـم
وارتـضَـعُـوا أخْـلاَفَ مَـحْـضِ الـوداد
وَيَــا لِأيَّــام بِــلــيُــونــشٍ[1]
لـقـد عـدَتْ عـنـهـا صُـرُوف الـعَـواد
أدركـتُ مـن لُـبْـنَـى بـهـا كـلَّـمـا
لُـبـانَـةٍ، وسـاعَـدَتْـنِـي سُـعَـاد
ونــلــتُ مــن لــذَّاتِ دَهْـرِي الـذي
قـد شِـئْـتُـهُ، ولـلأمـانـي انْـقِـيَـاد
مــنــازلٌ مــا إن عــلــى مُـبْـدِلٍ
هـاءً، مـكـانَ الـلاَّم فـيـهـا انْـتِـقَـاد
سـلَـوْتُـهَـا مـذ ضَـمَّـنِـي بـعـدَهـا
نـادِي الـوزيـر ابـنِ الـحـكـيـم الـجَـواد

وله في مدح صديقه والد ابن خلدون وكان أقام عنده بتونس مُختفياً نحواً من ثلاثة أشهر:

جــزى الله ابــنَ خــلــدون حــيــاةً
مُـنَـعَّـمَـةً وخُـلْـداً فـي الـجِـنـان[2]

(١) بليونش ضاحية بسبتة بديعة الحسن.
(٢) جمع جنة، وهنا أراد بالأولى دار الخلد، وبالثانية ـ فيما يأتي ـ الرياض.

فَكَمْ وَالَى وأوْلَى من جميل
وَبِرٌ بالفِعَالِ وباللسان
وراعى (الْحَضْرَمِيَّةَ) في الذي قد
جَنَى من وُدّه وَرْدَ الجِنان[1]
أبا بكر ثناءك طُولَ دهري
أُردد باللسان وبالجَنان
وعَنْ عَلياكَ ما امتدَّت حياتي
أُكافح باللسان وبالسّنان
فمِنك أفدتُ خِلاًّ لستُ دهري
أُرَى عن حُبّه أَثْنِي عِناني
وله في التورية بأسماءِ الكتب وهو من أكثر ما رأيتُ في معناه انسجاماً:
مَن اغتدى (مُوطَّناً) أكنافَه
صحَّ له (التمهيدُ) في أحواله
وقابَلَ (استِذْكارَه) (بالمُنتقَى)
مِنْ رَأْيه (المختار) من أعماله
وَأضحَتِ (المَسَالِكُ الْحُسْنَى) له
تُدْنِي (تَقَصِّياً) خُطَى إقباله
وسار من (مشَارِق الأنوار) في
أدنى (المَدَارِك) إلى آماله

(١) جمع جنة، وهنا أراد بها الرياض.

وله في المُشط والنَّشَفة[1] من آلات الحمّام:

إني حسدتُ المُشطَ والنَّشَفَ اللَّذا
لَهُما مَزايا القُرْب دُوني مُخْلَصَهْ
فَأنَامِلٌ مِنْ ذَا تُبَاشِرُ صُدْغَه
ومَرَاشِفٌ مِن ذَا تُقَبّلُ أخْمَصَه

وإلى هنا نكون قد ألمَمْنا ببعض أدبه المنظوم، وأما المنثور، وهو الذي كان غالب بضاعته بحكم تولّيه لكتابة الإنشاء حِقْبةً طويلة من عمره، فإنا لم نذكر منه شيئاً. وذلك لأنا لم نظفر منه بقليل ولا كثير. وابن الخطيب في مخطوطة الإحاطة التي وقفنا عليها ترجم لنثره وترك محل الترجمة بياضاً فارغاً.

وقد أوقفنا صديقنا الأستاذ البحّاثة السيد محمد المنوني على شِبْه مقامةٍ للمترجم في نحو عشر صفحات، أنشأها على لسان عَشْر جَوار، بيضاء وسمراء، وطويلة وقصيرة، وسمينة ونحيفة، وحضرية وبدوية، وشابة وعجوز، تفاخر كلُّ واحدة منهن نَظِيرتها بأن الحسن هو وصفها والجمال هو حِلْيَتُها، في نثر مسجوع مُفتَتَح بالحمد والصلاة ومُخَلَّل بقِطَع شعريّة تُناسِبُ المقام. وهي مقامة أدبية طريفة إلا أن تحريف النسّاخ شَوَّه جمَالَها، فضلاً عن أنها كما جاء في صدرها مختصر المقامة، وليست المقامة ذاتَها، فلا شك أن الذي اختصرها هلْهَلَ نَسْجَها ولم يُحْكِمْ حَبْكَها.

---

(١) النشفة والجمع نشف: حجر ذو تخاريب ينقى به الوسخ في الحمام.

وفكرةُ المفاخرة من هذا النوع بين الجواري، موجودةٌ في قصة من قِصَص ألف ليلة وليلة معروفة، إلا أنها إنما تقع بين سِتّ جَوار فقط، بيضاء وسمراء، وسمينة وهزيلة، وصفراء وسوداء. وليس هناك تماثلٌ في العَرْض ولا في التصميم بين مقامة صاحبنا وقصة ألف ليلة وليلة. مما يدل على أنه ليس هناك استيحاءٌ مطلقاً من أحد الجانبين، ولعلها فكرة شعبية كانت شائعةً في القَصَص العامّي فاستوحى منها كاتبُنا وقاصُّ ألف ليلة وليلة.

وعلى كل حال فقد اختلف العَمَلان الأدَبيّان في الكمّ والكَيْف وإن اتّحدا في الفِكْرة، فعَددُ الجواري في المقامة عشرٌ وفي القصّة ستٌّ، ومع ذلك فهما لا يتّفقان بالكيف إلا في أربع من الجواري، ثم لا يتلاقيان بعدُ لا في تقديم ولا في توصيف، باستثناء تعقيب مفاخرة كل جارية بقِطْعة من الشعر الذي يُناسب تفاخرها. وتنتهي قصة البَصري صاحبِ الجواري الست ببيعه لجواريه للخليفة المأمون، ثم مَنِّهِ عليه بردهن إليه في الآخر. أما مقامة عبدالمهيمن فتنتهي بحكم العجوز بين بقية الجواري، بما يُرضِي غُرورَ كل واحدة منهن، ما عدا القصيرة التي أوصتْها بالتأدُّب مع مُناظرتِها الطويلة، وما عداها هي التي أنصفتْ واعترفتْ للشابّة بفضلها عليها وحُجّتِها القائمةِ أمام دعواها الباطلة. وبذلك انسحبتْ من صفّ الجواري وإن جمعَها مَعَهنّ هذا الاسم أولاً على سبيل التغليب.

وفي المقامة حركاتٌ تمثيلية تُنبِىءُ عن ذوْق فني لدى الكاتب، فمثلاً عند تقديم الجارية البيضاء يقول: «وإذا

بجارية يغلب ضياءُ وجهها ضياءَ الشمس، فوقفت بين الصفوف وسلمت ببنانها الخَمْس» يعني أنها أشارت للسلام بيدها فقط، بينما هو يقول في تقديم السَّمْراء: «ثم حطّت اللثام عن وجه يُشَهّي الالتِثام، وأبلغت في السلام، وأقبلت تواضُعاً على رُؤوس الأقدَام «فوصف تسليمها بما يناسب شُعورَها بالغَضَاضَة. وفي تقديم الجارية الطويلة يقول: «وإذا بجارية تتخطّى الرّقاب، بعد أن حطّت النّقاب» فجعلها تتخطى الرقاب لِقَامَتِها الفارعة، على حين أنه لما قدم القصيرة قال: «وإذا بالقصيرة قد أقبلت تجرُّ أذيالَها... فولولت وصاحت... ثم قعدت على مكان، وتكلمت بأفصح لسان» فجعَلَها تجرُّ أذيالها مما يناسب حالة قِصرها، وتُوَلْوِلُ وتَصيح لِتُثِير الانتباه إليها، شأنُ قِصَارِ القَامة في اصطناع الأسباب التي تلفِتُ إليهم الأنظار، فهذا يَضَعُ طربوشاً طويلاً على رأسه، وهذه تلبَسُ حذاءً بكعب رفيع... إلخ. ثم ختم بهذه الحركة البارعة وهي جُلوسها على أعلى مكان لأجل أن يراها الحاضرون ولا تنغَمِرَ بِقِصَرِها بين الجالسين من ذوي القُدود الكاملة. وفي تقديم العجوز يقول: «فلما أتمّت الحضَريَّةُ هذه الأبيات، وقد أفصحت في البلاغة والغايات، إذا بهَزَّةٍ عظيمةٍ في المَحْفل، كاد يَرْجِعُ أعلاه منها أسْفَل، فأتتْ عجوز قد اشتبكت مع صَبِيَّة، وبينهما مُعاطَاةٌ ومُجادَلة قوية، والصبيةُ تنادي وتقول: كَثُر الحمق وقلّت العُقول، يا قومُ اعدِلوا بيني وبين هذه العجوز، بكلام يتعقَّلُ ويجُوز، فقالت العجوز: يا هذه الزَمي الوَقار، وكُفّي النّقار، فأنا أفصحُ منك وأعظم، وأسبَقُ

وأقدم» فأتى بمنظر صاخِب، كلُّه حركة واستنكار بالنسبة للنظَّارة وللشابَّة والعجوز التي تطامنَت في الأخير لتستأنف تظاهُرَها فيما بعدُ بكلام يدور كلُّه على ما لها من الدَّهاء والحِيلة في تأليف الرجال وتسْخيرهم! ولو كان هذا العَرْضُ على مَسْرح حديث لما زاد حَيَويَّة ونشاطاً على ما قدَّمه به المُترجَم.

ونأسَفُ لأنَّ ضِيقَ المجال يمنعُنا من إيرادها هنا بجُمْلَتِها، لو كانت صحيحةً، فكيف مع تحريفها الفظيع الذي أشرنا إليه. ولكِنّا نُورِدُ منها بعض العبارات السَّالمة من التحريف أو القابلة للتصحيح وهي وحدها تدل على ما لكاتبها المُترجم من روح فكاهية خفيفة. فمن ذلك تحميدٌ على لسان البيضاء: «الحمد لله الذي جعل البياضَ طِراز كل جمال، وشرَّف أهله بالحياء والكمال، وأعطاهم عزة لا تَبيد وصَيَّر السُّمْرَ لهم عَبِيد».

وهذه الأبياتُ على لسان السّمراء:

الحمدُ لله ليس التِّبْرُ كالوَرِقِ
قد أحسنَ اللّهُ في خَلْقِي وفي خُلُقي

فالجِسْمُ مني نُضَارٌ صِيغَ مَنْظَرُه
بِمسْكَةٍ فَغَدَا طِيباً لِمُنْتَشِق

يا مَن يُعَيِّرُنَا باللَّوْن إنَّ لكم
جهلاً يقودُ إلى الطغيان والحَمَق

كم أسمرٍ قَلْبُه كافُورَةٌ وله
من السَّعادة نجمٌ لاح في الأُفُق

ومنه قولُ القصيرة للطويلة: «يا شقيقةَ الزَّرافة، إلى كم تُطِيلِين هذه الخُرافة، نحن أهل المعاني الرّقاق، وفِتْنَةُ العُشَّاق، وعلى منظرِنا طَلاوَة، ورَوْنَقٌ وحَلاوَة». وقولُ السمينة في النحيفة: «أين هذه المَسْفُولَةُ الصَّوت الواقِفَةُ بين مَيْدَانِ الحياة وميدان المَوْت، المقبوضَةُ اللَّحم، التي حُرِّم عليها - كما حُرِّم على بني إسرائيل - الشَّحْم».

وقولُ النحيفة في السمينة: «أسَمِعْتُم مقالة هذه العَاهَة، وما ظَهر منها من قِلَّة النَّزاهَة، هذه التي تفتَح فمَها مثلَ التّمساح، وتَبْلَعُ القَرْع وتُخْرِجُها صِحَاح» ومن الشعر على لسان الحضرية:

ألا إنـمـا الـحُـسْـنُ حُـسْـنُ الـحَـضَـر
عـلـيـنـا وفـيـنـا ومـنـا ظَـهـر
فـإن كـنـتِ يـا هـذه نَـجْـمـةً
بـأعـلـى الـسـمـاء فـإنّـي قَـمـر
بـسِـحْـر الـجُـفُـون وغُـنْـجِ الـعُـيـونِ
أسُـلُّ الـقـلـوب كَـسَـلِّ الـشَّـعَـر
ومِـنْ لـيـل شَـعْـرِي ظَـلاَمُ الـمَـسـا
ومـن وَجْـنَـتَـيَّ الـصَّـبـاحُ الأغَـرّ

ومن وصفه للعجوز: «وكانت العجوز مخضُوبَةَ البنَان، مُسوَّكة الفم وليس لها أسنان، مَضبوغةَ الحاجِب والسَّالِف، تندُب على ما فاتها في الزَّمن السَّالِف» ومن تحميدٍ على لسان الشابة: «الحمد لله الذي غَرَس رَيْحانةَ الشّباب، في قلوب ذوي الألباب» ومن شعر على لسانها أيضاً:

روضُ الـشـبـاب تـبـدَّتْ فـيـه أربـعـةٌ
وَرْدٌ، وَزَهْـرٌ، وَنِـسْـرِيـنٌ وَرَيْـحَـانُ
مَـنْ قَـالَ إنَّ زَمَـانَ الـشَّـيْـبِ يُـشْـبِـهُـه
عـهـدُ الـشـبـاب فـذاك الـقـولُ بُـهْـتَـانُ

هذا ما استطعنا تقديمَه من آثار هذه الشخصية الفذّة، وهي آثار تتضاءل أمام معارفه الواسعة، التي قضت عليها خدمة الدولة فلم يفضُل له من الوقت ما يُلْتَمَسُ فيه ما لديه، كما عبَّر ابن الخطيب، وهذا في حياته، فكيف وقد طوَتْهُ المَنُون وعَدَتْ السنون على ما أسْأرَهُ من أثَارةٍ علمية وأدبية قليلة فلم تُبْقِ منها إلا أقلَّها.

وأنجب عبدالمهيمن ابنَه أبا سعيد، كان عالِيَ الهمَّة كآبائه: فلما بويع السلطان أبو عنان طلب منه أن يكون مُرْتسِماً في جُمْلة كتّابه، فامتنع وقال: لا أكون تحت حكم غيري، يعني بذلك أن أباه كان رئيس الكتّاب فلا يكون هو مرؤوساً لغيره.

وأنجب أبو سعيد هذا ابنه عبدالمهيمن وكان صاحب القلم الأعلى كجده رحمة الله عليهم جميعاً.

* * *

أبو القاسم الشريف
(ت ٧٦٠ هـ)

شهرته بالغرناطي، نسبه، ولادته ونشأته، أخلاقه، تفوقه في العربية، فوائده، مجالسه، انتقاله إلى غرناطة، ولايته القضاء، عزله، إعادته إلى القضاء، مقتل سلطانه، محنته، وفاته، تصانيفه، ديوانه ومقدمته، كتابته، نادرة في استحضاره، شعره، رثاؤه.

شُهِر بالشريف الغرناطي، ولكنا لا نعتبر هذه الشهرة؛ لأنه كفَى ما طمسته هذه الأندلسُ من مآثرنا، وأتت عليه من مفاخرنا، فأما الأشخاص الذين احتوتهم وأنسَتْنا ذكرياتهم حتى لم نعد نعرف واحداً منهم وبقيت هي معتزّة بهم، والآثار التي استحوذت عليها وصارت لا تنسب إلا إليها، فإننا نُسوّغها ذلك ونجعلها في حِلّ منه لوجه الله عزَّ وجلَّ والرّحِم والجِوار منشدين مع كُثَيّر قوله:

هنيئاً مريئاً غيرَ داء مخامِر

لِعَزّة من «أمجادنا» ما استحلّتِ

وأما مَن عُرِفَتْ مَغْرِبِيّتُه من الأشخاص، وما تحققت

نِسبتُه إلى المغاربة من الآثار فإننا لا نتسامح فيه بحال. وسنجدّ في كشفه وإظهاره للملأ بحول الله وقوته معتقدين أن ذلك من البرور بهذا الوطن المبخوس الحظ المغموط القدر وخدمته التي هي من أول الواجبات على مَن يحترم نفسه ويريد أن يسعد هو وأمته.

ومُترجمُنا هذا مغربي ليس عليه غبار. شريف النجّار، سَبْتِيّ الدار، فلْنُشَطِّب على الغرناطي من اسمه ولندعُه بما يجب أن يدعى به وهو اسمه المجرّد «أبو القاسم الشريف» أو المنسوب إلى بلده «الشريف السبتي» إن كان لا بد من هذه النّسب الضيقة التي تجلب كثيراً من الشحناء بين أبناء الوطن الواحد خصوصاً عند ضعف التربية الوطنية.

وهو محمد بن أحمد بن محمد بن عبدالله بن محمد بن محمد بن محمد بن علي بن موسى بن إبراهيم بن محمد بن ناصر بن جَنّون(١) بن القاسم بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. كذا في الإحاطة ذاكراً أنه نقل من خطه وثبت زيادة ابن أحمد قبل عبدالله وبعد محمد الجد الأدنى له في الدّيباج من الطبعة الفاسية والطبعة المصرية وفي بُغية الوعاة، وبما أن ابن فَرْحُون والسيوطي إنما نقلا ترجمته عن ابن الخطيب فلا شك أنه سقط في نسخة المطبعة من الإحاطة على أن القاضي أبا الحسن النباهي في المَرْقَبة العُليا أبدل أحمد هذا بمحمد.

(١) تصحف هذا الاسم في الإحاطة المطبوعة بخبوز والصواب ما ذكرناه.

وليس هذا فقط فإن في هذا النسب خللاً لا يخفى على النّسابة النقّاد إذ أن القاسم بن الحسن لم يُعقب وهو في جُمْلة أبناء الحسن الذين نبّه مُصعَب الزّبيري وابن حَزمْ على أنهم لم يُعقبوا فرَفْعُ النسب من طريقه لا يصح فبقي أن فيه خللاً. إلا أنه لا يقدح في صحة نسب المترجم لأنه لا يُشترط في النسب الرفْع حتى يتصل الأدنى بالأعلى بل إن الحَوْز والشهرة كافية في ذلك ومُغنِية عنه، وقد نبّه على الخلل المذكور في الدر السّنِي إلا أنه عنده في رفع نسب المترجم من طريق محمد بن الحسن لا من طريق القاسم بن الحسن، وقد قال: إنه كذلك عند ابن الخطيب فيظهر أن نسخة الإحاطة التي كانت عند صاحب الدر السني فيها رفع نسب أبي القاسم من طريق محمد بن الحسن، وأياً كان فكل من القاسم ومحمد ابنَي الحسن لم يُعقب[1].

---

(١) وجاء رفع هذا النسب بطريقين مختلفين في مخطوطتين نثير فرائد الجمان ونثير الجمان لابن الأحمر، ففي الأولى: هو محمد بن أحمد بن محمد بن عبدالله بن محمد بن محمد بن علي بن موسى بن إبراهيم بن محمد بن ناصر بن جنون بن القاسم بن الحسن بن الحسين بن إدريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وفي الثانية: هو محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبدالله بن محمد بن محمد بن محمد بن علي بن موسى بن إبراهيم بن محمد بن ناصر بن جنون بن القاسم بن الحسن بن الحسن بن إدريس بن الحسن بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، ففي الأول: سقط أحمد الذي هو الجد الثاني للمترجم وسقط محمد الذي هو الجد السادس فإنهم ثلاثة محمدين في نسق واحد وكلا الاسمين موجود في الطريق الثاني، وزاد هذا محمداً آخر بين أحمد وعبدالله ثم اتفقت الطرق =

والمترجم على كل حال شريف حسَني كما رأيت فما وقع في الديباج من أنه حُسيني، تحريف ظاهر، وفي بغية الوعاة الخُشَني وهو غلط شديد الافتقار إلى الإصلاح.

ولد أبو القاسم ببلده سبتة في ٦ ربيع الأول سنة ٦٩٧، فنشأ نشأة صالحة في حجر والده، الذي كان معلماً للقرآن الكريم وكان بيتهم بيت علم، وسبتةُ يومئذ في أوج مجدها العلمي والأدبي حافلة بالمشايخ الذين كان أبو القاسم يتردد على مجالسهم للأخذ عنهم والتزود من بضائعهم: كالإمام النظّار أبي القاسم بن الشاطّ والخطيب المحدث أبي عبدالله بن رُشَيْد وشيخ العربية والآداب في زمنه أبي عبدالله بن هانئ وأضرابهم. وكان ظاهر النجابة قوي ملكة الحفظ فما عتم أن نبغ وبرع وأتقن جملة علوم كالنحو واللغة والبيان والعروض والفقه والأحكام إلى النظر السديد والإدراك الأصيل والتؤدة والوقار والنزاهة والحياء وجمال العشرة وحسن المداراة، فحق له أن يكون مَفخَر أهل بيته كما يقول عنه ابن الخطيب.

= إلى جنون بن القاسم وطريق الإحاطة يجعل القاسم بن الحسن بن علي وقد علمت ما فيه، وأحد الطريقين المذكورين هنا يجعل حفيداً لإدريس بن عبدالله من ولده الحسين وما جعل الله لإدريس من ولد إلا سميّه وخليفته باني مدينة فاس، والثاني: ينسبه لإدريس بن الحسن ويرفعه من جهة محمد بن الحسن بن أبي طالب وقد علمت أن محمداً هذا لم يعقب ولعل هذا العمود هو الذي كان في نسخة الإحاطة التي اطلع عليها صاحب الدر السني فنبّه على ما فيه من الغلط، والخلاصة أن عمود نسب المترجم فيه اختلاط كثير وإن كان نسبه صحيحاً لا مطعن فيه ولذلك اقتصر الكثير من مترجميه على جدوده الأدنين، والله أعلم.

وجلس للتعليم فكان رُحْلَةَ الوقت في علوم اللسان إذ حاز الخصل في ميدانها وتصرف باستقلال الفكر في فنونها. ذكر المقري من فوائده أنه قال فيما جاء من الحديث في صفة وضوء رسول الله ﷺ فأقبل بهما وأدبر: إن أحسن الوجوه في تأويله أن يكون قدّم الإقبال تفاؤلاً ثم فسر بعد ذلك على معنى أدبر وأقبل قال: والعربُ تقدم في كلامها ألفاظاً على ألفاظ أُخر تلتزمه في بعض المواضع كقولهم: قام وقعد، ولا تقول: قعد وقام وكذلك أكل وشرب، ودخل وخرج وعلى هذا النمط كلام العرب فتكون هذه المسألة من هذا، قال: ويؤيد ما قلناه وهو موضع النكتة تفسيره لأقبل وأدبر في باقي الحديث على معنى أدبر ثم أقبل ولو كان اللفظ على ظاهره لم يحتج إلى تفسير.

ويعني بالتفسير قوله بإثر ذلك: بدأ بمُقدّم رأسه ثم ذهب بهما إلى قفاه ثم ردهما حتى رجع إلى المكان الذي بدأ منه والحديث في الصحيح.

وحدّث أبو القاسم الشاطبي عنه قال: قال لي الشيخ القاضي الكبير الشهير أبو القاسم الحسني يوماً وقد جرى ذكر حتى التي للابتداء وأن معناها التي يقع بعدها الكلام سواء كان ذلك متعلقاً بما قبلها لم يتم دونه أو لا بل لا يكون الأمر إلا كذلك قال: وحدثني بعض الأصحاب أنه سمع رجلاً يصلي أشفاع رمضان فقرأ من سورة الكهف إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾ فوقف هناك وركع وسجد قال: فظننت أنه نسي ما بعدُ ثم ركع وسجد حتى يتذكر بعد ذلك ويعيد أول الكلام فلما قام من السجود ابتدأ القراءة

بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ﴾ فلما أتمّ الصلاة قلت له في ذلك فقال: أليست حتى للابتداء. قال القاضي الشريف المذكور: فيجب أن يفهم أن الاصطلاح في حتى وفي غيرها من حروف الابتداء ما ذُكِر.

وهكذا كانت مجالس أبي القاسم غزيرة الفائدة جمّة النفع فهي بذلك مَثابةُ النبهاء من الطلبة كأبي إسحاق الشاطبي ولسان الدين بن الخطيب وابن زَمْرك ومَن إليهم. قال ابن الأحمر في حق ابن زمرك: «كان يتردد الأعوام العديدة إلى قاضي الجماعة أبي القاسم الشريف فأحسن الإصغاء وبذّ الأئمة البلغاء»، وكان أبو القاسم رحمه الله دؤوباً على التدريس حمّالاً لأثقاله صبوراً على مشاقه لا يصرفه عنه إلا أعباء الخطة وتكاليف الخدمة والأشغال إذا تكاثرت ولم يجد منها مخلصاً. فنفع الله به كثيراً ونشر علماً غزيراً.

ولم تستقر الدار بأبي القاسم في بلده طويلاً بل إنه رحل إلى غرناطة في عنفوان شبابه فوطنها إلى الوفاة. وذلك هو سبب شهرته بالغرناطي على ما مر. قال ابن الخطيب: «قدم على الحضرة في دولة الخامس من ملوك بني نصر كما استجمع شبابه يفهَقُ علماً باللسان ومعرفةً بمواقع البيان وينطق بالعذب الزلال من الشعر فسهّل له كنف البر ونظمَه في قلادة كتاب الإنشاء. . . إلخ»، وفي هذه الفقرة ما يدل على سبب انتقاله من سبتة مسقط رأسه ومألف نفسه إلى غرناطة وليست له بدار ولا بموضع قرار وذلك هو التعلق بالخدمة ونشدان العمل لا سيما وحاله بسبتة لم يكن على ما

يرام حسبما يظهر من هذه «الألُوكة» التي أرسلها إلى أهل سبتة يصف فيها حاله بعد حلوله بغرناطة. وقد كتب بها إليّ صديقي الأوفى المؤرخ البحّاثة السيد عبدالسلام ابن سودة من فاس وثبتت في المرقبة العليا:

يا أيها الراكبُ المُزجى ركائبَه
يحثّها السير بين الغَور والأكم

أبلغ بسبتة أقواماً ودونهم
عرض الفلا وذميل الأينُق الرّسُم

ولُجّ ذي ثبَج طام كأن به
أعلام لبنان أو كثبان ذي سلم

ألُوكةً عن غريب داره قذف
مرماه لا صدد منهم ولا أمَمِ

أني بأندلس آوي إلى كنَف
للمجد رحْبٍ وظِل للعلا عمم

وأن غرناطة الغرا حللتُ بها
فصرت من ريب هذا الدهر في حرم

ليست كأخرى بل ربعٌ بها وجفا
رهط وأخفر ما للمجد من ذِمم

وأنكرتني مغانيها وما عُرفت
إلا بقومي في أيامنا القُدم

لولا مضاربُ من آل النبيّ بها
وهُنّ ما هُنّ من طيب ومن كرم

وفتيةٌ من بني الزهراء قد كرموا
لهم أواصر من ود ومن رحم
لقلت لا جادها صوبُ الحيا أبداً
إلا بناقع سم أو عَبِيط دم
لا يُسفحنّ عليها الدمع من جزع
يوماً ولا يُقرعنّ السن من ندم
ما ضرني أن نباني أو نأى وطني
منها ولي شرف البطحاء والحرم

فهذه نفثة مصدور تدل على ما لاقاه الشريف ـ ويلاقيه كل شريف ـ من قومه في بلده من جحد ونكران وتضييع وحرمان فكيف لا يزمّ مطاياه للرحيل ويراوح عليها بين الوخذ والذميل:

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى
وفيها لمن خاف القلا مُتعزّل

وما كاد أبو القاسم يلقي عصاه في غرناطة حتى شاع فضله وذاع نبله وعرف الناس قدره فأحلّوه المحل اللائق به وألحقه السلطان بجملة كتّابه ثم ما زال ينقله في وظائف الخدمة حتى ولاّه منصب القضاء وما زال يتولاه في جهات مختلفة أنبهُها (مالقة) حتى نقل إلى قضاء العاصمة في ٤ ربيع الثاني ٧٣٧ متقلداً معه بالكتابة والخطابة.

وهنا بلغ الشريف أوج مجده وظهرت كفاياته التي طالما عاقتْها صُروف الدهر عن الظهور «فاضطلع بالأحكام

مطبقاً مفصل العدل نافذ الأمر عظيم الهيبة قليل الناقد. . . وصدع في مواقف الخطابة بكل بليغ من القول مما ترِقّ ديباجتُه ويشِفّ صقاله وتبرأ من كلال الخطباء أطرافه وبلغت به الحظوة وشفوف النزلة أن استُعمل في السفارة للعدو ناجحَ السعي ميمون النقيبة» كما يقول ابن الخطيب.

وهكذا قضى هذه الفترة من حياته في سعد متكامل وصعود متواصل إلى أن عُزل عن القضاء في شعبان ٧٤٧ من غير زلة تُحفظ ولا هَنَة تُوثر مُعوضاً بشيخ الجماعة أبي البركات ابن الحاج فتحيّز إلى التحليق لتدريس العلم فقهاً وعربية غير مُنتقِص ذلك من قدره شيئاً ولا مؤثر في شرفه بوجه من الوجوه ويرحم الله العلاّمة السيد محمد التيدي قاضي طنجة في أواخر القرن المنصرم حيث قال لما أراده بعض نواب السلطان على أمر يضاد الشريعة فأبى فهدّده النائب: «غاية ما بيدك أن تكتب للسلطان فيعزلني، وأنا إذا عُزلت عن القضاء لم أُعزل عن شرف العلم وشرف النسب، فانظر لنفسك أنت إذا عُزلت عن النيابة فإنك تبقى «فُلين» فقط. وسمّاه باسمه مصغراً.

وكذا أبو القاسم لما عُزل عن القضاء لم يُعزل عن شرف العلم وشرف النسب بل يصح أن يقال: إن القضاء هو الذي عُزل عن شرفه ولذا خاطبه شيخه أبو الحسن بن الجيّاب حين ذاك بهذه القطعة مُولياً خطةَ القضاء الملامةَ:

لا مرحباً بالناشز الفارك

إن جهلت رفعةَ مقدارِكْ

لــو أنــهــا قــد أوتــيــت رشــدَهــا
مــا بــرِحــت تــعــشُــو إلــى نــارك
أقــســمــتُ بــالــنــور الــمــبــيــن الــذي
مــنــه بــدت مــشــكــاة أنــوارك
ومَـظـهـر الـحـكـم الـحـكـيـم الـذي
يُـتـلـى عـلـيـه طـيـبُ أخـبـارك
مـا لـقـيـتُ مـثـلَـك كـفـؤاً ولا
آوت إلـــى أكـــرمَ مـــن دارك

ومع هذا فلم يصح استغناؤهم عن أبي القاسم كما قال ابن الخطيب: «ولم ينشب أميره المنطوي على الهاجس المغري بمثله أن قدّمه قاضياً بوادي آش بنتِ حضرتة... ثم أعيد إلى القضاء بالحضرة فوَلِيَها واستمرت حالة ولايته على مُتقدّم سَمْته من الفضل والنزاهة إلى أن هلك السلطان مُستقضيه مأموماً به مقتدياً بسجوده يوم عيد الفطر من عام ٧٥٥».

والسلطان المذكور هو أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل السابع من بني نصر أصحاب غرناطة. وحادثةُ قتله أشار لها في اللمحة البدرية بقوله: «وافاه أمر الله جلّ جلاله أتم ما كان شباباً واعتدالاً وحسناً وفخامة وعزاً من حيث لا يحتسب. فهجمَ عليه يوم عيد الفطر من عام ٧٥٥ في الركعة الأخيرة ممْرُورٌ ورمى نفسه عليه وطعنه بخنجر كان قد اتخذه وأغرى بعلاجه وصاح وقُطعت الصلاة وسُلّت السيوف وتُقُبّضَ على الممرور واستُفهِم فتكلم بكلام مختلط

واحتمل إلى منزله مرفوعاً فوق رؤوسنا على الفور ولم يستقر به إلا وقد قضى رحمه الله. وأخرج ذلك الممرور للناس فمزق ثم أحرق بالنار ودفن السلطان رحمه الله عشية اليوم في مقبرة قصره لِصْقَ أبيه وولي الأمر أكبر ولده».

وقد كان أبو القاسم كما علمت هو الإمام في هذه الصلاة فدارت عليه محنة عرَكتْه عزْكَ الأديم وطحنته طحن الرحى بثِفالها من جراء تطارح بعض الأمراء عليه وتداوُلِه بالأرجل وزاد الأمرَ شدّة التفافُ مُرسَل طيْلَسانه عليه سادًّا مجرى نفَسه فعالج الحِمام مُدة ثم نفّس الله عنه.

وبعد استقرار الولد على عرش أبيه جدّد لأبي القاسم ولاية القضاء وأكّد تَجِلته ورفع رتبته فبقي فيها حتى توفي في أوائل شعبان ٧٦٠ على ما عند صاحب الإحاطة وقال ابن الخطيب القسنطيني الشهير بابن قنفذ في وفياته وهو تلميذ المترجم أيضاً: إنه توفي سنة ٧٦١. أما أبو الحسن النباهي فقد ضبطها باليوم والساعة فقال: إنه توفي ضحى يوم الخميس الحادي والعشرين لشهر شعبان من عام ٧٦٠ فهو على هذا أثبتُ.

قال في «نفح الطيب»: وكان للشريف أبي القاسم المذكور ابنان نجيبان؛ أحدهما: قاضي الجماعة أبو المعالي، والآخر: أبو العباس أحمد ثم حكى حكاية عن أولهما في زهده وانقطاعه أولاً ثم إقباله على الدنيا والرياسة أخيراً. رحم الله الجميع.

انقضت حياة أبي القاسم ولم ينقضِ الحديث عنه لأن

مَن كان مثله جم المواهب ضخم المآثر كان الحديث عنه طويلاً مديداً.

صنّف رحمه الله تصانيف بارعة منها:

١ ـ رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة. وهو شرح على مقصورة حازم التي مدح بها المستنصر الحفصي تنقطع الأطماع عنه كما قال فيه ابن الخطيب. وقال المقري فيه من الفوائد ما لا مزيد عليه، رأيته بالمغرب واستفدت منه كثيراً، وليس في قولهما معاً مبالغة فإن الشرح المذكور حوى من الفوائد اللغوية والنحوية والأدبية والإنشادات ما عزّ وجوده في غيره وهو وحده دليل على جلالة مؤلفه ومقامه العلمي الرفيع. وقد طبع بمصر.

٢ ـ رياضة الأبِيّ في شرح قصيدة الخزرجي وهي شرح على الخزرجية الشهيرة في علمَيْ العروض والقافية. قال ابن الخطيب: أبدع فيه بما يدل على الاطلاع وسداد الفهم. وقال المقري: ويكفيه فضلاً أنه شرح الخزرجية وافترع هضاب مشكلاتها بفهمه من غير أن يسبقه أحد إلى استخراج كنوزها وإيضاح رموزها. وهو كذلك ومن كُتِب عليه أن يتطلب العروض من القصيدة المذكورة عَلِم مقدار الصعوبة في الحصول على المراد منها بالتوقيف من الشرّاح والمعلمين. فكيف بمَن يحل تلك اللغوز من عندياته ويستكنه تلك الرموز من تلقاء ذاته.

٣ ـ شرح على التسهيل لابن مالك بديع قارب التمام.

٤ ـ تقييد على الجزء المسمى بدرر السمط في خبر السبط.

٥ ـ مختصر في الوثائق مشتمل على العقود وفقهها وهو لطيف في نحو الكرّاسين وقد كثر نقل الفقهاء عنه. ومن الغريب أني لم أرَ مَن ذكره في مؤلفاته حتى مَن يؤلفون في طبقات الفقهاء ويذكرون المترجم على أنه أحدهم، وهو مطبوع بفاس.

٦ ـ اللؤلؤ والمرجان، من بحر أبي البركات ابن الحاج يُستخرجان، وهو مختاره من ديوان شعر المذكور الذي سمّاه العذب والأجاج من كلام أبي البركات ابن الحاج.

٧ ـ ديوان شعره الذي سمّاه (جهد المقل) وسنتكلم عليه فيما يأتي اتصالاً.

هذه جملة ما وقفنا عليه من كتبه اسماً وعيناً أو اسماً فقط وهي كافية في تخليد ذكراه لما اشتملت عليه من الجودة والإتقان حيث العبرة في هذا الصدد بالكيفية لا بالكمية. وديوانه المذكور هو جزء جمعه بنفسه وأهداه إلى تلميذه لسان الدين بن الخطيب. وقد صدّره بصورة الإهداء هذه:

«الحمد لله الكبير المتعال، فهو المسؤول أن يعصمنا من خطل القول وزلل الأعمال، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأرسال، هذه أوراق ضمّنتُها جملة من بنات فكري، وقِطَعاً مما يجيش في بعض الأحيان في صدري ولو حزمتُ لأضربتُ عن كتبها كل الأضراب، ولزمت في دفنها وإخفائها دِينَ الأعراب لكنني آثرتُ على المحو الإثبات، وتمثلت بقولهم: إن من أحسن ما أوتيته العرب الأبيات،

وإذا هي عُرِضت على ذلك المجد، وسألها كيف نجت من الوأدِ، فقد آويتها من حرمكم إلى ظل ظليل، وأحللتها من فنائكم إلى مُعَرّس ومَقيل، وأهديتها علماً بان كرمكم بالإغضاء عن عيوبها كفيل. فاغتنم قليل الهدية مني إن «جهل المقل» غير قليل، فحسبها شرفاً، أن تبوأت في جنابك كنفاً وداراً، وكفاها مجداً وفخراً، أن عَقدت بينها وبين فكرك عَقْداً وجواراً».

وهذا التصدير هو خير مثال نقدّمه للقارئ من النثر الفني الذي كان أبو القاسم يكتب به، فهو على تقيده بالسجع قد استوفى غرضه من غير أن يلجأ إلى إطناب أو إغراب، ثم هو مع ذلك يدل على حسن تصرفه في مروياته من عوائد العرب وأوابدها فيضمن كلامه ما يناسب من ذلك ويشير إليه بأبدع إشارة. كيف وقد كان وِعاءً مُلىء علماً بأيام العرب وأخبارها وفنونها وآدابها فلا عجب أن ينظم في سلوك كلامه بعض هاتيك الدرر فكل إناء يرشح بما فيه.

وأورد المقري حكاية عنه تدل على قوة استحضاره نوردها هنا لمناسبة ما ذكر قال: «ونقلت من خط من نقل من خط الفَقِيه محمد بن علي بن الصبّاغ العُقَيْلي ما صورته: كان الشريف الغرناطي (بل السبتي) رحمه الله تعالى آيةَ زمانه، وأزِمّة البيان طوع بَنَانه، له شرح على المقصورة القرطاجنية أغرب ما تتحلى به الآذان، وأبدع ما ينشرح له الجَنان، إلى العقل الذي لا يُدرك والفضل الذي حُمد منه المسلك، حدثني بنادرة جرت بينه وبين مولاي الوالد مَن أثق به من طلبة الأندلس وأعلامها قال: دخل والدك يوماً

لأداء شهادة عنده فوجد بين يديه جماعة من الغزاة يؤدون شهادة فسمع القاضي منهم وقال لهم: هل ثمّ من يعرفكم؟ فقالوا: نعم يعرفنا علي الصباغ، فقال القاضي: أتعرفهم يا أبا الحسن؟ فقال: نعم يا سيدي معرفة محمد بن يزيد! فما أنكر عليه شيئاً بل قال لهم: عرف الفقيه أبو الحسن ما عنده فانظروا من يعرف معه رسْمَ حالكم، فانصرفوا راضين ولم يرتهن والدي في شيء من حالهم ولا كشف القاضي لهم ستر القضية.

قال محمد بن علي بن الصباغ: أما قول والدي: معرفة محمد بن يزيد، فإشارة إلى قول الشاعر:

أسائل عن نُمالةَ كلّ حي
فكلهم يقول وما نُماله
فقلت محمد بن يزيد منهم
فقالوا الآن زدت بهم جهاله

فتفطن القاضي رحمه الله تعالى بجودة ذكائه إلى أنه لم يرتهن في شيء من معرفتهم ممتنعاً من إظهار ذلك بلفظه الصريح فكنى واكتفى بذكاء القاضي الصحيح رحمهما الله تعالى»، فهذا من ذاك بل إنه إذا استحضر مروياته الأدبية وهو يقضي فَلأنْ يستحضرها وهو يكتُب أوْلى وأحرى. والذي نحفظه في البيتين المذكورين:

سألنا كل حي عن ثمالة
فكل قد أجاب ومن ثماله

وثمالة بالثاء المثلثة بطن من الأزد كان ينتسب إليه المبرد، وللبيتين ثالث وهو:

فـقـال لـي الـمـبـرد خـل عـنـي

فـقـومـي مـعـشـر فـيـهـم نـذالـه

ونُسبتْ هذه الأبيات لعبدالصمد بن المعذل، وقيل: إن المبرد وضعها لأنه كان يحب أن يشتهر بالنسبة إلى هذه القبيلة.

ومما يناسب هذه الحكاية في قوة الاستحضار وسماحة الخلق ما ذكره في المرقبة العليا بعد التنويه بما كان له من المهابة في المجالس السلطانية على أنه إذا خلا بخاصته رأوا من تنزُّله عجباً قال:

«ولقد بتنا معه ليلة بحشه من خارج الحضرة في أناس منهم الشريف أبو عبدالله بن أرجح السوسي والأستاذ أبو علي الزواوي والوزير أبو عبدالله بن الخطيب اللّوْشي فمالت ذبالة الشمعة في أثناء الليل إلى الذبول فذهب أحد الحاضرين ليقويها فأمسكه القاضي وبادر هو بنفسه لها فأذكى نارها وقوي نورها وقال: همّ السراج أن يخمد ليلة عند عمر بن عبدالعزيز رحمه الله، فوثب إليه رَجاءُ بنُ حَيْوَة فأقسم عليه عمر بن عبدالعزيز فجلس، فقام هو فأصلحه فقال رجل: أتقوم يا أمير المؤمنين؟ قال: قمت وأنا عمر بن عبدالعزيز ورجعت وأنا عمر بن عبدالعزيز، ثم قال لنا: واضطربت عمامة هشام بن عبدالملك فأهوى الأبرش الكلبي إلى تعديلها فقال له هشام: مَهْ فإنا لا نتخذ الإخوان خَوَلا!».

ولم يصلنا من نثر أبي القاسم غير تلك النبذة المتقدمة.

وأما نثره العلمي في شرحَيْه على المقصورة والخزرجية وفي وثائقه فمُرسَل بَيّن لا تكلُّف فيه ولا خفاء ويغلب عليه استعمال المصطلحات القديمة وقد يجمع بينها وبين مصطلح المتأخرين والشواهد منه على طرف الثّمام وكثيراً ما يستطرد جملة من الفوائد للمناسبة الكلامية وذلك دليل على مزيد تبحُّره وكثرة تفنُّنه كما سبق القول.

وأما شعره فقد تقدمت منه قطعة وبيدنا قطع أخرى نتعرف منها شاعريته المطبوعة ونظمه المصقول إلا أننا نبقى متعطشين إلى مورده العذب حيث إن تلك الصّبابة لا تشفي غليل الباحث ولا سيما إذا كان هاوياً مدفوعاً بحب الاستطلاع وحب المتَاع إلى الاستزادة من تلك المحاسن والتملّي بهاتيك المفاتن. ويقول ابن الخطيب عنه: «وأما الشعر فله فيه القِدْحُ المُعَلّى والحظ الأوفى والدرجة العليا طبقة وقته ودرجة عصره وحجة زمانه كلامه متكافئ في اللفظ والمعنى صريح الدلالة كريم الخِيم متين الحَبْك خالص السبك واقتنيت منه جزء خصّني به سمّاه: «جهد المقل» اشتمل من حُرّ الكلام على ما لا كفؤ له».

فهذه شهادة لسان الدين لشعره. وناهيك بها من معاصر مشارك في البضاعة بل من شاعر يقولون عنه: إنه شاعر الدنيا وإليك نماذج من هذا الكلام (الحر) على حد عبارة ابن الخطيب أو (الشريف) كما يحق أن يعبر عنه. قال وقد زاره المشيب وأبلى شبابه القَشِيب:

دعتْني إلى لهو التصابي وما درت
بأن زمان اللهو عنيَ ذاهب
فقلت لها ما لي وللّهو بعدما
تولى الصّبا وازوَرّ للغِيد جانب
وقد وخطت بيض من الشعر لمتي
تخبّر أن البيض عني رواغب
أألهو وفجر الشيب قد لاح بدؤه
بفودي فقالت أول الفجر كاذب

وقال يصف زيارة من يهواه له وتحقيقه في ذلك أمله:

زارت بأكرم ليلة وفى بها
حقّ الزيارة زائر ومزور
نتطارح الشكوى وقد شرَد الكرى
عنا فننجد في الهوى ونغور
ثم انجلى الإصباح فانفلتَتْ كما
يرنُو غَزالُ الربرب المذعُور
حتى إذا قامت تمد بِنُورها
مُتبلّجَ الإصباح حين ينور
طار الفؤاد فصرتُ أعجبُ وهوَ في
شرَك الهوى قد صِيدَ كيف يطير

وقال في لثمِه:

ظفِرتُ بلثمها فبدا احمرار
بوجنتها يزيد القلب وجدا

فأغراها بي الواشي فظلّت
تلوم ولم أكن ممن تَعدّى
فما كانت سوى قُبَلٍ بفِيها
جنَين أقاحياً وغرَسْن وردا

وقال في خاله مُوَرياً:

كم قلت للرشإ الذي ما عنه لي
صبر ولا لي عن سواه بَراح
ما لاح خدُّك والسوادُ شِعاره
إلا انثنيتُ ودمْعِيَ السفّاح

وقال في شعره:

غزالُ إنس كم أسيد نيتُه فنأى
عني وأعرض مُزوراً بجانبه
طالت عليّ ليالٍ في هواه كما
طالت عليه ليالٍ من ذوائبه

وقال يصف رمحاً:

وأصمّ ممطول الكعُوب إذا اقتضى
مُهَج الكماة فدينه لا يمطَل
متوقد حتى أقول أذابِلٌ
بيديّ منه أم ذُبال مُشعَل
لولا التهاب النّصل أينعَ عُوده
مما يُعَلّ من الدماء ويُنهَل

فاعْجَب له إن النّجيع بطرفه
رمَد ولا يخفى عليه مقتل

وقال يصف دولاباً:

وذاتِ حنَينٍ تستهل دموعُها
سجاماً إذا يحذو ركائبها الحادي
تعجبت أن ليست تَرِيم مكانَها
ولم تخلُ من تأويب سيَر وإسّاد
وأرصدتُها في الروض أية عُدة
فكانت لدفع المحْل عنه بمرصاد
تخالف ماء المزن حكماً وماؤها
وكلٌ على روض الرّبى رائح غاد
فينجد هذا بعدما كان مُتهماً
وذاك تراه مُتهماً بعد إنجاد
لئن قذفت ذوبَ اللجين على الثرى
لقد خلصته القُضب حلياً لأجياد

وقال في ذلك أيضاً:

ومُترعة يغَلّ الروض منها
إذا عُلّت من الماء الفرات
بدا دُولابها فَلَكاً وراحت
بدائرة كواكب سائرات
إذا ما الروض قابلهن كانت
عليه بكل سعد طالعات

تـراهـا إن شُـعـاعُ الـشـمـس لاقـى
بـيـاض الـمـاء مـشـرقـةَ الآيـات
وأعـجـبُ أنـهـا دارتْ بـنَـوْءٍ
غـزيـر وهـي تَـغـرُب خـاويـات

وقال وفيه تورية بديعة:

حـدائـق أنـبـتـت فـيـهـا الـغـوادي
ضـروبَ الـنـور رائـقـة الـبـهـاء
فـمـا يـبـدو بـهـا الـنّـعـمـانُ إلا
نـسـبـنـاه إلـى مـاء الـسـمـاء

وله في دواة؛ وهو مما أنشده في روح الشعر:

ونـاصـعـة الـبـيـاض تـخـيّـروهـا
مـن الـعـاج الـمُـوشّـح بـالـنّـضـار
أقـول وقـد صـببـتُ الـحـبـر فـيـهـا
كـذاك الـلـيـل يـولـج فـي الـنـهـار

وقال على سبيل الفكاهة:

قـالـوا أبـو بـكـر مـتـى ... مـا حـضـر الأكـلُ طـلـع
وإن تـكـن ولـيـمـةٌ ... يـخُـبّ فـيـهـا وَيَـضَـع
مـا أعـجـب الـسـعـدَ الـذي ... سـاعـد ذلـك الـلُـكَـع
فـقـلـت حـقـاً قـلـتُـم ... لـكـنـه سـعْـدُ بُـلَـع

وأنشد له في نثير الجمال هذه القصيدة البليغة وهي مما لعب فيه بالألفاظ لعباً يدل على قوة عارضته وكان فيها تصحيف كثير صححناه على حسب الوسع:

دعيني من مقال العاذلَين
وخلي بين تَهيامي وبيني
ومن يك سالياً فلدي حب
سلو القلب عنْه غير هين
عَلِقتُ فمقلتي للنوم حزب
بأعزلَ وهو شاكي المقلتين
مليح الدّل شاقت كلّ قلب
شمائلُه وراقت كل عين
جنى وحمى فلم أطلب بثاري
محاجِره ولم أتقاض دَيْني
أهيم بخده وبمبسِمَيْه
فأنسبُ بالحمى والأبرقين
عقدت مع الغرام، فبعت فيه
وقاري والتصبر، صفقتَين
وهمت بناعم العطفين فيه
عذابُ الصب عذبُ المرشفين
تُدير على عيناه كؤوساً
كأن سُلافها من رأس عين
فأحلفُ بالمحصّب والمصلى
وأعلام الصّفا والمأزِمَين
لأنتصِرنّ بالأجفان حتى
تكون دموعُها في الحب عوني

وحين تعرّفوا كلَفي، وقلبي
يصون السر عنهم كل صون
كففتُ المقلتين ليشهدا لي
فجرحت الدموع الشاهدين
فلو أبصرتَ ناظريّ المُعَنّى
وماء الدمع فوق الوجنتين
بصرتَ بوردتين يسحّ منها
سكيبُ القَطر فوق بهارتين
إذا أعرضتَ أعرض كلُ صبر
وآذن نومُ أحداقي بِبَين
ولم تبدُ الرياض بحسن زي
ولم تزه الربا بكمال زين
كأن نسيمها مما أقاسي
يهبُ عليلُه بالأبردَيْن
كأن الزّهر غِبّ سما بكته
لما أبدي، حَمامُ الشاطئين
أهيجُ لها الهوى وتهيجُه لي
فنُلفيَ في الهوى مُتطارحين
وقد هاج الحمامُ الوجد قبلي
لِتوبَة عند بطْن الواديين
بِعَيْشك هل تُرى ثاني وحيدِ
يُرى بك ثالثاً في النيرين

وهل يدنو من الآمال صب
بعيد بين هُدب الناظرين
فإن يكن الجمال حبَاك مُلكاً
وأيد ناظريك بحاجبين
فما أرضى لملكك أن كِسْرى
وقيصرَ في مَقام الحاجبين
وإنّ أقلّ حظ يُبتغى من
رضاك يفي بمُلْك الحارِثين
تُخبّرني وفي عِطفَيك لِين
فعالُك أن قلبك غيرُ لَيْن
وأعرفُ في لحاظك ما رأت في
ظُبا الثقَفِيّ قاتِلةُ الحسين
وألقِي في الهوى بيدي وما لي
على فتكاتِ لحظك من يَدَيْن
علىمَ الغِبّ عني لا أغبّت
بك الخيراتُ هامِية اليدين
ولا جرَت الرياح عليك إلا
صبَا وسقى محلّك كلّ جَوْن

ونختم الكلام بإيراد بعض أبيات من مرثية تلميذه ابن زَمْرَك التي قال فيها ابن الأحمر: «ومما بَذّ به ـ يعني ابن زمرك ـ سبْقاً وتبريزاً، وعرَضه على نقَدَة البيان فرأيت منه

كل مذهبة خلصت إبريزاً مرثيتُه للقاضي المعظم الشريف أبي القاسم الحسني من شيوخه وهي:

أغــرَى سُــراةَ الــحــي بــالإطــراق
نــبــأ أصــمّ مَــســامــع الآفــاق

أمــسـى بــه لــيــل الــحــوادث داجــيــاً
والــصــبــح أصــبــحَ كــاسـف الإشــراق

فُجع الـجـمـيـع بـواحـد جُـمـعـت لـه
شــتــى الــعــلا ومــكــارم الأخــلاق

مــاذا تُــرجّــى مــن زمــانــك بــعــدمــا
عَــلِــق الــفــنــاء بــأنــفــس الأعــلاق

مَــن تــحــسُــد الــسـبـعُ الـطّـبـاق عــلاءه
عــالَــوْا عــلــيــه مــن الــثــرى بــطــبــاق

أسـفـاً عـلـى ذاك الـجـلال تـقـلـصـت
أفــيــاؤه وعُــهــدن خــيــر رواق»

وهي طويلة جداً نكتفي منها بهذا. واطلبها إن شئت في «نفح الطيب».

* * *

النابغة الهوزالي
(ت ١٠١٢ هـ)

نسبته، لقبه، ولايته القضاء والإفتاء، مكانته في العلم، شاعريته، نماذج من شعره، وفاته.

أبو عبدالله محمد بن علي الهَوْزالي بفتح الهاء وسكون الواو نسبة إلى جبل هوزالة بالسوس، شاعر دولة المنصور الذهبي المتميز بذلك اللقب الضخم من بين سائر أدباء العصر الممتازين وصفه به الفشتالي في «مناهل الصفا» مراراً وغيره ممن هم تبعٌ له، كما وصفه بغيره من الحلى النبيّلة كالفقيه الصدر وأوحد الأدباء وعلقمة العصر وغير ذلك وحسبك بها شهادة من مثله.

وكان يعرف فوق ذلك بالنابغة لا ندري لنبوغه في الشعر بعد أن كان مفحماً شأن من أطلق عليه ذلك اللقب من شعراء العرب أم لتشبيهه بأحد النوابغ أم لمجرد المدح؟ وأشعاره المهذبة الرصينة في مدح المنصور تذكّرنا بأمداح النابغة الذبياني واعتذاراته للنعمان، فلا جرم إن ملنا إلى ترجيح الرأي الوسط لا سيما مع بُعد وقوع الأمر وعدم

حكاية المؤرخين له[1] واستبعاد الثالث من جهة اختصاص الشاعر بلقب مدح دون سائر المعاصرين له.

أما لقبه الرسمي فأمره أشكل من هذا. إن قلنا: إنه استحقه لسابقة خدمة وجدنا أن هناك مَن هو أوْلى منه بذلك كابن عمرو الشاوي الذي كتب للسلطان عبدالملك قبل المنصور وصحبهما في غربتهما بالجزائر قبل الولاية. وإن قلنا: إنه استحقه لمكانته من نظم الشعر وقد كان منه بمكانة مكينة، أزرِيْنا برُصفائه شعراء المنصور ولا سيما الفشتالي الذي لا يقصر عنه. فهل يكون ذلك من المنصور اختصاصاً لابن بلده وعطفاً على نابغة صُقعِه أعني سوس الذي هو مهد الأشراف السعديين ومنه ظهرت دولتهم أم إنما هو عظمة السلطان تقتضي التكثُّر والتزيُّد من وظائف الشرف والمشرَّفين بها فوجب أن يكون هذا شاعر الدولة وذاك كاتبها وغيرهما وزيرها وهكذا إدلالاً بوفرة الرجال والأعمال وتطاولاً بقوة الجند والسلاح؟

ومع هذا فلم يكن ذلك فقط حظ المترجم من المناصب الرفيعة والمراتب العالية، فقد كان يتولى الإفتاء بتارودانت عاصمة السوس حيث كان نسيبه العلامة سعيد بن علي الهوزالي يتولى القضاء. وقد أشار لذلك الفشتالي في بعض تَحْلِيَّاتِهِ له إذ قال في حقه: «شاعر الدولة ومفتي الحضرة المحمديّة». كما ولي القضاء بسكتانة حسبما في الدرة لابن القاضي وحلاه به الفشتالي أيضاً لكن من غير بيان للجهة التي كان قاضياً بها.

---

(١) وإن كان المؤرخون لم يذكروا شيئاً من أخباره.

ومقتضى هذا أنه كان على جانب من الفقه في الدين والمشاركة في العلوم الشرعية مع العلوم الأدبية التي بها اشتهاره، وهو كذلك فقد أشار ابن القاضي إلى أنه كان قرينه في الطب وأخذ معه عن أبي العباس المنجور فهرسته. وكثيراً ما يصفه الفشتالي بالحسيب والأصيل والماجد والنبيل، والأصل ينبت حوله الغصن، كما يقول قيس بن عاصم رضي الله عنه.

كان النابغة الهوزالي شاعراً قوياً، جزل الألفاظ، بليغ المعاني، محكم السبك، متين الأسلوب ينوع الكلام في المعنى الواحد أنواعاً مختلفة من غير أن يضطر أو تضيق به العبارة ويجعل المعقول محسوساً بحسن تصويره له وتخييله للسامع حتى كأنه يراه، وملكته في جميع ذلك حاضرة لا تتخلف، فإن ما وقفنا عليه من شعره كله بهذه المثابة حتى أننا لم نُسقط منه شيئاً لعدم استحساننا له كما نفعل في شعر كثيرين غيره اللهم إلا بعض الأبيات التي شوّهها التصحيف ولم نهتدِ إلى وجه صوابها بالكلية.

وأول ما نثبت من شعره هذه القطعة الشهيرة التي قالها في إبلال المنصور من مرضه الخوف وقد توافرت فيها جميع عناصر شاعريته الموصوفة آنفاً وهي:

تردّى أذى من سقمك البر والبحر

وضجت لشكوى جسمك الشمس والبدر

وبات الهدى خوفاً عليك مسَهّداً

وأصبح مذعور الفؤاد الندى الغمْر

فـلـمـا أعـاد الله صـحـتـك الـتـي
أفـاق بـهـا مـن غـمـه الـبـدو والـحـضـر
تـراءت لـنـا الـدنـيـا بـزيـنـة وجـهـهـا
وعـاد إلـى إبّـانـه ذلـك الـبِـشـر
وصـار بـك الإسـلام فـي كـل بـلـدة
يـهـنّـا ويـدعـو أنْ يـطـول لـك الـعـمـر
وصـحـت لـنـا الآمـال بـعـد اعـتـلالـهـا
وعادت إلى الأيناع أغصانُها الخُضر
ولا غَرْوَ أن خافت على عيْلم[1] الندىٰ
إذا اغْبرَّ وجه الأرض واحتبس القطر
لسيب أبي العباس أنضت عجافَها
قـديـمـاً فـخـافـت أن يـعـاودهـا الـضـرّ
لئن صَدِيَتْ بيضُ المعالي لقد غَدَتْ
نشاوى الكماة البيض واللُّدُنُ السُّمر
بـقـيـت لـهـذا الـديـن تـحـمـي ذمـاره
ويحميك رب العرش ما بقي الدهر

وقال فيه من قصيدة:

فـلـولا نَـفَـاق الـدُّرّ كـانـت مـن الـحـصـىٰ
كَـوَاسِـد هـاتـيـك الـلآلـىء الـنَّـفـائـسُ

---

(١) العيلم: البحر.

تخطفها المنصور من مخلب الردى
وللنُّقْعِ والبارود ليل غُدامِسُ
دعته فلبَّاها وقد حال بينها
وقائع أضحكنَ الردىٰ وهو عابس
حروب طوت ذكر البعاث ومُلْهَم[1]
ومات بها ذكر البسوس وداحس[2]
بها قد وددنا أنه مع جده
بِصِفِّين يوم حاربته العنابس[3]
لعمرك لا أنساه يوم شهدته
وقد سَفَرت سِنُّ الكماة المدَاعس[4]
يُرَبِّسُ[5] للأقدام كل كتيبة
كما رَجَّس المرجان في السلك رابِسُ

ويشير بهذا إلى ما حكاه الفشتالي في «مناهل الصفا» عنه قال: «حدثني صاحبنا الفقيه الأديب شاعر الدولة أبو عبدالله محمد بن علي الهوزالي وكان ممن شهد الوقعة (وقعة أشاطين بينه وبين ابن أخيه) وحضر هولها أنه لما

---

(١) البعاث: حرب كانت بين الأوس والخزرج قبل الإسلام. ويوم ملهم: حرب لبني تميم وحنيفة.
(٢) البسوس وداحس: حرب قامت بين عبس وذبيان بسبب فرس لقيس بن زهير.
(٣) العنابس من قريش: أولاد أمية بن عبد شمس.
(٤) المداعسة: المطاعنة.
(٥) يربّس: يضرب.

عظمت الحيرة واشتدت الزلزلة واستفحلت المحنة بارتداد الجنود على أعقابها كافة، الأبطال وغيرهم جعل الرجل يقول لمن حوله: هلمّ للتوديع قطعاً بحلول المنية لعدم المسلك واستداد طرق النجاة. قال: فاستثبتني أحد الأعيان من قبائل السوس كان بإزائي وقال لي: اتَّئد واسكن ولا تنظر لأحد سوى أمير المؤمنين فإن صَبَر للصدمة وثبت لزلزال الهيعة فارجع النجاة وإلا كلاً لا وزر إلا الموت.

قال: وجعلت لذلك أنظر إلى أمير المؤمنين وهو معترض للأجناد الذين ذهبت بهم النفرة اعتراض الأسد وسيفه بيده مسلول يسوق به الناس للكرة سوقاً عنيفاً حتى تسايلوا مع المضيق إثر العدو وخلصوا إلى المتسع وحمدوا العاقبة. قال: «فلم يكن أنجى للناس من الورطة في ذلك المقام الصعب إلا أمير المؤمنين أيّده الله وحده بفرط شجاعته وعظيم صبره وقوة جأشه وإلا كان آخر العهد بجميع مَن حشره الله في ذلك المضيق من العساكر والأجناد وسائر السواد فكان له في اقتحام أشاطيس الذي انفرد بصبرَه للنَّفرة الواقعة في الأجناد أثناءه الفخر الباقي مع الأيام».

ثم يقول بعد الأبيات السابقة اتصالاً:

وحسبك في وادي المخازن وقعة
بها الشرك حتى آخر الدهر تاعس
بها عرفت أبناء عيص[1] بأنهم
عبيد العصا مَا ناس[2] في الأرض نائس

(١) أبناء عيص: الروم.
(٢) ناس: تحرك.

فدانوا له حتى توقع بطشه
برمتهم صلبانها والكنائس
وضاقت بسبستيان[1] كل عويصة
وذَلت لنا منه الأنوف الغطارس
يجهز ما تحوي ذخائر ملكه
يذود بها عن نفسه ويداحس
ولو أيقنوا منها النجا ببناتهم
لزمت لنا أبكارهم والعوانس
بيمن أبي العباس صالت سيوفنا
على الشرك حتى ليس للشرك حارس
ومن جوده صلنا على الدهر بعدما
له من نفوس المقترين فرائس
فكم وقعة في البذل أفنت بنانه
بها المال حتى ليس في الأرض بائس
كذلك أبناء الوَصي بنانهم
إذا جمست[2] أيدي السحاب براجس
فلا زالت الدنيا ببهجة نورها
تمايل أغصان النقا وتمايس

وله هذه القصيدة في المنصور لما فتح بلاد توات وتيكورارين:

---

(١) هو سبستيان ملك البرتغال الذي قتل في هذه الواقعة.
(٢) جمست: جمدت.

جرىٰ بمناك الدهر ملء عنانها
وساعدت الأيام في عنفوانها
ولاحت لنا في أفق يمنك غرة
بلوغ مدىٰ آمالنا في ضمانها
بشائر تأتينا ولاء كأنما
لطائم[1] دارين بدت من صوانها
فتوح جنى المنصور في عرصاتها
أزاهر نصر يانع من غصانها
ولا غصن إلا من قناة قويمة
ولا زهر إلا من شباة سنانها
ولا روض إلا من حماة كماتها
ولا سقي إلا ما جرى من طعانها
كتائب منصورية قذفت بها
موام نأت عن أرضها ومكانها
تهيم بها الأرواح حتى تخالها
تناغي عزيف الجن في دورانها
طويت بساط أرضها بقنابل
سنابكها أطوى لها من بنانها
سحائب من مراكش قد أثارها
صبا النصر يحدوها حداً عكنانها[2]

---

(١) لطائم دارين: اللطيمة المسك. ودارين موضع بالبحرين منه المسك الداري.

(٢) العكنان: مسكناً، ويحرك: الإبل الكثيرة.

يـؤم بــهــا الــصــحــراء يــرتــاد أمــة
سـدًى أنـفـت آنـافـهـا مـن عـرانـهـا[1]
فـكـم مـلـك قـد رامـهـا فـتـصـحـبـت
عـلـيـه ومـحـت فـي مـحـون حـرانـهـا
فلما همت تلك السحائب فوقها
أفـاقـت وهـبـت مـن كـرى هـيـمـانـهـا
فـألـقـت مـقـالـيـد الأمـور إلـى الـذي
نـضـا الـعـز عـنـهـا فـارتـدت بـهـوانـهـا
إلى الملك الشهم الذي لقحت به
لـقـاح الـحـروب بـكـرهـا وعـوانـهـا
إلى ابن البتول المجتبى من نجارها
وفـرع الـعـلا الـمـعـتـام مـن خـيـرانـهـا
إلى ابن الهدىٰ غمر الندى قاصم العدى
وفخر بني ابن المصطفى وهجانها
بني الحسن السبط الزكي الذي خبت
بـه فـتـن الإسـلام فـي هـيـجـانـهـا
وفاءت إلى الألف القلوب التي غدت
بـمـسـتـعـر الأضـغـان فـي غـلـيـانـهـا
هـديـت أبـا الـعـبـاس فـيـنـا كـهـديـه
فـكـم لـيـلـة كـشَّـفـتَ لـيْـل عـنـانـهـا

---

(١) العران: عود يجعل في أنف البعير.

وأطفيتها بالسيف لا السلم بعدما

تصدع شمل الدين من شنآنها

فلا زالت الأقطار تعطي مقادها

لسيفك من سوس إلى خرسانها

إليك أمير المؤمنين قلادة

يروق بأفق الملك زهر جمانها

مفصلة أقطارها بيواقيت

نحور المعالي تزدهي بازديانها

فرائد من أوصافك الغر صغتها

لتنشر في الآفاق فضل زمانها

وله فيه عند فتح السودان:

ألمت وقد ألوىٰ على وصلها الهجر

كما افتر أثر الليل عن ثغره الفجر

وجلىٰ وقد لاحت دجىٰ الليل وجهها

كما نضّ سَجف الليل عن وجهه البدر

تُساقط لي دراً لقطت فريده

بأنمل سمح فيه عن غيره وقر

تحدث عن مسرىٰ سوار ذمت بها

مرام تضل النهج في فيحها الزهر

تحامىٰ هواها الطير من خشية الردىٰ

قديماً وأعيىٰ الريح مسلكها الوعر

وجشمها المنصور خرس كتائب
تحمّل ما يردىٰ فيحمله الصبر
تقاد نواصيها بكل متوَّج
نمته إلى عدنان آباؤه الغر
على كل محبوك السراة إذا جرىٰ
مع الريح فات الريح من عدوه حضر
صوافن ينموها وجيه[1] ولاحق
مطهمة دهم ومنقْوَرَّة[2] شُقْر
بمرهفة مأثورة مشرفية
تؤم غِراريها ردينية سمر
غَدَت تحمل الموت الزؤام يحوطها
ويكنفها يمن يشيعه نصر
فحلّت بأرض السود لم يثن عزمها
مهالك صد عن مسالكها الذعر
ورامت بنو حام[3] لِجهل بقدرها
دفاعاً فباتت فوق آنافها العفر
هَمَىٰ فوقها وطف المنايا بحاصب
ظوامي عبال النبل من فيضه جمر

(١) وجيه ولاحق: فرسان عربيان مشهوران.
(٢) مقوَّرة شقر: ضوامر.
(٣) بنو حام: حام بن نوح أبو السودان.

لقد ذكر الحبشان من وقعها بِهِمْ
وقيعة يوم الفيل لو ينفع الذكر
هنيئاً أمير المؤمنين فقد قضىٰ
على كل من ناواك أسيافك البُتْر
لئن أسلمت أرض الجنوب مقادها
فعن كثب تلقي مقاليدها مصر
وتزورُّ زَوْراء العراق فتهتدي
إليكم وأعناق العِدا خُضَّع صُغر
وتخفق بالواد المقدس راية
عليك وتهوي فيه ألوية حُمر
فدم لفتوح يستحث لنيلها
إلى كل قطر منك ذو لَجَبٍ[1] فَجْر

وله فيه حين ظفره بابن أخيه الناصر الثائر عليه وكان ذلك على يد ابنه وولي عهده المأمون:

هو النصر يجنىٰ من ذوابل مُرّانِ
خياشمها يرعفن بالعلق القاني
وبيض صفاح بُتَّرٌ يمنية
ومُقوَرّة شُقر سَوَاهِمُ غُرّانِ
تليهنّ من شُعْثِ الذوائب فتية
نماهم إلى العليا معدُّ بن عدنان

(١) اللجب: ارتفاع أصوات الأبطال.

تسامت بهم غلي المدا وتوقّلُوا
ذُرى النسب الوضاح من قيس عيلان
أهاب بهم والجو بالنفح حالك
يغطي دياجي ليله شهب حران
أغَرُّ رحيب الباع من سرّ هاشم
سليل الملوك الصّيد من آل زيدان
مُرَوّي صوادي السّمر من ثُغُر العِدا
ومطعم سِيدَانَ الفَلا هام أقران
حمىٰ بيضة الملك الأغرّ وقد غدا
من الدم عُرْيانُ الظُّبَى غيرَ عُرْيَان
خطى فوق أشباح المنايا ولم يُبَلْ
وللطعن في اللبات إرْزَامُ إرْنَانِ[1]
لقد جرد المنصور منه مهنّداً
فرى كل ليث من عناد وعدوان
وهدَّ بِهِ هُضْباً رَواسيَ شُمَّخاً
تكاد بها الدنيا تميد بأركان
عَشِيَّتَ ساحَت بالأحاليف للوغى
مهامه عادت بالقَنا غَابَ غيطان
ولاحت عليهم كل زُغْفِ كأنّما
أفيضت على أبدانهم زُرْقُ غدران

---

(١) أرزم الرعد: اشتد صوته.

تـلاقَـوْا دُوَيْـنَ الـوَرْدِ كـلّ مـدجـج
يـهـز إلـيـهـم كـل أسـمـر ظـمـآن

وبـارقـةٍ لـلـمـوت تـحـت سـحـابِـهـا
صـواعـق تـتـلـوهـا مَـوَارِجُ نـيـران

يـقـيـم لـهـا الآلافُ بَـرْقـاً فـأمـطـرت
عليهم بشؤبوب من الموت هَتَّانِ

وكـانـوا يـسـاقـون الـمـنـايـا وأجـفـلـوا
لِوَقْعِ الرُّدَيْنِيَّاتِ إجْفَالَ ظِلْمَانِ

تـوخى بـهـا الـمـأمـون كـل مُـصـمِّـم
وَلَـذْنٍ أصـمّ جُـرِّبَـا مـنـذ أزمـان

رأوا ضـيـغـمـاً يـقـتـاد من كل بـاسـل
مـشوق إلـى الـهـيـجـاء آسَـدَ خـفَّـانِ

وجُـوذِبَ أذْيَـالَ الـعـلا فَـتَـهَـيَّـجَـتْ
حـفـيـظـة وَرَّادِ الـمـهـالـك غَـيْـرَانِ

تَصَلَّى بجمر الحرب حتى كأنما
لَـهُ بـمـنـاخ الـموتِ مـألـوف أوطـان

ألا أيـهـا الـمـنـصـور بـالله أذْعَـنَـتْ
لـسـيـفـك أعـنـاق الـعِـدَا أيَّ إذعـان

كـفـتـك ظُـبـى الـمـأمـون كـل مـلـمَّـة
ومبـهـم خـطـبٍ مُـسْـدِلاً ذَيْـلَ إجـنـان

فـلا زال مـلـثـومـاً ثـرى عـرصـاتـكـم
لأفـواه أمـلاك مُـعَـفَّـرِ تِـيـجـان

ومما قاله بمناسبة المولد النبوي بين يديْ المنصور وكان عظيم الاحتفال به:

يا حبذا ريح أتاك نسيمها
ولديه من أخبارهم مكتومها
ودعاه من سَلْعِ بُرَيق لامع
فانصب من نثر الدموع نظيمها
فاحت به نفحاتِ رملةِ عالجٍ
بشَذا عُرَيْب باللّوى تخييمها
ينبيك عن مسراه فجر باسم
بحديث أشواق شواك أليمها
يا ساكناً سَلْعَاتِ جرعاءِ الحمى
فَرُبى العُذَيْب ظعينها ومقيمها
هل لي إلى تلك المعالم عودة
تشفي شجوناً في حَشَايَ سَمُومها
بأبي عشيات هنالك تزدهي
حسناً ويعبق نشرها وشميمها
بيوانع عينِ سقامٌ جفونها
سُقْمَ الجوانح لا يُبِلُّ سقيمها
غيدِ تشبُّ على القلوب غرامها
حتى يذوب غشاؤها وضميمها

مَن لي بمَن حلّ العذيب ودونه
أعلام نجد سهلها وحزومها
ومهامه لو كُلِّفَتْ بسلوكها
ريح لكلَّ بليلها وسَمومها
هل من خوانِقَ مهريات صُلَّب
أخفافها ولحومها وأديمها
وقفٍ على أسرى السُّرى إرقالها
ودميلها وعنيقها ورسيمها
تَخْدِي بنا في كل مرتٍ صحصح
والآل يخفضها به ويقيمها
تسمُ المزورات المجاهل فاغتدت
بزلالها آكامهن وكومها
حتى تشق الدرب فوق ظهورها
ويسيل في بطن المسيل سَعُومُها
وتنيخ بالبطحا فيحطم كلما
حطمت عليهن النفوس حطيمها
وأصُبُّ في تلك الجمار مدامعاً
تطفي لظى جَحْم الفؤاد جحيمها
وتعرفت عَرفاتها وحرؤها
شوقي وزمزم والصفا ورسومها
وأميط عند المشعرين كليهما
شعري وميط عن القلوب همومها

فأكون ممن قد أجاب ولم يني[1]
لما دعا للبيت إبراهيمها
وأرى بروقاً موشمات مَوهناً
من نحو طَيّبَةٍ لا أزال أشيمها
لاحت فَزُمَّتْ للرحيل رواحل
يحكي وَشِيكَ وَمِيضهنَّ طَهِيمُها
حتى وَرَدْنع بنا العقيق فراقها
بتلاعِ هاتيك الرُّبَى تنويمَها
وتنسمت نفحات تُرْبَةِ من به
طابت أباطح طابة ونسيمها
وتلألأت أنواره فسمت لنا
غُرَرٌ طوت حُجُبَ الضلال نجومها
قِبَبٌ حَوَتْ سر الوجود ومن بِهِ
وجدت فراديس العلا ونعيمها
من تنجلي يوم الجزاء بجاهه
عن أوجه الرسل الكرام غمومها
فخليلها أنحىٰ لأحمد قومه
يبغي الجوار وروحها وكليمها
من أفصح الحجر الأصم يصدقه
وأجابه ذِيبُ الفلاة وريحها

---

(١) كذا ولعلها وما يَني.

وسقى وأطعمها كتائب جيشه
صاعاً فَأُشْبِعَ هِيمها ونهيمها
والبدر منشق لبعثته كما
خَمَدَتْ لفارِسَ نارُها وضريمها
قسماً بساطع نوره أن حُمَّ لي
زَوْرٌ لتربته الكريمة خِيمها
لأُعَفِّرَنَّ جبين وجهي لاثماً
لثرىٰ رسُوم لا يُحَلُّ لثومها
لمعالم جاشت خلال ديارها
آي ملائكة السماء تُسِيمُها
آيات وحي أحكمت وأتى بها
مثوى الأمانة روحها وحميمها
لا زال روح الله يعبق عرفه
بحمَى مدينته المنيع حريمها
وصلاته أبداً يُضاعِفُها له
حتى القيامة لا يزال يديمها
وأدام تأييداً لوارث مجده
أسنى الخلائِفِ فخرِها وعظيمها
(ملك) نَمَتْهُ دوحة نبوية
وسمت به أقيالها وقُرُومُها
قدسية أحسابها وبهاؤها
بَذْرِيَّةٌ أنسابها وأرومها

سهلية رحبية أخلاقها
جِبِلِّيَّة آناتها وحلومها
فِهْرِيَّة قُصَوِيَّةٌ مُرِّيَّةٌ
أسنى مناسب خِنْدِقٍ وحميمها
أقمار مجد في مطالع سؤددٍ
كشفت بِهِمْ بُهْمُ الخطوب وشيمها
أعلام فخر سوّدت هضباتها
علما نِزَارٍ قيسها وتميمها
لم تأبَ سؤدَدَهُم أُبَاة ربيعة
بكر وتغلب ذَهْلُها وجُشومها
فمِن يمن ابن قحطان عشت أذواؤها
أضواء خندف فاستنار بهيمها
نسب تهز به قصي عطفها
تِيهاً وهاشمها كذا مخزومها
وتفرَّع النور المبين محمد
من هاشم أَرِجُ الأصول كريمها
ونمى لها المنصور فهو سليلُه
وإمام أمته فنعم مُسيمُها
وأتى به المهديُّ فارع نبعة
ينبوع عذب المكرمات نديمها
تتفيّأ الأنسام وَارِفَ ظِلّها
وتفيض منهم بالمواهب ديمها

وافى أبو العباس فانتشرت به
أغصانها وظلالها وغيومها
حتى أعاد لنا خلافة هاشم
موطُودَةٌ أكنافها ورسومها
مخضرة عرصاتها قد فَوَّفَتْ
تَلَعَ المنى صمعاؤها وجميعها
لا زال منه للبرية سائس
يقظان في مهد الأمان ينيمها
وغدت معاصيم المواسم تزدهي
بحلى محاسنه ودام يقيمها

ومن ذلك أيضاً هذه القصيدة البليغة:

سقى منحنى الوعساء من رَامَةٍ قَطْرُ
وحيّت معاهِدَ اللّوى الدِّيَم الغُرّ
وجادت ذرى تَيْماء وانهلَّ فوقها
نطاق الغوادي وهي هامية غُزْر
وهز عليها البرق كلَّ مصمم
يُوفَّى به في المَحْلِ للدِّيم النَّذر
فرعياً لها من أربُعٍ هاج ذكرها
بلابل صبٍّ عِيلَ من وجده صبر
إذا اعتاده ذكر العقيق وعالِجٍ
وسَلْعٍ جرى من كل طرفٍ له نهر

ألا هَلْ لمكلوم الجوانح وقفة
دُوَيْنَ النقا حيث الأُكَيْثِبَةُ العُفر
تعلله أنفاس نجدٍ سَرى بها
نسيم صبا باتت يغار لها الزهر
وركب على الأكوار نشوى من الكرى
ترامت بهم بِيدٌ صحاصحة قفر
تشق بهم أغفالُها أرْحَبِيَّةٌ
يناغي بُغَامَ الظَّبْي في فيحها هدر
إذا غرَّد الحادي طَرِبْنَ كأنما
تَلَجْلَجَ منها في ضمير الدجى سِرّ
فيا لَكِ من هُوجٍ ويا ليت فوقها
مُعَنًّى يداني خطوَه الأشم والوزر
يزور النبيّ المصطفى ويزيره
تِلاءً[1] كما يهدي نسيماته الشحر
رسول تجلت من أسرة وجهه
سواطع أنوار بها كمل البدر
وفاضت على الدنيا بجود بنانه
بحار بها أودى على العُسْرِ اليُسْرُ
به أنعش الله البرية بعدما
أحطّ عليها بَرْكَهُ الحادث النكر

(١) التلاء: الذمة والجوار.

إليه الْتجى الرسل الكرام وقد دجت
كروب فجلّى من ميامنه الفجر
هو الذُّخر لا يُرجى سواه وسيلة
إذا لم يكن يوم الجزا غيره ذخر
هو الموئِل الأحْمَى الذي يحتمي به
وقد وضع الميزان وانتشر الحشر
هو العروة الوثقى التي استمسكت بها
يدا كل من ينجو وقد نصب الجسر
شمائل أحلى من حياة معادةٍ
وأذكى من الزهر الذي فَتَّقَ القطر
أتى بالهدى يدعو إليه ولم يزل
ينادي وفي الآذان عن رشدها وقر
فلما الْتَوَتْ عليا لؤَيّ ولم يقم
بها أوداً إلا المقومة السمر
نأته عن ٱلْبَطْحا لؤيُّ بن غالب
وأحشاؤهم تغلي وأعينهم خزر
فيمَّمَ مثوى العزّ طيبته التي
أبى الله إلا أن يكون بها النصر
فَآوَتْهُ إيماناً به وتبوَّأت
له الدار والأعداء أعناقهم صغر
حمته سراة الأزد آساد قَيْلة
لها البيض أنياب وسمر القنا ظفر

فألقت إليه الحُمْس في عقر دارها
مقاليد واستدنى معاطِسَها القسر
وذاق الردى أبطال فِهرٍ وأدركت
أبا جهلها البيض المدرَّية البتر
وأودى بعتبة الظُّبا فتقطَّرت
بنار الأسى هند وذاب لها صخر
فليت قريش العز ألقَتْ مقادها
إليه ولم يَجْمَح بها الخلق الوعر
ويا ليتهم لم يؤثروا حقد ضيغم
ولم تشمت الأعداء في حِلْمها فِهر
فلو تبعوه لم تصب سرواتهم
ولا أنهكت منهم حُنَيْنٌ ولا بدر
همو قطعوا أرحامهم وتحزّبوا
وحاد بهم عن رشدهم عمر والغُمر
همو هجروا الحق المبين وأعرضوا
عناداً وآي الصدق واضحة غرّ
دعا البدرَ فانشق انشقاقاً وسَبَّحَت
براحته صمّ الحصى وانجلى الأمر
كما قد أتت تهتز شماء أيكة
إليه ولم يُخجل أفانينها عثر
كما أفحم اللُّسْنَ المصَاقِع منهم
بآي تَحامى شَأوها النثر والشعر

عـلـيـه سـلام الله مـا آلـم الـحـشـا
إلـيـه حـنـيـن الـنـيـبِ آثـرَهـا الـزجـر
وما أومضت بالغَوْر للركب موهناً
بروق تلظّى في الضلوع لها جمر
وما سَحَبَتْ ذيل الحيا نسمة الصبا
على الروض فانْفَتَّتْ على زهره الدُّر
لِمجدك يا شمس المعالي رفعتها
فلا انثنى عن فضلكم ويدي صفْرُ
إذا ازْدَلَفَ الراجون منكم بصالح
فإنما تأتي عندك الحمد والشكر
ولا بَرِح اليوم الذي طلعت به
علينا علاكم يَزدهي عِطْفُه الكبر
ودامت بأجياد المواسم زينة
على سبطك المنصور ما بقي الدهر
إمام الهدى حاز المعالي وراثه
ووجه الضحى من عابِر الدم محمر
رأى دونها بحر الردى فأجازه
به سابح لكن بساحته الحذر
أهابت به فاهتاج عزاً وغيرة
عليها حفاظ من خلائقه مر
جدير بأن مَتَّتْ بحبل ذمامها
إليه فلم يَطْرُق عُرى عهدها خَفْر

نهوض بأعباء العلى غير كارث
بأنحاء دَهر أو سطا حادث يَعْرُو
برأي يرى في مبهم الخَطْب منهجاً
وقد ضاق في حافاته المسلك الوعر
وأنصار حزب قد تخطَّتْ إلى الوغى
بهم ضُمَّرٌ دُهْم وسابِحة شُقْر
وجودٌ إذا ضَنَّ الغمام تَبَجَّسَتْ
به كفّه وانهلَّ نائله الغمر
إلى شيم مهديَّة فاطمية
يهز بها عِطْفَيْهِ شَيْبَةُ أو عمرو
ومجدٌ بناه الأنبياء مؤَثَّل
له الزَّهر أتراب وشمس الضحى ظِئْرُ
مساع لها فوق السماك مُعَرَّسٌ
لبدر الدجى تلقاءه النظر الشَّزْر
عُلاً تنتمي أعراقها أوَّليَّةُ
تفرَّقَ في خير الأنام لها نجر
يجر بها ذيل الفخار غطارف
نماهم إلى العليا كنانة والنضر
لهم في ذرى البطحاء دار عتيقة
يروح إليها خابط الليل معتر
وتُلْفَى جفا فيها جفان مليئة
سَدِيفاً ومولى كلِّ طائفة جزر

وملبونة مربوطة بإزائها
قباب تُعَالِيهنَّ مركوزة سمر
إذا دعيت للحرب طارت إلى الوغى
وفي كل وكن ( ) صُغْر
وتلمع في أيْمَانهم يَزَمِيَّة
بهن عمود من جميع ( ) سمر
وتطفو عليهم أذْرُعٌ تُبَّعِيَّةٌ
كما فُضَّضَتْ من فوق أصلالها الغدر
لكم يا بني خير الورى كل باذخ
من العزّ أعيا العالمين ولا فخر
مناقب يرويها المعرّف والصفا
وزمزم والبيت المعظم والحجر
أيا خير من تفتر عن مكرماته
إذا شقشق النادي الأحاديث والذكر
تجاوزتُ طرق المادحين من الورى
وفي العجز عن إدراك أوصافك العُذر
ليهنك ما تثني به السور التي
تُرتّل فيكم أيّها البدو والحضر

ويلاحظ أننا ذكرنا كثيراً من نماذج شعره وذلك لسببين اثنين:

الأول: أننا أردنا أن نعوض بذلك ما فاتنا من معلومات عن حياته وماجريات ترجمته، إذ من المؤسف

جداً أن يكون شخص مثل هذا غيرَ معروف الترجمة ومجهول تفاصيل حياته فيما وقفنا عليه من كتب التراجم ومظان التعريف به سواء لدى علماء إقليمه أو الأقاليم الأخرى.

والثاني: أن نعطي للقراء والمهتمين بالأدب العربي بالمغرب مثالاً للشعر الجزل القوي النّسج المتين اللغة الذي لا نشك في أن صاحبه كان يستحضر القاموس المحيط أو الصِّحاح من كتب اللغة كما نعرف عن كثير من علماء إقليمه سوس، وهو الإقليم الأعجمي اللسان والمنفرد بلهجة قومية خاصة غير عربية بالطبع.

فإذا كان يعطينا هذا المثل عن علماء بلده سوس فإن نظيره وهو أبو العباس الجزنائي - من إقليم الريف غير العربي - يعطينا مثالاً آخر في متانة الأيْسر من شعره وجزالة اللفظ شعراً ونثراً كما رأينا في ترجمته من هذه السلسلة، فهما معاً من أعاجيب الأعاجم أو العرب المستعجمين وبهما نُغَبِّر في وجه الأجانب الذين يعتبرون المغرب قطراً غير عربي، ويغتر بكلامهم قليلو المعرفة وناقصو الاطلاع من أبنائنا وبعض باحثينا.

توفي النابغة الهوزالي رحمه الله بمراكش في شعبان سنة ١٠١٢هـ.



عبدالعزيز الفشتالي
(ت ١٠٣٢ هـ)

عصره، كنيته ونسبه، ولادته ونشأته، طلبه للعلم، نبوغه المبكر، ولايته لوزارة القلم، مكانته بين الكتّاب، أخلاقه، حظوته عند المنصور، لم يكن شاعر الدولة، اهتمام المنصور بترقية الشعر، وفاة المنصور وانضمام الفشتالي لابنه زيدان، وفاة الفشتالي، آثاره، وصف تاريخه، كتابته، مقارنة بينه وبين ابن الخطيب، رسالة إخوانية له، نقد الخفاجي للفشتالي والجواب عنه، رسالة أخرى ديوانية، شعره، براعته في الوصف، نبذ من شعره.

شخصية بارزة في تاريخ الأدب المغربي، ليس بها من نكارة لدى الباحثين عن أحوال هذا القطر، سواء كانوا من المشرق، أو من المغرب، ظهرت على حين طال العهد بأمثالها من أعلام الأدب الذين تَضِنُّ الأيام أن تجودَ إلا بالفرد الواحد منهم الفَيْنَة بعد الفَيْنَة. وذلك في زمن المنصور الذهبي، من ملوك السعديّين، بعد أن سلَخت هذه الدولة عقوداً من السنين، وانقرضت دولة بني وطّاس، ومرّ

من قبلها أمد غير قصير، كانت دولة بني مَرين العظمى تقترب فيه من السقوط. ففي هذه المدّة كلها لم ينبغ مَن يَفْري فَريَّ الفشتالي أو ينسِج على مِنْواله.

والسبب في ذلك اضطرابُ الأحوال السياسية في آخر دولة بني مرين وانصرافُ رجالها عن العناية بأمر العلم والأدب، كما كان ذلك شأن أوائلهم، إلى المنافسة في طلب الملك والقتال عليه. وأما بنو وطّاس فقد مرّ وقتُهم في قَمْع الفِتَن الداخلية ومُدافعةِ العدوّ المُغِير على شواطىء البلاد من إسبان وبُرتُغال؛ فلم يتمكنوا من إحياء ذلك المجد الأدبي الذي كان لهذه البلاد في عهد سلَفِهم بني مَرين. وانقضى عهدُهم ولم يتخلف عنه من الآثار الأدبية ما يستحق الذكر، وإن كان القول الشائع أنه «من بعد بني وطّاس ما بَقِي نَاس».

فلما أذِن الله باستقرار الأحوال وعَوْد المياه إلى مجاريها، طلع كوكب السادة السعديّين في أفق السياسة المغربية، ثم آل الأمر إلى ارتقائِهم العرش وحكمِهم المغرب حكمَ العدل والإنصاف؛ فاستتَبَّ الأمن ودبَّت الحياة في سائر الأوساط، ولا سيما الوسط العلمي والأدبي، الذي أظهر الملوك السعديون كاملَ عنايتهم وشديد رغبتهم في بعثه وتجديده. وما إن بلغت الدولةُ أوجَ عظمتها في زمن المنصور الذَّهبي حتى كان قد بلغ درجةً عظيمة من الرُّقِي، خصوصاً وقد اتسعت رُقعَةُ المغرب، فشملت سلطتُه ما بين بلاد النُّوبة والمحيط الأطلسي، وهو ملك ضَخْم وسلطان فَخْم، كما يقول الفشتالي في تاريخه؛ فعادت لهذا القطر

هيبته وسارت في البلاد سمعتُه وقصدته الوفود من كل جهة ومكان. وقد كان مختصاً بشرف الدولة العربيّة غيرَ مُنازَع في ذلك، فكانت قلوب العرب في المشرق والمغرب تهفُو شوقاً إليه للاستظلال بظل ذلك الملك الرفيع، والسلطان المنيع، وهذا هو السرُّ في ترامي أبناء المغرب في ذلك العصر إلى الأقطار المشرقية، حتى لنَجِدُ تراجِمَ أدبائه وعلمائه وسلطانه العظيم مبثوثةً في غير ما ديوان من دواوين الكتّاب المعاصرين من أهل مصر والشام وسائر البلاد العربية، على العكس من ذي قبل، حين لا تعثر إلاّ نادراً على ترجمة مغربي في ديوان مشرقي. وقد كان مترجمُنَا من أشيَرِ رجال المغرب ذكراً وأوفرهم حظاً من اعتناء أولئك الأفاضل فنوّهوا باسمه واعترفوا بفضله وأثنوا على أدبه واهتموا بشأنه اهتماماً كبيراً.

اشتهر المترجم باسمه، كما اشتهر بكنيته أبي فارس، ويكنى أيضاً أبا محمد، وهو ابن كان له أديب، تجد شعره في الصفوة للإفراني. فالكنية الواقعية إذن هي هذه، وأما أبو فارس فإنما هي من باب الكُنَى الاصطلاحية لاسم عبدالعزيز، كقولهم لعبدالرحمٰن أبو زيد، ولأحمد أبو العباس، ولمحمد أبو عبدالله، إذ كان يجوزُ تكنيةُ مَن لم يُولَد له. ووالد المترجم محمد بن إبراهيم، ولا نعرف الآن عن شخصيته شيئاً. ونسبتُه إلى فشتالة، قبيلةٍ بالشمال الغَرْبي لفاس وهي بالفاء، وقد اشتبهت على كثير من الكتّاب الشرقين بقشتالة من بلاد الأندلس، فتجدهم ينعَتُون المترجم بالقشتالي ويذكرونه في حرف القاف كما ترى في قاموس

الأعلام لخير الدين الزركلي وغيره. ومنشَأ ذلك الخطأ المطبعي في الأصول التي ينقلون منها، كنفح الطيب والاستقصا ونحوهما مما تصحَّف فيه اسم الفشتالي بالقشتالي. ثم هي بعدُ من قبائل صَنْهاجَة، القبيلة العظمى من قبائل البربر، الذين اختُلِف في عربيَّتهم، وقيل: إن أصلها من حِمْير وعلى ذلك يُزاد في نسب الفشتالي الصنهاجي، كما تجده عند بعضهم.

ولد أبو فارس على ما في نُزْهَةِ الحادي، سنة بضع وخمسين وتسعماية، وفي دُرَّة الحجال لابن القاضي أنه ولد سنة ٩٥٢ وذلك ببلاد فَشْتالة، على ما يظهر من كثرة ذكره لها ووصفه بأنها بلدُه ووطنُه، كقوله في حق زميله الكاتب ابن علي الفشتالي «صاحبنا وبَلَدِيُّنا» وقوله فيه: «أخي بلداً ووطناً وصاحبي عِشْرة وأخذاً عن مَشْيَخة العلم». ولا غَروَ فإن هذه القبيلة المباركة عُرِفَتْ بكثرة مَن أنجبته من أبناء برَرَة في القديم والحديث. وما زال ينبغ منها العلماء والأدباء الذين ارتقوا إلى المناصب الرفيعة منذ العصر المريني.

ونظن أن مترجمنا بعد أن حفظ القرآن وشدَا طرَفاً من العلم في بلاده يمَّم مدينة العلم (فاس)، على عادة أبناء القبائل في المغرب. وحين دخلها لَزِمَ مجالس علمائها الأعيان، منهم: العلاَّمة المنجور والأستاذ أبو العباس الزموري والقاضي الحميدي؛ كما أنه أخذ عن علماء مراكش الشيخ عبدالواحد الشريف وغيره؛ فإما في أيام الطلب وإما في إبان تعلُّقه بالخدمة، إذ لا شك أنه كان يطمح إلى

المنصب منذ نشأته. فمن الطبيعي أن يزور عاصمة مراكش ويتصل برجالها الأعلام، ولا سيما مَن له منزلة عند السلطان: كالشيخ عبدالواحد المذكور. ومَن يدرِينا أنه لم يُمَثِّلْ مع أحدِهم نفسَ الدَّوْر الذي مثَّلَه معه فيما بعدُ أبو العباس ابن القاضي في الاتصال بالمنصور على ما أشار له هو في تاريخه، مناهل الصفا.

وقد برَعَ أبو فارس في علوم الأدب براعة تامة وامتاز بنبوغه في الكتابة والشعر، حتى لقد استطاع أن يتبوّأ في سِنٍّ مُبكِّرَةٍ جداً مقعدَ وِزارَة القلم في بَلاَط المنصور، ويتخطّى إليه رِقابَ الكُتّاب والمنشئين من أشياخه وأهل السابقة في خدمة الدولة؛ فإنه ـ على ما يظهر ـ لم يتقلَّدْ منصباً إلا في زمن المنصور، لأنه لا يوجد له ذكر بين الكتّاب في زمن غيره، والمدة بين ولادته وولاية المنصور لا تزيد على ثلاثين سنة. ومعنى ذلك أنه في هذه السن وفي ابتداء الخدمة كان ذلك الكاتب المختار أو رئيس الكتّاب في البَلاط المنصوري، في حين أن مَن كتب لوالد المنصور ولأخيه المُعْتصِم ولوزَرَائِهم قبل أبي فارس من مثل محمد بن عيسى وابن عُمَر الشاوي وشيخِه عبدالواحد الشريف، لم يكونوا في زمن المنصور إلا طبقةً ثانية من الكُتّاب.

ومع هذا الشفوف في المنزلة والسرعة في الارتقاء إلى أرفع منصب في الدولة، نجد أن الفشتالي لم يكن مُحَسَّداً من زملائه أو مكروهاً لدى المشتغلين معه من قُرنَائه بل بالعكس كان مُحَبَّباً مخصوصاً منهم بالود الصادق والاعتبار الفائق، الذي يوجبه فضلُه وعلو مرتبته، بل إنه كان مُمدَّحاً

منهم. واقرأ - إن شئت - في «نفح الطيب» و«نزهة الحادي» مدَحه شعراً لِلْمَسْفِيوي أحدِ مشاهير الكتّاب بباب المنصور، كما يقول المقري. واقرأ ولا بدَّ هذه البِطاقَة التي كتبها شيخُ الفشتالي الكاتب سابقاً ومفتي الحضرة المراكشية حينذاك، أبو مالك عبدالواحد الشريف، إلى المنصور. وكان كلَّفه بإنشاء رسالة إلى إسحاق سُكْيَة، صاحبِ مملكة كَاغُو من بلاد السودان، لِتَمَرُّضِ الفشتالي إذ ذاك؛ فلم يدرِ كيف يبتدئها وما يقول في صَدْرها، وها هي ذي البطاقة:

«أيّدكم الله ونصر أعلامكم، إن مخاطبة هذا الرجل الذي هو في مرتبة مماليك الحضرة المولويَّة أمرٌ تَلَعْثَم فيه لساني، ووقف عن خوض لُجَّتِه بَناني؛ لأن النأيَ عن هذه المَحجَّة قد مدَّ بيْني وبينها حِجاباً، وأغلق في وجهي باباً، فلا آمنُ من أن أقتحِمَ الوُقُوع في تفريط أو إفراط، وخيرُ الأمورِ لو عَلِمْتُه الأوساط. لكن لا سبيل إلى معرفته إلا بعد عِلْم الطَّرَفَيْن، والعبد محجوبٌ عن ذلك دون مَيْن؛ فتركت أيّدكم الله الصدرَ لمن هو به مني أقعَد. وتحاميتُ عَقْدَه لمن هو له مني أعْقَد، أبِي فارس عبدالعزيز الذي فاضت عليه أنوارُكم، وأضاءت له سُبُلَ هذا المخبر أقمارُكم، وإلا قَرعتْ هواتفُ لسان الحال، سمعي بقول من قال:

«يا بارِي القوسِ بَرْياً ليس يُحسِنُه

لا تَظلِم القوسَ، أعطِ القوسَ بَاريها...»

فمن ذلك تعرف مَن هو الفشتالي في صناعته ومَن هو في مكانته عند حَمَلَةِ الأقلام، والمشتغلين معه في ديوان

الإنشاء. ونحن نرى أن لأخلاقه وحُسن معاملته تأثيراً كبيراً في هذه المحبوبية والرضى عنه، أو على الأقل في عدم كرهه والكيد له على المعهود في مثل هذه الأوساط، وبين رجالات البلاط، فقد كان هو يتودد لهم ويحترمهم ويتقرب إليهم ويدافع عنهم، ولا يذكرهم إلا بأحب الأسماء والكنى وأنوه الأوصاف والحلى، وفي تاريخه «مناهل الصفا» دلائل كثيرة على ذلك.

ومثل هذه المكانة، أو أفضل، كانت له عند المنصور فكان يُقَدِّرُه تقديراً كبيراً ويُقَدِّمُه على سائر كتّابه، حتى اختصه برياسة ديوان الإنشاء دون غيره من المتقدمين في الخدمة. وقال في حقّه كلمتَه المشهورة:

«إن الفشتالي نفتخر به على ملوك الأرض ونباري لسان الدين ابن الخطيب».

ومما يدلُّ على مزيد حُظْوَتِه عنده ما حكاه هو في تاريخه «مناهل الصفا» وساقه مَساقَ المدح والثناء على أخلاقه وحسن معاملته لخدّامه وربائبِ نعمته، قال: «ومن هذا المعنى أيضاً ما اتفق لمؤلف الكتاب، وهو أن ولداً كان لي صغيراً يُناهِزُ السنتين مَرِض فقَضَى، فوافق أيامَ الديوان، فتأخّرتُ عن الحضور به لِموارَاة الصبي وكتبتُ لحاجب الباب أُعرّفُه، لِيُقِيمَ العذر عند السؤال عنّي، فما كان إلاّ أن خرج أيّده الله لِعَرْضِ المُهِمّات وإبرام الأمور، وتفقّدني، فأخبره حاجبُ الباب بالحادث؛ فتأسف أيّده الله للرُّزْءِ أسفاً كبيراً نبَّه على ما في باطِنه من الشفقة والرحمة. وأطال

أيّده الله في السؤال عن الصبي ومَرضِه، وهل لي ولد غيره؟ وهل هم لأُمٍّ واحدة أو لأُمَّهات؟ وأطنَب أيّده الله في السؤال ووَلِيِّي وصاحبي أبو عبدالله - يعني ابن علي الفشتالي - يُجيبُه عن الحال... ولما بكَّرتُ على العادة للأبواب في الديوان الثاني، ووافق انقباضَه أيّده الله عن البُروز للناس لأجل ألم خفيف ألَمَّ به، شرّفني بالدخول إلى حيث مُستَقَرُّ ذاته بالقصر الذي هو من مُشيَّدات الإمام والده، قدّسه الله، فافتتحني أيّده الله لأول ما اطمأنَّ بي المجلس بين يديه بالتعزية عن الولد الناشيء في نعمته، مظهِراً، أعلى الله أمره، غاية الشفقة والأسف. وانبرى يسأل في الحضور عما سأل عنه في المغيب وأربى واستقصى حتى كدتُ أتلاشى بين يديه خجلاً وسروراً بما شاهدت. وأمّا ما قابلَتْني به عنايتُه، أيّده الله، عند انغماسي في العِلّة المُتطاولة بي لأمَدِ حولين كاملين وشملني من اهتمامه بي وحُنُوه عليّ ومواصلة سؤاله عني وإنفاذه أطباءه، وإرساله إليّ، وَطوْراً لِحاجبِ بابه، ومُتَاحَفَتي بالمُرَبَّيَات والأشرِبَة المُغْتَامَةِ لِدَاره، فشيء لا تنهض العبارة بأعباء شكره، ويُحجِم البيان عن استيفاء قُلّه فضلاً عن كُثرِه... إلخ».

فهذا وحده كافٍ في الدلالة على تقدير المنصور للفشتالي واعتباره إياه وإحلاله منه المحل اللائق به، وذلك شأنه في معرفته بالرجال وتَخيُّرِه لهم ومعاملتهم بما يستحقونه من التنويه والإكرام.

وإلى هنا لم نذكر الفشتالي إلا بكونه كاتبَ الدولة أو وزيرَ القلم أو رئيس الكتّاب، أما مكانته الشعرية فلم نُعرّجْ

عليها؛ لأنه لم يكن يمتاز عن غيره من الشعراء بمَنصِب أو لَقَب أو غير ذلك من مقامات التشريف، ولم يكن هو شاعرَ الدولة الرَّسمي كما يظُنُّ بعضُهم، وإن كثُر ما نظَم فيها بمناسبة وغيرها، بل هذا كان هو النابِغةُ الهَوْزَالي، باعتراف الفشتالي نفسِه وتَلْقِيبه له بذلك اللقب، كلما ذكره، وبألقاب أخرى من معناه، كالصَّدْرِ والوَجِيه. وهذا لا يعني أن الفشتالي كان خالِفاً في نظم الشعر ولا أنه دون الهوزالي في صَوغ القريظ، وإنَّما عظمة الملك وأُبَّهةُ السلطان تقضي أن يكون الذي يشغل منصِبَ الكاتب، غيرَ الذي يشغل منصِبَ الشاعر، ولا زائد، لِيُدَلَّ بذلك على ثَراءِ الدولة وغِنَاها بأرباب الكِفايات وأصحاب المواهب.

على أن هذا الذي كان يحمِلُ هذا اللقب في دولة المنصور لم يكن بالذي هيأته له الظروف المُؤاتِية أو سَاقَته إليه المُصادَفَة؛ وإنما هو فحل من فحول النظم ومَلِكٌ من ملوك الشعر، إذا توَلَّى ذلك المنصب فعن جدارة واستحقاق.

نقول هذا لأن دولة المنصور كانت دولةَ الأدب، وعصرُه عصرَ إحياءٍ لِلُغة العرب، في المغرب، فلم يكن الشُّعْرورُ لِيَتَسامَى إلى رتبة الشاعر، ولا الشاعرُ المُطلَق أو مُطلَقُ الشَّاعر ليطوف بِحَرَمِ تِلْك المشَاعر.

وهاك ما يقوله الفشتالي في هذا الصدد: «... وكان الخلفاء يتساهلون في سماع الغَثّ الذي يلْهَجُ به من ذلك العوام المُتشاعِرُون بما يُلَفِّقون من سفَاسِف القول وسَافِلِ الكلام، فلما جاء الله بدولة الكمال أَنِفَتْ الهمَمُ العالية من

ختم هذه الوليمة النبوية بِهَذَر تلك العِصابة المُدَّعِية، وأدالَتْها بالعِصابَة الأدبيّة من كُتّاب الدولة وشعراء فرسان هذا الميدان وجهابذة هذا الشأن، مع الامتنان بحفظ الجِرَاية لأولئك، وتَمْشِيَة ما كان لهم من الإحسان. اهـ. باختصار.

واستمرّ أبو فارس على حاله من الصدق والإخلاص في خدمة مولاه وهو يُولِيهِ كلَّ تَجِلَّة وإكبار، حتى توفي وهو عنه راض، مما قلَّ أن يتهيَّأ لمن كان في مثل منصبه ومُداخَلتِه لذوي السلطان.

وكانت وفاةُ المنصور بفاس سنة ١٠١٢، وفيها بايع الناس ولده أبا المعالي زَيْدان. ولا شك أن الفشتالي كان حاضراً في كلٍّ من الوفاة والبيعة فاتَّخذه زيدانُ كاتباً كما كان عند والده، لأنّه فضلاً عن عدم وجوده لِمَن يُضاهيه في كفاءته ونُصحه كان مضطراً لأن يُبقِيَ ما كان على ما كان، تأليفاً للناس وجمعاً للقلوب حيث لم تكن بايعته كلُّ مدن المغرب، بل إن أخاه أبا فارس أعلن بالعصيان في مراكش عاصمة الدولة إذ ذاك، فبايعه أهلُها وتلقب بالوَاثِق، مما أدّى إلى نشوب الحرب بينه وبين أخيه زيدان. فمِنْ صُنْع الله للفشتالي أن وُجِدَ بفاس، حتى اتصل بأوّل الخليفتين بَيعةً وأَوْلاهما بالأمر «لعلمِه وأدبه ومُروءَتِه» كما يقول الناصري، وقد عرَف هذا التيْسير، فثَبت على عهد مولاه ولم يَحُلْ عنه إلى الوفاة، على الرغم مما تقلبت على زيدان من الأحوال وما قاساه من الأهوال طوال مدة ولايته.

وتُوفِّيَ الفشتالي في خدمته عام ١٠٣٢، أي: قبل وفاة مخدومه بنحو ٥ سنين، وذلك بمرّاكُش على ما يظهر لنا؛

لأن مخدومه كان بها أثناء ذلك ولم يخرج منها إلا سنة ١٠٣٤.

يقول القادري في النشر في نهاية ترجمته للفشتالي على سبيل الرثاء والتأبين: «وسُبحانَ المنفردِ بالدوام، وإليه الملكُ الدائم الذي لا تُبلِيه السِّنُونَ والأيام، فلم يبقَ لهؤلاء الملوك أثر فيما نعلَم. وكذا الفشتاليون أهلُ هؤلاء المذكورين فلم نعلم الآن من ينتَسِبُ إليهم. أما مُطلَق مَن ينتسب لفشتالة فكثيرون، لأنهم قبيلة معروفة بالمغرب وسبحان مَن أحاط بكل شيءٍ علماً».

ونقول نحن: إن الرزيّة كلَّ الرزيّة ليست في عدم وجود مَن ينتسب لهذا الفرع أو غيره من الفشتاليين؛ ولكن في عدم وجود آثاره القيّمة التي أجهد فيها نفسه وأفنى في جمعها عمره، ثم ذهبت أدراجَ الرياحِ وعَبِثَتْ بها الأيدي فلم يُوقَف لها على خبر، ولاَ عثَر بهاَ مُقْتَصٌ أثر ولله الأمر من قبل ومن بعد.

وآثار أبي فارس هي:

١ ـ مَناهِلُ الصفا في أخبار الملوك الشرفا. يعني السعديّين، قال الإفراني: في مجلدات اشتمل على تاريخ دولة ساداتنا الأشراف من أوّلها إلى وقته، مشتملاً على وقائعها ومغازيها وحوادثها وغير ذلك، وعلى محاسن أبي العباس المنصور مولاي أحمد الذهبي رحمه الله.

٢ ـ مَدَدُ الجيش، ذيَّلَ به جيشَ التوشيح لابن الخطيب، قال المقري: «استهله بقوله: حمداً لمن أَمَدَّ

جَيْشَ محمد بعِتْرَتِه» وأتى فيه بكثير من مُوشَّحات أهل العصر من المغاربة وضمَّنَه من كلام أمير المؤمنين المنصور ما زاده حسناً ورونقاً».

٣ ـ مقدمة في ترتيب ديوان المتنبي على حروف المعجم.

٤ ـ شرح مقصورة المكودي، قال الإفراني في ترجمة أبي القاسم ابن القاضي:

«كان الكاتب البارع أبو فارس عبدالعزيز الفشتالي تصدَّر لإقراء مقصورة المكودي بقصد شرحها. فكان إذا أشكل عليه شيء من جهة الإعراب لا يُفَاوِضُ فيه إلا صاحِبَ الترجمة لِمَزيد تحقيقه وضبطه» وأبو القاسم المذكور كان من أئمة النحو المعدودين وله فيه تآليف. وهذه النبذة تفيدنا أن أبا فارس كان يتصدر للإقراء في بعض الأحيان كما تفيدنا بِتحَرِّيه وتثبُّته اللذين كانا يدفعانه من غير استنكاف ولا كبر لسؤال ابن القاضي عما يُشكل عليه من وجوه الإعراب.

وأقول: إنني كنت أمر بهذه الكلمة فأنتقِدُها في نفسي وأعُدُّها من مبالغاتهم في تقدير الشيوخ وغمْط الأدباء، وذلك لمكان الغرارة وجهل الشبيبة، حتى قُدِّرَ لي أن أكتُب بعض الكلمات على المقصورة المذكورة، بقصد نشرها. فحينئذٍ عرفتُ صدق الخبر، لأنّ في المقصورة أبياتاً يُشكِلُ إعرابُها ويحِقُّ للفشتالي أن يفاوض ابن القاضي فيها، وعلى كل حال فإن الفشتالي كان يجدُ مثلُ ابن القاضي لمُفَاوَضَتِه؛ وأما عبدالله فإنه لم يكن يُفاوِضُ غير نفسه، ولا يعول إلا على نتيجة بحثه ودرسه.

٥ - جملة رسائل وظَهَائر سُلطانية من إنشائه يبلغ عددها ٣٣ وقد نُشرتْ ضِمن مجموعة (رسائل سَعدية) بتحقيقنا.

هذه هي آثار الفشتالي المجموعة موصوفةً بأقلام مَن رآها أو يظن به ذلك. وبقي منها أشعاره الكثيرة، التي قلّ أن وصلنا بقدرها من أشعار غيره من شعراء المغرب الكبار، اللّهمّ إلا أرباب الدواوين المجموعة، وهو لم نعلم أنه جمع ديوانه ولا أن أحداً جمعه من بعده، كما بقي بعض الرسائل النثرية والمنشورات السلطانية المكتوبة بقلمه مما نجده مفرّقاً هنا وهناك. وسننظر في هذه جميعها نظرةً فاحصة تَجْلُو لنا قيمتَها الحقيقية ونعرف منها مقام الفشتالي بين أدباء العربية.

ولكن قبل ذلك نُبْدِي بغاية السرور أننا وقفنا على مختصر الجزء الثاني من «مناهل الصفا» الخاص بحياة المنصور، الذي استوعب ترجمته منذ بويع بذكر سيرته وسياسته وحروبه ومُنشآته، مُخلِّلاً ذلك بفوائد مهمة تاريخية وأدبية استعَنَّا بها كثيراً في ترجمة أبي فارس هذه. وقد كانت مُؤخّرةً عندنا إلى حين التوصل ببعض أجزاء من تاريخه هذا، كان بعض الإخوان وعدنا بها ولكن لم يحصل عليها إلى الآن.

وطريقة هذا المختصر أنه يذكر الوقائع والأحداث المهمة بتوسُّع وتطويل كما ذكرها الفشتالي، بل بلفظه، حتى أنه يبقي ضمائرَ التكلم والأحوالَ الخاصّة بالمؤلف على أصلها. فإذا استطرد المؤلف لِمَا لا مِسَاس له بالموضوع ولا بُدَّ، أو مال إلى الإطناب في شيء إطناباً زائداً عن

المعتاد، اقتصر على المهم من ذلك وحذف الزائد. وربما أخذَ طرفاً من هنا وطرفاً من هناك وجمعها ثم قال: انتهى باختصار وتلفيق. ويقع هذا المختصر في مجلَّدٍ يحتوي على ١٦٠ صفحة من القطع الكبير، وخطه جيد، إلا أنه كثير التصحيف. ونحن بما ذكرنا نعتبر هذا المختصر أثراً من آثار الفشتالي ونضمه إلى مُنْتَجَاتهِ النثريّة القليلة الباقية بأيدينا؛ فندرُسه دراستَها ونَخلُص بالرأي الذي تَهدِّيْنا إليه في كتابته وطريقتِه في الإنشاء.

ونُبادر فنُنوّهُ بالروح العلميَّة التي تسود هذا التاريخ، ولو لم نقرأ منه إلا هذا المختصر، ولكن العنوان دليل الكتاب. فالذي يعرف أنّ الفشتاليّ كان كاتب الدولة المنصورية، يظن أنه إذا تولى تاريخها، يكون عمَلُه من باب الأعمال الرسميّة التي تسودها النزعة السياسية. وهو بذلك لا يخرج عن كونه دعاية مُنظّمة بمعرفة قُطْبٍ من أقطاب السياسية ورئيس من رُؤساء القلم في تلك الدولة. والواقعُ بالعكس من ذلك؛ فهو تاريخ نزيه يرفَعُ من ذكر الشرفاء ويُعلي من قدرهم وينوّه بشخصية المنصور وبفضائله وأعماله العظام ومآتيه الجسام، من غير أن يُجاوزَ دائرة العقل ويخرج عن حد الإمكان في شيءٍ من ذلك، فإذا تحدَّثَ عن عدله لا يقول: إنَّه فاق في ذلك جميع الملوك، وصار ثالثَ العمرَين مثلاً؛ أو عن حلمه لا يقول: إنه لا يُوزَن به حِلْم مَعْن والمأمون، وما يؤثر عنهما ليس إلا نقطةً من بحره؛ أو نحو ذلك مما يمكن أن يقوله مؤرخ رسمي. وخصوصاً في تلك العصور التي كانت المبالغة فيها أهم شروط البليغ.

ولكنه يقول في الأول: «وأما العدل الذي هو قِوَامُ الملك ونِظامُه فقد أُجمِعَ أنه ما رُؤِيَ من ملوك العصر أعدل منه أيّده الله، بحيث يتعرف به الصديق والعدو، ولا يجحده منصف ولا مكابر. وقد صدق في ذلك الخبَر، الخُبر بما شاهدنا من سِيَر غيره من الخلفاء ومَعدلَتِهم في رعاياهم، فلقد كان، أيّده الله، في ذلك صليبَ العود، قَوِيَّ الشكيمة، أشدَّ الخلفاءِ انقياداً للشرع، مُنصِفاً حتى من نفسه فيما يتوجَّه عليه حكمُ الله به. ومن أغرب ما يحكى في ذلك من حُسن مَعدِلته وشرف إنصافه قضيةُ البغل. . . إلخ»، ويقول في الثاني: «فأما الحِلمُ الذي هو ميزان العقل ورأسُ العمل الدينيّ والدنيويّ فهو حُلّة أمير المؤمنين أيّده الله تعالى السابِغَة، وقد أجمع الناس قاطبةً من عهد والده، قدّسه الله، إلى هلم جراً، على أنه أحلم الخلفاء من أهل بيته كافةً، وأكثرُهم إمساكاً لنفسه عند الغضب عن العَجَلة المُوقِعَة في الخَطل عند إقامة الحدود والمُواخذة بالجرائر. ومذهبُه الجميل أيّده الله إدراء الحدود بالشبهات والتِمَاسُ التأويل وقبول المَعذِرة ورَعْي الذِّمام والصفحُ عن كل ما لا يتعلق به حقٌّ، غيرُ حقِّه، ولو كان مثل أُحُد، ما لم يَعُد على المسلمين بضررٍ أو يحدُثْ في الأمر خَرْق؛ فيَثبُ حينئذٍ وثْبةَ الأسد ويهجُم هجوم العدو وتنسِفُ عواصفُ بأسه الديارَ نَسْفاً». ففي كلتا الفَقْرتَيْن مدحٌ وثناء، ولكنهما موزونان بميزان ومُقدّران بِمقدار. ومثل ذلك قد يقوله في المنصور مؤرخ من أهل هذا العصر بينه وبين المنصور ثلاثة قرون وزيادة.

وما دمنا بصَدَد ترجمة الفشتالي وتعريف تاريخه، فلننقل أيضاً هذه الفَذْلكَةَ كدليل آخر على نزاهته وتَحرّيه ما أمكن ودعا الداعي إلى ذلك قال: «وأما شأنُه أيّده الله في التوكُّل على الله وجميل الإخلاص إليه وحسن التواضع لعظمة الله وجلاله والتأدُّب معه، فمقام لا يرتقي إلى ذروته غيرُ الخاصة من عباده؛ فكان أيّده الله على انقياد الدهر لحكمه وامتثال الأيام لأمره، لا تراه إلا مُنتصباً على حال الاستسلام، ومتحامياً بحمى الرُّبوبيَّة أن يسام خائفاً على قَوارير التوكل أن تَتَصدَّع، وعُراه أن تنفصم وتُقطع؛ فتجده لذلك إذا شَمّر لأمر من أمور سلطانه يتوكّأ على عصا المشيئة، وينهض على مِنْسَاة التوكل وعمود الإخلاص، ويتجرّدُ من لباس الدعوى والأنفة؛ ولهذا كان كثيراً ما يخصُّنا أيّده الله معشَرَ كُتّاب الإنشاء ببابه العالي على استعمال المشيئة، والإكثار منها في الكتُب الصادرة عن مقامه الإمامي؛ وربّما عنَّف على تَرْكها عند عَرْض السِّجلاّت بين يديه وتصفُّحِها بحضرته، فيُلحِقُها بيده في محلّها من الكتب مراراً، حرصاً على استمرار عادة التأدُّب مع الله تعالى، وسَلْبِ الإرادة عن نفسه. وتَجِدُه أيّده الله إذا امتُدِح بنظم أو رَفَع إليه الشاعر كلمةً يتدبَّر مَعانِيَها ويَعرضُ على مِحَكِّ اختباره مَبانِيَها، فإذا وجدَ لفظةً ينظُر إليها النقد بطَرْفٍ خَفِيٍّ لخروجها عن سِيَاج التأدُّب مع الله ولو بأقلّ شيءٍ، مما لا يقدح في عقيدةٍ ولا يُحدِثُ وَصْمَةً في الدين، تَورَّع عنها وخرجَ بالبراءة من عُهْدَتِها وأمر بِنَبْذها أو إدالتها بأسهلَ منها. وربما أصلحها على قائلها، إذْ كان زِمَامُ القول بيده

أيّده الله. وهذا أمر لا يجاريه في مضماره فرسان هذا الشأن، حسبما يأتي من كلامه البارع، ما يدفع عنا تهمة الميل ودعوى الإطراء. وقد شهد له بالتوكّل وجميل الإخلاص وصلاح النيّة وطيب السريرة والطويّة فيما وصفناه من أحواله، مَا صحِبَه من النُّجح والاستقامة في أموره، فلا يَلقَى فيها عُسراً ولا يعرفُ صعباً ولا يعتاد شدَّة ولا يفتقد من الله لطفاً».

وبعدُ: فقد نقلنا هذه النُّبَذَ من تاريخ الفشتالي، ونحن نقصد بها إلى فائدتين: الفائدةِ التاريخية والفائدةِ الأدبية. فنُوقِفُ القارىء على أُسلوب الفشتالي المُمْتِع في الترسيل الوَاضِح المَهْيَع، الذي لا اعوجاج فيه المُشْرِق الدِّيبَاجة بألفاظه المُتخَيَّرة، التي تُشبِه في تجانُسِها قَسمَاتِ الوَجْه الجميل. وهو بهذه الخصائص يفوق ـ في نظرنا ـ ترسيلَ ابن الخطيب، الذي يغلِبُ عليه التفكُّك في الجمل والتنافرُ بين الكلمات، حتى لَيُخيَّلُ لقارئه أنه يُراجِعُ كتاب مفردات لغوية، من مثل ألفاظ الكتاب للهمَذاني والألفاظ لابن السِّكيِّت ونحوِهما. ومَن شكَّ في هذا القدر فلْيَرْجِع إلى بعض آثاره التي آثر فيها الترسيل كالإحاطة وغيرها، فحُقَّ للمنصور أن يُبارِيَ بالفشتالي لسانَ الدين لأنَّه حقاً قد امتاز عنه بهذه المزية.

ولكنَّ المزيَّةَ ـ كما يقولون ـ لا تقتضي التفضيل، فلا يُظَنُّ بنا تفضيلُ الفشتالي على ابن الخطيب مطلقاً، فإننا من أبعد الناس عن التفضيل بين الناس. ونحن نَرُدُّ ما ذكرناه في ترسيل ابن الخطيب إلى سبب متى عكسناه كان هو بعينه

سبب تفوق ترسيل الفشتالي عليه، وذلك أن ابن الخطيب بلغ الذِّروةَ العليا في النثر الفني المسجوع، الذي كان خَرْجَ (موضة) زَمانِه، وظاهرٌ أنه صرف إليه كُلِّيتَه حتى تمكن منه وتعلَّق بإتقانه، حتى غلبَ عليه، فكانت إجادتُه فيه زيادةً نقصت من حساب ترسيله. ألاَ ترى ذلك التقاطع بين جمله والاستقلالَ في عبارته، فإنه من تَمَثُّلِ طريقة السجع في ذهنه وسَرِقَة الطبع للتطبُّع. وكذلك يقال في ترسيل الفشتالي، فإنه تَوَسُّعٌ على حساب تَسْجِيعه، إذ لم يكن في هذا ببالغ درجة ابن الخطيب ولا بِمُوفٍ على غايته، وإن كان طبقةَ عصره في ذلك والمثلَ الأعلى لكُتَّابِ ذلك العهد. ودونك طرَفاً من رسالة إخوانيّةٍ كتب بها للحافظ المقري صاحب نفح الطيب وهي من أبلغِ آثارِ قلمه المسجوعة:

يَا نسمةً عطَستْ بِها أنفُ الصَّبا
فتضَمَّخَتْ بِعَبِيرها قُنَنُ الرُّبى
هُبّي على سَاحَاتِ أحْمَدَ واشرحي
شوقي إلى لُقياه شَرْحاً مُطنَبا
وصِفي له بالمُنْحَنَى من أضلُعي
قَلْباً على جَمْر الغَضا مُتقَلِّبا
بانَ الأحِبَّةُ عنه، حيٌّ قد ثَوى
مِنْهُم، وآخَرُ قد نَأى وَتَغَيَّبا
فعَساكَ تُسعِدُ يا زمانُ بقُرْبِهم
فأقُول، أهلاً باللِّقاءِ ومَرْحبا

السيادَةُ التي سوّاها الله من طِينَة الشرف والحسب،

وغرَس دَوْحتَها الطيِّبة بمَعدِن العِلْم الزاكي المحْتِد والنَّسب، سيادةُ العالِم الذي تمشِي تحت علَم فَتواه العلماءُ الأعلام، وتخضَع لفصاحته وبلاغته صَيارِفَةُ النثر والنظام، وحمَلَةُ الأقلام كلَّما خطَّ أو كتب، وإذا استطار بفكره الوقَّاد سواجِعَ السَّجع انثالت عليه من كُلِّ أوْكارها ونسَلَتْ من كُل حَدَب، وحكت بانسجامها السيْلَ والقَطْر في صَبَب، الفَقِيهُ العالِمُ العَلَم، والمُحَصِّل الذي ساجلت العلماءُ لِتُدرِكَ في مجال الإدراك شأْوَه فلَمْ، سيِّدُنا الفقيه الحافظ حامِلَ لواء الفتيا، ومالكَ المملكة في المنقول والمعقول من غير شَرْطٍ ولا ثُنيا، أبو العباس سيدي أحمد بن محمد المقري، أبقاه الله تعالى للعلم يَفْتضُّ أبْكارَه، ويجنِي من رَوْضِهِ اليانِع ثِمارَه. سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته. «كتب المحِبُّ الشاكر عن وُدّ راسخ العِماد، ثابتِ الأوتاد. مُزْهِرِ الأغوار والأنجاد. ولا جديدَ إلا الشوق الذي تَحِنُّ إلى لقاكم رَكائِبُه وترتاح، وتحوم على مَوْرِد الأنس به حَوْمَ ذاتِ الجناح، على العذْب القَراح، جمَع الله تعالى الأرواحَ المؤتلفةَ على بِساط السرور وأسِرَّةِ الهَنا، وأتاحَ للنفوس من حُسن مُحاضَرتِكم قَطْف المُشتهَى وهو غَضُّ الجَنى، وقد اتّصل بالمحب الودود الرَّقِيمُ الذي راقَتْ من سواد النِّقْس وبَياضِ الطِّرْس شِيَاتُه، وأرانا (مُعجِزَ أحمد) فبهرَت آياتُه، وخبا (سِقْط الزَّند) لما أشرقَت من سماء فكركم رَايَاتُه، فأطربَنا بتَغْرِيد طيُور هَمَزاتِه، على أَلِفَاته، وعوَّذْنا بالسَّبْع المَثاني بَناناً أجادت نَثْر زهَراتِه، على صفَحاته»... إلخ. فمهما تُقارِنْ به هذه الرسالة من آثار ابن الخطيب التي على هذا النسق تجدْه

متميزاً عليها عالِيَ النَّفس، لا تنزل منه غيرَ منزلةِ ترسيل ابن الخطيب المُهَلْهَل من ترسيل الفشتالي المنسجم.

ولا بد أن نشير إلى اعتراض الشهاب الخفاجي على الشطر الأوّل من أبيات التصدير، ذلك الاعتراض الذي شُغِلَ كثير من الأدباء بردّه كصاحب خلاصة الأثر والمقري في فتح المتعال وغيرهما، ونص الخفاجي: «أقول استعارة العُطاس للنسيم غير مُستحسَنة، والمعروف في كلام فصحاء العرب عطَس الصبح والفجر. وفي «شرح الفصيح» للمرزوقي يقال: عطس إذا فاجأته صيحة من غير إرادته، ومَصدَرُه العَطْسُ، والعُطاس الاسم فُعَال، كالأدواء». ويقال: أرغم الله مَعطِسَه، أي: أنفَه، وعطس الصبحُ الفجرَ على التشبيه. ولأبي إسحاق الغَزّي في قصيدته المشهورة التي أولها:

أَمِطْ عن الدُّرَرِ الزُّهْرِ اليَواقِيتا
واجْعَلْ لِحَجِّ تلاقينا مَواقِيتا

***

كم من بُكُورٍ إلى إحْراز مَنْقَبة
جعلتُه لِعُطاس الفَجر تَشْمِيتا

ومما رَدَّ به في الخلاصة قولُ صاحب المنتزه وهو صحيح «وقول المرزوقي في شرح الفصيح: وعطس الصبح الفجر على التشبيه، كقول أبي إسحاق الغزي:

كم من بكور إلى إحراز منقبةٍ
جعلته لعطاس الفجر تشميتا

ليس فيه منع لاستعماله على وجه التشبيه في غير الصبح، بل هو أتم في الريح منه في الفجر لقول المذكور: «يقال: عطس، إذا فاجأته صيحة من غير إرادة، وهبوب الريح فجأة كذلك، بخلاف الفجر فإنه يلوح شيئاً فشيئاً».

وهاك طرفاً آخر من رسالة ديوانية كتبها عن مَخدُومه السلطان أحمد المنصور الذهبي إلى الشيخ أبي عبدالله البكري المصري، وكانت بينه وبين السلطان المذكور مودَّة؛ يُعلمُه فيها بإخماد ثَوْرَة ابن أخيه الناصر وعزْمِه على غَزْو الأندلس. وترى فيها تفنُّن الفشتالي في وصف المعركة التي جرَتْ بين جيش السلطان والثَّائر بِطَريقَة السَّجع المعْهودة:

هٰذَا وَإِنَّهُ لَمَّا تَقَرَّرَ لَدَيْنَا مَا وَقَرَ فِي صُدُورِكُم مِنْ صَمِيمِ المَحَبَّةِ، التِي هِيَ فِي القَدِيمِ وَالحَدِيثِ شِعَارُ آلِ الصِّدِّيق، وَمَا لَكُمْ من قَدِيمِ المَتَاتِ لِهَذَا الجَنَابِ النَّبَوِي الشَّرِيف بِصُحْبَةِ ثَانِي اثْنَيْنِ إذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ وَٱلْعَرِيشِ وَالطَّرِيقِ، تَعَيَّنَ أَنْ نُطَالِعَكُم بِهَذَا الصُّنع ٱلْجَمِيل، وَٱلْبُشْرَى الطَّالِعَةِ عَلَى أَبْوَابِنَا ٱلْعَلِيَّةِ بِطَلائِعِ ٱلْفَتْحِ ٱلْوَاضِحِ ٱلْغُرَرِ وَالتَّحْجِيلِ. وَذَلِكُم أنَّ عَدُوَّ الدِّينِ طَاغِيَةَ قَشْتَالَةَ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْيَوْمَ ٱلْعَدوُّ الأَكْبَرُ لِلْإِسْلاَم، وَعَمِيدُ أحْزَابِ الطَّاغُوتِ وَعَبَدَةِ الأَصْنَام، لَمَّا آنسَ منْ جَانِبِ طُورِ عِنَايتِنَا الإِمَامِيَّة نَارَ ٱلْعَزْمِ تَلْتَهِبُ التِهَاباً، وَبَحْرُ الاحْتِفَالِ تَضْطَرِبُ أمْوَاجُهُ الزَّاخِرَةُ بِكُلِّ عَدَد وَعُدَّةٍ اضْطِرَاباً. وَالهِمَمُ كَلِفَتْ بِتَجْدِيدِ الأُسْطُولِ، وَالاسْتِكْثَارِ مِنَ المَرَاكِبِ المُتَكَفِّلَةِ للْغَزْوِ وَٱلْجِهَاد بِقَضَاء كُلِّ دَيْنٍ مَمْطُولٍ، وَعَلِمَ أَنَّ ٱلحَدِيثَ فِي هَذَا الاحْتِفَالِ إِلَيْهِ

يُسَاقُ، وَإِلَى أرْضِهِ بِالْخَسْفِ وَالتَّدْمِيرِ يَهْفُو كُلُّ لِوَاءٍ خَفَّاقٍ، رَامَ مُكَايَدَةَ الإِسْلاَمِ فِي ذَلِكَ، بِما أمَّلَ أنْ يَفُتَّ فِي عَضُدِنا، وَيَفُلَّ مِنْ صَارِمِ عَزْمِنَا المَاضِي وَجِدِّنَا؛ فَأَبْطَلَ الله كَيْدَه، وَخَيَّبَ قَصْدَه. وَذَلِكَ أَنَّهُ عَمَدَ إِلَى نِضْوٍ مِنْ أَبْنَاءِ أخِينا عَبْدِاللّهِ هَازِلِ الحَظِّ كَانَ رُبِّيَ لَدَيْهِ، وَطَوَّحَتْ بِهِ الطَّوَائِحُ مُنْذُ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ عَاماً إِلَيْهِ؛ فَاسْتَنْهَضَ مِنْهُ عَاثِرَ الجَدِّ، كَاهِمَ الحَدِّ، وَرَمَى بِهِ إِلَى مَلِيلَة أَحَدِ ثُغُورِهِ المُصَاقِبَةِ لِغَرْبِ مَمَالِكِنَا الشَّرِيفَةِ، التي إِلَى كَفَالَةِ وَلَدِنَا وَوَلِيِّ عَهْدنَا، وَكافِلِ الأُمَّةِ إِنْ شَاءَ اللّهُ مِنْ بَعْدِنا، الأَمِيرِ الأَجَلِّ الأَثِيرِ الأَفْضَل الأَبَرِّ الأَرْضَى، صَارِمِ الحَزْم المُنْتَضَى، وَحُسَامِ الدِّينِ الأَمْضَى أَبِي عَبْدِالله مُحَمَّد الشَّيْخ المأمُون بِالله، وَصَلَ اللّهُ لِرَايَاتِهِ إِمْدَادَ الإِقْبَال وَالظُّهُور، وَالعَزْم المَخْدُوم لِلأَيَّام وَالدُّهُور. فَصَرَخَ شَيْطَانُ الفِتنة هُنَاكَ فِي آذَانِ مَن اسْتَفَزَّه مِنْ أَوْبَاشِ العَامَّةِ وَالغَوْغَاء، وَمَنْ لاَ يَثْبُتُ لِهُبُوب الأَهْوَاء، وَلاَ يَنْظُرُ نَظَرَ العَاقِلِ إِلى عَوَاقِبِ الأَشْيَاء؛ فَالْتَفَّ عَلَيْهِ مِنْهُم وَمِمَّن قُضِيَ لَهُ مِنْ أَجْنَادِ تِلْكَ النَّاحِيَة بِالشَّقَاء وَمِنْ أهل تِلْكَ الجِبَالِ المَحْسُوبِينَ لِفَرْطِ اسْتِيحَاشِهِم وَغُلُوِّ جَهْلِهِمْ مِنْ جِنْسِ الوُحوش الصَّمَّاء، وَالحَيَوَانَاتِ العَجْمَاء، جُمُوعٌ كَثِيرَةُ العَدَد قَوِيَّةُ العُدَد، ضَعِيفَةُ الجَلَد، مَعوزَةُ الإِعَانَةِ مِنَ اللّهِ والمَدَد، فَلاَحَ لِلْمَخْذُولِ بِذَلِكَ خُلَّبٌ بَارِق، وَخَيَالٌ طَارِقٌ، أكْذَبَهُ أُمْنِيَتَهُ، وَاسْتَاقَ إِلَيْهِ حِمَامَهُ وَمَنِيَّتَهُ، وَسَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُه الزَّحْفَ بِذُؤْبَانِهِ إِلَى بَعْضِ أطْرَافِ المَمَالِكِ التِي تَلِيه، وَمُرَاوَدَةَ فَارِكٍ تَهْجُرُهُ وَتَقْلِيه. وَوَلِيُّ عَهْدِنا أعَزَّهُ الله جَالِسٌ عَلَى بَرَاثِنِهِ مُتَهَيِّئٌ لِلْوَثْبَةِ عَلَيْهِ، آخِذٌ لَهُ بِالمِرْصَادِ بِجُنُودِ تِلْكَ المَمَالِك

التِي إلَيْهِ، مُحلّقٌ فِي ٱلْجَوّ لِلانْقِضَاضِ عَلَى عَقِيرَتِهِ تَحْلِيقَ الأَجْدَل، مشْحُوذُ ٱلْعَزَائِم المَاضِيَةِ التِي تَدُكُّ الطَّوْدَ وَتَفْلِقُ الصَّخْرَ وَالجَنْدَل، وَعِضَابُه الغِضَابُ عَلَى العَدُوّ قَد أَكَلَتْ أغْمَادَها حَنَقاً عَلَيْه، وأَسِنَّتُهُ الزُّرْقُ تَنْظُرُ شَزَراً إلَيْه، وَجُنُودُ اللّهِ الَّتي إلَيْه، مُسْتَشْرِفَةٌ لِلإيجَاف عَلَيْه، مِنْ كُلِّ ثَنِيَّةٍ وَكَدَاء، مَالِئَةٌ مَا بَيْنَ الأَرْضِ وَالسَّمَاء، وَصَوَاعِقُ نَارِهَا قَد صَمَّ الثَّقَلَيْن قَاصِفُ رُعُودِها، عَالِياً فِي غَابِ الوَشِيجِ زَئِيرُ أُسُودِها، مُوقِنَةً مِنَ اللّهِ تَعالَى بِفَتْحٍ قَرِيبٍ وَمَغَانِمَ كَثِيرةٍ يَأْخُذُونَهَا، وَبِشَافَةِ لِلأَشْقِيَاءِ المَارِقِينَ يَسْتَأْصِلُونَهَا، وَلَمْ يَزَلْ أَعَزَّهُ اللّهُ شَاحِذاً لعَزَائِمها، آخِذاً بِشَكَائِمِها، مُتَرَبِّصاً بِالْعَدُوّ إمْلاءً لَهُ إلَى أنْ خَرَجَ مِن نَفَقِهِ، وأذِنَ اللّهُ بِاسْتِيصَالِ شَأفَتِهِ وَرَمَقِه، فَأَقْلَعَ إلَيْه حِينَئِذٍ أعَزَّهُ اللّهُ إقْلاعَ الأَسَدِ إلَى الرِّئْبَال، وَصَمَّمَ نَحْوَهُ فِي عَسَاكِرِه لِيُوثِ ٱلْحَرْبِ وَالنِّزَال، وَضَرَاغِمِ الهِيَاجِ التِي لا تَثْبُتُ لِصَدْمَتِها رَوَاسِي ٱلْجِبَال، مِنْ كُلِّ رَامٍ بِشَرَرٍ، وَذَرِبٍ بِالنَّبْلِ وَالوَتَرِ، وَشَهْمٍ يُقِيمُ هَامَتَه مَقَام المِغْفَر، وَبَطَلٍ يُقْدِمُ إقْدَامَ ٱلْغَضَنفَر.

لاَ يَأْكُلُ السِّرْحَانُ شِلْوَ صَرِيعِهِمْ

مِمَّا عَلَيْه مِنَ القَنَا المُتَكَسِّر

فَكَانَ اللِّقَاءُ بيْنَ ٱلْفَرِيقَيْن فِي يَوْم أغَرَّ مُحَجَّل، وَسَاعَةٍ أَنْزَلَ اللّهُ فِيهَا عَلَى الشَّقِيّ وَجُمُوعِهِ المُذَّكَرَةِ بِالمَحْشَرِ ٱلْعَذَابَ المُعَجَّل، فَمَنَحَ اللّهُ وَلَدَنَا النَّصرَ عَلَيْهِم فَهَزَمَهُم هَزِيمَةً لَمْ يُعْهَدْ مِثْلُها، وَلاَ عُلِمَ فِيمَا سَلَفَ مِنْ الأَعْصَار نَظِيرُهَا وَشَكْلُهَا، وَاسْتَحَرَّ ٱلْقَتْلُ فِي أوْبَاشِ الشَّقِيّ وَأشَابَتِه،

وَاسْتَأْصَلَتْ مَواضِي الشِّفَارِ جَمِيعَ أحْزَابِ الضَّلاَلِ وَعِصَابَتِه، ثُمَّ قُبِضَ عَلَى ٱلْخَائِنِ الْمَخْذُول، وَقَدْ أَسْلَمَتْهُ ٱلْخَوَارِجُ الأَشْقِيَاءُ بَيْنَ النَّابِ وَالظُّفُر، وَفَرُّوا عَنْه فِرَارَ ٱلْعَيْرِ أَمَامَ ٱلْغَضَنْفَر، وَسِيقَ رَأْسُه وَشِلْوُه إلَى هَذِهِ ٱلْحَضْرَةِ فِي يَوْم كَانَ شِفَاءً لِلصُّدُور، وَمُتَنَزَّهاً لِحَمَلَةِ السُّيوف وَرَبَّاتِ ٱلْخُدُور، فَأَحْرَزَ اللّهُ فَخْرَ هَذَا ٱلْفَتْحِ ٱلْعَظِيم، وَالمَنِّ ٱلْجَسِيم، لِوَلَدِنا أعَزَّهُ اللّهُ تَعَالَى فِي خَاصَّة جُيُوشِهِ وَأجْنَادِه، وَنَحْنُ عَلَى سَرِيرِ مُلْكِنَا وَادِعُون مُطْمئِنُّون فَلَم يَحْتَجْ إلَى إنْجَادِهِ بِشَيْءٍ مِن عَسَاكِرِنَا الإِمَامِيَّة وَلاَ إمْدَادِه، وَٱلْحَمْدُ لِلّهِ عَلَى مَا مَنَحَ مِن الظُّهُورِ الَّذِي أسَرَّ الإِسْلاَمَ. وَأسَاءَ طَوَاغِيتَ الشِّرْكِ وَعَبَدَةَ الأَصْنَام. وَاسْتَأْصلَ بِسُيُوفِ ٱلْحَقِّ أبَاطِيلَ أوْلِيَائِهِم الأشْقِيَاء الطَّغَام، وَأَلْصَقَ أُنوفَهُم الأذِلَّةَ بِالرَّغَام. وَعَرَّفْنَاكُم لِتَأْخُذُوا بِحَظِّكُم مِنَ السُّرُور بِهَذِهِ البُشْرى، وَتَبْتَهِجُوا بِهَذِهِ المَسَرَّةِ ٱلْكُبْرَى. وَتَعْلَمُوا مَعَ ذَلِكَ مَا عَلَيْهِ الأَحْوَالُ ٱلْيَوْمَ بِحَوْلِ اللّهِ مِنَ الإِسْدَاء وَالإِلْحَام. وَالإِسْرَاجِ وَالإِلْجَام، وَشَدِّ ٱلْحِزَام وَسَلِّ ٱلْحُسَام. وَالاحْتِفَال بِجُنُودِ الله حُمَاةِ الإِسْلاَمَ. إلَى مُجَازَاةِ عَدُوِّ الدِّين عَلَى سُوءِ فَعْلَتِهِ وَمُقَارَضَتِهِ عَلَى قُبْح أُحْدُوثَتِهِ وَمَكِيدَتِه، التِي أثَارَ بِهَا حَفَائِظَنَا الإِمَامِيَّةَ مِن مَكَامِنِها وَٱسْتَغْضَب أعْضَابَنَا الْهَاشِمِيَّةَ التِي عَرَفَ مَوْقِعَهَا فِي ابْنِ أخْتِهِ طَاغِيَةِ بُرْتُغَال وَأحْزَابِ مِلَّتِهِ وَفَرَاعِنِها. حَتَّى نَمْلأ عَلَيْه بِجُنُودِ الله بَرًّا وَبَحراً. وَنَسْتَنْزِلَهُ مِن صَيَاصِهِ بِحَوْلِ الله قَسْراً وَقَهْراً. وَنَشْفَع مِنه تِلْك الأُولَى إنْ شَاءَ اللّهُ بِهَذِهِ الأُخْرى.

وَهَذِهِ جُنُودُ اللّهِ تُرْزِمُ بِهَذِهِ الآفَاقِ إرْزَامَ السَّحَاب. وَيَضِيقُ بِهَا عَرْضُ الفَلاَ وَوَسِيعُ اليَبَاب. وَتَحْرِقُ عَلَى أَعْدَاءِ اللّهِ وَرَسُوله النَّاب. وَتَضْطَرِمُ فِي أَغْمَادِهَا حَنَقاً عَلَيْهِم سُيُوفُهَا العِضَاب. عَلَى أَنَّهُم وَإِنْ كَثُرَتْ - وَفَّرَهُم اللّهُ - أَعْدَادُهُمْ. واتَّصَلَتْ مِن المَعُونَة الربَّانِيَّة أَمْدَادُهُم. فَلاَ مُعَوَّل لَنَا إلاَّ عَلَى نَصْرِ اللّهِ وَفَضْلِه وَوَعْدِه الصَّادِقِ فِي إظْهَارِ دِينه عَلَى الدِّين كُلِّه. وَعرَّفْنَاكُم لَتمُدُّونَا إنْ شَاءَ اللّهُ بِصَالِحِ أدْعِيَتِكُم، وَتَتَوَجَّهُوا إلَيْهَا فِي خَلَوَاتِكُم وَجَلَوَاتِكُم بِخُلُوصِ ضَمَائِرِكُم وَصَالِحِ نِيَّتِكُمْ، وَتَتَوَخَّوْا بِهَا أوْقَاتَ الإِجَابَة، وَتَلْتَمِسُوها مِنْ كُلِّ ذِي خُشُوعٍ وَإِنَابَة. عَسَى اللّهُ أَنْ يُهَوِّنَ عَلَيْنَا فَتْحَ الأَنْدَلُس. وَتَجْدِيدَ رُسُومِ الإِيمَانِ بِهَا وَأَطْلاَلِه الدُّرُس. وَاسْتِخْلاَصَ أَقْطَارِهَا مِن يَدِ الكُفْرِ وَأَوْطَانِهَا. وَرُجُوعَ كَلِمَةِ الإِسْلاَمِ بِهَا إِلَى شَبَابِهَا وَعُنْفُوَانِها، بِعِزّ مَن لَهُ القُوَّةُ وَالحَوْل وَبِيَدِهِ الخَيْرُ وَالطَّوْل.

ومن هنا ننتقل إلى الكلام على شعر أبي فارس الذي غطى على نثره في الشهرة، وبه ذاع صِيته في الديار المشرقيّة وهو شعر متين الحَوْك جيد الصنع عامرٌ بالمعاني والأفكار، نبيلُ الغَرض يشِفُّ عن سمُوّ نفس صاحبه ودَمَاثة خُلقه، يجول فيه كيف شاء منتقلاً من غرضٍ إلى غرض، مما يدل على تمكُّنه من ناصِيَة القول وإطاعة النظم له كإطاعة النثر، وله في الوصف آياتٌ بينات، إذ تفرّد بالقول في آثار المنصور ومُنشَآتِه في قصر البديع المشهور؛ فكانت قصائده تُنقَش في جُدْرانه وسقُوفه وتُطرَّزُ بها فرُشُه وأروِقتُه.

فمنها ما يُكتَبُ بالذهب والفِضَّة؛ ومنها ما يُرقم رقْم خَمائِل الزَّهر بألوانٍ زاهية مُغايِرَةٍ للمرقوم فيه؛ فتتلاقى عبقريَّةُ الشارع وعبقرية الرسَّام، فتتولد منهما صُورٌ ذهنية مُحَسَّة من أبدع ما يكون، ولا غرابة فهو (البديع) الذي يقول الفشتالي فيه:

هــذا الــبـديـعُ يـعِـزُّ شِـبْـهَ بـدائِـع

أبــدعــتــهُــنَّ بــه فــجــاء غــريــبــا

واقرأ أبدعتُهن بضمير المتكلم، وإن كان الفشتالي يخاطب به المنصور.

واختصاصُ الفشتالي بالقول في مصانع المنصور دون شاعر الدولة يدل على مَزيد تقريبه منه ومُداخَلته له؛ فكان يُطلِعُه على ما يريد إنشاءه ويدعوه للنظم فيه، حسبما يريد، فيبلُغ الغرضَ الذي في نفسه ويُوفِي على الغاية من ذلك. وربما أشار عليه بإبدال لفظة بغيرها لمِلْحَظ ما، فكان هذا مما يحمل الشاعر على تجويد ما يقول وإعادة النظر فيه المرة بعد المرة، فيأتي شعره مُصفّى مهذباً يرتشفه فمُ سمع الآذان، ويَروي بنميرِه العذْب طامئ الأذهان كما يقول الخفاجي.

وللفشتالي في هذه الآثار طريقة هي وإن لم تكن من مُبتكراته، فإنَّه أجادها وجوّدها جداً، وذلك أنه يُعطِي الكلمة للأثر الموصوف ويجعله يباهي بمحاسنه ويفاخر ما يمكن أن يشاركه فيها. وبذلك يُصيب الغرض من مُوافقة هذه الأشعار للمقصود من النقش والرقم ويمكنه أن يقول على لسان تلك

الآثار ما شاء غيرَ متحمّل لِتَبعة مُبالغَة أو غُلو، لأن الافتخار غيرُ الوصف والمفتخِرُ غير الواصِف، وهذه إحدى تلك القصائد يقولها على لسان القبَّة الخمسينية، كبرى قُبَب البديع، وكُتِبَتْ عليها، فيتكلم على لسانها مفاخراً لكواكب السماء وأفلاكِها:

سموتُ فخرَّ البدرُ دونِيَ وانحطّا
وأصبح قُرص الشمس في أُذُني قُرطا
وصُغتُ من الإكليل تاجاً لمفرِقي
ونِيطَت بيَ الجوزاءُ في عنُقي سِمطا
ولاحت بأطواقي الثريا كأنها
نثيرُ جُمان قد تتبَّعتُه لَقْطا
وعدَّيت عن زُهْر النجوم لأنني
جعلتُ على كيوانَ رَحْلِيَ مُنحَطّا

ويذكر النهر الجاري وسطها مُنصَلِتاً إلى بستان القصر:

وأجريتُ من فيض السماحة والندى
خَلِيجاً على نهر المجَرَّة قد غطَّى
عقدتُ عليه الجَسْر للفخر فارتمَتْ
إليه وفُود البَحْر تُغرق ما أنطا
فنَضْنَضَ ما بين الغُروس كأنّه
ـ وقد رقْرقَتْ حصباؤه ـ حيَّةٌ رَقْطا
حوالَيْه من دَوْح الرياض خرائِد
وغِيدٌ تجرُّ من خمَائِلها مِرْطا

إذا أرسلتْ لَدْنَ الفُروع وفتَّحت
جنَى الزهرِ لاحَ في ذوائبها وَخْطا
يُرنِّحها مَرُّ النسيم إذا سرى
كما مالَ نشوانٌ تشرَّبَ اسْفَنْطا
يشُقُّ رياضاً جادها الجُودُ والنَّدى
سواءٌ لديها الغيثُ أسْكَب أم أخطا
وسالَتْ بسلسال اللُّجَيْن حِياضُه
بحاراً غدا عَرْضُ البسيط لها شطا

ويشير إلى إحدى الفوَّارات المرمَريَّة المعدَّة للرقص بالمياه الغزيرة في قلب النهر:

تَطَلَّعُ منها وسطَ وُسْطاه دُمْيَةٌ
هي الشمس لا تَخشى كسوفاً ولا غَمْطا
حكتْ، وحَبابُ الماء في جنَباتها
سنَا البدر حلَّ من نجوم السما وسطا
إذا غازَلَتْها الشمسُ ألقى شعاعُها
على جسمها الفِضّيِّ نهراً بها لُطَّا
توسَّمْتُ فيها من صفاء أديمها
نُقوشاً كأنَّ المسك ينقُطها نقطا

ثم يفاخر على لسانها قُببَ البديع الأخرى:

إذا اتَّسقت بِيضُ القِباب قلادةً
فإني بها في الحُسْن دُرَّتها الوُسطى

ويشير إلى عمَد الرخام المتوَّجة مشبهاً لها بالدُّمى:

تكنَّفُني بِيضُ الدمى فكأنها
عذارى نَضَتْ عنها القلائد والرَّيْطا

قدود ولكنْ زادَها الحسنَ عُرْيُها
وأجْمَلَ في تنعيمها النَّحْتَ والخَرْطا

نمتْ صَعداً تيجانُها فتكسرت
قواريرُ أفلاكِ السماح بها ضَغْطا

ثم يتكلم على القصر كله مفاخراً:

فلْكُنَ به ما طاب لا الأَثْلَ والخَمْطا
وَوَسَّدْن فيه الوَشي لا السِّدْرَ والأَرْطى

تَراهُ من المسك الفتيت مَدبَّرا
إذا مازَجَتْه السحبُ عاد به خَلْطا

وإن باكرَتْهُ نَسمةٌ لسَرَى بها
إلى كل أنفِ عَرْفُ عنبره قُسْطا

أقرَّت له (الزَّهراءُ والخُلْدُ) وانتقَت
أواوينُ كسرى الفُرْس تَغْبِطُه غَبْطا

جنابٌ رِوَاقُ المجد فيه مُطَنَّبٌ
على خير من يُعْزَى لخير الورى سِبْطا

ويتلخص لمدح المنصور فيقول:

إمام يسير الدهرُ تحت لوائه
وتُرسِي سِفَانٌ للعلا حيثما وَطَّى

وفتّـاحُ أقـطـار الـبـلاد بـفَـيْـلَـقٍ
يُفَلِّقُ هاماتِ العدا بالظُّبى خَبطا
تَطَلَّعُ من خُرصانه الشهبُ فانثنت
ذوائبُ أرض الزّنج من ضوئها شُمْطا
كـتـائـبُ نـصـرٍ إن جـرَتْ لِـمُـلِـمَّـة
جرت قبلها الأنظارُ تسبقُها فَرطا
إذا مـا عـقَـدْن رايـةً عـلـويَّـة
جعلن ضَمان الفَتْح في عَقْدها شَرْطا
فـمـا لِـلـسّـمـا تـلـك الأَهِـلَّـةُ إنـمـا
سنابِكُـهـا أبقـتْ مِـثـالاً بـهـا خُـطَّـا
يُطـاوِعُ أيـدي الـمَـغْـلُـواتِ عِـنـانُـهـا
فيقتَادُ من فيض الزمان بها بَسْطا
يـدٌ لأَمـيـر الـمـؤمـنـيـن بِـكـفِّـهـا
زِمامٌ يقودُ الرُّومَ والفُرْسَ والقِبْطا
أدارَ جـداراً لـلـعـلا وسُـرادِقـاً
يَحوطُ جهاتِ الأرض من رَغْبِه حَوْطا

فها أنت ترى هذه القصيدة قد أجادت وصف القبة ونقلت إلينا منها صورة، إن لم تملكنا بتمثيلها لواقع الحال، فإنها تدهشنا بتخييل سحر الشاعرية البليغة. على أن من يطالع وصف هذه القبة وبقيّة القبب والمباني والآثار البديعيّة في تاريخ الفشتالي يستقصِرُ مدى هذه الأشعار ويستشعر أنها أوصاف مقتضبة وإشارات مختصرة، إلى ما كان عليه ذلك

القصر من العظمة والضخامة، والجَفوَة مع الاشتمال على عجائب الصنائع وغرائب الفنون ومُدهشات التدابير. ولولا ضيقُ المجال لنقلنا من ذلك ما يُحيِّرُ العقل ويُقضى منه العجب. إنما مثلُ هذا البحث يحسُن إفراده بالكتابة ولا يجمل أن يذكر أثناء ترجمة يجب قصرها على صاحبها، ولكن لا بدّ أن نلاحظ هنا أن ما ورد في أثناء هذه القصيدة من ذكر الدُّمى والعَذارى والقدود ونحوها، الغالب أن المراد به التشبيه فقط، لأنّا لم نعثر في صفات هذه المصانع على أن صوراً وتماثيل إنسانية كانت في أحدها. نعم كانت هناك تماثيل حيوانيّة وصور فَلكِيَّة، وهذا ما يجب أن تُفسَّر به هذه الأشعار، حتى تقوم الحجة.

ودونك طرفاً من قصيد آخر للفشتالي، وهو ما كُتِب بمَرْمَر أسود في أبيض، بِبَهوِ القُبّة المذكورة، وفيه تصريح بتماثيل الحيوان:

للّه بَهْوٌ عزَّ منه نظير
لما زَهى كالروض وهو نَضِيرُ

رُصِفَت نقوشُ حُلاه رَصْفَ قلائد
قد نَضَّدتها في النُّحورِ الحُورُ

فكأنها والتِّبْرُ سالَ خلالها
وَشْيٌ وفضَّةُ تُربها كافورُ

وإذا تصعَّد نَدُّه نَوْءاً ففي
أنماطه نَوْرٌ به ممطور

شأو القصور قُصورها عن وصفه
سيَّان فيه خَوَرْنَقٌ وسَدِيرُ

فـإذا أجـلـتَ الـلـحـظ فـي جـنَـبـاتِـه
يـرتـدُّ وهـو بـحـسـنـه مـحـسـورُ
وكـأنَّ مَـوْجَ الـبِـرْكَـتَـيْـنِ أمـامـه
حـركـاتُ سَـجْـفٍ صـافـحـتـه دَبُـورُ
صُـفـت بـضـفَّـتـهـا تـمـاثِـلُ فـضـة
مـلَـكَ الـنـفـوسَ بـحـسـنـهـا تـصـويـرُ
فـتُـديـر مـن صـفْـو الـزُّلال مُـعـتَّـقـاً
يـسـري إلـى الأرواح مـنـه سـرورُ
مـا بـيـن آسـاد يـهـيـجُ زئـيـرُهـا
وأسـاوِدٍ يُـسـلـي لـهـن صَـفـيـرُ
ودَحـتْ مـن الأنـهـار أرضَ زُجـاجـة
وأظـلَّـهـا فـلَـكٌ يُـضِـيء مـنـيـرُ
راقـت فـمِـنْ حـصـبـائـهـا وَفَـوَاقِـع
تـطـفـو عـلـيـهـا الـلـؤلـؤ الـمـنـثـورُ
يـا حـسـنـه مـن مَـصْـنَـع فـبـهـاؤه
بـاهـى نـجـومَ الأُفـق وهـي تـنـورُ
وكـأنـمـا زهـرُ الـريـاض بـجَـنْـبـه
حـيـث الـتـفَـتَّ كـواكـبٌ وبـدورُ

ونكتفي بهذا القدر من قصائد الوصف فإنها كثيرة ومن الشهرة بمكان. وللفشتالي أمداح كثيرة في ولي نِعمتِه المنصور الذَّهبي ومَوْلِدِيَّات بارعة كان يُنشِئها إسوة غيره من الشعراء في الاحتفال العظيم الذي كان يصنعه

المنصور، في كل سنة، بالمولد النبوي الشريف. وأعظمها سراوة وأكثرُها سَيْرُورةً النُّونيّة التي افتخر فيها على ابن الخطيب بموالاته لآل البيت وخِذْمتِه لهم، ونُورِدُها هنا مُقتصِرينَ عليها. قال:

هُمُ سلَبُونِي الصبرَ والصَّبْرُ من شَانِي
وهم حَرمُوا من لذَّة ٱلْغَمْض أجْفَاني
وهم أَخْفَرُوا في مُهْجَتي ذِممَ الهوى
فلم يَثْنِهِمْ عن سَفْكها حُبِّيَ الْجَاني
لئن أترعُوا من قهوة البَيْنِ أكؤُسِي
فشوقُهُم أضحى سَمِيري ونَدْماني
وإن غادَرتْني بالعَراءِ حُمُولهم
كفَى أنَّ قلبي جاهدٌ إثْرَ أظعان!
قِف العِيسَ واسْئَل ربْعَهُمْ أيةً مضَوْا
ألِلْجِزْع سَارُوا مُدْلِجينَ أم البَان
وهل باكَرُوا بالسَّفْحِ من جَانِب اللِّوَى
مَلاَعِبَ آرامٍ هُنَاك وغِزْلان
وأين استَقلُّوا هل بِهَضْبِ تِهامَةٍ
أناخُوا المَطايا أم على كُثْب نعمان
وهل سالَ في بطن المَسِيل تَشوُّقاً
نفوسٌ ترامَتْ للعلا قبل جُثْمَان
وإذْ زَجَرُوها بالعَشِيِّ فهل ثنَى
أزِمَّتَها الحادِي إلى شِعْبِ بَوَّان

وهَلْ عرَّسُوا في دَيْر عَبْدُونَ أم سَروْا
يـؤُمُّ بـهـم رُهـبَـانُـهـم دَيْـر نَـجْـران
سَروْا والدُّجَى صِبْغُ المطارِفِ فانثنى
بـأخْـداجِـهِـم شَـتَّـى صِـفـاتٍ وألْـوان
وأدلَـج فـي الأسـحـارِ بـيضُ قِـبَـابِـهـم
فـلُـحْـنَ نُـجـوماً فـي مَـعَـارِجِ كُـثْـبـان
لَك اللّهُ من رَكْب يَرى الأرض خُطوةً
إذا زَمَّــهــا بُــدْنــاً نَــواعِــمَ أبْــدان
أرِحْها مَطايا قد تمَشَّى بها ٱلْهَوَى
تَـمشِّي الْحُمَيَّا في مَفاصِل نَشْوان
وَيمَّمْ بها الوادِي المقَدَّسَ بِالحِمى
بـه الـمـاءُ صَـدًّا والـكَـلاَ نَـبْـتُ سَـعْـدان
وأَهْـدِ حُـلُـولَ الـحِـجْـرِ مـنـه تـحـيـةً
تُـفـاوِحُ عَـرْفـاً ذاكِـيَ الـرَّنْـدِ والـبَـان
لَقَد نَفَحَتْ من شِيحِ يَثْرِب نَفْحةٌ
فهاجَتْ مع الأسْحَارِ شَوْقِي وأشْجَاني
وفَتَّتَ منها الشَّرْقُ في ٱلْغَرْبِ مسْكَةً
سَحَبْتُ بِها في أرض دَارِينَ أرْداني
وأذكَـرنِـي نَـجْـداً وطِـيـبَ عَـرارِه
نَسِيمُ الصَّبَا مِن نَحْوِ طَيْبَةَ حَيّاني
أحِـنُّ إلـى تِـلْـكَ الـمـعَـاهِـد إنَّـهـا
مَـعَـاهِـدُ راحَـاتِـي ورُوحِـي ورَيْـحَـانـي

وأَهْـفُـو مَـعَ الأشْـوَاقِ لِـلْـوَطَـنِ الـذي
به صَحَّ لِي أُنْسِي الْهَنِيُّ وسُلْواني

وأصْـبـو إلـى أعْـلامِ مـكَّـةَ شـائـقـاً
إذا لاحَ بـرقٌ مـن شـمـامِ وثـهـلانِ

أُهَيْلَ الْحِمَى دَيْنِي على الدَّهر زَوْرَةٌ
أحُثُّ بها شَوْقاً لكم عَزْمِيَ الوَاني

متَى يَشْتَفِي جَفْنِي ٱلْقَرِيحُ بِنَظْرَةٍ
يَزُجُّ بها في نُورِكم عَيْنَ إنْساني

وَمَنْ لِي بِأنْ يَدْنُو رِضَاكُم تَعَطُّفاً
وَدَهْـرِيَ عَـنِّـي دائِـمـاً عِـطْـفَـه ثَـان

سَقَى عَهْدَهُم بالْخَيْفِ عَهْدٌ تَمُدُّه
سَـوافِـحُ دَمْـعٍ مِـن شُـؤُونِـي هَـتَّـان

وأنْـعَـم فـي شَـطِّ ٱلْـعَـقِـيـق أرَاكَـةً
بِـأفْـيـائِـهـا ظِـلُّ الـمُـنَـى وَالـهَـوى دَان

وَحَـيًّـا رُبُـوعـاً بَـيْـنَ مَـرْوَةَ وَالـصَّـفـا
تـحِـيَّـةَ مُـشْـتـاقٍ لَـهـا الـدَّهْـرَ حَـيْـرَان

رُبُـوعـاً بِـهـا تَـتْـلُـو الـمـلائِـكَـةُ الـعُـلاَ
أَفَـانِـيـنَ وَحْـيٍ بَـيْـنَ ذِكْـرٍ وَقُـرْآن

وأوَّلُ أرْضٍ بَـاكَـرَتْ عَـرَصَـاتِـهـا
وطَـرَّزَتِ ٱلْـبَـطْـحَـا سَـحَـائِـبُ إيـمـان

وعَـرَّس فِـيـهَـا لـلْـنُّـبُـوءَةِ مَـوْكِـبٌ
هُوَ البحْرُ طامٍ فوقَ هَضْبٍ وغِيطَان

وَأدَّى بِـهـا الـرُّوحُ الأمِـيـنُ رِسـالـةً

أفـادَتْ بـهـا الـبُـشْـرى مَـدَائِـحُ عُـنْـوَان

هُنالِكَ فَضَّ خَتْمَها أشْرفُ الورى

وفـخْـرُ نِـزَارٍ مـن مَـعَـدِّ بْـنِ عَـدْنـان

مُـحَـمَّـدُ خَيـرُ ٱلْـعَـالَـمِـيـن بِـأسْـرهـا

وسَيِّدُ أهلِ الأرض والإِنْـسِ وَٱلْـجَـان

ومَن بشَّرتْ بالبَعْثِ من قبل كَوْنِه

نَـوَامِـسُ كُـهَّـانٍ وَأخْـبَـارُ رُهْـبَـان

وحِكْمَةُ هذا الكَون لَوْلاَهُ ما سَمَتْ

سَـمَـاءٌ ولا غـاضَـتْ طَـوافِـحُ طُـوفـان

ولاَ زُخْـرِفَـتْ من جَـنَّـةِ الـخُـلْـد أرْبُعٌ

تُـسَـبِّـحُ فـيـهـا أُدْمُ حُـورٍ وَوِلْـدَان

ولاَ طَلعتْ شَمْسُ الهدى غِبَّ دُجْيةٍ

تَـجَـهَّـمَ مـن دَيْـجُـورِهـا لَـيْـلُ كُـفْـران

ولاَ لَـحِـقَـتْ بـالـمُـذْنِـبـيـن شَـفـاعـةٌ

يـذُودُ بـهـا عـنـهـم زَبـانِـيَ نِـيـران

لـه مُـعْـجِـزَاتٌ أخْـرَسَـتْ كُـلَّ جـاحـد

وسلَّت على المُرْتَاب صارِمَ بُرهـان

له انْشَقَّ قُرْصُ ٱلْبَدْرِ شِقَّيْن وارتوى

بـمـاءٍ هَـمَـى مِـن كَـفِّـه كـلُّ ظـمْـآن

وأُنـطِـقَـت ٱلأَوْثَـانُ نُـطْـقـاً تَـبَـرَّأتْ

إلـى الله فـيـه مـن زخـارِف مَـيَّـان

دعا سَرْحةَ عجْمَا فَلَبَّتْ وَأقْبَلَتْ
تَجُرُّ ذُيولَ الزَّهْر ما بين أفنان
وضاءت قصورُ الشَّام من نُورِه الذي
علا كُلَّ أُفْقٍ نازِحِ ٱلقُطْر أوْ دَان
وقد بَهَّجَ الأنْواء بدعوته التي
كسَتْ أوْجُهَ ٱلغَبراء بَهْجَةَ نَيْسان
وإنَّ كتابَ الله أعظَمُ آيةٍ
بها افْتَضَح المُرتابُ وابْتَأس الشَّاني
وعَدَّى على شَأوِ ٱلبَلِيغ بَيَانُه
فَهَيْهاتَ منه سَجْع قُسٍّ وَسَحْبان
نبيُّ الهدى مَن أطلَع الحقَّ أنْجُماً
مَحَى نُورُها أسْدافَ إفْكٍ وبُهتان
بِعزَّتِها ذَلَّ الأكاسِرَةُ الأُلى
هم سَلَبُوا تِيجَانها آلَ سَاسَان
وأحْرَزَ للدين الحَنِيفِيِّ بِالظُّبا
تُراثَ الملُوكِ الصَّيْدِ مِن عَهْد يُونَان
ونَقَّع مِن سُمْرِ ٱلقَنَا السُّمِّ قَيْصراً
فَجَرَّعه منْها مُجَاجَةَ ثُعْبان
وَأضْحَتْ رُبُوع الكفر والشركِ بَلْقعاً
يُنَاغِي الصَّدَا فيهنَّ هاتِفُ شَيْطَان
وأصْبَحَتِ السَّمْحا تَرُوقُ نَضَارَةً
ووجهُ الهدى بادِي الصَّباحة لِلرَّاني

أيا خَيْر أهلِ الأرض بَيْتاً وَمَحْتَداً
وأكرَمَ كُلّ ٱلخلقِ عُجْمٍ وَعُرْبان
فمَن لِلْقَوافِي أن تُحِيطَ بِوَصْفِكُم
ولَو سَاجَلَتْ سَبْقاً مَدائِحَ حَسَّان
إليْكَ بَعَثْنَاها أمانِيَ أجْدَبَتْ
لِتُسْقى بِمُزْنٍ من أياديك هَتَّان
أجِرْنِي إذا أبدى الحسابُ جرائِمي
وَأثْقَلَت الأوْزَارُ كفَّةَ مِيزَانِي
فأنت الذي لولا وسَائِلُ عِزِّه
لما فُتِحَتْ أبوابُ عَفْوٍ وغُفْرانِ
عليك سلامُ اللّهِ ما هبَّتِ الصَّبا
وماستْ على كُثبانِها مُلْك قُضْبان
وحَمَّلَ في جَيْبِ ٱلجَنُوب تَحِيَّةً
يَفُوح بِمَسْراها شَذَا كُلّ تِرْبان
إلى ٱلعُمَرَيْن صاحِبَيْك كِلَيْهِما
وتلْوِهِما في الفصل صِهْرِك عُثمان
وحَيَّا عَلِيًّا عَرْفُها وأرِيجُها
ووَالَى على سِبْطَيْك أوفَرَ رِضْوان
إليكَ رسولَ الله صَمَّمْتُ عَزْمَةً
إذا أزْمَعتْ فَالشَّحْطُ وَٱلْقُرب سِيَّانِ
وخاطبتُ مني ٱلقلبَ وهو مُقَلَّبٌ
على جَمْرَةِ الأشوَاقِ فيكَ فَلبَّاني

فيا ليتَ شِعْرِي هل أزُمُّ قَلائِصِي
إليك بِدَاراً أو أقَلْقِلُ كيرَاني
وأطوِي أدِيمَ الأرْض نحوَك رَاجِلاً
نَواجِي المَهَارَى في صَحاصِح قِيعَان
يُرَنِّحُها فَرْطُ ٱلْحَنينِ إلى الحِمى
إذا غرَّد الحادي بهِنَّ وَغَنَّاني
وهل تَمْحُوَنْ عنِّي خطايا اقترفتُها
خُطًى لِيَ في تلك البقاع وأوْطان
وماذا عسَى يَثْنِي عِنانِي وإنَّ لي
بِآلِك جاهاً صَهْوَةَ ٱلْعِزِّ أمْطاني
إذا صدَّ عن زُوَّارِك ٱلْبأْسُ وٱلْغِنَى
فَجُودُ ابنِك المنصور أحمدَ أغْنَاني
عمادي الذِي أوْطَا السِّمَاكَيْن أخْمَصِي
وأوْفَى على السَّبْعِ الطِّبَاقِ فَأدْناني
مُتَوِّجُ أملاكِ الزَّمان وإن سَطا
أحَلَّ سُيوفاً في مَعاقِد تِيجَان
وقارِي أُسودِ الغابِ بالصَّيدِ مِثْلِها
إذا اضطربَ ٱلْخَطِّيُّ مِن فَوْق جُذْران
هِزَبْرٌ إذا زارَ البلادَ زَئِيرُهُ
تَضَاءَلُ في أخْيَاسِها أسْدُ خَفَّان
وإن أطلعَتْ غيمَ القَتَام جُيُوشُه
وَأرْزَم في مَرْكومِه رَعْدُ نِيرَان

صَبَبْنَ على أرضِ ٱلعدَاةِ صَوَاعِقاً
أسَلْنَ عليهم بَحْرَ خَسْف ورَجْفان

كَتائِبُ لو يَعْلُونَ رَضوى لَصَدَّعَتْ
صفَاه الجيَادُ ٱلجُرْدُ تَعْدُو بِعِقْبان

عَديدُ الحَصى من كل أرْوَع مُعْلَم
وَكلِّ كَمِيٍّ بالرُّدَيْنِيِّ طَعَّان

إذا جنَّ ليلُ الحربِ عنهم طُلى العِدَا
هَدَتْهُم إلى أوْداجِها شُهْبُ خُرْصان

مِن اللأْءِ جَرَّعْنَ العدا غُصَصَ الرَّدى
وَعَفَّرْنَ في وَجْه الثَّرى وَجْهَ بسْتَان[1]

وفَتَّحْنَ أقطَارَ البِلاَد فَأصْبَحَتْ
تُؤدِّي ٱلخَرَاجَ الجَزْلَ أملاَكُ سُودَان

إمامُ ٱلبَرَايا مِن عَليٍّ نِجَارُه
وَمِن عِتْرَةٍ سَادوا الوَرى آلِ زَيْدان

دعائِمُ إيمَانٍ وأرْكانُ سُؤْدَدٍ
ذَوُو هِمَم قد عرَّستْ فَوق كِيوَان

همُ ٱلعَلَوِيُّونَ الذين وجُوهُهُمْ
بُدورٌ إذا ما احْلَوْلَكَتْ شُهْبُ أزمان

وهُمْ أهْلُ بَيْتٍ شَيَّدَ اللّهُ مُلْكَه
على هَضْبةِ ٱلعَلْيَاء ثَابِتَ أرْكان

(١) تعريب سبستيان وهو ملك البرتغال المقتول في وقعة وادي المخازن التي كان الممدوح بطلها.

وفيهم أتَى الذكرُ الحكيمُ وصرَّحتْ

بفضلِهِم آياتُ ذِكْرٍ وقُرآن

فرُوعُ ابْنِ عَمِّ المُصْطفى ووَصِيِّه

فناهِيكَ من فَخْرَيْن قُرْبَى وقُرْبان

وَدَوْحةُ مَجْدٍ مُعْشِبِ الرَّوض بِالْعُلا

يُجادُ بأنْواءِ الرِّسالَة رَيَّان

بِمَجْدهمُ الأعلى الصَّريح تشَرَّفت

مَعَدٌّ على العَرْباءِ عادٍ وقَحْطان

أولئك فخري إن فَخَرتُ على الوَرَى

ونافس بَيْتِي في الوَلاَ بَيْتَ سَلْمَان[1]

إذا اقتسَمَ المُدَّاحُ فضلَ فَخارِهم

فقِسْمِيَ بالمنصور ظَاهِرُ رُجْحان

إمامٌ له في جَبْهَةِ الدَّهر مَيْسَمٌ

ومن عِزِّه في مَفْرِق المُلْك تَاجان

سما فَوقَ هامَاتِ النُّجوم بِهِمَّةٍ

يحُومُ بها فوق السماوات نَسْران

وأطلع في أُفْقِ المَعالي خِلافَةً

عليها وِشاحٌ من عُلاَه وسِمْطان

(١) يعني به بيت لسان الدين ابن الخطيب السلماني، وقد مرّ أن ممدوحه المنصور كان يباري به لسان الدين، فحيّا الله دولة يعتز ملوكها وأدباؤها بعضهم ببعض.

إذا مـا احـتَبَى فـوق الأسِـرَّة وارْتَـدى
علـى كـبرياءِ الـمُـلـك نَـخْـوةَ سُـلْـطـان
تـوسَّـمْـتَ لُـقْـمـانَ الـحِـجَـا وهـو نـاطِـقٌ
وشاهدت كِسْرى العَدْلِ في صَدْرِ إيوَان
وإن هــزَّه حُــرُّ الــثـنــاء تــدفَّــقــتْ
أنــامِــلُــه عُــرْفــاً تَــدَفــقَ خُــلْــجَــان
أيـا نـاظِـرَ الإسـلام شِـمْ بـارِقَ الـمُـنَـى
وبـاكِـرْ لِـرَوْضٍ فـي ذُرَا الـمـجـد فـيْـنـان
قضَى اللّهُ في عَلْياك أن تَملِكَ الدُّنا
وَتَـفْـتَـحَـهَـا مـا بـيـنَ سُـوسٍ وَسُـودَان
وأنَّـك تـطـوِي الأرضَ غَـيْـرَ مُـدافَـعٍ
فـمِـنْ أرض سُـودانٍ إلـى أرض بَـغْـدان
وتــمــلأهــا عــدْلاً يــرفُّ لِــوَاؤُه
علـى الـهَـرَمَـيْـن أو عـلـى رَأس غُـمْـدان
فـكـم هَـنَّـأت أرضَ الـعِـراق بـك الـعُـلا
وَزُفَّـتْ بـك الـبُـشـرَى لأطْـرَاف عَـمَّـان
فـلـو شَـارفَـتْ شـرقَ الـبـلاد سـيُـوفُـكـم
أتـاك اسْـتـلابـاً تـاجُ كِـسْـرى وخَـاقَـان
ولـو نُـشِـر الأمـلاكُ دهـرَكَ أصـبـحـت
عِـيـالاً عـلـى عَـلْـيَـاك أبـنـاءُ مَـرْوان
وشـايَـعـك الـسَّـفَّـاحُ يـقـتـادُ طـائـعـاً
بِـرَايَـتِـهِ الـسَّـوْدَاءِ أهْـلَ خُـرَاسـان

فما المجدُ إلاَّ ما رفَعتَ سِماكَه
على عَمَد السُمْرِ الطوَال وَمُرّان
وَهاتِيكَ أبْكارُ ٱلْقَوافِي جَلَوْتُها
تُغازِلُهنَّ ٱلحُورُ فِي دَارِ رِضْوان
أتَتْك أميرَ المؤمنين كأنها
لَطَائِمُ مِسْكٍ أو خمائِلُ بُسْتان
تعاظَمْنَ حُسْناً أن يُقَال شبيهُها
فَرَائِدُ دُرٍّ أوْ قَلائِدُ عِقْيان
فَلا زِلْتَ للدُّنيا تَحُوطُ جِهَاتِها
وَلِلدِّين تَحْميه بِمُلكِ سُلَيْمان
ولا زِلْتَ بِالنَّصْرِ العزِيز مُؤَزَّراً
تُقادُ لك الأملاكُ في زِيِّ عُبْدان

وله هذان البيتان في النسيب المجرّد، أوردهما له الخفاجي مقتصراً عليهما:

حين أزمعتُ عند خوف البِعَادِ
وعَدَتْني من الفِرَاق العوادي
قال صحبي وقد أطلتُ ٱلْتِفَاتي
أيُّ شيءٍ تركتَ قلتُ فؤادي

ونقتصر نحن على هذا القدر من الحديث عن هذا الأديب الفذ مؤملين أن نكون عرّفنا القارئ، ولو على سبيل الإجمال، بعبقريته الخالدة وأن نكون فتحنا الباب لغيرنا في البحث عن آثاره وكتابة ترجمته المستوفاة.

ابن زاكور
(ت ١١٢٠ هـ)

تاريخ ولادته مستخرجاً من تاريخ وفاته وظروف حياته، نبوغه المبكر، رحلاته وهل كانت لطلب العلم، العوامل التي اشتركت في تكوين شخصيته، أثر اليوسي فيه، معارفه، كتبه، نثره، ديوان شعره، شعره من الوجهة الفنية، نبذة من شعره.

أبو عبدالله محمد بن قاسم بن محمد بن عبدالواحد بن أحمد بن زَاكور الفاسي من عائلة ابن زاكور الشهيرة بفاس: العالم الأديب الواعية، مفخرة عصره وجِيله، ونابغة بَلَدِه وقَبِيلِه. كان كاتباً، وشاعراً، ولغوياً، ومؤلفاً. من أشهر مؤلفي الآداب العربية من المغاربة.

ولد ونشأ بفاس وأخذ عن جلّة مشايخها: كالشيخ محمد بن عبدالقادر الفاسي وأحمد ابن الحاج، والقاضي بَرْدُلَة وأبي عبدالله القُسَنْطِيني، وعبدالسلام القادري وغيرهم، كما أخذ بها عن أبي علي اليُوسِي لما قدم إليها سنة ١٠٩٥. وبمراكش عن أبي العباس العَطّار فقد أخذ عنه أرجوزة ابن سينا في الطب، وقد استدعى منه قراءتها بأبيات يقول في أولها:

مـاذا عـلـى الـعـطّـار لـو أهـدى لـنـا
نـفـحـاتِـه مـن جُـونَـة الأرْجُـوزهْ

وأخذ بتطوان عن رجُلها الفذّ وإمامها الأوحد الشيخ علي بَركة، وبالجزائر عن مفتيها الشيخ محمد بن سعيد قَدّورَة، والشيخ عمر المانجلاَتي ومحمد بن عبدالمؤمن الشريف وغيرهم.

أما الشيخ الإمام عبدالقادر الفاسي فلم يأخذ عنه إلا تبرُّكاً بالجلوس بين يديه في زمن الصبا، خلافاً لما في «السلوة» كما أخبر هو بذلك عن نفسه في رحلته حيث قال: «فأما البحر الزاخر والطود الشامخ الراسي الحبر الماهر: مولانا أبو محمد سيدي عبدالقادر الفاسي رضي الله عنه وأرضاه، وبدِيَم المغفرة والرضوان أسقاه، فقد كنت أجلس لسماعه متبركاً، أيام كنت في أحلام الصبا مُرتَبِكاً، وأُزور مجلسه العالي، وجيد نجابتي غير حالي، وأتيمّنُ في ابتداء المتون، بخط يده الميمون، أسأل الله عليه من شآبيب الرحمة كلّ هَتُون».

قلت: ومن هنا يمكن أن نأخذ بالتقريب تاريخ ولادته المجهولة، فإن الشيخ عبدالقادر الفاسي توفي سنة ١٠٩١. فلو فرضنا أنه كان حينذاك في سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة وهي السنُ المقدّرة لنجباء الأولاد الذين يفرغون من حفظ القرآن ويعكفون على قراءة المتون العلمية، لكانت ولادته فيما بعد ١٠٧٥، وربما يؤكد ذلك أنه توفي مُخْتَضَراً في ٢٠ محرم فاتح عام ١١٢٠ كما ينبىء عن ذلك قول ابن الطيب العَلَمي في رثائه:

قضى أخو النظم والنثر ابنُ زاكورٍ
فجاد دمعي بمنظوم ومنثور
وامتدّ شوقي بمقصُور الحياةِ له
ما حيلتي بين ممدود ومقصور

فقوله: «بمقصور الحياة له» دليل على اخْتِضَاره واختطاف المنون له في عنفوان العمر وابتداره؛ أي حوالى الأربعين أو بعدها بقليل.

ومع ذلك فإنه ما مرّت سنتان على تاريخ وفاة الإمام عبدالقادر الفاسي الذي وصف نفسَه فيه بعطل نجابته، حتى كان ينظم الشعر الجيد في مدح أشياخه ويتحين فرص الخَتمات المتوالية للمتون العلمية فينشد على عادة نجباء التلاميذ قصائد بليغة في الموضوع يعلن بها عن نفسه قبلما يشيد بمدح شيوخه.

فعُرِفَت من ذلك الحين مكانتُه في الأدب، واشتهر نبوغه في نظم الشعر وصار ممن يشار إليهم بالبنان، بل إن في ديوانه ما يدل على تفتُّق قريحته بالنظم قبل هذا الإبان، وهي قطعة شعر قالها بتطوان في سنة ١٠٩٢ يستعير بها كتاباً من أحد الأدباء.

وقد رأيتَ أنه رحل إلى تطوان والجزائر ومراكش وأخذ عمن كان بها من أهل العلم، ونَزيد أن رِحلاتِه إلى تطوان كانت قد تكررت! وإن كانت هذه التي تاريخها في عام ١٠٩٢ هي أولاها على ما نظن ثم رحل إليها في سنة ١٠٩٣، ومنها إلى الجزائر في السنة نفسها ويقي بها إلى

رجب من عام ١٠٩٤. ثم عاد إلى تطوان، وكان بها في شعبان من العام نفسه ولا ندري هل رحل إليها بعد ذلك أم لا؟ لكن الذي لا بد من التنبيه عليه هو أن رِحْلاتِه هذه لم يكن الباعث الأول عليها هو طلبُ العلم كما قد يُظَن! بل إن هناك باعثاً عائلياً هو الذي كان يُزعِجُ أديبَنا للترحُّل في سنِّه المبكرة إلى تطوان كما يدل عليه قوله في الرحلة بعد رجوعه من الجزائر: «ولما حلَلتُ بتطوان حرسها الله وساعدني جَدّي[1]. وزرت ضريح جدّي. وشِمْتُ غُرَر أهل ودي. انقشعت سحائبُ وَجْدي. وأنفقتُ فيها من الشعر على قدر وُجْدي...».

فمن هذه الفقرة نعلم أنه كان له بتطوان روابط عائلية ووشائج أهلية هي التي كانت تبعثه حيناً بعد حين على تعهد تلك الديار وقصد ذلك المزار. كما لا يبعد أن يكون الأمر كذلك بالنسبة إلى الجزائر أيضاً، لأن أولاد ابن زاكور كانوا بها موجودين، وهو نفسه لا يذكر أنه خرج بقصد طلب العلم وإنما يقول: «لما حلّ ببلد كذا أخذ عن فلان وفلان... إلخ».

وعلى كل حال فقد حُبّب إليه بعد ذلك الارتحال وسهل عليه الانتقال فصار جَوّابَة أقطار، وحِلْفَ أسفار، وأكثر ما كان يشد الرحلة لزيارة أضرحة الصالحين ومشاهد العارفين: كالشيخ عبدالسلام بن مَشِيش وأبي يَعْزَى ومولاي إدريس الأكبر وكثيرين سواهم ممن يطول ذكرهم وله فيهم القصائد المحبّرة والمدائح المنوّرة.

---

(١) أي: حظي.

ومما لا شك فيه أن هذه الرحلات كانت من العوامل القوية في تكوين شخصية المترجم وتكميل نفسه بما لم يكن له لو اقتصر على الأخذ ببلده ولزم كِسْرَ بيته كما كان يفعل كثير من طلبة العلم في زمنه.

ففضلاً عن أنه درس علوماً جمة على كثير من الأئمة فإنه قد وسع دائرة مداركه بمشاهداته في تلك البلاد وماجَريَاته. فهذه أوصافُه «لكِيتان» من المنازه البديعة بتطوان وأوصافُه للبحر وأمواجه في حالتَيْ هدوئه وهياجه، وكذا وصفه لهجوم «العدو الكافر على بلاد الجزائر». وكل ما صدر عنه من شعر حزين في الشوق والحنين إلى تلك المعاهد وإخوانِه بها إنما ذلك من بركات هذه الحركات ونتائجها المحسوسات.

ثم هناك عامل آخر أثّر جداً في توجيهه الأدبي وطبعه بهذا الطابع القوي الذي ظهر به كعالم لغوي يشرح ديوان الحماسة ولامية العرب ويفسر غريبهما وإشاراتهما وأمثالهما إلى غير ذلك من نظم عدة قصائد على مذاهب شعراء البادية ومَن نحا نحوهم من علماء اللغة مرتكباً فيها أنواع الغريب، وملتزماً للقوافي الصعبة كالثاء المثلثة والذال المعجمة ونحوهما، هذا العامل هو اتصاله بأبي علي اليُوسي وأخذُه عنه وكَرْعُه من حياض معارفه الأدبية واللغوية ونسْجُه على منواله في شعره فإن أبا علي اليوسي كان رَيّانَ من علوم اللغة والأدب ناسلاً إلى فنونهما من كل حَدَب. وقد أتى في شعره من ذلك بكل غريب، وامتلأ ديوانه بما فيه مُتعَةٌ لِلّغويّ والأديب! وحسبُك بدايته: «عرّج بمنعرج الهضاب»

فإنها قد احتوت على فنون كثيرة من علم الأدب فضلاً عن اللغة وقد كان أديبنا مُعْجَباً بها وقرأها على ناظمها ومَدَحها غير ما مرة فكيف لا يتأثر بأسلوبها ويَضرِبُ على نَغْمة صاحبها وهو يملأ من نفسه مكاناً عظيماً وينزل من قلبه منزلاً كريماً؟!

بل لقد أشار هو نفسه إلى هذا التأثر العظيم باليوسي وأنه فتح عينه على ما لم يكن رآه من قبل؛ إذ غايةُ أمره أنه درس على مشايخَ أعظمُ ما يحسنون هو علم الفقه وما منه بسبيل ومَن كان له منهم نظر في علم البلاغة والعربية فحسبُه الإدراك والفهم لا التذوُّق والتأثُّر إلى حدّ الإنتاج والإنشاء كما هو الحال في أبي علي اليوسي! وفَرْقٌ عظيمٌ بين من يفهم الشيء ويُزاوِلهُ ومن يفهمه فقط! هذا في نفسه فأحْرَى في غيره.

وهاكَ قولَ ابن زاكور في اليوسي:

«وأمّا حَبْر الأخبار، وجُهَيْنَة الأخبار، وزَيْنُ القُرَى والأمصار، العديم النظير في سائر الأقطار، مَن أسْعدَ بمطالع أنواره كواكِبَ نُحُوسي، مولانا أبو علي سيدي الحسن بن مسعود اليُوسي أطال الله مدته، وحمَى من نوائب الحَدَثانِ حَوْزَته، فقد ورد في شوال سنة خمس وتسعين لهذه الحضرة وأعارها بقدومه ابتهاجاً ونَضْرَة. . . فأقام بها إماماً، ونَقَع بها لكل ظمآنَ إلى وِرْدِهِ أُوَاماً، وأعاد نيرانَ الجوانح على الأفئدة برداً وسلاماً، فلازمتُ منه بحراً زاخراً، ونظمت من نفيس فوائده لؤلؤاً فاخراً».

ومن قوله فيه نظماً، والشاهد في الأبيات الأخيرة:

عــلاّمــةُ الــدنــيــا بــلا ثُنْيَا ومِضْقَعُها المسدّد
بـحـرُ الـشـريـعـةِ والـحـقـيـقةِ فاض فيضاً ليس يعهد
بـيـن الـهـدى ومـقـالـه وفـعَـالِـه حِـلْـفٌ مـؤكّـد
مَـن ضـلّ عـن أعـلامـه لـم يـدرِ كـيـف الله يُـعْـبَـد
لا يـعْـرُجـنّ إلـى الـعُـلا مَـن لـم يـلُـذْ منه بـمِضْعَـد
لا يـفـتـحـنْ بـابَ الـمُـنـى مَـن لـم يـفـز مـنـه بـمِـقْـلَـد
يـفـري ديـاجـيـرَ الـهـوَى مَـن يـقـتـدي مـنـه بـفَـرْقـد
ويُـجـارُ مِـن جَـمْـع الـعـدا مَـن يـنـتـمـي مـنـه لِـمُـفْـرَد

إلى آخرها وهي طويلة وغيرها كثير مما صرّح فيه بأنه مدين له بعلمه وعمله وأنه من مشكاةِ نُورِه اقتبس، ونَفحاتِ هديه انتعش بعدما انتكس.

ثم بنظرةٍ واحدةٍ في ديوانَيْهما ومقارنة بسيطة بين شعريهما يقف الباحث على هذا التأثُر المنوّه به. كما أن مَن درس شعر ابن الطيّب العَلَمي وصاحبه الشّرْقي يرى كثيراً من أثر ابن زاكور فيهما. بل إن سفَر الأول إلى تطوان والثاني إلى الجزائر ربما كان من الاقتداء بابن زاكور وتتبُّع خُطاه.

إنما ابن الطيب العَلَمي وصاحبُه الشرقي لم ينتهجا نهج ابن زاكور في ارتكاب الغريب ولم يشذّا عن ارتكاب مألوف الناس في وقتهما كما أن ابن زاكور نفسه لم يكن يغلو في ذلك المذهب غُلوّ اليوسي وإنما له فيه آثار معدودة لعله كان يريد أن يدلّ بها على تضلُّعه من متن اللغة أكثرَ

مما يريدها لذاتها وبعد ذلك يبقى شعرُه في غالبه رقيقاً سهلاً مُصفّى مهذباً كما ستراه.

وجملةُ القول: إن ابن زاكور درس الفقه والحديث والأصول والتاريخ والأدب، وبرّزَ في علوم الأدب أكثر من غيرها وشارك في تكوينه عواملُ مختلفة، وكان ذا مَلَكَة مطبوعة على الإنتاج وحافظة قوية حتى حكى القادري في «النشر» أنه كان يحفظ عدة تآليف منها: تلخيص المفتاح، وجمْعُ الجوامع، ومُختصرُ خليل، وكافيةُ ابن مالك وتسهيلُهُ، وكافية ابن الحاجب، وكل هذا مما مكّن له أن يملأ في عالم الأدب فراغاً لم يجد من يشغَلُه منذ وفاة عبدالعزيز الفَشْتالي، ويؤدي رسالتَه في إحياء علوم العربية التي بقيت مهملة منذ قرن كامل.

وقد عرف له معاصروه ذلك ولم يجحدوه فضله، فمما حلاّه به الشيخ علي بَرَكة في إجازته له قوله: «مَن شبّ به زمانُ الأدب بعد الهَرَم، وهبّ به أوانُ المجد والحسب وقد أشفَى على العَدَم الذي رَكَض في مضامير البلاغة صافِنات جياده، وعقّد شُذور البراعة على لَبّاتِ عصره وأجْيَادِه: الجِهبِذ الأريب المِصْقَع الأديب الثّقِف اللّقِن المُتفَنّن. المشارك المُتْقِن الفقيه النبيه الزنكي الوجيه ذو الفضل المعروف غير المنكور أبو عبدالله سيدي محمد بن قاسم بن محمد بن عبدالواحد بن زاكور... إلخ».

ولشيخه أبي علي اليوسي هذان البيتان يمدحه ويصف اجتهاده في طلب العلم:

لله دَرّ ابــن زاكــور وشِــيــمَــتُــه
وما أعَدّ لجمع العلم من عُدَد
تلقاه في كل ما وقتٍ ولو سفراً
في جَيْبِه آلةُ الكتاب أو بِيَد

ويعجبني تحليةُ ابن الطيب العَلَمي له في «الأنيس المطرب» وقد اشتملتِ على أوصاف شتى وتضمنت الإشارةَ إلى كل العلوم التي كان لابن زاكور فيها مقام معلوم وهي:

«وحيد البلاغة، وفريد الصياغة، الذي أرسخ في أرض الفصاحة أقدامه، وأكثرَ وثُوبَه على حل المشكلات وإقدامه، فتصرف في الإنشاء، وعطَف إنشاءه على الإخبار، وإخبارَه على الإنشاء، وقارع الرجال في ميادين الارتجال، وثار في مُعترك الجدال ما شاء وجال، فهو الذي باسمه في الأوان هُتِف، وهو الذي يعرف في كل العلوم من أين أكْلُ الكتف، جلس للإقراء في شبابه فأتى بيت التدريس من بابه، وتأسّى في الصلاح بأربابه، ولم يَضْبُ لرُبُوبه[1] ولا ربابِه، فتكلم في المذهب، وذهب في التحقيق كلّ مذهب، وأوجز ما شاء وأسهب، وطاول في الفروع ابنَ قاسم وأشْهَب. وخاضَ في المعقول، فبهر العُقول، ووقف التحقيق عند ما يقول، وتصدّر في السّيرة، وأحكم القرآن وتفسيره، وحرّر حِرْزَ أمانيه وتيسيره[2]، وتجافى في الرّواية من الغِواية، وألّفَ في الأصول ما لم يزل به بين الأقران يصول، وقامَ

(١) جمع رب بالضم وهو الشراب.
(٢) حرز الأماني والتيسير مصنفان في علم القراءات.

للعَرُوض، بالنوافل والفُروض، ففكّ منه الدوائر، وسَلِمَ فيه من الدّوائر، واختار المُراقَبَة فَبرىء من المُعاقَبَة».

وقد اشتمل هذا الكلام على نقطتين اثنتين نعتقد أن لهما أيضاً دخلاً كبيراً في تكييف حياته الأدبية وهما: اشتغاله بالتدريس ونُسكُه فمما لا شك فيه أن التدريس يحول دون قضاء كثير من المآرب لاستغراقه من وقت المدرس أكثرَه، والأدب خصوصاً الشعر يقتضي الفراغ والانقطاع إليه بالكلية، وقد شكا ابنُ زاكور في إحدى قصائده من ذلك معتذراً عن عدم إجادته القول بتبلبل فكره لاشتغاله بالتدريس.

وأما النسك والنزوع إلى حياة الزهد والورع فمما لا حاجة إلى بيان أثره في صدّ الأديب عن بلوغ أغراضه وإمساكه عن كثير من الأعمال والأقوال وإعراضه، وتجد هذا الأمر واضحاً بَيّناً في ديوان ابن زاكور حيث يكثر من قوله في قصائد الغزل والنسيب: «وقال على لسان من يليق به ذلك» أو «وقال في زمن صباه» ونحو ذلك بل صرح في خطبة الديوان بأن ما وقع له من ذلك إنما هو محضُ صناعةٍ ومحاكاة لأغراض الأدباء محذّراً قارئه أن يظن به شراً ويحمل بسوء الاعتقاد فيه وِزْراً قال:

«وكثيراً ما أكني فيه بالمُدام والرّاح عن الطرب والارتياح وما يَرِدُ على القلب من الأفراح، فلا يتوهّمْ مَن لم يدرِ الصباح من المِصْباح وقد رأى ما عارَضْنا به شُقّ جَيْب الليل عن نحر الصباح. أن المراد التي تطلع في بُرْج الأقداح ويدور بها فَلَكُ الرّاح فيُلْزِمُني بمقتضى بَلادته وأنا

البريء أقبحَ جُناح! وإنما فعلت ما هو بينَ الأفاضل مطروق، ويعمرُ به عند أرباب المحاسن أيّ سُوق وهل نحن إلا مثلُ مَن كان قبلنا نحسّنُ ببديعهم كلامَنا، ونطرّز باستعارتهم قولَنا، ألا وليشهد عليّ ذو الأسماء الحُسْنى أنني كلما وصفتُ حُسْناً أو شبّبتُ في الظاهر بما يَفْنى فالمقصود إن لم يصلح كونُه المعنى إنما هو التدريب والارتياض وتصرُّف الفكر في سائر الأغراض»... إلخ.

فهذان أمران لولاهما لكان يجيئنا من ابن زاكور نابغة فذ يصح أن نطاول به الأندلس وما أنتجت، والعراقَ وما أنجبت، ولكن مع ذلك فقد خلّف ابنُ زاكور ديواناً ضخماً وعوض ما تحرج عنه من موضوعات التشبيب والخمْريّات بموشّحاته العبقريات وبدائعه الربيعيات والزهريات.

وإلى هنا نقف الكلام عن ابن زاكور وحياته وننصرف إلى النظر في آثاره ومنتجاته وقد مرّ بنا أنه بدأ حياته الأولية كشاعر في سن مبكرة جداً بين الثالثة عشرة والخامسة عشرة على سبيل التقريب، والقصائد التي قالها في هذا الطور من حياته لا تقل عن نظائرها التي قالها فيما بعد نُضْجه وتفتُّح ذهنه، وكما أن له في هذا الطور بعضَ الأقوال البدائية التي تدل على التكلُّف، وتظهر فيها آثار الصنعة، فكذلك نجد مثلها في آخر ما قال بل هو أكثر منها سذاجةً وأعظم منها هَلْهَلَةً مما لا تفسير له عندنا إلا الوَلُوع بإثبات جميع ما صدر عن الشاعر في جده وهزله وحالة جمع فكره وتفرقه ضنًّا بآثاره على الضياع وعدم إساءَة ظن بالإحسان كما هو الواجب! حتى لا يخلُص له إلا ما سَلِمَ من النزاع.

وهذا الغلط قد استحوذ على كثير من أدبائنا فلذلك جاءت دواوينهم مشحونة بالغث والسمين، ولم يمكن الفرق بين الرخيص منها والثمين، وبسبب ذلك قد عَمِلْنا: (المنتخب من شعر ابن زاكور) ومثله من شعر اليوسي.

أما فيما عدا هذه الأقوال التي يجب الإغضاء عنها فإن له آثاراً بديعة حقاً تنمّ عن رقة طبعه وسلامة ذوقه في الصغر والكبر وفي أول عهده بالنظم وآخره.

وكما أنه بكّر بقول الشعر الجيد، وبكّر بكتابة النثر الجيد كما يدل عليه تأليفه لرحلته سنة ١٠٩٤، وهي من النثر المسجوع القوي كما ستراه حينما نأتي ببعض الفقرات منها.

وعليه، فهو منذ نعومة أظفاره قد اشتغل بالكتابة والشعر ولذلك خلّف هذه المجموعة القيّمة من التآليف مع قِصَر عمره، وتخلف العصر بأبنائه عن دَرْك تلك الغايات وتأخره.

وهذا تعداد ما أبقاه من التآليف بأسمائها الأدبية:

١ ـ عُنوان النّفاسة في شرح ديوان الحماسة (ثلاثة أسفار) «مخطوط».

٢ ـ مِقْباسُ الفوائد في شرح ما خَفِيَ من القلائد، (قلائد الفتح ابن خاقان). «مخطوط».

٣ ـ الصنيع البديع في شرح الحِليّة ذاتِ البديع (يعني بديعية الصفِيّ الحلي).

٤ ـ الجودُ بالموجود في شرح المقصور والممدود: لابن مالك.

٥ ـ تفريج الكُرَب عن قلوب أهل الأدب في معرفة لامية العرب. «مطبوع».

٦ ـ النفحَات الأرَجيّة والنَسمات البَنَفْسجيّة بنشر ما راق من مقاصد الخزرجية «مخطوط».

٧ ـ المُغرب المُبِين عما تضمّنه الأنيسُ المطرب وروضةُ النسرين. جمع به بين كتابَيْ القرطاس، وروضة النسرين باختصار كبير. «مطبوع».

٨ ـ الاستشفاء من الألم في التلذذ بذكر صاحب العَلَم. يعني الشيخ عبدالسلام بن مشيش، ذكر فيه ما له من بنين وإخوة وأعمام وبين مَحالّ الشرفاء وأهلها.

٩ ـ أنفع الوسائل في أبلغ الخطب وأبدع الرسائل.

١٠ ـ الروض الأرِيض في بديع التوشيح ومُنتقَى القريض. وهو ديوانه. «مخطوط».

١١ ـ الروضة الجَنِيّة في ضبط السنة الشمسية. (وهي أرجوزة في التوقيت وحساب أيام العام).

١٢ ـ مِعْراجُ الوصول إلى سماوات الأصول. «نظم فيه الورقات لإمام الحرمين».

١٣ ـ الحُسام المسلول في قصر المفعول على الفاعل والفاعل على المفعول.

١٤ ـ الدرة المكْنُوزَة في تذييل الأرجوزة. «يعني أرجوزة ابن سينا في الطب».

١٥ ـ الحُلّة السّيَراء في حديث البراء.

١٦ ـ نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان. (وهي رحلته المطبوعة).

* * *

ثم إن نثر ابن زاكور نوعان: نثر عِلْمي وهو هذا الذي نجِده في كتبه العلمية كشرح القلائد، ولامية العرب، والمعرب المبين، وهو مُرسَل بين فصيح الألفاظ يدل على تمكنه من ناصية اللغة وقدرته على التعبير عن أغراضه بكل دقة.

ونثر فني وهو ما نجده في رحلته ورسائله وخطبه، ويمتاز بالسجع المُواتي من غير تكلف، وتفننه في مطالعه ومقاطعه، وعدم تقيُّده فيه بالنماذج الرسمية والكليشيات المحفوظة التي بسببها صار كثير من الكُتّاب ليس لهم أسلوب خاص بهم، وإنما هي عبارات مشتركة وتراث موزّع فيما بينهم جميعاً فتجد كتاباتهم متشابهة وقريباً بعضُها من بعض لنقل اللاحق منهم عن السابق ونهج الآخر على منوال الأول.

فهذه خطبة شرح لامية العرب! انظر كيف بدأها وتخلص لذكر مقصوده من غير أن يبالي بما اصطلح عليه أهل عصره من التقاليد كالشهادة وتأسيس الصلاة على النبيّ ﷺ وقَصْر الانتقال على عبارة: و«بعد» أو «أما بعد»

فضلاً عما أتى به بينهما من التعليل والتفريع، والاعتراض الذي يدل على أنه كان يكتب كما يريد هو لا كما يراد منه! وهي: «الحمد لله الذي جعل معرفة كلام العرب من أقوى دواعي الطرب، من أجل أنه أحلى من الضّرب، على أن الناس في ذوقه متفاوِتو الرُّتَب وصلّى الله على سيدنا محمد أفصح العرب قاطِبَةً، فإنه بلغ مشَارِقَ البيان ومَغارِبَه، واسترقّ سارِيَه وساربه، فلو اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل فصاحته ما استطاعوا، ولو ظاهرَ صاحبٌ منهم صاحِبَه، وكانت نسبةُ كلامهم من كلامه، عليه صلاةُ الله وعلى آله وأزكى سلامه، وإن قادُوا البيانَ بخِطامه، وأفرغُوا السحر في قالَب نثرِه ونِظامِه، نسبةَ التّرب من التبر والخشَب من الذهَب، ومع هذا فإنّ معرفةَ كلامهم وسيلة إلى معرفة كلامه، وما أُنزِلَ عليه وسبب، فكانت لذلك من أعظم الوسائل وأجلّ القُرَب، فلذلك شرحتُ لاميةَ العرب، وأجلستُها من البيان على مُرتَقب وكشفتُ عن وجهها الذي طالما قد انتقَب... إلخ».

ويطول بنا الكلام لو نقلنا من مقاله كل ما يليق بهذا المقام، فلنقتصر على هذا، ولنأتِ بقطعة بديعة من نثره الفني في وصف مُتنزه «كِيتان بتطوان» نقلاً عن رحلته، قال:

«وهذه الكِيتان: من أجمل المواضع وأفضل المتنزهات والمصانِع، تطّرِدُ خلالَ رياضه أنهار، تجري في الصباح بذَائِب اللّجَيْن وفي الأصيل برائق النّضار، وتسجَعُ بأدواحه أطيار، لا تدانيها نغماتُ الأوتار، فقد اعتدال هواؤه، واشتمل بالابتهاج بَهاؤه، تُغَصّ الزهراء بطلاوةِ مرآه، وتودّ

الزّهرَةُ لو ترتدي بمُلاءة حُلاه، وتحسد جمالَه النضير، وطِرازه المُرونق، محاسنُ السّدِير، وبدائعُ الخَوَرْنَق ترتاح النفوس في بساتينه، وتحيا الأرواح بشم رياحينه، إن حلَ مَن أنحلَه الوجدُ برياه، صاح من حينه: واطَرَباه! وأسلاه تسلسل غُذرانه، وتغريدُ وُرْشانه عمن قطف لبّه بأجفانه، ومزّق قلبه بهجرانه».

فهذه القطعة إنما هي شعر منثور قد اشتملت على تشبيهات واستعارات وخيال جميل، ونظام أصيل، مما لا يكون إلا في الشعر، وهكذا غالب نثره الفني.

وأما شعره فقد جمعه ابن زاكور كلّه في ديوان سمّاه: «الروض الأريض في بديع التوشيح ومُنْتقَى القريض» ورتّبه على حروف المُعْجَم في الأول ثم صار يُلْحِق به ما جدّ له من النظم على غير ترتيب، وقد انحصرت أغراضه الشعرية في المديح وهو أكثر ما في الديوان والرّبيعيات، والزّهريات، والغَزَل والرثاء والنصائح والإخوانيات، ولكن هذه الأغراض الثلاثة الأخيرة فيه قليلة ثم المديح أكثرُه من الأولياء والصالحين من رجال المغرب بالخصوص، فقلّ أن ترى ذا ضريح معروف أو مقام مشهور إلا وله فيه مدح أو توسل به، وهو في ذلك متأثر بشيخه اليوسي وبوسطه المعلوم بهذه النزعة، وله كذلك مدائح في النبيّ ﷺ ومشايخه الكُثار وفي السلطان أيضاً.

ونظمُه كما يُنْبىء عنه اسم ديوانه على نوعين: موشح وخلافُه من بحور الشعر المعروفة، وأما تَوْشيحاته فإنها جميعاً من الإبداع بمكان لا سيما وموضوعاتها في الغالب

من هذه الموضوعات التي تهز المشاعر وتمس أوتار القلوب، وأعني وصف الطبيعة في مظاهرها الجميلة من الربيع والرياض، أو الغزل والنسيب.

وأما شعره الآخر: فمنه ما هو جميل رقيق سلْس عذْب ينم عن ذوق أدبي سليم وملَكَة مُبْدِعة مطبوعة، ومنه ما هو شعر بدائي ساذَج شبيه بالأنظام العِلْمية وقريب من أشعار الفقهاء. ونحن لا نعتبر هذا من قوله ولا نقيم له وزناً عند النقد إنما شعره عندنا القسم الأول وهو الذي يُحكَم به على شاعريته! ضرورة أن لكل شاعر سقَطاً، ولكل قائل غلطاً، ولكن مَن هذّب شعره وتخيّره فقد أخذ بالحَزْم، ومَن تَركه على أصله وفيه ما احْتُفِلَ له ومما أُلقي على عواهنه في ساعة من الساعات التي يكون قَلْعُ ضرس الشاعر فيها أهونَ عليه من قول بيت شعر! كما يقول الفرزدق، فقد ضيّع الحزم وإن اعتذر بما اعتذر كصاحبنا ابن زاكور الذي يحمل دَرَك ذلك على غَرارة الشباب، ويظن أن حُسْن الحَسن يُغطّي على قُبْح القبيح فلذلك رتب الديوان على حروف المعجم، وهذا قوله:

«وبعد؛ فهذا ما أثمر به روضُ القريحة إبّانَ الشباب، وألقَحه نسيمُ الفكر إذ ذاك من خطإ أو صواب، رتبتُه على حروف المعجم ليشتمل المُبْهَم بفضل رداء المُعْلَم، ويتعَزّزَ الضعيف بجوار ذي العز المنيف».

وعلى كل حال فإنا عند الحكم على شعره إنما نظرنا في الديوان كما لو كان منتخباً مهذّباً صادرين في ذلك عن قول بشّار بن بُرْد فيما حدّث عنه العباسُ ابن الفضل قال:

«كان بشار يجلس في مسجد الرّصافة فيحضره ناس كثير ويحدثهم وينشدهم شعره، فاندسست في الناس ليلة ثم صحت به يا أبا مُعاذ! مَن الذي يقول:

أُحِبّ الخاتَمَ الأحمر من حبّ مَوالِيه؟

فأعرض عني وأخذ في إنشاد شعره، فلبثت ساعة ثم صحت به: يا أبا معاذ! مَن الذي يقول:

إنّ سَلْمى خُلِقَتْ من قَصَب
قصَب السكّر لا عَظْم الجمل
وإذا أدْنَيْتَ منها بَصلاً
غلَبَ المسكُ على ريح البصل

فغضب وصاح: مَن الذي يُقَرّعُنا بأشياء كنا نعبَث بها ويأتي برُذَال شعرنا وما لم نُرِدْ به الجد!؟

فإذا انتفى شيخ المولّدين من سقَط شعره واغتاظ ممن يرويه عليه، فابن زاكور أوْلى بذلك وأحرى أن يغض الراويةُ النظرَ عن ضعيف شعْرِه، ويطوِيه على غِرّه، آخِذاً لِلُبابه نابذاً لقَشْره، وهذه بعض النماذج المختارة منه:

قال يمدح الشيخ علي بركة وهي من نفيس الشعر وحلال السحر وقد نظمها في سنة ١٠٩٣ فهي من أوائل نظمه:

إلى مَ فؤادي يذوب زفيرا
لقد كدتُ أقضي مُعنّى حسيرا

عـرانـي مـن الـوجـد مـا قـد نـفـى
كـراي وأذكـى حـشـاي سـعـيـرا
فـمِـن رقّـة قـد حـكـيـتُ نـسـيـمـاً
ومـن دَنَـف قـد حـكـيـت نَـضِـيـرا
وشَـيّـبَـنـي والـشـبـابُ نـضِـيـر
صـدُودُ الألـى أودعـونـي زفـيـرا
ومَـن لـسـعـتْـه أفـاعـي الـصـدود
فـأجْـدِرْ بـه أن يـشـيـب صـغـيـرا
فـمـاذا عـلـى وُدّهـم لـوْ دنـا؟
ومـا ضـرّ لـو نـعـشـونـي يـسـيـرا؟
ومـاذا عـلـى عـاذلـي لـو غـدا
عـذيـراً لـمـن كـان مـثـلـي أسـيـرا؟
فـيـا عـاذلـي لا تـكُـن عـاذري
ولـسـتُ أؤمـل مـنـك عـذيـرا
ويـا هـاجِـرِي لا تـكُـن واصِـلـي
إلـى أن تُـوازي الـحـصـاةُ ثـبـيـرا
فَـمُـذْ شِـمْـتُ بَـرْقَ الـعـلا والـهـدى
لـدى (بـركـات الـعُـلا) مـسـتـطـيـرا
سـلـوتُـك فـانـجـابَ لـيـلُ الأسـى
وأسـفَـرَ صـبـح الـسـرور بـشـيـرا
فـلا مُـقـلـتـي تـسـتـهـلّ دمـاً
ولا كَـبِـدِي تـتـداعـى فُـطـورا

ومَن شامَ بَرْقَ العلا مُستطيراً
فلا يعدَمنّ دَداً وحُبُورا
وهان عليّ الذي قد لقيـ
ـتُ لمّا سقاني نَداهُ نميرا
وأنقذني من ظلام الهوى
وكان لقلبي المعنّى مجيرا
إمام تَسَرْبَل بالمكرُمات
وأرخى إزارَ العفافِ كبيرا
وطاولَ بدْرَ السماء منيراً
وساجَلَ قَطْرَ الغَمام غزيرا
وأضحى لكأس المعالي مُديراً
وأمسى لروض العلوم سميرا
تواضعَ حِلْماً فزاد ارتقاءً
ورامَ خَفَاءً فزاد ظُهُورا
ومَن رام إخفاء بدْرِ الدياجي
بِجُنْح دُجى زاد نوراً كثيرا
تناهت مذاهِبُه في العُلا
فليس يُرى لسواها ظهيرا
فطوراً تراه لقوم بشيراً
وطوْراً تراه لقوم نذيرا
وكائن تراهُ يفك المُعمّى
ويُوضح ما كان صعباً عسيرا

إلـى رقّـة لـو حـواهـا الـنـسـيـم
لـمـا قـصَـف الـدهـرَ غـصـنـاً نـضـيـرا
ونـظْـم يُـنـسّـيـك شـعـر (جـريـر)
إذا أنـت عـايـنـتَ مـنـه سـطـورا
ووجـه جـلا الـبـشـرُ عـنـه الـوجُـوم
فـلـيـس يُـرى أبـداً قـمـطـريـرا
تـضـيء الـديـاجـيـرَ غـرتُـه
فـتـحـسـبـهـا قَـبَـسـاً مُـسْـتَـنِـيـرا

* * *

ألا هـل أتـى مَـعْـشـري أنـنـي
عَـلِـقْـتُ بـتـطـوان عِـلْـقـاً خـطـيـرا
وآويـتُ مـنـهـا إلـى جـنّـة
فـلا شـمـسَ فـيـهـا ولا زمـهـريـرا
لـدَى عـالِـم قـد حـوى عـالـمـاً
وحَـبْـر تـضـمّـن خـلـقـاً كـثـيـرا
وألْـحَـفَـهـا مـن مـحـاسـنـه
بُـرُوداً حـكـت سـنـدسـاً وحـريـرا
وأسْـرَجـهـا بـسـراج الـهـدى
وكـم مـكـثـت قـبـلُ تـحـكـي قـبـورا
فـلا نـجْـدَ إلا اسـتـطـار سـنًـى
ولا غـوْرَ إلا تـلألأ نـورا

ولا غـصـنَ إلا تَـثَـنَّـى ارتـيـاحـاً
ولا طـيْـرَ إلا تـغـنـى سـرورا
أضـاء سـنـاهـا فـفـاح شـذاهـا
فـشِـمْـت سـنًى وشَـمِـمْـت عـبـيـرا

* * *

إمـامَ الـورى بـشـفـيـع الـورى
أصِـخْ لـنـظـامـي وكـن لـي عـذيـرا
وأسْـبِـلْ عـلـيـه بـرود الـقَـبـول
فـلـسـتُ (حـبـيـبـاً) ولـسـت (جـريـرا)
وهـبْـنـي كـذاك فـمَـن لـي بـمـا
أحـلّـي بـه مـجـدك الـمـسـتـنـيـرا؟
ومَـن أزهـقَـتْـه خـطُـوبُ الـدّنَـى
فـكـيـف يـحـوك الـقـريـظ الـنـضـيـرا
فـعـذراً لـمـن خـانـه دهـره
وأخـنـى الـزمـان عـلـيـه مُـغِـيـرا
ودونـك مـنـي سـلامـاً كـريـمـاً
يُـفـاوِحُ عـرفُـه روضـاً مَـطِـيـرا

وقال يمدح الشيخ محمد بن عبدالمؤمن الشريف وفيها وصف بديع للبحر وغزل ظريف، وكان نظمها سنة ١٠٩٤:

الـبـحـرُ قـد أبـدى سَـنَـا نَـضـرتـه
فـهـامـت الأعـيـنُ فـي بـهـجَـتِـه

قد خلع الحسنُ عليه حلَى
وانتظمَ الإبداعُ في لبّته
كأنه والشمس قد أودعت
شعاعَها الأنضر في لُجّتِه
مطارفُ العِقْيان قد طُرّزتْ
باللاّزَوَرْد الغَضّ من زُرقته
ذكّرَني عهداً لنا قد مضى
بأرض تِطوان على ضِفّتِه
في جَنّةٍ أرْبَت على جِلّق
علّمها الحسنُ بألْوِيَته
ما شئتَ من نَوْر كدُرّ على
زَبَرْجَد يسبي سَنَا خضرته
ومن غصون قد سقاها الحيا
فعَربَدت بالرقص من خمرته
دبّجَها النوّارُ من أصفَر
يحكي النّضار الغض في كُهبته
وأحْمَر يشبه خدّ الذي
أنحلَني الشوق إلى رؤيَتِه
حيثُ المُنَى تُطلِعُه قمراً
تنأى دُجى الأحزان من طُرّته
لم يَغْرُهُ هجرٌ يهِيجُ الجَوَى
ويعطف القلب على حرقته

إلا نِـفـاراً هـو فـي طـبـعـه

إن نـفـارَ الـظـبـي مـن خِـلْـقَـتـه

يـنـفُـرُ تِـيـهـاً ثـم يـثـنـيـه مـا

يـبـصـر مـن وَجْـدِي عـلـى نـفـرتـه

فـقـلـتُ إذ أبـصـرتُـه تـائـهـاً:

كـن راضـيـاً حِـبّـي عـلـيّ وتِـه

ولا تـعـذبْـنـي بـنـار الـجـفـا

يـا مَـن حـيـاةُ الـصـب فـي قـبـضـتـه

فـافـتـرّ أيـن الـدرّ مـن ثَـغْـرِه

وأيـن نَـشْـرُ الـمِـسْـكِ مـن نَـكْـهـتـه

وأيـن بَـدْرُ الـتَّـمّ مـن وجـهـه

وأيـن لـمـعُ الـبـرق مـن غُـرّتـه

واهـتـزّ عُـجْـبـاً بـخـضـوعـي لـه

فـأيـن غـصـنُ الـبـان مـن هـزّتـه

أيّ هِـلال فـي قـضـيـب نَـقـي

أضـاءه الـدّيْـجُـور مـن لِـمّـتـه

عـانـقـتُ مـن قـامـتـه غُـصُـنـاً

كـمـا قـطـفـتُ الـوردَ مـن وجـنـتـه

لـم أصـحُ مـن سُـكـرِي بـتـعـنـيـقـه

إلا بـتـقـطـيـعـي عـلـى فُـرْقَـتـه

أيّ زمـان قـد مـضـى مـسـرعـاً
يـا حَـرّ أنـفـاسـي عـلـى سـرعـتـه
لـم أنـتـبـه مـن نـوم لـذتـه
إلا بـأشـواقـي إلـى أوْبَـتِـه
يـا لـيـتَ شـعـري والـمُـنـى ربـمـا
تـسـاعـد الـمُـشـتـاق فـي بُـغْـيَـتـه
هـل يـدنـوَنّ الـغَـرْبُ بـعـد الـنـوى
فـاقْـطِـف الآمـال مـن ضـيـعـتـه
وهـل أرى تـلـك الـبـدور الـتـي
تَـزْرِي بـبـدر الأفـقِ فـي طـلـعـتـه
مـا أقْـدَرَ الله عـلـى رَدّ مَـن
نَـدّ بـه الـبَـيْـن إلـى فِـئَـتِـه
فـيـا نـسـيـمـاً مِـن حـمـاهـم سـرى
شـمـمْـتُ عَـرْفَ الـمِـسـك مـن هـبّـتـه
كـيـف الـرّبَـى والـمُـنـحَـنَـى والـنّـقـا
والـنـهـرُ والـرّوْضُ عـلـى ضِـفّـتـه
عـهـدي بـهـا مَـرْتَـع كـلّ رشـا
لا راعـهـا الـدّهْـر بـتـنـحـيـتـه
وكـيـف أحـبـابـي وهـل عـلـمـوا
شـوقـي الـذي أوبِـقـتُ فـي أزمـتـه
نـكَـبَـنـي الـدهـر بـبـيْـنـهـم
أشـكـو إلـى الـرحـمٰـن مـن نَـكْـبـتـه

أمسَيتُ صَبًّا بالجزائر لا
أعدَم شجْواً ذُبتُ من حسرته
لولا ابنُ عبدالمومن المرتضى
قضى فؤادي من لَظَى لوعته
جعلتُه قصدي ونِغمَ الذي
يقصِده الإنسان في غُربتِه
العالم النحرير من دَأبُه
أن يُنقِذ الملهوف من كُربته
وأن يُواسي مَن به ركضتْ
خيلُ النّوى أو حادَ عن وجهته
أنختُ آمالي به فانثنت
عاطرَةَ الأنفاس من نفحته
إن تسأل الأحبابُ عن نُزُلي
فها أنا أنعَمُ في جنّته
أقْطِفُ أنوارَ المُنى غضّةً
تحتَ ظلال العلم في حضرته
أثقَلَني بالبرّ حتى لقد
أعجزُ إن انفكّ من حَوْزته
ما شانَه عيبٌ سوى أنّه
يُغْضي على مِثليَ في هَفْوَته
ويُسعِفُ الطالب في قصده
ويُسْعِدُ الراغب في رغبته

نُزهتُه في العلم يدرسه
لا عاقَه المِقْدَارُ عن نزهته

***

ماذا يقول المرء في مدحه
وقد تناهى الدهرُ في خدمته
والشمس أوْلَتْهُ أشعتَها
والبدرُ حلاّه بتحليته
وخيّم المجدُ بساحته
وفاض بحرُ الجود في بُرْدته
بَدْر الهدى والعلم يا مَن غدت
تسجد أمداحي إلى قِبْلته
خذها على رغم العدا غادةً
لفّعها الصدق بأمنيته
خَوْد زهت إذ بُشّرت بكم
ولفّها المجدُ بأزديَته
كم رامها قبلك ذو همة
فلم تُصِغْ سمعاً إلى خطبته
بنتُ ابنِ زاكور فمنشاُهُ
فاسٌ وأهلُ الفضل من أسرته
صَدَاقُها الغالي قبُولُكها
منه فما أغلاه في نيته

فــاسْــمَــح لــه واقْــبَــلْ هــدِيّــتــه

وعَــفّ بــالــصــفْــح عــلــى زَلّــتــه

لا زلــتَ ذا حــال تــسُــوءُ الــعــدا

مــا حــنّ ذو بُــعْــد إلــى تُــربــتــه

والله يُــبْــقِــيــك إمــامَ هــدى

مــا غــرّد الــقُــمْــرِي عــلــى دَوْحــتــه

وقال توشيحاً:

كُنْ عاذِلي أوْ لا | فالنّشرُ فاح | من الأقاح
فنَشْوَتي أوْلَى | من لَخي لاح | بينَ البِطاح
دَرَاهِمُ النّوْر | وشّت بُرُود | خُضرِ النّجُود
ونَفْحَةُ الخيْري | جاءت تَقُودُ | سَعْدَ السّعُود
وَنَغْمَةُ الطّيْر | أنسَتْك عُود | غَيْداءَ رُود
حادِي المُنى أمْلَى | آيَ انشراح | ذاتَ اتّضاح
لله ما أحْلَى | نَشْرَ الأقاح | مَع الصباح
ما أبْدَع البُسْتان | قَدِ اكْتُسِي | بالسّندس
مكلّل الأفنان | في عُرُس | بالنّرجِسِ
فطَيْرُه النّشْوَان | لا يأتَسِي | بِمَن نَسِي
فاطْرَب به كَيْلا | تُرْضِي اللّوَاح | فَهْوَ النجاح
ولا تُطِعْ نذْلاً | يَرَى الجُناح | في الارتياح

وقال توشيحاً أيضاً:

هل لصَبّ من لَمَاك المزْدرى

بسُلاف الراح

رَشَفاتٌ مُزِجَت بالسّكّر
تمْنَح الأفراح
مرويات عن صَحاحِ الجوْهر
عن مُنى الأرواح
عن هِلال الحُسْن عن ظبْي النّقا
عن قضيب البان
مَن جِنانَ الخلد دوني أغْلَقا
رِقّ يا رِضْوان!
وازْثِ لي مِن ذا العذاب الأكبر
فعسى أرْتاح
فعلى ذاك المُحَيّا الأنور
ذي السّنا الوضّاح
مِن شجٍ نشْرُ سلام عنبري
ما انبرَى الإصباح
وثنَتْ بانَ الرّبى كفّ الصّبا
وشدَا القُمري
وصَبَا قلبي لأيام الصّبا
رَيّقِ العُمْرِ

وقال كذلك معارضاً موشحة ابن سهل (ليل الهوى يقظان):

مَن عَلّم الغِزلان
الفَتْكَ بالليث الجرِي

وسلّط العينان

على قلوب البشر

يا ضَرّة الشمس

اللّهَ في الصب الكئيب

يا مُنْيَة النفس

هجرُك للنفس مُذيب

حدّثَني حَدْسي

إنك لِلّبّ سَلِيب

بأسهُم الأجفان

ذاتِ العذاب الأكبر

مُضْمِيَة الوَلهان

بالدّغج والحَوَر

ما ضرّ يا محبوب

يا هاجرِي بلا ذنوب

لو تُنْعِشُ المطلوب

بلفظِكَ العذبِ الخلُوب

بغاية المَرْغوب

من وصْلك المحيي القلوب

تذكّر يا وَسْنان

يا ذا الرّواء الأنضر

ليالِيَ البُستان

تحتَ العَريش الأخضر

وأنا في نشوَه
من خَمْرِ ثغرِك النقي
مُهيّج الصَّبْوَه
لكل من لم يَغشق
لم تعرُنا جفْوَه
تُثِير نارَ حُرَقي
ما بيْننا نذْمان
إلا أريجُ الزهَر
أو نغمةُ الورَشان
على غصون الشجر
والبذْرُ من بعده
يَرقُبنا بكلّ عين
أرسل من وَجْده
عَيْناً علينا الفَرْقَدين
فخاب في قَصده
وخَيْبة الرُقْبان شَيْن
والوُرْق في الأغصان
فاقَتْ حَنِين الوَتَر
بمُطرب الألحان
عند الصباح المُسْفِر
تُثير أشواقي
بصوتها المُبْرِي السَقَم

قامت على ساقِ
إذ عنبرُ الليل بَسَم
عن ثغر أشواقي
تشدو بطيّب النَغَم
مقالَ ذي أشجان
حِلْف أسى وضَرَر
(ليلُ الهوى يقْظان
والحبّ تِرْبُ السهر)

وقال في الربيع موشحاً:

جلّ صنيع	البَديع	الفاعِلِ المختار
حلّى الربيع	البدِيع	بحِلْيَة النوّار
سرّ بديع	لي مُذِيع	سرائرَ الأزهار
الروض راضْ	وهو راض	غصون أشجاره
شِفا المِراضْ	في مِراض	جُفُون أنواره
صحّ العليل	من عليل	نسيمه المِعْطار
إذ في مَمِيل	النّخِيل	من غُصنِه أسرار
وفي مَسِيل	سَلْسَبِيل	مِيَاهه استعبار
فِعْلُه مَاض	عندَ قَاض	أفكارِ زُوّاره
إذ لا اعْتراض	في اقْتراض	نقُودِ أزهارِه
ولا جُناح	في مُباح	ألْحان وَرْشانه
وهل يُتاح	ارْتِيَاح	إلا برَيْحانه
تروِي الرّيَاح	عَن صَحاح	آثار نَيْسانه

مَن في الرّيَاض والحِياض أجَلّ أوْطاره
فيه تُرَاض عن تَراض بناتُ أفكاره

وقال في الشوق والنسيب:

يا رعَى اللّهُ ليالٍ قد خلت
كلآلٍ في سلوك من نُضار
وعهوداً سلَفتْ لي بالحمى
فسقى الوبلُ الحِمى غير مُضار
حيث لا همّ ولا غمّ سوى
رنّةِ العُود وكاساتٍ تُدار
من عُقار كنُضار أفرغت
في أباريقَ حكت شُهْبَ الدّرار
علّلوا قلب الشجِي من شربها
ما أُحَيلَى الشرب من تلك العُقار
مع ظِباءٍ كَلِف القلب بهم
سمحوا بالوصل من بعد نِفار
في رياضٍ كزَرابٍ نُمّقتْ
بشقيق كعَقيق وبهار
أأرى أحظى بوصل بعدما
بعدت من طاقتي تلك الديار
فعلى آرامِها من دَنِف
شائقٍ نشرُ سَلام كالعَرار

وقال في مدح تطوان وهو من مشهور شعره:

تِــطْــوانُ مــا أدراكــمــا تــطــوانُ
تـجـري بـهـا الأنـهـارُ والـخُـلـجـان
قُـلْ إن لَـحـاك مـكـابـرٌ فـي حـسـنـهـا
هـــي جـنّـــةٌ فِـرْدوْسُـهـا الـكِـيـتـان

وقال يصف البحر وهياجه وقد أراد ركوبه إلى الجزائر:

يـــا أيـــهـــا الـــبـــحـــرُ مـــهـــلاً
فـــقـــد دهـــانـــا اهـــتـــيـــاجُـــك
إنـــا هـــمَـــمْـــنـــا بـــأمـــرٍ
مـــنـــعَ مـــنـــه انـــزِعـــاجـــك
لـــو كـــنـــتَ تـــدري لأبـــدى
ســـيـــمَـــا الـــســـرور ابـــتـــهـــاجُـــك
يـــا لـــيـــتَ شـــعـــري إلـــى كـــمْ
يـــحـــكـــي فـــؤادي ارتـــجـــاجُـــك!

* * *

ابن الطيب العلمي
(ت ١١٣٤ هـ)

اسمه، نسبه، مناقشة تعليق القادري على نسبه، النسب العلمي، فروعه وجماعه، عصره، تحديد تاريخ ولادته، والده، يتمه، طلبه، نبوغه، شعره، أغراضه، ضعفه في الرثاء، مرثيته للشيخ علي بركة، مقابلته بالصفدي، نثره، انتقاده لمرتكبي الغريب، مثال من نثره في النقد، آثاره، وفاته بمصر.

أبو عبدالله محمد بن الطيب بن أحمد بن يوسف بن أحمد الشريف العَلَمي. قال القادري في النَّشْر: كذا يُنسب نفسه وهو فاسيّ الدار والمنشَإ والقرار. اهـ. فما معنى قوله: كذا كان ينسب نفسه ألم يكن الناس ينسبونه كذلك؟ أما مخاطبات إخوانه وكذا شيوخه التي أثبتها في كتابه «الأنيس المطرب» فإنها تكاد لا تخلو واحدة منها من هذه النسبة وليس ذلك قاصراً على النثرية منها فقط التي يمكن أن يقع فيها التبديل والتغيير، بل إن الشعرية كذلك عامرة بهذا الشرف العَلَمي الذي كان أديبنا ينسب نفسه إليه. وحلاّه الإفراني في شرح التَّوْشيح بالأديب الأوحد أبي عبدالله

محمد بن الطيب الشريف العلمي مرة، وبتاج الأدباء وسراج البُلغاء صاحب القلم البليغ أبي عبدالله محمد بن الطيب الشريف العلمي مرة أخرى، وهو معاصر له، فلم يُغْفِل ذكر شرفه في واحدةٍ منهما، زيادة على ما وصفه به من عظم الكفاءة الأدبية، فلعل مراد القادري التقصي من درَك إثبات هذه النسبة لكونه لم يطلع على حقيقتها لا الإنكار الذي يُجَلّ مقامه عنه.

وحقيقةً، فإن النسب العَلَمي كثير التشعُّب عظيم الاختلاط حتى اشتهر بين الناس أن الأدعياء أكثر ما يندسون فيه لأمْنِهم من الفضيحة بسبب عُسر التمييز بين فروعه الكثيرة إلا على المطلع الخبير.

ثم هو على تعدد الفروع يرجع إلى أصل واحد وهو السيد أبو بكر جد مولانا عبدالسلام بن مشيش. قال في دُرّة التّيجان:

وابنُ مَشيشٍ قطبُ سِرّ الله
وارِثُ نِسْبةِ رسول الله
وجدّه المولى أبو بكر السّمي
هُما جِمَاعُ كلّ شِعْبِ عَلَمي

وقال في شذور الذهب: «فمن السيد أبي بكر تفرعت جميع شرفاء العلَم» ثم قال: «ولعِقَبِه رضي الله عنه أسامي وألقاب، وقد ذكرناهم واحداً بعد واحد»... إلخ. ولا ندري هل كان لشريفنا ابن الطيب لقب زائد على العَلَمية أم لا. نعم رأيتُ في شرح ابن شهْبون على لامية العجم وصفه

باليونسي. والعلميّون اليُونسيّون أيضاً لهم ألقابٌ خاصة، فمنهم أبناء المؤذن والرّيسونيون وبنو رَحْمُون وغيرهم فيبقى لقبُه الخاص مع ذلك غير معلوم لنا.

وأمّا بعد هذا فإننا نواجِه عُقْدة عسيرة الحل في حياة هذا الأديب ألا وهي معرفة تاريخ ولادته فإننا لم نظفر بمن يشير إليه حتى هو نفسه بالرغم عما ذكره في كتاب الأنيس المطرب من مُختلِف الأخبار عن حياته وما تقلب فيه من الأطوار لم يُشِرْ أصلاً إلى هذا الأمر الذي له أهمية كبيرة بالنسبة إلى استجلاء وجه ترجمة الشخص واكتناه تطوره في حياته الأدبية مما يعين على قياس نبوغه قياساً دقيقاً. فقاتل الله الإهمال فكم قتل من الرجال!

وحيث أعوزنا النص الصريح على تاريخه الصحيح فلنرجع إلى ما ذكره هو من الملابسات والظروف الخاصة مُقارِنين لها ببعض الحوادث التي لها تاريخ معروف عسى أن نصل إلى نتيجة إيجابية من هذا السلب العام.

فقبل كل شيء لا نظن أن زمن وجوده سبق العصر الإسماعيلي وإن كان لم يتأخر عنه أيضاً إذا كانت وفاته سنة ١١٣٤، أي: قبل وفاة المولى إسماعيل بخمس سنين، فقد قضى إذاً حياته كلها من مبدئها إلى منتهاها في ظل الدولة الإسماعيلية كما أننا لا نظن أنه جاوز العَقْد الخامس من العمر فتكون ولادته في أول القرن الثاني عشر أو في العقد الأخير من الذي قبله إن ذهبنا بها بعيداً. وذلك أنّا نظرنا سني وفياتِ أشياخه الذين اشتغل عليهم وأخذ عنهم وبعضهم ممن أخذَ عنهُم الكتاب العزيز فوجدنا من أولهم وفاةً مَن

كانت وفاته سنة ١١٠٦ وأكثرهم ممّن قاربه في سنة الوفاة أو تأخر عنه. فهذا ما يقوي الظن بأنه لم يعمر طويلاً إذ الذي يموت بعد شيخه الذي كان يقرأ عليه القرآن وهو الشيخ مسعود جَمّوع بخمس عشرة سنة، وقبل الشيخ الذي كان يقرأ عليه النحو والبيان وهو سيدي محمد بن عبدالسلام بناني بتسع وعشرين سنة لا شك أنه مات مبكراً. ودون هذا فقد صرح هو بما يعضد الفرض الأول إذ قال في كتابه «الأنيس المطرب» معتذراً عن قصيدة رثَى بها الشيخ سيدي محمد بن مولاي عبدالله الشريف:

«... وكان نظمي لهذه القصيدة ارتجالاً في زمن الصغر مع ما انضم لذلك من سرعة الارتجال فهي جديرة بأن ينظر فيها بعين الرضى وتقابل بالتجاوز» والشيخ المذكور توفي سنة ١١٢٠، ففي هذه السنة كان أديبنا لا يزال صغيراً باعترافه هو وقد جرى العرف بأن الصغير إنما يطلق على مَن كان في سن العشرين فما دون فإن تجوز فيه فلا يطلق على مَن جاوز الخامسة وعشرين إلا إن كانَ ممن يسلك بنفسه سبيل الجنس اللطيف فلا حرج إذاً عليه أن يكون كلما تقدم في العمر كلما تأخر في السن! ثم إن مترجمنا يقول: إنه قرأ القرآن أولاً على والده ثم انتقل عنه إلى المكتب. فوالده كان حافظاً للقرآن بحيث يُقرئُه لغيره. نعم يظهر أنه لم يكن على جانب من العلم وإلا لأعلن ولدُه ذلك وذكره فيمن ذكره من شيوخه العلماء. ويفهم أن ذلك كان لسبقه بالوفاة عن زمن طلب ولده فإنه يقول: «ثم انتقلت عنه» وهذه العبارة نص في أن الانتقال كان في حياته إلا أنه لا يظن أن وفاته تأخرت كثيراً إلى ما بعد اشتغال ولده ونجاحه فإننا لم

نعثر للمترجم على بيت من الشعر قاله في رثاء والده ولا كلمةَ تأسّف مما يؤيد أنه سبق نبوغَ ولده بكثير.

وعليه، فإن أديبنا قد تيتّم صغيراً فنشأ معتمداً على نفسه وتمادى على الطلب كما كان يريده والده إلا أن طلبه على ما يظهر لم يكن متواصلاً بل كانت تتخلله الفَتْرة وتعرض له العَثْرة وذلك هو السر في طول مدته إذ لا نعتقد أن ذلك كان عن جموده وبلادته. وربما كان السبب في هذا الانقطاع هو تلك الصَّبْوة التي نشأت مع أديبنا اليتيم، إذ لا يخفى ما يدفع إليه عدم وجود الرقيب على الولد، وبعبارة أخرى ما تدفع إليه الحرية المبكرة للنشء من الانهماك في اللذة والمتاع والإكباب على اللهو واللعب خصوصاً مع ملاحظة ما طُبع عليه الشريف من الذوق الفني والأريحية الأدبية، فلا جرم أن خُلِق ليكون مُطرِباً مُؤنِساً لا مدرساً مُهَوّساً! ولا نعلم بالتدقيق في أي سنة بدأ بالنظم وإن كان هو يثبت أنه بدأ بذلك صغيراً كما رأيتَ وقد جعل من أوليات شعره قصيدتَه التي رثى بها شيخ آل وَزّان كما سبقت الإشارة إلى ذلك وقصيدةً أخرى في مدح المولى إسماعيل وهي مما صدّر به ديوانه الأنيس المطرب. والواقع أن هاتين القصيدتين يلوح عليهما أثر التكلف والمعالجة مع خلوهما إلا من هيكل النظم والألفاظ. وتزيد الأولى على كونها من نظم الصغر أن موضوعها وهو الرثاء لم يكن لأديبنا تمرُّس به فسواء لدينا ما نظم منه في الصغر أو الكبر. وفي الحقيقة ما له وللرثاء؟ ونفسُه المرِحَة لم تُخلَق لتحزَن وتأسى وإنما لتأنَس وتطرَب، فإن بكت فعلى ظبي نافر وإن أسفت فعلى

حبيب غادر! اللهم إلا تلك القصيدة التي رثى بها مفخرة تطوان الشيخ علي بركة فإنها لإحكام صنعتها قد تُستثنى من عموم هذا الحكم فيمكن أن يقال: إن فيها شيئاً من معنى الرثاء. وهي هذه:

مِـنّـي عـلـيـكَ الـسـلامُ والـبـرَكـه
يـا واحـد الـعـصـر يـا عـلـي بَـركَـه
قـــد كـــنـــتَ ذا ورع وذا أدب
وذا مُـــدارَســـة وذا مـــلَـــكَـــه
عُـلّـمْـتَ عِـلْـمـاً وكـنـتَ مـالـكـه
وحُـزْتَ حِـلْـمـاً سـواك مـا مَـلَـكـه
لـم يـبـقَ عـلـمٌ إلاّ وتـعـلَـمُـه
فـهـل رمـيـتَ عـلـيـه مـن شَـبَـكـه
سَـبَـكـت صـعـبَ الـكـلام حـتـى بـدا
ومـا رأيـنـا سـواكَ مَـن سَـبَـكَـه
وكـان نـجـمُ الـعـلـوم فـي فَـلَـك
حـتـى أدرت عـلـى الـورى فـلـكـه
سـلـكـت بـالـنـاس نـهـجَ مـصـلـحـة
لـولاك مـا كـان واحـد سـلـكـه
وكـنـت فـي الـنـحـو غـيـر مـشـتـرَك
والـنـاس كـم نـاصـبٍ لـه شـرَكـه
صـيّـرتَ تـطـوان كـلّـهـا عـربـاً
فـمـا تـرى الـلـحـنَ ثـمّ فـي حَـرَكـه

واليوم ماتُوا ـ إذ متّ ـ من أسف

وما لهم إن سكنتَ من حركه

لذاك عيني تعومُ بعدك في

بحر الدّمُوعِ كأنها سمَكه

هَتَكْتَ يا مَوْتُ فيه عِرْضَ فتى

لولاك ما ريءَ قط من هَتكه

يا قوم ما أسرع الحِمَام له

ما ضرّه في الوجود لو تركه

إنا احتسبناه يومَ صادمه

موْتٌ تحمّل وحده دَرَكه

يا رب بارك للخلق في خلَف

كي لا يعيش الورى بلا بَرَكه

أما مَرْتَعُه الخصيب، ففي الخمريات والتشبيب، إذ له فيهما كل معنى مطرب، في لفظ جزل ونظم مُتسِق وأسلوب معجِب وشعره في هذا الغرض ينقسم إلى قسمين: مقطوعات وقصائد. أما المقطوعات فيغلب أن تكون مصطنعة غاية القصد منها نكتَةٌ بديعية وصنعة لفظية ولا زائد، فهي أشبه بمقطوعات الصفدي وأمثال الصفدي من عُبّاد الزخارف الكلامية. وأنت عندما تتأمل بعضاً منها لا بد أن تتذكر الصفدي ولا بد أن تلمس هذا الشبه بينه وبين مترجمنا. فإن غفلت عن هذه المقايسة أرشدك الشاعر إليها بقوله:

ولـــي لِـــســـانٌ يَـــزِيــنــه لَـــسَـــنٌ

أكـــادُ فـــيـــه أقـــاسُ بـــالـــصّـــفـــدي

أما القصائد فمنها والحق يقال ما يتكافأ فيه اللفظ والمعنى سلاسةً وعذوبةً فيكون مثالاً للشاعرية الرقيقة التي لا تبدَهُك بشتى المعاني والصور ولكنها تملأك سحراً وفتوناً خصوصاً وقد وُفِّق شاعرنا إلى اختيار بعض بحور الشعر الخفيفة مثل الرمل والسريع والمنسرح ومَرَن عليها فلانت له وطاوعته أشد المطاوعة فازداد نظمه بها حسناً على حسن ورونقاً على رونق. والأخيران بالخصوص هما مما نظم عليه كثيراً على خلاف أكثر الشعراء الذين أطرحوهما في زاوية الإهمال وهذا دليل على عبقريته الفنية وحسن تصوره للجمال فإن الملاءمة بين المعاني والألفاظ كالملاءمة بين الألوان والصور يُستَدَلّ منها على ذوق الرسّام وسلامة إدراكه فلا عجب إذاً إن كان من الناس مَن هو معجب بشعره جداً كما يقول القادري. ونذكر الآن نموذجاً من مقطوعاته وبعضَ قصائده ليطابق القارئ بينها وبين هذا الحكم فيقتنع بصحته ولو في الجملة، فمن المقطوعات قوله:

ضـلَـلْـتُ بـلـيْـل الـشّـعْـر لـمـا أطـالـه

وكـم عـاشـق بـالـوجـه مـنـه قـد اهـتـدى

بِـعـارِضـه لامٌ لـهـا الـحـسـن يـنـتـهـي

ولـكـنـهـا فـي مـحـنـتـي لامُ الابـتـدا

وقوله:

أضْـبَـى وأصْـلَـى الـقـلْـبَ فـي حـبّـه

خَـلّـوه يُـصـبـي الـقـلـب أو يُـصـلـي

يـا ألـفَ الـقـامـة كُـونـي بـه
بـعـدَ الـتـجـافـي ألـفَ الـوصـل

وقوله:

راحـت إلـى الـصـهْـبـاء أرواحُـنـا
فـجـاءنـا يـسـعـى بـهـا الـسـاقـي
أتـى لـنـا يـكـشـف عـن سـاقِـه
فـهِـمـتُ فـي الـسـاقـي وفـي الـسـاق

وقوله:

أقـول لـلـمـحـبـوب فـي روضـة
والـطـلّ يـسـقـي والـثـرى يـشـرَبُ
زَوّج بـبـنـت الـكَـرْم ابـنَ الـسـمـا
فـالـطَّـيْـرُ فـي مـنـبـره يـخـطُـب

وقوله:

نـاوَلـنـي خـمـراً لأشـرَبَـهـا
كـأنـمـا نـاولـنـي جَـمْـرا
شـمـسٌ بـأفْـق الـكـاس لـكـنـهـا
فـي وجـنـتـيـه طـلـعـت بـدرا

وقوله:

تـفـتّـح وردٌ يـانـع فـوق خـده
ألا فـانـظـروا ورداً تـفـتـح فـي الـخـد

وفـي ثـغْـرِه وِرْد مُـنِـعْـتُ وُرُوده
ومـا ضـرّه لـو جـاد بـالـوَرْد والـوِرْد

وقوله:

يا طلعةَ البدر في ليل من الشعر
يـا فتنة خُلِقت في صورة البشر
إرْحَمْ شهيداً له في الحبّ مُعترك
بيـن المباسِم والألحاظ والطّرَر

ومن قصائده قوله:

رب يـوم ظَـلْـتُ فـي حِـجْـر الـريـاض
ذا انـبـسـاط والـسـمـا ذاتُ انـقـبـاض
وغـصـون الـروض تـاهـت فـغـدت
في ارتفاع والسواقي في انخفاض
وبـدت أزهـارُه مـفـتـوحـة
وعـيـون الـدهـر عـنّـا فـي اغـتـمـاض
تـحـسـب الـنّـسـريـنَ والـوردَ مـعـاً
وجـنَـةً ذاتَ احـمـرار وبـيـاض
وعـلـى الأزهـار وُرْقٌ سـجـعـت
وحـديـث الـلـهـو فـيـهـا مُـسـتـفـاض
وريـاحُ الـجـو لـمـا سـكَـبَـتْ
نَـفَـضَـتْ أطْـيـارَنـا أيّ انـتـفـاض
وجـمـوع الـشـمْـل لـمـا انـعـقـدتْ
نـقـضـت عـهـدَ الـتـقـى أيّ انـتـقـاض

طاف ساقِينا يُلبّي بالطّلا
وكأنّ الخمر تُمْلا من حياض
سكر النّسّاكُ من كاساته
لا على كُرْه ولكن عن تَرَاض
زوّجَ ابنَ الغَيْم بنتَ الكرم إذ
راحتاه شاهداه وهو قاض
فرأينا الماء إذا يفْتَضّها
ما أرى التزويج إلا الافْتضاض

وقوله:

تفتّحت أزهارُ روض السعود
وغنّت الأطيارُ في كل عُود
فباكِر اللذّاتِ في روضة
ما بين مِزْمار ودَفّ وعود
وقُم إلى الراح ورِدْ ظَرْفَها
فطالما أمّلتَ منها الورود
صَهْباء يعلوها الحباب كما
تعلو على نحر الغواني العقود
في كأسها ماء ولكنّه
في القلب مثلُ النار ذاتِ الوُقود
ولا تَمِلْ عن شربها أبداً
من بأسِ واشٍ خِفْتَه أو شهود

فكم زَنتْ بِكراً مع ابنِ سما
ولم تَجِب يوماً عليه الحدود

شمس إذا غابت بجوف امرىء
أشرق في خدَّيه بدرُ السعود

فهاتِها من كف حُلْوِ اللّما
لكنه للصبّ مُرّ الصدود

كأنها حمراءُ في كفّه
معصورةٌ من وَرْد ذات الخدود

ساقٍ أطار النومَ عن مقلتي
وكم سباني بالعُيون الرّقُود

أطلق دمعي من أليم الجفا
والقلبَ قد أوثقه في قيود

أدخل ذاك الخَصْر في عدم
ورِدْفُه أخرجه للوُجود

فذاكَ من ضُعف يقوم وذا
من ثِقْلِه ما زال يبغي القُعود

وقوله:

خذ من حديث الرياض والزهر
روايةَ ابنِ الربيع عن مَطر

وانظر إلى الروض زانَه نَهَرٌ
مثلَ العيون تُزان بالحوَر

فخذ لنفسك في تقلُّبها

نصيبَها في السرور والسَّرُر

ورِدْ من اللهو كلّ صافية

وشمّر الذيل بعدُ للصّدَر

ولا تَخَف في وُرُودِها ضرراً

فذلك الخوفُ باعِثُ الضرر

وقل لِمَن نفسُه مُحذّرة

أهَلْ يُرَدّ القضاء بالحذر

وليس يخطر للنفوس عُلا

ما لم تُجار جَواريَ الخطر

فهاتِها من دِنَان مغصَرة

تبث أخبار سالفِ العُصُر

لو أنها حدثت مُباشِرها

كانت تحدث عن أبي البَشر

من كفّ بَدوية مُخَدّرة

هبّتْ عليها شمائِلُ الحضر

شمس بأفق القلوب مطلعُها

تفترّ عن بَرَد وعن دُرَر

بيضاء ناعمة مُغنّيَة

تغنيك نغمتُها عن الوتر

يودّ سامعها إذا اقتصرت

لو أنها لم تَمِل إلى القِصَر

وله هذا التوشيح البديع، عارضه به توشيح (يا ليلة الوصل):

يا ليلة السّكر ويوم الخمار بين الصغار علمتمَا الأكواس رمي الجمار

بات يحيينا نسيمُ الرياض

حتى اكتسى الليلُ قميصَ البياض

كأنما يملا الطُّلا من حياض

مهفهف ينسيك ذاتَ الخِمار غِبّ المَزار يدير باليمنى لنا واليسار

فاشرب فما في شربها من جُناح

هذا غُرابُ الليل ضمّ الجَناح

وقَهقَه الإبريقُ والطير نَاح

وفاح كالعنبر نشرُ العَرارِ بين الثمار وأنشد القُمريّ حيّ الديار

واستنطقَ الأوتَارَ تحت الورق

ظبيٌ صفا منه الجبِين ورَقّ

قامَ وأهدى للعيون الأرَق

عارِضه فوق الخدود استدار ثم استنار وألبس الحُمْرة ثوْبَ اخضرار

بدرٌ على جيش المِلاح ظهر

يَغبَق ريحُ المِسك مهما ظهر

فهل رأيتَ الغصن لما زهَر

مستأنسٌ أصبح يبغي النّفار فما يُزار ووجهُهُ الجنّة حُفّت بنار

لما استحلّ الوصل لي واستباح

في ليلة تُنسي الليالي الصّباح

قلتُ وقد أسفَرَ وجهُ الصباح

يا ليلةَ الوصْل ولَيلَ العُقار دون استتار علّمْتُماني كيف خَلْعُ العذار

ومن أحسن قصائده المطوّلَة تلك الأرجوزة التي

عارض بها أرجوزة مُدرِك بن علي الشَّيْبَاني في محبوبه عَمْرو بن يُوحَنّا النّصْرانيّ المشهورة وهي قوله:

هــذي رســالــةٌ بــمــا فــي الــصــدر
مــن الــهَــوان والــهــوَى والــهَــجْــر
مــنــظــومــةً مــثــل الــلآلــي تَــزْري
بــكــلّ بِــكْــر مــن بــنــات الــفــكــر
فــشــعــرُهــا إنــســانُ عــيــن الــشــعــر
مــن عــاشــق عــانٍ بــمــا يُــعــانــي
تــفــجّــرت مــن عــيْــنِــه عَــيْــنَــان
فــقــلــبُــه مَــراتــعُ الــغِــزلان
ودمــعُــه قــلائِــدُ الــعِــقْــيَــان
مــنــظــومــةً فــي صــفــحــات الــنــحــو
تَــرمــيــه ألــحــاظُ الــمَــهَــا بــســهــم
ومــا لــه فــي وصــلــهــا مــن سَــهْــم
يــبِــيــتُ فــي فَــرْش الــضــنــا والــوَهْــم
دمــوعُــه مــثــلُ الــســحــاب تــهــمــي
حــدّثْ بــمــا تــشــاؤه عــن بَــحــر
أوْدَتْ بــه بــواعــثُ الأشــواق
فــهــامَ بــيــن الــنــاس فــي الأســواق
مُــذْ كــشَــفَ الــســاقــي لــه عــن ســاق
والــراحُ فــي إبــريــقِــه الــبَــرّاق
تــرمــي الــحَــشَــا بــشَــرَرٍ كــالــقَــصْــر

إلـى غَـزال مـن بـنـي الأتـراك

ألـحـاظُـه مـنـصـوبَـةُ الأشـراك

لـم تُـصِـبْـه شـكـايـةٌ مـن شـاك

ولـم تُـلِـنْـه دمـعـة مـن بـاك

ولـم يُـسـرّح مُـوثَـقـاً مِـن أسْـر

مُـقـرّط لاحـت بـه الأحـلاك

دارت بـأفْـق كـفّـه الأفـلاك

تـحـفَـظُـه بـيـن الـورى الأمـلاك

وهـا الـمـمـالـيـك وهـا الـمُـلاّك

مِـلْـكٌ لـه مـن رِقّـهـا والـحُـر

نـبـيّ حـسْـن بـيـن أهـل الـوجـد

آيـتُـه يـريـكـهـا فـي الـخـد

نـارُ الـجـحـيـم وجِـنـانُ الـخُـلْـد

هـل مُـعـجِـزٌ مِـثْـلُ اجـتـمـاع الـضـد

وآيُ لـيـلِ شـعـره إذْ يَـسْـري

يَـغـارُ مـنـه الـغـصـنُ إن تـثـنّـى

والـطّـيـر فـي أفـنـانـه إن رَنّـا

والـبَـدْرُ فـي أفـق الـسـمـا إن عـنّـا

والـظـبـي إن يَـرْنُ، وإن تـغـنـى

ألـقَـى الـهـزارُ سـمـعَـه والـقُـمْـري

لله جـمـرٌ بـفـؤادي اسـتَـعَـرا

مـذ جـاء يـتـلـو آيـةً فـي (الـشـعـرا)

وشمّر الذّيلَ وأرخى الشّعرَا
فبان ما أعيان جميع الشّعَرَا
ثقيلُ رِذف وخفيف خَضر
جرّدَ لي شَفراً من الأشفار
ووجهُهُ كالشمس في الإسفار
فليس في صحائف الأسفار
وما رأى مَن جدّ في الأسفار
كحُسْنه في البَحر أو في البرّ
وَاحَيرتي من حاجب أزَجّ
ومن جفون سحَرت بالغُنْج
وحُسْن ثَغر أبيضٍ كالثّلْج
وأغيُنٌ ذاتِ احورار دُعْج
وكسْر لحظٍ ما له من جَبْر
حتى مَ هذا القلبُ لا يَلِين
ولا يكاد عَطْفُه يَبِين
أما تُدان كالذي تدِين
فاجعل بميزانك ما يَزِين
وابتغِ في الأخرى جزيل الأجر
عليكَ أقسمتُ بليل الطّرّه
وطالِع الوجه وصُبْح الغُرّه
فذا أضلّ مَن سرى وغرّه
وذا هدَى الساري به وسرّه
وكم وكم رغّبَه في السيْر

بِحَق فرْق وجَبين وضحا

كالفجر أو كالشمس أو مثل الضحى

وجَبْهةٍ منها الصباحُ افتضحا

ومُقْلَةٍ تصيد ما قد سنَحا

من بَطَل يُخشى ومن هِزَبْر

بحق رِيقٍ راقَ فيه وِرْدي

وحق خدّ عَنْدَميّ وَرْد

وشامَةٍ كالمِسْك أو كالنَّدّ

ما إن لها في شكلها من نِدّ

في نَسْمة الشَّحْر ولوْنِ الحِبر

بحق ثغر جال فيه الراحُ

وطل منه الدرّ والأقاح

لو مُلِئت من ريقه الأقداح

لطارت الأرواح والأشباح

وأي كاسٍ مُسكِرٌ كالثغر

بحق خط الزّور فوق الشارب

كطلسمٍ يذُود عنه الشارب

وصدغك اللداغ كالعقاربْ

يرد من يروم أن يُقارب

للخد أو للثغر أو للنحر

بحق نَمل دَبّ فوق العارض

إن كان يُعتدّ بشأن العارض

وطِرف طَرف في فؤادي راكض
ما راضه في سَيْره من رائض
ما هكذا فعلُ الجواد الحُر
بحق خَضر شكّك الإخبارا
أباقِ أم من خِفّة قد طارا
وحق رِدْف ملأ الإزارا
كم مال في أحكامه وجارا
على ضعيف الخَصْر كلّ جَوْر
بحق معنى مُودع في الكَشح
وحق ساق لائح كالصّبح
أركبني فيه مَطايا القَرح
لو أنه بدا لذاتِ الصّرح
لمزّقت فيه ثيابَ الصبر
بحق قَدّ ينثني كالقُضُب
ولونِك المفضض المذهّب
يحمرّ مثلَ الشمس عند المغرب
قَرّبْ قليلاً عبدك ابن الطيّب
واسمخ له بالرفْع عند الكَسْر
... إلخ.

وقد كتَبَ عليها مبيّناً السبَبَ الذي حمله على معارضتها ما نصه: «لمّا أن وقفتُ على القصيدة الرائية المنسوبة إلى مُدْرِك بن علي الشيباني في محبوبه عَمْرو بن

يُوحنّا النصراني التي أولها: من عاشق ناءٍ هوان دان،...
رأيتُه قد تعدّى فيها طَوْرَه، وتجاوز من الغرام قَدْرَه، حتى رضي بنَقْض الإسلام إسعافاً لسلطان الغرام، واتخذ إلهه هواه، وأشرك بمن سواه، فمِن مقالتِه التي خرج فيها عن الإسلام قولُه في القصيدة بعد كلام:

إن كــان ذنــبي عــنــده الإســلامُ
فــقــد سعــت فــي نــقْـضِـه الأيــامُ
واخــتــلّــت الــصــلاةُ والــصــيــام
وحــلّ فــي الــديــن لــه الــحــرامُ
يــا خــيــبــتــي إن لــم أفُــزْ بــنــصــر

فإن كان بعد ذلك ثَاب، وأنابَ إلى الله وتَاب، وإلا فهو باق على الكفر، وأيديه من الإيمان صِفر، نسأل الله العافية والمعافاة، والسلامة من جميع الآفات. وقصيدتُه تلك مع رقّة معانيها، وسلامة تراكيبها ومبانيها، تمجّها الأسماع، وترغَب عنها الطباع، لكونه أبهَمَ فيها وأغْرَب، وأعجمَ في ألفاظها وأعرَب، لا يطّلِعُ على أسرارها إلا مَن أخذ بحظ مع النصارى أو كان واحد الأسارَى، ومن ثَمّ نظمتُ لها أختاً تناظرها، وتباحثها في صناعة الأدب وتناظرها، ليَعْلَم مَن قابل إحداهما بالأخرى، أن الأخيرة أوْلى بالتقديم وأحرى، فها هي تفتح من ديوان الأدب ما كان مقفولاً، وتتلو لِمُريدِها: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾.

وهذا الكلام غني عن التعليق ونحن إنما أوردناه تَنَدُّراً به فلا نُجاوز الغرض الذي أتينا به من أجله.

وشعرُ المترجم خلاف هذا كثير في المدح والتهنئة وغيرهما ولكنا نكتفي منه بهذا القدر ثانين عِطْف الكلام إلى نثره الذي هو قسم من أدبه له ميزته وطابعه الخاص. ونثره هو السجع المعهود الذي كان إلى أمد غير بعيد هو طريقةَ الكتابة الوحيدة وبضاعةَ الأدباء التي يتنافسون في تحصيلها أشد المنافسة. وإنّا مهما ذهبنا مع أشدّ الآراء زراية على هذا السجع وأخذْنا بكثرة الأقوال تهمةً للمسجعين لا يمكننا أن ننقص من شأن أديبنا وسجْعه السهل لأنه حقيقة لم يكن فيه من المتكلفين بل كانت عِبارتُه تلين بين بنانه، ويَراعتُه تجري طَلْقَةً في ميدانه، فلا يتوقف في سجعه أصغرُ المتعلمين لأنه لا تقْعير فيه ولا تفصُّح كيف وهو لم يضطر إلى ذلك في الشعر فما بالك بالنثر، وقد كان ينعَى على مرتكبي الغريب قصورَهم ولا يرى في التجائهم إلى الغرابة إلا ستراً لعجزهم وهاك قوله في خاتمة الأنيس المطرب:

«مَراتِبُ هؤلاء الرجال متفاوتة في الارتجاح والارتجال، فهم بين رئيس طاوعتهُ أقلامُه، ورسخَت في مراكز البلاغة أقدامُه، وانتشرت في عساكر المُبارزة راياتُه وأعلامُه، فهو في فنون الكلام يتصرّف، ويريد أن يُنكرَ فيأبى الله إلاّ أن يُعرّفَ، كلامه السهلُ يُسيل المدامع، وتُصغي له المسامع، ويَعِدُ بنظم مثله كلّ سامع، فإذا ريمَ أعْجَزَ، وماطَل في ذلك الوعد وما أنجَز؛ وبين آخر كثير الإغرابِ، راغبٍ عن الإعراب، لا يُعلم له مُراد، ولا يُفْهَمُ من أبياته إلا الأفراد، وهو إذا تأمّلته وجدتَه يتكلف ذلك الإبهام ليعمّيَ على الأفهام، ويُحتاجَ إليه للاستفهام، وليعلم أن له اطّلاعاً على اللغة، وأنه بلغ من الغريب ما بلغه»... إلخ.

ثم ما دمنا نتكلم على نثره والسياقُ سياقُ انتقاد فلننقُل ما كتبه رادًا على أديب مكناسي انتقد كلمةً في إحدى قصائده فإنه فصل طريف جداً زيادة على كونه مثالاً لسجع الرجل الذي قلنا: إنه لا كلفة فيه، ولاحظْ مع ذلك أن المقام لا يتحمل التقيد بالسجع والكلمة المنقودة هي العتب في هذا البيت:

إن تمُت يا محمد اليومَ لا تَعْـ
تِبْ فمِن قبلُ ماتت الأنبياءُ

قال: «أما بعد السلام عليك ورحمة الله وبركاته فقد بلغني عنك أنك طالعت قصيدتي العديمة النظير، الفائقة الدرّ النثير، والروض النّضير، المنظومة على الارتجال، بشهادة عدة من الرجال، فأنكرتَ كلمة العتْب من ذلك البيت، الموضوع لتسلية الميْت، وإني أقول: لو تزودتَ شيئاً من المعقول أو طرَفاً من المنقول، لتأملتَ قبل أن تقول، واخترت التسليم لأهل العقول، وهَبْ ذلك الخطأ قد كان، وتصور فيه الإمكان، فالإنسان لا تُؤمن عثراتُه ومصائبه، وكفى المرءَ نُبْلاً أن تُعدّ معايبه، وقد ذكرت في إيرادك، المبني على مُرادك، أني جعلت الميتَ لم يرضَ بالوفاة، ولم يقتدِ بمَن فات، وأن ذلك حمَلَه على عتاب مَن أماتَه، حيث لم يُطل حياتَه، فنهيتُه عن ذلك العتاب بهذا الخطاب، وقد حمّلتني في ذلك إثماً كثيراً وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، قلت: وهذا من البعيد الذي لا يمكن أن يُقصد، وتأويله لا يُنكر أبداً ولا يُجحد، وذلك أن قولي: لا تعتب، نعني على الموت الذي أصاب، فالكل به مُصاب، لا على

ربّ الأرباب، ومع ذلك فهي هنا مصروفة عن معناها الذي له وُضعَتْ، كما وردت في أشعار القوم وسُمِعَت. قال شاعرهم:

لا تــعــتــبــي يــا هــنــدُ إن مــتّ
فــكــلّــمــا حــيّ إلــى الــمــوت

أخذه من قول الآخر:

دَعِ العتب يا سلمى فإن ذقتِ مَوْتة
فــهــذا دعــاءٌ لــلــبــريــة شــامــل

وقرينةُ السياق تنفي ذلك المعنى البعيد، وتُعيّن الوجه الذي أريد، وفي هذين البيتين، تسهيل مُصِيبة الحَيْن، لما عُلِم أن الأمر إذا كان عام النزول، وكان لازماً لا يزول، خفّ حِمْلُه، وهان على الضعفاء حَمْلُه، فظهر بهذا أنه لا يلزم على هذه الكلمة شيء ولا يترتّب، لأنه يقال: لا تَعجبْ لمن عَجِب ومَن لم يعجَبْ ولا تعتِب لمن عتب ومَن لم يعتِب... إلخ».

وله من رسالة عتاب كتبها إلى صاحبه الأديب محمد بن العربي الشرقي:

... وبعد ما تستحقه تلك السيادة، الممنوحةُ بالحُسْنى والزيادة، من السلام الذي طابتْ نَفَحاتُه، وطالت غدواتُه ورَوحاتُه، والرحمة والبركة، ما هزّ ذكرك ساكنَ القلب وحرّكه، فإنه لما طال أمد الفراق، وبلغت الروحِ إلى التراق، وظُنّ أنه الحَيْن وقِيلَ مَن رَاق؟ فكرتُ فيما يفكّ من

يد الأشواق أسْري، ويجبر ما بين الأصحاء كسْري فقلت:

وبي منك ما لو كان بالشمس لم تَلُحْ
وبالبدْر لم يطْلُع وبالليل لم يَسْرِ

فما عثرتُ بعد معاناة البَيْن، ومعاتبة الدهر المفرّق بين المحبين إلا على بعض دُرَرٍ من كلامك استخرجتْ من بحور مَدَدك بمِداد أقلامك، كنت ادّخَرْتها عن القوم، لمثل هذا اليوم:

تفقدتها بعد السرور بأنسها
وفي الليلة الظلماء يُفْتَقَدُ البدر

فما زالت تذكرني أيام الوصال، وتُقطّع من غُراب البَيْن الأوْصال، وتُخْرِسُه إن صاحَ أوْ صال:

ذكرتُ بها بعد التفرق ما مضى
زمانَ اللقَا والشيء بالشيء يُذكر

إلى أن استولت عليها يدُ الضياع، وأعقبت لي ذلك الأمن بالارتياع، فأصبت من فراقك وإياها بلوعتين، واحترقت بجمرتين، والتدغْتُ من جُحْر مرتين:

وكنتُ كذي رجْلين رجل مريضة
ورجل رماها الدهر يوماً فشلّت

غير أن الآمال كانت تُسوّفني، والليالي لكتابك تُشوّفني، فكنت أصدق فيك الأوهام، وأعدّ حديثَها من الإلهام:

صدقتُ وهْمي في الحديث ولم أقل
خبر رواه الوهم وهو ضعيف

إلى أن ضاقت فسحة الأمل، وخرجت شمس الرجاء من دارة الحمَل، ووردت كتبك صريحةَ النصوص، لأفرادٍ على الخصوص، فقلت كيف يُحرم المتعفّف ويُعطى المُستَعِير، ويجعل فريق في الجنة وفريق في السعير، فما طرق أذني، ولا طرأ على ذهني، في قديم الدهر والحديث، أغربُ من هذا الحديث، وبذلك علمتُ أني كنتُ في ذلك الظن السالف، والاعتقاد المخالف، كمن تبرّد بالجمر، أو تطيّب بالخمْر، أو استجار بعمرو:

المستجيرُ بعمْرٍو عند كربته
كالمستجير من الرّمْضاء بالنار

وقديماً كنت لقَفتُ من فِيك، ولم أخَلْ أنك تنتسب لما ليس فيك، إنك ممن يقوم بالحقوق، ويبذل البُرُورَ لأهل العقوق، فما لك وقد علمتَ مني صدْقَ المحبة، التي لا يُظلَم منها مِثْقالُ حَبّة، قابلتني بالإعراض، ونسختني من ديوان الأغراض:

أغَرّكِ مني أن حبك قاتلي
وأنك مهما تأمُرِ القلب يفْعَل

فوالله لولا عهودٌ سلفت، وقلوبٌ تألّفت، ومواثيقُ تعددت، وأيمانٌ تجدّدت، ما قصدتُك بحرف، ولا نظرتك بطَرْف، بعدما حاربتُ من عُداتك الأجناد، وناديت بمديحك

في كل ناد، وعرّضتُ بقوة عارضتك. وأن لا يُطمَع في معارضتك، ومهّدت لك الأرض، ما بين طولها والعرض، وألهجْتُ الألسن بذكرك، وملأت الدنيا بحمدك وشكرك، فكان جميلاً منك أن تَسُلّني من القوم، سَلّ البارحة من اليوم، وإلى الآن فاقرأ كتابك، واصبر على ما أصابك، واعلم أن الدنيا للآفات، والحصبة للمكَافاة، فمَن كثُرت مكافاته قلّت آفاته... إلخ.

فمن هذه الرسالة والنصوص التي قبلها يعرف القارىء أن أسلوبه في الإنشاء على ما قلنا من الوضوح والبيان مع التزامه فيه للسجع والتقفية، وهو لا يخلو من عبارات مستحسنة، وتوريات لطيفة وتنزيل للأبيات الشعرية الدائرة على الألسن منزلها من الشاهد والدليل على عادة بلغاء الكتّاب القدماء.

هذا وما خلّفه المترجم من الآثار الأدبية هو الكتاب الذي ورد ذكرُهُ في هذه الترجمة مراراً ومنه نَقَلْنا هذه القطع الشعرية والفصول النثرية بل منه انتزعنا رُوحَ هذه الترجمة. واسمه الأنيس المطرب ترجم فيه اثني عشر أديباً من أهل عصره وضمّنه غالب شعره مع استطراد كثير وحشو غير يسير قال في خطبته:

«واقتصرْتُ من الرجال على المشهورين بين الجمهور، وأطلعْت فيه من الأهلّةِ بعدد الشهور، ولم أبخَل عليه، بما جرّ الكلام إليه من الحكايات، وبعض الشكايات، ومسائل عِلْمية، اقتضتها الصنعة القَلَميّة، وربما أدى الحال إلى المجُون. والحديث كما قيل شجون... إلخ»، وهو مطبوع

طبعاً حجرياً في فاس سنة ١٣١٥، إلا أنه كثير التصحيف رغم أن مصححه كان ممن ينتمي إلى الأدب وهو الفقيه الرايس رحمه الله. ومن آثار المترجم أيضاً القصائد المعشّرة، في التشويق إلى البقاع المطهرة، قال القادري: رتّبَ رَوِيّها على حروف المعجم كل قصيدة بعشرة أبيات إلى تمام الأحرف التي تصلح أن تكون رَوِيًّا.

وأخبرني صديقي الأستاذ البحّاثة محمد المنوني أن له كتاباً في فضائل الخيْل عنده منه نسخة.

وقد أراد أن يُطفىء غُلّة الشوق إلى البقاع المطهّرة فتوجه إلى ديار الشرق قاصداً بيت الله الحرام وزيارة قبرِ المصطفى عليه الصلاة والسلام، ولكن المنية حالت بينه وبين أمَلِه، فما بلغ الديار المصرية حتى حان حِينُ أجَلِه، فتوفي بالقاهرة رحمه الله سنة ١١٣٤ أو ١١٣٥، قاله القادري واقتصر بعضهم على الأخير ولم ندرِ ما مستنده.



ابن الونان
(ت ١١٨٧ هـ)

شهرته المطبقة، جهل أطوار حياته بالمرة نتيجة الإهمال، اسم ابن الونان، نسبه، بماذا كانت شهرة قومه، والده كان نديم السلطان، كان أصم، تكنية السلطان له بأبي الشمقمق، جريان هذه الكنية على عقبه، موت والده، اتصاله بالسلطان، كيفية ذلك، إنشاد أرجوزته، حصوله في معيته، وفاته، آثاره، إكثاره، شعره، بين أبي نواس وأبي العتاهية، آثاره من غير الأرجوزة، الأرجوزة، عدد أبياتها، أقسامها، قيمتها الأدبية، اعتناء الأدباء بها، شروحها، طبعتها، منتخبات منها.

لا مبالغة إذا قلنا: إن هذا هو الشخص الذي يكاد لا يجهله أحد من مختلف طبقات المثقفين عندنا صغاراً وكباراً، فهو قد أحْرَز على شهرة واسعة، بحيث لا تسأل عنه متأدباً ولو ناشئاً إلا وجدت عنده من أمره خبراً. ولا مبالغة أيضاً إذا قلنا: إنه مع ذلك الشخص الذي يكاد لا يعرف أحد من حياته قليلاً ولا كثيراً، فهو سر مكنون في

أحشاء التاريخ، ما زال الباحثون يقتصُّون آثاره؛ ويستقصون أخباره، وحسبك من الجهل به أننا لا نعرف تاريخ ولادته ولا تاريخ وفاته، إلا ما ذكره الأستاذ النميشي في وفاته مما نتعرض له بعد، والأمر الذي يُقضى منه العجب هو أنه ليس ببعيد العهد منا جداً حتى نجد سلوة في عدم الاطلاع على أحواله، وتعرُّف أطوار حياته، بل هو ممن درج بين يدَي العهد الأخير وسمعه وبصره، وأظلته دولة السلطان سيدي محمد بن عبدالله. فهل تريد دليلاً أقوى من هذا على إهمالنا لنبغائنا وعدم إنصافنا لهم حتى بعد مماتهم؟ وهل آن لنا أن نتخلص من هذا الإهمال الذي قضى على جل مآثر أسلافنا وبالتالي على أحسابنا الموروثة، وهي لِقاحُ الأحساب المكتسبة التي نسعى لإيجادها وتهيئة أسبابها؟

قلنا: إن ابن الونان هو الشخص الذي بقدر ما عُرِفَ جُهِل، وكما ذُكر نُسي، ومعرفته وذكره متأتّيان من أرجوزته المعروفة بـ(الشمقمقية) التي نحمد الله على سلامتها من عوامل الفناء التي اصطلحت على كثير من آثار الأدباء غيره وعلى كثير من آثاره هو غيرها وأما جهله ونسيانه فهو مما مُنِينا به من الإهمال الذي أشرنا إليه على أن صُبابة من أخباره مما بقي في بعض الأوراق كما يبقى السّؤر في كأس الشراب، تَقِفُنا على جانب من أمره، وتكشف لنا بعض سرّه.

فأول ما نذكر مما نعرفه عنه اسمه ونسبه: فهو أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد بن الوَنّان، الحِمْيري النسب، المُلُوكي القبيل، التواتي الأصل، الفاسي الدار،

وهو يُدْلي إلى الحِمْيريّة بقومه بني مَعْقِل من عرَب الصحراء الذين تملكوا وطنه تُوَاتَ بعد زِناته، وبنو مَعْقِل هؤلاء رجّح ابن خلدون أنهم من مَذْحِج. ومَذْحِج من كهْلان ابن سبإ أخي حِمْيَرَ، وبهذا يفسر افتخار المترجم بالأنصار في الشمقمقية لأن نسب الأنصار في كهْلان، لكن شهرة قومه بفاس إنما كانت بأولاد الونّان.

ثم نذكر أن والده كان من ندماء السلطان سيدي محمد بن عبدالله، وكان أديباً ظريفاً، خفيف الروح، لطيف الحس، صاحب نوادر ومِلَح. قال أبو عبدالله الحَرِيري: وكان شديد الصمم، قد زال حس سمعه وانعدم، وكان مع ذلك يفهم بلطيف الإشارة ما لا يفهمه غيره بصريح العبارة، حتى إنه يجيب عما يكتبه الكاتب على أعضائه في الظلام، وعما يرقُمه الراقم في الهواء نهاراً من الكلام، من غير أن يبطئ في الجواب ويخطئ عين الصواب فهو كما قال الشاعر:

تُشير له بلحظك من بعيد   فيفهم طَرْفُه عنك الإشارة

وهذا لا يستغرب ممن كان على شاكلته، فإن ما حجبه الله من سمعه قد أفاضه على سائر مشاعره، فقَوِيَ بذلك إدراكُه ولطُف حِسُّه. وقد يكون هذا مما قوّى رغبة السلطان فيه وزاد اغتباطه به.

ولقد كان من أثر إعجابه به أن كناه بأبي الشمقمق تشبيهاً له بذلك الشاعر الكوفي الماجن الذي نقرأ أخباره الطريفة في الأغاني والعقد الفريد والكامل وغيرها من كتب

الأدب، فلزمته هذه الكنية وصارت علَماً عليه فكان لا يُدعى بعد ذلك إلا بها بل تخطته إلى ابنه بل تخطت ابنه إلى أرجوزته فلا تدعى إلا بالشمقمقية.

هذا كل ما نعرفه عن والد شاعرنا، بل كل ما نعرفه عن شاعرنا نفسه إلى حين اتصاله بالسلطان سيدي محمد بن عبدالله إنما المفروض أن هذا الوالد الموهوب قد بذل غايةَ جهده في تربية ولده وتنشئته على أكمل الصفات. وقد ذكر الجَرِيري أنه تلقى دروسه العلمية بفاس على الجِلة من مشيختها كمحمد بن قاسم جَسّوس وعمر الفاسي ومحمد التاوُدي ابن سُودَة ومحمد بن الحسن بَنّاني وغيرهم من أهل هذه الطبقة. وأخذ الشعر والأدب عن والده فبَرع ونَبغ، وما راعنا إلا أن رأيناه على بساط البَلاط العلوي ينشد شمقمقيته فيستحسنها السلطان، ويجزل صلته ويرفع منزلته.

ولا نظن أن اتصاله بالسلطان سيدي محمد بن عبدالله كان في حياة والده، لأن الوسيلة التي اتخذها إليه تمنع من أن يكون والده في مَعِيّة السلطان ويتكبّد هو المشاق للوصول إليه لإنشاده شعراً يمدحه به، إلا أن يكون ذلك الوالد قد كبر جداً أو مرض حتى لم يعد في مقدوره حضورُ مجلس السلطان وهذا الوجه على ما فيه من التكلُّف غير مقبول تماماً فلنُمِرّ القصةَ على سجيتها ما دام ليس هناك نص تاريخي يلزَمُنا الأخذُ به ولنقل: إن والده قد مات وأنه بقي مدة يعلل نفسه بالحصول على مكانته من السلطان؛ خصوصاً وليس ما يمنعه من ذلك مع أدبه الجم وشعره النفيس فعَمِل أرجوزتَه وقصده بها. لكن الحسود الكنود الذي يعرف من

فضله ما لا يعرف غيرُه ويخشى من مزاحمته لدى السلطان، كان يقف حجرَ عثرة في سبيله ويمنعه من الوصول إليه. فلما أعياه الأمر تحيّن خروج السلطان في بعض المرار واعترضه في موكبه وصَعِد نَشْزاً عالياً من الأرض ونادى بأعلى صوته:

يا سيّدي سِبْطَ النبِي   أبو الشمقمق أبي

فعرفه السلطان وأمر بإحضاره بعد بلوغه إلى منزله فحضر وأنشد الأرجوزة التي نالت رضى السلطان ورفعت مرتبة الشاعر عنده.

وهنا ينسدل حجاب الغموض تماماً على حياة شاعرنا فلا نعرف عنه بعد ذلك ما قلّ ولا ما جل حتى تاريخ وفاته الذي إنما استكشف أخيراً وكان الفضل في استكشافه للأستاذ النميشي فهو الذي ذكر في مسامرته تاريخ الشعر والشعراء بفاس أنه توفي سنة ١١٨٧، وقد بقينا في حيرة من ذلك التاريخ لانفراد الأستاذ به. ثم ألقي إليّ أنه وقف عليه في كناش لبعض العلماء المتوفين قريباً بفاس، وكان باستطاعتي أن أقف على ذلك الكناش في إحدى زياراتي لفاس، لكني لم أفعل لضيق الوقت ولثقتي بأمانة الناقل.

وبعد، فلننظر في آثار أدبينا التي ما وصل إلينا منها إلا أقلّ القليل على ما نعتقد، لأن ابن الونان كان شاعراً مكثراً سيّال الطبع كما يُعلم من قول الجريري: «وكان حسن النظم مِكْثاراً، لا يخاف جَوادُ لسانه عِثاراً». وكما يعلم من دراسة هذا النزر اليسير الذي بأيدينا من شعره وخصوصاً أرجوزته، فإنه لم يكن على ما يظهر من الشعراء «الحوْليين» كثيري

العناية بشعرهم، الذين ينظمون القصيدة في ليلة وينقّحونها في سنة، بل كان يُرْسِل نفْسَه على سجيتها ولا يعبأ باللفظ ينبو عن الموضع الذي وضعه فيه، ولا بالعبارة تكون قلقة بإزاء أختها المطمئنة ومن كان ذلك فأخرى به أن يُخلّف ديواناً ضخماً من الشعر لأنه قد ينظم عدة قصائد في اليوم الواحد كما قال أبو نواس لأبي العتاهية، وقد سأله مرة كم تعمل في يومك من الشعر؟ فقال له: البيت والبيتين. فقال أبو العتاهية: لكني أعمل المائة والمائتين، فقال أبو نواس لأنك تعمل مثل قولك:

يا عُتْبَ ما لي ولك يا ليتني لم أرَكِ

ولو أردت مثلَ هذا الألف والألفين لقدرت عليه.

ومن قول أبي عبدالله الجريري في مقدرتِه الأدبية: «وكان الناظم على ما بلغني شاعراً ماهراً، وفحلاً هادِراً، ذا وُجْد وإجادة، وقريحة وقادة، وبديهة بارعة، وفكرة لأبكار المعاني فارِعَة، وكان حسن النظم مكثاراً، لا يخاف جواد لسانه عثاراً، ألقت إليه الصناعةُ الشعرية زمامَها، وفوضت إليه أحكامها، ووقفت عليه نقضَها وإبرامَها، حتى صار في عصره قُطبها وإمامَها. مُبرّزاً على إبطال الكلام وفُرسانه، قاهراً لأدباء زمانه، بإكثاره وإحسانه، وكان مع ما خوّله من الإكثار والإحسان، مُولَعاً بالهجو بَذِيّ اللسان، معجب بشعره ونثره، مزهُواً بأدبه وثقوب فكره، ذاهباً بنفسه كلّ مذهب، لا يحيد عما اعتاده من ذلك المذهب، ريّانَ من الفصاحة اليَعْرُبية، ملآنَ من العلوم العربية، كاللغة والنحو... إلخ.

وما أشار إليه من ولُوعه بالهجو يدل عليه ما في

الشمقمقية من ذم الحسود والتشنيع عليه وتوعده بإغراقه في بحر الهجاء:

فبشّرنْ ذاك الحسود أنه
يظفرُ في بحر الهِجا بالغرق

وقد سمعت من غير واحد من الأعلام أن ابن الونّان يقصد بكلامه هذا عصريه الأديب الكاتب أبا عبدالله محمد بن الطيب سُكَيْرِج، وأنه كانت بينهما منافسة تستدعي تراشُقَهما بأمثال هذه الأبيات ويؤيد هذا ما وقفت عليه من شعر سكيرج المذكور بخطه يهجو فيه منافساً له ويشاركه في الفخر بالانتساب للأنصار، وليس هذا المنافس قطعاً إلا ابن الونّان. ومن قوله في هذا الشعر:

ألا قُلْ لِغُمْر جاهل وحسود
غبِي بليد الطبعِ جِلْف جمُود
يُنافس في العلياء حَبْراً مهذّباً
له في مقام المجد خيرُ شهود
لَعمري لقد أرقيتَ نفسك للعلا
بلا سُلّم إذْ لم تبُؤْ بفريد
وحاولتَ أمراً لستَ تعلم أنه
تمنّع عن ذي مَنعة وعديد

... إلخ.

وإن شئت فقف على القصيدة كلها في الجزء الثالث من كتابنا النبوغ المغربي.

ولمناسبة ذكر شعر سكيرج المنقول من خطه أذكر أني وقفت على خط مترجمنا ابن الونّان على ظهر نسخة مخطوطة من ديوان الحماسة لأبي تمام. وهي من محتويات خزانة باشا تطوان الحالي السيد اليزيد بن صالح، وهذه النسخة مرتبة على حروف المعجم أولها أبيات قيس بن الخطيم الأنصاري:

ثأرتُ عَدِيًا والخطِيمَ ولم أُضع
ولايةَ أشياخ جُعِلتُ فِداءَها

... إلخ.

ولعل أول ورقة منها بخطه أيضاً كما تخللتها أوراق أخرى بنفس الخط. وهذا نص ما على ظهرها: «اشترى الأديب البارع الفقيه المطالع سيدي الطيب بن صالح من كاتبه الواضع اسمَه عقب تاريخه بخمس أواق هذا الديوان المسمى بالحماسة سابع رمضان عام سبعين ومائة وألف» ثم الشكل.

وتحته منحرفاً عنه قليلاً بعد الحمدلة والتصلية: «مِلْكٌ لله ثم لعبده المذكور في السطر أعلاه عبد الله تعالى محمد الطيب بن صالح تداركه الله بخفي لطفه بالشراء من الأديب النحوي الفقيه البليغ أبي العباس سيدي أحمد وَنّان بالثمن الذي ذكره» ثم الشكل.

وخط ابن الونّان أملح من خط ابن صالح وإن كان كل منهما حسناً.

وآثارُ ابن الونّان التي بأيدينا من غير الأرجوزة هي

قطعة شعرية مدح بها سيدي محمد بن عبدالله، ورسالة مسجعة كتب بها إلى الشيخ سيدي المعطي ابن الصالح صاحب ذخيرة المحتاج ثم أتبعها بشعر في مدحه، وبيتان في مدح سيدي محمد بن عبدالله، وثلاثة أبيات قالها في ترفُّعه عن أخذ الزكاة وهذه كلها تجدها في شرح العلامة الناصري للشمقمقية. وليس منها أصلاً البيتان اللذان نسبهما له العلامة الناصري والأستاذ النميشي في الاعتذار عن بحر الكبراء على الشعراء، وهما:

قد بانَ لي عُذْرُ الكرام فَصَدّهم
عن أوْجُه الشعراء ليس بِعار
لم يسأمَوا بذلَ النوال وإنما
جمَد الندى لبرودة الأشعار

فقد ذكرهما العلامة الأفراني في شرح التوشيح ونسبهما لابن حكّينا البغدادي كما ذكرهما صاحب معاهد التنصيص، وكلا الرجلين ممن عاش قبل ابن الونّان بكثير.

وله غيرَ ما ذُكِر نظمٌ رصين لمسائل ابن خميس المعروفة، وهو أحسن الأنظام التي تضمنت تلك المسائل، وقد ذكرناه في مجموعتنا (أراجيز البلاغة).

أما الأرجوزة أو الشمقمقية فهي أعظم آثار ابن الونّان، وديوانُ أدبه، ونموذج شاعريته، ومثال نظمه، ولكثير من الأدباء إعجاب بها يجاوز حد ما تستحق، وهي على روي القاف وعدد أبياتها ٢٧٥، وتنقسم بحسب الأغراض الشعرية إلى ثمانية أقسام:

١ ـ النسيب بذكر رحيل الأحبة، ووصف الإبل التي تحمّلوا عليها والبيد التي تعسّفوها، ولَوم الحادي على جدّه السير ليل نهارَ حتى أضرّ بالإبل ضرراً بليغاً، وتذكيره بمن يحمِلْن على ظهورهن من النساء اللاتي لا طاقةَ لهن بذلك السير العنيف، وإظهاره شديد العطف على الإبل هذه حتى تبرّع وهو يُسِرّ حَسْواً في ارتغاء بالريادة لها والقيام عليها أحسن قيام.

٢ ـ التغزل بصفات محبوبته، وما هي عليه من فنون المحاسن وضروب المفاتن.

٣ ـ الحماسة والفخر.

٤ ـ مخاطبة الحسود.

٥ ـ الحكم والأمثال والوصايا.

٦ ـ مدح الشعر.

٧ ـ مدح السلطان.

٨ ـ مدح الأرجوزة، وتحدّي الشعراء أن يأتوا بمثلها.

أما قيمتها الأدبية فلا نطيل الكلام فيها بعدما عرفنا مما تقدم الشيء الكثير عن أسلوب ابن الونّان وطبقة شعره. وإنا لا نغلو فيها غلوّ تلك الطائفة التي تجاوز بها حد ما تستحقه من الإعجاب، ولا نبخَسُها حقها وكونها حقيقةً في بعض الأقسام تسمو إلى درجة المطبوعين من الشعراء حتى لا تعدو بها طبقةَ ابن دُريد وغيره من أصحاب هذا النوع من الأراجيز الأدبية المطوّلة، إنما هي في بعض الأبيات تسفل

حتى لا يبقى فرق بينها وبين «الألفيات». وغالب ذلك في هذا القسم الذي يصف فيه البِيدَ والقفار، والنباتات والأشجار، والحيوانات والأطيار، وفي قسم الحكم والأمثال والوصايا.

أما القسم الأول: فلأنه حشَر فيه من الألفاظ الغَرِيبة والكلمات الحوشِية مما يتعلق بوصف تلك الأمور المشار إليها ما جعله كأنه متْنٌ من متون اللغة.

وأما القسم الثاني: فإنه أراد أن يسلك في ضرب الأمثال طريقة ابن دريد في مقصورته من الإشارة إلى مَوارِدها، والتَزم ذلك التزاماً كلياً وأغمضَ فيه كلّ الإغماض، فعَمِيت أنباؤه على القارىء وصار لا يدرك لها معنى إلا إذا كان بجانبه من يفسرها له. وبذلك خرج هذا القسم عديمَ الانسجام قليل الفائدة. فمثلاً تجد هذا البيت البليغ:

لا تأمن الدهر فإن خطبه

أرشقُ نَبْلاً من رُماةِ الحذَق

وبجانبه هذا البيت الذي أكبر القصد منه ذكر الطالقاني والخصيب:

لا تنسَ من دنياك حظاً وإلى

كالطّالقَاني والخصِيب انطلِق

على أن إرادته ـ فيما يظهر ـ لمكاثرة أسلافه من ابن دُريد وحازم والمكودي في إيراد الأمثال واستيعاب الأخبار

هي التي أركبته هذا المركب الصعب وجعلته يُسِفّ في تضمينها هذا الإسفاف.

ومما هو جدير بالذكر أنه وإن نسج على منوال هؤلاء فإنه قلّ أن يستعمل هذه الأمثال استعمالهم أو يستعير صورة من صورهم الكلامية، ولا كذلك المكوديّ في مقصورته فإنه أخذ عن سابقيه كثيراً من عباراتهم وجُمَلاً من تصويراتهم. فمِمّا وقع لمُترجمنا من ذلك ويكاد يكون الوحيد من نوعه قوله:

(وبـيـن جـنـبَـيّ فـؤاد) ابـن أبـي
صـفـرة قـاطـع قـرا ابـن الأزرق

اقتبس أولَه من قول حازم:

وبـيـن جَـنـبَـيّ فـؤادٌ لـم يـرُع
جـنـابَـه شـيـبٌ بـفَـوْدي بـدا

وأما قوله في وصف السّراب:

كـأنـمـا رَقـراقُـه بـحـرٌ طـمـا
والـنّـوقُ أمـواجٌ عـلـيـه تـرتـقـي
وكـلّ هـوْدَج عـلـى أقْـتـابـهـا
مـثـلُ سـفِـيـنِ مـاخِـر أو زَوْرق
مرّت بـهـا هُـوجُ الـريـاح فـهـي فـي
تـفـرّق حـيـنـاً وحـيـنـاً تـلـتـقـي

فيظهر أنه أخذه من قول اليوسي في قصيدته الدالية:

فـكـأنـه بـحـرٌ عـلَـوْنـاه ومـا
حِـيـتـانـهُ غـيـرُ الـذّبـا والـجـدجُـد

بسَفِين خُوصٍ كالحنايا ضُمَّر
نُجُب بأشرِعة الهوادي تَهْتدي
يهتاجها رِيحُ الصّبابةِ لا الصّبا
وغناءُ كلّ مطوّق متغرّد

وعلى الجملة فهي أرجوزة ظريفة جامعة لكثير من فنون الأدب، وأخبار العرب، وهي على عالمِية صاحبها أدلُّ منها على شاعريته، ولمكانتها التي أشرنا إليها عند الأدباء، فقد عارضها ابن عمْرو الرباطي من أدباء القرن الثالث عشر، واعتَنى بشرحها جماعة منهم العلامة أبو عبدالله الجرِيري السّلَوي، والعلامة الناصري «صاحبُ الاستقصا» وشرحُه شرحِ حافل، وغيث من الأدب هاطل، والعلاّمة أبو حامد البطّاورِي. ولم نقف نحن إلا على شرح الناصري وهو مطبوع بفاس عام ١٣١٤ في مجلّدين وعنه نقلنا ما سبق من كلام الجريري. ولنا عليها شرح مختصر طبع بمصر عام ١٣٥٤. ثم أعيد طبعه مراراً.

وطبعت على حِدَتها، ضمن مجموعة من المتون العِلْمية، طبع حجرَ بفاس ١٣١٥هـ.

ولنذكر الآن نبذة مختارة منها نجعلها تتمة لهذا البحث والأرقام بإزاء الأبيات إشارة إلى القسم المنقول عنه:

١ ـ مهلاً على رِسْلِك حادي الأينُق
ولا تكلّفها بما لم تُطِق
فطالما كلفتها وسُقْتَها
سوْقَ فتى من حالها لم يُشفِق

ولم تزل ترمي بها يدُ النوى
بكل فَجّ وفَلاةٍ سَمْلَق
وما ائتلتْ تذرعُ كلّ فدفَد
أذرعُها وكلّ قاع قَرق
وكلّ أبطحَ وأجرعَ وجِزْع
وصريمةٍ وكلّ أبْرَق
مَجاهلٌ تحارُ فيهنّ القطَا
لا دِمْنَةٌ لا رَسْمُ دارٍ قد بقي
ولم تزل تقطعُ جِلبابَ الدّجى
بِجَلَم اليد وسيْف العنُق
فما استراحت من عبور جغفَر
ومن صُعود بصعيد زَلَق
ألا وفي خضخاض دمعِ عينها
خاضتْ وغابت بسراب مُطبِق
كأنما رَقراقُه بحرٌ طما
والنّوقُ أمواج عليه ترتقي
وكلّ هَوْدَج على أقتابها
مثلُ سَفِين ماخر أو زورق
مرّتْ بها هُوجُ الرياح فهْي في
تفرُّق حيناً وحيناً تلتقي
وكم بِسَوط البغي سُقْت سُوقها
سوقَ المعنّف الذي لم يتق

حتى غدت خُوصاً عِجافاً ضُمَرا
أعناقُها تشكو طويل العَنَق
مرثومة الأيدي شكت فرطَ الوَجا
لكنها تشكو لغير مُشفق
من بعد ما كانت هُنَيْدَة غدت
أكثرَ من ذَود ودُونَ شَنق
وإن تماديْت على إتعابها
ولم تكن مُنتَهِياً عن رَهَق
فسوف تعرُوك على إتلافِها
ندامةُ الكُسَعِيّ والفرَزْدق
وكنتَ قد عُوّضتَ عن أخفافِها
خُفَّيْ حُنَيْن ظافِراً بالأنَق
لأنتَ أظلمُ من ابن ظالم
إن كنتَ من بعدُ بِها لم ترفُق
رفقاً بها قد بلغ السيلُ الزّبَى
واتّسع الخرقُ على المرتّق
وهبْ لأيْدِيهنّ أيْداً ولها
متْناً متيناً ما خلا عن مصدَق
فما لظُعْن حمَلتْ من مِرّة
بظَعَن أودى بها في الغسق
أساْتَ للغيدِ وللنّوق ولي
إساءةً بتوبة لم تُمحَق

لو لم يكن بحُبّ حِلْم أحنَفِ
والمِنْقَريِ قلبيَ ذا تعلق
حملتُ رأسَك على شَبا القنا
مُروّعاً به حُداةَ الأينُق
فسُقْ فلا نعِمَ عوْفُك ولا
أمِن خوْفُك ولا تَذرَنْفِق
ودع يسُوق بعضُها بعضاً فقد
دنا وُلُوجها بوَغر ضيّق
ولْتَتّخِذْني رائداً فإنني
ذُو خِبْرة بمُبْهَمات الطرُق
إن غَرِثَتْ علَفْتُها ولو بما
جمعته من ذهَب ووَرِق
أو صَدِيث أوردتُها من أدمعي
نهرَ الأبلّة ونهرَ جِلّق

* * *

٢ ـ رفقاً بها شفيعها هوادجٌ
غدت سماءَ كل بدر مشرق
مِن كل غيداء عَروب بَضّة
رُعْبوبة عَيْطاء ذات رونق
خريدة ممْسُودة رَقْراقة
وَهْنانةٍ بَهْنانَةِ المُعتَنق
وقُل لربّات الهوادج انجلينَ آمِناتِ فزَع وفرَق

فـإنــي أشـجـعُ مـن ربـيـعـة
حـامي الـظّعينة لـدَى وقـت الـلّقي

فـربّـمـا يـبـدو إذا بـرَزْنَ لـي
رِيـمٌ إلـيـه طـار بـي تـشـوقـي

لُـبْـنـيَ ومـا أدرتـك مـا لُـبْـنـي بـهـا
عُـرِفـتُ صـبًّـا مُـغـرَمـاً ذا قـلـق

تـسـبِـي بـثـغـر أشـنَـب ومَـرْشِـف
قـد ارتـوى مـن قـرقـف مـعـتّـق

ونـاعِـم مُـهَـيْـكـل وفـاحِـم
مـرجـل وحـاجـب مـرقـق

وعـقِـب مُـحَـجّـل ومِـغـصَـم
مُـسَـوّر وحـاجـب مُـرَقّـق

ومُـقـلـة تـرمـي بـقَـوْس حـاجِـبِ
لاحِـظَـهـا بـسـهْـمـهـا الـمُـفـوّق

تـمـنـع مـسّ جـسـمـهـا لـثـوبـهـا
ثـلاثـةٌ مـثـلُ الأثـافـي فـي الـرّقـي

حُـقّـان مـن عـاج وقَـعْـبُ فـضـة
مـن ظـاهـر وبـاطـن كـالـشـفـق

وزاد مـسـكُ الـخـال ورد خـدهـا
حُـسـنـاً وقـد عـمّ بـطـيـب عَـبِـق

وقـبّـلـت أقـدامـهـا ذوائـب
سُـودٌ كـقـلـب الـعـاشـق الـمـحـترق

كم أودعت في مقلتي من سهر
وأضرمت في مُهجتي من حَرق
ولا يزال في رياض حسنها
يسرحُ فِكري ويجُول رَمقي
ولا تسَلْ عما أبُثّ من جَوى
وما تُريق من دموع حَدقي
يومَ اشتكى كلّ بما في قلبه
لحِبّه بِطَرْفه بما لَقي

***

ما عُذْرُ مَن يشكو الجوى لمن جفا
وهوَ لدمع عينه لم يُرِق
آه على ذكر ليالٍ سلَفت
لي معها كالبَارِق المؤتَلق
في مَعْهَد كُنّا به كنخلَتَيْ
حُلوانَ في وصل بلا تفرّق
نِلْنا به ما نشتهي من لذة
ودَعة في ظل عَيْش دَغْفَق
أزمانَ كان السعد لي مساعداً
ومُقْلةُ الرّقيب ذات بخَق
واليوم قد صار سَلام عزّة
يُقْنِعُ من لُبْنَى إذا لم نلتق

***

٣ ـ والله لـو حـلّـتْ ديـارَ قـومـهـا
واحـتـجـبـت عـنـي بـبـاب مُـغْـلـق
لَـزُرتُـهـا والـلـيـل جَـوْنٌ حـالـك
وجـفـنُـهـا لـم يـكـتـحـل بـارق
مـع ثـلاثـةٍ تـقـي صـاحـبـهـا
مـا لـم تـكـن نـونُ الـوقـايـة تَـقـي
سـيـفٌ كـصَـمْـصـامـة عـمْـرو بـاتـرٌ
لا يُـتّـقـى بـيَـلـب ودرَق
وبـيـن جـنـبـيّ فـؤاد ابـنِ أبـي
صُـفْـرَة قـاطـعِ قَـرا ابـنِ الأزرق
وفـرَسٌ كـداحِـس أو لاحِـق
يـومَ الـرّهـان شـأوُه لـم يُـلـحَـق
تـقـدَحُ نـيـرانَ الـحُـبـاحِـب حـوا
فِـرُه عـنـد خـبَـب وطـلَـق
كـالـريـح فـي هـبُـوبـه والـسّـمْـع فـي
وثُـوبـه وكـالْـمَـهـا فـي فَـشَـق
بـه أجُـوسُ فـي خـلال دارهـا
وأنـثـنـي كـالـبـارقِ الـمـؤتـلِـق
فـإن تـكُ الـزبّـا دخـلـتُ قـصـرهـا
وكـقَـصـيـر سُـقْـتُـهـا لـلـنـفَـق
ومَـن حـمـاهـا كـكُـلَـيْـب فـلـه
جـسّـاسُ رُمـح راصـد بـالـطـرق

لا بـد لـي مـنـهـا وإن تـحـصّـنـت
بـالأبـلـق الـفَـرْد وبـالـخَـوَرْنَـق
لا بـد لـي مـنـهـا وإن عـثَـرتُ فـي
ذيْـل الـحُـسـام والـسّـنـان الأزرق
وإن ظـفـرتُ بـالـمُـنـى مـن وصـلـهـا
بـالـغـثّ فـي صـيـانـة الـعِـرض الـنـقـي
وإن بـقِـيـت مـثـلَ مـا كـنـت فـلا
زلـت بـغـيـظَ مـضـجَـعـي ونـمـرُقـي
أشُـنّ كـلّ غـارة شـغـوًا عـلـى
مـن يـحْـمِـهـا فـي مِـقْـنَـب أو فـيْـلـق
وفـي خَـمـيـس مـن خـيـار يَـعْـرُب
ذوي رمـاح وخُـيُـول سُـبّـق
مِـن أُسـرتِـي بـنـي مُـلُـوك فـهـمُ
أطـوعُ لـي مـن سـاعـدي ومـرفـقـي

* * *

سـلِ ابـنَ خـلـدون عـلـيـنـا فـلـنـا
بِـيَـمَـنٍ مـآثـرٌ لـم تـمـحـق
وسَـلْ سـلـيـمـانَ الـكـلاعـي كـم لـنـا
مـن خـبَـر بـخَـيْـبَـر وخَـنْـدق
ويـوم بـدْر وحُـنَـيْـن وتَـبُـو
كِ والـسّـوِيـق وبـنـي الـمُـصْـطَـلـق

بـهـم فـخـرتُ ثـم زاد مـفـخَـري
بـأدبـي الـغـضّ وحُـسْـن مـنـطـقـي
وزانَ عـلـمـي أدبـي فـلـن تـرى
مَـن شِـعـرُه كـشِـعـريَ الـمـنـمـق
فـإن مـدحـتُ فـمـديـحـي يُـشـتـفـى
بـه كـمـثـل الـعـسـل الـمُـروّق
وإن هـجـوتُ فـهـجـائـي كـالـشّـجـى
يـقِـف فـي الـحـلْـق ومـثـل الـشّـرَق

* * *

٤ ـ فـبَـشّـرَنْ ذاك الـحـسـودَ أنـه
يـظـفَـر فـي بـحـر الـهـجـا بـالـغَـرَق
وقـل لـه إذا اشـتَـكَـى مـن دنَـس
أنـتَ الـذي سـلـكْـت نـهـجَ الـزلـق
وفُـقْـتَ فـي الـجـزأة خـاصـي أسـدٍ
فـمُـتْ بـغـيـظـك وبـالـرّيـق أشـرَق
ومـا الـذي دعـاك يـا خَـبّ إلـى
ذا الأفـعُـوان ذي الـلـسـان الـفَـرَق
نـطـقـتَ بـالـزّور أمـا كـنـتَ تـعِـي
أن الـبـلا مُـوكّـلٌ بـالـمـنـطـق
ولـم تـخَـفْ من شاعر مهما انتضى
سـيـفَ الـهِـجـا فـرَى جِـبـالَ الـعُـنـق

فلْتَقِ نفسَك بكفِّك ولا
تسُمْ فصيحَ النطق بالتمشدق
فذاك خيرٌ لك واستمع إلى
نُصح الحكيم الماهر المدقّق

***

٥ ـ فكُن مهذّب الطباع حافظاً
لحِكَم وأدب مُفترق
وعاشِر الناس بخُلْق حسن
تُحمَد عليه زمَن التفرّق
ولا تصاحِب من يَرى لنفسه
فضلاً بلا فضل وغير المتقي
وكلّ من ليس له عليك من
فضل فلا تُطمِعْه بالتملّق
وفوّقن سهْمَ التَمَيْرِيَ لِمَن
لِطُرق العلياء لم يُوفّق
وافعلْ بمن ترْتَابُ منه مثلَ فعـ
ـل الملتمس اللبيب الحذِق
ألقى الصّحيفةَ بنهر حِيرَة
وقال يا ابنَ هِنْد ارعُد وابرق
ولا تعِذ بوعْد عُرقوبَ أخاً
وَفِهْ وَفا سمَوْألِ بالأبْلَق

شـحّ بـأذرُع امـرئِ الـقـيـس وقـد

تـرك نـجْـلَـه غـسِـيـل الـعَـلَـق

ومـــثـــلَ جـــارِ لأبـــي دؤادَ لا

تـطـمـع بـه إن لـم تـكـن بـالأحـمـق

واخـمَـد جـلـيـسـاً لا تـخـاف شـره

وكـابْـن شـوْر لـن تـرى مـن مُـطـرق

ونَـم كـنَـوْم الـفَـهْـد أو عَـبّـود عـن

عـيْـب الـورى والـظـنّ لا تـحـقـق

ولْـتَـكُ أبـصـرَ مـن الـهـدهـد والـزّر

قَـا بـعـيْـب نـفـسـك الـمـحـقّـق

وكـن كـمِـثْـلِ واسِـطـيّ غـفـلـةً

عـن شـتـم ضـارع وعـتْـب سُـقُـق

واغـدُ عـلـى رِجـلَـيْ سُـلَـيْـك هـاربـاً

مـن قُـرب كـل خُـنْـبُـق وسَـهْـوق

وكُـنْ نـديـمَ الـفـرقـديـن تـنـجُ مـن

مُـنـقّـص ومـن طُـرُوّ الـرنَـق

وكـن كـعـقـرب وضـبّ مـع مـن

عـلـيـك قـلـبُـه امـتـلا بـالـحـنَـق

ثُـمّـتَ لا تـعـجَـلْ وكـن أبـطـأ مـن

غُـراب نُـوح أو كـفِـنْـد الـموسِـقـي

مـضـى لـنـار طـالـبـاً وبـعـدَ عـام

جـابـهـا يـسُـبّ فـرط الـقـلـق

وخـذ بـتـارك وكُـن كـمَـن أتـى

بـالـجـيـش خَـلْـفَ شـجـر ذي ورق

وانـتـهِـز الـفُـرصـة مـثـلَ بَـيْـهَـسٍ

وبـالـمُـدَى لـخـمَ الـعُـداة شـرّق

وكـابـنِ قَـيْـس بـهـمُ كـن مُـولِـمـاً

ولـيـمـةً شـهـيـرة كـالـفَـلـق

يـومَ مِـلاكِـه بـأمّ فـزوَة

عـزقَـب كُـلّ ذات أربـع لـقـي

ولا تـدَعْ وإن قـدرتَ حـيـلـة

فـهْـي أجـلّ عـسـكـر مُـدهْـدق

إن كـان فـي سـفـك دم الـعـدا الـشّـفـا

سـفـكُ دم الـبـريء غـيـرُ ألْـيَـق

ولا تُـحـارِبْ سـاقِـط الـقـدر فـكـم

مِـن شَـاهـةٍ قـد غُـلِـبـت بـبَـيْـدق

وكـم حُـبـارى أمّـهـا صَـقْـر فـلـم

يـظْـفَـرْ بـغـيـر حـتْـفـه بـالـذّرق

وكـم عُـيـونِ لأسـود دَمِـيـت

بـالـعضّ من بعُـوضـهـا الـمـلـتَـصِـق

والـخُـلْـدُ قـد مـزّق أقـوام سـبـا

وهـدّ سـدًّا مُـحـكَـم الـتـأنـق

ولا تـنـقّـص أحـداً فـكـلّـنـا

مـن رجُـل وأصـلُـنـا مـن عَـلَـق

لا تُلزِمِ المرءَ عيوب أصله
فالمسكُ أصله دم في العنق
والخمرُ مهما طهرتْ فبينها
وبين أصلها بحكم فَرّق
ولا تُؤيّس طامعاً في رتبة
لمِثلها نظيرُه لم يَلْحَق
فالزّرْدُ يومَ الغار لم يثبت له
فضلٌ وكان الفضل للخدَرْنَق
وقوسُ حاجب برهنها لدى
كسرى اطمأنّ قلبُه بما لقي
لا تغْشَ دار الظلم واعلَمْ أنها
أخرَبُ من جوف حِمار خَلَق
ولا تبِع عِرضَك بيعةَ أبي
غُبْشَان بَيْع الغَبْن والتبلصُق
باعَ السّدانةَ قُصَيًّا آخذاً
عِوَضَها نِخياً مِن أمّ زَنْبق
ولا تكُن كأشعبِ فربما
تلحَق يوماً وافدَ المحَرّق
ولا تكن كواو عمرو زائداً
في القومِ أو كمثل نون مُلحَق
لا ترجوَنْ صفواً بغير كدر
فذا لَعمرُ الله لم يتفق

لا تـكـتُـم الـحـقّ وقُـلْـه مـعـلِـنـاً

فـهـو جـمـالُ صـوتِـك الـصّـهْـصَـلِـق

وصِـــح بــه شِــبْــهَ شَــبــيــب وأبــي

عُـــزْوَةَ والـــعــبــاس عــنــدَ الــزعَــق

لا تـــأمَـــنِ الـــدهـــرَ فـــإن خـــطــبــه

أرشـــقُ نـــبـــلاً مـــن رُمـــاة الـــحَـــدق

لا تـنـسَ مـن دنـيـاك حـظـاً وإلـى

كـالـطّـلـقَـانـي والـخَـصِـيـب انـطـلِـق

واعـــضُـــلْ كـــهـــمّـــام بـــنـــاتِ فـــكـــرة

ضـنًّـا بـهـا عـن غـيـر فـحـل مُـعـرِق

كـــي لا تـــقـــولَ بـــلـــســـان حـــالـــهـــا

مـــقـــالَ هِـــنْـــد ألـــقِ مـــن لـــم يَـــلِـــق

وســـلْ مُـــهـــورَ كِـــنْـــدة أن تُـــهـــدِهـــا

لِـــذي نـــدى كـــالـــبـــحـــر فـــي تـــدفـــق

لا تـهـجُ مـن لـم يُـعـطِ واهـجُ مـن أتـى

إلـــى الـــســـراب بـــالـــدّلاء يـــســـتـــقـــي

وعُـــذ لـــمـــا عُـــوّدتَ مـــن بـــذْل الـــلّـــهـــا

فـــالـــعَـــودُ أحـــمـــدُ لـــكـــل مـــمـــلِـــق

ولا تـــعُـــد لـــحـــرب مَـــنْ مَـــنّ ولـــو

مـــنّ فـــمـــا غَـــلّ يـــداً كـــمُـــطـــلِـــق

والـعَـوْدُ يَـخـتـار عـلـى مَـن كـان كـالـ

ـــمـــخـــتـــار أو مَـــن كـــان ذا تـــزَنـــدُق

والصمتُ حصن للفتى من الردى
وقَلّ مَن شرّ لسانه وُقي
وإن وجدتَ للكلام موضِعاً
فكن عَراراً فيه أو كالأشْدَق
لا تبخلَنْ بردّ ما استعرتَه
كضابىء فالبخل شرّ مُوبِق
شحّ برد كَلْب صيدٍ وهجا
أربابَه ظلماً فلم يُصدّق
ومات في سجن ابن عفّان كما
قضَى الإله مِيتَة المُحَزْرَق
ونجلُه من أجْلِه أجَلُه
مِن سطوة الحَجّاج لم يكن وُقي
واستُر عن الحُساد كلّ نعمة
كم فاضلٍ بكأس مكرهم سُقِي
فصاعِدٌ على مَدِيح وردة
أصبح مُنحطًا بقول سَهْوق
وافخر كفَخْرِ خالدٍ بالعِير والنـ
فِير لا بحُلّة من سَرق
واتخِذ الصبرَ دِلاصاً سابِغاً
وبِمجَنّ عُمَر لا تتّق
وإن حملت رايةَ الأمر فكن
كجعفر أو دَغ ولا تستبق

قد قُطِعت يداه يوم مُوتَةٍ
ولم يدَعْها لكَمِي سَخوَق
لكنه احتضنها لِحُبها
فيا له من سيد موفق
وكُن إذا استُنجِدت مثلَ من غزا
أرض العدا بكل طِرْف أبلق
وسُمْ عدوّ الدين بالخسف وكن
مثلَ أبي يُوسُف ذي التخبّق
رَدّ كتابَ من دعاه للوغى
منهم مُمزّقاً لفرط الحنق
وقال إني لا أجِيبُ بسوى
جيشٍ عرمرم وخيل دُلُق
وضرب الفُسطاط في الحين وقد
أحاط جيشُه بهم كالشوْذق
وكان ما قد أبصروا من بأسه
أبلغَ من جوابه المشبْرَق
يا صاح واشغَلْ فسحة العُمْر بما
يَعني وزُر غِبًّا رسُوم العَيْهَق
وابكِ على ذنب وقلب قد قسا
كالصخر من هواه لم يستفق
بمُقلة كمقلة الخنساء إذ
بكت على صَخر بلا ترفق

أو كبُكا فارعةٍ على الوليـ
ـد وبُكاءِ خِندِف وخِرْنِق
أو كُن مُتمّماً بُكا مُتمّم
على الذنوب وارج عفوَ معتِق
وكن خمِيصَ البطن من زاد الربا
وخمرةَ التقوى اصطبِح واغتبق
وحصّل العلمَ وزنه بالتقى
وسائرَ الأوقات فيه استغرق
وليكُ قلبك له أفرَغَ من
حجّام سابَاط ومن لم يعشق
ولا تكن من قوم مُوسى واصطبر
لِكَدّه وللملال طلّق
فالعلمُ في الدنيا وفي الأخرى له
فضلٌ فبشر حِزْبَه شرًا وُقي

* * *

٦ ـ واغنَ بقول الشعر فالشعر كما
لٌ للفتى إن به لم يرتزق
والشعر للمجد نِجادُ سيفه
وللعُلا كالعِقد فوق العنق
فقُله غير مُكثر منه ولا
تعبأ بقول جاهِل أو أحمق

ما عابه إلا غَبِيٌّ مُفحَم
لِعرفه الذكي لم يستنشق
كم حاجةٍ يسّرها وكم قضى
بفك عان وأسير مُوثَق
وكم أديب عاد كالنّطْفِ غِنًى
وكان أفقرَ من المذَلّق
وكم حديثٍ جاءنا بفضله
عن سيد عن الهوى لم ينطق
وقد تمثل به وكان من
أصحابه يسمعه في الحلق
وقد بنى المنبر لابْن ثابتٍ
فكان للإنشاد فيه يرتقي
وقال لابن أهْتَم في مدحه
وذمّه للزّبْرِقَانِ الأسْمَق
مقالةً ختمها بقوله
إن من الشعر لحِكمةً تقي
وعند ما سمع من قُتَيْلة
رَثْي قتِيلها الذي لم يُعتَق
ردّ لها سلَبَه وقد بكى
شفقةً بدمعه المنطلق
وقد حبا كَعْباً غداةَ مدحه
ببُردة ومائةٍ من أينُق

وبِشّر الجَعْدِيّ وابن ثابت
بجنة جزاءَ شعر عُنسُق
كم خامل سما به إلى العلا
بيتُ مديح من بليغ ذلق
مثلُ بني الأنف ومثلُ هَرِم
وكالذي يُعرف بالمحَلّق
وكم وكمْ حطّ الهجا من ماجد
ذي رتبة قعْسا وقدر سَمِق
مثلُ الرّبيع وبنِي العَجْلان مع
بني نُمَيْر جمَرات الحرق
لو لم يكن للشعر عند من مضى
قدْرٌ على الكعبة لم يُعلّق
لو لم يكن فيه بيانُ آية
ما فُسّرت مسائلُ ابن الأزرق

* * *

٧ ـ وإن أردت أن تكون شاعراً
فحلاً فكن مثلَ أبي الشمقمق
ما خِلتُ في العصر له من مثل
ـ غير أبي ـ في مغرب ومشرق
لذاك كنّاه به سيدُنا
السلطانُ عزّ الدين تاجُ المفرِق

يا مَلِكاً ألويةُ النصر على
نظِيره في غربنا لم تَخفُق
طابَ القريظُ فيكم وازدان لي
وجاش صدري بالفريد المونق
لولاك كنتُ للمديح تاركاً
لعدم الباعث والمشوّق
تَركَ الغزال ظلّه وواصل
للرّاءِ وابن تَوْلَب للملَق
وكنتُ في تركي له كابن أبي
ربيعةَ الناذِر عِشْقَ الهُنبُق

* * *

٨ ـ إليكَها أرجوزةً حُسّانةً
لمثلها ذُو أدب لم يرتق
ما لجَرير وجميل مثلُها
في غزَل وفي نسيب مونق
ولا أديبٌ في قُرى أندلسٍ
جرت به أقلامُه في مُهرَق
من كان يرجو من سوايَ مثلَها
رجا من القِرْبةِ رشْحَ العرق

* * *

ابن إدريس
(ت ١٢٦٤ هـ)

نسبه، مولده، اشتغاله وبره بوالده، مشيخته، اتصاله بمولاي عبدالرحمٰن، وزارته له، أخلاقه وكفايته، نكبته، عفو السلطان عنه وعوده لمنصب الوزارة، وفاته، آثاره، نثره، شعره.

الوزير الكاتب الشاعر أبو عبدالله محمد بن إدريس بن محمد بن عبدالله العمراوي الفاسي، ونسبه في بني إدريس، إلا أن سلفه كانوا قد استقروا في بني عمرو من قبيلة زمور حين قيام مغراوة على الأدارسة واختفاء الأدارسة في أغمار القبائل فنسبوا إليهم، وسأل المترجم والده عن صحة هذا النسب فقال له: «هكذا كان آباؤنا ينتسبون وكانت عندهم ظهائر الملوك المتضمنة التعظيم والاحترام وضاعت لهم في بعض الفتن الواقعة في باديتهم قبل انتقالهم لفاس».

لم نقف على تاريخ ولادة المترجم ولا شك أنه من مواليد أول القرن الثالث عشر، فإن أكنسوس يذكر أنه كان زميله في الطلب ورفيقه في عهد الشباب. وأكنسوس قدم

فاساً عام ١٢٢٩ وهو في الثامنة عشرة فإما أن يكون تربه أو قريباً من ذلك. ولما فرغ السلطان مولاي سليمان من بناء دارَيْ ولديه بفاس أقام مأدبة عامة حضرها العلماء والأعيان والطلبة وكان ابن إدريس فيهم فأنشد قصيدة في التهنئة مطلعها:

حياك حياك رب العرش يا دار
ولا تحل حماك الدهر أكدار

فأعجب بها الحاضرون وأنشدها المنشدون وكان من جملة من أعجب بها الشيخ أبو الفيض حمدون ابن الحاج فأخذها وأطلع عليها السلطان وقال: هذا نفس غريب في هذا الزمان ظهر في ولد من أهل فاس فأمر له السلطان بمائة مثقال.

وقد حكى أكنسوس هذه القضية ولم يشر إلى أنه كان حاضراً وقتها بفاس ونحن نأخذ منها أن المترجم فيما قبل سنة ١٢٢٩ كان لا يزال «ولداً» ناشئاً كما عبّر عنه الشيخ حمدون.

وكان والد المترجم مكتباً يعلم الصبيان على حال جميل من الخير والصلاح وانتفع به عدد من الناس وقد تخرّج على يده كثير من الطلبة ثم لزم داره وكانت بقرب مكتبه بدرب اللمطي فلا يخرج منها إلا إلى الصلاة بجامع الأندلس وقراءة الأحزاب الموظفة به وكان كثيراً ما ينوب عن الإمام الراتب في الصلاة حتى كأنه هو الإمام لأن الأئمة كانوا يتكلمون على وجوده هناك في جميع الأوقات فلا يحتاجون إلى مَن ينوب عنهم.

هكذا وصفه أكنسوس وكان شاهد عيان لأحواله، ففي حجر هذا الوالد الفاضل نشأ مترجمنا نشأة علمية على البر والتقوى وما إن ترعرع حتى قام مقام والده في كتبه وفرّغه لعبادة ربه صادراً في جميع أموره عن إشاراته لا يخالفه فيما قلّ ولا فيما جل. قال أكنسوس: «ولا يسقط في يده درهم فأعلى إلا ألقاه في يد أبيه».

وكان في إبان اشتغاله بالكتب يحضر دروس العلم بالقرويين وينسخ الكتب التي يقرأ بها فإذا خرج ترك عمه السيد أحمد نائباً عنه وإذا عاد قام بعمله أتم قيام، وقد رزق على ذلك القوة الباهرة فلم يكل ولم يمل بل إنه في خلال ذلك كان ينسخ كتباً أخرى للبيع ويستعين بها على المعاش فكتب ثلاث نسخ من الشفا وسفرها بيده ونسختين من القاموس وباعها، الشفا بعشرة مثاقيل للنسخة والقاموس بثلاثين مثقالاً وهو ثمن عال في ذلك الوقت يدل على جودة النسخة وإتقانها. وكان كلما باع كتاباً وقبض ثمنه دفعه لأبيه وبهذا المال مع الجائزة السلطانية التي منحت له على القصيدة المشار إليها قبل، زوّجه والده وبنى له بيتاً على أساس من تقوى الله ورضوانه.

وهذه النشأة الصالحة التي هي مثال ما كان عليه شباب المغرب في الجيل الماضي من مروءة وفتوة كونت من مترجمنا أديباً كبيراً ووزيراً خطيراً أصبح بعد قليل سيد البلاد المغربية بعد أميرها وبيده جميع مقدراتها وتصاريف أمورها.

وكان أخذ المترجم عن مشاهير مشيخة عصره واعتمد الشيخ ابن طاهر الحبابي رئيس الموقتين بمنار القرويين في

الحساب والتعديل والشيخ حمدون ابن الحاج في الأدب والفقيه الأزمي وغيره في بقية العلوم.

وممن كان له أثر بيّن في تكوينه وتوجيهه وجهته السياسة المعروفة أبو القاسم الزياني الوزير والكاتب المعروف فإنه صحبه ولزمه وكان ينسخ له كتبه ومؤلفاته التاريخية وهو الذي قدّمه إلى السلطان المولى عبدالرحمٰن بن هشام في أيام خلافته على فاس بعد مراجعة أهلها لطاعة مولاي سليمان فاستكتبه وقرّبه وذلك سنة ١٢٣٧، ولم يزل منه بالمكان الأمكن حتى توفي مولاي سليمان وبويع له بالملك في السنة الموالية فولاه وزارته وارتفع من دكة المكتب وتعليم الصبيان إلى أريكة الوزارة وتدبير الدولة.

ولقد كانت مهمة الوزير في الواقع شاقة جداً فإنه استقبل السلطان دولة مفككة الأوصال وشعباً مضطرباً منهوك القوى كثرة ما تتوالى عليه من الفتن والحروب. فمن ثروات القبائل البربرية وشغبهم العظيم على الحكومة منذ أيام السلطان المرحوم أبي الربيع سليمان، إلى تمرد الجند من الودايا والعبيد، ومن نكبة احتلال الفرنسيين للجزائر وقيام الأمير عبدالقادر الجزائري بحربه الدفاعية ضد العدو المغير وما حدث أثناء ذلك من التجائه إلى السلطان واستعانته به ثم تعكر الجو بينهما بدسيسة العدو طبعاً. إلى وقعة إيسلي وما جرى فيها للجيش المغربي من الاندحار الشنيع إلى غير ذلك.

إنما المعلم الوزير كان قد تمرن على الشغل وألف مجابهة الحوادث فلم ييأس ولم يتراجع أمام أية صعوبة أو

عقبة حتى يذللها ويصعدها. وهاك ما قاله أكنسوس عنه في وزارته: «كان عصام الدولة وحلية جمالها، ومجلي محاسنها ومظهر كمالها، بآثاره تزري دولة مولانا هشام، بدولة مروان بالشام، ساعدته أحكام السعود وعاملته بإنجاز الوعود، فأدرك في ظلال دولة السلطان المؤيد مولانا عبدالرحمٰن من الجاه والعز والصولة، ما لم يدركه الوزير المهلبي مع ملوك الديلم ومعز الدولة، فضحكت له الأيام بعد عبوس. وأركبته أعز المراكب وألبسته أفخر ملبوس».

وأشار في تاريخ مكناس إلى بعض أوصافه التي نظنها سبب نجاحه فقال: «وكان من عادته أنه يلازم الجلوس بباب القصر السلطاني حتى في الأعياد وأيام البطالة يذهب أرباب الوظائف والخدم لدورهم ويبقى هو بالباب لا يبرح فإذا تمّم أشغاله نام هنالك ولا يذهب لبيته إلا في أوقات محدودة أو حاجة أكيدة ويقول: الأيام حبالى لا يدري ما تلد فربما يحدث أمر وأكون غائباً. وكان ذا ملكة واقتدار على الأشغال يسد مسد أربعة إذا اجتهدوا وكان ينبسط إلى الكتّاب ويمازحهم قصداً لإدخال السرور عليهم. وكان إذا تحدّث مع جلسائه في التوحيد أحجم وقال: كان شيخنا سيدي محمد الحراق يقول:

نحن في شرعة الغرام أذله

إن أقمنا على الحبيب أدله

ويقول: يكفينا قول من قال: اللّهمّ إيماناً كإيمان العجائز، وكان يقنع فيه بالتقليد ويكره الخوض فيه ويقول: الخوض فيه مما يوقع اللبس في ذهن العاجز. وكان لا يرى

في غالب أوقاته غير كاتب أو مطالع أو مصل، وكان محافظاً على الطهارة كلما أحدث توضأ. أفلا ترى أن هذه أخلاق رجل عملي لا بد أن يتغلب على مشاكل الحياة كيفما كانت ومهما تأتت؟ ولكن حادثة واحدة لم ينجده فيها شيء من فضائله النفسية ولا كفاءته العملية بل ربما كان فضله هو السبب فيها وتلك هي غضب السلطان عليه وامتحانه بالسجن والمصادرة لاتهامه بالإفساد بينه وبين جيش الودايا الذين اشترطوا عزله من الوزارة عند مراجعتهم لطاعة السلطان. وقديماً قيل:

ثلاثة ليس لها أمان البحر والسلطان والزمان

ولما أطلق سراحه توجه لزيارة الشيخ مولانا عبدالسلام بن مشيش في زمرة من أصحابه. قال الأديب غريط: فأنذر السلطان بأنه ذهب بماله للاحترام بذلك المقام. فأمر بإشخاص الجميع إلى حضرته فأرجعوا بعد أن دقت في أقفيتهم نوبة الصفع. ودخلت على ظهورهم عوامل النصب والرفع. وكان ذلك تعدياً وتشفياً من الموجهين لأشخاصهم. لما لم يظفروا بغير أشخاصهم، ثم عفى عنهم بعد عصب الريق. وإذاقة التنكيل والتضييق... إلخ.

وبقي الوزير المظلوم منبوذاً مطروداً مدة ذاق فيها الأمرين وتنكر له فيها كل المعارف فتوجه إلى مكناس واحترم بالضريح الإسماعيلي حيث رآه السلطان الذي لم يستغنِ عن وزيره السابق ولم يظفر بمن يسد مسده فأعاده إلى منصبه وشمله بعطفه ورعايته وما زال يخدم الدولة بما أوتيه من مواهب ومقدرات حتى وافاه الأجل المحتوم.

وكان عزله عن الوزارة ونكبته عام ١٢٤٦، وإعادته إليها عام ١٢٥١، وتوفي ضحى يوم الاثنين ٤ محرم فاتح عام ١٢٦٤ تاركاً من بعده ثروة أدبية طائلة من رسائل سلطانية وأخوانية لو قدر لها أن تُجمع لخرجت في مجلدات، ومن قصائد شعرية ومقطعات وأبيات في أغراض شتى جمعها ولده الأديب أبو العلاء إدريس بشكل ديوان في مجلدين.

فأما رسائله فإنها من قبيل هذا النثر المسجوع الذي كان خرج ذلك الزمان ولا سيما في الديوان الملكي حيث كان يعتبر من التقاليد الرسمية التي لا محيد عنها. وعلى كل حال فإنه أسلوب له جماله وله رونقه خصوصاً إذا مرن الشخص عليه وأصبح طوع يديه لا يتكلف له ولا يضطرب فيه كمترجمنا. وينبغي أن ينظر إليه بعين الباحث العالم أن ذلك هو فمن العصر الذي كانت الإجادة فيه متطلب الكثيرين من المتأدبين فيرى إلى أي حد من التوفق فيه وصل هذا الكاتب الكبير على ضعف ملكة اللغة في وقته وانحطاط المعارف عموماً إلى درجة واطية جداً.

وهذه رسالة كتبها عن سلطانه لما أوقع بقبيلة زمور:

ولدنا الرضي الأبر الأرشد سيدي محمد أصلحك الله والسلام عليك ورحمة الله وبركاته، وبعد. . . فقد كنا أردنا الإبقاء على قبيلة زمور رحمة وتشفاقاً وحملهم على الاستقامة بالإرهاف من الشدة في بعض الأمور هداية وإرفاقاً فلم يرد الله بهم خيراً لفساد نيتهم وخبث طويتهم، واتكالهم على حولهم وقوتهم، فما رأوا منا ليناً وسداداً إلا ازدادوا

شدةً وفساداً، ولا أظهرنا لهم عظةً وإرشاداً إلا أظهروا تطاولاً وعناداً، وما أخرنا المحلة[1] المنصورة عن الركوب إليهم إبقاءً وإيفاءً إلا ظنوا ذلك عجزاً وضعفاً، قد طمس الإعجاب منهم بصراً وسمعاً، ولم يروا أن الله قد أهلك من قبلهم من القرون من هو أشد منهم قوة وأكثر جمعاً:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته
وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا
ووضع الندى في موضع السيف بالعلى
مضر كوضع السيف في موضع الندى

فلما رأينا لجاجهم في عماهم، وعدم رجوعهم عن هواهم، وأنهم لم يعتبروا بجلائهم عن بلادهم ولا بما أصابهم من الفتنة في أنفسهم وأولادهم، ولم يراعوا ما نهب من زرعهم القائم والحصيد، ولا ما استخرج من مخزونهم الكثير العتيد، رأينا قتالهم شرعاً، وجهادهم ذبًّا عن الدين ودفعاً، فاعتمدنا على حول الله وقوته، وأمرنا بالزيارة عليهم في الأخذ والتضييق، والمبالغة في النهب والتحريق، وتركهم محصورين في أوعارهم، ومقهورين في أوكارهم، إذ رب مطاولة أبلغ من مصاولة، فتوالت عليهم الغارات، وتتابعت عليهم النكبات، لا يجدون إلى الراحة سبيلاً، أين ما ثقفوا أُخذوا وقتّلوا تقتيلاً، ففي كل يوم تثمر العوالي رؤوس رؤسائهم، وتتخطف أيدي المنايا أهل بأسائهم، وكلما زادوهم إقداماً وطلباً ازدادوا توغلاً في الجبال وهرباً، حتى

(١) المحلة عند المغاربة تعني الجيش.

نهكتهم الحرب، وضرستهم موالاة الطعن والضرب، وضاع بالحصار الكسب والمال، ولحق الضرر الأولاد والعيال، فجعلوا يرحلون لقبائل جوارهم، طالبين لحلفهم وجوارهم، وبلغ البؤس فيهم غايته، وأظهر الله فيهم آيته، وهم في خلال هذا كل حين يتشفعون، ويتذللون في قبول توبتهم ويتضرعون. ونحن نظهر لهم التمنع والإباية لنبني أمرهم على أساس الجِد، ونجازيهم على ما ارتكبوه من خلف الوعد.

فلما أنجزت القهرية فيهم وعدها، وبلغت العقوبة فيهم حدها، قابلنا إساءتهم بالإحسان، وراعينا فيهم وجه المساكين والنساء والصبيان، فولّينا عليهم منهم ثلاثة عمال، ووظفنا عليهم خمس ألف مثقال، وشرطنا عليهم تقويم مائتين من الحراك[1] مثل قبائل الطاعة والتزام الصلاح والخدمة جهد الاستطاعة، فقاموا بذلك أحسن قيام، وأعطوا المراهين في أداء المال بعد أيام، وكان أخذهم بعد تقديم الأعذار، وتكرير الأنذار، وعفونا عنهم عفو غلب واقتدار، ورب عقاب أنتج طاعة، وتوبة نصوح تداركت ما سلف من التفريط والإضاعة، وفي الناس مَن لا يصلح إلا مع التشديد، وربك يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد:

وما عن رضى منها عطية أسلمت
ولكنها قد قادها للهدى القهر
أردنا بها الإبقاء فازداد عجبها
وأد بها التشديد والفتك والأسر

(١) جمع حارك ويعنون به المقاتل.

ولو قيّدوا النعمة بالشكر لأمنوا الزوال ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ والسلام في فاتح رجب الفرد الحرام عام تسعة وخمسين ومائتين وألف.

وكما أنه لا ينسى السجع ولو في فقرة واحدة على ما رأيت، قد يكتب رسالة كاملة بدون سجع وإنما هي ترسيل خالص. وهذه رسالة كتبها على هذا النسق إلى القائد إدريس الجراري وقد ولاه السلطان على مدينة تلمسان حين دخلت في طاعته أول عهد الاحتلال الفرنسي للجزائر:

«محبنا وخال سيدنا الأرضى السيد إدريس بن حمان الجراري سلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته عن خير سيدنا أيده الله، وبعد... فقد وصلنا كتابك صحبة أعيان تلمسان وقبائل أحوازها فوقفنا معهم كل الوقوف وبذلنا المجهود فوق الطاقة وقبلهم مولانا وقابلهم بالإحسان والإكرام كما هو شأنه، ذهاباً وإياباً. وها هم وجههم مولانا مكرمين ورشح ابن عمه مولاي علياً للخلافة عليهم لما يعلم من عقله ودرايته وسياسته وأنه ذو نفس أبية لكون تلك النواحي لا يصلح لها إلا مَن اتصف بهذه الأوصاف ليميزوا حالة الساعة مع ما كانوا فيه.

وكما رشح مولانا ابن عمه المذكور رشحك لتكون واسطة بينهم وبينه لكون الأوصاف المذكورة موجودة فيك فكن عند الظن بك وإياك والطمع، وازهدوا فيما في أيدي الناس وكل ما تحتاجون إليه مما لا بد منه أخبرونا به يصلكم، ولا تكتموا عنا شاذة ولا فاذة. واعلم أن مولانا انتخبك من وسط أبناء جنسك وقرّبك منه ولا زلت

لديه في الترقّي فالله الله فكن عند الظن بك بارك الله فيك آمين.

وقد أكرم سيدنا كل واحد بما يناسبه من الكسوة وصنع لهم في كل بلد دخلوه مهرجاناً وأدخلهم سيدنا لوسط داره وجميع جناتة وأماكن المملكة التي لا يدخلها إلا الخاصة غايته أنهم نالوا من العناية فوق الظن ووقفنا معهم فوق ما تحب وفيهم الكفاية ولم يبقَ إلا ما عندك فكن عند الظن بك فإن سيدنا نصره الله جرّب غيرك وطرحه وهذا معيارك نسأل الله أن يكون معيار التبر الخالص وما وعدك به سيدنا سيرد عليك حين تستقر بالبلد ويحسن تصرفك على عين الحاضر والبادي وفي وصية سيدنا في كتابه الشريف مقنع وعلى المحبة والسلام في ثالث عشر ربيع الثاني عام ستة وأربعين ومائتين وألف».

واطلب في النبوغ المغربي مقامة أدبية بقلمه فإنها من أحسن آثاره النثرية وما منعنا من إثباتها هنا إلا خوف التطويل.

وأما شعره فإنه متنوع الأغراض بين مديح ورثاء ونسيب وغزل ووعظ وتصوف وملكته فيه قوية ونفسه طويل. وقد تتخلف عنه الإجادة في بعض الأحيان وذلك شأن المكثرين فإن ديوانه كما علمت مجلدان وإنما جمعه ولده بعد وفاته وضياع كثير من شعره.

وكان بدأ نبوغه في الشعر مبكراً كما مرّ بك في قصيدته التي هنّأ بها السلطان مولاي سليمان عند فراغه من

بناء دارَيْ ولديه، تلك القصيدة التي كانت سبب ظهوره وقابلها الوسط الأدبي باستحسان تام، إنما نحن نرى أن ذلك كان من قبل التشجيع لهذا الأديب الناشىء مع سكون حركة النقد في ذلك الحين وإلا فتلك القصيدة ليست من جيد الشعر ولا من مختار نظمه هو بعد ذلك. وهاك طرفاً منها كنموذج لطفولة شاعريته. قال بعد بيت الصدر المتقدم:

ولن تزالي بإذن الله دار علی
والمجد والجود والعلياء عمار

دار تود الشموس لو تحل بها
وتحسد النازين فيها أقمار

شيدت بها غرف من فوقها غرف
وقد جرى تحتها كالخلد أنهار

بها سوار عوار كالجوار بدت
عليها للحسن والإتقان أنوار

قد نمقت ببديع الحسن ساحتها
كأنها الروض والألوان أزهار

فما (البديع) بديع عند رؤيتها
وليس يذكر (للزهراء) أخبار

عذراء قد بهرت حسناً وقد عنست
دهراً لكفء لها في الناس تختار

فكفؤها المرتضى الأسمى أبو حسن
فنعم من حلها ونعمت الدار

يقول مبصرها من حسن بهجتها
وللورى ببديع الحسن إقرار
يا روضة الحسن منك الحسن مفترق
وللبها منك إيراد وإصدار
أنت التي جمعت للحسن أجمعه
لما ثوى بك من للمجد مختار

وقال في رثاء السلطان سليمان وقد صار شعره نمطاً آخر:

نبأ عرا أوهى عرى الإيمان
وأبان حسن الصبر عن إمكان
شقت لموقعه القلوب وزلزلت
أرض النفوس ورج كل مكان
فقد الإمام أبي الربيع المرتضى
جزعت لعظم مصابه الثقلان
وبكت عيون الدين ملء جفونها
وجداً عليه وكل ذي إيمان
لما نعى الناعون خير خليفة
وعرا الفؤاد طوارق الأحزان
مزقت ثوب تجلُّدي من فقده
ونثرت در الدمع من أجفان
عجباً لموت غاله إذا لم يخف
فتك الملوك وسطوة السلطان

وسما لمنصبه المنيف ولم يهب
غضب الجنود وغيرة الأعوان

لو كان يمنع خاض فرسان الوغى
حرصاً عليه مواقد النيران

وحموه بالنفس النفيسة إنما
يحمون روح العدل والإحسان

لكن قضاء الله حم فلا يرى
للعبد في دفع القضاء يدان

والموت مورد كل حي كاسه
وسوى المهيمن في الحقيقة فان

إن غاب عنه شخصه فلقد ثوى
فينا الثناء له بكل لسان

ومناقب ومفاخر ومآثر
شاعت له في سائر الأوطان

ومعارف وعوارف ورسائل
ومسائل قد أوضحت ومعان

وبدور أو دلاء وآل قد قفوا
آثاره في العلم والعرفان

اتخذوا الديانة والصيانة شرعة
وتقلدوا بصوارم الإيقان

أخلاقهم ووجوههم وأكفهم
كالزهر والأزهار والأمزان

إن حـاربـوا أبـدوا شـجـاعـة جـدهـم
أو خـاطـبـوا أزروا عـلـى سـحـبـان
مـن كـل مـن جـعـل الـقـرآن سـمـيـره
وسـمـا بـوصـف الـعـلـم والـتـبـيـان
كـم آيـة ظـهـرت لـه وكـرامـة
دامـت دلائـلـهـا مـدى الأزمـان
قـد كـان أوحـد دهـره وزمـانـه
فـي الـعـلـم والـتـحـقـيـق والإتـقـان
قد كـان فـرداً في الـبلاغـة إن جرت
أقـلامـه بـهـرت بـسـحـر بـيـان
مَـن لـلـعـلا مـن بـعـده مَـن لـلـنـهـى
مَـن لـلـتـقـى وتـلاوة الـقـرآن
يـا رمـسـه مـاذا حـويـت مـن الـعـلا
وطـويـت مـن عـلـم ومـن عـرفـان
يـا رمـس كـم واريـت مـن كـرم ومـن
جـود ومـن فـضـل ومـن إحـسـان
يا رمس كيف حجبت عنا شمسه
وضـيـاؤهـا فـي سـائـر الـبـلـدان
فـلـو اسـتـطـعـت جـعـلـت قـلـبـي قـبـره
حـبـاً وأحـشـائـي مـن الأكـفـان
ولـو أن عـمـري فـي يـدي لـوهـبـتـه
وفـديـتـه بـالأهـل والأخـوان

لكن يخفف بعض أثقال الأسى
علمي به في جنة الرضوان

وقال متغزلاً ويلاحظ كثرة ما فيه من البديع:

سحرتك بالطرف الكحيل الساحر
وبحسن قد كالقضيب الزاهر
وبعزة كالفجر تحت ذوائب
كدجنة فاعجب لحسن باهر
وبنقطة مسكية في وجنة
وردية ذات الأريج العاطر
وبريقها المعسول إلا أنه
يشفي الحشا من كل داء ضائر
ريق أعزّ عليّ من نيل المنى
وألذ من رشف الرحيق لخاطري
ماذا وكم أوقعتني في حسرة
وجلبت لي من شقوة يا ناظري
ولكم جمحت بتيه ميدان الهوى
وحصلت في شبكات ظبي نافر
ولأنت يا قلبي فكم أصليتني
ورميتني في بحر حب زاخر
أدخلتني في وسط معركة الهوى
ما بين جيش قواضب وبواتر

وتركتني في حي ليلى مثخناً

بظبي ظباء لم أجد من ناصر

يا سعد هل لي في الهوى من مسعد

بشفا شفاه اللعس تحت غدائر

أم هل بنجد هواهم من منجد

لمتيم في حاجر بمحاجر

فتكت عيون العين في أحشائه

بشفار ألحاظ رمت بخناجر

وسطت عوامل قدهن بقلبه

فغدا أسير عوامل ونواظر

أوثقنه بحبال وعد مخلف

وشددن أسر وثاقه بمعاذر

نفسي الفداء لظبية فتّانة

فتّاكة بشفار شفر فاتر

نامت نواظرها وقد سلبت كرى

طرفي بطرف بابلي ساحر

وغدا الجمال بأسره في أسرها

والسحر أيّد جنده بعساكر

فإذا بدت سجد العيون لحسنها

تسبيحها سبحان ربي الفاطر

وترى القلوب خواشعاً لجمالها

مكسورة من كسر طرف كاسر

شمس على غصن تكون في نقي
من تحت ليل ذوائب وغدائر
نصبت قسي حواجب موتورة
بالسحر ترمي كل صب ناظر
فكأنما هاروت عن أجفانها
يروي فيسند ساحر عن ساحر
ورعت رعاها الله في ربع الحشا
حب القلوب ولم تخف من زاجر
غيداء قد ورثت محاسن يوسف
ناهيك من حسن بهي باهر
وتوطنت بالمنحني من أضلعي
ومحصب الأحشا رمت من حاجر
فغدوت ما بين الأنام متيماً
لجمالها ومهيماً في سائر
وغدا عذولي عاذراً في حبها
فأعجب لعاذل في غرام عاذر
كم من عدول في الهوى ومكاشح
غابت شواهده بوجه سافر
ولكم رقيب في الهوى ألفته
بالشعر حتى عاد عند أوامري
ولكم نظمت سلوكه في غادة
أرزت قلائده بدر فاخر

ولكم ليال قد جلوت فريدة
والكأس نجم في سماء أزاهر
ومديرنا رفع العقيرة منشداً
قطعاً ألذ من المدام الدائر
يشدو فيبدو الدر من أصدافه
ثغر وشعر مع عقود جواهر
سقيا لأيام الوصال وقربها
وزمان أنس بالأوانس زاهر
إني لأذكره فأحسب أنني
من كثرة الأشواقِ بين محاضري
وأقول للأيام هل من عودة
لزماننا الماضي بوصل حاضر
فعساه يبدي لي المتاب بعودة
ويكفر الماضي بحسن الآخر

وقال في الربيع ملتزماً ما لا يلزم:

نادى السرور بسعدكم فتنزهوا
فالروض قد أهدى حلاه وخزه
بسط الربيع به بساط زبرجد
قد أحسنت أيدي السحائب طرزه
قد كان كنزاً في التراب مطلسماً
فتحت رقي كنز الغمائم كنزه

أبـدت خـبـايـا الأرض مـن بـركـاتـه
ما أوضحت لسن الكمائم رمزه
طـلـعـت طـلائـعـه بـكـل ثـنـيـة
تـهـدي بـدائـعـه وتـنـشـر بـزه
وجيوشه النوار تظهر في الربى
أعـلامـه تـبـدي عـلاه وعـزه
ملك الفصول له التقدم بينها
مَن رام شأو سناه منها عزه
فخر الزمان بصيفه وخريفه
وشتائه يوم الفخار وبزه
متصرف في الأرض عند وروده
فأشبَ نرجسه وشيب لوزره
تتنفس الجنات فيه أما ترى
أرجا سرى أحيى الفؤاد وهزه

وقال متنصلاً للسلطان مما رمى به من الخوض مع أهل الفتنة:

مولاي إني بعهدك ودك واثق
إذ أنت بالحال الخفي عليم
قد أكثر الواشون من بهتانهم
والزور في خلق الورى معلوم
ليس الملام عليهم فيما أتوا
بل من يصيخ إلى الوشاة ملوم

إني صبرت على المكارم حسبة
والله يعلم أنني مظلوم
وكفى بعلم الله واسمع قول مَن
قبلي وظلم الحاسدين قديم
(حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه
فالقوم أعداء له وخصوم)
خافوا فضيحتهم بردي فانبروا
للسعي في هلكي وذلك لوم
إني ليحجزني الوفاء عن الجفا
والدين عما زوروا والخيم
فالود باق والمحبة غضة
والصدر من داء الفساد سليم
إن كنت خنتك في المغيب فخانني
حال المصاب الصبر والتسليم
وإذا سمعت بما يسيء سماعه
أملت أن لو حلّ بي المحتوم
إني سعيت ولا أزال بفضلكم
أسعى لنيل صلاحكم وأروم
وبذلت نفسي وما ملكت لأجلكم
وصبرت حيث المستعين عديم
ولسوف تتضح الحقائق جهرة
ويلوح من أسرارها المكتوم

إن صحّ لي منك الوداد فإنه
حسبي وحسب الحاسدين الشوم
ظني الجميل بكم لحسن وفائكم
ولدينكم ولفضلكم معلوم
أنا عبد إحسان لكم فولائكم
كولاء سلمان له التقديم
وعليكم حفظ الوداد لأنكم
أهل الوفاء وعبدكم مكروم
حاشاكم أن تشمتوا الأعداء بي
أو أن يُساء على الوفاء خديم
والله أسأل أن يدوم لملككم
النصر والتمكين والتعظيم
بالمصطفى وبآله وصحابه
فعليهم الصلوات والتسليم

وقال في عدم سلامة الإنسان من بني الزمان وهو عجيب:

أرى الناس قد أغروا ببغي وريبة
وغي إذا ما ميز الناس عاقل
وقد لزموا معنى الخلاف فكلهم
إلى نحو ما عاب الخليقة مائل
إذا ما رأوا خيراً رموه بظنة
وإن عاينوا شرًّا فكل مناضل

وليس امرؤ منهم بناجٍ من الأذى
ولا فيهم عن زلة متغافل
وإن عاينوا حبراً أديباً مهذباً
حسيباً يقولوا إنه لمخاتل
وإن كان ذا دين رموه ببدعة
وسموه زنديقاً وفيه يجادلوا
وإن كان ذا زهد يسموه نعجة
وليس له عقل ولا فيه طائل
وإن كان ذا صمت يقولون صورة
ممثلة بالعي بل هو جاهل
وإن كان ذا شر فويل لأمه
لما عنه يحكي من تضم المحافل
وإن كان ذا أصل يقولون إنما
يفاخر بالموتى وما هو زائل
وإن كان مجهولاً فذلك عندهم
كبيض رماد ليس يعرف خامل
وإن كان ذا مال يقولون ماله
من السحت قدر أبي وبيس المآكل
وإن كان ذا فقر فقد ذل بينهم
حقيراً مهيناً تزدريه الأراذل
وإن قنع المسكين قالوا لقلة
وشحة نفس قد حوتها الأنامل

وإن هو لم يقنع يقولون إنما
يطالب مَن لم يعطه ويقاتل
وإن يكتسب مالاً يقولوا بهيمة
أتاه من المقدور حظ ونائل
وإن جاد قالوا مسرف ومبذر
وإن لم يجد قالوا شحيح وباخل
وإن صحب الغلمان قالوا لابنة
وإن أجملوا في اللفظ قالوا مبادل
وإن هوى النسوان سمُّوه فاجراً
وإن عفّ قالوا ذاك خبث وباطل
وإن تاب قالوا لم يتب لزهادة
ولكن لإفلاس وما ثم حاصل
وإن حجّ قالوا ليس لله حجه
وذاك رياء أنتجته المحامل
وإن كان بالشطرنج والنرد لاعباً
ولاعب ذا الآداب قالوا مداخل
وإن كان في كل المذاهب نافذاً
وكان حليف الروح قالوا مشاقل
وإن كان مقداماً يقولون أهوج
وإن كان ذا ثبت يقولون ناكل
وإن يعتلل يوماً يقولوا عقوبة
لشر الذي يأتي وما هو فاعل

وإن صحّ قالوا ليس لله حاجة
بمن يتعداه الردى والغوائل
وإن مات قالوا لم يمت حتف أنفه
لما هو من شر المآكل آكل
وما الناس إلا جاحداً ومعاند
وذو حسد قد بان منه التحامل
فلا تتركن حظاً لخيفة قائل
فإن الذي تخشى وتحذر قائل

وهذا المعنى أصله للزمخشري إلا أن المترجم توسع فيه جداً.

ونص الزمخشري:

إذا سألوا عن مذهبي لم أبح به
وأكتمه كتمانه لي أسلم
فإن حنيفاً قلت قالوا بأنني
أبيح الطلا وهو الشراب المحرم
وإن مالكياً قلت قالوا بأنني
أبيح لهم أكل الكلاب وهم هم
وإن شافعياً قلت قالوا بأنني
أبيح نكاح البنت والبنت تحرم
وإن حنبلياً قلت قالوا بأنني
ثقيل حلولي بغيض مجسم

وإن قلت من أهل الحديث وحزبه
يقولون تيس ليس يدري ويفهم

تعجبت من هذا الزمان وأهله
فما أحد من ألسن الناس يسلم

وأخرني دهري وقدّم معشراً
على أنهم لا يعلمون وأعلم

ومذ أفلح الجهّال أيقنت أنني
أنا الميم والأيام أفلح أعلم(1)

وقال يمدح مخدومه السلطان مولاي عبدالرحمٰن ويذكر إجراءه الساقية السلطانية إلى مراكش:

وردت وكان لها السعود مواجها
والحسن مقصور على مواجها

وبدت طلائع بشرها من قبلها
كالشمس طالعة لدى أبراجها

وتسير ما بين الأباطح والربى
ترمي فريد الدر من أمواجها

وتصوغ من صافي النضار سبائكاً
حلّت بها الأعطاف من أثباجها

(1) الأفلح مشقوق الشفة السفلى، والأعلم مشقوق العليا. ومَن كان كذلك لا يتأتى له نطق الميم.

هبطت إليك من الجبال وطالما
تعبت ملوك الأرض في إخراجها
وأتتك راغبة تجر ذيولها
وتفيض غمر النيل من أمواجها
تنساب مثل الأفعوان وتنثني
كالغصن بين وهادها وفجاجها
خطب الملوك نكاها فتمنعت
وأتتك واهبة حلال زواجها
فلتهنك الخود الرفيعة منصباً
وليهنها أن صرت من أزواجها
حمراء عباسية بدوية
نشرت ذوائبها على ديباجها
وافتك وافدة وقد صبغ الحيا
وجناتها وجرى على أدراجها
فكأنها بلقيس جاءت صرحها
لكنه صرح بغير زجاجها
حاكت لك السيف الصقيل مضرجاً
بدم العدا إذ أدميت للجاجها
فكأنما ذبحوا بها زمراً فذا
قاني الدماء يسيل من أوداجها
علمت أناملك الشريعة أبحراً
غرقت بحار الأرض في عجاجها

فأتتك طالبة الأمان لنفسها
لتنال بعض الصيب من ثجاجها
لبتك إذ سمعت نداك وأقبلت
موهوبة تستن من إزعاجها
ونزعتها بالقهر من غصابها
والسابقون رضوا ببعض خراجها
حليت مراكشاً بدر عقودها
وفتحت معلق نهرها وشراجها
وجلبت منها للرعية نفعها
وحللت ما قد عزّ من ارتجاها
كم من مزارع أخصبت وحدائق
حلتها بالأقراط من أزواجها
يعلى على الإسكندر استدراكها
ويحار رسطارير في استخراجها
نالت من النيل المقدس شعبة
وزرى بطيب المسك طعم مزاجها
لو يعلم الحكماء ما في مائها
ما عالجوا المرضى بغير علاجها
فاق الرضاب حلاوة وعذوبة
وحكى لباب الشهد حلو مزاجها
لو مازجت ماء البحار بمائها
غلبت عذوبة مائها لاجابها

يغني عن السكار طعم زلالها
وعن الغناء ينوب صوت لجاجها
تنسي العريض (ومعبداً) نغماتها
ويحار (إبراهيم) في أهزاجها
حلّت لنا (دار الهناء) وخصصت
(روض المسرة) إذ أتته بتاجها
أحيت نبات الأرض في جنباتها
وارث نجابة دوحها ونتاجها
حيث الحدائق شاكلت زهر السما
في زهرها الزاهي وفي أبراجها
نسجت زرابي في الفلا مبثوثة
من نورها كالمسك في أراجها
حفت بها حلل الأعارب رغبة
في مائها وكلائها ونتاجها
جعلت بساحتها ملاعب خيلها
ومطالع الأقمار من أحداجها
وأسامت الأنعام حول فسيحها
فنمت بنجم جمالها ونعاجها
يا أيها المحبي شريعة جده
والمرشد الهادي إلى منهاجها
والباعث الجرد السلاهب ضمراً
نحو العدا تستن في أفواجها

تهدي أسنتها ولمع سيوفها
نحو العدا كالشهب تحت عجاجها
تجتاب باسمك كل خرق سبسب
وتعود بالأفلاج عند منعاجها
لله يسر ما تروم أما ترى
عقم المنى عادت إلى استنتاجها
لو شئت من زهر الكواكب وصلة
لهداك رافعها إلى معراجها
كم أمة شقيت بسيفك إذ عثت
أخنى عليها الدهر باستدراجها
وقبيلة تبعت سبيلك فاهتدت
حاطتها حارسة العلا بسياجها
وممرد لعب الهوى بضميره
أردته خطية القنا بزجاجها
ومحب حق قد جذبت بضبعه
فحبته أيدي المكرمات بساجها
تفد الوفود عليك طالبة الغنى
تزجي الركائب تحت مبهم داجها
فتنال غاية قصدها ولو أنها
نادتك لباها ندا أفلاجها
عمّت مواهبك الأنام فما لها
اسآدها يهدي إلى إدلاجها

أنزلت رحلي في حماية مالك

سامي المناقب والحلي وهاجها

ولئن لجأت فقد لجأت لسيد

كشاف معضلة الورى فراجها

طود الجلالة أصل كل فضيلة

بدر الخلافة في الورى وسراجها

خذها أبا زيد نتيجة فكرة

بكراً تهز العطف في ديباجها

طالت فطابت كالمنوه باسمها

إن شئت سحر البابلي فناجها

والبس من المدح المنظم حلة

قد طرزت واعطف على نساجها

واسلم لدهر أنت شمس زمانه

ولامة أنت الكفيل بحاجها

وقال مفتخراً:

شعبي وشعب الغواني غير ملتئم

ووصلهن - أرى - ضرباً من الحلم

كم لي أسائل عن سلمى وجارتها

وعن رسوم عفت وأنيق رسم

وكم أكفكف دمعاً في مرابعها

ضلا وأسأل عوناً وأكف الديم

والشيب قد لاح في فودي وقنعي

والسيف أحسن فعلاً منه في اللمم

أسرى بليل شبابي فاستنار به

كغاسق لاح في داج من الظلم

وبصر العين سبل الرشد فانبعثت

أخلاقه لطلاب المجد والكرم

نفسي عن الكبراء القدر قد كبرت

وفوق هام الثريا قد علت هممي

ماذا يقول ذوو البغضاء في رجل

خال عن الكبر مكسي حلة الحكم

والعرب بالباب والأخبار سائرة

وألسن الخلق تبدي كل مكتتم

أصون ماء المحيا عن إراقته

ليس الدناءة والإلحاح من شيمي

ولا أمدن عيني نحو عارفة

من كف نذل ولو أرى على هرم

وكم فتى لجناب الملك منتسباً

أعدى على المال من ذيب على غنم

يظل يسدي ويهذي في زخارفه

وليس يصدق في ضرب من الكلم

وقال أيضاً:

سل الرواة عن نفثات شعري
فكم أبرأن من قلب سقيم

وكم أظهرن جوداً من بخيل
وكم أولدن من فكر عقيم

فإن الشعر في التحقيق سحر
كما قد جاء في الأثر الكريم

ولي في نظمه القدح المعلي
وأسرار تغيب عن العليم

فأنظم حين أنظم رائعات
تفوق الدر في العقد النظيم

وأرفع بالمديح مقام قوم
وإن كانوا ذوي أصل لئيم

وأخمل بالهجاء منار قوم
وإن كانوا ذوي قدر عظيم

ولي قلم له بأس شديد
يثلم حده حد الصريم

يلين بالبلاغة كل قاس
ويسحر بالبيان لهي الصريم

ويترك ضربه الأقران صرعى
لدى الميدان بالضرب القويم

وفي عرائش العنب:

عرائس الروض تزهو في عرائشها
لها خدور لصون الحسن والحسن
قد ربيت في مهاد ما يحركه
إلا النسيم إذا يهفو على كثب
وأرضعتها ثدي السحب درتها
في كل حين ولم تبرز من الحجب
فأصبحت بعدما تمت رضاعتها
تعزي إلى الكرم لا تعزي إلى السحب
تكاد تسقط سكراً في أريكتها
لو لم تقم بسرير العود والقصب
فيها لأهل التقى شكر ومهمله
وزر لأهل الهوى وذا من العجب

وقال في نسوة من زمور خرجن متعرضات للسلطان:

أظباء زمور سلبتم مهجتي
بقنا القدود وصارم اللحظات
وهتكتكم بالقهر حصن تنسكي
بجيوش حسن خريدة ومهاة
شنت علينا بالنواظر غارة
فأخذتم الألباب في الشارات
كفوا لحاظكم الكحيلة واردوا
أسلاب الباب على المهجات

أولا أبيحوا للشفاه شفاءها
ولتستحلوا لثمتي الوجنات
قالت أفي شرع الغرام تحكم
أرأيت من حكم على الفتيات
نحن الملوك على الملوك وإنما
أحكامنا بالقهر والغلبات
الجور عدل عندنا والظلم حـ
ـق بيننا والذنب كالحسنات

وله في التشوق وقد جنّسه:

يا أهل ودي أوحشتم بغيبتكم
حباً فإن شئتم تأنيسه زوروا
إن كان أبلغكم واشي الهوى خبراً
يسوء جانبكم فإنه زور

وفي الاعتذار عن ترك الشعر:

قالوا نراك عدلت عن سنن الهوى
مذ حدت عن نظم القريظ ونسجه
فأجبتهم برد الزمان أصابني
فخمود نار قريحتي من ثلجه

وهو ينظر فيه إلى قول الآخر:

قد بان لي عذر الكرام فصدهم
عن أوجه الشعراء ليس بعار

لــم يــســامــوا بــذل الــنــوال وإنــمــا
جــمــد الــنــدى لــبــرودة الأشــعــار

وقال فيما يرغبه في الخدمة:

والله لــولا ســبــعــة أرجــو بــهــا
نــيــل الــمــفــاز ورحــمــة الــرحــمــان
مــا قــمــت فــي بــاب الــخــلافــة آمــراً
أو نــاهــيــاً فــي خــدمــة الــســلــطــان
إبــلاغ حــاجــات وغــوث مــؤمــل
ودفــاع مــكــروه وبــذل أمــان
وعــلاء إســلام وبــث نــصــيــحــة
وإعــانــة الإخــوان والأقــران

وقوله هذا: «وعلاء إسلام» هو مما يسجّل في مفاخر هذا الوزير الذي لم يكن يرى الوزارة منصباً للترفُّع والاستغلال بل خدمة عامة ومسؤولية أمام الله والناس وسعياً في إعلاء كلمة الإسلام ونصيحة أهله وقد تقدم في رسالته إلى عامل تلمسان ما يشبه هذا من الوصايا التي تدل على مزيد إخلاصه وعظيم نزاهته فليعرف ذلك المتقولون على تاريخ المغرب ورجال دولته فإن وزيراً من هذا الطراز قلما تظفر الأمم بمثله في هذا العصر فكيف به في زمنه!...

وقد أكثرنا من النماذج الشعرية التي أوردناها للمترجم لنضع بين أيدي الشباب المثقف دليلاً مادياً على ماضي المغرب الأدبي فهذه الصور المختلفة الألوان من الشعر

المحكم الرصين إن دلت على شيء فهو ثروة المغرب الأدبية المطمورة تحت تراب الإهمال والنسيان، ومتى تضافرت الأيدي على إخراجها وعرضها بالعناية التي تليق بها فإنها ستملأ فراغاً في تاريخ الأدب العربي لا يزال الباحثون يشعرون به حتى الآن.



فهرس الجزء الثاني

الموضوع	الصفحة
٢١ ـ سابق البربري	٧٢٧
٢٢ ـ أبو جعفر بن عطية (ت ٥٥٣ هـ)	٧٤٦
٢٣ ـ ابن زنباع الطنجي	٧٧٢
٢٤ ـ ابن حبوس الفاسي (ت ٥٧٠ هـ)	٧٩٨
٢٥ ـ أبو حفص بن عمر (ت ٦٠٣ هـ)	٨٣١
٢٦ ـ أبو العباس الجراوي (ت ٦٠٩ هـ)	٨٦٢
٢٧ ـ ميمون الخطابي (ابن خبّازة) (ت ٦٣٧ هـ)	٨٩٣
٢٨ ـ ابن عبدون المكناسي (ت ٦٥٨ هـ)	٩٣٣
٢٩ ـ عبدالعزيز الملزوزي (ت ٦٩٧ هـ)	٩٤٧
٣٠ ـ مالك بن المرحل (ت ٦٩٩ هـ)	٩٩٢
٣١ ـ أبو العباس العَزَفي (ت ٧٠٨ هـ)	١٠٤٦
٣٢ ـ ابنُ هانىء السبتي (ت ٧٣٣ هـ)	١٠٧٢
٣٣ ـ أبو بكر ابن شَبْرين (ت ٧٤٤ هـ)	١٠٨٥
٣٤ ـ أحمد بن شعيب الجزنائي (ت ٧٤٩ هـ)	١١١٨
٣٥ ـ عبدالمهيمن الحضرمي (ت ٧٤٩ هـ)	١١٤٦
٣٦ ـ أبو القاسم الشريف (ت ٧٦٠ هـ)	١١٧٢

الموضوع	الصفحة

٣٧ ـ النابغة الهوزالي (ت١٠١٢ هـ) ١١٩٧
٣٨ ـ عبدالعزيز الفشتالي (ت ١٠٣٢ هـ) ١٢٢٤
٣٩ ـ ابن زاكور (ت ١١٢٠ هـ) ١٢٦٧
٤٠ ـ ابن الطيب العلمي (ت ١١٣٤ هـ) ١٣٠١
٤١ ـ ابن الونان (ت ١١٨٧ هـ) ١٣٢٨
٤٢ ـ ابن إدريس (ت ١٢٦٤ هـ) ١٣٦٠

* * *

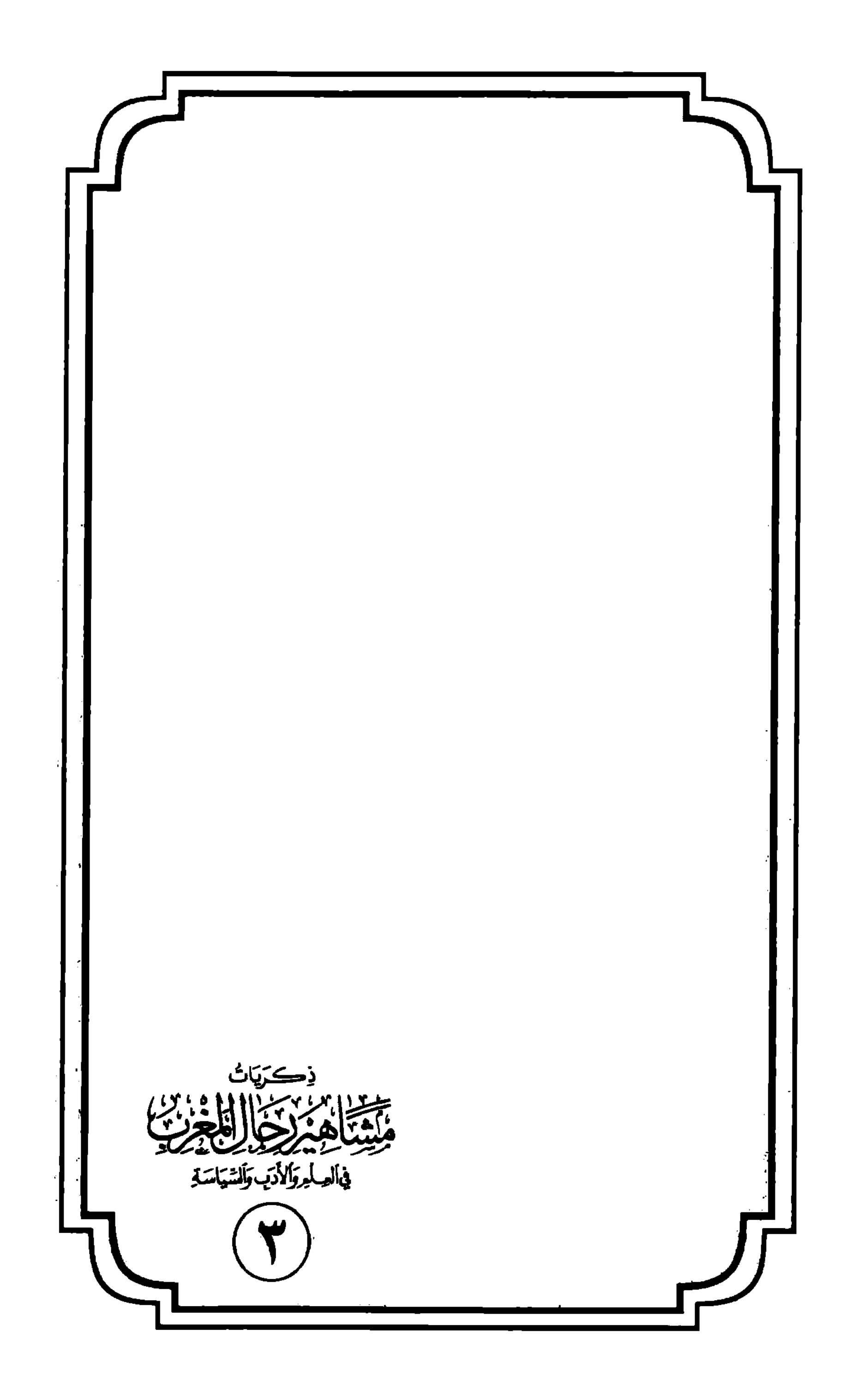


تأليف
العلامة الأديب عبد الله كنون

قدم له واعتنى به ورتب تراجمه إلى طبقات
الدكتور محمد بن عزوز

الجزء الثالث
في السياسة

مركز التراث الثقافي المغربي
دار ابن حزم


ذكريات
مشاهير رجال المغرب
في العلم والأدب والسياسة
٣

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ - ٢٠١٠م



ISBN 978-9953-81-857-3

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

مركز التراث الثقافي المغربي
الدار البيضاء - 52 شارع القسطلاني - الأحباس
هاتف: 442931 - 022/ فاكس: 442935 - 022
المملكة المغربية

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - ص.ب: 14/6366
هاتف وفاكس: 701974 - 300227 (009611)
بريد إلكتروني: ibnhazim@cyberia.net.lb



تأليف

العلامة الأديب عبد الله كنون

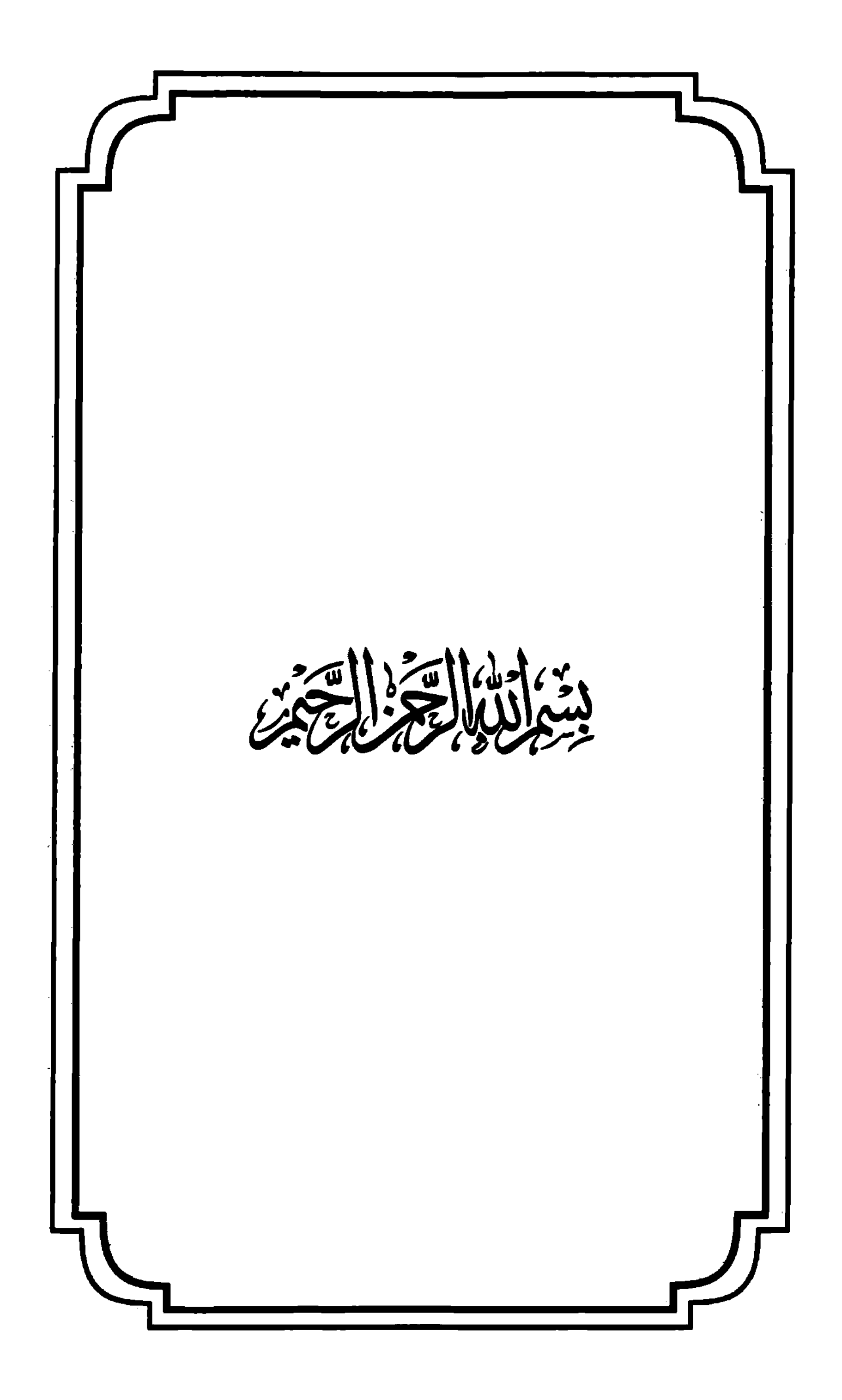
قدم له واعتنى به ورتب تراجمه إلى طبقات

الدكتور محمد بن عزوز

الجزء الثالث

في السياسة

مركز التراث الثقافي المغربي دار ابن حزم



بسم الله الرحمن الرحيم

الإمام إدريس
(ت ٢١٣ هـ)

العلويون وحقهم في الخلافة، وقعة فخ ولجوء إدريس الأكبر إلى المغرب، مبايعة المغاربة له، نفي شبَه يوردها بعض المؤرخين، عمل إدريس في توطيد الإسلام بالمغرب، فتحه لتلمسان، وفاته، ولاية مولاه راشد الوصاية على العرش، ولادة إدريس الأزهر، نشأته وتربيته، مبايعته، نهوضه بأعباء المُلك، تنظيم الدولة، بناء مدينة فاس، مناقشة رأي غريب في تاريخها، جهاده ومآثره، وفاته.

كان العلويون، وهم يحاربون بني أمية، يحتجُّون بأنهم انتزعوا الخلافة منهم بغير حق، وأن سبيلهم إليها كان هو القوة لا غير، أما الاستحقاق الشرعي بطريق السابقة والأفضلية في الإسلام، فهو آل النبيّ من بني هاشم، حتى لو لم نَقُل بالإرث والوصية. فلما قامت الدولة العباسية اعتبر العلويون أن بني عمهم خانوهم، لأن الدعوة إنما كانت للرّضَى من آل محمد، وفعلاً فقد كان أهل البيت النبوي اجتمعوا بالمدينة عند اختلال أمر مروان بن محمد، آخر

خليفة من بني أمية، وبايعوا لمحمد الملقب بالنفس الزكية، وهو ابن عبدالله الكامل بن الحسن المُثَنَّى بن الحسن السّبْط بن علي بن أبي طالب، وحضر البيعة أبو جعفر بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس، وهو الذي تولى الخلافة بعد ذلك باسم أبي جعفر المنصور.

ولهذا لما خرج محمد النفس الزكية بالحجاز على المنصور، احتجّ له الإمامان مالك وأبو حنيفة وقالا: إن إمامته أصح من إمامة أبي جعفر، حتى أنهما أوذيا في ذلك، وكان الإمام مالك يُفْتي بأن طلاق المُكْرَه لا يجوز، مُورياً ببيعة الإكراه، التي يأخذ العباسيون بها الناس، وعلى ذلك تتابع خروج العلويين حتى كانت وقعة فَخّ بالقرب من مكة، سنة تسع وستين ومائة في أيام موسى الهادي العباسي، وكانت الكَرَّةُ فيها على العلويين، فتفرقوا في الأمصار، ومنهم إدريس بن عبدالله أخو محمد النفس الزكية، الذي لجأ إلى المغرب.

وقصة لجوئه هذا طريفة، ولعلها من إيحاء مولاه راشد المغربي الأصل، الذي لم يرَ لسيده أنجى من أن يُبْعِد في غَرْب البلاد الإسلامية حيث يأمَنُ على نفسه، ويُحتمل أن يجد المنعة والنصرة.

وهكذا نرى إدريس قد لحق بمصر ومعه راشد مولاه، فعلم صاحب البريد بأمره، وهو يومئذٍ واضح المسكين مولى صالح بن المنصور، ولما لم يرَ فيه خطراً وأنه إنما يطلب النجاة من الموت، حَمَله على البريد إلى المغرب الذي هو

وِجْهتُه، فلم ينتهِ حتى حلَّ بمدينة وَلِيلي سنة ١٧٢[١] ونزل على إسحاق بن محمد بن عبدالحميد زعيم أَوْرَبَة من قبائل المغرب التي يقال: إنها قبيلةُ راشد مولى إدريس، فهذه خطة مُحكَمة دبّرها المولى المُخلِص لنجاة سيده والقيام بأمره، ولذلك قلنا: إنَّ قصة لجوء إدريس إلى المغرب ربما كانت من إيحاء مولاه.

ويروي ابن أبي زَرْع حكاية أخرى في وصول إدريس إلى مصر وكيفية خروجه منها، وهي حكاية مؤثرة، وإن كان طابَعُ الصنعة يلوح عليها واضحاً وخُلاصتها أن رجلاً من أهل مصر، من أهل اليسار استضاف إدريس بعد أن عرفه، وأقام عنده أياماً هو ومولاه راشد، فنُذِر بهما الوالي، فبعث إلى الرجل يُحذّره مغَبَّة إيواء الخارجين على الدولة ولكنه يُؤمّنه هو وضَيْفه، ويُؤجّل هذا الضيف ثلاثاً ليغادر مصر ويتجه حيث شاء. فأعدَّ الرجل راحلتين له ولإدريس وصنع زاداً يبلغهما إلى إفريقية، وقال لراشد: أخرُجْ أنت مع القافلة، وأخرج أنا وإدريس على طريق لا تسلكه الرفاق وموعدنا مدينة بَرْقَة. وهناك ودّعهما المصري، وتوجه إدريس ومولاه إلى القيروان فأقاما بها مدة، ثم قصدا المغرب الأقصى، وعمَد راشد إلى إدريس فألبسه مِدْرَعةَ صوف خشنة وعمامة كذلك وصيَّره كالخادم له يأمره وينهاه خوفاً عليه واحتياطاً من عدوه، الأمر الذي يدل على تجدد

(١) هي فلوبيليس Volubilis المدينة الرومانية الأثرية المسماة في لسان العامة قصر فرعون بقرب مدينة زرهون.

الطلب في أثره، فوصلا إلى مدينة تلمسان، ومنها توجَّها إلى طنجة وهي يومئذ قاعدة بلاد المغرب وأمُّ مدنه، فأقاما بها أياماً ولما لم يجد إدريس بها مراده خرج مع مولاه حتى انتهيا إلى وَلِيلي فنزل على كبيرها ابن عبدالحميد الأوْرابي كما قلنا، فأقبل عليه وبالغ في إكرامه وبِرّه، وعرّفه إدريس بشأنه وأفضى إليه بسره، فوافقه على مراده، وتولى خدمته والقيام بشؤونه.

ولم يلبث ابن عبدالحميد أن جمع عشيرته من أوْرَبة وعرّفهم بنسب إدريس وقرابته من النبيّ ﷺ وقرر لهم فضله ودينه وعلمه، واجتماع خصال الخيْر فيه، ودعاهم إلى بيعته، فبايعوه بمدينة وَلِيلي يوم الجمعة ٤ رمضان المعظّم سنة ١٧٢، وكانت أوْربة يومئذٍ من أعظم قبائل المغرب وأكثرها عدداً، فقامت بدعوة إدريس ودعت غيرها من القبائل المغربية إلى نصرته والدخول في طاعته، فاستجاب له أكثر القبائل، وتواردت عليه الوفود مُعْلِنةً ببيعته مُؤيّدة له، فقويت جُموعه وتمكّن سلطانه، فجَيَّشَ الجيوش وخرج غازياً يضرب في بلاد المغرب طولاً وعرضاً، ويملك منها ما بقي غير خاضع له. وكانت دعوة الإسلام ما زالت لم تتمكن في كثير من القبائل، وبعضُ القبائل قد فتنتها دعوات الخوارج وأهل الابتداع، فعمل إدريس على إبلاغ الدعوة الإسلامية خالصةً من الزيغ والانحراف إلى الجميع، واستَنْقَذ الذين استهوتهم البِدعُ والأهواءُ من الضلال، ووحّد كلمة المغرب وقلوب أهله من يومئذ على مذهب السنّة والجماعة، فلم يمِلْ عنه بعد ذلك حتى يوم الناس هذا.

ولعلنا في غير حاجة إلى القول بأن ما زعمه بعضُ المؤرخين من أن ابن عبدالحميد كان مُعتزلياً شيعياً، وأن أوْرَبة قبيلته وجُلّ قبائل المغرب كانت على مذهب الخوارج، وأن إدريس وفّق بين نزعات القوم وقوّى الشيعيَّة وأقام دولته على أساسها، هو من الكلام المُلقى على عَواهِنه والذي لا يثْبت عند التحقيق. ونعتقد أن الذي حملهم على ذلك هو ما رَأوهُ من نجاح أمر إدريس وانتشار دعوته وتمهيد سلطانه، فجعلوا كلَّ مَن مَرّ به أو لَقِيَه ابتداءً من دخوله إلى مصر، شيعياً ينتصر لآل البيت، حتى صاحب البريد بها، وهو مولى للعباسيين، وحتى كبير قبيلة أوْرَبة التي قامت بدعوته في المغرب، كأنه لو لم يكن شيعياً لما قامت لإدريس قائمة.

والحق أن قضية إدريس، وتَغْني قضية العلويين، بملابساتها المأسوية وقوة حجتها وأهمية من يُناصرونها من رجال العلم والدين كالإمامين أبي حنيفة ومالك بن أنس، هي في غُنْيَةٍ عن أن نلتمس لها الأسباب والعلل في شيعية كل من تطوع لخدمتها وتحمّس لنصرتها... أما خارجيَّةُ القبائل المغربية فإنها كانت فِتْنةً كما عبَّرْنا، أكثرَ منها مذهباً ونزعة سياسية يأخذ بها المغاربة، وإلاّ لما استطاع إدريسَ أن يُحوّلهم في مدة قليلة من الخارجية إلى الشيعية كما يزعم أولئك المؤرخون، وهو الأمر الذي لم يُحقّقْه جدّه الأعلى علي بن أبي طالب والزعماء العلويون من بعده.

وإذا ثبت التزيُّد في هذا القول وعدَمُ صحته نظراً، فإن الزعم بأن إدريس هو الذي تحول إلى مذهب أنصاره

المغاربة كما ادّعى البَكْرِي، هو أكثرُ بطلاناً وأبعدُ من التحقيق. فإن إدريس كان من أئمة آل البيت وصاحب دعوة، وعلَماً من أعلام المِلَّة والدين، وقد تحمَّل في سبيل إيمانه بدعوته ودعوة أسلافه ونجاحِها أعظم التضحيات، فكيف يتحوَّلُ عنها إلى ضدها في المكان الذي يأمل أن يبثَّها فيه، وتنتشر منه. وكيف يكون تحوُّلُه على يد أناس سُذَّج قليلي المعرفة، حديثي عهد بالإسلام. لا جرمَ أن مَن زعم ذلك لم يُقدّر مُهِمَّة إدريس، ولم يعرف ما كان عليه القوم من جاهلية جهلاء.

وبإجماع المؤرخين وتواتر الرواية على ألسنة الجماهير الشعبية من أهل المغرب يعتبر إدريس أحد الفاتحين الذين نشروا الإسلام في هذه البلاد، ووطدوا سلطانه ورفعوا رايته، كعُقْبة بن نافع وموسى بن نُصير، بل إنه في الرواية الشعبية يُعتبر الفاتح الوحيد، وذلك قطعاً لأنه هو الذي تمَّم عمَلَ سابقيه وأخضع ما بقي من قبائل المغرب خارجاً على الطاعة وأدخلهم في حظيرة الإسلام وقطع دابر الكفر والضلال، وجمعَ الشمل ورتقَ الفتْق، ودعم كيان الوطن فلم ينهَرْ بعده أبداً.

وبعد أن فرغ إدريس من تمهيد المغرب الأقصى، توجَّه نحو مدينة تلمسان، وهي باب المغرب الأوسط، فخرج إليها واليها محمد بن خَرز المَغْراوي مُستأمناً ومُبايعاً له، فدخلها ونظر في أحوالها، وبنى بها مسجداً كبيراً، ثم عاد إلى وَلِيلي عاصمة مملكته حيث قُدر له أن يموت مسموماً بتدبير من هارون الرشيد فيما يقال، لأنه لمَّا بلغه

خبره وتمكُّنه وظهوره وغزْوه للمغرب الأوسط، خشي من استفحال أمره وتملُّكه لإفريقية وتهديده لدولته فلم يرَ وسيلة للتخلُّص منه إلا أن يبعث إليه مَن يحتال في الاتصال به واغتياله، من غير أن يتورَّط معه في حرب لا يدري ما تكون نتيجتها.

وكانت وفاة إدريس بن عبدالله، ويلقب بالأكبر، في مهلّ ربيع الآخر سنة ١٧٧، فمدة إمامته رحمه الله خمس سنوات وستة أشهر.

وقد نشأت عن وفاته أزمة حكم حادَّة، لو لم يدبرها راشد بحكمة وحسن نظر لكانت نهاية الدولة الإدريسية يومئذ، فإن إدريس لم يُخلّفْ عقباً غير حمْل بجارية مغربية تسمى كَنْزَة، وهي في الشهر السابع من حَمْلها، فجمع راشد رؤساء القبائل ووجوه الناس وقال لهم: إنكم قمتم بدعوة آل البيت ونُصْرتِهم فإن رأيتم أن تتربَّصوا بهذه الجارية حتى تضع حملها فإن كان ذكراً أحسنًا تربيته، فإذا بلغ مبلغ الرجال بايعناه وفاءً لوالده وتمسكاً بدعوته، وإن كان أنثى نظرتم لأنفسكم، فاقتنعوا بكلامه وقالوا له: ما لنا مَحِيد عن رأيك وحُسن تدبيرك.

وتولى راشد من يومئذ الوصاية على العرش، ولم تلبث كنزة أن وضعت مولوداً ذكراً أشبهَ الناس بأبيه، وذلك في يوم الاثنين ٣ رجب ١٧٧، أي: بعد شهرين من حدوث الأزمة، فأخرجه راشد إلى الناس حتى نظروا إليه فقالوا: هذا إدريس بعينه لم يمتْ، فسمّاه راشد إدريس وسَهِر على تربيته وقام بأمره أحسن قيام.

وظهرت نجابة إدريس منذ الصغر، فحَفِظ القرآن وهو ابن ثماني سنوات، وتعلم الفقه والعربية، وروى الشعر وأيام العرب وسيَر الملوك، وتدرّب على ركوب الخيل والرمي بالسهام وغير ذلك من مؤهلات الرياسة وخصال الملك، وأدركته نباهة أصله وكرم أبوّتهِ، فسرعان ما يفَعَ وترعرَعَ وأصبح مستعداً للاضطلاع بخلافة أبيه وتولى الأمر بنفسه، فاجتمع عليه القوم وبايعوه في مسجد وَلِيلي يوم الجمعة غرة ربيع الأول عام ثمانية وثمانين ومائة وله من العمر إحدى عشرة سنة.

وقيل: إن إبراهيم بن الأغلب والي إفريقية دسَّ إلى راشد مَن قتله فأسرع القوم إلى مبايعة إدريس اتقاءً للفتنة، ومعاملة لابن الأغلب بنقيض قَصْدِه إذ كان يريد تفريقَ الكلمة وقَطْعَ دعوة الأدارسة.

ولما تمت له البيعة صعد المنبر وخطب الناس فقال:

«الحمد لله أحمده، وأستغفره وأستعين به، وأتوكّلُ عليه، وأعوذ به من شر نفسي ومن شر كل ذي شر. وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، المبعوث إلى الثَقَليْن بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، صلّى الله عليه وعلى آل بيته الطاهرين، الذين أذهب الله عنهم الرّجْسَ وطهَّرهم تطهيراً. أيها الناس: إنا قد وَلِينا هذا الأمر، الذي يُضاعَف للمحسن فيه الأجر، وللمسيء الوِزْر، ونحن والحمد لله على قصْدٍ جميل، فلا تمدوا الأعناق إلى

غيرنا، فإن الذي تطلبونه من إقامة الحق، إنما تجدونه عندنا»، فعجب الناس من فصاحته وقوة جأشه وأيقنوا أنه أحقّ بها وأهلها.

والحقيقة أن هذه الخطبة على قصرها تُبيّن مَدَى فعالية التربية الحسنة التي قام بها راشد لإدريس، إعداداً للمهمة الكبرى التي تنتظره، وتدل على بُعْد نظر إدريس وإلمامه بالظروف التي بويع فيها وطبيعة الأحداث التي تواجِهه، فهو لم يغترَّ بنصرة القوم له، والحماس الذي أظهروه في بيعته، وإنما اعتمد في ولايته الحِسْبة وتوخّي العدل وطلبَ الثواب من الله عزَّ وجلَّ، ثم ألْمَع إلى خصومه وما يدبرونه له من المكائد، فأنذر مَن يُصغي لهم وينخدع بكلامهم أنَّ مرادهم هو التسلط والقهر، وإشاعة الفتنة، وأما الحق والعدل وحكم الشرع فإنهم بمعْزِل عنه، ولا يقيمه إلا أهل البيت الذين ثاروا من أجله وأراقوا دماءهم الزكية في سبيله.

فما أشبه هذه الخطبة في اختصارها وجمعها بخطبة أبي بكر الصديق التي خطب بها عند مبايعته. . . وهي إن تكُنْ من كلامه في هذه السنّ المبكرة فذلك منتهى النبوغ، وإن تكن مما خطب به بعد تقدمه في السن واستتباب الأمر له، وإنما المؤرخون هم الذين جعلوها خطبته الأولى فذلك منتهى التوفيق.

وأظهر إدريس على مرّ الأيام مقدرةً تامة على تسيير الأمور والنهوض بأعباء المُلك، مستعيناً بالرؤساء والأعيان من رجال القبائل وأنصار أبيه، إلا مَن انحرف عنه ومال إلى

دعاة العباسيين وولاتهم بإفريقية فإنه كان يَحذَرُه ويُنزلُه منزلته، وربما فتَك به أخذاً بالاحتياط وحسْماً لمادَّة الخلاف كما فعل بابن عبدالحميد الأوْربي القائم بأمر أبيه لمّا أحسّ بانقلابه عليه، وعُدَّ ذلك من حزْمه وصرامته.

وكان إبراهيم بن الأغلب والي العباسيين على إفريقية لا يفتأ يثير الفتن ويدبر المكائد للدولة المغربية الفتية، فبعد قتله لراشد جعلَ وَكْدَه قتْلَ إدريس أو تشتيت شمل القبائل المغربية، المجتمعة عليه، وهو القائل في شعْرٍ له:

ألم ترني بالكيْد أرْدَيتُ راشداً
وإني بأخرى لابن إدريس راصِدُ
تناوَلَهُ عزْمي على بُعْد داره
بمحتُومة يحظَى بها من يُكابِدُ

وكان بَهْلول بن عبدالواحد المَضْغَري من الرؤساء الذين استمالهم ابن الأغلب واستهواهم بالمال حتى بايع هارون الرشيد واعتزل إدريس في قومه مَضْغَرة فداراه إدريس حتى راجع طاعته وكان مما كتب به إليه هذه الأبيات:

أبَهلُولُ قد حمَّلت نفسك خطة
تبدَّلتَ فيها ضلَّةً بِرَشاد
أضلَّك إبراهيمُ عن بُعد داره
فأصبحتَ منقاداً بغير قياد
كأنك لم تسمعْ بمكر ابن أغلبٍ
وَقِدْماً رمى بالكيد كُلَّ بلاد

وفي الواقع أن المصاعب التي كان يخلقها ابن الأغلب لإدريس بالتضريب بين رؤساء القبائل المغربية وإثارة الفتن الداخلية، كبَّدته مشاقّ عظمية ومجهودات كبيرة للمحافظة على الاستقرار ودوام الدولة، ودلَّت من جهة أخرى على حَصافته السياسية وقوة عزيمته، على أن الْتِفافَ المغاربة حوله وصِدْق محبتهم له وتفانيهم في نصرته مما كان له أعظم الأثر في إحباط دسائس ابن الأغلب وعدم نجاح مساعيه.

وضبط إدريس أمرَ المغرب وعدل في الرعية وأحسن السياسة، ووصل الوفود وعظَّم الرؤساء والأشياخ، فأحبّه الناس وتعلقت القلوب به، توطد مُلكه وقويَ سلطانه وكثرت جيوشه وأتباعه، وقصد حضرته الأكابر والأعيان من كل قبيل. وكان من جملة مَن وفد عليه جموع من عرب إفريقية والأندلس نحو خمسمائة فارس من قَيْس والأزْد ومَذْحج ويَحْصُب والصَّدِف وغيرهم فسُرَّ بوفَادتهم وأجزل صِلتَهم وأدنى منزلتَهم، فطَعَّم بهم جهاز الدولة الذي كان في حاجة إلى مثل هذه العناصر لتقويته واستكمال تعْريبه، فاستوزر منهم عُمَيْر بن مصعَب الأزْدي المعروف بالمَلْجُوم لِضَرْبة أصيب بها في بعض الحروب على خرطومه، وهو جدّ بني الملجوم الذين كان لهم بفاس فيما بعد شُهرة عظيمة بالعلم والدين، واستقضى منهم عامرَ بن محمد بن سعيد القيْسي، وكان من أهل الورع والفقه والدين، سمع من مالك بن أنس وسفيان الثَّوْري وروى عنهما كثيراً. ومن هنا بدأ مذهب أهل الحجاز ينتشر في المغرب وفقه مالك بالخصوص، لا سيما

مع ما عُلِم من انتصاره للعلَويين ومَيْل هؤلاء إليه. وكذلك استكتب إدريس من وفود العرب أبا الحسن عبدالله بن مالك الخزْرجي، فتمَّ له بذلك تجهيز الدولة بإطار عربي لا يقلُّ كفاءة ومقدرةً عن الذي يوجد في دولة الأغالبة بإفريقية أو المَرْوَانيَّة بالأندلس.

وكان نزوع هذه الوفود العربية إلى إدريس عاملاً قوياً في دعم دولته وترجيح كفَّته على خصومه، ودليلاً قاطعاً على استقرار حكم العلويين بالمغرب، واستتباب أمره، فلذلك مال إدريس إليهم وقدَّمهم لهذه المناصب السامية، والمؤرخون يَعُدُّون ذلك منابذة للمغاربة أهل البلاد، وافتياتاً عليهم، والأمر لا يَعْدُو أن يكون تدبيراً سياسياً يراد به صرف النظر إلى أول دولة علوية تنشأ في العالم الإسلامي بعد خلافة عليّ كرّم الله وجهه، ويعلو شأنها ويعظم سلطانها، من غير أن ينكر أحد ما كان للمغاربة من فضل في قيام هذه الدولة وحمايتها، ولم يثبت عن إدريس أنه أبعد العنصر المغربي عن سياسة الدولة وتولى أعمالها، وتوظيف بضْعة أشخاص من العرب الوافدين عليه لا يعني أبداً نفض يده من المغاربة الأصليين، وإنما هو في نظرنا استعانة بكفاءتهم على تعريب الجهاز الحكومي وإعلان في الوقت نفسه عن الدولة الفتية التي قامت بدعوة العلويين واستحقت أن تَلْفت إليها الأنظار. ولهذا لم يحصل أي تمرُّد من المغاربة على هذه السياسة في أيام إدريس.

ولا يصح قطعاً أن يميل إدريس عن المغاربة الذين ناصروه وأيّدوه وهم فوق ذلك أخواله وعشيرته الذين يجري

دمهم في عروقه، فهو في الحقيقة أول مغربي تبلورت فيه القومية العربية المغربية من وجهة النظر السلالية لامتزاج العنصرين فيه بالمصاهرة والولاء، وهو لُحْمة كلُحْمةِ النَّسَب، كما في الحديث. فمراد إدريس من هذا التطعيم هو أن يلتحم العنصران، ويصيرا أسرة واحدة، وهو ما كان بعد ذلك، فلا تجد في المغرب بيتاً لا يجري في عروق أبنائه الدم المغربي والعربي معاً، ولقد تعرَّب المغاربة دماً وشعوراً حتى أن أقوى قبائلهم وأعظم ملوكهم ليضعون لأنفسهم مُشَجَّراتٍ تصِل نسبهم بالأصول العربية، أو بيت النبوة في بعض الأحيان، وذلك إنما هو نتيجة سياسة إدريس هذه.

وضاقت بإدريس وجيوشه عاصمة أبيه وَليلي، ولم تعد ملائمة لتطور الدولة واتساع سلطانها، ففكر في إنشاء مدينة جديدة يجعلها عاصمته وينتقل إليها بديوانه وجيشه ورجال حكومته، فخرج في جماعة من حاشيته يرتاد البقاع ويتخيَّر المواقع، ولم يتوفق إلى المكان الصالح لبناء هذه المدينة إلا بعد عدَّة تجارب أخفقت كلها. وقيل: إن الفضل في اختيار هذا المكان يرجع إلى وزيره عُمَيْر بن مُصْعَب الذي أرسله إدريس بعدما أعياه الأمر، فذهب يقُصّ الجهات ويرود الأماكن والتراب والمياه، حتى وصل إلى المكان المطلوب وهو غَيْضَة بين جبَلَيْن ملتفَّة الأشجار مُطَّردة العيون في طرف بسيط سايس على مقربة من الوادي الذي سيعرف باسم المدينة فيما بعد.

ورجع عمير إلى إدريس فأعلمه بالمكان الذي وقع عليه اختياره، فرضيه إدريس، وتملَّكه وما حوله بالشراء من

أصحابه، وشرع في بناء مدينته التي أطلق عليها اسم مدينة فاس في غرة ربيع الأول سنة ١٩٢، أي: في نفس اليوم الذي بويع فيه قبل أربع سنوات. وسميت فاساً بفأس كبيرة وجدت عند حفر أساسها، وكانت بحيث تلفت الأنظار، طولها أربعة أشبار وعرضها شبر، وزنتها ستون رطلاً فيما يقال، فكثر التعجب منها، وعرفت بها المدينة من يومئذٍ، ويقال: إنه كانت هناك مدينة قديمة خربت قبل الإسلام تسمى ساف فسمّى إدريس مدينته باسمها هذا بعد قَلْبه.

وكان الذي اختطَّ منها أولاً هو عُدْوة الأندلس الواقعة على الضفة اليمنى لوادي فاس وبنى بها المسجد المعروف بجامع الأشياخ، ثم اختط عُدْوةَ القرويين على الضفة اليسرى للوادي، وبنى بها جامع الأشراف وداره التي عُرفت بدار القَيْطُون، والسوق وغيرها من المرافق، وسوَّغ للناس البناء وقال لهم: مَن بنى موضعاً أو اغترسه قبل أن تُسوَّر المدينة فهو له، فبنى الناس واغترسوا كثيراً.

وهكذا نشأت مدينة فاس التي أصبحت منذ بنائها عاصمة المغرب وأهمَّ مدنه ومن كُبْرَيات حواضر العالم الإسلامي ذات التاريخ المجيد في العلم والمَدَنية.

ولما فرغ إدريس من بنائها وحضرت الجمعة الأولى خطب الناس ورفع يديه في آخر الخطبة فقال: «اللهم إنك تعلم أني ما أردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة، ولا رياء ولا سمعة ولا مكابرة، وإنما أردت أن تُعبد بها ويُتلى كتابك، وتقام حدودك وشرائع دينك، وسنّة نبيك محمد ﷺ، ما بقيت الدنيا. اللَّهمَّ وفّق سكانها وقُطَّانها للخير وأعِنْهم

عليه واكْفِهم مؤونة أعدائهم، وأدِرَّ عليهم الأرزاق، وأغمِدْ عنهم سيف الفتنة والشقاق إنك على كل شيء قدير».

وقد أثبت إدريس بهذا أنه رجل دولة من الطراز الأول، فهو سياسي بارع وإداري محنك، وصاحب سيف وقلم، يحب العِمارة ويسعى في أسبابها من إقامة العدل ونشر الأمن وتعميم الرخاء، فلم يزده ذلك إلا شهرة وبُعْدَ صيت ورِفعة ذِكْر. وتتابع وصول الوفود إليه من إفريقية والأندلس وغيرهما راغبين في الإقامة عنده والعيش في كنفه. وكان أكبر هذه الوفود هو وفد الأندلس من أهل رَبَضِ قرطبة الذين ثاروا على أميرها الحَكَم بن هشام الأموي فأجلاهم عنها، وكانوا جمًّا غفيراً زهاء أربعة آلاف بيت، فلما وفدوا على إدريس رحّب بهم وأنزلهم من مدينة فاس بالعُدوة التي حملَتْ اسمهم فعُرفت بعُدوة الأندلس، كما عُرِفت العدوة الأخرى بعُدوة القَرَويين لنزول الوفود القادمين عليه من مدينة القيروان بها وكانوا ثلاثمائة بيت.

ومن وفد أهل القيروان كانت السيدة أمّ البنين الفِهْرِيَّة التي بنت جامع القرويين بمالها الحلال الذي ورثته من أبيها، وذلك في مدة حفيد إدريس يحيى بن محمد سنة ٢٤٥، فبارك الله في هذا المسجد حتى صار جامعة إسلامية عظيمة تشعّ بأنوار العلم والعرفان، وهي اليوم أقدم جامعة في العالم كله.

ولم تزل مدينة فاس تنمو وتعظم، وكلما تقدم بها الزمن أثبتت أنها مدينة المغرب العربي الأولى التي تحتضن حضارة الإسلام وعلمَه وأدبه في أقاليم الغرب الإسلامي،

فهي إلى كونها مركز إشعاع فكري وثقافي بسبب وجود جامعة القرويين فيها، مدينة الفنون والصنائع وملتقَى التجار ومختلف الأجناس من أهل المشرق وأوروبا والسوادِين والصحراء، يتبادلون المصالح ويقتنون منها أنفس البضائع والطرف.

وهاك ما يقوله عبدالواحد المراكشي المؤرخ المعروف في وصفها وهو من أهل القرن السابع: «ومدينة فاس هي حاضرة المغرب في وقتنا هذا وموضع العلم منه، اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة، إذ كانت قرطبة حاضرة الأندلس كما كانت القيروان حاضرة المغرب، فلما اضطرب أمر القيروان بعبَث العرب فيها، واضطرب أمر قرطبة باختلاف بني أمية بعد موت ابن أبي عامر وابنه رحل من هذه وهذه مَن كان فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة فراراً من الفتنة، فنزل أكثرهم مدينة فاس، فهي اليوم على غاية الحضارة. وأهلها في غاية الكَيْس ونهاية الظرف. ولغتهم أفصح اللغات في ذلك الإقليم. وما زِلْتُ أسمع المشايخ يدعونها بغداد المغرب وبحق ما قالوا ذلك، فإنه ليس بالمغرب شيء من أنواع الظرف واللباقة في كل معنى إلا وهو منسوب إليها وموجود فيها ومأخوذ منها، لا يدفع هذا القول أحد من أهل المغرب... وما أظن في الدنيا مدينة كمدينة فاس أكثر مرافق وأوسع معايش وأخصب جهات، وذلك أنها مدينة يحفّها الماء والشجر من جميع جهاتها وتتخلل الأنهار أكثر دورها زائداً على نحو من أربعين عيْناً ينغلق عليها أبوابها ويحيط بها سورها، وفي داخلها

وتحت سورها نحو من ثلاثمائة طاحونة تطحن بالماء، ولا أعلم بالمغرب مدينة لا تحتاج إلى شيء يُجلب إليها من غيرها إلا ما كان من العطر الهندي[1] سوى مدينة فاس هذه، فإنها لا تحتاج إلى مدينة في شيء مما تدعو إليه الضرورة، بل هي تُوسِع البلاد مرافق وتملؤها خيراً».

ويقول كاتب أوروبي هو روجي لوتورنو في كتابه (فاس في عصر المرينيين[2]) وهو العصر الذي استكملت فيه نموها وازدهارها:

«لم تكن فاس يومها عاصمة مملكة المرينيين المستقرة فحسب، بل كانت مركزاً مهماً للتجارة تربطها المصالح التجارية بالأقطار الأوروبية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط، وبلاد الشرق العربي وبلاد السودان فيما وراء الصحراء الكبرى. وكانت بالإضافة إلى ذلك مدينة علم ودين، حيث كان يتوفر عدد كبير من الطلاب على دراسة اللغة والعلوم الإسلامية، وحيث كان الكُتّاب يُبَرّزون في نظم الشعر وتدوين التاريخ والتأليف في الدين والشريعة، وحيث كان يقوم المتصوفة إلى جانب علماء السنّة، بالحفاظ على شُعْلة قوية للحياة الروحية. ودليلنا على أن مدينة فاس لم تكن مدينة بازدهارها للمرينيين وحدهم، هو ما كان عليه حالها في فترة الانحطاط الطويلة التي مرت بها دولتهم، وحتى في أيام بني وطاس الضعفاء، الذين خلفوا بني مرين،

---

(١) يعني: العود الهندي المستعمل في البخور.

(٢) ترجمة الدكتور نقولا زيادة.

الذين قُدِّر لهم أن يقتصر سلطانهم على الأجزاء الشمالية من المغرب فقط، فإن مدينة فاس لم تهن، بل إنها لم تتوقف عن الازدهار. والوصف الذي خلّفه لنا مؤلفو القرن العاشر (السادس عشر) المتفاوتون فيما بينهم مثل ليُون الإفريقي (الْحَسن الْوَزَّان) ومارْمُول والأسْقُف كليناردُوس يقدم لنا على ذلك الدليل الذي لا سبيل إلى إنكاره».

هذه فاس التي وضع لَبِنَتها الأولى إدريس الأزهر كما يُلقَّب، فرْقاً بينه وبين أبيه، إدريس الأكبر. وهذه قصة بنائها بما صاحبها من التفكير والتنفيذ، حسبما رواها المؤرخون في شبه إجماع، وتناقله الخلف عن السلف، وجرى حتى على ألسنة العامة من سكان المدينة وأهل المغرب قاطبةً. ولكن المستشرق الفرنسي المعروف ليفي بروفنسال طلع علينا برأي غريب يقول: إن مؤسس فاس وباني خطَّتها الأولى أعني عُدوةَ الأندلس هو إدريس الأكبر، وأن ابنه إدريس الأزهر إنما بنى الخطة الثانية وهي عُدوة القرويين وكمُلت المدينة بذلك بعد نحو عشرين سنة من ابتداء بنائها في عهد أبيه، والحجة الوحيدة التي يقدمها على ذلك هي وجود قطعتين من العملة مضروبتين بفاس تحملان تاريخاً سابقاً للتاريخ الذي تقول الرواية: إن إدريس الأزهر بنى فيه المدينة... القطعة الأولى: درهم محفوظ بالمكتبة الوطنية في باريس وهو بتاريخ ١٨٩، أي: قبل التاريخ المتواتر لبناء فاس بثلاث سنوات. والثانية: درهم كذلك، محفوظ بمتحف مدينة خاركوف وتاريخه ١٨٥، أي: في حياة إدريس الأكبر. وهذا الدليل الذي ينوّه به ليفي بروفنسال لأنه

دليل مادي كما يقول يمكن أن ينظر فيه باحتمال تزييفه أو وقوع الغلط فيه، فإنه إذا كان الغلط في مثل هذه الأشياء يقع في عصرنا هذا - وما قضية طابع البريد البريطاني المغلوط ببعيدة عنا - فأحرى في ذلك العصر البعيد. لا سيما والمستشرق الكبير نفسه يذكر أن هناك قطعاً أخرى من العملة ضربت في وَلِيلي وتُدْغة باسم إدريس الأزهر وتحملُ التواريخ المتتابعة لسنوات ١٨١ و١٨٢ و١٨٣، أي: في غير فاس التي ضربت فيها القطعتان السابقتان زعماً. ثم يشير إلى أن ما يوجد من العملة المضروبة باسمه بعد تأسيسه لمدينة فاس هي أربعة دراهم ضربت في مدينة العالية[1] بتاريخ ٢٠٤ و٢٠٧ و٢٠٨ و٢١٠ ذكرها لافوا Lavoix في كتابه عن العملة الإسلامية الموجودة بالمكتبة الوطنية في باريس. وزاد قائلاً: إنه هو شخصياً يملك منها أربعة تحمل تواريخ ١٩٨ و٢٠٦ و٢٠٩ و٢١٤ واشتبه في هذا الأخير لأنه يحمل تاريخاً متأخراً عن وفاة صاحبه بسنة، إذ من المعلوم أن إدريس الأزهر توفي سنة ٢١٣.

فبهذا الاشتباه ننظر نحن في القطعتين المزعومتين ولا نقبل أن تردَّ بهما أقوال المؤرخين المضبوطة المبنية على كثير من التحري والمحاولات لبناء مدينة فاس من طرف إدريس الأزهر.

وإذن فابتداء ضرب الدراهم بفاس كان في أيام إدريس

(١) يراد بالعالية عدوة الأندلس، فقد كان يطلق على كل عدوة مدينة ولم تعرف كل منهما بالأندلس والقرويين إلا بعد استيطان مهاجرة الأندلس والقيروان فيهما.

الأزهر، بعد التاريخ المعروف لبنائها، ثم هذه الدراهم في الأول إنما كانت تحمل اسم العالية، التي يراد بها عُدوةُ الأندلس، أي: خطة إدريس الأكبر فيما ادّعي أو فاسُ الدّرهمين اللذين جعلا دليلاً مادياً على سبق بناء المدينة عن تاريخها عندنا، فلو كان هذا صحيحاً لاستمر ذكر اسم فاس في هذه الدراهم الجديدة.

وأما الدراهم التي ضربت في وَلِيلي وتُدْغة سنة ١٨١ و١٨٢ و١٨٣ فهي حجة ناطقة بأن فاس لم يكن لها وجود في هذه التواريخ لا باسمها هذا ولا باسم جزئها الذي هو العالية، وإلا لوقع الضرب فيها.

بقيت بعض النقول التي استظهر بها صاحب هذا الرأي، وهي عباراتٌ وردت في تواريخ لم يكن وكدها ذِكْرَ فاس ولا التأريخ لها، وإنما جاءت عرضاً في الكلام على دولة الأدارسة أو المغرب وأصحابها ليسوا من المغاربة، وبعضهم كالبكري معروف بعدم تثبُّته فيما يتحدث به عن الأدارسة[1]، فهي بهذه الصفة لا تقوم النصوص التاريخية المفصَّلة التي كتبها المؤرخون المختصون من أهل البلاد، وأهل مكة كما يقولون أدرى بشعابها.

* * *

هذا ولما استقر إدريس بعاصمته الجديدة هو وحاشيته وأرباب دولته أقام بها إلى سنة ١٩٧، فخرج غازياً بلاد المصامدة أعني إقليم سوس فانتهى إليها واستولى عليها ودخل

(١) بل بمعاداته لهم حتى إنه يطعن في نسبهم.

مدينة نَفيّس ومدينة أغمات وعاد إلى فاس فأقام بها إلى سنة ١٩٩ فخرج في المحرم منها برسم غزو قبائل نَفزَة من أهل المغرب الأوسط ومَن بقي هناك على مذهب الخوارج فسار حتى غلب عليهم ودخل مدينة تلمسان فأقام بها يُدبّر أمرها وأمر ما إليها من الأعمال ثلاث سنوات، ثم رجع إلى فاس فلم يخرج منها حتى توفي. وقد انتظم له مُلك المغرب الأقصى والأوسط من وادي سوس إلى وادي سِلف، وقطع منه دعوة العباسيين كما فعل عبدالرحمٰن الداخل في الأندلس، وأهم من ذلك أنه وحّد كلمته واستأصل شأفة الكفر والزندقة والخروج من بين المغاربة، فأتمَّ عمل والده في ذلك واستحق مثله الوصف بالإمامة، ثم زاد على ذلك أنه قَعَّد حاضرة فاس ووطّد أركان الدولة وأشرك العنصر العربي في تدبير الشؤون وإدارة دفَّة الحكم، فكان لذلك أحسن الأثر في إكمال تعريب المغرب ولحاقِه بالركب الحضاري العربي الإسلامي الذي كان يتعثَّر في طريق اللّحاق به.

وفي ثاني جمادى الآخرة سنة ٢١٣ توفي رحمه الله شَرِقاً بحبّة عِنَب وعمره نحو ستّ وثلاثين سنة، ودفن بمسجده بإزاء الحائط الشرقي منه قاله ابن خلدون:

ومن محاسن ما يروى من جهاده وشجاعته ما حكاه داود بن القاسم بن جعفر الأوْربي قال: «شهدت مع إدريس بن إدريس بعض غزواته للخوارج الصُّفرِيَّة من البربر فلقيناهم وهم ثلاثة أضعافنا. فلما تراءى الجمعان نزل إدريس فتوضأ وصلّى ركعتين ودعا الله تعالى، ثم ركب فرسه وتقدم للقتال، فقاتلناهم قتالاً شديداً، فكان إدريس

يضرب في هذا الجانب مرة، ثم يَكرّ في الجانب الثاني، فلم يزل كذلك حتى ارتفع النهار، فرجع إلى رايته، فوقف بإزائها والناس يقاتلون بين يديه، فطفقت أنثر إليه وأديم الالتفاتَ نحوه وهو تحت البنود يحرّض الناس ويشجعهم، فأعجبني ما رأيته من شجاعته وقوة بأسه. فالتفتَ نحوي وقال: يا داود ما لي أراك تديم النظر إليَّ؟ قلت: أيها الإمام إنه أعجبني منك خصال لم أرها في غيرك. قال: وما هي؟ قلت: أولها ما أراه من حُسنك وجمالك وثبات قلبك وطلاقة وجهك، وما خُصِصْتَ به من البِشْر عند لقاء عدوك. قال: ذلك بركة جدنا ﷺ ودعاؤه لنا وصلاته علينا، وإرثاً عن أبينا علي بن أبي طالب.

قلت: أيها الإمام ، أراك تبصق بصاقاً مجتمعاً وأنا أطلب قليل الريق في فمي فلا أجده. قال: يا داود، ذلك لاجتماع عقلي ورباطة جأشي عند الحرب، وذهاب عقلك. وعدم الريق من فيك لطيش لبك وافتراق فكرك ولما خامرك من الرعب. قال داود: وأنا أتعجب أيضاً من كثرة تقلبك في سرجك وقلة قرارك في موضعك. قال: ذلك مني زَغْمٌ للقتال وعزم وصرامة، وهو أحسن في الحرب. فلا تظنه رُعْباً».

وأنشأ يقول:

ألـيـس أبـونـا هـاشـم شَـدَّ أزْرَهُ
وأوصى بنيه بالطّعان وبالضربِ

فلسنا نملّ الحربَ حتى تملّنا
ولا نشتكي ممّا يؤول إلى النصْبِ

عبداللّه بن ياسين
(ت ٤٥١ هـ)

أحد الفاتحين، مصلح بسط نفوذه على المغرب والأندلس، منشأه وطلبه للعلم، المدرسة التي خرّجته، دخوله إلى الصحراء معلماً وداعياً، يحيى بن إبراهيم رب مثواه وحاميه، الوضع الديني في صنهاجة، تنكر الصحراويين له، انقطاعه للعبادة في رباط ناء، إفاءة الناس إليه من جديد، تربية المرابطين، الخروج من الرباط وبدء الدعوة، تطويعه لقبائل صنهاجة، خضوع الصحراء كلها له، إقامته لأحكام الشرع واستمالته لوجوه الناس، زيادة تبيان للوضع الديني وسير الدعوة، الأحكام الشاذة التي تنسب إليه، وفاة يحيى بن إبراهيم وتقديم يحيى بن عمر، زيادة نفوذه الروحي، الجهاد في السودان، دخوله إلى المغرب ومحاربته لدولة زناتة، وفاة يحيى بن عمر وتوليته لأخيه أبي بكر، محاربة الطوائف الضالة، برغواطة ودينهم الفاسد، أعمال عبدالله الإصلاحية، وفاته.

هذا الرجل مؤسس دولة المرابطين، ومُرْسِي قواعد الدين في بلاد المغرب، ولا سيما في قبائل الجنوب

والصحراء، إنه ثالث ثلاثة رفعوا منار الإسلام في هذه الأرض، وفتحوا القلوب والضمائر بعد فتح المدن والقرى، ألا وهم عُقبةُ بن نافع، وإدريس بن عبدالله، وصاحبُنا عبدالله بنُ ياسين هذا. فلقد أشبَه عمله عملَهما وعلى الأصح أتَمّ ما بدآ به، وكانت الفتن وعموم الضلالات المنتشرة بعد تقلُّص ظل الدولة الإدريسية قد كادت تُطبِق على البلاد وتُعفّي معالمَ الرشد، فلولا ظهوره وقيادته لحركة المرابطين لَتَعثَّر سيرُ الإصلاح الكبير الذي أتى به الإسلام، بل لتوقف واتخذ المغرب اتجاهاً آخر غير ما هو عليه من التزام السنة والطريقة والارتباط بالأمة العربية إلى الأبد.

وكان أساس الخطة التي سار عليها موضوعاً بعلم ومعرفة، على يد أقطاب من رجال المغرب، كما سنرى، أي: إنها كانت انتفاضةً إصلاحية شعبية مُخلِصة ضد ذوي الأغراض والمطامع، والمُغامرين من أتباع المذاهب الزائغة والدعوات الفاشلة، فلذلك كُتِب لها النجاح، وبُسِط ظلها على المغرب كله وعلى أقطار أخرى في إفريقيا وعلى الأندلس.

ونحن إذا أردنا أن نتحدث عن نشأة هذا الرجل وأوليته، قبل قيامه بدعوة المرابطين، لم نجد بيدنا أيَّ خبر عنه، ولا إشارة ولو إلى تاريخ مولده، فلنكتفِ بما وصلنا من أنبائه بعد أن اسْتَوَى طالباً للعلم يرحل في تحصيله إلى الأندلس، وينقطع هناك للطلب سبع سنين على ما عند ابن عذارى وصاحب الحُلل الموْشِية.

وعلى كل حال فانتماؤه إلى جزُولَة وهي إحدى قبائل

إقليم سُوس بالجنوب المغربي، وإلى قَصبتها تَمنارت بالتَّعيين هو مما لا ريب فيه، وقد كانت جزولة من بين قبائل ذلك الإقليم قبيلةً مُنجِبة يحتفظ لنا التاريخ بأسماء عدد غير قليل من أبنائها النوابغ ورجالها اللاَّمعين. وكانت قَصبتُها تَمنَارت مركزَ ذاك الإنتاج الخِصْب، حتى إنه ليصدق فيها معنى اسمها الذي نظن أنه محوَّل عن العربية أي: المَنار. وحقاً إنها لمنَارٌ مُشِع بالعلم والعرفان.

وكان دخوله إلى الأندلس فيما يذكر المصدران السابقان على عهد ملوك الطوائف، يعني في أوائل المائة الرابعة. ونظن أنه لم يُشبع نَهمته من العلم لاضطراب أحوال الأندلس حينذاك، وخصوصاً في قرطبة دار العلم ومَهْوَى أفئدة طلابه، بدليل أننا نجده فيما بعدُ ملازماً مجلسَ وجَّاج بن زلّو أو رِباطَه الذي اتخذه ببلاد نفِّيس في إقليم سوس كذلك، لتعليم القرآن ونشر العلم. وذلك حين ورد على وجّاج كتابُ الفقيه أبي عمران الفاسي من مدينة القيروان مع يحيى بن إبراهيم الكدَالي زعيم صنهاجة، الذي اتصل بالفقيه الكبير في القيروان، أثناء عودته من الحج، وحضر مجلسه العلمي، فطلب منه أن يبعث معه أحد طلبته لتعليم أبنائه وأبناء قبيلته كتاب الله وقواعد العلم، فانتدب تلاميذه لذلك فلم ينتدب أحد لبُعد الشقة والإشفاق من دخول الصحراء.

وكتب أبو عمران إلى تلميذه وَجّاج يوصيه أن يبعث مع يحيى إلى بلاده طالباً من طلبته، يُوثق بدينه وورعه وعلمه، ليعلمهم القرآن وشرائع الإسلام ويفقههم في الدين.

ولما أوصل يحيى كتاب أبي عمران إلى وجاج جمع تلاميذه وقرأ عليهم الكتاب وندبهم لم أمره به الشيخ أبو عمران فانتدب لذلك مُترجمنا هذا، وكان كما تقول الرواية من حذّاق الطلبة الأذكياء النبهاء النبلاء، وأهل الدين والفضل والتقى والورع والفقه والأدب والسياسة مُشارِكاً في العلوم... إلخ.

ونحن نُزكّي هذه الأوصاف لأنا نعلم أن إقليم سوس كان ولا يزال مأرِزَ الخير والدين والنباهة، ولأن مدرسةَ وجّاج أو رِباطَه المُشار إليه كان يبعث تعاليم أبي عمران الفاسي، وهو إمام من أئمة الإصلاح الديني فضلاً عن رسوخ قَدَمه في الفقه والحديث، وقد ملأ بلاد المغرب علماً، وأخذ عنه أهل إفريقية والأندلس، وكان خروجه من فاس بَلَدِه إلى القيروان واستقرارُه بها، بسبب مُناهضةِ الولاةِ له، لأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ودعوته إلى السنة وعملِه بها.

فلا غرو أن يلتحق صاحبُنا عبدالله بن ياسين بهذه المدرسة ويرتسم في عِدَاد طلابها، بعد أن كان يدرس في الأندلس، لأن كثيراً من مَشيخة الأندلسيين هم من تلامذة أبي عمران، فليس لهم فضل على وجاج صاحب المدرسة الذي كان من خاصة تلامذة هذا الشيخ. ولا غرو كذلك أن يأتي من عبدالله هذا العالم العامل المجاهد المخلص، الذي كلُّ أعماله إنما كانت لإعلاء كلمة الله ونُصْرة دينه، فإن الدر من معدنه، وهذا الوردُ من تلك الأغصان.

وتَتوالى فصول الرواية، فيصحَب عبدُالله يحيى بنَ

إبراهيم ويخرُج معه إلى بلاد كُدَالة من صنهاجة، وهم إخْوةُ لَمْتُونة يجتمعون معهم في أب واحد، وكانوا يسكنون آخر بلاد الإسلام ويحاربون السودان، يَلِيهم من جهة المغرب البحرُ المحيط، حسْبَ ما جاء في القِرْطاس. ويعنِي بآخر بلاد الإسلام الصحراءَ الكبرى، فقد كانت غايةَ ما انتهت إليه الدعوة الإسلامية إذ ذاك، ثم بلغت بفضْل جهود المرابطين إلى ما وراء التخوم الصحراوية من إفريقيا السوداء، وإن كان أكثرُ أبناء هذه الأقطار يذكرون أن دخول الإسلام إلى بلادهم أقدمُ من ذلك.

ولما وصل عبدالله مع يحيى بن إبراهيم إلى بلاد كدالة فرح به أهلها وأكرموه وعظّموه، لِمَا ذكر لهم يحيى عنه من العلم والفضل والدين. وكان يحيى قد أنزله معه في بيته، وهذا طبيعي، إلا أن المؤرخين يتزيّدُون في الكلام فيصفون من جهل الصنهاجيين ورِقّة دينهم الشيء الكثير. ويقولون: إن عبدالله وجدَ عند يحيى بن إبراهيم تِسْعَ نِسْوة فسأله عنهن فأخبره أنهن زوجاته. ولما أنكر عليه عبدالله ذلك وقال له: إنه أمر لا يجوز في الإسلام، قال له يحيى: إن جميع الرؤساء من كدالة ولمتونة على مثل حالي.

والظاهر أن هذا من مُبالغات الرواة التي يثبتها المؤرخون على عِلاّتها فإن رجلاً مثلَ يحيى يخرج من أقاصي المغرب قاصداً بلاد المشرق لأداء فريضة الحج، ثم هو يُعرّج على الأقطار الإسلامية للاتصال والاطلاع ويحضُر مجالس العلم كما رأينا منه في القيروان، لا يبلُغ به الجهل إلى هذا الحد فيرتكبَ أمراً معروفاً تحريمه من الدين بالضرورة، وإلاّ

فَفِيمَ حجه ورغبتُه في نشر العلم ببلاده؟ وإذا جاز وقوع هذا بالنسبة لبعض رؤساء صنهاجة فهو غير جائز بالنسبة لجميعهم وخاصة الرئيس يحيى، علماً بأن الإسلام دخل إلى هذه القبائل التي تتكون منها صنهاجة مع الفاتحين الأولين، فلا بد أن تتوطد أركانه وتنتشر تعاليمه خلال المدة الطويلة التي قضتْها في حَظِيرته وهي تتجاوز ثلاثةَ قرون من الزمن، فإنْ يكُن هناك من انحراف عن سبيله القويم، فهو في العامة وفي الكبار المؤثِرين لهوى النفس، وهو أيضاً في الطوائف التي استهواها الدعاة من الروافض والخوارج وأتباع النحلة البرغْوَاطِية التي سيُحارِبُها عبدالله بن ياسين بكل قواه.

وأيًا ما كان الأمر، فقد خاطب عبدُالله وبمعيته يحيى، جميعَ الرؤساء واتصل بعامة الناس، منكراً عليهم ما لا يُقرُّه الشرع. وانتصب لتعليمهم أحكام دينهم، وهدايتهم إلى الصراط المستقيم، فلم يفتأ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويأخذهم بعزائم الأمور، وهو يؤمل أن تسلُس له مقادتُهم فيستقميوا على الطريقة، ويُكوّنوا من أنفسهم ذلك المجتمع الفاضل الذي نادى به الإسلام، وأتت به رسالته السامية، لكنه لم يأنس منهم استجابة لِمَا يدعوهم إليه، وكان كلما أمعن في نصحهم وإرشادهم نفروا منه وهجروه. ولما لم يزيدوا مع الأيام إلا منابذة له وإعراضاً عنه، فكّر في الهجرة إلى مكان آخر أو الرجوع إلى بلده، فطالع بذلك حامِيَه يحيى بن إبراهيم فلم يتركه ينصرفُ لحال سبيله، وقال له: إنما أتيت بك لأنتفع بعلمك في ديني وخاصة نفسي، وما عَليّ فيمن ضلّ من قومي.

وفي رواية لابن عذارى أنهم هجموا عليه وهدموا داره فخرج خائفاً منهم وتوجه إلى شيخه وجَّاج. وقيل: لم يتوجه إليه بنفسه وإنما كتب إليه يعلمه بما جرى له، فشقّ على الشيخ وجَّاج ما بلغه من ذلك وكتب إلى بعض رؤساء كدالة يعاتبهم على ما صدر منهم في حق عبدالله ويُعلِمهم أن من خالفه خرج عن جماعة المسلمين، فاعتذروا إليه وتراجعوا عما كانوا عليه.

وهذه الرواية معقولةُ المعنى ولو في جملتها، إذ لا يصح أن يحصل لعبدالله ما حصل من مقاطعة القوم له، ولا يتصل بشيخه الذي بعثه إليهم، بل لا يصح أن تنقطع الصلة بين وجاج وعبدالله مهما كان الأمر، لا سيما وعمَلُه إنما هو بحسب التبَعِية له، أو قُلْ هو فرع من مدرسة وجاج الأصليَّة التي كان لها ـ ولا شك ـ نفوذ عظيم في تلك النواحي، نظراً لمكانة صاحبها في النفوس. ألا ترى إلى رجوع رؤساء كدالة واعتذارهم عما فرط منهم لمَّا كتب إليهم؟

ويظهر أنه في هذه الفترة، بعد أن قرر مواصلة مُهمته في الصحراء، بَنَى رِباطَه باتفاق مع يحيى بن إبراهيم، وربما بإشارة من وجَّاج أيضاً وجعله عِوَضاً من داره المهدومة، وذلك في مكان ناءٍ من الصحراء، اختُلِف في تعيينه، فقيل: إنه على ساحل المحيط، وهو جزيرة ينحسِرُ عنها الماء، في حالة الجَزْر فيُمشَى إليها على الأقدام، وقيل: بل هو في حدود السنيكال على مصَبِّ نهرها. والمُهِمُّ أنه مكان منقطع عن العمارة بعيد عن مجتمع أهل البطالة والمشاغِبين الذين تألَّبوا عليه من قبل.

وقد أقام فيه هو وأصحابه الذين أخلصوا له وبقوا على عهده، يعبدون الله تعالى ويقيمون شعائر الدين، فتسامع بهم الناس، وأقبلوا عليهم من كل جِنْس وقَبِيل. فأخذ عبدالله يُقرئهم القرآن ويعلّمهم السنّة ويستميلهم إلى الآخرة ويُرغِّبهم في ثواب الله عزّ وجل فلم تمرَّ مدة يسيرة حتى اجتمع له من تلاميذه نحوُ ألف رجل من أشراف صنهاجة، فسمّاهم المرابطين أو سمّاهم الناس كذلك لِلُزومهم الرباط المذكور. وكان هو أحسن اسم يُطلَق عليهِمْ لذوَبان انتماءاتهم القبَلِية فيه، وهي انتماءات طالما فرقت بينهم وجعلت بعضهم عدواً لبعض. إنهم الآن يجمع بينهم عقيدة وسلوك ولم يعودوا يخضعون للنزعات القبَلية العُنصرية، لقد نجح عبدالله في إعداد هذه الفئة المؤمنة وتربيتها على التعاليم الإسلامية الصميمة، وهو الآن بصدد الاستفادة منها في نشر دعوته الإصلاحية، وحمْل القبائل المغربية التي تنتمي إليها على الجادّة، بالموعظة والتذكير، وبالسيف إن أَبَتْ. وها هو يقف فيهم خطيباً، فيعظهم ويشوقهم إلى الجنة، ويخوفهم من النار، ويأمرهم بتقوى الله، وأن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، ويخبرهم بما في ذلك من عظيم الثواب والأجر، ثم يدعوهم إلى جهاد من خالفهم من قبائل صنهاجة قائلاً: «يا معشر المرابطين، إنكم جمع كثير، وأنتم وجوه قبائلكم ورؤساء عشائركم. وقد أصلحكم الله تعالى وهداكم إلى صراطه المستقيم، فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم، وتأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر، وتجاهدوا في سبيل الله حق جهاده»، فقالوا: «أيها الشيخ

المبارك، مُرْنا بما شئت تجدْنا سامعين مطيعين، ولو أمرتنا بقتال آبائنا لفعلنا». فقال لهم: «اخرجوا على بركة الله، وأنذروا قومكم، وخوّفوهم عقاب الله، وأبلغوهم حجته، فإن تابوا ورجعوا إلى الحق وأقلعوا عما هم عليه، فخلُّوا سبيلهم، وإن أبوا من ذلك وتمادوْا في غيهم ولجُّوا في طغيانهم استعنّا بالله تعالى عليهم، وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا، وهو خير الحاكمين».

فسار كل رجل منهم إلى قومه وعشيرته، فوعظهم وأنذرهم ودعاهم إلى الإقلاع عما هم بسبيله، فلم يكن منهم مَن يُقبل ويرجع. وخرج عبدُالله نفسُه إلى أشياخ القبائل ورؤسائهم فحذّرهم وأقام عليهم الحجة. وكان هذا اللقاء الجديد بينه وبينهم بعد القطيعة السابقة، إبلاغاً في النصح وقطعاً للمعذرة، حتى إذا أنفد الجهد في الدعوة ولم يستجب له أحد منهم، قال لأصحابه: قد أبلَغْنا في الإعذار للقوم، وقد وجب علينا الآن جهادهم فاغْزُوهم على بركة الله.

وبدأوا أولاً بقبيلة كُدَالة، فغزاهم في ثلاثة آلاف من المرابطين فانهزموا بين يديه. وراجعوا بصيرتهم فأعلنوا بالتوبة وأدّوْا ما يلزمهم من جميع ما فرض الله عليهم. وذلك في صفر سنة ٤٣٤.

ثم سار إلى لَمْتُونة فنزل بهم وقاتلهم حتى ظهر عليهم، وأذعنوا إلى الطاعة والتوبة. وبايعوه على إقامة الكتاب والسنّة. ثم سار إلى مَسُوفَة فقاتلهم حتى أذعنوا له وبايعوه على ما بايعته لمتونة وكدالة. فلما رأى ذلك باقي

قبائل صنهاجة سارعوا إلى التوبة وأقروا له بالسمع والطاعة، فقبل منهم، وجعل يعلّمهم القرآن وشرائع الإسلام، ويأمرهم بالصلاة والزكاة وإخراج العشر. وأنشأ لذلك بيت مال يجمعه فيه، وينفق منه على الجيش ويشتري السلاح، وهو في أثناء ذلك يوالي الغزو والجهاد حتى ملك جميع بلاد الصحراء واستولى على قبائلها.

وكان يُنَفِّل أنصاره من المرابطين أسلابَ المقتولين، ويقسم الفيء بينهم بمقتضى أحكام الشرع.

وبعث بمال عظيم مما اجتمع عنده من الزكوات والأعشار والأخماس إلى طلبة بلاد المَصامِدة وقُضاتها، فاستمالهم بذلك وصاروا يتشوفون إليه.

واشتهر أمره في جميع بلاد الصحراء والقبلة والمصامدة وسائر بلاد المغرب، وتحدث الجميع أنه قام رجل بكدالة يدعو إلى الله وإلى طريق مستقيم، ويحكم بما أنزل الله، وهو متواضع زاهد في الدنيا، كما اشتهر ذلك، وتحدث الناس به أيضاً في بلاد السودان.

هكذا سار أمر عبدالله بن ياسين من لدن بنائه للرباط، إلى أن ظهر على مسرح السياسة بصفته زعيماً دينياً وقائداً مظفراً قد ألقَى النّاس إليه بالمقاليد وقد اعتمدنا في هذا الاستعراض على رواية القِرْطاس وسياقه، ونقلنا الكثير منه بلفظه من غير تبديل له، لاطمئناننا إلى خبره، ولانسجام حوادثه مع التحركات الطبيعية التي لا يُمكِنُ لعبدالله أن يتجاوزها في هذه المرحلة من نشاطه.

وبمقتضى ما ذكر يتبين لنا:

أولاً: أن هذه القبائل كانت على الإسلام. لأن دخولها فيه قد سبق بأكثر من ثلاثة قرون، إلا أنها كانت قد انحرفت عن سبيله الأقوم، بسبب انتشار الجهل في عَوامِّها وغلبة الهوى على رؤسائها، ولكن ذلك لم يبلغ إلى الحد الذي يصفه المؤرخون من جهل القوم حتى بما عُلِم من الدين وجوبه بالضرورة. ولذلك يُعَبِّر هؤلاء المؤرخون في حقهم، ومنهم مُعتمَدُنا صاحب القرطاس، بأنهم كانوا يُعلِنون بالرجوع والتوبة عندما ينتصر عليهم عبدالله.

ثانياً: إن عبدالله سلك في دعوة القوم سبيل السنة، فذكَّرهم وأنذرهم ولم يبادئهم بالقتال حتى أعذر إليهم. وأما قتالهُ لهم، وهم مسلمون فعلى سنّة الصديق رضي الله عنه الذي قاتل مانعي الزكاة كما قاتل المرتدين، لا سيما ومن هؤلاء مَن كان يضيع فرض الصلاة كما يمنع الزكاة، ومنهم مَن كان يجمع بين أكثر من أربع نسوة، وإن كان ذلك على ما قدمنا لا يمكن أن يكون من جميعهم، وهو إلى ذلك ليس جهلاً منهم بحكم الإسلام في الغالب بل اتباعاً لهوى النفس وتحلُّلاً من الواجبات الدينية.

ثالثاً: إن حركة عبدالله هذه جاءت في الإبَّان، وإن الناس كانوا بحاجة إليها بدليل ما تُلُقِّيتْ به من قبول ومُناصرة، وما طار له من سمعة وذكر في قبائل المصامدة وغيرهم، حتى إن الناس صاروا يتحدثون بفضائله ويستبشرون بقيامه. وهو أمر يدل على أن البلاد كانت تتخبط في فوضى اجتماعية وسياسية، وتنتظر القائد المُلْهَم

الذي ينقذها مما هي فيه، ولم تكن ضلّت عن السبيل ولا ضيّعت إيمانها بالدين الحق، فلما جاء من دلها على الرشد، وقادها بزمام الشرع المطاع، انصاعت له وعرفت أن ما يدعوها إليه هو الحق والهدى الصحيح.

وفي هذه النقطة بالذات نُثِير إشكالاً حول ما ردده غير واحد من المؤرخين وذكَره صاحبُ القرطاس كذلك في الفذلكة التي نقلناها عنه آنفاً ولكنا حذَفْناه منها لنخصه بالنظر وندرسه على حِدَة، وهو ما كان عبدالله يأخذ به تلاميذه وأتباعه من شدة وقسوة، حتى إنه ليضربهم بالسياط على المخالفات البسيطة، ويضربهم فيما لم يأتِ به شرع، فمَن تخلَّف عن صلاة الجماعة ضربه عشرين سوطاً، ومَن فاتته ركعة ضربه خمسة أسواط أو عشرة وربما ألزم بعضهم بصلاة أربع ركعات قبل الظهر وقبل غيره من الصلوات، وكل مَن أتى إليه تائباً طهّره بضربه مائة سوط، وهكذا؛ مما يستغرب جداً من منهجه التربوي الجاد.

وقد قيل في إلزامهم بصلاة الجماعة وعقابهم على التخلُّف عنها: إنه كان من رأيه أنهم لا تصح لهم صلاة إلا مأمومين لجهلهم بالقراءة في الصلاة. ولعل هذا إنما كان بالنسبة لبعضهم، مِمَّن غلبت عليه الأمية والعُجمة، ومع ذلك فهو اجتهاد غير صائب خصوصاً مع اقترانه بالضرب. وأما إلزامهم بصلاة أربع ركعات قبل الفريضة فقد علّلوه بأنه كان يراه بمثابة قضاء للفوائت، وأنه كان يقول للشخص: إنك لا بد قد فرطت في سالف عمرك فاقضِ ذلك. وصلاة أربع قبل الفريضة هو مما رغب الشارع فيه إلا أن إيجابه

وجعله بمثابة قضاء للفوائت هو مما لا يقوم عليه دليل.
ونظن أنه كان يندبُهم إليه ويذكر لهم ما ورد فيه من الثواب، ويُذكِّرهم بما فرطوا فيه من الصلوات الواجبة، فربط الرواة بين القول والعمل، وجعلوا ذلك من أمره وتعليله. وأما تطهير التائب بضربه مائة سوط فإنا نرى أنه لم يكن أمراً عاماً، وإنما ارتكبه في حق بعض الرؤساء ممن خالفوا عليه في المرحلة الأولى للدعوة، ونابذوه وهدموا داره إن صحّ ذلك، ونأخذ دليلاً عليه قولَ القرطاس نفسِه، فإنه لما ذكر غزوه لقبائل كدالة ولمتونة ومَسُوفة وانتصارَه عليهم قال: «فلما رأى ذلك قبائل صنهاجة ولمتونة سارعوا إلى التوبة وإلى مبايعته، وأقروا له بالسمع والطاعة، فكل مَن أقبل إليه تائباً منهم طهره بأن يضربه مائة سوط». وظاهر أنه من غير الممكن أن يضرب الآلاف من رجال القبائل المذكورة فوجب أن يحمل هذا الكلام على بعض رؤوس الفتنة وأصحاب الشغب الذين اضطروه من قبل إلى الهجرة وبناء الرباط وانقطاعه فيه. وعقاب هؤلاء بالضرب هو مما يسوغ شرعاً فإن للإمام أن يُعزِّر على معصية الله بما يراه من أنواع التعزِير ومنها الضرب.

إن هذه الجُزئِية التي انتُقِدت من عمل عبدالله بن ياسين، لا تعدم توجيهاً من قبل النظر الفقهي كما رأينا، ومع ذلك فلا بد أن نستحضر الظروف والمُلابَسات التي صاحبَتْها، وربما البواعث النفسية والاجتماعية أيضاً، وهي مما لا علم لنا بأكثره لِنُوافق عبدالله أو نُخالِفه في أخذه القوم بتلك الشدة وحكمه بذلك الحكم القاسي، وإنما إذا

كنا نعلم رأي الفقهاء في الحدود واختلافهم في هل هي كفارات أو زوَاجِر لم يصعُب علينا أن نجد تفسيراً لعمل عبدالله هذا، حين يعتبره تارةً تطهيراً، وحين يعتبره زجراً تارةً أخرى. فلا يكون بذلك خارجاً عن نطاق القواعد الفقهية وأحكام الشريعة الغراء ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾.

هذا، ولم نُعَرّجْ على الروايات المبالَغ فيها والقائلة بأن مما شذَّ فيه من الأحكام أَخْذَه الثلث من الأموال المختلطة لتطييبها، وإقامَته للحدود المختلفة على التائب كحد الزنا والقذف والشرب، بل والقتل إذا عَلِم أنه قتل شخصاً من قبل، لاعتقادنا أن هذه الأقوال من تَزيُّدات الرواة وتشنيع خصومه، فأيُّ شخص يمكن أن يُقبِل تائباً عليه، وهو يعلم أنه سيُشَهّر به ويجعله زانياً مفترياً شارباً للخمر، وربما لم يُقارِفْ شيئاً من ذلك في حياته فيعرِّض نفسه للسمعة السيئة وللأذى الذي قد يصيبه من توالي الضرب والحدود التي تُقام عليه. لَعَمْري إن هذا أحرى بأن يُنفِّرَ منه الناس ولا يجعل أحداً يدخل في دعوته ويتوب بهذا الشرط. أما وأن الأمر كان بالعكس، وأن الناس والتوّابين كانوا يتواردون عليه أفواجاً أفواجاً فذلك دليل على بطلان هذه الأقوال وسقوط رواياتها.

وفيما يخص تطهير المال المختلط بأخذ الثلث منه، نعتقد إذا ثبت ذلك من فعله، أنه فتوى خاصة صدرت منه في بعض الأموال التي اقتضت ذلك فعمَّم النقَلَةُ القول به وجعلوه حكماً شاملاً للأموال المختلطة على الإطلاق وهي لا يطهرها إلا رد ما عُلِم أو قُدِّر أنه مشبوه كُلاً أو بعضاً لا

خصوص الثلث وهذا أمر مُسلَّم لا جدال فيه، فكيف يتجاوزه عبدالله بن ياسين مع ما علم من تشدده وعدم ترخُّصه في شيء. إن ذلك لا يتوافق وخطته في التحري والورع الذي أخذ بها نفسَه وحمَل عليها الناس فلم يَعْدُ أن يكون من التقوُّل والتشنيع عليه.

* * *

وإلى هنا والأمرُ قد استتبَّ لعبدالله في جميع بلاد الصحراء، وقبائلُ صنهاجة قد أطاعته طاعة مطلقة، وحاميه وشريكُه في الأمر الزعيم الكدالي يحيى بن إبراهيم قد توفي لا ندري متى؟ ولكن في هذه الأثناء قطعاً، خلافاً لما قيل من أنه توفي قبل دخول عبدالله إلى الرباط، وكذا شيخُه وَجَّاج الذي انقطع عنا خبره، نجد أن شخصية الزعيم الديني المصلح تتبلور في صاحبنا عبدالله بن ياسين بكيفية واضحة لا مجال للشك فيها، فيبرهن على أنه لا قصد له إلا الإصلاح، وأنه لا غرض له في الحكم، ويتصرف تصرف الرجل الحكيم، البعيد النظر، فيؤَمِّرُ على الجماعة يحيى بن عمر اللَّمْتوني، وكان من أهل الدين المتين والفضل والصلاح، فينقلُ الأمر من كدَالة إلى لَمتونة، لأنها كانت من أكثر قبائل صنهاجة طاعة لله وتمسُّكاً بشرعه، كما كانت من أكثرها عدة وعدداً، وأقواها جهاداً في سبيل الله ونصرة لدينه. قال في القرطاس: «وذلك لما أراد الله من ظهور أمرهم وتملكهم على المغرب والأندلس». إنَّ ترفُّع عبدالله عن تولي الحكم، بعد وفاة يحيى بن إبراهيم ونزاهة قصده في تولية يحيى بن عمر، مما زاده قوة ونفوذاً ورفعة شأن

عند قبائل صنهاجة عموماً، فإنه ظهر بمظهر الرجل الحريص على المصلحة والساعي في خير الجميع والذي ليس للعصبيات ولا للمنافع الشخصية عليه من تأثير، وفي الواقع كان هو الأمير على الحقيقة، لأنه هو الذي يأمر وينهَى ويُعطي ويأخُذ، فإذا كان الأمير الذي قدمه عليهم يتولى النظر في أمر حروبهم، فعبدالله ينظر في ديانتهم وأحكامهم ويأخذ زكاتهم وأعشارهم، ويتحكم من هذه الناحية حتى في الأمير نفسه.

وقد حكى صاحبُ القِرطاس أن يحيى بن عمر هذا كان شديد الانقياد لعبدالله، كثير الطاعة له فيما يأمره به وينهاه عنه، فَمِن حُسْن طاعته له أنه قال له يوماً: لقد وجب عليك أدب. فقال له: فيمَ يا سيدي؟ قال: لا أُعرِّفُك به حتى آخُذَه منك. فكشف له عن بَشَرتهِ، فضربه عشرين سوطاً ثم قال له: إنما ضربتُك لأنك باشرتَ القتال بنفسك، وذلك خطأ منك، فإن الأمير لا يقاتل وإنما يقف ويحرّض الناس ويقوّي نفوسهم، فإن حياة الأمير حياة عسكره وموته فناء جيوشه.

وإذا كانت مهمة عبدالله التي من أجلها دخل الصحراء مع يحيى بن إبراهيم، قد انتهت، فيما سبق، إلى غايتها، فاستقام أمرُ قبائل صنهاجة على الدين القويم، واجتمع شملهم وتوحدت كلمتهم، وأصبحوا فوق ذلك جنوداً للإسلام يُعلُون رايتَه ويدافعون عن حِماه، فإن الدور الذي وجد نفسه مؤهّلاً للقيام به الآن، هو الجهاد من أجل نشر الإسلام في بلاد السودان بين القبائل الوثنية، ومواصلة عمل

الفاتحين الأولين في هذا السبيل، وذلك بدافع الحماس الديني الذي وُجِد في المرابطين نتيجةً للتربية الإسلامية التي أخذهم ويأخُذهم بها منذ اليوم الأول الذي دخل فيه بلادهم ويطلب، فيما يُحتَمل، من مسلمي الأقطار السودانية المجاورة لديار صنهاجة في الصحراء، فقد سبق لنا أن أشرنا إلى ما كان من صدًى بعيد لحركة عبدالله في السودان وتحدُّثِ الناس هناك بقيام رجل صالح في كدالة يدعو إلى الله وإلى صراط مستقيم. فغيرُ بعيد أن يكون المسلمون في السينكال هم الذين دعوه لنصرة الدين في تلك البلاد وكفّ عادية الرؤساء الوثنيين عنهم.

وقد دخل يحيى بن عمر بأمر من عبدالله إلى السودان غازياً، وقاد عدة حَملات ضد الوثنيين كُتِب له فيها النصر كما يؤكد ذلك المؤرخون وإن كانوا لم يعطونا تفاصيل عن تحركاته هذه، ولا بياناً مضبوطاً عن الجهات التي قصد إليها. كما أننا لا نعلم هل دخل عبدالله معه إلى السودان أم لا. لأن المصادر تَسْكُتُ عن ذلك، والمفهوم من الأخبار أنه لم يكن معه في غزْوه للسودان. إن هذه الحملة كانت لنصرة المسلمين هناك، وربما لحماية ظَهْر القبائل الصنهاجية، ولعلها قد استنفدت الغرض منها من دون حاجة إلى مشاركة عبدالله وجُموع المرابطين، ومما لا شك فيه أن الانتصارات الباهرة التي حصل عليها عبدالله وجيش المرابطين، والسمعة الطيبة التي انتشرت له في داخل البلاد المغربية، وتَوجه الأنظار إليه من مختلف الأقاليم، كلّ ذلك جعل اهتمامه يتحول ناحيةَ الشمال، لا سيما وقد أخذت

الوفود تتوارد عليه من هذه الناحية متظلمة مستنكرة ما هي فيه تحت حكم مَغْراوَة من تسخير وإرهاق.

إن المغرب الأقصى في هذا العهد، كان يخضع لدولة منقسمة على نفسها تنتمي إلى زِنَاتَة العظمى، وتتولى السلطة فيه قبيلتان منها هما مَغْراوَة وبَنُو يَفْرن. وكان النزاع بينهما على أشدِّه، فانعدم الاستقرار، وتضرر الرعايا من سوء الحكم وانتشار الفساد. وكان الناس لا يفتأون متطلعين إلى مَن تصلُح الأحوال على يده، وقد تعلقت آمالهم بعبدالله بن ياسين وأنصاره من المرابطين، وهذا ما تؤكده الروايات المختلفة، والأخبار التي تناقلها المؤرخون، ونحن نُفضل منها دائماً ما عند صاحب القرطاس فلنستمع إلى ما يقوله:

«فلما كان في سنة سبع وأربعين وأربعمائة، اجتمع فقهاء سجلماسة وفقهاء دَرْعَة وصلحاؤهم، فكتبوا إلى الفقيه عبدالله بن ياسين، وإلى الأمير يحيى بن عمر وأشياخ المرابطين كتاباً يرغبون منهم الوصول لبلادهم ليطهروها مما هي فيه من المنكرات وشدة العسف والجور، وعرَّفُوهم بما فيه أهلُ العلم والدين وسائرُ المسلمين من الذل والصَّغار مع أميرهم الزَّناتي المَغْراوي، فلما وصل الكتاب لعبدالله بن ياسين جمع رؤساء المرابطين وقرأ عليهم الكتاب وشاورهم في الأمر، فقالوا له: أيها الشيخ هذا مما يلزمك ويلزمنا، فَسِرْ بنا على بركة الله إليهم. فأمرهم بالجهاز، وخرج في الموفِّي عشرين لِصَفَر لسنة سبع وأربعين وأربعمائة في جيش عظيم من المرابطين. فسار حتى وصل بلاد درعة فامتلكها وأخرج منها عاملها. ولما علم بذلك أمير سجلماسة

المغراوي جمع جيوشه وخرج نحوهم، فالتقى الجمعان في حروب عظيمة انتصر فيها المرابطون وقُتِل أمير سجلماسة وأكثر جيشه وفرّ الباقون. ودخل عبدالله سجلماسة فهذّبها وأصلح أحوالها وغيَّر ما وجد بها من المنكرات، وقطع المزامير وأحرق الديار التي كانت تُباع بها الخمر، وأزال المكوس وأسقط المغارم الأميرية، وترك ما أوجب الكتاب والسنّة أخذَه، وقدَّم عليهم عاملاً من المرابطين وانصرف إلى الصحراء».

هذا بتصرف قليل سياقُ الخبر في القرطاس عن تحرُّك عبدالله نحو المغرب الأقصى، وهو التحرُّك الذي فتح الباب على مصراعيه في وجه المرابطين للاستيلاء على الحكم في البلاد وتأسيس دولتهم الكبرى، ونرى فيه تجاوب الطبقة الواعية من الفقهاء وأهل الغيرة الدينية والصلاح مع المرابطين، كما كان الشأن في قيام دعوتهم من أول يوم. وبذلك نعلم أن البلاد لم تكن في وقت ما خاليةً من هذه الطبقة الخيِّرة من الناس، كما يصوّرها المؤرخون، وأن ما يُنسب لعبدالله بن ياسين من أحكام شاذة لا يخلو من مبالغة، كما قدّمنا، وإلاّ لمَا كان أهل العلم والفضل يستنجدون به ويسارعون إلى الدخول في دعوته فإنهم بذلك يعلنون عن موافقتهم التامة له في خطته وأعماله.

وأكبرُ حادث وقع في صفوف المرابطين أثناء هذه المدة، هو وفاة الأمير يحيى بن عمر اللمتوني في جهاد كان له ببلاد السودان، كما يقول ابنُ أبي زَرْع في القِرطاس، وهذا ربما يُفهَم منه أنه كان غائباً عن تحرُّك عبدالله إلى

المغرب، لا سيما مع ما جاء في الخبر أن عبدالله لما وصله كتاب أهل سجلماسة ودرعة، جمع رؤساء المرابطين وعرَضه عليهم، ولم يجيء في الخبر ذكر ليحيى، فلو كان حاضراً لكان أول مَن يُذكر، خصوصاً وأن الكتاب موجَّه إلى عبدالله والأمير يحيى وأشياخ المرابطين.. فهل بقي يحيى في السودان، منذ دخوله إليه غازياً حتى توفي في أواخر سنة ٤٤٧ التي دخل فيها عبدالله إلى المغرب.

أما ما يعطيه سياق الخبر في ابن عذارى والحلل الموشية فهو مشاركة يحيى في الحملة المغربية ووفاته أثناءها لا في السودان، مما يُستبعَد معه حتى القول باحتمال دخول يحيى إلى السودان ثانياً بعد رجوعه من المغرب لتصحيح وفاته هناك كما ذكر القرطاس.

ومهما يكن من أمر فقد قدم عبدالله على المرابطين مكان يحيى، أخاه أبا بكر بن عمر اللمتوني في مفتتح سنة ٤٤٨ فأثبت مرة أخرى أنه لا رغبة له في الإمارة وأن مهمته روحية تعلو على الأغراض المادية، كما ثَبَّت الأمرَ في لمتونة بصفة قاطعة، فرشحها بذلك لقيادة المرابطين والتقدم على قبائل صنهاجة جمعاء على الدوام.

وكان أبو بكر رجلاً صالحاً متورعاً كأخيه، ناهيك بمَن يختاره عبدالله بن ياسين في الوقت الذي أصبحت الدعوة فيه تزحف على أقطار المغرب، وتُنازِلُ جموعاً مختلفة من أرباب السلطة وأصحاب الأهواء كما سيذكر. وهكذا فإنه لم يكد يتسلم زمام الأمر في البلاد التي خضعت للمرابطين وينظر في أحوالها، حتى ندبه عبدالله إلى غزو السوس وبلاد

المصامدة فخرج إليها في جيوش عظيمة. وذلك في شهر ربيع الثاني سنة ٤٤٨، وقد أطاعته تلك البلاد كلها ولم تُبدِ مقاومة تُذكر، إلا ما كان من تارودانت فقد كان فيها قوم من الروافض يقال لهم: البَجَلِية منسوبين إلى عبدالله البَجَلِي الرافضي[١]، كان دخل إلى السوس حين قدم عبيدالله الشيعي إلى إفريقية، فأشاع هناك مذهبه فورثوه بعده جيلاً بعد جيل، فقاتلهم المرابطون حتى فتحوا مدينتهم وقُتل بها من الروافض خلق كثير، فرجع مَن بقي منهم إلى السنة، وهذه أول مرة يواجه فيها عبدالله وجيش المرابطين قوماً من أتباع المذاهب التي تخالف ما عليه أكثرية المغاربة، فيقاومهم أشد المقاومة كما فعل إدريس الأول وابنُه من قبل، حتى يعيد إلى المغرب وحدتَه السياسية والمذهبية.

واهتمّ عبدالله بتنظيم البلاد المفتوحة، على عادته، فنصب عُمّاله على نواحيها، وأمرهم بإقامة العدل وإظهار السنة فيها، واستخلاص الزكاة والعشر وإسقاط ما سوى ذلك من المغارم، وفي أثناء ذلك كانت وفود القبائل والأقاليم تتوارد عليه مقدمة طاعتها معلنة بمبايعته، وهو يُعلِّم ويُرشد ويأخذ العهد على الجميع بإقامة شعائر الدين والمحافظة على ناموس الشرع.

وبعد أن سقطت بلاد نفيس وما حَوَالَيْها في يده خرج

(١) في ابن أبي الحديد شرح نهج البلاغة أن البجلية قوم من الغلاة يقولون: إن علياً كرّم الله وجهه لو شاء لأحيا عاداً وثمود وقروناً بين ذلك كثيراً في أشباه لهذا الهذيان.

قاصداً مدينة أغمات، فنزل عليها وقاتل أميرها المغراوي أشد القتال حتى اضطره إلى إسلامها والفرار عنها ليلاً، فدخلها المرابطون، وذلك في سنة ٤٤٩ وأقام بها عبدالله يمهّد أمرها ويستصلح أحوالها نحو الشهرين. ثم ارتحل إلى بلاد تادلا وكانت خاضعة لبني يَفْرن من زناتة الذين كانوا يتقاسمون السلطة مع بني عمهم المغراويين، وكانت قاعدةُ إمارتهم مدينةَ سَلاَ، وإليهم فرَّ أميرُ أغمات، ففتحها عبدالله وظفر بمَن فيها، ثم سار إلى بلاد تَامَسْنا وهي المعروفة اليوم بالشاوية فامتلكها وأُخبر أن بساحلها قبائل بَرَغْواطَة في عدد عظيم وهم أصحاب نحلة فاسدة، قد مرقوا عن الدين، وتوطنوا في تلك الناحية من زمن بعيد وقاتلهم الأدارسة فمَن دُونهم.

وفي رأي صاحب القرطاس أنهم قبائل كثيرة، أخلاط لا يجمعهم أب واحد ولا أم واحدة، وكان متبوعهم صالح بن طريف قد ادعى النبوة في أيام هشام بن عبدالملك بن مروان، وأصله من حصن بَرْباط، من عمل شَذُونة بالأندلس، وله رحلة إلى المشرق، وكان يشتغل بالسحر، ولما قدم المغرب نزل بلاد تامسنا فوجد بها قبائل من البربر جهالاً، فأظهر لهم الإسلام والزهد والورع، وأخذ بعقولهم، واستمالهم بسحره ولسانه، فاستغواهم وأقروا بفضله، وقدّموه على أنفسهم، وصدروا عن رأيه في جميع أمورهم فادعى النبوة وتسمّى بصالح المؤمنين وقال لهم: أنا المذكور بهذا اللقب في القرآن، وشرع لهم الديانة التي أخذوها عنه وذلك سنة ١٢٥.

ومن الضلال الذي شرع لهم - يقول ابن أبي زرع -: إنهم مقرُّون بنبوته وأنهم يصومون شهر رجب ويفطرون شهر رمضان، وفرض عليهم عشر صلوات خمساً بالليل وخمساً بالنهار، وأن الأضحية واجبة على كل مَن تبعه في الحادي والعشرين من المحرم، وشرع لهم في الوضوء غسل السرَّة والخاصِرَتَيْن وصلاتهم إيماء لا سجود فيها، ويسجدون في آخر ركعة خمس سجدات ويقولون عند الطعام: باسم يا كسار، وزعم أن تفسيره بسم الله، وأمرهم أن يُخرجوا العشر من جميع الثمار وأباح لهم أن يتزوج الرجل من النساء ما شاء، ولا يتزوج بنات عمه، ويطلّق ويراجع ألف مرة في اليوم، فلا تحرم المرأة بشيء من ذلك، وأمرهم بقتل السارق حيث وجد، زعم أنه لا يطهره من ذنبه إلا السيف، وأمرهم بالدية من البقر، وحرّم عليهم رأس كل حيوان، والدجاجة مكروه أكلها، وقدوتهم في الأوقات الدِيَكَة، وحرّم عليهم ذبحها وأكلها. ومَن ذبح ديكاً أو أكله أعتق رقبة.

ووضع لهم قرآناً يقرؤونه في صلاتهم ويتلونه في مسجِدهم، وزعم أنه أُنزل عليه، وأنه وحي من الله تعالى إليه، ومَن شكّ في شيء من ذلك فهو كافر. والقرآن الذي وضع لهم ثمانون سورة سمّاها بأسماء النبيين وغيرهم منها سورة آدم وسورة نوح... وسورة فرعون وسورة بني إسرائيل... وسورة الديك وسورة الحجل وسورة الجراد وسورة الجمل... وسورة هاروت وماروت وسورة إبليس... وسورة غرائب الدنيا وفيها العلم العظيم عندهم.

وأخبرهم أن لا غُسل عليهم من الجنابة إلا من الحرام.

وهكذا وجد قَوْماً سُذَّجاً على الفطرة فتلاعب بعقولهم وضحك عليهم وجعل تعاليمه هذه استهزاء بقِيَم الإسلام ومَسْخاً لشرائعه، وبذلك لا يبعد أن يكون من أصل يهودي خبيث كما قال صاحب القرطاس، فهو ينتقم من الإسلام ويعبّر عن حقده عليه بهذه الصورة المكشوفة.

ويقول ابن هشام اللخمي في كتابه لحن العامة وابن دحية في كتاب المطرب: إن مفردة برغواطة باللام بدل الراء، وأن العامة يخطئون فيها فيقولون: برغواطة. ونحن قد اتبعنا ما هو الشائع في ذلك، زيادة على أن ابن أبي زرع على ما يظهر عنده فَضْلُ عِلْم بالقوم، وهو قد جعل نسبة القوم إلى متبوعهم البرباطي بعد تحوير العامة لها.

ولقد أفاد رحمه الله في بيان النحلة الفاسدة التي كان عليها القوم والضلال الذي كانوا يحتضنونه في تلك الناحية من المغرب، ويحمونه بالقوة ويقيمون له دولة تقتسم النفوذ مع دولته الشرعية، وقد تمالؤوا على هذا الزيغ والإلحاد قروناً عديدة، برغم محاربة الدول المتعاقبة على المغرب لهم وإطباقها عليهم مراراً عديدة. ومع ذلك فإن بدعتهم لم تمت ودولتهم لم تَدُل، حتى جاء عبدالله بن ياسين إلى بلادهم، فلم يرَ تقديم شيء على جهادهم واستئصال شأفتهم، وقد سار إليهم في أعداد كبيرة من المرابطين والمصامدة فجرت بينه وبين أميرهم حروب عظيمة وقتال شديد مات فيه من الجانبين خلق كثير، واستُشْهد عبدالله في

إحدى المعارك، فلم يثنِ ذلك عزم المرابطين، بل صمّموا على الحرب بقيادة أميرهم أبي بكر بن عمر، ولم يقلعوا عنهم حتى قطعوا دابرهم، وفرّ مَن فرّ منهم إلى حيث قضى نحبه وأذعن مَن بقي منهم وأسلموا إسلاماً جديداً وطُهّرت الأرض من رجسهم ودخل باطلُهُمْ في خبر كان.

وكان عبدالله لما أصيب، حُمِل إلى عسكره وبه رمق، فاجتمع إليه أشياخ المرابطين ورؤساؤهم فقال لهم: «يا معشر المرابطين، إنكم في بلاد أعدائكم، وإني ميت في يومي هذا لا محالة، فإياكم أن تجبُنوا أو تفشلوا فتذهب ريحكم، وكونوا أعواناً على الحق، وإخواناً في ذات الله تعالى وإياكم والمخالفة والتحاسد على طلب الرياسة، فإن الله يؤتي مُلكه مَن يشاء ويستخلف في أرضه مَن أحبّ من عباده، ولقد ذهبت عنكم، فانظروا مَن تقدمونه منكم، يقوم بأمركم، ويقود جيوشكم، ويغزو عدوكم، ويقسم بينكم فيئكم ويأخذ زكاتكم وأعشاركم. فاتفق رأيهم على تقديم أبي بكر بن عمر اللمتوني، فقدّمه عبدالله بن ياسين عليهم باتفاق من جميع أشياخ صنهاجة واجتماع منهم على ذلك.

ولا شك أن هذا التقديم إنما كان بمثابة تجديد البيعة للأمير أبي بكر إذ كان قد قدّمه عليهم منذ وفاة أخيه يحيى، ثم هو تفويض له وجمع للسلطة في يده، تلك السلطة التي كانت موزعة بينه وبين عبدالله.

وكانت وفاة عبدالله عشية يوم الأحد ٢٤ من جمادى الأولى عام ٤٥١ ودفن بموضع يعرف بكُرَيْفِلَة من قبيلة زُعَيْر

بنواحي الرباط العاصمة. وقبره معروف هناك إلى الآن.

لقد سقط عبدالله في ميدان الجهاد شهيداً مبروراً، واختتم حياته بأفضل ما تختم به حياة المناضلين المخلصين، من أجل عقيدتهم ومبادئهم ومُثُلهم العليا، ولم يكن عالماً يفتخر بأن مداد العلماء أفضل من دم الشهداء، بل شارك الشهداء أيضاً في بذل دمه والجود بنفسه في سبيل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه، وأبقى بعده ذكراً عاطراً يمجده الناس كما كانوا يمجدونه في حياته، ويثنون عليه الثناء العظيم، ويكتبون تاريخه بكل اعتزاز وافتخار. وإن المغرب لَيَدِينُ له كما يدين للفاتحين الأولين، بالتمهيد لدين الحق، والقضاء على نزعات الشرك والإلحاد. وبتوحيد قلوب أهله على مذهب السنّة والجماعة، وهدايتهم إلى الصراط المستقيم، وإن مما يزيد عبدالله بن ياسين تقديراً وإكباراً أنه أخلص القصد للغاية الشريفة التي عمل لها، ولم يشُبْ حركته بغرض دنيوي ولا طمع في ولاية أو سلطان بل زهد في ذلك الزهد كله، وأشاح عنه بوجهه، ولم يستعن على نجاح أمر بشعوذة ولا ادّعاء، كما فعل ذلك كثيرون غيره، وإنما وزن أعماله بميزان الشرع، وصدق النيةَ في كل مقاصده، فوهبه الله التأييد والنصر، ووضع في قلوب الناس محبته وطاعته، وجعله إماماً يقتدى به، وقائداً للخير والفلاح. وكما أنقذ الله به المغرب من الفتنة والفوضى والضلال، فقد كُتِب لخلفائه أن ينقذوا الأندلس بعدما أشرفت على الضياع في عهد ملوك الطوائف «والمرءُ في ميزانه أتباعُه».

وقد ذكروا من سيرته الشخصية أنه كان شديد الورع

في المطعم والمشرب، وأن عيشه كان من لحوم الصيد، وأنه كان كثير الصيام، وأنه كان مِزْواجاً مِطْلاقاً، وكان مُجَابَ الدعوة، ولا غرو فقد قال النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص وسأله أن يكون مُستَجاب الدعوة: **«طيِّبْ لُقمتَك تُستجَبْ دعوتُك»**.

رحمه الله رحمة واسعة، وجازاه بأحسن الجزاء.

* * *

يوسف بن تاشفين
(ت ٥٠٠ هـ)

مولده ونشأته، تكوينه، إسناد قيادة جيش المرابطين إليه، استخلافه على المغرب من قبل الأمير أبي بكر، استقلاله بالحكم، بناؤه لعاصمة مراكش، بسط نفوذه على شمال المغرب وشرقه إلى الجزائر، توحيده للمغرب وتسميته بأمير المسلمين، تدهور الوضع في الأندلس واستصراخ المعتمد به، سقوط طليطلة في يد الإسبان وجواز يوسف إلى الأندلس، معركة الزلاقة، جوازه ثانياً إلى الأندلس، جوازه الثالث، تصفية ممالك الطوائف، معاملته للمعتمد، نفي تقوّلات الخصوم عنه، جوازه الرابع، كلمات وآراء له، انضواؤه تحت لواء الخلافة العباسية، انتشار ذكره، صفاته وأخلاقه، سعة مملكته، وفاته.

هو أبو يعقوب بن تاشفين اللمتوني، ملك الملثّمين المعروفين بالمرابطين، ومختط مدينة مراكش، وبطل معركة الزلاقة، وواضع الحجر الأساسي في وحدة المغرب الكبير، وأول مَن تلقّب بأمير المسلمين من ملوك الإسلام كافة.

وُلِد على رأس المائة الرابعة، ولا نعلم عن نشأته

شيئاً، إلا أنه من غير شك كان ممن لازم عبدالله بن ياسين صاحبَ دعوة المرابطين، والمؤسس الأول لدولتهم، وربما كان ممن دخل رباطَه، وتلقى تعليمه عنه، وهذا الرباط كان فرعاً من مدرسة وجّاج بن زَلّوا ورباطِه الكبير الذي تخرج منه عبدالله بن ياسين، والصلة بين وجّاج وبين الإمام أبي عِمران الفاسي معروفة، والدعوة الإصلاحية التي قام بها هذا الإمام وتلقاها عنه تلميذه وجّاج ونشرها بقطرْسوس ثم تلقاها عبدالله بن ياسين عن وجّاج وبثها في إقليم الصحراء، هي التي كان لها الفضل في قيام دولة المرابطين، وتكوين القادة المصلحين من رجال لَمْتونة وقبائل صَنْهاجة على العموم، أمثال يحيى بن عمر وأخيه أبي بكر وابن عمهما يوسف المترجَم له.

وإذا صحّ التقدير، وهو صحيح حتماً، لأننا لم نرَ عبدالله بن ياسين يقدم للولاية إلا خاصة الخاصة من مريديه، وكذلك كان القوم بعده. نقول: إذا صحّ هذا التقدير، فيكون يوسف قد صحب عبدالله أكثر من عشرين سنة قبل ولايته، وهي مدة كافية لتجعل منه رجلاً صالحاً للحكم، مستجمعاً لشروط القيادة، كفْؤاً من الوجهتين النظرية والعملية للمهمة العظمى التي أُسنِدت إليه وقام بها خير قيام.

على أنه عند دخول عبدالله بن ياسين لبلاد صنهاجة، كان في نحو الثلاثين من عمره، فلا شك أنه قبل ذلك تلقى تعليماً عاماً، وتدرّب خاصة على الفروسية وأعمال الحرب، مما جعل منه بطلاً نجْداً شجاعاً حازماً، كما يصفه المؤرخون.

وعليه نستطيع أن نجزم بأنه سواء في شبيبته أو كهولته تكوّن تكويناً صحيحاً (أولاً) في المجال الديني وما تجب عليه معرفته من أحكام الشريعة وطرق الدعوة والإصلاح، (وثانياً) في تدبير الحروب والقيادة العسكرية، (وثالثاً) في نظام الحكم وسياسة الدولة. وهي الأمور التي برهن فيها على مقدرته الكاملة وكفايته التامة، حتى إنا نعدّه من النماذج النادرة لملوك الإسلام الذين كانوا دائماً في خدمة دولته، فعملوا على إعلاء كلمته، وتطبيق شريعته ووحدة أمته، ولم يتخذوا الدولة مطيةً لبلوغ أغراضهم وقضاء شهواتهم.

وأول ما نلتقي به في ميدان العمل على عهد عبدالله بن ياسين، سنة ٤٤٨ حين وَلِيَ أبو بكر بن عمر الإمارة، وندب عبدالله المرابطين إلى غزو المصامدة وبلاد السُوس، فجعل الأمير أبو بكر على مقدمة الجيش ابن عمه يوسف بن تاشفين، كما يقول ابن أبي زَرْع، وأصبح بذلك القائد الأول لجيش المرابطين، الذي أخضع القطر السوسي، وقاتل في مدينة تارودانت قوماً من الروافض كانوا قد استوطنوها منذ قدوم عبيدالله الشيعي إلى إفريقية، كما نازل أغْمَاتَ واستخلصها من يد المغراويين الذين كانوا يسيطرون على المغرب. ثم ارتحل إلى تادلا وكانت خاضعة لبني يَفْرَن أبناء عم المغراويين، فأجلاهم عنها، وسار إلى بلاد تامَسْنا المعروفة بالشاوية وقاتل فيها قبائل بَرّغْوَاطة الضالة، وهم الذين قاتلهم المولى إدريس من قبل، ولكن شوكتهم لم تنكسر، وقد كان قتال المرابطين لهم شديداً وطويلَ المدة مات أثناءه عبدالله بن ياسين، ولكنهم تنفيذاً لوصيته لم

يُقلعوا عنهم حتى استأصلوهم وقضَوْا على نِحْلَتِهم الخبيثة.

ففي هذه المعارك كلها كان يوسف على رأس الجيش، يُبلى البَلاء الحسن، ويقف إلى جنب عبدالله بن ياسين وأبي بكر بن محمد، فيكون الشخصية الثالثة من قادة الدولة الناشئة.

وبعد الانتهاء من حرب بَرْغواطَة، رجع الأمير إلى أغماتَ، حيث استراح قليلاً، ثم خرج في حرب تَصْفَوية لِما بقي من مملكة المَغْرَاويين واليفْرَنِيين بالمغرب، وذلك في صفر ٤٥٢، ومما لا ريب فيه أن يوسف كان معه في هذه الحرب، لأنه بعد وفاة عبدالله أصبح الرجل الثاني في الدولة، فهو الوزير والمشير والقائد الذي لا غنى عنه. ولم تطل مدة هذه الحملة إلا ثلاثة أشهر، إذ اضطر أبو بكر للعودة إلى أغمات، لِما بلغه من اختلال الصحراء ونشوب الخلاف بين قبائل صنهاجة، فعزم على السير إليها ليُصلح أحوالها، ويستأنف حركة الجهاد في أقطار السودان. ولكن كان عليه أن يَضْبِط الأمر في المغرب، ولا يترك مكاسب الدولة فيه للضياع، لأنه يعلم أن الوجهة التي يقصدها سحيقة وأنه ربما لا يعود منها، وفي أحسن الأحوال يطول غيابه، فتنتقض عليه البلاد التي فتحها ويسترجع خصومه ما انتزعه منهم.

وهكذا أخذ الأمير أبو بكر في تدبير سفره البعيد، فاستخلف على المغرب ابنَ عمه يوسف، وأمره بالرجوع إلى استصفاء مُلْك زِناتَة من مَغْراوة وبني يَفرن. وكان له زوجة تدعى زينب بنت إسحاق الهوّاري، رجلٍ من التجار

أصله من القيروان، وهي ذات حُسن وجمال وعقل وتدبير، فمن ورعه وشهامته أنه لم يشأ أن يتركها معلقة ولا أن يأخذها معه إلى الصحراء لعدم استطاعتها العيش هناك، فطلّقها وقال لها: إني ذاهب إلى الصحراء وأريد الجهاد بالسودان، ولعلي أرزَق الشهادة، فلا أحمّلك ما لا تطيقين، فنَعِمتْ عيناً بذلك، وقيل: إنها هي التي طلبت منه طلاقها فأسعفها. ويقال: إنه أوعز لابن عمه يوسف بتزوجها، وقال له: إنها امرأة عاقلة.

وارتحل أبو بكر قاصداً الصحراء في ذي القعدة ٤٥٣، وقبض يوسف على زمام الأمور بالمغرب، وقد وافق على خلافته أشياخ المرابطين. يقول ابن أبي زَرْع: لِمَا يعلمون من دينه وفضله وشجاعته وحزمه ونَجْدته وعدله وورعه وسداد رأيه ويُمْن نَقِيبته. وتزوج زينب بنت إسحاق، فأعانته برأيها وحَصَافتها وحُسن تدبيرها. ومن ذلك أنه لما ظهر أمره وغلب على أكثر بلاد المغرب، وسمع ابن عمه ومستخلفه الأمير أبو بكر بضخامة مُلكه أقبل إليه من الصحراء، ليتسلم الأمر من يده، فشاور يوسف زوجته زينب في ذلك فقالت له: إن ابن عمك رجل متورع فإذا لقيته فقصّرْ عما كان يعهده منك من الأدب والتواضع، وأظهر له أنك مساوٍ له ومماثِل، ولاطفه مع ذلك بالأموال والهدايا، فإنه يسلم لك. فلما قرُب الأمير أبو بكر من عمل يوسف خرج هذا إليه فتلقاه في الطريق وسلّم عليه وهو راكب، ولم ينزل له، فنظر الأمير كثرة جيوشه فقال له: يا يوسف، ما تفعل بهذه الجيوش كلها؟ قال: أستعين بها على مَن

خالفني. ثم نظر إلى عدد كبير من الإبل موقورة قد أقبلت. فقال: ما هذه الإبل؟ قال: أيها الأمير جئتك بكل ما معي من مال وثياب وطعام لتستعين به على عيش الصحراء. فعلم أبو بكر أن يوسف قد استبدّ بالأمر دونه، وأنه لن يتخلى له عن ولايته، فرضيَ بما قدّم له، واستوصاه خيراً بالرعية، وانصرف إلى الصحراء من جديد، فأقام بها على جهاد السودان إلى أن استشهد في سنة ٤٨٠ بعد أن استولى على نحو تسعين مرحلة من بلادهم.

وأما يوسف، فإنه خرج مع ابن عمه أبي بكر إلى سِجِلْماسة لتوديعه، حين استخلافه له على المغرب وبعد ذلك فَصَلَ عنها إلى وادي مَلْوية، حيث ميّز جيوشه فوجدهم أربعين ألفاً، فاختار منهم أربعة قواد، وعقد لكل واحد منهم على خمسة آلاف، وقدّمهم بين يديه إلى قتال مَن بالمغرب من مَغْراوة وبني يَفْرَن وغيرهم من قبائل البربر القائمين به، وسار هو ببقية الجيش في إثرهم، ففتح الله عليه ودانت له القبائل بالطاعة واستوثق أمره وكثرت جموعه، وذاع صيته، وتعلقت به الآمال، ولا سيما بعد تسليم أبي بكر له واستقلاله عنه.

وشعر بالحاجة إلى بناء قاعدة تكون أساس مُلكه ومنطلق تحركاته في الوسط ما بين الجنوب والشمال، فاهتدى إلى مدينة مراكش فنزله في سنة ٤٥٤ بخيامه وثقله، واختط فيه مسجداً للصلاة وقصبة صغيرة لاختزان الأموال والسلاح، وكان لما شرع في بناء المسجد يحتزم ويعمل في الطين والبناء بيده مع الخدَمة تواضعاً منه وتقرُّباً إلى الله

عزّ وجل. وقيل: إن اختطاط مدينة مراكش كان في زمن الأمير أبي بكر بن عمر لما ضاقت أغمات بجنده، وأن اختيار مكانها كان على أساس رُحب الساحة وخِصْب الناحية والتحكم في بلاد المصامدة الذين هم من أشد قبائل المغرب قوة وأكثرهم جمعاً. ولكن الصحيح أن يوسف هو الذي نفّذ الفكرة، وإن قلْنا بسبْق الاهتمام بها، وعلى كلٍّ فإن مراكش لم تستكمل وجودها كعاصمة كبرى إلا في زمن علي بن يوسف وملوك الموحدين ولا سيما يعقوب المنصور منهم.

وجنّد يوسف الأجناد، واستكثر من القواد، واتخذ الطبول والبنود، وبعثَ العمال والعهود، وبلغ جيشه أزيد من مائة ألف كما يقول صاحب «القرطاس»، فخرج من مراكش قاصداً مدينة فاس، فحاربه أهلها والقبائلُ المحيطة بها، ولكنه تغلب عليهم، وقاتل وُلاةَ مَغْراوَة وبني يَفْرن عليها وعلى مدينة صَفْرُو وبلاد الشمال، وفرّق الغارات على المعاقل والمدن، وقصد بلاد غُمارَة بنفسه، وتوغل فيها، فلما شعر الزناتيون بخفة وطْأتِه عليهم عاوَدوا الكرة على فاس فتملكوها، وبعث يوسف إليها بجيش من المرابطين فلم يغْنِ شيئاً. فاضطر إلى العودة لقتال القائمين عليه وتذْويخ القبائل التي في طريقه حتى بلغ فاساً فنازلها وأعاد فتْحَها من جديد.

وكانت مدينتا طَنْجة وسَبْتَة خاضعتين لسكّوت البرّغواطي من بقايا البَرّغواطيين الذين قاتلهم عبدالله بن ياسين، فوجّه يوسف إليهما أحدَ قواده ففتح طنجة وقتل أميرها المذكور وبقيت سبتة في يد ولد هذا الأمير، وتوالت

فتوح قواده الذين وجههم إلى بلاد المغرب شمالاً وشرقاً، ومنها مدينة تِلْمْسان، ومدينةُ وَجْدَة التي توجه إليها بنفسه وبلغ نفوذه إلى وَهْران وجبال وَنْشَريس وأعمال شِلْف بأجمعها إلى مدينة الجزائر.

وكان لما أعاد فتح مدينة فاس وحصّنها، أمرَ فهدمَ الأسوار التي كانت بها فاصلة بين عذوَتَي القرويين والأندلس وردها مِصْراً واحداً، وعمرها وبنى بها الحمامات والفنادق والأرحاء، وأصلح أسواقها وهذّب بناءها، وأمر ببناء المساجد في جميع أحيائها وشوارعها، وأي زُقاق لم يجد فيه مسجداً عاقب أهلَه، وأجبرهم على بناء مسجد فيه ذكر ذلك ابن أبي زَرْع، وبهذا وبإعادة بناء جامع القرويين والزيادة فيه حتى صار على ما هو عليه الآن، في أيام وَلده علي بن يوسف يعتَبر المرابطون من معمّري مدينة فاس والممكنين للصبغة الدينية التي لها، بالإضافة إلى بنائهم لمدينة مَرّاكش.

وقد استغرق يوسف في زحفه هذا على المغرب وتوحيده لأطرافه تحت حكمه زُهَاء عشرين سنة، منذ خرج من مراكش سنة ٤٥٤ إلى سنة ٤٧٤... وكان في أثناء ذلك يسدد ويقارب ويُصلح ما أفسدته الفتنة وجور الولاة السابقين ويقعّد قواعد الدولة ويختار الرجال لأعماله. وقد قسم المغرب عمالات على بنيه وأمراء قومه وذويه، وضرب السكة في اسمه، وتسمّى بأمير المسلمين، بعد أن أراد أشياخ القبائل من صنهاجة وكبار رجال دولته أن يدعوه أمير المؤمنين، فأبى تواضعاً وقال: إنما تسمّى بهذا الاسم

الخلفاء، فقالوا: لا بد من اسم تمتاز به، وكان إنما يدعى بالأمير، فقال لهم: يكون أمير المسلمين، فاتفقوا على ذلك وكتب به إلى الأقاليم.

وقيل: إنما سمي بذلك بعد وقعة الزلاّقة لما وقع الفتح واجتمع لديه ملوك الطوائف يهنئونه بالنصر فخاطبوه بأمير المسلمين، وعلى كل حال، فهو أول من لقب بذلك من ملوك الإسلام.

وفي سنة ٤٧٥ ورد عليه وهو بمراكش، كتاب المعتمد بن عبّاد صاحب إشبيلية، يعلِمه بحال الأندلس وما آل إليه أمرُها من تغلُّب العدو على أكثر ثغورها وبلادها، ويسأله النصر والإعانة. فأجابه يوسف أن ذلك يكون بعد فتح سبتة إن شاء الله... وكانت سبتة ما تزال بيد ضياء الدولة ابن سَكّوت البرّغواطي، فعرض عليه المعتمد مساعدته في فتحها، فنازلها المرابطون برًّا، وأحاطت بها أساطيل ابن عباد بحراً، فسقطت للحال في يد المرابطين. وشاور يوسف مشيخة لمتونة ورجال المغرب في شأن إصراخ ابن عباد، فقالوا له: إنه من الواجب على كل مسلم إغاثة أخيه المسلم، ولا يحِل لنا أن يكون هذا الرجل جارنا، وليس بيننا وبينه إلا ساقية ماء، ونتركه طعمةً للعدو، فعزم يوسف حينئذٍ على نصرة الأندلسيين.

وأجاز ابن عباد البحر إلى يوسف، فلقيه في فاس، وألحّ عليه في الجواز إلى الأندلس لقتال العدو، وتوالت عليه رُسل أهل الأندلس وكتبهم يستصرخونه في تنفيس قبضة

العدو عن مخَنّقهم، فطلب يوسف من ابن عباد أن يمكنه من الجزيرة الخضراء ليتخذها رباطاً لجيشه.

وكان الوضع في الأندلس يزداد سوءاً يوماً بعد يوم... فقد بدأ الإسبان حملةَ اكتساح قوية لبلاد المسلمين أو ما يسمى بحرب الاسترداد (Reconkista) واستخفُّوا كثيراً بملوك الطوائف الذين ورثوا خلافة قرطبة لما رأوا تنازعهم وقلة غنائهم في الدفاع عن حوزتهم، حتى إنهم رَضُوا بدفع الإتاوَة للعدو لِقَاءَ كفّه عن قتالهم. وقام ألفونس السادس ملك قشتالة في نفس السنة التي وصل فيها المعتمد إلى المغرب للاستنجاد بيوسف، بجولة عبر أراضي ملوك الطوائف في جيش كثيف، فشقّ بلاد الأندلس شقًّا، يقف على كل مدينة ويفسد ويخرب في أنحائها، ويقتل ويسبي، ثم يرتحل إلى غيرها، حتى وصل إلى جزيرة طريف، فأدخل قوائم فرسه في البحر، وقال: «إن هذا آخر بلاد الأندلس قد وطئته» وهو يحكي ولا شك ما كان فعله عُقبة بن نافع حين انتهى من فتح المغرب فأقحم فرسه في البحر وقال: «اللَّهمّ اشهد أني قد بلغت المجهود، ولولا هذا البحر لمضيت أقاتل في سبيلك، حتى لا يعبد أحد سواك».

وفي هذه الأثناء سقطت مدينة طليطلة في يد ألفونس المذكور، فكان ذلك إنذاراً بمصير بقية العواصم الأندلسية، ومصير المسلمين في شبه الجزيرة، وعظمت الفجيعة بسقوطها بين ملوك الطوائف أنفسهم فأحرى بين الشعب الأندلسي المنكوب، لذلك اتفقت كلمة الجميع على

استصراخ عاهل المغرب، والاحتماء بجيش المرابطين العتيد.

وأقام يوسف بمدينة فاس ينظر في أمر الجهاد، ويستنفر له قبائل المغرب، ثم رحل إلى سبتة، فهدّنها وأصلح أحوالها وسفنَها، ولحقت به العساكر والجنود، فشرع في تجويز الجيوش إلى الأندلس، فلما استوفى جوازها وجواز المجاهدين، واستقر الجميع بساحل الجزيرة الخضراء، جاز هو على إثرهم في جيش عظيم من قبائل المرابطين وأنجادهم وصُلَحائهم، وكان ذلك زوال يوم الخميس ١٥ ربيع الأول سنة ٤٧٩، وكان جوازه بأسرع ما يكون، فنزل بأرض الجزيرة الخضراء وصلّى بها الظهر، وتلَقاه المعتمد وغيره من ملوك الأندلس وأمرائها، فاتصل خبره بألفونس وكان محاصراً لمدينة سرَقُسْطَة، فارتحل عنها، وشرع في اتخاذ الأهبة للقاء العاهل المغربي.

وفيما توجه هذا الأخير إلى إشبيلية، أخذ ألفونس يجمع حشوده ووضع يده في يد ملك أراغون الكونت برنْجير رايْموند، وكان الأول محاصراً لمدينة طُرْطوشة، والثاني يتأهب لغزو بَلَنْسِية، فكفا كلاهما عما كانا بصدده وانضما إلى صف ألفونس، كما انضمت إليه قوات أخرى جاءت من جنوب فرنسا ومن إيطاليا وغيرها، وتأهب الفريقان للقاء، وكان المعتمد على جيش الأندلس، الذي يضم جميع ملوك الطوائف، وابن تاشفين على جيش المغرب، الذي يقوده أبطال أنجاد مثل داود بن عائشة وسير بن أبي بكر وغيرهما...

وتقدم جيش الأندلس يتبعه جيش المغرب، فكان كلما قام ذاك من موضع نَزَله هذا، حتى حلاً معاً بالغَرْب من مدينة بَطَلْيوْس في بسيط فسيح يعرف بالزّلاّقة، وبدون أن ندخل في تفاصيل مقدمة المعركة، نذكر أن ألفونس تقابل هو وجيشه مع جيش المغرب في حين تقابل حلفاؤه مع جيش الأندلس، ودارت رحى الحرب على أشد ما يكون بين الجانبين، وكادت الكفة تميل إلى جانب العدو، فتدخلت القوات الاحتياطية التي احتفظ بها يوسف بن تاشفين لهذا الموقف، وخالفت أعداد منها إلى معسكر ألفونس فأضرمت فيه النار، واشتبكت مع مَن كان فيه من الحامية فتغلبت عليها، وتراجع العدو ووقع الخلل في تعبئته، فتبعه جيش المسلمين يفتك ويأسر، وأشرف يوسف على هذه العمليات بنفسه، وكان يحرّض المجاهدين ويقوّي نفوسهم، فاستمرت الهزيمة على العدو، وأيقن ألفونس بالفناء، ففرّ تحت جنح الليل في نحو خمسمائة فارس على غير طريق، مثخنين بالجراح، بحيث مات أكثرهم قبل الوصول إلى طُلَيطلة.

وكانت هذه المعركة الحاسمة من أعظم المعارك التي جرت بين المسلمين والإسبان في الأندلس، إذ قتل فيهم معظم جيش العدو الذي لم يكن يقل عن مائة ألف شخص، وكسِرَت شوكة الإسبان إلى حين طويل، وأمدّ الله بسببها في حياة الأندلس قرابة ثلاثة قرون ونصف قرن، وكان الإسبان قد أجمعوا أمرهم على طرد المسلمين من شبه الجزيرة الأندلسية في تلك الفترة التي بلغت دولتهم فيها منتهى الضعف تحت حكم ملوك الطوائف، ولكن الله خيّب

أملهم وأبطل تدبيرهم، وعادت لدولة الإسلام في الأندلس عزتها وصَوْلتها.

وكانت هذه الواقعة العظمى يوم الجمعة ١١ رجب ٤٧٩ كما في القِرْطاس قال: وهو الموافق للثالث والعشرين من شهر أكتوبر، يعني سنة ١٠٨٦، واجتمع ملوك الأندلس وأمراؤها الذين شهدوا الحرب مع يوسف فسلّموا عليه بأمير المسلمين وهنّأوه بالنصر، وخرجت كتبه مصدّرة بلقب أمير المسلمين إلى بلاد العَدْوَة والأندلس، فقرئت على المنابر، ولعل ذلك ما حمل بعضهم على القول بأنه إنما لقب بهذا الاسم بعد معركة الزلاقة، ومما سجل ليوسف من المآثر في هذه المعركة تَجافيه عن الغنائم التي جمِعت فيها وترْكها لملوك الأندلس، مبرهناً بذلك على نزاهة قصده وعفة نفسه، وكانت هذه الغنائم شيئاً كثيراً مما أطلق ألسنة الأندلسيين بالثناء عليه، والاعتراف له بالجميل، وإن كانت بعد ذلك لم تتورع أن تتهمه بالحرص والطمع، وإن ذلك كان هو باعثه على استصفاء ملوك الطوائف.

ولم يطِل يوسف المقام بالأندلس إذ وصله نبأ وفاة ابنه أبي بكر، وكان تركه مريضاً بسبتة فاغتمّ لذلك وانصرف راجعاً إلى المغرب، وأقام بمراكش إلى سنة ٤٨٠، فخرج في شهر ربيع الآخر منها يتطوف على البلاد ويتفقد أحوال الرعية.

وفي سنة ٤٨١ جاز إلى الأندلس جوازَه الثاني برسم الجهاد، تلبية لدعوة ابن عباد، وقد انطلقت فرسان العدو من حصن لبيط (Aledo) المتاخم لبلاده، تعيث في الأرض

فساداً وتقتل وتأسر كل يوم، بحيث جعلوا ذلك وظيفة لهم، وقد قصروا تحركاتهم هذه على مملكة ابن عباد انتقاماً منه لأنه كان السبب في دخول المرابطين إلى الأندلس ووقوع غزوة الزلاقة. فلما وصل إلى الأندلس، تلقاه ابن عباد، وكتب إلى ملوك الأندلس يدعوهم إلى الجهاد وقال لهم: الموعد بيننا حصن لبيط، فلم يصل إليه ممن كتب إليهم إلا صاحب مُرسِيَة، وحاصر يوسف الحصن المذكور أربعة أشهر إلى أن دخل فصل الشتاء، ووقع شنَآن بين ابن عباد وابن عبدالعزيز صاحب مرسية، واختلت أحوال الجيش، وجاء المدد إلى الحصن فأقلع عنه يوسف ورجع إلى المغرب، وقد تغيّر على ملوك الأندلس لكونهم تخلّفوا عن دعوته.

وأما العدو فقد عمد إلى الحصن وأخلاه، لأن الحصار كان أنهكه، ولم يبقَ فيه مَن يستطيع الدفاع، فاستولى عليه ابن عباد.

وهذا الذي ذكرناه في الجواز الثاني ليوسف هو رواية صاحب القرطاس، وفي رواية الحلل الموشية بعض مخالفة لذلك، وأن الأمر لم يكن يتعلق بالمعتمد وحده، فأهل بلنسية ومرسية ولورقة وبسطة كلهم كانوا يتعرضون لغزوات العدو، وكلهم استنجدوا بيوسف، وحصار حصن لبيط كان مناوبة بين جيوش هذه البلاد تحت نظر يوسف، لكن نيّات ملوكِ الطوائف كانت قد فسدت، وجعل بعضهم يسعى ببعض لدى يوسف، ومن المحقق أن رعاياهم لم يكونوا راضين عنهم، وأن حياة اللهو والاستهتار التي كانوا يحيَوْنها

لم تدع لهم وقتاً ولا عزيمة لحماية بلادهم، وصد قوات العدو عنهم، وبالرغم من أن يوسف لما عاد إلى المغرب ترك بأرض الأندلس جيشاً لحماية الثغور ومطاردة العدو، فإن هذا الجيش قد تعرّض للضياع من جرّاء إهمال أولئك الملوك له، ومداخلة بعضهم للعدو ضداً على جيش المرابطين.

قال ابن خلدون: «وتوافَقَ ملوك الطوائف على قطع المدد عن عساكر أمير المسلمين، فساء نظره فيهم، وأفتاه الفقهاء وأهل الشورى من المغرب والأندلس بخلعهم وانتزاع الأمر من أيديهم، وصارت إليه بذلك فتاوى أهل المشرق الأعلام مثل الغزالي والطرطوشي وغيرهما».

وهذا إلى توالي استنجاد أهل الأندلس به، خاصتهم وعامتهم، وطلبهم منه إنقاذهم مما هم فيه من الظلم والغَشْم والروْع والفزع، فلما جاز إلى الأندلس جوازه الثالث برسم الجهاد سنة ٤٨٣ سار حتى نازل طُلَيطلة وحاصرها، وألفونس بها، فهتكها وقطع ثمارها وخرب ناحيتها، انتقاماً مما فعله جيش ألفونس بالمسلمين في نواحي المدن سابقة الذكر، والغارات التي كان فرسان حصن لبيط يشنونها عليهم ليل نهار... لكن الغريب في الأمر هو أن أحداً من ملوك الأندلس لم يأته ولا عرّج عليه. فلما شفى نفسه من طُلَيطلة سار إلى غرناطة، وكان صاحبها عبدالله بن بسلكين قد ظاهر ألفونس على يوسف فأخذها من يده هي ومالقة التي كانت بيد أخيه، وسيّرهما معاً إلى مراكش مع حريمهما وأولادهما، فأقاما بها وأجرى

عليهما النفقة إلى أن ماتا بها على ما عند ابن أبي زرع وابن الخطيب[1].

ولما خلع يوسف ابن بسلَكين عن ملك غرناطة، طمع المعتمد بن عباد في تسليمها له، فتجافى عنه يوسف ورجع إلى مراكش، وقدم على الأندلس قائده سير بن أبي بكر اللمتوني، وفوّض إليه في مصيرها، وإن لم يأمره في ابن عباد بشيء فسار نحو إشبيلية وهو يظن أن ابن عباد سيخرج إليه ويتلقاه بالضيافة، فلم يفعل وتحصّن منه فراسله سَيْر في أن يسلّم إليه البلاد فامتنع المعتمد، فلم يكن بد من القتال... وهكذا سقطت إشبيلية في يد المرابطين وتقبض سَيْر على المعتمد وأهله وولده وسَيّرهم إلى المغرب.

وتتابع وقوع العواصم الأندلسية في يد قواد المرابطين واستسلام أصحابها أو هلاكهم في الدفاع عنها كما وقع لابن الأفطَس صاحب بَطَلْيَوْس... وكانت سنة ٤٨٤ حاسمة في استصفاء ممالك الطوائف، إذ سقطت فيها قرطبة وإشبيلية وجيّان وغيرها، وفي السنة التي تليها سقطت دانية وبلنسية، وفي سنة ٤٨٦ فتحت مدينة إفراغ من بلاد شرق الأندلس، ولم يزل الفتح يتوالى وجهاد العدو وحماية الثغور دَيْدَنَ الجيش المغربي حتى خلَصت البلاد كلها ليوسف بن تاشفين ما عدا ولاية الثغر الأعلى التي بقيت بيد ابن هود بإقرار يوسف له عليها لما أظهره من روح المسالمة وقوله له:

---

(١) وما في مذكرات عبدالله من تيسيرهما إلى أغمات يظهر أنه كان في أول الأمر.

«نحن بينكم وبين العدو سَد لا يصلكم منه ضرر» مع تحصينه لبلده وضبط أمرها.

وكما رأينا فإن يوسف قد بذل مجهوداً عظيماً في استصلاح أحوال الأندلس، وجهاد العدو المغير على ممالكها استجابة لدعوة أهلها من ملوك وأمراء، وخاصة وعامة، وكان عمله في إصلاح ذات البَيْن، ما بين القادة والزعماء أكثر من عمله في أي ميدان آخر، ولكن النزاع لم يزل مستشرياً بينهم، والخصومة على أشدها، واللجوء إلى العدو احتماءً به وانتصاراً على المنافس شِنشِنة لم يقلِعوا عنها، حتى بعد نجدة يوسف لهم وهزيمة هذا العدو في موقعة الزلاقة، بل إنهم لما استوحشوا من يوسف، واستشعروا غضبه عليهم، وخافوا من عقابه وانتقامه، لم يترددوا أن يضعوا يدهم في يد العدو، ويستظهروا به عليه، وعادت هيفٌ إلى أديانها، وأصبحت سيطرة العدو على الأندلس كما كان يتمنى، قاب قوسين أو أدنى.

ففي مثل هذا الوضع لم يكن هناك وسيلة للإنقاذ، ولا سبيل إلى الاحتفاظ ببلاد الأندلس للعرب والمسلمين، إلا ما قام به يوسف من استخلاصها من يد هؤلاء الزعماء والقادة الذين لم يكونوا يقدّرون مسؤوليتهم، وفي كل يوم يستعجلون النهاية المحتومة لوجودهم بسبب فرقتهم وتخاذلهم، وعلى أحسن الاحتمالات ومع عدم إساءة الظن بهم، فإن ما كان يمليه الموقف لاستمرار السيادة الإسلامية على هذه البلاد، وتفادي وقوعها العاجل في يد العدو، هو ما فعله يوسف، وتدارك به الأمر، قبل حصول الكارثة. وما

أشبه ما كانت عليه الحال في الأندلس وقتئذٍ، بما عليه حال البلاد العربية اليوم من التقسيم والخلاف والتبعية للأجنبي، وتبديد طاقاتها في المعارك الداخلية، والعدو جاثم على صدرها يسومها الذل والهوان، ويقتطع كل يوم من أرضها ما يوسع به الإقليم الخاضع لنفوذه، الذي اغتصبه من غفلتها وسوء تصرف حكامها، فهي أحوج ما يكون إلى قائد عصاميّ مثل يوسف يرأب صدعها ويلمّ شملها ويطهر أرضها من رجس العدوّ الدخيل...

فمَن يعترض على تدخل يوسف في الأندلس وتوحيده لأقاليمها الموزعة بين ملوك الطوائف، الخاضعين لنفوذ ألفونس، المؤتمرين بأمره، هو كمن يعترض اليوم على من يعمل لوحدة العرب وجمع كلمتهم، لطرد الصهاينة المعتدين، وجعل حد لاستهتار الزعماء والقادة العرب، بقضية فلسطين الشهيدة والقدس المحتل.

ويؤخذ على يوسف معاملته للمعتمد بن عباد وسجنه له بأغمات وهي قضية عاطفية ضخّمها الأدب الذي أنشىء حول مصير هذا الملك السيئ الحظ، وما قاله هو في نكبته من أشعار مؤثرة، ولو نظرنا إليها بعين الإنصاف، لما أعطيناها هذه الصفة المأسوية التي جعلتها تثار في كل مناسبة.

لقد وقع ابن عباد في الأسر، وكان ابن تاشفين قد أوصى قائده بالإبقاء عليه، وعدم قتله، فأتاح له فرصة العمر ليملأ الدنيا بالبكاء على ملكه الضائع، والشكاية من غدر

الأيام. ولما كانت الدنيا لا تخلو من ذوي العواطف الرقيقة، من الذين ينظرون إلى مصلحة الفرد قبل مصلحة الجماعة، فإن مصير المعتمد لم يفتأ يثير الشجون ويؤرث الغيظ على ابن تاشفين عند طبقة من الناس، وخاصة بطانته السابقة من الندمان والشعراء، ومن أشبههم في الأزمنة المتلاحقة... لكن الذين ينظرون إلى عمل يوسف من زاوية السياسة القومية التي تتطلب الضبط والحزم، وحماية بلاد العروبة والإسلام، لا يتردّدون في أنه عمل شرعي، وأن اعتقاله للمعتمد في أغمات لم يكن منه بدّ، وهو أقل ما تقضي به الأعراف السياسية والقوانين الحربية، لا سيما وقد بارز بالعداوة قائد يوسف وقلب له ظهر المِجَنّ، وداخل عدو المسلمين ـ فيما يقول ابن خلدون ـ للاستظهار به على جيش المغرب فتوافرت الدواعي إلى مقاتلته وأسره.

ولقد كان هناك من ملوك الطوائف مَن سالم أو استسلم، فآل أمره إلى التكريم والرعاية لأهله وذويه، فليس ما يطبع سياسة المرابطين أو البربر كما يعبر بعض الكتّاب هو القسوة، فإن القوم كانوا من الالتزام بشريعة الإسلام ومشاورة أهل الفقه والدين، بحيث لم يثبت عليهم أنهم أراقوا مِحْجَم دم في غير مواطن الحرب. ولو كان الأمر صادراً عن طبيعة وغريزة لما فرقوا في المعاملة بين هذا وذاك ممن وقع في أيديهم من ملوك وأمراء.

على أن اعتقال المعتمد في أول الأمر، إنما كان بمثابة ما نعبّر عنه اليوم بالإقامة الإجبارية، بدليل أنه كان يستقبل الزوار ويدخل عليه الشعراء، فيمدحونه ويجيزهم. وإنما وقع

التشديد عليه حين ثار ابنه عبدالجبار بأحد حصون الأندلس... ومع ذلك فلا تقاس معاملة يوسف له بما كان ملوك الأندلس يعاملون به خصومهم من ضروب العنف والقسوة والبطش وعند الله تجتمع الخصوم.

***

كذلك يتندر كثير من الكتّاب بما أشاعه أدباء الأندلس وخاصة بِطانة المعتمد عن يوسف من كونه يجهل العربية جهلاً تاماً، ولا يعرف إلا البربرية، حتى أنهم ربما ذكروا أن مضامين الرسائل التي ترد عليه إنما كانت تبلغ إليه بطريق الترجمة من كتابه. ويروون أن المعتمد كتب إليه ذاتَ مرة رسالة أنشد فيها بيت ابنْ زيدون القائل:

حالت لفقدكم أيامنا فغدت

سوداً وكانت بِكم بِيضاً ليَالِينا

فلما قرئ عليه قال: لعله يطلب منا جواري سوداً وبيضاً، والمعروف أن كتّابه الصّدور كانوا من الأندلس، فليس عندنا دليل من التاريخ على أنهم كانوا يحسنون البربرية حتى نسلّم أنهم يستطيعون أن يترجموا إليها الرسائل الواردة عليه ويبلغوه مضامينها، وكيف يتصور أن ملكاً مثل يوسف في سعة ملكه وضبطه وحزمه، يمكنه أن يصرف الأمور، ورسائله الصادرة والواردة ومنشوراته ومراسيمه تحرر بلغة لا يعرفها وإنما يحاط علماً بمضامينها؟

وهل هناك أسخفُ من هذه الرواية التي تقول: إن

يوسف لما سمع بيت ابن زيدون، علّق عليه بذلك الكلام الصبياني؟ ولنجارِ هؤلاء الرواة الموتورين في سخافتهم فنسألهم عن الرسالة التي كتبها المعتمد إليه وضمنها ذلك البيت، أين هي؟ أليست تكون عَنْقَاءَ مُغْرب، لو كتبت بالفعل، فيتناقلها الناس ويسجلها المؤرخون؟ وما معنى أن ينشد المعتمد في هذه الرسالة بيت ابن زيدون الذي يقول: «حالت لفقدكم» ويوسف لم يفقد؟ فهل نتخذ ذلك حجة على انعدام الذوق وقلة الفهم عند المعتمد؟...

الحقيقة أن يوسف كان على جانب من العلم والمعرفة بالعربية والدين، ونصوصهما الأولى وهي القرآن والسنّة النبوية لا يجوز معه أن يقال: إنه يحتاج في فهم الكتب المحررة بالعربية إلى ترجمان، وأحرى أن يقال: إنه لا يعرف العربية مطلقاً. يدل على ذلك ما قدمناه في الكلام على نشأته وتكوينه، وما يُقدّر أن يكون حصله أثناء انقطاعه في رباط عبدالله بن ياسين من المعلومات الضرورية وقبله، وهو أمر يعد في جملة المؤهلات التي جعلته يُختار من بين العديد من رجال لمتونة للقيادة والزعامة، حتى كان ثاني رجل في الدولة أيام إمارة أبي بكر بن عمر، ثم رجلها الفذ وأمير المسلمين بعد ذلك الذي لم ينازعه أحد، ولا شك في أهليته وتقدمه واستحقاقه قريب أو بعيد. وقد برهن في تسييره لشؤون الدولة وتدبيره للحروب على جدارته وكفاءته ومقدرته، مما لا يستقيم أبداً لرجل جاهل ساذَج لا يعرف حتى اللغة التي يدير بها سياسة بلاده، كما يزعم القوم.

على أن أولئك الرواة لما كانت العلاقات ما تزال طيبة

بين المغرب والأندلس قد رووا لنا ما ينقض قولهم هذا، وهو جوابه لألفونس قبل موقعة الزلاقة، فقد كتب إليه ألفونس يهدده ويحاول أن يثنيه عن عزمه على نصرة ملوك الأندلس وإصراخ أهلها وذكر من قوّته وما أعده لقتاله ما ظن أنه يؤثر في يوسف، فيتأخر عن قصده. فأجابه عن يوسف أبو بكر بن القصيرة، وهو يومئذٍ من وزراء المعتمد وكتّابه، بكتابٍ احتفل فيه ما شاء، وكان كاتباً مفلقاً، قالوا: فلما قرأه على يوسف، قال: هذا كتاب طويل، وأحضر كتاب ألفونس وكتب على ظهره: «الجواب ما ترى لا ما تسمع»، وفي رواية أخرى أنه كتب عليه: «إن الذي يكون ستراه»، وكان لهذا الجواب وقع عظيم في نفس ألفونس الذي عرف أنه بليَ برجل يفعل ولا يقول.

فهذه الرواية لم تقل: إنه ترجم له جواب الكاتب ابن القصيرة إلى البربرية، وإنما ذكرت أنه قرىء عليه فاستطاله، واستعاض عنه بجواب من جوامع الكلم، بقي مثلاً مضروباً على شدة الحزم وقوة البأس وعظمة النفس إلى الآن. وقد تفردت من بين الروايات الأخرى بإثبات واقع الحال والاعتراف بحقيقة الرجل؛ لأنها رويت قبل أن يظلِم الجو بينه وبين خصومه ولعل ما قلناه في هذا الموضوع يكفي لتبديد كل الترهات التي تدور حوله، لا سيما وهي لغو من القول، وهزل لا يستحق أن يحمَل على الجديّة بحال.

***

ولما دانت الأندلس ليوسف واستتب له بها الأمر، جاز إليها جوازه الرابع والأخير، متفقداً لأحوالها متعهداً

لمصالحها، وذلك فيما بين سنتي ٤٩٦ و٤٩٧ حسبما يستفاد من كتاب الحلل الموشية وتاريخ ابن خلدون. على أن صاحب القرطاس كذلك يذكر أنه في سنة ٩٦ أخذ البيعة لولده علي بقرطبة، فبايعه جميع أمراء لمتونة وأشياخ البلاد وفقهائها، وذلك في ذي الحجة منها، فجوازه هذا كان لأخذ بيعة الأندلسيين لوليّ عهده التي أُبرمت في المغرب سنة ٩٥ وللنظر في الشؤون السياسية للبلاد، وضبط الثغور، وقد صرف بعض الولاة وعيّن آخرين، وكان ذلك إيذاناً بتدشين عهد جديد في الجزيرة، وهو عهد الاستقرار والسلم بعد زمن الفوضى والحروب. قال في الحلل، وهو يتحدث عن جواز يوسف هذا إلى الأندلس: «ولما جال في بلادها وتطوف على أقطارها شبهها بعقاب رأسه طليطلة ومنقاره قلعة رَباح وصدره جيّان ومخالبه غرناطة وجناحه الأيمن بلاد الغرب وجناحه الأيسر بلاد الشرق... وببيان كيفية وضعها وتمثيلها في الصفرة[1]، يبدو بيان هذا التشبيه الذي هو راجع إلى سياسة أمرها واعتبار أحوالها» ونزيد فنقول: إن هذا التشبيه العقِيم هو مما يتعرف به بُعْدُ نظر يوسف وحصافة رأيه وصحة تصوره وسداد حكمه، فهل من يصدر منه مثله يكون من السذاجة بالمثابة التي تجعله يقول في بيت ابن زيدون ما قوّله إياه الخصوم الموتورون؟

ويحسن أن نورد هنا ما جاء في ترجمته عند ابن خلّكان من كلام منسوب له في اعتبار أحوال المعتمد

---

(١) الصفرة: الخارطة.

والتعليق على حياته الخاصة، وهو كلام يدل على تفكير سياسي ناضج ونظر سديد في تدبير شؤون الملك، فقد ذكر ابن خلكان أن يوسف عند قصده ملاقاة ألفونس تحرّى المسير إليه بالعراء من غير أن يمر بمدينة أو رستاق حتى نزل الزلاّقة، وهذا خلاف ما قدّمناه من أنه توجه أولاً إلى إشبيلية، ومنها كانت انطلاقته هو والمعتمد إلى الزلاقة، فهي رواية أخرى، قال: «ولما قضى أمير المسلمين من هذه الوقعة ما قضى، أمر عساكره بالمقام، وأن تشن الغارات على بلاد الفِرنج، وأمر عليهم سَيْر بن أبي بكر، وطلب الرجوع في طريقه، فتكرم به ابن عباد فعرّج به إلى بلاده وسأله أن ينزل عنده، فأجابه يوسف إلى ذلك». فلما انتهى يوسف إلى إشبيلية، مدينة المعتمد، وكانت من أجمل المدن منظراً، ونظر إلى موقعها على نهر عظيم مستبحر، تجري فيه السفن بالبضائع، جالبة من بلاد المغرب وحاملة إليه في غربيه رُستاق عظيم مسيرة عشرين فرسخاً يشتمل على آلاف من الضياع كلها تينٌ وعنبٌ وزيتون، وهذا الموضع هو المسمى فرق إشبيلية، وتميز بلاد المغرب كلها من هذه الأصناف، وفي جانب المدينة قصور المعتمد وأبيه المعتضد في غاية الحسن والبهاء، وفيها أنواع ما يحتاج إليه من المطعوم والمشروب والملبوس والمفروش وغير ذلك. فأنزل المعتمد يوسف بن تاشفين في أحدها، وتولى من إكرامه وخدمته ما أوسع شكر ابن تاشفين له.

«وكان مع ابن تاشفين أصحاب له ينبهونه على تأمُّل تلك الحال، وما هو عليه من النعمة والإتراف، ويغرونه

باتخاذ مثلها لنفسه، ويقولون: إن فائدة الملك قطع العيش فيه، بالتنعُّم واللذة، كما هو المعتمد وأصحابه، وكان يوسف بن تاشفين مقتصراً في أموره غير متطاول ولا مبذر متنوّقٍ في صنوف الملاذ بالأطعمة وغيرها، وكان قد ذهب صدر عمره في بلاده في شظف العيش، فأنكر على مغريه بذلك الإسراف، وقال: «الذي يلوح من أمر هذا الرجل - يعني المعتمد - أنه مضيّع لما في يده من المُلك، لأن هذه الأموال التي تعينه على هذه الأحوال لا بد أن يكون لها أرباب لا يمكن أخذ هذا القدر منهم على وجه العدل أبداً، فأخذه بالظلم، وأخرجه من هذه الترهات، وهذا من أفحش الاستهتار ومَن كانت همته في هذا الحد من التصرف فيما لا يعدو الأجوفين، متى تستنجد همته في حفظ بلاده وضبطها وحفظ رعيته والتوفر على مصالحها» وزاد ابن خلكان:

«ثم إن يوسف بن تاشفين سأل عن أحوال المعتمد في لذاته، هل تختلف فتنتقص عما هي عليه في بعض الأوقات، فقيل له: لا بل كل زمانه على هذا، قال: أفكل أصحابه وأنصاره على عدوه ومنجديه على الملك، ينال حظاً من ذلك؟ قالوا: لا. فقال: كيف ترون رضاهم عنه؟ قالوا: لا رضى لهم عنه. فأطرق يوسف وسكت».

إن هذه المحاورة التي جرت بين العاهل المغربي وبطانته من قواده المقربين إليه، لدليل على بُعد غوره وتمرسه بسياسة الملك، ونزاهته وعفته، واستقلاله بالرأي وعدم إسلاس القياد لهذه البطانة التي أمرته بالسوء وأشارت عليه بما فيه فتنته وضياع مملكته لو اتبع إشارتها، ولكنه

وهو الرجل الحكيم والناقد البصير جعل يبين لأصحابه ما في تلك الخطة من الفساد وظلم الرعية، واستعجال الخراب لبلاده، فألقى عليهم درساً عظيماً في أصول الحكم وتدبير الممالك، ونبههم إلى المصير المظلم الذي ينتظر المعتمد ومَن على شاكلته من الحكام المفرطين في مصالح رعاياهم، المنهمكين في الملاهي والملاذ، المضيِّعين لمقدرات بلادهم فيما لا يعود عليهم وعليها إلا بالهلاك والدمار. وبهذا تتبين لنا عظمة يوسف وعبقريته الفكرية والسياسية، إضافة إلى عبقريته العسكرية والحربية التي لا مطعن فيها، فإن هذه النظرة الفاحصة التي ألقاها على حياة المعتمد والنتائج التي استخلصها منها، تقدمه إلينا في صورة مفكر كبير ومصلح عظيم، يتعمق بواطن الأمور ولا يكتفي بظواهرها، قد ملك زمام نفسه فلم يغتر بما يزينه الناس من الباطل وسار في أمره على ما يعرفه من حق وصواب، فلم يكن من السهل أن يستدرج أو يخدَع، فأين ما يقوله الخصوم عنه من الهراء والكلام الفارغ؟

الحقيقة أنه لولا الغرض والشهوة العصبية البُلدانية من أهل الأندلس والتقليد الأعمى ممن جاء بعدهم، لكان هذا الكلام وحده من أعظم ما يبعث على إنصاف يوسف وتقدير عمله، واعتباره ثورة على الظلم والاستئثار والفساد، فضلاً عن إنقاذه البلاد من الوقوع في يد العدو، وتقليص ظل الإسلام والحضارة العربية عنها منذ القرن الخامس الهجري.

ولو كان هذا الكلام الذي فاه به العاهل المغربي لبطانته، صدر من أحد ملوك الإفرنج لَتُلُقِّيَ بمزيد الإعجاب

ولَشقّق وعُلّق عليه بما يجعله دستوراً من دساتير الحكم، وقانوناً من قوانين السياسة، تستخرج منه العِبر والعِظات وتؤخذ منه المغازي والمثلات، حتى لا يبقى وجه من وجوه النظر لا يقلّب عليه، فليت شعري متى يستيقظ العرب والمسلمون من سباتهم، ويقدّرون رجالاتهم الذين صنعوا تاريخهم، وأبلَوا البلاء الحسن في الحفاظ على كرامتهم؟...

هذا، ولعل العمل الجليل الذي قام به يوسف بعد إنقاذه للأندلس، هو انضواؤه تحت لواء الخلافة العباسية، وطلبه العهد من خليفة بغداد على ما بيده من الأقاليم لتكون ولايته شرعية، بحسب النظر الإسلامي، حتى لا يُعدّ خارجاً على الإمام الأعظم الذي هو أمير المؤمنين، وخليفة المسلمين، ومن ثمّ تسمى بأمير المسلمين ورفض أن يلقب بأمير المؤمنين كما سبق الإلماع إلى ذلك.

قال ابن خلدون: «وتسمّى يوسف بأمير المسلمين وخاطب الخليفة لعهده ببغداد، وهو أبو العباس أحمد المستظهر بالله العباسي، وبعث إليه عبدالله بن محمد العربي المعافري الإشبيلي وولده القاضي أبا بكر بن العربي الإمام المشهور، فتلطفا في القول وأحسنا في الإبلاغ، وطلبا من الخليفة أن يعقِد لأمير المسلمين بالمغرب والأندلس، فعقد له وتضمن ذلك مكتوب من الخليفة، منقول في أيدي الناس، وانقلبا إليه بتقليد الخليفة وعهده على ما إلى نظره من الأقطار والأقاليم، وخاطبه الإمام الغزالي وأبو بكر الطّرْطوشي يحضّانه على العهد والتمسك بالخير.

وكان هذا قبل جوازه الرابع إلى الأندلس سنة ٤٩٧.

ويعلق صاحب الاستقصا على هذا الأمر فيقول: «وإنما احتاج أمير المسلمين إلى التقليد من الخليفة المستظهر بالله مع أنه كان بعيداً عنه وأقوى شكيمة منه، لتكون ولايته مستندة إلى الشرع وهذا من ورعه رحمه الله».

لقد ردّ يوسف بسياسته هذه المغرب إلى أحضان الجامعة الإسلامية بعدما كانت الدول التي نشأت فيه من قبل، قد اقتطعته منها. وتلك ولا شك خطة مستمدة من تعاليم عبدالله بن ياسين التي كان يلقيها إلى تلاميذه المخلصين ومنهم عاهلنا العظيم، ومن إشارات جلسائه الفقهاء الذين كانوا أقرب الناس إليه وأكثرهم نفوذاً في دولة المرابطين على العموم منذ قيامها، بحيث لا يُبرَم أمر ويصدر حكم إلا بعد أخذ رأيهم فيه، حتى لقد كثر ما انتقد المؤرخون خضوع هذه الدولة لسيطرة الفقهاء ناسين أو متناسين أن الدولة إسلامية، وأن أعرف الناس بأحكام دولة الإسلام هم الفقهاء، فاستشارتهم والأخذ برأيهم هو من الرجوع إلى أهل الاختصاص وتوسيد الأمر إلى ذويه، ولو لم يكن من نتيجة لذلك إلا هذا التدبير الحكيم الذي أعاد الرباط السياسي لدولة الإسلام إلى ما كان عليه من قوة وفعالية، لما كانت هذه الدولة تنشر أجنحتها على بلاد الإسلام قاطبة في المشرق والمغرب، لكان علينا أن نشيد بسلوك المرابطين في تقريبهم للفقهاء ونزكّي الحكم الذي تكون اليد العليا فيه للفقهاء.

ولعل نجاح هذا المسعى الحميد وتحقيقه على يد

سفارة من رجال الفقه الأعلام هو مما يؤيد نظرنا في ذلك، ويظهر الفرق العظيم بين أعمال مستشارين من الفقهاء وأعمال غيرهم من مختلف الطبقات.

وقد طار ليوسف بهذه السياسة الرشيدة، والسيرة الحميدة ذكر جميل في أقطار المشرق، حتى تشوقت إليه أنظار كبار الشخصيات فيه. فقد قال ابن خلكان في ترجمته: «وكان حازماً سائساً للأمور ضابطاً لمصالح مملكته، مؤثراً لأهل العلم والدين، كثير المشورة لهم، وبلغني أن الإمام أبا حامد الغزالي تغمّده الله برحمته لما سمع ما هو عليه من الأوصاف الحميدة، وميله إلى أهل العلم، عزم على التوجه إليه، فوصل إلى الإسكندرية وشرع في تجهيز ما يحتاج إليه فوصله خبر وفاته، فرجع عن ذلك العزم، وكنتُ وقفت على هذا الفصل في بعض الكتب، وقد ذهب عني في هذا الوقت من أين وجدته»، وناهيك بهذه السمعة الطيبة التي تحمل قطباً من أقطاب العلم والدين على شد الرحلة من المشرق إلى زيارة صاحبها في أقصى المغرب، مع ما عُلِم من اجتناب العلماء ورجال الدين للقرب من الملوك والسلاطين، وعدم رغبتهم في لقائهم حتى عند حرص هؤلاء على ذلك.

فكفى يوسف هذه المكرمة العظيمة التي تبين من فضله ورفعة قدره وعلو شأنه عند أقطاب العالم الإسلامي بالمشرق ما خَفِي على بعض المتحاملين عليه من أهل الأندلس والسائرين في ركابهم. وما أحسن قول الحماسي:

لـقـد زَادنِـي حـبـاً لـنـفـسـيَ أنـنـي

بَغِـيـض إلـى كـل امـرىء غـيـر طـائِـل

وأشار ابنُ خلكان بعد كلامه السابق إلى صفة يوسف الخَلقية بفتح الخاء بعد ذكره لصفته الخُلقية بضمها، وهذا الوصف هو عند ابن أبي زرع أتم وأكمل، فنحن ننقل قوله فيه لعمومه وشموله. قال رحمه الله بعدما ذكر اسمه واسم آبائه ثم ذكر اسم أمه وهو فاطمة بنت سيْر بن يحيى من أبناء عمومته اللمتونيين: «صفته أسمرَ اللون نقيّه، معتدل القامة نحيف الجسم، خفيف العارضين، رقيق الصوت، أكحل العينين، أقنى الأنف، له وفْرة تبلغ شحمة أذنيه، مقرون الحاجبين، جَعْد الشعر، وكان رحمه الله بطلاً نجداً شجاعاً حازماً مهاباً ضابطاً لملكه، متفقداً الموالي من رعيته، حافظاً لبلاده وثغوره، مواظباً على الجهاد، مؤيداً منصوراً، جواداً كريماً سخياً، زاهداً في الدنيا متورعاً عادلاً صالحاً، متقشفاً على ما فتح الله عليه من الدنيا، لباسه الصوف، لم يلبس قط غيره، وأكله الشعير ولحوم الإبل وألبانها، مقتصراً على ذلك، لم ينتقل منه مدة عمره إلى أن توفي رحمه الله تعالى على ما منحه الله من سعة الملك في الدنيا وخوّله منها، فإنه خُطِب له بالأندلس والمغرب على ألف وتسعمائة منبر».

ثم يقول ابن أبي زرع مبيناً سعة مملكة ابن تاشفين ونقاء سيرته: «وكان ملكه من مدينة إفراغة من ناحية شرق الأندلس إلى مدينة الأشبونة على البحر المحيط من غرب بلاد الأندلس، وبالمغرب من جزائر بني مَزْغَنّة (الجزائر

العاصمة) إلى طَنجة، إلى آخر السوس الأقصى، إلى جبال الذهب من بلاد السودان، ولم يوجد في بلد من بلاده، ولا في عمل من أعماله، على طول أيامه اسم مَكْسٍ ولا معونة، ولا خراج، لا في حاضرة ولا في بادية إلا ما أمر الله تعالى به وأوجبه حكم الكتاب والسنّة من الزكاة والأعشار وجزية أهل الذمة وأخماس غنائم المشركين. وجَبَى من ذلك المال على وجهه ما لم يَجْبِهِ أحد قبله، وردّ أحكام البلاد إلى القضاة وأسقط ما دون الأحكام الشرعية، وكان يسير في أعماله فيتفقد أحوال رعيته كل سنة. وكان محبًّا في الفقهاء والعلماء والصلحاء مقرّباً لهم، صادراً عن رأيهم، مكرماً لهم، أجرى عليهم الأرزاق من بيت المال طوال أيامه. وكان مع ذلك حسن الأخلاق متواضعاً كثير الحياء، جامعاً لخصال الفضل، وكان كما قال الفقيه الكاتب أبو محمد بن حامد فيه وفي بنيه:

مَلِك له شرفُ العلى مِن حِمْيرِ
وإذا انتموْا صنهاجة فهم هم

لما حووْا إحرازَ كل فضيلة
غَلَبَ الحياءُ عليهم فتَلثموا

انتهى باختصار يسير. وجاء وصفه بالحلل الموشية على هذا المنوال، إلا أن فيه زيادات مفيدة، وهذا نصه: «كان رجلاً فاضلاً خيّراً زكياً فطيناً حاذقاً لبيباً، يأكل من عمل يده، عزيز النفس ينيب إلى خير وصلاح، كثير الخوف من الله عزَّ وجلّ، أكبرُ عِقابِه الاعتقال الطويل، وكان يفضل

الفقهاء ويعظم العلماء، ويصرفُ الأمور إليهم، ويأخذ برأيهم ويقضي على نفسه بفتياهم. أقامت بلاد الأندلس في مدته سعيدة حميدة في رفاهية عيش وعلى أحسن حال، لم تزل موفورةً محفوظة إلى حين وفاته رحمه الله. وقد كان الجهاد انقطع بها منذ تسع وسبعين سنة، من مدة آل عامر إلى حين دخوله إليها. قدم أشياخ المرابطين فيها وكانوا أقواماً ربّتهم الصحراء، نيتهم صالحة لم تفسِدها الحضارة، ولا مخالطة الأسافل... وترك الثغور المواجهة لبلاد العدو في حكم الأندلسيين لكونهم أخبر بأحوالها، وأدرى بلقاء العدو وشن الغارات، مع الإحسان إليهم، فلما قربت وفاته أوصى ابنه ولي العهد بعده أبا الحسن على ثلاث وصايا، أحدها: ألاّ يهيج أهل جبل دَرَن (الأطلس) ومَن وراءه من المصامدة وأهل القبلة، الثانية: أن يهادن بني هود وأن يتركهم حائلاً بينهم وبين الروم، الثالثة: أن يقبل من محسن أهل الأندلس ويتجاوز عن مسيئهم». انتهى ببعض تصرف.

وتوفي يوسف بن تاشفين، وقد بلغ عمره مائة سنة في مستهل محرّم كما عند ابن أبي زرع، وقال ابن خلكان في يوم الاثنين لثلاث خلون من المحرم سنة خمسمائة. وما في الحلل الموشية من أنه توفي في ربيع الآخر لا معول عليه. قال: «ودفن بقصره بحاضرة مراكش، وحضر موته أبناؤه وعترته الصنهاجية وأسرته اللمتونية، وقبِضَ وهو على أوله في العزم والجد في نصر الدين وإظهار الكلمة وعضد الإسلام رحمة الله عليه».

ولا بد أن نشير في آخر هذه الترجمة إلى ما مضى

من وصف قوم يوسف بالملثمين، وهو وصف كاشف لحالهم، فإنهم كانوا أهل صحراء، يتقون لفْح حرها باللثام، أما وصفهم بالمرابطين، فلما سبق قيام دولتهم من دخولهم مع عبدالله بن ياسين إلى المحل الذي رابط فيه للعبادة وتربية مَن انقطع إليه من قبائل صَنهاجة، على ما بيّنّاه في ترجمة ابن ياسين، وتنتسب قبائل صَنهاجة في أصلها إلى حِمْيَر من عرب اليمن، ولذلك ألمع ابن حامد في شعره المتقدم حين قال: قوم لهم شرفُ العلى من حِمْيَر. . .



الأمير سليمان الموحّدي
(ت ٦٠٤ هـ)

مكانته بين أدباء بني مؤمن، والده، نشأته، نبوغه، تقلبه في الولايات وقصد الناس له، ثناء الشقندي عليه، طرائف من أدبه نقلها عنه الشقندي، حادثة بجاية وغضب المنصور عليه، كيف وقعت الحادثة، عفو المنصور عنه، وصف بعض المشارقة له وحديثهم عنه، لطائف أدبية من نثره، ديوان شعره وكتب أخرى، نبذ من شعره، وفاته، شك المراكشي في شعره والرد عليه.

هو السيد أبو الربيع، سليمان بن عبدالله بن عبدالمؤمن الكُومي الموحّدِي أحد أمراء الدولة الموحدية الأدباء، بل أديبهم ونابغتهم الذي لم يكن فيهم مثله في هذا الشأن، كما عبر ابنُ سعيد في (المُغْرِب): وإنّ فيهم لأدباء مجيدين!

كان والده عبدالله أكبرَ إخوته، وكان قائداً مغواراً أبلى البلاء الحسن في فتوح إفريقية، واستعمله والده عبدالمؤمن على بِجايَة منذ استيلائه عليها سنة ٥٤٧، وعهد إليه بشن الغارات على نواحي إفريقية، وأن يضيق الخناق على تونس، وكانت هي والمهديةُ خاضعةً لرُوم صِقلية حتى وقعتا في أيدي المسلمين،

وهو الذي أوقع بجموع صنهاجة في القلعة واستلحم قبائل العرب بسَطِيف، واستخلص قَابِس وقَفْصَة من يد المُنتزين عليهما إلى غير ذلك مما هو مبين عند ابن خلدون.

ولما توفي الخليفة عبدالمؤمن غضّ منه أخواه أبو يعقوب وأبو حفص، فزعموا ـ كما في الغصون اليانعة ـ أنهما دسّا إليه جارية جميلة سمته في خرقة الجماع وكان حينئذ والياً على بجاية. ولا شك أنهما خافا من خروجه لما كان عليه من النجدة والشجاعة وشدة البأس.

وفي ابن خلدون أنه هلك إثْرَ وفاة عبدالمؤمن في طريقه إلى الحضرة، يعني مراكش، وربما كان قدومه هذا لتهنئة أخيه المتولي للخلافة وتقديم الطاعة على العادة، وإن كان ذلك لم يغنِ عنه شيئاً.

ونشأ أبو الربيع في بيت الملك والرياسة، فطلب الأدب، ولم يمنعه شرف بيته من الجِد في الطلب، حتى نبغ منه أديب أريحيّ يتعشق المجد ويصبو إلى العلياء، وتقلب في الولايات الجليلة كبلَنْسِيَة وبجايَة وسِجلْماسَة، وفي كلها كان كَعْبَةَ القُصّاد من الأدباء يأتونه عاقدين الآمال على بره وألطافه فيصدرون عنه وكلهم ألسنة مدح وثناء عليه. قال في الغُصون اليانعة: «وحيثما كانت ولايتُه اجتمع إليه أهل الأدب واشتهر مكانه، فقد كان متميزاً في قومه، علماً فيهم بهذا الشأن».

قال: «وذكره الشَقنْدي في معجمه فأطنب في الثناء عليه، وقال: هو من مفاخر بني عبدالمؤمن، وأحلّه منهم محلّ ابن المُعتزّ من بني العباس وابن المُعِزّ من العُبَيْدِيّين،

وقال: كان قديراً على النظم، حافظاً للآداب جَواداً لمن يتعلق بأدنى سبب يجب رعيُه، وخَبرتُه فوجدته يجود في أكثر الأوقات بما لا يساعد عليه الزمان. قال: ولقد قلت له يوماً: يا سيدنا! أتكلفون أنفسكم ما لا يساعد عليه الوقت؟ فضحك وقال: إنّا نُغالبُ الزمان في ما نتكلف ونرجو من فضل الله ألا يَغْلِبنا... وأذكُر أنه تُشُفّع له في شخص مليح الكلام فولاّه وأحسن إليه فأتى بالقبائح فذكر أمره وأنا حاضر، ثم قال فيه:

لا تَصنعِ المعروف إلا لِمَن
رأيتَه أهلاً لشكر الصنيع
كم من شريف القول قد غرّني
بقوله والفعل منه وضيع
ولم أكُن أغلَطُ في مثله
لكن دهتني ثقتي بالشفيع!

قال: وكان مُولَعاً بالألغاز ومِن عَامِر ما له في هذا الباب قوله في القلم والدواة:

ومَيْتٍ بِرَمْس طعْمُه عند رأسه
فإن ذاق مَن ذاق الطعام تكلما[1]

---

(١) كذا أنشده، والمحفوظ في البيت الأول، لأن هذا اللغز مشهور:
وساكن رمس.......... إذا ذاق..............
وفي البيت الثاني:
يقوم فيمشي صامتاً متكلماً ويأوي إلى الرمس الذي منه قوما
وفي صدر الثالث: فلا هو حي يستحق زيارة.

يـمـوت فـيـحـيـا ثـم يـفـرغ زاده
فـيـرجـع لـلـقـبـر الـذي مـنـه قُـيّـمـا
فـلا هـو حـيّ يـسـتـحـقّ كـرامـةً
ولا هـو مـيْـت يـسـتـحـق تـرحّـمـا

وقوله في العين:

وطـائـرةٍ تـطـيـر بـلا جـنـاح
تـفـوتُ الـطـائـريـن ومـا تـطـيـر
إذا مـا مـسّـهـا الـحـجرَ اطـمـأنـت
وتـألَـمُ إن يُـلامِـسْـهـا الـحـريـر

قال: وصحبته مرة في سفر فجلسنا ليلاً على نهر وقد تشكل فيه القمر والنجوم فقال:

ومـا سـابـقٌ لا يُـرى صـاعـداً
تـراه إذا مـا اسـتـقـام انـحـدر
لـه مـنـك رَفْـعٌ ومـنـه الـحـيـاة
وذلـك حـظ جـمـيـع الـبـشـر
إذا مـا جـلـسـت لـه لـيـلـةً
حـكـى لـك أنـجـمَـهـا والـقـمـر

... إلخ.

ومن الحكايات النبيلة أنه كان بمراكش تحت جَفْوَةٍ من المنصور، فاتفق أن وفدَ على الحضرة وفدٌ من الشام انتهى إلى ظاهر مراكش وعُيّن لهم الدخول في غَداة اليوم الثاني فكتب أبو الربيع للمنصور:

يا كعبةَ الجود التي حجّت لها
عَرَبُ الشآم وغُزّها والدّيْلَمُ
طُوبَى لمن أمسى يلوذ بها غداً
ويطوف بالبيت العتيق ويُحرِم
ومِن العجائب أن يفوزَ بنظرة
مَن بالشآم ومَن بمكّة يُحرَمُ

فاستحسن المنصور مقصَدَه وأظهر الرضى عنه وأمره أن يكون هو الخارج للقائهم والداخل بهم عليه.

حكى هذه الحكاية ابن سعيد المغربي في الغصون اليانعة وراياتِ المبرّزين والتاجُ ابنُ حَمويه السرَخْسي في رحلته، وعنه نقلها صاحب نفح الطيب. ولعل سبب هذه الجفوة هو ما وقع له من ضياع ثغر بجاية أثناء ولايته عليه حين هاجمه ابنُ غانية المَيُورَقي بحراً في صفر سنة ٥٨١، وكان أبو الربيع خارجاً عنها في بعض مذاهبه فلم يحضر الوقعة. وقيل: إن ابن غانية دخلها على حين غفلة والناس في صلاة الجمعة فعَمَد إلى المسجد الأعظم وأدار به الخيل والرجْل، فمَن بايعه خلّى سبيله ومَن توقف عن بيعته ضرب عنقه.

وعلى كل حال فإن واليها المترجم لم يكن حاضراً فأفلتت البلاد من يده، ولم يعذر فيها بقتال، فهو إن نجا بنفسه لا ينجو من غضب المنصور لإهماله وتفريطه وإن كان ذلك إنما وقع قضاءً وقدراً.

على أن رواية الغُبْرِيني في عُنوان الدّراية لكيفية نزول

ابن غانية في بجاية تجعلُ مترجمنا في حِلّ من مسؤولية ضياع هذا الثغر الذي كان عوْرَةً تطرُقه سفن ابن غانية وغيره في كل وقت وحين، وهذا سياقها:

قال: ... وذلك أن بجاية كانت بلدة غُزاة وكان غُزاةُ قِطعها يدخلون إلى دواخل الجزر الرومانية وغيرها ويسوقون السبي الكثير منها ويتنزل الناس لشرائه بحومة المذبح من جهة ربَضها وهناك يُخَمّس ويقع الفصل فيه. ولم يزل الحال على ذلك ويلغ الحال من كثرة سبي الآدميين أن يباع بَيْضاً وأن من الروم بسوداءَ من الوَحْشِ.

وكانت أجفانُ إسحاق بن غانية تصل أيضاً من مَيُورقة كما تصل به أجفان بجاية. وكان إسحاق بن غانية بجزيرة ميورقة، وهو بقية اللمتونيين، فوُجّه له من مراكش من قبل خليفتها مَن يطلبه بالبيعة والدخول تحت الطاعة، فامتنع من ذلك وكان بين يديه ولداه علي ويحيى فقال للرسول: أنا لا أراهم ولا يرونني، ولكن قل للموحدين، يهيئون ما ينفقون على رأس هذين، وأشار إلى رأس ولديه. فانفصل الرسول عنه وتجهّز الولدان بعد كبرهما في طرائِدَ فيها بعضُ الفرسان ووصلا إلى شاطىء بجاية بمحل السّبي منها وكانت البلدة شاغرة من الجيش فتلقاهم الناس على عادة تلقيهم لأجل السبي فنزلت الخيل مُعَدّة، ولما وصلت له مُستعدّة، والناس ما عندهم من شأنهم خبر فطلعوا على جبل الخليفة ودخلوا من باب اللوز إلى قصبة البلد وتملكوا البلد ولم يكن فوق باب اللوز سور في ذلك الزمن وطلبوا الناس بالبيعة فبايعوهم...

... ثم إن الموحدين تجهزوا براً وبحراً من فورهم ليستأصلوا من البُغاة شافَة أمرهم، فانفصل علي بن غانية عن الحال... إلخ.

وقد كلفت هذه الحملة المنصور كثيراً، خصوصاً لأن حركة الخارج الميورقي قد امتدت إلى ما سوى بجاية من مدن وجهات المغربين الأدنى والأوسط فلا غرو أن يجفوَ ابنَ عمه وواليَه على بجاية أبا الربيع هذا، بلى ولولا حلمُه وتأنّيه وتحققه بأن لا يد للوالي في هذا الأمر وأنه لو كان حاضراً لما استطاع أن يدفع الحادث الذي وقع على غِرّة، لكان له معه شأن آخر.

فإذا صحّ أن هذا هو سبب الجفوة التي كانت من المنصور له والتي زالت لما خاطبه المترجم بالأبيات السابقة فإنها تكون قد امتدت زُهاءَ العامين لأن وفد الشام كان قدم على المنصور سنة ٥٨٣ أو سنة ٨٢ وخروج أبي الربيع من بجاية كان سنة ٨١ وفي رواية سنة ٨٠. وعلى كل حال فقد رضي عنه المنصور وأحسن إليه وعاد إلى مكانته التي كانت له عنده.

وممن تحدث عنه من أهل المشرق فضلاً عن التاج ابن حَمّويه، أبو عبدالله القُسْطَلاّني قال: دخلت إلى السيد أبي الربيع بقصر سجلماسة وبين يديه أنطاعٌ عليها رؤوسُ الخوارج الذين قطعوا الطريق على السُفّار بين سجلماسة وغَانة وهو ينكت الأرض بقضيب من الآبنُوس ويقول:

ولا غَـرْوَ أن كـانـت رؤوسُ عـداتـه

جـوابـاً إذا كـان الـسـيـوفَ رسـائـلـه

وفي هذا الحديث يبين لنا أدب أبي الربيع وشجاعته معاً بإنشاده لهذا البيت وأخذه بالحزم هذه المرة، فلم تكن كالمرة السابقة التي ضيّع فيها ولايته واستحق غضب مولاه وعزْله عن منصبه الذي أسند إلى غيره بعد طرد ابن غانية واستعادة تلك البلاد من يده.

وقال ابن حمّويه أيضاً: «اجتمعتُ به حين قدم إلى مراكش (وكان في هذه المدة يلي سجلماسة وأعمالها) بعد وفاة المنصور يعقوب لمبايعة ولده محمد فرأيته شيخاً بهيّ المنظر حسن المخبَر، فصيح العبارة باللغتين العربية والبربرية» ثم أورد لفظ رسالة من إنشائه إلى ملك غانة ينكر عليه تعويقَ التجار وهي:

«نحن نتجاور بالإحسان، وإن تخالفنا في الأديان، ونتفق على السيرة المرضية، ونتألف على الرفق بالرعية، ومعلوم أن العدل من لوازم الملوك في حُكْم السياسة الفاضلة، والجورُ لا تعانيه إلا النفوس الشريرة الجاهلة، وقد بلغنا احتباسُ مساكين التجار ومنعهم من التصرف فيما هم بصدده؛ وتردد الجلاّبة إلى البلد مفيد لسكانها، ومعين على التمكن من استيطانها، ولو شئنا لاحتبسْنا مَن في جهاتنا من أهل تلك الناحية، لكنّا لا نستصوب فعلَه، ولا ينبغي لنا أن ننهَى عن خلُق ونأتي مثلَه. والسلام».

فإذا أخذنا هذه الرسالة من الناحية الديبلوماسية نجد أنها تدل على مهارة سياسية وتدبير حكيم، وإذا أخذناها من

الناحية الأدبية فإنها لا تُقصّر عما ينشئه عِلْيَةُ الكتّاب فصاحةَ لفظ ونصاعةَ ديباجة واستيفاءً للغرض مع توفية الصناعة البيانية حقها.

وهاك توقيعاً له من هذا القبيل لعامل كثرت الشكاوى منه: «قد كثرت فيك الأقوال، وإغضائي عنك رجاءَ أن تتيقظ فتنصلِحَ الحال، وفي مبادرتي إلى ظهور الإنكار عليك نسبةٌ إلى شر الاختيار، وعدم الاختبار، فاحذر فإنك على شفا جُرُفٍ هَار» ولا تخفى براعته.

* * *

وشعره مُدوّن جمعه بأمره كاتبه محمد بن عبدالحق بن عبدالله الغساني وسمّاه: «نظمَ العقود ورقم الحلل والبرود» وتوجد منه نسخة بمكتبة الأسكوريال بخط مشرقي جيد في ٣٣ ورقة صغيرة انتهى منها كاتبها في ٣ شعبان ٥٨٨ أعني في حياة صاحبه.

كما توجد منه نسخة بالمكتبة العامة بالرباط وعنها نقل إليّ صديقي الأوفى الأستاذ محمد بن العباس القَبّاج هذه النبذ الشعرية التي أثبتها هنا، فله شكري الجزيل، على صنعه الجميل[١].

وله غير الديوان كتاب «مختصر الأغاني»، كما أن هناك تآليف أُلِّفت باسمه مما يدل على حبه للعلم ومساهمته

---

(١) قد طبع هذا الديوان بعناية ثلة من الأساتذة منهم الصديق المذكور.

في نشره، منها: «كتاب في شيوخ ابن وَهْب ومناقبه» لابن بَشْكُوَال ألّفه بطلب منه وتوجد نسخة منه بخط المؤلف في خزانة الأخ المجاهد الأستاذ إبراهيم الكتاني. ومنها: «شرح ألفية ابن سينا الطبية» لابن رُشْد فإنه أيضاً ألّفه باقتراح من المترجم، وتوجد نسخة منه بمكتبة أخينا الأستاذ محمد المَنُوني إلى غير ذلك.

وما دمنا بصدد الكلام على شِعْره فلننقل بعض الكلمات من طالعة ديوانه تعرّفنا بجلالة قدره والمكانة العظمى التي كان يحتلها من نفوس خدّامه فقد افتتح كاتبه المذكور الديوان بخطبة تشتمل على الحمد والصلاة أولها الحمد لله كما هو مستحقه وأهله... إلخ. ثم قال:

هذا كتاب جمعت فيه ما أملاه عليّ، ونفث به من غُرَر نظمه إليّ، واختصني بتأليفه دون كُتّابه، وندبني إليه من خدمته وأصحابه، مَن حلّى بمحاسنه عاطِلَ الدهر، وفخرَ بجميل مناقبه وكريم ضرائبه لسانُ الزمان والعصر... السيد الأجل الأكمل، الهمّام الأسنى الأفضل أبو الربيع ابن السيد المعظم، الملك المكرم أبي محمد ابن سيدنا الإمام الخليفة الرضي أمير المؤمنين أدام الله سعده، وأثّلَ فخره وأوْرَى في الآراء قِدْحه وزَنْده...

ثم ذكر كلاماً يتأسف فيه على فراقه ويتمنى الحظوة بالعودة إلى صحبته إلى أن يقول: وكثيراً ما أخذَ خدمته بحضرته التي هي مجتبى الآداب، ومحلّ أُولي الحجا والألباب، في فنون النظام وغرر النثر والكلام، فكان

فسح الله أمَده، وأعلى كعبه ويدَه، المُجَلّي في ذلك الطلْق، الحائز لخَصْل السبْق، لا جرَم أن الكتب كانت تعرض عليه، وتوضع للعلامة بين يديه فيتصفحها تصفُّح مُغْضٍ على زللها، ساتر لخطئها وخطلها... إلخ.

ثم يقول في تقسيم الديوان: وقد رتّبتُ أبواب هذا الكتاب وقسّمتها خمسةَ أقسام، لتكون أبينَ لمن أراد الوقوف على فن منها وأقرب، وأيْسر لمن بحث على نوع من أنواعها وطلب، والله المستعان: الباب الأول في المدح، الباب الثاني في الرثاء والتأبين، الباب الثالث في النسيب، الباب الرابع في الألغاز وما ينحو نحوها من التشبيه، الباب الخامس في الزهد.

وعلى كل حال فبالرغم من ثناء المُثْنين، ومُبالغة المادحين، لا يمكن أن نقول: إن شعره كله جيد بل إن أكثره متوسط الطبقة، وفيه ما بلغ نهاية الجودة كالأبيات التي خاطب بها المنصور عند جفوته له، وكانت السببَ في رضاه عنه. وابن سعيد في كتاب الرايات لما ذكره قال: ديوان شعره مشهور ولم أجد فيه ما يشفَع له في هذا المجموع غيرَ قوله وذكر الأبيات. وهذا برغم الثناء الذي أثنى عليه في الغصون اليانعة كما رأيته، وكالأبيات الغَزَلية البائية التي تأتي بعد، فإنها قد طارت كلّ مطار ولم أرَ من الناس إلا معجباً بها ومثنياً عليها، إلى غير ذلك؛ وكم من الشعراء الكبار لم يشهروا إلا بقصيدة واحدة أو قطعة أو بيت مفرد، وهذا الإحسانُ من أمير مشتغل بالسياسة وتدبير الملك وإن كان قليلاً فإنه كثير.

ودونك الآن مختارات من ديوانه، فمنها هذه القصيدة

العينية يمدح فيها ابنَ عمه المنصور ويهنّيه بفتح قَفْصة بعد دَحْرِهِ لابن غانيةَ الذي كان خرج على المترجم ببجاية:

هبّتْ بنصركم الرياحُ الأربَع
وجرت بسعدكم النجومُ الطّلّع

وأتتْ لِعَوْنِكُم الملائكُ سُبّقاً
حتى لَضاق بها الفضاءُ الأوسع

واستبشر الفلَك الأثيرُ تيقناً
أن الأمور إلى مُرادك ترجع

وأمدّك الرحمٰن بالفتح الذي
ملأ البسيطةَ نورُه المتشعشع

لِمْ لا وأنت بذلت في مرضاته
نفساً تُفَدّيها الخلائقُ أجمع؟

ومضيتَ في نصر الإله مُصمّماً
بعزيمة كالسيف بل هي أقطع

وكتائب منصورة يحدو بها
عزمٌ إذا أمضيْتَه لا يرجع

مُلِئَت بها أرجاء كلّ تَنُوفَةٍ
حتى حسِبْنا أرضَها تتصدع

مِن كل مَن تقوى الإله سلاحُه
ما إن له إلا التوكّلُ مفزَع

لا يُسلمونَ إلى النوائب جارَهم
يوماً إذا أضحى الجِوارُ يُضيّع

لله جيشُكَ والصّوارِمُ تُنْتَضى
والخيلُ تجري والأسِنّةُ تلْمَع
كم من قَصِيّ الدار عاصٍ قاده
حتْفٌ يَخُبّ به إليك ويوضَع
لم يُلْفِ أرضاً يستقرّ بظهرها
أنّى له ومضاءُ عزمك أسرع
إن ظن أن فِراره مُنْجٍ له
فلجهله قد ظن ما لا يَنْفع
أيْنَ المفرّ ولا فِرَارَ لهاربٍ
والأرضُ تُنشَر في يديك وتُجْمع
أخليفَةَ الله الرّضى هُنّيتَه
فتحاً يُمَدّ بما سواه ويُشفَع
ولْيَهْنِ هذا الفتحَ إنك فتحُه
وبحسبه منك النصيبُ المُقْنِع
فلقد كسوْتَ الدينَ عزاً شامخاً
ولبِسْتَ منه أنت ما لا يُخْلَع
إن الذي سمّاكَ خيرَ خليفةٍ
جعلَ الخلافةَ فيكم لا تُنْزَع
لكُمُ الهدى لا يدّعيه سواكم
ومَن ادعاه يقول ما لا يُسمَع
هيْهاتَ سِرّ الله أُودِعَ فيكم
والله يُعطي ما يشاء ويمنَع

إن قيلَ مَن خيرُ الخلائف كلها
فإليك يا يعقوبُ تُومي الأصبُع

فلأنتُمُ ذخْرُ الخلافَة والذي
عيْنُ الزمان لوقته تتطلّع

إن كنت تتلو السابقين فإنما
أنت المقدّم والخلائق تُبّع

حسْبُ البريّة أن تكون إمامَها
ونصيرَها إن ناب أمرٌ مُفْظِع

جلّت صفاتك أن يُحيط بكنهها
نثرٌ يؤلّف أو قريظٌ يُجْمَع

خذها أميرَ المؤمنين مديحةً
من قَلْبِ صدْق لم يَشِنْه تصنع

فالمدح مني في علاك طبيعةٌ
والمدح مِن غيري إليك تطبّع

جَرْزٌ مُلاءةَ عزّةٍ موصولةٍ
قعساءَ يحسُدها السمّاكُ الأرفع

واسْلَمْ أمير المؤمنين لِأمّةٍ
أنتَ الملاذُ لها وأنت المفزَع

وحمَاك مَن يحمِي بسيفك دينه
وكفاك ما يُخشى وما يُتوقّع

وعليك يا أسنَى الملوكِ تحيّة
يفنَى الزّمانُ وعرفُها يتضوّع

ولا نمرّ على هذه القصيدة بدون أن ننبه على ما في القِرطاس، لما ذكر هزيمةَ المنصور المَريني لِضُون نُونَة وقَتْلَه إيّاه من أن الرئيس أبا محمد بن اشْقَيلُولَة كتب بها في كتاب إلى المنصور يهنِّيه بالفتح، فهو إن كان يعني أن ابن اشْقَيْلولَة تمثّل بها فذاك وإلا فهو غَلَطٌ في التاريخ وخَلْط بين الوقائع.

وله يخاطب المنصور أيضاً؛ وهو خطاب جدّ مُهذّب:

فلأمْلأنّ الخافِقَيْن بذكركم
ما دمتُ حياً ناظِماً ومُرسّلا
ولأبْذُلَنْ نصحي لكم جُهدي وذا
جُهدُ المُقِلّ وما عسى أن أفعَلا
ولأخْلِصنّ لك الدعاء وما أنا
أهلٌ له، ولعلّه أن يُقْبَلا

وكتب إليه يستقيل من عثرته:

أقِلْ عثرةَ الدنيا وإن عظُمت ذنباً
ودَعْ عتْبها إن العتاب لها عُقْبى
حَنانَيْكَ لا تَبْخَل عليها برأفة
فمثلك من يُدْعَى لعفو ومَن لبّى
أقِلْها فقد ألزمْتَ نفسك عادة
من الحِلم لا تُبقي على مُذنبٍ ذنبا
أحِلْها على الفضل الذي أنت أهله
فقد أقبلت بالفتح تسألك العُتْبى

ولا تكترث مما جرى فلرُبّما

تعرّض مكروه بما يحْسُنُ العُقْبى

بقيتَ أمير المؤمنين وأمرُكم

مُؤتّى له يَستخْدِمِ العُجْم والعُرْبا

فعَمّا قريب يُنجِز الله وعدَه

لأمرك حتى تفتح الشرق والغربا

وله في النسيب وهو بديع:

أقولُ لركْب أدلجُوا بسُحيْرةٍ

قفوا ساعةً حتى أزورَ ركابها

وأملأَ عيني من محاسن وجهها

وأشكو إليها أن أطالت غيابها

فإن هي جادت بالوصال وأنعمت

وإلا فحسبي أن رأيت قبابها

وقفتُ بها أشكو وأسكُبُ عبرة

على غير بَيْن ما عرفتُ انسكابها

فأوْمتْ برَخْص من بَنان مُخضّبِ

وحَطّتْ عَنِ البدر المُنير نقابها

وقالت أيبكي البينَ مَن قد أراده

ويشكو النّوَى من قد أثارَ غُرابها

ولمّا تناءت دارُها وتباعَدَت

وعاقت على بُعد المزار خطابها

كتبْتُ إليها أشتكي ألمَ النّوَى
لعلّي أرى يوماً إليّ كتابها
وكنتُ أرى أن الجواب تعلّل
فقد زاد ما بي إذْ رأيتُ جوابها

وله في جارية اسمها ألوف:

خَليلَيّ قُولا أين قلبي ومَن به
وكيف بقاءُ المرءِ من بعد قَلْبه
ولو شِئْتُما اسمَ الذي قد هويته
لصحّفتُما أمري لكُم بعد قَلْبه

وله يخاطب الطيف:

يا أيها الطيْفُ خبّر ... ما لَلحبيب لدينا
وإنه ليس شيء ... أحبّ منه إلينا
واقْرَ السلامَ عليه ... منا ومنه علينا
وقلْ له غاب قلبي ... وأنتَ تعلم أينا
فازْدُدْ عليّ فؤادي ... يا أمْطَلَ الناس دَيْنا

وله يصف الروض والشراب:

تنَبّهْ ترَ دِيمةً تُمْطِر ... ووجْهَ الصباح لنا يُسفِر
وكالندّ لكنّ كافورَه ... بدا فيه واكتتم العنبر
على حينَ فَلّ الدجى مذبرٌ ... وللصبح في إثره عسكر
وبين الغمام وممطُورِه ... من الرّوْض كالحرب أو أكثر
إذا الْتَاحَ من برق ذا أبيضٌ ... تأطّرَ من غصن ذا أسمر

وللقَطْرِ في جيدِ غُصن النّقَا ... لآلٍ من الماءِ أو جوهر
وفي عاتق الروض من سيفه ... نِجادٌ ولكنّه أخضر
كأنّ الرذاذَ على زهْره ... يفُتّ من المسك أو ينثرُ
وما عبِقَ الروض طيباً لنا ... ولكنه للحيا يشكُر
تنبّه إلى شرب مَشْمُولة ... يطوف علينا بها جُؤذر
إذا شاء أرسلها نظرة ... فيُسكِرُ أضعافَ ما تُسكِر
فيا عاشِقَين على رسْلِكم ... من الشّرب ساقِيكُم أحوَر
متى تستفيقون مِن سُكْر مَن ... إذا فَنِيَت خمرُه ينظُر

وله في الساقي:

وساقٍ يطوف علينا ضحى ... وكأسُ المُدامَة في راحته
وقد أشبهت راحُه خدّه ... فخلتُ المدامة من وجنته

وله فيه أيضاً:

سقاني الخمر سلسالاً عتيقاً ... وعوّض من مِزاج الماء ريقا
هلال يزدري بالشمس حسناً ... فلا وجدَ المُحاق له طريقا
إذا ما الشّرب أعوزهم رحيق ... فمِن أجفانه يسقي الرحيقا

وله في نافورة ماء:

أنظُر إليها وقد سالت جوانبها
بالماء سيلاً خفيفاً دمعُه يَكِف
كأنها مقلتِي يومَ الوداع وقد
لاح الرقيب فلا تجري ولا تقف

وله في وردة:

خُذها إليك كوجنَة العذراءِ
من غير ما خجَل وغير حياء
عِطْرِيَّةَ الأنفاسِ يملأ عرْفُها
متنشِّق الندماء والجلساء
نشر السحابُ لآلياً منه على
أوراقها لكنها من ماء
وكأنما رقَم النَدَى أوراقَها
رقْمَ الحَبَاب غِلالَة الصهباء
ثم التأمْنَ فرائداً في نحرها
فكأنها خدّاك غبّ بكاء

وله في استدامة العهد:

بيني وبينك ودّ لا يغيّره
صرْفُ الزّمانِ ولا يبلى مدى الحقب
وإن تكن غبتَ عن عيني مدى زمن
فإن شخصك في الأحشاء لم يغب

وله ملغزاً في فرس الأسطرلاب (على ما يظن):

لله أيّ جواد ظل مُرتبَطا
من تحت مَربِطه السبعُ المحيطات
إن حُلّ يوماً ترى الأفلاك ساقطةً
الله حسبي بل السبع السماوات

ومن شعره في الزهديات:

ستعلمُ نفس قد قضى الله نحْبَها
بأيّة ما كانت تُجاهرُ ربّها
وما المرء إلا نائم طولَ دهره
إذا ما انقضى عمر الحياة تنبّه
أعاتب نفسي طامعاً في ارتجاعها
ولو كنت ذا يأس تخلّيت عتْبها
ولكنني أرجو لها مَن بفضله
إلى العمل الأرضي يُقلّب قلْبَها

وقال أيضاً:

إذا ما ذكرتُ الله فاضت مدامعي
على كل ما فرطتُ فيضَ السحائب
واذكُر يومَ الحشر إن جئتُه غداً
وذنبي معي والذنب أخبثُ صاحب
ولكن أُرجّي الله في كل حالة
وأخشى بما قدمت سوء العواقب
فيا خيرَ من يُدْعى لكل ملمة
وأكرَم من يُرْجى لنيل الرغائب
أقِلْ عثرتي إني أتيتُك تائباً
وليس مقيم في الذنوب كتائب

ومن قوله مطلع قصيدة في الرثاء:

بعيدُ مدَى العمر الطويل قريب
وإن طال عهد فالحياةُ تُريب
وليس عجيباً غدرُها بك إنما
رُكُونك منها للوفاء عجيب

ونكتفي بهذا القدر من شعره، فإن فيه بلاغاً للباحث والمتأدب ثم نختم القول في ترجمته بذكر تاريخ وفاته فقد اشتهر أنه توفي بعد ٦٠٠ من غير تحديد كما في نفح الطيب وغيره. والتحقيق أن وفاته ـ رحمه الله ـ كانت سنة ٦٠٤ كما في ابن خلدون والغصون اليانعة.

* * *

هذا، وقد قال المرّاكشي في المُعْجِب عند ذكر الكتائب الأديب أبي عبدالله محمد بن عبد ربّه الذي كان كاتباً للمترجم ـ زمناً ما ـ ما نصه: «ولأبي عبدالله هذا اتساع في صناعة الشعر إلا أنه نحَل كثيراً من شعره السيد أبو الربيع سليمان بن عبدالله بن عبدالمؤمن أيامَ كتابته له ولم يدَّعِ بعد ذلك في شيء مما نحله إياه من شعره ولا ذكرَ أنه له، فكان أكثرُ شعره يُنشَدُ لأبي الربيع وترويه الرواة له، عرفتُ ذلك بعد مفارقته إياه لأني فقدتُ شعر السيد أبي الربيع واختلف عليّ كلامه ورأيت بخطه أشعاراً نازلة عن رتبة الشعر جداً فعلمت أن ذلك الأول ليس من نسجه».

وهذه تهمةٌ خطيرةٌ يُلصِقُها المراكشي بأميرنا الشاعر فتُطِيح بكل ما بنينا له من مجد أدبي رفيع. ولكن ألا تكون

دعاية سيئة من الكاتب ابن عبد ربه ضدّ مخدومه أبي الربيع بعد مفارقته إياه، وخصوصاً إذا كانت هذه المفارقة عن سخط لا عن رضى، ومعها لا حرج عليه عنده وعند أمثاله فيما يَنْثي من الشر ويَنشُر من السوء فلم تزل تلك هي طريقة انتقام المبطلين من المحقين؟!

ولا يغرنّك قولُ المراكشي: إن ابن عبد ربه هذا لم يدّعِ بعد ذلك في شيء مما نحله إياه من شعره ولا ذكر أنه له، فإنما هو كلام فارغ وعذر باطل وإلا فمن أين عرفَ المراكشي نفسُهُ أن ابن عبد ربه نحل كثيراً من شعره لأبي الربيع؟

تُجيب بأنه عرف ذلك من فقده شعر أبي الربيع واختلاف كلامه عليه لما فارقه ابنُ عبد ربه كما قال هو، ولكن لماذا لا يكون هذا الكلام من شعر أبي الربيع الذي لم يحتفل له ولا اعتنى بتجويده بعدُ فهو على كل حال نازل عن رتبة الشعر الجيد ولكن لا يدل حتماً على أن ما يُنسب لأبي الربيع من شعر عال ليس له؟

ثم إن مما يلزم قياساً على حكم المراكشي هذا أن كل أمير أو خليفة نظم شعراً جيداً فهو ليس له وإنما هو لأحد كتّابه أو شعرائه، وعليه فشعر المنصور الذهبي هو للفشتالي مثلاً نحَلَه إياه ولم يكن يدّعي في شيء منه ولا يذكر أنه له وهكذا غيره من الملوك فلو كانوا يعرفون الغَيْبَ لما اتّخذوا كُتّاباً ولا شعراء ليسلموا من تهمة المراكشي هذه!

وكذا يلزم عليه أن نبدأ بشيخ شعراء الجاهلية، ومَن حكمَ له الحكمَ الذي تُرضى حكومته: عمر بن الخطاب

بالأفضلية، زهير بن أبي سلمى الذي كان يقول القصيدة في ليلة وينقحها في سنة ـ لو ظفِرْنا بشيء من شعره قبل التنقيح ـ فنقول: إن هذا شعر نازل عن رتبة الشعراء الفطاحل فما لصاحبه من الشعر الجيد منحول عليه وليس له، وهكذا سائر الشعراء الحَوْلِيّين.

ولتُنظر قصة بشار بن برد مع العباس بن الفضل في ترجمة ابن زاكور أول كتاب المنتخب من شعر ابن زاكور من تأليفها فإن فيها مزيدَ بيانٍ لهذه المسألة.

وعلى كل حال فإننا نتنزّل ونقول: إن هذه الدعوى إن لم تكن نتيجة عداوة شخصية لأبي الربيع ولا دسيسة أندلسية ضد هذه العُدوة وأدبائها، فإن فيهما مبالغةً كبيرة جداً، إذ يمكن أن يكون الأمير أبو الربيع استعانَ مرّةً بكاتبه على تهذيب شعر له أو إتمام إحدى قصائده أو كلّفه بالقول أصلاً في غرض من الأغراض لضيق وقته وعدم مواتاة ملكة النظم له في وقت يكون نزعُ ضِرْس الشاعر فيه أهونَ عليه من قول بيتٍ من الشعر ـ كما يقول الفرزدق ـ فبنى هذا الكاتبُ أو غيرُه من الحَبّة قُبّة، وروّج بين الناس أن شعر أبي الربيع ليس له وإنما هو نحَلَه إياه.

وقد رأينا فيما نقلناه عن الشَقنْدي صدرَ هذه الترجمة، وهو مَن هو تعصباً على المغرب والمغاربة، كيف يُكبر من قدر المترجم ويُطنِب في مدحه ويَقْرِنه في هذا الشأن بعبدالله ابن المعتز العباسي وتميم ابن المعز الفاطمي. ولئن حملنا هذا الكلام على المبالغة وقلنا: إن المترجم غزاه بكرمه فقال فيه ما قال ـ واللّها تفتح اللّها ـ فكيف نقول فيما

حكاه من وقائع الحال التي حضرها بنفسه ورأى المترجم ينظم فيها الشعر الجيد كقصة هذا الشخص الذي تشفع له فيه فولاه وأحسن إليه؛ ولكنه أخلف الظن به فقال فيه أبو الربيع:

لا تَصْنَع المعروف إلا لمن رأيتَه أهلاً لشكر الصنيع

إلى آخر الأبيات، ومَن يدرينا أن هذا ابن عبد ربه كان من هذا القبيل على رغم مدح المراكشي له؟!

ومثلُ هذه القصة حكايةُ النهر الذي جلس عليه أبو الربيع والشّقنْدي في سفر ليلاً فتمثلت فيه النجوم والقمر وارتجل أبو الربيع في ذلك الأبيات التي حكاها الشّقنْدي فأين كان هذا ابنُ عبد ربه ليقول الأبيات وينحلها مخدومه اللهم إلا أن يكون انقلب شيطاناً يَرى ولا يُرى وكما يقال: لكل شاعر شيطان!

والأبيات الفذّة التي رفعها إلى المنصور لما وفد عليه وفدُ الشام وكان بحال جَفْوة منه، مَن الذي نظمها له؟ وهو قد كان تحتَ غضب السلطان غيرَ مرغوب في صحبته، فهل هي أيضاً من الشعر النازل عن رتبة الشعر جداً يا مولانا المراكشي؟ على أن ما ذكره المراكشي من شعر هذا ابن عبد ربه ونوّه به ذلك التنويع العظيم لا يبلغ في شيء درجةَ كثير من شعر أبي الربيع الذي ذكرناه، والناقدُ بصير، وللشعر مِيزان، وإن يبغِ عليك قومُكَ لا يَبغِ عليك القمر، كما يقول المثَل العربيّ!

***

عبدالملك المعتصم

نشأته وتكوينه، اغترابه بالجزائر حذراً من غدر عمه به، قتاله بجانب الجيش العثماني في تونس، مكافأة السلطان العثماني له بإعانته على دخول المغرب، فرار ابن أخيه المتوكل واحتماؤه بملك البرتغال، معركة وادي المخازن الشهيرة، النصر الحاسم، المعركة في الميزان، وفاته.

هو رابع أولاد السلطان السعدي محمد الشيخ الملقب بالمهدي، وأحد من ولي المُلك منهم، وكان هذا السلطان منجباً أرسى قواعد الدولة السعدية بعزيمته وأولاده الأنجاد الذين كانوا يشدون عضده ويسعون في نجاح أغراضه، فأكبرهم وهو محمد الحران كان شجاعاً شهماً يتقدم للحروب ولم يفتح لأبيه من البلاد إلا ما فتح على يده كما يقول الأفراني، وعبدالقادر كان وزيراً لأبيه، وهذان توفيا في حياة والدهما، وعبدالله الغالب، وصاحب الترجمة، وأحمد المنصور المعروف بالذهبي ثلاثتهم ولُّوا الملك، وعثمان، وعبدالمؤمن، وعمر، ولهم جميعاً ذكر في التاريخ.

وحكى العلاّمة المنجور أنه كان يوماً بمجلس السلطان

محمد الشيخ هذا، وقد حضر عنده أولاده الصناديد محمد الحران وعبدالله وعبدالقادر فدخل الشيخ أبو عبدالله اليسيتني فلما نظر إلى بنيه حواليه أنشد هذا البيت وهو من شعر الفرزدق:

فقلت عسى أن تبصريني كأنما
بني حوالي، الأسود الحوارد

فأعجب ذلك السلطان وأولاده.

ويكنى المترجم أبا مروان، ويلقب بالغازي، وهو من الألقاب التركية، كما يلقب بالمعتصم بالله، وهو من ألقاب الخلفاء، وبه شهر، ويعرف عند العامة بسيدي ملوك.

من الواضح الجلي أن البيئة التي نشأ فيها مترجمنا كانت بيئة عمل وجد واجتهاد لتوطيد أركان الدولة ومقاومة خصومها الداخليين وأعدائها الخارجيين، وأن عميدها الذي هو محمد الشيخ كان قدوة أبنائه وأسوتهم في النضال والسعي من أجل تحقيق الأهداف العليا لقيام دولتهم وبروز أسرتهم على مسرح التاريخ.

وأول هذه الأهداف هو توحيد الصفوف وجمع الكلمة لمكافحة الاحتلال الأجنبي وتطهير الشواطىء المغربية من رجسه. فقد كان البرتغاليون وهم في أوج عظمتهم، اهتبلوا فترة الضعف الذي طرأ على الدولة المغربية فهاجموا مدن سبتة والقصر الصغير وأصيلا وطنجة واحتلوها كما احتلوا حصن فونتي في الجنوب وآسفي وأزمور والجديدة، واحتل الإسبان مدينة مليلية، وكان القصد هو تطويق المغرب

وإيجاد حزام للسلام في الثغور المغربية نفسها يحمي الجزيرة الأيبيرية من هجوم المسلمين ومحاولتهم العودة إلى الفردوس المفقود.

ومع أن قيام الأشراف السعديين إنما كان لدرء عادية العدو البرتغالي على الجنوب وإقليم سوس بالخصوص، فإن نجاحهم في طرده من حصن فونتي والضغط عليه حتى انسحب من آسفي وأزمور فتح لهم باب الأمل في مد حركتهم الجهادية إلى الشمال وهذا كان يقضي عليهم بمنازلة أواخر ملوك بني وطاس وتصفية دولتهم، وكل ذلك تمّ على يد السلطان محمد الشيخ المهدي الذي وحّد المغرب تحت راية السعديين شمالاً وجنوباً، وطرد البرتغاليين من أصيلا والقصر الصغير كما طردهم من الثغور الجنوبية بحيث لم يبقَ بيدهم سوى طنجة وسبتة والجديدة. ففي هذه المدرسة تخرّج عبدالملك ومنها درج، وبأحداثها تمرّس، وعلى وقائعها ضبط أمر المُلك وتدبير الدولة... وأما الشؤون الإدارية فقد باشرها وهو وال على إقليم تافيلالت من قبل والده وتكون التكوين المطلوب فيها.

فقد كان والده لما استتب له ملك المغرب، أمّر أرفع أولاده عنه وأعزهم لديه وهو مولاي عبدالله على فاس كما في تاريخ الدولة السعدية المجهول المؤلف، وأمر ولده مولاي عبدالمؤمن على مكناس، وأمر ولده مولاي عبدالملك على سجلماسة وأصحبه أخاه مولاي أحمد، ومن هنا نشأت الصلة المتينة وما طبعها من حسن التفاهم بين الأخوين عبدالملك المعتصم وأحمد المنصور، ثم زادها قوة

اغترابهما في الجزائر أيام ملك أخيهما عبدالله الغالب، كما سنبينه، وكان ذلك الاغتراب فرصة أيضاً لتكميل تكوينهما وفتح آفاقاً جديدة من المعرفة أمامهما، ولا سيما بالنسبة لعبدالملك الذي تعلّم التركية والإيطالية إضافة إلى الإسبانية التي ربما كان قد تعلّمها في المغرب، ونعلم من ذلك أن مترجمنا ذو شخصية قوية صاغتها التجارب وصقلتها تقلبات الأحوال، ولعل ما استفاده من سيرة والده، خصوصاً في حركيته الدائبة وتصدّيه للغزاة الأجانب كان من أعظم مقوماته الذاتية.

تغرّب المترجم هو وأخوه أحمد بالجزائر أيام أخيهما عبدالله الغالب، وكأنه آنس من جانبه سوءاً أو من ابنه محمد الذي كان خليفته على فاس، كما كان هو خليفة لأبيهم عليها، وتقدم قول المؤرخ المجهول لدولتهم في عبدالله أنه كان أرفع أولاد محمد الشيخ عندهم وأعزهم لديه ومثل ذلك يقال في حق عبدالله بالنسبة لولده محمد الذي قدّمه على إخوته واستخلفه على فاس ولئن كان عبدالملك توجس خيفة من أخيه عبدالله وولده محمد، فلأن استفادته من تصرفات والده كانت عامة، وفي حالة الإيجاب والسلب على السواء، فهو قد رأى ما فعل والده بأخيه أحمد الأعرج الذي كان أكبر منه وأسبق إلى الولاية، فأزاحه عنها وتقبض عليه وبقي رهن الاعتقال إلى أن قضى عليه محمد ابن أخيهما عبدالله حين اغتيل والدهم محمد الشيخ بيد الأتراك، وكان عبدالملك وأخوه أحمد إذ ذاك بالجزائر لاجئين فلحق بهما أخوهما عبدالمؤمن، عند اغتيال محمد ابن أخيهم

عبدالقادر فيما يظهر، وكان هذا قد تصدر في أيام وهو وال على مكناس وحسن تصرفه ومالت أشياخ القبائل إليه بحيث لم يكن لمحمد بن عبدالله والي فاس ظهور معه، فلما رأى ذلك عبدالله الغالب خاف من مزاحمته أو مزاحمة ابنه على الملك فغدره وقتله، وهكذا كان دم الأخوة عند السعديين هدراً، فمن حق مترجمنا أن يخاف على نفسه بل من حصافته وأخذه بالحزم أن يفر إلى الجزائر حيث يأمن غدر أخيه أو ابن هذا الأخ الذي بدأت جرأته على الدماء تظهر منذ أول يوم من ولاية أبيه.

وتظهر لنا شدة حذر عبدالملك من مراحل اغترابه، فهو أولاً لجأ إلى تلمسان، ثم انتقل إلى الجزائر، ولما استدفَّ أمر السلطنة لأخيه عبدالله وظهر منه ما ظهر، لجأ إلى إسطنبول ومعه أمه سحابة الرحمانية فاستقر في كنف السلطان العثماني مؤملاً أن يمده بما يعينه على دخول المغرب وزحزحة أخيه عن العرش، ولكن عبدالله كان على صلة حسنة بالعثمانيين وقد أصلح ما أفسده والده معهم، فلم يُجبه السلطان العثماني إلى طلبه، لكن لما بلغ عيث الإسبان بتونس أشده، وفكر السلطان سليم الثاني في توجيه حملة عسكرية لفتحها وطرد الإسبان منها انتدب عبدالملك لمرافقة الحملة التي كان على رأسها الوزير سنان باشا، قال المؤرخ المجهول لدولتهم: «وذهب معه مولاي عبدالملك بـ(فرقاطة) كانت عنده من ثمانية عشر مجدافاً، وكان معه بضعة وثلاثون رجلاً فقط» قال: «ورأيت رجلين من القوم الذين كانوا مع مولاي عبدالملك في حلق الوادي أحدهما كراوي

من طريانة، حومة بطالعة فاس البالي اسمه عبدالله، والآخر مكناسي اسمه عبدالرحمٰن، وحدثاني بحقيقة الخبر وكيف كان القتال في البر والبحر».

وبعد أن أشار المؤرخ المذكور إلى النصر الحاسم الذي حققته الحملة على الإسبان وبقايا الحفصيين الذين احتموا بهم، ذكر تشوُّف السلطان إلى أخبار الحملة وأنه كان آناء الليل وأطراف النهار يراقب البحر، وأن الغزاة الأتراك جهزوا ثلاثة مراكب بحرية لإبلاغ خبر الفتح إلى السلطان وقال: «عند ذلك جاء مولاي عبدالملك إلى أصحابه الذين كانوا معه وقال لهم: اخرجوا بهذه (الفرقاطة) إلى إسطنبول واذهبوا بكتابي إلى أمي بدار السلطان وادفعوه لها إن سبقتم المراكب الثلاثة وإن سبقتكم فلا تدفعوه لها وأوصاهم على الحزم والعزم فساروا ليلاً قبل سفر مراكب السلطان وجدُّوا إلى أن وصلوا قبل هذه المراكب ودفعوا الكتاب إلى أم مولاي عبدالملك فسارت مسرعة إلى السلطان فوجدته على ظهر (السراية) يراقب البحر فدنت منه بالأمر وبشرته بالفتح فقال لها: ومن أين لك بهذا؟ فدفعت له الكتاب فبقي متحيراً طول ليلته ومن الغد إلى العصر وصل أحد المراكب الثلاثة فوجد الخبر كما أنهته إليه أم مولاي عبدالملك وكان هذا سبباً في إنجاز طلبه السابق بإصدار الأمر إلى والي الجزائر ليساعد مولاي عبدالملك على استرجاع ملك أبيه بالمغرب»... إلخ.

وكان فتح تونس في ٢٥ جمادى الأولى عام ٩٨١ كما في تواريخها وتواريخ الدولة العثمانية وذلك قبل وفاة عبدالله

الغالب بنحو خمسة أشهر؛ لأن وفاته كانت في آخر رمضان سنة ٩٨١ وقد لاحظ ذلك المؤرخ الناصري واستشكل ما ذكره المؤرخون من أن رحلة عبدالملك إلى إسطنبول كانت بعد وفاة أخيه عبدالله وتولي ابنه محمد، فإن ذلك لا يصح إلا على القول بأن فتح تونس كان عام ٩٨٢ وهو ما في التاريخ المجهول المؤلف الذي يظهر أن الأفراني اعتمد عليه في ذلك كما اعتمده في كون السلطان الذي استنجد به عبدالملك هو السلطان مراد وكل ذلك لا يصح وما ذكرناه بالاعتماد على المؤرخ المذكور مع تصحيح التاريخ واسم السلطان بمراجعة التواريخ العامة هو الذي يحل استشكال صاحب الاستقصا، على أن تمر روايات أخرى في كيفية استنجاد عبدالملك بالسلطان العثماني وقد اقتصرنا منها على الرواية الشهيرة.

عادت السيدة سحابة الرحمانية أم عبدالملك إلى الجزائر، ومعها (فرمان) السلطان إلى والي الجزائر يأمره بتجهيز فرقة من الجيش التركي لمساعدة عبدالملك على استرجاع ملك أبيه، وهكذا أدت هذه السيدة مهمتها كما يجب وسجلت اسمها في تاريخ المغرب بشرف وكانت من أهم العوامل على نجاح قضية ابنها الذي أعطى المثل على أنه في مستوى الأحداث الجسام التي تعيشها بلاده، بحيويته وشهامته واستغلاله لجميع الظروف المؤاتية والفرص السانحة، وقد حدثت بالمغرب في مدة غيابه أحداث مهمة رجحت كفة ترشيحه وأهليته للملك، وأعظمها موت أخيه عبدالله الغالب وتولية ابنه محمد الذي تلقب بالمتوكل وهو

ابن أمة وكان متكبراً متعجرفاً ومع ذلك فإن أباه كان يقدمه حتى على أعمامه وجعله خليفته على فاس متجاوزاً بذلك ما استقر عليه العُرف في هذه الدولة من تقديم الأكبر سناً على مَن دونه كما كان الحال في دولة آل عثمان، ولعل هذا مما حمل سلطانهم على مساعدة عبدالملك بالإضافة إلى لجوئه إليهم وخدمته لدولتهم. وتقدم المترجم بـ(الفرمان) إلى والي الجزائر فقال له: وأين المال لتجهيز الجيش؟ فقال له: أسلفني وعليّ القضاء، فبعث معه أربعة آلاف جندي واتفق معهم على أن يعطيهم عشرة آلاف لكل مرحلة. وفي التاريخ المجهول المؤلف أن تكلفة تجهيز الجيش بلغت خمسمائة ألف، يعني مثقالاً، وأن وزن المثقال يجيء أربع أواق ونصفاً من الذهب. وسار الجيش حتى بلغ ناحية فاس من غير أن يلقى في طريقه أية صعوبة وكان عبدالملك يراسل وجوه الدولة ورؤساء الجنود، وكانت قلوبهم معه على ابن أخيه، فلم يشعر هذا إلا وقد أطبق عليه عمه مع الجيش التركي فخرج لمقابلته، فمال معظم رؤساء جنوده إلى عمه ووقعت الكرة عليه، ففرّ إلى مراكش ودخل عبدالملك فاس فبايعه أهلها وأقام بها أياماً ودع فيها جيش الترك بعدما وفى لهم بما وعدهم به واستصلح جنوده ثم نهض لملاحقة ابن أخيه إلى مراكش وكان دخوله إلى فاس في ٧ ذي الحجة سنة ٩٨٤ فهو إذن تاريخ ابتداء ملكه.

ولما سمع المتوكل بشخوص عمه إلى مراكش تهيأ لمنازلته ولكنه انهزم أيضاً وتبعه عمه أحمد المنصور خليفة عبدالملك المعتصم ففرّ عنها إلى سوس ودخلها أحمد نائباً

عن أخيه وأخذ البيعة له على أهلها ثم لحق به عبدالملك وأقام بها أياماً ثم خرج في طلب ابن أخيه واستخلف أخاه أحمد المنصور على فاس، فلم يشعر إلا وقد خالفه المتوكل على مراكش فدخلها باتفاق أهلها، فعاد المعتصم وحاصره بها واستقدم أخاه أحمد من فاس فأتاه بجيش منها وعندئذ فرّ المتوكل مرة أخرى إلى سوس ومنها إلى باديس ثم إلى سبتة ثم أتى طنجة مستصرخاً بملك البرتغال وكانت طنجة تابعة له.

لم يكن الاحتماء بالأجانب، وأعني غير المسلمين، علامة صحة قط، ومثال ملوك الطوائف ينبغي أن لا يغيب عن أذهاننا، ولم تلاحظ هذه الظاهرة السيئة في المغرب قبل هذا العهد، فالغالب أعطى بادس للأسبان احتماء بهم من الأتراك، وابنه المتوكل هذا أتى بالبرتغال للمغرب، والمأمون ابن المنصور سلّم العرائش للأسبان مقابل نجدتهم له، وكان الوطاسيون الذين قاتلهم السعديون في حالة شديدة من الإجهاد والضعف ومع ذلك لم يتطلع منهم أحد إلى مهادنة العدو، فأحرى إلى التسليم له أو الانتصار به على مَن يناوئهم. لهذا لقي عمل المتوكل استنكاراً عاماً من جميع طبقات الشعب ومالت قلوب الناس عنه وعزموا على مقاومته بكل قوة...

وقد استحس هو هذا النفور والسخط فبعث برسالة إلى أعيان المغرب من العلماء والأشراف والرؤساء يأخذ عليهم نقض بيعته ويقول: إنه ما استصرخ بالنصارى حتى عدم النصرة من المسلمين فأجابه العلماء برسالة شهيرة أبطلت كل

حججه وفنّدت جميع دعاويه، ومن جملة ما قالوا له: إن جده الأكبر محمد القائم كان عهد لأولاده أن لا يلي الملك منهم ولا من أولادهم إلا الأكبر فالأكبر، وأن والده الغالب ألغى ذلك وعهد إليه، والآن عاد الحق لمن هو له وهو عمه عبدالملك أكبرهم بعد أبيه. وقالوا له: إنما تلزمنا نصرتك لو أقمت بيننا ولكنك هربت واستعنت بالنصارى وقد قال النبيّ ﷺ لرجل من المشركين عرض عليه نصرته: «إني لا أستعين بمشرك». وهكذا كانت الرسالة في المستوى الذي لم يبق له عذراً ولا أعفاه من مسؤوليته.

وكان المتوكل لما حلّ ببادس التي سلمها والده للأسبان طمع في هؤلاء أن يعينوه على عمه، وملك أسبانيا يومئذ هو فيليب الثاني، فرفض هذا إعانته وضيّق عليه في مقامه ببادس فلم يجد بداً من الانتقال إلى طنجة والتفاوض مع البرتغاليين في الدخول معه إلى المغرب لمحاربة عمه. وقد وجد طلبه هذا أذناً صاغية عند ملك البرتغال الشاب ضون سباستيان الذي تحتل قواته مدن سبتة وطنجة والجديدة، طمعاً في اكتساح المغرب ومراغمة دولته التي أخرجته من عدة مواقع كان يحتلها في الجنوب والشمال. ولكن شرط عليه لمساعدته أن تكون السواحل للبرتغال وما وراءها للمتوكل فقبل وبدأ بتسليم أصيلا التي استرجعت من عهد قريب لتكون مرفأ للأسطول البرتغالي ومنطلقاً للجيش المحارب، وانفصل سباستيان من الأشبونة فعرج على قادس، ومنها إلى طنجة ثم أصيلا في عمارة بحرية هائلة، وجيش يبلغ تعداده في أقل تقدير ٨٠٠٠٠ مقاتل منهم

٢٠٠٠٠، إسباني مما أمدّه به خاله فيليب الثاني ملك إسبانيا بعد أن نصحه بعدم اقتحام هذه المغامرة فلما لم يقبل نصحه لم يسعه إلا معونته، ومنهم ٣٠٠٠ ألماني ومثلهم من الطليان و٤٠٠٠ من جند البابا صاحب روما ومتطوعون من قدماء المحاربين الإسبان وغيرهم، إلى القوات البرتغالية التي هي العمدة ومعظم الجيش. وعلى حسب ما في التاريخ المجهول المؤلف أن ٢٠٠٠٠ منهم بقوا في الأسطول لم ينزلوا إلى البر، ولعل ذلك كان من الأسباب التي جعلت عبدالملك يترك سباستيان يتقدم داخل البلاد حتى يحول بينه وبين أسطوله، وكان مع هذا الجيش من العتاد الحربي مئتان من الأنفاض، أي: المدافع و١٥٠٠ من الخيل وعدد كبير من الكراريط، أي: العربات، وذلك بالإضافة إلى نحو ٣٠٠ رجل من أصحاب المتوكل الذي كان يعتقد أن جيش عمه سينضم إليه عند أول مواجهة.

لم تستقر النوى بالملك عبدالملك في عاصمة مراكش حتى أتاه الخبر بتحركات ابن أخيه المخلوع، وكان وقته مقسّماً بين توطيد أركان ملكه وإعادة تنظيم الجيش والنظر في مصالح الدولة، وقد استفاد مما رآه في البلاد التي زارها ولا سيما تركيا واقتبس منها كثيراً، وقد لاحظ المؤرخون أنه كان يتزيا بزي الأتراك ويجري مجراهم في غير ما شأن من شؤونه، وأما الجيش فإنه سلك به مسلكهم ورتبه على ترتيبهم، وإن شق ذلك على الناس وقوفاً مع العوائد، حتى تولى أخوه أحمد المنصور فنهج به نهجاً وسطاً.

ومما اعتنى به على وجه خاص جهاز المخابرات،

وقد وسع نطاقه وجعله يعمل على نطاق دولي اعتباراً بكونه يتكلم عدة لغات كما قدمنا. وبذلك كان يتتبع خطوات ابن أخيه قدماً بقدم ويحيط علماً بكل ما يبرمه مع البرتغاليين عن طريق مخبريه وجواسيسه من البرتغاليين أنفسهم، وكانت تنقلات الغزاة واستراتيجيتهم الحربية تصله في وقتها وبدقة تامة، ومن ذلك أن تسليم أصيلا إلى العدو كان يعلمه قبل حصوله، وأنه كان يتوقع احتلال العدو للعرائش حسبما جاء في المداولة التي جرت بين المتوكل وسباستيان وأركان جيشه. وكان رأي المتوكل المبادرة بذلك قبل مواجهة الجيش المغربي، لكن سباستيان خام عنه. يدلنا على ذلك الرسالة التي كتبها المعتصم لأخيه أحمد في تلك الأثناء وقد جاء فيها:

«أما بعد فاعلم أني لا أحب أحداً بعد نفسي كمحبتي لك ورغبتي في انتقال هذا الأمر بعدي إليك، غير أني أعتاد منك التراخي في الأمور... إلى أن يتطرق إلى ما لا يتلافى جبره من الأمور التي تكاد لولا لطف الله تذهب بهذا الملك ويبلغ العدو معها مراده، من ذلك إهمالك أمر الجند الذي بالعرائش وأغفالك له مع ما يترادف عليك في كل ساعة من تلقائه من استدعاء ما دعت الحاجة إليه من المؤونة والبارود والرصاص الذي لا يستقيم لهم أمر في مقاومة العدو دون ذلك. وجعلت تقابل خطابهم بالإهمال وعدم المبالاة، والآن ساعة يرد عليك كتابنا هذا قبل وضعه من يدك، أبعث إليهم مؤونة عشرة أيام بينما نصل إن شاء الله فيقع التدبير فيما يحتاجون إليه زائداً على ذلك، مع ما عندكم هنالك من

البارود والرصاص من غير عطلة ولا تراخ بحيث لا نقبل منك عذراً في هذه المسألة ولا بد ولا بد. فقد بلغنا أن صاحب النصارى (يعني ابن أخيه) بقرب أصيلا في خمس عشرة مائة من النصارى وتمنيت أن لو حركتك الهمة للاقتحام عليه في مكانه بجيش يكسوه أردية الصغار، ويرجع ساعة رؤيته إلى عادته من الذل والفرار، فانتبه من الغفلة وافتح عين الانتباه واليقظة فإن الساعة لا تقتضي إلا الحزم، والتشمير عن ساعد الاجتهاد والعزم، والسلام».

فهذه رسالة لا تصدر إلا من رجل دولة في مستوى المسؤولية العظمى التي يتحملها. ودلالتها على حركية رجال مخابراته ونشاطهم مما لا نحتاج أن ننبه عليه.

ولم يبقَ لعبدالملك شغل إلا الإعداد للمعركة القادمة والتعبئة العامة للجيش الذي سيواجه العدو وتأمين حاجياته من عتاد حربي وتمرين وعلاج ووسائل نقل وغير ذلك، وكان العنصر المغربي هو أساس الجيش يضاف إليه فرقة من مهاجرة الأندلس وأخرى من مجندي الإفرنج ويبلغ عدده ٤٠٠٠٠ مقاتل فضلاً عن المتطوعين من جميع طبقات الشعب وفيهم العلماء والفقهاء وحملة القرآن وأتباع الطرق الصوفية وغيرهم، وكانت خيل المسلمين أكثر من خيل النصارى ولكن مدافعهم أقل.

وقبل توجه عبدالملك إلى مقابلة الغزاة، كتب إلى سباستيان وقد بلغه عيث جيشه في ضواحي أصيلا وشنه الغارات على القبائل المجاورة، رسالة يقول فيها: «إن سطوتك قد ظهرت في خروجك من أرضك وجوازك العدوة

فإن ثبت إليّ أن نقدم عليك فأنت نصراني حقيقي، وإن أنت رجعت إلى بلادك مكتفياً بقتل بعض الرعية قبل أن يقاتلك أمير مثلك فأنت كلب ابن كلب»، وقد استفزت هذه الرسالة سباستيان واستشار أصحابه فيها فقال له المتوكل: الرأي أن نزحف إلى تطوان والعرائش والقصر ونتملكها ونأخذ ما فيها من ذخيرة فنتقوى بها، ووافقه أهل ديوان سباستيان لكن هذا لم يعجبه رأي الخائن وأخذته نخوة الملك فثبت في محله وانطلت عليه حيلة عبدالملك.

وكتب عبدالملك إلى أخيه أحمد أن يخرج بجيش فاس ويتهيأ للقتال ثم كتب إلى سباستيان مرة أخرى بعدما شخص من مراكش ووصل إلى القصر الكبير بما مؤداه أني قطعت إليك ست عشرة مرحلة إما ترحل إليّ واحدة؟ فرحل من معسكره بتاهدارت ونزل على وادي المخازن بمقربة من القصر الكبير حيث يربض جيش المعتصم.

وخُدِع سباستيان ثانية بكلام عبدالملك فما أن عبر جسر الوادي لمنازلة الجيش المغربي حتى أرسل عبدالملك فرقة من الجيش فهدمت الجسر ولم يكن له مشرع غيره، التقت الفئتان وزحف عسكر المسلمين على عسكر النصارى واشتد القتال، وبرز عبدالملك ممتطياً صهوة جواده وجال في الميدان يحرض الجند ويقوي نفوسه في حين أنه لما به، إذ كان المرض قد اشتد به وغلبه ومع ذلك فلم يزل يشير بيده إلى المقاتلة أن يتقدموا، وأن يحذروا أفواه المدافع، وقدم أخاه أحمد المنصور لإدارة المعركة ولم يلبث أن توفي وهو على ظهر جواده فأخذه الحاجب رضوان إلى المحفة

وهو واضع سبابته على فمه كأنه يوصي بكتم موته، واستمرت المعركة بقيادة أخيه على أشدها والحاجب يتردد على أخيه مظهراً أنه يلقي إليه أوامر الملك حتى هبّت ريح النصر وانهزم العدو، وولت فلوله مدبرة على أعقابها والمجاهدون يحكمون السيف في رقابهم ومَن لم يمت قتلاً مات غرقاً في الوادي، فإنهم قصدوا الجسر للفرار فوجدوه مهدوماً فصاروا يترامون في أثباجه فلا ينجو منهم أحد، وممن مات غرقاً ومثخناً بجراحه سباستيان ملك البرتغال ومحمد المتوكل، وألوف من جند العدو فيهم كثير من كبرائه، كما أسر منهم عدد كبير وقع فداؤهم بعد ذلك وأخرج سباستيان ودفن في مكان معين إلى وقت الحاجة، وأما المتوكل فإنه سلخ وحشي جلده تبناً جزاء خيانته وطيف به في مراكش وغيرها من المدن وعرف من يومئذ بالمسلوخ.

وكان التقاء الجمعين ضحى يوم اثنين منسلخ جمادى الأولى عام ٩٨٦هـ، موافق رابع غشت سنة ١٥٧٨. ودامت المعركة إلى ما قبل العصر، أي: نحو ٥ ساعات، قال ابن القاضي:

«وكان مقدار زمان المقاتلة خمساً وأربعين درجة وقيل اثنتين وخمسين على ما حدثني به بعض الميقاتيين» فكأنها مما وهب الله فيها للمسلمين من الظفر بعدوهم في هذه الفترة الوجيزة، حرب ذرية ضربت الرقم القياسي في سرعتها الخاطفة ونتيجتها الهائلة. وأغرب ما وقع فيها هو موت ثلاثة ملوك: بطلها عبدالملك ملك المغرب وسباستيان ملك

البرتغال والمسلوخ ملك المغرب باعتبار ما كان، ولذلك تعرف عند الأجانب بمعركة الملوك الثلاثة.

مما لا جدال فيه أن معركة وادي المخازن كانت معركة حاسمة بالنسبة إلى المغرب والبرتغال معاً، وأنها كانت ذات صبغة صليبية، فأما بالنسبة إلى المغرب فإنه أحرز بها كيانه وتفادى خطر احتلال الشواطئ التي كان حررها من قبل، والإطباق عليه نتيجة لذلك من قبل البرتغال بحيث يصبح في عداد المستعمرات الخاضعة لهذه الدولة العنصرية المتعصبة. وأما بالنسبة للبرتغال فإنها كانت ضربة قاضية عليها دولياً وسياسياً، إذ استحال مدها إلى جزر، ولم تلبث أن سقطت تحت سيطرة جارتها إسبانيا إلى حين، وكونها كانت ذات صبغة صليبية ظاهر من تحالف الدول النصرانية مع سباستيان اعتباراً من بابا روما فإسبانيا فإيطاليا فألمانيا فضلاً عن المتطوعين المسيحيين من شعوب أوروبية أخرى. ولا غرابة في ذلك والعصر عصر تعصُّب وانتقام من المسلمين وحكمهم الذي يبسط جناحيه على معظم المعمور، فإن الروح الصليبية لم تنفك عن حروب الأوروبيين والأمريكيين حتى في العصر الحديث الذي يصفونه كذباً وبهتاناً بأنه عصر المدنية والعرفان، فبالأمس القريب تحالفت دول أوروبية كثيرة والولايات المتحدة على ضرب ثورة الريف التحررية ومساندة إسبانيا في قتالها لمحمد بن عبدالكريم الخطابي. وقال بيدو وزير خارجية فرنسا بعد ذلك في تصريح له عن حركة القمع التي كانت قوات الاستعمار تسلطها على المقاومة الوطنية في المغرب:

«إنني لن أدع الهلال ينتصر على الصليب»! وهكذا كانت كل الحروب التي شنّتها الدول المسيحية أو التي كانت مسيحية على الشعوب الإسلامية طابعها الصليبية والانتقام من العرب والمسلمين.

إنما نحن لا نبالغ في تقدير نتيجة المعركة من هذه الناحية لو كتب لها النجاح إلى حد القول بأن مصير المغرب كان هو التنصير وأنه سيصبح أندلساً ثانية، فإن المغاربة لم يكونوا في دينهم على شفا، ولم يكونوا من القلة بحيث يجوز إرغامهم على اعتناق المسيحية كما وقع في مملكة غرناطة عند الاكتساح، فإن المسلمين هناك لم يكونوا يتجاوزون عدد المليون الواحد، ومع ذلك فقد هاجر أكثرهم إلى ديار الإسلام ومَن بقي منهم لم يتم تنصيره إلا بعد أكثر من قرن من الزمن هذا إذا لم يقع رد فعل ضد الاستيلاء البرتغالي حتى لو سقطت الدولة المغربية، فقد قاتل المغاربة تحت راية عدد من المجاهدين الأبرار، الغزاة الأسبان والبرتغاليين من غير أن تكون هناك دولة تحميهم وتشد ظهرهم وذلك عند انهيار دولة بني مرين وأثناء ضعف دولة بني وطاس.

وينتهي بنا الكلام على معركة وادي المخازن، ولا ينتهي عن بطلها العظيم السلطان الغازي أبو مروان عبدالملك المعتصم بالله الذي يقول عنه المؤرخ الأسباني منويل على ما نقله المؤرخ الناصري من كلامه: «كان أمر هذا الرجل عجباً في الحزم والشجاعة حتى أنه لما أحسّ بأنه لا محالة هالك بذل نفسه للقتال ليموت مجاهداً شهيداً».

والحقيقة أن عبدالملك عاش حياته كلها مجاهداً، وأنه استفاد من والده ما لم يستفده أحد من إخوته، فأحرى أحفاد هذا الوالد الذي حقق أمل الشعب فيه بطرد البرتغاليين من مدن وشواطىء كثيرة كانوا يحتلونها، ولو امتدت به الحياة لما ترك بيدهم أي موقع، وعلى هذا عاهد المغاربة الأشراف السعديين لما ألقوا إليهم بالزمام، ومع الأسف الشديد أن هذا العهد لم يقع الوفاء به بعد محمد الشيخ المهدي إلا من مترجمنا حتى بعد هذه المعركة الساحقة التي كان الواجب يقضي باستغلالها إلى أبعد حد، وذلك بتطويق بقية المدن الساحلية المحتلة من طرف البرتغال وهي طنجة وسبتة والجديدة وحصارها حتى تسقط باليد المغربية، والفرصة فيها سانحة والظروف مؤاتية، ففي مثل هذه الحال يقال: وا معتصماه!...

مات عبدالملك في ساحة القتال شهيداً مبروراً، لم يعلق من الدنيا بشيء فكان مثالاً للملك المكافح من أجل عزة بلاده وشرفها وحماية ملته ودينه، وقد شهد له بذلك العدو والصديق، والمحب والمبغض، فسلام عليه في ملوك الإسلام الخالدين، ورحمه الله وجازاه جزاء المحسنين. وكان عمره يوم وفاته نحو الخمسين سنة باعتبار أنه أكبر بعد عبدالله الغالب، وهكذا كانت ولادته كما في الرخامة التي على قبره سنة ٩٣٣هـ، فإذا قدّرنا أن ولادة عبدالملك كانت بعد عبدالله بثلاث سنوات كان عمره كما قلنا تقريباً.

* * *

السلطان محمد بن عبدالله
(ت ١٢٠٤ هـ)

ملك عبقري، ولادته ونشأته، خلافته عن والده بمراكش، مبايعته، الوضع الذي وجد عليه البلاد، مساعيه لإقرار الوحدة الوطنية، تنظيم المالية، علائقه مع الدول الأجنبية، مع الدولة العثمانية، تقوية الجيش، الاهتمام بالعمران، أعمال الإصلاح، في ميدان السياسة الإسلامية، في ميدان العدل، في ميدان العلم، وفاته، شعر في مدحه.

في تاريخ المغرب على اختلاف الدول التي تعاقبت عليه، ملوك لم يقتصروا على حكم البلاد وضبط أطرافها والدفاع عن حوزتها ونصب ميزان العدل بين الرعية وبسط الأمن وتعميم الرخاء، مما هو مهمة الملوك ومناط بيعتهم، ولكنهم تميزوا فوق ذلك بأفكار عبقرية ومبادرات إصلاحية عظيمة الأثر في تطور المجتمع وحياة الأمة.

ومن هؤلاء الملوك في الدولة العلوية الشريفة السلطان العظيم سيدي محمد بن عبدالله. إنه كان مفكراً حراً، ومصلحاً اجتماعياً ودينياً، وداعياً من دعاة الوحدة الإسلامية،

فضلاً عن كونه ملكاً اضطلع بسياسة البلاد وقيادتها نحو التقدم والازدهار، فكان النجاح حليفه في كل أعماله ومآثره.

وهو السلطان محمد الثالث ابن السلطان عبدالله ابن السلطان إسماعيل ابن الشريف ابن علي العلوي الحسني، فقد تولى قبله من أسرته ممن اسمه محمد: اثنان؛ الأول: محمد بن الشريف، والثاني: عمه محمد بن إسماعيل المعروف بابن عربيّة.

وكانت ولادته بمكناس عاصمة جده مولاي إسماعيل سنة ١١٣٤ فنشأ في حضن الصيانة والدين، وربّي تربية الملوك برعاية جدته السيدة خناثة بنت بكّار والدة أبيه، وناهيك بها عقلاً ونبلاً وعلماً وفضلاً، وقد صحبها في رحلتها إلى الحج سنة ١١٤٣ وهو ابن عشر سنين، وكانت رحلتها هذه حديث الركبان بما أضفى عليها ولدها السلطان مولاي عبدالله من العناية وهيّأه لها من أسباب الراحة، فمن أخبية عظيمة وأمتعة رفيعة وهدايا وأموال طائلة، إلى عبيد وحشم وحراس شداد فضلاً عن ركب الحاج المغربي الذي سار في معيّتها وكانت تقتبل رسمياً من ولاة البلاد والأقاليم التي تمر بها ويلغ ما زوّدها به ولدها السلطان من المال الناضّ بقصد العطايا والهبات لأهل الحرمين الشريفين مائة ألف دينار، ومما لا شك فيه أن هذه الرحلة فتحت أعين الأمير الشاب على أشياء كثيرة ما كان ليعرفها لولاها. وأثرت في نفسه تأثيراً بليغاً ظهرت آثاره أيام ولايته وتقلده

لمنصب الحكم بحيث جعلته يرى في البلاد الإسلامية وطنَه الكبير الذي لن يكون المغرب إلا جزءاً منه، يتقاسمُ وإيّاه السعادة والشقاء والخير والشر، وهذا إلى الدروس العلمية التي كان يتلقاها عن أساتذةٍ أكفاء رتبهم له والده منذ حداثته وما كان يخلو مجلسه من واحد منهم حتى بقي ذلك ديدنه وعادته في مصاحبة العلماء ومجالستهم طوال حياته.

ولما صلُب عوده واكتمل شبابه استخلفه والده على مدينة مراكش سنة ١١٥٩، وكان له من العمر حينئذ خمس وعشرون سنة، فأظهر من حسن السياسة وكمال النجدة، وجوْدة الرأي والمعرفة بتدبير الأمور، ما هو جدير بمَن نشأ نشأته وتربّى تربيته، وكان ما مرّ على مراكش من الأحداث والفِتَن قد خرّب عُمرانها، وغيّر معالمها، فجَدّ واجتهد في تجديد مغانيها، وإحياء مآثرها، وامتدّ نظره إلى نواحيها فضبطها وساسها بحكمة وبصيرة مما جعل الأنظار تتشوف إليه والآمال تتعلق به، وهكذا أراد دعاةُ الفوضى والذين ألفُوا أن يصطادوا في الماء العَكِر من جيش العبيد والقبائل المشاغبة تمثيل الدور الذي طالما مثّلوه مع غيره ببيعته وإظهار النزوع إليه، والخروج على والده، فأبى ذلك وامتنع عليهم، وتَرضّاهم وتوسّط لهم مع والده حتى عادت المياه إلى مجاريها، وحُسِم الداءُ على يده، وعُدّ ذلك من تمام عقله واستقامته.

فلما توفي والده سنة ١١٧١، كانت سمعته قد طبّقتْ أرجاء المغرب فلم يتلكّأ أحد عن مبايعته، ومَن لم يطعه رغبةً أطاعه رهبةً، والحق أن الناس كانوا قد سئموا حياة

الهَرْج والفتن وأعياهم الخوف واضطراب حبل الأمن، فمنذ وفاة السلطان مولاي إسماعيل والفوضى ضاربة أطنابها على المغرب، بسبب تنازع أبنائه على المُلك وانقسام الرعية على نفسها بداعي مناصرة هذا الأمير أو ذاك، حتى انهار صرح تلك المملكة العظيمة التي شادها مولاي إسماعيل بهمّته وعزيمته في ظرف خمسين سنة أو تزيد من ولايته، فما إن وجد المقتضي لجلوس سيدي محمد بن عبدالله على العرش حتى أجمعت كلمة أهل الحل والعقد من العلماء والأشراف وكبار القوم على تقديمه لذلك والدخول في طاعته، وقصْر النظر عليه، وصرفه عمن سواه.

***

ويويع أولاً بمراكش ثم حمَل إليه أهل فاس بيعتهم، وما لبث أن شخَص إلى فاس فقطع المغرب من جنوبه إلى شماله، ثم عرّج على الثغور متفقداً أحوالها، ورأى أن التركة التي آلت إليه ليس من السهل الاستحواذ عليها ولا الاحتفاظ بها، فالحِمْلُ إذنْ ثقيل والمهمة من أصعب ما يكون، ولكنّ الرجال ذوي العزائم لا تقف في وجههم العقبات ولا تثنيهم الصعاب عن مرادهم، فشمّر عن ساعده ووطّن نفسه على الاضطلاع بمسؤوليته مهما يكن الأمر.

***

وكان يُعْوِزُه المال وكانت عدّةُ مناطق في الجنوب والشمال والوسط تتمتع باستقلال ذاتي، ولا تخضع للسلطة العليا إلا اسْمِياً، وكان جيش العبيد الذي ألّفَهُ جده السلطان

إسماعيل جعل منه قوة عتيدة لحماية البلاد والدفاع عن وحدتها قد آل إلى عصابات شريرة تتلاعب بمصير المملكة ومقدَّراتها وكذلك كثير من القبائل الأطْلَسِيّة ذات العصبية والمنعة استحالت إلى عناصر مشاغبة وجموع متمردة على الدولة، وقُلْ مثل ذلك في بقية الأجناس الذين تتكون منهم الحاميات الدائمة للسلطة أمثال الْوَدايا والعَرَب وغيرهم.

فلم يزل يقلّمُ أظفار أهل البغي والفساد، ويضرب على أيدي الخوارج والعابثين بأمن البلاد، حتى استقامت له قناتهم ولانت صفاتهم، وكان يُزاوِجُ بين الشدة واللين، في عقاب المتمردين إلا إذا كثر شرّهم واستَشْرى داؤهم وظهر تعدّيهم على الرعية وتطاولهم على الضعفاء فإنه حينئذٍ يضربهم الضربة القاضية ولا تأخذه بهم رأفة ولا رحمة، وهكذا وبعد مطاولةٍ وامتحان شديدين استكان جيش العبيد إلى الخضوع والطاعة ولم تعد نفس الودايا تحدّثُهم بالعبث والطغيان، وعاد إلى حظيرة الوطن كلّ من مدينة سَلاَ وتِطْوان وطَنْجة وإقليم سُوس التي كانت تستبد بها سلطات محلية وتحاول أن تجعلها تعيش خارج الوحدة الوطنية.

إن الجهود التي بذلها السلطان سيدي محمد بن عبدالله في إعادة الوحدة الوطنية إلى نصابها وسيادة السلطة الشرعية على البلاد جهود كبيرة وشاقة، لم تَخْلُ من العنف والتضحيات، ولكنها كانت لازمة وضرورية للحفاظ على كرامة الوطن وأمن السكان وسُمْعة الدولة في الداخل الخارج، وكل ما بُذِل فيها من نفوس ونفيس يرخص أمام ما كانت تتعرض له البلاد من حروب داخلية ومصير

مجهول، لا سيما والأفراد والجماعات الذين كانوا يثيرون تلك الفتن ويُؤرّثون نارَ هاتيك المِحَن فيذهبون ضحيتها، ما هم إلا طائفة من المغامرين أهل الحرابة الذين حكم الشرع فيهم بما حكم، فلو لم تُستأصل شأفتهم وتُجتثّ جُرثومتهم لما عرفت البلاد استقراراً ولا ذاق الشعب طعْم راحة.

واقترنت عمليات إقرار السلم وتأديب العصاة بمدة ولاية السلطان فإنه ما كان يرقع خرقاً حتى يجدَ نفسه أمام خَرْق آخر، ونحن لم نذكرها على حسب الوقوع وتاريخ حدوثها لأننا في هذه الترجمة إنما نعنى بالنتائج التي تبرزُ شخصية المترجم، وأما اليوميات أو الحوْليّات وتسلْسلُ الحوادث فإن مكانها التاريخ العام وهي لا تهمّ القارئ بقدر ما تهمّه النتائج المذكورة.

وشخصية السلطان القوية وحُسن تدبيره كان لهما الأثر الفعّال في توفير المال اللازم للدولة وتنمية موارد البلاد حتى أصبح المغرب يرفل في حُلل الرفاهية والعيش الرغيد، وأول ما ظهر من حزمه في ذلك أنه عند شخوصه لفاس بإثر مبايعته وقف على متخلف والده من ناطِقٍ وصامِتٍ، منقولٍ وثابتٍ، وسلاح وخيْل وغير ذلك، فأحصاه وجعله إلى نظر حاجبه، وكان والده من شدّة احتياطه على مال الدولة ونظراً لظروف الهرج التي كان يعيش فيها، يحمل ما لديه من مال ناضّ على ظهور الدواب ويسير به معه أينما سار، وكان الموَكّلون به كلما نزل الجيش وضربت الأخْبية، يرفعون ما معهم إلى سرادق السلطان، فيكون بيتُ مالِ الدولة في حمايته وتحت الحراسة التي تحرس السلطان نفسه.

وقد تسلّم سيدي محمد بن عبدالله هذا المَصْرِف المُتنقّل من الوَزَعَة الذين كان في كفالتهم، وكان به ألف خُرْج، في كل واحد منها ألفَا دينار ذهب بالتثنية، ومائة رَحًى من الذهب الخالص كقُرْصِ الشمع في كل رَحًى وزنُ أربعة آلاف ريال، إلى ثلاثمائة ألف ريال أخرى مَسْكُوكة، كل ذلك أدّاه أولئك الوزعة بمنتهى الأمانة متأثرين بشخصية السلطان القوية وقد كان من المحتمل جداً أن يتقاعدوا عليه أو على بعضه لو كان غيره هو المطالب به، كما وقع فعلاً فضاعت ثرْواتٌ عظيمة في فترة التنازع بين أولاد السلطان مولاي إسماعيل.

ثم إنه تقدم بضبط مداخيل الدولة، ولمّا رأى أنها ضئيلة لا تكفي لمتطلبات الحكم والنهوض بالبلاد أحضر العلماء وشاورهم في ذلك، فأفتوا بجواز فرض بعض الضرائب على الرعية لتقوية الجيش ونشر العمران وكان ذلك من حسن تدبيره، إذ لو أقدم على هذا الأمر قبل أخذ موافقة العلماء لكثُر القيل والقال ولزعم بعضهم أن ذلك من المكس المُحرّم، ولما استقام له عمل، وبسبب ذلك نمتْ مداخيل الدولة وتحسّن الوضع المالي للحكومة وأصبح بمقدورها مواجهة المطالب العديدة التي تقتضيها مشروعات التجهيز والتنظيم المقترحة من قبل السلطان.

ونظر في التجارة الخارجية تصديراً وإيراداً بعين المصلحة العامة كما فعل من قبل في آسفي لمّا كان خليفةً لوالده على مراكش، فسرّح الوَسْق من مراسي المغرب إلى أقطار أوروبا وشجّع التجار الأجانب على التعامل مع

المغرب وإقامة وكالاتٍ لهم بمختلف المدن الداخلية والعواصم، فازدهر هذا القطاع من اقتصاديات الوطن وأدَرَّ على الحكومة والسكان خيراً كثيراً.

ودعاه ذلك إلى عقد معاهدات دَوْلية لتنظيم العلاقات بين المغرب ومختلف البلاد وخصوصاً الأوروبية منها، وقد ذكر النقيب مولاي عبدالرحمٰن بن زيدان في ترجمته من تاريخ مكناس تفاصيل مهمة عن علائقه السياسية مع كل من فرنسا والسويد والدانمارك والبرتغال وإسبانيا ومالطا ونابولي فضلاً عن الدولة العثمانية، وأورد نصوص بعض المعاهدات التي عقدها مع هذه الدول، وهي تقوم أساساً على التبادل التجاري واستيراد المُعدَّات الحربية والذخيرة والأدوات التي يستعين بها على تنمية الأسطول المغربي وما إلى ذلك، وكانت هذه المعاهدات في بعض الأحيان تنصّ على إلغاء بعض الامتيازات التي حصلت عليها إحدى هذه الدول في فترة الضعف كما نبّه على ذلك المؤرخ الناصري في الاستقصا بخصوص معاهدة الدانمارك، وفي أحيان أخرى قد تُؤسّسُ امتيازاً جديداً كما في المعاهدة الفرنسية التي انتقدها المؤرخ المذكور، وإن مال أخيراً إلى اعتبار ذلك من مُرُونة الديبلوماسية المغربية.

واشتهر من سياسته الخارجية أنه كان أول مَن اعترف باستقلال الولايات المتحدة الأمريكية، وهذا نُزوعٌ منه إلى مقاومة الاستعمار ومناصرة حرية الشعوب، وبذلك استوجب أن تفكر هذه الدولة العظيمة في إقامة نصب تذكاري له في عاصمتها واشنطون، وتدلُّ رسالةُ الرئيس واشنطون التي

أجاب بها السلطان على أثر الاعتراف المذكور أن المغرب كان يحظى بتقدير كبير في الأوساط الدولية نظراً لقوته وتقدمه وسياسته السلمية الرشيدة.

ومن الغايات النبيلة التي كان يتوخاها في سياسته الخارجية بعد إقرار السلام وتنمية الاقتصاد الوطني، فَكَاكُ الأسْرَى الذين كانت تَعِجّ بهم بعضُ دول البحر الأبيض المتوسط نتيجةً لنشاط حركة القُرْصَان وخَرْق قانون حرية الملاحة في حوض هذا البحر من لدن عصابات المغامرين الدّوْليين، فقد بلغ عدد ما افتداه من الأسرى المغاربة والجزائريين والأتراك أو تسبب في فدائهم ما يناهز ٥٠,٠٠٠ أسير، بعث في ذلك السفارات المهمة إلى إسبانيا مراراً وإلى مالطا، ونابولي وغيرها، وأنفق فيه الأموال الطائلة حتى لم يبق أسيرٌ بيد أجنبي في هذه الدول، ومما كتبه في هذا الصدد إلى ملك إسبانيا: «إنه لا يسعنا في ديننا إهمالُ الأسرى وتركهم في يد الأسْر، ولا حُجَّة في التغافل عنهم لمن ولاه الله الأمر، وفيما نظن أنه لا يسَعُكم ذلك في دينكم أيضاً» وهذه روح عالية وإنسانية رفيعة كانت تُلْقي الدروس القوْلية والعملية في الحرية والحضارة لدول أوروبا آنذاك، وما بالعَهْد من قِدَم.

وإذا كانت هذه هي علائقه السياسية مع مختلف الدول، فإن علاقته مع دولة الخلافة العثمانية تكتسي صبغة الود والصداقة والتأييد المستمر بحيث يسالم مَن سالمها ويُحارب مَن حاربها حتى ليُمْكِنُ عدّ البلدين بلداً واحداً والدولتين كذلك دولة واحدة في التآزر والتعاضد، ولقد كان

وُلاة الجزائر كثيراً ما يُثيرونه بتصرّفاتهم غير الودية فلا يزيد على أن يشكوهم إلى الخليفة العثماني الذي كان يكبح من جِمَاحهم ويأمرهم أن يعاملوا السلطان بما يعاملونه هو من التعظيم والاحترام، وكانت الرسل والسفارات لا تفتأ تتردد بينه وبين عاصمة الخلافة الإسلامية مصحوبة بالهدايا والتحف والمساعدات المالية بالمبالغ الضخمة وخصوصاً في أثناء حروب الدولة العلية، وبالمثل كان خلفاء إسطنبول يمدونه بالمعونة الفنية والمادية في مشاريعه الحربية وبناء أسطوله مما هو مبين في التواريخ العامَّة ورِحلات سُفرائه، وبلغ من تضامنه مع دولة العثمانيين أنه لم يقبل سفير روسيا في بلاده ولم يُقِم علاقات سياسية مع قياصرة موسكو إذ كانوا في حرب دائمة مع الأتراك.

والغاية في هذا الباب أنه كان ذات مرة في جوْلة من جوْلاته بالمملكة فأدركه عيد الأضحى في الطريق فصلَّى صلاة العيد وخطب في الناس بنفسه ودعا للخليفة عبدالحميد الأول، حيث كان الخطباء يدعون له بالنصر والتأييد، فكان ذلك إيذاناً بأن الدولة واحدة وأن التضامن الإسلامي حقيقة لا تقبل التشكيك.

وفي هذا الإطار قامت المُصاهَرة بينه وبين الشريف سرور أمير مكة في كريمته التي زَفَّها إلى الشريف المذكور في موكب عظيم بصحبة ولديه الأميرين مولاي علي وشقيقه مولاي عبدالسلام ومرافقة ركب الحاج المغربي، وأرسل معهما هدايا لأمير طرابلس وأمير مصر والشام ولأهل الحرمين الشريفين من أشراف وعلماء، وذوي الحيثيات

المختلفة، وكانت هذه المصاهرة حدثاً تاريخياً ومظاهرة كبرى على صعيد الجامعة الإسلامية ووحدة بلاد الخلافة.

وظهرت نتيجة العمل الجدي الذي لم يفتأ يقوم به لتقوية الجيش وتجهيزه بالمعدّات الحربية اللازمة وإحياء الأسطول الحربي وتنميته، في الحملة التي شنّها على مدينة الجديدة براً وبحراً والحصار الذي ضربه عليها حتى استسلمت وردّها إلى حظيرة الوطن بالقوة، بعد أن كان مَيْؤوساً منها، وكانت بيد البرتغال منذ عهد بعيد ولم يتأتّ لجده السلطان مولاي إسماعيل استرجاعها في جُمْلة ما استرجعه من المدن الإسلامية التي كان الأجانب قد احتلوها في فترات الضعف التي مرّت على المغرب.

كما ظهرت نتيجة اهتمامه بتنظيم المالية وتنمية موارد الدولة، في الأعمال العمرانية التي قام بها في مختلف أنحاء المغرب، وأعظمها بناءُ مدينة الصّويرة التي جعلها ميناءً لعاصمة مراكش على المحيط الأطلسي، وقد تخيَّر موقعها واختطها بحيث جاءت مَرْفأً طبيعياً للسفن سالماً من الآفات، فنشطت بها الحركة التجارية والمواصلات البحرية حتى عطلت ثغر أكادير ومرساه الذي كان الثوار يتداولونه ويسرحون منه وسْقَ السّلَع افتياتاً على الدولة، وهذا إلى ما عمَّرها به من البنايات العامة كالحصون والمساجد والأسواق ومختلف المرافق، فلم تلبث أن صارت من مدن المغرب الحافلة بالسكان والدور والقصور والبساتين والرياض وسائر المنشآت التي تتقرّى بها القرى وتتحضَّرُ الحواضر.

وأما عاصمة مراكش فمنذ كان بها خليفة عن والده

وهو يجدد معالمها ويحيي مآثرها وقد بنى بها من المساجد والمدارس والمشاهد والحمامات والقصور والحصون والأبراج الشيء الكثير ومثلها رباط الفتح عاصمة المغرب اليوم وسَلا ومَكْناس وفاس وطنجة والعرائش وتازة والدار البيضاء وغيرها، فكلها له فيها مآثر خالدة من مساجد ومدارس وأبراج وقناطر وتحصينات دفاعية عظيمة لا سيما المدن الساحلية منها وتتبُّع ذلك يطول.

على أن عظمة السلطان سيدي محمد بن عبدالله لا تظهر في هذه الأعمال بقَدْر ما تظهر في مبادراته الإصلاحية في حقل التعليم والعدل والشؤون الاجتماعية بِعَامَّة.

إن صيانة الملك لمملكته وقَمْعَ الثوار وتنمية المداخيل المالية ونشر العمران، كل ذلك من طبيعة عمله السياسي وتدبير ملكه، فالملك الذي لا يضطلع بهذه الأمور يكون فاشلاً، بل لا يكون فيه من معنى الملك شيء، فأما إذا تجاوز ذلك إلى التفكير في النهوض بالمجتمع ورفْع مستوى شعبه المادي والمعنوي وضمان الحياة الكريمة له، فإنَّ هذا يكون ملكاً عبقرياً تصلح به رعيته وتتقدم بلاده وتنال الإنسانية على يده خيراً كثيراً، وقد كان محمد بن عبدالله العلوي من هذا الطِّراز من الملوك.

وتتوزع مخطَّطاتُه الإصلاحية بين ثلاثة ميادين:

الأول: ميدان السياسة الإسلامية التي هي بحاجة دائماً إلى توحيد صف المسلمين وتحديد هدفهم لئلا يطمع فيهم عدوهم أو يزيغوا عن طريق العمل لإعلاء كلمة الله، وخاصة

بعد أن انتثر عقد الخلافة الإسلامية واستقلّ كثيرٌ من الأقاليم فأصبح بعضها يناوئ بعضاً.

وإن العمل الذي قام به سيدي محمد بن عبدالله في هذا السبيل والخطة الحكيمة التي سلكها لتوحيد الكلمة في العالم الإسلامي على عهده لممّا يبعث على الإعجاب ويجعلنا نجثو مطأطئي الرؤوس أمام شخصيته الكبيرة التي ارتفعت بالتواضع واعتزت بنُكْران الذات من حيث يريد آخرون أن يرتفعوا بالكبرياء ويتعزّزُوا بالأنانية فلا يزيدهم ذلك إلا حقارةً وذلاً، ولقد رأينا كيف كان على صلة دائمة بدولة الخلافة العثمانية يتودد إليها ويصلها ويناصرها ويعادي من عاداها وكيف كان يخطب ودّ أمراء المسلمين في الشرق والغرب حتى صاهر أمير مكة على ابنته وكيف أنه لم يُسْلِسْ قَطّ الحبْلَ للخلافات التي كانت تنشأ بينه وبين ولاة الجزائر، وحين كان يتعذر عليه الأمر يلجأ إلى الخليفة العثماني طالباً تدخله حتى ينتهي أمر الخلاف بسلام... وأخيراً فقد رأينا كيف خطب هو نفسه باسم الخليفة العثماني عبدالحميد الأول، فكان ذلك بمثابة المبايعة له مع أنه لم تُلجِئْه إلى ذلك ضرورة، اللهم إلاّ رغبته في وحدة بلاد الإسلام، والقضاء على جميع أسباب الخلاف بين أئمة المسلمين، وهذا الفعل شبيه بما فعله يوسف بن تاشفين الذي بايع للخليفة العباسي مع استغنائه عنه وقوة سلطانه الذي لا يقاس به سلطان الخليفة الضعيف المضروب على يده. فهما حادثان فريدان في تاريخ الإسلام ولو أن السياسة العليا للمسلمين سارت على هذا المنوال لكان واقع المسلمين اليوم غير ما هو.

الثاني: ميدان العدل، فلقد اهتمّ بمسألة الأحكام القضائية والقوانين الفقهية، وكانت التفريعات والنظريات المذهبية قد طغت على أقوال الفقهاء ومداركهم في الفتوى والتشريع، فتشعَّبت بذلك الدعاوى وضاعت الحقوق، ومرجَ أمر القضاء والتوثيق ما بين الانسياق في حبْل الخلافات الفقهية والأقوال الضعيفة وبين التلاعب بالمساطر والعقود ولم يكن الفقهاء ليدركوا خطر ذلك على اختلال ميزان العدل وتعطيل الشريعة الإسلامية التي جاءت بالحق والقسطاس لأنهم يعتقدون أنَّ عملهم هو في صميم القواعد والنصوص، فلم يكن من السلطان سيدي محمد بن عبدالله إلا أن يردَّهم إلى الصواب ويصدر تعليماته بوجوب التزام الجادَّة والأخذ بلبِّ الفقه وعدم الميْل مع الشذوذ والمذاهب المرجوحة ومنْع الفتوى من كتب المتأخرين التي لا سند لها إلا تمحُّلات المتفقّهة وأبحاث المتنطعين، ونصَّ بالخصوص على كتب الأجاهرة أعني الشيخ علي الأجْهوري من متأخري فقهاء مصر وتلامذته كالزرقاني والخرْشي، وكانت هذه الكتب تحظى بتقدير كبير من علماء المغرب، فمنع الرجوع إليها والاعتماد عليها إلا فيما وافق قول العلماء الأقدمين، وهدَّد المخالف بالعقاب الصارم سواء كان مفتياً أو قاضياً، وكذا شدَّد على العدول والموثّقين في تحرير الشهادات والتحرّي فيها ما أمكن، وأمر بعدم الأخذ بشهاداتهم في كثير من المسائل التي تلوح عليها إمارات البطلان ويحوم حولها الشك إلا أن تكون تُلُقّيتْ بمحْضر القاضي وموافقته، لما كان يظهر على الشهود من الاستهتار بحقوق الناس

والمقايضة عليها حتى قيل: إنه أمر بأن يكتب في سِمَاط العدول[1] بالخطّ العريض حيث يرى ذلك كل الناس، هذا البيت:

لقد طلَبْتَ هَيّناً موْجُوداً أبُـهُـتـاً تُـريـد أم فُـنُـودا

وكلّ ذلك كان زجراً لهم وتقويماً لاعْوجَاجهم وأخذاً للبريء بتهمة المجرم كي يستقيموا جميعاً على الطريقة ويؤدُّوا الشهادة على وجهها.

ولقد كان له في هذا الباب اختيارات وأنظار تقوم على الاحتياط لحقوق الناس وإقامة ميزان العدل بينهم، ولا سيما في الأحوال الشخصية كعقد الزواج بالفاتحة وعدم الحكم بالطلاق إلا بعد التحرّي من وقوعه فعلاً مما يهدف إلى صيانة العلاقة الزوجية من التلاعب والمحافظة على بناء الأسرة من الانهيار، وهذه التقنينات حَرِيَّةٌ أن تُخصَّ بالدراسة، وتناوُلُها هنا مما يضيق عنه المقام.

الثالث: ميدان التعليم، وكلنا يعلم ما كانت عليه الحياة العلمية في بلاد الإسلام عموماً على عهد السلطان من الضعف والركود، وما ذلك إلا للارتكاس الذي أصاب طرق التعليم ومناهجه والجمود على المخلفات سواء كانت نافعة أم ضارّة بحيث لا يفكر أحد في التطور الذي حصل في العالم في ميادين الصناعة والفنون ولا يحاول أحد أن يأتي بجديد يُلقّحُ به القديم، فيصل الحاضر بالماضي الذي كان

(١) يطلق سماط العدول في المغرب، ويراد به الشارع الذي يحتوي مكاتبهم.

يزخر بالعبقريات المنتجة والمبتكرة في كل مجال، وفكر السلطان في علاج هذا الوضع، وعلاجه هو علاج القرويين التي كانت الجامعة الوحيدة في بلاده والمركز المختص بتكوين العلماء والهيمنة على شؤون الفكر باختلاف مناحيه. وكانت الخطوة التي خطاها في هذا الباب هي وضع منهاج جديد للدراسة في القرويين وسائر المعاهد التابعة لها، ألزمَ به العلماءَ والمدرّسين وتوعّد على مخالفته، فكان أول تنظيم رسمي للدراسة في هذه الجامعة الإسلامية الكبرى وربما سبق كل تنظيم آخر من نوعه في أية جامعة إسلامية أخرى.

ويتلخص هذا المنهاج في الأمر بإحياء الدراسات الأصلية من الكتاب والسنّة وعدم الاعتماد في الدراسات الفقهية إلاّ على كتب الأقدمين مثل المدونة لابن القاسم والبيان والتحصيل لابن رشد وغيرهما، وترْك دراسة المختصرات وكتب المتأخرين كمختصر الشيخ خليل الجُنْدي المصري وشروحه للأجاهرة الذين نهى عن الاعتماد عليهم في الأحكام والفتوى على ما سبق. وكان هذا المختصر قد استأثر باهتمام الأساتذة والطلبة على السواء وقصروا نظرهم عليه وعلى شروحه المذكورة حتى لم يبقَ لهم التفات إلى كتب الأمهات، ولا إلى كتب الحديث والتفسير إلا نادراً جداً. وهذا فضلاً عن أنهم يستغرقون السنين الطوال في دراسته ولا يتأتّى للطالب أن يَمُرَّ فيه كلّه ويختمه ولو مرة واحدة إلا إذا لفّق بين دروس عدد من العلماء التي يُلقُونها حوْلَه، وذلك من كثرة الأبحاث اللفظية والمماحكات القليلة الجدوى، فأمر مَن يريد أن يُدرّسهُ أن لا يستعمل إلا

شروحه المبسوطة المحرَّرة كشرح الحطّاب والموّاق وأن يختمه في أقرب وقت ممكن، وكذا أمر بالحرص على ختم الكتب المقررة في بقية العلوم من نحو ولغة وبلاغة وأدب، وعيَّن كتبها المفضَّلة وحدَّد زمن قراءتها، وفي علم الكلام نهى عن تدريس كتب الأشاعرة والأخذ بمذهبهم وحض على مذهب السلف وعقيدتهم، وأمر في ذلك بالاقتصار على عقيدة ابن أبي زَيْد القَيْرواني الواردة في رسالته المشهورة، وهدد المخالف بالعقاب كما حظرَ الاشتغال بكتب الفلسفة والمنطق والتصوف ولم يُجوّز لأحد أن يتدارس هذه العلوم إلا في بَيْته.

ومن المهم معرفته أن السلطان محمد بن عبدالله كان له ميل شديد إلى مذهب أهل الحديث والعمل بالسنّة فقهاً واعتقاداً وهو في ذلك شبيه بيعقوب المنصور الموحدي إلا أنه لم يغلُ غلوّ يعقوب فيأمر بحرق كتبَ الفقه، وسمّى مسجده العظيم الذي بناه بالرباط **جامع السنّة** وهو لا يزال يحمل هذا الاسم وكان له مجلس من أهل العلم يسردون له كتب الحديث ويخوضون في معانيها ويؤلفون له ما يستخرجه منها على مقتضى إشارته، فمن مؤلفاته كتاب «الفتوحات الإلٰهية في أحاديث خير البرية» مجلد جمع فيه ما اتفق عليه الأئمة أبو حنيفة والشافعي وأحمد والبخاري ومسلم ومالك، ثم ما اتفق عليه أكثرهم إلى أن ينفردوا، ومنها كتاب «الجامع الصحيح الأسانيد المستخرَج من ستة مسانيد»، وهي المذكورة قبله رتّبه على أبواب الفقه، ومنها «اختصار شرح الحطاب على مختصر خليل»، وهذه الكتب

تدل على علو همّته، وعظيم شغفه بالحديث النبوي وتمسُّكه بالسنة، وذلك هو ما يُفسّر لنا قِلَّةَ احتفاله بالعلوم العقلية والتصوف حتى استبعدها عن منهاجه وأمر أن لا تدرس في القرويين والمعاهد العلمية الأخرى، متأثراً بما عرف من عزوف علماء الحديث وأهل الأثر عموماً عن هذه العلوم وتحذيرهم من الاشتغال بها.

وعلى كل حال فالمنهاج وإن لم يُدخِلْ عِلْماً جديداً في الدراسات القروية بل استبعد بعض ما كان موجوداً فيها، فإنه كان محاولة لتجديد أساليب التعليم وإحياء التراث الإسلامي وطيّ مراحل التحصيل التي كانت تستنفد الأعمار من غير كبير فائدة، ويا ليته استمر العمل به وجُدّد من حين لآخر، إذن لكان آتى أُكُلَه وأعطى نتائجه، ولكن العلماء كانوا غير مؤمنين به فلم يخلصوا في تطبيقه، وما إن توفي السلطان وخلفه مَن خلفه حتى أذِن لهم بالرجوع إلى ما كانوا عليه، وكلٌّ يعمل على شاكلته.

لقد نجح السلطان سيدي محمد بن عبدالله في كل ما قام به من منجزات وأعمال لصالح الدين والوطن لأنه كان ذا فكر عبقري وهمّة عالية وكان في جميع أعماله يحدوه الإخلاص والنصح للرعية فأتمّ الله عليه نعمته بالتوفيق والتسديد، والشيء الوحيد الذي لم يسرْ حسب رغبته هو مخالفة ولده مولاي اليزيد عن نهجه في السياسة والإصلاح، ولذلك فإنه لما توفي بعده لم يُبْق على ما بناه والده وتضعضع كيان الدولة من جديد بعدما كان قد أرساه هذا السلطان المصلح على قواعد راسخة.

وتوفي سيدي محمد بن عبدالله في طريقه إلى الشَّمال بقصد استصلاح حال ابنه اليزيد، وكان عند خروجه من مراكش قد أصابه مرض خفيف، فتحمّل المشقة وجدّ في السير فغلبه المرض وتوفي بالقرب من رباط الفتح في ٢٤ رجب ١٢٠٤ فحُمِل إلى الرباط ودُفن بها في داخل قصره المعروف، رحمه الله، وقد كان له من العمر حين توفي سبعون سنة وقضى في الملك ثلاثاً وثلاثين سنة.

ومما مُدِح به قول صاحب الشمَقْمَقِيَّة:

مُـذْ كـان طـفـلاً والـسـمـاحُ دأبُـه
وغـيـرَ مـأخِـذ الـثـنـا لـم يـعـشَـق
نـشـأ فـي حـجـر الـخـلافـة ومُـذ
شـبَّ فـتًـى بـغـيـرهـا لـم يـغْـلَـق
فـبـايـعـتـه الـنـاس طـرًّا دفـعـةً
لـم يـكُ فـيـهـا أحـدٌ بـالأسـبـق
وأُعـطـيـت قـوس الـعُـلا مَـن قـد بـرى
أعـوادَهـا رعـايـة لـلألـيـق
فـصـار فَـيْءُ الـعـدل فـي زمـانـه
مـنـتـشـراً مـثـل انـتـشـار الـشـرَق
وشـاد ركـنَ الـديـن بـالـسـيـف وقـد
حـاز بـتـقـواه رضـى الـمـوفّـق
وقـد رقَـى فـي مُـلـكـه مـعـارجـاً
لـم يـكُ غـيـره إلـيـهـا يـرتـقـي

محمد الخامس
(ت ١٣٨٠ هـ)

نشأته وتكوينه، الظروف والملابسات التي صاحبت مبايعته، ثورته على التقاليد والمراسيم البالية، التلاحم بينه وبين الشعب والحركة الوطنية، عيد العرش، مغزاه، رحلته التاريخية إلى طنجة، تحدِّيه للإدارة الفرنسية، التوتر بينه وبين الإقامة العامة، المؤامرات الاستعمارية عليه، نفيه، ثورة الشعب، تنظيم المقاومة، عودته من المنفى، إعلان الاستقلال، صفاته وأخلاقه، وفاته.

تعترض الأمم والشعوب في طريقها إلى التقدم والغد الأفضل عقبات وأخطار ترجع بها إلى الوراء، وربما تحكمت في مصيرها بما لا تُحمد عقباه. ولكن العناية الإلَهية تفيض لها من أبنائها منقذاً يمد لها يده، حين تكون قاب قوسين أو أدنى من الانهيار، ومن عجائب الأقدار أن يقترن وجود هذا المنقذ بالظرف الذي تحدث فيه الواقعة أو تسبقه بقليل، ليَنفُذ القضاء ثم يأتي اللطف الذي يصحبه.

وهذا ما وقع للمغرب الذي حافظ على استقلاله وحمى كيانه الدولي مدة ثلاثة عشر قرناً، برغم ما تعرض له

من هجمات صليبية عنيفة، وخاضه من حروب طويلة مع دول أجنبية كانت تطمع في قهره والاستيلاء عليه، إلى أن أمِرَ أمْرُ الاستعمار الأوروبي في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الميلاديين، واتفقت كلمتُه على احتلال البلاد الإسلامية، فسقطت الجزائر ثم تونس في يد فرنسا وليبيا في يد إيطاليا فضلاً عن تسلُّط إنكلترا على مصر، وتهديد الخلافة العثمانية ذاتها، وما بقي تحت حكمها من البلاد العربية، بالاكتساح، وهو ما وقع بعد الحرب العالمية الأولى.

هنالك لم يبقَ للمغرب خيار، وقد تكالبت عليه الدول الاستعمارية والدول السابحة في فلكها، فارتكب أخف الضررين وقَبل ما أسفر عنه مؤتمر الجزيرة الخضراء من الاستعانة بالخبرة الدولية في تنظيم شؤونه وتجديد دفاعه، مع الاعتراف بوحدة ترابه وسيادة سلطانه واستقلاله، ولكن الأمر آل إلى حماية فرنسية وإسبانية ودولية تقتسم جنوب المغرب وشماله ومدينة طنجة على ما هو معروف.

ومن الألطاف الخفية وصنع الله للمغرب أنه في الوقت الذي كانت قوى الشر والطغيان تأتمر به وتتآمر عليه، وقبل فرض الحماية الأجنبية والإعلان عنها سنة ١٩١٢م بسنة، أي: عام ١٣٢٩هـ الموافق سنة ١٩١١م، كان قد استهلّ بالقصر الملكي بفاس المولود السعيد الذي سيُطيح بنظام الحماية بعد انتصابه وترسيخ جذوره، ويعيد إلى البلاد حريتها واستقلالها فيحق في دهَاقنة الاستعمار ما قيل: يُدبِّر ابن آدم والقدر يضحك.

بل إن ما هو أغرب من ذلك أن يجهد المسؤولون في إدارة الحماية جُهدَهم ليؤخروا مَن كان مقدماً ويقدموا مَن كان مؤخراً، إمعاناً في التدبير لبقاء نفوذهم، فيكون تدميرهم في تدبيرهم، وتتكرر قصة آل فرعون في تبنِّيهم لموسى عليه السلام ليكون عدواً لهم وحزناً.

وغير خفي أن محمداً الخامس هو الابن الأصغر للسلطان يوسف بن الحسن الأول، وأن ولي العهد كان هو الابن الأكبر الأمير إدريس، إلا أن وفاة السلطان شبَه المفاجئة، سنة ١٩٢٧ جعلت ضباط الاستعلامات والرؤساء العسكريين يتمالؤون على تجاهل ولي العهد ويولون محمد الخامس لصغر سنّه، اعتقاداً منهم أنه سيكون لعبة في أيديهم يفعلون به ما يشاؤون. . . ولما اجتمع الملأ من الناس لمبايعة السلطان الجديد بالقصر الملكي بفاس، نادى المنادي: الله يرحم مولاي يوسف، الله ينصر سيدي محمد، فلم يملك قاضي الجماعة بفاس أن قال: وأين مولاي إدريس؟ فصاح به الصدر الأعظم: ليس هذا سوقك أيها الفقيه[(١)]، وكانت هذه الهفوة سبباً في فقد القاضي لمنصبه. وأبعد كذلك الحاجب السلطاني الذي كان الاستعمار يتضايق منه، كما كان الصدر الأعظم يشعر بالضعف أمامه.

ولكن هذه المناورات كانت ضداً على القائمين بها، وكان محمد الخامس غير ما ظنّوا، إنه كان هو ذلك المنقذ

---

(١) هذا ما يُعبِّر عنه المثل العربي القائل: (ليس العُش بعشك فادرجي).

الذي قيّضه الله لهذا الشعب فسعدت به البلاد والعباد على خلاف ما أراد العدو.

وجلس محمد الخامس على العرش والبلاد ترزح تحت عبء ثقيل من وطأة الاستعمار، وكان جلالته لا يزال في إقبال الشباب، وقد شعر بما ألقى عليه من مسؤولية عظمى، وما يلزمه من كفاح طويل لإنقاذ شرف أمته، فكان يبدو كئيباً حزيناً من كثرة التفكير في المستقبل والاهتمام بمصير شعبه. كما تعكس ذلك صُوَره في هذا العهد.

واجتهد في إتمام ثقافته وتكوين نفسه بما يلزم أن يكون عليه ملكه لأمة عظيمة ينتظرها مستقبل عظيم. وكانت عادة الملوك قبله أن لا يتّصلوا بالناس إلا لِماماً، وإذا اتصلوا بهم في إحدى المناسبات الرسمية لا يتكلمون، ولا يكون ذلك الاتصال إلا في غياهب القصور، وبحضور العدد العديد من الرؤساء والأعوان، وزاد الاستعمار في تكثيف هذا الحجاب «وتنظيمه» وفرض نفسه وإقحامها في جميع الاتصالات التي تقع بين جلالته والزوار الأجانب ولو كانوا من أعاظم الرجال، بحيث لم يرغم على التخلي عن هذه الوقاحة إلا في الاتصال الذي وقع بين جلالته والرئيس روزفلت في الدار البيضاء أثناء الحرب العالمية الثانية.

وكان جلالته يعمل على تحطيم هذه القيود شيئاً فشيئاً، فيتصل بالناس في مناسبة الأعياد وتقديم التهاني إليه من وفود الأقاليم وغيرهم، فيخاطبهم بالسؤال عن أحوالهم وسيرة الولاة فيهم. ويستقبل رجال الوطنية في قصره، في

أوقات مختلفة من ليل ونهار، ويجاذبهم أطراف الحديث في الأحوال العامة وسياسة البلاد. وصار يتخفف من تقاليد الاستقبالات الرسمية ويخاطب زائريه، كُلاً بما يناسب حاله، وما أتى من أجله.

وتطور الخطاب إلى خطب، وإلى تصريحات، ثم صارت الخطب خططاً للعمل وبرامج لبناء مستقبل الأمة. وفُتح الباب على مصراعيه واندمج الملك في شعبه، وتعلق الشعب بملكه، فلم يبقَ هناك مجال للتدخل ولا للرقابة.

وأكثر ما كان يتمثل ذلك في عيد العرش الذي يخلد يوم جلوس العاهل الكريم في ١٨ نونبر ١٩٢٧ على عرش المغرب.

والذي أُنشئ في الحقيقة للإعلان عن الذاتية المغربية والكيان السياسي للبلاد والتعبير عن الولاء للجالس على العرش رمز السيادة القومية والوحدة الترابية للوطن، ولذلك أنكره المستعمرون وقاوموه، واستخفُّوا بفكرة إنشائه وما ترمي إليه من معانٍ سامية كانوا يدّعون أنها قَصْر عليهم لا تتجاوزهم إلى غيرهم، ولكن الشعب الذي كان مؤمناً بنفسه اندفع في تأييدها وتحمّس لها بما فوق الظن، وكان اليوم المخصص للاحتفال واحداً فصار أياماً، وكان مقتصراً على العاصمة والمدن الكبرى فعمّ جميع المدن والقرى، وكانت الاستعدادات له تبدأ بأسبوع وأكثر، قبل حلوله، فتُقام معالم الزينة والأفراح والحفلات في الساحات العمومية والإدارات والجمعيات والمدارس وغيرها، بمشاركة جميع طبقات

السكان، وتُلقَى الخُطب في التنويه بالعرش، والمطالبة بحقوق الشعب، وتُرسل البرقيات إلى الديوان الملكي بالتهنئة والتأييد لجهود الملك الرامية إلى تقدم الوطن وتحرره، ويُلقي جلالته خطاب العرش الذي يتلقاه الشعب بحماس كبير، ويُصفق له من الأعماق، لما يتضمنه من استعراض لمراحل العمل الوطني التي وقع تجاوزها، وما يستقبل من مراحل أخرى تتطلب من الجميع أن يتجند لتحقيقها، مع الإهابة بإدارة الحماية لإنجاز قواعدها وتحقيق مطامح الشعب الذي كبر عن أن يتلهى بما يتلهى به الأطفال، والتأكيد على أن المغرب سائر في طريقه إلى الأمام لا يثنيه عن بلوغ آماله شيء، معتمداً بعد الله عزّ وجل على هِمَم أبنائه وتضحياتهم، في كلام من هذا المعنى يذكّي العزائم ويقوّي النفوس، فيكون بمثابة عهد جديد بين الراعي والرعية على مواصلة السعي طول السنة لما فيه خير البلاد والرفع من شأنها في جميع الميادين.

ويلقي جلالته هذا الخطاب بالقصر العامر في حفل يدعى إليه وجوه القوم والشخصيات الوطنية البارزة، والعمال والتجار والحرفيون من جميع أنحاء المغرب، إضافة إلى رجال الحكومة والسلك الديبلوماسي والمقيم العام ومساعديه من المدنيين والعسكريين وغيرهم، فيكون مظاهرة وطنية كبرى على الصعيد الرسمي تقر بها عيون، وتقذى أخرى.

وكانت رحلاته إلى الأقاليم وسيلة أخرى إلى الاتصال بجماهير الشعب، وتمتين روابط القادة الوطنيين والعاملين في كل حقل من حقول التوعية والنهضة والإصلاح، إذ كانت

تنظم فيها استقبالات حارة له، وترتفع الأصوات بالهتاف بحياته وحياة المغرب، وترتب لقاءات بينه وبين ممثلي مختلف الطبقات يستمع فيها إلى مطالبهم ويعرضون عليه مشاريعهم ذات المصلحة العامة، فيشجعهم عليها ويحصلون على تأييده ومعونته المادية والمعنوية، وكم ترفع عنهم من مظالم، ويكسبون من مناعة حين يتحدث إليهم بمحضر رجال السلطة ويعطي موافقته على ما يقدم إليه من برامج للعمل، ويوصي بالتعاون على تنفيذها وإزالة جميع العوائق التي تعترض طريقها إلى الإنجاز.

وكانت أعظم هذه الرحلات هي رحلته التاريخية إلى طنجة سنة ١٩٤٧، وربما يقال: وماذا في زيارة ملك لمدينة من مدن مملكته، ومن أمر يستحق أن يسجل في أحداث التاريخ ولكن القائل إذا علم أن المغرب يومها كان يخضع لحكم استعماري بغيض بنى سياسته على مبدأ فرّق تسُد، فقسم البلاد إلى ثلاث مناطق، وأقام الحدود والحدود التي لا يجوز المرور منها للمواطنين إلا بجواز سفر مختلف بعضه عن بعض وحتى الملك نفسه من عهد السلطان مولاي يوسف إلى عهده هو، لما كان يمر بطنجة في طريق سفره بحراً إلى الخارج، فإنه لم يكن يسوغ له أن ينزل إليها بحجة أنها منطقة دولية وإنما كان رعاياه من المغاربة المخلصين ومندوب جلالته فيها يصعدون إلى الباخرة للسلام عليه ويلوحون له بأيديهم ومناديلهم لتحيته من الشاطىء. إذا علم القائل هذا، عرف أهمية زيارة جلالته لطنجة ودخوله إليها دخولاً رسمياً واتصال رعيته فيها به وبوليّ عهده الأمير

مولاي الحسن وحكومته وباقي رجالات المغرب الذين حضروا معه، وذوي الحيثيات المختلفة، وكان جلهم ممنوعاً من دخول طنجة والحصول على جواز السفر الخاص بها.

لذلك فإن هذه الرحلة تعتبر ثورة على ذلك الوضع الجائر، وتحطيماً للحدود المصطنعة بين مناطق المغرب الثلاث وتجاوزاً للقوانين الاستعمارية التي كانت تحول بين العاهل المفدى والاتصال المباشر بشعبه في المنطقتين المفصولتين عن المغرب الكبير، منطقة طنجة والمنطقة الخليفية كما كانت تسمى آنذاك، وهي المشمولة بالحماية الإسبانية.

يضاف إلى هذا خطاب طنجة التاريخي الذي ألقاه جلالته في حدائق المندوبية السلطانية بحضور رجال الحكومة المغربية وسفراء الدول الأجنبية وسلطات الحماية والجماهير الغفيرة من المواطنين القادمين من جميع أنحاء المغرب، فضلاً عن سكان طنجة، وهو الخطاب الذي عبّر فيه عن تمسكه بحق بلاده في استرجاع حريتها والانطلاق من أسر التبعية الأجنبية بهذه الكلمات القوية:

«إذا كان ضياع الحق في سكوت أهله عنه، فما ضاع حق من ورائه طالب، وإن حق الأمة المغربية لا يضيع، فنحن بعون الله على حفظ كيان البلاد ساهرون، ولضمان مستقبلها الزاهر عاملون» ثم حيّا الجامعة العربية التي ظهرت في ذلك الحين كطوق نجاة للعرب، بما يلمح إلى ارتباط المغرب بها حالاً ومالاً.

وهكذا لم تقتصر زيارة طنجة على تخطي الحدود

الممنوعة والالتقاء بالشعب المحجوز فيها، بل طالبت برد الأمانة إلى أهلها وإعطاء الحق لأربابه الساهرين عليه، المتفانين في الدفاع عنه، وليس هو إلا الوحدة والتحرير من جميع القيود.

إن رحلة طنجة لم تتم إلا بعد مفاوضات سياسية واتصالات ديبلوماسية، وإزاحة كثير من الأشواك التي وُضِعت في طريقها والقضاء على عدد من المناورات التي دُبِّرت لإحباطها، لذلك فإنها كانت مرحلة من مراحل الكفاح الوطني في سبيل الوحدة والحرية والعزة والكرامة، وستظل سطراً ذهبياً في تاريخ المغرب المكافح بقيادة عاهله العظيم.

وقد كان لها رد فعل قوي في الأوساط السياسية والعسكرية بفرنسا. ومن أعظم ما أخذ على الخطاب الملكي هذه التحية المتعاطفة مع الجامعة العربية، في حين أن السياسة الاستعمارية آنذاك كانت تطبخ برنامج الإدماج المعبر عنه بفرنسا ما وراء البحار، فكيف يُولِّي الملك وجهه إلى الجامعة العربية ويحيِّيها ويستدبر فرنسا ولا يخصها بكلمة اعتراف واحدة؟ واستُدعي المقيم العام المدني، من أجل ذاك إلى باريس، وعُوض بمقيم عام عسكري، وبدا التوتر على أشده بين القصر والإقامة وإن لم يكن خفياً من قبل.

وعاد محمد الخامس من طنجة إلى الرباط كأشد ما يكون عزماً وتصميماً على تحدي الخطط الاستعمارية، وكانت الأعمال عنده تصاحب الأقوال، فواصل معاركه مع الجهل والشعوذة والإدارة الاستعمارية التي تقنن هذين الداءين الخطيرين المتمكنين من المجتمع المغربي، فلم يفتأ

يدعو الشعب إلى الاعتماد على نفسه بإنشاء المدارس من ماله الخاص وبعث البعوث العلمية إلى الخارج، ويسهم هو في كل حركة من هذا القبيل بالبذل والعطاء وبالحضور في حفلات تدشين المدارس والخطابة فيها، ويضرب المثل بتربية أبنائه وبناته ليجعل منهم قدوة للشعب، وكذلك كان، فصار الأمير مولاي الحسن مثلاً يحتذى به في حسن التربية وسعة الثقافة، وصارت الأميرة عائشة زعيمة النهضة النسوية في البلاد.

وبالنسبة إلى الشعوذة والمشعوذين الذين كان الاستعمار يتخذهم مطايا لبلوغ أغراضه ولتنويم الشعب، فإنه لم يكن يتعامل مع أي منهم برز في الميدان، ويتعمد تجاهله في المواطن التي يكون المعني بالأمر يتشوف إلى التظاهر فيها، وأمر بإبطال ما كانت بعض الطوائف الجاهلة تقوم به في مواسمها من البدع المخالفة لتعاليم الإسلام، وتستغله الإدارة الاستعمارية لتشويه سمعة المغرب، وتجعل من تلك المواسم ملتقيات سياحية للأجانب الذين يتهافتون على أخذ مناظر التخلف المتجذر في المغرب. وكان أحد المستهترين الذي بدأ حياته مغنياً يعمل في أجواق الطرب، قد اتخذ صيغة شيخ طريقة وأنشأ زاوية يجتمع عليه فيها الشذاذ والبطالون، وذلك بمساعدة إدارة الاستعلامات طبعاً، فرفع أمره إلى جلالته، فأمر بمحاكمته أمام لجنة من أهل العلم وتبين تلاعبه واستخفافه بأمر الدين فصدرت الأوامر بمعاقبته وإغلاقه الزاوية المشبوهة، وكان ذلك بمثابة إنذار للمشعوذين المسخّرين لخدمة الاستعمار.

وكانت المعركة السياسية أعظم من كل معركة أخرى، نازل الملك فيها الاستعمار وأعوانه، وتحدى إدارة الحماية بما أحبط مشاريعها وجسّد خططها التي كانت تريد تفكيك وحدة المغرب والقضاء على عروبته، وعلى دينه إن أمكن، ليسهل عليها ابتلاعه واستتباعه إلى الأبد وجعله ولاية من ولايات الجمهورية الفرنسية، كما كانت تعتبر الجزائر الشقيقة.

وفي هذا المجال نذكر الظهير البربري الذي أصدرته في غفلة من الحكومة المغربية سنة ١٩٣٠، وقامت قيامة الشعب المغربي والعالم الإسلامي ضده، فاضطرت إلى التراجع عنه ظاهراً، وإن لم تتخل عنه وعن تنفيذ ما أمكن من بنوده في الخفاء، ولا سيما إبعاد العنصر البربري من السكان عن التحاكم إلى الشرع الإسلامي بإنشاء المحاكم العرفية المبنية على العوائد والتقاليد الجاهلية ونصبه مراقبين عليها من موظفي إدارة الاستعلامات وإلزام القبائل البربرية برفع قضاياهم إليها، وكذلك بإنشاء تعليم فرنسي بربري وحظر التعليم العربي على المواطنين الذين تعتبرهم من أصل بربري.

وإلى جانب مقاومة هذه المؤامرة فساد كل تدبير يمت إليها بصلة، صار جلالته كلما قدّم إليه مشروع منشور - وهو ما يسمى في المغرب بالظهير - لا يتوافق ومصلحة البلاد، امتنع من التوقيع عليه، وألقاه جانباً بحيث لا يجري به عمل، حتى اجتمعت لديه عشرات الظهائر التي تنتظر الإمضاء، وهو يصر على إهمالها، الأمر الذي نشأت عنه

الأزمة المستحكمة التي لم يجد لها المقيم العام الفرنسي الجنرال جوان حلاً إلا تحريض كبار القواد ورجال الإقطاع مثل الباشا الكلاوي والضالعين معه، على إبداء العصيان وتدبير خلع جلالته، زعماً بأنه ضد تطور المغرب وأنه متطرف في أفكاره الدينية.

ولا حاجة بنا إلى استعراض الحرب الباردة التي نشبت بين القصر الملكي والإقامة العامة الفرنسية على عهد الجنرال جوان وخلفه الجنرال كيوم، بهذا السبب. حتى أدت إلى الغلطة الفادحة التي ارتكبها ممثل فرنسا بموافقة حكومتها، وهي نفي جلالته وجميع أفراد أسرته يوم ٢٠ غشتر ١٩٥٣ إلى كورسيكا ثم إلى جزيرة مدغشقر، وتنصيب خلف له على العرش شيخ هو في الثمانين من عمره لا مؤهل له إلا كونه من الأسرة المالكة، بمساعدة ثلة من القضاة والعلماء والولاة الخوَنة.

ولتأطير الصورة التي رسمناها لجلالته وهو في غمرة النضال مع سلطات الاستعمار، ننقل بعض الفقرات من محادثة كنا أجريناها معه في أواخر الأربعينات، ونشرت في مجلة رسالة المغرب بالعدد ١٣٤، فنرى كيف كان يتصدى لمثل هذه الأزمات، بروحه العالية، وإيمانه الراسخ، ولا يبالي ما يلاقيه في ذاك من المشاق العظام.

وكانت كتابة هذه المحادثة بأسلوب الغائب، فلذلك ابتدأت بعد المقدمة بهذه الصيغة:

أ ـ «فروى المتحدث إلى جلالته أنه في حفلة تدشين مدرسة بمكناس شرّف جلالته الحفلة وألقى فيها خطاباً قيّماً

من خطاباته التوجيهية المشهورة، ورجع إلى القصر في مظاهرة شعبية عظيمة، عبّر بها الجمهور عن شكره وامتنانه لعاهله العظيم وحصل بالطبع لجلالته تعب من كثرة رده للتحية والازدحام الواقع عليه من مختلف طبقات الشعب التي تريد إطفاء غلة الشوق إليه فقال أحد كبار الوزراء لجلالته: ما لك تُتعب نفسك من أجل هؤلاء القوم وهم لو تعلّموا وتحرّروا لكنت أولى ضحاياهم، ولاستبدلوا الملكية بالجمهورية وثاروا في وجهك ووجه الأسرة المالكة، إن أجدادك ما حكموهم إلا بالجهل والبطش.

فما كان من جلالته إلا أن انفجر وقال: أنا لا يهمني شخصي إنما يهمني أن يتعلم الشعب ويتحرر، ولأن أكون فرداً في أمة لها حقوق، خير من أن أكون ملكاً لأمة ليس لها حقوق».

وقال المتحدث لجلالته: حاشا لله يا مولاي أن يكون أسلافك حكموا المغرب بالجهل والظلم، فهم قدّس الله أرواحهم ما قصّروا في نشر العلم في الحواضر والبوادي، وما آلوا جهداً في تعميم العدالة بين الرعية، وحاشا أن يكون جزاء الشعب لملكه الفدى، هو الذي ذكر هذا الناصح.

فإن المغرب لو كان جمهورياً من قبل لاختار رئيساً يكون على صفة جلالتكم في الإخلاص والعمل لمصلحة شعبه، فكيف وهو ملكي دماً ولحماً وفكرة وعقيدة.

إن هذه الكلمة الخالدة التي قلّ أن يكون لها نظير فيما

فاه به الملوك ورجال السياسة في القديم والحديث، لتدلنا على إيمان محمد الخامس بنفسه وثقته بالله وتضحيته العظيمة في سبيل شعبه الذي لا ينسى له أبداً مثل هذا الموقف العظيم.

وينظر جلالته لمستقبل شعبه بالعين التي ينظر بها لحاضره، فبينما هو يعمل لاستنقاذه من الوضع المتردي الذي هو فيه، إذا به يبني أسس ذلك المستقبل الزاهر الذي ينتظره ويعد له عدته، ومن ذلك اعتناؤه بتربية الأمراء أبنائه، ليكونوا قدوة لشعبه وأعواناً له على الخير في حياته المقبلة.

ب ـ «فيروي المتحدث إلى جلالته أنه قال وهو يتكلم عن ولي العهد مولاي الحسن ودراسته وتوجيهه العلمي، وكان لم يكمل دراسته الثانوية بعد: إن بغيتي أن يدرس مولاي الحسن الحقوق في النهاية، وذلك لئلا يمر بالتجربة الصعبة التي أمر بها كل يوم، حين يقدم إليّ ظهير جديد للتوقيع، فأدرسه بحسب وسعي وأحيله على لجنة خاصة تدرسه أيضاً للتحقق من صلاحيته وعدم احتوائه على شيء يمس مصلحة الرعية، ولا يقدر أحد أن يتصور ما أحس به من الألم حينما يصدر أحد الظهائر، ويتبين أن فيه مساساً بحق من حقوق الفرد أو الجماعة لم نتنبه له. فلذلك يجب أن تكون لولي العهد ثقافة قانونية، يتفادى بها المشاكل من هذا القبيل».

وهنا قال المتحدث لجلالته: «إننا نؤمل أن ينتهي هذا الوضع الشاذ في عهد جلالتكم، فلا يأتي دور مولاي الحسن، بعد عمر طويل لجلالتكم، إلا وقد استقلّ

المغرب، ووُكِل أمر التشريع فيه إلى ضمائر حية وذِمَم عامرة، يُؤتى معها كل تزوير وتدليس، فقال جلالته: حقاً، ولكنا لا بد أن نعمل على أسوأ الاحتمالات».

هذا الشعور العميق بالمسؤولية الذي تنطوي عليه هذه النفس الكبيرة، هو في نظرنا أعظم تحرٍّ للعدالة من محمد الخامس، لأنه لا يكتفي بالتحرّي للتشريعات الحالية بل يتخذ الضمانة لعدالة ما قد يوضع من تشريعات في المستقبل البعيد.

ج - «وبعد إلقاء خطابه الشهير في زيارته لطنجة الملمع إليها آنفاً، دخل جلالته للقاعة الكبرى بالمندوبية السلطانية ليستقبل المهنئين، فكنت ممن تشرّف بمقابلته وهنأته على التوفيق العظيم والتأثير العميق الذي كان لهذا الخطاب في نفوس المستمعين، وقلت له: إن أستاذاً مصرياً كان معي وقد استمع لخطاب جلالته، وصرّح لي من فرط الإعجاب أنه لا يوجد ملك من ملوك المسلمين اليوم يستطيع أن يلقي مثل هذا الخطاب بمثل هذه الروح وهذا الإيمان وهذه الحماسة، فهنيئاً لكم بهذا الملك وهنيئاً له بكم. فقلت له: ألا تقول هنيئاً به للمغرب والمسلمين أجمعين؟ فقال: هو كذلك.

فقال جلالته: ألم تقل له وهذا مع كونه مقيداً؟ فقلت له: إنه يعرف كل شيء يا صاحب الجلالة».

وهذه الكلمة المؤثرة تصدر من هذا الملك العظيم، بإثر ذلك الموقف العظيم، هي أحسن تعبير عن روحه

الشعبيَّة التي لا تفارقه في وقت من الأوقات، فإنه لم يداخله عجب ولم يزده خيلاء ولا ذهب مع عظمة الملك وغرور السلطان، وإنما فكر في أنه مقيد يحال بينه وبين ما يريد، وما يريده هو حرية شعبه وتقدمه وازدهاره، وذلك هو ما ألّب عليه سلطات الاستعمار وأدى بها إلى ارتكاب تلك الحماقة التي كانت نهاية وجودها في المغرب.

ولقد أُعلن عندها النفير العام في البلاد، فشمَّر كلُّ فرد من أبناء الوطن عن ساعده وقام على قدم وساق لخوض معركة التحرير مع المستعمر الغاشم، ولم تمر إلا أيام معدودة حتى ظهر أول فدائي صنديد هو الشهيد علال بن عبدالله الذي داهم الدمية التي نصبها الفرنسيون بصفة ملك على العرش، وهو متوجه في موكب محروس إلى صلاة الجمعة، بسيارة متداعية اخترقت صفوف الموكب، وأطاحت بالسلطان المزعوم من فوق الفرس الذي كان يمتطيه، فجرح وحمل في أسوأ حالة، وتفرق الموكب مذعوراً لا يلوي على شيء، وسقط الفدائي برصاص أحد الضباط الفرنسيين الذين كانوا يصحبون الموكب شهيداً مبروراً ومناضلاً خالداً.

وتكررت الحادثة مرة أخرى في مراكش بتفجير بعض المفرقعات أثناء صلاة الجمعة وأصيب فيها الباشا الكلاوي زعيم المؤامرة والسلطان المصنوع السيئ الطالع، الذي لم يعد يجرؤ على الظهور بعدها إلى أن مضى لحال سبيله.

وكانت المقاومة تشن الغارات تلو الغارات في وضح النهار وفي مدينة الدار البيضاء بالخصوص على أساطين الاستعمار من مدنيين وعسكريين ومعمرين من رجال المال

والأعمال الفرنسيين، وعلى أذنابهم من الخونة في كل جهة ومكان، وصارت الجنة التي كانوا يمنُّون بها أنفسهم بعد فراغ العرش من محمد الخامس والساحة الوطنية من القادة والزعماء المخلصين، جحيماً يتأجج بنار المفرقعات وطلقات المسدسات صباح مساء، وغُير المقيم العام أكثر من مرة، وكثر الزحام على أبواب شركات السفر الجوية والبحرية الذاهبة إلى فرنسا من العائلات الفرنسية والخونة الذين كاد الخوف يقتلهم بغير سلاح، حتى لقد عدً من المحظوظين مَن يجد وسيلة للسفر ووعداً بالحجز ولو بعد شهرين وأكثر.

وحينئذٍ لم يجد الخصم المغرور بقوته ملجأ إلا محمد الخامس ينقذ الموقف ويقر الأمن ويعيد الأمور إلى نصابها فلجأ إليه راغماً وفتح باب المفاوضة على أساس إرضاء المطالب الوطنية للشعب المغربي المكافح.

وعاد جلالة الملك إلى وطنه يوم ١٦ نونبر ١٩٥٥ عزيزاً مكرماً، واضعاً رجله على رقبة كل استعماري حقود، محققاً لشعبه أمله في الحرية والاستقلال، فاستقبله هذا الشعب الوفي بما يستقبل به الأبطال الفاتحون بفرحة عارمة، بخروج الرجال والنساء والأطفال إلى الشوارع يهتفون ويرقصون، وينشدون الأناشيد الوطنية الحماسية، بإقامة معالم الزينة في كل مكان، بما يعجز القلم عن وصفه، ولا يتصوره إلا من شاهده وكان أن حلّ عيد ذكرى جلوسه على العرش بعد يومين من رجوعه فألقى جلالته خطاب العرش الذي بشر فيه الأمة بانقضاء عهد الحجر والحماية واستقبال

عهد الحرية والاستقلال، فتضاعف سرور الأمة ابتهاجاً واستمرت الاحتفالات على جميع الأصعدة ومن كل طبقة من طبقات الشعب أياماً عديدة، وتقاطرت الوفود بالآلاف من المواطنين القادمة إلى الرباط للتهنئة والاعتراف بالجميل.

وكان محمد الخامس على اشتغاله بمقابلة الوفود من الداخل والخارج، وترتيب إقامته، وتفقد أحوال قصره التي عبثت بها الأيدي، هو محمد الخامس الذي لا يعرف معنى للراحة ولا للتشاغل عن النظر في المصالح العليا للبلاد، فسرعان ما عاد إلى نشاطه اليومي وتدبير شؤون المملكة بما تتطلبه المتغيرات الجديدة، وفي طليعتها تأليف الحكومة الوطنية الأولى، ورسم خطة العمل لها، ووضع أسس توحيد البلاد. واقتضاه الأمر السفر إلى الخارج مرتين، مرة إلى فرنسا ومرة إلى إسبانيا، وذلك من أجل التفاوض على تحقيق الاستقلال والوحدة الكاملة للتراب المغربي وبعد العودة واستكمال الاتفاقيات الضامنة للاستقلال ألّف أول جيش وطني للدفاع عن كيان البلاد، وأنشأ ديبلوماسية حديثة تعمل على تنظيم علاقات المغرب بالخارج، وأسس مجلساً وطنياً استشارياً يمهد به إلى النظام الديموقراطي والحكومة النيابية المسؤولة أمام البرلمان الشعبي المنتخب.

وكذلك سار شعبه سيراً حثيثاً في طريق التطور والنهوض الذي كان ينشده مع الحماية، فحقق في سنة واحدة ما لم تحققه الحماية في أربعين سنة وزيادة، ولسنا نكتب ترجمة لمحمد الخامس، فنتتبع جميع أعماله ومنجزاته التي لا تستوعبها الدفاتر المعدودة الأوراق، وإنما نكتب

كلمات وجملاً للذكرى والتأمل في حياة هذا العبقري الذي شأى السابقين وأتعب اللاحقين.

ولعل هذه الصورة الجدية الطافحة بمعاني العزم والحزم التي قدمناه بها، تحتاج إلى إسباغ بعض الظلال عليها من دماثة خلقه وسماحة نفسه ولين جانبه لتكون صورةً طبق الأصل من شخصيته الكبيرة أو قريبةً منها، فهو إلى بطولته النادرة في المعارك الوطنية، يتميز في الحياة الاجتماعية بطيبوبة ومجاملة وطلاقة وجه وبشاشة أسارير، يفيض قلبه بالرأفة والحنان ويشمل بعطفه القاصي والداني، وسع بره جميع أفراد رعيته فهم يشعرون أنه لهم نعم الأب وهو يعدهم أبناء بررة له، ولقد غضّ الطرف عن كثير ممن أساؤوا إليه وإلى قضية الوطن وتسببوا له وللشعب الذي هو مؤتمنٌ على مصالحه، في متاعب شديدة، وعلى رأسهم الباشا الكلاوي، فإنه عفا عنه بعد أن جاء إليه تائباً يقول: لقد خدعوني يا مولاي، فأجابه: الحمد لله الذي هداك إلى الصواب، ونسي كل ما أسلفه إليه الفرنسيون، وكان كلما اعتذر إليه أحد المسؤولون في الحكومة الفرنسية يقول: لنسدل الستار على الماضي فنحن أبناء اليوم.

وكان إلى هذا الخلق السَّمْح وهذه النفس الرضية، متديناً في غير غلو، محافظاً على التقاليد في غير تزمت، فهو رياضي ماهر، ممتاز في كرة المضرب، وفي ركوب الخيل، وفي الصيد، وفي السياقة، ولقد حدث ذات مرة أنه كان يسوق سيارة صغيرة من نوع سيمكا، في أحد شوارع العاصمة، فوقف بجانب الطوار في مكان لا يسوغ التوقف

فيه، ودخل صيدلية لاقتناء بعض الأدوية، ولما خرج وركب السيارة جاء شرطي المرور ونبهه إلى المخالفة التي ارتكبها وسأله عن اسمه فقال له: محمد بن يوسف، فقال له: ما حرفتك؟ فقال له: ملك المغرب، فانتبه الشرطي حينئذ إلى جلالته وأدى له التحية وهو يعتذر فقال له: لا عليك لقد أديت واجبك، وحقك أن تُكافأ.

إن الحديث عن محمد الخامس شيّق ولا يُمل، ويا ليتنا كنا نستطيع أن نقف عند هذا الحد، ولا نشير إلى الفاجعة التي أصابت المغرب والأمة الإسلامية جمعاء بفقده وانطفاء نور حياته في يوم الأحد ١٠ رمضان ١٣٨٠ الموافق ٢٦ يبراير ١٩٦١ أثناء إجراء عملية جراحية له في مصحة القصر، ولكن لا راد لما قضاه الله وكل نفس ذائقة الموت. وقد خسر المغرب والعالم العربي والإسلامي بوفاته رجلاً عظيماً على فقر هذه البلاد في الرجولة، وخسرناه في عنفوان رجولته التي كان متوقعاً أن يعمل فيها كثيراً وكثيراً جداً لصالح العروبة والإسلام والإنسانية على العموم قدّس الله روحه وطيّب ثراه وبوّأه مكان صدق عنده مع الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.



محمد بن عبدالكريم الخطابي
(ت ١٣٨٣ هـ)

اسمه ونسبه، نشأته وتكوينه، توليه لبعض الوظائف في مليلية، وقوفه مع والده ضد الاحتلال، إعلانه الثورة على الاحتلال، تنظيمه للمجاهدين، تصدّيه لجيش الاحتلال الإسباني في كل المواقع، انتصاره على الإسبانيين في معركة أنوال الشهيرة، صدى هذه المعركة في الأوساط الاستعمارية، توجس الفرنسيين في منطقة الحماية الفرنسية من ثورة الريف وتعرضهم لها، تواطؤ الفرنسيين والإسبانيين ضده، مؤتمر للصلح بين الأطراف الثلاثة بوجدة، انتكاس الثورة واستسلامه للجيش الفرنسي، نفيه إلى جزيرة لرينيون، التجاؤه إلى الحكومة المصرية ومقامه في أرض الكنانة، نشاطه الإسلامي في القاهرة، وفاته.

هو المجاهد المبرور بطل الريف وموقد نار الثورة على الاستعمار الغربي في إفريقيا وآسيا محمد بن عبدالكريم الخطابي الريفي، نسبة أولاً إلى آل خطاب فخدة من بني ورياغل إحدى قبائل الريف الكبرى، وهي ترجع إلى أصل

عربي قديم، وأما ثانياً فإن الريف الذي ينتسب إليه المترجم إقليم كبير معروف في المغرب بهذا الاسم، ولا يعني معناه اللغوي الذي هو مقابل الحضر، وبيناه لدفع التوهم عند بعض الناس وخصوصاً إخواننا في المشرق العربي.

ولد في ١٣٠٤هـ مقابل ١٨٨٨ تقريباً ببلدة أجدير، وكان والده السيد عبدالكريم من الفقهاء، تولى القضاء في قبيلتهم بني ورياغل فحرص على تعليمه وتربيته تربية عالية، وأرسله إلى فاس العاصمة العلمية للمغرب ليستكمل دراسته بجامعة القرويين، وكان والدنا الشيخ عبدالصمد من شيوخه الذين لازمهم في دروسه الفقهية والعربية، وقد حدثني بأنه كان يقرأ عليه نظم الاستعارة المعروفة للشيخ الطيب بن كيران، ويذكر تقرير الاستعارة في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾، وما قاله الأستاذ منديل بن آجروم من شعر في ذلك كما ذكره لهم الوالد، وكأنه يذكر شيئاً إنما حدث يومه من شدة استحضاره للواقعة وحفظه للشعر، وقد بقي على صلة بالوالد إلى ما بعد ثورته، يكاتبه ويسأله عن بعض المسائل ويوصيه ببعض طلبة الريف الذين كانوا يدرسون بطنجة وأرسل له الوالد كمية من نسخ أربعين حديثاً في فضل الجهاد والحض عليه من تأليف الجد سيدي التهامي بالمطبعة الفاسية ليوزعها على المجاهدين وتطورت الأحوال بابن عبدالكريم بعد رجوعه من فاس فعمل في التعليم وفي الإدارة بمدينة مليلية الخاضعة للإسبان ثم قاضياً بها، لكنه اختلف مع الولاة خاصة الضباط العسكريين فانتقموا منه بسجنه، وقيل: إن سجنه كان للتأثير على والده الذي كان

يجنح للمقاومة والوقوف في وجه الإسبان لإخضاع القبائل الريفية وتطويعها للاستعمار الإسباني، وقد دبّر لهروبه من السجن فوقع وأصابه كسر في إحدى رجليه كان سبب عرج خفيف صاحبه طول حياته.

وبعد هذه الحادثة كشف والده عن وجهه وبارز الإسبان بالعداوة هو وولده، وكان قبل يداريهم وإن تحرش بهم أحياناً. . . وكان قد أرسل ولده الثاني محمد فتحا إلى إسبانيا للدراسة العصرية واختار قطاع المعادن والتخصص فيها، لما كان يروج من احتمال الاتفاق بين الإسبان والريفيين لاستغلال معدن الحديد بالخصوص من معادن جبال الريف، وكان الأجانب يتحلب ريقهم ويتنافسون في الحصول على تصريحات رسمية من حكومة المغرب بذلك، أو اتفاقيات بينهم وبين رؤساء القبائل المغربية ذات النفوذ المحلي في إقليمهم، وكان منهم شركات ألمانية وفرنسية وإسبانية وغيرها في الفترة التي ضعف فيها نفوذ الحكومة المركزية على الأطراف والنواحي النائية، وهذا قبيل بسط الحماية الأجنبية على البلاد وتصفية الحسابات بين الدول الاستعمارية المتكالبة على مراغمة المغرب واحتلاله بوجه من الوجوه، وكان من أشدها حرصاً على ذلك فرنسا وبريطانيا ثم ألمانيا فإسبانيا، وانسحبت ألمانيا بتنازل فرنسا لها عن إحدى مستعمراتها بإفريقيا، ووقفت بريطانيا موقف التربُّص بعد الاتفاق الودي الذي انعقد بينها وبين فرنسا سنة ١٩٠٤ لما تعهدت لها هذه بغض الطرف عن وجودها في مصر، ولكنها بقيت تجاذب الحبل كلاً من فرنسا وإسبانيا بعدم

موافقتها على دخول منطقة طنجة في نفوذ أي منهما، طمعاً في الانفراد بها نظراً لوقوعها في مقابلة جبل طارق وهو وضع استراتيجي مهم.

وأبرمت الحماية الإسبانية والفرنسية على المغرب سنة ١٩١٢ على أساس تقسيم البلاد إلى منطقة جنوبية وأخرى شمالية استبدت فرنسا بالأولى وإسبانيا بالثانية، مع تأكيد خضوعها للسلطان الذي يقيم في المنطقة الجنوبية ممثلاً بخليفة له من الأسرة المالكة في الشمال، ولم يكن الإعلان عن عقد الحماية بالخبر العادي فقد وقع وقوع الصاعقة على المواطنين في الحضر والبدو والجبل والسهل وكانت البلاد تغلي كالمرجل للأخبار والشائعات التي سبقت هذه الحماية أو صاحبتها، وبعض الناس يظنون أنها مساعدة تقنية أو استشارية ولكن السواد الأعظم لم يكن راضياً عنها حتى بهذه الصفة وما عتم الأمر أن ظهر أنها تدخل سافر في شؤون الحكم والأمور الداخلية للبلاد فلم يكن من السلطان الذي عقدها وهو مولاي حفيظ إلا أن تنازل عن الحكم وأحال الأمر على أخيه مولاي يوسف، وأما الشعب فإنه قام في وجه الحماة وتنظيماتهم العسكرية والمدنية في المدن والقبائل بالشمال والجنوب، وثارت ثائرة جل القبائل وأشعلوها حرباً دامية على الدخلاء ومن تعاون معهم من المواطنين ووقعت مذبحة فاس الشهيرة، وقد كان ضحاياها من الجانبين الاستعماري والوطني فظيعة ثم كانت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ضغثاً على إبّالة، وهي فرصة ثمينة ضيعها المواطنون بعدم الاتصال بين الثوار في الشمال

والجنوب والسهول والجبال والمنطقة الوسطى وافتقاد زعيم يؤلف بين هذه التيارات المندفعة من كل جهة، ويقودها بخبرة وحنكة في اتجاه طرد الأجنبي وإحباط محاولته لابتلاع المغرب، وقد دامت هذه التحركات الثورية إلى سنة ١٩٣٦، أي: ستة وعشرين عاماً أو تزيد، حين تمكنت فرنسا من إخمادها.

ولم تكن المنطقة الشمالية التي وقعت تحت الحماية الإسبانية ببعيدة عن هذا الانفجار، يعم الناحية الجبلية ثورة عارمة، وفي المنطقة الغربية الوسطى كذلك مقاومة متصاعدة، وفي الريف، وهو الذي يعنينا كانت المصادمات بين القبائل المجاورة لمدينة مليلية المحتلة والإسبان لا تفتر قبل بسط الحماية، وكان الذي يتزعمها هو الشريف سيدي محمد أمزيان وقد سقط شهيداً في إحدى الوقائع الحامية، ثم تولى أحرار الريف التصدي للإسبان ومحاولتهم الانسياح في أراضيهم، بعد عقد الحماية، وكان منطلق العمليات الجهادية من قبيلة بني ورياغل التي تعتبر أهلها قريش الريف، وهي قبيلة كبرى ومتعودة على القتال ويقر لها قبائل الريف بالزعامة، وقد كان السيد عبدالكريم الخطابي هو المقدم فيها، وقاضيها، ومقامه في قرية أجدير منها كما سبق القول، وهو والد المجاهد الأكبر محمد بن عبدالكريم، وقلنا: إنه كان يداري الإسبان، كما إنهم يدارونه لما يعلمون من نفوذه وشخصيته القوية فلما تحرك هؤلاء في اتجاه احتلال القبائل الريفية الحرة، وقف في وجههم وعارض تقدمهم وناوش معسكراتهم المنبعثة من مليلية وقلعة القبيلة

المتاخمة لها، لكنهم كانوا يتربصون قليلاً ريثما يعدون العدة الكافية للعملية الكبرى، فلما تجهزوا التجهيز الكامل قاموا بحملة قوية اكتسحوا فيها عدة نقاط واحتلوا موقع تافرسيت الذي يصل مليلية بالحسيمة، وذلك في سنة ١٩٢٠ فحينئذٍ قوي عزم السيد عبدالكريم على مواجهة الجيش الإسباني فقام هو وابناه محمد الكبير ومحمد الصغير وأخوه السيد عبدالسلام ومَن انضم إليهم من المحاربين الشجعان من بني ورياغل والقبائل الأخرى واشتبكوا مع الجيش المغير في معارك ضارية استشهد فيها القائد السيد عبدالكريم وآخرون من المجاهدين المبرورين، ولم يكن ذلك عن نقص في الكفاءة والخبرة العسكريين، ولكن لنقص في العدة والسلاح وقد ثبت المجاهدون ثباتاً أثار إعجاب العدو، وكان يظن أن موت القائد يفت في عضدهم ويضعف عزمهم على القتال، فكان الأمر على العكس، إذ جدّ الجد وتداعى المتطوعون من كل جهة واجتمعت الكلمة على تقديم ولد القائد السيد محمد لحمل لواء القتال ومساعدة أخيه السيد محمد فتحا، وعمهما السيد عبدالسلام وتكونت جبهة قتالية عتيدة لأخذ الثأر وإيقاف التقدم الإسباني عند حده. . . وكان قائد الحملة الإسبانية عنيداً مغامراً يسمى سلفستري، سبق له أن عمل في المنطقة الغربية وحقق انتصارات في العرائش والقصر الكبير وعمل أيضاً في المنطقة الجبلية، وكان يندفع بدون إذن من رؤسائه العسكريين الكبار في واجهات مخوفة، ولكنه ينجح فيحصل على موافقة حكومته وتنوه به الصحافة الإسبانية وتثني على شجاعته.

ولما كانت منطقة الريف معروفة للإسبان بشجاعة أهلها من طول ما تحككوا بها، وكان سكان مدينة مليلية يتعاملون معهم في الشؤون المختلفة من التجارة والخدمة وما إلى ذلك ويعرفون شدة مراسهم وقوة شخصيتهم كانوا يفضلون عدم دخولهم معهم في مواجهات قتالية، ولذلك كانت الجبهتان الجبلية والغربية مسرحاً للعمليات الحربية التي يطلقون عليها عمليات التهدئة منذ الأيام الأولى لإعلان الحماية، وإن كانوا وجدوها لا تقل عن الجبهة الريفية شجاعة وتصميماً على القتال واستماتة في الدفاع عن كيانها، وحيث ظهر أن لهذا العقيد سلفستري مبادرات تكلل أحياناً بالنجاح، فإنهم نقلوه إلى القيادة العسكرية بمليلية مكلفاً بإخضاع قبائل الريف، مع ترقيته إلى رتبة جنرال، وقد غرّه هذا التقدم الجزئي الذي حققه في الواجهة الريفية وكسر به الطوق الذي كان يحيطها به القادة العسكريون المقيمون في مليلية متعاطفين مع السكان المدنيين الذين لا يريدون إثارة الأسد الريفي في عرينه، فأخذ يعد العدة لهجوم ساحق مستهيناً بمحاذير العسكريين الذين استمرأوا الهدنة الطويلة التي نعمت بها مليلية وجوارها بضع سنوات، في حين كان محمد بن عبدالكريم يجوب البلاد طولاً وعرضاً وخاصة بني ورياغل وتمسمان وغيرهما من القبائل الريفية يحذرهم وينذرهم بما يبيته الإسبان لهم من مفاجآت ومصادمات وحرب تأتي على الأخضر واليابس وتنكل بالمسالم والمعاند، وقد كان لهذه الجولات أثرها في الناس روحياً وقولياً، وجعلت الحماس يتقد في صدور الرجال فينبعثون

للتطوع والاستعداد، ولمقابلة الأجنبي المغير بما يملكون من نفس ونفيس، ونية صادقة في الجهاد.

نعم إن كان المستعمر الغاشم قد اعتمد في احتلال الريف على عسكري متحمس صاحب مغامرات وموروثات صليبية. فإن المغرب بعد اعتماده على الله قد أتيح له رجل مؤمن متحمس لحرية بلاده وكرامة شعبه ونصرة دينه مع إخوان له متفانين في رد الظلم والتمسك بعقيدتهم والعمل من أجل بلوغ الهدف المشترك وهو تطهير البلاد من رجس الاستعمار، ولئن كان العدو قد بالغ في الاستعداد وحشد الأجناد وتزويدهم بالعتاد الحربي الحديث فإن هؤلاء المعتدى عليهم ليس معهم إلا بعض البنادق والذخيرة القليلة والمفرقعات البدائية المصنوعة بأيديهم، إلا أن إيمانهم أقوى من الحديد والنار وأرسخ من الجبال وأثبت من الحصون الشاهقة، وسيُظهر الواقع أي الجانبين ستكون له الغلبة، المادة المتعجرفة أم الإيمان المتأجج؟

وقد عرفنا مما سبق أن سلفستري كان مؤمناً بالقوة إلى حد بعيد، وأنه يرى الحل الوحيد لتوطيد الاستعمار يكمن في استعمال القوة وقد غرّه ما حصل عليه من انتصار جزئي في احتلال النقاط التي بين مليلية وتفرسيت فهو يحدّث نفسه باقتحام قبيلة بني ورياغل والوصول إلى الحسيمة في أقرب وقت وبأقل مجهود ولكنه يتخذ الاحتياط ويأخذ حذره من رد فعل يهدم ما بناه فلذلك جمع الطِّمّ والرِّم من جيش مليلية وحاميتها من الإسبان والمجندين الأجانب، في حين أن ابن عبدالكريم والمجاهدين الذين معه لم يكونوا يفكرون

في أكثر من استرجاع المحطات التي احتلها قبل تفرسيت، ليس ذلك استهانة بالعدو الذي يعلم من تهوره وإقدامه ما يصفه به أبناء جنسه، وعلى رأسهم المقيم العام الجنرال بيرنيكي الذي كان يعرف أن إخضاع المغرب بالقوة غير ممكن ويتبع الطرق السياسية في استمالة رجال القبائل والتضريب فيما بينهم ولا يلجأ إلى القوة إلا في الحالات النادرة، وسلفستري وإن كان مرؤوساً له لا يأخذ برأيه في ذلك ويقدم على المخاطر متحملاً مسؤوليتها، وهي خطة كانت تعجب بعض رجال الحكم في إسبانيا لأنهم يؤملون حل مشكلة المغرب على عجل.

وقد جرت فعلاً بعض المناوشات مع حاميات المواقع المحتلة سابقاً ومع بعض الدوريات العسكرية المتجولة فيما حول تلك المواقع، وبعضها كان له تأثير على نفوس المقاتلين الإسبان وإن لم يأبه به كبار القادة، وذلك مثل استرجاع جبل إبران ومعركة سيدي إبراهيم من المواقع الحربية في قبيلة تمسمان ـ وبالعكس كانت هذه الاصطدامات مؤذنة للمجاهدين بما يعقبها من هجوم الجند المعبأ من مليلية، فلم يغتروا بها واتخذوا أهبتهم وأجمعوا أمرهم على القتال ومقابلة عدوهم بما يلزم من الحيطة والحذر ـ وبقي الموقف بين أخذ ورد واشتباكات عارضة يكون الفوز فيها، للمجاهدين الذين يتحرقون إلى لقاء حاسم بينهم وبين عدوهم الكاره للقتال والمتوجس من مواجهة الريفيين التي يريد قادتهم أن يقحموهم فيها وهذا ما جعل زعيم العنف والاكتساح الكلي يتوقف قليلاً ويجتمع مع

أركان حربه ويستعرض معهم الموقف في الجبهات المختلفة ويرى أن هجوماً عاماً للجيش على جميع المواقع لا يتوقف حتى يستولي على مراكز المقاومة ويحيط بمدينة الحسيمة فانفصلوا على ذلك ولمساندة موقفه طلب من الجنرال بيرنيكي مده بالمساعدة فأجابه هذا بأنه لا يملك شيئاً يساعده به، وكان ذلك تعبيراً عن عدم موافقته على خطته المتهورة، فأبرق إلى الحكومة بالأمر زاعماً أنه لا يحسم الموقف وينقذ السلطة الحامية من استهزاء شراذم الريفيين إلا القضاء عليهم بصفة جماعية.

وإثر هذه التدابير التي اتخذها سلفستري بقليل شهدت مليلية استعراضاً كبيراً ضم ما يزيد عن ٢٠٠٠٠ جندي ترأسه القائد العام للقوات الإسبانية العاملة في الجبهة الشرقية الجنرال سلفستري وخروجه وهو راكب جواده في خيلاء وكبرياء إلى الجبهة، والنساء يطللن من شرفات المنازل والشابات والشباب يحيونه ويهتفون بحياة إسبانيا، فكان يوماً مشهوداً يدل على تصميم القائد واستعداده للقتال في سبيل إسبانيا والقضاء نهائياً على الثورة الريفية التي أزعجت سلطات الاحتلال.

وكان البطل ابن عبدالكريم يرقب تحركات الجيش الإسباني ويعرف نزوات سلفستري، فتصدى له بتقسيم قوات المجاهدين على مختلف الجبهات مترصداً له في كل جبهة، وهي المواقع التي كان احتلها من قبل وزحزحة الثوار عنها، وفرق فصائل المتطوعين في تلعات الجبال وعلى أفواه الطرق لاصطياد المغامرين وطلائع

الجيش الذين يظنون أنهم يمهدون السبيل لمرور المقاتلة وتخييم القواد وضباط الحركة، وكانت الخطة العامة التي اصطلحوا على اتباعها أن يدعوا الجيش الإسباني يتقدم في السهول وسفوح الجبال حتى يتوغل بقطع المدفعية وقوافل التموين التي يسهل عليها اجتياز هذه المسالك، فحين يحاول نقلها إلى المواقع الجبلية والدروب الصعبة يقابلونه بما يمنعه من التقدم ولو بشبر واحد، ويضاعفون ما كانوا يواجهونه من القتال، وهو يتقدم رداً على مدفعيته التي كانت تقذف حمماً هنا وهناك بقصد إخلاء السبيل له وتشتت تجمع المجاهدين، وحمي القتال وتساقط الجنود المهاجمون بالعشرات وفرّ كثير من ساحة الهجوم لائذين بقوادهم ورأى سلفستري أن لا قبل له بهذه الطريقة التي يسلكها المجاهدون وهي حرب العصابات التي تنال منه ولا ينال هو منهم شيئاً، فقرر تجميع قواته في جبهة واحدة تمكنه من اختراق صفوف الأعداء والاستيلاء على المركز الذي تكون مرابطة فيه ومنه ينطلق إلى مركز آخر، وقد استقر في معسكر أنوال، إذ كان أهم تلك المواقع التي جرى فيها القتال من غير نتيجة، وبتحوله هذا أحاط المجاهدون الجيش الإسباني وحاصروه بحيث أصبح لا يستطيع تقدماً ولا تأخراً وكثر القتال فيه وامتلك الذعر والرعب أفراد الجيش والضباط المسؤولين عنه وأصبح الفرار هو الوسيلة الوحيدة للمقاومة ولكن بنادق المجاهدين كانت تحصد الفارّين حصاد الهشيم، وكان المنهزمون يولون وجوههم نحو مليلية وهم في حالة من

الاضطراب لا توصف وسيطر اليأس على نفوس بعض الضباط فصاروا ينتحرون وتمّت الهزيمة وتبع المجاهدون أرتال المنهزمين إلى قريب من مليلية، وكان من السهل عليهم أن يقتحموها ولكن ابن عبدالكريم نهاهم عن ذلك ومنعهم منعاً كلياً خوفاً من عواقب ذلك الاحتلال، فاكتفوا بقتل من قتلوه وأسر من استأسر وكانوا يلقون بسلاحهم وثقلهم، فيقرنون في الجبال ويساقون إلى المعتقلات وأما الجنرال القائد العام فإنه لم يكن بدعاً من جنده وضباطه إذ انهارت معنوياته وأصيب بكلل لم يبق معه تدبير وتذكر خروجه من مليلية التي كان يُحَيَّا فيها كفاتح عظيم فلم يقبل أن يرجع إليها منهزماً مدحوراً ولم يملك إلا أن ينتحر اتقاء للشماتة والعار، وهذا ما اتفق عليه تقريباً كل المؤرخين من عرب وأجانب، وقال الأستاذ أحمد البوعياشي في كتابه «حرب الريف التحررية» نقلاً عن شاهد عيان أن بعض المجاهدين صوّب إليه بندقيته وهو قد استولى عليه الذهول والحيرة فأرداه قتيلاً، وعلى كلٍّ فإنه لم يوجد ولا عثر على شلوه بين الأموات.

ولم يكن هو الوحيد من الجنرالات والضباط الكبار الذين انتحروا واستسلموا وسلموا المراكز التي كانوا يحتلونها بما فيها من القوة والعتاد، فعددهم كثير وقد أعطوا بذلك أسوأ مثل للجنود العاديين الذين تفرقوا أيدي سبأ.

وقد وقعت هذه المعركة في يوم ٢١ يوليو ١٩٢١، وهي تسمى بالموقع الذي جرت فيه، وهو موقع أنوال فلا تعرف إلا به فيقال لها: معركة أنوال، وإن كانت

أحداثها قد شملت عدة مواقع، وكانت معركة حاسمة من أكبر المعارك التاريخية التي جرت بين المغرب وإسبانيا كمعركة الزلاقة أيام المرابطين ومعركة الأرك في أيام الموحدين وكمعركة وادي المخازن بيننا وبين البرتغال وكان لها صدى بعيد في العالم الغربي والدول الاستعمارية بالخصوص لأنها لقنت لجنود الاحتلال الأجنبية درساً لن تنساه أبداً وهو أن الاعتداد بالإيمان والتصميم وإرادة الحياة، لا بالقوة المادية والعدد العديد من المقاتلة، ولن يكون تصميم المدافعين عن حقهم، والمقاتلين عن حرية بلادهم بمواز أبداً للمتسلطين والغزاة الذين لا يدافعون عن حق ولا يقاتلون في سبيل غاية شريفة، ومن المحقق أن ثورة ابن عبدالكريم هذه وما حفّ بها من النصر والنجاح كانت مثالاً يحتذى ونموذجاً اتبعه كثير من الأقطار المبتلاة بالاستعمار الأجنبي، وأتى ثماره في كسر شوكة الاستعمار الغربي وخصوصاً في إفريقيا.

وفضلاً عن انهزام الجيش العرمرم الذي قدمنا أنه يزيد على عشرين ألف جندي، أمام ثلة من المجاهدين الريفيين تفرقت في المواقع المختلفة التي هجم منها العدو بما لا يتجاوز بضع مئات في كل موقع، ولا يتعدى عند جمعه ثلاثة آلاف مقاتل، فإن ما غنمه هذا العدد المحدود من قوة العدو يبلغ ثلاثة آلاف بندقية وأربع مائة مدفع رشاش، ومائة وثلاثين مدفع ميدان وذخائر أخرى مادية من دواب وآليات ومؤن وغيرها ونحو ألف أسير من مختلف الدرجات العسكرية. . .

والغنمية الكبرى هي اعتراف الإسبان للشعب الريفي بحقه في العيشة الكريمة والحرية المنشودة وإيقاف العمليات الحربية ضده، على شرط أن يخضع البطل المنتصر لولاية الخليفة السلطاني بتطوان تحت الحماية الإسبانية وقد رفض هذا العرض بإباء وشمم ولم يقبل إلا الاستقلال التام مع الخضوع طبعاً لسيادة السلطان وممثله في المنطقة حفاظاً على الوحدة الوطنية.

لم تكن معركة أنوال لتضع حداً للحرب الريفية الإسبانية، فالإسبان لم يستسيغوا هذه الهزيمة الشنيعة واعتبروها عاراً على شرفهم العسكري وإن كانوا خرجوا منها منهارين لا يستطيعون الخوض في حرب ثأرية لأنهم لم يضمدوا جراحهم على القتال والمجاهدون الريفيون تحت نشوة الانتصار لم يكونوا مستعدين لإيقاف القتال وقد اتقد حماسهم فاندفعوا في كل الواجهات لا سيما مع الغنيمة الحربية التي زادتهم قوة واستئساداً وقد كانوا همُّوا باقتحام مدينة مليلية وما ردهم عنها إلا القائد محمد بن عبدالكريم لتفكيره في عواقبها العسكرية وربما السياسية التي تدول حرب الريف لهذا انطلقوا في كل جهة حتى الواجهة الغربية فاحتلوا مدينة شفشاون ووضعوا يدهم في يد المجاهدين من قبائل جبالة وما إليها، وتسربوا إلى المنطقة السلطانية فاشتبكوا مع جيش الاحتلال الفرنسي واتسعت الدائرة فوصلت طلائعهم إلى ناحية فاس.

والكلام في ذلك يطول، ونحن لا نكتب تاريخاً للحرب التحريرية الريفية والجبلية وإنما نكتب عن حياة

المجاهد ابن عبدالكريم، فنضطر إلى الإلماع بإيجاز لبعض مواقفه الحربية وتطور ثورته بين الشمال والجنوب والمنطقتين الخليفية والسلطانية، وهو المنعطف الجديد الذي أفضى بهذه الحرب الوطنية إلى نهايتها التي لم تكن لتخفى على الملاحظين السياسيين فأحرى الزعيم القائد الذي كان يباشر العمل في الجبهتين الشرقية والغربية ويقدر مسؤوليته العسكرية ويحترز في كل خطوة يخطوها حتى لا يقع في ورطة أو يرتكب غلطة يصعب التفصي منها».

والحقيقة أن ابن عبدالكريم كان يتجنب الاصطدام بالفرنسيين منذ نشوب الحرب بينه وبين الإسبان، بل يجاملهم ويجاملونه، ولربما كان ذلك منهم توقياً من أن تتصل ثورة الجنوب بالشمال، واعتقاداً باستقلال المنطقتين حتى في ثورتهما فما عليهم إلا أن يشتغلوا بما تحت نفوذهم كاشتغال الإسبان بثورة الريفيين ولا خوف عند الجانبين من امتداد الثورة إلى حد التعاون والتضامن. وهذا إلى حين انتصار الريفيين في معركة أنوال التي هزت عالم الاستعمار وتردد صداها في جميع الأنحاء، هنالك انتبه الفرنسيون من غفلتهم وبدأوا يحسبون لحرب الريف حسابها ولم يكونوا على صلة بالإسبان في هذا الصدد وإنما كانوا يتتبعون أحداثها وينظرون في عواقبها، وأخذوا يراقبون الحدود بين المنطقتين ويقيمون حزاماً ونقاطاً حربية في بعض المواقع الاستراتيجية من القبائل المتجاورة. . . لا سيما وأنهم كانوا يلاحظون تسلل بعض المجاهدين من بلاد الريف إلى الجنوب على ما أشرنا إليه حين منع القائد العام

المجاهدين من تجاوز حدود مليلية فانتشروا في القبائل المتجاورة... لا سيما وأنهم كانوا يلاحظون تسلل بعض المجاهدين من بلاد الريف إلى الجنوب على ما أشرنا إليه حين منع القائد العام المجاهدين من تجاوز حدود مليلية فانتشروا في القبائل الجنوبية وانضم إليهم مجاهدو القبائل وتكونت من الفريقين قوة ضاربة في الجبهة الغربية وصلت طلائعها إلى ناحية ورغ وأصبحوا يهددون نواحي فاس ووزان فانضم كثير من أبناء هذه الجبال المعروفين بشدة شكيمتهم في القتال وغيرتهم على الدين ونقضت العهود بين الفرنسيين وحلفائهم من الزعماء وشيوخ الطرق والزوايا ذات النفوذ الروحي في المواطنين كأهل زاوية بني زروال وغيرهم الذين فروا إلى فاس وعوض ما ينضمون إلى المجاهدين ويحضون الناس على القتال في سبيل الله فضلوا الانحياز إلى جانب المستعمر والاحتماء برايته.

وإذا كانت معركة أنوال انتهت سنة ١٩٢١، فإن الجو استمر على ما هو عليه إلى سنة ١٩٢٥ حين فاتحت فرنسا إسبانيا في توحيد العمل ووضع خطة مشتركة بينهما لمقابلة الثورة الريفية والقضاء عليها قبل أن تزيد استفحالاً وكان في أول ما اتفق عليه محاصرة مناطق القتال ومراقبة الشواطىء لمنع وصول المواد الحربية إلى الثوار وكذلك مواد التموين والآليات والدواء، وكل ما يمكن الانتفاع به في تدبير المصالح العامة، وكان الزعيم ابن عبدالكريم في هذه الفترة من الزمن يشرف على تسيير أجهزة الحكم وتنظيم الإدارة ومراقبة السياسة الخارجية ومقابلة الصحفيين والسياسيين

الأجانب للرد على الاتهامات التي يوجهها الخصوم إلى الثورة وإعطاء التصريحات التي تبرّئ عمله من كل تدخل خارجي وبيان مطالبه التي تنحصر في حرية بلاده ودفع سلطة الأجنبي عنها إضافة إلى تسيير دفة الحرب التي كان يستعين فيها بأخيه السيد محمد ويعتمده في ماجرياتها الخاصة والعامة والطوارئ اليومية كانت الاصطدامات العسكرية تتابع بين المجاهدين والطرفين الاستعماريين الفرنسيين والإسبانيين، والاتصالات بين مدريد وباريس لا تنقطع في تقوية زحفهما على المقاومين من المنطقتين، ويظهر أن هذه الاتصالات كان يدفعها شدة الرغبة في إيقاف القتال ومن ثم تعددت الاقتراحات في الصلح وجس نبض ابن عبدالكريم الذي لم يضعف أبداً مع تحمله من وطأة الحصار وشدة المؤونة ما لا مزيد عليه كما يظهر أن كل جانب من الخصمين كان يبحث عن صلح مع الزعيم الخطابي خاص به، ولذلك أبرما اتفاقاً بينهما على منع أي صلح منفرد، وكانت الوفود لا تني تتقاطر على أجدير بمشروع لا يلقى من زعيم الريف إلا الرفض المطلق، ونحن نرى أن الفرنسيين لو وجدوا من ابن عبدالكريم قبولاً لترك القبائل الخاضعة للنفوذ الفرنسي لما ترددوا في الاعتراف ولو باستقلال إقليم الريف لا سيما وأن الظرف كان يساعد على تقسيم المغرب إلى مناطق وولايات ذات نظام خاص.

أما الإسبان فإنهم بعد المساندة الفرنسية قويت نفوسهم وغيروا موقفهم من الصلح وصار موقفهم أكثر تشدداً وغيروا القيادة العسكرية أكثر من مرة كما فعل الفرنسيون، الذين

جاؤوا بكبار قادتهم العسكريين ممن شاركوا في الحرب العالمية العظمى، وما دام القائد ابن عبدالكريم لا يقبل صلحاً ولا مفاهمة فإنهم عوّلوا على استئصال الحركة وانتزاع الأراضي التي احتلها الجيش الريفي من أيديهم في الدفعة الأولى، كما قلت آنفاً، فإننا لا نؤرخ للحرب الريفية ولا نعنى بتفاصيلها حتى إذا اشتد الضغط على المجاهدين وشعر الزعيم ابن عبدالكريم بثقل الحمل الذي يواجهه في الجبهتين، وانقلب ميزان القوة لمصلحة المستعمرين صار حينئذ يقبل الاقتراحات التي يحملها إليه وسطاء الخير حتى أدى الأمر إلى عقد مؤتمر وجدة للصلح في أبريل ١٩٢٦، والذي انفضّ بدون نتيجة لأن مقترحات كل من الإسبانيين والفرنسيين لا تقبل، وأدرك مندوبو ابن عبدالكريم في المؤتمر أن مفاوضيهم أصبحوا يتكلمون من مركز القوة وأن خطتهم موحدة ولا فرق بينهم كما كانوا يعهدون من قبل بمدريد وباريس عقد العزم على تصفية الثورة الريفية بلا هوادة.

وعندما علم ابن عبدالكريم بالأمر لم يسعه إلا متابعة القتال، ولكنه اصطدم بالأمر الواقع فالحصار الذي ضرب على شواطئ الريف ظهرت نتيجته بكل وضوح فلم يبقَ هناك منفذ لاستيراد السلاح ولا المؤن الضرورية، وكل ما كان بيد المجاهدين إنما كان من الغنائم الكبرى التي لم تسمح الوقائع بمثلها، وقد سدت الطرق في وجه القبائل المقاتلة، فكانت العسكرية الإسبانية تتعرض لرواد الأسواق من المدنيين فتسلبهم ما تزودوا به منها وتمنعهم من ارتياد المدن المجاورة لبيع منتجاتهم واستبدالها بغيرها مما هم في حاجة

إليه، وكنا نحن في طنجة نرى بالعين المجردة كيف كانت الأضواء المشعة في الليل تسلط على الطرق الجبلية بين طنجة وقبيلة أنجرة وكلما كثفت قافلة من المتوجهين إلى طنجة رمتها بقذائف المدفع فشتتها وقتلت منها من حضر أجله من النساء والرجال والحال أن المدينة المقصودة مدينة دولية النظام يحكمها ثمان دول أوروبية إلا الثامنة فإنها أمريكا ولا ناهي ولا منتهي بل إن الطائرات الإسبانية كانت تقصف نهاراً جهاراً عدداً من القرى فتتطاير أشلاؤها بمرأى ومسمع من الجاليات الأجنبية ومراسلي الصحف الغربية الكبرى كالتايمز التي كان لها مراسل مقيم في طنجة فتصدر وبها تفاصيل عن تلك الأحداث بحيث لا يبقى أحد لم يطلع عليها في أنحاء العالم، الخلاصة أن الثورة دخلت في طور الانتكاس ولم يبقَ باليد ما يتلافى به الوضع المنهار فلا عجب أن رأينا البطل بعد أيام من مؤتمر وجدة يسلم نفسه لقيادة جيش الاحتلال الفرنسي وينهي الحرب قبل أن تنتشر جنود الاحتلال في القبائل وتستبيحها مدافع الانتصار والانتقام.

ولا حاجة بنا إلى ذكر ما حصل بعد التسليم إلا أن الفرنسيين نقلوا الزعيم إلى فاس وبعدها نفوه إلى جزيرة لرينيون بالمحيط الهادي هو وأخوه السيد محمد والسيد عبدالسلام ونساؤهم وأولادهم وسائر أفراد الأسرة القريبة.

أسدل أستار على أعظم ثورة وطنية على الاستعمار الأوروبي في إفريقيا وأبعد بطلها إلى أقاصي البلاد ولكنه بقي ماثلاً في أذهان مواطنيه والشعوب المغلوبة على أمرها

في إفريقيا وآسيا التي اتخذت منه مثالاً للتذمر ورفض السيطرة الأجنبية فما تلبث أن تسمع عن حركة أو انتفاضة شعبية هنا وهناك على غرار ما قام به ابن عبدالكريم.

وبقي أسد الريف رابضاً على مضض في الجزيرة المنفى مدة عشرين سنة لا يشكو من شيء إلا من موقع هذه الجزيرة وسوء مناخها حتى صدر الأمر بنقله إلى فرنسا وفيما كان يطوي مراحل العودة إلى الغرب كان يفكر في مستقبل بلاده وما تخبئه الأقدار، وحين دخل إلى قناة السويس ووقفت الباخرة الفرنسية التي كانت تقله هو والأسرة ببور سعيد اغتنم الفرصة فطلب إذناً بالنزول إلى أرض مصر ليتفرج على آثارها ورؤية معالمها الحضارية وما هو إن وضع قدمه على اليابسة حتى أسرع بطلب اللجوء السياسي من سلطات البلاد والإقامة الدائمة فيها فلقي طلبه ترحيباً واستقبالاً حافلاً من الشعب المصري وملكه وسقط في يد الفرنسيين وعبّر المصريون عن اغتباطهم بإقامة هذا الزعيم الإسلامي فيما بينهم وردوا على الاحتجاج الفرنسي بأن حق اللجوء السياسي حق قانوني لطالبه حتى ولو كان هذا الطالب فرنسياً فكيف وهو مسلم عربي، وحيّت الصحافة المصرية والشعب المصري وقادته السياسيون القائد المغربي البطل وكانت فرصة لاجتماع القادة الوطنيين والطلبة حول ابن عبدالكريم وإقامة الاحتفالات بتحرره وإفلاته من قبضة المستعمر الغاشم، وكانت القاهرة في ذلك الوقت قد تهيأت لخلافه إسطنبول عاصمة الخلافة العثمانية، فصارت كعبة لكل الأحرار ومقصداً للزعماء العرب والمسلمين، فتصدر

ابن عبدالكريم بينهم وصار لا تقام حركة إسلامية ولا ذكرى وطنية إلا ترأسها وكان واسطة عقدها.

وهكذا كتب له أن يختم حياته بما برأها به من مناصرة الحق وإعلاء راية الإسلام والحرية على صعيد العالم العربي والإسلامي إلى أن وافته المنية في شهر رمضان عام ١٣٨٣هـ، رحمه الله وجازاه جزاء المحسنين.



صورة زعيم الريف في لباسه القومي



فهرس الآيات القرآنية

الآية	السورة	رقمها	الصفحة
﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾	الملك	١٤	٩٢٩
﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾	الحجرات	١٣	٥٤٢
﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾﴾	البينة	٧	٢٠٠
﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾	الحجر	٧٥	١٨٦، ٢٠٤
﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ﴾	النور	٥١	٧١٥
﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾	البقرة	١٣٤	٥٧٣
﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾	الكهف	٨٩	١١٧٦
﴿الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾﴾	الرحمٰن	١، ٢	٤٣
﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾	التوبة	٨٠	٤٠٨
﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾	الجن	٢٦	٨٥٨
﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾	الحجر	٢٩	٢٨٣
﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾	الحجر	٩٤	١٥٦٣
﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾	الحديد	١٦	١٠٥٩

الآية	السورة	رقمها	الصفحة
﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾	يوسف	٥٠	٥٩١
﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨﴾	يس	٧٨	١٠
﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ﴾	الأنعام	٩١	٨٥٩
﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾	الكهف	١٠٩	٨٥٨
﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾	الأحقاف	٩	٦١٩
﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾	التحريم	٦	٤٦٣
﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾	الكهف	٥	٧٠٠
﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾	آل عمران	١١٠	٨٥٨
﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾	فصلت	٤٢	٨٥٨
﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾	المائدة	٦	٦١١
﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾	فاطر	٢	٥٩٩
﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾	الرعد	١١	١٣٦٩
﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾	مريم	٤	١٠٦٨
﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ۝٤﴾	يوسف	٤	١١٥٤
﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾	يس	٧٨	٨٧٣
﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ۝١١٤﴾	طه	١١٤	٥٣٩
﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾	الحجر	٨٧	٨٥٩
﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤﴾	الضحى	٤	١٣٢٠
﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ۝١٧﴾	الأعراف	١٧	١٠٧٩
﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم﴾	التوبة	٨٤	٤٠٨

الآية	السورة	رقمها	الصفحة
﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾	طه	١٣١	٨٥٩
﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾	البقرة	١٤٨	١٣١، ١٤٣٤
﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾	المؤمنون	٧١	٧١٩
﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾	النساء	٨٢	١٣٢
﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾	الحشر	٧	٣٨٩
﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾	البقرة	٢٢٩	٩٤٦
﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾	النساء	١٠٠	٣٥
﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾	النساء	١٠٠	٣٨
﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾	الأنبياء	٣٣	١١٥٤
﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾	الشورى	٢٥	٩٤٤
﴿وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾	البقرة	١٥١	٨٥٨
﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾	الفجر	٢٧	٩٣١
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ﴾	المائدة	٩٤	٤١٦
﴿يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾	يوسف	٦٧	٤١

* * *

فهرس الأحاديث

طرف الحديث	الصفحة
«أئمتكم شفعاؤكم»	٤٥٨
«إذا مدح الفاسق»	٧٢٨
«ألا لا يطولن عليكم الأمد»	١٠٦٠
«إنما العلم بالتعلم»	٥٧٢
«إني لا أستعين بمشرك»	١٥١٤
«حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا»	٤٦١
«احذروا فراسة المؤمن»	١٨٦، ٢٠٤
«الحلال بيِّن والحرام بيِّن»	٧٢٨
«صلاة فيه أفضل من ألف صلاة»	٤٠٠
«طيب لقمتك تستجب دعوتك»	١٤٤٧
«فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر صاعاً من التمر»	٤٠٥
«كل مولود يولد على الفطرة»	٤٦٧
«لا تزال طائفة من أمتي»	٤٤٤، ٩٦١
«لا عدوى ولا طيرة»	٧٠٦
«لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق»	٣٤٢
«ليُعزِّ المسلمين في مصائبهم»	٤٦٠

طرف الحديث	الصفحة
«ليلني منكم أولو الأحلام والنهى»	٤٥٧
«اللهمَّ أمض لأصحابي هجرتهم»	٣٣، ٣٤
اللهمَّ هذا قسمي فيما أملك»	١٠٣٢
«من قال لأخيه والإمام يخطب أنصت»	٣٨٩
«نعمت المرضعة»	١١٥١
«والله في عون العبد»	٤٤٨
«وما يدريك أن الله أكرمه»	٦١٩
«يا أبا عمير! ما فعل النغير؟»	٥٩٩
«يسرا ولا تعسرا»	٦١١

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم	أ
العلاّمة عبدالله گنون يتحدث عن نفسه من خلال كتابه «مذكرات غير شخصية»	٥
العلامة عبداللّه گنون يتحدّث عن نفسه	٩
أصداء فاس	١٥
وداعاً يا فاس	٢٣
طنجة : النشأة والمقام	٣٥
طنجة النشأة والمقام	٥١
لقاءات على الصعيد الوطني	٧٠
المدرسة الإسلامية الحرة ومنشآت أخرى	٨٦
لائحة المؤلفات والكتب المحققة والمنشورة للأستاذ المرحوم سيدي عبد اللّه گنون	١٠٨
ما قاله علماء العصر عن كتاب «ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة»	١١٩
١ ـ الأمير جعفر الحسني ـ أمين المجمع العلمي العربي بدمشق ـ يكتب عن الذكريات	١٢١

الموضوع	الصفحة

٢ ـ عرض وتعليق الدكتور نقولا زيادة ١٢٤
٣ ـ محمد الشاذلي خزندار تحية من تونس ١٢٧
٤ ـ هذه السلسلة في الميزان بقلم الأستاذ الدكتور تقي الدين الهلالي ١٣٠
٥ ـ محمد المختار السوسي ثناء وهدية ١٣٤
٦ ـ النبوغ المغربي والذكريات في نظر الزعيم علال الفاسي ١٣٦
٧ ـ الأستاذ عبدالسلام الفاسي ينوّه بالذكريات ١٣٨
٨ ـ هذه السلسلة في نظر الأستاذ المجاهد الحاج أحمد معنينو ١٤٠
٩ ـ رسالة تقدير من صديق المؤلف أديب تِطّاوُن الأستاذ الشريف سيدي البشير أَفَيْلال ١٤٢
١٠ ـ العلاَّمة السيد محمد المرير يقرظ الذكريات ١٤٥
١١ ـ تهنئة وتقريظ قصيدة الأديب ابن موسى ١٤٧
تَمّم صنيعك ١٤٧
ملحق الصور ١٥١

الجزء الأول: ذكريات ومشاهير رجال العلم

١ ـ الأصيلي (ت ٣٩٢ هـ) ١٦٩
٢ ـ أبو عمران الفاسي (ت ٤٣٠ هـ) ١٨٨
٣ ـ الشريف الإدريسي (ت ٥٦٠ هـ) ٢٠٥
٤ ـ عثمان السلالجي (ت ٥٧٤ هـ) ٢٤٨
٥ ـ أبو الحسن المسفر (ق ٦) ٢٧٦
٦ ـ ابن الياسمين (ت ٦٠١ هـ) ٢٨٩
٧ ـ أبو موسى الجزولي (ت ٦٠٦ هـ) ٣٠٥
٨ ـ عبدالواحد المراكشي (ت ٦٢٥ هـ) ٣٣١
٩ ـ ابن البنّاء العددي (ت ٧٢١ هـ) ٣٥١

الموضوع	الصفحة

١٠ ـ ابن رشيد (ت ٧٢١ هـ) ٣٨٥
١١ ـ ابن آجروم (ت ٧٢٣ هـ) ٤٢٢
١٢ ـ ابن الحاج الفاسي (ت ٧٣٧ هـ) ٤٣٩
١٣ ـ ابن أبي زرع (ت ٧٤١ هـ) ٤٦٨
بَحْثٌ بقلم المؤلف في أن: مؤلف الذخيرة السنية هو
مؤلف القرطاس ٤٩١
١٤ ـ ابن بطوطة (ت ٧٧٧ هـ) ٥٠٥
١٥ ـ أحمد زروق (ت ٨٩٩ هـ) ٥٤١
١٦ ـ ابن غازي (ت ٩١٩ هـ) ٥٧٩
١٧ ـ محمد المسناوي (ت ١١٣٦ هـ) ٦٠٥
١٨ ـ أبو القاسم الزياني (ت ١٢٤٩ هـ) ٦٢٣
١٩ ـ أكنسوس (ت ١٢٩٤ هـ) ٦٥٤
٢٠ ـ محمد بن المدني گنون (ت ١٣٠٢ هـ) ٦٨٧

الجزء الثاني: ذكريات ومشاهير رجال الأدب

٢١ ـ سابق البربري ٧٢٧
٢٢ ـ أبو جعفر بن عطية (ت ٥٥٣ هـ) ٧٤٦
٢٣ ـ ابن زنباع الطنجي ٧٧٢
٢٤ ـ ابن حبوس الفاسي (ت ٥٧٠ هـ) ٧٩٨
٢٥ ـ أبو حفص بن عمر (ت ٦٠٣ هـ) ٨٣١
٢٦ ـ أبو العباس الجراوي (ت ٦٠٩ هـ) ٨٦٢
٢٧ ـ ميمون الخطابي (ابن خبّازة) (ت ٦٣٧ هـ) ٨٩٣
٢٨ ـ ابن عبدون المكناسي (ت ٦٥٨ هـ) ٩٣٣
٢٩ ـ عبدالعزيز الملزوزي (ت ٦٩٧ هـ) ٩٤٧
٣٠ ـ مالك بن المرحل (ت ٦٩٩ هـ) ٩٩٢

الموضوع	الصفحة
٣١ ـ أبو العباس العَزَفي (ت ٧٠٨ هـ)	١٠٤٦
٣٢ ـ ابنُ هانىء السبتي (ت ٧٣٣ هـ)	١٠٧٢
٣٣ ـ أبو بكر ابن شَبْرين (ت ٧٤٤ هـ)	١٠٨٥
٣٤ ـ أحمد بن شعيب الجزنائي (ت ٧٤٩ هـ)	١١١٨
٣٥ ـ عبدالمهيمن الحضرمي (ت ٧٤٩ هـ)	١١٤٦
٣٦ ـ أبو القاسم الشريف (ت ٧٦٠ هـ)	١١٧٢
٣٧ ـ النابغة الهوزالي (ت١٠١٢ هـ)	١١٩٧
٣٨ ـ عبدالعزيز الفشتالي (ت ١٠٣٢ هـ)	١٢٢٤
٣٩ ـ ابن زاكور (ت ١١٢٠ هـ)	١٢٦٧
٤٠ ـ ابن الطيب العلمي (ت ١١٣٤ هـ)	١٣٠١
٤١ ـ ابن الونان (ت ١١٨٧ هـ)	١٣٢٨
٤٢ ـ ابن إدريس (ت ١٢٦٤ هـ)	١٣٦٠
الجزء الثالث: ذكريات ومشاهير رجال السياسة	
٤٣ ـ الإمام إدريس (ت ٢١٣ هـ)	١٣٩٩
٤٤ ـ عبدالله بن ياسين (ت ٤٥١ هـ)	١٤٢١
٤٥ ـ يوسف بن تاشفين (ت ٥٠٠ هـ)	١٤٤٨
٤٦ ـ الأمير سليمان الموحدي (ت ٦٠٤ هـ)	١٤٨١
٤٧ ـ عبدالملك المعتصم	١٥٠٥
٤٨ ـ السلطان محمد بن عبدالله (ت ١٢٠٤ هـ)	١٥٢٣
٤٩ ـ محمد الخامس (ت ١٣٨٠ هـ)	١٥٤٢
٥٠ ـ محمد بن عبدالكريم الخطابي (ت ١٣٨٣ هـ)	١٥٦٢
فهرس الآيات القرآنية	١٥٨٥
فهرس الأحاديث	١٥٨٨
الفهرس	١٥٩٠